

# أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المعروف

## بنفسه البضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي

طبعة جديدة مصححة منقحة مدققة

تقديم

محمود عبد القادر الأرناؤوط

المجلد الأول

دار طاهر

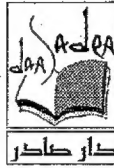
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2001

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر.



تأسست سنة ١٨٦٣

ص.ب ١٠ بيروت ، لبنان

© DAR SADER Publishers  
P.O.B. 10 Beirut, Lebanon

Fax: (961) 4.910270  
e-mail: dsp@darsader.com  
http: www.darsader.com

Anwār al-Tanzīl wa Asrār al-Ta'wīl 1/2  
(Nāṣir al-Dīn al-Bīḍawī)

p. 1184 - s. 17.5x25 cm

ISBN 9953-13-004-3



تَفْسِيرُ الْبَيْضَاوِيِّ

١



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## البيضاوي وكتابه التفسير

بقلم

خادم تراث الأسلاف

محمود عبد القادر الأرناؤوط

مما لا شك أن الإمام البيضاوي يعدُّ في طليعة الأئمة المُفسِّرين الذين عرفهم القرن السابع الهجري فضلاً وعلماً ومكانة وثقة في نفوس الناس، ولا يزال المشتغلون بالعلم عامة وبالتفسير خاصة ينتفعون من تفسيره وينقلون عنه ويعتنون به طباعة وإخراجاً، فمن هو البيضاوي، وأين موقع تفسيره بين كتب المُفسِّرين؟

أولاً: البيضاوي: (1)

هو الإمام القاضي الفقيه المفسِّر أبو الخير أو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الأذربيجاني الشافعي.

ولد في مدينة البيضاء<sup>(2)</sup> بفارس قرب شيراز، وفيها نشأ، وأخذ مبادئ العلم عن علمائها، ورحل في طلب العلم وأخذ عن جمع من العلماء، وكان إماماً، مُبَرِّزاً، نظَّاراً، خَيْراً، صالحاً،

(1) ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى» (157/8 - 158) و «طبقات الشافعية» للإسنوي (283/2 - 284) و «طبقات الشافعية» لابن قاضي شعبة (220/2 - 222) و «تذكرة النبي» (104/1) و «البداية والنهاية» (309/13) و «بغية الرعاة» (50/2 - 51) و «شذرات الذهب» بتحقيقي وإشراف والدي وأستاذي المحدث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، طبع دار ابن كثير بدمشق، و «الأعلام» (110/4) و «معجم المؤلفين» (266/2) طبع مؤسسة الرسالة، و «معجم المفسِّرين» لنويهض (318/1).

(2) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (529/1): وإنما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبيِّن من بعد ويرى بياضها، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها في فتح إصطخر.

متعبداً، وولي قضاء شيراز، وكان عالم أذربيجان في عصره، ولُقِّبَ بناصر الدين، وانصرف إلى التأليف والتدريس والإفادة.

أقوال العلماء فيه :

قال الإسني: كان عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً، خيراً، صنف التصانيف في أنواع العلوم.  
وقال ابن قاضي شهبة: عالم أذربيجان وشيخ تلك الناحية.

وقال ابن حبيب: تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيز لفظه، المحرّر، لكفاه، ولي أمر القضاء بشيراز، وقابل الأحكام الشرعية بالاحترام والاحتراز.

وقال السيوطي: كان إماماً علامة عارفاً بالفقه والتفسير والأصول والعربية والمنطق، نظاراً صالحاً متعبداً شافعيّاً.

أهم مصنفاته :

- 1 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: وهو تفسيره، ويعرف اختصاراً بـ «تفسير البيضاوي»، وسوف يرد الكلام عليه في موطن آخر من هذا التقديم.
- 2 - الإيضاح في أصول الدين: ذكره ابن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية».
- 3 - تهذيب الأخلاق: وهو في التصوف، ذكره ابن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية».
- 4 - شرح التنبيه: ويقع في أربع مجلدات، ذكره ابن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية».
- 5 - شرح الكافية: وهو في النحو، ذكره ابن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية».
- 6 - شرح مصابيح السنة للبقوي: وهو في الحديث، وله نسخة خطية في مكتبة حاجي بشير آغا<sup>(1)</sup>، ورقمها فيها (1/150) كتبت سنة 693 هـ.
- 7 - طوابع الأنوار من مطالع الأنظار: <sup>(2)</sup> قال السبكي: وهو أجل مختصر ألف في علم الكلام، ومنه نسخة خطية في مكتبة كوبريلي في إستانبول، وتقع (114) ورقة ورقمها فيها (845).
- 8 - الغاية القصوى في دراية الفتوى: وهو في الفقه على مذهب الإمام الشافعي، اختصر فيه

(1) تنظر «مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا» ص (337) للأستاذ الدكتور رمضان ششن، تقديم الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي.

(2) ينظر بشأنه «كشف الظنون» (2/1116) و «فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي» (1/473 - 414) و «معجم المطبوعات العربية» لسركيس (1/618).

«الوسيط» للإمام الغزالي وهو في فروع المذهب، وهو أحد الكتب الخمسة المتداولة بين الشافعية، وله نسخة خطية في مكتبة ديار بكر بتركيا رقم (2264) وتقع في (209) ورقات<sup>(1)</sup>.

- 9 - مختصر الكشاف للزمخشري: وهو في التفسير، ذكره ابن قاضي شهبة في «طبقات الشافعية».
- 10 - منهاج الوصول إلى علم الأصول: ذكره الزركلي في «الأعلام» وكحالة في «معجم المؤلفين» وقد طبع في مطبعة كردستان بمصر أول مرة سنة (1326 هـ = 1908 م) ثم طبع في مصر أيضاً سنة (1390 هـ = 1970 م)<sup>(2)</sup>.

وفاته:

توفي بمدينة تبريز - وتقع الآن في الشمال الغربي من إيران - واختُلف في سنة وفاته، ف قيل سنة (685 هـ)، وقيل سنة (691 هـ).

ثانياً: كتابه التفسير: (3)

واسمه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، ويعرف اختصاراً بـ «تفسير البيضاوي» وهو تفسير عظيم الشأن غني عن البيان، لما اكتسبه من الثقة على مر الأيام، لخص فيه من تفسير «الكشاف» للزمخشري ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن «التفسير الكبير» للرازي ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن غيرهما من التفاسير ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضم إليه ما رواه زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة.

طبقات «تفسير البيضاوي» السابقة:

لقد طبع «تفسير البيضاوي» طبقات عديدة في بلدان مختلفة عربية وآسيوية وأوربية، وإليك ما وقعنا على ذكره منها:

- 1 - الطبعة الأولى في ألمانيا سنة (1844) م باعتناء المستشرق فليشر الألماني، وتقع في مجلدين، ثم قام المستشرق الألماني ويناندفل بوضع فهرس لها طبعت في ليبسك سنة 1878 م.
- 2 - ثم طبع في مطبعة بولاق بمصر سنة (1263) هـ وتقع في مجلدين.
- 3 - ثم طبع في مصر أيضاً سنة (1282) هـ و(1303) هـ وبهامشه حاشية أبي الفضل الكازروني.

(1) تنظر «مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا» ص (337 - 338).

(2) ينظر «ذخائر التراث العربي الإسلامي» للأستاذ عبد الجبار عبد الرحمن (1/403).

(3) وقد أفدت في الكتابة عنه من المصادر والمراجع الآتية: «كشف الظنون» لحاجي خليفة و «التفسير والمفسرون» للدكتور محمد حسين الذهبي، و «معجم المفسرين» للأستاذ عادل نويهض، ومن مصادر ترجمته.

- 4 - ثم في مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة سنة 1344 هـ .  
 5 - ثم في الآستانة سنة 1285 هـ و 1296 هـ و 1305 هـ و 1313 هـ .  
 6 - وطبع أيضاً في لكنو وبمباي في الهند .  
 7 - وطبع أيضاً في طهران بإيران .

### هذه الطبعة من «تفسير البضاوي» :

لما صحَّ العزم من السادة أصحاب دار صادر الشهيرة ببيروت على إخراج طبعة جديدة من هذا التفسير، وقع اختيارهم على الطبعة الصادرة منه عن مطبعة بولاق بمصر، فاتخذوها أصلاً في إخراج هذه الطبعة، نظراً لما تتمتع به الكتب التي صدرت عن تلك المطبعة العريقة من الثقة والاطمئنان في نفوس قراء العربية بصورة عامة، وفي نفوس المشتغلين بالعلم بصورة خاصة، وكلفوا بعض المصححين الأكفيا الإشراف على تصحيح تجارب الطبع الجديدة بعد تنضيد الكتاب بحروف جيدة في شكلها مريحة للقراء في إخراجها، وحرصوا على الإتيان في إخراج الكتاب بالدقة المعهودة في مطبوعاتهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ثم طلبوا مني التقديم للتفسير والتعريف بالمؤلف وبما تم من العمل في إخراج هذه الطبعة الجديدة، فاستجبت لهم رغبة بالثواب من الله تعالى، وأملًا في أن أكتب عنده عزَّ وجلَّ فيمن أسهموا في خدمة كتابه العزيز وما يتصل به ولو بالقدر اليسير، فأرجو الله تعالى أن ينفع بهذه الطبعة المتقنة من هذا «التفسير» وأن تكون خيراً من سابقاتها، وأن يعظم لي ولكل من أسهم في خدمتها الأجر والثوبة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق الشام في الثاني من شهر رمضان لعام 1420 هـ .

خادم تراث الأسلاف

محمود عبد القادر الأرنؤوط

## مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً. فتحدى بأقصر سورة من سورهِ مصارع الخطباء من العرب العرباء فلم يجد به قديراً. وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان. وبلغاء قحطان حتى حسبوا أنهم سُحروا تسحيراً؛ ثم بين للناس ما نُزل إليهم حسبما عنّ لهم من مصالحهم ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب تذكيراً. فكشف لهم قناع الانغلاق عن آيات محكمات، هن أم الكتاب، وأخر متشابهات هن رموز الخطاب، تأويلاً وتفسيراً. وأبرز غوامض الحقائق، ولطائف الدقائق، ليتجلى لهم خفايا الملك، والملكوت، وخبايا قدس الجبروت، ليتفكروا فيها تفكيراً ومهد لهم قواعد الأحكام، وأوصاعها من نصوص الآيات، والماعها ليذهب عنهم الرجس، ويظهرهم تطهيراً. فمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فهو في الدارين حميد وسعيد. ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه يعيش ذميماً، ويصلى سعيراً، فيا واجب الوجود، ويا فائض الجود، ويا غاية كل مقصود صلّ عليه صلاة توازي غناءه، وتجازي عناءه، وعلى من أعانه وقرر تبيانه تقريراً، وأفض علينا من بركاتهم، واسلك بنا مسالك كراماتهم، وسلم عليهم وعلينا تسليماً كثيراً.

(وبعد) فإن أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومنازاً: علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها ومبنى قواعد الشرع وأساسها لا يليق لتعاطيه، والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها. ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين. وينطوي على نكت بارعة ولطائف رائعة استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأمائل المحققين. ويُعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعترين إلا أن قصور بضاعتي يشبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإنيان بما قصدته ناوياً أن اسميه بعد أن أتممه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل. فها أنا الآن أشرع وبحسن توفيقه أقول، وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول.







[مكية، وآياتها سبع آيات]

وتسمى أم القرآن، لأنها مفتتحة ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه، ولذلك تسمى أساساً. أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتعبد بأمره ونهيهِ وبيان وعده ووعيده. أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء. وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك. وسورة الحمد والشكر والدعاء. وتعليم المسألة لاشتمالها عليها والصلاة لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها. والشفافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام: «هي شفاء من كل داء». و «السبع المثاني» لأنها سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عد التسمية دون «أنعمت عليهم»، ومنهم من عكس، وتثنى في الصلاة، أو الإنزال إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، وبالمدينة حين حولت القبلة، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني»، وهو مكي بالنص.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (1)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من الفاتحة، ومن كل سورة، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك رحمه الله تعالى والشافعي. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك والأوزاعي، ولم ينص أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيه بشيء فظن أنها ليست من السورة عنده. وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. ولنا أحاديث كثيرة منها: ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم». وقول أم سلمة رضي الله عنها «قرأ رسول الله ﷺ الفاتحة وعد «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين» آية ومن أجلهما اختلف في أنها آية برأسها أم بما بعدها، والإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالى، والوفاق على إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن حتى لم تكتب آمين. والباء متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله اقرأ لأن الذي يتلوه مقروء. وكذلك يضم كل فاعل ما يجعل التسمية مبدأ له، وذلك أولى من أن يضم أبداً لعدم ما يطابقه ويدل عليه. أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه، وتقديم المعمول ههنا أوقع كما في قوله: «بسم الله مجراها» وقوله: «إياك نعبد» لأنه أهم وأدل على الاختصاص، وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مقدم على القراءة، كيف لا وقد جعل آله لها من حيث أن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتى»، وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله تعالى اقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مقول على السنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه، ويحمد على نعمه، ويسأل من فضله، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح، لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر، كما كسرت لام الأمر ولام الإضافة داخلية على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء، والاسم عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لكثرة الاستعمال، وبنيت أوائلها على السكون، وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل، لأن من

دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن. ويشهد له تصرفه على أسماء وأسامي وسمى وسميت ومجيء سمي كهدي لغة فيه قال:

والله أسماك سميُّ مُباركا      أثرك الله بهِ إِيَّاركا

والقلب بعيد غير مطرد، واشتقاقه من السمو لأنه رفعة للمسمى وشعار له. ومن السمة عند الكوفيين، وأصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقول إعلاله. ورد بأن الهمزة لم تعهد داخلية على ما حذف صدره في كلامهم، ومن لغاته سم وسم قال:

يُسَمُّ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سُمُّهُ

والاسم إن أريد به اللفظ فغير المسمى، لأنه يتألف من أصوات متقطعة غير قارة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدد تارة ويتحد أخرى. والمسمى لا يكون كذلك، وإن أريد به ذات الشيء فهو المسمى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ المراد به اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب. أو الاسم فيه مقحم كما في قول الشاعر:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وإن أريد به الصفة، كما هو رأي الشيخ أبي الحسن الأشعري، انقسم انقسام الصفة عنده: إلى ما هو نفس المسمى، وإلى ما هو غيره، وإلى ما ليس هو ولا غيره. وإنما قال بسم الله ولم يقل بالله، لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه. أو للفرق بين اليمين واليمين. ولم تكتب الألف على ما هو وضع الخط لكثرة الاستعمال وطولت الباء عوضاً عنها. والله أصله إله، فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام ولذلك قيل: يا الله، بالقطع إلا أنه مختص بالمعبود بالحق. والإله في الأصل لكل معبود، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أله ألهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد، ومنه تأله واستأله، وقيل من أله إذا تحير لأن العقول تتحير في معرفته. أو من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، لأن القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته. أو من أله إذا فزع من أمر نزل عليه، وألهة غيره أجاره إذ العائد يفرغ إليه وهو يجيره حقيقة أو بزعمه. أو من أله الفصل إذا ولع بأمه، إذ العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد. أو من وله إذا تحير وتخطب عقله، وكان أصله ولاه فقلبت الواو همزة لاستئصال الكسرة عليها استئصال الضمة في وجوه، فقيل إله كإعاء وإشاح، ويرده الجمع على آلهة دون أولهة. وقيل أصله لاه مصدر لاه يليه ليها ولاها، إذا احتجب وارتفع لأنه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع على كل شيء وعما لا يليق به ويشهد له قول الشاعر:

كِحْلَفَةٍ مِنْ أَبِي رِيَّاحٍ      يُشْهِدُهَا لَاهَهُ الْكِتَابُ

وقيل علم لذاته المخصوصة لأنه بوصف ولا يوصف به، ولأنه لا بد له من اسم تجري عليه صفاته ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه، ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إله إلا الله، توحيداً مثل: لا إله إلا الرحمن، فإنه لا يمنع الشركة، والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعلم مثل: الثريا والصعق أجرى مجراه في إجراء الأوصاف عليه، وامتناع الوصف به، وعدم تطرق احتمال الشركة إليه، لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو غير غير معقول للبشر، فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ معنى صحيحاً، ولأن معنى الاشتقاق هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب، وهو حاصل بينه وبين الأصول المذكورة، وقيل أصله لاها بالسريانية فحذف الألف

الأخيرة، وإدخال اللام عليه، وتفخيم لأمه إذا انفتح ما قبله أو انضم سنة، وقيل مطلقاً، وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة، ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء لضرورة الشعر:

أَلَا بِسَارِكِ اللَّهِ فِي سُهَيْلٍ إِذَا مَا اللَّهُ بَارِكٌ فِي الرُّجَالِ

و﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان بنيا للمبالغة من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة في اللغة: رقة القلب، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِمُ لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي تكون انفعالات. و﴿الرحمن﴾ أبلغ من ﴿الرحيم﴾، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قَطَعَ وَقَطَعَ وَكَبَّرَ وَكَبَّرَ، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، لأن النعم الأخروية كلها جسام، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة، وإنما قدّم والقياس يقتضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى، لتقدم رحمة الدنيا، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، وذلك لا يصدق على غيره لأن من عداه فهو مستعيب بلطفه وإنعامه يريد به جزيل ثواب أو جميل ثناء أو مزيج رقة الجنسية أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك لأن ذات النعم ووجودها، والقدرة على إيصالها، والداعية الباعثة عليه، والتمكن من الانتفاع بها، والقوى التي بها يحصل الانتفاع، إلى غير ذلك من خلقه لا يقدر عليها أحد غيره. أو لأن الرحمن لما دل على جلال النعم وأوصلها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها، فيكون كالتممة والرديف له. أو للمحافظة على رؤوس الآي.

والأظهر أنه غير مصروف وإن حظر اختصاصه بالله تعالى أن يكون له مؤنث على فعلى أو فعلانة إلحاقاً له بما هو الغالب في بابهِ. وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجامع الأمور، هو المعبود الحقيقي الذي هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها، جليلها وحقيقها، فيتوجه بشرُّه إلى جناب القدس، ويتمسك بحبل التوفيق، ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (2)

﴿الحمد لله﴾ الحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، والمدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول حمدت زيداً على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحته. وقيل هما أخوان. والشكر: مقابلة النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً قال:

أَفَادَتْكُمْ النُّعْمَاءُ مِنْ ثَلَاثَةِ يَدَيِّ وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبِ

فهو أعم منهما من وجه، وأخص من آخر ولما كان الحمد من شعب الشكر أشيع للنعمة، وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد، وما في آداب الجوارح من الاحتمال جعل رأس الشكر والعمدة فيه فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد رأس الشكر، وما شكر الله من لم يحمده».

والذم نقيض الحمد والكفران نقيض الشكر. ورفع بالابتداء وخبره لله وأصله النصب وقد قرئ به، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجددته وحدوثه. وهو من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها، والتعريف فيه للجنس ومعناه: الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو؟ أو للاستغراق، إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم. إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه. وقرئ الحمد لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة.

﴿رب العالمين﴾ الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو نعت من ربه ربه فهو رب، كقولك نم ينم فهو نم، ثم سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربّه. ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ والعالم اسم لما يعلم به، كالخاتم والقالب، غلب فيما يعلم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع. وقيل: عني به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث أنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يَعْلَمُ بها الصانع كما يعلم بما أبدعه في العالم الكبير، ولذلك سوى بين النظر فيهما، وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. وقرئ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالنصب على المدح. أو النداء. أو بالفعل الذي دل عليه الحمد، وفيه دليل على أن الممكنات كما هي مفترقة إلى المحدث حال حدوثها فهي مفترقة إلى المبقي حال بقائها.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)﴾

﴿الرحمن الرحيم﴾ كرره للتعليل على ما سنذكره.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4)﴾

﴿مالك يوم الدين﴾ قراءة عاصم والكسائي ويعقوب ويعضده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. وقرأ الباقون: ﴿مَلِكٍ﴾. وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾. ولما فيه من التعظيم. والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك. والمملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك. وقرئ ملك بالتخفيف وملك بلفظ الفعل. ومالكاً بالنصب على المدح أو الحال، ومالك بالرفع منوئاً ومضافاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، وملك مضافاً بالرفع والنصب. ويوم الدين يوم الجزاء ومنه «كما تدين تدان» وبيت الحماسة:

وَلَمْ يَتَّقِ سِوَى الْعَدَا      لِإِنِّ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا

أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له مجرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ومعناه، ملك الأمور يوم الدين على طريقة ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾. أوله الملك في هذا اليوم، على وجه الاستمرار لتكون الإضافة حقيقية معدة لوقوعه صفة للمعرفة، وقيل: ﴿الدين﴾ الشريعة، وقيل: الطاعة. والمعنى يوم جزاء الدين، وتخصيص اليوم بالإضافة: إما لتعظيمه، أو لتفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجداً للعالمين رباً لهم منعماً عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها، مالكاً لأمرهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللاشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يحمد فضلاً عن أن يعبد، فيكون دليلاً على ما بعده، فالوصف الأول لبيان ما هو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية. والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه، ليس يصدر منه لإيجاب بالذات أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد. والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، وتضمنين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)﴾

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر

الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقى من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً.

اللهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر. ومن عادة العرب التفتن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُشِّقْنَا﴾ وقول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِ      وَنَامَ الْخَلِيٌّ وَلَمْ تَرْقُدِ  
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ      كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ  
وَذَلِكَ مَنْ نَبَأَ جَاءَنِي      وَخَبَّرْتَهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ

وإيا ضمير منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أَنْتَ والكاف في أَرَأَيْتَكَ. وقال الخليل: إيا مضاف إليها، واحتج بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب، وهو شاذ لا يعتمد عليه. وقيل: هي الضمائر، وإيا عمدة فإنها لما فصلت عن العوامل تعذر النطق بها مفردة فضم إليها إيا لتستقل به، وقيل: الضمير هو المجموع. وقرئ «أياك» بفتح الهمزة و«هياك» بقلبيها هاء.

والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه طريق معبد أي مذلل، وثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى.

والاستعانة: طلب المعونة وهي: إما ضرورية، أو غير ضرورية والضرورية ما لا يتأتى الفعل دونه كافتقار الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها وعند استجماعها يوصف الرجل بالاستعانة ويصح أن يكلف بالفعل. وغير الضرورية تحصيل ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة في السفر للقادر على المشي، أو يقرب الفاعل إلى الفعل ويحثه عليه، وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف والمراد طلب المعونة في المهمات كلها، أو في أداء العبادات، والضمير المستكن في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة، وحاضري صلاة الجماعة. أو له ولسائر الموحدين. أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويجاب إليها ولهذا شرعت الجماعة وقدم المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (معناه نعبذك ولا نعبد غيرك وتقديم ما هو مقدم في الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة سنية بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها ملاحظة له ومناسبة إليه، ولذلك فضل ما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. على ما حكاه عن كليمة حين قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. وكرر الضمير للتخصيص على أنه المستعان به لا غير، وقدمت العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي، ويعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة.

وأقول: لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه، فعقبه بقوله: ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليدل على أن العبادة أيضاً مما لا يتم ولا يستتب له إلا بمعونة منه وتوفيق، وقيل:

الواو للحال والمعنى نعبذك مستعينين بك. وقرأء بكسر النون فيهما وهي لغة بني تميم فإنهم يكسرون حروف المضارعة سوى الياء إذا لم ينضم ما بعدها.

### ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6)﴾

﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أعينكم فقالوا ﴿أهدنا﴾. أو افراد لما هو المقصود الأعظم. والهداية دلالة بلطف ولذلك تستعمل في الخير وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وارد على التهكم. ومنه الهداية وهوادي الوحش لمقدماتها، والفعل منه هدى، وأصله أن يعدى باللام، أو إلى، فعومل معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ وهداية الله تعالى تتنوع أنواعاً لا يحصيها عد كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصالح والفساد وإليه أشار حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا تَمْوُدُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عني بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

الرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريهـم الأشياء كما هي بالوحي، أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء وإياه عني بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدى، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه. فإذا قاله العارف بالله الواصل عني به أرشدنا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وتميط غواشي أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك. والأمر والدعاء يتشاركان لفظاً ومعنى ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل، وقيل: بالرتبة.

والسراط: من سراط الطعام إذا ابتلعه فكأنه يسراط السابلة، ولذلك سمي لقماً لأنه يلتقمهم. و﴿الصراط﴾ من قلب السين صاداً ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يشم الصاد صوت الزاي ليكون أقرب إلى المبدل منه. وقرأ ابن كثير برواية قبل عته، ورويس عن يعقوب بالأصل، وحزمة بالإشمام، والباقون بالصاد وهو لغة قريش، والثابت في الإمام وجمعه سُرُط ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث.

و﴿المستقيم﴾ المستوي والمراد به طريق الحق، وقيل: هو ملة الإسلام.

### ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الأول بدل الكل، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته التوكيد والتنقيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على أكد وجه وأبلغه لأنه جعل كالتفسير والبيان له فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين. وقيل: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ الأنبياء، وقيل: النبي ﷺ وأصحابه وقيل: أصحاب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام قبل التحريف والنسخ. وقرأء: ﴿صراط من أنعمت عليهم﴾ والإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللين، ونعم الله وإن كانت لا تحصى كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تنحصر في جنسين: دنيوي وآخروي.

والأول قسمان: وهبي وكسبي والوهبي قسمان: روحاني كنفع الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من

القوى كالفهم والفكر والنظر، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء والكسبي تركية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والنال.....

والثاني: أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه ويؤث في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الأبدين. والمراد هو القسم الأخير وما يكون وصلة إلى نيله من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ بدل من ﴿الذين﴾ على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال. أو صفة له مبينة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال وذلك إنما يصح بأحد تأويلين، إجراء الموصول مجرى النكرة إذا لم يقصد به معهود كالمحلي في قوله:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّيْمِ يَثْبُتِي

وقولهم: إني لأمر على الرجل مثلك فيكرمني. أو جعل غير معرفة بالإضافة لأنه أضيف إلى ماله ضد واحد وهو المنعم عليهم، فيتعين تعين الحركة من غير السكون.

وعن ابن كثير نصبه على الحال من الضمير المجرور والعامل أنعمت. أو بإضمار أعني. أو بالاستثناء إن فسر النعم بما يعم القبيلين، والغضب: ثوران النفس إرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية على ما مر، وعليهم في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل بخلاف الأول، ولا مزيدة لتأكيد ما في غير من معنى النفي، فكأنه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب، كما جاز أنا زيدا لا ضارب، وإن امتنع أنا زيدا مثل ضارب، وقرئ ﴿وغير الضالين﴾ والضلال: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير.

قيل: ﴿المغضوب عليهم﴾ اليهود لقوله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾. و﴿الضالين﴾ النصراني لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا﴾. وقد روي مرفوعاً، ويتجه أن يقال: المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله، لأن المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته والخير للعمل به، وكان المقابل له من اختل إحدى قوتيهِ العاقلة والعاملة. والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمداً ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾. والمخل بالعقل جاهل ضال لقوله: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾. وقرئ: ولا ﴿الضالين﴾ بالهمزة على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين.

- آمين - اسم الفعل الذي هو استجب. وعن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ عن معناه فقال: «رب افعل» بني على الفتح كأين لالتقاء الساكنين، وجاء مد ألفه وقصرها قال:

وَرَحِمُ اللَّهِ عَبْدًا قَالَ آمِينَ قَالَ: آمِينَ فَرَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بَعْدًا

وليس من القرآن وفاقاً، لكن يسن ختم السورة به، لقوله عليه الصلاة والسلام «علمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة وقال إنه كالختم على الكتاب». وفي معناه قول علي رضي الله عنه: آمين خاتم رب العالمين، ختم به دعاء عبده. بقوله الإمام ويجهز به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته».

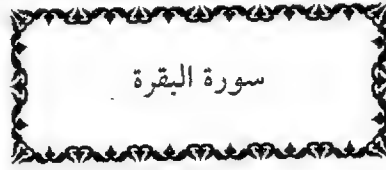
وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يقوله، والمشهور عنه أنه يخفيه كما رواه عبد الله بن مغفل وأنس، والمأموم يؤمن معه لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قال الإمام ﴿ولا الضالين﴾ فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال لأبيي «ألا أخبرك بسورة لم يُنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها». قال: قلت بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ أتاه ملك فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته».

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة».





[مدنية، وآياتها ست وثمانون ومائتا آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَدَّ (1)﴾

﴿الم﴾ وسائر الألفاظ التي يتجهى بها، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم للدخولها في حد الاسم، واعتوار ما يخص به من التعريف والتكثير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي. وما روي ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف» فالمراد به غير المعنى الذي اصطلاح عليه، فإن تخصيصه به عرف مجدد بل المعنى اللغوي، ولعله سماه باسم مدلوله.

ولما كانت مسمياتها حروفاً وحداناً وهي مركبة، صدرت بها لتكون تأديتها بالمسمى أول ما يقرع السمع، واستعيرت الهمزة مكان الألف لتعذر الابتداء بها وهي ما لم تلها العوامل موقوفة خالية عن الإعراب لفقد موجب ومقتضيه، لكنها قابلة إياه ومعرضة له إذا لم تناسب مبنى الأصل ولذلك قيل: ﴿صَ﴾ و ﴿قَ﴾ مجموعاً فيهما بين الساكنين ولم تعامل معاملة أين وهؤلاء. ثم إن مسمياتها لما كانت عنصر الكلام وبسائطه التي يتركب منها. افتتحت السورة بطائفة منها إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن وتنبهياً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم بقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يدانيه، وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس، فأما من الأمي الذي لم يخالط الكتاب فمستبعد مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة سيما وقد راعى في ذلك ما يعجز عنه الأديب الأريب الفائق في فنه، وهو أنه أورد في هذه الفواتح أربعة عشر اسماً هي نصف أسامي حروف المعجم، إن لم يعد فيها الألف حرفاً برأسها في تسع وعشرين سورة بعددها إذا عدَّ فيها الألف الأصلية مشتملة على أنصاف أنواعها، فذكر من المهموسة وهي ما يضعف الاعتماد على مخرجه ويجمعها (ستشحك خصفه) نصفها الحاء والكاف والهاء والصاد والسين والكاف، ومن البواقي المجهورة نصفها يجمعها (لن يقطع أمر). ومن الشديدة الثمانية المجموعة في (أجذت طبقك) أربعة يجمعها (أقطك). ومن البواقي الرخوة عشرة يجمعها «خمس» على نصره، ومن المطبقة التي هي الصاد والضاد والطاء والظاء نصفها، ومن البواقي المنفتحة نصفها، ومن القلقله وهي: حروف تضطرب عند خروجها ويجمعها (قد طبح) نصفها الأقل لقلتها، ومن الليتين الياء لأنها أقل ثقلًا، ومن المستعلية وهي: التي يتصعد الصوت بها في الحنك الأعلى، وهي سبعة القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والطاء نصفها الأقل، ومن البواقي المنخفضة نصفها، ومن حروف البدل وهي أحد عشر على ما ذكره سيوييه، واختاره ابن جني ويجمعها (أحد طويت) منها الستة الشائعة المشهورة التي يجمعها (أهطمين) وقد زاد بعضهم سبعة أخرى وهي اللام في (أصبال) والصاد والزاي في (صراط وزراط) والفاء في (أجذاف) والعين في (أعن) والثاء في (ثروغ الدلو) والباء في (باسمك) حتى صارت ثمانية عشر وقد ذكر منها تسعة الستة المذكورة واللام والصاد والعين. ومما يدغم في مثله ولا يدغم في المقارب وهي خمسة عشر: الهمزة

والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزاي والواو نصفها الأقل. ومما يدغم فيهما وهي الثلاثة عشر الباقية نصفها الأكثر: الحاء والقاف والراء والسين واللام والنون لما في الإدغام من الخفة والفصاحة، ومن الأربعة التي لا تدغم فيما يقارنها ويدغم فيها مقارنها وهي: الميم والزاي والسين والفاء نصفها.

ولما كانت الحروف الذلقية التي يعتمد عليها بذلف اللسان وهي ستة يجمعها (رب منفل) والحلقية التي هي الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة، كثيرة الوقوع في الكلام ذكر ثلثيهما. ولما كانت أبنية المزيد لا تتجاوز عن السباعية ذكر من الزوائد العشرة التي يجمعها (اليوم تنساه) سبعة أحرف منها تنبيهاً على ذلك، ولو استقرت الكلم وتراكيبها وجدت الحروف المتروكة من كل جنس مكثورة بالمذكورة ثم إنه ذكرها مفردة وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، إيداناً بأن المتحدى به مركب من كلماتهم التي أصولها كلمات مفردة، ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة، وذكر ثلاث مفردات في ثلاث سور لأنها توجد في الأقسام الثلاثة: الاسم والفعل والحرف وأربع ثنائيات لأنها تكون في الحرف بلا حذف (كبل)، وفي الفعل بحذف ثقل كقل. وفي الاسم بغير حذف كمن، وبه كدم في تسع سور لوقوعها في كل واحد من الأقسام الثلاثة على ثلاثة أوجه: ففي الأسماء من وإذ وذو. وفي الأفعال قل وبع وخف. وفي الحروف من وإن ومذ على لغة من جربها. وثلاث ثلاثيات لمجيتها في الأقسام الثلاثة في ثلاث عشرة سورة تنبيهاً على أن أصول الأبنية المستعملة ثلاثة عشر، عشرة منها للأسماء، وثلاثة للأفعال، ورباعيتين وخماسيتين تنبيهاً على أن لكل منهما أصلاً: كجعفر وسفرجل، وملحقاً: كقردد وجحنفل، ولعلها فرقت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكرير التنبيه والمبالغة فيه.

والمعنى أن هذا المتحدى به مؤلف من جنس هذه الحروف. أو المؤلف منها، كذا وقيل: هي أسماء للسور، وعليه إطباق الأكثر. سميت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها، واستدل عليه بأنها لو لم تكن مفهومة كان الخطاب بها كالخطاب بالمهملة والتكلم بالزنجي مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدى. ولما أمكن التحدي به وإن كانت مفهومة، فإما أن يراد بها السور التي هي مستهلها على أنها ألقابها، أو غير ذلك. والثاني باطل لأنه؛ إما أن يكون المراد ما وضعت له في لغة العرب فظاهر أنه ليس كذلك، أو غيره وهو باطل لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ فلا يحمل على ما ليس في لغتهم.

لا يقال: لِمَ لا يجوز أن تكون مزيدة للتنبيه؟ والدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر؟ كما قاله قطرب، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتضرت عليها اقتصار الشاعر في قوله:

قُلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَافٌ

كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الألف آلاء الله، واللام لفظه، والميم ملكه. وعنه أن الر وحم وّ مجموعها الرحمن. وعنه أن الم معناه: أنا الله أعلم ونحو ذلك في سائر الفواتح. وعنه أن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد أي: القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام، أو إلى مدد أقوام وآجال بحساب الجمل كما قال أبو العالية متمسكاً بما روى: «أنه عليه الصلاة والسلام لما أتاه اليهود نلا عليهم ألم البقرة. فحسبوه وقالوا: كيف ندخل في دين مدته إحدى وسبعون سنة، فتبسم رسول الله ﷺ فقالوا: فهل غيره، فقال: المص والر والمر، فقالوا: خلطت علينا فلا ندري بأيها نأخذ». فإن تلاوته إياها بهذا الترتيب عليهم وتقريرهم على استنباطهم دليل على ذلك، وهذه

الدلالة وإن لم تكن عربية لكنها لا شهرها فيما بين الناس حتى العرب تلحقها بالمعربات كالمشكاة والسجيل والقسطاس، أو دلالة على الحروف المبسوطة مقسماً بها لشرفها من حيث إنها بسائط أسماء الله تعالى ومادة خطابه.

هذا وإن القول بأنها أسماء السور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكره عندهم ويؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمى، ويستدعي تأخر الجزء عن الكل من حيث إن الاسم متأخر عن المسمى بالرتبة، لأننا نقول: إن هذه الألفاظ لم تعهد مزيدة للتنبيه والدلالة على الانقطاع والاستئناف يلزمها وغيرها من حيث إنها فواتح السور، ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في حيزها ولم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم، أما الشعر فشاذ، وأما قول ابن عباس، فتنبه على أن هذه الحروف متبع الأسماء ومبادئ الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة، ألا ترى أنه عدّ كل حرف من كلمات متبينة لا تفسير، وتخصيص بهذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصص لفظاً ومعنى ولا بحساب الجمل فتلحق بالمعربات، والحديث لا دليل فيه، لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسم تعجباً من جهلهم، وجعلها مقسماً بها وإن كان غير ممتنع لكنه يحوج إلى إضمار أشياء لا دليل عليها، والتسمية بثلاثة أسماء إنما تتمتع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً على طريقة بعلبك، فأما إذا نثرت نثر أسماء العدد فلا، وناهيك بتسوية سيويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم، والمسمى هو مجموع السورة والاسم جزؤها فلا اتحاد، وهو مقدم من حيث ذاته مؤخر باعتبار كونه اسماً، فلا دور لاختلاف الجهتين. والوجه الأول أقرب إلى التحقيق وأوفق للطائفت التزليل وأسلم من لزوم النقل ووقوع الاشتراك في الأعلام من واضع واحد فإنه يعود بالنقض على ما هو مقصود بالعلمية، وقيل: إنها أسماء القرآن ولذلك أخبر عنها بالكتاب والقرآن.

وقيل: إنها أسماء الله تعالى ويدل عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول: يا كهيعص، ويا حم عسق، ولعله أراد يا منزلهما.

وقيل الألف: من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم: من الشفة وهو آخرها جمع بينها إيماء إلى أن العبد ينبغي أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى.

وقيل: إنه سر استأثره الله بعلمه وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلمهم أرادوا أنها أسرار بين الله تعالى ورسوله ورموز لم يقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد. فإن جعلتها أسماء الله تعالى، أو القرآن، أو السور كان لها حظ من الإعراب إما الرفع على الابتداء، أو الخبر، أو النصب بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن بالنصب أو غيره كما ذكر، أو الجر على إضمار حرف القسم، ويتأتى الإعراب لفظاً والحكاية فيما كانت مفردة أو موازنة لمفرد كحم فإنها كهابيل، والحكاية ليست إلا فيما عدا ذلك، وسيعود إليك ذكره مفصلاً إن شاء الله تعالى، وإن أبقيتها على معانيها فإن قدرت بالمؤلف من هذه الحروف كان في حيز الرفع بالابتداء أو الخبر على ما مر، وإن جعلتها مقسماً بها يكون كل كلمة منها منصوباً أو مجروراً على اللغتين في الله لأفعلن، وتكون جملة قسمية بالفعل المقدر له، وإن جعلتها أبعاض كلمات أو أصواتاً منزلة منزلة حروف التنبيه لم يكن لها محل من الإعراب كالجمل المبتدأة والمفردات المعدودة ويوقف عليها وقف التمام إذا قدرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها، وليس شيء منها آية عند غير الكوفيين. وأما عندهم فـ ﴿الم﴾ في مواضعها، و ﴿المص﴾ و ﴿كهيعص﴾ و ﴿طه﴾ و ﴿طسم﴾ و ﴿طس﴾ و ﴿يس﴾ و ﴿حم﴾ آية، و ﴿حم﴾ و ﴿عسق﴾ آيتان، والبواقي ليست بآيات وهذا توقيف لا مجال للقياس فيه.

## ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)﴾

﴿ذلك الكتاب﴾ ذلك إشارة إلى ﴿الم﴾ إن أول بالمؤلف من هذه الحروف أو فسر بالسورة أو القرآن فإنه لما تكلم به وتقضى، أو وصل من المرسل إلى المرسل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يشار به إلى البعيد وتذكيره، متى أريد بـ ﴿الم﴾ السورة لتذكير الكتاب فإنه خبره أو صفته الذي هو هو، أو إلى الكتاب فيكون صفته والمراد به الكتاب الموعود إنزاله بنحو قوله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً﴾. أو في الكتب المتقدمة. وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة.

وقيل فعال بمعنى المفعول كاللباس، ثم أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يكتب لأنه مما يكتب. وأصل الكتب الجمع ومنه الكتيبة.

﴿لا ريب فيه﴾ معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز، لا أن أحداً لا يرتاب فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾. الآية فإنه ما أبعد عنهم الريب بل عرفهم الطريق المُرَّيح له، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجم من نجومه ويبدلوا فيها غاية جهدهم حتى إذا عجزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

وقيل: معناه لا ريب فيه للمتقين. وهدى حال من الضمير المجرور، والعامل فيه الظرف الواقع صفة للمنفي. والريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها، سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة، ومنه ريب الزمان لنوائبه.

﴿هدى للمتقين﴾ يهديهم إلى الحق، والهدى في الأصل كالسرى والتقى ومعناه الدلالة.

وقيل: الدلالة الموصلة إلى البغية لأنه جعل مقابل الضلالة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مبين﴾ ولأنه لا يقال مهدي إلا لمن اهتدى إلى المطلوب. واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمتتبعون بنصبه، وإن كانت دلالة عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هدى للناس﴾. أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات والنظر في المعجزات، وتعرف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً ما لم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿ونُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾. ولا يقدر ما فيه من المجمل والمتشابه في كونه هدى لما لم ينفك عن بيان يعين المراد منه.

والمتقي اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية: فرط الصيانة. وهو في عرف الشرع اسم لمن بقي نفسه مما يضره في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾.

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾.

الثالثة: أن يتزهد عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشراشه وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾ وقد فسر قوله: ﴿هدى للمتقين﴾ ههنا على الأوجه الثلاثة.

واعلم أن الآية تحتمل أوجهاً من الإعراب: أن يكون ﴿الم﴾ مبتدأ على أنه اسم للقرآن. أو السورة. أو مقدر بالمؤلف منها، وذلك خبره وإن كان أخص من المؤلف مطلقاً، والأصل أن الأخص لا يحمل على

الأعم لأن المراد به المؤلف الكامل في تأليفه البالغ أقصى درجات الفصاحة ومراتب البلاغة والكتاب صفة ذلك.

وأن يكون ﴿الم﴾ خبر مبتدأ محذوف وذلك خبراً ثانياً. أو بدلاً والكتاب صفته، و ﴿لا ريب﴾ في المشهورة مبني لتضمنه معنى من منصوب المحل على أنه اسم لا النافية للجنس العاملة عمل إن، لأنها تقتضيها ولازمة للأسماء لزومها. وفي قراءة أبي الشعثاء مرفوع بلا التي بمعنى ليس وفيه خبره ولم يقدم كما قدم في قوله تعالى: ﴿لا فيها عَوَلٌ﴾ لأنه لم يقصد تخصيص نفي الريب به من بين سائر الكتب كما قصد ثمة، أو صفته وللمتقين خبره. وهدي نصب على الحال، أو الخبر محذوف كما في ﴿لا ضير﴾. فلذلك وقف على ﴿لا ريب﴾، على أن فيه خبر هدى قدم عليه لتكثيره والتقدير: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك مبتدأ و ﴿الكتاب﴾ خبره على معنى: أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، أو صفته وما بعده خبره والجملة خبر ﴿الم﴾.

والأولى أن يقال إنها جمل متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يدخل العاطف بينهما. ف ﴿الم﴾، جملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدي، و ﴿لا ريب فيه﴾، جملة ثالثة تشهد على كماله بأن الكتاب المنعوت بغاية الكمال إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين. و ﴿هدى للمتقين﴾، بما يقدر له مبتدأ جملة رابعة تؤكد كونه حقاً لا يحوم الشك حوله بأنه ﴿هدى للمتقين﴾، أو تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول، وبيانه أنه لما نبه أولاً على إعجاز المتحدى به من حيث إنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته، استنتج منه أنه الكتاب البالغ حد الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبه الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة، وما كان كذلك كان لا محالة ﴿هدى للمتقين﴾، وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، وفي الثانية فخامة التعريف، وفي الثالثة تأخير الظرف حذراً عن إبهام الباطل، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة وإيراده منكرراً للتعظيم وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية تسمية المشارف للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً لشأنه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (3)

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة مقيدة له إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية، والتصوير على التصقيل. أو موضحة إن فسر بما يعم فعل الحسنات وترك السيئات لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتعبة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قطرة الإسلام». أو مسوقة للمدح بما تضمنه للمتقين. وتخصيص الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهار لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى. أو على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعني أو هم الذين. وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء وخبره أولئك على هدى، فيكون الوقف على المتقين تاماً.

والإيمان في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذ من الأمن، كأن المصدق آمن المصدق التكذيب والمخالفة، وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق من حيث إن الوثائق بالشيء صار ذا أمن منه، ومنه ما أمنت أن أجد صحابة وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب.

وأما في الشرع: فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ كالوحد والنبوة والبعث والجزاء،

ومجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج. فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخل بالإقرار فكافر، ومن أخل بالعمل ففاسق وفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة، والذي يدل على أنه التصديق وحده أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال: ﴿أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾، ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، ﴿وَلَمْ تَوْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَلَمَّا بَدَخَلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصي فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ مع ما فيه من قلة التغير فإنه أقرب إلى الأصل وهو متعين الإرادة في الآية، إذ المعدي بالباء هو التصديق وفاقاً. ثم اختلف في أن مجرد التصديق بالقلب هل هو كاف لأنه المقصود أم لا بد من انضمام الإقرار به للمتمكن منه، ولعل الحق هو الثاني لأنه تعالى ذم المعاند أكثر من ذم الجاهل المقصر، وللمانع أن يجعل الذم للإنكار لا لعدم الإقرار للمتمكن منه.

والغيب مصدر، وصف به للمبالغة كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والعرب تسمي المطمئن من الأرض والخمصة التي تلي الكلية غيباً، أو فيعل خفف كقيل، والمراد به الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقسم نصب عليه دليل: كالصانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله وهو المراد به في هذه الآية، هذا إذا جعلته صلة للإيمان وأوقعته موقع المفعول به. وإن جعلته حالاً على تقدير ملتبسين بالغيب كان بمعنى الغيبة والخفاء. والمعنى أنهم يؤمنون غائبين عنكم لا كالمنافقين الذين ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. أو عن المؤمن به لما روي أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية. وقيل المراد بالغيب: القلب لأنه مستور، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. فالباء على الأول للتعدي. وعلى الثاني للمصاحبة. وعلى الثالث للآلة.

﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها، من أقام العود إذا قومه أو يواظبون عليها، من قامت السوق إذا نفقت وأقمته إذا جعلتها نافقة قال:

أَقَامَتْ غَزَالَةً سُوْقَ الضَّرَابِ      لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ حَوْلًا قَمِيْطًا

فإنه إذا حوِّظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه، أو يتشمرن لأدائها من غير فتور ولا توان، من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه وتجلد، وضده قعد عن الأمر، وتقاعد. أو يؤدونها.

عبر عن الأداء بالإقامة لاشتغالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر لأنه أشهر وإلى الحقيقة أقرب، وأفيد لتضمنه التنبيه على أن التحقيق بالمدح من راعي حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذكر في سياق المدح والمقيمين الصلاة، وفي معرض الذم قول للمصلين، والصلاة فعلة من صلى إذا دعا كالزكاة من زكى، كتبنا بالواو على لفظ المفخم، وإنما سمي الفعل المخصوص بها لاشتغاله على الدعاء.

وقيل: أصل صلى حرك الصلوتين لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده، واشتهار هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتغاله في الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سمي الداعي مصلياً تشبيهاً له في تخشعه بالركاع الساجد.

﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ الرزق في اللغة: الحظ قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ﴾. والعرف خصصه بتخصيص الشيء بالحيوان للانتفاع به وتمكينه منه.

وأما المعتزلة لما استحالوا على الله تعالى أن يمكن من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه، قالوا: الحرام ليس برزق، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا إلى نفسه إيداناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق. فإن إنفاق الحرام لا يوجب المدح، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً﴾. وأصحابنا جعلوا الإسناد للتعظيم والتحريض على الإنفاق، والذم لتحريم ما لم يحرم. واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة. وتمسكوا لشمول الرزق له بقوله ﷺ في حديث عمرو بن قرّة: «لقد رزقك الله طيباً فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله». وبأنه لو لم يكن رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، ولو استقرت الألفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالاً على معنى الذهاب والخروج، والظاهر من هذا الإنفاق صرف المال في سبيل الخير من الفرض والنفل. ومن فسر به بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه، أو خصصه بها لاقتارانه بما هو شقيقها. وتقديم المفعول للاهتمام به وللحفاظ على رؤوس الآي، وإدخال من التعيضية عليه لمنع المكلف عن الإسراف المنهي عنه. ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التي أتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنْ عِلْماً لَا يُقَالُ بِهِ، كَكُنْزٍ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ». وإليه ذهب من قال: ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا أَلَاخِرَةَ هُمْ يُؤْمِنُونَ (4)﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابه، معطوفون على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أنحصين تحت أعم، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار، وبهؤلاء مقابلوهم فكانت الآيتان تفصيلاً للمتقين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو على المتقين وكأنه قال ﴿هدى للمتقين﴾ عن الشرك، والذين آمنوا من أهل الملل. ويحتمل أن يراد بهم الأولون بأعيانهم، ووسط العاطف كما وسط في قوله:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ      وَلَيْسَ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمَزْدَحَمِ

وقوله:

يَا لَهْفَ ذُوَابَةٍ لِلْحَارِثِ النَّصِّ      ائِجِ الْغَانِمِ فَالْآيِبِ

على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدق من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصول تنبيهاً على تغاير القبيلين وتباين السبيلين. أو طائفة منهم وهم مؤمنوا أهل الكتاب، ذكرهم مخصصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيماً لشأنهم وترغيباً لأمثالهم.

والإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل وهو إنما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها، ولعل نزول الكتب الإلهية على الرسل بأن يلتقطه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به فيبلغه إلى الرسول. والمراد ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن بأسره والشرعة عن آخرها، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقياً تغليبا للموجود على ما لم يوجد. أو تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾. فإن الجن لم يسمعوا جميعه ولم يكن

الكتاب كله مُتَزَلًّا حِينَئِذٍ. وبما ﴿أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمان بها جملة فرض عين، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، ولكن على الكفاية. لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج وفساد المعاش.

﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لم تسهم إلا أياماً معدودة، واختلافهم في نعيم الجنة: أهو من جنس نعيم الدنيا أو غيره؟ وفي دوامه وانقطاعه، وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هم تعريض لمن عداهم من أهل الكتاب، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن إيقان. واليقين: إتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم الباري تعالى، ولا العلوم الضرورية. والآخرة تأنيث الآخر، صفة الدار بدليل قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة﴾ فغلبت كالدنيا، وعن نافع أنه خففها بحذف الهزمة إلقاء حركتها على اللام، وقرئ يوقنون بقلب الواو همزة لضم ما قبلها إجراء لها مجرى المضمومة في وجوه ووقت ونظيره:

لحِبِّ الْمُؤَقِّدِينَ إِلَىٰ مَوْسَىٰ  
﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (5)

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الجملة في محل الرفع إن جعل أحد الموصولين مفصلاً عن المتقين خبر له، فكأنه لما قيل ﴿هدى للمتقين﴾ قيل ما بالهم خصوا بذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ إلى آخر الآيات. وإلا فاستئناف لا محل لها، فكأنه نتيجة الأحكام والصفات المتقدمة. أو جواب سائل قال: ما للموصوفين بهذه الصفات اختصوا بالهدى؟ ونظيره أحسنت إلى زيد صديقك القديم حقيق بالإحسان، فإن اسم الإشارة ههنا كإعادة الموصوف بصفاته المذكورة، وهو أبلغ من أن يستأنف بإعادة الاسم وحده لما فيه من بيان المقتضى وتلخيصه، فإن ترتب الحكم على الوصف إيدان بأنه الموجب له. ومعنى الاستعلاء في ﴿على هدى﴾ تمثيل تمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه بحال من اعتلى الشيء وركبه، وقد صرحوا به في قولهم: امتطى الجهل وغوى واقعد غارب الهوى، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نصب من الحجج والمواظبة على محاسبة النفس في العمل. ونُكِّرَ هُدًى للتعظيم. فكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره، ونظيره قول الهذلي:

فلا وأبي الطيرُ المربَّةَ بالضُّحَىٰ على خالدٍ لقد وَقَعَتْ على لحم

وأكد تعظيمه بأن الله تعالى مَانِعُهُ والموفق له، وقد أدغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة.

﴿وأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كرر فيه اسم الإشارة تنبيهاً على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كل واحدة من الأثرين وإن كلاً منهما كاف في تمييزهم بها عن غيرهم، ووسط العاطف لاختلاف مفهوم الجمليتين ههنا بخلاف قوله ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، فإن التسجيل بالغفلة والتشبيه بالبهائم شيء واحد فكانت الجملة الثانية مقررة للأولى فلا تناسب العطف. وهم: فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة، ويفيد اختصاص المسند إليه، أو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك. والمفلح بالحاء والجيم: الفائز بالمطلوب، كأنه الذي افتتحت له وجوه الظفر، وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلي يدل على الشق. والفتح وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة. أو الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوصياتهم.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله كل أحد من وجوه شتى،



وبناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز وتكريره وتعريف الخبر وتوسيط الفصل، لإظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم، وقد تشبث به الوعيدية في خلود الفساد من أهل القبلة في العذاب، ورد بأن المراد بالمفلحين الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، لا عدم الفلاح له رأساً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما ذكر خاصة عباده، وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح، عقبتهم بأصداهم العتاة المردة، الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر، ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ لتباينهما في الغرض، فإن الأولى سبقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقة لشرح تمردهم، وانهماكهم في الضلال، و (إن) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه، والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين. ولذلك أعملت عمله الفرعي وهو نصب الجزء الأول ورفع الثاني إيداناً بأنه فرع في العمل دخيل فيه.

وقال الكوفيون: الخبر قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية، وهي بعد باقية مقتضية للرفع قضية للاستصحاب فلا يرفعه الحرف. وأجيب بأن اقتضاء الخبرية الرفع مشروط بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان، وقد زال بدخولها فتعين إعمال الحرف. وفائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يَتَلَقَّى بها الْقَسَمَ ويصدر بها الأجوبة، وتذكر في معرض الشك مثل قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكْنُؤُهُ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال المبرد: قولك: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم، جواب سائل عن قيامه، وإن عبد الله لقائم، جواب منكر لقيامه. وتعريف الموصول: إما للعهد، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأخبار اليهود. أو للجنس، متناولاً من صمم على الكفر، وغيرهم. فخص منهم غير المصريين بما أسند إليه. والكفر لغة: ستر النعمة، وأصله الكفر بالفتح وهو الستر، ومنه قيل للزارع ولليل كافر، ولكمام الثمرة كافور. وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ به، وإنما عُدَّ لبس الغيار وشد الزنار ونحوهما كفراً لأنها تدل على التكذيب، فإن من صدق الرسول ﷺ لا يجترئ عليها ظاهراً لا أنها كفر في أنفسها.

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقة المخبر عنه، وأجيب بأنه مقتضى التعلق وحدثه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ خبر إن وسواء اسم بمعنى الاستواء، نعت به كما نعت بالمصادر قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ رفع بأنه خبر إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى: إنذارك وعدمه سيان عليهم، والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ، أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة، والإسناد إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقولهم: تَسْمَعُ بِالْمَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ.

وإنما عدل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد وحسن دخول الهمزة، وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء، كما جردت حروف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.

والإنذار: التخويف أريد به التخويف من عذاب الله، وإنما اقتصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس، من حيث إن دفع الضرر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى، وقرئ ﴿أَنذَرْتَهُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بين بين، وقلبيها ألفاً وهو لحن لأن المتحركة لا تقلب، ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده، ويتوسط ألف بينهما محققتين، ويتوسطها والثانية بين بين ويحذف الاستفهامية، ويحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة. أو بدل عنه. أو خبر إن والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم.

والآية مما احتج به من جواز تكليف ما لا يطاق، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبره كذباً. وشمل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمع الضدان، والحق أن التكليف بالمتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث إن الأحكام لا تستدعي غرضاً سيما الامتثال، لكنه غير واقع للاستقراء، والإخبار بوقوع الشيء أو عدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياريه، وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجح إلزام الحجة، وحيازة الرسول فضل الإبلاغ، ولذلك قال ﴿سواء عليهم﴾ ولم يقل سواء عليك. كما قال لعبدة الأصنام ﴿سواء عليكم أذعنتموهم أم أنتم صامتون﴾. وفي الآية إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصل أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات.

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (7)

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ تعليل للحكم السابق وبيان لما يقتضيه. والختم الكتم، سمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه لأنه كتم له والبلوغ آخره نظراً إلى أنه آخر فعل يفعل في إحرازه. والغشاة: فعالة من غشاه إذا غطاه، بنيت لما يشتمل على الشيء، كالعصابة والعمامة ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقبح الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق، وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والافاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غطي عليها. وحيل بينها وبين الإبصار، وسماء على الاستعارة ختماً وتغشية. أو مثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ختماً وتغشية، وقد عبر عن إحداث هذه الهيئة بالطبع في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾. وبالاغفال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾، وبالأقساء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وهي من حيث إن الممكنات بأسرها مستندة إلى الله تعالى واقعة بقدرته أسندت إليه ومن حيث إنها مسببة مما اقترفوه بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وردت الآية ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم. واضطربت المعتزلة فيه فذكروا وجوهاً من التأويل:

الأول: أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم، شبه بالوصف الخلقي المجبول عليه.

الثاني: أن المراد به تمثيل حال قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن. أو قلوب مقدر ختم الله عليها، ونظيره: سال به الوادي إذا هلك. وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته.

الثالث: أن ذلك في الحقيقة فعل الشيطان أو الكافر، لكن لما كان صدوره عنه بإقداره تعالى إياه أسند إليه إسناد الفعل إلى المسبب.

الرابع: أن أعراقهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر، ثم لم يقسرهم إبقاء على غرض التكليف، عبر عن تركه بالختم فإنه سد لإيمانهم. وفيه إشعار على تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي.

الخامس: أن يكون حكاية لما كان الكفرة يقولون مثل: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ تهكماً واستهزاء بهم كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

السادس: أن ذلك في الآخرة، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحقيقه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عِمَاءً وَبِكَافًا وَصَمَاءً﴾.

السابع: أن المراد بالختم بسمة تعرفها الملائكة، فيغضونهم وينفرون عنهم، وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلى الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما.

و ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قلوبهم لقوله تعالى: ﴿وُخْتُم عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ وللوفاق على الوقف عليه، ولأنهما لما اشتركا في الإدراك من جميع الجوانب جعل ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار لما اختص بجهة المقابلة جعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة بتلك الجهة، وكرر الجار ليكون أدل على شدة الختم في الموضعين واستقلال كل منهما بالحكم. ووحد السمع للأمن من اللبس واعتبار الأصل، فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تجمع. أو على تقدير مضاف مثل وعلى حواس سمعهم.

والأبصار جمع بصر وهو: إدراك العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة، وعلى العضو وكذا السمع، ولعل المراد بهما في الآية العضو لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية، وبالقلب ما هو محل العلم وقد يطلق ويراد به العقل والمعرفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. وإنما جاز إمالتها مع الصاد لأن الرءاء المكسورة تغلب المستعيلة لما فيها من التكرير. وغشاوة رفع بالابتداء عند سبويه، وبالجار والمجرور عند الأخفش، ويؤيده العطف على الجملة الفعلية. وقرىء بالنصب على تقدير، وجعل على أبصارهم غشاوة، أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى: وختم على أبصارهم بغشاوة، وقرىء بالضم والرفع، وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها. وغشوة بالكسر مرفوعة، وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وغشاوة بالعين الغير المعجمة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه. والعذاب كالنكال بناءً، ومعنى تقول: عذب عن الشيء ونكل عنه إذا أمسك، ومنه الماء العذب لأنه يجمع العطش ويردعه ولذلك سمي نقاشاً وفراً، ثم اتسع فأطلق على كل ألم قادح وإن لم يكن نكالاً، أي: عقاباً يردع الجاني عن المعاودة فهو أعم منهما. وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب كاللقذية والتمرير. والعظيم نقيض الحقيق، والكبير نقيض الصغير، فكما أن الحقيق دون الصغير، فالعظيم فوق الكبير، ومعنى التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه جميعه وحقر بالإضافة إليه ومعنى التنكير في الآية أن على أبصارهم نوع غشاوة ليس مما يتعارفه الناس، وهو التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (8)

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه، ذكر المؤمنين الذين أحلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفئة رأساً، ثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبت الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً، ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بأفعالهم وسجل على عمهم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وقصتهم عن آخرها معطوفة على قصة الْمُصْرِيِّينَ.

والناس أصله أناس لقولهم: إنسان وأنس وأناسي فحذفت الهمزة حذفها في لوقه وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجَمَع بينهما. وقوله:

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُطَلِّغُونَكَ مِنَ الْأُنْثَىٰ إِلَىٰ أَنْ يَصُورَكَ أَكْثَرُ الْأُنثَىٰ

شاذ. وهو اسم جمع كرجال، إذ لم يثبت فعال في أبنية الجمع. مأخوذ من أنس لأنهم يستأنسون بأمثالهم. أو أنس لأنهم ظاهرون مبصرون، ولذلك سمووا بشراً كما سمي الجن جنأ لاجتنانهم. واللام فيه للجنس، ومن موصوفة إذ لا عهد فكأنه قال: ومن الناس ناسٌ يقولون. أو للعهد والمعهود: هم الذين كفروا، ومن موصولة مراد بها ابن أبي وأصحابه ونظراؤه، فإنهم من حيث إنهم صمموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم، واختصاصهم بزيادات زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس، فإن الأجناس إنما تتنوع بزيادات يختلف فيها أبعادها فعلى هذا تكون الآية تقسيماً للقسم الثاني.

واختصاص الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر، تخصيص لما هو المقصود الأعظم من الإيمان وادعاء بأنهم احتازوا الإيمان من جانبيه وأحاطوا بقطريه، وإيدان بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه، فكيف بما يقصدون به النفاق، لأن القوم كانوا يهوداً وكانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر إيماناً كلا إيمان، لاعتقادهم التشبيه واتخاذ الولد، وإن الجنة لا يدخلها غيرهم، وأن النار لا تسهم إلا أياماً معدودة وغيرها، ويرون المؤمنين أنهم آمنوا مثل إيمانهم. وبيان لتضاعف خبثهم وإفراطهم في كفرهم، لأن ما قالوه لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن إيماناً، فكيف وقد قالوه تمويهاً على المسلمين وتهكماً بهم. وفي تكرار الباء ادعاء الإيمان بكل واحد على الأصالة والاستحكام.

والقول هو التلفظ بما يفيد، ويقال بمعنى المقول، وللمعنى المتصور في النفس المعبر عنه باللفظ وللرأي والمذهب مجازاً. والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا ينتهي. أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة.

﴿وما هم بمؤمنين﴾ إنكار ما ادعوه ونفي ما انتحلوا إثباته، وكان أصله وما آمنوا ليطابق قولهم في التصريح بشأن الفعل دون الفاعل لكنه عكس تأكيداً. أو مبالغة في التكذيب، لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان، ولذلك أكد النفي بالباء وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويحتمل أن يقيد بما قيدوا به لأنه جوابه.

والآية تدل على أن من ادعى الإيمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً، لأن من نفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه لم يكن مؤمناً. والخلاف مع الكرامية في الثاني فلا ينهض حجة عليهم.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9)﴾

﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو فيه، وعما هو بصدده من قولهم: خدع الضب. إذ توارى في جحره، وضب خادع وخدع إذا أوهم الحارث إقباله عليه، ثم خرج من باب آخر وأصله الإخفاء ومنه المخدع للخزانة، والأخدعان لعرقين خفيين في العنق، والمخادعة تكون بين اثنين. وخداعهم مع الله ليس على ظاهره لأنه لا يُخْفَى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته. بل المراد إما مخادعة رسوله على حذف المضاف، أو على أن معاملة الرسول معاملة الله من حيث إنه خليفته كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾. وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم وامثال الرسول ﷺ والمؤمنين أمر الله في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين. ويحتمل أن يراد بـ ﴿يخادعون﴾ يخدعون لأنه بيان ليقول، أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه، إلا أنه أخرج في زنة فاعلت للمبالغة، فإن الزنة لما كانت للمبالغة والفعل متى غولب فيه، كان أبلغ منه إذا جاء بلا مقابلة معارض ومبار استصحب ذلك، ويعضده قراءة من قرأ ﴿يخدعون﴾. وكان غرضهم في ذلك أن يدفخوا عن أنفسهم ما يطرق به من سواهم من الكفرة، وأن يفعل بهم ما يفعل بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطلعوا على أسرارهم ويذيعوها إلى منابذهم إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد.

﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. والمعنى: أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررها يحيق بهم. أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك. وخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأمانى الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تخفى عليه خافية.

وقرأ الباقون ﴿وما يخدعون﴾، لأن المخادعة لا تتصور إلا بين اثنين وقرئ و ﴿يخدعون﴾ من خدع و ﴿يخدعون﴾ بمعنى يخدعون و ﴿يخدعون﴾ و ﴿يخادعون﴾ على البناء للمفعول، ونصب أنفسهم بنزع الخافض، والنفس ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للروح لأن نفس الحي به، وللقلب لأنه محل الروح أو متعلقه، وللدم لأن قوامها به، وللماء لفرط حاجتها إليه، وللرأي في قولهم فلان يؤامر نفسه لأنه ينبعث عنها أو يشبه ذاتاً تأمره وتشير عليه. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ويحتمل حملها على أرواحهم وآرائهم.

﴿وما يشعرون﴾ لا يحسون لذلك لثمادي غفلتهم. جعل لحوق وبال الخداع ورجوع ضرره إليهم في الظهور كالمحسوس الذي لا يخفى إلا على مؤوف الحواس. والشعور: الإحساس، ومشاعر الإنسان حواسه، وأصله الشعر ومنه الشعار.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ إِنَّمَا كَانُوا أَكْذِبُُونَ (10)﴾

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ المرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله. ومجاز في الأعراض النفسانية التي تخل بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي، لأنها مانعة من نيل الفضائل، أو مؤدية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية. والآية الكريمة تحتملها فإن قلوبهم كانت متألمة تحرقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره، ونفوسهم كانت مؤوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطبع. أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي وتضاعف النصر، وكان إسناد الزيادة إلى الله تعالى

من حيث إنه مسبب من فعله وإسنادها إلى السورة في قوله تعالى ﴿فَزَادَتْهُمْ رَجْسًا﴾ لكونها سبباً. ويحتمل أن يراد بالمرض ما تداخل قلوبهم من الجبن والخور حين شاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله تعالى لهم بالملائكة، وقذف الرعب في قلوبهم وبزيادته تضعيفه بما زاد لرسول الله ﷺ نصرته على الأعداء وتبسطاً في البلاد.

﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم يقال: ألم فهو أليم كوجع فهو وجيع، وصف به العذاب للمبالغة كقوله:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

على طريقة قولهم: جد جده.

﴿بما كانوا يَكْذِبُونَ﴾ قرأها عاصم وحزمة والكسائي، والمعنى بسبب كذبهم، أو ببذله جزاء لهم وهو قولهم آمناً. وقرأ الباقون ﴿يَكْذِبُونَ﴾، من كذبه لأنهم كانوا يكذبون الرسول عليه الصلاة والسلام بقلوبهم، وإذا خلوا إلى شياطينهم. أو من كذب الذي هو للمبالغة أو للتكثير مثل بين الشيء وموت البهائم. أو من كذب الوحشي إذا جرى شوطاً ووقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متحير متردد. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به. وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب حيث رتب عليه. وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات، فالمراد التعريض. ولكن لما شابه الكذب في صورته سمي به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (11)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على ﴿يكذبون﴾ أو ﴿يقول﴾. وما روي عن سلمان رضي الله عنه أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعد فعله أراد به أن أهلها ليس الذين كانوا فقط، بل وسيكون من بعد من حاله حالهم لأن الآية متصلة بما قبلها بالضمير الذي فيها. والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال. والصلاح ضده وكلاهما يعمان كل ضار ونافع، وكان من فسادهم في الأرض هُبُجُ الحُروب والفتن بمخادعة المسلمين، وممالة الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم، فإن ذلك يؤدي إلى فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحرث. ومنه إظهار المعاصي والإهانة بالدين فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج ويخل بنظام العالم. والقاتل هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعض المؤمنين. وقرأ الكسائي وهشام (قُيِّل) بإشمام الضم الأول.

﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ جواب لـ ﴿إذا﴾ رد للناصح على سبيل المبالغة، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك، فإن شأننا ليس إلا الإصلاح، وإن حالتنا متمحضة عن شوائب الفساد، لأن إنما تفيد قصر ما دخلت عليه على ما بعده. مثل: إنما زيد متطلق، وإنما ينطلق زيد، وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (12)

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ رد لما ادعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرفي التأكيد: (ألا) المنبهة على تحقيق ما بعدها، فإن همزة الاستفهام التي للإنكار إذا دخلت على النفي أفادت تحقيقاً، ونظيره ﴿أليس ذلك بقادر﴾، ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بما يلتقي به القسم، وأختها أما التي هي من طلائع القسم: وإن المقررة للنسبة، وتعريف الخبر وتوسيط الفصل لرد ما في قولهم ﴿إنما نحن مصلحون﴾ من التعريض للمؤمنين، والاستدراك بـ ﴿لا يشعرون﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ من تمام النصيح والإرشاد فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراض عما لا ينبغي وهو المقصود بقوله: ﴿لا تفسدوا﴾، والإتيان بما ينبغي وهو المطلوب بقوله: ﴿آمِنُوا﴾.

﴿كما آمن الناس﴾ في حيز النصب على المصدر، وما مصدرية أو كافة مثلها في ربما، واللام في الناس للجنس والمراد به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل، فإن اسم الجنس كما يستعمل لسماء مطلقاً يستعمل لما يستجمع المعاني المخصوصة به والمقصودة منه، ولذلك يسلب عن غيره فيقال: زيد ليس بإنسان، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿صُمُّ بِكُمْ عُمِي﴾ ونحوه وقد جمعهما الشاعر في قوله:

إِذَا النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ

أو للعهد، والمراد به الرسول ﷺ ومن معه. أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأصحابه، والمعنى آمِنُوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق مماثلاً لإيمانهم، واستدل به على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان وإن لم يفد التقييد.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمزة فيه للإنكار، واللام مشار بها إلى الناس، أو الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم، وإنما سَفَهُوْهُمْ لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتخثير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالى: كصهيب وبلال، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه. والسفه: خفة وسخافة رأي يقتضيها نقصان العقل، والحلم يقابله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)﴾

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ رد ومبالغة في تجهيلهم، فإن الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر، وإنما فصلت الآية بـ ﴿لا يعلمون﴾ والتي قبلها بـ ﴿لا يشعرون﴾ لأنه أكثر طباقاً لذكر السفه، ولأن الوقوف على أمر الدين والتميز بين الحق والباطل مما يفترق إلى نظر وفكر. وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يدرك بأدنى تفتن وتأمل فيما يُشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (14)﴾

﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ بيان لمعاملتهم المؤمنين والكفار، وما صدرت به القصة فمساقه لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتركيب. روي أن ابن أبي وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة، فقال لقومه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ وختنه سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله ﷺ. فنزلت. واللقاء المصادفة يقال: لقيته ولاقيته، إذا صادفته واستقبلته، ومنه ألقيته إذا طرحته فإنك بطرحه جعلته بحيث يلقى.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه. أو من خلأك ذم أي عداك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية. أو من خلوت به إذا سخرت منه، وعدي بإلى لتضمن معنى الإنهاء، والمراد بشياطينهم الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهرون كفرهم، وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر. أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم. وجعل سيويوه نونه تارة أصلية على أنه من شطن إذا بعد فإنه بعيد عن الصلاح، ويشهد له قولهم: تشيطن. وأخرى زائدة على أنه من شاط إذا بطل، ومن أسمائه الباطل.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الدين والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، والشياطين بالجملة الإسمية المؤكدة بأن لأنهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان، وبالثانية تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا توقع رواج ادعاء الكمال في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ تأكيد لما قبله، لأن المستهزء بالشيء المستخف به مُصِرٌّ على خلافه. أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك. والاستهزاء السخرية والاستخفاف يقال: هزئت واستهزأت بمعنى كأجبت واستجبت، وأصله الخفة من الهزاء وهو القتل السريع يقال: هزأ فلان إذا مات على مكانه، وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (15)

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم، سمي جزء الاستهزاء باسمه كما سمي جزء السية سية، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالستهزء بهم، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء، أو الغرض منه، أو يعاملهم معاملة المستهزء: أما في الدنيا فيجاء أحكام المسلمين عليهم، واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبأن يفتح لهم وهم في النار باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وإنما استؤنف به ولم يعطف ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأن استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعل الله تعالى بهم ولعله لم يقل: الله مستهزء بهم ليطابق قولهم، إيماء بأن الاستهزاء يحدث حالاً فحلاً ويتجدد حيناً بعد حين، وهكذا كانت نكايات الله فيهم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ من مد الجيش وأمدّه إذا زاده وقواه، ومنه مددت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسماذ، لا من المد في العمر فإنه يعدى باللام كأملى له. ويدل عليه قراءة ابن كثير (ويمدهم). والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء الكلام على ظاهره قالوا: لما منعهم الله تعالى الطاقة التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم، وسدهم طرق التوفيق على أنفسهم فتزايدت بسببه قلوبهم ريئاً وظلمة، تزايد قلوب المؤمنين انشراحاً ونوراً، وأمكن الشيطان من إغوائهم فزادهم طغياناً، أُسِنِدَ ذلك إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى المسبب مجازاً، وأضاف الطغيان إليهم لثلاثتهم أن إسناد الفعل إليه على الحقيقة، ومصدق ذلك أنه لما أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي وقال ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يُمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾. أو أصله يمد لهم بمعنى يملي لهم ويمد في أعمارهم كي يتنبهوا ويطيعوا، فما زادوا إلا طغياناً وعمهاً، فحذفت اللام وعدى الفعل بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾. أو التقدير يمدهم استصلاحاً، وهم مع ذلك يعمهون في طغيانهم. والطغيان بالضم والكسر كليان، والطغيان: تجاوز الحد في العتو، والغلو في الكفر، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ﴾. والعمة في البصيرة كالعمى في البصر، وهو: التحير في الأمر يقال رجل عامه وعمه، وأرض عمهاء لا منار بها، قال:

أَعْمَى الْهُدَى بِالْجَاهِلِينَ الْعَمَى

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَوُا أَنْفُسَهُمْ بِالْهُدَى فَمَا رَوِّحَتْ يَجْزِيهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (16)



﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأعيان، فإن كان أحد العوضين ناضجاً تعين من حيث إنه لا يطلب لعينه أن يكون ثمناً وبذله اشتراء، وإلا فأى العوضين تصورته بصورة الثمن فبأذله مشتري وأخذه بائع، ولذلك عدت الكلمتان من الأضداد، ثم استعير للإعراض عما في يده محصلاً به غيره، سواء كان من المعاني أو الأعيان، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْتُ بِالْجُمَةِ رَأْساً أَزْعَرَا      وبِالشَّيْءِ الْوَاضِحَاتِ الدَّرَدَا  
وبِالطَّوِيلِ الْعُمَرِ عَمراً جِيدَرَا      كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا

ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى أنهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها. أو اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى. ﴿فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾. ترشيح للمجاز، لَمَّا استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم، ونحوه:

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّ ابْنَ دَايَةِ      وَعَشَّشَ فِي وَكْرِيهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي

والتجارة: طلب الربح بالبيع والشراء. والريح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي شفاء، وإسناده إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبسها بالفاعل، أو لمشابهتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين لأن رأس مآلهم كان الفطرة السليمة، والعقل الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم، واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوسلون به إلى درك الحق، ونيل الكمال، فبقوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾

(17)﴿

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل زيادة في التوضيح والتقرير، فإنه أوقع في القلب وأقمع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيل محققاً والمعقول محسوساً، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء. والمثل في الأصل بمعنى النظر يقال: مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده، ولا يضرب إلا ما فيه غرابة، ولذلك حوفظ عليه من التغيير، ثم استعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

والمعنى حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً، والذي: بمعنى الذين كما في قوله تعالى: ﴿وَحُضِّنْتُمْ كَالَّذِي خَاصُوا﴾ إن جعل مرجع الضمير في بنورهم، وإنما جاز ذلك ولم يجز وضع القائم موضع القائمين لأنه غير مقصود بالوصف، بل الجملة التي هي صلته وهو وصلة إلى وصف المعرفة بها لأنه ليس باسم تام بل هو كالجاء منه، فحقه أنه لا يجمع كما لا تجمع أخواتها، ويستوي فيه الواحد والجمع وليس الذين جمعه المصحح، بل ذو زيادة زيدت لزيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبداً على اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل، ولكونه مستطالاً بصلته استحق التخفيف، ولذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرت ثم اقتصر على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين، أو قصد به جنس المستوقدين، أو الفوج الذي استوقد.

والاستيقاد: طلب الوقود والسعي في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها. واشتقاق النار من: نار ينور نوراً إذا نفر لأن فيها حركة واضطراباً.

﴿فَلَمَّا أَصَاعَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أي: النار، ما حول المستوقد إن جعلتها متعددة، وإلا أمكن أن تكون مسندة إلى ما، والتأنيث لأن ما حوله أشياء وأماكن أو إلى ضمير النار، وما: موصولة في معنى الأمكنة، نصب على الظرف، أو مزيدة، وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران. وقيل للعام حول لأنه يدور.

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جواب لما، والضمير للذي، وجمعه للحمل على المعنى، وعلى هذا إنما قال: ﴿بنورهم﴾ ولم يقل: بنارهم لأنه المراد من إيقادها. أو استئناف أوجب به اعتراض سائل يقول: ما بالهم شبهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره؟ أو بدل من جملة التمثيل على سبيل البيان. والضمير على الوجهين للمناققين، والجواب محذوف كما في قوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به﴾ للإيجاز وأمن الالتباس. وإسناد الذهاب إلى الله تعالى إما لأن الكل بفعله، أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفي، أو أمر سماوي كريح أو مطر، أو للمبالغة ولذلك عدي الفعل بالياء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمسك، يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسل له، ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى اللفظ إلى النور، فإنه لو قيل: ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً ألا ترى كيف قرر ذلك وأكد بقوله ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ فذكر الظلمة التي هي عدم النور، وانطماشه بالكلية، وجمعها ونكرها ووصفها بأنها ظلمة خالصة لا يترأى فيها شبحان. وترك في الأصل بمعنى طرح وخلي، وله مفعول واحد فضمن معنى صير، فجري مجرى أفعال القلوب كقوله تعالى: ﴿وتركهم في ظلمات﴾.

وقول الشاعر:

فتركته جَزَرَ السَّبَاعِ يَشْنَعُ يَقْضُنَ حُسْنَ بِنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ

والظلمة مأخوذة من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا، أي ما منعك، لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية. وظلماتهم: ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة يوم القيامة ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾. أو ظلمة الضلال، وظلمة سخط الله، وظلمة العقاب السرمدي، أو ظلمة شديدة كأنها ظلمة متراكمة، ومفعول ﴿لا يبصرون﴾ من قبيل المطروح المتروك فكأن الفعل غير متعد.

والآية مَثَلٌ ضرب به الله لمن آتاه ضرباً من الهدى فأضاعه، ولم يتوصل به إلى نعيم الأبد فبقي متحيراً منحسراً، تقريراً وتوضيحاً لما تضمنته الآية الأولى، ويدخل تحت عمومها هؤلاء المنافقون فإنهم أضاعوا ما نطق به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر، وإظهاره حين خلوا إلى شياطينهم، ومن أثر الضلالة على الهدى المجعول له بالفطرة، أو ارتد عن دينه بعدما آمن، ومن صح له أحوال الإرادة فادعى أحوال المحبة فأذهب الله عنه ما أشرق عليه من أنوار الإرادة، أو مَثَلٌ لإيمانهم من حيث إنه يعود عليهم بحقن الدماء، وسلامة الأموال والأولاد، ومشاركة المسلمين في المغنم. والأحكام بالنار الموقدة للاستضاءة، ولذهاب أثره وانطماش نوره بإهلاكهم وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورها.

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى قَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ (18)﴾

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَى﴾ لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أيفت مشاعرهم وانتفت قواهم كقوله:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكُرْتُ بِهِ . وَإِنْ ذَكُرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا

وكقوله:

أَصَمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ وَأَسْمَعُ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ أُرِيدُ

وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَدَّفٌ لَهُ لَيْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمِ

ومن ثم ترى المفلقين السحرة يضربون عن توهم التشبيه صفحاً كما قال أبو تمام الطائي:

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظَنَّ الْجَهْلُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ

وهنا وإن طوى ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به، ونظيره:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نِعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هذا إذا جعلت الضمير للمنافقين على أن الآية فدلالة التمثيل ونتيجته، وإن جعلته للمستوقدين، فهي على حقيقتها. والمعنى: أنهم لما أوقدوا ناراً فذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسهم وانتقصت قواهم. وثلاثتها قرئت بالنصب على الحال من مفعول تركهم. والصم: أصله صلابة من اكتناز الأجزاء، ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء، وصمام القارورة، سمي به فقدان حاسة السمع لأن سبيه أن يكون باطن الصماخ مكتنزاً لا تجويف فيه، فيشتمل على هواء يسمع الصوت بتموجه. والبكم الخرس. والعمى: عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وقد يقال لعدم البصيرة.

﴿فهم لا يرجعون﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه. أو عن الضلالة التي اشتروها، أو فهم متحيرون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون، وإلى حيث ابتدؤوا منه كيف يرجعون. والفاء للدلالة على أن انصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم.

﴿أو كصيب من السماء﴾ عطف على الذي استوقد أي: كمثل ذوي صيب لقوله: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ و ﴿أو﴾ في الأصل للتساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شك مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، وقوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً﴾. فإنها تفيد التساوي في حسن المجالسة ووجوب العصيان ومن ذلك قوله: ﴿أو كصيب﴾ ومعناه أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما، وأنت مخير في التمثيل بهما أو بأيهما شئت. والصيب: فيعمل من الصوب، وهو النزول، يقال للمطر وللحساب. قال الشماخ:

وَأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ السَّرْعِ صَيْبٍ

وفي الآية يحتملها، وتنكيره لأنه أريد به نوع من المطر شديد. وتعريف السماء للدلالة على أن الغمام مطبق أخذ بأفاق السماء كلها فإن كل أفق منها يسمى سماء كما أن كل طبقة منها سماء، وقال:

وَمِنْ بَعْدِ أَرْضٍ بَيْنَ سَمَاءٍ

أمد به ما في الصيب من المبالغة من جهة الأصل والبناء والتنكير، وقيل المراد بالسماء السحاب فاللام لتعريف الماهية.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌّ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيهِ أَذَانَهُمْ مِنَ الضُّرُوعِ حَدَرَ الْوُتِّ وَاللَّهُ يَحِيطُ

بِالْكَافِرِينَ (19)﴾

﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ إن أريد بالصيب المطر، فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر، وظلمة غمامه مع ظلمة الليل وجعله مكاناً للرعد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحدره ملتبسين به. وإن أريد به السحاب، فظلماته سحيمته وتطبيقه مع ظلمة الليل. وارتفاعها بالظرف وفقاً لأنه معتمد على موصوف. والرعد: صوت يسمع من السحاب. والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حدثها الريح من الارتعاد. والبرق ما يلمع من السحاب، من برق الشيء بريقاً، وكلاهما مصدر في الأصل ولذلك لم يجمعاً.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ الضمير لأصحاب الصيب وهو وإن حذف لفظه وأقيم الصيب مقامه لكن معناه باق، فيجوز أن يعول عليه كما عول حسان في قوله:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ      بَرَدَى يَصْفُقُ بِالرَّجِيحِ السَّلْسِلِ

حيث ذكر الضمير لأن المعنى ماء بردى، والجملة استئناف فكأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول قيل: فكيف حالهم مع مثل ذلك؟ فأجيب بها، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة.

﴿من الصواعق﴾ متعلق بيجعلون أي من أجلها يجعلون، كقولهم سقاه من الغيمة. والصاعقة قصفة رعد هائل معها نار لا تمر بشيء إلا أتت عليه، من الصعق وهو شدة الصوت، وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت، وقرئ من «الصواعق» وهو ليس بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين في التصرف يقال صعق الديك، وخطيب مصقع، وصعقته الصاعقة، وهي في الأصل إما صفة لقصفة الرعد، أو للرعد. والتاء للمبالغة كما في الرواية أو مصدر كالعافية والكاذبة. ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ نصب على العلة كقوله:

وَأَغْفِرَ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادِّخَارَهُ      وَأَصْفَحَ عَنْ شَتَمِ اللَّئِيمِ تَكْرُمًا

والموت: زوال الحياة، وقيل عرض يضادها لقوله: ﴿خلق الموت والحياة﴾، ورُدَّ بأن الخلق بمعنى التقدير، والاعدام مقدرة.

﴿وَاللَّهُ مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، لا يخلصهم الخداع والحيل، والجملة اعتراضية لا محل لها.

﴿يَكَاذُ الْبَرْقِ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (20)

﴿يَكَاذُ الْبَرْقِ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ استئناف ثان كأنه جواب لمن يقول: ما حالهم مع تلك الصواعق؟ وكاد من أفعال المقاربة، وضعت لمقاربة الخير من الوجود لعروض سببه لكنه لم يوجد، إما لفقد شرط، أو لوجود مانع وعسى موضوعة لرجائه، فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرفة بخلاف عسى، وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلاً مضارعاً تنبيهاً على أنه المقصود بالقرب من غير أن، لتوكيد القرب بالدلالة على الحال، وقد تدخل عليه حملاً لها على عسى، كما تحمل عليها بالحذف من خبرها لمشاركتها في أصل معنى المقاربة. والخطف الأخذ بسرعة وقرئ (يَخْطِفُ) بكسر الطاء ويخطف على أنه يختطف، فتقلت فتحة التاء إلى الخاء ثم ادغمت في الطاء، ويخطف بكسر الخاء لالتقاء الساكنين وإتباع الياء لها، ويخطف ويختطف.

﴿كَمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ استئناف ثالث كأنه قيل: ما يفعلون في تارتي خفوق البرق، وخفيته؟ فأجيب بذلك. وأضاء إما متعد والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم مشى أخذوه، أو لازم بمعنى، كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره، وكذلك أظلم فإنه جاء متعدياً منقولاً من ظلم

الليل، ويشهد له قراءة أظلم على البناء للمفعول، وقول أبي تمام:

هَـمَا أَظْلَمَا حَالِي ثَمَّةَ أَجَلِيَا      ظِلَامَيْهِمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدَ أَشْيِيَا

فإنه وإن كان من المحدثين لكنه من علماء العربية، فلا يبعد أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حراس على المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف. ومعنى «قاموا» وقفوا، ومنه قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء إذا جمد. «ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم» أي ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وأبصارهم بوميض البرق لذهب بهما فحذف الدفعول لدلالة الجواب عليه، ولقد تكاثر حذفه في شاء وأراد حتى لا يكاد يذكر إلا في الشيء المستغرب كقوله:

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ

(ولو) من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه، وقرئ: لأذهب بأسماعهم، بزيادة الباء كقوله تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة».

وفائدة هذه الشرطية إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته وقوله.

«إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كال تصريح به والتقرير له. والشيء يختص بالموجود، لأنه في الأصل مصدر شاء أطلق بمعنى شاء تارة، وحينئذ يتناول الباري تعالى كما قال: «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ» وبمعنى شيء أخرى، أي شيء وجوده وما شاء الله وجوده فهو موجود في الجملة وعليه قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» فهما على عمومهما بلا مشوية. والمعتزلة لما قالوا الشيء ما يصح أن يوجد وهو يعم الواجب والممكن، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فيعم الممتنع أيضاً، لزمهم التخصيص بالممكن في الموضعين بدليل العقل.

والقدرة: هو التمكن من إيجاد الشيء. وقيل صفة تقتضي التمكن، وقيل قدرة الإنسان، هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى: عبارة عن نفي العجز عنه، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، والتقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير الباري تعالى، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل على مقدار قوته، أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته. وفيه دليل على أن الحادث حال حدوثه والممكن حال بقاءه مقدوران وأن مقدور العبد مقدور الله تعالى، لأنه شيء وكل شيء مقدور لله تعالى. والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامات أجزائه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا» الآية، فإنه تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة، بحال الحمار في جهله بما يحمله من أسفار الحكمة. والغرض منهما تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة، بما يكابد من انطفأت ناره بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف وبرق خاطف وخوف من الصواعق. ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرداً فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ» وقول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا      لَدَى وَكْرِهَا الْعَذَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

بأن يشبه في الأول: ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقدين، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وإفشاء حالهم وإبقائهم في الخسار الدائم، والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب

بنورها. وفي الثاني: أنفسهم بأصحاب الصيب وإيمانهم المخالط بالكفر والخداع بصيب فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعا في نفسه لكنه لما وجد في هذه الصورة عاد نفعه ضرا ونفاقهم حذرا عن نكايات المؤمنين، وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعل الأصابع في الأذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يرد من قدر الله تعالى شيئا، ولا يخلص مما يريد بهم من المضار وتحيرهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون، ويدرون بأنهم كلما صادفوا من البرق خفقة انتهزوها فرصة مع خوف أن تخطف أبصارهم فخطوا خطأ يسيرة، ثم إذا خفي وفتر لمعانه بقوا متقيدين لا حراك بهم. وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسان من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصيب الذي به حياة الأرض. وما ارتكبت بها من الشبه المبطله، واعترضت دونها من الاعتراضات المشككة بالظلمات. وشبه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة بالبرق، وتصامهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيفسد أدنيه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿والله محيط بالكافرين﴾. واهتزازهم لما يلعب لهم من رشد يدركونه، أو رعد تطمح إليه أبصارهم بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفهم في الأمر حين تعرض لهم شبهة، أو تعن لهم مصيبة بتوقفهم إذا أظلم عليهم.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحطوط العاجلة، وسدوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هزا للسامع وتنشيطا له واهتماما بأمر العبادة، وتفخيما لشأنها، وجبرا لكلفة العبادة بلذة المخاطبة: و (يا) حرف وضع لنداء البعيد، وقد ينادي به القريب تنزيلا له منزلة البعيد. إما لعظمته كقول الداعي: يا رب، وإيا الله، هو أقرب إليه من حبل الوريد. أو لغلطته وسوء فهمه. أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه. وهو مع المنادى جملة مفيدة، لأنه نائب مناب فعل. وأي: جعل وصلة إلى نداء المعرف باللام، فإن إدخال «يا» عليه متعذر لتعذر الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كمثلين وأعطي حكم المنادى وأجري عليه المقصود بالنداء وصفا موضحا له، والتزام رفعه إشعارا بأنه المقصود، وأقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيدا وتوضيحا عما يستحقه، أي من المضاف إليه، وإنما كثر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام، من حقها أن يتفطنوا إليها، ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون، حقيق بأن ينادي له بالأكد الأبلغ والجموع وأسماؤها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد، ويدل عليه صحة الاستثناء منها. أو التأكيد بما يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ واستدلال الصحابة بعمومها شائعا وذائعا، فالناس يعم الموجودين وقت النزول لفظا ومن سيوجد، لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبليين، ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل، وما روي عن علقمة والحسن أن كل شيء نزل فيه ﴿يا أيها الناس﴾ فمكي ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فمدني، إن صح رفعه فلا يوجب تخصيصه بالكفار، ولا أمرهم بالعبادة، فإن المأمور به هو القدر المشترك بين بدء العبادة، والزيادة فيها، والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الإتيان بما يجب تقديمه من المعرفة والإقرار بالصانع، فإن من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم إلا به، وكما أن الحدث لا يمنع وجوب الصلاة، فالكفر لا يمنع وجوب العبادة، بل يجب رفعه والاشتغال بها عقيه. ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها وإنما قال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ تنبيها على أن الموجب للعبادة هي الربوبية.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة جَزَتْ عليه تعالى للتعظيم والتعليل، ويحتمل التقييد والتوضيح إن خص الخطاب بالمشركون، وأريد بالرَّبِّ أعم من الرب الحقيقي، والآلهة التي يسمونها أرباباً. والخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وأصله التقدير يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالمقياس.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تناول كل ما يتقدم الإنسان بالذات أو بالزمان. منصوب معطوف على الضمير المنصوب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾. والجملة أَخْرِجَتْ مَخْرَجَ المقرر عندهم، إما لاعترافهم به كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أو لتمكنهم من العلم به بأدنى نظر وقرىء ﴿مَنْ قَبْلَكُمْ﴾ على إقحام الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً، كما أفصح جرير في قوله:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عُذَيَّ لَا أَبَا لَكُمْ

تيماء، الثاني بين الأول وما أضيف إليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿اعْبُدُوا﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله تعالى. نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته، ويكون ذا خوف ورجاء قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾. أو من مفعول ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والمعطوف عليه على معنى أنه خلقكم ومن قبلكم في صورة من يرجي منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه، وكثرة الدواعي إليه. وغلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهم جميعاً. وقيل تعليل للخلق أي خلقكم لكي تتقوا كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وهو ضعيف إذ لم يثبت في اللغة مثله. والآية تدل على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى والعلم بوجدانيته واستحقاقه للعبادة، النظر في صنعه والاستدلال بأفعاله، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شكرأ لما عده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الأجر قبل العمل.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (22)

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ صفة ثانية، أو مدح منصوب، أو مرفوع، أو مبتدأ خبره فلا تجعلوا وجعل من الأفعال العامة يجيء على ثلاثة أوجه: بمعنى صار، وطفق فلا يتعدى كقوله:

فَقَدْ جَعَلْتُ قُلُوصَ بَنِي سُهَيْلٍ مِنَ الْأَكْوَارِ مَرْتَعًا قَرِيبًا

وبمعنى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وبمعنى صير، ويتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ والتصيير يكون بالفعل تارة، وبالقول أو العقد أخرى. ومعنى جعلها فراشاً أن جعل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء، مع ما في طبعه من الإحاطة بها، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهياة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالقراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كرية شكلها مع عظم حجمها. واتساع جرمها لا تأبى الاقتراض عليها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قبة مضروبة عليكم. والسما اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد كالدينار والدرهم، وقيل: جمع سماء. والبناء مصدر، سمي به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خباء، ومنه بني على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباءً جديداً.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ عطف على (جعل)، وخروج الثمار بقدرة

الله تعالى ومشيئته، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان، بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكيفياتها على المادة المترجة منهما، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال، صنائع وحكم يجدد فيها لأولى الأبصار عبراً، وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة، و ﴿من﴾ الأولى للابتداء سواء أريد بالسماء السحاب فإن ما علاك سماء، أو الفلك فإن المطر يتبدى من السماء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر. أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلى جو الهواء فتتعد سحاباً مطراً. و ﴿من﴾ الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ واكتناف المنكرين له أعني ماء ورزقاً كأنه قال: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر كل الثمرات، ولا جعل كل المرزوق ثماراً. أو للتبيين، ورزقاً مفعول بمعنى المرزوق كقولك أنفقت من الدراهم ألفاً. وإنما ساغ الثمرات والموضع موضع الكثرة، لأنه أراد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستانه، ويؤيده قراءة من قرأ: «من الثمرة» على التوحيد. أو لأن المجموع يتعاور بعضها موقع بعض كقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ﴾. أو لأنها لما كانت محلاة باللام خرجت عن حد القلة. و ﴿لكم﴾ صفة رزقاً إن أريد به المرزوق ومفعوله إن أريد به المصدر. كأنه قال: رزقاً إياكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا﴾ متعلق باعبدوا على أنه نهى معطوف عليه. أو نفي منصوب بإضمار أن جواب له. أو بلعل على أن نصب تجعلوا نصب فاطلع في قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطْلُعُ﴾ إلحاقاً لها بالأشياء الستة لاشتراكها في أنها غير موجبة، والمعنى: إن تتقوا لا تجعلوا لله أنداداً، أو بالذي جعل، إن استأنفت به على أنه نهى وقع خبراً على تأويل مقول فيه: لا تجعلوا، والفاء للسببية أدخلت عليه لتضمن المبتدأ معنى الشرط والمعنى: أن من خصكم بهذه النعم الجسام والآيات العظام ينبغي أن لا يُشْرَكَ به. والند: المثل المتأوى، قال جرير:

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَهِي نَدًا وَمَا تَيْمٌ لِيذِي حَسَبٍ نَدِيدُ

من ند يند ندوداً: إذا نفر، وناددت الرجل خالفته، خص بالمخالف المماثل في الذات كما خص المساوي بالمماثل في القدر، وتسمية ما يعبد المشركون من دون الله (أنداداً)، وما زعموا أنها تساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله، وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير، فتهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً لمن يمتنع أن يكون له ند. ولهذا قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفُ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ  
تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعَزَى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال من ضمير فلا تجعلوا، ومفعول تعلمون مطروح، أي: وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي، فلو تأملتم أدنى تأمل اضطرب عقلكم إلى إثبات موجد للمكنات منفرد بوجود الذات، متعال عن مشابهة المخلوقات. أو متوحي وهو أنها لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله سبحانه وتعالى: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ وعلى هذا فالمقصود منه التوبيخ والتشريب، لا تقييد الحكم وقصره عليه، فإن العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء في التكليف.



واعلم إن مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، والنهي عن الإشراك به تعالى، والإشارة إلى ما هو العلة والمقتضى. وبيانه أنه رتب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها، ثم بين ربوبيته بأنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المقلة والمظلة والمطاعم والملابس، فإن الثمرة أعم من المطعوم، والرزق أعم من المأكول والمشروب. ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته تعالى، رتب تعالى عليها النهي عن الإشراك به، ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة مع ما دل عليه الظاهر وسبق فيه الكلام، الإشارة إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل، فمثل البدن بالأرض، والنفس بالسماء، والعقل بالماء، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بواسطة استعمال العقل للحواس، وازدواج القوى النفسانية والبدنية، بالثمرات المتولدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعة بقدرة الفاعل المختار، فإن لكل آية ظهراً وباطناً ولكل حد مطلعاً.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (23)﴾

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ لما قرر وحدانيته تعالى وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقبيه ما هو الحجة على نبوة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذت فصاحة كل منطق وإفحامه، من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة والمضارة، وتهالكهم على المعازاة والمعاراة، وعرف ما يتعرف به إعجازه ويتيقن أنه من عند الله كما يدعيه. وإنما قال: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ لأن نزوله نجماً فنجماً بحسب الوقائع علي ما ترى عليه أهل الشعر والخطابة مما يريهم، كما حكى الله عنهم فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾. فكان الواجب تحديدهم على هذا الوجه إزاحة للشبهة وإلزاماً للحجة، وأضاف العبد إلى نفسه تعالى تنوياً بذكره، وتنبهاً على أنه مختص به منقاد لحكمه تعالى، وقرىء «عبادنا» يريد محمداً ﷺ وأمه. والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وهي إن جعلت واوها أصلية منقولة من سور المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

وَلَرَهْطُ حِرَابٍ وَقَدْ سُورَةُ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غَرَابُهَا بِمَطَارٍ

لأن السور كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارىء، أولها مراتب في الطول والقصر والفضل والشرف وثواب القراءة. وإن جعلت مبذلة من الهمزة فمن السورة التي هي البقية والقطعة من الشيء. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: أفراد الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتجاوب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه. فإنه إذا ختم سورة نفَسَ ذلك عنه، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوى بريداً، والحافظ متى حذفها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها، فعظم ذلك عنده وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد.

﴿مِنْ مِّثْلِهِ﴾ صفة سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، و (من) للتبويض أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحسن النظم. أو لعبدنا، و (من) للابتداء أي: بسورة كائنة ممن هو على حاله عليه الصلاة والسلام من كونه بشراً آمياً لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم. أو صلة ﴿فَأْتُوا﴾، والضمير للعبد ﷺ، والرد إلى المنزل أوجه لأنه المطابق لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ ولسائر آيات التحدي، ولأن الكلام فيه لا في المنزل عليه فَحَقُّه أن لا يتفك عنه ليتسق

الترتيب والنظم، ولأن مخاطبة الجرم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جلدتهم أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت بنحو ما أوتي به هذا آخر مثله، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾. ولأن رده إلى عبدنا يوهم إمكان صدوره ممن لم يكن على صفته، ولا يلائمه قوله تعالى.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أو الإمام. وكأنه سمي به لأنه يحضر النوادي وتبرم بمحضره الأمور، إذ التركيب للحضور، إما بالذات أو بالتصور، ومنه قيل: للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يروحوه، أو الملائكة حضروه. ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب، لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للرتب ف قيل: زيد دون عمرو أي: في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. قال أمية:

يَا نَفْسُ مَا لَكَ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ

أي إذا تجاوزت وقاية الله فلا يقيك غيره، و ﴿مِنْ﴾ متعلقة بـ ﴿ادْعُوا﴾. والمعنى ﴿وادعوا﴾ للمعارضة من حضركم، أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله. أو: ﴿وادعوا﴾ من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله فإنه من ديدن المبهوت العاجز عن إقامة الحجة. أو بـ ﴿شهادتكم﴾ أي الذين اتخذتموهم من دون الله أولياء وآلهة، وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة. أو الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم من قول الأعشى:

تُرِيكَ الْقَلْدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونُ

ليعينوكم وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غاية التيكيت والتهكم بهم. وقيل: ﴿من دون الله﴾ أي من دون أوليائه، يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله، فإن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فسادُه وبأن اختلله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه من كلام البشر، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله. والصدق: الإخبار المطابق، وقيل: مع اعتقاد المخبر أنه كذلك عن دلالة أو أمارة، لأنه تعالى كذب المنافقين في قولهم: ﴿إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ﴾، لما لم يعتقدوا مطابقتها، ورد بصرف التكذيب إلى قولهم ﴿نشهد﴾، لأن الشهادة إخبار عما علمه وهم ما كانوا عالمين به.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (24)

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ لما بين لهم ما يتعرفون به أمر الرسول ﷺ وما جاء به، وميز لهم الحق عن الباطل، رتب عليه ما هو كالفضل لك له، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجزتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، ظهر أنه معجز والتصديق به واجب، فأمنوا به واتقوا العذاب المعد لمن كذب، فعبر عن الإتيان المكيف بالفعل الذي يعم الإتيان وغيره إيجازاً، ونزل لازم الجزاء منزلته على سبيل الكناية تقريراً للمكنى عنه، وتهويلاً لشأن العناد، وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وصدر الشرطية بأن التي للشك والحال يقتضي إذا الذي للوجوب، فإن القائل سبحانه وتعالى لم يكن شاكاً في عجزهم، ولذلك نفى إتيانهم معترضاً بين الشرط والجزاء تهكماً بهم وخطاباً معهم على حسب ظنهم،

فإن العجز قبل التأمل لم يكن محققاً عندهم. و ﴿تَفْعَلُوا﴾ جزم بـ ﴿لَمْ﴾ لأنها واجبة الأعمال المختصة بالمضارع متصلة بالمعمول، ولأنها لما صيرته ماضياً صارت كالجزء منه، وحرف الشرط كالداخل على المجموع فكأنه قال: فإن تركتم الفعل، ولذلك ساغ اجتماعهما. ﴿وَلَنْ﴾ كلا في نفي المستقبل غير أنه أبلغ وهو حرف مقتضب عند سيويه والخليل في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الأخرى أصله لا أن، وعند الفراء لا فأبدلت ألفها نوناً. والوقود بالفتح ما توقد به النار، وبالضم المصدر وقد جاء المصدر بالفتح قال سيويه: وسمعنا من يقول وقدت النار وقوداً عالياً، واسم بالضم ولعله مصدر سمي به كما قيل: فلان فخر قومه وزين بلده، وقد قرئ به والظاهر أن المراد به الاسم، وإن أريد به المصدر فعلى حذف مضاف أي: وقودها احتراق الناس، والحجارة: وهي جمع حجر. كجمالة جمع جمل وهو قليل غير منقاس، والمراد بها الأصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المضار لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكافرون بما كنزوه. أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادة في تحسرههم. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكتزونها ويعترونها بها، وعلى هذا لم يكن لتخصيص إعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجه، وقيل: حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وإبطال للمقصود، إذ الغرض تهويل شأنها وتقادم لهبها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضعفت، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلعله عني به أن الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران. ولما كانت الآية مدنية نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. وسمعوه صح تعريف النار. ووقوع الجملة صلة «بإزائها» فإنها يجب أن تكون قصة معلومة.

﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم. وقرئ: «أعدت» من العتاد بمعنى العدة، والجملة استئناف، أو حال بإضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها، وإن جعلته مصدراً للفصل بينهما بالخبر. وفي الآيتين ما يدل على النبوة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجحد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد، وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتغالهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته، التجؤوا إلى جلاء الوطن وبذل المهج.

الثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الدائين عنه في كل عصر.

الثالث: أنه ﷺ لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافة أن يعارض فتدحض حجته. وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ دل على أن النار مخلوقة معدة الآن لهم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (25)

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به، وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلهية من أن يشفع الترغيب بالترهيب، تشبيهاً لاكتساب ما ينجي، وتشبيهاً عن اقتراف ما يردي، لا عطف الفعل نفسه حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهى فيعطف عليه أو على فائقوا، لأنهم إذا لم يأثروا

بما يعارضه بعد التحدي ظهر إعجازه، وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب، ومن آمن به استحق الثواب، وذلك يستدعي أن يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء، وإنما أمر الرسول ﷺ، أو عالم كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم - ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة، تفخيماً لشأنهم وإيداناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهناؤا بما أعد لهم.

وقرىء ﴿وَبَشِّرْ﴾ على البناء للمفعول عطفاً على أعدت فيكون استثناءً. والبشارة: الخبر السار فإنه يظهر أثر السرور في البشارة، ولذلك قال الفقهاء البشارة: هي الخبر الأول، حتى لو قال الرجل لبيده: من يشرنني بقدم ولدي فهو حر، فأخبروه فرادى عتق أولهم، ولو قال: من أخبرني، عتقوا جميعاً، وأما قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فعلى التهكم أو على طريقة قوله: تَحِيَّةٌ يَنْتَهِمُ ضَرْبُ وَجَعٍ.

و ﴿الصالحات﴾ جمع صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجرى الأسماء كالحسنة، قال الحطيئة:

كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا تَنَفَّكَ صَالِحَةٌ      مِنْ آلٍ لَمْ يَظْهَرْ الْغَيْبُ تَأْتِينِي

وهي من الأعمال ما سوغه الشرع وحسنه، وتأنيثها على تأويل الخصلة، أو الخلعة، واللام فيها للجنس، وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أس، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء بأس لا بناء عليه، ولذلك قلما ذكرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

﴿أن لهم﴾ منصوب بنزع الخافض وإفشاء الفعل إليه، أو مجرور بإضماره مثل: الله لأفعلن. والجنة: المرة من الجن وهو مصدر جنة إذا ستره، ومدار التركيب على الستر، سمي بها الشجر المظلل للأنفاس أغصانه للمبالغة كأنه يستر ما تحته سترة واحدة قال زهير:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مَقْتَلَةٌ      مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا

أي نخلاً طوالاً، ثم البستان، لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظللة، ثم دار الثواب لما فيها من الجنان، وقيل: سميت بذلك لأنه ستر في الدنيا ما أعد فيها للبشر من أفنان النعم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا خَفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعِينَ﴾ وجمعها وتنكيرها لأن الجنان على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما سبع: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعلويون، وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال. واللام في ﴿لهم﴾ تدل على استحقاقهم إياها، لأجل ما ترتب عليه من الإيمان والعمل الصالح، لا لذاته فإنه لا يكافئ النعم السابقة، فضلاً عن أن يقتضي ثواباً جزاء فيما يستقبل بل بجعل الشارع، ومقتضى وعده تعالى لا على الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ وقوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِيَجْطُنَّ عَمَلُكَ﴾ وأشباه ذلك، ولعله سبحانه وتعالى لم يقيد ههنا استغناء بها.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها. وعن مسروق أنهار الجنة تجري في غير أخدود: واللام في ﴿الأنهار﴾ للجنس، كما في قولك لفلان: بستان في الماء الجاري، أو للعهد، والمعهود: هي الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية. والنهر بالفتح والسكون: المجري الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل والفرات،

والتركيب للسعة، والمراد بها ماؤها على الإضمار، أو المجاز، أو المجاري أنفسها. وإسناد الجري إليها مجاز كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ الآية.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا﴾ صفة ثانية لجنتان، أو خير مبتدأ مخذوف، أو جملة مستأنفة. كأنه لما قيل: إن لهم جنات، وقع في خلد السامع أثمارها مثل ثمار الدنيا، أو أجناس آخر فازيح بذلك، و ﴿كلما﴾ نصب على الظرف، و ﴿رزقاً﴾ مفعول به، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال، وأصل الكلام ومعناه: كل حين رزقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، قيد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات، وابتدأه منها بابتدائه من ثمرة فصاحب الحال الأولى رزقاً وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال، ويحتمل أن يكون من ثمره، بياناً تقدم كما في قولك: رأيت منك أسداً، وهذا إشارة إلى نوع ما رزقوا كقولك مشيراً إلى نهر جار: هذا الماء لا ينقطع، فإنك لا تعني به العين المشاهدة منه، بل النوع المعلوم المستمر بتعاقب جريانه وإن كانت الإشارة إلى عينه، فالمعنى هذا مثل رزقنا ولكن لما استحکم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة.

﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا في الدنيا، جعل ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتمثيل النفس إليه أول ما يرى، فإنه الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غيره، ويتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه، إذ لو كان جنساً لم يعهد ظن أنه لا يكون إلا كذلك، أو في الجنة لأن طعامها متشابه في الصورة، كما حكى ابن كثير عن الحسن رضي الله عنهما: أن أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول ذلك، فيقول الملك: كل فاللون واحد والطعم مختلف. أو كما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلى فيه، حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها». فلعلهم إذ رأوها على الهيئة الأولى قالوا ذلك، والأول أظهر لمحافظة على عموم ﴿كلما﴾ فإنه يدل على ترديدهم هذا القول كل مرة رزقوا، والداعي لهم إلى ذلك فرط استغرابهم وتبجحهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة.

﴿وَأَتَوْا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اعتراض يقرر ذلك، والضمير على الأول راجع إلى ما رزقوا في الدارين فإنه مدلول عليه بقوله عز من قائل ﴿هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ونظيره قوله عز وجل: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا﴾ أي بجنسي الغني والفقير، وعلى الثاني إلى الرزق. فإن قيل: التشابه هو التماثل في الصفة، وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس في الجنة من أطعمة إلا الأسماء. قلت: التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون المقدار والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه. هذا: وإن للآية الكريمة محملاً آخر، وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات، متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيحتمل أن يكون المراد من ﴿هذا الذي رزقنا﴾ أنه ثوابه، ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والمزية وعلو الطبقة، فيكون هذا في الوعد نظير قوله: ﴿ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ في الوعيد.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهن، كالحيض والدرن وندس الطبع وسوء الخلق، فإن التطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال. وقرئ: «مطهرات» وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن، وهن فاعلة وفواعل، قال:

وَإِذَا الْعَذْرَايَ بِاللِّحَاحِ تَقَنَّعَتْ      وَاسْتَعَجَلَتْ نَضَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ

فالجمع على اللفظ، والأفراد على تأويل الجماعة، ومطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى مطهرة، ومطهرة أبلغ من طاهرة ومطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن وليس هو إلا الله عز وجل. والزوج يقال للذكر

والأنثى، وهو في الأصل لما له قرين من جنسه كزوج الخف، فإن قيل: فائدة المطعوم هو التغذي ودفع ضرر الجوع، وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع، وهي مستغنى عنها في الجنة. قلت: مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها إنما تشارك نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات، وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل، ولا تشاركها في تمام حقيقتها حتى تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عين فائدتها.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون. والخلد والخلود في الأصل الثبات المديد دام أم لم يدم، ولذلك قيل للأثافي والأحجار خوالد، وللجزء الذي يبقى من الإنسان على حاله ما دام حياً خلد، ولو كان وضعه للدوام كان التقييد بالتأييد في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لغوا واستعماله حيث لا دوام، كقولهم وقف مخلد، يوجب اشتراكاً، أو مجازاً. والأصل ينفيهما بخلاف ما لو وضع للأعم منه فاستعمل فيه بذلك الاعتبار، كإطلاق الجسم على الإنسان مثل قوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ لكن المراد به ههنا الدوام عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسنة.

فإن قيل: الأبدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية، معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها في الجنان. قلت: إنه تعالى يعيدها بحيث لا يعثرها الاستحالة بأن يجعل أجزائها مثلاً متقاومة في الكيفية، متساوية في القوة لا يقوي شيء منها على إحالة الآخر، متعاقبة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد في بعض المعادن.

هذا وإن قياس ذلك العالم وأحواله على ما نجده ونشاهده من نقص العقل وضعف البصيرة. واعلم أنه لما كان معظم اللذات الحسية مقصوراً على: المساكن والمطاعم، والمناكح، على ما دل عليه الاستقراء كان ملاك ذلك كله الدوام والثبات، فإن كل نعمة جليلة إذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم، بشر المؤمنين بها ومثل ما أعد لهم في الآخرة بأبهى ما يستلذ به منها، وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدل على كمالهم في التمتع والسرور.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُون أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ يَهْدِي مَثَلًا يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل، عقب ذلك ببيان حسنه، وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأن من طبعه الميل إلى الحس وحسب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء، فيمثل الحقيير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان الممثل أعظم من كل عظيم، كما مثل في الإنجيل غل الصدور، بالنخالة. والقلوب القاسية، بالحصى. ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنايير. وجاء في كلام العرب: أسمع من قراد وأطيش من فراشه، وأزع من مخ البعوض. لا ما قالت الجهلة من الكفار: لِمَا مثل الله حال المتناقضين بحال المستوقدين؟ وأصحاب الصيب وعبادة الأصنام في الوهن والضعف بيت العنكبوت؟ وجعلها أقل من الذباب وأخس قدراً منه، الله سبحانه وتعالى أعلى وأجل من أن يضرب الأمثال ويذكر الذباب والعنكبوت. أيضاً، لِمَا أرشدهم إلى ما يدل على أن المتحدي به وحي منزل، ورتب عليه وعيد من كفر به ووعد من آمن

به بعد ظهور أمره؟ شرع في جواب ما طعنوا به فيه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يمثل بها لحقارتها. والحياء: انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم، وهو الوسط بين الوقاحة: التي هي الجراءة على القبائح وعدم المبالاة بها، والخجل: الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقاً. واشتقاقه من الحياة فإنه انكسار يعترى القوة الحيوانية فيردها عن أفعالها فقليل: حيي الرجل كما يقال نسي وحشي، إذا اعتلت نساء وحشاه. وإذا وصف به البارئ تعالى كما جاء في الحديث «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِي مِنْ ذِي الشَّيْئَةِ الْمُسْلِمَ أَنْ يَعْذِبَهُ». «إِنَّ اللَّهَ حَيَّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الْعَبْدَ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّ هُمَا صَفْراً حَتَّى يَضَعَ فِيهِمَا خَيْراً» فالمراد به الترك اللازم للانقباض، كما أن المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنييهما، ونظيره قول من يصف إبلاً:

إِذَا مَا اسْتَحْيَى الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعَنْ بِسَبْتٍ فِي إِنَاءٍ مِنَ الْوَرْدِ

وإنما عدل به عن الترك، لما فيه من التمثيل والمبالغة، وتحتل الآية خاصة أن يكون مجيئه على المقابلة لما وقع في كلام الكفرة. وضرب المثل اعتماله من ضرب الخاتم، وأصله وقع شيء على آخر، وأن يصلتها مخفوض المحل عند الخليل بإضمار من، منصوب بإفشاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه. وما إبهامية تزيد النكرة إبهاماً وشباعاً وتسد عنها طرق التقييد، كقولك أعطني كتاباً ما، أي: أي كتاب كان. أو مزيدة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدى وبيان، بل ما لم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضعت لأن تذكر مع غيرها فتفيد له وثاقفة وقوة وهو زيادة في الهدى غير قاذح فيه. وبعوضة عطف بيان لمثلاً. أو مفعول ليضرب، ومثلاً حال تقدمت عليه لأنه نكرة. أو هما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل. وقرئت بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعلى هذا يحتمل ﴿مَا﴾ وجوهاً أخرى: أن تكون موصولة حذف صدر صلتها، كما حذف في قوله: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ وموصوفة بصفة كذلك، ومحلها النصب بالبدلية على الوجهين. واستفهامية هي المبتدأ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب الله الأمثال، قال بعده: ما البعوضة فما فوقها حتى لا يضرب به المثل، بل له أن يمثل بما هو أحقر من ذلك. ونظيره فلان لا يبالي مما يهب ما دينار وديناران. والبعوض: فاعول من البعض، وهو القطع كالبعض والعصب، غلب على هذا النوع كالخموش.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطف على بعوضة، أو ما إن جعل اسماً، ومعناه ما زاد عليها في الجثة كالذباب والعنكبوت، كأنه قصد به رد ما استكروه. والمعنى: أنه لا يستحي ضرب المثل بالبعوض فضلاً عما هو أكبر منه، أو في المعنى الذي جعلت فيه مثلاً، وهو الصغر والحقارة كجناحها فإنه عليه الصلاة والسلام ضربه مثلاً للدنيا، ونظيره في الاحتمالين ما روي أن رجلاً بمنى حَرَّ على طنْب فسقاط فقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة». فإنه يحتمل ما تجاوز الشوكة في الألم كالخروار وما زاد عليها في القلة كنخبة النملة، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياها حتى نخبة النملة».

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء. قال سيبويه: أما زيد فذهب معناه، مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة، وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء، لكن كرهوا إيلاءها حرف الشرط فأدخلوها على الخبر، وعوضوا المبتدأ عن الشرط لفظاً، وفي تصدير الجملتين به إخماد لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم، وذم بليغ للكافرين على قولهم، والضمير في «أنه» للمثل، أو لأن يضرب. و «الحق» الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، يعم الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة،

من قولهم حق الأمر، إذا ثبت ومنه: ثوب محقق أي: محكم النسيج.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ﴾ كان من حقه: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابق قرينه ويقابل قسمه، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه.

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ يحتمل وجهين: أن تكون «ما» استفهامية و«ذا» بمعنى الذي وما بعده صلته، والمجموع خبر ما. وأن تكون «ما» مع «ذا» اسماً واحداً بمعنى: أي شيء، منصوب المحل على المفعولية مثل ما أراد الله، والأحسن في جوابه الرفع على الأول، والنصب على الثاني، ليطابق الجواب السؤال. والإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف الباري تعالى به، ولذلك اختلف في معنى إرادته ف قيل: إرادته لأفعاله أنه غير ساه ولا مكروه، ولأفعال غيره أمره بها. فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته، وقيل: علمه باشمال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصح فإنه يدعو القادر إلى تحصيله، والحق: أنه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه، أو معنى يوجب هذا الترجيح، وهي أعم من الاختيار فإنه ميل مع تفضيل وفي هذا استحقار واستزدال. و«مثلاً» نصب على التمييز، أو الحال كقوله تعالى: «هذه ناقة لكم آية».

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جواب ماذا، أي: إضلال كثير وإهداء كثير، وضع الفعل موضع المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد، أو بيان للجمليتين المصدرتين ياما، وتسجيل بأن العلم بكونه حقاً هدى وبيان، وأن الجهل - بوجه إيراده والإنكار لحسن مورده - ضلال وفسوق، وكثرة كل واحد من القبيلتين بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابليهم، فإن المهديين قليلون بالإضافة إلى أهل الضلال كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ويحتمل أن يكون كثرة الضالين من حيث العدد، وكثرة المهديين باعتبار الفضل والشرف كما قال:

قَلِيلٌ إِذَا عُذُّوا كَثِيرٌ إِذَا شُذُّوا

وقال:

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا  
﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن حد الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ من قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت. وأصل الفسق: الخروج عن القصد قال رؤية:

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبلاً إياها.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبال بها.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها، فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربة الإيمان من عنقه، ولايس الكفر. وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لإتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان، ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ والمعتزلة لما قالوا: الإيمان: عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل، والكفر تكذيب الحق وجحوده. جعلوه قسماً ثالثاً نازلاً بين منزلي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام، وتخصيص الإضلال بهم مرتباً على صفة الفسق يدل على أنه الذي أعدهم للإضلال، وأدى بهم إلى الضلال. وذلك لأن كفرهم



وعدولهم عن الحق وإصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حكمة المثل إلى حقارة الممثل به، حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه واستهزؤوا به. وقرىء (يضل) بالبناء للمفعول و «الفاسقون» بالرفع.

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [27]

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقدير الفسق. والنقض: فسخ التركيب، وأصله في طاقات الجبل، واستعماله في إبطال العهد من حيث إن العهد يستعار له الجبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر، فإن أطلق مع لفظ الجبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذكر مع العهد كان رمزاً إلى ما هو من رواده وهو أن العهد جبل في شجاعته بحر بالنظر إلى إفادته. والعهد: الموثق ووضعه لما من شأنه أن يراعي ويتعهد كالوصية واليمين، ويقال للدار، من حيث إنها تراعي بالرجوع إليها. والتاريخ لأنه يحفظ، وهذا العهد: إما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عبادة الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله، وعليه أول قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾. أو: المأخوذ بالرسول على الأمم، بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ونظائره. وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: عهد أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقرؤا بربوبيته، وعهد أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وعهد أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموا.

﴿مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ﴾ الضمير للعهد والميثاق: اسم لما يقع به الوثيقة وهي الاستحكام، والمراد به ما وثق الله به عهده من الآيات والكتب، أو ما وثقوه به من الالتزام والقبول، ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر. و ﴿مَنْ﴾ للابتداء فإن ابتداء النقص بعد الميثاق.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يحتمل كل قطعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالات المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير. أو تعاطي شر فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل، والأمر هو للقول الطالب للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمر به كما قيل: له شأن وهو الطلب. والقصد يقال: شأنت شأنه، إذا قصدت قصده. و﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ يحتمل النصب والخفض على أنه بدل من ما، أو ضميره. والثاني أحسن لفظاً ومعنى.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاعتباس من أنوارها، واشتراء النقص بالوفاء، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمَوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (28)

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استخبار فيه إنكار، وتعجيب لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عليها على الطريق البرهاني، فإن صدوره لا ينفك عن حال وصفة فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها استلزم ذلك

إنكار وجوده، فهو أبلغ وأقوى في إنكار الكفر، من (أتكفرون) وأوفق لما بعده من الحال، والخطاب مع الذين كفروا لما وصفهم بالكفر وسوء المقال وخبت الفعال، خاطبهم على طريقة الالتفات، ووبخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك، والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغذية، وأخطأ ونطقاً، ومضغاً مخلفة وغير مخلفة.

﴿فَأَحْيَاكُم﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم، وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه غير مترسخ عنه بخلاف البواقي.

﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ﴾ عندما تقضي آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالشور يوم ينفخ في الصور أو للسؤال في القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم. أو تشرون إليه من قبوركم للحساب، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه. فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم، لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون. قلت: تمكنهم من العلم بهما لما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر، سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتها وهو: أنه تعالى لما قدر على إحيائهم أولاً قدر على أن يحييهم ثانياً، فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته. أو الخطاب مع القبيلين فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة، ووعدهم على الإيمان، وأوعدهم على الكفر، أكد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة، واستقبح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عظم النعم يوجب عظم معصية النعم، فإن قيل: كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وصلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾، كانت من النعم العظيمة مع أن المعدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها، كما أن الواقع حالا هو العلم بها لا كل واحدة من الجمل، فإن بعضها ماض وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح أن يقع حالا. أو مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم، وتبعد الكفر عنهم على معنى، كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتاً جهالا، فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان، ثم يميتكم الموت المعروف، ثم يحييكم الحياة الحقيقية، ثم إليه ترجعون، فيحييكم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والحياة حقيقة في القوة الحساسة، أو ما يقتضيها وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم﴾. وقال: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ وقال: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ وإذا وصف به الباري تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فيناء، أو معنى قائم بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة. وقرأ يعقوب ترجعون بفتح التاء في جميع القرآن.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(29)

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم ويتم به معاشهم. ومعنى ﴿لكم﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستفادكم بها في مصالح أبدانكم بوسط أو بغير وسط، ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها، لا على وجه الغرض، فإن الفاعل لغرض مستكمل به، بل على أنه كالغرض من حيث إنه عاقبة الفعل ومؤداه وهو يقتضي إباحة الأشياء النافعة، ولا يمنع اختصاص

بعضها ببعض لأسباب عارضة، فإنه يدل على أن الكل للكل لا أن كل واحد لكل واحد. وما يعم كل ما في الأرض، إلا إذا أريد بها جهة السفلى كما يراد بالسماء جهة العلو. وجميعاً: حال من الموصول الثاني.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد إليها بإرادته، من قولهم استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء. وأصل الاستواء طلب السواء، وإطلاقة على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء، ولا يمكن حمله عليه لأنه من خواص الأجسام وقيل استوى أي: استولى ومَلَكَ، قال:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُّهْرَاقِ

والأول أوفق للأصل والصلة المعدي بها والتسوية المترتبة عليه بالفاء، والمراد بالسماء هذه الأجرام العلوية، أو جهات العلو، و ﴿ثُمَّ﴾ لعله لتفاوت ما بين الخلقين وفضل خلق السماء على خلق الأرض كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا للتراخي في الوقت، فإنه يخالف ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فإنه يدل على تأخر دحو الأرض المتقدم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها، إلا أن تستأنف بدحائها مقدراً لنصب الأرض فعلاً آخر دل عليه ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ مثل تعرف الأرض وتدبر أمرها بعد ذلك لكنه خلاف الظاهر.

﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ عدلهن وخلقهن مصونة من العوج والنفطور. و ﴿هِنَّ﴾ ضمير السماء إن فسرت بالأجرام لأنه جمع. أو هو في معنى الجمع، وإلا فمبهم يفسره ما بعده كقولهم: ربه رجالاً.

﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ بدل أو تفسير. فإن قيل: أليس إن أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلت: فيما ذكره شكوك، وإن صح فليس في الآية نفي الزائد مع أنه إن ضم إليها العرش والكرسي لم يبق خلاف.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعليل كأنه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب، والترتيب الأنيق كان عليمًا، فإن إتيان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع، لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم، وإزاحة لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت، وتفتت أجزاءها، واتصلت بما يشاكلها، كيف تجمع أجزاء كل بدن مرة ثانية بحيث لا يشذ شيء منها، ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وعلم أن صحة الحشر مبنية على ثلاث مقدمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى فهي: أن مواد الأبدان قابلة للجمع والحياة وأشار إلى البرهان عليها بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّنْكُمْ﴾ فإن تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إبدائها وإبداء ما هو أعظم خلقاً وأعجب صنفاً فكان أفدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت واختلال مراعى فيه مصالحهم وسد حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمته. وقد سَكَنَ نافع وأبو عمرو والكسائي: الهاء من نحو فهو وهو تشبيهاً له بعضه.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له، إنعام يعم ذريته. وإذا: ظرف وضع لزمان نسبة

ماضية وقع فيه أخرى، كما وضع إذ الزمان نسبة مستقبلية يقع فيه أخرى، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل كحيث في المكان، وبنيتا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستعملتا للتعليل والمجازاة، ومحلها نصب أبدأ بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرفة لما ذكرناه، وأما قوله تعالى: ﴿واذكر أخوا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ ونحوه، فعلى تأويل: اذكر الحادث إذا كان كذا، فحذف الحادث وأقيم الظرف مقامه، وعامله في الآية قالوا، أو أذكر على التأويل المذكور لأنه جاء معمولاً له صريحاً في القرآن كثيراً، أو مضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة، مثل وبدأ خلقكم إذ قال، وعلى هذا فالجملة معطوفة على خلق لكم داخله في حكم الصلة. وعن معمر أنه مزيد. والملائكة جمع ملائكة على الأصل كالشمائل جمع شمائل، والتاء لتأنيث الجمع، وهو مقلوب مائل من الألوكة وهي: الرسالة، لأنهم وسائط بين الله تعالى، وبين الناس، فهم رسل الله. أو كالرسل إليهم. واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها. فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك. وقالت طائفة من النصارى: هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان. وزعم الحكماء أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة، منقسمة إلى قسمين: قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق جل جلاله والتنزه عن الاشتغال بغيره، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وهم العلويون والملائكة المقربون. وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهم المدبرات أمراً، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية، على تفصيل أثبتته في كتاب الطوابع.

والمقول لهم: الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص، وقيل ملائكة الأرض، وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولاً فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليس في جند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال. وجاعل: من جعل الذي له مفعولان وهما في ﴿الأرض خليفة﴾ أعمل فيهما، لأنه بمعنى المستقبل ومعتمد على مسند إليه. ويجوز أن يكون بمعنى خالق. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا حاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبئ ملكاً كما قال الله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا واسطة، كما كلم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك. أو خليفة من سكن الأرض قبله، أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضاً. وإفراد اللفظ: إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مضر وهاشم. أو على تأويل من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم. وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة، تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجعول، بأن بشر عز وجل بوجود سكان ملكوته، ولقيه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد والغتها، واستخبار عما يرشدكم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في

صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلّت قدرته، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يَعْمَلُونَ﴾ وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو تلق من اللوح، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين على الآخر. والسُّفْكُ والسَّبْكُ والسَّفْحُ والشَّنُّ أنواع من الصب، فالفسك يقال في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلى، والشن في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السن، وقرئ ﴿يُسْفِكُ﴾ على البناء للمفعول، فيكون الراجع إلى ﴿مَنْ﴾، سواء جعل موصولاً أو موصوفاً محذوفاً، أي: يسفك الدماء فيهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ حال مقررة لجهة الإشكال كقولك: أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم. والمعنى: أستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك، والمقصود منه، الاستفسار عما رجحهم ومع ما هو متوقع منهم - على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر. وكأنهم علموا أن المَجْعُول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية وتؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاداً فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فتحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد. وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطوعة للعقل، متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف. ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله.

﴿قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والتسبيح تبعيد الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس، من سَبَحَ في الأرض والماء، وقُدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قُدُس إذا طهر لأن مظهر الشيء مبعد له عن الأقدار. و ﴿بحمدك﴾ في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسناده التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح، وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفوس عن الآثام وقيل: نقدسك واللام مزيدة.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (31)

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إما بخلق علم ضروري بها فيه، أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل. والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالباً، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم. و ﴿آدم﴾ اسم أعجمي كآزر وشالخ، واشتقاقه من الأذمة أو الأذمة بالفتح بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم» فلذلك يأتي بنوه أخياً، أو من الأدم أو الأذمة بمعنى الألفة، تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس، ويعقوب من العقب، وإيليس من الإبلاس. والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال، واستعماله عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى سواء كان مركباً أو مفرداً مخبراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً: في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة. والمراد في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول، لأن العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات، والمتخيلات والموهومات. وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها

وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمناً إذ التقدير أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام كقوله تعالى: ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً﴾ لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ، والمراد به ذوات الأشياء، أو مدلولات الألفاظ، وتذكيره ليغلب ما اشتمل عليه من العقلاء، وقرئ عرضهن وعرضها على معنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير إقامة المعدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوف على مراتب الاستعدادات وقدر الحقوق محال، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال، والإنباء: إخبار فيه إعلام، ولذلك يجري مجرى كل واحد منهما.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم، أو أن خلقهم واستخلافهم وهذه صفتهم لا يليق بالحكيم، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازم مقالهم. والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار، وبهذا الاعتبار يعتري الإنشاءات.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (32) قَالَ يَتَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) ﴿

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعتراف بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهار لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه. وسبحان: مصدر كغفران ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله، كمعاذ الله. وقد أجري علماً للتسبيح بمعنى التنزيه على الشذوذ في قوله: سبحان من علقمة الفاخر. وتصدير الكلام به اعتذار عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال، ولذلك جعل مفتاح التوبة فقال موسى عليه السلام: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ وقال يونس: ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفي عليه خافية. ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحكم لمبدعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. وأنت فصل، وقيل: تأكيد للكاف كما في قولك: مررت بك أنت، وإن لم يجز: مررت بأنك، إذ التابع يسوغ فيه ما لا يسوغ في المتبوع، ولذلك جاز: يا هذا الرجل، ولم يجز: يا الرجل، وقيل: مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أعلمهم، وقرئ بقلب الهمزة ياء وحذفها بكسر الهاء فيهما.

﴿فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ استحضار لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لكنه جاء به على وجه أبسط ليكون كالحجة عليه، فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السماوات والأرض، وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة علم ما لا يعلمون، وفيه تعريض بمعابيتهم على ترك الأولى، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم، وقيل: ﴿ما تبذرون﴾ قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. وما ﴿تكتُمون﴾ استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة، وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. وقيل: ما أظهروا من الطاعة، وأسر إبليس منهم من المعصية، والهمزة للإنكار دخلت حرف الجحد فأفادت الإثبات والتقرير.

واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمها ظاهر في إلقائها على المتعلم مبنياً له معانيها، وذلك يستدعي سابقة وضع، والأصل ينبغي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالى، وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لتكرر قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (34)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ لما أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه، وقيل: أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سُوِيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله. والعاطف عطف الطرف على الطرف السابق إن نصبته بمضمر، وإلا عطفه بما يقدر عاملاً فيه على الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخرى، وهي نعمة رابعة عدها عليهم. والسجود في الأصل تذلل مع تطامن قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَرَ فِيهَا سُجْدًا لِلْخَوَافِرِ

وقال آخر:

وَقُلْنَا لَهُ اسْجُدْ لِلَّيْلِ فَاسْجَدَا

يعني البعير إذا طأطأ رأسه. وفي الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة، والمأمور به إما المعنى الشرعي فالمسجود له بالحقبة هو الله تعالى، وجعل آدم قبله لسجودهم تفخيماً لشأنه، أو سبباً لوجوبه فكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون نموذجاً للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها، ونسخة لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعة للملائكة إلى استيفاء ما قدر لهم من الكمالات، ووصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات، أمرهم بالسجود تذلاً لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته، وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته، فاللام فيه كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِكُمْ وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

أو في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ﴾.

وأما المعنى اللغوي وهو التواضع لآدم تحية وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والإنقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم. والكلام في أن المأمورين بالسجود، الملائكة كلهم، أو طائفة منهم ما سبق.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ امتنع عما أمر به، استكباراً من أن يتخذة وصلة في عبادة ربه، أو يعظمه ويتلقاه بالتحية، أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه. والإباء: امتناع باختيار. والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب ذلك بالتشبع.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم

اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله: ﴿أنا خير منه﴾ جواباً لقوله: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين﴾. لا بترك الواجب وحده. والآية تدل على أن آدم عليه السلام أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له، ولو من وجه، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناءه منهم، ولا يرد على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾ لجواز أن يقال إنه كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً، ولأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روي: أن من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس. ولمن زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول: إنه كان جنياً نشأ بين أظهر الملائكة، وكان مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه، أو الجن أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم، فإنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد والتوسل به، علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به. والضمير في فسجدوا راجع إلى القبيلين كأنه، قال فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس، وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة، كما أن من الإنس معصومين والغالب فيهم عدم العصمة، ولعل ضرباً من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملهما. وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلذلك صح عليه التغير عن حاله والهبوط من محله، كما أشار إليه بقوله عز وعلا: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ لا يقال: كيف يصح ذلك والملائكة خلقت من نور والجن من نار؟ لما روت عائشة رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلقت الملائكة من النور، وخلق الجن من نار» لأنه كالتمثيل لما ذكرنا فإن المراد بالنور الجوهر المضيء والنار كذلك، غير أن ضوءها مكدّر مغمور بالدخان محدور عنه بسبب ما يصحبه من فرط الحرارة والإحراق، فإذا صارت مهذبة مصفاة كانت محض نور، ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذعة ولا تزال تزايد حتى ينطفئ نورها ويبقى الدخان الصرغ، وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

ومن فوائد الآية استقبح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحث على الائتمار لأمره وترك الخوض في سره، وأن الأمر للوجوب، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

(35) ﴿

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ السكنى من السكون لأنها استقرار ولبث، و﴿أنت﴾ تأكيد أكد به المستكن ليصح العطف عليه، وإنما لم يخاطبهما أولاً تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تبع له. والجنة دار الثواب، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها. ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال إنه بستان كان بأرض فلسطين، أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحمل الإيهام على الانتقال منه إلى أرض الهند كما في قوله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا﴾ ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً، صفة مصدر محذوف.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحة للعلة، والعذر في تناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفاتنة للحصر.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه مبالغات، تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات



التناول مبالغة في تحريمه، ووجوب الاجتناب عنه، وتنبهها على أن القرب من الشيء يورث داعية، وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم» فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافة أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو ينقص حظهما بالإتيان بما يخل بالكرامة والتعظيم، فإن الفاء تفيد السببية سواء جعلت للعطف على النهي أو الجواب له. والشجرة هي الحنطة، أو الكرمة، أو التينة، أو شجرة من أكل منها أحدث، والأولى أن لا تعين من غير قاطع كما لم تعين في الآية لعدم توقف ما هو المقصود عليه. وقرئ بكسر الشين، وتقرباً بكسر التاء وهذي بالياء.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

(36)

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أصدر زلتهما عن الشجرة وحملهما على الزلة بسببها، ونظير «عن» هذه في قوله تعالى ﴿وما فعلته عن أمري﴾. أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما، ويعضده قراءة حمزة فأزلهما وهما متقاربان في المعنى، غير أن أزل يقتضي عثرة مع الزوال، وإزاله قوله: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ وقوله: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ ومقاسمته إياها بقوله: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾. واختلف في أنه تمثل لهما فقاولهما بذلك، أو ألقاه إليهما على طريق الوسوسة، وأنه كيف توصل إلى إزلالهما بعدما قيل له: ﴿أخرج منها فإنك رجيم﴾. فقيل: إنه منع من الدخول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة، ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وقيل: قام عند الباب فناداهما. وقيل: تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخزنة. وقيل: دخل في فم الحية حتى دخلت به. وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من الكرامة والنعيم.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ خطاب لآدم عليه الصلاة والسلام وحواء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾. وجمع الضمير لأنهما أصلا الجنس فكأنهما الإنس كلهم. أو هما وإبليس أخرج منها ثانياً بعدما كان يدخلها للوسوسة، أو دخلها مسارقة أو من السماء.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير، والمعنى متعادين يبغي بعضكم على بعض بتضليله.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرار.

﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ سَوْءُ النَّوَابِطِ الرَّحِيمِ﴾ (37)

﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرأ ابن كثير بنصب ﴿آدم﴾ ورفع الكلمات على أنها استقبلته وبلغته وهي قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، وقيل: سبحانه اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك، قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك، قال: بلى، قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك، قال: بلى، قال: ألم تسكني جنتك، قال: بلى، قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة قال: نعم. وأصل

الكلمة: الكلم، وهو التأثير المدرك بإحدى الحاستين السمع والبصر كالكلام والجراحة والحركة.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، وإنما رتبته بالفاء على تلقي الكلمات لتضمنه معنى التوبة: وهو الإعراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه. وأكتفي بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له في الحكم ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاء على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة، وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها البارئ تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، وفي الجمع بين الوصفين، وعد للتائب بالإحسان مع العفو.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (38)

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر للتأكيد، أو لاختلاف المقصود فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضله هلك، والتنبيه على أن مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحدها كافية للحازم أن تعوقه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى، فكيف بالمقترن بهما، ولكنه نسي ولم نجد له عزمًا، وأن كل واحد منهما كفى به نكالا لمن أراد أن يذكر. وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض وهو كما ترى. و ﴿جميعاً﴾ حال في اللفظ تأكيد في المعنى كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد كقولك: جاؤوا جميعاً ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، وما مزيدة أكدت به إن ولذلك حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب، والمعنى: إن يأتينكم مني هدى يأنزل أو إرسال، فمن تبعه منكم نجا وفاز، وإنما جيء بحرف الشك، وإتيان الهدى كائن لا محالة لأنه محتمل في نفسه غير واجب عقلاً، وكرر لفظ الهدى ولم يضمم لأنه أراد بالثاني أعم من الأول، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل، أي: فمن تبع ما أتاه مراعيًا فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يحل بهم مكروه، ولا هم يفوت عنهم محبوب فيحزنوا عليه، فالخوف على المتوقع والحزن على الواقع نفى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على أكد وجهه وأبلغه. وقرئ هدى على لغة هذيل ولا خوف بالفتح.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (39)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ عطف على ﴿فمن تبع﴾ إلى آخره قسيم له كأنه قال: ومن لم يتبع بل كفروا بالله، وكذبوا بآياته، أو كفروا بالآيات جناناً، وكذبوا بها لساناً فيكون الفعلان متوجهين إلى الجار والمجرور. والآية في الأصل العلامة الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل، واشتقاقها من آي لأنها تبين آياً من أي أو من أوى إليه، وأصلها آية أو أوية كتمرة، فأبدلت عينها ألفاً على غير قياس. أو آية. أو أوية كرمكة فأعلت. أو آية كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفاً. والمراد ﴿بآياتنا﴾ الآيات المنزلة، أو ما يعمها والمعقولة. وقد تمسكت الحشوية بهذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه:

الأول: أن آدم صلوات الله عليه كان نبياً، وارتكب المنهي عنه والمرتكب له عاص.

والثاني: أنه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾.

والثالث: أنه تعالى أسند إليه العصيان، فقال ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾.

والرابع: أنه تعالى لقنه التوبة، وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه.

والخامس: اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله تعالى إياه بقوله: ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ والخاسر من يكون ذا كبيرة.

والسادس: أنه لو لم يذنب لم يعجر عليه ما جرى. والجواب من وجوه.

الأول: أنه لم يكن نبياً حينئذ، والمدعي مطالب بالبيان.

والثاني: أن النهي للتنزيه، وإنما سمي ظالماً وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الأولى له. وأما إسناد الغي والعصيان إليه، فسيأتي الجواب عنه في موضعه إن شاء الله تعالى. وإنما أمر بالتوبة تلافياً لما فات عنه، وجرى عليه ما جرى معاتباً له على ترك الأولى، ووفاء بما قاله للملائكة قبل خلقه.

والثالث: أنه فعله ناسياً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان، ولعله وإن حط عن الأمة لم يحط عن الأنبياء لعظم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأئمة فالأئمة». أو أدى فعله إلى ما جرى عليه على طريق السببية المقدرة دون المؤاخذه على تناوله، كتناول السم على الجاهل بشأنه. لا يقال إنه باطل لقوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، و ﴿قاسمهما﴾ الآيتين، لأنه ليس فيهما ما يدل على أن تناوله حين ما قال له إبليس، فلعل مقاله أورت فيه ميلاً طبعياً، ثم إنه كف نفسه عنه مراعاة لحكم الله تعالى إلى أن نسي ذلك، وزال المانع فحمله الطبع عليه.

والرابع: أنه عليه السلام أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه، فإنه ظن أن النهي للتنزيه، أو الإشارة إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بها الإشارة إلى النوع، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإنائهما». وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده. وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية، وأن التوبة مقبولة، وأن متبع الهدى مأمون العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلد، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هم فيها خالدون﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وعقبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيذاً، فإنها من حيث إنها حوادث محكمة تدل على محدث حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيث إن الإخبار بها على ما هو مثبت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمها، ولم يمارس شيئاً منها إخبار بالغيب معجز يدل على نبوة المخبر عنها، ومن حيث اشتغالها على خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك، تدل على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم، وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم، ويوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد ﷺ وما أنزل عليه فقال:

﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ يَلْ أَدْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ (40)﴾

﴿بنا بني إسرائيل﴾ أي أولاد يعقوب، والابن من البناء لأنه مبني أبيه، ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه فيقال: أبو الحرب، وبنت الفكر. وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية: صفوة الله، وقيل: عبد الله، وقرئ ﴿إسرائيل﴾ بحذف الباء وإسرا لبحذفهما و ﴿إسرائيل﴾ بقلب الهمزة ياء.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها، وتقيد النعمة بهم لأن الإنسان غيور حسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حملة الغيرة والحسد على الكفران والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حملة حب النعمة على الرضى والشكر. وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، وعليهم من إدراك زمن محمد ﷺ وقرىء ﴿اذْكُرُوا﴾ والأصل اذتذكروا. ونعمتي بإسكان الياء وفقاً وإسقاطها درجاً هو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها.

﴿وَأَوْفُوا بعهدي﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى حقن الدم والمال، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد ﷺ، أوف بعهدكم في رفع الأصار والإغلال. وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب. أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم، أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط. وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة، أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة. وتفصيل العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ إلى قوله: ﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. وقرىء أوف بالتشديد للمبالغة.

﴿وَيَايَ فَارِهِبُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد، وهو أكد في إفادة التخصيص من إياك نعيد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول، والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون. والرهبة: خوف مع تحرز. والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى.

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ ۖ وَلَا تَشْرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَتُقُونَ﴾ (41)

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إفراد للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصود والعمدة للوفاء بالعهد، وتقيد المنزل بأنه مصدق لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في القصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حق بالإضافة إلى زمانها، مراعى فيها صلاح من خطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وقته، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»، تنبيه على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبها ولذلك عرض بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ ۖ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشرين بزمانه. و ﴿أول كافر به﴾ وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير: أول فريق أو فوج، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به، كقولك كسانا حلة فإن قيل كيف نهوا عن التقدم في الكفر وقد سبقهم مشركوا العرب؟ قلت المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر كقولك أما أنا فلست بجاهل أو لا تكونوا أول كافر به. من أهل الكتاب، أو ممن كفر بما معه فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه، أو مثل من كفر من مشركي مكة. و ﴿أول﴾: أفعل لا فعل له، وقيل: أصله

أو آل من وأل، فأبدلت همزته واواً تخفيفاً غير قياسي أو أول من آل فقلبت همزته واواً وأدغمت.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جلت قليلة مستردة بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه. وقيل: كانوا يأخذون الرشى فيحرفون الحق ويكتمونه.

﴿وَإِنِّي فَأَتُقُونَ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا. ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية، فصلت بالرهبة التي هي مقدمة التقوى، ولأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد. أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك، والخطاب بالثانية لما خص أهل العلم، أمرهم بالتقوى التي هي منتهاه.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ (42)﴾

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ عطف على ما قبله. والليس الخلط وقد يلزمه جعل الشيء مشتبهاً بغيره، والمعنى لا تخلطوا الحق بالمنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ جزم داخل تحت حكم النهي كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال، ونهوا عن الإضلال بالتلبس على من سمع الحق والإخفاء على من لم يسمعه. أو نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع بمعنى مع، أي لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان، وبعضه أنه في مصحف ابن مسعود «وتكتمون» أي وأنتم تكتمون بمعنى كاتمين، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عالمين بأنكم لا بسون كاتمون فإنه أقيح إذ الجاهل قد يعذر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)﴾

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة. أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها. و «الزكاة» من زكا الزرع، إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم. أو من الزكاة بمعنى: الطهارة، فإنها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل.

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود. وقيل الركوع: الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع، قال الأصبط السعدي:

لَا تَذَلُّ الضَّعِيفُ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى كَعَ يَوْمًا وَالْدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبر: التوسع في الخير، من البر وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير، ولذلك قيل ثلاثة: بر في عبادة الله تعالى، وبر في مراعاة الأقارب. وبر في معاملة الأجانب.

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرسون سراً من نصحوه باتباع محمد ﷺ ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرسون بالصدقة ولا

يتصدقون ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تبيكت كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول بالعمل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعكم فيصدقكم عنه، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والعقل في الأصل الحس، سمي به الإدراك الإنساني لأنه يحبس عما يقبح، ويعقله على ما يتحسن، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك. والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوء صنيعه وخيب نفسه، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحقق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شكيمته، والمراد بها حث الواعظ على تركية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم فيقيم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (45)

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ متصل بما قبله، كأنهم لما أمروا بما يشق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك، والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلاً على الله، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة، وتصفية النفس. والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. ويجوز أن يراد بها الدعاء:

﴿وإنها﴾: أي وإن الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها، لعظم شأنها واستجماعها ضرورياً من الصبر. أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لثقل شاقة كقوله تعالى: ﴿كَبِيرٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي المخبتين، والخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة. والخضوع اللين والانقياد، ولذلك يقال الخضوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (46)

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيهم، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود «يعلمون» وكان الظن لما شابه العلم في الرجحان أطلق عليه لتضمن معنى التوقع، قال أوس بن حجر شعر:

فَأَرْسَلْتُهُ مُسْتَقِيسَ الظِّلِّ أَنَّهُ مُخَالِطٌ مَا بَيْنَ الشَّرَاسِيفِ جَائِفُ

وإنما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة بأمثالها، متوقفة في مقابلتها ما يستحق لأجله مشاقها ويستلذ بسببه متاعها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام «وجعلت قرعة عيني في الصلاة».

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (47)

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرره للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربطه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخل بحقوقها.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على نعمتي.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم، يريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة والسلام وبعده، قبل أن يضرروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على المَلَك وهو ضعيف.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (48)

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي ما فيه من الحساب والعذاب.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدر، وقرئ لا ﴿تجزيء﴾ من أجزاء عنه إذا أغنى وعلى هذا تعين أن يكون مصدراً، وإيراده منكراً مع تنكير النفسين للتعميم والإقناط الكلي والجملة صفة ليوماً، والعائد فيها محذوف تقديره لا تجزي فيه، ومن لم يجوز حذف العائد المحرور قال اتسع: فيه فحذف عنه الجار وأجري مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف من قوله: أم مال أصابوا.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي من النفس الثانية العاصية، أو من الأولى، وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل، فإنه إما أن يكون قهراً أو غيره، والأول النصر، والثاني إما أن يكون مجاناً أو غيره. والأول أن يشفع له والثاني إما بأداء ما كان عليه وهو أن يجزي عنه، أو بغيره وهو أن يعطى عنه عدلاً. والشفاعة من الشفع كأن المشفوع له كان فرداً فجعله الشفع شفعاً بضم نفسه إليه، والعدل الفدية. وقيل: البدل وأصله التسوية سمي به الفدية لأنها سميت بالمفدى، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تقبل بالتاء.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله، والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق النفس من النفوس الكثيرة، وتذكيره بمعنى العباد. أو الأناسي والنصر أخص من المحونة لاختصاصه بدفع الضر. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت رداً لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم.

﴿وَلَا تَجْنِبْنَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ

مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (49)

﴿وَأِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تفصيل لما أجمله في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعطف على ﴿نعمتي﴾ عطف ﴿جبريل﴾ و ﴿ميكائيل﴾ على ﴿الملائكة﴾، وقرئ «أنجيتكم». وأصل ﴿آل﴾ أهل لأن تصغيره أهيل، وخص بالإضافة إلى أولي الخطر كالأنبياء والملوك. و ﴿فرعون﴾ لقب لمن ملك العمالة ككسرى وقصر لملكي الفرس والروم. ولعتوهم اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتجير، وكان فرعون موسى، مصعب بن ريان، وقيل ابنه وليد من بقايا عاد. وفرعون يوسف عليه السلام، ريان وكان بينهما أكثر من أربعمئة سنة.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ييغونكم، من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أظفعه فإنه قبيح بالإضافة إلى سائره، والسوء مصدر ساء يسوء ونصبه على المفعول

ليسومونكم، والجملة حال من الضمير في نجيناكم، أو من ﴿أَلْ فِرْعَوْنَ﴾، أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل واحد منهما.

﴿يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك لم يعطف، وقرئ ﴿يَذْبَحُونَ﴾ بالتخفيف. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن فرعون رأى في المنام، أو قال له الكهنة: سيولد منهم من يذهب بملكه، فلم يرد اجتهداهم من قدر الله شيئاً.

﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ﴾ محنة، إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء، وأصله الاختبار لكن لما كان اختبار الله تعالى عباده تارة بالمحنة وتارة بالمنحة أطلق عليهما، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة ويراد به الامتحان الشائع بينهما.

﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم، أو بيعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم، أو بهما. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر إختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَجْمَعْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ (50)

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالك بسلوككم فيه. أو بسبب إنجائكم، أو ملتبساً بكم كقوله:

تَلُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمِ وَالْثَسْرِيَا

وقرئ ﴿فَرَقْنَا﴾ على بناء التكرير لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط.

﴿فَأَجْمَعْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أراد به فرعون وقومه، واقتصر على ذكرهم للعلم بأنه كان أولى به، وقيل شخصه كما روي أن الحسن رضي الله تعالى عنه كان يقول: اللهم صل على آل محمد. أي شخصه واستغني بذكره عن ذكر أتباعه.

﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ ذلك، أي غرقهم وإطباق البحر عليهم، أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذلة، أو جثثهم التي قذفها البحر إلى الساحل، أو ينظر بعضكم بعضاً. روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم فصباحهم فرعون وجنوده، وصادفهم على شاطئ البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن أضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها فقالوا: يا موسى نخاف أن يغرق بعضنا ولا نعلم، ففتح الله فيها كوى فتراؤوا وتسامعوا حتى عبروا البحر، ثم لما وصل إليه فرعون ورآه منفلقاً اقتحم فيه هو وجنوده فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين.

واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني إسرائيل، ومن الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ونحو ذلك، فهم بمعزل في الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد ﷺ، مع أن ما تواتر من معجزاته أمور نظرية مثل: القرآن والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد ﷺ دقيقة تدركها الأذكىاء، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مر تقريره.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَاهُ الْوَعْدَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (51)

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه



التوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحزمة والكسائي ﴿وواعدنا﴾ لأنه تعالى وعده الوحي. ووعد موسى عليه السلام المعجي للميقات إلى الطور.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ إِلَهًا أَوْ مَعْبُودًا.

﴿مَنْ بَعْدَهُ﴾ من بعد موسى عليه السلام، أو مُضِيٍّ.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بإشراككم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (52)

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ حين تبتم، والعفو محو الجريمة، من عفا إذا درس. ﴿مَنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي الانتخاذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا عفو.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (53)

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وحجة تفرق بين الحق والباطل. وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى، أو بين الكفر والإيمان. وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام، أو النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يريد به يوم بدر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلى من خلقكم برأء من التفاوت، ومميزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة، وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل التقصي كقولهم بريء المريض من مرضه والمديون من دينه، أو الإنشاء كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا.

﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخع، أو قطع الشهوات كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها. وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً. وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتل العبد. روي أن الرجل كان يرى بعضه وقريبه فلم يقدر على المضي لأمر الله، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة، وكانت القتلى سبعين ألفاً. والفاء الأولى للتسبب، والثانية للتعقيب.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمُ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (54)

﴿ذَلِكَمُ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بمحذوف إن جعلته من كلام موسى عليه السلام لهم تقديره: إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم، أو عطف على محذوف إن جعلته خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، كأنه قال: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئكم. وذكر الباري وترتيب الأمر عليه إشعاراً بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة، حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة، وأن من لم

يعرف حق منعه حقيق بأن لا يسترد منه، ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ للذي يكثر توفيق التوبة، أو قبولها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يُؤْمَسَىٰ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ (55)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لأجل قولك، أو لن نقر لك.

﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً وهي في الأصل مصدر قولك: جهرت بالقراءة، استعيرت للمعاينة، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، أو الحال من الفاعل، أو المفعول. وقرئ جهرة بالفتح على أنها مصدر كالغلبة، أو جمع جاهر كالكتبة فيكون حالاً من الفاعل قطعاً، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات. وقيل عشرة آلاف من قومه. والمؤمن به: إن الله الذي أعطاك التوراة وكلمك، أو إنك نبي.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل، فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا. قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم. وقيل صيحة. وقيل جنود سمعوا بحسبها فخرجوا صاعقين ميتين يوماً وليلة.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ما أصابكم بنفسه أو أثره.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (56)

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بسبب الصاعقة، وقيد للبعث لأنه قد يكون عن إغماء، أو نوم كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث، أو ما كفرتموه لما رأيتم بأس الله بالصاعقة.

﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰى كُلًّا مِنْ طَٰيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (57)

﴿وَوَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ سخر الله لهم السحاب يظلمهم من الشمس حين كانوا في التيه.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰى﴾ الترنجيب والسماوي. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع، وتبعث الجنوب عليهم السماوي، وينزل بالليل عمود نار يسببون في ضوءه، وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى.

﴿كُلُّوا مِنْ طَٰيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ على إرادة القول.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه اختصار، وأصله فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ

وَسَارِعُوا إِلَى الْبَابِ﴾ (58)

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ يعني بيت المقدس، وقيل أريحا أمروا به بعد التيه.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً، ونصبه على المصدر، أو الحال من الواو.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي باب القرية، أو القبة التي كانوا يصلون إليها، فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿سُجِّدُوا﴾ متطامنين محبتين، أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي مسألتنا، أو أترك حطة وهي فعلة من الحط كالجلسة، وقرئ بالنصب على الأصل بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، أو على أنه مفعول ﴿قولوا﴾ أي قولوا هذه الكلمة. وقيل معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونقيم بها.

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسجودكم ودعائكم. وقرأ نافع بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمفعول. وخطايا أصله خطايء كخطايح، فعند سيبويه أنه أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان فأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً، وكانت الهمزة بين الألفين فأبدلت ياء. وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بهما ما ذكر.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً، جعل الامتثال توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله، وأنه تعالى يفعل لا محالة.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

(59) ﴿

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب ما يشتهون من أعراض الدنيا.

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كرهه مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها.

﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجز في الأصل: ما يعاف عنه، وكذلك الرجز. وقرئ بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ

كُلُّ أَنَاثٍ مِّشْرِيقَهُمْ كُتِلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)﴾

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما عطشوا في التيه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً حملة معه، وكانت

تنبع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسى مع العصا، أو الحجر الذي فر بثوبه لما وضعه عليه ليغسل وبرأه الله به عما رموه به من الأذرة، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله، أو للجنس وهذا أظهر في الحجة. قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه، ولكن لما قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها؟ حمل حجراً في مخلاته، وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر، ويضربه بها

إذا ارتحل فييس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحى الله إليه لا تقزع الحجر وكلمه يطعك لعلمهم يعتبرون. وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آسن الجنة ولها شجبتان تتقدان في الظلمة.

﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: فإن ضربت فقد انفجرت، أو فضرِب فأنفجرت، كما مر في قوله تعالى: ﴿فَنَابِ عَلَيْهِمْ﴾. وقرئ عِشْرَةٌ بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مُشْرِبُهُمْ﴾ عنينهم التي يشربون منها. ﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا﴾ على تقدير القول:

﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون. وقيل الماء وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به. ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تعتدوا حال إفسادكم، وإنما قيده لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر عليه السلام الغلام وخرقه السفينة، ويقرب منه العيث غير أنه يغلب فيما يدرك حساً، ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه، فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر وينفر عن الخل ويجذب الحديد، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ يَا مُوسَى لَنْ نُصْبرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدْ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَها قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا إِنَّ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ كَانُوا يَكْفُرُونَ يَعَانِيَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْيَتِيمَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُصْبرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدْ﴾ يريدون به ما رزقوا في التيه من المن والسلوى. وبوحده أنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم طعام مائدة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه وبذلك أجمعوا أو ضرب واحد، لأنهما طعام أهل التلذذ وهم كانوا فلاحه فزعوا إلى عكرهم واشتهوا ما ألفوه. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سله لنا بدعائك إياه ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يظهر ويوجد، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة. ﴿مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الإسناد المجازي، وإقامة القابل مقام الفاعل، ومن للتبويض. ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَها﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال، وقيل بدل بإعادة الجار. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل، والفوم الحنطة ويقال للحبز ومنه فوموا لنا، وقيل الثوم وقرئ قثائها بالضم، وهو لغة فيه. ﴿قَالَ﴾ أي الله، أو موسى عليه السلام. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أقرب منزلة وأدون قدراً. وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة، فقليل بعيد المحل بعيد الهمة، وقرئ «أدناً» من الدناءة. ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خير في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ انحذروا إليه من التيه، يقال هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج منه، وقرئ بالضم والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيتين، وقيل أراد به العلم، وإنما صرفه لسكون وسطه أو على تأويل البلد، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود. وقيل أصله مصريهم فغرب. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط، مجازاة لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا مِنْ اللَّهِ﴾

رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، من باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، وأصل البوء المساواة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان، وآية الرجم والتي فيها نعت محمد ﷺ من التوراة، وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياً وذكرياً ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات، وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها. وقيل كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر، والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى. وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل، والياء بمعنى مع وإنما جوزت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعداً على تأويل ما ذكر، أو تقدم للإختصار، ونظيره في الضمير قول رؤية يصف بقرة:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقَ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلَّيْعُ الْبَهَقِ

والذي حسن ذلك أن تثنية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (62)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسنتهم، يريد به المتدينين بدين محمد ﷺ المخلصين منهم والمنافقين، وقيل المنافقين لانخراطهم في سلك الكفرة ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ يهودا، يقال هاد وتهود إذا دخل في اليهودية، ويهود: إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع نصران كندامى وندمان، والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمرى، سموا بذلك لأنهم نصرروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها. ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام. وقيل هم عبدة الملائكة. وقيل عبدة الكواكب، وهو إن كان عربياً فمن صبا إذا خرج. وقرأ نافع وحده بالياء إما لأنه خفف الهمزة وأبدلها ياء، أو لأنه من صبا إذا مال لأنهم مالوا عن سائر الأديان إلى دينهم، أو من الحق إلى الباطل.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ - مصداقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وعد لهم على إيمانهم وعملهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتقويت الثواب. و ﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والجملة خبر إن، أو بدل من اسم إن وخبرها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والفاء لتضمن المسند إليه معنى الشرط، وقد منع سيويه دخولها في خبر إن من حيث إنها لا تدخل الشرطية، ورد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم﴾.

﴿وَلَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ يَقُورَ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (63)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ باتباع موسى والعمل بالتوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ حتى أعطيت الميثاق، روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا. ﴿خُذُوا﴾ على إرادة القول: ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب، أو اعملوا به. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو رجاء منكم أن تكونوا متقين. ويجوز عند المعتزلة أن يتعلق بالقول المحذوف، أي: قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد ﷺ يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه. ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي، أو بالخط والضلال في فترة من الرسل. ولو في الأصل لامتناع الشيء لامتناع غيره، فإذا دخل على لا أفاد إثباتاً وهو امتناع الشيء لثبوت غيره، والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف للدلالة الكلام عليه وسد الجواب مسده، وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ (65)﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ اللام موطئة لقسم، والسبت مصدر قولك سبت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وأصله القطع أمروا بأن يجردوه للعبادة فاعتدى فيه ناس منهم في زمن داود عليه السلام، واشتغلوا بالصيد، وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية على ساحل يقال لها أيلة، وإذا كان يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا حضر هناك وأخرج خرطومه، فإذا مضى تفرقت فحفروا حياضاً وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ﴾ جامعين بين صورة القردة والخسوء: وهو الصغار والطرء، وقال مجاهد: ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم، فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وقوله: ﴿كُونُوا﴾ ليس بأمر إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المراد به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم، وقرئ قردة بفتح القاف وكسر الراء، وخاسين بغير همزة.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (66)﴾

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخوة، أو العقوبة. ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تنكل الاعتبار بها، أي تمنعه. ومنه النكل للقيء. ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم في زير الأولين، واشتهرت قصتهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومن بعدهم، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها، أو لأهل تلك القرية وما حوالها، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هَاهُ وَهَاهُ قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ

(67)﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أول هذه القصة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَاتَلْتُم نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا﴾ وإنما فكت عنه وقدمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساوئهم، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال. وقصته: أنه كان فيهم شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه

طمعاً في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله. ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُوءًا﴾ أي مكان هزؤ، أو أهله ومهزوءاً بنا، أو الهزأ نفسه لفرط الاستهزاء استبعاداً لما قاله واستخفافاً به، وقرأ حمزة وإسماعيل عن نافع بالسكون، وحفص عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واواً. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزؤ في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً له.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (68)

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما حالها وصفتها، وكان حقهم أن يقولوا: أي بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ﴿مَا﴾ يسأل به عن الجنس غالباً، لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شيء من جنسه، أجروه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا مسنة ولا فتية، يقال فرضت البقرة فروضاً من الفرض وهو القطع، كأنها فرضت سنهها، وتركيب البكر للاولية ومن البكرة والباكورة.

﴿عَوَانٌ﴾ نصف. قال: نواعم بين أنكارٍ وعون.

﴿يُبَيِّنْ ذَلِكَ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد، وعود هذه الكنايات وإجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة، ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب، ومن أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة من شق البقر غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بسؤالهم، ويلزمه النسخ قبل الفعل، فإن التخصيص إبطال للتخيير الثابت بالنص والحق جوازهما، ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم». وتقريعهم بالتمادي وزجرهم على المراجعة بقوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قولهم: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به، أو أمركم بمعنى مأموركم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرَ﴾ (69)

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ الفقوع نصوع الصفرة ولذلك تؤكد به، فيقال: أصفر فاقع كما يقال أسود حالك، وفي إسناده إلى اللون وهو صفة صفراء لملاسته بها فضل تأكيد كأنه قيل؛ صفراء شديدة الصفرة صفرتها، وعن الحسن سوداء شديدة السواد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جملات صفر﴾. قال الأعشى:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفُرٌ أَوْلَاذُهَا كَالزَّيْبِ

ولعله عبر بالصفرة عن السواد لأنها من مقدماته، أو لأن سواد الإبل تعلوه صفرة وفيه نظر، لأن الصفرة بهذا المعنى لا تؤكد بالفقوع «تسرُّ النَّظِيرَ» أي تعجبهم، والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع، أو توقعه من السر.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (70)

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد. وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ





لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب، ونفع اليتيم والتنبه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بثنائه، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه ضحى بنجية اشتراها بثلاثمائة دينار. وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى، والأسباب أمارات لا أثر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إمامته الموت الحقيقي، فطريقه أن يذبح بقرة بنفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا، ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذلة في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه، فتحيا حياة طيباً، وتعرب عما به يتكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التداريء والنزاع.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر. وقساوة القلب مثل في نبوه عن الاعتبار، وثم الاستبعاد القسوة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني إحياء القليل، أو جميع ما عدد من الآيات فإنها مما توجب لين القلب. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها، والمعنى أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وبعضه قراءة الحسن بالجر عطفاً على الحجارة، وأنما لم يقل أقسى لما في أشد من المبالغة، والدلالة على اشتداد القسوتين واشتمال المفضل على زيادة و ﴿أَوْ﴾ للتخيير، أو للترديد بمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها.

﴿وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تحليل للتفصيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفعل فإن منها ما يتشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى. والتفجر التفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد، وقرئ ﴿إِنْ﴾ على أنها المخففة من الثقيلة وتلزمها اللام الفارقة بينها وبين إن النافية، ويهبط بالضم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد على ذلك، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب وخلف وأبو بكر بالياء ضمًا إلى ما بعده، والباقون بالتاء.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْعَنُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا مِنْهُ يَتْلُمُونَ (75)﴾

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يصدقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم. يعني اليهود. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ طائفة من أسلافهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني التوراة. ﴿ثُمَّ يَلْعَنُونَ﴾ كنعت محمد ﷺ، وآية الرجم. أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون. وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور، ثم قالوا سمعنا الله تعالى يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، ومعنى الآية: أن أحبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة، فما ظنك بسفلتهم وجهالهم، وأنهم إن كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76)﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني منافقيهم. ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو الميسر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بِغُضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ أي الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد ﷺ، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فيناقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقرير وعلى الثاني إنكار ونهي ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم بكتاب الله وحكمه محاجة عنده كما يقال عند الله كذا، ويراد به أنه جاء في كتابه وحكمه، وقيل عند ذكر ربكم، أو بين يدي رسول ربكم. وقيل عند ربكم في القيامة وفيه نظر إذ الإخفاء لا يدفعه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إما من تمام كلام اللاتمين وتقديره: أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم به فيحجونكم، أو خطاب من الله تعالى للمؤمنين متصل بقوله: ﴿أَفْتَضِعْمُون﴾، والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم.

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)﴾

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللاتمين، أو كليهما، أو إياهم والمحرفين. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن جملة ما أسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يِعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)﴾

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يِعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ جهلة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها. أو التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ استثناء منقطع. والأمانى: جمع أمانة وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من منى إذا قدر، ولذلك تطلق، على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ والمعنى ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرفين أو مواعيد فارغة. سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة. وقيل إلا ما يقرؤون قراءة عارية عن معرفة المعنى وتدبره من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمْنَى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رَسْلِ

وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم، وقد يطلق الظن بإزاء العلم على كل رأي واعتقاد من غير قاطع، وإن جزم به صاحبه: كاعتقاد المقلد والزائف عن الحق لشبهة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا

كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)﴾

﴿فَوَيْلٌ﴾ أي تحسر وهلك. ومن قال إنه واد أو جبل في جهنم فمعناه: أن فيها موضعاً يتبوأ فيه من جعل له الويل، ولعله سماه بذلك مجازاً. وهو في الأصل مصدر لا فعل له وإنما ساغ الابتداء به نكرة لأنه دعاء. ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني المحرفين، ولعله أراد به ما كتبه من التأويلات الزائفة. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد كقولك: كتبه بيمينه ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كي يحصلوا به عرضاً من أعراض الدنيا، فإنه وإن جعل قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم. ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني المحرف. ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يريد به الرشى.

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَكُونُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (80)

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَنَا النَّارُ ﴾ المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به، واللمس كالطلب له ولذلك يقال ألمسه فلا أجدّه. ﴿ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً ﴾ محصورة قليلة، روي أن بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادة العجل أربعين يوماً، وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿ قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ خبراً أو وعد بما تزعمون. وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال. والباقون بإدغامه ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخلف في خبره محال.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أم معادلة لهزمة الاستفهام بمعنى أي الأمرين كائن، على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما، أو منقطعة بمعنى: بل أنقولون، على التقرير والتقرير.

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (81)

﴿ بَلَىٰ ﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، وتختص بجواب النفي ﴿ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ قبيحة، والفرق بينها وبين الخطيئة أنها قد تقال فيما يقصد بالذات، والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لأنه من الخطأ، والكسب: استجلاب النفع. وتعليقه بالسيئة على طريق قوله: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾.

﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أي استولت عليه، وشملت جملة أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبه، وهذا إنما يصح في شأن الكافر لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فلم تحط الخطيئة به، ولذلك فسرهما السلف بالكفر. وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجره إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها معتقداً أن لا لذة سواها، مبغضاً لمن يمنعه عنها مكذباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَافُوا السَّوْءَىٰ أَنْ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ ﴾. وقرأ نافع ﴿ خَطِيئَاتِهِ ﴾. وقرئ «خطيئته» و«خطيئاته» على القلب والإدغام فيهما. ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ دائمون، أو لا يثون لبثاً طويلاً. والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة وكذا التي قبلها.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (82)

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده، لترجي رحمته ويخشى عذابه، وعطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (83)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ إخبار في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾. وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه

وبعضه قراءة: «لا تعبدوا». وعطف «قولوا» عليه فيكون على إرادة القول. وقيل: تقديره أن لا يعبدوا فلما حذف أن رفع كقوله:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضِرِ الْوَعْيَ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

ويدل عليه قراءة: «ألا تعبدوا»، فيكون بدلاً عن الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار. وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قال: وحلفناهم لا يعبدون. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به، والباقون بالياء لأنهم غيب «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» تعلق بمضمر تقديره: وتحسنون، أو أحسنوا «وَوِزِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ» عطف على الوالدين. «وَالْيَتَامَى» جمع يتيم كنديم وندامى وهو قليل. ومسكين مفعيل من السكون، كأن الفقر أسكنه «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا» أي قولاً حسناً، وسماه «حسناً» للمبالغة. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب حسناً بفتحتين. وقرىء «حسناً» بضميتين وهو لغة أهل الحجاز، وحسنى على المصدر كشرى والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ» على طريقة الالتفات، ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومن قبلهم على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه «إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ» يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم «وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ» قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء والطاعة. وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة إلى جهة العرض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾ (84)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ على نحو ما سبق والمراد به أن لا يتعرض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما جعل قتل الرجل غيره قتل نفسه، لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجهه قصاصاً. وقيل معناه لا ترتكبوا ما يبيح سفك دماؤكم وإخراجكم من دياركم، أو لا تفعلوا ما يردىكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقتربوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم، فإنه الجلاء الحقيقي «ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ» بالميثاق واعترفتم بلزومه «وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ» توكيد كقولك. أقر فلان شاهداً على نفسه. وقيل وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ أَقْبِلُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (85)

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما ارتكبه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه. وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره على معنى أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون، كقولك أنت ذلك الرجل الذي فعل كذا، نزل تغير الصفة منزلة تغير الذات، وعدهم باعتبار ما أسند إليهم حضوراً وباعتبار ما سيحكي عنهم غيباً. وقوله تعالى: «تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ» إما حال والعامل فيها معنى الإشارة، أو بيان لهذه الجملة. وقيل: هؤلاء تأكيد، والخبر هو الجملة. وقيل بمعنى الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر، وقرىء «تَقْتُلُونَ» على التكرير. «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» حال من فاعل تخرجون، أو من مفعوله، أو كليهما. والتظاهر التعاون من الظهر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف إحدى التاءين. وقرىء بإظهارها، وتظهرون بمعنى تتظهرون «وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ» روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء

الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كل فريق حلفاءه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أسر أحد من الفريقين جمعوا له حتى يفتدوه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسكم كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. وقرأ حمزة ﴿أَسْرَى﴾ وهو جمع أسير كجريح وجرحى، وأسارى جمعه كسكرى وسكاري. وقيل هو أيضاً جمع أسير، وكأنه شبه بالكسلان وجمع جمعه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمة وابن عامر «تفدوهم» ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متعلق بقوله «وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم»، وما بينهما اعتراض، والضمير للشأن، أو مبهم ويفسره إخراجهم، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون من المصدر. وإخراجهم بدل أو بيان ﴿أَفْتَوُمُونِ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ يعني الفداء.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ﴾ يعني حرمة المقاتلة والإجلاء. ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كقتل قريظة وسبيهم. وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية على غيرهم. وأصل الخزي ذل يستحيا منه، ولذلك يستعمل في كل منهما. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم أشد. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد، أي الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم. وقرأ عاصم في رواية المفضل، «تردون» على الخطاب لقوله ﴿منكم﴾. وابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وخلف ويعقوب «يعملون» على أن الضمير لمن.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (86) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بنقض الجزية في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (87)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾. يقال قفاه إذا تبعه، وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا، نحو ذنبه من الذنب ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتَ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات. أو الإنجيل، وعيسى بالعبرية أشوع. ومريم بمعنى الخادم، وهو بالعربية من النساء كالزير من الرجال، قال روبة: قُلْتُ لَزِيرٍ لَمْ تَصْلُهُ مَرْيَمَ. ووزنه مفعول إذ لم يثبت فعيل ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ وقويناه، وقرىء «آيدناه» بالمد ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق، وأراد به جبريل. وقيل: روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى، أو لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، أو الإنجيل، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى، وقرأ ابن كثير «القدس» بالإسكان في جميع القرآن ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾ بما لا تحبه. يقال هوى بالكسر هوى إذا أحب هوىاً بالفتح هوى بالضم إذا سقط. ووسطت الهمة بين الفاء وما تعلق به تويخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجباً من شأنهم، ويحتمل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدر، ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل. ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فطيع. أو مراعاة للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (88)﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ مغشاة بأغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن وقيل أصله غلف جمع غلاف فخفف، والمعنى أنها أوعية للعلم لا تسمع علماً إلا وعته، ولا تعي ما تقول. أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره. ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ رد لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم، أو أنها لم تأب قبول ما نقوله لخلل فيه، بل لأن الله تعالى خذلهم بكفرهم كما قال تعالى: ﴿فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾، أو هم كفرة ملحونون، فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك؟ ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيده للمبالغة في التقليل، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: أراد بالقلة العدم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم، وقرىء بالنصب على الحال من كتاب لتخصيصه بالوصف، وجواب لما، محذوف دل عليه جواب لما الثانية. ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت، في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم، وقد قرب زمانه، والسين للمبالغة والإشعار أن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ من الحق. ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة. ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي عليهم، وأتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولاً لأن الكلام فيهم.

﴿يَتَسَكَّأُ اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَشِيرًا لِّمَن يَرْزُقُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

فَبَاءَ وَبَغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (90)﴾

﴿بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ ما نكرة بمعنى شيء مميزة لفاعل بشس المستكن، واشتروا صفته ومعناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا. ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ هو المخصوص بالذم ﴿بَغِيًّا﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً، وهو علة ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ دون ﴿اشْتَرَوْا﴾ للفصل. ﴿أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ﴾ لأن ينزل، أي حسدوه على أن ينزل الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب بالتخفيف. ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ يعني الوحي. ﴿عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على من اختاره للرسالة ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزيز ابن الله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة لذنبه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِينَا إِنَّا نؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾

﴿مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ (91)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها. ﴿قَالُوا تَوْفِينَا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ حال من الضمير في قالوا، ووراء في الأصل جعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتواري به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الضمير لما وراءه، والمراد به القرآن ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم،

فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع إدعاء الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغه، وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه. وقرأ نافع وحده أن «أنبياء الله» متهموزاً في جميع القرآن.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (92)

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى سِتْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد مجيء موسى، أو ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ حال، بمعنى اتخذتم العجل ظالمين لعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى، أو اعتراض بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم. ومساق الآية أيضاً لإبطال قولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام، لا لتكرير القصة وكذا ما بعدها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (93)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أي قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد واسمعوا سماع طاعة. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن. وفي قلوبهم: بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مجسمة، أو حلولية ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكن في قلوبهم ما سول لهم السامري ﴿قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي بالتوراة، والمخصوص بالذم محذوف نحو هذا الأمر، أو ما يعمه وغيره من قبائحهم المعدودة في الآيات الثلاث إلزاماً عليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تقرير للقدح. في دعواهم الإيمان بالتوراة، وتقديره إن كنتم مؤمنين بها لم يأمركم بهذه القبائح ولا يرخص لكم فيها إيمانكم بها، أو إن كنتم مؤمنين بها فبشما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذا لستم بمؤمنين.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (94)

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة بكم كما قلتم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ ونسبها على الحال من الدار. ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ سائرهم، واللام للجنس، أو المسلمين واللام للعهد ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها، وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: لا أبالي سقطت على الموت، أو سقط الموت علي. وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفين: الآن لاقي الأحبة محمداً وحزبه. وقال حذيفة رضي الله عنه حين اختصر: جاء حبيب على فاقة لا أفلح من ندم أي: على التمني، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (95)

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد ﷺ، والقرآن، وتحريف التوراة. ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان، آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه، عبر بها عن

النفس تارة والقدرة أخرى، وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لنقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليت لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي ﷺ «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان نريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي» ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، وفيه عمن هو لهم.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍهُ مِنْ الْعَذَابِ إِنْ يُعَمَّرُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (96) ﴿

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ من وجد بعقله الجاري مجرى علم، ومفعولاه هم وأحرص الناس، وتنكير حياة لأنه أريد بها فرد من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة، وقرئ باللام. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا. وإفرادهم بالذكر للمبالغة، فإن حرصهم شديد إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة، والزيادة في التوبيخ والتقريع، فإنهم لما زاد حرصهم - وهم مقرون بالجزاء على حرص المنكرين - دل ذلك على علمهم بأنهم صائرون إلى النار، ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا، فحذف أحرص لدلالة الأول عليه، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا: ﴿عزير ابنُ الله﴾، أي: ومنهم ناس يود أحدهم، وهو على الأولين بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ حكاية لودادتهم، ولو بمعنى ليت وكان أصله: لو أعمار، فأجرى على الغيبة لقوله: يود، كقولك حلف بالله ليفعلن ﴿وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍهُ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ يُعَمَّرُ﴾ الضمير لأحدهم، وأن يعمر فاعل مزحجه، أي وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره، أو لما دل عليه يعمر. وأن يعمر بدل منه. أو مبهم، وأن يعمر موضحه وأصل سنة سنة لقولهم سنوات. وقيل سنة كجبهة لقولهم سانهته وتسنتت النخلة إذا أنت عليها السنون، والزحزحة التباعد ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (97) ﴿

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ نزل في عبد الله بن سوريا، سأل رسول الله ﷺ عمن ينزل عليه بالوحي؟ فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا عادانا مرارا، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختصر، فبعثنا من يقتله فرآه ببابل فدفع عنه جبريل. وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه وإلا فبم تقتلون؟. وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوما، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام «لقد وافقك ربك يا عمر». وفي جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع في: المشهور «جبرئيل» كسلسيل قراءة حمزة والكسائي، و «جبريل» بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير، و «جبرئيل» كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر، و «جبريل» كقنديل قراءة الباقرين. وأربع في الشواذ: جبرائيل «جبرائيل» كجبراعيل، و «جبريل» وجبرين ومنع صرفه للعجمة، والتعريف، ومعناه عبد الله. ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ البارز الأول لجبريل، والثاني للقرآن، وإضمامه غير مذكور يدل على فخامة شأنه كأنه لتعنيه وفرط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره. ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ، وكان حقه على قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال: قل ما تكلمت به. ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾



بأمره، أو تيسيره حال من فاعله نزله. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أحوال من مفعوله، والظاهر أن جواب الشرط ﴿فإنه نزله﴾، والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع ريقه الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزول كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة، فحذف الجواب وأقيم علته مقامه، أو من عاداه فالسبب في عداوته أنه نزله عليك. وقيل محذوف مثل: فليمت غيظاً، أو فهو عدو لي وأنا عدو له.

كما قال:

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (98)

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أراد بعداوة الله مخالفته عناداً، أو معاداة المقربين من عباده، وصدر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾. وأفرد الملائكة بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما. ووضع الظاهر موضع المضمرة للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسول كفر. وقرأ نافع «ميكائيل» كميكاعل، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص «ميكال» كميعاد، والباقون «ميكائيل» بالهمزة والياء بعدها. وقرئ «ميكثل» كميكعل، و«ميكثيل» كميكعيل، وميكائل.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (99)

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي المتمردون من الكفرة، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عظمه كأنه متجاوز عن حده. نزل في ابن سوريا حين قال لرسول الله ﷺ، ما جئت بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فتنبك.

﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَكْثَرِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (100)

﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلموا عاهدوا، وقرئ بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا، ﴿أو كلموا عاهدوا﴾، وقرئ «عوهدهوا» و«عهدهوا». ﴿بَيِّنَاتٍ قَبْلَ أَكْثَرِهِمْ﴾ نقضه، وأصل النبد الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ رد لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاء.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَيِّنَاتٌ مِنْ أَلَّذِينَ أُولُوا الْكُتُبَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (101)

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿بَيِّنَاتٌ قَبْلَ أَكْثَرِهِمْ﴾ الذين أولوا الكتاب ككتاب الله، يعني التوراة، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه، ونبد لما فيها من وجوب الإيمان بالرسول المؤيدين بالآيات. وقيل ما مع الرسول ﷺ هو القرآن.

﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثل لإعراضهم عنه رأساً، بالإعراض عما يرمي به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه. ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون

المدلول عليهم بقوله: ﴿يَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وفرقة جاهرُوا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾. وفرقة لم يجاهرُوا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون. وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال، بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102)﴾

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ عطف على نبذ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها، أو تتبعها الشياطين من الجن، أو الإنس، أو منهما. ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾ أي عهده، وتتلو حكاية حال ماضية، قيل: كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدنونها ويعلمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يعلمون الغيب، وأن ملك سليمان تم بهذا العلم، وأنه تُسَحَّرُ به الجن والإنس والريح له. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه. ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ باستعماله، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي و﴿لَكِنْ﴾ بالتخفيف، ورفع ﴿الشَّيَاطِينَ﴾. ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إغواء وإضلالاً، والجملة حال من الضمير، والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس. فإن التناسب شرط في التضام والتعاون، وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعوثة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس، وتمييزاً بينه وبين المعجزة. وما روي أنهما مثلاً بشرين، وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها: زهرة، فحملتهما على المعاصي والشرك، ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفي على ذوي البصائر. وقيل: رجلا نسميا ملكين باعتبار صلاحهما، ويؤيده قراءة الملكين بالكسر. وقيل: ما أنزل نفي معطوف على ما كفر سليمان تكذيب لليهود في هذه القصة. ﴿بِبَابِلَ﴾ ظرف، أو حال من الملكين، أو الضمير في أنزل والمشهور أنه بلد من بلاد سواد الكوفة. ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ عطف بيان للملكين، ومنع صرفهما للعلمية والعجبة، ولو كانا من الهرة والمرت بمعنى الكسر لانصرفا. ومن جعل ما نافية أبديهما من الشياطين بدل البعض، وما بينهما اعتراض. وقرأ بالرفع على هما ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحا ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يعلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الضمير لما دل عليه من أحد. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي من السحر ما يكون سبب تفريقهما. ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأنه وغيره من

الأسباب غير مؤثرة بالذات، بل بأمره تعالى وجعله. قرء ﴿بضاري﴾ على الإضافة إلى أحد، وجعل الجار جزءاً منه والفصل بالظرف. ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود. ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى، والأظهر أن اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ نصيب ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يحتمل المعنيين على ما مر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يتفكرون فيه، أو يعلمون قبضه على التعيين، أو حقيقة ما يتبعه من العذاب، والمثبت لهم أولاً على التوكيد القسمي العقل الغريزي أو العلم الإجمالي يقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل؛ معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (103)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بالرسول والكتاب. ﴿وَآتَقَوْا﴾ بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله واتباع السحر ﴿لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ جواب لو، وأصله لأثبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات المثوبة والجزم بخيريتها، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه، وتذكير المثوبة لأن المعنى لشيء من الثواب خير، وقيل: لو للتمني، و ﴿لِمَثُوبَةٍ﴾ كلام مبتدأ. وقرء ﴿لِمَثُوبَةٍ﴾ كمشورة، وإنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جهلهم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (104)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ الرعي حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعنا أي راقبنا وتأن بنا فيما تلقننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترضوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التليس، وهو انظرنا بمعنى انظر إلينا. أو انتظرنا من نظره إذا انتظره. وقرء انظرنا من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ. وقرء راعونا على لفظ الجمع للتوقير، وراعنا بالتثنية أي قولاً ذا رعن نسبة إلى الرعن وهو الهوج، لما شابه قولهم راعينا وتسبب للسب. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتهم عنه. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبوه.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (105)

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير. والود: محبة الشيء مع تمنيه، ولذلك يستعمل في كل منهما، ومن للتبيين كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ مفعول يود، ومن الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للابتداء، وفسر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه وبالعلم وبالنصرة، ولعل المراد به ما يعم ذلك ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يستنبه ويعلمه الحكمة وينصره لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حق ﴿وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿إِشْعَارُ بَأْنِ النَّبُوَّةِ مِنَ الْفَضْلِ، وَأَنْ حَرَمَانَ بَعْضِ عِبَادِهِ لَيْسَ لَضَيْقِ فَضْلِهِ، بَلْ لِمَشِيئَتِهِ وَمَا عَرَفَ فِيهِ مِنْ حِكْمَتِهِ.

﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (106)

﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره، كنسخ الظل للشمس والنقل، ومنه التناسخ. ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخت الريح الأثر، ونسخت الكتاب. ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً. وإنساؤها إذهابها عن القلوب، وما شرطية جازمة لنسخ متصبة به على المفعولية. وقرأ ابن عامر ما نسخ من أنسخ أي نامرك أو جبريل بنسخها، أو نجدها منسوخة. وابن كثير وأبو عمرو «نساها» أي نؤخرها من النسء. وقرئ «ننساها» أي ننس أحداً إياها، و«ننساها» أي أنت، و«تنساها» على البناء للمفعول، و«ننساها» بإضمار المفعولين ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب. وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو خير منه. والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة، وذلك لأن الأحكام شرعت، والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره. واحتج بها من منع النسخ بلا بدل، أو يبدل أنقل. ونسخ الكتاب بالسنة، فإن النسخ هو المأتي به بدلاً والسنة ليست كذلك والكل ضعيف، إذ قد يكون عدم الحكم، أو الأثقل أصلح. والنسخ قد يعرف بغيره، والسنة مما أتى به الله تعالى، وليس المراد بالخير والمثل ما يكون كذلك في اللفظ. والمعتزلة على حدوث القرآن فإن التغير والتفاوت من لوازمه. وأجيب: بأنهما من عوارض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (107)

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته، لقوله: ﴿وما لكم﴾ وإنما أفردته لأنه أعلمهم، ومبدأ علمهم. ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو كالدليل على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم، والفرق بين الولي والنصير. أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيكون بينهما عموم من وجه.

﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

السَّبِيلِ﴾ (108)

﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أم معادلة للهمزة في ﴿ألم تعلم﴾ أي: ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادر على الأشياء كلها يأمر وينهى كما أراد، أم تعلمون وتقرحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام. أو منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه. قيل: نزلت في أهل الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء. وقيل: في المشركين لما قالوا ﴿لن نؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها، فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى

الآية لا تقترحوا فضلوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان. وقرء «يبدل» من أبدل.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (109)

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني أبحارهم. ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أن يردوكم، فإن لو تنوب عن إن في المعنى دون اللفظ: ﴿مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ مرتدين، وهو حال من ضمير المخاطبين ﴿حَسَدًا﴾ علة ود. ﴿مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ يجوز أن يتعلق بود، أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشبههم، لا من قبل التدين والميل مع الحق. أو بحسداً أي حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تثريبه. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف، وفيه نظر إذ الأمر غير مطلق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الانتقام منهم.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (110)

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطف على فاعفوا كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ﴾ كصلاة وصدقة. وقرء «تقدموا» من أقدم ﴿تَحْدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ثوابه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع عنده عمل. وقرء بالياء فيكون وعيداً.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (111)

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿ود﴾، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لف بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى﴾ ثقة بفهم السامع، وهود جمع هائد كعوذ وعائذ، وتوحيد الاسم المضممر في كان، وجمع الخبر لاعتبار اللفظ والمعنى. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إشارة إلى الأمانى المذكورة، وهي أن لا يتزل على المؤمنين خير من ربهم، وأن يردوهم كفاراً، وأن لا يدخل الجنة غيرهم، أو إلى ما في الآية على حذف المضاف أي أمثال تلك الأمانة أمانيتهم، والجملة اعتراض والأمنية أفعولة من التمني كالأضحوكة والأعجوبة. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت.

﴿بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (112)

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه، أو قصده، وأصله العضو ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ الذي وعد له على عمله ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ ثابتاً عن ربه لا يضيع ولا ينقص، والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة. والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله: بلى وحده، ويحسن الوقف عليه. ويجوز أن يكون من أسلم فاعل فعل مقدر مثل بلى يدخلها من أسلم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (113)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي على أمر يصح ويعتد به. نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا وتقاولوا بذلك. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الوار للحال، والكتاب للجنس أي: قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كعبدة الأصنام، والمعطلة. وبخهم على المكابرة والتشبه بالجهال. فإن قيل: لم وبخهم وقد صدقوا، فإن كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء؟ قلت: لم يقصدوا ذلك، وإنما قصد به كل فريق إبطال دين الآخر من أصله، والكفر بنبيه وكتابه مع أن ما لم ينسخ منهما حق واجب القبول والعمل به ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يفصل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب. وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (114)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ عام لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة. وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله. أو في المشركين لما منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثاني مفعولي منع ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم، أو التعطيل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً عن أن يمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نجز وعده. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي، أو ذلك بضرب الجزية ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (115)

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له الأرض كلها لا يختص به مكان، دون مكان، فإن منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو الأقصى فقد جعلت لكم الأرض مسجداً. ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿ثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان. أو ﴿ثَمَّ﴾ ذاته: أي هو عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء. أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها وعن ابن عمر رضي الله عنها وأنها نزلت في صلاة المسافر على الرحلة: وقيل: في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم، وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك. وقيل: هي توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود أن يكون في حيز وجهة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلِيلٌ﴾ (116)

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قال اليهود: ﴿عزير ابن الله﴾، والنصارى: ﴿المسيح ابن الله﴾،

ومشركوا العرب: الملائكة بنات الله، وعطفه على قالت اليهود، أو منع، أو مفهوم قوله تعالى ﴿ومن أظلم﴾. وقرأ ابن عامر بغير واو ﴿شُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء، ألا ترى أن الأجرام الفلكية - مع إمكانها وفنائها - لما كانت باقية ما دام العالم، لم تتخذ ما يكون لها كالولد اتخاذ الحيوان والنبات، اختياراً أو طبعاً. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رد لما قالوه، واستدلال على فساده، والمعنى أنه تعالى خالق ما في السموات والأرض، الذي من جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلُّ لَهٗ قَانِتُونَ﴾ متقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكونه الواجب لذاته: فلا يكون له ولد، لأن من حق الولد أن يجانس والده، وإنما جاء بما الذي لغير أولي العلم، وقال قانتون على تغليب أولي العلم تحقيقاً لشأنهم، وتنوين كل عوض عن المضاف إليه، أي كل ما فيهما. ويجوز أن يراد كل من جعلوه ولداً له مطيعاً مقرون بالعبودية، فيكون إلزاماً بعد إقامة الحجة، والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه، واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه، لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك، وذلك يقتضي تنافيهما.

﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (117)

﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، ونظيره السميع في قوله:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤْذَنُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

أو يديع سمواته وأرضه، من يدع فهو يديع، وهو حجة رابعة. وتقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفصل بانفصال مادته عنه، والله سبحانه وتعالى مبدع الأشياء كلها، فاعل على الإطلاق، منزّه عن الانفعال، فلا يكون والدًا. والإبداع: اختراع الشيء لا عن الشيء دفعة، وهو أليق بهذا الموضوع من الصنع الذي هو: تركيب الصور لا بالعنصر، والتكوين الذي يكون بتغيير وفي زمان غالباً. وقرئ يديع مجروراً على البدل من الضمير في له. ويديع منصوباً على المدح.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد شيئاً، وأصل القضاء إتمام الشيء قوة كقوله تعالى: ﴿وقضى ربك﴾، أو فعلاً كقوله تعالى: ﴿فقضاهن سبع سموات﴾. وأطلق على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يوجبه. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من كان التامة بمعنى احدث فيحدث، وليس المراد به حقيقة أمر وامتنال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة الأمور المطيع بلا توقف. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وإيماء إلى حجة خامسة وهي: أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة، وفعله تعالى مستغن عن ذلك. وقرأ ابن عامر ﴿فيكون﴾ بفتح النون. واعلم أن السبب في هذه الضلالة، أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى باعتبار أنه السبب الأول، حتى قالوا إن الأب هو الرب الأصغر، والله سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كفّر قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزَّلُ عَلَيْنَا ۚ إِنَّهُ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ ۚ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (118)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله. ﴿أَوْ تَنَزَّلُ عَلَيْنَا ۚ﴾ حجة على صدقك، والأول استكبار والثاني جحود، لأن ما أتاهم آيات الله استهانة به وعناداً، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾. ﴿هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد. وقرئ بتشديد الشين. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعتربهم شبهة ولا عناد. وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين، وإنما قالوه عتواً وعناداً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْكَلُ عَنْ أَحْصَابِ الْجَحِيمِ (119)﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ متلبساً مؤيداً به. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلا عليك إن أصروا وكابروا. ﴿وَلَا تُشْكَلُ عَنْ أَحْصَابِ الْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت. وقرأ نافع ويعقوب: لا تُشَال، على أنه نهي للرسول ﷺ عن السؤال عن حال أبيه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال. والجحيم: المتأجج من النار.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْوَحْيِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)﴾

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مبالغة في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته. ولعلمهم قالوا مثل ذلك فحكى الله عنهم ولذلك قال: ﴿قُلْ﴾ تعليمًا للجواب. ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدعون إليه. ﴿وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ آراءهم الزائفة. والملة ما شرعة الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه، من أملت الكتاب إذا أملتته، والهوى: رأي يتبع الشهوة ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحته. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه وهو جواب لئن.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)﴾

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ بمرعاة اللفظ عن التحريف والتدبر في معناه والعمل بمقتضاه، وهو حال مقدرة والخبر ما بعده، أو خبر على أن المراد بالموصول مؤمنوا أهل الكتاب ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بكتابهم دون المحرفين. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿يَبْنَئِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (123)﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لما صدر قصتهم بالأمر بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأحوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصيح، وإيداناً بأنه فذلكة القضية والمقصود من القصة.

﴿وَلِذَٰلِكَ أَنْتَ إِبْرَاهِيمَ رُبُّكُمْ كَلِمَةً قَالَتْ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)﴾

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ كلفة بأوامر ونواه، والابتلاء في الأصل التكليف بالأمر الشاق من البلاء، لكنه لما استلزم الاختبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب ظن ترادفهما، والضمير لإبراهيم، وحسن لتقدمه لفظاً وإن تأخر رتبة، لأن الشرط أحد التقديمين، والكلمات قد تطلق على المعاني فلذلك فسرت



بالخصال الثلاثين المحمودة المذكورة في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿إِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ كما فسرت بها في قوله: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وبالعشر التي هي من سنته، وبمناسك الحج؛ وبالكواكب، والقمرين، والختان، وذبح الولد، والنار، والهجرة. على أنه تعالى عامله بها معاملة المختبر بهن وبما تضمنته الآيات التي بعدها. وقرىء إبراهيم ربه على أنه دعا ربه بكلمات مثل ﴿أُرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾. ﴿وَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ليرى هل يجيبه. وقرأ ابن عامر إبراهيم بالآلف جميع ما في هذه السورة. ﴿فَاتَّمَهُنَّ﴾ فأداهن كلاً وقام بهن حق القيام، لقوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ وفي القراءة الأخيرة الضمير لربه، أي أعطاه جميع ما دعه. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ استئناف إن أضمرت ناصب إذ كأنه قيل: فماذا قال ربه حين أتمهن، فأجيب بذلك. أو بيان لقوله ابتلى فتكون الكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام. وإن نصبته يقال فالمجموع جملة معطوفة على ما قبلها، أو جاعل من جعل الذي له مفعولان، والإمام اسم لمن يؤتم به وإمامته عامة مؤبدة، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف أي وبعض ذريتي، كما تقول: وزيداً، في جواب: سأكرمك، والذرية نسل الرجل، فعلية أو فعولة قلبت راءها الثانية ياء كما في تقضيت. من الذر بمعنى التفريق، أو فعولة أو فعيلة قلبت همزتها من الذرة بمعنى الخلق. وقرىء ذريتي بالكسر وهي لغة. ﴿قَالَ لَا يَنْتَظِرُ الْظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى ملتسمه، وتنبية على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. وقرىء «الظالمون» والمعنى واحد إذ كل ما نالك فقد نلته.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غلب عليها كالنجم على الثريا. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، أو موضع ثواب يثابون بحجة واعتماره. وقرىء: «مسابات» أي لأنه مثابة كل أحد. ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضع أمن لا يتعرض لأهله كقوله تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾. ويتخطف الناس من حولهم، أو يأمن حاجته من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يجب ما قبله، أولاً يؤاخذ الجاني الملتجئ إليه حتى يخرج، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ على إرادة القول، أو عطف على المقدر عاملاً لإذ، أو اعتراض معطوف على مضمير تقديره توبوا إليه واتخذوا، على أن الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدمه، أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج، أو رفع بناء البيت وهو موضعه اليوم. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذُه مصلى، فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت» وقيل المراد به الأمر ببركعتي الطواف، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام: لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فضلى خلفه ركعتين وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وللشافعي رحمه الله تعالى في وجوبهما قولان. وقيل: مقام إبراهيم الحرم كله. وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يدعى فيها، ويتقرب إلى الله تعالى. وقرأ نافع وابن عامر ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بلفظ الماضي عطفاً على ﴿جعلنا﴾، أي: واتخذوا الناس مقامه الموسوم به، يعني الكعبة قبله يصلون إليها. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما. «أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي» ويجوز أن تكون أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول، يريد طهراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أخلاصاه. ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حوله. ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾

المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَالرُّكْعَ السُّجُودَ﴾. أي المصلين، جمع راعع وساجد.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ يريد به البلد، أو المكان. ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن كقوله تعالى؛ ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. أو آمناً أهله كقولك: ليل نائم ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أبذل من ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ﴿أَهْلَهُ﴾ بدل البعض للتخصيص ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطف على ﴿آمَنَ﴾ والمعنى وارزق من كفر، فاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فبه سبحانه على أن الرزق رحمة دينوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين. أو مبتدأ متضمن معنى الشرط ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ خبره، والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحفظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب، ولذلك عطف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ أي ألزه إليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم، وقليلاً نصب على المصدر، أو الظرف. وقرئ بلفظ الأمر فهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي قال ضميره. وقرأ ابن عامر ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ من أمتع. وقرئ «فتمتعه» ثم نضطره، و «إضطره» بكسر الهمزة على لغة من يكسر حروف المضارعة، و «أطره» بإدغام الضاد وهو ضعيف لأن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها دون العكس.

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذم محذوف، وهو العذاب.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127)﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ حكاية حال ماضية، و «القواعد» جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبية من القعود، بمعنى الثبات، ولعله مجاز من المقابل للقيام، ومنه قعدك الله، ورفعها البناء عليها فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، ويحتمل أن يراد بها سافات البناء فإن كل ساف قاعدة ما يوضع فوقه ويرفعها بناؤها. وقيل المراد رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه، ودعاء الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها. ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ كان يتناوله الحجارة، ولكنه لما كان له مدخل في البناء عطف عليه. وقيل: كانا بينان في طرفين، أو على التناوب. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ أي يقولان ربنا تقبل منا، وقد قرئ به والجملة حال منهما. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتنا.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)﴾

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه. وقرئ «مسلمين» على أن المراد أنفسهما وهاجر. أو أن التثنية من مراتب الجمع. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لما أعلمنا أن في ذريتهما ظلمة، وعلمنا أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا، وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون من للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ قدم على المبين وفصل به

بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. ﴿وَأَرْنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر، أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين ﴿مَنَّا سَكَنَّا﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا. والنسك في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة. وقرأ ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو ويعقوب ﴿أَرْنَا﴾، قياساً على فخذ في فخذ، وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها. وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً. ولعلمهما قالا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي». ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحكم له.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(130)

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يرغب عن ملته الواضحة الغراء، أي لا يرغب أحد من ملته. ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرد وتعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء في الحديث «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس». وقيل: أصله سفه نفسه على الرفع، فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه، وقول جرير:

وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذُنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظُّهْرِ لَيْسَ لَهُ سِتَامٌ

أو سفه في نفسه، فنصب بترفع الخافض. والمستثنى في محل الرفع على المختار بدلاً من الضمير في يرغب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة، كان حقيقاً بالاتباع له لا يرغب عنه إلا سفيه، أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (131)

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ظرف لـ ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾، أو تعليل له، أو منصوب بإضمار اذكر. كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين، دعاه ربه وأخطر بباله دلائله المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام. روي أنها نزلت لما دعا عبد الله بن سلام ابني أخيه: سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فأسلم سلمة وأبي مهاجر.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (132)

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة، وأصلها الوصل يقال: وصاه إذا وصله، وفصاه: إذا فصله، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصى، والضمير في بها للملة، أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة، أو الجملة وقرأ نافع وابن عامر وأوصى والأول أبلغ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف على إبراهيم، أي ووصى هو أيضاً بها بنيه. وقرئ بالنصب على أنه ممن وصاه إبراهيم ﴿يٰبَنِي﴾. على إضمار القول عند البصريين، متعلق بوصى عند الكوفيين لأنه نوع منه ونظيره:

رَجُلَانِ مِنْ صَبَّةٍ أَخْبَرَانَا أَنَا رَأَيْنَا رَجُلًا عَرَبِيًّا

بالكسر، وبنو إيزاهيم كانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان. وقيل: ثمانية. وقيل: أربعة عشر. وبنو يعقوب إثنا عشر: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وزبولون وتفتوني ودون وكوذا وأوشير وبنيامين ويوسف ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ظاهره النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه، وأن من حقه أن لا يحل بهم، ونظيره في الأمر مت وأنت شهيد. وروي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات فنزلت.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (133)

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعون اليهودية عليه، أو متصلة بمحذوف تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شاهدين. وقيل: الخطاب للمؤمنين والمعنى ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي وقرئ ﴿حَضَرَ﴾ بالكسر.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ بدل من ﴿إِذْ حَضَرَ﴾. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: شيء تعبدونه، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما، وما يسأل به عن كل شيء ما لم يعرف، فإذا عرف خصص العقلاء بمن إذا سئل عن تعيينه، وإن سئل عن وصفه قيل: ما زيد أفضيه أم طيب؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ المتفق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته، وعد إسماعيل من آبائه تغليبا للآب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عم الرجل صنو أبيه». كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه «هذا بقية آبائي». وقرئ «إله أبيك»، على أنه جمع بالواو والنون كما قال:

وَلَمَّا تَبَيَّنَ أَصْوَاتُنَا بَكَيْنَ وَفَدَيْنَا بِالْأَيْنَا

أو مفرد وإبراهيم وحده عطف بيان.

﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى: ﴿بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾. وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجزور والتأكيد، أو نصب على الاختصاص ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو مفعوله، أو منهما، ويحتمل أن يكون اعتراضاً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (134)

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما، والأمة في الأصل المقصود وسمي بها الجماعة، لأن الفرق تؤمها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لكل أجر عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم» ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)﴾

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا نَصَارَى﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب وأو للتنوع، والمعنى مقاتلتهم أحد هذين القولين. قالت اليهود كونوا هوداً. وقال النصارى كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب الأمر. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي بل تكون ملة إبراهيم، أي أهل ملته، أو بل تتبع ملة إبراهيم. وقرىء بالرفع أي ملته ملتنا، أو عكسه، أو نحن ملته بمعنى نحن أهل ملته. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق. حال من المضاف، أو المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ إِخْوَانًا﴾. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)﴾

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الخطاب للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن، قدم ذكره لأنه أول بالإضافة إلينا، أو سبب للإيمان بغيره ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضاً منزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا، والأسباط جمع سبط وهو الحافد، يريد به حفدة يعقوب، أو أبناءه وذرائعهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ التوراة والإنجيل، أفردهما بالذكر بحكم أبلغ لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق، والنزاع وقع فيهما ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين. ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ منزلاً عليهم من ربهم. ﴿لَا نَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأحد لوقوعه في سياق النفي عام فساغ أن يضاف إليه بين. ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ أي الله. ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مدعون مخلصون.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ فَرَّقُوا فَمَا هُمْ بِفِئَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

﴿الْمَكِيدِ (137)﴾

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ من باب التعجيز والتبكي، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا بِسُورَةٍ مِنْهُ﴾. إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. وقيل: الباء للآلة دون التعدية، والمعنى إن تحروا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثل طريقكم، فإن وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطرق، أو مزيدة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾. والمعنى فإن آمنوا بالله إيماناً مثل إيمانكم به، أو المثل مقحم كما في قوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي عليه، ويشهد له قراءة من قرأ بما آمنتم به أو بالذي آمنتم به ﴿وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾ أي إن أعرضوا عن الإيمان، أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة والمخالفة، فإن كل واحد من المتخالفين في شق غير شق الآخر ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ﴾ الله تسلياً وتسكيناً للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)﴾

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هداية الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماء صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، أو

للمشاكلة، فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم، ونصبها على أنه مصدر مؤكد لقوله «آمنا»، وقيل على الإغراء، وقيل على البذل من ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صبغة أحسن من صبغته ﴿وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ تعريض بهم، أي لا نشرك به كشرركم. وهو عطف على آمنا، وذلك يقتضي دخول قوله «صبغة الله» في مفعول «قولوا» ولمن ينصبها على الإغراء، أو البذل أن يضمم قولوا معطوفاً على الزموا، أو اتبعوا ملة إبراهيم و «قولوا آمنا» بدل اتبعوا، حتى لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (139)

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا. «في الله» في شأنه واصطفائه نبياً من العرب دونكم، روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلهم منا، لو كنت نبياً لكنت منا. فنزلت: «وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» لا اختصاص له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. «وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا، كأنه ألزهمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاماً وتبكيماً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء والكل فيه سواء، وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص. وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال. «وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» موحدون نخسه بالإيمان والطاعة دونكم.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ وَاللَّهُ وَما اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (140)

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار. وعلى قراءة ابن عامر وحزمة والكسائي وحفص بالتاء يحتمل أن تكون معادلة للهمزة في «أتحاجوننا»، بمعنى أي الأمرين تأتون المحاجة، أو ادعاء اليهودية، أو النصرانية على الأنبياء. «قُلْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ» وقد نفى الأمرين عن إبراهيم بقوله: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً» واحتج عليه بقوله: «وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده». وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً. «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ» يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو منا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وغيرها، ومن للابتداء كما في قوله تعالى: «براءة من الله ورسوله». «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» وعيد لهم، وقرىء بالياء.

﴿يَلِكْ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (141)

﴿يَلِكْ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالأباء والانتكال عليهم. قيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمّة في الأول الأنبياء، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى.

﴿سَيَسْأَلُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ إِلَهِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ

صراط مستقيم (124)

﴿سَيَقُولُ الشُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الذين خفت أحلامهم، واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر. يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين. وفائدة تقديم الإخبار به توطين النفس وإعداد الجواب وإظهار المعجزة. ﴿مَا وَلَاَهُمْ﴾ ما صرفهم. ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يعني بيت المقدس، والقبلة في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال، فصارت عرفاً للمكان المتوجه نحوه للصلاة ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة، وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة، والكعبة أخرى.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ (143)﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلكم أفضل القبل. ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفریط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها، مستوياً فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها، واستدل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لاثلمت به عدالتهم ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحووا. ولكن الذين كفروا حملهم الشفاء على اتباع الشهوات، والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم، أو بعدكم. روي «أن الأمم يوم القيامة يجحدون بتبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله بينة التبليغ - وهو أعلم بهم - إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم» وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن على أمته عدى بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي الجهة التي كنت عليها، وهي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها بمكة، ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود. أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها فالمخير به على الأول الجعل للناسخ، وعلى الثاني المنسوخ. والمعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وما جعلنا قبلك بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ إلا لنتحج به الناس ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها، ممن يردد عن دينك إلناً لقبلة آبائه. أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، وما كان لعارض يزول بزواله. وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها، إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه. فإن قيل: كيف يكون علمه تعالى غاية الجعل وهو لم يزل عالماً. قلت: هذا وأشباهه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء، والمعنى ليتعلق علمنا به موجوداً. وقيل: ليعلم رسوله والمؤمنون لكنه أسنده إلى نفسه لأنهم خواصه، أو لتمييز الثابت من المتزلزل كقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ فوضع العلم موضع التمييز المسبب عنه، ويشهد له قراءة ليعلم على البناء للمفعول،

والعلم إما بمعنى المعرفة، أو معلق لما في مَنْ من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ممن يتقلب، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزاً ممن يتقلب. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إن هي المخففة من الثقلية، واللام هي الفاصلة. وقال الكوفيون هي النافية واللام بمعنى إلا. والضمير لما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من الجعلة، أو الردة، أو التولية، أو التحويلة، أو القبلة. وقرئ لكبيرة بالرفع فتكون كان زائدة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى حكمة الأحكام الثابتين على الإيمان والاتباع ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم على الإيمان. وقيل: إيمانكم بالقبلة المنسوخة، أو صلاتكم إليها لما روي: أنه عليه السلام لما وجهه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم، ولعله قدم الرؤوف وهو أبلغ محافظة على الفواصل وقرأ الحرمان وابن عامر وحفص لرؤوف بالمد، والباقون بالقصر.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (144)

﴿قَدْ نَرَى﴾ ربما نرى ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردد وجهك في جهة السماء تطلعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبله أبيه إبراهيم، وأقدم القبلتين وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فلممكنك من استقبالها من قولك: وليته كذا، إذا صبرته والياً له، أو فلنجعلك تلي جهتها ﴿تَرْضَاهَا﴾ تحبها وتشوق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اصرف وجهك. ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه. وقيل: الشطر في الأصل لما انفصل عن الشيء إذا انفصل، ودار شطوره: أي منفصلة عن الدور، ثم استعمل لجانيه، وإن لم ينفصل كالقطر، والحرام المحرم أي محرم فيه القتال، أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأن عليه الصلاة والسلام كان في المدينة، والبعد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب. روي: أنه عليه الصلاة والسلام قدم المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجهه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين. وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسمي المسجد مسجد القبنتين. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ خص الرسول بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عمم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيذاً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة لعلمهم بأن عادته تعالى تخصيص كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبنتين، والضمير للتحويل أو التوجه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد للرفيقين. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بالياء.

﴿وَلَيْنِ أَتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِّمْ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (145)

﴿وَلَيْنِ أَتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبله، واللام موطئة للقسم ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ جواب للقسم المضمر، والقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط، والمعنى ما تركوا قبلتك لشبهة تزليها بالحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعناداً. ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ قطع لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا لكانا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننظره، تَغْرِيراً له وطمعاً في رجوعه، وقبلتهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطان ومخالفة الحق. ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس. لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه





﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي مكان خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا الأمر ﴿لَلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالتاء.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا يَمْنَعِي عَذَابِي عَلَيْهِمْ أَهْلُكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (150)

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل. تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجري العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها. ودفع حجج المخالفين على ما نبينه. وقرن بكل علة معلولها كما يقرن المدلول بكل واحد من دلائله تقريباً وتقريباً، مع أن القبلة لها شأن. والنسخ من مظان الفتنة والشبهة فبالحري أن يؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ علة لقوله ﴿فَوَلُّوا﴾، والمعنى أن التولية عن الصخرة إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأن محمداً يحدد ديننا ويتبعنا في قبلتنا. والمشركون بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم بأنهم يقولون، ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، أو بدا له فرجع إلى قبلته آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وسمى هذه حجة كقوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم يسوقونها مساقها. وقيل الحجة بمعنى الاحتجاج. وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأساً كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فَلَوْ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

للعلم بأن الظالم لا حجة له، وقرئ: ﴿أَلَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾. على أنه استئناف بحرف التنبيه. ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مطاعينهم لا تضرهم. ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمركم به. ﴿وَلَا يَمْنَعِي عَذَابِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علة محذوف أي وأمرتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتدائكم، أو عطف على علة مقدرة مثل: وإخشوني لأحفظكم منهم ولأنتم نعمتي عليكم، أو لئلا يكون وفي الحديث «تمام النعمة دخول الجنة». وعن علي رضي الله تعالى عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام».

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (151)

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ متصل بما قبله، أي ولأنتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم، أو بما بعده كما ذكرتكم بالإرسال فاذكروني. ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكيا، قدمه باعتبار القصد وآخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، وكرر الفعل ليدل على أنه جنس آخر.

﴿فَإِذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (152)

﴿فَإِذْكُرُونِي﴾ بالطاعة. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب. ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ (154)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحفظ النفس، ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي هي أم العبادات ومعراج المؤمنين، ومناجاة رب العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر وإجابة الدعوة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي بل هم أحياء. ﴿وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم، وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل وبالوحي، وعن الحسن (إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع). والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى، ومزينة البهجة والكرامة.

﴿وَلَتَبْلُغَنَّهُمْ نِقْطٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٌ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)﴾

﴿وَلَتَبْلُغَنَّهُمْ﴾ ولنصيبكم إصابة من يختبر لأحوالكم، هلى تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿بَشِيرٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم، ويريه أن رحمته لا تفارقهم، أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم ﴿وَنَقْصٌ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ عطف شيء، أو الخوف، وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف: خوف الله، والجوع: صوم رمضان، والنقص: من الأموال الصدقات والزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن: الثمرات موت الأولاد. وعن النبي ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول الله: أقبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد».

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)﴾

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تنأت منه البشارة. والمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يؤدي المؤمن فهو له مصيبة». وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما بقي عليه أضعاف ما استرده منه فيهن على نفسه، ويستسلم له. والمبشر به محذوف دل عليه.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها. والمراد بالرحمة اللطف والإحسان. وعن النبي ﷺ «من استرجع عند المصيبة، جبر الله مصيبته، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه» ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى.

﴿إِن الصَّافَا وَالْمُرَّةَ مِّن سَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدِّ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ (159) ﴿

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما علما جبلين بمكة. «مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» من أعلام مناسكه، جمع شعيرة وهي العلامة «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ» الحج لغة القصد، والاعتمار الزيارة. فغلباً شرعاً على قصد البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين. «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا» كان إساف على الصفا وناثلة على المروة، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما. فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت. والإجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجوبه. فعن أحمد أنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهم لقوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ» فإنه يفهم منه التخيير وهو ضعيف، لأن نفي الجناح يدل على الجواز الداخر في معنى الوجوب، فلا يدفعه. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه واجب، يجبر بالدم. وعن مالك والشافعي رحمهما الله أنه ركن لقوله عليه الصلاة والسلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي». «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» أي فعل طاعة فرضاً كان أو نفلاً، أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة، أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة. و«خَيْرًا» نصب على أنه صفة مصدر محذوف، أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه، أو بتعدية الفعل لتضمنه معنى أتى أو فعل. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب، وأصله يتطوع فأدغم مثل يطوف «فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» منيب على الطاعة لا تخفى عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ كأخبار اليهود. «مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ» كآليات الشاهدة على أمر محمد ﷺ. «وَالْهُدَى» وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به. «مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ» لخصناه. «فِي الْكِتَابِ» في التوراة. «وَأُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» أي الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (160) ﴿

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه «وَأَصْلَحُوا» ما أفسدوا بالتدارك. «وَبَيَّنَّاهُ» ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتهم. وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحو به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضرابهم «فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» بالقبول والمغفرة. «وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (161) ﴿

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ومن لم يتب من الكافرين حتى مات «وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» استقر عليهم اللعن من الله، ومن يعتد بلعنه من خلقه. وقيل؛ الأول لعنهم أحياء، وهذا لعنهم أمواتاً. وقرئ و «الملائكة والناس أجمعون» عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعنى، كقولك أعجبني ضرب زيد وعمرو، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (162) ﴿

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة، أو النار. وإضمارها قبل الذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً، أو اكتفاء بدلالة اللعن عليه. «لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ» أي لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (163) ﴿

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ خطاب عام، أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد أو يسمى

إِلَهًا. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة. ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مولى النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره، وهما خبران آخران لقوله إلهكم، أو لمبتدأ محذوف. قيل لما سمعه المشركون تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (164)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنما جمع السموات وأفرد الأرض، لأنها طبقات متفصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾. ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي ينفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص ﴿الْفَلَكَ﴾ بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيت ﴿الْفَلَكَ﴾ لأنه بمعنى السفينة. وقرئ بضميتين على الأصل، أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين. ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ من الأولى للإبتداء، والثانية للبيان. والسماء يحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ عطف على أنزل، كأنه استدلل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو على أحيا فإن الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبت النشر والتفريق. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ في مهايها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي على الأفراد. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا ينزل ولا ينقشع، مع أن الطبع يقتضي أحدهما حتى يأتي أمر الله تعالى. وقيل: مسخر الرياح تقلبه في الجو بمشيئة الله تعالى، واشتقاقه من السحب لأن بعضه يجبر بعضاً. ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم، وعنه ﴿وَلِلَّهِ﴾ «ويل لمن قرأ هذه الآية فمخ بها» أي لم يتفكر فيها.

واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام الممجل أنها: أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة، وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات، أو بعضها كالأرض وأن تتحرك بعكس حركاتها، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين، وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها، فلا بد لها من موجد قادر حكيم، يوجد لها على ما تستدعيه حكمته وتقتضيه مشيئته، متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر. فإن توافقت إرادتهما: فالفعل إن كان لهما، لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التمانع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (165)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾ من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾

يعظمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته، أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحب، استعير لجة القلب، ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والإعتناء بتحصيل مرضيه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة، وصونه عن المعاصي. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة. وأجرى المستقبل مجرى الماضي لتحققه كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ساد مسد مفعولي ﴿يرى﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف. أي لو يعلمون أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان، والتقدير: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع، لعلموا أن القوة لله كلها لا ينفع ولا يضر غيره. وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب: و «لو ترى» على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً، وابن عامر: ﴿إِذْ يَرُونَ﴾ على البناء للمفعول، ويعقوب ﴿إِنْ﴾ بالكسر وكذا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ على الاستئناف، أو إضمار القول.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (166)

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بدل من ﴿إِذْ يَرُونَ﴾، أي إذ تبرأ المتبعون من الأتباع. وقرئ بالعكس، أي تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي راثين له، والواو للحال، وقد مضى. وقيل: عطف على تبرأ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ يحتمل العطف على تبرأ، أو رأوا والواو للحال، والأول أظهر. و ﴿الأسباب﴾: الوصل التي كانت بينهم من الأتباع والاتفاق على الدين، والأغراض الداعية إلى ذلك. وأصل السبب: الحبل الذي يرتقي به الشجر. وقرئ و ﴿تقطعت﴾ على البناء للمفعول.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

﴿هُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ﴾ (167)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ ﴿لو﴾ للتمني ولذلك أجيب بالفاء، أي ليت لنا كره إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الآراء الفطرية. ﴿يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي ثالث مفاعيل يرى أن كان من رؤية القلب وإلا فحال ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أصله وما يخرجون، فعدل به إلى هذه العبارة، للمبالغة في الخلود والأقنات عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُلُّوْا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (168)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا﴾ نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس، وحلالاً مفعول كلوا، أو صفة مصدر محذوف، أو حال مما في الأرض ومن للتبعض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ يستطيبه الشرع، أو الشهوة المستقيمة. إذ الحلال دل على الأول. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمة والبيز وأبو بكر حيث وقع بتسكين الطاء وهما لغتان في جمع خطوة، وهي ما بين قدمي الخاطي. وقرئ بضميتين وهمزة جعلت ضمة الطاء كأنها عليها، وبفتحتين على أنه جمع خطوة وهي المرة من الخطو

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يظهر الموالاة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)﴾

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ بيان لعداوته، وجوب التحرز عن متابعتها. واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقبحه إياه. وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر. وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني ما شرع فيه الحد ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كاتخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأياً. وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظن مستند إلى مدرِك شرعي فوجوبه قطعي، والظن في طريقه كما بيانه في الكتب الأصولية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ (170)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الضمير للناس، وعدل بالخطاب عنهم للنداء على ضلالهم، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون. ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ما وجدناهم عليه نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد. وقيل في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا لأنهم كانوا خير منا وأعلم. وعلى هذا فيعم ما أنزل الله التوراة لأنها أيضاً تدعو إلى الإسلام. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال، أو العطف. والهمزة للرد والتعجب. وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي لو كان آبائهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين، ولا يهتدون إلى الحق لاتباعهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد. وأما اتباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام، فهو في الحقيقة ليس بتقليده بل اتباع لما أنزل الله.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ على حذف مضاف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينق، أو مثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينق. والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه. وقيل هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها، بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته. أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام، بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء، لأن الأصنام لا تسمع إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب.

﴿صُمُّكُمْ عُمِّي﴾ رفع على الذم. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي بالفعل للإخلال بالنظر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لما وسع الأمر على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوء ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال:

﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح أنكم تخصصونه بالعبادة، وتقرون أنه مولى النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر. فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لإتمامه، وهو عدم عند عدمه. وعن النبي ﷺ «يقول الله تعالى إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويبعد غيري، وأرزق ويشكر غيري».

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (173)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أكلها، أو الانتفاع بها. وهي التي ماتت من غير ذكاة. والحديث ألحق بها ما أُبَيِّنَ من حي. والسّمك والجراد أخرجهما العرف عنها، أو استثناه الشرع. والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرفاً حرمة التصرف فيها مطلقاً إلا ما خصه الدليل، كالتصرف في المدبوغ. ﴿وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ إنما خص اللحم بالذكر، لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له. ﴿وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي رفع به الصوت عند ذبحه للصنم. والإهلال أصله رؤية الهلال، يقال: أهل الهلال وأهلته. لكن لما جرت العادة أن يرفع الصوت بالتكبير إذا رُؤي سمي ذلك إهلالاً، ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستيثار على مضطر آخر. وقرأ عاصم وأبو عمرو حمزة بكسر النون. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سد الرّمق، أو الجوعة. وقيل؛ غير باغ على الوالي. ولا عاد بقطع الطريق. فعلى هذا لا يباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله تعالى. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَحِيمٌ﴾ بالرخصة فيه. فإن قيل: إنما تفيد قصر الحكم على ما ذكر وكم من حرام لم يذكر. قلت: المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقاً، أو قصر حرمة على حال الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا إليها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (174)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضاً حقيراً. ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ إما في الحال، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكانه أكل النار كقوله:

أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرُعْكَ بِضْرَةً      بَعِيدَةً مَهْوَى الْقِرْطِ طَبِيبَةُ النَّشْرِ

يعني الدية. أو في المال أي لا يأكلون يوم القيامة إلا النار. ومعنى في بطونهم: ملء بطونهم. يقال أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه كقوله:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ وَتَعَفُّوا

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ عبارة عن غضبه عليهم، وتعريض بحرمانهم حال مقابلتهم في الكرامة والزلفى من الله. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يثني عليهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (175)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ في الدنيا. ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ في الآخرة، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية. ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ تعجب من حالهم في الالتباس بموجبات النار من غيره بمبالاة. وما تامة مرفوعة بالابتداء، وتخصيصها كتخصيص قولهم.

شَرُّ أَهْر      ذَا نَاب



أو استفهامية وما بعدها الخبر، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (176) ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (177)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ اللام فيه إما للجنس، واختلافهم إيمانهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعض. أو للعهد، والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها، أو خلفوا خلال ما أنزل الله تعالى مكانه، أي حرفوا ما فيها. وإما إلى القرآن واختلافهم فيه قولهم سحر، وتقول، وكلام علمه بشر، وأساطير الأولين. ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ﴿البر﴾ كل فعل مرضي، والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوِّلت، وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم وقال؛ ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ، ولكن البر ما بينه الله واتبعه المؤمنون. وقيل عام لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصوداً بأمر القبلة، أو ليس البر العظيم الذي يحسن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها، وقرأ حمزة وحفص ﴿البر﴾ بالنصب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي ولكن البر الذي ينبغي أن يهتم به بر من آمن بالله، أو لكن ذا البر من آمن، ويؤيده قراءة من قرأ ولكن «البار». والأول أوفق وأحسن. والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن. وقرأ نافع وابن عامر ﴿وَلَكِنْ﴾ بالتخفيف ورفع ﴿البر﴾. ﴿وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب المال، قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضل قال «أن تؤتیه وأنت صحيح صحيح تأمل العيش، وتخشى الفقر». وقيل الضمير لله، أو للمصدر. والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ يريد المحاييج منهم، ولم يقيد لعدم الالتباس. وقدم ذوي القرى لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصلة». ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع المسكين وهو الذي أسكنته الخلة، وأصله دائم السكون كالمسكير للدائم السكر. ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر، سمي به لملازمته السبيل كما سمي القاطع ابن الطريق. وقيل الضيف لأن السبيل يعرف به. ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، وقال عليه السلام «للسائل حق وإن جاء على فرسه». ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين، أو فك الأساري، أو ابتاع الرقاب لعنقها. ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ﴾ الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوى الزكاة. وفي الحديث «نسخت الزكاة كل صدقة». ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ عطف على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾. ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ نصبه على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال. وعن الأزهري: البأساء في الأموال كالفقير، والضراء في الأنفس كالمرض. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت مجاهدة العدو. ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها

وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ إلى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده بالقوى، اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق. وإليه أشار بقوله عليه السلام «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (178)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لقتلن الحر منكُم بالعبد والذكر بالأنثى. فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمرهم أن يتباؤوا. ولا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى، كما لا تدل على عكسه، فإن المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم وقد بينا ما كان الغرض وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما قتل الحر بالعبد سواء كان عبده أو عبد غيره، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قتل عبده فجلبده الرسول ﷺ ونفاه سنة ولم يقده به. وروي عنه أنه قال: من السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد ولا حر بعبد ولأن أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير تكير. وللقياس على الأطراف، ومن سلم دلالة فليس له دعوى نسخة بقوله تعالى: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ لأنه حكاية ما في التوراة فلا ينسخ ما في القرآن. واحتجت الحنفية به على أن مقتضى العمد القود وحده، وهو ضعيف إذ الواجب على التخيير يصدق عليه أنه وجب وكتب، ولذلك قيل التخيير بين الواجب وغيره ليس نسخاً لوجوبه. وقرئ ﴿كُتِبَ﴾ على البناء للفاعل والقصاص بالنصب، وكذلك كل فعل جاء في القرآن. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي شيء من العفو، لأن عفا لازم. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص. وقيل عفا بمعنى ترك، وشيء مفعول به وهو ضعيف، إذ لم يثبت عفا الشيء بمعنى تركه بل أعفاه. وعفا يعدي بمن إلى الجاني وإلى الذنب، قال الله تعالى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ وقال ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾. فإذا عدي به إلى الذنب عدي إلى الجاني باللام وعليه ما في الآية كأنه قيل: فمن عفي له عن جنائته من جهة، أخيه، يعني ولي الدم. وذكره بلفظ الإخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرق له ويعطف عليه. ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع. والمراد به وصية العافي بأن يطلب الدية بالمعروف فلا يعنف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان: وهو أن لا يمتل ولا يبخس. وفيه دليل على أن الدية أحد مقتضى العمد، وإلا لما رتب الأمر بأدائها على مطلق العفو. وللشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة قولان. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم المذكور في العفو والدية. ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع، قيل كتب على اليهود القصاص وحده، وعلى النصارى العفو مطلقاً. وخيرت هذه الأمة بينهما وبين الدية تيسيراً عليهم وتقديراً للحكم على حسب مراتبهم. ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي قتل بعد العفو وأخذ الدية. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل في الدنيا بأن يقتل لا محالة لقوله عليه السلام «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية».

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَّتَذَكَّرُ أَلاَّ تَكُتُلُوا لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ الْقِصَاصُ وَالْعَفْوُ وَحْدَهُ﴾ (179)

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف

القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتصر من القاتل سلم الباقيون فيكون ذلك سبباً لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتصر منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة. ﴿ولكم في القصاص﴾ يحتمل أن يكونا خيرين لحياة وأن يكون أحدهما خيراً والآخر صلة له، أو حالاً من الضمير المستكن فيه. وقرئ في «القصص» أي فيما قص عليكم من حكم القتل حياة، أو في القرآن حياة للقلوب. ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول الكاملة. ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكفوا عن القتل.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ

(180)﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي حضرت أسبابه وظهرت أماراته. ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا. وقيل مالا كثيراً، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم، فمنعه وقال قال الله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال الكثير. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رجلاً أراد أن يوصي فسأله كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف فقالت: كم عيالك قال: أربعة قالت: إنما قال الله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وأن هذا شيء يسير فاتركه لعيالك. ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ مرفوع بكتب، وتذكير فعلها للفصل، أو على تأويل أن يوصي، أو الإيصاء ولذلك ذكر الراجع في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾. والعامل في إذا مدلول كتب لا الوصية لتقدمه عليها. وقيل مبتدأ خبره ﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كقوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرَهَا وَالشَّرَّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ مِثْلَانِ

وَرَدُّ بَأْنِهِ إِنْ صَحَّ فَمَنْ ضَرُورَاتِ الشَّعْرِ. وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية الموارث وبقوله عليه الصلاة والسلام «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث». وفيه نظر: لأن آية الموارث لا تعارضه بل تؤكد من حيث إنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً، والحديث من الأحاد، وتلقي الأمة له بالقبول لا يحلقه بالمتواتر. ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين بقوله «يوصيكم الله». أو بإيصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله عليهم «بالمعروف» بالعدل فلا يفضل الغنى، ولا يتجاوز الثلث. ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً.

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَدَلًا مِمَّا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (181)﴾

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ غيره من الأوصياء والشهود. ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل، إلا على مبدليه لأنهم الذين حافوا وخالفوا الشرع. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (182)﴾

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ أي توقع وعلم، من قولهم أخاف أن ترسل السماء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر ﴿مَوْصٍ﴾ مشدداً. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف. ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى

حق بخلاف الأول. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعد للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَ كُتِبَ لَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (183)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام، وفيه تأكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطبيب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتبهه النفس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء» أو الإخلال بأدائه لأصالته وقدمه.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ

طَعَامٌ مِّسْكِينَ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (184)

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل. فإن القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلًا، ونصبها ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار صوموا لدلالة الصيام عليه، والمراد به رمضان أو ما وجب صومه قبل وجوبه ونسخ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر، أو بكما كتب على الظرفية، أو على أنه مفعول ثانٍ لـ ﴿كتب عليكم﴾ على السعة. وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام، لما روي: أن رمضان كتب على النصاري، فوقع في برد أو حر شديد فحولوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين كفارة لتحويله. وقيل زادوا ذلك لموتان أصابهم. ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه. ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعلية صوم عدد أيام المرض، أو السفر من أيام آخر إن أفطر، فحذف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها. وقرئ بالنصب أي فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة. وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا. ﴿فِدْيَةٌ طَعَامٌ مِّسْكِينَ﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومد عند فقهاء الحجاز. رخص لهم في ذلك أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعودوه، ثم نسخ. وقرأ نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان بإضافة الفدية إلى الطعام وجمع «المساكين». وقرأ ابن عامر برواية هشام «مساكين» بغير إضافة الفدية إلى الطعام، والباقون بغير إضافة وتوحيد مسكين، وقرئ «يطوقونه» أي يكلفونه ويقلدونه في الطوق بمعنى الطاقة أو القلادة ويتطوقونه أي يتكلفونه، أو يتقلدونه ويطوقونه بالإدغام، و «يطيقونه» و «يطيقونه» أصلهما يطيقونه ويتطوقونه من فيعل وتفعيل بمعنى يطوقونه ويتطوقونه، وعلى هذه القراءات يحتمل معنى ثانياً وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده - وهم الشيوخ والعجائز - في الإفطار والفدية، فيكون ثابتاً وقد أول به القراءة المشهورة، أي يصومونه جهدهم وطاقتهم. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية. ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع أو الخير. ﴿خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون، أو المطوقون وجهدتم طاقتكم. أو المرخصون في الإفطار ليندرج تحته المريض والمسافر. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي اخترتموه. وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ

الْمُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) ﴿﴾

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذف المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان. وقرئ بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات. والشهر: من الشهرة، ورمضان: مصدر رمض إذا احترق؛ فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون، كما منع دأية في ابن دأية علماً للغراب للعلمية والتأنيث، وقوله عليه الصلاة والسلام «من صام رمضان» فعلى حذف المضاف لأمن الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو لوقوعه أيام رمض الحر حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة. ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي ابتدئ فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجماً إلى الأرض، أو أنزل في شأنه القرآن وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. وعن النبي ﷺ «نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين» والموصول بصلته خبر المبتدأ أو صفته والخبر فمن شهد، والفاء لوصف المبتدأ بما تضمن معنى الشرط. وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم. ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ حالان من القرآن، أن أنزل وهو هداية للناس بإعجازه وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام. ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه، والأصل فمن شهد فيه فليصم فيه، لكن وضع المظهر موضع المضمحل الأول للتعظيم، ونصب على الظرف وحذف الجار ونصب الضمير الثاني على الاتساع. وقيل: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ﴾ هلال الشهر فليصمه، على أنه مفعول به كقولك: شهدت الجمعة أي صلاتها فيكون ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر ولعل تكريره لذلك، أو لثلاث يتوهم نسخه كما نسخ قرينه. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي يريد أن يسر عليكم ولا يعسر، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علل لفعل محذوف دل عليه ما سبق، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر والمرخص بالفضاء ومراعاة عدة ما أفطر فيه، والترخيص ﴿لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ إلى آخرها على سبيل اللف، فإن قوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ علة الأمر بالفضاء وبيان كيفيته، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص والتيسير. أو الأفعال كل لفعله، أو معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم، أو لتعلموا ما تعلمون ولتكملا العدة، ويجوز أن يعطف على اليسر أي ويريد بكم لتكملا كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِقُوا نُورَ اللَّهِ﴾. والمعنى بالتكبير تعظيم الله بالحمد والثناء عليه، ولذلك عدى بعلى. وقيل تكبير يوم الفطر، وقيل التكبير عند الإهلال وما يحتمل المصدر، والخبر أي الذي هداكم إليه وعن عاصم برواية أبي بكر ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ بالتشديد.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)﴾ أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى يَسَائِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَتَوْهُمَا مَا كُتِبَ لَهُمْ وَلَكُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى آتِلٍ وَلَا تَشْبِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِنَّاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187) ﴿﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم، روي: أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقرب ربنا فنأجبه أم بعيد فنأديه فنزلت ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ تقرير للقرب. ووعد للداعي بالإجابة. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين إصابة الرشd وهو إصابة الحق. وقرئ بفتح الشين وكسرهما. واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم، سمح لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه، ثم بين أحكام الصوم فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ روي أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا، ثم: إن عمر رضي الله عنه بأشر بعد العشاء فندم وأتى النبي ﷺ واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت وليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً، والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعدي بالي لتضمنه معنى الإفشاء، وإثاره ههنا لتبسيط ما ارتكبه ولذلك سماه خيانة. وقرئ الرفوث ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابس، ولما كان الرجل والمرأة يعتقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شبه باللباس قال الجعدي:

إِذَا مَا الضَّجِيجُ نَثَى عِطْفَهَا تَثَثَّ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتم مما اقترفتموه. ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره. ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ لما نسخ عنكم التحريم وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة: إلزاق البشارة كني به عن الجماع. ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبتته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد فإنه الحكمة من خلق الشهوة. وشرع النكاح لأقضاء الوطر، وقيل النهي عن العزل، وقيل عن غير المأتي. والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم. ﴿وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَبَطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَبَطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غيش الليل، بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿من الفجر﴾ عن بيان ﴿الخيط الأسود﴾، لدلالته عليه. وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل. ويجوز أن تكون من للتبويض، فإن ما يبدو بعض الفجر وما زوي أنها نزلت ولم ينزل من الفجر، فعمد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتى يتبين لهم فنزلت، إن صبح فلعله كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزة، أو أكتفي أولاً بأشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم المصباح جنباً ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ بيان لآخر وقته، الليل عنه فينبغي صوم الوصال ﴿ولا تبشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ معتكفون فيها والاعتكاف: هو: البث في المسجد بقصد القرية. والمراد بالمباشرة: الوطء. وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك. وفي دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد. وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي الأحكام التي ذكرت. ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه. كما قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى

يوشك أن يقع فيه». وهو أبلغ من قوله ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، ويجوز أن يريد بـ ﴿حُدُودِ اللَّهِ﴾ محارمه ومناهيه. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله تعالى. وبين نصب على الظرف، أو الحال من الأموال. ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ عطف على المنهي، أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء، أي ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام. ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم. ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة. ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثماً، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح. روي أن عبدان الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بيعة، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس، فهم به فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية. فارتدع عن اليمين، وسلم الأرض إلى عبدان، فنزلت. وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطلاً، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي. ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه وإنما أقضي له قطعة من نار».

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقْبُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره، فأمره الله أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات المؤقتة يعرف بها أوقاتها. وخصوصاً الحج فإن الوقت مراعي فيه أداء وقضاء. والمواقيت: جمع ميقات، من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان: أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها. والزمان: مدة مقسومة، والوقت: الزمان المفروض لأمر. ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء، والباقون بالكسر. ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ﴿وَلَكِنْ﴾، ورفع ﴿البر﴾. كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه، ويعدون ذلك براً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر من اتقى المحارم والشهوات، ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين. أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد، أو أنهم لما سألوا عما لا يعينهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعينهم ويختص بعلم النبوة، عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها، أو أن المراد به التنبيه على تعكسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه. والمعنى: وليس البر بأن تعكسوا مسائلكم ولكن البر بر من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله. ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ إذ ليس في العدول بر قباشروا الأمور من وجوها. ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُقْتَلِينَ (190)﴾

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه. ﴿الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين. وقيل معناه الذين يناصرونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم يصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما روى: أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة - شرفها الله - ثلاثة أيام، فرجع لعمره القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم. أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المثلة، أو قتل من نهيتهم عن قتله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يريد بهم الخير.

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191)﴾  
﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في حل أو حرم. وأصل الثقف: الثقف: الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً. فهو يتضمن معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال:

فَأَمَّا تَقِفُونِي فَأَقْتُلُونِي فَمَنْ أَثَقِفَ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ﴾ أي من مكة، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يفتن بها الإنسان، كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تبعها وتآلم النفس بها. وقيل: معناه شركهم في الحرم وصددهم إياكم عنه أشد من قتلهم إياهم فيه. ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تقاتلوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام. ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فلا تبالوا بقتالهم ثم فإنهم الذين هتكوا حرمة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾. والمعنى حتى يقتلوا بعضهم كفولهم قتلنا بنو أسد. ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ذلك جزاؤهم يفعل بهم مثل ما فعلوا.

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (192)﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى

الظَّالِمِينَ (193)﴾

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن الشرك. ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم، فوضع العلة موضع الحكم. وسمي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة كقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾. أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم، والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ (194)﴾

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة وافترق خروجهم لعمره القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته فقبل لهم هذا الشهر بذاك وهتكه بهتكم فلا تبالوا به. ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه، أي كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجري فيها القصاص.



فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم. كما قال: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وهو فذلکة التفرير. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الأنصار ولا تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (195) وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ذَلِكَ عَشْرَةٌ كَأَمِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُ اللَّهُ وَتَكَرَّرُوا فِيهَا خَيْرَ الزَّادِ الطَّقُوعُ وَتَقْوُونَ يَأْتِي الْأَلْتَبِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّكَايِنَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)﴾

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاكهم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت، أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد، والإلقاء: طرح الشيء، وعدى يألئ لتضمن معنى الانتهاء، والباء مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس، والتهلكة والهلاك والهلك واحد فهي مصدر كالتضررة والتسرة، أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك وقيل: معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم، أو لا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذف المفعول. ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويع. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ أي اتوا بهما تامين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدل على وجوبهما ويؤيده قراءة من قرأ ﴿وَأَقِيمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج، فقال: لا ولكن إن تعتمر خير لك» فمعارض بما روي «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه، إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك» ولا يقال إنه فسر وجد أنهما مكتوبين بقوله أهللت بهما فجاز أن يكون الوجوب بسبب إهلاكه بهما، لأنه رتب الإهلاك على الوجدان وذلك يدل على أنه سبب الإهلاك دون العكس. وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك، أو أن تفرد لكل منهما سفراً، أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دنيوي، أو أن تكون النفقة حلالاً. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ منعتم، يقال حصره العدو وأحصره إذا حسبه ومنعه عن المضى، مثل صده وأصده، والمراد حصر العدو عند مالك والشافعي رحمها الله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمْتُمْ﴾ ولنزوله في الحديبية، ولقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا حصر إلا حصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «من كسر أو عرج فقد حل فعله الحج من قابل» وهو ضعيف مؤول بما إذا شرط الإحلال به لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير «حجبي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني» ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليكم ما استيسر، أو

فالواجب ما استيسر. أو فاهدوا ما استيسر. والمعنى إن أحصر المحرم وأراد أن يتحلل يتحلل يذبح هدي تيسر عليه، من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر. لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محله أي مكانه الذي يجب أن ينحر فيه، وحمل الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حلاً كان أو حرماً، واقتصاره على الهدي دليل على عدم القضاء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء، والمحل - بالكسر - يطلق على المكان والزمان. والهدي: جمع هدية كجدي وجدية، وقرئ ﴿من الهدي﴾ جمع هدية كملى في مطية ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً﴾ مرضاً يحوجه إلى الحل. ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ كجراحة وقمل. ﴿فَقُدِّيْهِ﴾ فعليه فدية إن حل. ﴿مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة «لعلك أذاك هوأمك»، قال: نعم يا رسول الله قال: أحلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفروق على ستة مساكين أو انسك شاة والفروق ثلاثة أصع ﴿فَإِذَا أُمِنْتُمْ﴾ الإحصار. أو كنتم في حال سعة وأمن. ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع، فهو دم جبر أن يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، إنه ندم نسك فهو كالأضحية ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي الهدي. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صوم يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين. ﴿وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَهْلِيكُمْ﴾ وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفرغتم من أعماله وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وقرئ ﴿سبعة﴾ بالنصب عطفاً على محل ﴿ثلاثة أيام﴾. ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾ فذلك الحساب، وفائدتها أن لا يتوهم متوهم أن الواو بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين. وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب، وأن المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لهما ﴿كاملَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبينة كمال العشرة فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهي الأحاد وتتم مراتبها، أو مقيدة تقيد كمال بدليتها من الهدي. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور عندنا. والتمتع عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لأنه لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عنده، فمن فعل ذلك أي التمتع منهم فعليه دم جناية. ﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا، فإن من كان على أقل فهو مقيم في الحرم، أو في حكمه. ومن مسكنه وراء الميقات عنده وأهل الحل عند طائوس وغير المكي عند مالك. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقه كي يصدقكم للعلم به عن العصيان. ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته. كقولك البرد شهران. ﴿مَعْلُومَاتٌ﴾ معروفة وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذو الحجة كله عند مالك. وبناء على الخلاف على أن المراد بوقته وقت إحرامه، أو وقت أعماله ومناسكه، أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً، فإن مالكا كره العمرة في بقية ذي الحجة. وأبو حنيفة رحمه الله وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه. وإنما سمي شهران وبعض شهر أشهراً إقامة للبعض مقام الكل، أو إطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد. ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ فمن أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن عندنا، أو بالتلبية أو سوق الهدي عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وأن من أحرم بالحج لزمه الإتمام. ﴿فَلَا رَفَثٌ﴾ فلا جماع، أو فلا فحش من الكلام. ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع

بالسيئات وارتكاب المحظورات. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مرء مع الخدم والرفقة. ﴿فِي الْحَجِّ﴾ في أيامه، نفي الثلاثة على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح كلبسة الحرير في الصلاة. والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأولين بالرفع على معنى: لا يكونن رفت ولا فسوق. والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، وذلك أن قريشاً كانت تحالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، فارتفع الخلاف بأن أمروا أن يقفوا أيضاً بعرفة. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ حث على الخير عقب به النهي عن الشر ليستبد به ويستعمل مكانه. ﴿وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وتزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، وقيل: نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس، فأمرهم أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والتثقل على الناس. ﴿وَأَتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإن قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعري عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الأبواب بهذا الخطاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أي في أن تبغوا أي تطلبوا. ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عطاء ورزقاً منه، يريد الربح بالتجارة، وقيل: كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت. ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ دفعتم منها بكثرة، من أفضت الماء إذا صبيته بكثرة. وأصله أفضتكم أنفسكم فحذف المفعول كما حذف في دفعت من البصرة. و ﴿عَرَفَاتٍ﴾ جمع سمي به كأذراعات، وإنما نون وكسر وفيه العلمية والتأنيث لأن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام، وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف، وهنا ليس كذلك. أو لأن التأنيث إما أن يكون بالثاء المذكورة وهي ليست تاء تأنيث. وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، أو بقاء مقدرة كما في سعاد ولا يصح تقديرها لأن المذكورة تمنعه من حيث إنها كالبدل لها لا اختصاصها بالمأث كماء بنت، وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فلما أبصره عرفه أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما أراه إياه قال قد عرفت، أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا. أو لأن الناس يتعارفون فيه. وعرفات للمبالغة في ذلك وهي من الأسماء المرتجلة إلا أن يجعل جمع عارف، وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب بل مستحب. وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيد لا واجب مطلق حتى تجب مقدمته والأمر به غير مطلق. ﴿فَازْكُرُوا﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين. ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جبل يقف عليه الإمام ويسمى «قزح». وقيل: ما بين مأزمي عرفة ووادي محسر، ويؤيد الأول ما روي جابر: أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر - يعني بالمزدلفة - بغلس، ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر وإنما سمي مشعراً لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمة: ومعنى عند المشعر الحرام: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر. ﴿وَازْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ﴾ كما علمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها. وما مصدرية أو كافة. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي الهدى. ﴿لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة، وأن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة. وقيل: إن نافية واللام بمعنى إلا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة، والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمرهم بأن يساووهم. وثم لتفاوت ما بين الإفاضة كما في

قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم. وقيل: من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام. وقرئ ﴿الناس﴾ بالكسر أي الناسي يريد آدم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ والمعنى أن الإفاضة من عرفة شرع قديم فلا تغييره. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من جاهلييتكم في تغيير المناسك ونحوه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر ويتعم عليه.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ (200)

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ فإذا قضيت العبادات الحجية وفرغتم منها. ﴿فَازْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخرة. وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إما مجرور معطوف على الذكر يجعل الذكر ذكراً على المجاز والمعنى: فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ. أو على ما أضيف إليه على ضعف بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكراً. وإما منصوب بالعطف على آباءكم وذكراً من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكورية من آباءكم. أم بمضمر دل عليه المعنى تقديره: أو كونوا أشد ذكراً لله منكم آبائكم. ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مقل لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا ومكثر يطلب به خير الدارين، والمراد الحث على الإكثار والإرشاد إليه. ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ أي نصيب وحظ لأن همه مقصور بالدنيا، أو من طلب خلاق.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابُ النَّارِ﴾ (201)

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني الصحة والكفاف وتوفيق الخير. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ يعني الثواب والرحمة. ﴿وَقَنَا عَذَابُ النَّارِ﴾ بالعفو والمغفرة، وقول علي رضي الله تعالى عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء. وعذاب النار المرأة السوء وقول الحسن: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة. وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب والمؤدية إلى النار أمثلة للمراد بها.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (202)

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني. وقيل إليهما. ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي من جنسه وهو جزاؤه، أو من أجله كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْفِرُوا﴾ أو مما دعوا به نعطيه من ما قدرناه فسمي الدعاء كسباً لأنه من الأعمال. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فيادروا إلى الطاعات واكتسبوا الحسنات.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (203)

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ كبروه في أديار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق. ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل النفر. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم القر والذي بعده، أي فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله. ﴿وَمَن

تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴿٢٠٤﴾ ومن تأخر في النفر حتى رمى في اليوم الثالث بعد الزوال، وقال أبو حنيفة: يجوز تقديم رمية على الزوال. ومعنى نفي الإثم بالتعجيل والتأخير التخيير بينهما والرد على أهل الجاهلية فإن منهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر. ﴿لَمَنْ أَتَقَى﴾ أي الذي ذكر من التخيير، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمستفيع به، أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهيمه منها. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء بعد الإحياء. وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (204) ﴿

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يروقك ويعظم في نفسك، والتعجب: حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجب منه. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالقول، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، أو في معنى الدنيا فإنها مراد من إدعاء المحبة وإظهار الإيمان، أو يعجبك أي يعجبك قوله في الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك في الآخرة لما يعتربه من الدهشة والحسرة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يحلف ويستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين، والخصام المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خصم كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة. قيل نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدعي الإسلام. وقيل في المنافقين كلهم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (205) ﴿

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غلب وصار والياً. ﴿سَكَتَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيثهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ لا يرتضيه فاحذروا غضبه عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾ (206) ﴿

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ حملته الأتفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه لجأجأ، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه. ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ كفته جزاء وعذاباً، و ﴿جَهَنَّمَ﴾ علم لدار العقاب وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرب. ﴿وَلَيْسَ الْمُهَادُّ﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به، والمهاد الفراش. وقيل ما يوطأ للجنب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْإِبْرَارِ﴾ (207) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذُوبٌ مُبِينٌ﴾ (208) ﴿

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعه أي يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يُقتل ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنت معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي فقبلوه منه وأتى المدينة. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرضهم لثواب الغزاة والشهداء. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ ﴿السلم﴾ بالكسر والفتح الاستسلام والطاعة، ولذلك يطلق في الصلح والإسلام. فتحه ابن كثير ونافع والكسائي وكسره الباقون. وكافة اسم للجملة لأنها تكف الأجزاء من التفرق حال من الضمير أو السلم لأنها تؤنث كالحرب قال:

السَّلَامُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعُ

والمعنى استسلموا لله وأطيعوه جملة طاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين، أو ادخلوا في الإسلام بكليتهم ولا تخلطوا به غيره. والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عظموا السبت وحرّموا الإبل والبنها، أو في شرائع الله كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب، أو في شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا تخلوا بشيء والخطاب للمسلمين. «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ» بالترق والتفريق. «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» ظاهر العداوة.

﴿فَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (209)

﴿فَإِنْ رَأَيْتُمْ﴾ عن الدخول في السلم. «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمْ الْبَيِّنَاتُ» الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق. «فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» لا يعجزه الانتقام. «حَكِيمٌ» لا ينتقم إلا بحق.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (210)

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام في معنى النفي ولذلك جاء بعده. «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ» أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى: «أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ» «فَجَاءَهَا بِأَسْنًا» أو يأتيهم الله ببأسه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «فِي ظُلَلٍ» جمع ظلة كقطة وقل وهي ما أظلك، وقرئ «ظلال» كقلال. «مِنَ الْغَمَامِ» السحاب الأبيض وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أظف لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أصعب فكيف إذا جاء من حيث يحتسب الخير. «وَالْمَلَائِكَةُ» فإنهم الواسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة ببأسه. وقرئ بالجر عطفاً على «ظلل» أو «الغمام». «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه، وضع الماضي موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه. وقرئ و «قضاء الأمر» عطفاً على الملائكة. «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم على البناء للمفعول على أنه من الراجع، وقرأ الباقر على البناء للفاعل بالتأنيث غير يعقوب على أنه من الرجوع، وقرئ أيضاً بالتذكير وبناء المفعول.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ

شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (211)

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ، أو لكل أحد والمراد بهذا السؤال تقريرهم. «كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ» معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء، و «كَمَا» خبرية أو استفهامية مقررّة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخير إلى المبتدأ. وآية مميزها. ومن للفصل. «وَمَنْ يَبْدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ» أي آيات الله فإنها سبب الهدى الذي هو أجل النعم، يجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس، أو بالتحريف والتأويل الزائغ. «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ» من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها، وفيه تعريض بأنهم بدلوا بعد ما عقلوها ولذلك قيل تقديره بدلوها «وَمَنْ يَبْدُلْ». «فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

﴿رُبُّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرْنَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (212)

﴿رُئِنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها، والمزین في الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، ويدل عليه قراءة ﴿رُئِنَ﴾ على البناء للفاعل، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلقه الله فيها من الأمور البهية والأشياء الشبيهة مزین بالعرض.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي يستزدلونهم ويستهنئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى، ومن للابتداء كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مذلة، أو لأنهم يتناولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، وإنما قال والذين اتقوا بعد قوله من الذين آمنوا، ليدل على أنهم متقون وأن استعلاءهم للفقراء. ﴿وَاللَّهُ يَزُرُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ في الدارين. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسع في الدنيا استدراجاً تارة وابتلاء أخرى.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)﴾

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة ادريس أو نوح. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي فاختلغوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه. وعن كعب الذي علمته من عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون. ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم. ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من الكتاب، أي ملتبساً بالحق شاهداً به. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي الله، أو النبي المبعوث، أو كتابه. ﴿فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق، أو الكتاب. ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف أي عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل مزيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه من اختلف. ﴿مِنْ الْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يضل سالكه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ وَالضَّرَّاءُ وَرُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات، تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفتهم. و ﴿أَمْ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ ولم يأتكم، وأصل ﴿لَمَّا﴾ لم زيدت عليها ما وفيها توقع ولذلك جعلت مقابل قد. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة. ﴿مَسْتَهْزِئِينَ﴾ مستهزأين والضراء الذين لا على الاستئناف. ﴿وَرُلُّوا﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد. ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر. وقرأ نافع يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية كقولك مرض حتى لا يرجونه. ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ استبطاء له لتأخره. ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ استئناف على إرادة

القول أي فقيل لهم ذلك اسعافاً لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام «حقت الجنة بالمكاره، وحقت النار بالشهوات».

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْآفَرِيُّونَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217)﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن عمرو بن الجموح الأنصاري كان شيخاً ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت) ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ سئل عن المنفق فأجيب ببيان المصروف لأنه أهم فإن اعتداد الثقة باعتباره، ولأنه كان في سؤال عمرو وإن لم يكن مذكوراً في الآية، واقتصر في بيان المنفق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ في معنى الشرط. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ جوابه أي إن تفعلوا خيراً فإن الله يعلم كنهه ويوفي ثوابه، وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ شاق عليكم مكروه طبعاً، وهو مصدر نعت به للمباغلة، أو فعل بمعنى مفعول كالخبز. وقرئ بالفتح على أنه لغة فيه كالضعف والضعف، أو بمعنى الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدة وعظم مشقته كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يقضي بها إلى الردى، وإنما ذكر ﴿عسى﴾ لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم يعرف عينها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة - قبل بدر بشهرين - ليرصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الخضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسرُوا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة، فقالت قريش (استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، وينذر فيه الناس إلى معاشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا، ورد رسول الله ﷺ العير والأسارى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشجيعاً وتعييراً وقيل أصحاب السرية. ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ بدل اشتغال من الشهر الحرام. وقرئ «عن قتال» بتكرير العامل. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي ذنب كبير، والأكثر أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ خلافاً لعتاء وهو نسخ الخاص بالعام وفيه خلاف، والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال في الشهر الحرام مطلقاً فإن قتال فيه نكرة في حيز مثبت فلا يعم. ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات. ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي بالله. ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ على إرادة المضاف أي وصد المسجد الحرام كقول أبي دؤاد:



أَكَلْ أَمْرِيءَ تَحْسِينِ امراً وَتَارَ تَوْقُدُ بِاللَّيْلِ نَاراً

ولا يحسن عطفه على ﴿سبيل الله﴾ لأن عطف قوله: ﴿وكفر به﴾ على ﴿وصد﴾ مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة ولا على الهاء في ﴿به﴾، فإن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة الجار. ﴿وإخراج أهله منه﴾ أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ والمؤمنون. ﴿أكبر عند الله﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قریش. وأفعال مما يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي ما ترتكبه من الإخراج والشرك أظلم مما ارتكبه من قتلى الحضرمي. ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم﴾ إخبار عن درام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى للتعليل كقولك أعبد الله حتى أدخل الجنة. ﴿إن استطاعوا﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم كقول الواصل بقوته: علي قرنه إن ظفرت بي فلا تبقي علي، وإيدان بأنهم لا يردونهم. ﴿ومن يردكم عن دينه فيمته وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ قيد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، والمراد بها الأعمال النافعة. وقرئ ﴿حبطت﴾ بالفتح وهي لغة فيه. ﴿في الدنيا﴾ لبطان ما تخيلوه وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية. ﴿والآخرة﴾ بسقوط الثواب. ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ كسائر الكفرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(218)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوا خطأ وقلة احتياط. ﴿رَحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ الْغَوْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (219)

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ روي أنه نزل بمكة قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾ فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهب للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأم أحدهم فقراً: ﴿قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون﴾ فنزلت ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فقل من يشربها، ثم دعا عتب بن مالك سعد بن أبي وقاص في نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بغير فشجه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت ﴿إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. والخمر في الأصل مصدر خمرة إذا ستره، سمي بها عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا كأنه يخمر العقل، كما سمي سكراً لأنه يسكره أي يحجزه، وهي حرام مطلقاً وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر. ﴿والميسر﴾ أيضاً مصدر كالموعد، سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير ببسر أو سلب يساره، والمعنى يسألونك عن تعاطيها لقوله

تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا﴾ أي في تعاطيهما. ﴿إِنَّ كَبِيرَ﴾ من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب عن الأمور، وارتكاب المحظور. وقرأ حمزة والكسائي كثير بالثاء. ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ من كسب المال والطرب والالتذاذ ومصادقة الفتيان، وفي الخمر خصوصاً تشجيع الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة. ﴿وَأَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما. ولهذا قيل إنها المحرمة للخمر لأن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل، والأظهر أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُقْفُونَ﴾ قيل سائله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولاً عن المنفق والمصرف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق. ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ العفو نقض الجهد ومنه يقال للأرض السهلة، وهو أن ينفق ما تيسر له بذلك ولا يبلغ منه الجهد. قال:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ  
وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مراراً فقال: هاتها مغضباً فأخذها فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى». وقرأ أبو عمرو برفع «العفو». ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد، أو ما ذكر من الأحكام، والكاف في موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيناً مثل هذا التبيين، وإنما وحد العلامة والمخاطب به جمع على تأويل القبيل والجمع، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدلائل والأحكام.  
﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُكُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (220)

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين فتأخذوا بالأصلح والأنفع فيهما، وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم فشق ذلك عليهم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي مداخلتهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتهم. ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ حث على المخالطة، أي أنهم إخوانكم في الدين ومن حق الأخ أن يخالط الأخ. وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي ولو شاء الله إعناتكم لأعنتكم، أي كلفكم ما يشق عليكم، من العنت وهي المشقة ولم يجوز لكم مداخلتكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على الاعنات. ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتوسع له الطاقة.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَكُمْ مَوْئِدٌ خَيْرٌ مِنَ مُشْرِكِهِمْ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (221)

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أي ولا تزوجوهن. وقرئ بالضم أي ولا تزوجوهن من المسلمين، والمشركات تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ وقالت النصارى المسيح ابن الله إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولكنها خصت عنها بقوله: ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأتته عناق وكان يهاوها في الجاهلية فقالت: ألا تخلو. فقال: إن الإسلام حال

بيننا فقالت: هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ولكن أستمروا رسول الله ﷺ فاستأمره فنزلت ﴿وَلَا مَئْمَنَةٌ مِّنْكُمْ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكَةٍ﴾ أي ولا امرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. ﴿وَلَوْ أَغَبَتْكُمْ﴾ بحسنها وشمائلها، والواو للحال ولو بمعنى إن وهو كثير. ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومه. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تعليل للنهي عن مواسلتهم، وترغيب في مواصلة المؤمنين. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم. ﴿وَاللَّهُ﴾ أي وأوليأؤه، يعني المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تفخيماً لشأنهم. ﴿يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد والعمل الموصلين إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته. ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتذكروا، أو ليكونوا بحيث يرجى منهم التذكر لما ركز في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (222)

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح في نفر من الصحابة عن ذلك فنزلت. والمحيض مصدر كالمجيء والمبيت، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر يسألونك بغير واو ثلاثاً ثم بها ثلاثاً، لأن السؤالات الأول كانت في أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ أي الحيض شيء مستقذر مؤذ من يقربه نفرة منه. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتهم لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهم إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم». وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود، وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعون ولا يبالون بالحيض. وإنما وصفه بأنه أذى ورتب الحكم عليه بالفاء إشعاراً بأنه العلة. ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحاً قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية ابن عباس «يطهرن» أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والتزاماً لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانها قبل الغسل. ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي المأتي الذي أمركم الله به وحلله لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتترهين عن الفواحش والأقذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المأتي.

﴿يَسْأَلُونَكَ حَرْثَ لَكُمْ قُلْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ يَشْتِمَ قَوْمٌ وَلَا يَنْفُسُ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِقَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (223)

﴿يَسْأَلُونَكَ حَرْثَ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شبههن بها تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فأتوهن كما تأتون المحارث، وهو كالبيان لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ «أَلَى شَتْمٍ» من أي جهة شتتم، روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت. ﴿وَقَدْ مُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ ما يدخر لكم من الثواب. وقيل هو طلب الولد. وقيل التسمية عند الوطء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِقَةٌ﴾ فتزودوا ما لا تفضحون به. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم. أمر الرسول ﷺ أن ينصحهم ويبشر من صدقه وامثل أمره منهم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (224)

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في الصديق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبد الله بن رواحة حلف أن لا يكلم خنته بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته. والعرضة فعلة بمعنى المفعول كالقبضة تطلق لما يعرض دون الشيء وللمعرض للأمر، ومعنى الآية على الأول ولا تجعلوا الله حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالإيمان الأمور المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك». وأن مع صلتها عطف بيان لها، واللام صلة عرضة لما فيها من معنى الاعتراض، ويجوز أن تكون للتعليل ويتعلق أن بالفعل أو بعرضة أي ولا تجعلوا الله عرضة لأن تبروا لأجل أيمانكم به، وعلى الثاني ولا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتدلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم الحلاف بقوله: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حِلَافٍ مَهِينٌ﴾ و﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ علة للنهي أي أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس، فإن الحلاف مجترى على الله تعالى، والمجترى عليه لا يكون براً متقياً ولا موثقاً به إصلاح ذات البين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأيمانكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (225)

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذي لا يعتد به من كلام غيره، ولغو اليمين مالا عقد معه كما سبق به اللسان، أو تكلم به جاهلاً لمعناه كقول العرب: لا والله وبلى والله، لمجرد التأكيد لقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ والمعنى لا يؤاخذكم الله بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطأت فيها قلوبكم ألسنتكم. وقال أبو حنيفة: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجذ ترصباً للتوبة.

﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رَبْصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (226)

﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي يحلفون على أن لا يجامعوهن. والإيلاء: الحلف، وتعديته يعلى ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عدي بمن. ﴿تَرْبِصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ وما قبله خبره، أو فاعل الظرف على خلاف سبق، والتربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف على الاتساع، أي للمولى حق التلبث في هذه المدة فلا يطالب بقي، ولا طلاق، ولذلك قال الشافعي: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ رجعوا في اليمين بالحنث، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمولى إثم حنثه إذا كفر، أو ما توخى بالإيلاء من ضرار المرأة ونحوه، بالفتية التي هي كالتوبة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (227)

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ وإن صمموا قصده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بغرضهم فيه، وقال أبو حنيفة: الإيلاء في أربعة أشهر فما فوقها، وحكمه أن المولى إن فاء في المدة بالوطء إن قدر، وبالوعد إن عجز، صح الفيء ولزم الواطء أن يكفر وإلا بانت بعدها بطلقة. وعندنا يطالب بعد المدة بأحد الأمرين فإن أبى عنهما طلق عليه الحاكم.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)﴾

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الإقراء لما دلت عليه الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغيير العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يسار إلى امتثاله، وكان المخاطب قصد أن يمثل الأمر فيخبر عنه كقولك في الدعاء: رحمك الله، وبناءه على المبتدأ يزيده فضل تأكيد. ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ تهيج وبعث لهن على التربص، فإن نفوس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربص. ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ نصب على الظرف، أو المفعول به. أي يتربصن مضيتها. و ﴿قُرُوءٍ﴾ جمع قرء وهو يطلق للحيض، كقوله عليه الصلاة والسلام «دعي الصلاة أيام أقرائك» وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشى:

مُسَوَّرَةٌ مَالًا وَفِي الْحَيِّ رَفْعَةٌ لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءٍ نَسَائِكَا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد به في الآية لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض، كما قاله الحنفية لقوله تعالى: ﴿فَتُطْلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي وقت عدتهن. والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان» فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدوان شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء». وكان القياس أن يذكر بصيغة القلة التي هي الأقراء، ولكنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر، ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناؤها. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الرجعة، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان، وأن المؤمن لا يجترأ عليه ولا ينبغي له أن يفعل. ﴿وَبَعُولَتُهُنَّ﴾ أي أزواج المطلقات. ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن، ولكن إذا كان الطلاق رجعياً للآية التي تتلوها فالضمير أخص من المرجوع إليه ولا امتناع فيه، كما لو كرر الظاهر وخصصه. والبعولة جمع بعل والتاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخولة، أو مصدر من قولك بعل حسن البعولة نعت به، أو أقيم مقام المضاف المحذوف أي وأهل بعولتهن، وأفعل ههنا بمعنى الفاعل. ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي في زمان التربص. ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بالرجعة لا لإضرار المرأة، وليس المراد منه شرطية قصد الإصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرر. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهن حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لا في الجنس. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرر ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قوام عليهن وحراس لهن يشاركون في غرض الزواج ويخصمون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام. ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا مَاءً وَتَقُولُوا طَهْرٌ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)﴾

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ أي التطلق الرجعي اثنان لما روي (أنه ﷺ سئل أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾). وقيل؛ معناه التطلق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة. ﴿فَإِنْ سَأَلَ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة، وهو يؤيد المعنى الأول. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لا يراجعها حتى نبين، وعلى المعنى الأخير حكم مبتدأ وتخيير مطلق عقب به تعليمهم كيفية التطلق. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي من الصدقات. روي (أن جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأنت رسول الله ﷺ فقالت: لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيبه في دين ولا خلق ولكنني أكره الكفر في الإسلام، وما أطيقه بعضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيتُه أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها إياها. والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الآمرون بهما عند التراجع. وقيل إنه خطاب للأزواج وما بعده خطاب للحكام وهو يشوش النظم على القراءة المشهورة. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان. وقرئ ﴿يُظَنَّا﴾ وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن. ﴿أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية. وقرأ حمزة ويعقوب ﴿يَخَافَا﴾ على البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال. وقرئ ﴿تَخَافَا﴾ و ﴿تَقِيمَا﴾ بناء الخطاب. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام. ﴿أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ على الرجل في أخذ ما افتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما حد من الأحكام. ﴿فَلَا تَعْتَدُوها﴾ فلا تعدوها بالمخالفة. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعقيب للنهي بالوعيد مبالغة في التهديد، وأعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق، ولا بجميع ما ساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قوله ﷺ «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجميلة: «أتريدين عليه حديثه؟ فقالت: أردتها وأزيد عليها، فقال عليه الصلاة والسلام أما الزائد فلا». والجمهور استكراهه ولكن نفذوه فإن المنع عن العقد لا يدل على فساده، وأنه يصح بلفظ المفاداة، فإنه تعالى سماه افتداء. واختلف في أنه إذا جرى بغير لفظ الطلاق هل هو فسخ أو طلاق، ومن جعله فسخاً احتج بقوله:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)﴾

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ فإن تعقيبها للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضي أن يكون طلقة رابعة لو كان الخلع طلاقاً. والأظهر أنه طلاق لأنه فرقة باختيار الزوج فهو كالطلاق بالعوض، وقوله فإن طلقها متعلق بقوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ أو تفسير لقوله: ﴿أو تسريح بإحسان﴾ اعترض بينهما ذكر الخلع دلالة على أن الطلاق يقع مجاناً تارة وبعوض أخرى، والمعنى فإن طلقها بعد الشنتين. ﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ﴾ من بعد ذلك الطلاق. ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاح يستند إلى كل منهما كالتزوج، وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد كابين المسبب واتفق الجمهور على أنه لا بد من الإصابة لما روي: أن امرأة رافعة قالت لرسول الله ﷺ: إن رافعة طلقني فبت طلاقي، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإن ما معه مثل هدية الثوب. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رافعة؟ قالت: نعم، قال: لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك». فالآية مطلقة قيدتها السنة، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة، ويكون العقد مستفاداً من لفظ الزوج. والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثاً والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر. وجوزوه أبو حنيفة مع الكراهة، وقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾

الزوج الثاني ﴿فَلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج، ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يقيما حُدُودَ اللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حده الله وشرعه من حقوق الزوجية، وتفسير الظن بالعلم ههنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تظن ولا تعلم، ولأنه لا يقال علمت أن يقوم زيد لأن أن الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي الأحكام المذكورة. ﴿يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ويعلمون بمقتضى العلم.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا إِلَهَ هُزُوءٍ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (231)

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، والأجل يطلق للمدة ولمستهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَمَوْتٌ إِذَا أَنْتَهَى إِلَى أَجَلِهِ

والبلوغ هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال للدنو منه على الاتساع، وهو المراد في الآية ليصح أو يرتب عليه. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل، وهو إعادة للحكم في بعض صورته للاهتمام به. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهى عنه بعد الأمر بضده مبالغة. ونصب ضراراً على العلة أو الحال بمعنى مضارين. ﴿لِنَعْتَدُوا﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الإفتداء، واللام متعلقة بضراراً إذ المراد تقييده. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها للعقاب. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر إنما أنت هازيء، كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الأمر بضده. وقيل؛ كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول: كنت ألعب فنزلت. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد، الطلاق والنكاح والعتاق» ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة محمد ﷺ بالشكر والقيام بحقوقها. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ القرآن والسنة أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما. ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ بما أنزل عليكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد وتهديد.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكُرُ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (232)

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، وعن الشافعي رحمه الله تعالى دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين. ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ المخاطب به الأولياء لما روي أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته جميلة أن ترجع إلى زوجها الأول بالاستئذان فيكون دليلاً على أن المرأة لا تزوج نفسها، إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي معنى، ولا يعارض بإسناد النكاح إليهن لأنه يسبب توقفه على إذنهن. وقيل الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد مضي العدة ولا يتركونهن يتزوجن عدواناً وقسراً، لأنه جواب قوله ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾. وقيل الأولياء والأزواج. وقيل الناس كلهم، والمعنى: لا يوجد فيما بينكم هذا الأمر فإنه إذا وجد بينهم وهم راضون به كانوا الفاعلين له. والعضل الحبس والتضييق منه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج. ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ﴾ أي الخطاب والنساء وهو ظرف لأنه

ينكحن أو لا تعضلوهن. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة، حال من الضمير المرفوع، أو صفة لمصدر محذوف، أو تراضياً كائناً بالمعروف. وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غير منهي عنه. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مضى ذكره، والخطاب للجميع على تأويل القبيل، أو كل واحد، أو أن الكاف لمجرد الخطاب. والفرق بين الحاضر والمتقضي دون تعيين المخاطبين، أو للرسول ﷺ على طريقة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يتصوره كل أحد. ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنه المتعظ به والمتفع. ﴿ذَلِكَ﴾ أي العمل بمقتضى ما ذكر. ﴿أَزَكَى لَكُمْ﴾ أنفع. ﴿وَأَظْهَرُ﴾ من دنس الآثام. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه النفع والصلاح. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور علمكم.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّىَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ وَلَا يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُوهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْشَلُونَ بِبَيِّنٍ (233)﴾

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أمر عبر عنه بالخبر للمبالغة ومعناه التنب، أو الوجوب فيخص بما إذا لم يرتفع الصبي إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر، أو عجز الوالد عن الاستجار. والوالدات يعم المطلقات وغيرهن. وقيل يختص بهن إذ الكلام فيهن. ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أكد بصفة الكمال لأنه مما يتسامح فيه. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّىَ الرِّضَاعَةَ﴾ بيان للمتوجه إليه الحكم أي ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، أو متعلق بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة، والأم ترضع له. وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولا عبرة به بعدهما وأنه يجوز أن ينقص عنه. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي الذي يولد له يعني الوالد، فإن الولد يولد له وينسب إليه. وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقننى لوجوب الإرضاع ومؤن المرضعة عليه. ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أجرة لهن، واختلف في استجار الأم، فجوزه الشافعي، ومنعه أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما دامت زوجة أو معتدة نكاح. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ حسب ما يراه الحاكم وفيه به وسعه. ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تعليل لإيجاب المؤن والتقييد بالمعروف، ودليل على أنه سبحانه وتعالى لا يكلف العبد بما لا يطيقه وذلك لا يمنع إمكانه. ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ وَلَا يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُوهَا﴾ تفصيل له وتقرير، أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما ليس في وسعه، ولا يضار به سبب الولد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَا تُضَارَّ﴾ بالرفع بدلاً من قوله ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، وأصله على القراءتين تضار بالکسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته أي لا يضر الوالدان بالولد فيفرط في تعهده ويقصر فيما ينبغي له. وقرئ ﴿لَا تُضَارَّ﴾ بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضار به يضره، وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطاف لهما عليه، وتنبه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يضر به، أو أن يتضارا بسببه. ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ عطف على قوله وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، وما بينهما تعليل معترض. والمراد بالوارث وارث الأب وهو الصبي أي مؤن المرضعة من ماله إذا مات الأب. وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام «واجهله الوارث منا»، وكلا القولين يوافق مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إذ لا نفقة عنده فيما عدا الولادة. وقيل وارث الطفل وإليه ذهب ابن أبي ليلى. وقيل وارثه المحرم منه، وهو مذهب أبي حنيفة. وقيل عصابته وبه قال أبو زيد وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي فصلاً صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين،



والتشاور والمشاورة والمشورة استخراج الرأي، من شُرْتُ العسل إذا استخرجته. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصالح الطفل، وحذراً أن يقدم أحدهما على ما يَصُرُّ به لغرض أو غيره. ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي تسترضعوا المراضع لأولادكم، يقال أَرْضَعَت المرأة الطفل واسترضعتها إياه، كقولك أنجح الله حاجتي واستنجنحت إياها، فحذف المفعول الأول للاستغناء عنه. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه وإطلاقه يدل على أن للزوج أن يسترضع الولد ويمنع الزوجة من الإرضاع. ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إلى المراضع. ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ ما أردتم إيتاءه كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وقراءة ابن كثير ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾، من أتى إحساناً إذا فعله. وقرىء «أوتيتهم» أي ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ صلة سلمتم، أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً. وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الأولى والأصلح للطفل. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حث وتهديد.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّهُ أَكْثَرُ سِتْرِكُمْ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عَقْدَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌ فَهٍ﴾ (235)

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي أزواج الذين، أو والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم، كقولهم السمن منوان بدرهم. وقرىء ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ بفتح الياء أي يستوفون آجالهم، وتأتيث العشر باعتبار الليالي لأنها غرر الشهور والأيام، ولذلك لا يستعملون التذكير في مثله قط ذهاباً إلى الأيام حتى إنهم يقولون صمت عشراً ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ثم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ولعل المقتضى لهذا التقدير أن الجنين في غالب الأمر يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فاعتبر أقصى الأجلين، وزيد عليه العشر استظهاراً إذ ربما تضعف حركته في المبادي فلا يحس بها، وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية فيه، كما قاله الشافعي والحرّة والأمة كما قاله الأصم، والحامل وغيرها، لكن القياس اقتضى تنصيف المدة للأمة، والإجماع خص الحامل منه لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وعن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطاً. ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكره فعليهم أن يكفوهن، فإن قصرن فعليهم الجناح. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض والتلويح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، كقول السائل جئتكم لأسلم عليكم، والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه،

كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضياف. والخطبة بالضم والكسر اسم الحالة، غير أن المضمومة خصت بالموعة والمكسورة بطلب المرأة، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعرض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك. «أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ» أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً. «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ» ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ. «وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا» استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، عبر بالسر عن الوطاء لأنه مما يسر ثم عن العقد لأنه سبب فيه. وقيل معناه لا تواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بما يستهجن. «إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا» وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا والمستثنى منه محذوف أي: لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة معروفة، أو إلا مواعدة بقول معروف. وقيل إنه استثناء منقطع من سرأ وهو ضعيف لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو غير موعود. وفيه دليل حرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة. واختلف في معتدة الفراق البائن والأظهر جوازه. «وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ» ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولا تعزموا عقد عقدة النكاح. وقيل معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح فإن أصل العزم القطع. «حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ» حتى ينتهي ما كتب من العدة. «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» من العزم على ما لا يجوز. «فَاخْذُرُوهُ» ولا تعزموا. «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى. «حَلِيمٌ» لا يعاجلكم بالعقوبة.

«لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» لا تبعة من مهر. وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل الميس. وقيل: كان النبي ﷺ يكثر النهي عن الطرق فظن أن فيه حرجاً فنفي «إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ» أي تجمعهن. وقرأ حمزة والكسائي «تماسوهن» بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. «أَوْ تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً» إلا أن تفرضوا، أو حتى تفرضوا أو تفرضوا. والفرض تسمية المهر، وفريضة نصب على المفعول به بمعنى فعيلة بمعنى مفعول. والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية، ويحتمل المصدر. والمعنى أنه لا تبعة على المطلق من مطالبة المهر إذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسم لها مهراً، إذ لو كانت ممسوسة فعيلة المسمى، أو مهر المثل. ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الأخيرتين. «وَمَتَّعُوهُنَّ» عطف على مقدر أي فطلقوهن ومتعهن، والحكمة في إيجاب المتعة جبر إباحاش الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم ويؤيده قوله: «عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ» أي على كل من الذي له سعة، والمقتر الضيق الحال ما يطيقه ويليق به، ويدل عليه قوله عليه السلام لأنصاري طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسه «متمها بقلنسوتك». وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: هي درع وملحفة وخمار على حسب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التي لم يمسه الزوج، وألحق بها الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليهِ الممسوسة المفوضة وغيرها قياساً، وهو مقدم على المفهوم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان بفتح الدال «مَتَّاعًا» متمياً. «بِالْمَعْرُوفِ» بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة. «حَقًّا» صفة لمتاعاً، أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً. «عَلَى الْمُحْسِنِينَ» الذي يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامثال، أو إلى المطلقات بالتمتع وسماهم محسنين قبل الفعل للمشاركة ترغيباً وتحريضاً.

«وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَيْفَ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَمْسُوهُنَّ أَوْ يَفْتُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدًا أَلَيْكَ الْكَبِيرُ» وَأَنْ تَقْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ

اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237)

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لما ذكر حكم المفوضة أتبعه حكم قسيمها. ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن، أو فالواجب نصف ما فرضتم لهن، وهو دليل على أن الجناح المنفي ثم تبعه المهر وأن لا متعة مع التشطير لأنه قسيمها ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي المطلقات فلا يأخذن شيئاً، والصيغة تحتل التذكير والتأنيث، والفرق في الأول أن الواو ضمير والنون علامة الرفع والثاني لام الفعل والنون ضمير والفعل مبني ولذلك لم يؤثر فيه أن ههنا ونصب المعطوف عليه. ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي الزوج المالك لعقدة وحله عما يعود إليه بالتشطير فيسوق المهر إليها كاملاً، وهو مشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخير للزوج غير مشطر بنفسه، وإليه ذهب بعض أصحابنا والحنفية. وقيل الولي الذي يلي عقد نكاحهن وذلك إذا كانت المرأة صغيرة، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى. ﴿وَأَنْ يَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ يؤيد الوجه الأول وعفو الزوج على وجه التخيير ظاهر وعلى الوجه الآخر عبارة عن الزيادة على الحق، وتسميتها عفواً إما على المشالكة وإما لأنهم يسوقون المهر إلى النساء عند التزوج، فمن طلق قبل المسيس استحق استرداد النصف فإذا لم يسترده فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو. ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَكَاةِ وَالْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (238)

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها، ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لثلاثيهم الاشتغال بشأنهم عنها. ﴿وَالصَّلَاةَ الْوُسْطَىٰ﴾ أي الوسطى بينها، أو الفضل منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوتهم ناراً». وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها، واجتماع الملائكة. وقيل صلاة الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحمرها». وقيل صلاة الفجر لأنها بين صلاتي النهار والليل والواقعة في الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة. وقيل المغرب لأنها المتوسطة بالعدد ووتر النهار. وقيل العشاء لأنها بين جهريتين واقعتين طرفي الليل. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ: «الصلاة الوسطى وصلاة العصر»، فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل. وقرئ بالنصب على الاختصاص والمدح. ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة. ﴿قَانِتِينَ﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل خاشعين، وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ﴾ (239)

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره. ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ورجالاً جمع راجل أو رجل بمعناه كقائم وقيام، وفيه دليل على وجوب الصلاة حال المسايقة وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلح حال المشي والمسايقة ما لم يكن الوقوف. ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ وزال خوفكم. ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن أو اشكروه على الأمن «كما علمكم» ذكرنا مثل ما علمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن. أو شكراً يوازيه وما مصدرية أو موصولة. ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ مفعول علمكم.

﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (240).

﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحزمة وحفص عن عاصم على تقدير والذين يتوفون منكم يوصون وصية، أو ليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية، أو ألزم الذين يتوفون وصية. ويؤيد ذلك قراءة كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول مكانه. وقرأ الباقر بالرفع على تقدير ووصية الذين يتوفون، أو وحكمهم وصية، أو والذين يتوفون أهل وصية، أو كتب عليهم وصية، أو عليهم وصية وقرئ «متاع» بدلها. «متاعاً إلى الحول» نصب بيوصون إن أضمريت وإلا فبالوصية وبمتاع على قراءة من قرأ لأنه بمعنى التمتع. «غَيْرَ إِخْرَاجٍ» بدل منه، أو مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول، أو حال من أزواجهم أي غير مخرجات، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتنع بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: «أربعة أشهر وعشراً» وهو وإن كان متقدماً في التلاوة فهو متأخر في النزول، وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن، والسكنى لها بعد ثابتة عندنا خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. «فَإِنْ خَرَجْنَ» عن منزل الأزواج. «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» أيها الأئمة. «فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ» كالنكاح وترك الإحداد. «مِنْ مَعْرُوفٍ» مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحداد عليه وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها. «وَاللَّهُ عَزِيزٌ» ينتقم ممن خالفه منهم. «حَكِيمٌ» يراعي مصالحهم.

﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (241) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)

﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أثبت المتعة للمطلقات جميعاً بعدما أوجبها لواحدة منهن، وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصه إلا إذا جوزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم ولذلك أوجبها ابن جبير لكل مطلقة، وأول غيره بما يعم التمتع الواجب والمستحب. وقال قوم المراد بالمتاع نفقة العدة، ويجوز أن تكون اللام للعهد والتكرير للتأكيد أو لتكرار القضية «كَذَلِكَ» إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة. «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ» وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً. «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلُ النَّاسَ لَا يَسْأَلُونَ﴾ (243)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ، وقد يخاطب به من لم ير ومن لم يسمع فإنه صار مثلاً في التعجب. «إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» يريد أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. «وَهُمْ أُلُوفٌ» أي ألوف كثيرة. قبل عشرة. وقيل ثلاثون. وقيل سبعون وقيل مئالفون جمع ألف أو ألف كقاعد وقعود والواو للحال. «حَذَرَ الْمَوْتِ» مفعول له. «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا» أي قال لهم موتوا فماتوا كقوله: «كن فيكون» والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة، بأمر الله تعالى ومشيته. وقيل

ناداهم به ملك وإنما أسند إلى الله تعالى تخويفاً وتهويلاً. ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قيل مر حزقيل عليه السلام على أهل داوردان وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجب من ذلك فأوحى الله تعالى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (244)

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه وأن المقدر لا محالة واقع، أمرهم بالقتال إذ لو جاء أجلهم في سبيل الله وإلا فالنصر والثواب. ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المتخلف والسابق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمrane وهو من وراء الجزاء.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(245)

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ من استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء، و ﴿ذَا﴾ خبره، و ﴿الَّذِي﴾ صفة ذا أو بدله، وإقراض الله سبحانه وتعالى مثل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن بالمجاهدة والإنفاق في سبيل الله ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة، وقرأ عاصم بالنصب على جواب الاستفهام حملاً على المعنى، فإن ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ في معنى أيقرض الله أحد. وقرأ ابن كثير «فيضعفه» بالرفع والتشديد وابن عامر ويعقوب بالنصب. ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل الواحد بسبعمئة، و «أَضْعَافًا» جمع ضعف ونصبه على الحال من الضمير المنصوب، أو المفعول الثاني لتضمن المضاعفة معنى التصيير أو المصدر على أن الضعف اسم مصدر وجمعه للتنوع. ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقرر على بعض ويوسع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا يبدل حالكم. وقرأ نافع والكسائي واليزي وأبو بكر بالصاد ومثله في الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِثْقَاتٍ مِنْ بَعْدِ مَوْسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ قَالَهُ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ

أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (246)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿الملائكة﴾ جماعة يجتمعون للتشاور، ولا واحد له كالقوم ومن للتبعيض. ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْسَى﴾ أي من بعد وفاته ومن للابتداء. ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل عليهم السلام. ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أقم لنا أميراً نهض معه للقتال يدبر أمره ونصدر فيه عن رأيه، وجزم نقاتل على الجواب. وقرأ بالرفع على أنه حال أي أبعثه لنا مقدرين القتال، ويقاتل بالياء مجزوماً ومرفوعاً على الجواب والوصف لملكاً. ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط، والمعنى أتوقع جبنكم عن القتال إن كتب عليكم القتال هل على فعل التوقع مستفهماً عما هو المتوقع عنده تقريراً وتثبيتاً. وقرأ نافع ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين. ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي أي غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجب

ويحث عليه من الإخراج عن الأوطان والأفراد عن الأولاد، وذلك أن جالوت ومن معه من العمالة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربعمائة وأربعين. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعبد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم أتابوت فيه سكينته من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (248)﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ طالوت علم عبري كداود وجعله فعلوتا من الطول تسعف يدفعه منع صرفه، روي أن نبيهم ﷺ لما دعا الله أن يملكهم أتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل. ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ والحال أنا أحق بالملك منه ورائه ومكنة وإنه فقير لا مال له يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيرا راعيا أو سقاء أو دباغا من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوي بن يعقوب والملك في أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطين خلق. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك. أولا بأن العمدة فيه اصطفاؤه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب، لا ما ذكرتم. وقد زاده الله فيهما وكان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه، وثالثاً بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتیه من يشاء، ورابعاً أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسب وغيره. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. ﴿إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصندوق فعلوت من التوب، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه، وليس بفاعول لقلة نحو سلس وقلق، ومن قرأه بالهاء فعله أبده منه كما أبدل من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة، ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموها بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير للإتيان أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتأبوت أي مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة. وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون. وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كراس الهرة وذنبها وجناحان فتش فيزف التأبوت نحو العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر. وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وقيل التأبوت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقرأ للعلم والوقار بعد أن لم يكن. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وعمامة هارون، وألها أبنائهما أو أنفسهما. والآل مقحم لتفخيم شأنهما، أو أنبياء بني إسرائيل لأنهم أبناء عمهما. ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه وقيل كان بعده مع أنبيائهم يستفتحون به حتى أفسدوا فغلبهم الكفار عليه، وكان في أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت

فأصابهم بلاء حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالتأبوت فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام النبي عليه الصلاة والسلام وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه وتعالى.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكَلَّفُوا اللَّهَ كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّا ذَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (250)

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة، وأصله فصل نفسه عنه ولكن لما كثر حذف مفعوله صار كاللآزم. روي: أنه قال لهم لا يخرج معي إلا الشاب الشيط الفارغ، فاجتمع إليه ممن إختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيطاً فسلكوا مفازه وسألوه أن يجري الله لهم نهراً. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ معاملكم معاملة المختبر بما اقترحتموه. ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمتحد معي. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من لم يذقه من طعم الشيء إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً قال الشاعر: وَإِنْ شَبْتُ لَمْ أَطْعِمْ نَقَاحاً وَلَا بَرْدًا. وإنما علم ذلك بالوحي إن كان نبياً كما قيل، أو بإخبار النبي عليه السلام. ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ استثناء من قوله فمن شرب منه، وإنما قدمت عليه الجملة الثانية للنعاية بها كما قدم والصابئون على الخبر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير، وقرأ ابن عامر والكوفيون ﴿غُرْفَةً﴾ بضم الغين. ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فكرعوا فيه إذ الأصل في الشرب منه أن لا يكون بوسط، وتعميم الأول ليتصل الاستثناء، أو أفرطوا في الشرب منه إلا قليلاً منهم. وقرئ بالرفع حملاً على المعنى فإن قوله ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ﴾ في معنى فلم يطعموه والقليل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل ثلاثة آلاف. وقيل: ألفاً روي أن من اقتصر على الغرفة كفته لشربه وإداوته، ومن لم يقتصر غلب عليه عطشه واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي وهكذا الدنيا لقاصد الآخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي القليل الذين لم يخالفوه. ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض. ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وقوتهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّكَلَّفُوا اللَّهَ﴾ أي قال الخالص منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى. وقيل: هم القليل الذين ثبتوا معه، والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكثير المنحذلين عنه اعتذاراً في التخلف وتخليلاً للقليل، وكأنهم تناولوا به والنهر بينهما. ﴿كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّا ذَنِ اللَّهِ﴾ بحكمه وتيسيره، و ﴿كَمَ﴾ تحتمل الخير والاستفهام، و ﴿مِنْ﴾ مينة أو مزيدة. والفئة الفرقة من الناس من فأوت رأسه إذا شققته، أو من فاء إذا رجع فوزنها فعة أو فلة. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. بالنصر والإثابة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهوروا لهم ودنوا منهم. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

﴿فَهَرَمُوهُمْ يَّا ذَنِ اللَّهِ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا

دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْمُومِينَ (251)

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فكسروهم بنصره، أو مصاحبين لينصره إياهم إجابة لدعائهم. ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان إيشا في عسكر طالوت معه ستة من بني، وكان داود سابعهم وكان صغيراً يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد كلمه في الطريق ثلاثة أحجار وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت، فحملها في مخلاته ورماء بها فقتله ثم زوجه طالوت بنته. ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على ملك. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ كالسرود وكلام الدواب والطيور. ﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم، لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم. وقرأ نافع هنا وفي الحج «دفاع الله».

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (252)

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما اختبرت بها من غير تعرف واستماع.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلُّوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (253)

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة، أو المعلومة للرسول ﷺ، أو جماعة الرسل واللام للاستغراق. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره. ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ تفضيل له، وهو موسى عليه الصلاة والسلام. وقيل: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، كلم الله موسى ليلة الخيرة وفي الطور، ومحمداً عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبينهما بون بعيد، وقرىء ﴿كَلَّمَ اللَّهُ﴾ و «كالم الله» بالنصب، فإنه كلم الله كما أن الله كلمه ولذلك قيل كلم الله بمعنى مكالمه. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بأن فضله على غيره من وجوه متعددة، أو بمراتب متباعدة. وهو محمد ﷺ فإنه خصه بالدعوة العامة والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلمية والعملية الفائقة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصصه بالخلعة التي هي أعلى المراتب. وقيل: إدرى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾. وقيل: أولو العزم من الرسل. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ خصه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي هدى الناس جميعاً. ﴿مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَنَاتُ﴾ أي المعجزات الواضحة لاختلافهم في الدين، وتضليل بعضهم بعضاً. ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه بخذلانه. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلُّوا﴾ كرهه للتأكيد. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتة الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّا قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (254)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ما أوجبت عليكم إنفاقه. ﴿مِمَّا قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم، والخلاص من عذابه إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه، أو تفقدون به من العذاب ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم أو يسامحكم به ولا شفاعة ﴿إِلَّا مِنْ أَذْنِ لَهُ الرَّحْمَنِ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ حتى تتكلموا على شفعاء تشفع لكم في حط ما في ذمكم، وإنما رفعت ثلاثتها مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب: هل فيه بيع؟ أو خلة؟ أو شفاعة؟ وقد فتحها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب على الأصل. ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يريد والتاركون للزكاة هم ظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غيره موضعه وصرفوه على غير وجهه، فوضع الكافرون موضعه تغليظاً لهم وتهديداً كقوله: ﴿ومن كفر﴾ مكان ومن لم يحج وإيداناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (255)

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره. وللنحاة خلاف في أنه هل يضمم للأخبر مثل في الوجود أو يصح أن يوجد. ﴿الْحَيُّ﴾ الذي يصح أن يعلم ويقدر وكل ما يصح له فهو واجب لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان. ﴿الْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه فيعمل من قام بالأمر إذا حفظه، وقرئ «القيام» و«القيم». ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السنة فتور يتقدم النوم قال ابن الرقاق:

وَسَنَانٌ أَفْصَدَةُ النَّعَاسِ فَرَّتْكَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ

والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً، وتقديم السنة عليه وقياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود، والجملة نفي للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً، فإن من أخذ نعاس أو نوم كان مؤوفاً للحياة قاصراً في الحفظ والتدبير، ولذلك ترك العاطف فيه وفي الجملة التي بعده. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لقيوميته واحتجاج به على تفرد في الألوهية، والمراد بما فيهما داخل في حقيقتيهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما فهو أبلغ من قوله: ﴿له السموات والأرض وما فيهن﴾، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة أي مخاصمة. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضي، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو عكسه، أو ما يحسونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه، والضمير لما في السموات والأرض، لأن فيهما العقلاء، أو لما دل عليه من ذا من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ من معلوماته. ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يعلموه، وعطفه على ما قبله لأن مجموعهما يدل على تفرد بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تصوير لِعَظَمَتِهِ وتمثيل مجرد كقوله تعالى:

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ ولا كرسي في الحقيقة، ولا قاعد. وقيل كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العالم والملك. وقيل جسم بين يدي العرش ولذلك سمي كرسيّاً محيط بالسموات السبع، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي، إلا كحلقة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك المشهور بفلك البروج، وهو في الأصل اسم لما يقعد عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد، وكأنه منسوب إلى الكرسي وهو الملبد. ﴿وَلَا يُوَدُّهُ﴾ أي ولا يثقله، مأخوذ من الأود وهو الاعوجاج. ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظه السموات والأرض، فحذف الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه. ﴿الْعَظِيمُ﴾ المستحق بالإضافة إليه كل ما سواه.

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزّه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح ولا يعتريه ما يعترى الأرواح، مالك الملك والملكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له عالم الأشياء كلها، جليها وخفيها، كليها وجزئها، واسع الملك والقدرة، كل ما يصح أن يملك ويقدر عليه، لا يؤده شاق، ولا يشغله شأن، متعال عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله ملكاً يكتب من حسناته، ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة». وقال «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والآيات حوله».

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (256)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إذ الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه، ولكن ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. وقبل إخبار في معنى النهي، أي لا تكرهوا في الدين، وهو إما عام منسوخ بقوله؛ ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾، أو خاص بأهل الكتاب لما روي أن أنصارياً كان له ابنان تنصرا قبل المبعث، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال: الأنصاري يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر إليه فنزلت فخلاهما. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عُبد من دون الله، أو صد عن عبادة الله تعالى. فعلوت من الطغيان قلبت عينه ولامه. ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل. ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ طلب الإمساك عن نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهي مستعارة لمتمسك الحق من النظر الصحيح والرأي القويم. ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها يقال قصمته فانقصم إذا كسرت. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (257)

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ محبهم، أو متولي أمورهم، والمراد بهم من أراد إيمانه وثبت في علمه أنه يؤمن. ﴿يُخْرِجُهُمْ﴾ بهدايته وتوفيقيه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوسواس والشبه المؤدية إلى الكفر. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى الموصول إلى الإيمان، والجملة خبر بعد خبر، أو حال من المستكن في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبين، أو مقرر للولاية. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما. ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ من النور الذي منحه بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك والشبهات. وقيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التسبب لا يأبى تعلق قدرته تعالى وإرادته بها. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وعيد وتحذير، ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (258)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجب من محاجة نمرود وحماقته. ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لأن آتاه أي أطهره إتياء الملك وحمله على المحاجة، أو حاج لأجله شكراً له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأنني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إتياء الله الملك الكافر من المعتزلة. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ظرف لـ ﴿حَاجَّ﴾، أو بدل من ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ على الوجه الثاني. ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يخلق الحياة والموت في الأجساد. وقرأ حمزة «رب» بحذف الياء. ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل. وقرأ نافع «أنا» بلا ألف. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعا للمشغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمرود زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حملة عليه بطر الملك وحماقته، أو اعتقاد الحلول. وقيل لما كسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام سجنه أياماً ثم أخرجه ليحرقة، فقال له من ربك الذي تدعو إليه وحاجه فيه. ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ فصار مبهوراً. وقرأ ﴿فَبُهِتَ﴾ أي فغلب إبراهيم الكافر. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طُعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (259)

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ تقديره أو أرأيت مثل الذي فحذف لدلالة ألم تر عليه، وتخصيصه بحرف التشبيه لأن المنكر للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى، بخلاف مدعي الربوبية، وقيل الكاف مزيدة وتقدير الكلام ألم تر إلى الذي حاج أو الذي مر. وقيل إنه عطف محمول على المعنى كأنه قيل: ألم

تر كالذي حاج، أو كالذي مر. وقيل: إنه من كلام إبراهيم ذكره جواباً لمعارضته وتقديره أو إن كنت تحيي فأحيي كإحياء الله تعالى الذي مر على قرية. وهو عزيز بن شرحيا. أو الخضر، أو كافر بالبعث. ويؤيده نظمه مع نمرود. والقرية بيت المقدس حين خربه بختنصر. وقيل القرية التي خرج منها الألوف. وقيل غيرهما واشتقاقها من القرى وهو الجمع. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية ساقطة حيطانها على سقفوها. ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظماً لقدرة المحيي إن كان القائل مؤمناً، واستبعاداً إن كان كافراً. و﴿أَنَّى﴾ في موضع نصب على الظرف بمعنى متى أو على الحال بمعنى كيف. ﴿فَأَمَّا اللَّهُ مَاءَ مَاءَةٍ عَامٍ﴾ فآلبته ميتاً مائة عام، أو أماته الله فلبث ميتاً مائة عام. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ بالإحياء. ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ القائل هو الله وسأغ أن يكلمه وإن كان كافراً لأنه آمن بعد البعث أو شارف الإيمان. وقيل ملك أو نبي. ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظان. وقيل: إنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً ثم التفت فرأى بقية منها فقال أو بعض يوم على الإضراب. ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مائة عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّ﴾ لم يتغير بمرور الزمان، واشتقاقه من السنة. والهاء أصلية إن قدرت لأم السنة هاء وهاء سكت إن قدرت واواً. وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة كتقضي البازي، وإنما أفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد. وقيل كان طعامه تيناً وعنباً وشرابه عصيراً أو لبناً وكان الكل على حاله. وقرأ حمزة والكسائي «لم يتسنن» بغير الهاء في الوصل. ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، أو انظر إليه سالمأ في مكانه كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف كما حفظناه الطعام والشراب من التغير، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده. ﴿وَلَنَجْجِلكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزيز فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله. وقيل لما رجع إلى منزله كان شاباً وأولاده شيوخاً فإذا حدثهم بحدث قالوا حديث مائة سنة. ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم. ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ كيف نحييها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه، وكيف منصوب بنشزها والجملة حال من العظام أي: انظر إليها محياة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب «ننشرها» من أنشر الله الموتى، وقرئ «ننشرها» من نشر بمعنى أنشر. ﴿ثُمَّ تَكْشُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعل تبين مضمير يفسره ما بعده تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، أو يفسره ما قبله أي فلما تبين له ما أشكل عليه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ على الأمر والأمر مخاطبة، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ لِحَافَةٍ لَّأَنتَ أَنتَ الْغَافِلُونَ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً، وقيل لما قال نمرود أنا أحيي وأميت قال له: إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها، فقال نمرود: هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم. وانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه على الجواب إن سئل عنه مرة أخرى. ﴿قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ﴾ بأنني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة، قال له ذلك وقد علم أنه أغرق الناس في الإيمان ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه. ﴿قَالَ بَلَىٰ وَكَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لَقَدْ سَأَلْتَ ذَلِكَ لِأَزِيدَ بَصِيرَةً وَسُكُونًا لِّقَلْبِكَ بِمُضَامَةِ الْعِيَانِ إِلَى الْوَحْيِ أَوْ الْاسْتِدْلَالِ﴾ ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ قيل طائوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة وفيه إيحاء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطائوس، والصلوة المشهور بها الديك وخسة النفس

وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترفع والمسارة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان والطير مصدر سمي به أو جمع كصاحب. ﴿فَصْرُهنَّ إِلَيْكُ﴾ فأملهن واضمهن إليك لتأملها وتعرف شياتها لثلاث تلتبس عليك بعد الإحياء. وقرأ حمزة ويعقوب ﴿فَصِرْهنَّ﴾ بالكسر وهما لغتان قال:

وَمَا صَيَّدَ الْأَعْنَاقِ فِيهِمْ جَبَلَةٌ وَلَكِنْ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ تَصُورُهَا  
وقال:

وَقَرْنُ يَصِيرُ الْجَيْدَ وَخَفْتُ كَأَنَّهُ عَلَى اللَّيْلِ فِتْنَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ

وقرىء ﴿فَصْرُهنَّ﴾ بضم الصاد وكسرهما وهما لغتان، مشددة الراء من صره يصره ويصره إذا جمعه وفصرهن من التصرية وهي الجمع أيضاً. ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾ أي ثم جزئهن وافرأ أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك. قيل كانت أربعة. وقيل سبعة. وقرأ أبو بكر «جزؤا» و«جزؤ» بضم الزاي حيث وقع. ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ قل لهن تعالين بإذن الله تعالى. ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أمر بأن يذبحها ويتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها، ويخلط سائر أجزائها ويوزعها على الجبال، ثم يناديهن. ففعل ذلك فجعل كل جزء يطير إلى آخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها، فيطاوله مسرعات متى دعاها بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وثمن الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عزيزاً بعد أن أماته مائة عام. ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجز عما يريد. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (261)

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثال حبة، أو مثلهم كمثال باذر حبة على حذف المضاف. ﴿أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبت على الحقيقة هو الله تعالى والمعنى: أنه يخرج منها ساق يتشعب لكل منه سبع شعب، لكل منها سنبله فيها مائة حبة. وهو تمثيل لا يقتضي وقوعه وقد يكون في الذرة والدخن في البر في الأراضي المغلة. ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ تلك المضاعفة. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بفضلته وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (262) ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ (263)

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ نزلت في عثمان رضي الله تعالى عنه فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقنابها وأحلاسها. وعبد الرحمن بن عوف فإنه أتى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة. والمن أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتناول عليه بسبب ما

أنعم إليه، وثم للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لعله لم يدخل الفاء فيه وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط إيهاماً بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا. ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ رد جميل. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل والحاجة، أو نيل المغفرة من الله بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذر ويغفر رده. ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ خير عنهما، وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة. ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاق بمن وإيذاء. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معالجة من بمن ويؤذي بالعقوبة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللّٰهُ لَا  
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (264)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما. ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كإبطال المنافق الذي يراني بإفناقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة، أو مماثلين الذي ينفق رثاء الناس، والكاف في محل النصب على المصدر أو الحال، و﴿رثاء﴾ نصب على المفعول له أو الحال بمعنى مراثياً أو المصدر أي إنفاقاً ﴿رثاء﴾. ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي فمثل المرائي في إنفاقه. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر أملس. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس نقياً من التراب. ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رثاء ولا يجدون له ثواباً، والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس، أو الجمع كما في قوله:

إِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرثاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْثُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (265)

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وتنبئاً بعض أنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها، أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة، كمثل بستان بموضع مرتفع، فإن شجرة يكون أحسن منظراً وأزكى ثمرأ. وقرأ ابن عامر وعاصم ﴿بربوة﴾ بالفتح وقرئ بالكسر وثلاثها لغات فيها. ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَاتَتْ أَكْثُلَهَا﴾ ثمرتها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما كنت تثمر بسبب الوابل. والمراد بالضعف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كُلَّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقيل: أربعة أمثاله ونصبه على الحال أي مضاعفاً. ﴿فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ أي فيصيبها، أو فالذي يصيبها طل، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. وهو المطر الصغير القطر، والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زلفاهم بالوابل والطل. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن الرثاء وترغيب في الإخلاص.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)﴾

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار. ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ جعل الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغلباً لهما لشرفهما وكثرة منافعهما، ثم ذكر أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع. ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ أي كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب، والواو للحال أو للعطف حملاً على المعنى، فكانه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر. ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب. ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ عطف على أصابه، أو تكون باعتبار المعنى. والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود، والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كrieb وإيذاء في الحسرة والأسف، فإذا كان يوم القيامة واشتد حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه، وأشبههم به من جال بسره في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نکص على عقبه إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثوراً. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تتفكرون فيها فتعتبرون بها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِمَّا تَنِفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن، فحذف المضاف لتقدم ذكره. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِمَّا تَنِفِقُونَ﴾ أي ولا تقصدوا الردي منه أي من المال، أو مما أخرجنا لكم. وتخصيصه بذلك لأن التفاوت فيه أكثر، وقرىء ولا تؤممو ولا تيمموا بضم التاء. ﴿تَنِفِقُونَ﴾ حال مقدرة من فاعل تيمموا، ويجوز أن يتعلق به منه ويكون الضمير للخبيث والجملة حالاً منه. ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لردائته. ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ إلا أن تسامحوا فيه، مجاز من أغمض بصره إذا غضه. وقرىء ﴿تغمضوا﴾ أي تحملوا على الإغماض، أو توجدوا مغمضين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتماعكم. ﴿حَمِيدٌ﴾ بقبوله وإثباته.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268)﴾

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر. وقرىء ﴿الْفقر﴾ بالضم والسكون وبضمينين وفتحيتين. ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ويغريكم على البخل، والعرب تسمي البخل فاحشاً. وقيل المعاصي ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي يعدكم في الإنفاق مغفرة لذنوبكم. ﴿وَفَضْلًا﴾ خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا، أو في الآخرة. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنفاقه.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)﴾

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العلم. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مفعول أول آخر للإهتمام بالمفعول الثاني

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بناؤه للمفعول لأنه المقصود. وقرأ يعقوب بالكسر أي ومن يؤته الله الحكمة. ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: أي خير كثير؟ إذ حيز له خير الدارين. ﴿وَمَا يَذْكُرُ﴾ وما يتعظ بما قص من الآيات، أو ما يتفكر، فإن المتفكر كالمذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة. ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

(270)

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حق أو باطل. ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ فيجازيكم عليه. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر. ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (271) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقُكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (272)

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعمة شيئاً إبداءها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين على الأصل. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون بكسر النون وسكون العين، وروي عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس. ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ أي تعطوها مع الإخفاء. ﴿فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمن لم يعرف بالمال فإن إبداء الفرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه. عن ابن عباس رضي الله عنهما (صدقة السر في التطوع تفضل علانيتهما سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتهما أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً). ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء أي والله يكفر أو الإخفاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عباس ويعقوب بالنون مرفوعاً على أنه جملة فعلية مبتدأة أو إسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر. وقرأ نافع وحمزة والكسائي به مجزوماً على محل الفاء وما بعده. وقرئ بالتاء مرفوعاً ومجزوماً والفعل للصدقات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ترغيب في الأسرار. ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن، والنهي عن المقابح كالمن والأذى وإنفاق الخبيث. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وإنها تخص بقوم دون قوم. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من نفقة معروفة. ﴿فَلَا تُنْفِسْكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا عليه ولا تنفقوا الخبيث. ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ حال، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلا أنفسكم غير منفقين إلا لا ابتغاء وجه الله وطلب ثوابه. أو عطف على ما قبله أي وليست نفقتكم إلا لا ابتغاء وجهه فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث. وقيل: نفي في معنى النهي. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فهو تأكيد للشرطية السابقة، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً» روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكروهوا لما أسلموا أن ينفعوهم فنزلت. وهذا في غير الواجب أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون ثواب نفقاتكم.



﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَصْرِفُهُمْ بِسَمَكِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَبِلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ (273)﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، أو صدقاتكم للفقراء. ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أحصرهم الجهاد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لا اشتغالهم به. ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة بفتح السين. ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسَمَكِهِمْ﴾ من الضعف ورثاة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً، وهو أن يلزم المسؤول حتى يعطيه، من قولهم الحفني من فضل لحافه، أي أعطاني من فضل ما عنده، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا. وقيل: هو نفى للأميرين كقوله:

على لا حب يهتدي بمنساره

ونصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال، أو على الحال. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)﴾

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يعمون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية. وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدهم ليلاً ودرهم نهاراً، ودرهم سرّاً ودرهم علانية. وقيل: في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين ينفقون، والفاء للسببية. وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على علانية.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ يَأْنِيهِمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275)﴾

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المعطومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم، أو نقد بنقد إلى أجل، أو في عوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء. ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجن يمسّه فيختلط عقله ولذلك

قيل: جَنَّ الرجلُ. وهو متعلق بـ ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا، أو يقوم أو يتخبط فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا اختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظمو الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله. وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع، والفرق بين فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً، ومن اشترى سلعة تساوي درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم، وإبطال القياس بمعارضة النص. ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فمن بلغه وعظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا. ﴿فَاتَّهَى﴾ فاتعظ وتبع النهي. ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت من موصولة، وبالإبتداء إن جعلت شرطية على رأي سيويه إذ الظرف غير معتمد على ما قبله. ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية. وقيل يحكم في شأنه ولا اعتراض لكم عليه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا، إذ الكلام فيه. ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم كفروا به.

﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (276)

﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. ﴿وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام «إن الله يقبل الصدقة ويربها كما يربي أحدكم مهره». وعنه عليه الصلاة والسلام «ما نقصت زكاة من مال قط». ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوايين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مصر على تحليل المحرمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ منتهك في ارتكابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (277)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ عطفهما على ما يعمهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آت. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (278)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ وارتكوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا. ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أمرتم به. روي: أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. فنزلت.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (279) وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (280)

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عباس «فأذنوا» أي فاعلموا بها غيركم، من الأذن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم، وتنكير حرب للتعظيم وذلك يقتضي أن يقاتل المربي بعد الاستئابة حتى يفى إلى أمر الله، كالبಾಗಿ ولا يقتضي كفره. روي: أنها لما نزلت قالت ثقيف لا يدي لنا بحرب الله ورسوله. ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ من الارتباء واعتقاد حله. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والقصان، ويفهم

منه أنها إن لم يتوبوا فليس لهم رأس ماله وهو شديد على ما قلناه، إذ المصير على التحليل مرتد وماله فيء.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة. وقرئ «ذا عسرة» أي وإن كان الغريم ذا عسرة. ﴿فَنظِرَةٌ﴾ فالحكم نظرة، أو فعليكم نظرة، أو فليكن نظرة وهي الإنظار. وقرئ «فناظره» على الخبر أي فالمستحق ناظره بمعنى منتظره، أو صاحب نظرتة على طريق النسب وفناظره على الأمر أي فسامحه بالنظرة. ﴿إِلَى مِيسْرَةٍ﴾ يسار، وقرأ نافع وحزمة بضم السين، وهما لغتان كمشرقة ومشرقة. وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله: وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بالإبراء. وقرأ عاصم بتخفيف الصاد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه. وقيل: المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه الصلاة والسلام، «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة» ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الذكر الجميل والأجر الجزيل.

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (281)

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم. ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة) وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يوماً وقيل أحدًا وثمانين يوماً. وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَیْضَ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَوْفًا أَوْ كِتَابًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ أَنْسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَقَوْمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَذْنُ لَا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْضَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (282)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي إذا دابن بعضكم بعضاً، تقول: دابته إذا عاملته نسيئة معطياً أو أخذاً. وفائدة ذكر الدين أن لا يتوهم من التدانين المجازاة ويعلم تنوعه إلى المؤجل والحال، وأنه الباعث على الكتابة ويكون مرجع ضمير فاكْتُبُوهُ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم الأيام والأشهر لا بالحصاد وقدم الحاج. ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم). ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ من يكتب السوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتدائنين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء مكتوبه موثقاً به معدلاً بالشرع. ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب. ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ مثل ما علمه الله من كتابة الوثائق، أو لا يَأْبَ أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها كقوله: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة المعلمة. أمر بها بعد النهي عن الإباء عنها تأكيداً، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة. ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وليكن المملي من عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه، والإملاط والإماء واحد. ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي المملي. أو الكاتب. ﴿وَلَا يَخْشَ﴾ ولا ينقص. ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي من الحق، أو مما أملى عليه. ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ ناقص العقل مبذراً. ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ صيباً أو شيخاً مختلاً. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ﴾ أو غير مستطيع للإملاط بنفسه لخرس أو جهل باللغة. ﴿فَلْيُمْلِلِ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قيم إن كان صيباً أو مختل العقل، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع. وهو دليل جريان النيابة في الإقرار ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم أو الوكيل. ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان. ﴿مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين. ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فليشهد أو فليستشهد رجل وامرأتان، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة. ﴿وَمَنْ تَرَضَوْا مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ لعلمكم بعدالتهم. ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ علة اعتبار العدد أي لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخرى، والعلة في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضلال سبباً له نزل منزله كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه، وكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن. وقرأ حمزة ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ على الشرط فتذكر بالرفع. وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿فتذكر﴾ من الإذكار. ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة أو التحمل. وسموا شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الواقع و﴿مَا﴾ مزيدة. ﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبَهُ﴾ ولا تملوا من كثرة مدايناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب. وقيل كنى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لا يقول المؤمن كسلت» ﴿صَغِيراً أَوْ كَبِيراً﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً، أو مختصراً كان الكتاب أو مشبعاً. ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون. ﴿ذَلِكَمُ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه. ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أكثر قسطاً. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها، وهما مبنيان من أقسط وأقام على غير قياس، أو من قاسط بمعنى ذي قسط وقويم، وإنما صحت الواو في ﴿أقوم﴾ كما صحت في التعجب لجموده. ﴿وَأَذْنِيَّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ استثناء من الأمر بالكتابة والتجارة الحاضرة تعم المبايعة بدين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبعده عن التنازع والنسيان. ونصب عاصم ﴿تجارة﴾ على أنه الخبر والاسم مضمّر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله:

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بِلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْبَعَا

ورفعها الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة. ﴿وَاسْأَلُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب ثم اختلف في إحكامها ونسخها. ﴿وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يحتمل البناءين، ويدل عليه أنه قرئ ﴿ولا يضار﴾ بالكسر والفتح. وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير في الكتابة والشهادة، أو النهي عن الضرر بهما مثل أن يعجلا عن مهم ويكلفا الخروج عما حد لهما، ولا يعطى الكاتب جعله، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان. ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا﴾ الضرر أو ما نهيتهم عنه. ﴿فَإِنَّهُ فُشِقَ بِكُمْ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه. ﴿وَعَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ كرر لفظه الله في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانَ مَقْبُوضَةٍ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مسافرين. ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانَ مَقْبُوضَةٍ﴾ فالذي يستوثق به رهان، أو فعليكم رهان، أو فليؤخذ رهان. وليس هذا التعليق لاشتراط السفر في الإرهان كما ظنه مجاهد والضحاك رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رهن درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله، بل لإقامة التوثق للإرهان مقام التوثق بالكتابة في السفر الذي هو مظنة إعوازاها. والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «فرهن» كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون: وقرئ بإسكان الهاء على التخفيف. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ أي بعض الدائنين بعض المدينين واستغنى بأمانته عن الارتهان. ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ أي دينه سماه أمانة لا ثمنه عليه بترك الإرهان به. وقرئ «الذي أيتمن» بقلب الهمزة ياء، و «الذي أتمن» بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم. ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود، أو المديونون والشهادة شهادتهم على أنفسهم. ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم. والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترفه ونظيره: العين زانية والأذن زانية. أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه. وقرئ «قلبه» بالنصب كحسن وجهه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني ما فيها من سوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه. ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ يوم القيامة. وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه، وهو صريح في نفي وجوب التعذيب. وقد رفعهما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف، وجزمهما الباقون عطفاً على جواب الشرط، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكل أو الاشتمال كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلِمُّمَ بِنَا فِي دِيَارِنَا نَجِدُ حَطَبًا جَزْلاً وَنَارًا تَأْجِجَا  
وإدغام الراء في اللام لحن إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة.

﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِي رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ شهادة وتنصيب من الله تعالى على صحة إيمانه والإعتداد به، وإنه جازم في أمره غير شاك فيه. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ لا يخلو من أن يعطف «المؤمنون» على «الرسول»، فيكون الضمير الذي ينوب عنه التنوين راجعاً إلى «الرسول» «والمؤمنين»، أو يجعل مبتدأ فيكون الضمير للمؤمنين. وباعتباره يصح وقوع كل بخبره خبر المبتدأ، ويكون أفراد الرسول

بالحكم إما لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان، وإيمانهم عن نظر واستدلال. وقرأ حمزة والكسائي: «وكتابه» يعني القرآن، أو الجنس. والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع في وحدان الجنس والجمع في جموعه ولذلك قيل: الكتاب أكثر من الكتب. ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي يقولون لا نفرق. وقرأ يعقوب لا يفرق بالياء على أن الفعل لـ ﴿كل﴾. وقرئ «لا يفرقون» حملاً على معناه كقوله تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ واحد في معنى الجمع لوقوعه في سياق النفي كقوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾. ولذلك دخل عليه بين، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا أَجْبَا. وَأَطَعْنَا أَمْرًا. عَفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ اغفر لنا غفرانك، أو نطلب غفرانك. ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (286)

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمة، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها كقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ وهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير. ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من شر لا يتتبع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها، وتخصيص الكسب بالخير والاكْتِسَابُ بالشر لأن الاكْتِسَابَ فيه احتمال والشر تشبيه النفس وتجذب إليه فكانت أجدر في تحصيله وأعمل بخلاف الخير. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك - وإن كان خطأ - فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يقضي إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلاً فيجوز أن يدعو الإنسان به استدامة واعتداداً بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفعوم قوله عليه الصلاة والسلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ عبأً ثقيلاً يأصر صاحبه، أي يحبس في مكانه. يريد به التكليف الشاقة. وقرئ ﴿ولا تحمل﴾ بالتشديد للمبالغة. ﴿كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ حملاً مثل حملك إياه على ﴿من قبلنا﴾، أو مثل الذي حملته إياهم فيكون صفة لإصرار، والمراد به ما كلف به بنو إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع التجاسة، وخمسين صلاة في اليوم والليل، وصرف ربع المال للزكاة. أو ما أصابهم من الشدائد والمحن. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق وإلا لما سئل التخلص منه، والتشديد ههنا لتعدي الفعل إلى المفعول الثاني. ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا. ﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذه. ﴿وَارْحَمْنَا﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا. ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواله على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت. وعنه عليه السلام «أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة. كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأته عن قيام الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وهو يرد قول من استكره أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، كما قال عليه الصلاة والسلام «السورة التي تذكر فيها البقرة فسقاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة، ولن يستطيعها البطلة قيل: يا رسول الله وما البطلة؟ قال: السحرة».

## سورة آل عمران

[مدنية، وآياتها مائتا آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

(3)﴾

﴿الْم. الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنما فتح الميم في المشهور وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها ليدل على أنها في حكم الثابت، لأنها أسقطت للتخفيف لا للدرج، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحد اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدال لا لالتقاء الساكنين، فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في الأم. وقرء بكسرهما على توهم التحريك لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم». ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن نجوماً. ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله وهو في موضع الحال. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ جملة على موسى وعيسى. واشتقاقهما من الوري والنجل، ووزنهما بتفعلة وافعل تعسف لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرء ﴿الْأَنْجِيلَ﴾ بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي التوراة بالإمالة في جميع القرآن، ونافع وحزمة بين اللفظين لإقالاته فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقيين.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم مِّن قَبْلِهِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (4)﴾

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل تنزيل القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع من قبلنا، وإلا فالمراد به قومهما. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل. ذكر ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعم ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكرر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً، وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً منزلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل، أو المعجزات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزل وغيرها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم والفعل منه نقم بالفتح والكسر، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر، وزجراً عن الإعراض عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا فَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ (7) ﴿

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً، إيماناً أو كُفْراً. فعَبَّرَ عنه بالسماء والأرض إذ الحس لا يتجاوزهما، وإنما قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اقتصرت فيها. وهو كالدليل على كونه حياً وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي من الصور المختلفة، كالدليل على القيومية، والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرئ «تصوركم» أي صوركم لنفسه وعبادته. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره جملة ما يعلمه ولا يقدر على مثل ما يفعله. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. قيل: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، فإن وفد نجران لما حاجوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة، من أولها إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليهم وأجاب عن شبههم.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها بأن حفظت من الإجمال والاحتمال. ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصله يرد إليها غيرها والقياس أمهات فأفرد على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ محتملات لا يتضح مقصودها - لإجمال أو مخالفة ظاهر - إلا بالفحص والنظر ليظهر فيها فضل العلماء، ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها - وبإتباع القرائح في استخراج معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات - معالي الدرجات. وأما قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابَ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ﴾ فمعناه أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ، و﴿أُخَرُ﴾ جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته، لأن معناه أن القياس أن يعرف ولم يعرف لا أنه في معنى المعروف أو عن ﴿أُخَرُ﴾ من ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق كالمبتدعة. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا فَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يؤلوه على ما يشتبهونه، ويحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطلبتين، أو كل واحدة منهما على التعاقب. والأول يناسب المعاند والثاني يلائم الجاهل. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه. ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ومن وقف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه: كمدة بقاء الدنيا، ووقت قيام الساعة، وخواص الأعداد كعدد الزبانية، أو بما دل القاطع على أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد. ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ استئناف موضح لحال ﴿الراسخين﴾، أو حال منهم أو خبر أن جعلته مبتدأ. ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده، ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر، وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس، واتصال الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته، وما قبلها في تصوير الجسد وتسويته، أو أنها جواب عن تشبث النصارى بنحو قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَوَرَّحَ مِنْهَا﴾. كما أنه جواب عن قوله لا أب له غير الله، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالى مصور الأجنة كيف يشاء فيصور من نطفة أب ومن غيرها، وبأنه صوره في الرحم والمصور لا يكون أب المصور.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)﴾



﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. وقيل: استئناف والمعنى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه، قال عليه الصلاة والسلام «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه». وقيل: لا تبلىنا ببلايا تزغ فيها قلوبنا. ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقسمين. من المحكم والمتشابه، وبعد نصب على الظرف، وإذ في موضع الجر بإضافته إليه. وقيل إنه بمعنى إن. ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ لكل سؤال، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم على عباده لا يجب عليه شيء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلَفُ﴾ (9)

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم أو لجزائه. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نيهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمآل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلَفُ﴾ الميعاد، فإن الإلهية تنافيه وللإشعار به وتعظيم الموعد لون الخطاب، واستدل به الوعيدية. وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو لدلائل منفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (10)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركوا العرب. ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ من الله شيئاً أي من رحمته، أو طاعته على معنى البدلية، أو من عذابه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ حطبها. وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها.

﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (11)

﴿كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ متصل بما قبله أي لن تغني عنهم كما لم تغن عن أولئك، أو توقد بهم كما توقد بأولئك، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأب هؤلاء كذابهم في الكفر والعذاب، وهو مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فنقل إلى معنى الشأن. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ عطف على ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾. وقيل استئناف. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف بتفسير حالهم، أو خبر إن ابتدأت بالذين من قبلهم. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهويل للمواخظة وزيادة تخويف الكفرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَاذِبِ﴾ (12)

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي قل لمشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس، فنزلت. وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر، وضرب الجزية على من عداهم وهو من دلائل النبوة. وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. ﴿وَيَسَّ لِلْمُهَاذِبِ﴾ تمام ما يقال لهم، أو استئناف وتقدير بش المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصَارَةِ فَقُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَتِي كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ

رَأَى النَّبِيُّ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيٍّ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَلْمُبْرَءُ لِأُولَى الْأَبْصَارِ﴾ (13)

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل للمؤمنين. ﴿فِي فِتْنَةِ النَّصَارَةِ﴾ يوم بدر. ﴿فِتْنَةٌ



متصوب أو مرفوع. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (17)

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحسبها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير، وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتوسط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروح أجمع للمجتهدين. قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (18) **إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمُوا وَمَا أَخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَذَلِكَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (19) **إِنْ هَاجَوْكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (20) **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (21) **أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي اللَّهِ وَفِي الْعَالَمِينَ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (22)********

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بين وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها. **﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾** بالإقرار. **﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾** بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. **﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾** مقيماً للعدل في قسمه وحكمه وانتصابه على الحال من الله، وإنما جاز إفراجه بها ولم يجز جاء زيد وعمرو ركباً لعدم اللبس كقوله تعالى: **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة﴾**. أو من هو العامل فيها معنى الجملة أي تفرد قائماً، أو أحقه لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفة للمنفى وفيه ضعف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة، أو حالاً من الضمير. وقرئ القائم بالقسط على البذل عن هو أو الخبر لمحذوف. **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾** كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: **﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** فيعلم أنه الموصوف بهما، وقدم العزيز لتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته، ورفعهما على البذل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد.

وقد روي في فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: «إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفي بالعهد، ادخلوا عبدي الجنة». وهي دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ، وقرأ الكسائي بالفتح على أنه بدل من أنه بدل الكل أن فسر الإسلام بالإيمان، أو بما يتضمنه وبذل اشتغال إن فسر بالشرعة. وقرئ أنه بالكسر وأن بالفتح على

وقوع الفعل على الثاني، واعتراض ما بينهما أو إجراء شهد مجرى قال تارة وعلم أخرى لتضمنه معناهما. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً، أو في التوحيد فثلث النصارى ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾. وقيل هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في الدين، أو جادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أخلصت نفسي وجسمتي له لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسول، وإنما عبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿وَمَنْ أَتَّبِعْ﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفصل، أو مفعول معه. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب. ﴿أَسْلَمْتُمْ﴾ كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة، أم أنتم بعد على كفركم ونظيره وقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ وفيه تعبير لهم بالبلادة أو المعاندة. ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ فقد نفَعُوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت. ﴿وَاللَّهُ بِصِرِّ الْعِبَادِ﴾ وعد ووعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام. قتل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم، وقد سبق مثله في سورة البقرة. وقرأ حمزة «ويقاتلون الذين». وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إن كليت ولعل ولذلك قيل الخبر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كقولك زيد فافهم رجل صالح، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يدفع عنهم العذاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (22) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25) قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُزِلُّ مَن تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرُدُّ مَن تَشَاءُ بِخَيْرٍ حَسَابٍ (27)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية، ومن للتبعض أو للبيان. وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقيق. ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن، أو التوراة لما روي «أنه إليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت. فقال: على دين إبراهيم. فقالا إن إبراهيم كان يهودياً فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم. فأبيا فنزلت». وقيل نزلت في الرجم. وقرئ ليحكم على البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم، وفيه دليل على أن الأدلة السمعية حجة في الأصول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ

مِنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التولي والإعراض. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائف والطمع الفارغ. ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

﴿فَكَيفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. روي: أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذا هي بعد الخلاص منها ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ الضمير لكل نفس على المعنى لأنه في معنى كل إنسان.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم. وقيل: أصله يا الله أمانة بخير، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ﴾ يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، وهو نداء ثان عند سيويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تعطي منه ما تشاء من تشاء وتسترد، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه. وقيل: المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذكر الخير وحده لأنه المقضي بالذات، والشر مقضي بالعرض، إذ لا يوجد شر جزئي ما لم يتضمن خيراً كلياً، أو لمرعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روي (أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها. وبرق منها برق أضاء منه ما بين لايتها لكان بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون وقال «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء» وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها فابشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمينكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق) فنزلت. فنبه على أن الشر أيضاً بيده بقول ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عقب ذلك ببيان قدرته على معاينة الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله، دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاينة الذل والعز وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مضيق. وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس. إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه. وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ﴿الميت﴾ بالتحفيف.

﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا

وَمِنْهُمْ ثَقَلَةٌ وَيُحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) ﴿

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نهوا عن موالاتهم لقراية وصداقة جاهلية ونحوهما، حتى لا يكون حبيهم وبغضهم إلا في الله، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية. ﴿مِنْ ذُوِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء. ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي من ولايته في شيء يصح أن يسمى ولاية، فإن موالاة المتعاضدين لا يجتمعان قال:

تَوَدُّ عَدُوِي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي صَدِيقُكَ لَيْسَ النُّوْكَ عَنْكَ بِعَازِبٍ  
﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تخافوا من جبهتهم ما يجب اتقاؤه، أو اتقاء. والفعل معدى بمن لأنه في معنى تحذروا وتخافوا. وقرأ يعقوب «تقية». منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً في الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز كما قال عيسى عليه السلام: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿وَيُحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فلا تعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النهي في القبح وذكر النفس، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة.

﴿قُلْ إِنْ تُخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُونَ بِعَلْمِ اللَّهِ رِجْعُكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (29) ﴿

﴿قُلْ إِنْ تُخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُونَ بِعَلْمِ اللَّهِ﴾ أي أنه يعلم ضمائرهم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيعلم سرهم وعلنكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ شَوْءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (30) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّتَهُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَدْنَيْتَهَا نِجَاسًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَتَرُكُمْ إِنِّي لَأَبْهَىٰ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (38) ﴿

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ شَوْءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيداً﴾  
﴿يوم﴾ منصوب بتود أي تمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها، أو جزاء أعمالها من الخير والشر

حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم، وهو له أمداً بعيداً، أو بمضمر نحو اذكر، و ﴿تُودُ﴾ حال من الضمير في عملت أو خبر لما عملت من سوء وتجد مقصور على ﴿ما عملت من خير﴾، ولا تكون ﴿ما﴾ شرطية لارتفاع ﴿تُودُ﴾. وقرئ «ودت» وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أوقع معني لأنه حكاية كائن وأوفق للقراءة المشهورة. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كرهه للتأكيد والتذكير. ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رافة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشى عذابه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا الله، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته. ﴿يُخَبِّئُكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تحب إليه بطاعته واتباع نبيه ﷺ. روي: أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه. وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حباً لله. وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأمروا أن يجعلوا لقلوبهم تصديقاً من العمل.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل الماضي والمضارعة بمعنى فإن تولوا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم ولا يشي عليهم، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قوا على ما لم يقو عليه غيرهم. لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها، وبه استدل على فضلهم على الملائكة، ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾، إسماعيل وإسحق وأولادهما. وقد دخل فيهم الرسول ﷺ، ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ موسى وهرون ابنا عمران بن يصر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبي يوذ بن يوزن بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن مثنكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن سافط بن ايشا بن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشي بن عويد بن سلمون بن ياعز بن نحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارس بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان بين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فعليه من الذر أو فعولة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنتيتها.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ فيتنصب به إذ على التنازع. وقيل نصبه بإضمار اذكر، وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون فظن أن المراد زوجته ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج بنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على

بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم وهلك عمران. وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فلعلها بنت الأمر على التقدير أو طلبت ذكراً ﴿مُحَرَّرًا﴾ معتقاً لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة ونصبه على الحال. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ ما نذرته. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لقولي ونيتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنيتها لأنه كان أنثى، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيتها علم منه فإن الحال وصاحبها بالذات واحداً. أو على تأويل مؤنث كالنفس والحبلة. وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي بالشئ الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿وَضَعْتُ﴾ على أنه من كلامها تسلياً لنفسها أي ولعل الله سبحانه وتعالى فيه سرّاً، أو الأنثى كانت خيراً. وقرئ ﴿وضعت﴾ على أنه خطاب الله تعالى لها. ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ بيان لقوله ﴿والله أعلم﴾ أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقريباً إليه وطلباً لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة. وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة. ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجبرها بحفظك. ﴿وَوَدَّعَيْنَاهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي ﷺ «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها». ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر. ﴿بِقَبُولِ حَسَنٍ﴾ أي بوجه حسن يقبل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذكر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة. روي أن حنة لما ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفأ قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا. ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذى قبول حسن، وأن يكون تقبل بمعنى استقبال كتقضي وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿وَأَنْبَتْنَاهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم، وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وخفف الباقون. وبدوا «زكرياء» مرفوعاً. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ جواب ﴿كلما﴾ وناصبه. روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكِ هَذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. جعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه. ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تستعده. قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرة، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى. روي (أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً فقال لها: أننى لك



هذا فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل، ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ في ذلك المكان، أو الوقت إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتها لحنه العجوز العاقر. وقيل لما رأى الفواكه في غير أوانها انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال هب لي من لدنك ذرية، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأَسباب المعهودة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُدْشِرُكَ بِحَيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (39)

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل. فإن المنادي كان جبريل وحده. وقرأ حمزة والكسائي «فناداه» بالإمالة والتذكير. ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة، و (يصلّي) صفة قائم أو خبر أو حال آخر أو حال من الضمير في قائم. ﴿أَنَّ اللَّهَ يُدْشِرُكَ بِحَيٍّ﴾ أي بأن الله. وقرأ نافع وابن عامر بالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع منه. وقرأ حمزة والكسائي (يشرك)، و (يحیی) اسم أعجمي وإن جعل عربياً فمفعول منع صرفه للتعريف ووزن الفعل. ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بعيسى عليه السلام، سمي بذلك لأنه وجد بأمره تعالى دون أب فشابهه البدعيات التي هي عالم الأمر، أو بكتاب الله، سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدة لقصيدته. ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم وكان فائقاً للناس كلهم في أنه ما هم بمعصية قط. ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغة في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روي أنه مر في صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت. ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً منهم أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (40)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استعظماً أو تعجباً أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن وأثر في. وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمان وتسعون سنة. ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد، من العقر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فان وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثل هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَذُرِّيَّةً كَثِيرًا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

وَالْإِنشَارِ (41)

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحبل لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة الانتظار. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة ليخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاء لحق النعمة وكأنه قال آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يد أو رأس، وأصله التحرك ومنه الرموز للبحر والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير. وقرئ ﴿رَمْزًا﴾ بفتحتين كخدم جمع رامز ورمزاً كرسل جمع رموز على أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله:

مَنْى مَا تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجِفُ رَوَانِفُ أَلْيَتِكَ وَتُسْتَطَارَا

﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحسبة، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه، وتقيد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب. وقيل من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. وقرئ بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحار.

﴿وَلَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُماً إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (42)

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ كلموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لزكريا أو إرهاباً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبي امرأة لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾. وقيل ألهموها، والاصطفاء الأول تقبلها من أمها ولم يقبل قبلها أنثى وتفرغها للعبادة وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرها تطهيراً عما يستقذر من النساء. والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات السنية كالوالد من غير أب وتبرئتها مما قذفها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين.

﴿يَمْرُؤُماً أَفْتَنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ (43)

﴿يَا مَرْيَمُ أَفْتَنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها، وقدم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيدان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين. وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ وبالسجود الصلاة كقوله تعالى: ﴿وأدبار السجود﴾. وبالركوع الخشوع والإخبات.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَفْلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ

إِذْ يَخْصِمُونَ﴾ (44)

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفْلَهِمْ أَفْلَهُمْ﴾ أفداحهم للافتراء. وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً، والمراد تقرير كونه وحياً على سبيل التهكم بمنكره، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهدة والسماع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقي أن يكون الإتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل. ﴿أَفْلَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ﴿يلقون أفلامهم﴾ أي يلقونها ليعلموا، أو يقولوا ﴿أفهم يكفل مريم﴾. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْصِمُونَ﴾ تنافساً في كفالتها.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُماً إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ كَلِمَةً مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ

كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (47) وَيَمْلَأُهُ الْحِكْمَةَ وَالتَّوْبَةَ وَالْإِنْجِيلَ

﴿(48) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ

فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّمُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (49) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَيَّ مِنَ التَّوْبَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضُ

الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكْرُؤًا مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ (54)﴾

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ بدل من ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ الأولى وما بينهما اعتراض، أو من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على أن وقوع الاختصاص والبشارة في زمان متسع كقولك لقيته سنة كذا. ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحاً معناه: المبارك، وعيسى معرب ايشوع واشتقاقهما من المسح لأنهما مسح بالبركة أو بما طهره من الذنوب، أو مسح الأرض ولم يبق في موضع، أو مسحه جبريل، ومن العيس وهو بياض يعلوه حمرة، تكلف لا طائل تحته، وابن مريم لما كان صفة تميز تمييز الأسماء نظمت في سلكها، ولا ينافي تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضاف ويحتمل أن يراد به أن الذي يعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة، فإن الاسم علامة المسمى والمميز له ممن سواه ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفة، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب. ﴿وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حال مقدرة من كلمة وهي وإن كانت نكرة لكنها موصوفة وتذكيره للمعنى، والوجهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة.

﴿وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً، كلام الأنبياء من غير تفاوت. والمهد مصدر سمي به ما يمهّد للصبي في مضجعه. وقيل إنه رفع شاباً والمراد وكهلاً بعد نزوله، وذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرها الذي في يكلم.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ القائل جبريل، أو الله تعالى وجبريل حكى لها قول الله تعالى. ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطبيقاً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج، أو عطف على يشرك، أو وجبها و ﴿الكتاب﴾ الكتب أو جنس الكتب المنزلة. وخص الكتابان لفضلهما. وقرأ نافع وعاصم ﴿ويعلمه﴾ بالياء.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أرسلت رسولاً بأنني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأنني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم. ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ نصب بدل من أني قد جئتكم، أو جر بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير، وقرأ نافع ﴿إني﴾ بالكسر ﴿فَنَفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة «طائراً» بالالف والهمزة. ﴿وَأُبرئ الأكمة

وَالْأَبْرَصَ﴾ الأكمة الذي ولد أعمى أو الممسوح العين. روي: أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء. ﴿وَأَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. ﴿وَأَنْتُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ موقنين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف على ﴿رسولاً﴾ على الوجهين، أو منصوب بإضمار فعل دل عليه ﴿قد جئتكم﴾ أي وجئتكم مصداقاً. ﴿وَلَأَجَلٌ لَكُمْ﴾ مقدر بإضماره، أو مردود على قوله: ﴿أني قد جئتكم بآية﴾، أو معطوف على معنى ﴿مصدقاً﴾ كقولهم جئتكم معذراً ولأطيب قلبك. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والشروب والسّمك ولحوم الإبل والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يخل ذلك بكونه مصداقاً للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربكم وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبي والساحر، أو جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، والأول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعوا فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية فإنه بملزمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتها عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم».

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس. ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ملتجئاً إلى الله تعالى أو ذاهباً أو ضامناً إليه، ويجوز أن يتعلق الجار بـ ﴿أنصاري﴾ مضمناً معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري. وقيل إلى ها هنا بمعنى (مع) أو (في) أو (اللام). ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل خاصته من الحور وهو البياض الخالص، ومنه الحواريات للخصريات لخلوص ألوانهن. سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم. وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود. وقيل قصارين يحورون الثياب أي يبيضونها. ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله. ﴿أَمَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدايتك، أو مع الأنبياء الذين يشدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

﴿وَمَكْرُؤًا﴾ أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة. ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والإزدواج. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ﴾ أقوالهم مكرراً وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي تُوفِّيكُ وَرَأْفَتَكَ إِلَىٰ مَن شِئْتَ وَطَهَّرَكُم مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55)﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله أو خير الماكرين، أو لمضمر مثل وقع ذلك. ﴿يَا عِيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً إذ روي أنه رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت. وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهب النصراني. ﴿وَرَأْفَتَكَ إِلَيَّ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهَّرَكُم مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم أو قصدهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعلونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كفر به، وغلب المخاطبين على الغائبين. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ (56)﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)﴾

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له. وقرأ حفص ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تقرير لذلك.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبره. ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبر وتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة وأن يكونا خبرين وأن ينتصب بمضمر يفسره نتلوه. ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ المشتمل على الحكم، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه يريد به القرآن. وقيل اللوح.

﴿إِن مَّثَلُ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)﴾

﴿إِن مَّثَلُ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشبه، وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم، شبه حاله بما هو أعزب منه إfachاً للخصم وقطعاً لمواد الشبه والمعنى خلق قاله من التراب. ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أي أنشأه بشراً كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه، ويجوز أن يكون ثم لتراخي الخبر لا المخبر. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (60)﴾

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبر محذوف أي هو الحق، وقيل ﴿الحق﴾ مبتدأ و ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ خبره أي الحق المذكور من الله تعالى. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع.

﴿فَمَن حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا وَنَفْسَنَا وَنَفْسَكُمْ

ثُمَّ تَبْتَهِلُ فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (61) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ  
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا  
مُسْلِمُونَ (64) ﴿

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ من النصاري. ﴿فِيهِ﴾ في عيسى. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من البينات  
الموجبة للعلم. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ هلموا بالرأي والعزم. ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا  
وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه وأهله وأصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحمل عليها، وإنما قدمهم  
على الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم. ﴿ثُمَّ تَبْتَهِلُ﴾ أي تتباهل بأن نلعن الكاذب منا.  
والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصله الترك من قولهم بهلت الناقة إذا تركتها بلا صرار. ﴿فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى  
الكَافِرِينَ﴾ عطف فيه بيان روي (أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب - وكان  
ذا رأيهم - ما ترى فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً  
إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا ألف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين  
أخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا، فقال  
أسقفهم يا معشر النصاري إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تتباهلوا  
فتهلكوا، فادعونا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد، فقال عليه  
الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو تتباهلوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً،  
ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر». وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما قص من نبأ عيسى ومريم. ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ بجملتها خبر إن، أو هو فصل يفيد  
أن ما ذكره في شأن عيسى ومريم حق دون ما ذكروه، وما بعده خبر واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ  
من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ صرح فيه به. ﴿مِنْ﴾ المزيدة للاستغراق تأكيداً  
للرد على النصاري في تثليثهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة  
البالغة ليشاركة في الألوهية.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم ووضع المظهر موضع المضمهر ليدل على أن التولي عن  
الحجج والإعراض عن التوحيد، إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعم أهل الكتابين. وقيل يريد به وفد نجران، أو يهود المدينة. ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ  
كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسرها ما بعدها. ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أن نوحده  
بالعبادة ونخلص فيها. ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن  
يعبد. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا نقول عزيز ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع  
الأخبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا روي أنه لما نزلت ﴿اتَّخِذُوا أَحِبَارَهُمْ  
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله قال «أليس كانوا يحلون لكم  
ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال: هو ذاك». ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا  
مُسْلِمُونَ﴾ أي لزمتمكم الحجة فاعترفوا بأننا مسلمون دونكم، أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطق به الكتب  
وتطابقت عليه الرسل.

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحجج بين:

أولاً، أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاور عليه من الأطوار المنافية للالوهية، ثم ذكر ما يحل عقدهم ويزيح شبهتهم، فلما رأى عبادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل، وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68) وَذَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُوْضِلُونَكُم مَّا يَظُنُّونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70)﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين فكيف يكون عليهما. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدعون المحال.

﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها حرف تنبيه نبهوا بها على حالهم التي غفلوا عنها، وأنتم مبتدأ و ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبره و ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ جملة أخرى مبينة للأولى. أي أنتم هؤلاء الحمقى وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وقيل ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بمعنى الذين و ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ صلته. وقيل ها أنتم أصله أنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقلبت الهمزة هاء. وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿ها أنتم﴾ حيث وقع بالمد من غير همز، وورش أقل مدأ، وقيل بالهمز من غير ألف بعد الهاء والباقون بالمد والهمز، والبيزي بقصر المد على أصله. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاججتم فيه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان. ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة. ﴿مُسْلِمًا﴾ متقاداً لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم مشركون لاشراكهم به عزيزاً والمسيح ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه. من الولي وهو القرب. ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته. ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة. وقرئ والنبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه، وبالجر عطفاً على إبراهيم. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

﴿وَذَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلت في اليهود لما دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية و ﴿لو﴾ بمعنى أن. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وزره واختصاص ضرره بهم.





الهدى. وقراءة ابن كثير ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ على الاستفهام للتقريع، تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتى أحد دبرتم. وقرىء ﴿إِنْ﴾ على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم. ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حججتكم عند ربكم، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم. ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بَقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ كفناحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائثون في الكثير اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ و ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ بإسكان الهاء وقالون باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص والباقون بإشباع الكسرة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة السينة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله ﴿لَا يُؤَدِّهِ﴾. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بسبب قولهم. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِينِ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب - ولم يكونوا على ديننا - عتاب وذم. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهود رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم. وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

﴿يَلَى﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرر للجملة التي سدت ﴿يَلَى﴾ مسدها، والضمير المجرور كمن أو لله وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى ﴿مَنْ﴾، وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ متاع الدنيا. ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بما يسرهم أو بشيء أصلاً، وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يشي عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشتراها به. وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس ويهودي في بئر أو أرض وتوجهه الحلف على اليهودي.

﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحبي بن أخطب. ﴿يَلُؤْنُوا الْأَسْتِثْمَ بِالْكِتَابِ﴾ يفتلون بقرآته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرىء «يلون» على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. ﴿لَتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله ﴿يلوون﴾. وقرىء «ليحسوه» بالياء والضمير أيضاً للمسلمين. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وما هو من الكتاب﴾ وتشنيع

عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً، أي ليس هو نازلاً من عنده. وهذا لا يقتضي أن لا يكون فعل العبد فعل الله تعالى. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُثْبِتَ اللَّهَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام. وقيل (أن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً)، فقال: «معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني» فنزلت. وقيل (قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك). قال: «لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله» ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ ولكن يقول كونوا ربانيين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحياني والرقباني وهو الكامل في العلم والعمل. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب تعلمون بمعنى عالمين. وقرئ ﴿تَدْرُسُونَ﴾ من التدريس وتدرسون من أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾ نصبه ابن عامر وحزمة وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول، وتكون لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله ﴿مَا كَانَ﴾، أي ما كان لبشر أن يستنبهه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً، بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة. ورفع الباقون على الاستئناف، ويحتمل الحال وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدوري باختلاس الضم. ﴿يَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ﴾ إنكار، والضمير فيه للبشر وقيل لله. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون لأن يسجدوا له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

(81) ﴿

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ قيل إنه على ظاهره، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأهم به أولى. وقيل معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأمهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم. وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل، والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أمهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف، وهم بنو إسرائيل، أو سماهم نبيين تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب والنيون كانوا منا، واللام في ﴿لَمَّا﴾ موطنه للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية. وقرأ حمزة ﴿لَمَّا﴾ بالكسر على أن ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب، ثم مجيء رسول مصدق له أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه، أو موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له. وقرئ ﴿لَمَّا﴾ بمعنى حين آتيتكم، أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استقلاً. وقرأ نافع ﴿آتيناكم﴾ بالنون والألف جميعاً. ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي، سمي به لأنه يؤصر أي يشد. وقرئ بالضم وهو إما لغة فيه كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به. ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. وقيل الخطاب فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ

الشَّاهِدِينَ ﴿ وَأَنَا أَيْضاً عَلَى إِقْرَارِكُمْ وَشَهِدْتُكُمْ شَاهِدٌ، وَهُوَ توكيد وتحذير عظيم.

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (82)

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (83)

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عطف على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أتولون فغير دين الله تبغون، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار والفعل بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالناء عند الباقيين على تقدير وقل له. ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أي طائعين بالنظر واتباع الحجة، وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الفرق، والإشراف على الموت. أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدر أن يمتنعوا عما قضى عليهم ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بآباء على أن الضمير لمن.

﴿قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (84)

﴿قُلْ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أمر للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان، والقرآن كما هو منزل عليه بتوسط تبليغه إليهم وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له، والنزول كما يعدى بالي لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قدم المنزل عليه عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعروف له والعار عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ متقادون أو مخلصون في عبادته.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (85)

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله. ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الواقعين في الخسران، والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقدر للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل. والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغيره لا قبول كل ما يغيره، ولعل الدين أيضاً للأعمال.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ﴾ (86)

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وضع له منهمك في الضلال بعيد عن الرشد. وقيل نفي وإنكار له وذلك يقتضي أن لا تقبل توبة المرتد، ﴿وشهدوا﴾ عطف على ما في ﴿إيمانهم﴾ من معنى الفعل ونظيره فأصدق وأكن، أو حال بإضمار قد من كفروا وهو على الوجهين دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع

الإيمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه .

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91) لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْهُ عَلَيْهِمْ (92) كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِلَّهِ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93)﴾

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم، وبمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم . ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة، أو العقوبة، أو النار وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما . ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد . ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا، ويجوز أن لا يقدر له مفعول بمعنى ودخلوا في الصلاح . ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبل توبته . ﴿رَحِيمٌ﴾ يتفضل عليه . قيل : إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رده فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو كفروا بمحمد بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم تربص بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه ونفاقه بإظهاره . ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكفي عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم، ولذلك لم تدخل الفاء فيه . ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ﴾ الثابتون على الضلال .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أدخل الفاء ها هنا للإشعار به، وملء الشيء ما يملؤه . و ﴿ذَهَبًا﴾ نصب على التمييز . وقرئ بالرفع على البدل من ﴿ملء﴾ أو الخبر لمحذوف . ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو معطوف على مضمرة تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة، أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ﴾ والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغة في التحذير وإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرماً ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ في دفع العذاب ومن مزية للاستغراق .

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا بر الله الذي هو الرحمة والرضى والجنة. ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال، أو ما يعمه وغيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبدن في طاعة الله والمهجة في سبيله. روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إليّ بئرحاء فضعها حيث أراك الله، فقال: «بخ بخ ذاك مال راح أو راتح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد فقال: زيد إنما أردت أن أتصدق بها فقال عليه السلام: «إن الله قد قبلها منك». وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب. وقرئ «بعض ما تحبون» وهو يدل على أن من للتبعض ويحتمل التيسين. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من أي شيء محبوب أو غيره ومن لبيان ما. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أي المطعومات والمراد أكلها. ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حلالاً لهم، وهو مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى: ﴿لَا مِنْ حِلِّ لِهِمْ﴾. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ يعقوب. ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ كلحوم الإبل والبانها. وقيل كان به عرق النسا فندر إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه. وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء. واحتج به من جوز للنبي أن يجتهد، وللمانع أن يقول ذلك بإذن من الله فيه فهو كتحريمه ابتداء. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً، وذلك رد على اليهود في دعوى البراءة مما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ وَقَوْلُهُ﴾: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ الآيتين، بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وفي منع النسخ والطعن في دعوى الرسول عليه السلام موافقة إبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل والبانها. ﴿قُلْ قَاتِلُوا بِالتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمر بمحاجتهم بكتابهم وتبكيتهما بما فيه من أنه قد حرم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محرماً. روي: أنه عليه السلام لما قاله لهم بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة. وفيه دليل على نبوته.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (94)

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم. ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعدما وضع لهم.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (95) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (96)

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، أو مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التي اضطركم إلى التحريف والمكابرة لتسوية الأغراض الدنيوية، وألزمتمكم تحريم طيبات أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضع للعبادة وجعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى. ويدل عليه أنه قرئ على البناء للفاعل. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي «ببكة»، وهي لغة في مكة كالنبيط والنميط، وأمر

راتب وراتم ولازب ولازم، وقيل هي موضع المسجد. ومكة البلد من بكة إذا زحمة، أو من بكة إذا دقة فإنها تبك أعناق الجبابرة روي أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: «المسجد الحرام، ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة». وقيل أول من بناه إبراهيم ثم هدم فبناه قوم من جرهم، ثم العمالقة، ثم قريش. وقيل هو أول بيت بناه آدم فانطمس في الطوفان، ثم بناه إبراهيم. وقيل: كان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح يطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية. وقيل المراد إنه أول بيت الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات واعتكف دونه وطاف حوله، حال من بالشرف لا بالزمان. ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، حال من المستكن في الظرف ﴿وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ طَئِعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تُؤْتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ تُسْلِمُونَ (102) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)﴾

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيد في الحرم ولا تتعرض لها، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كأصحاب الفيل. والجملة مفسرة للهدى، أو حال أخرى. ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ مبتدأ محذوف خبره أي منها مقام إبراهيم، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل. وقيل عطف بيان على أن المراد بالآيات أثر القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين، وتخصيصها بهذه الإلانة من بين الصخر وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة. ويؤيده أنه قرء «آية» بينة على التوحيد. وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنیان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماء. ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جملة ابتدائية، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه في معنى أمن من دخله أي ومنها أمن من دخله، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله. اقتصر بذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذكر غيرهما كقوله عليه السلام «حبيب إلي من دنياكم ثلاث: الطب والنساء وقرعة عيني في الصلاة» لأن فيهما غنية عن غيرها في الدارين بقاء الأثر مدى الدهر والأمن من العذاب يوم القيامة، قال عليه السلام: «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً». وعند أبي حنيفة من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ولكن ألجئ إلى الخروج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿حَجَّ﴾ بالكسر وهو لغة نجد. ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس بدل البعض

من الكل مخصص له، وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة «بالزاد والراحلة» وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أوجب الاستنابة على الزمن إذا وجد أجرة من ينوب عنه. وقال مالك رحمه الله تعالى إنها بالبدن فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إنها بمجموع الأمرين. والضمير في إليه للبيت، أو الحج وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وضع كفر موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» وقد أكد أمر الحج في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوه بصيغة الخبر، وإبرازه في الصورة الإسمية وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إيهام وتثنية وتكرير للمراد، وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة، وذكر الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان وقوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعظم السخط، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتعب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله. روي (أنه لما نزل صدر الآية جمع رسول ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال إن الله تعالى: كتب عليكم الحج فحجوا فأمنت به ملة واحدة وكفرت به خمس ملل فتزل ومن كفر).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره، وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفحكم التحريف والاستسار.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقرير ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب، وسبيل الله في دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يفتنون المؤمنين ويحرشون بينهم حتى أتوا الأوس والخزرج فذكروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصددهم عنه. ﴿تَبْعُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من الواو أي باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق، بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما، أو بأن تحرشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ إنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾. ولما كان في هذه الآية صددهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال وما الله بغافل عما تعملون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاضه تألفهم واجتماعهم فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعثت وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس، ففعل فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه وقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بين قلوبكم» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ. وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار وتعجب لكفرهم في حال اجتماع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر. ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه أو يلتجئ إليه في مجامع أموره. ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقد اهتدى لا محالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو أن يطيع فلا يعصي، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وقيل هو: أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها. وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب، وأصل تقاة وقية فقلبت واوها المضمومة تاء كما في توده وتخمة والياء ألفاً. ﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فإن النهي عن المقيد بحال أو غيرها قد يتوجه بالذات نحو الفعل تارة والقيد أخرى وقد يتوجه نحو المجموع دونهما وكذلك النفي.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه لقوله عليه السلام: «القرآن حبل الله المتين». استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردي، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى والوثوق به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحاً للمجاز. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغل. ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ في الجاهلية متقاتلين. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. وقيل كان الأوس والخزرج أخوين فوق بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ. ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ مشفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتكم في النار. ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بالإسلام، والضمير للحفرة، أو للنار، أو للشفا. وتأنيثه لتأنيث ما أضيف إليه أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البئر وشفتها طرفها كالجانب والجانية، وأصله شفو فقلبت الواو ألفاً في المذكر وحذفت في المؤنث. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبين. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ﴾ دلائله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ من للتبعض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترط فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعل بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يدعون كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾. والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عطف الخاص عن العام للإيذان بفضله. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح وروي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال: «أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم». والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به. والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة



على ما عرفت. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات وال الحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالفرق في الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام «اختلاف أمتي رحمة». ولقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد». ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ﴾ (106)

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نصب بما في لهم من معنى الفعل، أو بإضمار اذكر. وبياض الوجه وسواده كنيان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه. وقيل يورسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ على إرادة القول أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، أو جميع الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أمر إهانة. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (107)

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عبر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلقة المؤمنين وثوابهم. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال هم فيها خالدون.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (108)

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق كما قال.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (109)

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي كل ما وعد له وأوعده.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ

أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (110)

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طراً كقوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ، أو فيما بين الأمم المتقدمين. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ استئناف بين به كونهم «خير أمة»، أو خبر ثانٍ لكنتم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به، وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه، واستدل بهذه الآية على إن الاجماع حجة لأنها تقتضي كونهم أمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا

على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله إيمان سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها واردتان على سبيل الاستطراد.

﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يَفْتِنُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذَى ثُمَّ لَا يُضُرُّوكُمْ (111) ضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تَفْتُلُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَاثَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِأُمُورٍ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ مَرْجَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُمَا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (117) يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)﴾

﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ضراً يسيراً كطعن وتهديد. ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمُ الْأَذْيَارُ﴾ يهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر. ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُّونَ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفي إضرارهم سوى ما يكون بقول وقرر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدبرة عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرئ «لا ينصروا» عطفاً على يولوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مفيداً بقتالهم، وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. ﴿أَيَّمَا تُفْقَوْا﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحِيلٍ مِنْ اللَّهِ وَحِيلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ استثناء من أعم عام الأحوال أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتصمين، أو ملتبسين بذمة الله أو كتابة الذي آتاهم وذمة المسلمين، أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقيد بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الكفر والقتل. ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضاً.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ في المساوي والضمير لأهل الكتاب. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ استئناف لبيان نفي الاستواء، والقائمة المستقيمة العادلة من أقيمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ

اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عُبِّرَ عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح. وقيل المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام أخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم).

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفات أخر لأمة وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين في الليل مشركون بالله ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مدهنون في الاحتساب متباطئون عن الخيرات.

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناؤه.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه ألبته، سمي ذلك كفراناً كما سمي توفية الثواب شكراً، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان، وقرأ حفص وحزمة والكسائي ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء والباقون بالتاء. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ من العذاب، أو من الغناء فيكون مصدراً. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة قربة، أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً. ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرر، فهو في الأصل مصدر نعت به أو نعت وصف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد. ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهْلَكْتَهُ﴾ عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما انفقوا في ضياعه بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدر كمثل مهلك ريح وهو الحرث. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ما ظلم المنفقين بضياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتد بها، أو ما ظلم أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ ﴿وَلَكِنْ﴾ أي ولكن أنفسهم يظلمونها، ولا يجوز أن يقدر ضمير الشأن لأنه لا يحذف إلا في ضرورة الشعر كقوله:

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قَلْبَهُ وَلَكِنْ مَنْ يُبْصِرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يعرفه الرجل أسراراً ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار». ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ من دون المسلمين، وهو متعلق بلا تتخذوا، أو بمحذوف هو صفة بطانة أي بطانة كائنة من دونكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، والألو التقصير وأصله أن يعدى بالحرف وعدي إلى مفعولين كقولهم: لا آلوكم نصحاً على تضمين معنى المنع أو النقص. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنوا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة وما مصدرية. ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم. ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاتة المؤمنين ومعاداة الكافرين. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بين لكم، والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لبطانة.

﴿هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُورُومُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنْ النَّعِيطِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119)﴾

﴿هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم، بيان لخطئهم في موالاة الكفار، وهو خبر ثان أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك: أنت زيد تحبه، أو صلته أو حال والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن ينصب أولاء بفعل مضمر يفهم ما بعده وتكون الجملة خبراً. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ بجنس الكتاب كله، وهو حال من لا يحبونكم والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ﴿وَإِذَا الْقُورُومُ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَيْتَكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى الشفعي سبيلاً. ﴿قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدورهم من الغشياء والحق، وهو يحتمل أن يكون من المقول أي وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً، وأن يكون خارجاً عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من اطلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (120)﴾

﴿إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة، وشتموا بما أصابهم من ضر وشدة، والمس مستعار للإصابة ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على مشاق التكليف. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ بفضل الله عز وجل وحفظه الموعود للصابرين والملتزمين ولأن المجد في الأمر، المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال جرياً على الخصم، وضمه الراء للاتباع كضمة مد. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ من ضاره يضيره. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي محيط علمه فيجازيكم مما أنتم أهله. وقرئ بالياء أي ﴿بما يعملون﴾، في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)﴾

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ﴾ أي واذكر إذ غدوت. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من حجرة عائشة رضي الله عنها. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تنزلهم. أو تسوي وتهبى لهم ويؤيده القراءة باللام. ﴿مَقَاعِدَ الْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن له، وقد يستعمل المقعد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صَدْقٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم روي (أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء - ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة - فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قبل فقال هو وأكثر الأنصار: أتم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج فقال عليه الصلاة والسلام: «رأيت في منامي بقرأ مذبوحة حولي فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولته هزيمة، ورأيت كأنني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن

رَأَيْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ، فَقَالَ رَجَالٌ فَاتَتْهُمْ بَدْرٌ وَأَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ يَوْمَ أَحَدٌ أَخْرَجَ بَنَاهُ إِلَى أَعْدَائِنَا. وَبَالِغُوا حَتَّى دَخَلَ وَلَبَسَ لَأَمْتَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ نَدَمُوا عَلَى مَبَالِغَتِهِمْ وَقَالُوا: اصْنَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتَ فَقَالَ «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَلْبَسَ لَأَمْتَهُ فَيُضَعُّهَا حَتَّى يَقَاتِلَ». فَخَرَجَ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَأَصْبَحَ بِشَعْبِ أَحَدِ يَوْمِ السَّبْتِ، وَنَزَلَ فِي عُدُوهِ الْوَادِي وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أَحَدٍ وَسَوَى صَفْهِمْ، وَأَثَرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرِ عَلَى الرَّمَاةِ وَقَالَ: انْضَحُوا عَنَا بِالْبَلِّ لَا يَأْتُونَا مِنْ وَرَائِنَا).

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)﴾

﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ متعلق بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أو بدل من إذ غدوت. ﴿طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحي العسكر. ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أن تجبنا وتضعفا. روي (أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زهاء ألف رجل ووعد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخزل ابن أبي في ثلاثمائة رجل وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري وقال: أنشدكم الله والإسلام في نبيكم وأنفسكم. فقال: ابن أبي لو نعلم قتالاً لا تبعناكم، فهم الحيان باتباعه فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ). والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمهما من اتباع تلك الخطرة، ويجوز أن يراد والله ناصرهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم بيدر.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (124) بَلَى إِنْ نَصَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلِلْطَّامِنِينَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (127) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)﴾

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبدر ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدرًا فسمي به. ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من الضمير، وإنما قال أذلة ولم يقل دلائل تنبيهاً على قلتهم مع ذلتهم لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره، أو لعلكم بنعم الله عليكم فتشكرون، فوضع الشكر موضع الأنعام لأنه سببه.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم. وقيل بدل ثان من إذ غدوت على أن قوله لهم يوم أحد وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة. ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ إنكار أن لا يكفيهم، ذلك وإنما جيء بـ «بلن» إشعاراً بأنهم كانوا كالأيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم. قيل أمددهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. وقرأ ابن عامر ﴿منزليين﴾ بالتشديد للتكثير أو للتدريج.

﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد لن، أي بلى يكفيكم. ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما

وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمُ﴾ أي المشركون. ﴿مِنْ قَوْمِهِمْ هَذَا﴾ من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر من فارت القدر إذ غلت، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا ريث فيها ولا تراخي، والمعنى إن يأتوكم في الحال. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ معلمين من التسويم الذي هو إظهار سيما الشيء لقوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه. «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت». أو مرسلين من التسويم بمعنى الأسامة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ولتسكن إليه من الخوف. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من العدة والعدد، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مدد وإنما أمددهم ووعد لهم به إشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر وحثاً على أن لا يبالوا بمن تأخر عنهم. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب في أفضيته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي ينصر ويخذل بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿لَيَقَطِّعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بنصركم، أو ﴿وما النصر﴾ إن كان اللام فيه للعهد، والمعنى لينقص منهم بقتل بعض وأسر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من صناديدهم. ﴿أَوْ يَكْتَبَهُمْ﴾ أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وأو للتنويع دون الترديد ﴿فَيَقْلِبُوا خَائِبِينَ﴾ فينهزموا منقطعي الأمل.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ عطف على قوله أو يكتبهم، والمعنى أن الله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يكتبهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإندازهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيء بإضمار أن، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء. أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم أو تعذيبهم. وأن تكون أو بمعنى إلا أن. أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم ففسر به أو يعذبهم فتشفي منهم. روي «أن عتبة بن أبي وقاص شجّه يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم» فنزلت. وقيل هم أن يدعوا عليهم فنهاه الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن. ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فله الأمر كله لا لك. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب، والتقيد بالتوبة وعدمها كالمنافي له. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة، ولعل التخصيص بحسب الواقع. إذ كان الرجل منهم يربي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «مضاعفة». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهيتهم عنه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ راجين الفلاح.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات معدة للكافرين وبالعرض للعصاة. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل عزة التوصل إلى ما جعل خبراً له.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (133)

﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام والتوبة والإخلاص. وقرأ نافع وابن عامر سارعوا بلا واو. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل، لأنه دون الطول. وعن ابن عباس كسيع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض، ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وإنها خارجة عن هذا العالم.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(134)

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يخلو في حال ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ﴾ الممسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة، من كظمت القرية إذا ملأتها وشدت رأسها. وعن النبي ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته، وعن النبي عليه الصلاة والسلام «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله» وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء، والعهد فتكون الإشارة إليهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (135)

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعله بالغة في القبح كالزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك. ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ تذكروا وعبدوه أو حكمه أو حقه العظيم. ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالندم والتوبة. ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَافَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة». ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ

الْعَامِلِينَ﴾ (136)

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خبر للذين إن ابتدأت به، وجملة مستأنفة مبنية لما قبلها إن عطفته على المتقين، أو على الذين ينفقون. ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم إن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم، وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما هم أدون مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فصل آيتهم بأن بين أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه، وفصل آية هؤلاء بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ لأن المتدارك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة،

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفرة والجنات.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138) وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْتُمْ مُؤْجِلُونَ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (145) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) ﴾

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ وقائع سننها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى: ﴿ وَتَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدِّينِ خُلُوعًا مِنْ قَبْلِ ﴾ وقيل أمم قال:

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمُو وَلَا رَأَوْا مِثْلَهُ فِي سَالِفِ السَّنَنِ  
﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾، أو مفهوم قوله ﴿ فانظروا ﴾ أي أنه مع كونه بيانا للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين، وقوله قد خلت جملة معترضة للبعث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن.

﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، والمعنى لا تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا على من قتل منكم. ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ وحالكم إنكم أعلى منهم شأنًا، فإنكم على الحق وقتالكم الله وقتلاككم في الجنة، وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاكهم في النار، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم، أو وأنتم الأعلىون في العاقبة فيكون بشارة لهم بالنصر والغلبة. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعلون.

﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون. وقيل كلا الميسر كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ. ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ نصرها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله:

فَيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرُّ

والمداولة كالمعاودة يقال داوت الشيء بينهم فتداولوه، والأيام تحتل الوصف والخبر و﴿ نداولها ﴾ يحتمل الخبر والحال والمراد بها: أوقات النصر والغلبة. ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة



أي نداولها ليكون كيت وكيت وليعلم الله إيداناً بأن العلة فيه غير واحدة، وإن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم، أو الفعل المعلن به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا ذلك، والقصد في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثبات علمه تعالى ونفيه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان. وقيل معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريد شهوداً أحد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليظهرهم ويصفىهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم. ﴿وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحقق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ولما تجاهدوا، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية والفرق بين ﴿لَمَّا﴾ ولم إن فيه توقع الفعل فيما يستقبل. وقرئ ﴿يَعْلَمُ﴾ بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون ﴿وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع. وقرئ بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي الحرب فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدرأ وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظَرُوهُ﴾ أي فقد رأيتموه معانين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسبوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو على تمنى الشهادة فإن في تمنيتها تمني غلبة الكفار.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلوا كما خلوا بالموت أو القتل. ﴿أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله بقاء دينهم متمسكاً به. وقيل الفاء للسببية والهزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته. روي (أنه لما رمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذبح عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو إليّ عباد الله فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقيون، وقال بعضهم: ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قتل ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم قال اللهم إني أعذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل) فنزلت. ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ بارتداده بل يضر نفسه. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لملك الموت عليه الصلاة والسلام في قبض روحه، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بالإحجام عن القتال والإقدام عليه. وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل. ﴿كِتَاباً﴾ مصدر مؤكد إذ المعنى كتب الموت كتاباً. ﴿مُؤْجَلًا﴾ صفة له أي مؤقلاً لا

يتقدم ولا يتأخر. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا يتهبون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخلوا مكانهم فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها. ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

﴿وَكَايْنٍ﴾ أصله أي دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كم والنون تنوين أثبت في الخط على غير قياس. وقرأ ابن كثير «وكاين» ككاعن ووجهه أنه قلب قلب الكلمة الواحدة كقولهم وعلمي في لعمرى، فصار كايين ثم حذفت الياء الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفاً كما أبدلت من طائي ﴿مِنْ نَبِيٍّ﴾ بيان له. ﴿قَاتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. وقيل جماعات والربى منسوب إلى الربة وهي الجماعة للمبالغة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب «قتل»، وإسناده إلى «ربيون» أو ضمير النبي ومعه ربيون حال منه ويؤيد الأول أنه قرئ بالشديد وقرئ «ربيون» بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جدهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن العدو أو في الدين. ﴿وَمَا اسْتَكَنُوا﴾ وما خضعوا للعدو، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد، والألف من إشباع الفتحة أو استكون من الكون لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له، وهذا تعريف بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ﴾

الكَافِرِينَ (147)﴾

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها، ثم طلب التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى الإجابة، وإنما جعل قولهم خبراً لأن أن قالوا أعرف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث.

﴿فَقَالَتْ لَهُمْ أَللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (148)﴾

﴿فَقَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنمة والعز وحسن الذكر في الدنيا، والجنة والنعيم في الآخرة، وخص ثوابها بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتمد به عند الله.

﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

(149)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ﴾ أي إلى الكفر. ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قتل. وقيل أن تستكينوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم.

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (150)﴾

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم . وقرء بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله مولاكم . ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره .

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (151)

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يريد ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام : «إن شاء الله» . وقيل لما رجعوا وكانوا يبعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم . وقرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بالضم على الأصل في كل القرآن ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم به . ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وهو كقوله :

وَلَا تَرَى الضُّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلطة لحدة اللسان . ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي مثوَاهم ، فوضع الظاهر موضع المضمَر للتعليل .

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (152)

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعده إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر ، وكان كذلك حتى خالف الرماة فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم . ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ تقتلونهم ، من حسه إذا أبطل حسه . ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم ، أو ملتتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل . ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا ، وقال آخرون لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه أميرهم في نفر دون العشرة ونفر الباقيون للنهب وهو المعنى بقوله : ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو ، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم ، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة . ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول عليه السلام . ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم . ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها . ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تفضلاً ولما علم من ندمكم على المخالفة . ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو ، أو في الأحوال كلها سواء أدبل لهم أو عليهم إذ الابتلاء أيضاً رحمة .

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا يُمْرُونَ لِيَكِيلَ تَحَرُّوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَانَعُمُ لَوْ﴾ (153)

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلق بصرفكم ، أو لئيتليكم أو بمقدر كاذكروا . والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض يقال : أصدنا من مكة إلى المدينة . ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره .

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة. ﴿فِي أَخْرَاكُمْ﴾ في ساقيتكم أو جماعتكم الأخرى ﴿فَاتَّابَكُمْ غَمًّا بَغَمٍّ﴾ عطف على صرفكم، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غمًّا متصلًا بغم، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، أو فجازاكم غمًّا بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له. ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ لتتزنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضرر لاحق. وقيل ﴿لَا﴾ مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم. وقيل الضمير في فاتاكم للرسول ﷺ أي فأساكم في الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم، كما اغتمتم بما نزل عليه ولم يثر بكم على عصيانكم تسلياً لكم كيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)﴾

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا﴾ أنزل الله عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس، وعن أبي طلحة غشينا النعاس في المصاف حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه. والأمنة الأمن نصب على المفعول ونعاساً بدل منها أو هو المفعول، و ﴿أمنة﴾ حال منه متقدمة أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة. وقرئ ﴿أمنة﴾ بسكون الميم كأنها المرة في الأمر ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ أي النعاس وقرأ حمزة والكسائي بالتاء رداً على الأمنة والطائفة المؤمنون حقاً. ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ هم المنافقون. ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها. ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله، وغير الحق نصب على المصدر أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، و ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي لرسول الله ﷺ وهو بدل من يظنون. ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبي بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبق لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو اعتراض. وقرأ أبو عمرو ويعقوب كله بالرفع على الابتداء. ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ حال من الضمير يقولون أي يقولون مظهرين إنهم مسترشدون طالبون النصر مبطلين الإنكار والتكذيب. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي في أنفسهم وإذا خلا بعضهم إلى بعض، وهو بدل من يخفون أو استئناف على وجه البيان له. ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان ابن أبي وغيره. ﴿مَا قُتِلْنَا ههنا﴾ لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة. ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق، وهو علة فعل محذوف أي وفعل ذلك ليبتلي أو عطف على محذوف أي ليرز لنفاذ القضاء أو

لمصالح جمة وللابتلاء، أو على لكيلا تحزنوا. ﴿وَلِيُحْصِ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوسواس. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعد وتنبه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (155)

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ يعني إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقتروا ذنوباً بالمخالفة النبي ﷺ بترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة فمنعوا التأيد وقوة القلب. وقيل استزال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجز بعضها بعضاً كالطاعة. وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلفت منهم فكهروا القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (156)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين. ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجلهم وفيهم، ومعنى إخوانهم اتفاقهم في النسب أو المذهب. ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، وكان حقه إذ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ جمع غاز كغاز وعق. ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ مفعول قالوا وهو يدل على إن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين به. ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿قالوا﴾ على إن اللام لام العاقبة مثلاً في ليكون لهم عدواً وحزناً، أو لا تكونوا أي لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعله حسرة في قلوبهم خاصة، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد. وقيل إلى ما دل عليه النهي أي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما يغمهم. ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رداً لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامة والسفر فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي بآلاء على أنه وعيد للذين كفروا.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (157) وَلَيْنَ مُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158) فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ ظُفَاً غَلِيظاً لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (161) أَفَمَنْ أَتَّبَعَ يَضُوعَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنَ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ (162)﴾

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ أي متم في سبيله وقرأ نافع وحزمة والكسائي بكسر الميم من مات يمات. ﴿لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسم وهو ساد مسد الجزاء والمعنى: إن السفر

والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وقرأ حفص بالياء.

﴿وَلَيْنَ مُتُّ أَوْ قُتِلْتُ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم. ﴿لَأَلِيَّ اللَّهُ تَحْشَرُونَ﴾ لآلي معبودكم الذي توجهتم إليه. وبذلكم مهجكم لوجهه لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿متم﴾ بالكسر.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ﴾ أي فبرحمة، وما مزيدة للتأكيد والتنبيه والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه. ﴿وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا﴾ سيء الخلق جافياً. ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه. ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك. ﴿فَأَغْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما لله. ﴿وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يشاور فيه استظهاراً برأيهم وتطبيقاً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه. وقرئ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾، على التكلم أي فإذا عزم لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحداً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد. ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم، وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوا به.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال غل شيئاً من المغنم يغل غلولاً وأغل إغلالاً إذا أخذه في خفية والمراد منه: إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روي أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم. وإما المبالغة في النهي للرسول ﷺ على ما روي أنه بعث طلحة، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلحة فنزلت. فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غلولاً تغليظاً ومبالغة ثانية. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب ﴿أن يغل﴾ على البناء للمفعول والمعنى: وما صح له أن يوجد غللاً أو أن ينسب إلى الغلول. ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يأت بالذي غله يحمله على عتقه كما جاء في الحديث أو بما احتمل من وباله وإثمه. ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطي جزاء ما كسبت وافياً، وكان اللائق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزداد في عقاب عاصيهم.

﴿أَفَمَنْ آتَىٰ رِضْوَانًا مِنَ اللَّهِ﴾ بالطاعة. ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ رجع. ﴿يَسْخَطَ مِنَ اللَّهِ﴾ بسبب المعاصي. ﴿وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الفرق بينه وبين المرجع إن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع. ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ لِّمَا يَعْمَلُونَ﴾ (163)

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ شبهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ لِّمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيهم على حسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (164)

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها. وقرىء «المن من الله» على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل منه أو بعثه. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من نسبهم، أو من جنسهم عربياً مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به. وقرىء من «أنفسهم» أي من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم. ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إن هي المخففة من الثقلية واللام هي الفارقة والمعنى وإن الشأن كانوا من قبل بعثه الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (165)

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ الهمة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أحد أو على محذوف مثل أفعلتم كذا وقتلتم، ولما ظرفه المضاف إلى ما أصابتكم أي أفلتم حين أصابتكم مصيبة وهي قتل سبعين منكم يوم أحد، والحال إنكم نلتهم ضعفتها يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطوعة، أو اختيار الخروج من المدينة. وعن علي رضي الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النصر ومنعه وعلى أن يصيب بكم ويصيب منكم.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِئَاذِنَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (166)

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد. ﴿فِئَاذِنَ اللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار سماها إذناً لأنها من لوازمه.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ أِقْوَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (167) الَّذِينَ قَالُوا لِاخْرَجِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (168) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (170) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَقَضَىٰ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (171) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (172) الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (173)

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ ولتتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا داخل في الصلة أو كلام مبتدأ. ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال. وقيل معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوهم بتكثيرهم سواد المجاهدين، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، أو لو نحن قتالاً لاتبعناكم فيه، وإنما قالوه دغلاً واستهزاء. ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لانخذالهم وكلامهم هذا فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم. وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخذلهم ومقالتهم تقوية للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان. وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق. وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملًا بأمارات.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ رفع بدلاً من واو ﴿يكتُمون﴾، أو نصب على الذم أو الوصف للذين نافقوا، أو جر بدلاً من الضمير في ﴿بأفواههم﴾ أو ﴿قلوبهم﴾ كقوله:

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمًا عَلَى جُودِهِ لَضَرَّ بِالْمَاءِ حَاتِمٌ

﴿إِخْوَانِهِمْ﴾ أي لأجلهم، يريد من قتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم. ﴿وَقَعْدُوا﴾ حال مقدرة بقدر أي قالوا قاعدتين عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود بالمدينة. ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم نقتل. قرأ هشام ﴿مَا قُتِلُوا﴾ بتشديد التاء. ﴿قُلْ فَادْرَوْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين إنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، والمعنى أن القعود غير مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعود سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ نزلت في شهداء أحد. وقيل في شهداء بدر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرئ بالياء على إسناده إلى ضمير الرسول، أو من يحسب أو إلى الذين قتلوا. والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة. وقرأ ابن عامر قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين. ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ أي بل هم أحياء. وقرئ بالنصب على معنى بل أحسبهم أحياء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى منه. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله تعالى والتمتع بنعيم الجنة. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالشارة. ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي الذين من خلفهم زماناً أو رتبة. ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل من الذين والمعنى: إنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو إنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوف وقوع محذور، وحزن فوات محبوب. والآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس بل هو جوهر مدرك بذاته لا يفنى بخراب البدن، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاده، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون ﴿النار يعرضون عليها﴾ الآية وما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش». ومن أنكر ذلك ولم ير الروح إلا ريحاً وعرضاً قال هم أحياء يوم القيامة، وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنوه أو أحياء بالذكر أو



بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه، وبشرى للمؤمنين بالفلاح.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرهه للتأكيد وليلحق به ما هو بيان لقوله: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم. ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم. ﴿وَفَضْلٌ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وتكثيرهما للتعظيم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة وأجوره مضية.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح أو مبتدأ خبره. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملته ومن البيان، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون. روي (أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبه وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد - وهي ثمانية أميال من المدينة - وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا) فنزلت.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم كما يقال فلان يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأداعوا كلامه. ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه روي: أنه نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله تعالى، فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران فأنزل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع، فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب أن ثبطوا المسلمين. وقيل: لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتروا، فقال عليه السلام: والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله. ﴿فَرَأَوْهُمُ إِيمَانًا﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله أن أريد به نعيم وحده، والبارز للمقول لهم والمعنى: إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويعضده قول ابن عمر رضي الله عنهما (قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص، قال: نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار) وهذا ظاهر إن جعل الطاعة من جملة الإيمان وكذا إن لم تجعل فإن اليقين يزداد بالإلف وكثرة التأمل وتناصر الحجج. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ محسبنا وكافينا، من أحسبه إذا كفاه ويدل على أنه بمعنى المحسب إنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك. ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكل إليه هو.

﴿فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (174)

﴿فَأَنْقَلِبُوا﴾ فرجعوا من بدر. ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه. ﴿وَفَضْلٌ﴾ وريح في التجارة فإنهم لما أتوا بدرأ وأوفوا بها سوفاً فاتجروا وربحوا. ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ من جراحة وكيد عدو. ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجرائتهم وخروجهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالثبوت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد، والتصلب في الدين وإظهار

الجرأة على العدو، وبالحفظ عن كل ما يسوءهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل. وفيه تحسير للمتحلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (175)

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يريد به الميثط نعيماً أو أبا سفيان، والشيطان خبر ﴿ذلكم﴾ وما بعده بيان لشيئته أو صفته وما بعده خبر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلكم قول الشيطان يعني إبليس عليه اللعنة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول، أو يخوفكم أوليائه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثاني على الأول وإلى الأولياء على الثاني. ﴿وَخَافُوا اللَّهَ﴾ في مخالف أمرى فجاهدوا مع رسولي. ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إثارة خوف الله تعالى على خوف الناس.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (176)

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارتدوا عن الإسلام. والمعنى لا يحزنك خوف أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ أي لن يضروا أولياء الله شيئاً بمسارعهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم. وشيئاً يحتمل المفعول والمصدر وقرأ نافع ﴿يحزنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في الأنبياء لا يحزنهم الفزع الأكبر، فإنه فتح الياء وضم الزاي فيه والباقيون كذلك في الكل. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّاً فِي الْآخِرَةِ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر، وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته، وإن مسارعهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحرمان عن الثواب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (177)

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين، أو ارتد من العرب.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (178)

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خطاب للرسول عليه السلام، أو لكل من يحسب. والذين مفعول و ﴿أنما نثمل﴾ لهم بدل منه، وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعويل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾. أو المفعول الثاني على تقدير مضاف مثل: ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت متصلة في الإمام فاتبع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب بالياء على ﴿إن الذين﴾ فاعل وإن مع ما في حيزه مفعول وفتح سينه في جميع القرآن ابن عامر وحمزة وعاصم. والإملاء الإمهال وإطالة العمر. وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملئ لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعي كيف شاء. ﴿إِنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها، وما كافة واللام لام الإرادة. وعند المعتزلة لام العاقبة. وقرئ ﴿إنما﴾ بالفتح هنا وبكسر الأولى ولا يحسبن بالياء على معنى ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ أن إملاءنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة

والدخول في الإيمان، و ﴿إنما نملي لهم خيراً﴾ اعتراض. معناه أن إملأنا خير لهم أن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم. ﴿ولهم عذاب مهين﴾ على هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أي ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (179) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لِمَا هُمْ سَرُّ لَهُمْ سَيُطَوَّفُونَ مَا يَبْخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمِبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ (182) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183) إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْأَمِينِ (184) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْفُورِ (185) لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ (186) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُونِ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188)﴾

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرف مخلصكم من منافقكم حتى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يدعن لها إلا الخالص المخلصون منكم، كبدل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر النبي به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم. وقرأ حمزة والكسائي ﴿حتى يميز﴾، هنا وفي «الأنفال» بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وما كان الله ليؤتي أحدكم علم الغيب فيطلع على ما في القلوب من كفر وإيمان، ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، أو ينصب له ما يدل عليها. ﴿فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بصفة الإخلاص، أو بأن تعلموه وحده مطلقاً على الغيب وتعلموهم عبادةً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أوحى إليهم روي (أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر) فنزلت. عن السدي أنه عليه السلام قال: «عرضت عليّ أمّتي وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر». فقال المنافقون إن يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفنا فنزلت. ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ حق الإيمان. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النفاق. ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ القراءات فيه على ما سبق. ومن قرأ

بالتاء قدر مضافاً ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ، أو من يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفاً لدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخل. ﴿شَرٌّ لَهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بيان لذلك، والمعنى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة». ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ولا ينفقونه في سبيله، أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإعطاء. ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيهم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قالت اليهود لما سمعوا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾. وروي (أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض، فطمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ ووجد ما قاله) فنزلت. والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعد لهم العقاب عليه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتب، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نظمته مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول. وقرأ حمزة «سيكتب» بالياء وضمتها وفتح التاء وقتلهم بالرفع ويقول بالياء. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ونتنقم منهم بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق، وفيه مبالغات في الوعيد. والدُّوق إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذكرها هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشء عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ومعظم بخله به للخوف من فقدانه ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب. ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيكُمْ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم. عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على ما قدمت وسببته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحبي وفتحاص ووهب بن يهودا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا. ﴿أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرُسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب قربان فيقوم النبي فيدعو فتتزل نار سماوية فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك. ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاؤهم قبله كزكريا ويحيى بمعجزات أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه وقتلوهم، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزات أخر واجتروا على قتله.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ تسلياً للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته،

والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن. وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته. وقرأ ابن عامر وبالنزير وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وعد ووعد للمصدق والمكذب. وقرئ ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿وَأَنَّمَا تُؤْقُونَ أَجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافياً. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبور روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار». ﴿فَمَنْ رُخِّحَ عَنِ النَّارِ﴾ بعد عنها، والزحزحة في الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز الظفر بالبغية. وعن النبي ﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي لذاتها وزخارفها. ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ شبهها بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتره، وهذا لمن آثرها على الآخرة. فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ والغرور مصدر أو جمع غار.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن. ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب. ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ من هجاء الرسول ﷺ، والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين. أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال، ويستعدوا للقاتل حتى لا يرهقهم نزولها. ﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ على ذلك. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفة أمر الله. ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني الصبر والتقوى. ﴿مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عيها، أو مما عزم الله عليه أي أمر به وبالغ فيه. والعزم في الأصل ثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي اذكر وقت أخذه. ﴿مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يريد به العلماء. ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ حكاية لمخاطبتهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالياء لأنهم غيب، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله: ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ﴾ والضمير للكتاب. ﴿فَنَبِّئُوهُمْ﴾ أي الميثاق. ﴿وَرَأَى ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يراعه ولم يتلفتوا إليه. والنبد وراء الظهر مثل في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه جعله نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه. ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾. وأخذوا بدله.

﴿ثُمَّ نَأْخُذُ قَلِيلًا﴾ من حطام الدنيا وأعراضها. ﴿فَبَشِّرْ مَا يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم، وعن النبي ﷺ «من أهله ألجم بلجام من نار». وعن علي رضي الله تعالى عنه (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا).

﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ومن ضم الباء جعل الخطاب له ولكمؤمنين، والمفعول الأول ﴿الذين يفرحون﴾ والثاني ﴿بمفازة﴾، وقوله ﴿فلا تحسبنهم﴾ تأكيد والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق، بمفازة بمنجاة من العذاب أي فائزين بالنجاة منه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني على أن الذين فاعل ومفعولاً يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولاً مؤكداً، فكأنه قيل؛ ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسهم بمفازة، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وتدليسهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام (سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروه أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا)

فنزلت. وقيل؛ نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به. وقيل: نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمناقضتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا رَبَّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ آلِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَمِلْتُمْ مِنْ ذِكْرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَلِذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَءَ خَلَدْنَاهُمْ جَنَّتٍ بَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَرُ نَوَابِإٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (195) لَا يَخْرُجُ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِيعَادِ (196) مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُكَادِرِ (197) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتٍ بَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا أَلْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا نَزَلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَلَّسِينَ لِلَّهِ لَا يَشْرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199)﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم. وقبل هو رد لقولهم إن الله فقير ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجولة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة، ولعل الاختصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير، وهذه متعرضة لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها. وعن النبي ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه عليه الصلاة والسلام «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله». وقيل معناه يصلون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء». فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعا على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقادير بدنه. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة كالتي تفكر». لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وعنه عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً: اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له». وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا

إشارة إلى المتفكر فيه، أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معنى المخلوق، والمعنى ما خلقته عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقته لحكم عظيمة من جعلتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدل على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض. ﴿فَقَتَا عَذَابَ النَّارِ﴾ للإخلال بالنظر فيه، والقيام بما يقتضيه. وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمهم بما لأجله خلقت السموات والأرض حملهم على الاستعاذة.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ غاية الإخزاء، وهو نظير قولهم: من أدرك مرعى الضمان فقد أدرك، والمراد به تهويل المستعاذ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أراد بهم المدخلين، ووضع المظهر موضع المضمّر للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة لأن النصرة دفع بقهر.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ أوقع الفعل على المسموع وحذف المسموع لدلالة وصفه عليه، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع وفي تنكير المنادي وإطلاقه ثم تقييده تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول عليه الصلاة والسلام وقيل القرآن، والنداء والدعاء ونحوهما يعدي بالي واللام لتضمنها معنى الانتهاء والاختصاص. ﴿أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَرَأَيْنَاهُمْ أَصْفَرُوا مِنْ حَمِلِ الزَّكَاةَ﴾ أي بأن آمنوا فامتثلنا. ﴿رَبَّنَا قَاغُيْرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كباثنا فإنها ذات تبعه. ﴿وَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سُبْحَانَكَ﴾ صغائرنا فإنها مستقبحة، ولكن مكفرة عن مجتنب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبته معدودين في زمرة، وفيه تنبيه على أنهم محبوبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والأبرار جمع بر أو بار كآرباب وأصحاب.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي ما وعدتنا على تصديق رسلك من الثواب. لما أظهر امتثاله لما أمر به سأل ما وعد عليه لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة أن لا يكون من الموعودين لسوء عاقبة، أو قصور في الامتثال أو تعبد واستكانة. ويجوز أن يعلق على بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محموداً عليهم. وقيل معناه على السنة رسلك. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأن تعصمنا عما يقتضيه. ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الميعاد أبعث بعد الموت. وتكرير ربنا للمبالغة في الابتهاال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها. وفي الآثار (من حربه أمر فقال خمس مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طلبتهم، وهو أخص من أجاب ويعدي بنفسه وباللام. ﴿لَا أَضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ أي باني لا أضيع. وقرئ بالكسر على إرادة القول. ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى﴾ بيان عامل. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لأن الذكر من الأتئ والأتئ من الذكر، أو لأنهما من أصل واحد، أو لفرط الاتصال والاتحاد، أو للاجتماع والاتفاق في الدين. وهي جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال. روي (أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء) فنزلت. ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلخ، تفصيل لأعمال العمال وما أعد لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم، والمعنى فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين. ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿وَقَاتِلُوا﴾ الكفار. ﴿وَقَاتِلُوا﴾ في الجهاد. وقرأ حمزة والكسائي بالعكس لأن الواو لا توجب ترتيباً والثاني أفضل. أو لأن المراد لما قتل منهم قوم قاتل الباقون ولم يضعفوا. وشدد ابن كثير وابن عامر ﴿قَاتِلُوا﴾ للتكثير. ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لأمحونها. ﴿وَلَا دُخْلَ لَهَا جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

ثَوَابًا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ أَيُّ أَثِيهِمْ بِذَلِكَ إِثَابَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَفْضُلًا مِنْهُ، فَهُوَ مُصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ عَلَى الطَّاعَاتِ قَادِرٌ عَلَيْهِ.

﴿لَا يَغْرُبُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ وَالخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالمراد أمته، أَوْ تَثْبِيته عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ ﴿فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ﴾ أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَالنَّهْيُ فِي الْمَعْنَى لِلْمَخَاطَبِ وَإِنَّمَا جَعَلَ لِلتَّقَلُّبِ تَنْزِيلًا لِلْسَبَبِ مَنَزَلَةُ الْمَسْبَبِ لِلْمَبَالِغَةِ، وَالْمَعْنَى لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا الْكَفَرَةُ عَلَيْهِ مِنَ السَّعَةِ وَالْحِظِّ، وَلَا تَغْتَرَّ بِظَاهِرِ مَا تَرَى مِنْ تَبْسُطِهِمْ فِي مَكَاسِبِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَمَزَارِعِهِمْ. رَوَى (أَنْ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَرُونَ الْمُشْرِكِينَ فِي رِخَاءٍ وَلِينٍ عِيشٍ يَقُولُونَ: إِنْ أَعْدَاءُ اللَّهِ فِيمَا نَرَى مِنَ الْخَيْرِ وَقَدْ هَلَكْنَا مِنَ الْجُوعِ وَالْجَهْدِ) فَتَزَلَّتْ.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَيُّ ذَلِكَ التَّقَلُّبُ مَتَاعٌ لِقَصْرِ مَدَّتِهِ فِي جَنْبِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ». ﴿ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمِهَادَ﴾ أَيُّ مَا مَهَدُوا لِأَنْفُسِهِمْ.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ النَّزْلُ وَالنَّزْلُ مَا يَعْدُ لِلنَّازِلِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَصَلَةٌ قَالَ أَبُو الشَّعْرِ الضَّبِّي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافِنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمَرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلًا

وَانْتِصَابِهِ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْجَنَاتِ وَالْعَامِلِ فِيهَا الظَّرْفِ وَقِيلَ إِنَّهُ مُصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ وَالتَّقْدِيرُ أَنْزَلُوهَا نُزُلًا ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لِكَثْرَتِهِ وَدَوَامِهِ ﴿خَيْرٌ لِلْإِبْرَارِ﴾ مِمَّا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْفَجَارُ لِقَلَّتِهِ وَسُرْعَةِ زَوَالِهِ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ. وَقِيلَ فِي أَرْبَعِينَ مِنْ نَجْرَانَ وَاثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ مِنَ الْحَبْشَةِ وَثَمَانِيَةٍ مِنَ الرُّومِ كَانُوا نَصَارَى فَاسْلَمُوا. وَقِيلَ فِي أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ لَمَّا نَعَاهُ جَبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ فَصَلَّى عَلَيْهِ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ انظُرُوا إِلَى هَذَا يَصَلِّي عَلَى عَلِيجٍ نَصْرَانِيٍّ لَمْ يَرَهُ قَطُّ. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ الْإِلَامُ عَلَى الْأَسْمِ لِلْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِنْ بِالظَّرْفِ. ﴿وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ. ﴿وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْكِتَابَيْنِ. ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ يُؤْمِنُ وَجَمْعُهُ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُحَرِّفُونَ مِنْ أَهْبَارِهِمْ. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مَا خَصَّ بِهِمْ مِنَ الْأَجْرِ وَوَعَدَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لِعَمَلِهِ بِالْأَعْمَالِ وَمَا يَسْتَوْجِبُهُ مِنَ الْجَزَاءِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنِ التَّأَمُّلِ وَالِاحْتِيَاطِ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْأَجْرَ الْمَوْعُودَ سَرِيعُ الْوُصُولِ فَإِنَّ سُرْعَةَ الْحِسَابِ تَسْتَدْعِي سُرْعَةَ الْجَزَاءِ.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (200)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا﴾ عَلَى مُشَاقِّ الطَّاعَاتِ وَمَا يَصِيبُكُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ. ﴿وَصَابِرُوا﴾ وَغَالِبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بِالصَّبْرِ عَلَى شَدَائِدِ الْحَرْبِ وَأَعْدَى عَدُوِّكُمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَتَخْصِيصِهِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالصَّبْرِ مُطْلَقًا لَشِدَّتِهِ. ﴿وَرَابِطُوا﴾ أَبْدَانَكُمْ وَخِيُولَكُمْ فِي الثُّغُورِ مُتَرَصِّدِينَ لِلْغَزْوِ، وَأَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّاعَةِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «مَنْ الرِّبَاطُ انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ». وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «مَنْ رَابِطٌ يَوْمًا وَلَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ كَعَدَلِ صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَقِيَامِهِ، لَا يَفْطُرُ وَلَا يَنْفُتِلُ عَنْ صَلَاتِهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فَاتَّقُوهُ بِالتَّبَرِّيِّ عَمَّا سِوَاهُ لِكَيْ تَفْلَحُوا غَايَةَ الْفَلَاحِ، أَوْ وَاتَّقُوا الْقَبَاحَ لِعَلَّكُمْ تَفْلَحُوا بِبَنِيْلِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةِ، الْمَرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ الصَّبْرُ عَلَى مَضَضِ الطَّاعَاتِ وَمَصَابِرَةِ النَّفْسِ فِي رَفْضِ الْعَادَاتِ وَمِرَابِطَةِ السِّرِّ عَلَى جَنَابِ الْحَقِّ لَتَرْصُدِ الْوَارِدَاتِ الْمَعْبَرِ عَنْهَا بِالشَّرِيعَةِ، وَالطَّرِيقَةِ، وَالْحَقِيقَةِ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ أُعْطِيَ بِكُلِّ آيَةٍ مِنْهَا أَمَانًا عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ». وَعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «مَنْ قَرَأَ السُّورَةَ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا آلُ عِمْرَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ حَتَّى تَجِبَ الشَّمْسُ». وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



## سورة النساء

[مدنية، وآياتها خمس وسبعون ومائة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي آدم. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضلع من أضلاعه، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها، وهو تقرير لخلقهم من نفس واحدة. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بيان كيفية تولدهم منهما، والمعنى ونشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكن أكثر، وذكر ﴿كثيرون﴾ حملاً على الجمع وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليتها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها. وقرئ «وخالق» «وباث» على حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وباث. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله، وأصله تتساءلون فأدغمت التاء الثانية في السين. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بطرحها. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عطف على محل الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمراً، أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها. وقرأ حمزة بالجر عطفاً على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة. وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره والأرحام كذلك، أي مما يتقى أو يتساءل به. وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه الكريم على أن صلتها بمكان منه. وعنه عليه الصلاة والسلام «الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله». ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً مطلعاً.

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظَلِيلِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2)﴾

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي إذا بلغوا، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه، من اليتيم وهو الانفراد. ومنه الدرة اليتيمة، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جمع على يتامى، ثم قلب فقيل يتامى أو على أنه جمع على يتيم كأسرى لأنه من باب الآفات. ثم جمع يتمي على يتامى كأسرى وأسارى، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ ووروده في الآية إما للبلغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً أو لغير البالغ والحكم مقيد فكأنه

قال؛ وآتوهم إذا بلغوا. ويؤيد الأول ما روي: أن رجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت. فلما سمعها العم قال: ألعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب الكبير. ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم بالأمر الطيب الذي هو حفظها. وقيل ولا تأخذوا الرقيق من أموالهم وتعطوا الخسيس مكانها، وهذا تبديل وليس بتبدل. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي لا تنفقوها معاً ولا تسوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام وهو فيما زاد على قدر أجره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للأكل. ﴿كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾ ذنباً عظيماً. وقرئ حوباً وهو مصدر حاب ﴿حُوباً﴾ وحابا كقال قولاً وقالاً.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (3)

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن. إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضناً بها، فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن. أو إن خفتم أن لا تعدلوا في حقوق اليتامى فتخرجتم منها فخافوا أيضاً أن لا تعدلوا بين النساء فانكحوا مقداراً يمكنكم الوفاء بحقه، لأن المتخرج من الذنب ينبغي أن يتخرج من الذنوب كلها على ما روي: أنه تعالى لما عظم أمر اليتامى تخرجوا من ولايتهم وما كانوا يتخرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت. وقيل: كانوا يتخرجون من ولاية اليتامى ولا يتخرجون من الزنى، فليل لهم إن خفتم أن لا تعدلوا في أمر اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم. وإنما عبر عنهم بما ذهاباً إلى الصفة أو إجراء لهن مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن، ونظيره ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وقرئ ﴿تُقْسِطُوا﴾ بفتح التاء على أن «لا» مزيدة أي إن خفتم أن تجوروا. ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ معدولة عن أعداد مكررة وهي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. وهي غير منصرفة للعدل والصفة فإنها بنيت صفات وإن كانت أصولها لم تن لها. وقيل لتكرير العدل فإنها معدولة باعتبار الصفة والتكرير منصوبة على الحال من فاعل طاب ومعناها: الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن يتكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين كقولك: اقتسموا هذه البكرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، ولو أفردت كان المعنى تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع ولو ذكرت بأو لذهب تجويز الاختلاف في العدد. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد أيضاً. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فاختاروا أو فانكحوا واحدة وذروا الجمع. وقرئ بالرفع على أنه فاعل محذوف أو خبره تقديره فتكفيكم واحدة، أو فالمقنع واحدة. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراي لخفة مؤنهن وعدم وجوب القسم بينهما ﴿ذَلِكَ﴾ أي التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسري. ﴿أَذْنَىٰ أَنْ لَا تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لا تميلوا، يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار، وعول الفريضة الميل عن حد السهام المسماة. وفسر بأن لا تكثر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم إذا مانهم، فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤن على الكناية. ويؤيده قراءة «أن لا تعيلوا» من أعال الرجل إذا كثر عياله، ولعل المراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلأن التسري مظنة قلة الولد بالإضافة إلى التزوج لجواز العزل فيه كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَقَّاسُكُمْ هَيْبَةً مَرْبِيًا﴾ (4)

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ﴾ مهورهن. وقرئ بفتح الصاد وسكون الدال على التخفيف، وبضم الصاد وسكون الدال، جمع صدقة كغرفة، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة في ظلمة. ﴿نِحْلَةً﴾ أي

عطية يقال نحلة كذا نحلة ونحلاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض، ومن فسرهما بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ، ونصبها على المصدر لأنها في معنى الإيتاء أو الحال من الواو، أو الصدقات أي آتوهم صدقاتهن ناحلين أو منحولة. وقيل المعنى نحلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات. وقيل ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شرعه، والخطاب للأزواج، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مولياتهم. ﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ الضمير للصدقات حملاً على المعنى أو حجر مجرى اسم الإشارة كقول رؤبة:

كَأَنَّهُ فِي الْجَلْدِ تَوَلَّىعُ الْبُهَقِ

إذ سئل فقال: أردت كأن ذاك. وقيل للإيتاء، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحده، والمعنى فإن وهبن لكم شيئاً من الصدقات عن طيب نفس، لكن جعل العمدة طيب النفس للمبالغة وعدها بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز، وقال منه بعثا لهن على تقليل الموهوب ﴿فَكُلُّوهْهُنَّ مَرِيئًا﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة. والهناء والمريء صفتان من هنا الطعام ومرأ إذا ساغ من غير غصص، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جعلتا حالاً من الضمير. وقيل الهنيء ما يلذه الإنسان، والمريء ما تحمد عاقبته. روي: أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها. فنزلت.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (5) وَأَبْلَوْا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8) وَلْيَحْشَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ حَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةَ ضَعَفَاءَ خَافُوا عَلَيْهُمْ فَلْيَقْسِطُوا اللَّهُ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)﴾

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم، وهو الملازم للآيات المتقدمة والمتأخرة. وقيل نهي لكل أحد أن يعمد إلى ما خوله الله تعالى من المال فيعطى امرأته وأولاده، ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بقولهم واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي تقومون بها وتتعتشون، وعلى الأول يؤول بأنها التي من جنس ما جعل الله لكم قياماً سمي ما به القيام قياماً للمبالغة. وقرأ نافع وابن عامر «قيماً» بمعناه كعوذ بمعنى عياذ. وقرئ «قواماً» وهو ما يقام به. ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم، والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحسن، والمنكر ما أنكره أحدهما لقبحه.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين، والتهدى إلى ضبط المال وحسن التصرف، بأن يكل إليه مقدمات العقد. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يدفع إليه ما يتصرف فيه. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله عليه

الصلاة والسلام: «إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة، كتب ماله وما عليه وأقيمت عليه الحدود». وثمانية عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وبلوغ النكاح كناية عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده. «فَإِنْ أَسْنَمَ مِنْهُمْ رُشْدًا» فإن أبصرتم منهم رشداً. وقرأ أحستم بمعنى أحسستم. «فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» من غير تأخير عن حد البلوغ، ونظم الآية أن إن الشريطة جواب إذا المتضمنة معنى الشرط، والجملة غاية الابتلاء فكأنه قيل؛ وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إنباس الرشد منهم، وهو دليل على أنه لا يدفع إليهم ما لم يؤنس منهم الرشد. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد. «وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا» مسرفين ومبشرين كبرهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم. «وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ» مَنْ أَكَلَهَا. «وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» بقدر حاجته وأجرة سعيه، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي، وعنه عليه الصلاة والسلام «أن رجلاً قال له إن في حجرى يتيماً أفأكل من ماله؟ قال: كل بالمعروف غير متأثل مالاً ولا واق مالك بماله» وإيراد هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموال اليتامى. «فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ» بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتمتعة وأبعد من الخصومة، ووجوب الضمان وظاهره يدل على أن القيم لا يصدق في دعواه إلا بالبينه وهو المختار عندنا وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة. «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» محاسباً فلا تخالفوا ما أمرتم به ولا تتجاوزوا ما حد لكم.

«لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» يريد بهم المتوارثين بالقرابة. «مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ» بدل مما ترك بإعادة العامل. «نَصِيبًا مَفْرُوضًا» نصيب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى: «فريضة من الله» أو حال إذ المعنى: ثبت لهم مفروضاً نصيب، أو على الاختصاص بمعنى أعني نصيباً مقطوعاً واجباً لهم، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه. روي (أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة. أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرث. من يحارب ويذب عن الحوزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيب فشكت إليه فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله. فنزلت فبعث إليهما: لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين. فنزلت «يُوصِيكُمُ اللَّهُ» فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابن العم). وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقف الخطاب.

«وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ» ممن لا يرث «وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ» فاعطوهم شيئاً من المقسوم تطييباً لقلوبهم. وتصدقاً عليهم، وهو أمر ندب للبلغ من الورثة. وقيل أمر وجوب، ثم اختلف في نسخه والضمير لما ترك أو دل عليه القسمة «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا» وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم.

«وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ» أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرايرهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من خضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه، جعل صلة للذين على معنى وليخش

الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارقوا أن يخلفوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم الضياع، وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه، وبعث على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده. ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى، إذ لا ينفع الأول دون الثاني، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب، أو للمريض ما يصده عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة، ويذكره التوبة وكلمة الشهادة، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسناً، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدي إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. ﴿نَارًا﴾ ما يجر إلى النار، ويؤول إليها. وعن أبي بردة رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً». فقيل: من هم؟ فقال: «ألم تر أن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون ناراً وأي نار». وقرأ ابن عامر وابن عياش عن عاصم بضم الياء مخففاً. وقرأ به مشدداً يقال صلى النار قاسى حرها، وصليته شويته وأصليته وصليته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سمرت النار إذا ألتهتها.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلْمِثْلِ ثُلُثٌ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمِثْلِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يأمركم ويعهد إليكم. ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم وهو إجمال تفصيله. ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي يعد كل ذكر بأثنين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبه، وتخصيص الذكر بالتنصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيه على أن التضعيف كاف للتفضيل فلا يحرم بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به. ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ أي إن كان الأولاد نساء خلصاً ليس معهن ذكر، الضمير فأنث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات. ﴿فَقَوْعُ اثْنَيْنِ﴾ خبر ثان، أو صفة للنساء أي نساء زائدات على اثنتين. ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى. ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة. وقرأ نافع بالرفع على كان التامة، واختلف في الثنتين فقال ابن عباس رضي الله عنهما حكمهما حكم الواحدة، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما. وقال الباقون حكمهما حكم ما فوقهما لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان، اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان. ثم لما أوهم ذلك أن يزداد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ ويؤيد ذلك أن البنات الواحدة لما استحققت الثلث مع أخيها فبالحري أن تستحقه مع أخت مثلها. وأن البنتين أمس رحماً من الأختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾. ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولأبوي الميت. ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل وفائدته التخصيص على استحقاق كل واحد منهما السدس، والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً. ﴿السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ﴾ أي للميت. ﴿وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى غير أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة، وما بقي من ذوي الفروض أيضاً بالعصوبة. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ﴾ فحسب. ﴿فَلِلْمِثْلِ ثُلُثٌ﴾ مما ترك وإنما لم يذكر حصة الأب، لأنه لما فرض أن الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم علم أن الباقي للأب، وكأنه قال: فلهما ما ترك أثنائاً، وعلى

هذا ينبغي أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقي من فرضه كما قاله الجمهور، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب وهو خلاف وضع الشرع. ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ بإطلاقه يدل على أن الإخوة يردونها من الثلث إلى السدس، وإن كانوا لا يرثون مع الأب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حجبوا عنه الأم، والجمهور على أن المراد بالإخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخالص أخذاً بالظاهر. وقرأ حمزة والكسائي ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التي قبلها. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها أي هذه الأنصبة للورثة من بعد ما كان من وصية. أو دين، وإنما قال بأو التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين، وقدم الوصية على الدين وهي متأخرة في الحكم لأنها مشبهة بالميراث شاققة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد. ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا﴾ أي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به، ولا تعتمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه. روي أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر في الجنة سأل أن يرفع إليه فيرفع بشفاعته. أو من مورثكم منهم أو من أوصى منهم فعرضكم للثواب بإمضاء وصيته، أو من لم يوص فوفر عليكم ماله فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية. ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قضى وقدر.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُنَّ آخُ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاعَافٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)﴾

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيتها، أو بني بنيتها وإن سفل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما في النسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة، وتستوي الواحدة والعدد منهم في الربع والثلث. ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ﴾ أي الميت. ﴿يُورَثُ﴾ أي يورث منه من ورث صفة رجل. ﴿كَلَالَةً﴾ خبر كان أو يورث خبره، وكلاية حال من الضمير فيه وهو من لم يخلف ولداً ولا والدًا. أو مفعول له والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد. ويجوز أن يكون الرجل الوارث ويورث من أورث، وكلاية من ليس له بوالد ولا ولد. وقرئ ﴿يُورَثُ﴾ على البناء للفاعل فالرجل الميت وكلاية تحتمل المعاني الثلاثة وعلى الأول خبر أو حال، وعلى الثاني مفعول له، وعلى الثالث مفعول به، وهي في الأصل مصدر بمعنى الكلال قال الأعشى:

فَالْيَتِيمَ لَا أَرْسَىٰ لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَا حَتَّىٰ الْأَقْيَمِ مُحَمَّدًا

فاستعيرت لقراءة ليست بالبعضية، لأنها كالة بالإضافة إليها، ثم وصف بها المورث والوارث بمعنى ذي كلاله كقولك فلان من قرابتي. ﴿أَوْ امْرَأَةٍ﴾ عطف على رجل. ﴿وَلَهُ﴾ أي وللرجل، وأكتفي بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه. ﴿أَخٍ أَوْ أُخْتٍ﴾ أي من الأم، ويدل عليه قراءة أبي وسعد بن مالك «وله أخ أو أخت من الأم»، وأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين وللأخوة الكل، وهو لا يليق بأولاد الأم وأن ما قدر ههنا فرض الأم فيناسب أن يكون لأولادها. ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ سوى بين الذكر والأنثى في القسمة لأن الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن فخص فيه بالإجماع. ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ﴾ أي غير مضار لورثته بالزيادة على الثلث، أو قصد المضارة بالوصية دون القرية والإقرار بدين لا يلزمه، وهو حال من فاعل يوصى المذكور في هذه القراءة والمدلول عليه بقوله يوصى على البناء للمفعول في قراءة ابن كثير وابن عامر وابن عباس عن عاصم. ﴿وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أو منصوب بغير مضار على المفعول به، ويؤيده أنه قرئ «غير مضار وصية» بالإضافة أي لا يضار وصية من الله، وهو الثلث فما دونه بالزيادة، أو وصية منه بالأولاد بالإسراف في الوصية والإقرار الكاذب. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمضار وغيره. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبته.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (13)

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر التامى والوصايا والموارث. ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (14)

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ توحيد الضمير في يدخله، وجمع «خالدين» للفظ والمعنى. وقرأ نافع وابن عامر «ندخله» بالنون و«خالدين» حال مقدرة كقولك: مررت برجل معه صقر صائدأ به غدا، وكذلك خالداً وليستا صفتين لجنات وناراً وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جريا على غير من هما له.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ بُسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (15) وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (16)

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ بُسَائِكُمْ﴾ أي يفعلنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها إذا فعلها، والفاحشة الزنا لزيادة قبحها وشناعتها. ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ فاطلبوا ممن قذفن أربعة من رجال المؤمنين تشهد عليهن. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ يستوفي أرواحهن الموت، أو يتوفاهن ملائكة الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنسخ بالحد، ويحتمل أن يكون المراد به التوصية بإمساكنهن بعد أن يجلدن كيلا يجري عليهن ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال، لم يذكر الحد استغناء بقوله تعالى: «الزانية

والزاني ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ كتعيين الحد المخلص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح. ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ يعني الزانية والزاني. وقرأ ابن كثير ﴿وَاللَّذَانِ﴾ بتشديد النون وتمكين مد الألف، والباقون بالتخفيف من غير تمكين. ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بالتوخيخ والتقرع، وقيل بالتعيير والجلد. ﴿فَإِنْ تَابَا وَأُصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمة. قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولاً وكان عقوبة الزنا الأذى ثم الحبس ثم الجلد. وقيل الأولى في السحاقيات وهذه في اللواطين، والزانية والزاني في الزناة.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ

اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17)﴾

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده من تاب عليه إذا قبل توبته. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى يتزع عن جهالته. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى: ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يفرغ» وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبه فيطبع عليها فيتعذر عليهم الرجوع، و﴿من﴾ للتبعض أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله: ﴿إنما التوبة على الله﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا

الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)﴾

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ سوى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار، وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل المراد بالذين يعملون السوء عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار. ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم، وبيان أن العذاب أعد له لا يعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد بالتهيئة من العناد وهو العدة، وقيل أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولى تاء.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا

أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْنٍ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ وَالْمَعْرُوفُ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ كان الزجل إذا مات وله عصة ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنهوا عن ذلك. وقيل: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث فتزوجوهن كارهات لذلك أو مكراهات عليه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿كرهاً﴾ بالضم في مواضعه وهما لغتان.



وقيل بالضم المشقة وبالفتح ما يكره عليه. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضٍ مَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ عطف على ﴿أَنْ تَرِثُوا﴾، ولا لتأكيد النفي أي ولا تمنعوهن من التزويج، وأصل العضل التضييق يقال عضلت الدجاجة بيضها. وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلعن بمهورهن. وقيل تم الكلام بقوله كرهاً ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف، والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له تقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهن لعله إلا أن يأتين بفاحشة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿مُبِينَةٍ﴾ هنا وفي الأحزاب والطلاق بفتح الباء والباقون بكسرها فيهن. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول. ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فلا تفارقوهن لكرهه النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه. وليكن نظرهم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، وعسى في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامه. والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً وَمَقَاتٍ وَسَاءَ سَبِيلًا (22) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَلَتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَتُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (23) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِلَيْكُمْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَتَغَوَّا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَيْنٍ غَيْرِ مُسْفِهِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنِيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآبَائِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْفِهِاتٍ وَلَا مُنْخَذَاتٍ أَخَذْنَ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرُوهَا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ (25) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبْسِلُوا مِثْلًا عَظِيمًا (27)﴾

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزوج أخرى. ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات، جمع الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس. ﴿قِنْطَارًا﴾ مالا كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي من قنطار. ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ إستفهام إنكار وتوبيخ، أي تأخذونه باهتين وآثمين، ويحتمل النصب

على العلة كما في قولك: قعدت عن الحرب جيناً، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المآثم. قيل كان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بهت التي تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الإفداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ إنكار لاسترداد المهر والحال أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر. ﴿وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو حق الصحة والممازحة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهم بقوله: ﴿فِيمَا سَاكٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهن بآمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ ولا تنكحوا التي نكحها آبائكم، وإنما ذكر ما دون من لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر. ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بيان ما نكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آبائكم إلا ما قد سلف، أو من اللفظ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِيَهُنْ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

والمعنى ولا تنكحوا حلائل آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن. وقيل الاستثناء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف، فإنه لا مؤاخذه عليه لأنه مقرر. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا﴾ علة للنهي أي إن نكاحهن كان فاحشة عند الله ما رخص فيه لأمة من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المقتي ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ سبيل من يراه ويفعله.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن لأنه معظم ما يقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم كتحریم الأكل من قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ولأن ما قبله وما بعده في النكاح، وأمهااتكم تعم من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت، وبناتكم تتناول من ولدتها أو ولدت من ولدها وإن سفلت، وأخواتكم الأخوات من الأوجه الثلاثة. وكذلك الباقيات والعمة كل أنثى ولدها من ولد ذكراً ولدك والخالة كل أنثى ولدها من ولد أنثى ولدتك قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القريبى والبعدى. ﴿وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ نزل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمي المرضعة أمّاً والمرضعة أختاً، وأمرها على قياس النسب باعتبار المرضعة ووالد الطفل الذي در عليه اللبن قال عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». واستثناء أخت ابن الرجل وأم أخيه من الرضاع من هذا الأصل ليس بصحيح فإن حرمتها من النسب بالمصاهرة دون النسب. ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ ذكر أولاً محرمات النسب ثم محرمات الرضاعة، لأن لها لحمة كلحمة النسب، ثم محرمات المصاهرة فإن تحريمهن عارض لمصلحة الزواج، والربائب جمع ربيبة. والريب ولد المرأة من آخر سمي به لأنه يربه كما يرب ولده في غالب الأمر، فعيل بمعنى مفعول وإنما لحقه التاء لأنه صار اسماً ومن نسائكم متعلق بربائبيكم، واللآتي بصلتها صفة لها مقيدة للفظ والحكم بالإجماع قضية للنظم، ولا يجوز تعليقها بالأمهات أيضاً لأن من إذا علقها بالربائب كانت ابتدائية، وإذا علقها بالأمهات لم يجز ذلك بل وجب أن يكون بياناً لنسائكم والكلمة الواحدة لا تحمل على معنيين عند جمهور الأدباء اللهم إذا جعلتها للاتصال كقوله:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا فَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي

على معنى أن أمهات النساء وبناتهن متصلات بهن، لكن الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قيل أن يدخل بها «إنه لا بأس أن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها». وإليه ذهب عامة العلماء، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييد التحريم فيهما. ولا يجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساء لأن عاملهما مختلف، وفائدة قوله «في حجوركم» تقوية العلة وتكميلها، والمعنى أن الرائب إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوى الشبه بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تجروها مجراهم لا تقييد الحرمة، وإليه ذهب جمهور العلماء. وقد روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه جعله شرطاً، والأمهات والربائب يتناولان القرية والبعيدة، وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن السر وهي كناية عن الجماع، ويؤثر في حرمة المصاهرة ما ليس بزنا كالوطء بشبهة، أو ملك يمين. وعند أبي حنيفة لمس المنكوحه ونحوه كالدخول. «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس. «وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ» زوجاتهم، سميت الزوجة حليلة لحلها أو لحلولها مع الزوج. «الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ» احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» في موضع الرفع عطفاً على المحرمات، والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرمتها آية وأحلتهما آية، يعينان هذه الآية. وقوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فرجح علي كرم الله وجهه التحريم، وعثمان رضي الله عنه التحليل. وقول علي أظهر لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام». «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» استثناء من لازم المعنى، أو منقطع معناه لكن ما قد سلف مغفور لقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً».

«وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ» ذوات الأزواج، أحصنهن التزويج أو الأزواج. وقرأ الكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحصن فروجهن. «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للساين، والنكاح مرتفع بالسبي لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج كفار، فكرهنا أن نقع عليهن فسالنا النبي ﷺ، فنزلت الآية فاستحللناهن. وإياه عن الفرزدق بقوله:

وَذَاتُ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا      حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

وقال أبو حنيفة لو سبي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للساين. وإطلاق الآية والحديث حجة عليه. «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» مصدر مؤكد، أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً. وقرأ «كتب» الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم «وكتب الله» بلفظ الفعل. «وَأَجَلٌ لَكُمْ» عطف على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على البناء للمفعول عطفاً على «حرمت». «مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» ما سوى المحرمات الثمان المذكورة. وخص عنه بالسنة ما في معنى المذكورات كسائر محرمات الرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» مفعول له والمعنى أحل لكم ما وراء ذلك إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالكسب في مهورهن، أو أنما نهن في حال كونكم محصنين غير مسافحين، ويجوز أن لا يقدر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادته أن تصرفوا أموالكم محصنين غير مسافحين أو بدل مما وراء ذلك بدل لاشتمال. واحتج به الحنفية على أن المهر لا بد وأن يكون مالا. ولا حجة فيه. والإحصان العفة فإنها تحصين للنفس عن اللوم والعقاب، والسفاح الزنا من السفح وهو صب المني فإنه الغرض منه. «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» فمن تمتع به من المنكوحات، أو فما استمتعتم به منهن من جماع أو عقد عليهن. «فَأُولَئِهِنَّ أُجُورُهُنَّ» مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع. «فَرِيضَةٌ» حال من الأجور بمعنى مفروضة، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاء مفروضاً أو مصدر مؤكد. «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا

تَرَضَّيْتُمْ بِهِ مِنْ بَيْدِ الْفَرِيضَةِ ﴿﴾ فيما يزداد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق. وقيل: نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة». وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة، أو تمتيعها بما تعطي. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه. «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴿﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا ﴿﴾ فيما شرع من الأحكام.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ﴿﴾ غنى واعتلاء وأصله الفضل والزيادة. ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿﴾ في موضع النصب بطولاً. أو بفعل مقدر صفة له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات، أو من لم يستطع منكم غنى يبلغ به نكاح المحصنات يعني الحرائر لقوله: ﴿فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿﴾ يعني الإماء المؤمنات، فظاهر الآية حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه في تحريم نكاح الأمة على من ملك ما يجعله صداق حرة، ومنع نكاح الأمة الكتابية مطلقاً. وأول أبو حنيفة رحمه الله تعالى طول المحصنات بأن يملك فراشه، على أن النكاح هو الوطء وحمل قوله: ﴿من فتياتكم المؤمنات ﴿﴾ على الأفضل. كما حمل عليه في قوله: ﴿المحصنات المؤمنات ﴿﴾ ومن أصحابنا من حملة أيضاً على التقييد وجوز نكاح الأمة لمن قدر على الحرية الكتابية دون المؤمنة حذراً عن مخالطة الكفار وموالاتهم، والمحذور في نكاح الأمة رق الولد، وما فيه من المهانة ونقصان حق الزوج. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴿﴾ فافتقروا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر ويتفاضل ما بينكم في الإيمان، فرب أمة تفضل الحرية فيه، ومن حاكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب، والمراد تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه ويؤيده. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون نسبكم من آدم ودينكم الإسلام. ﴿فَأَنْكِحُوا هُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴿﴾ يريد أربابهن واعتبار إذهنهم مطلقاً لا إشعار له، على أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهم حتى يحتج به الحنفية. ﴿وَأَنْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴿﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بأذن أهلهن فحذف ذلك لتقدم ذكره، أو إلى مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عوض حقه فيجب أن يؤدي إليه، وقال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة ذهاباً إلى الظاهر ﴿بِالْمَعْرُوفِ ﴿﴾ بغير مطل وإضرار ونقصان. ﴿مُحْصَنَاتٍ ﴿﴾ عفائف. ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴿﴾ غير مجاهرات بالسفاح. ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴿﴾ أخلاء في السر ﴿فَإِذَا أُخْصِنَ ﴿﴾ بالتزويج. قرأ أبو بكر وحزمة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ﴿﴾ زنى. ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ ﴿﴾ يعني الحرائر. ﴿مِنَ الْعَذَابِ ﴿﴾ من الحد لقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴿﴾ وهو يدل على أن حد العبد نصف حد الحر، وأنه لا يرجم لأن الرجم لا يتنصف. ﴿ذَلِكَ ﴿﴾ أي نكاح الإماء. ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴿﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى، وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر، مستعار لكل مشقة وضرر ولا ضرر أعظم من مواجهة الإثم بأفحش القبائح. وقيل: المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإماء. ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴿﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء متعطفين خير لكم. قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه». ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴿﴾ لمن لم يصبر. ﴿رَحِيمٌ ﴿﴾ بأن رخص له.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ ﴿﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم، وليبين مفعول يريد واللام زيدت لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد: أَرَدْتُ لِكَيْنَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ

وقيل المفعول محذوف، وليبين مفعول له أي يريد الحق لأجله. ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿﴾ مناهج من تقدمكم من أهل الرشد لتسلکوا طرقهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴿﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما

يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعها.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرهه للتأكيد والمبالغة. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الائتمار لها، وأما المتعاطي لما سوغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها. وقيل: المحبوس. وقيل: اليهود فإنهم يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات. ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بالإضافة إلى ميل من اقتراف خطيئة على ندور غير مستحل لها.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (28)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ فلذلك شرع لكم الشرعة الحنيفة السمحة السهلة، وخصص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأمة. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت هذه الثلاث: ﴿إِنْ تَجْنِبُوا كِبَارَ مَا تَهْوُونَ عَنْهُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (29)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم يبيحه الشرع كالغصب والربا والقمار. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ استثناء منقطع أي، ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه، أو اقصدوا كون تجارة. وعن تراض صفة لتجارة أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين، وتخصيص التجارة من الوجوه التي بها يحل تناول مال الغير، لأنها أغلب وأرقق لذوي المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً. وقيل: المراد بالنهي المنع عن صرف المال فيما لا يرضاه الله. وبالتجارة صرفه فيما يرضاه. وقرأ الكوفيون ﴿تِجَارَةً﴾ بالنصب على كان الناقصة وإضمار الاسم أي إلا أن تكون التجارة أو الجهة تجارة. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالبخع كما تفعله جهلة الهند، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة. ويؤيده ما روي: أن عمرو بن العاص تأوله التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي ﷺ أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها. أو باقتراف ما يذلها ويرديها فإنه القتل الحقيقي للنفس. وقيل المراد بالأنفس من كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة. جمع في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها استبقاء لهم ريثما تستكمل النفوس، وتستوفي فضائلها رافة بهم ورحمة كمال أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر ونهى عما نهى لفرط رحمته عليكم. وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيمًا لما أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (30)

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات. ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد العُدْوَانُ التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله إياها. وقرأ بالتشديد من صلى، وبفتح النون من صلاه يصليه. ومنه شاة مصلية، ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا (31)﴾

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرىء كبير على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحوها عنكم.

واختلف في الكبائر، والأقرب أن الكبير كل ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه. وقيل ما علم حرمة بقاطعه. وعن النبي ﷺ «أنها سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين». وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع). وقيل أراد ههنا أنواع الشرك لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقيل صغر الذنوب وكبرها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وبينهما وسائط يصدق عليها الأمران، فمن عن له أمران منها ودعت نفسه إليها بحيث لا يتمالك فكفها عن أكبرها كفر عنه ما ارتكبه لما استحق من الثواب على اجتناب الأكبر. ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال، ألا ترى أنه تعالى عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطراته التي لم تعد على غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذها عليها. ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ الجنة وما وعد من الثواب، أو إدخالاً مع كرامة. وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يحتمل المكان والمصدر.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32)﴾

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، فلعل عدمه خير والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي، معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشبه لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمنى ما لم يقدر له معارضة لحمة القدر، وتمنى ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ، وتمنى ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال. ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد، والتمنى كما قال عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمنى». وقيل المراد نصيب الميراث وتفضيل الورثة بعضهم على بعض فيه، وجعل ما قسم لكل منهم على حسب ما عرف من حاله الموجبة للزيادة والتقص كالمكتسب له. ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا تمنوا ما للناس واسألوا الله مثله من خزائنه التي لا تنفذ. وهو يدل على أن المنهي عنه هو الحسد، أو لا تمنوا واسألوا الله من فضله بما يقربه ويسوقه إليكم. وقرأ ابن كثير والكسائي ﴿وسألوا الله من فضله﴾ وسلمهم فسل الذين وشبهه إذا كان أمراً مواجهاً به، وقبل السين واو أو فاء بغير همز وحمزة في الوقف على أصله والباقون بالهمز. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان. روي (أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا يغزو وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً) فنزلت.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)﴾ الرِّجَالُ قَوْمٌ عَلَى الْإِنْسَاءِ يَمَّا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ لِحَدِّ قَتَلْتُمْ حَفِظْتُمْ لِلْغَيْبِ يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُورَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْبِجُوا نَفْسَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا بُدَّ مِنْهُمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا

(34) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35) \* وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمُ الَّتِي بَخِلُوا بِهَا يُخَالُونَ النَّاسَ بِالْخُلِّ وَيَكْمُؤُونَ مَاءً آتَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (37) \*

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل تركة جعلنا وراثاً يلونها ويحزونها، ومما ترك بيان لكل مع الفصل بالعامل. أو لكل ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن من صلة موالى. لأنه في معنى الوارث، وفي ترك ضمير كل والوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى، وفيه خروج الأولاد فإن الأقربون لا يتناولهم كما لا يتناول الوالدين، أو ولكل قوم جعلناهم موالى حظ مما ترك الوالدان والأقربون، على أن جعلنا موالى صفة كل والراجع إليه محذوف على هذا فالجملة من مبتدأ وخبر. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ موالى الموالاة، كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقداً على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث. أو الأزواج على أن العقد عقد النكاح وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط وخبره. ﴿فَأَتَوْهُم نَصِيَّهُمْ﴾ أو منصوب بمضمر يفسره ما بعده كقولك: زيداً فاضربه، أو معطوف على الوالدان، وقوله فأَتَوْهُم جملة مسببة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها، والضمير للموالى. وقرأ الكوفيون ﴿عَقَدَتْ﴾ بمعنى عقدت عهودهم إيمانكم فحذف العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه ثم حذف كما حذف في القراءة الأخرى. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ تهديد على منع نصيبهم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر، والشهادة في مجامع القضايا، وجوب الجهاد والجمعة ونحوها، والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق. ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة. روي (أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكى فقال رسول الله ﷺ: لتقتص منه، فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أَرَادَ اللَّهُ خَيْرٌ». ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج. ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا الآية. وقيل لأسرارهم. ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حفظه الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن. وقرئ ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بالنصب على أن ما موصولة فإنها لو كانت مصدرية لم يكن لحفظ فاعل، والمعنى بالامر الذي حفظ حق الله وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال. ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج من النشز. ﴿فَعَقُّوهُنَّ وَأَفْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف، أو لا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع. وقيل المضاجع المبائت أي لا تبايتوهن ﴿وَاصْبِرُوهُنَّ﴾ يعني ضرباً غير مبرح ولا شائن، والأمور الثلاثة مرتبة ينبغي أن يتدرج فيها. ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمُ فَلَا

تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴿﴾ بالتوبيخ والإيذاء، والمعنى فأزِيلُوا عَنْهُنَّ التَّعَرُّضَ واجْعَلُوا مَا كَانَ مِنْهُنَّ كَأَن لَمْ يَكُنْ فَإِنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿﴾ فاحذروه فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم، أو أنه يتعالى ويتكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها، أضمرها وإن لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وإضافة الشقاق إلى الطرف إما لإجرائه مجرى المفعول به كقوله: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ \* أو لفاعل كقولهم نهارك صائم. ﴿فَابْتَئُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ فابعثوا أيها الحكماء متى اشتبه عليكم حالهما لتبين الأمر أو إصلاح ذات البين، رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبنا من الأجانب جاز. وقيل الخطاب للأزواج والزوجات، واستدل به على جواز التحكيم، والأظهر أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين، وقال مالك لهما أن يتخالعا إن وجدا الصلاح فيه. ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير الأول للحكمين والثاني للزوجين، أي إن قصدا الإصلاح أوقع الله بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وقيل كلاهما للحكمين أي إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل للزوجين أي إن أرادا الإصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ بالطواهر والبواطن، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ صنماً أو غيره، أو شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بهما إحساناً. ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وبصاحب القرابة. ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي الذي قرب جواره. وقيل الذي له الجوار قرب واتصال بسبب أو دين. وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة. فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب». ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صاحبك وحصل بجنبك. وقيل المرأة. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر أو للضيف. ﴿وَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد والإماء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً بأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي ههنا وفي «الحديد» ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بفتح الحرفين وهي لغة. ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمرة إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، وما كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون لأنصار تنصيحا: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر. وقيل في الذين كتبتوا صفة محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (38) ﴿﴾

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ عطف على الذين يبخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم



والوعيد لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفریط سواء في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَكُن الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ﴿وَمَنْ يَكُن الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ تنبيه على أن الشيطان قرنه فحملهم على ذلك وزينة لهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. والمراد إبليس وأعوانه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يقرن بهم الشيطان في النار.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)﴾

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي وما الذي عليهم، أو أي تبعة تحقيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة. وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان ها هنا وأخره في الآية لأخرى لأن القصد بذكره إلى التخصيص ها هنا والتعليل ثم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً نُّضَعِفْهَا وَتُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا ينقص من الأجر ولا يزيد في العقاب أصغر شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة. ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء، والمثقال مفعال من الثقل، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغر قدره عظم جزاؤه. ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة وأنت الضمير لتأنيث الخبر، أو لإضافة المثقال إلى مؤنث. وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة. وقرأ ابن كثير ونافع ﴿حَسَنَةً﴾ بالرفع على كان التامة. ﴿يَضَاعَفُهَا﴾ يضاعف ثوابها وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعفها وكلاهما بمعنى. ﴿وَتُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاء جزيلاً، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا أَرْسُولَ لَوْ شِئِىَ يَوْمَ الْأَرْضِ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (42) يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43) أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الصُّلَّةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَارْعِنَا لَيْتَ بِلَيْسِنَهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46) يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْوَيسَ وَجُوهَهَا فَنَرَهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَبَيِّنْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (48) أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ

أَنفُسُهُمْ بِإِلَهِ اللَّهِ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (50) ﴿

﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم؟ ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يعني نبيهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، والعامل في الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هول الأمر وتعظيم الشأن. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم. وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستنهم عن حالهم. وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوَا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ بيان لحالهم حينئذ، أي يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، أو الكفرة والعصاة في ذلك الوقت أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى، أو لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانوا هم والأرض سواء. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرون على كتمانها لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالهم أنهم لا يكتُمون من الله حديثًا ولا يكذبونه بقولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ إذ روي: أنهم إذا قالوا ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم، فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر ﴿تُسَوَّى بِهِمْ﴾ على أن أصله تسوى فادغمت التاء في السين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿تُسَوَّى﴾ على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتى تنتهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم. روي (أن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مأدبة ودعا نفرًا من الصحابة - حين كانت الخمر مباحة - فأكلوا وشربوا حتى ثملوا، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقرأ: أعبد ما تعبدون). فنزلت. وقيل أراد بالصلاة مواضعها وهي المساجد وليس المراد منه نهى السكران عن قربان الصلاة، وإنما المراد النهي عن الإفراط في الشرب والسكر، من السكر وهو السد. وقرئ ﴿سكَارَى﴾ بالفتح وسكرى على أنه جمه كهلكى. أو مفرد بمعنى وأنتم قوم سكرى، أو جماعة سكرى وسكرى كحبل على أنها صفة للجماعة. ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ عطف على قوله ﴿وَأَنْتُمْ سكَارَى﴾ إذ الجملة في موضع النصب على الحال، والجنب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنه يجري مجرى المصدر. ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ متعلق بقوله ﴿وَلَا جُنْبًا﴾، استثناء من أعم الأحوال أي لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم، ويشهد له تعقيبه بذكر التيمم، أو صفة لقوله ﴿جنباً﴾ أي جنباً غير عابري سبيل. وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث. ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر عابري سبيل بالمجتازين فيها، وجوز الجنب عبور المسجد. وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة، وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي له أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه. ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مريضاً يخاف معه من استعمال الماء، فإن الواجد كالفقد. أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه. ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه. ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين، وأصل الغائط المكان المظلم من الأرض. ﴿أَوْ لَأْتَسْتَمُّ النِّسَاءَ﴾ أو ما مستم بشرتهن ببشرتك، وبه استدلل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة «المستم»، واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تتمكنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود. ووجه هذا التقسيم أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب، والحالة المقتضية له

في غالب الأمر مرض أو سفر. والجنب لما سبق ذكره اقتصر على بيان حاله والمحدث لما لم يجر ذكره ذكر من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعرض، واستغنى عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملًا فكأنه قيل: وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم فلم تجدوا ماء ﴿فَتَيْمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. أي فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي بعضه، وجعل من لا ابتداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعض، واليد اسم للعضو إلى المنكب، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه، والقياس على الوضوء دليل على أن المراد ها هنا ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من رؤية البصر أي ألم تنظر إليهم، أو القلب. وعدي بإلى لتضمن معنى الانتهاء. ﴿نَصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ حظاً سيراً من علم التوراة لأن المراد أحبار اليهود. ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَاةَ﴾ يختارونها على الهدى، أو يستبدلون بها بعد تمكنهم منه، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ. وقيل: يأخذون الرشى ويحرفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا﴾ أيها المؤمنون. ﴿السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم. ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمركم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ يعينكم فتقوا عليه واكتفوا به عن غيره. والباء ترادف في فاعل كفى لتوكيد الاتصال الإنساني بالاتصال الإضافي.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرهم، وما بينهما اعتراض أو بيان لأعدائكم أو صلة لنصيراً. أي ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم، أو خبر محذوف صفته يحرفون. ﴿الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه. وقرئ الكلم بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أي مدعوا عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو أسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه، أو أسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، أو أسمع كلاماً غير مسمع إياك لأن أذنك تنبئ عنه فيكون مفعولاً به، أو أسمع غير مسمع مكروهاً من قولهم أسمعهم فلان إذا سبه، وإنما قالوه نفاقاً. ﴿وَرَاعِنَا﴾ انظرنا نكلمك أو نفهم كلامك. ﴿لَبِاْ بِالْسِتِّهِمْ﴾ فتلا بها وصرفا للكلام إلى ما يشبه السب، حيث وضعوا راعنا المشابه لما يتسابون به موضع انظرنا وغير مسمع موضع لا أسمع مكروهاً، أو قتلا بها وضماً لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السب والتحقير نفاقاً. ﴿وَوَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ استهزاء به وسخرية. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك لدلالة أن عليه ووقوعه موقعه. ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يعاب به وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل، ويحتمل أن يراد بالقلة العدم كقوله:

قَلِيلُ الشَّكِيِّ لِلْمُهِمِّ يَصِيْبُهُ أَوْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ آمَنُوا أَوْ سَيُؤْمِنُونَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أُدْبَارِهَا﴾ من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الأقفاء، أو ننكسها إلى ورائها في الدنيا، أو في الآخرة. وأصل الطمس إزالة الأعلام وقد يطلق بمعنى الطلس في إزالة الصورة

ولمطلق القلب والتغيير، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوهاً فنسلب وجاهتها وإقبالها ونكسوها الصغار والإدبار، أو نردها إلى حيث جاءت منه، وهي أذرع الشام يعني إجلاء بني النضير، ويقرب منه قول من قال إن المزداد بالوجوه الرؤساء، أو من قبل أن نطمس وجوهاً بأن نعني الأبصار عن الاعتبار ونضم الأسراع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردها عن الهداية إلى الضلالة. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخهم مسخاً مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بعد مترقب أو كان وقوعه مشروطاً بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه. ﴿مَفْعُولاً﴾ نافذاً وكائناتاً فيقع لا محالة ما أوعدتم به إن لم تؤمنوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ لأنه بت الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للعفو بخلاف غيره. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً. والمعتزلة علقوه بالفعلين على معنى إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء. وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب. وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقيل: ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل على هؤلاء ذنب قال لا قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار. وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها. ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتمد بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين. وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً. ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسهم بغير حق. ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شق النواة يضرب به المثل في الحفارة.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياؤه عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء. ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ لا يخفى كونه ماثماً من بين آثامهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْمِنُونَ النَّاسَ نَصِيرًا (53)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد. وقيل في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكرهم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا. والجبت في الأصل اسم صنم

فاستعمل في كل ما عبد من دون الله. وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء. والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأجلهم وفيهم. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إليهم. ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يمنع العذاب منه بشفاعته أو غيرها.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك وجحد لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير إليهم. ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النقرة في ظهر النواة. وهذا هو الإغراق في بيان شحهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفارقين، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية، وأنهم لا يؤتون الناس شيئاً وإذا وقع بعد الواو والفاء لا لتشريك مفرد جاز فيه الإلغاء والإعمال، ولذلك قرئ: فإذا لا يؤتوا الناس على النصب.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا

عَظِيمًا (54)﴾

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل يحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم كمالهم. ورشدهم وبخهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكان بينهما تلازماً وتجاذباً. ﴿عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء عمه. ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فلا يبعد أن يؤتاه الله مثل ما آتاهم.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَمِمَّنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ وكفى بجهنم سعيراً (55)﴾

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ﴾ من اليهود. ﴿مِمَّنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿وَمِمَّنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمرك. ﴿وَكُفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يعجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ كالبيان والتقرير لذلك. ﴿كَمَا نَصَّيْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى كقولك: بدلت الخاتم قرطاً، أو بأن يزال عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي ليدوم لهم ذوقه. وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها فلا محذور. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ يعاقب على وفق حكمته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57)﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

لَنَنْزَعَنَّهُمْ فِي شَيْءٍ وَفَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا (62) ﴿

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ قدم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم، وذكر المؤمنين بالعرض. ﴿لَهُمْ فِيهَا زُوجٌ مُطَهَّرَةٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ فينانا لا جوب فيه ودائما لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيد كقولهم: شمس شامس وليل ليل ويوم أيوم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُوْذُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ خطاب يعم المكلفين والأمانات، وإن نزلت يوم الفتح في عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة، وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلولي علي كرم الله وجهه يده وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس رضي الله عنه أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فنزلت فأمره الله أن يرده إليه، فأمر عليا رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سببا لإسلامه ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيت بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم ولأن الحكم وظيفة الولاة قيل الخطاب لهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نعم شيئا يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به فما منصوية موصوفة بيعظكم به. أو مرفوعة موصولة به. والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل علماء الشرع لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبْطِنُونَهُ مِنْهُمْ﴾. ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس إلا أن يقال الخطاب لأولي الأمر على طريقة الالتفات. ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى كتابه. ﴿وَالرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه، والمراجعة إلى سنته بعده. واستدل به منكر القياس وقالوا: إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس. وأجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يوجب ذلك. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرد. ﴿خَيْرٌ﴾ لكم. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بلا رد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما. (أن منافقاً خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه

وقال: نتحاكم إلى عمر فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذلك. فقال نعم. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن يرض بقضاء الله ورسوله. فنزلت. وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه من يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشیطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه كما قال. «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» وقرء أن «يكفروا بها» على أن الطاغوت جمع كقوله تعالى «أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وقرء «تعالوا» بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطاً ثم ضم اللام لواء الضمير. «رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصد، والفرق بينه وبين السد أنه غير محسوس والسد محسوس ويصدون في موضع الحال.

﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم. «إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ» قتل عمر المنافق أو النعمة من الله تعالى. «بِمَا قَدَّمْتُمْ أُبَيدُهُمْ» من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك. «ثُمَّ جَاءُوكَ» حين يصابون للاعتذار، عطف على أصابتهم. وقيل على يصدون وما بينهما اعتراض. «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ» حال. «إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا» ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك. وقيل جاء أصحاب القتل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّلًا (66) وَإِذَا لَا تَلْتَمِهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَكَلَّهِنَّ جَزَاءً مُّسْتَقِيمًا (68) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70) يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا جَمِيعًا (71) وَإِنْ مِنْكُمْ لَكَانَ لِبَاطِلٍ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَرِيكًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبَسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73)﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب. «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أي عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم. «وَعِظْهُمْ» بلسانك وكفهم عما هم عليه. «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ» أي في معنى أنفسهم أو خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع. «قَوْلًا بَلِيغًا» يبلغ منهم ويؤثر فيهم، أمرهم التجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام، وتعليق الظرف ببليغا على معنى بليغا في أنفسهم

مؤثراً فيها ضعيف لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، والقول البليغ في الأصل هو الذي يطابق مدلوله المقصود به.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرض بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافراً مستوجب القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافراً مستوجب القتل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. ﴿جَاؤُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أن وإذ متعلق به. ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شافعاً، وإنما عدل الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبهها على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب. ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة، وإن فسر وجد بصادف كان تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه أو حالاً من الضمير فيه.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر لا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنها تزداد أيضاً في الإثبات كقوله تعالى: ﴿لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به، أو من حكمك أو شكاً من أجله، فإن الشاك في ضيق من أمره. ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوهما كما قتل بنو إسرائيل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا في معنى أمرنا. ﴿أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ خروجهما حين استتبوا من عبادة العجل، وقرأ أبو عمرو ويعقوب أن اقتلوا بكسر النون على أصل التحريك، أو اخرجوا بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ﴾ وقرأ حمزة وعاصم بكسرهما على الأصل والباقي بضمهما لإجراء لهما مجرى الهزمة المتصلة بالفعل. ﴿وَمَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون. لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم، نبه على قصور أكثرهم ووهن إسلامهم، والضمير للمكتوب ودل عليه كتبنا، أو لأحد مصدرى الفعلين - وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعاً ورغبة. ﴿لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ في عاجلهم وآجلهم. ﴿وَأَشَدُّ ثَبَاتاً﴾ في دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم ونصبه على التمييز. والآية أيضاً مما نزلت في شأن المنافق اليهودي. وقيل إنها والتي قبلها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة خاصم زبيراً في شراج من الحجرة كانا يسقيان بها النخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال حاطب: لأن كان ابن عمك. فقال عليه الصلاة والسلام أسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجدر واستوف حقه، ثم أرسله إلى جارك».

﴿وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مَنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل؛ وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تشبوا لآتيناهم لأن ﴿إذا﴾ جواب وجزاء.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ يصلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً. ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ بيان للذين أو حال منه، أو من



ضميره قسمهم أربعة بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم الصديقون الذين صعدت نفوسهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها. ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى. ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان. والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولاً فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم شهداء الله في أرضه، وإما أن يكون بآمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون. ﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ في معنى التعجب، و﴿رَفِيقًا﴾ في معنى التعجب، و﴿رَفِيقًا﴾ نَصَبَ على التمييز أو الحال ولم يجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحسن كل واحد منهم رفيقاً. روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزل، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً فتزلت.

﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم. ﴿الْفَضْلُ﴾ صفته. ﴿مَنْ﴾ خبره أو الفضل خبره ومن الله حال والعامل فيه معنى الإشارة. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، والحذر والحذر كالأثر والأثر. وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح. ﴿فَانْفِرُوا﴾ فاخرجوا إلى الجهاد. ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة من ثبت على فلان تشبيه إذا ذكرت متفرق محاسنه ويجمع أيضاً على ثبين جبراً لما حذف من عجزه. ﴿أَوْ انْفِرُوا جَعِيبًا﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيما أمكن قبل القوات.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين والمبطلون منافقوهم تناقلوا وتخلفوا عن الجهاد، من بطأ بمعنى أبطأ وهو لازم أو ثبطوا غيرهم كما ثبط ابن أبي ناساً يوم أحد، من بطأ منقولاً من بطؤ كثقل من ثقل واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر، والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن في ليبطئن والتقدير: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن. ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ قتل وهزيمة. ﴿قَالَ﴾ أي المبطل. ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً فيصيني ما أصابهم.

﴿وَلَيْتَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أكده تنبيهاً على فرط تحسره، وقرئ بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى ﴿مِنْ﴾. ﴿كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراض بين الفعل ومفعوله وهو. ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه، وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال، أو حال من الضمير في ليقولن أو داخل في المقول أي يقول المبطل. لمن يبطئه من المنافقين، وضعفه المسلمين تضريباً وحسداً، كأن لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ

مودة حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم. وقيل: إنه متصل بالجملة الأولى وهو ضعيف، إذ لا يفصل أبعاد الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنى وكان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب ﴿تكن﴾ بالتاء لتأنيث لفظ المودة، والمنادى في يا ليتني محذوف أي: يا قوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع فأفوز نصب على جواب التمني وقرئ بالرفع على تقدير فأنافوز في ذلك الوقت، أو العطف على كنت.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (74) وَمَا لَكُم لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (75)

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي الذين يبيعونها بها، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون، والمعنى حثهم على ترك ما حكي عنهم. ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد له الأجر العظيم غلب أو غلب، ترغيباً في القتال وتكديماً لقولهم ﴿قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ وإنما قال ﴿فيقتل أو يغلب﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين، بالظفر والغلبة وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين.

﴿وَمَا لَكُم﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حال والعامل فيها ما في الظرف من معنى الفعل. ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو، أو على سبيل بحذف المضاف أي وفي خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير، وتخليص ضعفة المسلمين من أيدي الكفار أعظمها وأخصها. ﴿وَمِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصعد المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين متحنيين، وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية. وقيل المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد. ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وناصر بفتح مكة على نبيه ﷺ، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها، والقرية مكة والظالم صفتها، وتذكيره لتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هو له كان كالفعل يذكر ويؤنث على حسب ما عمل فيه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَتَنَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (76)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يصلون به إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان. ﴿فَتَنَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة

إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين. ضعيف لا يؤبه به فلا تخافوا أوليائه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ أي عن القتال. ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به. ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ يخشون الكفار أن يقتلهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جواب لما وفرق مبتدأ منهم صفته ويخشون خبره وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى، يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. ﴿ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدرأ فلا، لأن أفعال التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشية أشد خشية منه، على الفرض اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جد جده على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله. ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ استزادة في مدة الكف عن القتال حذراً عن الموت، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكى الله تعالى عنهم. ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ سريع التقضي ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ لتقدم الغيبة.

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَخَسَةٌ يَفْجُرُوا هَازِلَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيْئَةٌ يَقُولُوا هَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) ﴾

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ قرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا. أو على أنه كلام مبتدأ، وأينما متصل بـ ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرجت المرأة إذا ظهرت. وقرىء مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بوصف فاعلها كقولهم: قصيدة شاعرة، ومشيدة من شاد القصر إذا رفعه. ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَخَسَةٌ يَقُولُوا هَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيْئَةٌ يَقُولُوا هَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ كما تقع الحسنة والسيئة على الطاعة والمعصية يقعان على النعمة والبلية، وهما المراد في الآية أي: وإن تصبهم نعمة كخصب نسبها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط أضافها إليك وقالوا إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها. ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي ييسر ويقبض حسب إرادته. ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ يوعظون به، وهو القرآن فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثاً ما كبهائم لا أفهام لها أو حادثاً من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعلمون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى.

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79) ﴾

﴿ مَا أَصَابَكَ ﴾ يا إنسان. ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ من نعمة. ﴿ فَمِنْ اللَّهِ ﴾ أي فضلاً منه، فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافئ نعمة الوجود، فكيف يقتضي غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد

الجنة إلا برحمة الله تعالى. قيل ولا أنت قال: ولا أنا. ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَبِّهِ﴾ من بلية. ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي، وهو لا ينافي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فإن الكل منه إيجاباً وإيضالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شمع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر». والآيتان كما ترى لا حجة فيهما لنا وللمعتزلة. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حال قصد بها التأكيد إن علق الجار بالفعل والتعميم إن علق بها أي رسولاً للناس جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ ويجوز نصبه على المصدر كقوله: ولا خارجاً من في زور كلام. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك بنصب المعجزات.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (80)

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مبلغ، والأمر هو الله سبحانه وتعالى. روي (أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله». فقال: المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتخذة ربا كما اتخذت النصراني عيسى ربا) فنزلت. ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعته. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب وهو حال من الكاف.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (81)

﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرتهم بأمر. ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أمرنا أو منا طاعة، وأصلها النصب على المصدر ورفعها للدلالة على الثبات. ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ خرجوا. ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي زورت خلاف ما قلت لها، أو ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة، والتبيت إما من البتوتة لأن الأمور تدبر بالليل، أو من بيت الشعر، أو البيت المبنى لأنه يسوي ويدبر. وقرأ أبو عمرو وحزمة ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾ بالإدغام لقربهما في المخرج. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبت في صحائفهم للمجازاة، أو في جملة ما يوحى إليك لتطلع على أسرارهم. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قلل المبالاة بهم أو تجاف عنهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتٌ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (82)

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتأملون في معانيه ويتصورون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أديار الشيء. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً، وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلية للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذكره ها هنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف الأحوال في الحكم والمصالح.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَالْحَيِّ أُولَى لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَشِيطُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ عَلَيْكُمْ دِينَهُ لَآتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (83)

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف. ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أفشوه كما كان

يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحى إليه من وعد بالظفر، أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم فكانت إذاعتهم مفسدة. والباء مزيدة أو لتضمن الإذاعة معنى التحديث. ﴿وَلَوْ رُدُّوهُ﴾ أي ولو ردوا ذلك الخبر. ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ إلى رآيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور، أو الأمراء. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لعل ما أخبروا به على أي وجه يذكر. ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدابيرهم بتجاربهم وأنظارهم. وقيل كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالأعلى على المسلمين، ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعه منهم وتعرفوا أنه هل يذاع ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي: يستخرجون علمه من جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط: وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب. ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ والكفر والضلال. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منكم تفضل الله عليه بعقل راجع اهتدى به إلى الحق والصواب، وعصمه عن متابعة الشيطان كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل. أو إلا اتباعاً قليلاً على الدور.

﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (84)

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أن تثبطوا وتركوك وحدك. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ إلا فعل نفسك لا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود. روي (أنه عليه الصلاة والسلام دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت. فخرج عليه الصلاة والسلام وما معه إلا سبعون لم يلو على أحد). وقرئ لا ﴿تُكَلَّفُ﴾ بالجزم، و «لا تكلف» بالنون على بناء الفاعل أي لا تكلفك إلا فعل نفسك، لا أنا لا تكلف أحداً إلا نفسك لقوله: ﴿وَحَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً منهم، وهو تقييد وتهديد لمن لم يتبعه.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ (85)

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ راعى بها حق مسلم ودفع بها عنه ضرراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك». ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ يريد بها محرماً. ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ مقتدرًا من أفات على الشيء إذا قدر قال:

وَذِي ضُغْنٍ كَفَفْتُ الضُّغْنَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَرِهِ مُقِيمًا

أو شهيداً حافظاً، واشتقاقه من القوت فإنه يقوي البدن ويحفظه.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (86) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (87)

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدل على وجوب

الجواب إما بأحسن منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله، فإن قاله المسلم زاد وبركاته وهي النهاية وإما برد مثله لما روي (أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك. فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك. فقال الرجل: نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية. فقال ﷺ: إنك لم تترك لي فضلاً فردت عليك مثله. وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السلامة عن المضار وحصول المنافع وثباتها ومنه قيل، أو للتريديد بين أن يحيى المسلم ببعض التحية وبين أن يحيى بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية وحيث السلام مشروع فلا يرد في الخطبة، وقراءة القرآن، وفي الحمام، وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحية في الأصل مصدر حياك الله على الإخبار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتهب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، أو ﴿الله﴾ مبتدأ والخبر ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي الله، والله ليحشرنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو، اعتراض. والقيام والقيامة كالطلاب والطلابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ﴿وَمَنْ أَضَدُّقٌ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكار أن يكون أحد أكثر صدقاً منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَزَكَهُمْ مِمَّا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (88)

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. ﴿فِتْنَيْنِ﴾ أي فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم، وذلك أن ناساً منهم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم. وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهرهم الإسلام وقعدوا عن الهجرة. و ﴿فِتْنَيْنِ﴾ حال عاملها لكم كقولك: ما لك قائماً. و ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ﴾ حال من ﴿فِتْنَيْنِ﴾ أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفرقون فيهم، ومعنى الافتراق مستفاد من ﴿فِتْنَيْنِ﴾. ﴿وَاللَّهُ أَرَزَكَهُمْ مِمَّا كَسَبُوا﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركن رد الشيء مقلوباً. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أن تجعلوه من المهتدين. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى.

﴿وَدُّوا أَنْ يُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (89)

﴿وَدُّوا أَنْ يُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا﴾ تمنوا أن تكفروا ككفرهم. ﴿فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفروا ولو نصب على جواب التمني لجاز. ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلوكه. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ كسائر الكفرة. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ وَكَمْ حَصَرْتُمْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْهِمْ فَلَقَتْلُوكُمْ فَلَمَّ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90)﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي: إلا الذين يتصلون ويتجهون إلى قوم عاهدوكم، ويفارقون محاربتكم. والقوم هم خزاعة. وقيل: هم الأسلميون فإنه عليه الصلاة والسلام وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن لجأ إليه فله من الجوار مثل ماله. وقيل بنو بكر بن زيد مناة. ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ﴾ عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم، استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم من ترك المحاربين فلهق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكف عن قتال الفريقين، أو على صفة وكأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم كافين عن القتال لكم وعليكم. والأول أظهر لقوله فإن اعتزلوكم. وقرئ بغير العاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف. ﴿حَصَرْتُمْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد ويدل عليه أنه قرئ «حصرة صدورهم» وحصرات صدورهم، أو بيان لجأوكم وقيل صفة محذوف أي جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض. ﴿أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي عن أن أو لأن أو كراهة أن يقاتلوكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يكفوا عنكم. ﴿فَلَمَّ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يَقْتُلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم. ﴿وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ﴾ الاستسلام والانقياد. ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُمُوا أَيْدِيَهُمْ فخذوهم وأقتلوهم حيث توفتهموه وأوليتكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً (91) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَصِيَامْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93) يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَتَى اللَّهَ عَلَىٰ عَيْبِكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94) لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَتَيْنِ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (96) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمُنِ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ أَمْوَالُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98)﴾

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بَكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هم أسد وغطفان، وقيل بنو عبد الدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين فلما رجعوا كفروا. ﴿كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ دعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين. ﴿أُرْكَشُوا فِيهَا﴾ عادوا إليها وقلبوا فيها أبح قلب. ﴿فَإِنْ لَمْ يَغْتَزِلْوْكُمْ وَتَلَقَّوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ وينبذوا إليكم العهد. ﴿وَيَكْفُوهَا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم. ﴿فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتَلَوْهُمْ حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنت منهم فإن مجرد الكف لا يوجب نفي التعرض. ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذن لكم في قتلهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له وليس من شأنه. ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق. ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإنه على عرضته، ونصبه على الحال أو المفعول له أي: لا يقتله في شيء من الأحوال إلا حال الخطأ، أو لا يقتله لعله إلا للخطأ أو على أنه صفة مصدر محذوف أي إلا قتلاً خطأ. وقيل ﴿ما كان﴾ نفي في معنى النهي، والاستثناء منقطع أي لكن إن قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر، والخطأ ما لا يضامه القصد إلى الفعل أو الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو لا يقصد به محذور كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعل غير المكلف. وقرئ ﴿خطاء﴾ بالمد و﴿خطأ﴾ كعصا بتخفيف الهمزة، والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياش فقتله. ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعلية أو فواجبه تحرير رقة، والتحرير الإعتاق، والحر كالعقيق للكريم من الشيء ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، سمي به لأن الكرم في الأحرار واللوم في العبيد، والرقبة عبر بها عن النسمة كما عبر عنها بالرأس. ﴿مُؤْمِنَةً﴾ محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة. ﴿وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر الموارث، لقول ضحاك بن سفيان الكلابي: (كتب إلي رسول الله ﷺ يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها). وهي على العاقلة فإن لم تكن فعلى بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية. سمي العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبيهاً على فضله، وعن النبي ﷺ: «كل معروف صدقة» وهو متعلق بعليه، أو بمسلمة أي تجب الدية عليه أو يسلمها إلى أهله إلا حال تصدقهم عليه. أو زمانه فهو في محل النصب على الحال من القاتل أو الأهل أو الظرف. ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله إذ لا وراثته بينه وبينهم ولأنهم محاربون. ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان من قوم كفرة معاهدين، أو أهل الذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية ولعله فيما إذا كان المقتول معاهداً، أو كان له وارث مسلم. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ رَقَبَةً بَانَ لَمْ يَمْلِكْهَا وَلَا مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَيْهَا. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعلية أو فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له أي شرع ذلك توبة، من تاب الله عليه إذا قبل توبته. أو على المصدر أي وتاب الله عليكم توبة أو الحال بحذف مضاف أي فعلية صيام شهرين ذا توبة. ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ صفتها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحاله. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمر في شأنه.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. «لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً». ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه. والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ ونحوه وهو عندنا إما مخصوص بالمستحل له كما ذكره عكرمة وغيره، ويؤيده أنه نزل في مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ولم يظهر قاتله، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يدفعوا إليه ديته فدفعوا



إليه ثم حمل على مسلم فقتله ورجع إلى مكة مرتداً، أو المراد بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا صُرِّتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سافرتهم وذهبتم للغزو. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه. وقرأ حمزة والكسائي «فتبينوا» في الموضعين هنا، وفي «الحجرات» من التثبت. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة السليم بغير الألف أي الاستسلام والانقياد وفسر به السلام أيضاً. ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلت ذلك متعوذاً. وقرئ «مُؤْمِنًا» بالفتح أي مبدولاً له الأمان. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ، وهو حال من الضمير في تقولوا مشعر بما هو الحامل لهم على العجلة وترك التثبت. ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ﴾ لكم. ﴿كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لماله. ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة فحسنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يعلم مواطاة قلوبكم ألسنتكم. ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل الله بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم. وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً به وبالغرض منه فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. روي (أن سرية رسول الله ﷺ غزت أهل فدك فهربوا وبقي مرداس ثقة بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا به وكبروا كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة واستاق غنمه) وقيل نزلت في المقداد مر برجل في غيمة فأراد قتله فقال: لا إله إلا الله. فقتله وقال: ودَّ لو فر بأهله وماله. وفيه دليل على صحة إيمان المكره وأن المجتهد قد يخطيء وأن خطأه مغتفر.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الحرب. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع الحال من القاعدين أو من الضمير الذي فيه. ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالرفع صفة للقاعدون لأنه لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب على الحال أو الاستثناء. وقرئ بالجزم على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه. وعن زيد بن ثابت أنها نزلت ولم يكن فيها غير أولي الضرر فقال ابن أم مكتوم: وكيف وأنا أعمى فغشي رسول الله ﷺ في مجلسه الوحي، ف وقعت فخذة على فخذي حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه فقال اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة. وفائدته تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعاً لرتبته وأنفه عن انحطاط منزلته. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ جملة موضحة لما نفي الاستواء فيه والقاعدون على التقييد السابق، ودرجة نصب بترغ الخافض أي بدرجة أو على المصدر لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موقع المرة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة. ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين- والمجاهدين. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ المثوبة الحسنی وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب. ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نصب على المصدر لأن فضل بمعنى أجر، أو المفعول الثاني له لتضمنه معنى الإعطاء كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد منها بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات على المصدر كقولك: ضرته أسواطاً، وأجراً على الحال عنها تقدمت عليها لأنها نكرة، ومغفرة ورحمة على المصدر بإضمار فعليهما كرر تفضيل المجاهدين، وبالحق فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه. وقيل: الأول ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميل الذكر، والثاني ما جعل لهم في الآخرة. وقيل المراد بالدرجة

الأولى ارتفاع منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالدرجات منازلهم في الجنة. وقيل القاعدون الأول هم الأضرأ والقاعدون الثاني هم الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم. وقيل المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرين من جاهد نفسه وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما عسى أن يفرط منهم. ﴿رَحِيمًا﴾ بما وعد لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يحتمل الماضي والمضارع، وقرئ «توفتهم» و «توفاهم» على مضارع وفيت بمعنى أن الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة فإنها نزلت في أناس من مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة. ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة توبيخاً لهم. ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم. ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ اعتذروا مما وبخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله. ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم أو تكيئاً. ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبشة. ﴿قَالُوا لَيْتَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار. وهو خبر إن والفاء فيه لتضمن الاسم معنى الشرط، وقالوا فيم كنتم حال من الملائكة بإضمار قد أو الخبر قالوا والعائد محذوف أي قالوا لهم، وهو جملة معطوفة على الجملة التي قبلها مستنتجة منها. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مصيرهم نار جهنم، وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه، وعن النبي ﷺ «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبه محمد عليهما الصلاة والسلام». ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والإشارة إليه، وذكر الولد إن أريد به المماليك فظاهر، وإن أريد به الصبيان فللمبالغة في الأمر والإشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة فلا محيص لهم عنها وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه، أو حال منه أو من المستكن فيه. واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

﴿قَالُوا لَيْتَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْعُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا عَفُورًا﴾ (99)

﴿قَالُوا لَيْتَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْعُو عَنْهُمْ﴾ ذكر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصده الفرصة ويعلق بها قلبه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا عَفُورًا﴾.

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغْمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ

الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (100)

﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغْمًا كَثِيرًا﴾ متحولاً من الرغام وهو التراب. وقيل طريق براغم قومه بسلوكة أي يفارقهم على رغم أنوفهم وهو أيضاً من الرغام. ﴿وَسَعَةً﴾ في الرزق وإظهار الدين. ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ وقرئ «يدركه» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثم هو يدركه وبالنصب على إضمار أن كقوله:

سَأَتْرُكَ مَنْزِلِي بَيْتِي تَمِيمَ وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرْيِحَا

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الوقوع والوجوب متقاربان والمعنى: ثبت أجره عند الله تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة حمله بنوه على سرير متوجهاً إلى

المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ فمات.

﴿وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَكْثَرُ عَدُوًّا مُبِينًا (101)﴾

﴿وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتم. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بتنصيف ركعاتها ونفي الحرج فيه يدل على جوازه دون وجوبه، ويؤيده أن عليه الصلاة والسلام أتم في السفر. وأن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمدت مع رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت. فقال: «أحسن يا عائشة». وأوجه أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ، ولقول عائشة رضي الله تعالى عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في الحضر. فظاهرهما يخالف الآية الكريمة فإن صحا فالأول مؤول بأنه كالتمام في الصحة والإجزاء، والثاني لا ينفي جواز الزيادة فلا حاجة إلى تأويل الآية. بأنهم ألفوا الأربع فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن ركعتي السفر قصر ونقصان، فسمي الإتيان بهما قصراً على ظنهم. ونفي الجناح فيه لتطبيب به نفوسهم، وأقل سفر تقصر فيه أربعة برد عندنا وستة عند أبي حنيفة. قرئ ﴿تَقْصُرُوا﴾ من أقصر بمعنى قصر ومن الصلاة صفة محذوف أي: شيئاً من الصلاة عند سيوفه، ومفعول تقصروا بزيادة عند الأخفش. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا شريطة باعتبار الغالب في ذلك الوقت، ولذلك لم يعتبر مفهومها كما لم يعتبر في قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يَفْتِنَكُمُ اللَّهُ﴾ فلا جناح عليهما فيما افتقدت به. وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضاً في حال الأمن. وقرئ من الصلاة أن يفتنكم بغير إن خفتكم بمعنى كراهة أن يفتنكم: وهو القتال والتعرض بما يكره.

﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ فَيُمْسِلُوا عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102)﴾

﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ تعلق بمفهومه من خص صلاة الخوف بحضرة الرسول ﷺ لفضل الجماعة، وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم الرسول ﷺ كيفيتها ليأتم به الأئمة بعده فإنهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي المصلون حزمًا. وقيل الضمير للطائفة الأخرى، وذكر الطائفة الأولى يدل عليهم. ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ يعني المصلين. ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي غير المصلين. ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يحرسونكم يعني النبي ﷺ ومن يصلي معه، فغلب المخاطب على الغالب. ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ لاشتغالهم بالحراسة. ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ ظاهره يدل على أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله رسول الله ﷺ ببطن نخل، وإن أريد به أن يصلي بكل ركعة إن كانت الصلاة ركعتين فكيفيته أن يصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيتم بهم الركعة الثانية. ثم ينتظر قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلموا بهم كما فعله رسول الله ﷺ بذات الرقاع. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة، ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم

صلاتها ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعل الحذر آلة يتحصن بها المغازي فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴿تَمْنُوا أَنْ يُنَالُوا مِنْكُمْ غَرَةً فِي صَلَاتِكُمْ فَيَشْدُونَ عَلَيْكُمْ شِدَّةً وَاحِدَةً، وهو بيان ما لأجله أمروا بأخذ الحذر والسلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للموجب دون الاستحباب. ﴿وَأَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو. ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (103)

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ﴾ أديتم وفرغتم منها. ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدوها كيفما أمكن، قياماً مسايقين ومقارعين، وقعوداً مرامين وعلى جنوبكم مشخين. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فعدلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وأتوا بها تامة. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال، وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبة الأداء حال المسابقة والاضطراب في المعركة، وتعليل للأمر بالإتياء بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلي المحارب حتى يطمئن.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (104)

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا. ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال. ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه، بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم، وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثواب ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرئ ﴿أَنْ تَكُونُوا﴾ بالفتح بمعنى ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون، ويكون قوله فإنهم يألمون علة للنهي عن الوهن لأجله. والآية نزلت في بدر الصغرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائرهم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهي.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (105)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق يتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها. فقال دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافضح وبريء اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما عرفك الله وأوحى به إليك وليس من الرؤية بمعنى

العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل. ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ أي لأجلهم والذب عنهم ﴿خَصِيماً﴾ للبراء. ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُوراً رَحِيماً﴾ (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (107) يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (108) هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (109) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُوراً رَحِيماً (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (113) ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (114) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّه﴾ مما همت به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوراً رَحِيماً﴾ لمن يستغفر.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها فإن وبال خيانتهم يعود عليها، أو جعل المعصية خيانة لها كما جعلت ظلماً عليها، والضمير لطعمة وأمثاله أو له ولقومه فإنهم شاركوه في الإثم حيث شهدوا على براءته وخاصموا عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً﴾ مبالغاً في الخيانة مصراً عليها. ﴿أَثِيماً﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق أهلها فسقط الحائط عليه فقتله. ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ يستترون منهم حياءً وخوفاً. ﴿وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه وهو أحق بأن يستحيا ويخاف منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ لا يخفي عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون ويزورون. ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ لا يفوت عنه شيء. ﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً أو صلة عند من يجعله موصولاً. ﴿فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً﴾ قبيحاً يسوء به غيره. ﴿أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به ولا يتعده. وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك، وبالظلم الشرك. وقيل: الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ بالتوبة. ﴿يَجِدِ اللَّهَ عَفُوراً﴾ لذنوبه. ﴿رَحِيماً﴾ متفضلاً عليه، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يتعده وباله كقوله تعالى: ﴿وإن أسأتم فلها﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْماً﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾ كما رمى طعمة زيداً، ووحيد الضمير لمكان أو. ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مقترفاً أحدهما دون مقترفاً الآخر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإعلام ما هم عليه بالوحي، والضمير لرسول الله ﷺ. ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي من بني ظفر. ﴿أَنْ يُضْلُوا﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال، والجملة جواب لولا وليس القصد فيه إلى نفي مهمهم بل إلى نفي تأثيره فيه. ﴿وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأنه ما أزلك عن الحق وعاد وباله عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم، ومن شيء في موضع النصب على المصدر أي شيئاً من الضرر ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام. ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ من متناجيهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أو من تناجيهم فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ على حذف مضاف أي إلا نجوى من أمر أو على الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير، والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل. وفسرها ههنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع وسائر ما فسر به. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أو إصلاح ذات البين. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ بني الكلام على الأمر ورتب الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الأمر في زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه، وقيد الفعل بأن يقول لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى، لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيراً رياء وسمعة لم يستحق به من الله أجراً. ووصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا. وقرأ حمزة وأبو عمرو «يؤتيه» بالياء.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ يخالفه، من الشق فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل. ﴿تَوَلَّاهُ مَا تَوَلَّى﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونخل بينه وبين ما اختاره. ﴿وَنُفِصِلْهُمْ﴾ وندخله فيها. وقرئ بفتح النون من صلاة. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاققة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقيح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاققة محرمة ضم إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع غير سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم ممن عرف سبيلهم ممن عرف سبيلهم، وقد استقصيت الكلام فيه في مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ (116)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كرهه للتأكيد، أو لقصة طعمة. وقيل جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهك في الذنوب ألا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وآمنت به ولم اتخذ من دونه ولياً، ولم أوقع المعاصي جرأة، وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى. فنزلت ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى فقد افترى لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوَانِ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيداً﴾ (117)

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوَانِ﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها، كان لكل حي صنم يعبدونه

ويسمونه أنثى بني فلان وذلك إما لتأنيث أسمائها كما قال :

وَمَا ذَكَرَ فَإِنْ يَسْمَنُ فَأُنْثَى شَدِيدُ الْأَزْمِ لَيْسَ لَهُ ضُرُوسٌ

فإنه عنى القراد وهو ما كان صغيراً سمي قراداً فإذا كبر سمي حلمة، أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث من حيث إنها ضاهت الإناث لا نفعاً لها، ولعله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه يفعل ولا يفعل، ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غير منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفرط حماقتهم. وقيل المراد الملائكة لقولهم: الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى، وهو جمع أنثى كرباب وربى، وقرىء «أنثى» على التوحيد وأنا على أنه جمع أنيث كخبث وخبيث، ووثنا بالتخفيف ووثناً بالتثقيل وهو جمع وثن كأسد وأسد وأثنا وأثنا بهما على قلب الواو لضمها همزة. ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها. ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكان طاعته في ذلك عبادة له، والمارد والمريد الذي لا يعلق بخير. وأصل التركيب للملابسة. ومنه ﴿صرح ممرد﴾ وغلाम أمرد وشجرة مرداء للتي تنثر ورقها.

﴿لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118)﴾

﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ صفة ثانية للشيطان. ﴿وَقَالَ لَا تَتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ عطف عليه أي شيطاناً مریداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القول الذال على فرط عداوته للناس.

وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية على سبيل التعليل، بأن ما يشركون به يفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً، وذلك ينافي الألوهية غاية المنافاة، فإن الإله ينبغي أن يكون فاعلاً غير منفعل، ثم استدل عليه بأنه عبادة الشيطان وهي أقطع الضلال لثلاثة أوجه. الأول: أنه مرید منهمك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى. والثاني: أنه ملعون لضلاله فلا تستجلب مطاوعته سوى الضلال واللعن. والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي في إهلاكهم وموالاته من هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته. والمفروض المقطوع أي نصيباً قدر لي وفرض من قولهم فرض له في العطاء.

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتُهُمْ وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْيَتَهُمْ فَلْيَغْيِرْكُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119)﴾

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَلَا مُنِيتُهُمْ﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب. ﴿وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ يشقونها لتحريم ما أحل الله وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسواحب، وإشارة إلى تحريم كل ما أحل ونقص كل ما خلق كاملاً بالفعل أو القوة. ﴿وَلَا مِرْيَتَهُمْ فَلْيَغْيِرْكُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته. ويندرج فيه ما قيل من فقه عين الحامي، وخصاء العبيد، والوشم، والوشر، واللواط، والسحق، ونحو ذلك وعبادة الشمس، والقمر، وتغيير فطرة الله تعالى التي هي الإسلام، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى. وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقاً لكن الفقهاء خصوا في خصاء البهائم للحاجة. والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً أو أتاه فعلاً. ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله وبذل مكانه من الجنة بمكان من النار.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)﴾

﴿يَعِدُّهُمْ﴾ ما لا ينجزه. ﴿وَيُؤْمِنُهُمْ﴾ ما لا ينالون. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه.

﴿أُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (121)

﴿أُولَئِكَ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل وعنها حال منه، وليس صلة له لأنه اسم مكان وإن جعل مصدرأ فلا يعمل أيضاً فيما قبله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ

اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (122)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾. أي وعده وعداً وحق ذلك حقاً، فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الإسمية التي قبله وعد، والثاني مؤكد لغيره ويجوز أن ينصب الموصول بفعل يفسره ما بعده، ووعد الله بقوله ﴿سنُدخلهم﴾ لأنه بمعنى نعدهم إدخالهم وحقاً على أنه حال من المصدر. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكدة بليغة، والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، والمبالغة في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيرًا﴾ (123)

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيكُم أيها المسلمون، ولا بأمانِي أهل الكتاب، وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل. روي (أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا. فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولي بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة) فنزلت. وقيل: الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدم ذكرهم أي: ليس الأمر بأمانِي المشركين، وهو قولهم لا جنة ولا نار، وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً، ولا أمانِي أهل الكتاب وهو قولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وقولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ ثم قرر ذلك وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ عاجلاً أو آجلاً لما روي (أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام: أما تحزن أما تمرض أما يصيبك الأراء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هو ذاك). ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز موالاة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

﴿(124)﴾

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها. ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل، و ﴿مِنْ﴾ للبيان أو من الصالحات أي كائنة من ذكر أو أنثى ومن للابتداء. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور وتنبهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه. ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالحري أن لا يزداد عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين، ولذلك اقتصر على



ذكره عقيب الثواب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ هنا وفي «عافر» و «مريم» بضم الياء وفتح الخاء، والباقون بفتح الياء وضم الخاء.

﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

(125)﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرف لها رباً سواه. وقيل بذل وجهه له في السجود وفي هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أت بالحسنات تارك للسيئات. ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن سائر الأديان، وهو حال من المتبع أو من الملة أو إبراهيم. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاؤه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره ولم يضمرفخيماً لشأنه وتنصيماً على أنه الممدوح. والخلة من الخلال فإنه ود تخلل النفس وخالطها. وقيل من الخلل فإن كل واحد من الخليين يسد خلل الآخر، أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يترافقان في الطريقة، أو من الخلة بمعنى الخصلة فإنهما يتوافقان في الخصال. والجملة استئناف جيء بها للترغيب في اتباع ملته ﷺ والإيذان بأنه نهاية في الحسن وغاية كمال البشر. روي (أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس يمتاز منه فقال خليله: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس، فاجتاز غلماانه ببطحاء لينة فملؤوا منها الغرائر حياء من الناس فلما اخبروا إبراهيم ساءه الخبر، فغلخته عيناه فنام وقامت سارة إلى غرارة منها فأخرجت حوارى واختبرت، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من خليلك المصري، فقال: بل هو من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلًا).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ (126)﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكر العمال مقرر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض، وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدره فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوَفُّوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَظْهَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (127) وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129) وَإِنْ يَفْرَقَا يَحْزِنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسِعًا حَكِيمًا (130) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا (133)﴾

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ في ميراثهن إذ سبب نزوله (أن عيينة بن حصن أتى النبي ﷺ فقال: أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام: كذلك أمرت) ﴿قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن والافتاء تسين المهم. ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ عطف على اسم الله تعالى، أو ضميره المستكن في يفتيكم وساغ للفصل فيكون الإفتاء مسنداً إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ ونحوه، والفعل الواحد ينسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارين مختلفين، ونظيره أغنانني زيد وعطاؤه، أو استئناف معترض لتعظيم المتلو عليهم على أن ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره. والمراد به اللوح المحفوظ، ويجوز أن ينصب على معنى وبيّن لكم ما يتلى عليكم أو يخفض على القسم كأنه قيل: وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب، ولا يجوز عطفه على المجرور في فيهن لاختلاله لفظاً ومعنى ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ صلة يتلى إن عطف الموصول على ما قبله أي يتلى عليكم في شأنهن وإلا فبدل من فيهن، أو صلة أخرى ليفتيكم على معنى الله يفتيكم فيهن بسبب يتامى النساء كما تقول: كلمتك اليوم في زيد، وهذه الإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقرئ «ييامى» بياءين على أنه أيامى فقلبت همزته ياء. ﴿الَّذِينَ لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي فرض لهن من الميراث (وترغبون أن تنكحوهن) في أن تنكحوهن أو عن أن تنكحوهن فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كن جميلات ويأكلون ما لهن، وإلا كانوا يعضلونهن طمعاً في ميراثهن والواو تحتل الحال والعطف، وليس فيه دليل على جواز تزويج اليتيمة إذ لا يلزم من الرغبة في نكاحها جريان العقد في صغرها. ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على يتامى النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء. ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أيضاً عطف عليه أي ويفتيكم أو ما يتلى في أن تقوموا، هذا إذا جعلت في يتامى صلة لأحدهما فإن جعلته بدلاً فالوجه نصبهما عطفاً على موضع فيهن، ويجوز أن ينصب وأن تقوموا بإضمار فعل أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقوام بالنصفة في شأنهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وعد لمن أثر الخير في ذلك.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا﴾ توقعت منه لما ظهر لها من المخايل، وامرأة فاعل فعل يفسره الظاهر. ﴿تُشْوَراً﴾ تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها. ﴿أَوْ إِعْرَاضاً﴾ بأن يقل مجالستها ومحادثتها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تحط له بعض المهر، أو القسم، أو تهب له شيئاً تستميله به. وقرأ الكوفيون ﴿أَنْ يَصْلِحَا﴾ من أصلح بين المتنازعين، وعلى هذا جاز أن ينتصب صالحاً على المفعول به، وبينهما ظرف أو حال منه أو على المصدر كما في القراءة الأولى والمفعول بينهما أو هو محذوف. وقرئ ﴿يَصْلِحَا﴾ من أصلح بمعنى اصطاح. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من القرقة أو سوء العشرة أو من الخصومة. ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ ولذلك اغتفر عدم مجانستهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة. ومعنى إحضار الأنفس الشح جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها. ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ في العشرة. ﴿وَتَقْوُوا﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والخصومة. ﴿خَبِيرًا﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه، أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامة للسبب مقام المسبب.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل ألبته وهو متعذر فلذلك كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا توأخذني فيما تملك ولا أملك». ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي على تحري ذلك وبالغتم فيه. ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب

عنها، فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله. ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة. وعن النبي ﷺ «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل». ﴿وَأِنْ تُضِلُّوهَا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيم يستقبل من الزمان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

﴿وَأِنْ يَنْفَرَقَا﴾ وقرىء وإن يفارق كل منهما صاحبه. ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سلوة. ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ غناه وقدرته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدرًا متقنًا في أفعاله وأحكامه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، ومن قبلهم، و «الكتاب» للجنس و «من» متعلقة ب «وصينا» أو ب «أوتوا» ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص. ﴿وَأَيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين. ﴿إِنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أن مفسرة لأن التوصية في معنى القول. ﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على إرادة القول أي: وقلنا لهم ولكم أن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا يتفزع بشرككم وتفواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حمد أو لم يحمد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكره ثالثًا للدلالة على كونه غنيًا حميدًا، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميدًا. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ راجع إلى قوله ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾، فإنه توكل بكفايتهما وما بينهما تقرير لذلك.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يفتنكم، ومفعول يشأ محذوف دل عليه الجواب. ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ويوجد قوماً آخرين أو خلقاً آخرين مكان الإنس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ من الإعدام والإيجاد. ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته، وتهديد لمن كفر به وخالف أمره. وقيل: هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب ومعناه معنى قوله تعالى: ﴿وَأِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لما روي: أنه لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: إنهم قوم هذا.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (134)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنمة. ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما له يطلب أخسهما فليطلبهما كمن يقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾، أو ليطلب الأشرف منهما، فإن من جاهد خالصاً لله سبحانه وتعالى لم تخطئه الغنمة وله في الآخرة، ما هي في جنبه كلا شيء، أو فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا ما يريده كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْآخِرَةَ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلا بحسب قصده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِمَا تَعْبَهُوْنَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ حَكِيمًا﴾ (135)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله سبحانه وتعالى، وهو خبر ثان أو حال. ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقروا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره. ﴿أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ولو على والديكم وأقاربكم. ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ أي المشهود عليه أو كل واحد منه ومن المشهود له.

﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحماً. ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شرعها، وهو علة الجواب أقيمت مقامه والضمير في بهما راجع لما دل عليه المذكور، وهو جنساً الغني والفقير لا إليه وإلا لوحداً، ويشهد عليه أنه قرئ «فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا». ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ لأن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا من العدل. ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل. قرأه نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإسكان اللام وبعدها واوان الأولى مضمومة، والثانية ساكنة. وقرأ حمزة وابن عامر «وإن تلووا» بمعنى وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها. ﴿أَوْ تُعْرَضُوا﴾ عن آدائها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (136)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب إذ روي: أن ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه. فنزلت. ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالِكُنَّ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما أمتتم بألسنتكم، أو آمنوا إيماناً عاماً يعم الكتب والرسل، فإن الإيمان ببعض كلا إيمان والكتاب الأول القرآن والثاني الجنس. وقرأ نافع والكوفيون: ﴿الَّذِي نَزَلَ﴾ و ﴿الَّذِي أَنزَلَ﴾ بفتح النون والهمزة والزاي، والباقيون بضم النون والهمزة وكسر الزاي. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (137)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني اليهود آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعد عوده إليهم. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، أو قوماً تكر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في الغي. ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل: لم يكن الله مريداً ليغفر لهم.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (138)

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين، ووضع ﴿بَشِّرِ﴾ مكان أنذرتهم بهم.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئَظْنُوكَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (139)

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب، أو الرفع على الذم بمعنى أريد الذين أو هم الذين. ﴿أَبِئَظْنُوكَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أيتعززون بمواليتهم. ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يتعزز إلا من

أعزه الله، وقد كتَبَ العزة لأوليائه فقال ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ولا يُؤْبَهُ بعزة غيرهم بالإضافة إليهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)﴾

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن. وقرأ عاصم ﴿نزل﴾ وقرأ الباقر ﴿نزل﴾ على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله. ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ﴾ وهي المخففة والمعنى أنه إذا سمعتم. ﴿يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات جيء بهما لتقيد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئاً معانداً غير مرجو، ويؤيده الغاية. وهذا تذكُّر لما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية. والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستَهْزَأُ بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الاعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتُم بذلك، أو لأن الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأبحار كانوا منافقين، ويدل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم، وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل وإفراد مثلهم، لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني كقوله تعالى: ﴿مثل ما أنكم تنطقون﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَيْتَكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم، وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين أو ذم مرفوع أو منصوب أو مبتدأ خبره. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم فاسهموا لنا فيما غنمتم. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم، والاستحواذ الاستيلاء وكان القياس أن يقال استحاذ يستحاذ يستحاذة فجاءت على الأصل. ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم فأشركونا فيما أصبتم، وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حينئذ أو في الدنيا والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم. والحنفية على حصول البيئونة بنفس الارتداد وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى﴾ متناقلين كالمكره على الفعل وقرئ كسالى بالفتح وهما جمعا كسلان. ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ ليخالوهم مؤمنين المراءة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فإن المرائي يري من يرائيه عمله وهو

بريه استحسانه. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه، وهو أقل أحواله أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذكر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)﴾

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ حال من واو ﴿يرأون﴾ كقوله: ﴿ولا يذكرون﴾ أي يراؤونهم غير ذاكرين مذبذبين أو واو يذكرون أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر من الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرئ بكسر الذال بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو يتذبذبون قلوبهم: صلصل بمعنى تصلصل. وقرئ بالذال غير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دية وتارة في دية وهي الطريقة. ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحد الفريقين بالكلية. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والصواب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا

مُبِينًا (144)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تشبهوا بهم، ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة بينة فإن موالاتهم دليل على النفاق أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أحببت الكفرة إذ ضموها إلى الكفر استهزاء بالإسلام وخداعاً للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: «من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان» ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ، وإنما سميت طبقاتها السبع دركات لأنها متدركة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرأ الكوفيون بسكون الراء وهي لغة كالسطر والسطر والتحريك أوجه لأنه يجمع على إدراك. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ

الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاحِكًا عَلِيمًا

(147)﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا عَلِيمًا (148) إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ

تَحْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ

وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نَحْنُ نَبِيُّنَ وَبَعْضُ نَصَرَةٍ بَعْضُ يَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَٰئِكَ هُمُ

الْكَاذِبُونَ حَقًّا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ

سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا (152) يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ

سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ

أَلَيْسَتْ فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153) ﴿

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجهه سبحانه وتعالى. ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن عدادهم في الدارين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيسأهمونهم فيه. ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أيتشفى به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضرر، وإنما يعاقب المصر بكفره لأن إصراره عليه كسوء مزاج يؤدي إلى مرض فإذا أزاله بالإيمان والشكر - ونفى نفسه عنه - تخلص من تبعته، وإنما قدم الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً يقبل اليسير ويعطي الجزيل. ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم. ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جهر من ظلم بالدعاء على الظالم والتظلم منه. وروي أن رجلاً ضاف قومًا فلم يطعموه فاشتكاهم فوثب عليه. فتزلت وقرئ من ظلم على البناء للفاعل فيكون الاستثناء منقطعاً أي ولكن الظالم يفعل ما لا يحبه الله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلام المظلوم. ﴿عَلِيمًا﴾ بالظالم. ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ طاعة وبراً. ﴿أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ أو تفعلوه سراً. ﴿أَوْ تَغْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ لكم المؤاخذه عليه، وهو المقصود وذكر إبداء الخير وإخفائه تشبيب له، ولذلك رتب عليه قوله. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعدما رخص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله. ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، لا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا. ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفراً حقاً أي يقيناً محققاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أضدادهم ومقابلوهم، وإنما دخل بين على أحد وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي. ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ﴾ الموعودة لهم وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر. وقرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب بالباء على تلوين الخطاب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا﴾ لما فرط منهم. ﴿رَحِيمًا﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه السلام، وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة، أو كتاباً نعيته حين ينزل، أو كتاباً إلينا بأعياننا بأنك رسول الله. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن استكبرت ما سأله منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه، وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهدْيهم. والمعنى إن عرفهم راسخ في ذلك وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم. ﴿فَقَالُوا أَرَأْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً أي أرأناه نره جهرة، أو مجاهرين معانين له. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ نار جاءت من قبل السماء فأهلكتهم. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم، ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفتها أيضاً أوائلهم،

والبينات، المعجزات، ولا يجوز حملها على التوراة إذ لم تأتهم بعد. ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ تسلطاً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

(154) ﴿

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليقبلوه. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ على لسان موسى والطور مظل عليهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يراد على لسان موسى حين ظلل الجبل عليهم، فإنه شرع السبت ولكن كان الاعتداء فيه والمسخ به في زمن داود عليه الصلاة والسلام، وقرأ ورش عن نافع ﴿لَا تَعْدُوا﴾ على أن أصله لا تعدوا فأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال والنص عنه بالإسكان. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا.

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَيَّانَتِ اللَّهُ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (155) ﴿

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي فخالفوا ونقضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما مزيدة للتأكيد والياء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بحرمانا عليهم طيبات فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه إلى قوله فظلم لا بما دل عليه قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ مثل لا يؤمنون لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون من صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جاره. ﴿وَكُفْرِهِمْ بَيَّانَتِ اللَّهُ﴾ بالقرآن أو بما جاء في كتابهم. ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنة مما تدعوننا إليه. ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجعلها محجوبة عن العلم، أو خذلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبد الله بن سلام، أو إيماناً قليلاً إذ لا عبرة به لنقصانه.

﴿وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (156) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (157) ﴿

﴿وَكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على بكفرهم لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ﴾ ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله ويكون تكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرار كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ يعني نسبتها إلى الزنا. ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون وأن يكون استئنافاً من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعاً للذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ روي (أن رهطاً من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقام رجل منهم فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب. وقيل (كان رجلاً ينافقه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وقتل) وقيل: (دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه فلم يجده، وألقى الله عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى فأخذ وصلب) وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة، وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جرائتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدتهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات الباهرة، وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسابهم، و﴿شبه﴾ مسند إلى



الجار والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول أو في الأمر على قول من قال: لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثم قتيلاً. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعني إلى السماء: أنه رفع إلى السماء. وقال قوم: صلب الناسوت وصعد اللاهوت. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ لفي تردد، والشك كما يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكده بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعُ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره فيتصل الاستثناء. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قتلاً يقيناً كما زعموه بقولهم ﴿إنا قتلنا المسيح﴾، أو متيقنين. وقيل معناه ما علموه يقيناً كقول الشاعر:

كَذَاكَ تُخْبِرُ عَنْهَا الْعَالِمَاتُ بِهَا      وَقَدْ قَتَلْتُ بِعِلْمِي ذَلِكُمْ يَقِينًا

من قولهم قتل الشيء علماً ونحرته علماً إذا أردت أن تبالغ في علمك فيه.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (158)

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ردٌّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (159)

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقوله ﴿ليؤمنن به﴾ جملة قسمية وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني، والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن ترهق روحه ولا ينفعه إيمانه ويؤيد ذلك أنه قرئ. «إلا ليؤمنن به قبل موتهم» بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاملة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعهم إيمانهم. وقبل الضمير ان لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام، والمعنى: أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعاً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الصبيان بالحيات. وبلث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفونونه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالكذب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

﴿فَيُظْلَمُونَ ذَلِكَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (160)

﴿فَيُظْلَمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي فبأي ظلم منهم. ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره في قوله وعلى الذين هادوا حرماً. ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً أو صدأ كثيراً.

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (161)

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، وفيه دليل على دلالة النهي

على التحريم. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دون من تاب وأمن.

﴿لَنَكُنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (162)

﴿لَنَكُنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم أو من المهاجرين والأنصار. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نصب على المدح إن جعل يؤمنون الخبر لأولئك، أو عطف على ما أنزل إليك والمراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء. وقرئ بالرفع عطفاً على ﴿الراسخون﴾ أو على الضمير في ﴿يؤمنون﴾ أو على أنه مبتدأ والخبر ﴿أولئك سنؤتيهم﴾. ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ رفعه لأحد الأوجه المذكورة. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدق من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية. ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح وقرأ حمزة «سؤتيهم» بالياء.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (163)

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ خصهم بالذكر مع اشتغال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقيين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم. ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وقرأ حمزة «زُبُورًا» بالضم وهو جمع زبر. بمعنى مزبور.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (164)

﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر دل عليه أوحينا إليك كأرسلنا أو فسره: ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وهو منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم، وقد فضل الله محمداً ﷺ بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (165)

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال ويكون رسلاً موطئاً لما بعده كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا لولا أرسلت إلينا رسلاً فينبهنا ويعلمنا ما لم نكن نعلم، وفيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس ضرورة لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح والأكثر عن إدراك كلياتها، واللام متعلقة بأرسلنا أو بقوله ﴿مبشرين ومنذرين﴾، و ﴿حجة﴾ اسم كان وخبره ﴿للناس﴾ أو ﴿على الله﴾ والآخر حال، ولا يجوز تعلقه بحجة لأنه مصدر وبعد ظرف لها أو صفة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب فيما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من أمر النبوة وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز.

﴿لَنَكُنَّ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (166)

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن مفهوم ما قبله فكأنه لما تعتوا عليه بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال: إنهم لا يشهدون ولكن الله يشهد، أو أنهم أنكروه ولكن الله يشته ويقرره. ﴿بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوتك. روي أنه لما نزل إنا أوحينا إليك قالوا ما نشهد لك فنزلت. ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزله متلبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ، أو بحال من يستعد للنبوة ويستأهل نزول الكتاب عليه، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم، فالجبار والمجورور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث حال من المفعول، والجملة كالتفسير لما قبلها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك. وفيه تنبيه على أنهم يودون أن يعلموا صحة دعوى النبوة على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك سوى الفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (167)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (168)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناس بصددهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم أو بأعم من ذلك. والآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم. ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (169)

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لجرى حكمه السابق ووعد المحتوم على أن مات على كفره فهو خالد في النار وخالدين حال مقدرة. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (170) يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا فَسَيَكْثُرُ أَفْئِدَتُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ تُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (175)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لما قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم

بها ووعيد من أنكرها، خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد. ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم أو اتقوا أمراً خيراً لكم مما أنتم عليه. وقيل تقديره يكن الإيمان خيراً لكم ومنعه البصريون لأن كان لا يحذف مع اسمه إلا فيما لا بد منه ولأنه يؤدي إلى الشرط وجوابه. ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني وإن تكفروا فهو غني عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا يتنفع بإيمانكم، ونبه على غناه بقوله: ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو يعلم ما اشتملت عليه وما ركبنا منه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيماً﴾ فيما دبر لهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الخطاب للفريقين، غلت اليهود في حط عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل الخطاب للنصارى خاصة فإنه أوفق لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وخصلها فيها. ﴿وَزَوْجُ مِنْهُ﴾ وذو روح صدر منه لا بتوسط ما يجري مجرى الأصل والمادة له، وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾ أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأب الذات، وبالابن العلم، وبروح القدس الحياة. ﴿اتَّهَوُا﴾ عن التثليث. ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ نصبه كما سبق. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما. ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي أسبغه تسبيحاً من أن يكون له ولد فإنه يكون لمن يعادله مثل ويتطرق إليه فناء ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً لا يماثله شيء من ذلك فيتخذ له ولداً. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عن من يخلقه أو يعينه.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف، من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك كيلا يرى أثره عليك. ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره. روي (أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال رسول الله ﷺ: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى عليه السلام، قال عليه السلام: وأي شيء أقول. قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله، قال إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله، قالوا: بلى) فنزلت ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله، واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقال مساقه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه، وجوابه أن الآية للرد على عبدة المسيح والملائكة فلا يتجه ذلك وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرووس، وإن أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هو حول العرش، أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومن يرتفع عنها، والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل من حيث الاستحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق. ﴿فَسَيَخْشَرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تفصيل للمجازاة العامة المدلول

عليها من فحوى الكلام، وكأنه قال فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، أو لمجازاتهم فإن إثابة مقابلتهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغم والحسرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ عنى بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن.

﴿قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ في ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمله ورحمة منه لا قضاء لحق واجب ﴿فضل﴾ إحسان زائد عليه ﴿ويهديهم إليه﴾ إلى الله سبحانه وتعالى. وقيل إلى الموعود. ﴿صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة حذف لدلالة الجواب عليه. روي (أن جابر بن عبد الله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلالة فكيف أصنع في مالي) فنزلت وهي آخر ما نزل من الأحكام.

﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿إِنْ أَمْرُو هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ارتفع ﴿امرؤ﴾ بفعل يفسره الظاهر، وليس له ولد صفة له أو حال من المستكن في هلك، والواو في ﴿وله﴾ يحتمل الحال والعطف، والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب لأنه جعل أخوها عصبة وابن الأم لا يكون عصبة، والولد على ظاهره فإن الأخت وإن ورثت مع البنت عند عامة العلماء - غير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - لكنها لا ترث النصف. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي والمرء يرث أخته إن كان الأمر بالعكس. ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ذكرنا أن أنثى إن أريد بيرثها يرث جميع مالها، وإلا فالمراد به الذكر إذ البنت لا تحجب الأخ، والآية كما لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على عدم سقوطهم به وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب وكذا مفهوم قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إن فسرت بالميت. ﴿فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه بأثنتين التنبيه على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما. ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي يبين الله لكم ضلالكم الذي من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافة، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا. وقيل لثلاث تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وورث ميراثاً وأعطي من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم».

## سورة المائدة

[مدنية، وآياتها عشرون ومائة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا بَيْنَ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا سَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامِ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَيْمَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِحُوا بِالْأَرْكَانِ ذَلِكَ فُسُقُ الْيَوْمِ بَيَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد وكذلك الإيفاء والعقد العهد الموثق

قال الحطبي:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِحَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا

وأصله الجمع بين الشبثين بحيث يعسر الانفصال، ولعل المراد بالعقود ما يعم العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكليف، وما يعقدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب. ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود، والبهيمة كل حي لا يميز. وقيل كل ذات أربع، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كقولك: ثوب خز، ومعناه البهيمة من الأنعام. وهي الأزواج الثمانية وألحق بها الظباء وبقر الوحش. وقيل هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب، وإضافتها إلى الأنعام لملازمة

الشبه. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ أو إلا ما يتلى عليكم تحريره. ﴿غَيْرَ مُحْلَى الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وقيل من واو ﴿أَوْفُوا﴾ وقيل استثناء وفيه تعسف و. ﴿الصَّيْدِ﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال مما استكن في ﴿محلي﴾، وال ﴿حرم﴾ جمع حرام وهو المحرم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل أو تحرير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر أي جعل شعاراً سمي به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل دين الله لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْظُمُ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي دينه. وقيل فرائضه التي حدها لعباده. ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء. ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية كجدي في جميع جدية السرح. ﴿وَلَا الْقُلَائِدَ﴾ أي ذوات القلائد من الهدى، وعطفها على الهدى للاختصاص فإنها أشرف الهدى، أو القلائد أنفسها والنهي عن إحلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. والقلائد جمع قلادة وهي ما قلده الهدى من نعل أو لحاء شجر أو غيرهما ليعلم به أنه هدي فلا يتعرض له. ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ قاصدين لزيارته. ﴿يَتَنَفَّسُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ أن يشبههم ويرضى عنهم، والجملة في موضع الحال من المستكن في آمين وليست صفة له، لأنه عامل والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يعمل، وفائدته استنكار تعرض من هذا شأنه والتنبيه على المانع له. وقيل معناه يتنفسون من الله رزقاً بالتجارة ورضواناً بزعهم إذ روي أن الآية نزلت عام القضية في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم بن شريح ابن ضبيعة، وكان قد استاق سرح المدينة وعلى هذا فالآية منسوخة. وقرئ بتغون على خطاب المؤمنين ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ إذن في الاصطیاد بعد زوال الإحرام ولا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الإباحة مطلقاً. وقرئ بكسر الفاء على إلقاء حركة الوصل عليها وهو ضعيف جداً. وقرئ ﴿أَحَلَلْتُمْ﴾ يقال حل المحرم وأحل ﴿وَلَا يَجْرِمُكُمْ﴾ لا يحملنكم أو لا يكسبنكم. ﴿شَتَانِ قَوْمٌ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل. وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وأبين عياش عن عاصم بسكون النون وهو أيضاً مصدر كليان أو نعت بمعنى: بغيض قوم وعلان في النعت أكثر كعطشان وسكران. ﴿أَنْ صَدُوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمكم. ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ بالانتقام، وهو ثاني مفعولي يجرمكم فإنه يعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. ومن قرأ ﴿يجرمكم﴾ بضم الياء جعله منقولاً من المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ على العفو والإغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ للتشفي والانتقام. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فانتقامه أشد.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ بيان ما يتلى عليكم، والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية. ﴿وَالْدَّمُ﴾ أي الدم المسفوح لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وكان أهل الجاهلية يصبونه في الأمعاء ويشوونها. ﴿وَالْخِنْزِيرُ وَمَا أَهْلَ لِيغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي رفع الصوت لغير الله به كقولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه. ﴿وَالْمُنْتَهَى﴾ أي التي ماتت بالخنق. ﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ المضروبة بنحو خشب، أو حجر حتى تموت من وقذته إذا ضربته. ﴿وَالْمُتَرَدِّةُ﴾ التي تردت من علو أو في بئر فماتت. ﴿وَالنَّطِيطَةُ﴾ التي نططتها أخرى فماتت بالنطح والتاء فيها للنقل. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّيْعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم تحل. ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع. والذكاة في الشرع لقطع الحلقوم والمريء بمحدد. ﴿وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ النصب واحد الأنصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة. وقيل هي

الأصنام وعلى بمعنى اللام أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمى على الأصنام. وقيل هو جمع والواحد نصاب. ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح. مكتوب على أحدها، أمرني ربي. وعلى الآخر: نهاني ربي. والثالث غفل، فإن خرج الأمر مضوا على ذلك وإن خرج الناهي تجنبوا عنه وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً، فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصاء المعلومة وواحد الأزلام زلم كجمل وزلم كصرد. ﴿ذَلِكُمْ فُسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام، وكونه فسقاً لأنه دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، واقتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بربي الله، وجهالة وشرك إن أريد به الصنم أو الميسر المحرم أو إلى تناول ما حرم عليهم. ﴿الْيَوْمَ﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية. وقيل أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفة حجة الوداع. ﴿يَسْأَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها أو من أن يغلبوكم عليه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم. ﴿وَإِخْشَاؤُهُمْ﴾ وأخلصوا الخشية لي. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق أو بإكمال الدين أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي والمعنى: فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة كقوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ به بأكمله. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ لما تضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة، وقد سبق الكلام في ﴿مَاذَا﴾ وإنما قال لهم ولم يقل لنا على الحكاية، لأن ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بلفظ الغيبة وكلا الوجهين سائغ في أمثاله، والمسؤول ما أحل لهم من المطاعم كأنهم لما تلي عليهم ما حرم عليهم سألوا عما أحل لهم. ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ما لم تستخبه الطباع السليمة ولم تنفر عنه ومن مفهومه حرم مستحبات العرب، أو ما لم يدل نص ولا قياس على حرمة. ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ إن جعلت ﴿مَا﴾ موصولة على تقدير وصيد ما علمتم، وجملة شرطية إن جعلت شرطاً وجوابها ﴿فَكُلُوا﴾ و ﴿الْجَوَارِحِ﴾ كواسب الصيد على أهلها من سباع ذوات الأربع والطير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلمين إياه الصيد، والمكلب مؤدب الجوارح ومضربها بالصيد. مشتق من الكلب، لأن التأديب يكون أكثر فيه وأثر، أو لأن كل سبع يسمى كلباً لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» وانتصابه على الحال من علمتم وفائدتها المبالغة في التعليم. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف. ﴿وَمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم تأكل منه لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم «إن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه». وإليه ذهب أكثر الفقهاء وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر، وقال آخرون لا يشترط مطلقاً. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير لما علمتم والمعنى: سموا عليه عند إرساله أو لما أمسكن بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محرماته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيؤاخذكم بما جل ودق.

﴿الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين



أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى علي رضي الله تعالى عنه نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر. ولا يلحق بهم المجوس في ذلك وإن ألحقوا بهم في التقرير على الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم ولا أكل ذبائهم» ﴿وَطَعَانُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوهم منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر أو العفاف، وتخصيصهن بعث علي ما هو الأولى. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حريات وقال ابن عباس لا تحل الحريات. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن وتقيد الحل بإتائها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى. وقيل المراد بإتائها التزامها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفاء بالنكاح. ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّحِلِينَ أَخْدَانٍ﴾ مسرين به، والخدن الصديق يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام وبالكفر به إنكاره والامتناع عنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَى الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ عبر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له، وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه فقال عمداً فعلته» فقيل مطلق أريد به التقيد، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقيل الأمر فيه للندب. وقيل كان ذلك أول الأمر ثم نسخ وهو ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها». ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أمروا الماء عليها ولا حاجة إلى ذلك خلافاً لمالك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في الغسل ولذلك قيل: ﴿إلى﴾ بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ أو متعلقة بمحذوف تقديره: وأيديكم مضافة إلى المرافق، ولو كان كذلك لم يبق لمعنى التحديد ولا لذكره مزيد فائدة، لأن مطلق اليد يشتمل عليها. وقيل: إلى تفيد الغاية مطلقاً وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية، وكانت الأيدي متناولة لها فحكم بدخولها احتياطاً. وقيل إلى من حيث أنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غاية لقوله تعالى: ﴿فمنظرة إلى ميسرة﴾ وقوله تعالى: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ لكن لما لم تتميز الغاية ها هنا عن ذي الغاية وجب إدخالها احتياطاً.

﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء مزيدة. وقيل للتبعض، فإنه الفارق بين قولك مسحت المنديل وبالمنديل، ووجهه أن يقال إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق فكانه قيل: وألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب. فأوجب الشافعي رضي الله تعالى عنه: أقل ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين. وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: مسح ربع الرأس، لأنه عليه الصلاة والسلام مسح على ناصيته وهو قريب من الربع. ومالك رضي الله تعالى عنه: مسح كله أخذاً بالاحتياط. ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب عطفاً على وجوهكم ويؤيده: السنة الشائعة، وعمل الصحابة، وقول أكثر الأئمة، والتحديد، إذ المسح لم يحدد. وجره الباقون على الجوار ونظيره كثير في القرآن والشعر كقوله تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمِ الْيَمِّ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالجر في قراءة حمزة والكسائي، وقولهم جحر ضب خرب. وللنحاة باب في ذلك، وفائدته التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليها ويغسل غسلاً يقرب من المسح، وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب. وقرء بالرفع على ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ مغسولة. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فاغتسلوا. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَأَسْتَمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ سبق تفسيره، ولعل تكريره ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم. ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ لينظفكم، أو ليطهركم عن الذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء: فمفعول ﴿يريد﴾ في الموضعين محذوف واللام للعلّة. وقيل مزيدة والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج حتى لا يرخص لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم وهو ضعيف لأن لا تقدر بعد المزيدة. ﴿وَلِيَسِمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ليم بشعره ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم نعمته عليكم في الدين، أوليتم برخصه إنعامه عليكم بجزائه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته. والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثني: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محذوف وغير محذوف، وأن آلتها مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المييح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، أو ميثاق ليلة العقبة أو بيعة الرضوان. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إنساء نعمته ونقض ميثاقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرَ مِنْكُمْ شَتَانٌ قَوْمٌ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا﴾ عداه بعلى لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشيماً مما في قلوبكم. ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به، وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأولى نزلت في المشركين وهذه في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء نائرة الغيظ. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إنما حذف ثاني مفعولي وعد استغناء بقوله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾

فإنه استئناف بيينه. وقيل الجملة في موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول وكأنه قال: وعدهم هذا القول.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (10)﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا من عادته تعالى، أن يتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاء بحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطيب لقلوبهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ

أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ روي (أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه يعسفان، قاموا إلى الظهر معاً فلما صلوا ندموا ألا كانوا أكبروا عليهم وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فرد الله عليهم كيدهم بأن أنزل عليهم صلاة الخوف). والآية إشارة إلى ذلك وقيل إشارة إلى ما روي (أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية مسلمين قتلتهما عمرو ابن أمية الضمري يحسبهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك فأجلسوه وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحي عظيمة يطحها عليه، فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج). وقيل (نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسل سيفه وقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: من يمنعك مني فقال لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) فنزلت ﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ منعها أن تمد إليكم ورد مضرتها عنكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ

أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

السَّبِيلِ (12)﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ شاهداً من كل سبط ينتقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال: إِنِّي كَتَبْتُهَا لَكُمْ دَاراً وَقَرَاراً فَأَخْرَجُوا إِلَيْهَا وَجَاهَدُوا مِنْ فِيهَا فَإِنِّي نَاصِرُكُمْ، وأمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمروا به، فأخذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم، فأروا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ونكث الميثاق إلا كaleb بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون من سبط افرايم بن يوسف. ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب ومنه التعزير. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإنفاق في سبيل الخير وقرضاً يحتمل المصدر والمفعول. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ جواب للقسمة المدلول عليه باللام في لئن ساد مسد جواب الشرط. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم . ﴿مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك ، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة .

﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (13)

﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ طردناهم من رحمتنا ، أو مسخناهم أو ضربنا عليهم الجزية . ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلَسِيَةً ﴾ لا تفعل عن الآيات والنذر . وقرأ حمزة والكسائي « قسية » وهي إما مبالغة « قاسية » أو بمعنى رديئة من قولهم درهم قسي إذا كان مغشوشاً ، وهو أيضاً من القسوة فإن المغشوش فيه ييس وصلابة وقرىء « قسية » بإتباع القاف للسین . ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم ، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه ، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول « لعناهم » لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه . ﴿ وَنَسُوا حَظًّا ﴾ وتركوا نصيباً وافياً . ﴿ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ من التوراة ، أو من اتباع محمد ﷺ ، والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه ، وقيل معناه أنهم حرفوها فزلت بشؤمه أشياء منها عن حفظهم ، لما روي أن ابن مسعود قال : قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية . ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ خيانة منهم ، أو فرقة خائنة أو خائن والتاء للمبالغة . والمعنى أن الخيانة والغدر من عاداتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم ، وقيل استثناء من قوله : ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية . وقيل : مطلق نسخ بآية السيف . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره .

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ يَا إِلَهَ الْيَهُودِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (14)

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم ، وقيل تقديره ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا ، وإنما قال قالوا إنا نصارى ليدل على أنهم سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله سبحانه وتعالى . ﴿ فَتَشَاوَا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا ﴾ فالزنا من غري بالشئ إذا لصق به . ﴿ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بين فرق النصارى ، وهم نسطورية ويعقوبية وملكانية ، أو بينهم وبين اليهود . ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ بالجزاء والعقاب .

﴿ يَأْتَاهُمْ هَلْ أَلْكَتَبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (15)

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ يعني اليهود والنصارى ، ووجد الكتاب لأنه للجنس . ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ كنعث محمد ﷺ وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد ﷺ في الإنجيل . ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ مما تخفونه لا يخبر به إذا لم يضطر إليه أمر ديني ، أو عن كثير منكم فلا يؤخذاه بجرمه . ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز . وقيل يريد بالنور محمداً ﷺ .

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (16)

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ وحد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم. ﴿مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله. ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته أو توفيقه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ومؤد إليه لا محالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (17)

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا الله واحد لهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً. ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ عيسى. ﴿ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ احتج بذلك على فساد قولهم وتقديره: أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إزاحة لما عرض لهم من الشبهة في أمره، والمعنى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض، ومن أصل كخلق ما بينهما فينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه إما من ذكر وحده كما خلق حواء أو من أنثى وحدها كعيسى، أو منهما كسائر الناس.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ فَأَجَبَهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْرِقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (18)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ﴾ أشياع ابنه عزيزاً والمسيح كما قيل لأشياع ابن الزبير الخبيون أو المقربون عنده قرب الأولاد من والدهم وقد سبق لنحو ذلك مزيد بيان في سورة آل عمران. ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي فإن صح ما زعمت فلم يعذبكم بذنوبكم فإن من كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسوخ واعتزتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ ممن خلقه الله تعالى. ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وهم من آمن به وبرسله. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهم من كفر، والمعنى أنه يعاملكم معاملة سائر الناس لا مزية لكم عنده. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (19)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي الدين، وحذف لظهوره، أو ما كنتم وحذف لتقدم ذكره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى يبذل لكم البيان والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم. ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، أو بين حال من الضمير فيه. ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بـ ﴿مَا جَاءَنَا﴾ فقد جاءكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فيقدر على الإرسال ترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، إذ كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألف نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ستمائة أو خمسمائة. وتسع وستون سنة وأربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أخرج ما يكونون إليه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (20)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي وجعل منكم أو فيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثراً الأنبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهما بقتل عيسى، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله وجعلهم مالكيين لأنفسهم وأمورهم سماهم ملوكاً. ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ونحوها مما آتاهم الله، وقيل: المراد بالعالمين عالمي زمانهم.

﴿يَنْقُورِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (21)

﴿يَا قَوْمِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقيل الشام. ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم أو كتب في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتم وأطعتم لقوله لهم بعدما عصوا ﴿فإنها محرمة عليهم﴾. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابة قيل لما سمعوا حالهم من النقاء بكوا وقالوا: ليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله سبحانه وتعالى. ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثواب الدارين، ويجوز في فتنقلبوا الجزم على العطف والنصب على الجواب.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾

(22)

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين لا تتأني مقاومتهم، والجبار فعال من جبره على الأمر بمعنى أجبره وهو الذي يجبر الناس على ما يريده. ﴿وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ إذ لا طاقة لنا بهم.

﴿قَالَ جَلَّانُ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى

اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مَوَدِّعِينَ﴾ (23)

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع. ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل كانا رجلان من الجبابة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فعلى هذا الواو لبني إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له أنه قرء ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ بالضم أي المخوفين، وعلى المعنى الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يخوفون من الله عز وجل بالتذكير أو يخوفهم الوعيد. ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والتثبيت وهو صفة ثانية لرجلان أو اعتراض. ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ باب قريتهم أي باغتهم وضاعطوهم في المضيق وامنعوهم من الأصهار. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ

غَالِبُونَ ﴿ لتعسر الكر عليهم في المضايق من عظم أجسامهم، ولأنهم أجسام لا قلوب فيها، ويجوز أن يكون علمهما بذلك من إخبار موسى عليه الصلاة والسلام وقوله: ﴿كتب الله لكم﴾ أو مما علما من عادة الله سبحانه وتعالى في نصرته رسله، وما عهدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مؤمنين به ومصديقين بوعده.

﴿قَالُوا يَمْؤُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقُلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ (24)﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا﴾ نفوا دخولهم على التأكيد والتأييد. ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بدل من أبدا بدل البعض. ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقُلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25)﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ قاله شكوى بثه وحزنه إلى الله سبحانه وتعالى لما خالفه قومه وأيس منهم، ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يثق عليهما لما كابد من تلون قومه، ويجوز أن يراد بأخي من يواخيني في الدين فيدخلان فيه، ويحتمل نصبه عطفاً على نفسي، أو على اسم إن ورفع عطفاً على الضمير في ﴿لَا أَمْلِكُ﴾، أو على محل إن واسمها، وجره عند الكوفيين عطفاً على الضمير في نفسي. ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتباعد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)﴾ ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)﴾ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29)﴾ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)﴾

﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عامل الظرف إما محرمه فيكون التحريم موقفاً غير مؤبد فلا يخالف ظاهر قوله ﴿التي كتب الله لكم﴾، ويؤيد ذلك ما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بعده بمن بقي من بني اسرائيل ففتح أريحاء، وأقام بها ما شاء الله ثم قبض وقيل: إنه قبض في التيه ولما احتضر أخبرهم بأن يوشع بعده نبي وأن الله سبحانه وتعالى أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع وقتل الجبابرة وصار الشام كله لبني اسرائيل، وإما يتيهون أي يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً فيكون التحريم مطلقاً، وقد قيل لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال إننا لن ندخلها بل هلكوا في التيه، وإنما قاتل الجبابرة أولادهم. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرون من الصباح إلى المساء، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يظلمهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذي يحمولونه، والأكثر على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه إلا أنه كان ذلك روحاً لهما وزيادة في درجتهم، وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه مات هارون، وموسى بعده بسنة. ثم دخل يوشع أريحاء بعد ثلاثة أشهر ومات النقباء فيه بغتة غير كالب ويوشع. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خاطب به موسى عليه الصلاة

والسلام لما ندم على الدعاء عليهم وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

﴿وَإِتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، فسخط منه قابيل لأن توأمة كانت أجمل، فقال لهما آدم: قريا قرباناً فمن أيكما قبيل تزوجها، فقبيل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فزاد قابيل سخطاً وفعل ما فعل. وقيل لم يرد بهما ابني آدم لصلبه وأنهما رجلان من بني إسرائيل ولذلك قال: ﴿كُتِبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة مصدر محذوف أي تلاوة ملتبسة بالحق، أو حال من الضمير في اتل، أو من نبأ أي ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرف لنبا، أو حال منه، أو بدل على حذف مضاف أي واتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت، والقربان اسم ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحلوان اسم ما يحلى به أي يعطى، وهو في الأصل مصدر ولذلك لم يش وقيل تقديره إذ قرب كل واحد منهما قرباناً. قيل كان قابيل صاحب زرع وقرب أردأ قمح عنده، وهابيل صاحب ضرع وقرب جملاً سميناً. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ لأنه سخط حكم الله سبحانه وتعالى ولم يخلص النية في قربانه وقصد إلى أحسن ما عنده. ﴿قَالَ لَأُقْتُلَنَّكَ﴾ توعد بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه ولذلك. ﴿قَالَ إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ في جوابه أي إنما أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من قبلي فلم تقتلني، وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره ويجهده في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقي.

﴿لَئِنْ بَسَطْتُ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه ولكن تخرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالى لأن الدفع لم يبح بعد، أو تحريماً لما هو الأفضل قال عليه الصلاة والسلام: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل». وإنما قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ في جواب ﴿لَئِنْ بَسَطْتُ﴾ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً، والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه ولذلك أكد النفي بالباء.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ تعليل ثان للامتناع عن المعارضة والمقاومة، والمعنى إنما أستسلم لك إرادة أن تحمل إثمي لو بسطت إليك يدي، وإثمك ببسطك يدك إلي ونحوه المستبان ما قالاً فعلى البادى ما لم يعتد المظلوم. وقيل معنى بإثمي بإثم قتلي، وإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، وكلاهما في موضع الحال أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما، ولعله لم يرد معصية أخيه وشقاوته بل قصده بهذا الكلام إلى أن ذلك إن كان لا محالة واقفاً فأريد أن يكون لك لا لي، فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادة عقاب العاصي جائزة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فسهلته له ووسعته من طاع له المرتع إذا اتسع. وقرئ «فظاوعت» على أنه فاعل بمعنى فعل، أو على أن ﴿قتل أخيه﴾ كأنه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته، وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله. ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قيل قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عقبة حراء. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ بُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾ روي أنه لما قتله تحير في أمره ولم يدر ما يصنع به إذ كان أول ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فافتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة والضمير في ليرى، الله سبحانه وتعالى، أو للغراب، وكيف حال من الضمير في ﴿بوارى﴾ والجملة ثاني مفعولي يرى، والمراد بسوء أخيه جسده الميت فإنه مما يستقبح أن يرى. ﴿قَالَ يَا



وَنَلَّكَ كَلِمَةً جَزَعٌ وَتَحَسَّرَ وَالْأَلْفَ فِيهَا بَدَلَ مِنْ بَاءِ الْمُتَكَلِّمِ. وَالْمَعْنَى يَا وَيْلَتِي احْضُرِي فَهَذَا أَوَانُكَ، وَالْوَيْلُ وَالْوَيْلَةُ الْهَلَكَةُ. ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَوَارِي سَوَاءَ أَخِي﴾ لَا أَهْتَدِي إِلَى مِثْلِ مَا أَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَوَارِي﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿أَكُونَ﴾ وَلَيْسَ جَوَابَ الاسْتِفْهَامِ إِذْ لَيْسَ الْمَعْنَى هَهُنَا لَوْ عَجَزْتُ لَوَارِيتُ، وَقَرِءَ بِالسُّكُونِ عَلَى فَاثَا أَوَارِي أَوْ عَلَى تَسْكِينِ الْمَنْصُوبِ تَخْفِيفًا. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ عَلَى قَتْلِهِ لَمَّا كَابَدَ فِيهِ مِنَ التَّحِيرِ فِي أَمْرِهِ وَحَمَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ عَلَى مَا قِيلَ، وَتَلَمَّذَهُ لِلْغُرَابِ وَاسْوَدَّ لَوْنُهُ وَتَبَرَّى أَبَوَيْهِ مِنْهُ، إِذْ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا قَتَلَهُ اسْوَدَّ جَسَدُهُ فَسَأَلَهُ آدَمُ عَنْ أَخِيهِ فَقَالَ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا فَقَالَ بَلْ قَتَلْتَهُ وَلِذَلِكَ اسْوَدَّ جَسَدُكَ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ وَمَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَضْحَكُ وَعَدِمَ الظُّفْرَ بِمَا فَعَلَهُ مِنْ أَجْلِهِ.

﴿مَنْ أَجَلُ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بِسَبَبِهِ قَضَيْنَا عَلَيْهِمْ، وَأَجَلَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ أَجَلَ شَرًّا إِذَا جَنَاهُ اسْتَعْمَلَ فِي تَعْلِيلِ الْجَنَابَاتِ كَقَوْلِهِمْ، مَنْ جَرَاكَ فَعَلْتَهُ، أَيْ مِنْ أَنْ جَرَرْتَهُ أَيْ جَنَيْتَهُ ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهِ فَاسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ تَعْلِيلٍ، وَمِنْ ابْتِدَائِيَّةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِكَتَبْنَا أَيْ ابْتِدَاءَ الْكُتُبِ وَنَشْؤُهُ مِنْ أَجَلِ ذَلِكَ. ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَيْ بِغَيْرِ قَتْلِ نَفْسٍ يَوْجِبُ الْاِقْتِصَاصَ. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أَوْ بِغَيْرِ فَسَادٍ فِيهَا كَالشَّرْكِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ هُنَاكَ حَرَمَةُ الدِّمَاءِ وَسُنُّ الْقَتْلِ، وَجَرَأُ النَّاسِ عَلَيْهِ، أَوْ مِنْ حَيْثُ أَنَّ قَتْلَ الْوَاحِدِ وَقَتْلَ الْجَمِيعِ سَوَاءٌ فِي اسْتِجْلَابِ غَضَبِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْعَذَابُ الْعَظِيمُ. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أَيْ وَمَنْ تَسَبَّبَ لِبَقَاءِ حَيَاتِهَا بِعَفْوٍ أَوْ مَنَعَ عَنِ الْقَتْلِ، أَوْ اسْتِنْقَازَ مِنْ بَعْضِ أَسْبَابِ الْهَلَكَةِ فَكَأَنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِالنَّاسِ جَمِيعًا، وَالْمَقْصُودُ مِنْ تَعْظِيمِ قَتْلِ النَّفْسِ وَإِحْيَائِهَا فِي الْقُلُوبِ تَرْهِيبًا عَنْ التَّعَرُّضِ لَهَا وَتَرْغِيبًا فِي الْمَحَامِدِ عَلَيْهَا. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَكُسُوفُونَ﴾ أَيْ بَعْدَ مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ هَذَا التَّشْدِيدَ الْعَظِيمَ مِنْ أَجْلِ أَمْثَالِ تِلْكَ الْجَنَابَةِ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الرِّسَالَ بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ تَأْكِيدًا لِلْأَمْرِ وَتَجْدِيدًا لِلْعَهْدِ كِي يَتَحَامَوْا عَنْهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَسْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَلَا يَبَالُونَ بِهِ، وَبِهَذَا اتَّصَلَتِ الْقِصَّةُ بِمَا قَبْلُهَا وَالْإِسْرَافُ التَّبَاعُدُ عَنْ حَدِّ الْاعتِدَالِ فِي الْأَمْرِ.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33)﴾

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيْ يُحَارِبُونَ أَوْلِيَاءَهُمَا وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ، جَعَلَ مُحَارِبَتَهُمْ مُحَارِبَتَهُمَا تَعْظِيمًا. وَأَصْلُ الْحَرْبِ السُّلْبُ وَالْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا قَطْعُ الطَّرِيقِ. وَقِيلَ الْمَكَابِرَةُ بِاللُّصُوصِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ فِي مِصْرَ. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أَيْ مُفْسِدِينَ، وَيَجُوزُ نَصْبُهُ عَلَى الْعِلَّةِ أَوْ الْمَصْدَرِ لِأَنَّهُ سَعِيهِمْ كَانَ فَسَادًا فَكَانَهُ قِيلَ: وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا. ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أَيْ قِصَاصًا مِنْ غَيْرِ صُلْبٍ إِنْ أَفْرَدُوا الْقَتْلَ. ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أَيْ يُصَلَّبُوا مَعَ الْقَتْلِ إِنْ قَتَلُوا وَأَخَذُوا الْمَالَ، وَلِلْفَقْهَاءِ خِلَافٌ فِي أَنَّهُ يُقَتَّلُ وَيُصَلَّبُ أَوْ يُصَلَّبُ حَيًّا وَيَتْرَكَ أَوْ يُطْعَنُ حَتَّى يَمُوتَ. ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ﴾ تُقَطَّعُ أَيْدِيهِمْ الْيَمْنَى وَأَرْجُلُهُمُ الْيَسْرَى إِنْ أَخَذُوا الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلُوا. ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يُنْفَوُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ بِحَيْثُ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْقَرَارِ فِي مَوْضِعٍ إِنْ اقْتَصَرُوا عَلَى الْإِخَافَةِ. وَفَسَّرَ أَبُو حَنِيفَةَ النِّفْيَ بِالْحَبْسِ، وَأَوْ فِي الْآيَةِ عَلَى هَذَا لِلتَّفْصِيلِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لِلتَّخْيِيرِ وَالْإِمَامِ مُخِيرٌ بَيْنَ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ فِي كُلِّ قَاطِعٍ طَرِيقٍ. ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ذُلٌّ وَفَضِيحَةٌ. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لِعَظَمِ ذُنُوبِهِمْ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُخْصِصٌ بِمَا هُوَ حَقُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَدُلُّ

عليه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ أما القتل قصاصاً فالى الأولياء يسقط بالتوبة وجوبه لا جوازه، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد وإن أسقطت العذاب، وأن الآية في قطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (35)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، من وسل إلى كذا إذا تقرب إليه وفي الحديث «الوسيلة منزلة في الجنة». ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (36)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من صنوف الأموال. ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ واللام متعلقة بمحذوف تستدعيه لو، إذ التقدير لو ثبت أن لهم ما في الأرض، وتوحيد الضمير في به والمذكور شيان إما لإجرائه مجرى اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَان بَيْنَ ذَلِكَ﴾. أو لأن الواو ومثله بمعنى مع. ﴿مَا تُقَبَّلُ مِنْهُمْ﴾ جواب، لو ولو بما في حيزه خبر إن والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وكذلك قوله:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (37)  
﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وقرئ «يخرجوا» من أخرج وإنما قال «وما هم بخارجين» بدل وما يخرجون للمبالغة.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (38)  
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ جملتان عند سبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمهما، وجملة عند المبرد والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنهما معنى الشرط إذ المعنى: والذي سرق والتي سرت، وقرئ بالنصب وهو المختار في أمثاله لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل. والسارقة: أخذ مال الغير في خفية، وإنما توجب القطع إذا كانت من حرز والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه لقوله عليه الصلاة والسلام «القطع في ربع دينار فصاعداً» وللعلماء خلاف في ذلك لأحاديث وردت فيه وقد استقصيت الكلام فيه في شرح المصابيح، والمراد بالأيدي الإيمان ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أيماهما، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ اكتفاء بثنية المضاف إليه، واليد اسم لتمام العضو ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المنكب، والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه. ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ منصوبان على المفعول له أو المصدر ودل على فعلهما فاقطعوا «والله عزيرٌ حكيمٌ».

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ (39)  
﴿فَمَنْ تَابَ﴾ من السراق. ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد سرقة. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما

القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين لأن فيه حق المسروق منه.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قَدِيرٌ (40) ﴿

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد. ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قدم التعذيب على المغفرة إيتاء على ترتيب ما سبق، أو لأن استحقاق التعذيب مقدم أو لأن المراد به القطع وهو في الدنيا.

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّطُوا لِلْكَذِبِ سَكَّطُوا لِقَوْمِ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِكَلِمَةٍ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (41) ﴿

﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ أي صنيع الذين يقعون في الكفر سريعاً أي في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة. ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أي من المنافقين والباء متعلقة بقالوا لا بآمننا والواو تحتل الحال والعطف. ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ عطف على ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾ ﴿ سَكَّطُوا لِلْكَذِبِ ﴾ خبر محذوف أي هم سماعون، والضمير للفريقين، أو للذين يسارعون ويجوز أن يكون مبتدأ ومن الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون واللام في للكذب، إما مزيدة للتأكيد أو لتضمين السماع معنى القبول أي؛ قابلون لما تفتريه الاحبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليكذبوا عليك فيه. ﴿ سَكَّطُوا لِقَوْمِ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ ﴾ أي لجمع آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجاؤا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء، والمعنى على الوجهين أي مصغون لهم قابلون كلامهم، أو سماعون منك لأجلهم والإنهاء إليهم، ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب لأن سماعون الثاني مكرر للتأكيد أي: سماعون ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنى: بحمله على غير المراد وإجرائه في غير موره، والجملة صفة أخرى لقوم أو صفة لسماعون أو حال من الضمير فيه أو استئناف لا موضع له، أو في موضع الرفع خبراً لمحذوف أي هم يحرفون وكذلك ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾ أي إن أُوتِيتُمْ هذا المحرف فاقبلوه واعملوا به. ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿ فَاحْذَرُوا ﴾ أي احذروا قبول ما أفتاكم به. روي (أن شريفاً من خير زنى بشريفة وكانا محصنين فكرها رجمهما، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بني قريظة ليسألا رسول الله ﷺ عنه وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فأمرهم بالرجم فأبوا عنه، فجعل ابن سوريا حكماً بينه وبينهم، وقال له: أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي قلن البحر لموسى، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن، قال: نعم. فوثبوا عليه فقال: خفت إن كذبت أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسول الله ﷺ بالزانين فرجما عند باب المسجد). ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ ضالته أو فضيحته. ﴿ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها. ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرِ قُلُوبُهُمْ ﴾ من الكفر وهو كما ترى نص على فساد قول المعتزلة. ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ هو أن بالجزية والخوف من المؤمنين. ﴿ وَلَهُمْ فِي

الْآخِرَةَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤٢﴾ وهو الخلود في النار، والضمير للذين هادوا إن استأنفت بقوله ومن الذين وإلا فللفريقين .

﴿سَمِعُواكَ أَكْثَرًا لِّلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (42)

﴿سَمِعُواكَ لِكُذِّبٍ﴾ كرره للتأكيد . ﴿أَكْثَرًا لِّلشُّحِّ﴾ أي الحرام كالرشا من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب في المواضع الثلاثة بضمين وهما لغتان كالعنق والعنق، وقرئ بفتح السين على لفظ المصدر . ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحكم والإعراض ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي والأصح وجوبه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً لأننا التزمنا الذب عنهم ودفع الظلم منهم، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقاً . ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس . ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل الذي أمر الله به . ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم .

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ عِندَهُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا الَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيقَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَفَقِينَا عَلَى أَنْثَرِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَمِيقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرِهِمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (50)

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ عِندَهُمُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعجب من تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوب عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم، و ﴿فيها حكم الله﴾ حال من التوراة إن رفعتها بالظرف، وإن جعلتها مبتدأ فمن ضميرها المستكن فيه وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث في كلامهم لفظاً كمومة ودودة . ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق

لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخل في حكم التعجيب. ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق. ﴿وَتُورٌ﴾ يكشف عما استبهم من الأحكام. ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومن بعده إن قلنا شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنويعاً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاء هديهم. ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق بأنزل، أو يبيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم وهو يدل على أن النبيين أنبيأؤهم. ﴿وَالرَّيَّانِيُّونَ وَالْأَنْحِبَارُ﴾ زهادهم وعلمائهم السالكون طريقة أنبيائهم عطف على النبيون ﴿بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى ما محذوف ومن للنبيين. ﴿وُكُنُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءُ﴾ رقباء لا يتركون أن يغيب، أو شهداء يبينون ما يخفى منه كما فعل ابن صوريا. ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنَا﴾ نهي للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويدهنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها. ﴿ثُمَّناً قَلِيلاً﴾ هو الرشوة والجاه ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به منكراً له. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله ﴿الكَافِرُونَ﴾ و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ و ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حال انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لانصالحها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسيقون في النصارى.

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضنا على اليهود. ﴿فِيهَا﴾ في التوراة. ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تقتل بالنفس. ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ رفعها الكسائي على أنها جمل معطوفة على أن وما في حيزها باعتبار المعنى وكأنه قيل: وكُتِبْنَا عَلَيْهِمُ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، والعين بالعين، فإن الكتابة والقراءة تقعان على الجمل كالقول، أو مستأنفة ومعناها: وكذلك العين مفقوعة بالعين، والأنف مجدوعة بالأنف، والأذن مصلومة بالأذن، والسِّن مقلوعة بالسِّن، أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس، وإنما ساع لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف، والجار والمجرور حال مبينة للمعنى، وقرأ نافع ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ وفي أذنيه بإسكان الذال حيث وقع. ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص، وقرأ الكسائي أيضاً بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفضيل. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين. ﴿بِهِ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه. ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق. ﴿كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ للمتصدق يكفر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يسقط عنه ما لزمه. وقرأ ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ أي فالمتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القصاص وغيره. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي وأتبعناهم على آثارهم، فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه، والضمير للنبيون. ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ مفعول ثانٍ عدي إليه الفعل بالباء. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ و﴿إِسْمَ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقرأ بفتح الهمزة. ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ في موضع النصب بالحال. ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف عليه وكذا قوله: ﴿وَهَدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ويجوز نصبهما على المفعول له عطفاً على محذوف أو تعلقاً به وعطف.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ عليه في قراءة حمزة، وعلى الأول اللام متعلقة بمحذوف

أي وآتيناه ليحكم، وقرئ: «وَأَنْ لِيَحْكُمَ» على أَنَّ موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم أي وأمرنا بأن ليحكم. «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» عن حكمه، أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به، والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع وحملها على وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر.

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» أي القرآن. «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ» من جنس الكتب المنزلة، فاللام الأولى للعهد والثانية للجنس. «وَمُهِينًا عَلَيْهِ» ورقياً على سائر الكتب يحفظه عن التغيير ويشهد له بالصحة والثبات، وقرئ على بنية المفعول أي هومن عليه وحفوظ من التحريف والحافظ له هو الله سبحانه وتعالى، أو الحفاظ في كل عصر. «فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» أي بما أنزل الله إليك. «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ» بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه فغن صلة للاتبع لتضمنه معنى لا تحرف، أو حال من فاعله أي لا تتبع أهواءهم مائلاً عما جاءك. «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ» أيها الناس. «شِرْعَةً» شريعة وهي الطريق إلى الماء شبه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. وقرئ بفتح الشين. «وَمِنْهَا جَاءَ» وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمر إذا وضع. واستدل به على أنا غير متعبدین بالشرائع المتقدمة. «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَحَمَلَكُمُ امَّةً وَاحِدَةً» جماعة متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول لو شاء محذوف دل عليه الجواب، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه. «وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ» من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفردون في العمل. «فَاسْتَبَقُوا الْخَيْرَاتِ» فابتدروا انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم. «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعد للمبادرين والمقصرين. «فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

«وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن أحكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأمرنا أن أحكم. «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأن يصلته بدل من هم بدل الاشتمال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. روي (أن أhabar اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أhabar اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، إن بيننا وبين قومنا خصومة فتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ) فنزلت. «فَإِنْ تَوَلَّوْا» عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. «فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ» يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فغير عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَّفْسِ جَمَاهُهَا

«وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ» لمتمردون في الكفر معتدون فيه.

«أَفَحْكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ» الذي هو الميل والمداينة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من النفاضل بين القتلى. وقرئ برفع الحكم على أنه مبتدأ، و «يَبْغُونَ» خبره، والراجع محذوف حذفه في الصلة في قوله تعالى: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً» واستضعف ذلك في غير الشعر وقرئ أفحكم الجاهلية أي يبغيون حاكماً كحكام الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم. وقرأ ابن عامر «تبغون»

بالتاء على قل لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (51)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشرهم معاشرة الأحياب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إيماء على علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتهم. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تترأى ناراهما»، أو لأن الموالى لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاته الكفار أو المؤمنين بموالاته أعدائهم.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ

فَيُضِيبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ (52)

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني ابن أبي وأضرابه. ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم. ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روي (أن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي موالى من اليهود كثيراً عددهم، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال ابن أبي: إنني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالى) فنزلت. ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم. ﴿فَيُضِيبِحُوا﴾ أي هؤلاء المنافقون. ﴿عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهره مما أشعر على نفاقهم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنْهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ (53)

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرفع قراءة عاصم وحزمة والكسائي على أنه كلام مبتدأ ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعاً بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ، وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب عطفاً على أن يأتي باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسى أن يأتي الله بالفتح ويقول الذين آمنوا، أو يجعله بدلاً من اسم الله تعالى داخلاً في اسم عسى مغنياً عن الخبر بما تضمنه من الحدث، أو على الفتح بمعنى عسى الله أن يأتي بالفتح ويقول المؤمنون فإن الإتيان بما يوجبه كالإتيان به. ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنْهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ يقوله المؤمنون بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما من الله سبحانه وتعالى عليهم من الإخلاص أو يقولونه لليهود، فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتهم لننصرنكم﴾ وجهد الأيمان أغلظها، وهو في الأصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولذلك ساغ كونها معرفة أو على المصدر لأنه بمعنى أقسموا. ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ إما من جملة المقول أو من قول الله سبحانه وتعالى شهادة لهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب كأنه قيل أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (54)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ قرأه على الأصل نافع وابن عامر وهو كذلك في الإمام، والباقون بالإدغام وهذا من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد من العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الحمار الأسود العنسي، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قبض رسول الله ﷺ من غدها وأخبر الرسول ﷺ في تلك الليلة فسر المسلمون وأتى الخبر في أواخر ربيع الأول. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين وقتله وحشي قاتل حمزة. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبع فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قررة بن سلمة القشيري وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله أمرهم على يده، وفي إمرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم تنصر وسار إلى الشام. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قيل هم أهل اليمن لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: هذا هم قوم هذا). وقيل الفرس لأنه عليه الصلاة والسلام سُئل عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: هذا وذووه. وقيل الذين جاهدوا يوم القادسية ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس. والراجع إلى من محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانهم ومحبة الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ومحبة العباد له إرادة طاعته والتحرز عن معاصيه. ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول فإن جمعه ذلل، واستعماله مع على إما لتضمنه معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أو للمقابلة. ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ شداد متغلبين عليهم من عزه إذا غلبه، وقرىء بالنصب على الحال. ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى لقوم، أو حال من الضمير في أعزة. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه، أو حال بمعنى أنهم مجاهدون حالهم خلاف حال المنافقين، فإنهم يخرجون في جيش المسلمين خائفين ملامة أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جبهتهم، واللومة المرة من اللوم وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف. ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يمنحه ويوفق له ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفضل. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ (56) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ الْمُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58) قُلْ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ إِنَّا لَا نَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ



النَّسِيلِ نَق (60) وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بَدَاءً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (61) ﴿

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما نهى عن موالاته الكفرة ذكر عقبيه من هو حقيق بها، وإنما قال ﴿وليكم الله﴾ ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة للذين آمنوا فإنه جرى مجرى الاسم، أو بدل منه ويجوز نصبه ورفع على الملاح. ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ متخشعون في صلاتهم وزكاتهم، وقيل هو حال مخصوصة بيوتون، أو يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارة إليه، وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأل سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه. واستدل بها الشيعة على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولي للأمور والمستحق للتصرف فيها، والظاهر ما ذكرناه مع أن حمل الجمع على الواحد أيضاً خلاف الظاهر وإن صح أنه نزل فيه فلعله جاء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه، وعلى هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها وأن صدقة التطوع تسمى زكاة.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن يتخذهم أولياء. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وضع الظاهر موضع المضممر تنبيهاً على البرهان عليه فكانه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنوياً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حرب بهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءاً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في رفاة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرهما الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما. وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هُزُوءاً ولَعِباً إيماء إلى العلة وتنبيهاً على أن من هذا شأنه بعيد عن الموالاته جدير بالمعاداة والبغضاء، وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار على قراءة من جره وهم أبو عمرو والكسائي ويعقوب، والكفار وإن عم أهل الكتاب يطلق على المشركين خاصة لتضاعف كفرهم، ومن نصبه عطفه على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاته من ليس على الحق رأساً سواء من كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك المناهي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل إن كنتم مؤمنين بوعدته ووعيده.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءاً وَلَعِباً﴾ أي اتخذوا الصلاة، أو المنادة وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شررها في البيت فأحرقه وأهله. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به، والعقل يمنع منه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ هل تنكرون منا وتعيون، يقال نقم منه كذا إذا أنكره وانتقم إذا كافأه. وقرئ ﴿تَنْقِمُونَ﴾ بفتح القاف وهي لغة. ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ الإيمان بالكتب المنزلة كلها. ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطف على ﴿أَنْ آمَنَّا﴾ وكان المستثنى لازم الأمرين وهو المخالفة أي: ما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا الإيمان وأنتم خارجون منه، أو كان الأصل واعتقاد أن أكثركم فاسقون فحذف المضاف، أو على ما أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون، أو على علة محذوفة والتقدير هل تنقمون منا إلا أن آمنا لقلة إنصافكم وفسقكم، أو نصب بإضمار فعل يدل عليه هل تنقمون أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفع على الابتداء والخبر محذوف أي: وفسقكم ثابت معلوم عندكم ولكن حب الرياسة والمال يمنعكم عن الإنصاف. والآية خطاب لليهود سألوا

رسول الله ﷺ عمن يؤمن به فقال: ﴿آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم ديناً شراً من دينكم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي من ذلك المنقوم. ﴿مُثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ جزاء ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى، والمثوبة مختصة بالخير كالعقوبة بالشر فوضعت ها هنا موضعها على طريقة قوله:

### تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيع

ونصبها على التمييز عن بشر. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ بدل من بشر على حذف مضاف أي بشر من أهل ذلك من لعنه الله، أو بشر من ذلك دين من لعنه الله، أو خبر محذوف أي هو من لعنه الله وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومسح بعضهم قرده وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى عليه الصلاة والسلام. وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قرده ومشايخهم خنازير. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة من وكذا ﴿عبد الطَّاغُوتَ﴾ على البناء للمفعول، ورفع ﴿الطاغوت﴾ و ﴿عبد﴾ بمعنى صار معبوداً، فيكون الراجع محذوفاً أي فيهم أو بينهم، ومن قرأ «وعابد الطَّاغُوتَ» أو ﴿عبد﴾ على أنه نعت كظن ويقظ أو عبدة أو ﴿عبد الطَّاغُوتَ﴾ على أنه جمع كخدم أو أن أصله عبدة فحذف التاء للإضافة عطفه على القرده، ومن قرأ ﴿وعبد الطَّاغُوتَ﴾ بالجر عطفه على من، والمراد ﴿من﴾ الطَّاغُوت العجل وقيل الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الملعونون. ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ جعل مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، وقيل ﴿مَكَانًا﴾ منصرفاً. ﴿وَأَصْلُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قصد الطريق المتوسط بين غلو النصراري وقدح اليهود، والمراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى المؤمنين في الشرارة والضلالة.

﴿وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نزلت في يهود نافقوا رسول الله ﷺ أو في عامة المنافقين. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، والجملتان حالان من فاعل قالوا وبالكفر وبه حالان من فاعلي دخلوا وخرجوا، وقد وإن دخلت لتقريب الماضي من الحال ليصح أن يقع حالاً أفادت أيضاً لما فيها من التوقع أن أماراة النفاق كانت لائحة عليهم، وكان الرسول ﷺ يظنه ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (62)

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود أو من المنافقين. ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ أي الحرام وقيل الكذب لقوله: ﴿عن قولهم الإثم﴾ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل ﴿الإثم﴾ ما يختص بهم والعدوان ما يتعدى إلى غيرهم. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي الحرام خصه بالذكر للمبالغة. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لبس شيئاً عملوه.

﴿لَوْلَا يَهْتَدُونَ رَبِّيُّونَ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (63) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْقِي كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِنْ دَبَّ كَيْدٌ مِنْهُمْ مَا أَنزِلْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (64)

﴿لَوْلَا يَهْتَدُونَ رَبِّيُّونَ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ تحضيض لعلمائهم على النهي عن

ذلك فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله لبئس ما كانوا يعملون من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدريب فيه وترو و تحري إجادة، ولذلك ذم به خواصهم ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقفه المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي هو ممسك يقرر بالرزق وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا قصد فيه إلى إثبات يد وغل وبسط ولذلك يستعمل حيث لا يتصور ذلك كقوله:

جَادَ الْحِمَى بَسَطَ الْيَدَيْنِ بِوَابِلَ شَكَرْتُ نَدَاهُ تَلَاعَهُ وَوَهَادَهُ

ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمة الليل. وقيل معناه إنه فقير لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ﴾. ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد أو بالفقر والسكنة، أو بغل الأيدي حقيقة يغفلون أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللفظ وملاحظة الأصل كقولك: سبني سب الله دابره. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثنى اليد مبالغة في الرد ونفي البخل عنه تعالى وإثباتاً لغاية الجود، فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه بيديه، وتنبهياً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يعطي للاستدراج وما يعطي للإكرام. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا على تعاقب سعة وضيق في ذات يد، ولا يجوز جعله حالاً من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها، ولا من اليدين إذ لا ضمير لهما فيه ولا من ضميرهما لذلك. والآية نزلت في فتاح بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كف الله عن اليهود ما بسط عليهم من السعة بشؤم تكذيبهم محمداً ﷺ وأشرك فيه الآخرون لأنهم رضوا بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي هم طاغون كافرون ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شر عليه ردهم الله سبحانه وتعالى بأن أوقع بينهم منازعة كف بها عنه شرهم، أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين، وللحرب صلة أوقدوا أو صفة ناراً. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي للفساد وهو اجتهداهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ (65)﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما عدنا من معاصيهم ونحوه. ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها. ﴿وَلَا دَخَلْنَا لَهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ وجعلناهم داخلين فيها. وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يجب ما قبله، وإن جل وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يسلم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْمَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامهما. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها

كالمنزل إليهم، أو القرآن ﴿لَاكُلُوا مِنْ قَوْقِهِمْ وَمَنْ تَخَبَّ أَرْجُلُهُمْ﴾ لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو يكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو يرزقهم الجنان الياقة الثمار. فيجتنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض بين ذلك أن ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقصور الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ عادلة غير غالبة ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ. وقيل مقتصدة متوسطة في عداوته. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْمِلُونَ﴾ أي بش ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي ما أسوأ عملهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (67)

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك غير مراقب أحداً ولا خائف مكرهاً. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فما أدبت شيئاً منها، لأن كتمان بعضها يضيع ما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ من حيث أن كتمان البعض والكل سواء في الشفاعة واستجلاب العقاب. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر رسالاته بالجمع وكسر التاء. ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عدة وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه ﷺ من تعرض الأعداء وإزاحة لمعاذيره. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وعن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعاً فأوحى الله تعالى إلي إن لم تبلغ رسالتي عذبتك وضمن لي العصمة فقيوت». وعن أنس رضي الله تعالى عنه، كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم فقال: انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس. وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أنزل ولعل المراد به تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم افشاؤه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَكَيْدٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (68)

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي دين يعتد به ويصح أن يسمى شيئاً لأنه باطل. ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها أمرة بالإيمان بمن صدقه والمعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد إقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها. ﴿وَلَكَيْدٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبليغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ أُمَّةٍ أَلْحَقَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سَوَاءٍ مَآبٍ﴾ (69)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ سبق تفسيره في سورة «البقرة» والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إن والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك كقوله:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ

وقوله :

وَالَا فَاَعْلَمُوا أَنَا وَأَنْتُمْ بُعَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، وهو كاعتراض دل به على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، كان غيرهم أولى بذلك. ويجوز أن يكون والنصارى معطوفاً عليه ومن آمن خبرهما وخبر إن مقدر دل عليه ما بعده كقوله:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

ولا يجوز عطفه على محل إن واسمها فإنه مشروط بالفراغ من الخبر، إذ لو عطف عليه قبله كان الخبر خبر المبتدأ وخبر إن معاً فيجتمع عليه عاملان ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل، ولأنه يوجب كون الصابئين هوداً. وقيل إن بمعنى نعم وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء. وقيل «الصابئون» منصوب بالفتحة وذلك كما جوز بالياء جوز بالواو. «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا» في محل الرفع بالابتداء. وخبره. «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» والجملة خبر إن أو خبر المبتدأ كما مر والراجع محذوف، أي: من آمن منهم، أو النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه. وقرئ «و» «الصابئين» وهو الظاهر و«الصابئون» بقلب الهمزة ياء و«الصابئون» بحذفها من صبا بإبدال الهمزة ألفاً، أو من صبوت لأنهم صبا إلى اتباع الشهوات ولم يتبعوا شريعاً ولا عقلاً.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (70)

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم. ﴿قَالَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكليف. ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جواب الشرط والجملة صفة رسلاً والراجع محذوف أي رسول منهم. وقيل الجواب محذوف دل عليه ذلك وهو استئناف، وإنما جيء بـ «يقتلون» موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتبنيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظة على رؤوس الآي.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَصْمَلُونَ﴾ (71)

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم. وقرأ أبو عمرو وحمة والكسائي ويعقوب «لا تكون» بالرفع على أن هي المخففة من الثقيلة، وأصله أنه لا تكون فتنة فخففت أن وحذف ضمير الشأن فصار: أن لا تكون وإدخال فعل الحسبان عليها وهي للتحقيق تنزيل له منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم، و «أن» أو «أن» بما في حيزها ساد مسد مفعولية. ﴿فَعَمُوا﴾ عن الدين أو الدلائل والهدى. ﴿وَصَمُوا﴾ عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثم تابوا فتاب الله عليهم. ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ كرة أخرى. وقرئ بالضم فيهما على أن الله تعالى أعماهم وأصمهم أي رماهم بالعمى والصمم، وهو قليل واللغة الفاشية أعمى وأصم. «كثيرٌ منهم» بدل من الضمير، أو فاعل والواو علامة الجمع كقولهم: أكلوني البراغيث، أو خبر مبتدأ محذوف أي العمى

والصم كثير منهم . وقيل مبتدأ والعجلة قبله خبره وهو ضعيف لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع . ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ  
بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ دَارًا يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ رَبِّكُمْ إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (72) لَقَدْ كَفَرَ  
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَفْوَ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ  
ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ  
نُبِّئْتِ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا  
نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (56) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ  
قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ  
عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ  
مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا  
قَدِمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ (80)﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾  
أي إني عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم . ﴿إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ﴾ أي في عبادته أو فيما يختص به  
من الصفات والأفعال . ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ يمنع من دخولها كما يمنع المحرم عليه من المحرم فإنها  
دار الموحدين . ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فإنها المعدة للمشركين . ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي وما لهم أحد  
ينصرهم من النار ، فوضع الظاهر موضع المضمير تسجيلاً على أنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق ،  
وهو يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه الصلاة والسلام وأن يكون من كلام الله تعالى نبه به على أنهم  
قالوا ذلك تعظيماً لعيسى ﷺ ، وتقرباً إليه وهو معاديهم بذلك ومخاصمهم فيه فما ظنك بغيره .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ﴾ أي أحد ثلاثة ، وهو حكاية عما قاله النسطورية والملكانية  
منهم القائلون بالأقانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد . ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وما في  
الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث إنه مبدأ جميع الموجودات إلا إله واحد ، موصوف بالوحدانية  
متعال عن قبول الشراكة ومن مزيدة للاستغراق . ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يوحدا . ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسن الذين بقوا منهم على الكفر ، أو ليمسن الذين كفروا من النصارى ، وضعه  
موضع ليمسهم تكريراً للشهادة على كفرهم وتنبهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه  
فلذلك عقبه بقوله :

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة  
ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد . ﴿وَاللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم  
ويمنحهم من فضله إن تابوا . وفي هذا الاستفهام تعجب من إصرارهم .

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله خصه الله

سبحانه وتعالى بالآيات كما خصهم بها، فإن إحياء الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام وهو أعجب، وإن خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم أعرب. ﴿وَأُتِيَهُ صَدِيقَةٌ﴾ كسائر النساء اللاتي يلازم الصدق، أو يصدقن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ ويفتقران إليه افتقار الحيوانات، بين أولاً أقصى ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهية لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عداد المركبات الكائنة الفاسدة، ثم عجب لمن يدعي الربوبية لهما مع أمال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نَبَّيْنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله وثم لتفاوت ما بين العجبين أي إن بيانا للآيات عجب وإعراضهم عنها أعجب.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو وإن ملك ذلك بتملكك الله سبحانه وتعالى إياه لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل ما يضر الله تعالى به من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة وإنما قال ما نظراً إلى ما هو عليه في ذاته توطئة لنفي القدرة عنه رأساً، وتنبيهاً على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فمعزل عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً أو فخيراً وإن شراً فشر.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غلوا باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أن تدعوا له الألوهية، أو تضعوه فترفعوا أنه لغير رتبة. وقيل الخطاب للنصارى خاصة. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه ﷺ لما كذبه وبغوا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسحهم الله تعالى قرده، وأصحاب المائدة لما كفروا دعاهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسح بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تنهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تعجب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿لَيْسَ مَا قَدِمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لبس شيئاً قدموه ليزدادوا عليه يوم القيامة ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علة الذم والمخصوص محذوف أي لبس شيئاً ذلك لأنه كسبهم السخط والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِهَةً وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ يعني نبيهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم أو متمردون في نفاقهم.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (82)

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لشدة شكيמתهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى، وكونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ﴾ للذين آمنوا منهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل وإليه أشار بقوله: ﴿ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (83)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ عطف على ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهو بيان ورقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأييبهم عنه، والفيض انصباب عن امتلاء، فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ من الأولى للابتداء والثانية لتبيين ما عرفوا، أو للتبويض بأنه بعض الحق. والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك أو بمحمد. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (84)

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين، والدخول في مداخلهم أو جواب سائل قال لم أمتن؟ و﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ حال من الضمير والعامل ما في اللام من معنى الفعل، أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله، أي بوجدانيته فإنهم كانوا مثلثين. أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما إيمان به حقيقة وذكره توطئة وتعظيماً، ونطمع عطف على نؤمن أو خبر محذوف، والواو للحال أي ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولى مقيداً بها أو نؤمن.

﴿فَأَتَتْهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْفُجَّارِ﴾ ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (86) ﴿يَتَأَيَّمُوا﴾ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّوْا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ (87) ﴿وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ مِنْ أَوْسَاطٍ مِمَّا تَطْغَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ



وَأَحْضَرُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَبَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَبَرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ (91) ﴿

﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أي معتقده. ﴿جَنَاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور والآيات الأربع. روي (أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه الرسول ﷺ بكتابه فقرأه، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين، فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن) وقيل نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يس فبكوا وآمنوا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ عطف التكذيب بآيات الله على الكفر، وهو ضرب منه لأن القصد إلى بيان حال المكذبين وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذ منه كأنه لما تضمن ما قبله مدح النصارى على ترهيبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عقبه النهي عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم داعية إلى القصد بينهما. روي (أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح، ويسبحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: إني لم أؤمر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وأكل اللحم والدسم، وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) فنزلت.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فيكون حلالاً مفعول كلوا ومما حال منه تقدمت عليه لأنه نكرة، ويجوز أن تكون من ابتدائية متعلقة بكلوا، ويجوز أن تكون مفعولاً وحلالاً حال من الموصول، أو العائد المحذوف، أو صفة لمصدر محذوف وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلى والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وفي أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر أو حال منه. ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ بِالْأَيْمَانِ﴾ بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به. وقرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم ﴿عقدتم﴾ بالتخفيف، وابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿عاقدتم﴾ وهو من فاعل بمعنى فعل. ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ فكفارة نكته أي الفعل التي تذهب أثمه وتستره، واستدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث وهو عندنا خلافاً للحنفية لقوله عليه الصلاة والسلام «من حلف على يمين ورأي غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير». ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من أفصده في النوع أو القدر، وهو مد لكل مسكين عندنا ونصف صاع عند الحنفية، وما محله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره: أن تطعموا عشرة مساكين

طعاماً من أوسط ما تطعمون، أو الرفع على البدل من إطعام، وأهلون كارضون. وقرئ «أهاليكم» بسكون الياء على لغة من يسكنها في الأحوال الثلاث كالألف، وهو جمع أهل كاليالي في جمع ليل والأراضي في جمع أرض. وقيل هو جمع اهلاة. «أَوْ كَسَوْتُهُمْ» عطف على إطعام أو من أوسط إن جعل بدلاً وهو ثوب يغطي العورة. وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار. وقرئ بضم الكاف وهو لغة كقدوة في قدوة وكأسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً تواسون بينهم وبينهم إن لم تطعموهم الأوسط، والكاف في محل الرفع وتقديره: أو إطعامهم كأسوتهم. «أَوْ تَخْرِيْرُ رَقَبَةٍ» أو إعتاق إنسان، وشرط الشافعي رضي الله تعالى عنه في الأيمان قياساً على كفارة القتل، ومعنى أو إيجاب إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وتخيير المكفر في التعيين. «فَمَنْ لَمْ يَحْذَرْ» أي واحداً منها. «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» فكفارته صيام ثلاثة أيام، وشرط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع لأنه قرئ «ثلاثة أيام متتابعات»، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبت كتاباً ولم ترو سنة. «ذَلِكَ» أي المذكور. «كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» وحنثتم. «وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» بأن تضنوا بها ولا تبدلوا لكل أمر، أو بأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير، أو بأن تكفروها إذا حنثتم. «كَذَلِكَ» أي مثل ذلك البيان. «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ» أعلام شرائعه. «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» نعمة التعليم أو نعمة الواجب شكرها فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ» أي الأصنام التي نصبت للعبادة. «وَالْأَزْلَامُ» سبق تفسيرها في أول السورة. «رَجَسٌ» قذر تعاف عنه العقول، وأفرده لأنه خبر للخمر، وخبر المعطوفات محذوف أو لمضاف محذوف كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر. «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه. «فَاجْتَنِبُوهُ» الضمير للرجس أو لما ذكر أو للتعاطي. «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدر الجملة بـ «إِنَّمَا» وقرنها بالأنصاب والأزلام، وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرٌ بحت أو غالب، وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعله سبباً يرجي منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال تعالى:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ» وإنما خصهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الويل تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن». وخص الصلاة من الذكر بالإنفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعداء قد انقطعت.

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92)﴾

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به. «وَاحْذَرُوا» ما نهاها عنه أو مخالفتها. «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أي فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ وقد أدى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا

وَوَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ مما لم يحرم عليهم لقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقُوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة. ﴿ثُمَّ اتَّقُوا﴾ ما حرم عليهم بعد كالخمر. ﴿وَآمَنُوا﴾ بتحريمه. ﴿ثُمَّ اتَّقُوا﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي. ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ وتحروا الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. روي (أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر) فنزلت. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبين الله تعالى، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يتقي فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحزراً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ﴾ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِعَلَّهُمْ يَخَافُونَ بِالْقَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بِهِ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ﴾ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل والتحقيق في شيء للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالاتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَخَافُونَ﴾ بِالْقَيْبِ لِيَتَمِيزَ الْخَائِفُ من عقابه وهو غائب منتظر لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه، فذكر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بِهِ ذَلِكُ﴾ بعد ذلك الابتلاء بالصيد. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحق به، فإن من لا يملك جأشه في مثل ذلك ولا يراعي حكم الله فيه فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِؤْهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَنَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ أي محرمون جمع حرام كرداح وروح، ولعله ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «خمس يقتلن في الحل والحرم، الحداة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور». وفي رواية أخرى «الحية» بدل «العقرب»، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ، واختلف في أن هذا النهي هل يلغي حكم الذبح فيلحق مذبوح المحرم بالميتة ومذبوح الوثني أو لا فيكون كالشاة المفصولة إذا ذبحها الغاصب. ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ ذاكراً لإحرامه عالمياً بأنه حرام عليه قبل ما يقتله، والأكثر على أن ذكره ليس لتقييد وجوب الجزاء فإن إتلاف العائد والمخطئ واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَنَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ولأن الآية نزلت فيمن تعمد إذ روي: أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله. فنزلت. ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ برفع الجزاء، والمثل قراءة الكوفيين ويعقوب بمعنى فعلية أي فواجهه جزاء يماثل ما قتل من النعم، وعليه لا يتعلق الجار بجزاء للفصل بينهما بالصفة فإن

متعلق المصدر كالصلة له فلا يوصف ما لم يتم بها، وإنما يكون صفته وقرأ الباقون على إضافة المصدر إلى المفعول وإقحام مثل كما في قولهم مثلي لا يقول كذا، والمعنى فعليه أن يجزى مثل ما قتل. وقرئ فجزاء مثلي ما قتل بنصبهما على فليجز جزاء، أو فعليه أن يجزى جزاء يماثل ما قتل وفجزاؤه مثل ما قتل، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما، والقيمة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقال: يقوم الصيد حيث صيد فإن بلغت القيمة ثمن هدى تخير بين أن يهدي ما قيمته قيمته وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً وإن لم تبلغ تخير بين الاطعام والصوم واللفظ للأول أوفق. ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ صفة جزاء ويحتمل أن يكون حالاً من ضميره في خبره أو منه إذا أضفته، أو وصفته ورفعته بخبر مقدر لمن وكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد يحتاج إلى المماثلة في الخلقة والهيئة إليها، فإن الأنواع تتشابه كثيراً. وقرئ «ذو عدل» على إرادة الجنس أو الإمام. ﴿هَدِيًّا﴾ حال من الهاء في به أو من جزاء وإن نون لتخصيصه بالصفة، أو بدل من مثل باعتبار محله أو لفظه فيمن نصبه. ﴿بِالْغِ الْكَعْبَةِ﴾ وصف به هدياً لأن إضافته لفظية ومعنى بلوغه الكعبة ذبحه بالحرم والتصدق به، وقال أبو حنيفة يذبح بالحرم ويتصدق به حيث شاء. ﴿أَوْ كَفَّارَةً﴾ عطف على جزاء إن رفعته وإن نصبته فخير محذوف. ﴿طَعَامٌ مَسَاكِينَ﴾ عطف بيان أو بدل منه، أو خبر محذوف أي هي طعام. وقرأ نافع وابن عامر كفارة «طعام» بالإضافة للتبيين كقولك: خاتم فضة، والمعنى عند الشافعي أو أن يكفر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد فيعطي كل مسكين مداً. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما سواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وهو في الأصل مصدر أطلق للمفعول. وقرئ بكسر العين وهو ما عدل بالشيء في المقدر كعدل الحمل وذلك إشارة إلى الطعام، وصياماً تمييز للعدل. ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ﴾ متعلق بمحذوف أي فعليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليزوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى وأصل الوبل الثقل ومنه الطعام الوبل. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ﴾ من قتل الصيد محرماً في الجاهلية أو قبل التحريم، أو في هذه المرة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى مثل هذا. ﴿فَيَسْتَقِمْ اللَّهُ مِنْهُ﴾ فهو ينتقم الله منه وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكى عن ابن عباس وشريح. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ مما أصر على عصيانه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَذَكَّرُونَ﴾

إِلَى تَحْشُرُونَ (96)

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته». وقال أبو حنيفة لا يحل منه إلا السمك. وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البر. ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما قذفه أو نضب عنه. وقيل الضمير للصيد وطعامه أكله. ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ تمتعاً لكم نصب على الغرض. ﴿وَاللْغِيَارَةِ﴾ أي ولسيارتكم يتزودونه قديداً. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ أي ما صيد فيه، أو الصيد فيه فعلى الأول يحرم على المحرم أيضاً ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مدخل، والجمهور على حلة لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يصد لكم» ﴿مَا دُمْتُمْ حُرماً﴾ أي محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتِدَ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97)

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ صبرها، وإنما سمي البيت كعبة لتكعبه. ﴿الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ عطف بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني ﴿قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به

الخائف ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أمر دينهم وديناهم. وقرأ ابن عامر «قيماً» على أنه مصدر على فعل كالشيع أعل عينه كما أعل في فعله ونصبه على المصدر أو الحال. «وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَذْيَ وَالْقَلَائِدَ» سبق تفسيرها والمراد بالشهر الذي يؤدي فيه الحج، وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه وقيل الجنس. «ذَلِكَ» إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره. «لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» فإن شرع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها، دليل حكمة الشارع وكمال علمه. «وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (98)

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أقبل عنه.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (99)

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به أي الرسول أتى بما أمر به من التبليغ ولم يبق لكم عذر في التفریط. «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (100) يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ سَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَنْهَا

اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا مِثَاقٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَاجٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَدُونَ

(104) يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْهِمْ أَنَسُّكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ أَحْرَارٌ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُنَّمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَسْتُمْ لَا

نَشْرِي بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ (106) فَإِنْ عُرِيَ عَلَيْهِ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَاحْرَارٌ يُقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهْدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا

لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ

﴿(109)﴾

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رغب به في مصالح العمل وحلال المال. «وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ» أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر،

وَأَثَرُوا الطَّيْبَ وَإِنْ قُلِ . ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ رَاجِعِينَ أَنْ تَبْلُغُوا الْفَلَاحَ . رَوَى : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حُجَّاجِ الْيَمَامَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَوْقِعُوا بِهِمْ فَتَهُوا عَنْهُ وَإِنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾  
الشرطية وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء إن تظهر لكم تخفونكم  
وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم، وهما كمقدمتين تتجان ما يمنع السؤال وهو أنه مما يخفونكم  
والعقل لا يفعل ما يخفونكم، وأشياء اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامة فجعلت لفعاء. وقيل أفعلاء حذف  
لامه جمع لشيء على أن أصله شيء كهيئ، أو شيء كصديق فخفف. وقيل أفعال جمع له من غير تغيير كبيت  
وأبيات ويرده منع صرفه. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلف بها. إذ روي أنه  
لما نزلت ﴿والله على الناس حج البيت﴾ قال سراقه بن مالك: أكل عام؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد  
ثلاثاً فقال: «لا ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم» فنزلت أو استئناف أي  
عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا لمثلها. ﴿والله عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم،  
ويعفو عن كثير وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم وهو  
غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعينهم فقال: لا أسأل عن شيء إلا أجبت، فقال رجل: أين أبي فقال  
في النار، وقال آخر من أبي فقال: حذافة وكان يدعى لغيره) فنزلت.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ في الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يعد بعن أو لأشياء بحذف الجار. ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفة لقوم، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة للجنة ولا حالاً منها ولا خيراً عنها. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي بسببها حيث لم يأتروا بما سألوا جحوداً.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ رد وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لألثتهم وإن ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهوره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى وقالوا: قد حمي ظهره، ومعنى ما جعل ما شرع ووضع، ولذلك تعدى إلى مفعول واحد وهو البحيرة ومن مريدة. ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الحلال من الحرام والمباح من المحرم، أو الأمر من الناهي ولكنهم يقلدون كبارهم وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواء. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال، أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين، والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بمن علم أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي إ حفظوها والزمو إصلاحها، والجار مع المجرور جعل اسماً لإلزاموا ولذلك نصب أنفسكم. وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿لَا يَصْرُكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضرکم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه». والآية نزلت

لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت آباءك فنزلت. و ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ يحتمل الرفع على أنه مستأنف ويؤيده أن قرىء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ والجزم على الجواب أو النهي لكنه ضمت الراء إبتاعاً لضمّة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة وتنصّره قراءة من قرأ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بالفتح، و ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد وضمها من ضاره يضره ويضوره. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد للفريقين وتنبية على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما أمرتم شهادة بينكم، والمراد بالشهادة الإِشهاد في الوصية وإضافتها إلى الظرف على الاتساع وقرىء ﴿شهادة﴾ بالنصب والتنوين على ليقم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ إذا شارفه وظهرت أماراته وهو ظرف للشهادة. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل منه وفي إبداله تنبيه على أن الوصية مما ينبغي أن لا يتهاون فيه أو ظرف حضر. ﴿اِثْنَانِ﴾ فاعل شهادة ويجوز أن يكون خبرها على حذف المضاف. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من أفاركم أو من المسلمين وهما صفتان لاثنان. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ عطف على اثنان، ومن فسر الغير بأهل الذمة جعله منسوخاً فإن شهادته على المسلم لا تسمع إجماعاً. ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم فيها. ﴿فَأَصَابَتْكُمُ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي قاربتم الأجل. ﴿تَحْسَبُونَهُمَا تَقْفُونَهُمَا وَتَصْبِرُونَهُمَا صَفَةً لِآخِرَانِ وَالشَّرْطُ بِجَوَابِهِ الْمَحذُوفُ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ اعتراض، فائدته الدلالة على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم فإن تعذر كما في السفر فمن غيركم، أو استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين فقال تحسبونهما. ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أي صلاة كانت. ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ﴾ إن ارتاب الوارث منكم. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ مقسم عليه، وإن ارتبتم اعتراض يفيد اختصاص القسم بحال الارتباب. والمعنى لا نستبدل بالقسم أو بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذباً لطمع. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ولو كان المقسم له قريباً منا، وجوابه أيضاً محذوف أي لا نشترى. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها، وعن الشعبي أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ الله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي عنه بغيره كقولهم الله لأفعلن. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِثْمِينَ﴾ أي إن كنتمنا. وقرىء لِمَاثِمِينَ بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها. ﴿فَإِنْ عَثَرَ﴾ فإن اطلع. ﴿عَلَى أَنَّهِنَّ اسْتَحَقَّ إِثْمًا﴾ أي فعلاً ما أوجب إثمًا كتحريف. ﴿فَآخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران. ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِنَّ﴾ من الذين جنى عليهم وهم الورثة. وقرأ حفص «استحق» على البناء للفاعل وهو الأوليان. ﴿الْأُولَيَانِ﴾ الاحقان بالشهادة لقرايتهما ومعرفتهما وهو خبر محذوف أي: هما الأوليان أو خبر ﴿آخَرَانِ﴾ أو مبتدأ خبره آخران، أو بدل منهما أو من الضمير في يقومان. وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم «الأولين» على أنه صفة للذين، أو بدل منه أي من الأولين الذين استحق عليهم. وقرىء «الأولين» على التثنية وانتصابه على المدح والأولان وإعرابه إعراب الأوليان. ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أصدق منها وأولى بأن تقبل. ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا فيها الحق. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الواضعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا. ومعنى الآيتين أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يشهد عدلين من ذوي نسبه أو دينه على وصيته، أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فأخريين من غيرهم، ثم إن وقع نزاع وارتباب أقسم على صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على أنهما كذبا بأماره أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت، والحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين فإنه لا يخلف الشاهد ولا يعارض يمينه يمين الوارث وثابت إن كانا وصيين ورد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغيير الدعوى. إذ روي أن تميم الداري وعدي ابن يزيد خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما

قدموا الشام مرض بديل فدون ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به، وأوصى إليهما بأن يدفعوا متاعه إلى أهله ومات، ففتشاه وأخذوا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغياها، فأصاب أهله الصحيفة فظالبهما بالإثناء فجحدوا فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فحلفهما رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلق سبيلهما، ثم وجد الإناء في أيديهما فأتاهما بنو سهم في ذلك فقالوا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن لنا عليه بينة فكرهنا أن نقر به فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت ﴿فَإِنْ عَثَرَ﴾ فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا واستحقاه. ولعل تخصيص العدد فيهما لخصوص الواقعة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم الذي تقدم أو تحليف الشاهد. ﴿أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أن ترد اليمين على المدعين. بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا﴾ ما توصون به سمع إجابة. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة. فقله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ ظرف له. وقيل بدل من مفعول واتقوا بدل الاشتمال، أو مفعول واسمعوا على حذف المضاف أي واسمعوا خبر يوم جمعهم، أو منصوب بإضمار اذكر. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للرسول. ﴿مَاذَا أُجِبتُمْ﴾ أي إجابة أجبتم، على أن ماذا في موضع المصدر، أو بأي شيء أجبتم فحذف الجار، وهذا السؤال لتوبيخ قومهم كما أن سؤال المؤودة لتوبيخ الوائد ولذلك ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي لا علم لنا بما لست تعلمه. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فتعلم ما تعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا وما لا نعلم مما أضمرنا في قلوبهم، وفيه التشكي منهم ورد الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة. وقرئ ﴿علام﴾ بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾، أي إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة وعلام منصوب على الاختصاص أو النداء. وقرأ أبو بكر وحزمة الغيوب بكسر الغين حيث وقع.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبَيِّنُ (110)﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ بدل من يوم يجمع وهو على طريقة ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم وتعدد ما أظهر عليهم من الآيات فكذبته طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة. أو نصب بإضمار اذكر. ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي أو حال منه وقرئ ﴿أيدتك﴾. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام، أو بالكلام الذي يحيا به الدين، أو النفس حياة أبدية ويظهر من الآثام ويؤيده قوله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي كائناً في المهد وكهلاً، والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء، والمعنى إلحاق حاله في الطفولية بحال الكهولة في كمال العقل والتكلم، وبه استدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يكتمل. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران. وقرأ نافع ويعقوب «طائراً» ويحتمل الأفراد والجمع كالباقر. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾



يعني اليهود حين هموا بقتله. ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ظرف لكففت. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين. وقرأ حمزة والكسائي إلا «ساحر» بالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (111)﴾

﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي أمرتهم على السنة رسلي. ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية وأن تكون مفسرة. ﴿قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112)﴾

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ منصوب بالذكر، أو ظرف لقالوا فيكون تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة. وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل المعنى هل يطيع ربك أي هل يجيبك، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب. وقرأ الكسائي «تستطيع ربك» أي سؤال ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف. والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام، من مادة الماء يمد إذا تحرك، أو من مادة إذا أعطاه كأنها تميد من تقدم إليه ونظرها قولهم شجرة مطعمة. ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَعَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113)﴾

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها. ﴿وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا﴾ في ادعاء النبوة، أو أن الله يجيب دعوتنا. ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114)﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَنْتُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)﴾

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامهم الحجة بكمالها. ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه. وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً. وقرئ «تكن» على جواب الأمر. ﴿لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا. روي: أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذها النصارى عيداً. وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا. وقرئ «لأولانا وآخرنا» بمعنى الأمة أو الطائفة. ﴿وَآيَةً﴾ عطف على «عيداً». ﴿مِنْكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض. ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَنْتُ بِهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم «منزلها» بالتشديد. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً﴾ أي تعذيباً ويجوز أن يجعل مفعولاً به على السعة. ﴿لَا أُعَذِّبُهُ الضمير للمصدر، أو للعذاب إن أريد ما يعذب به على حذف حرف الجر. ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم أو للعالمين

مطلقاً فإنهم مسحوا قردة وخنازير، ولم يعذب بمثل ذلك غيرهم. روي: أنها نزلت سفرة حمراء بين غماتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف التنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلول ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال: ليس منهما ولكن اخترعه الله سبحانه وتعالى بقدرته كلوا ما سألتهم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال: يا سمكة احبي بإذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسحوا. وقيل كانت تأنيهم أربعين يوماً غباً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفياء طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره، ولا مريض إلا بريء ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفوا وقالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن مجاهد أن هذا مثل ضربه الله لمقترحي المعجزات. وعن بعض الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف، فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116)﴾

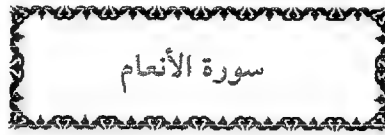
﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهم، ومن دون الله صفة لإلهين أو صلة اتخذوني، ومعنى دون إما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة، فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبد بهما أو للقصور، فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وكأنه قيل: اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منظوقه ومفهومه.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117)﴾ إن تعذيبهم قائمهم عبادك وإن تقفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (118) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)﴾

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه. ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به، أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع، أو خبر مضمّر أو مفعوله مثل هو أو أعني، ولا يجوز إبداله من ما أَمَرْتَنِي بِهِ فَإِنْ المصدر لا يكون مفعول القول ولا أن تكون أن مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى، وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكان قيل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن ﴿اعبدوا الله﴾. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء لقوله: ﴿إِنِّي مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ والتوفي أخذ الشيء وافيأ، والموت نوع منه قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالارشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك. ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا عجز ولا استعجاب فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع التردد والتعليق بأن.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع ﴿يوم﴾ بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف، أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع. وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح، لأن المضاف إليه معرب والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف. ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل ومن فيهن تغليبا للعقلاء وقال ﴿وما فيهن﴾ اتباعاً لهم غير أولي العقل إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية، وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناً ولا للأجناس كلها فهو أولى بإرادة العموم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا».



### سورة الأنعام

[مكية، وآياتها خمس وستون ومائة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُوتَ (1)﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أخبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حمد أو لم يحمد، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون، وجمع

السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنشأهما، والفرق بين خلق وجعل الذي له مفعول واحد أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمين. ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال، وبالنور الهدى والهدى واحد والضلال متعدد، وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكات. ومن زعم أن الظلمة عرض يضاد النور احتج بهذه الآية ولم يعلم أن عدم الملكة كالعدم ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطف على قوله الحمد لله على معنى أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته، ويكون برهم تنبيهاً على أنه خلق هذه الأشياء أسباباً لتكونهم وتعيشهم، فمن حقه أن يحمد عليها ولا يكفر، أو على قوله خلق على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى ثم: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان، والباء على الأول متعلقة بكفروا وصلة يعدلون محذوفة أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل، وعلى الثاني متعلقة بـ ﴿يعدلون﴾ والمعنى أن الكفار يعدلون برهم الأوثان أي يسوونها به سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ رَبِّكُمْ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ (2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5)﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي ابتداء خلقكم منه، فإنه المادة الأولى وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق آباءكم فحذف المضاف. ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ أجل الموت. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل القيامة. وقيل الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي، وأجل نكرة خصصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر والاستئناف به لتعظيمه ولذلك نكر ووصف بأنه مسمى أي مثبت معين لا يقبل التغيير، وأخبر عنه بأنه عند الله لا مدخل لغيره فيه يعلم ولا قدرة ولأنه المقصود بيانه. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ﴾ استبعاد لامرأته بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحبيهم إلى آجالهم، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث، والامتراء الشك وأصله المري وهو استخراج اللبن من الضرع.

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ الضمير لله سبحانه وتعالى و ﴿اللَّهُ﴾ خبره. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق باسم ﴿اللَّهُ﴾ والمعنى هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والجملة خبر ثان، أو هي الخبر و ﴿اللَّهُ﴾ بدل، ويكفي لصحة الظرفية كون المعلوم فيهما كقولك رميت الصيد في الحرم إذا كنت خارجه والصيد فيه أو ظرف مستقر وقع خبراً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم سرهم وجهركم بيان وتقدير له وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر فيشبه عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿من﴾ الأولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعض، أي: ما يظهر

لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن. ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني القرآن وهو كاللزام ما قبله كأنه قيل: إنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا به لما جاءهم، أو كدليل عليه على معنى أنهم لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتب عليه بالفاء. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (6)

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أهل زمان، والقرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة. وقيل ثمانون. وقيل القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم. قلت المدة أو كثرت واشتقاقه من قرنت. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقررناهم فيها وأعطيناهم من القوى والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها. ﴿مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة أو ما لم نعظكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب. ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ﴾ أي المطر أو السحاب، أو المظلة إن مبدأ المطر منها. ﴿مِدْرَارًا﴾ أي مغزراً. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ وأحدثنا. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً منهم، والمعنى أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك من قبلكم كعاد وثمود ويشيء مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يقدر أن يفعل ذلك بكم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (7)

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ مكتوباً في ورق. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فمسوه، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، وتقبيده بالأيدي لدفع التجويز فإنه قد يتجويز به للفحص كقوله: ﴿وَأَنَا لِمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ ﴿لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تعنتاً وعناداً.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (8)

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ﴾ هلا أنزل معه ملك يكلمنا أنه نبي كقوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. ﴿وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ جواب لقولهم وبيان لما هو المانع مما اقترحوه والخلل فيه، والمعنى أن الملك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لحق إهلاكهم فإن سنة الله قد جرت بذلك فيمن قبلهم. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ بعد نزوله طرفة عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (9)

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ جواب ثان إن جعل الهاء للمطلوب، وإن جعل للرسول فهو جواب اقتراح ثان، فإنهم تارة يقولون لولا أنزل عليه ملك، وتارة يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. والمعنى ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه أو الرسول ملكاً لمثلناه رجلاً كما مثل جبريل في صورة دحية الكلبي، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رأهم كذلك الأفراد من

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوتهم القدسية، وللبسنا جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وقرئ «لبسنا» بلام واحدة و «للبسنا» بالتشديد للمبالغة.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10)﴾

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عما يرى من قومه. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وبأل استهزائهم.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (11)﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ أن السير ثمة لأجل النظر ولا كذلك ها هنا، ولذلك قبل معناه إباحة السير للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12)﴾ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)﴾ ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَفْعَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُ وَلَا يُطَعُّ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)﴾ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)﴾ ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَا وَذَلِكَ الْفُورُ الْمُمِينُ (16)﴾ ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)﴾ ﴿وَهُوَ أَقْسَمُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)﴾ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تَذَرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ تُشْهِدُونَ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)﴾

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تنبكت. ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه المتعين للجواب بالإتفاق، بحيث لا يمكنهم أن يذكروا غيره. ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً والمراد بالرحمة ما يعم الدارين ومن ذلك الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده بنصب الأدلة، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. ﴿لِيَجْمَعَ كُفُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئناف وقسم للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة، فيجازيكم على شرككم. أو في يوم القيامة وإلى بمعنى في. وقيل بدل من الرحمة بدل البعض فإن من رحمته بعثه إليكم وإنعامه عليكم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو الجمع. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم. وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم، وموضع الذين نصب على الذم أو رفع على الخبر أي: وأنتم الذين أو على الابتداء والخبر. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسارتهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان ﴿وَلَوْ﴾ عطف على الله. ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من السكنى وتعديته بقي كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ والمعنى ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فاكتمى بأحد الضدين عن الآخر. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء، ويجوز

أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ إنكار لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي . فلذلك قدم وأولى الهيمزة والمراد بالولي المعبود لأنه رد لمن دعاه إلى الشرك. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما، أنا فطرته أي ابتدأتها. وجره على الصفة لله فإنه بمعنى الماضي ولذلك قرئ «فطر» وقرئ بالرفع والنصب على المدح. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. وقرئ ولا يطعم بفتح الباء ويعكس الأول على أن الضمير لغير الله، والمعنى كيف أشرك بمن هو فاطر السموات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية، وبينائهما لفاعل على أن الثاني من أطعم بمعنى استطعم، أو على معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله: ﴿يَقْبُضُ وَيَبْسُطُ﴾. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي ولا تكوننَّ، ويجوز عطفه على قل.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبالغة أخرى في قطع أطعامهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، والشرط معترض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة.

﴿مَنْ يُضَرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي بصرف العذاب عنه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم ﴿يُضَرِفُ﴾ على أن الضمير فيه لله سبحانه وتعالى. وقد قرئ بإظهاره والمفعول به محذوف، أو يومئذ بحذف المضاف. ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ نجاه وأنعم عليه. ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي الصرف أو الرحمة.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ببلية كمرض وفقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ فلا قادر على كشفه. ﴿إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ﴾ بنعمة كصحة وغنى. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره. ﴿الْخَبِيرُ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ نزلت حين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله. والشئ يقع على كل موجود، وقد سبق القول فيه في سورة «البقرة». ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أي الله أكبر شهادة ثم ابتداء ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم، ويجوز أن يكون الله شهيد هو الجواب لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة. ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقليين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة، وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه. ﴿أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي بل أشهد أن لا إله إلا هو. ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني الأصنام.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ بحلالهم. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (21)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ كَانَ كَذَبُوا بِالْقُرْآنِ والمعجزات وسموها سحراً. وإنما ذكر (أو) وهم وقد جمعوا بين الأمرين تنبيهاً على أن كلا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس. ﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للشأن. ﴿لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ فضلاً عما لا أحد أظلم منه.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (22)﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب بمضمر تهويلاً للأمر. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقرأ يعقوب «يحشرهم» ويقول بالياء. ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم.

﴿ثُمَّ لَمَّا تَرَكَنَّ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23)﴾

﴿ثُمَّ لَمَّا تَرَكَنَّ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي كفرهم، والمراد عاقبتهم وقيل معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، من فتنت الذهب إذا خلصته. وقيل جوابهم وإنما سماه فتنة لأنه كذب، أو لأنهم قصدوا به الخلاص. وقرأ ابن كثير. وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿لم تكن﴾ بالتاء و﴿فتنتهم﴾ بالرفع على أنها الاسم، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب على أن الاسم ﴿أن قالوا﴾، والتأنيث للخبر كقولهم من كانت أمك والباقون بالياء والنصب. ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفعهم من فرط الحيرة والدمهشة، كما يقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها﴾. وقد أيقنوا بالخلود. وقيل معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا وهو لا يوافق قوله.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَوُ لَا يَقْنُتُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يَجِدُواكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَنْتَظِرُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَحْفَقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَمَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (30)﴾

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بنفي الشرك عنها، وحمله على كذبهم في الدنيا تعسف يخل بالنظم ونظير ذلك قوله: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ وقرأ حمزة والكسائي ربنا بالنصب على النداء أو المدح. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن، والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر ما يقول، فقال؛ والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني لأرى حقاً فقال أبو جهل كلا. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية جمع كنان وهو ما يستر الشيء. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع من استماعه، وقد مر تحقيق ذلك في أول



«البقرة». «وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا» لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم. «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ» أي بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جادوك يجادلونك، وحتى هي التي تقع بعدها الجمل لا عمل لها، والجملية إذا وجوابه وهو «يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» فإن جعل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب، ويجادلونك حال لمحبتهم، ويجوز أن تكون الجارة وإذا جادوك في موضع الجر ويجادلونك حال ويقول تفسير له، والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو اسطارة أو أسطار جمع سطر، وأصله السطر بمعنى الخط.

«وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» أي ينهون الناس عن القرآن، أو الرسول ﷺ والإيمان به. «وَيَتَأَوَّنَ عَنْهُ» بأنفسهم أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب. «وَإِنْ يُهْلِكُونَ» وما يهلكون بذلك. «إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» أن ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم.

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ» جوابه محذوف أي: لو تراهم حين يوقعون على النار حتى يعاينوها، أو يطلعون عليها، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمراً شنيعاً. وقرئ «وقفوا» على البناء للفاعل من وقف عليها وقوفاً. «فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ» تمنياً للرجوع إلى الدنيا. «وَلَا نُكَذِّبُ بَآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» استئناف كلام منهم على وجه الإثبات كقولهم: دعني ولا أعود، أي وأنا لا أعود تركتني، أو لم تتركني أو عطف على نرد أو حال من الضمير فيه فيكون في حكم التمني، وقوله: «وإنهم لكاذبون» راجع إلى ما تضمنته التمني من الوعد، ونصبهما حمزة ويعقوب وحفص على الجواب بإضمار أن بعد الواو إجراء لها مجرى الفاء. وقرأ ابن عامر برفع الأول على العطف ونصب الثاني على الجواب.

«بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ» الإضراب عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم، أو قبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو ردوا لآمنوا. «وَلَوْ رُدُّوا» أي إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور. «لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» من الكفر والمعاصي. «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» فيما وعدوا به من أنفسهم.

«وَقَالُوا» عطف على لعادوا، أو على إنهم لكاذبون أو على نهوا، أو استئناف بذكر ما قالوه في الدنيا. «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» الضمير للحياة «وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ» مجاز عن الحس للسؤال والتوبيخ، وقيل معناه وقفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف. «قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ» كأنه جواب قائل قال: ماذا قال ربهم حينئذ؟ والهمزة للتفريع على التكذيب، والإشارة إلى البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب. «قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا» إقرار مؤكد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء. «قَالَ فُذِّقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» بسبب كفرهم أو ببذله.

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يحسرننا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِثٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَ لَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَّبِعُ اللَّهُ يَحْدُونَ (33) وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُزِلَّ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَتَتْكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُرًا وَعَبَثًا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشِئِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) ﴿

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب المقيم ولقاء الله البعث وما يتبعه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ﴾ غَايَةُ لِكَذِبُوا لَا لُخْسَرُ، لَأَنْ خَسِرَانَهُمْ لَا غَايَةَ لَهُ. ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً وَنَصَبَهَا عَلَى الْحَالِ، أَوِ الْمَصْدَرُ فَإِنَّهَا نَوْعٌ مِنَ الْمَجِيءِ. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ أَيِ تَعَالَى فَهَذَا أَوَانُكَ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قَصَرْنَا ﴿فِيهَا﴾ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَضْمَرْتُ وَإِنْ لَمْ يَجْرُ ذِكْرُهَا لِلْعِلْمِ بِهَا، أَوْ فِي السَّاعَةِ يَعْنِي فِي شَأْنِهَا وَالْإِيمَانَ بِهَا. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ تَمْثِيلٌ لِاسْتَحْقَاقِهِمْ أَصَارَ الْآثَامِ. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ﴾ بِسَ شَيْئًا يَزِينُونَهُ وَزِينَتُهُمْ.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَيِ وَمَا أَعْمَالُهَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ يَلْهِي النَّاسَ وَيَشْغَلُهُمْ عَمَّا يَعْقِبُ مَنْفَعَةٌ دَائِمَةٌ وَلَذَّةٌ حَقِيقَةٌ. وَهُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِمْ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لِدَوَامِهَا وَخُلُوصِ مَنَافِعِهَا وَلِذَاتِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تَنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ مَا لَيْسَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُتَّقِينَ لَعِبٌ وَلَهْوٌ. وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ «وَلِدَارِ الْآخِرَةِ». ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيِ الْأَمْرَيْنِ خَيْرٍ. وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ وَيَعْقُوبُ بِالْتَّاءِ عَلَىٰ خُطَابِ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ، أَوْ تَغْلِيْبِ الْحَاضِرِينَ عَلَى الْغَائِبِينَ.

﴿قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ مَعْنَى قَدْ زِيَادَةُ الْفِعْلِ وَكَثْرَتُهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ

وَالْهَاءُ فِي أَنَّهُ لِلشَّانِ. وَقَرَأَ ﴿لِيَحْزُنُكَ﴾ مِنْ أَحْزَنَ. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ فِي الْحَقِيقَةِ. وَقَرَأَ نَافِعٌ وَالْكَسَائِيُّ ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ مِنْ أَكْذَبَهُ إِذَا وَجَدَهُ كَاذِبًا، أَوْ نَسَبَهُ إِلَى الْكَذْبِ. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَكْذِبُونَهَا، فَوْضِعَ الظَّالِمِينَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ ظَلَمُوا بِجَحْدِهِمْ، أَوْ جَحَدُوا لِمَنْعِهِمْ عَلَى الظُّلْمِ، وَالْبَاءُ لَتَضْمِينِ الْجَحْدِ مَعْنَى التَّكْذِيبِ. رَوَى أَنَّهُ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَقُولُ: مَا نَكْذِبُكَ وَإِنْكَ عِنْدَنَا لَصَادِقٌ وَإِنَّمَا نَكْذِبُ مَا جِئْتَنَا بِهِ. فَتَرَلْتُ.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَن قَوْلَهُ: ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾، لَيْسَ لِنَفْسِي تَكْذِيبُهُ مَطْلَقًا. ﴿فَصَبِّرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا﴾ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَإِذَائِهِمْ فَتَأْسُ بِهِمْ وَاصْبِرْ. ﴿حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ فِيهِ إِيْمَاءٌ بُوْعْدِ النَّصْرِ لِلصَّابِرِينَ. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لِمَوَاعِيدِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ الْآيَاتِ. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيِ بَعْضِ قَصَصِهِمْ وَمَا كَابَدُوا مِنْ قَوْمِهِمْ.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ عَظُمَ وَشَقَّ﴾. ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عَنْكَ وَعَنِ الْإِيمَانِ بِمَا جِئْتَ بِهِ. ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ مَنْفَذًا تَنْفِذُ فِيهِ إِلَى جُوفِ الْأَرْضِ فَتَطْلُعُ لَهُمْ آيَةٌ، أَوْ مَصْعَدًا تَصْعَدُ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَتَنْزِلُ مِنْهَا آيَةٌ، وَفِي الْأَرْضِ صِفَةٌ لِنَفَقًا وَفِي السَّمَاءِ صِفَةٌ لِسُلْمًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقِينَ بِتَبْغِيٍّ، أَوْ حَالِينَ مِنَ الْمُسْتَكْنِ وَجَوَابِ الشَّرْطِ الثَّانِي مُحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ فَاعِلٌ، وَالْجُمْلَةُ جَوَابُ الْأَوَّلِ وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ حُرْصَةِ الْبَالِغِ عَلَى إِسْلَامِ قَوْمِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ قَدَّرَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ أَوْ مِنْ فَوْقِ السَّمَاءِ لَأَتَى بِهَا رَجَاءَ إِيْمَانِهِمْ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ لَوْفَقَهُمُ لِلْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَكِنْ لَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ مَشِيئَتُهُ، فَلَا تَهَالِكُ عَلَيْهِ وَالْمَعْتَرِلةُ أَوَّلُوهُ بَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى بِأَنَّهُ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مُلْجِئَةٍ وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ لَخُرُوجِهِ عَنِ الْحِكْمَةِ. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بِالْحُرْصِ عَلَى مَا لَا يَكُونُ، وَالْجُزْعُ فِي مَوَاطِنِ الصَّبْرِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ دَابِ الْجَهْلَةِ.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يجيب الذين يسمعون بفهم وتأمل لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ السَّمْعُ وهو شهيد﴾ وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيعلمهم حين لا ينفعهم الإيمان. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً. ﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كتشق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها، وأن إنزالها يستجلب عليهم البلاء، وأن لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره. وقرأ ابن كثير ينزل بالتخفيف والمعنى واحد.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ تدب على وجهها. ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها. وقرئ «ولا طائر» بالرفع على المحل. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وأجالها، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، ليكون كالل دليل على أنه قادر على أن ينزل آية. وجمع الأمم للحمل على المعنى. ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من الجليل والدقيق لم يهمل فيه أمر، حيوان ولا جماد. أو القرآن فإنه قد دون فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً، ومن مزيدة وشيء في موضع المصدر لا بالمفعول به، فإن فرط لا يتعدى بنفسه وقد عدي بفي إلى الكتاب. وقرئ «ما فرطنا» بالتخفيف. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها فينصف بعضها من بعض كما روي: أنه يأخذ للجماء من القرناء. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرها موتها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم. ﴿وَبِكُمْ﴾ لا ينطقون بالحق. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث أي خابطون في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في الخبر. ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ من يشأ الله إضلاله يضلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة. ﴿وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحملة عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ استفهام تعجيب، والكاف حرف خطاب أكد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب لأنك تقول: أرايتك زيداً ما شأنه فلو جعلت الكاف مفعولاً كما قاله الكوفيون لعدت الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، وللزم في الآية أن يقال: أرايتمكم بل الفعل معلق أو المفعول محذوف تقديره: أرايتكم ألهمتكم تنفعكم. إذ تدعونها. وقرأ نافع أرايتكم وأرايت وأرايتم وأفرايت وأفرايتم وشبهها إذا كان قبل الراء همزة بتسهيل همزة التي بعد الراء، والكسائي يحذفها أصلاً والباقون يحققونها وحمزة إذا وقف وافق نافعاً. ﴿إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى من قبلكم. ﴿أَوْ أَتُكَّمُ السَّاعَةَ﴾ وهو لها ويدل عليه. ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الأصنام آلهة وجوابه محذوف أي فادعوه.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (41)

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي يفضل عليكم ولا يشاء في الآخرة. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون ألهمتكم في ذلك الوقت لما ركز في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (42)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي قبلك، ومن زائدة. ﴿فَآخَذْنَاهُمْ﴾ أي فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم. ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالشدة والفقر. ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ والضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (43)

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه نفى تضرعهم في ذلك الوقت مع قيام ما يدعوهم أي لم يتضرعوا. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استدرak على المعنى وبيان للصارف لهم عن التضرع وأنه: لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ

مُبْلِسُونَ﴾ (44)

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع النعم مراوحة عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، وامتحنائهم بالشدة والرخاء إلزاماً للحجة وإزاحة للعلل، أو مكرأ بهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «مكر بالقوم ورب الكعبة». وقرأ ابن عامر ﴿فتحننا﴾ بالتشديد في جميع القرآن ووافقه يعقوب فيما عدا هذا والذي في «الأعراف». ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا﴾ أعجبوا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم ولم يزيدوا غير البطر والاستغفال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه سبحانه وتعالى. ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ متحسرون آيسون.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (45)

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره دبراً ودبوراً إذا تبعه. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاكهم فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخلص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ

الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ (46)

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أصمكم وأعماكم. ﴿وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم. ﴿مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾ أي بذلك، أو بما أخذ وختم عليه أو بأحد هذه المذكورات. ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نكرها تارة من جهة المقدمات العقلية وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ يعرضون عنها، وثم لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (47)

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدمة أمانة تؤذن بحلوله. وقيل ليلاً أو نهاراً. وقرئ ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾. ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب. ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ ولذلك صح الاستثناء المفرغ منه، وقرئ ﴿يُهْلِكُ﴾ بفتح الياء.

﴿وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَّنْ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (48)

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهم بهم. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات الثواب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (49)

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مِّنْ عَمَلٍ مُّسْوًّى إِلَيْكُمْ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (54) وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسَتِّيْنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (55)

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائن رزقه. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ ما لم يوحى إلي ولم ينصب عليه دليل وهو من جملة المقول. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أو أقدر على ما يقدرون عليه. ﴿إِنْ آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والملكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للضال والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي المستقيم كالنبوة. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتهدوا أو فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الضمير لما يوحى إلي. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المفرطون في العمل، أو المجوزون للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقرأ به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من يحشروا فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بعدما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا أمره بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردت هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان - جلسنا إليك وحادثناك فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين»، قالوا: فأقمهم عنا إذا جئناك قال «نعم». وروي أن عمر رضي الله عنه قال له: لو فعلت حتى تنظر إلى ماذا يصيرون فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب فنزلت. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، وقيل صلاتاً الصبح والعصر. وقرأ ابن عامر بالغداة هنا وفي الكهف. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال من يدعون، أي يدعون ربهم مخلصين فيه قيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر. ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم وينافي بإبعادهم. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس عليك حساب إيمانهم فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، أو ليس عليك

اعتبار بواطنهم وإخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم. وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم. وقيل الضمير للمشركين والمعنى: لا تؤاخذ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يهلك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه. ﴿فَطَرَدَهُمْ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهي ويجوز عطفه على فطردهم على وجه التسبب وفيه نظر.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا. ﴿فَتَنَّا﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين فقدمنا هؤلاء الضعفاء على أشرف قريش بالسبق إلى الإيمان. ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي أهؤلاء من أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء. وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير كقولهم: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾. واللام للعاقبة أو للتعليل على أن فتنا متضمن معنى خذلنا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوقفه وبمن لا يقع منه فيخذه.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يدعون ربهم وصفهم بالإيمان بالقرآن واتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم ويشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله بعد النهي عن طردهم، إيداناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويشر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنباً عظيماً فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا فنزلت. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ شَوْءاً﴾ استئناف بتفسير الرحمة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع الحال أي من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، كحمر فيما أشار إليه، أو ملتبساً بفعل الجهالة فإن ارتكاب ما يؤدي إلى الضرر من أفعال أهل السفه والجهل. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد العمل أو السوء. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتحة من فتح الأول غير نافع على إضمار مبتدأ أو خبر أي فأمره أو فله غفرانه.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفضيل الواضح. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصيرين منهم والأوابين. ﴿وَلَيْسَتَيْنِ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على معنى ولتستوضح يا محمد سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يحق له فصلنا هذا التفصيل، وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه على معنى ولتين سبيلهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز أن يعطف على علة مقدرة أي تفصل الآيات ليظهر الحق وليستين.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

(56)

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ﴾ صرفت وزجرت بما نصب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله، أو ما تدعونها آلهة أي تسمونها. ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجبالهم، وبيان لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس يهدي، وتنبية لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي اتبعت أهواءكم فقد ضللت. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57)﴾

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تنبيه على ما يجب اتباعه بعد ما بين ما لا يجوز اتباعه. والبينة الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل وقيل المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية أو ما يعمها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من معرفته وأنه لا معبود سواه، ويجوز أن يكون صفة لبينة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير لربي أي كذبتُم به حيث أشركتم به غيره، أو للبينة باعتبار المعنى. ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره. ﴿يَقْضِي الْحَقُّ﴾ أي القضاء الحق، أو يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها، فيما يقضي من تعجيل وتأخير وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر، وأصل الحكم المنع فكأنه منع الباطل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يَقْضُ» من قص الأثر، أو من قص الخبر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ القاضين.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)﴾

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِندِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي. ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب. ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ في معنى الاستدراك كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يهمل منهم.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّوْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (59)﴾

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه جمع مفتاح بفتح الميم، وهو المخزن أو ما يتوصل به إلى المغيبات

مستعار من المفاتيح الذي هو جمع مفتاح بكسر الميم وهو المفتاح، ويؤيده أنه قرئ «مفاتيح» والمعنى أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها. ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ عطف للأخبار عن تعلق علمه تعالى بالمشاهدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات به. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن رَّوْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ معطوفات على ورقة وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدل الكل على أن الكتاب المبين علم الله سبحانه وتعالى، أو بدل الاشتمال إن أريد به اللوح وقرئت بالرفع للعطف على محل ورقة أو رفعاً على الابتداء والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (60)﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه ويراقبكم، استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من

المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْْجِعُكُمْ﴾ بالموت. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه. وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم ملقون كالجيف بالليل وكاسبون للأثم بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن

ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينبتكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾  
 (61) ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ ۚ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62) قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَرْبِطَ بِعَصَاكُمْ نَبَضًا بَاسًا بِفَضِّ أَنْظَرٍ كَيْفَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيهِ ۖ إِنَّنَا فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِنَّمَا يُغِثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَوُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنَّ ذِكْرًا لِمَلَهُمْ يَنْفُوتُ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءًا وَلَهُوَ أَعْرَضَتْهُمُ الْغِيْبَةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ ۚ أَنْ تَبْسُلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ۚ وَإِنْ تَعِدَلْ كُلَّ عَدَلٍ لَا يُوْخَذُ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)﴾

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أجزر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه. وقرأ حمزة «توفاه» بالالف مماله. ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ بالتواني والتأخير. وقرئ بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان.

﴿ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه. ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ الذي يتولى أمرهم. ﴿الْحَقُّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق وقرئ بالنصب على المدح. ﴿لَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدّة لمشاركتها في الهول وإبطال الإبصار فقبل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب «ينجيكهم» بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين ومسررين، أو إعلاناً وإسراراً وقرأ أبو بكر هنا وفي «الأعراف» «وخفية» بالكسر وقرئ «خيفة». ﴿لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون «لئن أنجانا» ليوافق قوله ﴿تدعونه﴾ وهذه إشارة إلى الظلمة.

﴿قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا﴾ شدة الكوفيون وهشام وخفقه الباقون. ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ غم سواها. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع تشركون موضع لا تشكرون تنبيهاً على أن من أشرك في عبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبد رأساً.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل.



﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون، وخسف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفلكم وعبيدكم. ﴿أَوْ يَلْسَنُكُمْ﴾ يخلطكم. ﴿شَيْعًا﴾ فرقا متحيزين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم قال:

وَكَيْفَ لَبِستَهَا بِكَيْفَةٍ حَتَّى إِذَا التَّيَسَّتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدَيَّ

﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ بالوعد والوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ أي بالعذاب أو بالقرآن. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الواقع لا محالة أو الصدق. ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وكل إلي أمركم فأمنعكم من التكذيب، أو أجازيكم إنما أنا منذر والله الحفيظ.

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾ خبر يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار ووقوع. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم. ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أعاد الضمير على معنى الآيات لأنها القرآن. ﴿وَأَمَّا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي. وقرأ ابن عامر ﴿ينسينك﴾ بالتشديد. ﴿فَلَا تَقْعُدُ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ بعد أن تذكره. ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي معهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمالهم وأقوالهم الذين يجالسونهم. ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ شيء مما يحاسبون عليه. ﴿وَلَكِنْ ذَكَّرُوا﴾ ولكن عليهم أن يذكرهم ذكرى ويمنعهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها وهو يحتمل النصب على المصدر والرفع ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز عطفه على محل من شيء لأن من حسابهم يأباه ولا على شيء لذلك ولأن من لا تزداد في الإثبات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم، ويحتمل أن يكون الضمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يشبثون على تقواهم ولا تنتلم بمجالستهم. روي: أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزاءوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ونطوف، فنزلت.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي بنوا أمر دينهم على التلهي وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً، كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه لعباً ولهواً حيث سخرها به، أو جعلوا عيدهم الذي جعل ميقات عبادتهم زمان لهو ولعب. والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وحيداً﴾ ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم وترك التعرض لهم ﴿وَعَزَّزْنَاهُمْ بِالدُّنْيَا﴾ حتى أنكروا البعث. ﴿وَذَكَّرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن. ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلاك وترهن بسوء عملها. وأصل الأيسال والبسل المنع ومنه أسد بأسل لأن فريسته لا تقلت منه، والباسل الشجاع لا متناعه من قرنه وهذا بسل عليك أي حرام. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب. ﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلُّ عَدْلٍ﴾ وإن نفذ كل فداء والعدل الفدية لأنها تعادل المفدي وهما هنا الفداء وكل نصب على المصدرية. ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فإنه المفدى به. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي سلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة. ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى

هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم .

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنِّي هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (71)

﴿ قُلْ أَدْعُوا ﴾ أنعبد . ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا . ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا ﴾ ونرجع إلى الشرك . ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام . ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن في المهامة ، استفعال من هوى يهوي هويًا إذا ذهب . وقرأ حمزة « استهواه » بألف مماله ومحل الكاف النصب على الحال من فاعل ﴿ نُرَدُّ ﴾ أي : مشبهين الذي استهوته ، أو على المصدر أي ردًا مثل رد الذي استهوته . ﴿ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ ﴾ متحيرًا ضالًا عن الطريق . ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ ﴾ لهذا المستهوى رفقة . ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ﴾ إلى أن يهده الطريق المستقيم ، أو إلى الطريق المستقيم وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر . ﴿ اثْنًا ﴾ يقولون له اثنتا . ﴿ قُلْ إِنِّي هُدَى اللَّهُ ﴾ الذي هو الإسلام . ﴿ هُوَ الْهُدَى ﴾ وحده وما عداه ضلال . ﴿ وَأَمْرًا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من جملة المقول عطف على أن هدى الله ، واللام لتعليل الأمر أي أمرنا بذلك لنسلم . وقيل هي بمعنى الباء وقيل هي زائدة .

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (72)

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ عطف على لنسلم أي للإسلام ولإقامة الصلاة ، أو على موقعه كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا الصلاة . روي : أن عبد الرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان ، فنزلت . وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيمًا لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما . ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (73)

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ قائمًا بالحق والحكمة . ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ جملة اسمية قدم فيها الخبر أي قوله الحق يوم يقول ، كقولك : القتال يوم الجمعة ، والمعنى أنه الخالق للسموات والأرضين ، وقوله الحق نافذ في الكائنات . وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو الهاء في واتقوه ، أو بمحذوف دل عليه بالحق . وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون ، والمراد به حين يكون الأشياء ويحدثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الأموات وإحياءها . ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي هو عالم الغيب . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ كالفضلكة للآية .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَٰهًا ۖ إِنَّكَ أَرْكَبٌ ۖ وَقَوْلَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (74)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ هو عطف بيان لأبيه ، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقبل هما علمان له كإسرائيل ويعقوب ، وقيل العلم تارح وآزر وصف معناه الشيخ أو المعوج ، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الآزر أو الوزر ، والأقرب أنه علم أعجمي على فاعل كعابر وشالغ ، وقيل اسم صنم يعبداه فلحق به للزوم عبادته ، أو أطلق عليه بحذف المضاف . وقيل المراد به الصنم ونصبه

بفعل مضمير يفسره ما بعده أي أعبد آزر ثم قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ تفسيراً وتقريراً. ويدل عليه أنه قرئ «آزراً»، تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرهما وهو اسم صنم. وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم. ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق. ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ ظاهر الضلالة.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (75)

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ومثل هذا التبصير نصره، وهو حكاية حال ماضية. وقرئ: «تري» بالناء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية. ﴿مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ربوبيتها وملكها. وقيل عجائبها وبدائعها والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي ليستدل وليكون، أو فعلنا ذلك ليكون.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (76)

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تفصيل وبيان لذلك. وقيل عطف على قال إبراهيم وكذلك نري اعتراض فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، وجن عليه الليل ستره بظلامه والكواكب كان الزهرة أو المشتري وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يكر عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال، وإنما قاله زمان مراهقته أو أول أوان بلوغه. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي غاب. ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالاستار يقتضي الأمان والحدوث وينافي الألوهية.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِيَدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (77)

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ مبتدئاً في الطلوع. ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِيَدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ استعجز نفسه واستعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه إرشاداً لقومه وتنبهها لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذها إلهاً فهو ضال.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (78)

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ ذكر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانة للرب عن شبهة التأنيث. ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ كبره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام المحدثنة المحتاجة إلى محدث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدتها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (79) وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (80)

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما احتج بالأقوال دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالاته، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال.

﴿وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ﴾ وخاصموه في التوحيد. ﴿قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى. وقرأ

نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون. ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى توحيده. ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، ولعله جواب لتخويفهم إياه من ألتهم وتهديد لهم بعذاب الله. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ كأنه علة الاستثناء، أي أحاط به علماً فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفساد والقادر والعاجز.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (81)

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ ولا يتعلق به ضرر. ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمُ بِاللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لأنه إشراك للمصنوع بالصانع، وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع. ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصب عليه دليلاً. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي الموحدون أو المشركون، وإنما لم يقل أينما أنا أم أنتم احترازاً من تركية نفسه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (82)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استفهم عنه، والمراد بالظلم ما هنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة وقالوا: أينما لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه ﴿يَا بَنِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإشراك به. وقيل المعصية.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (83)

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ أو من قوله: ﴿أحتاجوني﴾ إليه. ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أرشدناه إليها أو علمناه إياها. ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ متعلق بـ ﴿حجتنا﴾ إن جعل خبر تلك وبمحدوف إن جعل بدله أي: آتيناها إبراهيم حجة على قومه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ في العلم والحكمة. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالتثنية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه. ﴿عليمٌ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (84)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلا منهما. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم، عد هذه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرف الوالد يتعدى إلى الولد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه. وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان لإبراهيم اختصاص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها والمذكورون في الآية الثالثة عطف على نوحاً. ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق. ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ونجزي المسحنيين جزاء مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثر أولاده والنبوة فيهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (85)

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَى﴾ هو ابن مريم وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت. ﴿وَالْإِلَاسَ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمن في الآية الأولى. وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى. ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشُفَ وَلُوطًا وَكَأُلًا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (86)

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو اليسع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي «واليسع» وعلى القراءتين هو علم أعجمي أدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله:

رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكًا شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ

﴿وَيُوشُفَ﴾ هو يونس بن متى. ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم. ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

بالنبوة، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا

هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْسَدَةُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِنْ هُمْ إِلَّا ذَكَرُوا لِلْعَالَمِينَ (90) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ

الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَاطِبِينَ يُدَوِّنَهَا وَخُفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْنَاهُمَا لَو تَقَامَرَا تَتَدَوَّلَا أَبَاقُوكُمْ قُلِ اللَّهُ

ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عطف على «كلاً» أو «نوحاً» أي فضلنا كلاً منهم، أو هدينا

هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على

﴿فضلنا﴾ أو «هدينا». ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به. ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم

بالهداية. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم.

﴿لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه

الحق. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة. ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بهذه الثلاثة. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني قريشاً. ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ أي

بمرعاتها. ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم. وقيل هم

الأنصار أو أصحاب النبي ﷺ، أو كل من آمن به أو الفرس. وقيل الملائكة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم. ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْسَدُهُ﴾

فاختص طريقهم بالافتداء والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف

فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التماسي بهم جميعاً. فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة

والسلام متعبد بشرع من قبله، والهاء في «افتدته» للوقف ومن أثبتها في الدرج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي

عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي وأشبعها بالكسر ابن عامر برواية ابن ذكوان على أنها كتابة المصدر وكسرها بغير إشباع برواية هشام. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ أو القرآن. ﴿أَجْزَأَ﴾ جعلاً من جهتكم كما لم يسأل من قبلي من النسيب، وهذا من جملة ما أمر بالافتداء بهم فيه. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي التبليغ أو القرآن أو الغرض. ﴿إِلَّا ذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ إلا تذكيراً وموعظة لهم.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد. ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك من عظام رحمة وجلال نعمته أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جسروا على هذه المقالة، والقائلون هم اليهود قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم، وإلزامهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ وقراءة الجمهور ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِسَ يُثْذَوْنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالتاء وإنما قرأ بألياء ابن كثير وأبو عمرو حملاً على قالوا وما قدروا، وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم بالتوراة وذمهم على تجزئتها بإبداء بعض انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة وإخفاء بعض لا يشتهونه. وروي (أن مالك بن الصيف قاله لما أغضبه الرسول ﷺ بقوله: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله ييغض الحبر السمين قال: نعم إن الله ييغض الحبر السمين، قال عليه الصلاة والسلام: فأنت الحبر السمين) وقيل هم المشركون وإلزامهم بإنزال التوراة لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم ولذلك كانوا يقولون ﴿لَوْ أَنَا أَنزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾ على لسان محمد ﷺ. ﴿وَمَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ونظيره ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقْضَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أي أنزله الله، أو الله أنزله. أمره بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره، وتنبهاً على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرُونَ على الجواب. ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ في أباطيلهم فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من هم الأول، والظرف صلة ذرهم أو يلعبون أو حال منهم الأول، والظرف صلة ذرهم أو يلعبون أو حال من مفعوله، أو فاعل يلعبون أو من هم الثاني والظرف متصل بالأول.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني التوراة أو الكتب التي قبله. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات ولتنذر أو علة لمحذوف أي ولتنذر أهل أم القرى أنزلناه، وإنما سميت مكة بذلك لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأناً. وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء «ولينذر» الكتاب. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبى والكتاب، والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (93)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه بعثه نبياً كمسيلمه والأسود العنسي، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحي ومتابعيه. ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبد الله بن سعد بن أبي سرح

(كان يكتب لرسول الله ﷺ فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ فلما بلغ قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ قال عبد الله (فتبارك الله أحسن الخالقين) تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبها فذلك نزلت، فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال). ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ حَذَفَ مَفْعُولُهُ لِدَلَالَةِ الظَّرْفِ عَلَيْهِ أَوْ لَوْ تَرَى الظَّالِمِينَ. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شَدَائِدُهُ مِنْ غَمْرِ الْمَاءِ إِذَا غَشِيَهُ. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ يَقْبِضُ أَرْرَاحَهُمْ كَالْمَنْقَاضِ الْمَلْظُ أَوْ بِالْعَذَابِ. ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي يَقُولُونَ لَهُمْ أَخْرِجُوا إِلَيْنَا مِنْ أَجْسَادِكُمْ تَغْلِيظاً وَتَعْنِيفاً عَلَيْهِمْ، أَوْ أَخْرِجُوا مِنَ الْعَذَابِ وَخَلِّصُوا مِنْ أَيْدِينَا. ﴿الْيَوْمَ﴾ يَرِيدُونَ وَقْتُ الْإِمَامَةِ، أَوْ الْوَقْتُ الْمَمْتَدُّ مِنَ الْإِمَامَةِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ. ﴿تُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أَي الْهُونَ يَرِيدُونَ الْعَذَابَ الْمَتَّصِلَ لَشِدَّةِ وَإِهَانَةِ، فُضِاضَتِهِ إِلَى الْهُونِ لِمِرَاقَتِهِ وَتَمَكُّنِهِ فِيهِ. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ كَادِعَاءِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكَ لَهُ وَدَعْوَى النُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ كَاذِباً. ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فَلَا تَتَأْمَلُونَ فِيهَا وَلَا تَتَوَمَّنُونَ.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ (94) ﴿

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ لِلْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ. ﴿فُرَادَى﴾ مُنْفَرِدِينَ عَنِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَسَائِرِ مَا آثَرْتُمُوهُ مِنَ الدُّنْيَا، أَوْ عَنِ الْأَعْوَانِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي زَعَمْتُمْ أَنَّهَا شُفَعَاؤُكُمْ، وَهُوَ جَمْعُ فَرْدٍ وَالْأَلْفُ لِلتَّائِيثِ كَكَسَالِي. وَقُرِئَ «فَرَادٍ» كَرِخَالٍ وَفَرَادٍ كَثَلَاتٍ وَفَرْدِي كَسَكْرِي. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بَدَلَ مِنْهُ أَي عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي وَلَدْتُمْ عَلَيْهَا فِي الْإِنْفِرَادِ، أَوْ حَالٍ ثَانِيَةٍ إِنْ جَوَزَ التَّعَدُّدُ فِيهَا، أَوْ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي «فُرَادَى» أَي مُشَبَّهِينَ ابْتِدَاءً خَلَقَكُمْ عَرَاةً حِفَاةً غُرْلًا بِهِمَا، أَوْ صِفَةً مُصَدَّرَ «جِئْتُمُونَا» أَي مَجِيئِنَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ. ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ مَا تَفَضَّلْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا فَخَلَعْتُمْ بِهِ عَنِ الْآخِرَةِ. ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ مَا قَدَّمْتُمْ مِنْهُ شَيْئاً وَلَمْ تَحْتَمِلُوا نَقِيرًا. ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَي شُرَكَاءَ اللَّهِ فِي رِبُونِيَّتِكُمْ وَاسْتِحْقَاقِ عِبَادَتِكُمْ. ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أَي تَقَطَّعَ وَصْلُكُمْ وَتَشَتَّتَ جَمْعُكُمْ، وَالْبَيْنُ مِنَ الْأَضْدَادِ يَسْتَعْمَلُ لِلْوَصْلِ وَالْفَصْلِ. وَقِيلَ هُوَ الظَّرْفُ أَسْنَدٌ إِلَى الْفِعْلِ اتِّسَاعاً وَالْمَعْنَى: وَقَعَ التَّقَطُّعُ بَيْنَكُمْ، وَيَشْهَدُ لَهُ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَالْكَسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ بِالنَّصْبِ عَلَى إِضْمَارِ الْفَاعِلِ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ، أَوْ أَقِيمَ مَقَامَ مَوْصُوفَةٍ وَأَصْلُهُ لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ وَقَدْ قُرِئَ بِهِ. ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ ضَاعَ وَبَطَلَ. ﴿مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ أَنَّهَا شُفَعَاؤُكُمْ أَوْ أَنَّ لَا بَعَثَ وَلَا جِزَاءَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفَّكَوْنَ﴾ (95) ﴿

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بِالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ. وَقِيلَ الْمَرَادُ بِهِ الشَّقَاقُ الَّذِي فِي الْحَنْظَةِ وَالنَّوَاةِ. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ يَرِيدُ بِهِ مَا يَنْمُو مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ لِيُطَابِقَ مَا قَبْلَهُ. ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مِمَّا لَا يَنْمُو كَالنَّطَفِ وَالْحَبِّ. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وَمَخْرَجُ ذَلِكَ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، ذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْأَسْمِ حَمَلًا عَلَى فَالِقِ الْحَبِّ فَإِنْ قَوْلُهُ: يَخْرِجُ الْحَيَّ وَاقِعٌ مَوْقِعُ الْبَيَانِ لَهُ. ﴿ذَلِكَ اللَّهُ﴾ أَي ذَلِكَ الْمُحْيِي الْمَمِيتُ هُوَ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ الْعِبَادَةُ. ﴿فَأَنَّى تُؤَفَّكَوْنَ﴾ تَصْرِفُونَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (96) ﴿

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ شَاقَ عُمُودَ الصُّبْحِ عَنْ ظِلْمَةِ اللَّيْلِ أَوْ عَنْ بَيَاضِ النَّهَارِ، أَوْ شَاقَ ظِلْمَةَ الْإِصْبَاحِ وَهُوَ الْغَبَسُ الَّذِي يَلِيهِ وَالْإِصْبَاحُ فِي الْأَصْلِ مُصَدَّرٌ أَصْبَحَ إِذَا دَخَلَ فِي الصُّبْحِ سَمِيَ بِهِ الصُّبْحُ. وَقُرِئَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْجَمْعِ وَقُرِئَ «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ» بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَدْحِ. ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ يَسْكُنُ إِلَيْهِ التَّعَبُ

بالنهار لاستراحته فيه من سكن إليه إذا اطمأن إليه استثناساً به، أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ونصبه بفعل دل عليه جاعل لا به، فإنه في معنى الماضي. ويدل عليه قراءة الكوفيين ﴿وجعل الليل﴾ حملاً على معنى المعطوف عليه، فإن الفلق بمعنى فلق ولذلك قرئ به، أو به على أن المراد منه جعل مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ عطفاً على محل الليل ويشهد له قراءة بهما بالجر والأحسن نصبهما بجعل مقدراً. وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي مجعولان. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي على أدوار مختلفة يحسب بهما الأوقات ويكونان علمي الحسبان، وهو مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب. وقيل جمع حساب كشهاب وشهبان. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما والأنتفع من التداوير الممكنة لهما.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (97)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها لكم. ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر، وإضافتها إليهما للملازمة أو في مشبهات أطرق وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو أفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله لكم. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ بينها فصلاً فصلاً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (98)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب، أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام، أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع، وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول أي فمكنكم قار ومنكم مستودع، لأن الاستقرار منا دون الاستيداع. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوِهِ إِذَا فِي ذَلِكَ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (99) وجعلوا لله شركاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تَدْرِيكَ أَتَبْصُرُ وَهُوَ يَدْرِيكَ أَتَأْخُذُكَ الْأَبْصَارُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَمَلَيْتُمْ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِيَتَذَكَّرُوا (105)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب أو من جانب السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على تلوين الخطاب. ﴿بِهِ﴾ بالماء. ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من النبات والمعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفضة المسقية بماء واحد كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْقِيْ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ ونفضل



بعضها على بعض في الأكل. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات أو الماء. ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر يقال أخضر يقال أخضر خضر كأعور وعور، وهو الخارج من الحبة المشعب. ﴿نُخْرَجُ مِنْهُ﴾ من الخضر. ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلوعها قنوان، أو من النخل شيء من طلوعها قنوان، ويجوز أن يكون من النخل خبر قنوان ومن طلوعها بدل منه والمعنى: وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأعذاق جمع قنو كصنوان جمع صنو. وقرئ بضم القاف كذئب وذؤبان وبفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس إعلان من أبنية الجمع. ﴿دَانِيَةً﴾ قريبة من المتناول، أو متلفة قريب بعضها من بعض، وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالته عليه وزيادة النعمة فيها. ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على نبات كل شيء. وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جئات أو من الكرم جئات، ولا يجوز عطفه على ﴿قِنْوَانٍ﴾ إذ العنب لا يخرج من النخل. ﴿وَالزَّيْتُونِ وَالرَّهْمَانِ﴾ أيضاً عطف على نبات أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم. ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ حال من الرمان، أو من الجميع أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم. ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء والميم، وهو جمع ثمرة كخشبة وخشب، أو ثمار ككتاب وكتب. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يثمر شيئاً لا يكاد ينتفع به. ﴿وَيَنْبُغِهِ﴾ وإلى حال نضجه أو إلى نضيجته كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة، وهو في الأصل مصدر ينبت الثمر إذا أدركت. وقيل جمع يانع كتاجر وتجر. وقرئ بالضم وهو لغة فيه ويانعة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المقتنة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أي الملائكة بأن عبدوهم وقالوا: الملائكة بنات الله. وسماهم جنّاً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم، أو الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع، والشیطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأي الثوية. ومفعولاً ﴿جَعَلُوا﴾ ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ والجن بدل من ﴿شُرَكَاءَ﴾ أو ﴿شُرَكَاءَ﴾ الجن و ﴿لِلَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿شُرَكَاءَ﴾، أو حال منه وقرئ ﴿الْجِنَّ﴾ بالرفع كأنه قيل: من هم فقيل الجن، و ﴿الْجِنَّ﴾ بالجر على الإضافة للتبيين. ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال بتقدير قد، والمعنى وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق. وقرئ ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ عطفاً على ﴿الْجِنَّ﴾ أي وما يخلقونه من الأصنام، أو على شركاء أي وجعلوا له اختلافهم للإفك حيث نسبوه إليه. ﴿وَحَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافترؤا له. وقرأ نافع بتشديد الراء للتكثير. وقرئ «وحرقوا» أي وزوروا. ﴿بَيْنَ وَبَيْنَ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالت العرب الملائكة بنات الله. ﴿يَغْيِرُ عِلْمَ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً، وهو في موضع الحال من الواو، أو المصدر أي خرقاً بغير علم. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ وهو أن له شريكاً أو ولداً.

﴿يَدْبِغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أو إلى الظرف كقولهم: ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما، وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه، ورفع على الخبر والمبتدأ محذوف أو على الابتداء وخبره. ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد. ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ يكون منها الولد. وقرئ بالياء للفصل أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول، وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه: (الأول) أنه من مبدعات السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة

مبرة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد. (والثاني) أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزّه عن المجانسة. (والثالث) أن الولد كفؤ الوالد ولا كفؤ له لوجهين: الأول أن كل ما عدا مخلوقة فلا يكافئه. والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإجماع.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبار مترادفة ويجوز أن يكون البعض بدلاً أو صفة والبعض خبراً. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حكم مسبب عن مضمونها فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم وريقب على أعمالكم فيجازيكم عليها.

﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به. ﴿الْأَبْصَارُ﴾ جمع بصر وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعلة مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص، فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْبْصَارَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها لدلالة لأنها تجلي لها الحق وتبصرها به. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي أبصر الحق وآمن به. ﴿فَلَئِنْ أَبْصَرَ لَأَنْفُسَهُ﴾ أبصر لأن نفسه لها. ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عن الحق وضل. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وباله. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ وإنما أنا منذر والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها، وهذا كلام ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ﴾ ومثل ذلك التصريف نصرف، وهو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف، وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقولوا درست صرفنا واللام لام العاقبة، والدرس القراءة والتعليم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست أي دارست أهل الكتاب وذاكرتهم، وابن عامر ويعقوب درست من الدروس أي قدمت هذه الآيات وعفت كقولهم أساطير الأولين. وقرئ ﴿دَرَسْتَ﴾ بضم الراء مبالغة في درست ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت، أو عفيت ودارست بمعنى درست أو دارست اليهود محمداً ﷺ، وجاز إضمارهم بلا ذكر لشهرتهم بالدراسة، ودرسن أي عنون ودرس أي درس محمد ﷺ ودارسات أي قديمات أو ذوات درس كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. ﴿وَلْيَبْصُرْ﴾ اللام على أصله لأن التبين مقصود التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوماً أو للمصدر. ﴿لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المتفهمون به.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (106)

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالتدين به. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفرداً في الألوهية. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (107)

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم. ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد

إيمان الكافرين وأن مراده واجب الوقوع. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِنَّ رَبَّهُمْ مَرَّجَهُمْ فَيَنْبِتُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (108)

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به. وقرأ يعقوب ﴿عَدْوًا﴾ يقال عدا فلان عدواً وعدواً وعداءً وعدواناً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعن في آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك، فترلت. وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر. ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتخديلاً، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكل أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم، والمشبّه به تزيين سب الله لهم. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرَّجَهُمْ فَيَنْبِتُهُمْ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (109)

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، والداعي لهم إلى هذا القسم والتأكيد فيه التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات واستحقارها رأوا منها. ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم. ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدرىكم استفهام إنكار. ﴿أَنَّهَا﴾ أي أن الآية المقترحة. ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا تدرون أنهم لا يؤمنون، أنكر السبب مبالغة في نفي المسبب، وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وقيل لا مزيدة وقيل أن بمعنى لعل إذ قرئ لعلها قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب إنها بالكسر كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبركم بما علم منهم والخطاب للمؤمنين فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فترلت. وقيل للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحزمة «لا تؤمنون» بالثاء وقرئ «وما يشعرهم أنها إذا جاءت» فيكون إنكاراً لهم على حلفهم أي: وما يشعرهم أن قلوبهم حينئذ لم تكن مطبوعة كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات فيؤمنون بها.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ سَرُوفٍ وَنُفِّسُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (110)

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عطف على لا يؤمنون أي: وما يشعركم أنا حينئذ نقلي أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بما أنزل من الآيات. ﴿أَوَّلَ سَرُوفٍ وَنُفِّسُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وندهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين. وقرئ. «وَيُقَلِّبُ» و «يذرهم» على الغيبة، و «تقلب» على البناء للمفعول والإسناد إلى الأفعلة.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَسْخَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (111)

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كما اقترحوا فقالوا: لولا

أنزل علينا الملائكة فأتوا بآياتنا ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ وقبلاً جمع قبيل بمعنى كفيل أي: كفلاء بما بشروا به وأنذروا به، أو جمع قبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات، أو مصدر بمعنى مقابلة كقبلاً وهو قراءة نافع وابن عامر، وهو على الوجوه حال من كل وإنما جاز ذلك لعمومه. ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم، وقيل منقطع وهو حجة واضحة على المعتزلة. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (112)

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سبباً عدواً، وهو دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه. ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ مرادة الفريقيين، وهو يدل من عدواً، أو أول مفعولي ﴿جعلنا﴾ و﴿عدواً﴾ مفعوله الثاني، ولكل متعلق به أو حال منه. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة منه من زخرفة إذا زينها. ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له أو مصدر في موقع الحال. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم. ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا ذلك يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاء الزخارف، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء أو الزخرف أو الغرور، وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وكفرهم.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيْفْتَرُوا مَا هُمْ مُقْتَرُونَ﴾ (113) أَفْغِيرَ اللَّهِ أَتَغْيِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تَطَلَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُقْتَدِرِينَ (119) وَذَرُوا ظُلْهَرِ الْأَثَرِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَرَ سَيَجْزَوْنَ يَمًا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (120)

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ عطف على ﴿غُرُورًا﴾ إن جعل علة، أو متعلق بمحذوف أي وليكون ذلك ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾. والمعتزلة لما اضطروا فيه قالوا: اللام لام العاقبة أو لام القسم كسرت لما لم يؤكد الفعل بالنون أو لام الأمر وضعفه أظهر، والصغى: الميل والضمير لما له الضمير في فعلوه. ﴿وَلِيْفْتَرُوا﴾ لأنفسهم. ﴿وَلِيْقْتَرِفُوا﴾ وليكتسبوا. ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

﴿أَفْغِيرَ اللَّهِ أَتَغْيِي حَكَمًا﴾ على إرادة القول أي: قل لهم يا محمد أغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل، و «غير» مفعول «أبغى» و «حكماً» حال منه ويحتمل عكسه، و

﴿حَكَمًا﴾ أبلغ من حاكم ولذلك لا يوصف به غير العادل. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن المعجز. ﴿مُقَصِّلًا﴾ مبيناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقديره مغن عن سائر الآيات. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل. وقيل المراد مؤمنون أهل الكتاب. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿مَنْزِلٌ﴾ بالتشديد. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لوجود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهيج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده. ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد. ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام ونصبهما يحتمل التمييز والحال والمفعول له. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله: ﴿وإنَّاهُ لِحَافِظُونَ﴾ أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها. وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿كَلِمَةً رَبِّكَ﴾ أي ما تكلم به أو القرآن. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

﴿وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار، أو الجهال أو اتباع الهوى. وقيل الأرض أرض مكة. ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالى فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يقدرون أنهم على شيء وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي أعلم بالفرقيين، و ﴿مَنْ﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب بفعل دل عليه أعلم لا به فإن أفعل لا ينصب الظاهر في مثل ذلك، أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر ﴿يَضِلُّ﴾ والجملة معلق عنها الفعل المقدر. وقرئ ﴿مَنْ يَضِلُّ﴾ أي يضل الله، فتكون من منصوبة بالفعل المقدر أو مجرورة بإضافة أعلم إليه أي: أعلم المضلين من قوله تعالى: ﴿مَنْ يَضِلُّ اللَّهُ﴾ أو من أضلته إذا وجدته ضالاً، والتفضيل في العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام، والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرمه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿فَصَّلَ﴾ على البناء للمفعول، ونافع ويعقوب وحفص ﴿حَرَّمَ﴾ على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ بتحليل الحرام

وتحريم الحلال. قرأ الكوفيون بضم الياء والباقون بالفتح. ﴿بَاهَوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشبههم من غير تعلق بدليل يفيد العلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنِّمِ وَيَاطِنَةُ﴾ ما يعلن وما يسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب. وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنِّمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أُولَئِكَ بِهِمْ لِجَدِّ لُؤْمٍ وَإِنَّ

أَطْعَمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (121)

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر في تحريم متروك التسمية عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب داود وعن أحمد مثله، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام «ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه» وفرق أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به، والضمير لما ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه ولا تأكلوا. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون. ﴿إِلَى أُولَئِكَ﴾ من الكفار. ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله، وهو يؤيد التأويل بالميتة. ﴿وَإِنَّ أَطْعَمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرم. ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك، وإنما حسن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (122) وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرمين ﴿يَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (123) وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرؤا صغاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يَمْكُرُونَ (124) فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (125) وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون (126) لهم دار السالم عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون (127) ويوم يحشرهم جميعاً يمشي آل نبي قد استكثرتهم من الآيس وقال أولياؤهم من الآيس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار متونكم خليلين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (128) وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون (129) يمشي آل نبي والآيس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وعرفتهم الحيوة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (130)

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مثل به من هداة الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل. وقرأ نافع ويعقوب «مينا» على الأصل. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ صفته وهو مبتدأ خبره. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ حال من المستكن في الظرف لا من الهاء في مثله للفصل، وهو مثل لمن بقي على الضلالة لا يفارقه بحال. ﴿كَذَلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين إيمانهم. ﴿زُينَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والآية نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار وأبي جهل.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، و ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا ومفعولاه ﴿أكابر مجرميها﴾ على تقديم المفعول الثاني، أو في كل قرية ﴿أكابر﴾ و ﴿مجرميها﴾ بذل ويجوز أن يكون مضافاً إليه إن فسر الجعل بالتمكين، وأفعّل التفضيل إذا أضيف جاز فيه الأفراد والمطابقة ولذلك قرئ «أكبر مجرميها»، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحق بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ذلك. ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يعني كفار قريش لما روي: أن أبا جهل قال زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتية، فنزلت: ﴿اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَخْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال وإنما هي بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتيبي لرسالاته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿رِسَالَتِهِ﴾ سَبِيْبُ الَّذِينَ أَجْرُمُوا صَغَارٌ ذل وحقارة بعد كبرهم. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يوم القيامة وقيل تقديره من عند الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم أو جزاء على مكرهم.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فيتسع له وينفسح فيه مجاله، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيةةً لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه أفضل الصلاة والسلام حين سئل عنه فقال «نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا: هل لذلك من أمانة يعرف بها فقال: نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله. ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان. وقرأ ابن كثير ﴿ضَيِّقًا﴾ بالتخفيف ونافع وأبو بكر عن عاصم حرجاً بالكسر أي شديد الضيق، والباقون بالفتح وصفاً بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ شبهة مبالغة في ضيق صدره بمن يزاوّل ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود. وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه، وأصل يصعد يتصعد وقد قرئ به وقرأ ابن كثير ﴿يصعد﴾ وأبو بكر عن عاصم يصاعد بمعنى يتصاعد. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمّر للتعليل.

﴿وَهَذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام أو ما سبق من التوفيق والخذلان. ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الطريق الذي ارتضاه أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطرداً وهو حال مؤكدة كقوله ﴿وهو الحق مصدقاً﴾، أو مقيدة والعامل فيها معنى الإشارة. ﴿قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره أو دار تحيتهم فيها سلام. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ مواليهم أو ناصرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نصب باضممار اذكر أو نقول، والضمير لمن يحشر من الثقلين. وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب ﴿يحشرهم﴾ بالياء. ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ يعني الشياطين. ﴿قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنْ

الإنس﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقوله استكثر الأمير من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أطاعوهم. ﴿رَبَّنَا اسْتَمْنَعْ بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ أي انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم. وقيل استمتع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاز وعند المخاوف، واستمتعهم بالإنس اعترافهم بأنهم يقدرون على إجازتهم. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا﴾ أي البعث وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث وتحسر على حالهم. ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ منزلكم أو ذات مثواكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال والعامل فيها مثواكم إن جعل مصدراً، ومعنى الإضافة إن جعل مكاناً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي يتقلون فيها من النار إلى الزمهرير وقيل ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قبل الدخول كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلهم. ﴿إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم. ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بِعَضْ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نكل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضهم يتولى بعضاً فيغويهم أولياء بعض وقرناءهم في العذاب كما كانوا في الدنيا. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الرسل من الإنس خاصة، لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك ونظيره ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُوكَ وَالْمَرْجَانَ﴾ والمرجان يخرج من الملح دون العذب وتعلق بظاهره قوم وقالوا بعث إلى كل من الثقلين رسل من جنسهم. وقيل الرسل من الجن رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾. ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزَادُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني يوم القيامة. ﴿قَالُوا﴾ جواباً. ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ بالجرم والعصيان وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب. ﴿وَعَزَّزْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِنَا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذير للسامعين مثل حالهم.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (131)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى إرسال الرسل، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك. ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ تعليل للحكم وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة أي: الأمر لا تنفاه كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه، أو ملتبسين يظلم أو ظالماً وهم غافلون لم ينبهوا برسول أو بدل من ذلك.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (132)

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين. ﴿دَرَجَاتٌ﴾ مراتب ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم أو من جزائها، أو من أجلها ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب. وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ

ذُرِّيَّتِهِ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (133)

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيس لما بعده وهو قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة. ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق. ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن لكنه أبقاكم ترحماً عليكم.



﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (134) قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135) وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ لَيُرَدُّوهُمْ وَلَيُلْجَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) وَقَالُوا هَذِهِ أَفْعَدْنَا وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَّشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنفَعُ حُرْمَتٌ طُهُورُهَا وَأَنفَعُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سِيَئَتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا فِي الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مِّسْكَةً فَلَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) فَذَخِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴿

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله. ﴿لَآتٍ﴾ لكائن لا محالة. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ طالبكم به. ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمکن، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة. وقرأ أبو بكر عن عاصم «مكاناتكم» بالجمع في كل القرآن وهو أمر تهديد، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجعماً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به، إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن يتقضي عنه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ إن جعل ﴿من﴾ استيهامية بمعنى أين تكون له عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار، فمحلها الرفع وفعل العلم معلق عنه وإن جعلت خبرية فالنصب بـ ﴿تعلمون﴾ أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار، وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب، وتنبه على وثوق المنذر بأنه محق. وقرأ حمزة والكسائي «يكون» بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركوا العرب. ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق. ﴿مِّنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ روي: أنهم كانوا يعينون شيئاً؟ من حرث ونتائج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سدناتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا الله أركى بدلوه بما لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أركى تركوه لها حباً لآلهتهم. وفي قوله ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله ﴿بِرَعْمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. وقرأ الكسائي بالضم في الموضعين وهو لغة فيه وقد جاء فيه الكسر أيضاً كالود والود. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك للترتين في قسمة القربان. ﴿زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ بالوَاد ونحرمهم لآلهتهم. ﴿شُرَكَاءُ لَهُمْ﴾ من الجن أو من السدنة، وهو فاعل ﴿زَيْنَ﴾. وقرأ ابن عامر ﴿زَيْنَ﴾ على البناء للمفعول الذي هو القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء بإضافة القتل إليه مفصلاً بينهما بمفعوله وهو

ضعيف في العربية معدود من ضرورات الشعر كقوله:

فَرَجَجْتُهُا بِمَرْجَةٍ رَجَّ القُلُوصِ أَبِي مُزَادَةَ

وقرىء بالبناء للمفعول وجر أولادهم ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه ﴿زَيْن﴾. ﴿يُرْذَوُهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء. ﴿وَلْيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين والعاقبة إن كان من السدنة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم، أو الشركاء التزيين أو الفريقان جميع ذلك. ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ افتراءهم أو ما يفترونه من الإفك.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعل لآلهمتهم. ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرٌ﴾ حرام فعل بمعنى مفعول، كالذبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى. وقرىء ﴿حِجْرٌ﴾ بالضم وحر ج أي مضيق. ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء. ﴿بِرْغَمِهِمْ﴾ من غير حجة. ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني البحائر والسواائب والحوامي. ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها، وقيل لا يحجون على ظهورها. ﴿أَفْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾ نصب على المصدر لأن ما قالوا تقول على الله سبحانه وتعالى، والجار متعلق بـ ﴿قَالُوا﴾ أو بمحذوف هو صفة له أو على الحال، أو على المفعول له والجار متعلق به أو بالمحذوف. ﴿سَيَجْزِيهِمْ يَمًا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بسبه أو بدله.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنون أجنة البحائر والسواائب. ﴿خَالِصَةً لِّلذُّكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا﴾ حلال للذكور خاصة دون الإناث إن ولد حياً لقوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء وتأنيث الخالصة للمعنى فإن ما في معنى الأجنة ولذلك وافق عاصم في رواية أبي بكر بن عامر في تكن بالتاء، وخالفه هو وابن كثير في ﴿مَيِّتَةً﴾ فنصب كغيرهم، أو التاء فيه للمبالغة كما في رواية الشعر أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص. وقرىء بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر ﴿لِلذُّكُورِنَا﴾، أو حال من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في ذكورنا ولا من الذكور لأنها لا تقدم على العامل المعنوي ولا على صاحبها المجرور. وقرىء «خالص» بالرفع والنصب و «خالصة» بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان والمراد ما كان حياً، والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ﴾ أي جزاء وصفهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ﴾ ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي والفقر. وقرأ ابن كثير وابن عامر ﴿قتلوا﴾ بالتشديد بمعنى التكثير. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم، ويجوز نصبه على الحال أو المصدر. ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر ونحوها. ﴿أَفْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ﴾ يحتمل الوجوه المذكورة في مثله. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق والصواب.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مَشْكِيهَا وَغَيْرَ مَشْكِيهَا كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَرُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (141)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ من الكروم. ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على ما يحملها. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض. وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري

والجبال. ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ﴾ ثمره الذي يؤكل في الهيئة والكيفية، والضمير للزرع والباقي مقيس عليه، أو النخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه، أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضهما. ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم ينضج بعد. وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى. ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة لأنها فرضت بالمدينة والآية مكية. وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتفقيه. وقرأ ابن كثير ونافع وحزمة والكسائي ﴿حَصَادِهِ﴾ بكسر الحاء وهو لغة فيه. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التصديق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتضي فعلهم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(142)

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصفه ووبره. وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها. ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهرة العداوة.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ

أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِمِلٍّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143)﴾

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدل من حمولة وفرشاً، أو مفعول كلوا، ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعل دل عليه أو حال من ما بمعنى مختلفة أو متعددة والزواج ما معه آخر من جنسه يزواجه وقد يقال لمجموعهما والمراد الأول. ﴿وَمِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين الكباش والنعجة، وهو بدل من ثمانية وقرىء «اثنان» على الابتداء. و﴿الضَّأْنُ﴾ اسم جنس كالإبل وجمعه ضئنين أو جمع ضائن كتاجر وتجر. وقرىء بفتح الهمزة وهو لغة فيه. ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس، وقرىء «المعزى». ﴿قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ﴾ ذكر الضأن وذكر المعز. ﴿حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم أنثيهما ونصب الذكرين والاثنتين بحرم ﴿أَمْ أَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّئُونِي بِمِلٍّ﴾ بأمر معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِقَرْنٍ عَلِيمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعُمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْنَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضَلُّ عَنِ بَاطِلٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (145)﴾

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ كما

سبق والمعنى إنكار أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إنانها رداً عليهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإنانها تارة أخرى وأولادها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ بل أنتم شاهدون حاضرين: ﴿إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسمع. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد كبرائهم المقررون لذلك، أو عمرو بن لحي بن قعدة المؤسس لذلك. ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي في القرآن، أو فيما أوحى إليّ مطلقاً، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً. ﴿عَلَى طَائِعٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أن يكون الطعام ميتة، وقرأ ابن كثير وحزمة تكون بالياء لتأنيث الخبر، وقرأ ابن عامر بالياء، ورفع ﴿مَيْتَةً﴾ على أن كان هي التامة وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ عطف على أن مع ما في حيزه أي: إلا وجود ميتة أو دمًا مسفوحاً، أي مصبوحاً كالدم في العروق لا كالكدب والطحال. ﴿أَوْ لَحْمٍ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قدر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث مخبث ﴿أَوْ فَسْقًا﴾ عطف على لحم خنزير. وما بينهما اعتراض للتعليل. ﴿أَهْلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ صفة له موضحة وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أهل وهو عطف على يكون والمستكن فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكن في يكون. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ فمن دعت الضرورة. إلى تناول شيء من ذلك ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ على مضطر مثله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه، والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحى إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (146)

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ كل ماله أصبع الإبل والسباع والطيور. وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم. ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الثروب وشحوم الكلى والإضافة لزيادة الربط. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا ما علقت بظهورهما. ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء جمع حاوية، أو حاويات كقصاصعاء وقواصع، أو حاوية كسفينة وسفائن. وقيل هو عطف على شحومهما واو بمعنى الواو. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص. ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم أو الجزاء. ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في الإخبار أو الوعد والوعيد.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (147)

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بامهاله فإنه لا يهمل. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين، فأقام مقامه ولا يرد بأسه لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لا زب بهم لا يمكن رده عنهم.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْكَافِهِمْ عَنْ عُلُوقِ قُتْحِ جَوْهَرٍ لَّنَّا إِنْ تَنَبَّعُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (148)

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار عن مستقبل ووقوع مخبره يدل على إعجازه. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما فعلنا نحن ولا آبائنا، أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم حتى ينهض ذمهم به دليلاً للمعتزلة ويؤيده ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذب الذين من قبلهم الرسل، وعطف آبائنا على الضمير في أشركنا من غير تأكيد للفصل بلا. ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به. على ما زعمتم. ﴿فَتَخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهروه لنا. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن سيما في الأصول، ولعل ذلك حيث يعارضه قاطع إذ الآية فيه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَكُمُ أَجْمَعِينَ﴾ (149)

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المثانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه وهي من الحج بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين.

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (150)

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ﴾ أحضروهم، وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز، وفعل يؤنث ويجمع عند بني تميم وأصله عند البصريين: ها لم من لم إذا قصد حذف الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل، وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهزمة بإلقاء حركتها على اللام، وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كقوله هلم إلينا. ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ يعني قدوتهم فيه استحضرتهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم، ولذلك قيد الشهاداء بالإضافة ووصفهم بما يقتضي العهد بهم. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ فلا تصدقهم فيه وبين لهم فسادهم فإن تسلميه موافقة لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من وضع المظهر موضع المضممر للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصداقاً بها. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان. ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَكَلَّلُوا أَمْ أَنْتُمْ رَبُّكُمْ عَلَيَّكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (151)

﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أمر من التعالي وأصله أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفلى فانتسج فيه بالتعميم. ﴿أَنْتُمْ أَقْرَأُ﴾ اقرأ. ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ منصوب بأتل وما تحتل الخبرية والمصدرية، ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بحرم والجملة مفعول ﴿أَنْتُمْ﴾ لأنه بمعنى أقل، فكأنه قيل أنتل أي شيء حرم ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾ أو ﴿أَنْتُمْ﴾. ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ﴾ أي لا تشركوا به ليصح عطف الأمر عليه، ولا يمنعه تعليق الفعل المفسر بـ ﴿مَا حَرَّمَ﴾، فإن التحريم باعتبار الأوامر يرجع إلى أضدادها ومن جعل أن ناصبة فمحلهما النصب

بعلينكم على أنه للإغراء، أو البدل من ﴿مَا﴾ أو من عائده المحذوف على أن لا زائدة والجر بتقدير اللام، أو الرفع على تقدير المتلو أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا. ﴿شَيْئاً﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشية. كقوله: ﴿خشية إملاق﴾ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ منع لموجبة ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاج عليه. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ كبائر الذنوب أو الزنا. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل منه وهو مثل قوله ﴿ظَاهِرُ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقود وقتل المرتد ورجم المحصن. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً. ﴿وَصَّاكُمُ بِهِ﴾ بحفظه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ترشدون فإن كمال العقل هو الرشد.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَوْفَاؤُهُ لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (152)

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفعل التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثمينه. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يصير بالغاً، وهو جمع شدة كنعمة وأنعم أو شد كصر وأصر وقيل مفرد كأنك. ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ بالعدل والتسوية. ﴿لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره عقيب الأمر أن إيفاء الحق عسر عليكم فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ في حكومة ونحوها. ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع. ﴿ذَلِكَ﴾ وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ تتعظون به، وقرأ حمزة وحفص والكسائي ﴿تذكرون﴾ بتخفيف الذال حيث وقع إذا كان بالتاء والباقون بتشديدها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (153)

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿إِنَّ﴾ بالكسر على الاستئناف، وابن عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف. وقرأ الباقون بها مشددة بتقدير اللام على أنه علة لقوله. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿صِرَاطِي﴾ بفتح الياء، وقرئ «وهذا صراطي» «وهذا صراط ربكم» «وهذا صراط ربك». ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطباع والعادات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. ﴿ذَلِكَ﴾ الاتباع. ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلَذِّقُوا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (154)

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ عطف على ﴿وصاكم﴾، وثم للتراخي في الإخبار أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل؛ ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعظم من ذلك ﴿أَنَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. ﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، ويؤيده إن قرئ «على الذين أحسنوا» أو «على الذي أحسن تبليغه» وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أو «تماماً على ما أحسنه» أي أجاده من العلم والتشريع أي زيادة على علمه إتماماً له. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي «على الذي هو أحسن»

أو على الوجه الذي هو حسن ما يكون عليه الكتب. ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهو عطف على تمام ونصبهما يحتمل العلة والحال والمصدر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَالَمِينَ﴾ لعل بني إسرائيل. ﴿يَلْقَاءَ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بلقائه للجزاء.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (155)

﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع. ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (156)

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا علة لأنزلناه. ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في ﴿إِنَّمَا﴾ لأن الباقي المشهود حيثئذ من الكتب السماوية لم يكن غير كتبهم. ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ إن هي المخففة من الثقلية ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبر كان أي وإنه كنا. ﴿عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم، ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لا ندرى ما هي، أو لا تعرف مثلها.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (157)

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف على الأول. ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا فنوناً من العلم كالقصص والأشعار والخطب على أنا أميون. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حجة واضحة تعرفونها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها أو تمكن من معرفتها. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صد. ﴿عَنْهَا﴾ فضل أو أفضل. ﴿سَنَجَزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ شدته. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم أو صدهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِلَى مَا تُنْظِرُونَ﴾ (158)

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون يعني أهل مكة، وهم ما كانوا منتظرين لذلك ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب. وقرأ حمزة والكسائي بالياء هنا وفي «النحل». ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي أمره بالعذاب، أو كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني أشراف الساعة وعن حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب: (كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، قال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وبأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وناراً تخرج من عدن). ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ كالمحتضر إذ صار الأمر عياناً والإيمان برهاني. وقرئ «تنفع» بالتاء لإضافة الإيمان إلى ضمير المؤنث. ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ صفة نفساً. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ عطف على «آمنت» والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حيثئذ نفساً غير مقدمة إيمانها أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً، وهو دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل وللمعتبر تخصيص هذا الحكم بذلك اليوم، وحمل التردد على اشتراط النفع بأحد الأمرين على معنى لا ينفع نفساً

خَلَّتْ عَنْهَا إِيمَانُهَا، وَالْعَظْفُ عَلَى لَمْ تَكُنْ بِمَعْنَى لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا الَّذِي أَحْدَثَتْهُ حِينْتُهُ وَإِنْ كَسَبَتْ فِيهِ خَيْرًا. ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ وَعِيدُ لَهُمْ، أَي: أَنْتَظِرُوا أَتِيَانِ أَحَدِ الثَّلَاثَةِ فَإِنَّا مُنْتَظِرُونَ لَهُ وَحِينْتُهُ لَنَا الْفَوْزُ وَعَلَيْكُمْ الْوَيْلُ.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ ﴾ (159)

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بددوه فأمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة». وقرأ حنزة والكسائي «فارقوا» أي باينوا. ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ فرقا تشيع كل فرقة إماماً. ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم. وقيل هو نهي عن التعرض لهم وهو منسوخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولى جزاءهم. ﴿ثُمَّ يُنَبِّهُهُمْ بَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بالعقاب.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِنْهَا وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ (160) ﴿

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله. وقرأ يعقوب «عشرة» بالتوئين وأمثالها بالرفع على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ قضية للعدل. ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِمَّةً لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ حَافِئًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161)﴾

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج . ﴿دِينًا﴾ بدل من محل إلى صراط إذ المعنى ، هداني صراطاً كقوله : ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ . ﴿قِيَمًا﴾ فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة والمستقيم باعتبار الصيغة . وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي ﴿قِيَمًا﴾ على أنه مصدر نعت به وكان قياسه قوماً كعوض فاعل لإعلال فعله كالقيام . ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لدينا . ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف عليه .

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْمَالِكِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي عِبَادَتِي كُلَّهَا، أَوْ قَرْبَانِي أَوْ حَجِّي.﴾ ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة، أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات كالوصية والتدبير، أو الحياة والممات أنفسهما. وقرأ نافع ﴿محيي﴾ بإسكان الياء إجراء للوصل مجرى الوقف. ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيراً. ﴿وَبِذَلِكَ﴾ القول أو الإخلاص. ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبِغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا زُرُودًا وَإِذْ أَخْرَجْنَاكَ مِنَ بَيْتِكَ﴾

مَرْحُومَكُمْ فَبَيْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ (164) ﴿



﴿قُلْ أَعْيَزَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا﴾ فأشركه في عبادتي وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا يفتني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة. ﴿فَيُبْخِشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بتبيين الرشد من الغي وتمييز المحق من المبتطل. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (165)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الشرف والغنى. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الجاه والمال. ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب أو لأنه يسرع إذا أراد. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وصف العقاب ولم يصفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها قليل العقوبة مسامح فيها. عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة».

## سورة الأعراف

[مكية غير ثمان آيات من قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ﴾ محكمة كلها. وقيل إلا قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وآيها مائتان وخمس أو ست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ (1)﴾

﴿المص﴾ سبق الكلام في مثله.

﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (3)

﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو كتاب، أو خبر ﴿المص﴾ والمراد به السورة أو القرآن. ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفة. ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شك، فإن الشك حرج الصدر أو ضيق قلب من تبليغه مخافة أن تكذب فيه، أو تقصر في القيام بحقه، وتوجيه النهي فيه للمبالغة كقولهم: لا أرينك ها هنا. والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قيل: إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك. ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ متعلق بأنزل أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفهم أو علم أنه موفق للقيام بتبليغه. ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل النصب بإضمار فعلها أي: لتنذر وتذكر ذكرى فإنها بمعنى التذكير، والجر عطفاً على محل تنذر والرفع عطفاً على ﴿كِتَابٌ﴾ أو خبراً لمحذوف.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعم القرآن والسنة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يضلونكم من الجن والإنس. وقيل الضمير في ﴿مِّن دُونِهِ﴾ لـ ﴿ما أنزل﴾ أي: ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء. وقرئ «ولا تبتغوا». ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكر أقل قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون حيث تتركون دين الله وتبتعون غيره، و«ما» مزيدة لتأكيد القلة وإن جعلت مصدرية لم ينتصب ﴿قَلِيلًا﴾ بـ ﴿يتذكرون﴾. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿تذكرون﴾ بحذف التاء، وابن عامر ﴿يتذكرون﴾ على أن الخطاب بعد النبي ﷺ.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (4)

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ﴾ كثيراً من القرى. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان. ﴿فَجَاءَهَا﴾ فجاء أهلها. ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا. ﴿بَيِّنًا﴾ بائتين كقوم لوط، مصدر وقع موقع الحال. ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ عطف عليه أي: قائلين نصف النهار كقوم شعيب، وإنما حذف واو الحال استثنافاً لاجتماع حرفي العطف، فإنها واو عطف استعيرت للوصول لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح. وفي التعبيرين مبالغة في

غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خص الوقتين ولأنهما وقت دعة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5)﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدعونه من دينهم. ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليهم.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6)﴾

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل. ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيئوا به، والمراد عن هذا السؤال توبيخ للكفرة وتقريعهم، والمنفي في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام. أو الأول في موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة.

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عِلْمَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7)﴾

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل حين يقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾، أو على الرسل والمرسل إليهم ما كانوا عليه. ﴿بِعِلْمِهِ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم. ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم فيخفى علينا شيء من أحوالهم.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8)﴾

﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي القضاء، أو وزن الأعمال وهو مقابلتها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم. ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. وقيل توزن الأشخاص لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنه ليأني العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة». ﴿بِوَمِثْلِ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الوزن. ﴿الْحَقُّ﴾ صفته، أو خبر محذوف ومعناه العدل السوي. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ حسناته، أو ما يوزن به حسناته فهو جمع موزون أو ميزان وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها، واقتراف ما عرضها للعذاب. ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بدل التصديق.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10)﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكناكم من سكنها وزرعها والتصرف فيها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة. وعن نافع أنه همزة تشبيهاً بما الباء فيه زائدة كصحائف. ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت إليكم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11)﴾

(11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا كَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ

تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفُودَنَّ هُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا تَبْتَلَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا وَمَا مَذْجُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَبَكَدُمْ أَنْكُرَ أَنْتَ وَرَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَتَيْهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ (21)﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ثم صورناه. نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وقيل ثم لتأخير الإخبار. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي أن تسجد ولا صلة مثلها في ثلثا يعلم، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه، ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود. وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل: ما اضطرك إلى ألا تسجد. ﴿إِذْ أَمَرْنَاكَ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور. ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال: المانع أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به. فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً. ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ أي بغير واسطة، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وباعتبار الغاية وهو ملاكته ولذلك أمر الملائكة بسجوده لما بين لهم أنه أعلم منهم، وأن له خواص ليست لغيره، والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح. ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ممن أهانه الله لتكبره، قال عليه الصلاة والسلام «من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله». ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تمتني، أو لا تعجل عقوبيتي.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سألته ظاهراً لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ أي بعد أن أمهلتنني لاجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسمية، أو حملاً على الغي، أو تكليفاً بما غويت لأجله والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأفعدن فإن اللام تصد عنه وقيل فإن القسم: ﴿لَأَفُودَنَّ لَهُمْ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة. ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق الإسلام ونصبه على الظرف كقوله:

لَدُنْ بِهَزِّ الْكَفِّ يَغْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّلْجُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي من جميع الجهات الأربع. مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من بين أيديهم من قبل الآخرة، ومن خلفهم من قبل الدنيا، وعن أيماهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من أيديهم من حيث يعلمون ويقدرّون على التحرز عنه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرّون، وعن أيماهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرّزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما موجة إليهم وإلى الآخرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم، ونظيره قولهم جلست عن يمينه. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مطيعين، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وقيل سمعه من الملائكة.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُماً﴾ مذموماً من ذامه إذا ذمه. وقرئ «مذموماً» كمسول في مسؤول أو كمكول في مكيل، من ذامه يذمه ذمياً. ﴿مَذْجُوراً﴾ مطروداً. ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. وقرئ «لمن» بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى: لمن تبعك هذا الوعيد، أو علة لأخرج ولأملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم ومنهم فغلب المخاطب.

﴿وَيَا آدَمُ﴾ أي وقلنا يا آدم. ﴿اشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وقرئ هذي وهو الأصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء. ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهينة والخشخشة ومنه وسوس الحلي. وقد سئل في سورة «البقرة» كيفية وسوسته. ﴿لِيُؤْذِيَ لَهَا﴾ ليظهر لهما، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبر عنهما بالسواة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع. ﴿مَا وَوَرِيَّ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِهِمَا﴾ ما غطي عنهما من عوراتهما، وكان لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهورة كما قلبت في أو يصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرئ «سواتهما» بحذف الهزة وإلقاء حركتها على الواو و «سواتهما» بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها. ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبِّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا﴾ إلا كراهة أن تكونا. ﴿مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً للملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة. وقيل أقسما له بالقبول. وقيل أقسما عليه بالله أنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَفَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ يَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (22)

﴿فَدَلَاهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، نبه به على أنه أبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. ﴿بَغْرُورٍ﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظناً أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو ملتبسين بغرور. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمهما آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما. واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما، وأن اللباس كان نوراً أو حلة أو ظرفاً. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أحداً يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ورق التين، وقرىء ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويخصفان وأصله يختصفان. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (23)

﴿قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر. وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك قالوا: إنما قال ذلك على عادة المقرين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (24)

﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو لهما ولإبليس. كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أي موضع استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْبُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (25)

﴿قَالَ فِيهَا تَحْبُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ﴿ومنها تخرجون﴾، وفي «الزخرف» كذلك ﴿تخرجون﴾ بفتح الناء وضم الراء.

﴿يَبْقَىٰ عَادَمٌ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِمَّنْ آتَاكَ اللَّهُ لَعَلَّهُمْ

يَذْكُرُونَ﴾ (26)

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي خلقناه لكم بتديرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. ﴿يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فنزلت. ولعله ذكر قصة آدم مقدمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. ﴿وَرِيشًا﴾ ولباساً تتجملون به، والريش الجمال. وقيل مالا ومنه تريش الرجل إذا تمول. وقرىء «ريشاً» وهو جمع ريش كشعب وشعاب. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ خشية الله. وقيل الإيمان. وقيل السمات الحسن. وقيل لباس الحرب ورفع بالابتداء وخبره: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خير وذلك صفته كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ولباس التقوى﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لباساً﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ أي إنزال اللباس. ﴿مِمَّنْ آتَاكَ اللَّهُ﴾ الدالة على فضله ورحمته. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ لا يمتحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة يا غواثكم. ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيمهم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمَا﴾ حال من ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾ أو من فاعل ﴿أَخْرَجَ﴾ وإسناد النزاع إليه للتسبب. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليل للنهي وتأکید للتحذير من فتنته، وقبيله جنوده ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سولوا لهم. والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرض عن الأول لظهور فساده ورد الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَمَرَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، أو الحث على مكارم الخصال. ولا دلالة فيه على أن أقبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه أجلاً عقلي، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستقصه العقل المستقيم. وقيل هما جوابا سؤالين مترتين كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آبائنا. فقيل ومن أين أخذ آبائكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29)﴾

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وهو الوسط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموا نحو القبلة. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء. ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لامكانها والقدرة عليها. وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه. وقيل كما بدأكم حفاة عراة تعودون. وقيل كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (30)﴾

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان. ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً. ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لخذلانهم أو تحقيق

لضلالهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ يدل على أن الكافر المخطيء والمعاند سواء في استحقاق الذم، وللنفار أن يحمله على المقصر في النظر.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُدُوًا زِينَتَهُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (32)

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لمواراة عورتكم. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون به، فنزلت. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة. وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرتضي فعلهم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به. ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدرع. ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من المأكول والمشرب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في من للإنكار. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالأصالة والكفرة وإن شاركهم فيها فتبع. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وانتصابها على الحال. وقرأ نافع بالرفع على أنها خبر بعد خبر. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (33)

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها. ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم تعميم بعد تخصيص، وقيل شرب الخمر. ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم، أو الكبير أفرد بالذكر للمبالغة. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكداً له معنى. ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم ﴿الله أمرنا بها﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (34) ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (35) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (36) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنْهَكُمُ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيُنَا مَا كُنتُمْ تَدْعُونَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا أَصَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (37) ﴿قَالَ أَدْخِلُوا فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ وَلَاؤُهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَتَنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا



تَقْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) ﴿

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة، أو وقت نزول العذاب بهم وهو وعيد لأهل مكة. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ انقضت مدتهم، أو حان وقتهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدم لشدة الهول.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ شرط ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب كما ظنه أهل التعليم، وضمت إليها ما لتأكيد معنى الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون وجوابه: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والمعنى فمن اتقى التكذيب وأصلح عمله منكم والذين كذبوا بآياتنا منكم، وإدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله. ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل الكتاب اللوح المحفوظ أي مما أثبت لهم فيه. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي يتوفون أرواحهم، وهو حال من الرسل وحتى غاية لنيلهم وهي التي يبدأ بعدها الكلام. ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها، وما وصلت بآين في خط المصحف وحققها الفصل لأنها موصولة. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا. ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة. ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة. ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية عن النوعين. ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بادخلوا. ﴿كَلِمَاتٍ دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ أي في النار. ﴿لَعَنَتْ أَخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاعتداء بها. ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار. ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمْ﴾ دخولا أو منزلة وهم الاتباع. ﴿أُولَئِهِمْ﴾ أي لأجل أولاهم إذا الخطاب مع الله لا معهم. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ سنوا لنا الضلال فاقصدنا بهم ﴿فَاتَّهَمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق. وقرأ عاصم بالياء على الانفصال.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله سبحانه وتعالى ﴿لَأَخْرَاهُمْ﴾ ورتبوه عليه أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنما وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من قول القادة أو من قول الفريقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأدعيتهم وأعمالهم، أو لأرواحهم كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة. والناء في تفتح للتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها، وقرأ أبو عمرو بالتخفيف وحزمة والكسائي به وبالياء، لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم. وقرئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالياء على أن الفعل للآيات وبالياء لأن الفعل لله. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم وهو البعير فيما هو مثل في ضيق المسلك وهو ثقبه الإبرة، وذلك مما لا يكون فكذا ما يتوقف عليه. وقرئ ﴿الجملة﴾

كالقمل، والجمل كالنغر، والجمل كالقفل، والجمل كالنصب، و﴿الجمل﴾ كالحبل وهو الحبل الغليظ من القنب، وقيل حبل السفينة. وسم بالضم والكسر وفي سم المخيط وهو والخياط ما يخاط به كالحزام والمحزم. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزء الفطيع. ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْفَاطِلِينَ﴾ (41)

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش. ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الاعلال عند سيبويه، وللصرف عند غيره، وقرىء ﴿غَوَاشٍ﴾ على إلغاء المحذوف. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿(42)﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض بين المبتدأ وخبره للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما تسعه طاقتهم ويسهل عليهم. وقرىء لا تكلف نفس.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ فَحَيَّيْنَا مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ

هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رُتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (43)

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نظهرها منه حتى لا يكون

بينهم إلا التواد. وعن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. ﴿فَحَيَّيْنَا مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ لما جزاؤه هذا. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه، واللام لتوكيد النفي وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله. وقرأ ابن عامر «ما كنا» بغير واو على أنها مبينة للأولى. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة. ﴿وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها والمنادى له بالذات. ﴿أَوْ رُتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبر والجنة صفة تلكم وأن في المواقع الخمسة هي المخففة أو المفسرة لأن المنادة والتأذين من القول.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَالُوا فَادْنُ مِنْهُمْ

أَنْ لَسْنَا عَلَى الْفَاطِلِينَ﴾ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (45) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى

الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (46) ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ

نَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الْفَاطِلِينَ﴾ (47) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ

جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (48) أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتَرٌ

تَحْزَنُونَ﴾ (49) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا

عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (50)

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنما قالوه تبححاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم، وإنما لم يقل ما وعدكم كما قال ﴿ما وعدنا﴾ لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً وعده بهم، كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة. ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر العين وهما لغتان. ﴿فَأَذَنُ مُؤَذِّنٌ﴾ قيل هو صاحب الصور. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين. ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقرأ ابن كثير في رواية للبرقي وابن عامر وحزمة والكسائي ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ بالتشديد والنصب. قرىء ﴿إِنَّ﴾ بالكسر على إرادة القول أو إجراء أذن مجرى قال.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذم مرفوع أو منصوب. ﴿وَيَبْتَغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيفاً وميلاً عما هو عليه، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبه، وبالفتح ما كان في المنتصبه، كالحائط والرمح. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بَسُورًا﴾ أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره. ﴿رَجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين قصروا في العمل فيحبسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو الشهداء رضي الله تعالى عنهم، أو خيار المؤمنين وعلمائهم، أو ملائكة يرون في صورة الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كَلَامًا﴾ من أهل الجنة والنار. ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها كيباض الوجه وسواده، فعل من سام إليه إذا أرسلها في المرعى معكمة، أو من وسم على القلب كالجاء من الوجه، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة. ﴿وَنَادَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي إذا نظروا إليهم سلموا عليهم. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال من الواو على الوجه الأول ومن أصحاب على الوجوه الباقية.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ نموذ بالله. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي في النار.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ من رؤساء الكفرة. ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ كثرتكم أو جمعكم المال. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقرىء «تستكثرون» من الكثرة.

﴿أَهْوَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ من تنمة قولهم للرجال، والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوا وهو أوفق للوجوه الأخيرة، أو فقيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى بعد أن حسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا. قيل لما عبروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة أهؤلاء الذين أقسمتم. وقرىء «ادخلوا» و «دخلوا» على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولاً لهم ﴿لا خوف عليكم﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي صبه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطعام كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً. ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ منعها عنهم منع المحرم من المكلف.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (51)

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كتحریم البحيرة والتصدية والمكاء حول البيت واللهو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف به، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به. ﴿وَوَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فلم يخطر به ببالهم ولم يستعدوا له. ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكما كانوا منكبين أنها من عند الله. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ الْغَوَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (52)

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ﴾ بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواظف مفصلة. ﴿عَلَىٰ كُلِّ عِلْمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيمًا، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، أو مشتبلاً على علم فيكون حالاً من المفعول. وقرئ «فضلناه» أي على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الهاء.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِن قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (53)

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِي نَسُوهُ مِن قَبْلٍ﴾ تركوه ترك النامي. ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق. ﴿فَهَلْ لَّنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليوم. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدنيا. وقرئ بالنصب عطفاً على ﴿فيشفعوا﴾، أو لأن ﴿أو﴾ بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد. ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ﴾ جواب الاستفهام الثاني وقرئ بالرفع أي فنحن نعمل. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُ حَيْثُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْغَلَقُ وَالْآخِرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (54)

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة أوقات كقوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ، وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إيجادها دفعة دليل للاختيار واعتبار للنظر وحث على التأني في الأمور. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استوى أمره أو استولى، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأمور والتدابير تنزل منه وقيل الملك. ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يذكر عكسه للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملها ولذلك قرئ «يغشي الليل النهار» بنصب «الليل» ورفع «النهار». وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي «الرعء» للدلالة على التكرير. ﴿يَطْلُبُ حَيْثُ الشَّمْسُ﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحديث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً، أو المفعول بمعنى محثوثاً. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ بقضائه وتصريفه ونصبها بالعطف على

السموات ونصب مسخرات على الحال. وقرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية. وتحقيق الآية والله سبحانه وتعالى أعلم، أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً فيبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال وأشار إليه بقوله وخلق الأرض أي ما في جهة السفلى في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالمملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فذكر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام، ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تبارك الله رب العالمين﴾ ثم أمرهم بأن يدعوه متذللين مخلصين فقال.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (55)

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ذوي تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل هو الصياح في الدعاء والاسهاب فيه. وعن النبي ﷺ، «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾».

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيِّنَةً يَدُّ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَفَا سَقْنَهُ لِيَلْزِمَ مِثْرًا فَنَزَّلْنَا بِهِ الْآمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا تَكِيدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60)

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بيعت الأنبياء وشرع الأحكام. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتبنيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب، أو على تشبيهه بفعل الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كالنقيض، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي «الريح» على الوحدة. ﴿نُشْرًا﴾ جمع نشور بمعنى ناشر، وقرأ ابن عامر «نُشْرًا» بالتخفيف حيث وقع وحزمة والكسائي «نُشْرًا» بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات، أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان. وعاصم ﴿بُشْرًا﴾

وهو تخفيف بشر جمع بشير وقد قرئ به و ﴿بَشْرًا﴾ بفتح الباء مصدر بشره بمعنى باشرات، أو للبشارة وبشرى. ﴿بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾ قدام رحمته، يعني المطر فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمععه والجنوب تدره والدبور تفرقه. ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ﴾ أي حملت، واشتقاقه من القلة فإن المقل للشيء يستقله. ﴿سَحَابًا نُّفَالًا﴾ بالماء جمعه لأن السحاب جمع بمعنى السحاب. ﴿سُقْنَاءَ﴾ أي السحاب وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجله أو لحيائه أو لسقيه. وقرئ ﴿ميت﴾. ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالرياح وكذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ ويحتمل فيه عود الضمير إلى ﴿الماء﴾، وإذا كان لـ ﴿لِبَلَدٍ﴾ فالباء للالصاق في الأول وللظرفية في الثاني، وإذا كان لغيره فهي للسببية فيهما. ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل أنواعها. ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات، أو إلى إحياء البلد أي كما نحياه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات، نخرج الموتى من الأحداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض الكريمة التربة. ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بمشيئته وتيسيره، عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغازاة نفعه لأنه أوقعه في مقابلة. ﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ أي كالجرة والسبخة. ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ قليلاً عديم النفع، ونصبه على الحال وتقدير الكلام، والبلد الذي خبت لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً مستتراً وقرئ ﴿يخرج﴾ أي يخرج البلد فيكون ﴿إِلَّا نَكْدًا﴾ مفعولاً و ﴿نكداً﴾ على المصدر أي ذا نكد و ﴿نكداً﴾ بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نرددها ونكرها. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع، فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها. ونوح بن لمك بن متوشلح بن إدريس أول نبي بعده، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين. ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي اعبدوه وحده لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقرأ الكسائي غيره بالكسر نعتاً أو بدلاً على اللفظ حيث وقع إذا كان قبل إله من التي تخفض. وقرئ بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي الأشراف فإنهم يملأون العيون رواء. ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ زوال عن الحق.

﴿قَالَ يَفْقَهُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (61)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي شيء من الضلال، بالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرض لهم به. ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استدراك باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدى كأنه قال: ولكنني على هدى في الغاية لأنني رسول من الله سبحانه وتعالى.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (62)

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صفات لرسول أو استئناف، ومساقها على الوجهين لبيان كونه رسولاً. وقرأ أبو عمرو ﴿أبلغكم﴾ بالتخفيف وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواظع والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحى إليه وإلى الأنبياء قبله، كصحف شيث وإدريس وزيادة اللام في لكم للدلالة على إحاطة النصح لهم، وفي أعلم من الله تقريراً لما أوعدهم به

فإن معناه أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (63)

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف أي أكذبتم وعجبتم. ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾ من أن جاءكم. ﴿وَذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ رسالة أو موعظة. ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ على لسان رجل. ﴿مِّنْكُمْ﴾ من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَاءِنَا الْأُولِينَ﴾. ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عاقبة الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ منهما بسبب الإنذار. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتقوى، وفائدة حرف الترجي التنبيه على أن التقوى غير موجب والترحم من الله سبحانه وتعالى تفضل، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

(64)

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهم من آمن به وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. وقيل تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به. ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ متعلق بـمعه أو بأنجيناها، أو حال من الموصول أو من الضمير في معه. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عمي القلوب غير مستبصرين، وأصله عميين فخفف وقرئ «عامين» والأول أبلغ لدلالته على الثبات.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا عَنْ آلِهَتِهِمْ كَذَّبُوا عَنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (65)

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا عَنْ آلِهَتِهِمْ﴾ عطف على نوحاً إلى قومه. ﴿هُوداً﴾ عطف بيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم، كقولهم يا أبا العرب للواحد منهم، فإنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ابن عم أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتضائه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ﴾ استأنف به ولم يعطف كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل؟ وكذلك جوابهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وكان قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال أفلا تتقون ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكُمُ لَنَارِكُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكُمْ مِنَ الْكَذَّابِينَ﴾ (66) قَالَ يَقَوْمُ

لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنَّ رَسُولًا مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ (67) أَلَيْفُكُمْ رَسُولًا رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَإِحْسَنًا لِّعِبَادِ اللَّهِ وَحَدِّثْهُمْ نَارًا كَانَتْ يَسْطُورُ

فَأَيْنَا بِمَا هَدَدْنَا إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتُمْ لَوْنِي فِي أَسْوَ سَمِيئَتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاَنْظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْتَظَرِّينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) وَلِإِنَّ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ (73)

﴿إِنَّا لَنَزَلْنَا فِي سَفَاهَةٍ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين قومك. ﴿وَأَنَا لَنُطَلِّتُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال النصيح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ تنبيه على أنهم عرفوه بالأميرين. وقرأ أبو عمرو ﴿أَبْلَغُكُمْ﴾ في الموضعين في هذه السورة وفي «الأحقاف» مخففاً. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عاليج إلى شجر عمان. خوفهم من عقاب الله ثم ذكرهم بإنعامه. ﴿وَرَزَقَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ قامة وقوة. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَخَدَّهٖ وَتَذَرَّ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والأعراض عما أشرك به آبائهم انهماكاً في التقليد وحباً لما ألفوه، ومعنى المجيء في ﴿أَجِئْنَا﴾ إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهكم، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبني. ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نزل عليكم على أن المتوقع كالواقع. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَعُصْبٌ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي في أشياء سميتوها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحققت كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة، بين أن منتهى حجبتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم، واستدل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توفيقية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً وضعفهما ظاهر. ﴿فَأَنْتَظِرُوا﴾ لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ في الدين. ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ عليهم. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم. ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان. روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشركهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرح، فجهزوا إليه قبل بن عثر ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أحواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قيتان له، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلم القيتتين:

أَلَا يَا قَبِيلُ وَيَحَكَ قُمْ فَهَئِنَّمَا  
لَعَلَّ اللَّهَ يُشْقِيَنَا الْغَمَامَا  
فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا  
قَدْ امْسُوا مَا يُبَيِّتُونَ الْكَلَامَا

حتى غنتا به، فأزعجهم ذلك فقال مرثد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله



سبحانه وتعالى سقيتم، فقالوا للمعاوية: احبسنا عنا لا يقدم من معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك: فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مِّمَطَرْنَا﴾ فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا.

﴿وَالْيَٰ تَمُودُ﴾ قبيلة أخرى من العرب سموها باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموها به لقلعة مائهم من الثمد وهو الماء القليل. وقرئ مصرّوفاً بتأويل الحي أو باعتبار الأصل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ استئناف لبيانها، وآية نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، ولكم بيان لمن هي له آية، ويجوز أن تكون ﴿ناقة الله﴾ بدلاً أو عطف بيان ولكم خبراً عاماً في ﴿آية﴾، وإضافة الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ العشب. ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعدر. ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَلَتَجِدُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (74)

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض الحجر. ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنيون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر. ﴿وَلَتَجِدُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا﴾ وقرئ ﴿تتحتون﴾ بالفتح وتنحاتون بالإشباع، وانتصاب ﴿بيوتاً﴾ على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتاً من الجبال، أو تحتون بمعنى تتخذون ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَعْتَلُمُونَ أَيَّ صَاحِلَا تُرْسِلُ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (75)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي عن الإيمان. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ أي للذين استضعفهم واستذلوهم. ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بدل الكل إن كان الضمير لقومه وبدل البعض إن كان للذين. وقرأ ابن عامر وقال الملاء بالواو. ﴿أَعْتَلُمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قالوه على الاستهزاء. ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نعم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (76)

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على وجه المقابلة، ووضعوا ﴿آمتم به﴾ موضع ﴿أرسل به﴾ رداً لما جعلوه معلوماً مسلماً.

﴿فَمَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَمَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَهْدَانَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (77)

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فنحروها. أسند إلى جميعهم فعل بعضهم للملابسة، أو لأنه كان برضاهم. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَذَرُوهَا﴾. ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ اثْنَيْ بَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (78)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِين﴾ خامدين ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا، وعمرُوا أعماراً طويلاً لا تقي بها الأبنية، ففتحوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فتعوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشrafهم فأنذرهم، فسألوه آية فقال آية تريدون قالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وتدعو آلِهتنا فمن استجيب له اتبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكاثبة وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء إن فعلت صدقتك، فأخذ عليهم صالح مواعيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض التوتج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فأمن به جندع في جماعة، ومنع الباقي من الإيمان ذؤاب بن عمرو والحياب صاحب أولئانهم ورباب بن صغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غياً فما ترفع رأسها من البشر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم عذرة أم غنم وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقي سقبا جبلاً اسمه قارة فرغا ثلاثاً فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رغاءه فدخلها فقال لهم صالح: تصبِح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصيحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾

﴿(79)﴾

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر وقال: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً». أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم.

﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقْتُكُمْ بِهَا مِنْ آخِلٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (80) **إِلَّاكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ** شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (81) **وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ** (82) **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ** (83) **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** (84) **وَالَّذِينَ مَدَنُوا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقْوُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْسَ**

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ كُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْجُوتُهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) ﴿

﴿وَلَوْطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وقت قوله لهم أو واذكر لوطاً وإذ بدل منه. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ توبيخ وتقريع على تلك الفعل المتبادية في القبح. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط. والباء للتعدية ومن الأولى لتأكيد النفي والاستغراق، والثانية للتبعية. والجملة استئناف مقرر للإنكار كأنه وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وقرأ نافع وحفص «إنكم» على الإخبار المستأنف، وشهوة مفعول له أو مصدر في موقع الحال وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة، وتنبه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع، لا قضاء الوطر. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معانيهم، أو عن محذوف مثل لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنْفُسُ يَنْظُرُونَ﴾ أي من الفواحش.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي من آمن به. ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تسر الكفر. ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا والتذكير لتغليب الذكور.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وهو مبين بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ﴾. ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ روي: أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها فأمر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله شعيب بن ميكائيل بن يسجر بن مدين، وكان يقال له خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحسن مراجعته قومه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد المعجزة التي كانت له وليس في القرآن أنها ما هي، وما روي من محاربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام التنين وولادة الغنم التي دفعها إليه الدرع خاصة وكانت الموعودة له من أولادها، ووقوع عصا آدم على يده في المرات السبع متأخرة عن هذه المقالوة، ويحتمل أن تكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاباً لنبوته. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي آلة الكيل على الإضمار، أو إطلاق الكيل على المكيال كالعيش على المعاش لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كما قال في سورة «هود» ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أو الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان مصدر كالميعاد. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والحيف. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعدما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياء وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوها فيها

والإضافة إليها كالإضافة في ﴿بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحداث وجمع المال.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراط الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها منعه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعبياً إنه كذاب فلا يفتتنك عن دينك ويوعدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني الذي قعدوا عليه فوضع الظاهر موضع المضمرة بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقييحاً لما كانوا عليه أو الإيمان بالله. ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بالله، أو بكل صراط على الأول، ومن مفعول تصدون على إعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقال وتصدونهم وتوعدون بما عطف عليه في موقع الحال من الضمير في تقعدوا. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. ﴿وَادْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً﴾ عذدكم أو عذدكم. ﴿فَكَثَرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل أو المال. ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (87)

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فتربصوا. ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي بين الفريقين بنصر المحققين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعد للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله. ﴿قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدونها في حال كراهتنا.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله. ﴿قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدونها في حال كراهتنا.

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَحْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَصِّيحِينَ﴾ (89)

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ قد اختلقنا عليه. ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَحْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ شرط جوابه محذوف دليله: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا﴾ وهو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع لكنه جعل كالواقع للمبالغة، وأدخل عليه قد لتقريبه من الحال أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها حيث نزع أن الله تعالى ندأ، وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه باطل وما أنتم عليه حق. وقيل إنه جواب قسم وتقديره: والله لقد افترينا. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما يصح لنا. ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلانا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله. وقيل أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أي أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم. ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من

الأشرار. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ احكم بيننا وبينهم، والفتاح القاضي، والفتاحة الحكومة. أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ على المعنيين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ (90)

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتركتم دينكم. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ لاستبدلكم ضلالتة بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنُودًا﴾ (91)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة وفي سورة «الحجر» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ ولعلها كانت من مباديها. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَانِبِينَ﴾ أي في مدينتهم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا يَمُوتُونَ فِيهَا﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (92)

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي استوصلوا كأن لم يقيموا بها والمعنى المنزل. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الراحون في الدارين. وللتنبية على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول واستأنف بالجملةتين وأتى بهما اسميتين. ﴿فَنَوَلُّوهُمُ عَنْهُمْ﴾ وقال يَقْوَاهُ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

﴿(93)﴾

﴿فَنَوَلُّوهُمُ عَنْهُمْ﴾ وقال يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه فقال ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصيح والإشفاق فلم تصدقوا قولي، فكيف آسى عليكم. وقرئ «فكيف آيسي» باماليتين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (94)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ بالبؤس والضر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ حتى يتضرعوا ويتذلّلوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (95)

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين. ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ كشروا عُدداً وَعُدداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء اللحى. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آبائنا منه مثل ما مسنا. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بزلول العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (96)

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ وقيل مكة وما حولها. ﴿آمَنُوا وَاتَّقُوا﴾ مكان كفرهم وعصيانهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب وقيل المراد المطر والنبات. وقرأ ابن عامر ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بالتشديد. ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ الرسل. ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُم مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿أَفَأَمِنْ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيَنَاءٍ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (97)

﴿أَفَأَمِنْ أَهْلَ الْقُرَى﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وما بينهما اعتراض والمعنى: أبعد ذلك أمن أهل القرى. ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيَنَاءٍ﴾ تبييتاً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتاً.

﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (98)

﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلَ الْقُرَى﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر أو بالسكون على التريد. ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ ضحوة النهار، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يلهون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (99) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (100) ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (101) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (102) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَنِيهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (103) ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرُونَ بِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْأَعْلَافِ﴾ (104) ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جَسَّكُم بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَارْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (105) ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ حَسِبْتَ بِآيَاتِي فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (106)

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلَ الْقُرَى﴾ و ﴿مكر الله﴾ استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي يخلقون من خلا قبلهم ويرثون ديارهم، وإنما عدي يهد باللام لأنه بمعنى يبين. ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم، وهو فاعل يهد ومن قرأه بالنون جعله مفعولاً. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه، أو لم يهد أي يغفلون عن الهداية أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقة جواب لولا فضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ يعني قرى الأمم المار ذكرهم. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ حال إن جعل ﴿القرى﴾ خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها، وخبر إن جعلت صفة ويجوز أن يكونا خبرين و ﴿من﴾ للتبعض أي نقص بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لا نقصها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند

مجيئهم بها. ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تلتين شكيمتهم بالآيات والنذر. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لَأَكْثَرِهِمْ﴾ لأكثر الناس، والآية اعتراض أو لأكثر الأمم المذكورين. ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ من وفاء عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عاهدوا إليه حين كانوا في ضرر مخافة مثل ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾. ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾ أي علمناهم. ﴿أَفَاسِقِينَ﴾ من وجدت زيدا إذا الحفاظ للدخول أن المخففة واللام الفارقة، وذلك لا يسوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعال الداخلة عليهما، وعند الكوفيين إن للنفي واللام بمعنى إلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾ أو للأمم. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها، ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا. وفرعون لقب لمن ملك مصر ككسرى لمن ملك فارس وكان اسمه قابوس. وقيل الوليد بن مصعب بن الريان. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾. ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك، وقوله:

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ لعله جواب لتكذيبه إياه في دعوى الرسالة، وإنما لم يذكر لدلالة قوله ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ عليه وكان أصله ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ﴾ كما قرأ نافع فقلب لأمن الإلباس كقوله: وتشقى الرماح بالضيطة الحمر. أو لأن ما لزمك فقد لزمته، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمن حقيق معنى حريص، أو وضع على مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم: رميت على القوس وجئت على حال حسنة، ويؤيده قراءة أبي بالباء. وقرئ «حقيق أن لا أقول» بدون ﴿على﴾. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال. ﴿قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِآيَةٍ﴾ من عند من أرسلك. ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك. ﴿إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (107)

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر. ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (108) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (112) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِنَنْتَصِرَنَّ (114) قَالُوا يَكُونُ لِمَا أَنْ تُلْقَى وَإِنَّا أَنْ نَكُونَنَّ (115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا

أَعْيَنَ النَّاسَ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (116) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) ﴿ فَعُثِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَبِيرِينَ (119) ﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ (120) قَالُوا أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (122) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنُكُمْ بِهٖ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعَامُونَ (123) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) ﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه أو من تحت إبطه. ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي يبيضاء بيباضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النظارة، أو يبيضاء للنظار لا أنها كانت بيبضاء في جبلتها. روي: أنه عليه السلام كان آدم شديد الأدمة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيبضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قيل قاله هو وأشراف قومه على سبيل التشاور في أمره، فحكى عنه في سورة الشعراء وعندهم ها هنا.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أن نفعل.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾. ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم فأشاروا به على فرعون، والإرجاء التأخير أي أخر أمره، وأصله أرجئه كما قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب من أرجأت، وكذلك «أرجئوه» على قراءة ابن كثير على الأصل في الضمير، أو «أرجهني» من أرجيت كما قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي، وأما قراءته في رواية قالون «أرجه» بحذف الياء فللاكتفاء بالكسرة عنها، وأما قراءة حمزة وعاصم وحفص «أرجه» بسكون الهاء فلتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل «جه» كابل في إسكان وسطه وأما قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان «أرجئه» بالهمزة وكسر الهاء فلا يرتضيه النحاة فإن الهاء لا تكسر إلا إذا كان قبلها كسرة أو ياء ساكنة، ووجهه أن الهمزة لما كانت تقلب ياء أجريت مجراها. وقرأ حمزة والكسائي «بكل سحار» فيه وفي «يونس» ويؤيده اتفاقهم عليه في «الشعراء».

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم. ﴿قَالُوا أَتْنَا لَآجِرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ استأنف به كأنه جواب سائل قال: ما قالوا إذ جاؤوا؟ وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم «إن لنا لأجراً» على الإخبار ويجاب الأجور كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم.

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إن لكم لأجراً. ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عطف على ما سد مسده «نعم» وزيادة على الجواب لتحريضهم.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ خيروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله فنبهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريف الخبر وتوسيط الفصل أو تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل فلذلك:

﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ كرماً وتسامحاً، أو ازدراء بهم ووثوقاً على شأنه. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم. ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ في فنه. روي أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي، وركب بعضها بعضاً.



﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية. ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزورونه من الإفك: وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه، ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي: أنها لما تلقفت حبالهم وعصبيهم وابتلعتهما بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا. وقرأ حفص عن عاصم ﴿تَلْقَفْ﴾ ما هنا وفي «طه» و «الشعراء».

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فثبت لظهور أمره. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والمعارضة.

﴿فَقَلَّبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مهوورين، والضمير لفرعون وقومه.

﴿وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ جعلهم ملقين على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك، أو أن الله ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خروورهم وشدته.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أبدلوا الثاني من الأول لثلاثهم أنهم أرادوا به فرعون.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمْسَمْتُ بِهِ﴾ بالله أو بموسى، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وهشام بتحقيق الهمزتين على الأصل. وقرأ حفص «أمستم به» على الإخبار، وقرأ قبل ﴿قال فرعون﴾، و «أمستم» يبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ويمد بعدها مدة في تقدير ألفين وقرأ في طه على الخبر بهمزة وألف وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير ألفين، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة الأولى وتلين الثانية. ﴿قَبِلَ أَنْ أَذِنَ لَكُمْ إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومَةٌ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد. ﴿لَنُخْرِجَنَّ مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبنى إسرائيل. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهو تهديد مجمل تفصيله:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ من كل شق طرفاً. ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم. قيل إنه أول من سن ذلك فشرعه الله للقطاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة لله ورسوله، ولكن على التعاقب لفرط رحمته.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (125)

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله، أو مصيرنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

﴿وَمَا نُنْقِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (126)

﴿وَمَا نُنْقِمْ مِنَّا﴾ وما تنكر منا. ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضااتك، ثم فزعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء، أو صب علينا ما يظهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به. وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَيْكَلُ قَالَ سَتَقْبِلُ آيَاتَهُمْ وَتَسْتَعِیْ

نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (127)

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك. ﴿وَيَذُرْكُمُ﴾ عطف على يفسدوا، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيثة:

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ

على معنى أكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك. وقرئ بالرفع على أنه عطف على أنذر أو استئناف أو حال. وقرئ بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذركم كقوله تعالى: ﴿فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ﴾ ﴿وَالْهَيْكَلُ﴾ معبوداتك قيل كان يعبد الكواكب. وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقريباً إليه ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وقرئ «إلا هتك» أي عبادتك. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَتَقْبِلُ آيَاتَهُمْ وَتَسْتَعِیْ نِسَاءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده. وقرأ ابن كثير ونافع ﴿سَتَقْتُلُ﴾ بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ غالبون وهم مهقهورون تحت أيدينا.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِیْبُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ

لِلْمُتَّقِينَ﴾ (128)

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِیْبُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم. ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تسلياً لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له. وقرئ و ﴿العاقبة﴾ بالنصب عطف على اسم إن واللام في ﴿الأرض﴾ تحتل العهد والجنس.

﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ

فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (129)

﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل. ﴿أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته. ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود عليه السلام. ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (130)

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فليل أسنت القوم إذا قحطوا. ﴿وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بكثرة العاهات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ

وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (131)

﴿فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والسعة. ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها. ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جَدْبٌ وبلاء. ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي، وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها، وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ونكر السيئة، وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع. ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي سبب خبرهم وشهرهم عنده وهو حكمته ومشيتته، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقط ما يسوؤهم. وقرئ «إنما طيرهم» وهو اسم الجمع وقيل هو جمع. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (132)

﴿وَقَالُوا مَهْمَا﴾ أصلها ما الشرطية ضمت إليها ما المزيدة للتأكيد، ثم قلبت ألفها هاء استحقاقاً للتكرير. وقيل مركبة من مه الذي يصوت به الكاف وما الجزائية ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره. ﴿تَأْتَانَا بِهِ﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتينا به. ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ بيان لمهما، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا: ﴿لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا، والضمير في به وبها لمهما ذكره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأنه بعده باعتبار المعنى.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ

(133)

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ماء طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل. وقيل الجدرى. وقيل الموتان. وقيل الطاعون. ﴿وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ﴾ قيل هو كبار الفردان، وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنتها. ﴿وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾ روي: أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا الله فكشف عنهم ونبت لهم من الكلا والزروع ما لم يعهد مثله ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والسياب ففزعوا إليه ثانياً فدعا وخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا، فسلط الله عليهم القمل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواهم عند التكلم ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ثم نقضوا العهود، ثم أرسل عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه. وقيل سلط الله عليهم الرعاف. ﴿آيَاتٍ﴾ نصب على الحال. ﴿مُفَصَّلَاتٍ﴾ مميزات لا تشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته عليهم، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً، وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (134) ﴿

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك. ﴿قَالُوا يَا مَوْسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجبك في آياتك، وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهده عنك، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهده عندك أو قسم مجاب بقوله: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَاهُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (135) ﴿

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْقُوَّةِ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل إلى أجل عينه لإيمانهم. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه.

﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (136) ﴿

﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ فاردنا الانتقام منهم. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل لجهته. ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها. وقيل الضمير للنتمة المدلول عليها بقوله: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (137) ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءِالَٰهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ (138) ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعَةٌ مَّا فِيهِمْ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (139) ﴿قَالَ أَغِيرَ اللَّهُ أَبْصِيَكُمْ إِلَٰهَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْآلِهَاتِ﴾ (140) ﴿

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء من مستضعفيهم. ﴿مِغْرِبَهَا﴾ مشارق الأرض ومغاربها. يعني أرض الشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها. ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة العيش. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالانجاز عدته إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى: ﴿وَنريد أن نمن﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وقرئ «كلمات ربك» لتعدد المواعيد ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم على الشدائد. ﴿وَدَمَرْنَا﴾ وخربنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القصور والعمارات. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات أو ما كانوا يرففون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي «التحل» «يعرشون» بالضم. وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

وقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ وما بعده ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مرَّ الله عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام تسلياً لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام عبر

بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً. ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِمُ ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ﴾ يقيمون على عبادتها، قيل كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل، والقوم كانوا من العمالة الذين أمر موسى بقتالهم. وقيل من لحم، وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بالكسر. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً﴾ مثلاً نعبده. ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها، وما كافة للكاف. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل المطلق وأكد بعد ما صدر عنهم بعد ما رأوا من الآيات الكبرى عن العقل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى القوم. ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ مكسر مدمر. ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رصاصاً ﴿وَبَاطِلٌ﴾ مضمحل. ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع ﴿هَؤُلَاءِ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ والإخبار عما هم فيه بالتبازر وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لأن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة، وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَغِيكُمْ إِلَهاً﴾ أطلب لكم معبوداً. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أحسن شيء من مخلوقاته.

﴿وَإِذْ أَجَعْنَا لَكُم مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (141)

﴿وَإِذْ أَجَعْنَا لَكُم مِّنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت. وقرأ ابن عامر «أنجأكم». ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ استئناف لبيان ما أنجأهم منه، أو حال من المخاطبين، أو من آل فرعون أو منهم. ﴿يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بدل منه مبين. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (142)

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذا القعدة، وقرأ أبو عمرو ويعقوب «وواعدنا». ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ من ذي الحجة. ﴿فِتْنَةٍ مِّمَّاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بالغاً أربعين. روي: أنه عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه ففسوك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها. ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ قَالَ رَبِّ ارْنِي إِلَيْكَ قَالَ لَن رَّبِّي أَنظُرَ إِلَيْكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا بَلَغَ رَجْعُهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَاحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (143)

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة، وفيما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أرني نفسك بأن تمكيني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ دون لن أرى أو لن أريك أو لن تنظر إلي، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائي لم يوجد فيه بعد، وجعل السؤال لتبكيك قومه الذين قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ ولا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيره أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية. ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقه، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن، والجبل قيل هو جبل زبير. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر له عظمتة وتصدى له اقتداره وأمره. وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه. ﴿جَعَلَهُ دَكَاةً﴾ مذكوكاً مفتتاً والدك والدق أخوان كالشك والشق، وقرأ حمزة والكسائي «دكاء» أي أرضاً مستوية ومنه ناقة دكاء التي لا سنام لها. وقرء «دكاً» أي قطعاً جمع دكاء. ﴿وَوَخَّرَ مُوسَى صَعِقًا﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى. ﴿سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن. ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مر تفسيره. وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا.

﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (144)

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك. ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك، وهارون وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ يعني أسفار التوراة وقرأ ابن كثير ونافع «برسالتى». ﴿وبِكَلَامِي﴾ وبتكلمي إياك. ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ﴾ أعطيتك من الرسالة. ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ﴾ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ ءَايَةٍ لَا يَأْمُرُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِفَكَهُ الْآخِرَةُ حَصِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147) وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَسَداً لَّهُمْ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَذْهَبَ أَنَا لَكُنْهُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين. ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة، وكانت من زمرد أو زبرجد، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها

بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها. ﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار القول عطفًا على كتبنا أو بدل من قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ﴾ والهاء للألواح أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء أو للرسالات. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدة وعزيمة. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار، والاقتصاص على طريقة الذنب والحث على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة، وهو المأمور به كقولهم الصيف أحر من الشتاء. ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم. وقرىء سأوريكم بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند وسأورثكم، ويؤيده قوله: ﴿وَأُورِثْنَا الْقَوْمَ﴾.

﴿سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقيل سأصرفهم عن ابطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بأعلائها أو باهلاكهم. ﴿يَبْغِي الْحَقَّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، أو حال من فاعله. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً مِنْ آيَةٍ﴾ منزلة أو معجزة. ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد وهو يؤيد الوجه الأول. ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي ﴿الرُّشْدَ﴾ بفتحين وقرىء «الرشاد» وثلاثها لغات كالسقم والسقم والسقام، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْحَقِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سأصرف ذلك الصرف بسببهما.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله في الدار الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه للميمات. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروا من القبط حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو ملكوها بعد هلاكهم. وهو جمع حلي كثندي وثدي. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر بالاتباع كدلي ويعقوب على الأفراد. ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ بدنا ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح ونصبه على البدل. ﴿لَهُ خَوَازِجٌ﴾ صوت البقر. روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حياً. وقيل صاغه بنوع من الحيل فتدخل الريح جوفه وتصوت، وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعله إما لأنهم رضوا به أو لأن المراد اتخاذهم إياه إلهاً. وقرىء «جوار» أي صياح. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر، والمعنى ألم يروا حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على إرشاد سبيل كآحاد البشر حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر. ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلهاً. ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم المتحسر يعرض يده غماً فتصير يده مستقوياً فيها. وقرىء ﴿سَقَطَ﴾ على بناء الفعل للفاعل بمعنى وقع الغض فيها. وقيل معناه سقط الندم في أنفسهم. ﴿وَرَأَوْا﴾ وعلموا. ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة. ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقرأهما حمزة والكسائي بالياء و﴿ربنا﴾ على النداء.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ

بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّقُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) ﴿

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب وقيل حزينا. ﴿قَالَ بَشَرًا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتم العجل، والخطاب للعبدة أو أقمتم مقامي فلم تكفوا العبدة والخطاب لهارون والمؤمنين معه وما نكرة موصوفة تفسر المستكن في بشر والمخصوص بالذم محذوف تقديره بشر خلافة خلفتمونها من بعدي خلافتكم، ومعنى من بعدي من بعد انطلاقي، أو من بعد ما رأيتم مني من التوحيد والتنزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أنركتموه غير تام، كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدي تعديته، أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين. روي: أن التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه. ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ توهماً بأنه قصر في كفهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً لينا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه وكانا من أب وأم. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي «طه» «يا ابن أم» بالكسر وأصله يا ابن أُمِّي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء، والباقون بالفتح زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسة عشر. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّقُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذه أو نسبة التقصير.

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَا تَجْعَلْ لِي رَحْمَةً فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) ﴾

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بما صنعت بأخي. ﴿وَلَا تَجْعَلْ لِي رَحْمَةً فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فانت أرحم بنا منا على أنفسنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوُجُلَ سَيِّئًا هُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم. ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي خروجهم من ديارهم. وقيل الجزية. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله ولا فرية أعظم من فريتهم وهي قولهم هذا إلهكم وإله موسى، ولعله لم يفتر مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) ﴾

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد السيئات. ﴿وآمَنُوا﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة. ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل وكثر كجرائم بني إسرائيل.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ فِي نُحُوتَيْهَا هُذًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَبُونَ (154) ﴾

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن وقد قرئ به. ﴿عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ﴾ باعتذار هارون، أو بتوبتهم وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالأمر به والمغري عليه حتى عبر عن



سكونه بالسكوت. وقرئ «سكت» و «أسكت» على أن المسكت هو الله أو أخوه أو الذين تابوا. «أخذ الألواح» التي ألقاها. «وفي نسختها» وفيما نسخ فيها أي كتب، فعلة بمعنى مفعول كالحطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة: «هتدي» بيان للحق. «ورحمته» إرشاد إلى الصلاح والخير. «للدّين» هم لربهم يرهّبون دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير، أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير يرهّبون معاصي الله لربهم.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُو لَهَا مَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155)﴾ وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَال عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُوهُمْ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ جَمِيعًا إِلَى اللَّهِ لَكُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)﴾

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه «سبعين رجلاً أليميناً» أخذتهم الرجفة» روي أنه تعالى أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختر من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال: ليتخلف منكم رجلان فتشاجروا فقال: إن لمن قعد أجر من خرج، ففقد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة، أو رجفة الجبل فصعقوا منها. «قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإني» تمنى هلاكهم وهلاكه، قبل أن يرى ما رأى أو بسبب آخر، أو عنى به أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالانقاذ منها فإن ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك. «أنه لكان ما فعل الشفهاء منا» من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكان ذلك قاله بعضهم. وقيل المراد بما فعل الشفهاء عبادة العجل، والسبعون اختارهم موسى لميقات التوبة عنها فغشيتهم هبة قلقوا منها ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم، وأشرفوا على الهلاك فخاف عليهم موسى فبكى ودعا فكشفها الله عنهم. «إن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجل خواراً فزاعوا به. «تضل بها من تشاء» ضلاله بالتجاوز عن حده أو باتباع المخاليل. «وتهدي من تشاء» هداه فيقوى بها إيمانه. «أنت ولينا» القائم بأمرنا. «فاعفِرْ لنا» بمغفرة ما قارفنا. «وارحمننا وأنت خير الغافرين» تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة.

﴿وَكَتُبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حسن معيشة وتوفيق طاعة. «وفي الآخرة» الجنة. «إنا هُنَا إِلَيْكَ» تبنا إليك من هاد يهود إذا رجع. وقرئ بالكسر من هاد يهده إذا أماله، ويحتمل أن يكون مبنياً

للفاعل وللمفعول بمعنى أملنا أنفسنا وأملنا إليك، ويجوز أن يكون المضموم أيضاً مبنياً للمفعول منه على لغة من يقول عود المريض. ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره. ﴿فَسَأَلْتُهَا﴾ فسألتها في الآخرة، أو فسألتها كنية خاصة منكم يا بني إسرائيل. ﴿لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ الكفر والمعاصي. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خصها بالذكر لإناقضها ولأنها كانت أشق عليهم. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ مبتدأ خبره يأمرهم، أو خبر مبتدأ تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، والمراد من آمن منهم بمحمد ﷺ وإنما سماه رسولا بالإضافة إلى الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿الْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ اسماً وصفة. ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كالدّم ولحم الخنزير أو كالربا والرشوة. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكليف الشاقة كتعيين القصاص في العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة، وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبس من الحراك لثقله. وقرأ ابن عامر «أصارهم». ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية. وقرئ بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير. ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي. ﴿وَاتَّبَعُوا النَّوْرَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهر أمره مظهر غيره، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون معه متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، ومضمون الآية جواب دعاء موسى ﷺ.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب عام، كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال من إليكم. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أو مبتدأ خبره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه. الأول بيان لما قبله فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره وفي: ﴿يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ «أو كلمته» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له. ﴿وَاتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

﴿وَمَنْ قَوْمٌ مُّوسَى﴾ يعني من بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق. ﴿وَبِهِ بِالْحَقِّ﴾ يعللون بينهم في الحكم والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أتبع ذكرهم ذكر أعدائهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنوا أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رأهم رسول الله ﷺ ليلة المعراج فآمنوا به.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ وصبرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض. ﴿اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثان لقطع فإنه متضمن معنى صبر، أو حال وتأنيته للحمل على الأمة أو القطعة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذلك جمع، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرئ بكسر الشين وإسكانها. ﴿أَمَمًا﴾

على الأول بدل بعد بدل، أو نعت أسباط وعلى الثاني بدل من أسباط. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ في التيه. ﴿أَن اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ﴾ أي فضرِب فانبجست وحذفه للإيماء على أن موسى ﷺ لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَشْرَبُهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ ليقهيم حر الشمس. ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا. ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة «البقرة».

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (161)

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بإضمار اذكروا لقرية بيت المقدس. ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثل ما في سورة «البقرة» معنى غير أن قوله ﴿فَكُلُوا﴾ فيها بالفاء أفاد تسبب سكانهم للأكل منها، ولم يتعرض له ها هنا اكتفاء بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه وأما تقديم قوله قولوا على وادخلوا فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب وكذا الواو العاطفة بينهما. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أمروا به. وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب «تغفر» بالثاء والبناء للمفعول، و «خطيئاتكم» بالجمع والرفع غير ابن عامر فإنه وحد وقرأ أبو عمرو «خطاياكم».

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (162)

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ مضى تفسيره فيها.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (163)

﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ للتقرير والتفريع بتقديم كفرهم وعصيانهم، والإعلام بما هو من علومهم التي لا تعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم. ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها. ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قرية منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور على شاطئ البحر، وقيل مدين، وقيل طبرية. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، و ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿كانت﴾ أو ﴿حاضرة﴾ أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف لـ ﴿يعدون﴾ أو بدل بعد بدل. وقرئ ﴿يعدون﴾ وأصله يعتدون ويعدون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت، وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت مصدر سبت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجر للعبادة. وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بإحكام فيه، ويؤيد الأول إن قرئ يوم إسياتهم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقرئ ﴿لا يسبتون﴾ من أسبت و ﴿لا يسبتون﴾ على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت، و ﴿شُرَعًا﴾ حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شرع علينا إذا دنا وأشرف. ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم. وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيتهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بـ ﴿يعدون﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْقُونَ

(164)﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ عِظْ عَلَىٰ ﴿إِذْ يَعِدُونَ﴾. ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أسوا من اتعاضهم. ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ مخترعهم. ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة لتماذيبهم في العصيان، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاoul بينهم أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعو منهم، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاضهم رداً عليهم وتهكماً بهم. ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله حتى لا تنسب إلى تفريط في النهي عن المنكر. وقرأ حفص ﴿معذرة﴾ بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرتنا به معذرة ووعظناهم معذرة. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَسْقُونَ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166) وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لَيْسَ عَنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى

يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167) وَقَطَعْنَاهُمْ فِي

الْأَرْضِ أَسْمًا مِمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168)

فَخَلَفَ مِنْ بَآءِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا كَانُوا

عَلَيْهِمْ يَمِشُّ الْكِتَابُ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

(169) وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ

ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُم قُتِلُوا بِإِحْسَانٍ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

(172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْتُمْ قَائِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (174) وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الضَّالِّينَ (175)﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا ترك الناسي. ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم. ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله. ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد فعيل من بؤس يبؤس بؤساً

إذا اشتد. وقرأ أبو بكر ﴿بيس﴾ على فيعل كضيعم، وابن عامر ﴿بش﴾ بكسر الباء وسكون الهمز على أنه

بش كحذر، كما قرئ به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككبد في كبد، وقرأ نافع ﴿بيس﴾ على قلب

الهمزة ياء كما قلبت في ذنب أو على أنه فعل الهمز وصف به فجعل اسماً، وقرئ ﴿بيس﴾ كريس على قلب

الهمزة ثم ادغامها و﴿بيس﴾ بالتخفيف كهين وبائس كفاعل. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه كقوله تعالى: ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كقوله: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ والظاهر يقتضي أن الله

تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً

لأولى. روي: أن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا: إن لهم شأناً فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسابهم ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسابهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث. وعن مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلم تفعل من الإيذان بمعناه كالتوعد والإيعاد، أو عزم ون العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله فأجرى مجرى فعل القسم ﴿كعلم الله﴾ و ﴿شهد الله﴾. ولذلك أجيب بجوابه وهو: ﴿لَيَسْئَلَنَّ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والمعنى وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطن على اليهود. ﴿مَنْ يَسْئَلُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية، بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخر بديارهم وقتل مقاتليهم وسي نساءهم وذريتهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية فلا تزال مضرورية إلى آخر الدهر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ عاقبهم في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تنمة لأديارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط و ﴿أُمَمًا﴾ مفعول ثان أو حال. ﴿مَنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ صفة أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم ﴿وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ﴾ تقديره ومنهم ناس دون ذلك أي منحطون عن الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم. ﴿وَبَلَّغْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين. ﴿خَلَفٌ﴾ بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع. وقيل جمع وهو شائع في الشر والخلف بالفتح في الخير والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ﴿وَوَرَّثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرشا في الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ حال من الضمير في ﴿لَنَا﴾ أي: يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدین إلى مثله غير تائبين عنه. ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي في الكتاب. ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ عطف على ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ﴾ من حيث المعنى فإنه تقرير، أو على ﴿وَرَّثُوا﴾ وهو اعتراض. ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مما يأخذ هؤلاء. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد، وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين. ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ عطف على الذين ﴿يَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبره: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمهر تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضيع. وقرأ أبو بكر ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالتخفيف وإفراد الإقامة لإناقتها على سائر أنواع التمسكات.

﴿وَإِذْ تَنْقَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعهاء ورفعهاء فوقهم وأصل التثق الجذب. ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة وهي ما أظلك. ﴿وَوُطِّنُوا﴾ وتيقنوا. ﴿أَنَّهُ وَقَعَ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجو ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم. وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم. ﴿خُذُوا﴾ على إضمار القول أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا.

﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجذ وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ولا تركوه كالمسني. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، و ﴿من ظهورهم﴾ بدل ﴿من بني آدم﴾ بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب «ذرياتهم». ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألسن بربكم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكينهم منه بمنزلة الأشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل ويدل عليه قوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف على ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾، وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فافتدنا بهم لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. ﴿أَفْتَهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق والهمهم ذلك لحديث رواه عمر رضي الله تعالى عنه، وقد حققت الكلام فيه في شرحي لكتاب «المصابيح»، والمقصود من إيراد هذا الكلام ها هنا الزام اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم عن التقليد وحملهم على النظر والاستدلال كما قال:

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن التقليد واتباع الباطل.

﴿وَأَنْتَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود. ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، أو أمية بن أبي الصلت فإنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً في ذلك الزمان، ورجا أن يكون هو فلما بعث محمد عليه السلام حسده وكفره به، أو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها. ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ حتى لحقه وقيل استتبعه. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومن معه فقال: كيف أدعو على من معه الملائكة، فألحوا حتى دعا عليهم فبقوا في التيه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الْكَلْبَ إِذْ سَخِمَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (176)

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿بِهَا﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا أو إلى السفالة. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إثارة الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضى الآيات، وإنما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العبد، تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث أن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، مبالغة وتنبيهاً على ما حمله عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿فَمَثَّلْنَا لَكَ فِي الْخَسَةِ﴾ ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ كصفته في أحسن أحواله وهو ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرُكُهُ يَلْهَثُ﴾ أي يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرود أو ترك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهث إدلاع

اللسان من التنفس الشديد والشرطية في موضع الحال والمعنى. لاهتاً في الحالتين، والتمثيل واقع موقع لازم التركيب الذي هو نفي الرفع ووضع المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى ﷺ خرج لسانه فوق على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الانعاط.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (177)

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ﴾ أي مثل القوم، وقرئ ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ على حذف المخصوص بالذم. ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ إما أن يكون داخلياً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (178)

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تصريح بأن الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين، والافتقار في الإخبار عن هداية الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَئِنِ شَاءُوا لَنَفْعَنَّهُمْ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (179)

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني المصيرين على الكفر في علمه تعالى. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار. ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر. ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (180)

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمي به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم ولحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كالكلمات من «الله»، والعزى من «العزير» ولا نوافقهم عليه أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأ حمزة هنا وفي «فصلت» ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (181)

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»، إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن فائدة فإنه معلوم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (182)

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنستدينهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج الاستسعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة. «مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» ما نريد بهم وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطرفاً وانهماكاً في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (183)

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم عطف على «سنستدرجهم». «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (184)

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ. «مِنْ حِنَّةٍ» من جنون. روي: أنه ﷺ صعد على الصفا فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال: قائلهم إن صاحبكم لمجنون بات يهوت إلى الصباح، فنزلت. «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» موضح انداره بحيث لا يخفى على ناظر.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ

حَدِيثٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (185)

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ نظر استدلال. «فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ» مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها وعظم شأن مالِكها، ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوههم إليه. «وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ» عطف على ملكوت وأن مصدرية أو مخففة من الثقلية، واسمها ضمير الشأن وكذا اسم يكون والمعنى: أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم، قبل مغافضة الموت ونزول العذاب. «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ» أي بعد القرآن. «يُؤْمِنُونَ» إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والارشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: عسى أن يكون، كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون بالإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به وقوله:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (186)

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾ كالتقرير والتعليل له. «وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بآلاء لقوله «مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ»، وحزمة والكسائي به وبالجزم عطفاً على محل «فلا هادي له»، كأنه قيل: لا يهده أحد غيره «وَيَعْمَهُونَ». «يَعْمَهُونَ» حال من هم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لَوْفَتَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا

بِفَئَةٍ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (187)



﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو لأنها على طولها عند الله كساعة. ﴿أَتَأْتِئُنَّ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أي إثباتها واستقرارها ورسو الشيء ثباته واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسي السفينة، واشتقاق ﴿أَيَّانَ﴾ من أي لأن معناه أي وقت، وهو من أويت إليه لأن البعض أو إلى الكل. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر به لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا. ﴿وَلَا يُجَلِّيْهَا لَوْفِئِهَا﴾ لا يظهر أمرها في وقتها. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقبت كاللام في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾. ﴿فَنُقَلِّتُ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه». ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ عالم بها، فعيل من حفى عن الشيء إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه، ولذلك عدى بعن. وقيل هي صلة ﴿يسألونك﴾. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم فتخصهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه، من حفى بالشيء إذا فرح أن تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كرره لتكرير يسألونك لما نيظ به من هذه الزيادة وللمبالغة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (188) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا حَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (189) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (190) ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (191) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (192) ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاءَ عَلَيْهِمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صُمٌّ بُكْمٌ﴾ (193)

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جلب نفع ولا دفع ضرر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسنني سوء. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ما أنا إلا عبد مرسل للأنذار والبشارة. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بهما، ويجوز أن يكون متعلقاً بالـ ﴿بَشِيرٌ﴾ ومتعلق الـ ﴿نَذِيرٌ﴾ محذوف.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾. ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسب. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا﴾ أي جامعها. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فاستمرت به أي قامت وقعدت، وقرئ: ﴿فَمَرَّتْ﴾ بالتخفيف وفاستمرت به وفمارت من المور وهو المَجِيء والذهاب، أو من المرية أي فظنت الحمل وارتابت منه.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرئ على البناء للمفعول أي أثقلها حملها. ﴿دَعَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة المتجددة.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي جعل أولادهما له شركاء فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويدل عليه قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني الأصنام. وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسمية عبد الحرث، وكان اسمه حارثاً بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سمياه عبد الحرث. وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء ويحتمل أن يكون الخطاب في ﴿خلقكم﴾ لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسميهم: عبد مناف، وعبد شمس، وعبد قصي، وعبد الدار. ويكون الضمير في ﴿يشركون﴾ لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر «شركاً» أي شركة بأن أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعبدتهم. ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتربها.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين. ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى الإسلام. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقرأ نافع بالتخفيف وفتح الباء، وقيل الخطاب للمشركين وهم ضمير الأصنام أي: إن تدعوهم إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ بِأَمْ أَنْتُمْ صَادِقُونَ﴾ وإنما لم يقل أم صمتهم للمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إنه مسوى بالثبات على الصمات، أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكأنه قيل: سواء عليكم إحداثكم دعاءهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

(194)

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة. ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة. ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم آلهة، ويحتمل أنهم لما نحتوها بصور الأناسي قال لهم: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض، ثم عاد عليه بالنقض فقال:

﴿أَلَهُمْ آرِجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ

أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (195)

﴿أَلَهُمْ آرِجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقرئ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ بتخفيف ﴿أَنْ﴾ ونصب ﴿عباد﴾ على أنها نافية عملت عمل ما الحجازية ولم يثبت مثله، و ﴿يَبْطِشُونَ﴾ بالضم ها هنا وفي «القصص» و «الدخان». ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ فبالغوا فيما تقدرؤن عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم. ﴿فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ فلا تمهلون فإنني لا أبالي بكم لو ثوقني على ولاية الله تعالى وحفظه.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (196)

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن عاداته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ (197)

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (198)

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوّروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (199)

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلب ما يشق عليهم، من العفو الذي هو ضد الجهد أو ﴿خذ العفو﴾ عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق أمرة للرسول باستجماعها.

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (200)

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ ينخسك منه نخس أي وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزع والنسخ والنخس الغرز شبه وسوسته إغراء لهم على المعاصي وإزعاجاً بغرز السائق ما يسوقه. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحكمك عليه، أو ﴿سميع﴾ بأقوال من آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (201)

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ لمة منه، وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب «طيف» على أنه مصدر أو تخفيف «طيف» كلين وهين، والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره. ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقع الخطأ ومكاييد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، والآية تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (202)

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمددهم الشياطين. ﴿فِي الْغَيِّ﴾ بالتزوين والحمل عليه، وقرئ ﴿يمدوهم﴾ من أمد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والإغراء وهؤلاء يعينونهم بالاتباع والامتثال. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن اغوائهم حتى يردوهم، ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يكفون عن الغي ولا يقصرون كالمتمقين، ويجوز أن يراد بالـ ﴿إخوان﴾ الشياطين ويرجع الضمير إلى ﴿الجاهلِينَ﴾ فيكون الخبر جارياً على ما هو له.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإُيْرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)﴾

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ من القرآن أو مما اقترحوه. ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا جمعتها تقولاً من نفسك كسائر ما تقرؤه أو هلا طلبتها من الله. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ لست بمخترق للآيات أو لست بمقترح لها. ﴿هَذَا بَصَإُيْرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب بها يبصر الحق ويدرك الصواب. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق تفسيره.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقاً، وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقاً، وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

(205) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (206)

﴿وَإِذْ كُنَّا فِي نَفْسِكَ﴾ عام في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿تَضَرَّعاً وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص. ﴿بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات. وقرىء «والإصبال» وهو مصدر أصل إذا دخل في الأصل وهو مطابق للغدو. ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملائكة الأعلى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ولذلك شرع السجود لقراءته. وعن النبي ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي فيقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار» وعنه ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم شافعاً له يوم القيامة».

## سورة الأنفال

[مدنية وآياتها ست وسبعون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1)﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ أي الغنائم يعني حكمها، وإنما سميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشرطه الإمام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه. ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار. وقيل شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسرُوا سبعين ثم طلبوا نفلهم - وكان المال قليلاً - فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رِءَاءَ لَكُمْ وفئة تحازون إلينا، فنزلت فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيته به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته، وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي وأنه قد صار لي فاذهب فخذ. وقرئ «يسألونك علفال» بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، ويسألونك الأنفال أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والانتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

(2)﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرغت لذكره استعظاماً له وتبهيماً من جلاله. وقيل هو الرجل يهيم بمعصية فيقال له اتق الله فيترع عنها خوفاً من عقابه. وقرئ ﴿وَجِلَّتْ﴾ بالفتح وهي لغة، وقرئت أي خافت. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة، أو بالعمل بموجيها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)﴾

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)﴾

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة، و ﴿حَقًّا﴾ صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾. ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة وعلو منزلة. وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أعد لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِذُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوهُ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)﴾

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراهتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراهتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة. أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿اللَّهُ وَالرَّسُولُ﴾ أي الأنفال ثبتت لله والرسول ﷺ مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة لأنها مهاجرة ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ في موقع الحال أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راجلاً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم لتلقيها لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، غيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبد المطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فردد عليهم وقال أن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالوا فأحسننا، ثم قام سعد بن عباد فقال: أنظر أمرك فامض فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: امض لما أمرك الله فأننا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا (عددهم) وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف أن لا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يا رسول الله فقال: أجل، قال: أمانا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته

لخضنائه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى، فنشطه قوله ثم قال: «سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم». وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له: عليك بالغير فناداه العباس وهو في وثاقه لا يصلح فقال له «لم» فقال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في إثباتك الجهاد بإظهار الحق لا يثارهم تلقي الدبر عليه. ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ أَيْنَمَا تَوَجَّهُوا بِإِعْلَامِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ﴾. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلّة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجالاً وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرض فزعهم ورعبهم. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ على إضمار اذكر، وإحدى ثاني مفعولي ﴿يَعِدُكُمْ﴾ وقد أبدل منها. ﴿أَنَّهُمَا لَكُمْ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقاته الفير لكثرة عددهم، وعددهم والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يشبهه ويعليه. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ الموحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمضاء، وقرئ «بكلمته». ﴿وَيَقْطَعُ ذَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ويستأصلهم، والمعنى: أنكم تريدون أن تصيبوا ما لا ولا تلقوا مكروهاً، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي فعل ما فعل وليس بتكرير، لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصرة عليها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَوْ يَمْدُكُمْ بِالْفِتْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (9)

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَعِدُكُمْ﴾ أو متعلق بقوله ﴿لِيُحِقَّ﴾ بقوله ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾، أو على إضمار اذكر، واستغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر يا نبي الله: كفالك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ بأنني ممدكم، فحذف الجار وسلط عليه الفعل وقرأ أبو عمرو بالكسر على إرادة القول أو إجراء استجواب مجرى قال لأن الاستجابة من القول. ﴿بِالْفِتْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً من أردفته أنا إذا جئت بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين، أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بفتح الدال أي متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم. وقرئ ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الراء وضمها وأصله مرتدفين بمعنى مترادفين فادغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الاتباع. وقرئ «بالألف» ليوافق ما في سورة «آل عمران»، ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالآلف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل عليها.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

عَكِيمٌ﴾ (10)

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ فيزول ما بها من الوجع لقتلكم وذلتكم. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهلب ونحوهما وسائط لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدائها.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (11)

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ بدل ثان من ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ لإظهار نعمة ثالثة أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله معنى الفعل، أو بجعل أو بإضمام اذكر. وقرأ نافع بالتخفيف من أغشيته الشيء إذا غشيته إياه والفاعل على القراءتين هو الله تعالى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يغشاكم النعاس» بالرفع. ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أمانة من الله، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله «يغشاكم النعاس» متضمن معنى تنعسون، و «يغشاكم» بمعناه، والـ ﴿أَمَنَةً﴾ فعل لفاعله ويجوز أن يراد بها الإيمان فيكون فعل المغشي، وأن تجعل على القراءة الأخيرة فعل النعاس على المجاز لأنها لأصحابه، أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاكم لشدة الخوف فلما غشاهم فكأنه حصلت له أمانة من الله لولاها لم يغشاهم كقوله:

يَهَابُ النَّوْمِ أَنْ يَغْشَى عُيُونَنَا تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَارٌ شَرُّودُ

وَقَرِءَ ﴿أَمَنَةً﴾ كرحمة وهي لغة. ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ من الحدث والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخيله، أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كتيب أغفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تنصرون، وقد غلبتم على الماء وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله فأشفقوا فأنزل الله المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (12)

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ بدل ثالث أو متعلق بيبث. ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم وهو مفعول «يوحى». وقرىء بالكسر على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه. ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالبشارة أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم فيكون قوله: ﴿سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله «إني معكم فثبتوا»، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله: ﴿سَالِقِي﴾ إلى قوله: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقين للملائكة ما يشنون المؤمنين به كأنه قال؛ قولوا لهم قولي هذا. ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس. ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (13)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به والخطاب للرسول، أو لكل أحد من المخاطبين قبل. ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بسبب مشافتهم لهما واشتقاقه من الشق لأن كلا من المتعادين في شق خلاف شق الآخر



كالمعاداة من العدو والمخاصمة من الخصم وهو الجانب. ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

﴿ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوا وَآتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ (14)

﴿ذَلِكَ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات ومحله الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقع أو نصب بفعل دل عليه. ﴿فَذُوقُوا﴾ أو غيره مثل باسروا أو عليكم فتكون الفاء عاطفة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ عطف على ذلكم أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الأجل أو الجمع بينهما. وقرئ ﴿وَلِنْ﴾ بالكسر على الاستئناف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ (15)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبي إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال. ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ بالانزهام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿حُرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الآية، ويجوز أن ينتصب زحفاً حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم متزحفين يدبون إليكم وتدبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثنا عشر ألفاً.

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَئِنْ لَمْ تَنبَهُوا لِفِتْنَةٍ لَمْ تَنبَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُفْنَى عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (19) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعُوا لِمَنْ كَفَرَ مِنْكُمْ

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يريد الكر بعد الفر وتغريب العدو، فإنه من مكاييد الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم، ومنهم من لم يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففروا إلى المدينة فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون فقال: «بل أنتم العكارون وأنا فتتكم». وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال وإلا لغو لا عمل لها، أو الاستثناء من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحيز متفعلاً لا متفعلاً وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز. ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضعف لقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ الآية، وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقنقل قال عليه الصلاة والسلام: هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني فأثاء جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصاء فرمى بها في وجوههم وقال «شاهت الوجوه»، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا ورددهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر

فيقول الرجل قتل وأسر، فنزلت. والفاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. ﴿وَمَا رَمَيْتُ﴾ يا محمد رمياً توصله إلى أعينهم ولم تقدر عليه. ﴿إِذْ رَمَيْتُ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم، وقد عرفت أن اللفظ يطلق على المسمى وعلى ما هو كماله والمقصود منه. وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم. وقيل إنه نزل في طعنة طعن بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات. أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على فراشه، والجمهور على الأول. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي ﴿ولكن﴾ بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين. ﴿وَلِيُبَيِّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات فعل ما فعل. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل أو الرمي، ومحلّه الرفع أي المقصود أو الأمر ذلك وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُهِينٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿موهن﴾ بالتشديد، وحفص ﴿موهن كيد﴾ بالإضافة والتخفيف.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم أنصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين. ﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين. ﴿وَأِنْ تَعُودُوا﴾ لمحاربه. ﴿نَعُدُّ﴾ لنصرته عليكم. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع. ﴿عَنْكُمْ فَتْنُكُمْ﴾ جماعتكم. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغواء أو المضار. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فتكم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿وَأَنَّ﴾ بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك. وقيل الآية خطاب للمؤمنين والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهيج العدو، ولن تغني حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع الكاملين في إيمانهم ويؤيد ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي ولا تتولوا عن الرسول، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى ﴿مَنْ يَطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وقيل الضمير للجهد أو للأمر الذي دل عليه الطاعة. ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواظع سماع فهم وتصديق.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (21)

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادعوا السماع. ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً يتفهمون به فكانهم لا يسمعون رأساً.

﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (22)

﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ شر ما يذب على الأرض، أو شر البهائم. ﴿الضُّمُّ﴾ عن الحق. ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا يفقهون إياه، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (23)

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سعادة كتبت لهم أو انتفاعاً بالآيات. ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم. ﴿وَلَوْ

أَسْمَعَهُمْ ﴿١﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول. ﴿وَهُمْ مِعْرُضُونَ﴾ لعنادهم. وقيل كانوا يقولون للنبي ﷺ: أحبي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك ونؤمن بك. والمعنى لأسمعهم كلام قصي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (24) ﴿﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة. ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تسمع من الرسول. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جاء فقال: ما منعك عن إجابتي قال: كنت أصلي، قال: «ألم تخبر فيما أوحى إلي» ﴿استجبوا لله وللرسول﴾. واختلف فيه فقيل هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل لأن دعاءه كان لأمر لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله وظاهر الحديث يناسب الأول. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته. قال:

لَا تَعَجَبَنَّ الْجَهْلُورَ حِلَّتِهِ فَذَلِكَ مِيتٌ وَتَوْبُهُ كَفَنٌ

أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال، أو من الجهاد فإنه سبب بقاءكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم، أو الشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وتنبيه على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها، أو حث على المبادرة إلى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته. وقرئ ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ بالتشديد على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل الوقف على لغة من يشدد فيه. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (52) ﴿﴾

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ اتقوا ذنباً يعمكم أثره كإقرار المنكر بين أظهركم والمداهنة في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد على أن قوله لا تصيبن إما جواب الأمر على معنى أن أصابتمكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم﴾ وأما صفة لـ ﴿لفتنة﴾، ولا للنفي وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفي في غير القسم، أو للنهي على إرادة القول كقوله:

حتى إذا جن الظلام واختلط جاؤوا بمدق هل رأيت الذئب قط

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيين وإن اختلفا في المعنى، ويحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذنب عن التعرض للظلم لأن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه، ومن في منكم على الوجه الأول للتبعيض وعلى الآخرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقيح من غيركم. ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوَنَكُمْ وَيَضْرِبُوا

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (30) ﴿﴾

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش، والخطاب للمهاجرين. وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم. ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ كفار قريش أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم. ﴿فَأَوَّاهَكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تتحصنون به عن أعاديكم. ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبُصْرِهِ﴾ على الكفار أم بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالخلول في المغانم. وروي: (أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعهم وأريحاء بأرض الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ، فأشار إلى حلقة أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت. فشد نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقبل له: قد تيب عليك فحل نفسك فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده فقال إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي فقال عليه الصلاة والسلام يجزيك الثلث أن تصدق به). وأصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه. ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتَكُمْ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، أو أنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب، أو محنة من الله تعالى ليلبوكم فيهم فلا يحملنكم جبههم على الخيانة كأبي لبابة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين، أو طهوراً يشهر أمركم ويثبت صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي الصبح. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويسترها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم. وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر. وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمل.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تذكّر لما مكر قريش به حين كان بمكة ليُشكر نعمة الله في خلاصه. من مكروهم واستيلائه عليهم، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس، أو الإثخان بالجرح

من قولهم ضربه حتى أثبتته لا حراك به ولا براح، وقرئ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالتشديد «وليثبتوك» من البيات «وليقيدوك». ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسوْفهم. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فرقوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ بئس الرأي يأتاكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمر ورأيي أن تحمله على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بئس الرأي يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه. فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ برد مكرهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ إذ لا يؤبه مكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا ما يحسن للمزاوجة ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الدم.

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

(31)

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصمهم، أو قول الذين ائتمروا في أمره عليه الصلاة والسلام وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب البيان. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ (32) وَمَا كُنَّا لِلَّهِ لِعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)﴾

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغ في الجحود. روي أنه لما قال النضر إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ: «وبلك إنه كلام الله» فقال ذلك. والمعنى إن كان هذا حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره، أو ائتنا بعذاب أليم سواه، والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً. وقرئ ﴿الحق﴾ بالرفع على أن ﴿هو﴾ مبتدأ غير فصل، وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ وهو تنزيله لا الحق مطلقاً لتجوزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بيان لما كان الموجب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي ﷺ بين أظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من

المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرصة على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (34)

﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون. ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وحالهم ذلك ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء. ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقيل الضميران ﴿لِلَّهِ﴾. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعام ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (35) **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** (36) **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضٌ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ** (37) **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُعْذِرُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ** (38) **وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ فِتْنَةٌ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (39) **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَقِلْكُمْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمْ النَّصِيرُ** (40)

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها. ﴿إِلَّا مُكَاءً﴾ صغيراً فعال من مكأ إذا صفر. وقرئ بالقصر كالبكاء. ﴿وَتَصَدِيَةً﴾ تصفيقاً تفعله من الصدا، أو من الصد على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء. وقرئ ﴿صَلَاتُهُمْ﴾ بالنصب على أنه الخبر المقدم، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. روي: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون. وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود: ﴿إِنَّا نَعِدُّكُمْ بِالْعَذَابِ﴾. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم أعيئوا بهذا المال على حرب محمد لعنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا، والمراد بـ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه واتباع رسوله. ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ بتمامها ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير

مقصود. جعل ذاتها تصير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغة. ﴿ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجلاً قبل ذلك. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذا أسلم بعضهم. ﴿إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أو ﴿يَغْلِبُونَ﴾ أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ مما أنفق المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿لِيَمِيزَ﴾ من التمييز وهو أبلغ من الميز. ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يترابطوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكافرين. ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين. ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه والمعنى قل لأجلهم. ﴿إِنْ يَسْتَهْوَ﴾ عن معادة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام. ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم، وقرئ بالتاء والكاف على أنه خاطبهم و﴿يَغْفِرُ﴾ على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿وَأِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وتضمحل عنهم الأديان الباطلة. ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ عن الكفر. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب «تعملون» بالتاء على معنى فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير، فيجازيكم ويكون تعليقه بانتهاهم دلالة على أنه كما يستدعي إثابهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم ينتهوا. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فتقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم. ﴿نَعْمَ الْمَوْلَى﴾ لا يضيع من تولاه. ﴿وَنَعْمَ النَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾  
إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)﴾

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ أي الذي أخذتموه من الكفار قهراً. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: فثبت أن لله خمسة. وقرئ فإن بالكسر والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾. وأن المراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فكأنه قال: فإن لله خمسة يصرف إلى هؤلاء الأخصيين به. وحكمه بعد، باق غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان رضي الله تعالى عنهما. وقيل إلى الإمام. وقيل إلى الأصناف الأربعة. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية. وعن مالك رضي الله تعالى عنه الأمر فيه مفوض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم، وذهب أبو العالية إلى ظاهر الآية فقال يقسم ستة أقسام ويصرف سهم الله إلى الكعبة لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ قبضة منه فيجعلها للكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة). وقيل سهم الله لبيت المال. وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ. وذوو القربى: بنو هاشم، وبنو المطلب. لما روي أنه عليه

الصلاة والسلام قسم سهم ذوي القربى عليهما فقال له عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما: هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا نكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام وشبك بين أصابعه». وقيل بنو هاشم وحدهم. وقيل جميع قريش الغني والفقير فيه سواء. وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم بن السبيل. وقيل الخمس كله لهم والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص. والآية نزلت ببدر. وقيل الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» متعلق بمحذوف دل عليه «واعلموا» أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإن العلم العملي إذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لأنه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل. «وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا» محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر. وقرئ: «عبدنا» بضم تين أي الرسول ﷺ والمؤمنين. «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. «يَوْمَ التَّقَى» التقي الجمع من المسلمين والكافرين. «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (42)

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ بدل من «يوم الفرقان»، والعدوة بالحركات الثلاث شط الوادي وقد قرئ بها، والمشهور الضم والكسر وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. «وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى» البعدى من المدينة، تأنيث الأقصى وكان قياسه قلب الواو ياء كالدنيا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقود وهو أكثر استعمالاً من القصيا. «وَالرَّكْبُ» أي العير أو قوادها. «أَسْفَلَ مِنْكُمْ» في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل، وهو منصوب على الظرف واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله، وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبدلوا منتهى جهدهم، وضعف شأن المسلمين والنيات أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة، وكذا ذكر مراكز الفريقين فإن العدو الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء، بخلاف العدو القصوى وكذا قوله: «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ» أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هبة منهم، ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنفاً من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. «وَلَكِنْ» جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» حقيقة بأن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه، وقوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» بدل منه أو متعلق بقوله مفعولاً والمعنى: ليموت من يموت عن بيينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لثلا يكون له حجة ومعدرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بيينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام، والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة، أو من هذا حاله في علم الله وقضائه. وقرئ: «لِيَهْلِكَ» بالفتح وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب من «حيي» بفك الإدغام للحمل على المستقبل. «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ» بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد.



﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) ﴾

﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ﴾ مقدر باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح إذ بقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ لجبتهم. ﴿ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ في أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار. ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير أحوالها.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44) ﴾

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ الضميران مفعولاً يرى و ﴿ قَلِيلًا ﴾ حال من الثاني، وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ. ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وقللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترؤوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثروهم حتى يرونها مثليهم لتفجأهم الكثرة فبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظام آيات تلك الواقعة فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إحصاء بعض دون بعض مع التساوي في الشروط. ﴿ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرهه لاختلاف الفعل المعلل به، أو لأن المراد بالأمر ثمة الاكتفاء على الوجه المحكي وها هنا إغزاز الإسلام وأهله وإذلال الأشرار وحزبه. ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ حاربتم جماعة ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء مما غلب في القتال. ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ للقاتلهم. ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهريين بذكره مترقبين لنصره. ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تظهرون بمرادكم من النصر والثبوت، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه بشرائره فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) ﴾

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد. ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ جواب النهي. وقيل عطف عليه ولذلك قرئ: ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ بالجزم، والريح مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل المراد بها الحقيقة فإن النصر لا تكون إلا بريح يبعثها الله وفي الحديث «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدبور». ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالكلاءة والنصرة.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ (47) ﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير. ﴿بَطْرًا﴾ فخرًا وأشرًا. ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ لينتوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبو جهل: لا والله حتى تقدم بدرًا ونشرب فيها الخمر وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب، فوافوها ولكن سقوا كأس المنيا وناحت عليهم النوائح، فنهى المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده. ﴿وَيُضْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معطوف على بطراً إن جعل مصدرًا في موضع الحال وكذا إن جعل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر. ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَيَّانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)﴾

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ مقدر باذكر. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ في معاداة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ مقالة نفسانية والمعنى: أنه ألقى في روعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلِبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفتيين وأفضل الدينين، ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلته وإلا لانتصب كقولك: لا ضارباً زيداً عندنا. ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَيَّانِ﴾ أي تلاقى الفريقان. ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ رجع القهقري أي بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة، وقيل: لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة وكاد ذلك يثنيهم، فتمثل لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم وإنني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبيه وكان يده في يد الحارث بن هشام فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة فقال إنني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقه فبلغه ذلك فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ إنني أخافه أن يصيبني بمكره من الملائكة أو يهلكني ويكون الوقت هو الوقت الموعود إذ رأى فيه ما لم ير قبله، والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون من كلامه وأن يكون مستأنفاً.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاتَّ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)﴾

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والذين لم يطمثوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة. وقيل هم المشركون. وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين. ﴿عَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعنون المؤمنين. ﴿دِينَهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يدي لهم به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشرة إلى زهاء ألف. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ جواب لهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذل من استجار به وإن قل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50)﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَبِيسٌ لِّظُلْمٍ لِّلْعَمِيدِ (51) كَذَّابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا

يَايَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ (56) ﴿

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ ولو رأيت فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكس إن. ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بيدر، وإذ ظرف ترى والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حالهم حينئذ، والملائكة فاعل يتوفي ويدل عليه قراءة ابن عامر بالناء ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله عز وجل وهو مبتدأ خبره ﴿يَضْرِبُونَ وَيُجْهِقُونَ﴾ والجملة حال من الذين كفروا، واستغني فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاستماله على الضميرين. ﴿وَأَذْبَارُهُمْ﴾ ظهورهم أو أسنانهم، ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون باضممار القول أي ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة. وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهب النار منها، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لتفطيع الأمر وتهويله.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب. ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيكُمْ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ عطف على «ما» للدلالة على أن سببته بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم لا أن لا يعذبهم بذنوبهم. فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى ينتهض نفي الظلم سبباً للتعذيب وظلام للتكثير لأجل العبيد.

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون. ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم. ﴿بِأَنَّ اللَّهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنقمة. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكف عن تعرض الآيات والرسول بمعادة الرسول عليه الصلاة والسلام ومن تبعه منهم، والسعي في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته على تغييره متى يغيروا حالهم، وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد ولما نبط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وبيان ما أخذ به آل فرعون. وقيل الأول لتشبيه الكفر والأخذ به والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم. ﴿وَكُلُّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش. ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، وقوله:

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ بدل من الذين كفروا بدل البعض للبيان والتخصيص، وهم يهود قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسبنا ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم. ومن لتضمين المعاهدة معنى الأخذ والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سبة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

﴿فَإِذَا تَقَفَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ (57)

﴿فَإِذَا تَقَفَّيْتُمْ﴾ فإذا تصادفتم وتظفرن بهم، ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم ﴿مَن خَلْفَهُمْ﴾ من وراءهم من الكفرة والتشريد تفريق على اضطراب. وقرئ «فشرذ» بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر و ﴿مَن خَلْفَهُمْ﴾، والمعنى واحد فإنه إذا شرد من وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ لعل المشردين يتعظون.

﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (58)

﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين. ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك. ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم. ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تتاجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد وهو في موضع الحال من النابذ على الوجه الأول أي ثابتاً على طريق سوي أو منه أو من المنبذ إليهم أو منهما على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.

﴿وَلَا يَخْشَى الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْمُرُونَ﴾ (59)

﴿وَلَا تَخْشَى﴾ خطاب للنبي ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾ مفعولاه وقرأ ابن عامر وحزمة وحفص بالياء على أن الفاعل ضمير أحد أو ﴿مَن خَلْفَهُمْ﴾، أو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمفعول الأول أنفسهم فحذف للتكرار، أو على تقدير أن ﴿سَبِقُوا﴾ وهو ضعيف لأن أن المصدرية كالموصول فلا تحذف أو على إيقاع الفعل على. ﴿أَنَّهُمْ لَا يَعْمُرُونَ﴾ بالفتح على قراءة ابن عامر وأن ﴿لَا﴾ صلة و ﴿سَبِقُوا﴾ حال بمعنى سابقين أي مفلتين، والأظهر أنه تعليل للنهي أي: لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً. عن إدراكهم وكذا إن كسرت إن إلا أنه تعليل على سبيل الاستئناف، ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبذ العهد وإيقاظ العدو، وقيل نزلت فيمن أفلت من قل المشركين.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ

لَا تَطْمَئِنُّوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (60)

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ لناقضي العهد أو الكفار. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة بن عامر سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر «ألا إن القوة الرمي قالها ثلاثاً» ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أقواه. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، فعال بمعنى مفعول أو مصدر سمي به يقال ربط ربطاً ورباطاً ورباطة ورباطاً، أو جمع ربيط كفضيل وفصال. وقرئ «ربط الخيل» بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ تخوفون به، وعن يعقوب «ترهبون» بالتشديد والضمير لـ ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أو للإعداد. ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة. ﴿وَأَخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة.

قِيلَ هُمُ الْيَهُودُ وَقِيلَ الْمَنَافِقُونَ وَقِيلَ الْفَرَسُ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ لَا تَعْرِفُونَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يَعْرِفُهُمْ .  
﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جَزَاؤُهُ . ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بِتَضْيِيعِ الْعَمَلِ أَوْ نَقْصِ الثَّوَابِ .  
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (61)

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مَالُوا وَمَنَ الْجَنَاحُ . وَقَدْ يَعْدَى بِاللَّامِ وَإِلَى . ﴿لِلسَّلَامِ﴾ لِلصَّلَاحِ أَوْ الْإِسْتِسْلَامِ . وَقَرَأَ أَبُو  
بَكْرٍ بِالْكَسْرِ . ﴿فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾ وَعَاهَدَ مَعَهُمْ وَتَأْنَيْتِ الضَّمِيرَ لِحَمْلِ السَّلَامِ عَلَى نَقِيضِهَا فِيهِ . قَالَ :

السَّلَامُ دَأْخُذٌ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جَرْعٌ

وَقَرِءَ ﴿فَاجْتَنَحْ﴾ بِالضَّمِّ . ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وَلَا تَخَفْ مِنْ إِبْطَانِهِمْ خِدَاعاً فِيهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْصَمُكَ مِنْ  
مَكْرِهِمْ وَيُحَقِّقُهُ بِهِمْ . ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ . ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِنِيَاتِهِمْ . وَالآيَةُ مَخْصُوصَةٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ  
لِاتِّصَالِهَا بِقَصَّتِهِمْ وَقِيلَ عَامَةً نَسَخْتُهَا آيَةَ السَّيْفِ .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (62)

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فَإِنَّ مُحْسِبَكَ اللَّهَ وَكَافِيكَ قَالَ جَرِيرٌ :

إِنِّي وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبَكُمْ أَنْ تَلْبِسُوا حَرَّ الثِّيَابِ وَتَشْبَعُوا  
﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جَمِيعاً .

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ﴾ (63)

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مَعَ مَا فِيهِمْ مِنَ الْعَصِيَّةِ وَالضَّغِينَةِ فِي أَدْنَى شَيْءٍ ، وَالتَّهَالُكِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ بِحَيْثُ  
لَا يَكَادُ يَأْتَلِفُ فِيهِمْ قَلْبَانُ حَتَّى صَارُوا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَهَذَا مِنْ مَعْجَزَاتِهِ ﷺ ، وَبَيَانُهُ : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي  
الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيِ تَنَاهَى عِدَاؤُهُمْ إِلَى حَدِّ لَوْ أَنْفَقَ مَنْفَقٌ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ مَا فِي  
الْأَرْضِ مِنَ الْأَمْوَالِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْأَلْفَةِ وَالْإِصْلَاحِ . ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بِقُدْرَتِهِ الْبَالِغَةِ ، فَإِنَّهُ الْمَالِكُ  
لِلْقُلُوبِ يَقْلِبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ . ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تَامَ الْقُدْرَةَ وَالْغَلْبَةَ لَا يَعْصِي عَلَيْهِ مَا يَرِيدُهُ . ﴿حَكِيمٌ﴾ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَيْفَ  
يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُهُ ، وَقِيلَ الْآيَةُ فِي الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ كَانَ بَيْنَهُمْ مَحَنٌ لَا أَمَدَ لَهَا وَوَقَائِعٌ هَلَكَتْ فِيهَا  
سَادَاتُهُمْ ، فَأَنْسَاهُمْ اللَّهُ ذَلِكَ وَأَلْفَ بَيْنَهُمْ بِالْإِسْلَامِ حَتَّى تَصَافَوْا وَصَارُوا أَنْصَاراً .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (64)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كَافِيكَ . ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَمَا فِي مَحَلِّ النِّصَبِ عَلَى الْمَفْعُولِ  
مَعَهُ كَقَوْلِهِ :

إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَاشْتَجَرَ الْقَنَا فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ

أَوْ الْحَجَرُ عِطْفاً عَلَى الْمَكْنِيِّ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ ، أَوْ الرُّفْعُ عِطْفاً عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَيِ كِفَاكَ اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ .  
وَالْآيَةُ نَزَلَتْ بِالْبَيْدَاءِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَقِيلَ أَسْلَمَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا وَسِتْ نِسَاءً ، ثُمَّ أَسْلَمَ عُمَرُ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَنَزَلَتْ . وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا نَزَلَتْ فِي إِسْلَامِهِ .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (65)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ بالغ في حثهم عليه، وأصله الحرص وهو أن يهتكه المرض حتى يشفي على الموت وقرئ «حرص» من الحرص. ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأيدته. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تكن بالتاء في الآيتين ووافقهم البصريان في ﴿وإن تكن منكم مائة﴾. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر لا يشتون ثياب المؤمنين رجاء الثواب وعوالي الدرجات قتلوا أو قُتلوا ولا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (66) مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَضَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70)﴾

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لما أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم وثقل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل كان فيهم قلة فأمروا بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد يذكر الأعداء المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن. وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها، وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم وحمزة والضم وهو قراءة الباقيين. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾ وقرئ «النبي» على العهد. ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَتَّى يُنْخَضَ فِي الْأَرْضِ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله، من أنخذه المرض إذا أثقله وأصله الثخانة، وقرئ «ينخن» بالتشديد للمبالغة. ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه. وقرئ «الآخرة» على إضمار المضاف كقوله:

أَكُلْ أَمْرِي تَحْسِبِينَ أَمْرًا وَنَارٌ تُوقَدُ بِاللَّيْلِ نَارًا

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه. ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الإقتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المنّ لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء، مكني من فلان - لنسب له - ومكن علياً وحمزة من أخويهما فنضرب أعناقهم، فلم يهو ذلك رسول الله ﷺ وقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ فخير أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبيكان

فقال: «يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاءً بكيت وإلا تباكيت فقال: أباك على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة». والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يقرون عليه.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم. ﴿لَمَسْكُكُمْ﴾ لنالكم. ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ». وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم. وقيل أمسكوا عن الغنائم فنزلت. والفاء للتسبب والسبب محذوف تقديره: أبحت لكم الغنائم فكلوا، وبنحوه تشبث من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة. ﴿حَلَالًا﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلاً حلالاً، وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْرَى﴾ وقرأ أبو عمرو «من الأسارى». ﴿إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء. روي (أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يغدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم، فقال العباس: وما يدريك، قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنتك رسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل، قال العباس فأبدلني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جمع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم) يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (71)

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يعني الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك. ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل. ﴿مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فأمكنتك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعداؤا الخيانة فسيمكنتك منهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْنَصِرْكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ بَيْنَهُمُ يَمِيزُ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (72)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ هم المهاجرون هجروا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويع. ﴿وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمباشرة القتال. ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرين والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ أو بالنصرة والمظاهرة. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ قَوْمٍ وَلَا يَتِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا﴾ أي من توليهم في الميراث، وقرأ حمزة «ولايتهم» بالكسر تشبيهاً لها

بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملاً. ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين. ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (73)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو المؤازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار. ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر. ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين وقرى كثير.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كَرِيمٌ﴾ (74)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تبعة له ولا منة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهن ويتسم بسمتهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمٌ﴾ (75)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي من جملةكم أيها المهاجرون والأنصار. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن وأستدل به على تورث ذوي الأرحام. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الموارث والحكمة في إنطاعتها بنسبة الإسلام والمظاهرة، أولاً واعتبار القرابة ثانياً. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطي حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته».



## سورة براءة

[مدنية وقيل إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول﴾

وهي آخر ما نزل ولها أسماء أخرى، «التوبة» و«المقشقة» و«البحوث» و«المبغثرة» و«المنقرة» و«المثيرة» و«الحافرة» و«المخزية» و«الفاضحة» و«المنكلة» و«المشردة» و«المدممة» و«سورة العذاب» لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المناققين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم.

وآياتها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون، وإنما تركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله أمان. وقيل كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بين موضعها، وتوفي ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الأنفال وتناسبها لأن في الأنفال ذكر اليهود وفي براءة نبذها فضمت إليها. وقيل لما اختلفت الصحابة في أنهما سورة واحدة هي سابعة السبع الطوال أو سورتان تركت بينهما فرجة ولم تكتب بسم الله.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا الْكُفْرَ بَعْدَ مُعْجِزِ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2)﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه براءة، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره وأصله ﴿من الله ورسوله﴾، ويجوز أن تكون ﴿براءة﴾ مبتدأ لتخصيصها بصفقتها والخبر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقرئ بنصبها على اسمعوا براءة، والمعنى: أن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وإنما علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين. إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله تعالى واتفاق الرسول فإنهما برئا منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضمرة وبنو كنانة فأمرهم بنبذ العهد إلى الناكثين وأهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال: ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال. وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر لما روي (أنها لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكب العضاء ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الموسم فقبل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا علي رضي الله تعالى عنه سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده). ولعل قوله ﷺ «لا يؤدي عني إلا رجل مني» ليس على العموم، فإنه ﷺ بعث لأن يؤدي عنه

كثير لم يكونوا من عترته، بل هو مخصوص بالعهد فإن عادة العرب أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها، ويدل عليه أنه في بعض الروايات «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي». «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» لا تفوتونه وإن أمهلكم. «وَإِنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3)﴾

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي إعلام فعال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء، ورفع كرفع «براءة» على الوجهين. «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» يوم العيد لأن فيه تمام الحج معظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال «هذا يوم الحج الأكبر» وقبل يوم عرفة لقوله ﷺ «الحج عرفة». ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، أو لأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيده أعياد أهل الكتاب، أو لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين. «أَنَّ اللَّهَ» أي بأن الله. «بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أي من عهودهم. «وَرَسُولُهُ» عطف على المستكن في «بريء»، أو على محل «إن» واسمها في قراءة من كسرهما إجراء للأذان مجرى القول، وقرئ بالنصب عطفًا على اسم إن أو لأن الواو بمعنى مع ولا تكرير فيه، فإن قوله «براءة من الله» إخبار بثبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علقه بالناس ولم يخصه بالمعاهدين. «فَإِنْ تُبْتُمْ» من الكفر والغدر. «فَهُوَ» فالتوب «غَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عن التوبة أو تبتم على التولي عن الإسلام والوفاء. «فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» في الآخرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين، أو استدراك فكأنه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم. «ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا» من شروط العهد ولم ينكثوه أو لم يقتلوا منكم ولم يضرركم قط. «وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا» من أعدائكم «فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين. «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» تعليل وتنبية على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)﴾

﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ انقضى، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لا به من سلخ الشاة. «الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها. وقيل هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وهذا محل بالنظم مخالف للإجماع فإنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها. «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» الناكثين. «حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» من حل أو حرم. «وَخُذُوهُمْ» وأسروهم، والاختيد الأسير. «وَأَحْضُرُوهُمْ» واحبسوهم أو حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام. «وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» كل ممر لئلا يتسبخوا في البلاد، وانتصابه على الظرف. «فَإِنْ تَابُوا» عن الشرك بالإيمان. «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ» تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم. «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك

الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف وعد لهم الثواب بالتوبة.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَ ذَلِكَ بِهِنَّ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

(6)﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه. ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر. ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَ﴾ موضع أمنه إن لم يسلم، وأحد رفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إن من عوامل الفعل. ﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا

اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (7)

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه، وخبر يكون كيف وقدم للاستفهام أو للمشركين أو عند الله وهو على الأولين صفة للـ ﴿عهد﴾ أو ظرف له أو لـ ﴿يكون﴾، و ﴿كيف﴾ على الأخيرين حال من الـ ﴿عهد﴾ و للمشركين إن لم يكن خبراً فتبين. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل ومحله النصب على الاستثناء أو الجر على البدل أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فتربصوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله ﴿فَأَنصِرُوا إِلَهُهمْ عَاهَدْتُمْ إِلَى مَدِينِهِمْ﴾ غير أنه مطلق وهذا مقيد وما تحتمل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سبق بيانه.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرِثُوكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ

فَاسِقُونَ﴾ (8)

﴿كَيْفَ﴾ تكرر لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكمه مع التنبيه على العلة وحذف الفعل للعلم به

كما في قوله:

وَحَبَّرْتُمَانِي أَنَّما المَوْتُ بِالْقَرْيِ فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلِيبٌ

أي فكيف مات. ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم. ﴿إِلَّا﴾ حلفاً وقيل قرابة قال حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِيَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ

وقيل ربوبية ولعله اشتق للحلف من الال وهو الجوار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والتربية. وقيل اشتقاقه من ألل الشيء إذا حدده أو من أل البرق إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرىء إيلاً كجبرئيل وجبرئيل. ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله. ﴿يَرِثُوكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر، ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقبوا فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون ولأن المراد إثبات إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعة والوفاء بالعهد في الحال،

واستبطان الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه ﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ ما تنفوه به أفواههم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون لا عقيدة نزعهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجر إلى ألدونة السوء.

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا أَسَاوِيَةً فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُدُورِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (14)﴾

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات. ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار، والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أدامهم إلى الصد. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا أو ما دل عليه قوله.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال الثائنين.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهود. ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب وتقيح الأحكام. ﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل. وقيل المراد بالأئمة رؤساء المشركين فالتخصيص إما لأن قتلهم أهم وهم أحق به أو لل منع من مراقبتهم. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب «أئمة» بتحقيق الهمزتين على الأصل والتصريح بالياء لحن. ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي لا إيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر ليست يميناً وهو ضعيف لأن المراد نفي الوثوق عليها لا أنها ليست بأيمان لقوله تعالى؛ ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر لا إيمان لهم بمعنى لا أمان أو لا إسلام، وثبت به من لم يقبل توبة المرتد وهو ضعيف لجواز أن يكون بمعنى لا يؤمنون على الإخبار عن قوم معينين أو ليس لهم إيمان فراقبوا لأجله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ متعلق بـ «فقاتلوا» أي ليكن غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين.

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا﴾ تحريض على القتال لأن الهمة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة. ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ حين تشارروا في أمره بدار الندوة على ما مر ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهما بإخراجه من المدينة.

﴿وَهُمْ بَدَأُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءكم ولا تتركوا أمره. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يخشى إلا منه.

﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أمر بالقتال بعد بيان موجهه والتوبيخ على تركه والتوعيد عليه. ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم. ﴿وَيَنْصِفِ ضُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني بني خزاعة. وقيل بطوناً من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم وقد أوفى الله بما وعدهم والآية من المعجزات. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ابتداء إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك أيضاً، وقرئ ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالنصب على إضمار أن على أنه من جملة ما أجيب به الأمر فإن القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما سيكون. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (16)

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال. وقيل للمنافقين و ﴿أَمْ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان. ﴿أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ولم يتبين الخلف منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم، نفى العلم وأراد نفى المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على ﴿جَاهَدُوا﴾ داخل في الصلة. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وما في ﴿لَمَّا﴾ من معنى التوقع منه على أن تبين ذلك متوقع. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيج لما يتوهم من ظاهر قوله: ﴿ولما يعلم الله﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَصْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (17)

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم. ﴿أَنْ يَصْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام وقيل هو المراد وإنما جمع لأنه قبله المساجد وإمامها فعامره كعامر الجميع ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد. ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، وهو حال من الواو والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافين عمارة بيت الله وعبادة غيره. روي (أنه لما أسر العباس عميره المسلمون بالشرك وقطيعه الرحم وأغلظ له علي رضي الله تعالى عنه في القول فقال: ما بالكم تذكرون ﴿مساوينا﴾ وتكتمون محاسنا إنا لننعم المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني) فنزلت. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لأجله.

﴿إِنَّمَا يَصْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (18)

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية ومن عمارتها تزيينها بالفرش وتويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها وضيائتها مما لم تبين له كحديث الدنيا، وعن النبي ﷺ «قال الله تعالى إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره». وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما علم أن الإيمان بالله قرينة وتمامه الإيمان به ولدلالة قوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة عليه. ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي في أبواب الدين فإن الخشية عن المحاذير جبلية لا يكاد العاقل يتمالك عنها. ﴿فَعَسَى أَوْلَتْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتادهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلموا عليها.

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)﴾

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ السقاية والعمارة مصدر أسقى وعمر فلا يشبهان بالجنث بل لا بد من إضمار تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. ويؤيد الأول قراءة من قرأ «سقاية الحاج وعمرة المسجد» والمعنى إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب، وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات أو من أهل السقاية والعمارة عندهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله دونكم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21)﴾

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وقرأ حمزة ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بالتخفيف، وتنكير المبشر به إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)﴾ يَتَابِعُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ

أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ رَضَوْهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى

الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْبَلُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28) قَالُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَلْنَهُمْ اللَّهُ أَفَرَأَيْتُمْ يَوْفِكُمْ (30)﴾

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأييد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحق دونه ما استوجبوه لأجله أو نعيم الدنيا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبنائنا وعشائرنا وذهب تجارتنا وبقينا ضائعين. وقيل نزلت نهياً عن موالاته التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، والمعنى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاته في غير موضعها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم مأخوذ من العشرة. وقيل من العشرة فإن العشيرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد الحشرة. وقرأ أبو بكر «وعشيرتكم» وقرأ «وعشائركم». ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها. ﴿وَبِجَارَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاتها. ﴿وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ الحب الاختياري دون الطبيعي فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه. ﴿فَتَرْضَوْا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ جواب ووعيد والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل فتح مكة. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يرشدكم، وفي الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص منه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب وهي مواقفها. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين ويجوز أن يقدر في أيام مواطن أو يفسر المواطن بالوقت كمقتل الحسين ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ منه أن يعطف على موضع في «مواطن» فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها بإيهم في جمع المواطن. و «حنين» واد بين مكة والطائف حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون وكانوا اثني عشر ألفاً، العشرة الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء هوازن وثقيفاً وكانوا أربعة آلاف فلما التقوا قال النبي ﷺ أو أبو بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم واقتلوا قتالاً شديداً فأدرك المسلمين إعجابهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس أخذاً بلجامه وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته فقال للعباس - وكان صبيّاً - «صبيح بالناس»، فنادى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقاً واحداً يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال ﷺ هذا حين حمي الوطيس، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا. ﴿فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ﴾ أي الكثرة. ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء أو من أمر العدو. ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ﴾ بربحها أي بسعتها لا تجدون فيها مفراً تطمئن إليه

نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْكَفَّارَ ظُهُورَكُمْ﴾. ﴿مُذْبِرِينَ﴾ منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمنوا. ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما. وقيل هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا. ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسي. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويفضل عليهم. روي (أن ناساً جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا - وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى - فقال ﷺ: اختاروا إما سبائكم وإما أموالكم؟ فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً فقام رسول الله ﷺ وقال: إن هؤلاء جاؤوا مسلمين وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرصاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه فقالوا: رضينا وسلمنا فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فيرفعوا إلينا فرفعوا أنهم قد رضوا).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لخبث باطنهم أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً. وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسته نجس. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب. وقرئ ﴿نَجَسٌ﴾ بالسكون وكسر النون وهو ككبد في كبد وأكثر ما جاء تابعاً لرجس. ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لتنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يعني سنة «براءة» وهي التاسعة. وقيل سنة حجة الوداع. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً﴾ فقرأ بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قدومهم من المكاسب والأرفاق. ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفق أهل تبالة وجرش فأسلموا وامتناروا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. وقرئ «عائلة» على أنها مصدر كالعافية أو حال. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ قيده بالمشيئة لتقطع الآمال إلى الله تعالى ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك وأن الغني الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يؤمنون بهما على ما ينبغي كما بيناه في «أول البقرة» فإن إيمانهم كلا إيمان. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة وقيل رسوله هو الذي يزعمون اتباعه والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين لا يؤمنون. ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه إذا قضاها. ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال من الضمير أي عن يد مؤاتية بمعنى منقادين، أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثن بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه، أو عن غنى ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير، أو عن يد قاهرة عليهم بمعنى عاجزين أذلاء أو من الجزية بمعنى نقداً مسلمة عن يد إلى يد أو عن إنعام عليهم فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة. ﴿وَهُمْ



صَاحِرُونَ﴾ أذلاء وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ عنقه. ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب ويؤيده أن عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، أنه ﷺ أخذها من مجوس هجر. وأنه قال: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب» وذلك لأنهم لهم شبهة كتاب فآلحقوا بالكنايين، وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى تؤخذ منهم إلا مشركي العرب لما روى الزهري أنه ﷺ صالح عبدة الأوثان إلا من كان من العرب، وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، وأقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية وأربعون درهماً وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها ولا شيء على الفقير غير الكسوب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿عُزَيْرُ﴾ بالتثنية على أنه عربي مخبر عنه بـ «ابن» غير موصوف به وحذف في القراءة الأخرى إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف، أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصف والخبر معذوف مثل معبودنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدّر. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والإبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً. ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجاوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان. ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلهم والمراد قداماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى، والمضاهاة المشابهة والهمز لغة فيه. وقرأ به عاصم ومنه قولهم امرأة ضهيء على فعيل للتي شابها الرجال في أنها لا تحيض. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك، أو تعجب من شناعة قولهم. ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (31)

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أو بالسجود لهم. ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله. ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ ليطيعوا. ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَذَكَّرَ لَكُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (32)

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ يخمدوا. ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقديسه عن الولد، أو القرآن أو نبوة محمد ﷺ. ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بشركهم أو بتكذيبهم. ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أي لا يرضى. ﴿إِلَّا أَنْ يُنْمِ نُورُهُ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام. وقيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب

إطفاء نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده بنفخه، وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ محذوف الجواب للدلالة ما قبله عليه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

(33)

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ كالبيان لقوله: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نوره﴾ ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضمو الكفر بالرسول إلى الشرك بالله، والضمير في ﴿ليُظْهِرَهُ﴾ للدِّينِ الحق، أو للرسول عليه الصلاة والسلام واللام في ﴿الدِّينِ﴾ للجنس أي على سائر الأديان فينسجها، أو على أهلها فيخذلهم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (34)

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يأخذونها بالرشا في الأحكام سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه. ﴿وَيُصْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه. ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأخبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والضمن به وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه ويكون اقتراؤه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدل عليه أنه لما نزل كُبر على المسلمين فذكر عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أدى زكاته فليس بكنز» أي بكنز أوعده عليه، فإن الوعيد على الكثر مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه، وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها» ونحوه فالمراد منها ما لم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره» ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكي بهما.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَنْفُسُونَ﴾

فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ (35)

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها، وأصله تحمى بالنار فجعل الإحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير، وإنما قال ﴿عليها﴾ والمذكور شيان لأن المراد بهما دنائير ودراهم كثيرة كما قال علي رضي الله تعالى عنه: أربعة آلاف وما دونها وما فوقها كنز. وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ وقيل الضمير فيهما للكنوز أو للأموال فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول، أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم. ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإسكانهم إياه كان لطلب الوجهة بالغنَى والتنعيم بالمطاعم الشهية والملابس البهية، أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه ولوه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد، أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن ومآخيره وجنباها. ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ﴾ على إرادة القول. ﴿لَا تَنْفُسُونَ﴾ لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ﴾ أي وبال كنزكم أو ما تكتنونه وقرىء ﴿تَكْتَنُونَ﴾ بضم النون.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عددها. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ معمول عدة لأنها مصدر. ﴿إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً والمعنى: أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر مذ خلق الله الأجرام والأزمنة. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ واحد فرد وهو رجب وثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام والعرب ورثوه منهما. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرمها والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأولوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وحال الإحرام، وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ويؤيد الأول ما روي (أنه عليه الصلاة والسلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذو القعدة). ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً وهو مصدر كف عن الشيء فإن الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمن لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)﴾

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرّموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وعن نافع برواية ورش ﴿إنما النسيء﴾ بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرىء ﴿النسيء﴾ بحذفها والنساء والنساء وثلاثتها مصادر نسأه إذا أخره. ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر ضمّوه إلى كفرهم. ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يُضِلُّ﴾ على البناء للمفعول، وعن يعقوب ﴿يُضِلُّ﴾ على أن الفعل لله تعالى. ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا﴾ يحلون النسيء من الأشهر الحرم سنة ويحرّمون مكانه شهراً آخر. ﴿وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمة. قيل: أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني كان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم ينادي في القبائل إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرّموه. والعجملتان تفسير للضلال أو حال. ﴿لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة، واللام متعلقة ببحرّمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بمواطاة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت. ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقرىء على البناء للفاعل وهو الله تعالى، والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ﴾ تباطأتم، وقرىء ﴿تتناقلتم﴾ على الأصل و ﴿أنناقلتم﴾ على الاستفهام للتوبيخ. ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق به كأنه ضمن معنى الإخلاد والميل

فعدى إلى، وكان ذلك في غزوة تبوك أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عسرة وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم. ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وغرورها. ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها. ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها. ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوا بِكُمُ عَدَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيظُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)﴾ عَقَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتُ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْإِثْمِ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْمُتَّقِينَ (44)﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرَادَتْ أَنْ يُقَاتِلُوا فَهَمُّهُمْ بِرَدِّدَتِ (45)﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِجِينَ (46)﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خَلَلَكُمْ بِعُوثِكُمْ أَلَيْسَ فِيكُمْ سَمْعُونَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)﴾ لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ (48)﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُنِي يَا آلَ الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49)﴾

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه. ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب قطع كقحط وظهور عدو. ﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كاهل اليمن وأبناء فارس. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ إذ لا يقدح تناقلكم في نصر دينه شيئاً فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل الضمير للرسول ﷺ أي ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالى وعد له بالعصمة والنصر ووعدته حق. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مبدك ما قال.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل عليه مقامه، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره، وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأن مهمهم بإخراجه أو قتله تسبب لإذن الله له بالخروج. وقرئ ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ بالسكون على لغة من يجري المنقوص مجرى المقصور في الإعراب ونصبه على الحال. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع، والغار نقب في أعلى ثور وهو جبل في اليمن مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثاً. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان أو ظرف لثاني. ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة. روي (أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، فأعماههم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم

يروه). وقيل لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أَمْنَتَهُ التي تسكن عندها القلوب. ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعاً. ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحينئذ فتكون الجملة معطوفة على قوله ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّفْلَى﴾ يعني الشرك أو دعوة الكفر. ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ يعني التوحيد أو دعوة الإسلام، والمعنى وجعل ذلك بتخليص الرسول ﷺ عن أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن أو بحفظه ونصره له حيث حضر. وقرأ يعقوب ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ بالنصب عطفاً على كلمة ﴿الَّذِينَ﴾، والرفع أبلغ لما فيه من الإشعار بأن ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار ولذلك وسط الفصل. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا﴾ لنشاطكم له. ﴿وَثِقَالًا﴾ عنه لمشقة عليكم، أو لقلّة عيالكم ولكثرتها أو ركبانا ومشاة، أو خفافاً وثقلاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً ولذلك لما قال ابن أم مكتوم لرسول الله ﷺ: أعلي أن أنفر قال «نعم». حتى نزل ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾. ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير علمتم أنه خير، أو إن كنتم تعلمون أنه خير إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ أي لو كان ما دعوا إليه نفعاً دنيوياً. ﴿قَرِيبًا﴾ سهلاً المأخذ. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطاً. ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك. ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع بمشقة. وقرئ بكسر العين والشين. ﴿وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين. ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ يقولون لو كان لنا استطاعة العدة أو البدن. وقرئ ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ بضم الواو تشبيهاً لها بواو الضمير في قوله: ﴿اشْتَرَوْا الضَّالَّةَ﴾. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب، وهو بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك أو حال من فاعله. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ذاك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية لا عن خطئه في الإذن فإن العفو من رواده. ﴿لَمْ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو ومعاينة عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب وهلا توقفت. ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار. ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه. قيل إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما، أخذه للعداء وإذنه للمنافقين فعاتبه الله عليهما.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلف منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في التخلف. ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر في الموضعين للإشعار بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه الإيمان وعدم الإيمان بهما. ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ للخروج. ﴿عُدَّةٌ﴾ أهبة وقرئ «عد» بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

إِنَّ الْخَلِيطَ أَعَدُّوا الْبَيْنَ فَانْجَرَدُوا وَأَخْلَفُوكَ عَدَّ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

و «عدة» بكسر العين بالإضافة وعدة بغيرها. ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ كأنه قال ما خرجوا ولكن تثبتوا لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضهم للخروج. ﴿فَنَبْطِئُكُمْ﴾ فحسبهم بالجبن والكسل. ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول عليه السلام لهم والقاعدین يحتمل المعذورين وغيرهم وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشرّاً ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء، ولأجل هذا التوهم جعل الاستثناء منقطعاً وليس كذلك لأنه لا يكون مفرغاً. ﴿وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولا أسرعوا ركائبهم بينكم بالنيمة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل من وضع البعير وضعا إذا أسرع. ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يريدون أن يفتنوك بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في «أوضعوا». ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ تشتت أمرك وتفريق أصحابك. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعدما خرجوا مع الرسول ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع انصرفوا يوم أحد. ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكائد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ بالنصر والتأييد الإلهي. ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعلا دينه. ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي على رغم منهم، والآيتان لتسليّة الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الأذن ولذلك عتب عليه. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتُدْنُ لِي﴾ في القعود. ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له أم لم يأذن، أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة بنساء الروم لما روي: أن جد بن قيس قال: قد علمت الأنصار أنني مولع بالنساء فلا تفتني بنات الأصفر ولكني أعينك بمالي فاتركني. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احتزروا عنه. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جامعاً لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (50)

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض غزواتك. ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة. ﴿سُؤْهُمْ﴾ لفرط حسدهم. ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعضها. ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف. ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له، أو عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (51)

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإثباته وإيجابه من النصرة، أو الشهادة أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم. وقرئ «هل يصيبنا» و «هل يصيبنا» وهو من يفعل لا من فعل لأنه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب لأنه وقوع الشيء فيما قصد به. وقيل من الصواب. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا اِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ اَنْ يُصِيبَكُمُ اللّٰهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ اَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرْبِصُوا۟ اِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ (52) ...

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا. ﴿إِلَّا اِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصره والشهادة. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أيضاً إحدى السوأتين ﴿إِنْ يُصِيبُكُمُ اللّٰهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ بقارعة من السماء. ﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر. ﴿فَتَرْبِصُوا﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

﴿قُلْ اَنۡفِقُوا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا لَّنۡ يُّتَقَبَلَ مِنْكُمۡ اِنۡكُمۡ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (53)

﴿قُلْ اَنۡفِقُوا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا لَّنۡ يُّتَقَبَلَ مِنْكُمۡ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. وفائدته المبالغة في تساوي الانفاقين في عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم. وهو جواب قول جد بن قيس وأعينك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين أن لا يؤخذ منهم وأن لا يثابوا عليه وقوله: ﴿إِنكُم كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ اَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ اِلَّا اَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِۦٓ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلٰوةَ اِلَّا وَهُمْ كُسَالٰى وَلَا يُنْفِقُونَ اِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ (54)

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ اَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ اِلَّا اَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم. وقرأ حمزة والكسائي «أن يقبل» بالياء لأن تأنيث النفقات غير حقيقي. وقرئ «يقبل» على أن الفعل لله. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلٰوةَ اِلَّا وَهُمْ كُسَالٰى﴾ متناقلين. ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ اِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً.

﴿فَلَا تُعْجِبَكۡ اَمْوَالُهُمْ وَلَا اَوْلَادُهُمْ اِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ بِهَا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ اَنۡفُسُهُمۡ وَهُمْ كٰفِرُونَ﴾ (55)

﴿فَلَا تُعْجِبَكۡ اَمْوَالُهُمْ وَلَا اَوْلَادُهُمْ﴾ فإن ذلك استدراج ووبال لهم كما قال. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ بِهَا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب. ﴿وَتَرْهَقَ اَنۡفُسُهُمۡ وَهُمْ كٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشغولين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك استدراجاً لهم. وأصل الزهوق الخروج بصعوبة.

﴿وَيُخَلِّفُونَ بِاللّٰهِ اِنَّهُمْ لَمِنكُمۡ وَمَا هُمۡ بِمِنكُمۡ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَّفْرُقُونَ﴾ (56)

﴿وَيُخَلِّفُونَ بِاللّٰهِ اِنَّهُمْ لَمِنكُمۡ﴾ إنهم لمن جملة المسلمين. ﴿وَمَا هُمۡ بِمِنكُمۡ﴾ لكفر قلوبهم. ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَّفْرُقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية.

﴿لَوْ يَخۡدُونَ مَلَجًا اَوْ مَخۡرِبًا اَوْ مُدۡخَلًا لَّوَلُوا۟ اِلَيْهِ وَهُمْ يَجۡمَحُونَ﴾ (57)

﴿لَوْ يَخۡدُونَ مَلَجًا﴾ حصناً يلجؤون إليه ﴿أَوْ مَخَارِبَ﴾ غيراناً. ﴿أَوْ مُدۡخَلًا﴾ نفقاً ينجحرون فيه مفتعل من الدخول وقرأ يعقوب «مدخلا» من مدخل. وقرئ «مدخلا» أي مكاناً يدخلون فيه أنفسهم و «متدخلا» و «مدخلا» من تدخل واندخل «لَوَلُوا۟ اِلَيْهِ» لأقبلوا نحوه. ﴿وَهُمْ يَجۡمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح. وقرئ «يجمزون» ومنه الجمازة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (58)

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ يعيبك . وقرأ يعقوب ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بالضم وابن كثير «يلامزك» . ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ في قسمها . ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قيل إنها نزلت في أبي الجواز المنافق فقال؛ ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل . وقيل في ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال: اعدل يا رسول الله فقال: «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل» . و ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة نائب مناب الفاء الجزائية .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (59) ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (60)

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما أعطاهم الرسول من الغنمة أو الصدقة ، وذكر الله للتعظيم وللتنبه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره . ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفانا فضله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ صدقة أو غنمة أخرى . ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فيؤتينا أكثر مما آتانا . ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يغنيا من فضله ، والآية بأسرها في حيز الشرط ، والجواب محذوف تقديره لكان «خيراً لهم» . ثم بين مصارف الصدقات تصويهاً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي الزكوات لهؤلاء المعدودين دون غيرهم ، وهو دليل على أن المراد باللمز لمزهم في قسم الزكوات دون الغنائم . والفقر من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته من الفقر كأنه أصيب فقاره . والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه من السكون كأن العجز أسكنه ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين﴾ وأنه ﷺ كان يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر . وقيل بالعكس لقوله تعالى: ﴿ومسكيناً ذا متربة﴾ . ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها . ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيستأنف قلوبهم أو أشراف قد يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظراتهم ، وقد أعطى رسول الله ﷺ عينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك . وقيل أشراف يستألفون على أن يسلموا فإنه النبي ﷺ كان يعطيهم والأصح أنه كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومانعي الزكاة . وقيل كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام فلما أعزه الله وأكثر أهله سقط . ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون المكاتب بشيء منها على أداء النجوم . وقيل بأن تبتاع الرقاب فتعتق وبه قال مالك وأحمد أو بأن يفدي الأساري . والعدول عن اللام إلى ﴿فِي﴾ للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب . وقيل للايذان بأنهم أحق بها . ﴿وَالْغُرَمِمْ﴾ والمديونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء ، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغني في سبيل الله أو لغارم ، أو لرجل اشتراها بماله ، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني أو لعامل عليها» ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياح الكراع والسلاح . وقيل وفي بناء القناطر والمصانع . ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله . ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أي فرض لهم الله الصدقات فريضة ، أو حال من الضمير المستكن في «للفقراء» . وقرئ بالرفع على تلك «فَرِيضَةً» . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها ، وظاهر الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى



كل صنف وجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جواز صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض أصحابنا، وبه كان يفتي شيخنا ووالدي رحمهما الله تعالى على أن الآية بيان أن الصدقة لا تخرج منهم لا إيجاب قسمها عليهم.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61)﴾

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدق، سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع كما سمي الجاسوس عينا لذلك، أو اشتق له فعل من أذن أذنا إذا استمع كأنف وشلل. روي أنهم قالوا محمد أذن سامعه نقول ما شئنا ثم تأتيه فيصدقنا بما نقول. ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أذن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث أنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحمًا عليكم. وقرأ حمزة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالجر عطفًا على ﴿خَيْرٌ﴾. وقرأ بالنصب على أنها علة فعل دل عليه ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع ﴿أُذُنٌ﴾ بالتخفيف فيهما. وقرأ ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ على أن ﴿خير﴾ صفة له أو خبر ثان ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإيذائه.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62)﴾

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ على معاذيركم فيما قالوا أو تخلفوا. ﴿لِيَرْضَوْكُمْ﴾ لترضوا عنهم والخطاب للمؤمنين. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق، وتوحيد الضمير لتلازم الرضاين أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

(63) يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا رَبَّكَ اللَّهُ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ

(64) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ

(65) لَا تَسْخَرُوا قَدْرَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُغَادِبْ طَائِفَةٌ يَأْتِيهِمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ

(66) الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَنَكْرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْرَأُونَ

أَيُّدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ

نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ

مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ مِنْ لَوْكُكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

بِخُلُقِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاصُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

(69) **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)**

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أن الشأن وقرىء بالتاء. ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يشاقق مفاعلة من الحد. ﴿فَأَن لَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ على حذف الخبر أي فحق أن له أو على تكرير أن للتأكيد ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجواب محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يهلك، وقرىء ﴿فَإِنْ﴾ بالكسر. ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الهلاك الدائم.

﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَافِقُونَ أَن تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن يكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر. وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله: ﴿قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنْ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِّبْرَزٍ أَوْ مَظْهَرٍ﴾. ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأخبر الله تعالى به نبيه فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا» فقالوا لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليفصر بعضنا على بعض السفر. ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به، وإلزاماً للحجة عليهم ولا تعباً باعتذارهم الكاذب.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لا تشغلوا باعتذاركم فإنها معلومة الكذب. ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه. ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان. ﴿إِنْ نَعُفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء. ﴿نَعُدُّبَ طَائِفَةٍ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء. وقرأ عاصم بالنون فيهما. وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله «وإن تعف» بالتاء والبناء على المفعول ذهاباً إلى المعنى كأنه قال: أن ترحم طائفة.

﴿الْمُتَنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعض الشيء الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم وتقرير لقولهم وما هم منكم وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبار، وقبض اليد كناية عن الشح. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ غفلوا عن ذكر الله وتركوا طاعته. ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من لطفه وفضله. ﴿إِنَّ الْمُتَنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء وفيه دليل على عظم عذابها. ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع والمراد به ما وعدوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم مثل الذين، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم. ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قدر لصاحبه. ﴿فَاسْتَمْتَعَتْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة من الشهوات الفانية والتهاشم بها عن النظر في

العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لدم المخاطبين بمشابهتهم واقفاء أثرهم. ﴿وَحُضُّتُمْ﴾ ودخلتم في الباطل. ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أغرقوا بالطوفان. ﴿وَعَادٍ﴾ أهلكوا بالريح. ﴿وَمُؤَدَّ﴾ أهلكوا بالرجفة. ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك نمرود ببعوض وأهلك أصحابه. ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط إلتفتت بهم أي انقلبت بهم فصار عليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل، وقيل قريات المكذبين المتمردين واثنتاكن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. ﴿أَتُنْتَهُمْ رَسُولُهُمْ﴾ يعني الكل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (71)

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة فإن السين مؤكدة للوقوع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ رَبِّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (72)

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر. ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك. ومرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد أو للجميع على سبيل التوزيع، أو إلى تباين وصفه فكأنه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوظ بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعترهم فيها فناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء، وعنه ﷺ: إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرضوان أو جميع ما تقدم. ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقرونه الدنيا وما فيها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ وَمَا كَانَ لِأُولَئِكَ أَنْ يَدْعُوا وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْفُسُ فَاصْغَبْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (73)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالزام الحجة وإقامة الحدود. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾

في ذلك ولا تحابهم. ﴿وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرِ﴾ مصيرهم.

﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُمِّيَّاتٌ يَتَالُفُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ اللَّهُ عَذَابُ الْيَمِينِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)﴾

﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله فنزلت فتاب الجلاس وحسنت توبته. ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهُمْ أُمِّيَّاتٌ لَمْ يَتَالُفُوا﴾ من فكك الرسول، وهو أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقة السلاح فقال إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا، أو إخراجهم وإخراج المؤمنين من المدينة أو بأن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا أو ما وجدوا ما يورث نقيمتهم. ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محايير في ضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله ﷺ بدينه اثني عشر ألفاً فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل. ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة والضمير في ﴿يَكْ﴾ للتوب. ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا بِالْإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ﴾ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بالقتل والنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب.

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَ وَلَئِنْ كُنَّا مِنْ الصَّالِحِينَ (75)﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَ وَلَئِنْ كُنَّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يرزقني مالاً فقال عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة قليل تؤذي شكره خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقليل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال: يا ويح ثعلبة، فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه الكتاب الذي فيه الفرائض فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجعا حتى أرى رأيي فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبي ﷺ: إن الله منعني أن أقبل منك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله ﷺ فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها، ثم جاء إلى عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في زمان عثمان رضي الله تعالى عنه.

﴿فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ خَبِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ (78) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ

خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله منه. ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للبخل والمعنى فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم. ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي جزاءه وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعده من التصديق والصلاح. ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ وبكونهم كاذبين فيه فإن خلف الوعد متضمن لكذب مستتبع من الوجهين أو المقال مطلقاً وقرئ ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالتشديد.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي المنافقون أو من عاهد الله وقرئ بالتاء على الالتفات. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق أو العزم على الإخلاف. ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، أو تسمية الزكاة جزية. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه ذلك.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ذم مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سرهم. وقرئ ﴿يَلْمِزُونَ﴾ بالضم. ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ روي: أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله له حتى صولحت إحدى امرأته عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر فقال بت ليلتي أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلا طاقتهم. وقرئ بالفتح وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم. ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على كفرهم.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿سِوَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير، لاشتغال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنه العدد بأسره. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المتبردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم

يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قَرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ بقعودهم عن الغزو خلفه يقال أقام خلاف الحي أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إثارة للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج. ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تشبیطاً. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد أثرت بها بهذه المخالفة. ﴿لَوْ كُنَّا نَقْفُهُونَ﴾ أن ما بهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثارة الدعة على الطاعة.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كناية عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (83)

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ فإن رذك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً. ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إخبار في معنى النهي للمبالغة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تعليل له وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم و ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك. ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان. وقرئ مع «الخالفين» على قصر «الخالفين».

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (84)

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ روي: (أن عبد الله بن أبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأل أن يستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده ويصلي عليه فلما مات أرسل قميصة ليكفن فيه وذهب ليصلي عليه) فنزلت. وقيل صلى عليه ثم نزلت، وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهى عن الصلاة عليه لأن الضن بالقميص كان مخالفاً بالكرم ولأنه كان مكافأة لالباسه العباس قميصه حين أسر بيدر، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكافر ولذلك رتب النهي على قوله: ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾ يعني الموت على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحي. ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأييد الموت.

﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

(85)

﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في فريق غير الأول.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاتِلِينَ﴾ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) لِكَيْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ (91)﴾

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها. ﴿أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا بالله ويجوز أن تكون أن المفسرة. ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة. ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاتِلِينَ﴾ الذين قعدوا لعذر.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء جمع خالفه وقد يقال الخالفة للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة.

﴿لِكَيْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل الحور لقوله تعالى؛ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ وهي جمع خيرة تخفيف خيرة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغطفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال. وقيل هم زهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت طيء على أهلينا ومواشينا. والمعذر إما من عذر في الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عذراً ولا عذر له، أو من اعتذر إذا مهد العذر بادغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يقرأ بهما. وقرأ يعقوب ﴿الْمُعَذَّرُونَ﴾ من أعذر إذا اجتهد في العذر. وقرئ ﴿الْمُعَذَّرُونَ﴾ بتشديد العين والذال على أنه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في غيرهم وهم منافقوا الأعراب كذبوا الله ورسوله في إدعاء الإيمان وإن كانوا هم الأولين فكذبهم بالاعتذار. ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعتذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى كَالْهَرَمِيِّ وَالزَّمَنِيِّ﴾. ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ لفقهم كجهينة ومزينة وبني عذرة. ﴿حَرَجٌ﴾ إثم في التأخر. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصالح ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل وإنما وضع المحسنين

موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتبين لذلك. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا لَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (92)

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على ﴿الضعفاء﴾ أو على ﴿المحسنين﴾، وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل وعليه بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك، فقال عليه السلام: «لا أجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ» عليه فتولوا وهم يبكون. وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد والنعمان. وقيل أبو موسى وأصحابه. ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في ﴿أتوك﴾ بإضمار قد. ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب إذا. ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل. ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي دمعاً فإن من للبيان وهي مع المجرور في محل نصب على التمييز وهو أبلغ من فيفيض دمعها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً. ﴿حَرْنًا﴾ نصب على العلة أو الحال أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ﴿لَا يَجِدُوا﴾ لثلاث يجلدوا متعلق بـ ﴿حزنًا﴾ أو بـ ﴿تفيض﴾. ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ في مغزاهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (93)

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبه. ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون الأهبة. ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالم إثارة للدعة. ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مغبته. ﴿يَسْتَأْذِنُونَكَ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ وَالشَّهِيدِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (94)

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السفرة. ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة لأنه: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم لأنه: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وهو ما في ضماثركم من الشر والفساد. ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكأنه استتابة وإمهال للتوبة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي إليه فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضماثركم وأعمالهم. ﴿فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿سَيُخْلِقُونَ بِأَلْفِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ قَاعَرَضُوا عَنْهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (95)

﴿سَيُخْلِقُونَ بِأَلْفِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿قَاعَرَضُوا عَنْهُمْ﴾ ولا توبخوهم. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ لا ينفع فيهم التأنيب فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فهو علة الإعراض وترك المعاتبه. ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كففتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.



﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (96)

﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاعتراض بمعاذيرهم بعد الأمر بالأعراض وعدم الالتفات نحوهم.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(97)

﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة. ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا﴾ وأحق بأن لا يعلموا. ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الشرائع فرائضها وسننها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعلم حال كل أحد من أهل الدير والمدر. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(98)

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يعُدُّ. ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً إذ لا يحسبه قربة عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تقية. ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان ونومه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الانفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يترصدون أو الإخبار عن وقوع ما يترصدون عليهم، والدائرة في الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي به عقبة الزمان، و ﴿السَّوْءِ﴾ بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجل صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿السَّوْءِ﴾ هنا. وفي الفتح بضم السين. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الانفاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (99)

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَأْخُذُ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَذَّتْ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (100) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (101) ﴿وَأَخْرَجُوا عَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (102)

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ سبب ﴿قُرْبَاتٍ﴾ وهي ثانياً مفعولي ﴿يَتَّخِذُ﴾، وعند الله صفتها أو ظرف لـ ﴿يَتَّخِذُ﴾. ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سن للمتصدق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال ﷺ «اللهم صل على آل أبي أوفى»، لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره. ﴿أَلَا إِنَّهَا

قُرْبَةً لَهُمْ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديق لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وإن المحققة للنسبة والضمير لنفقتهم وقرأ ورش ﴿قُرْبَةً﴾ بضم الراء. ﴿سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وعدلهم بإحاطة الرحمة عليهم والسين لتحقيقه وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لتقريره. وقيل الأولى في أسد وغطفان وبني تميم والثانية في عبد الله ذي البجادين وقومه.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بديراً أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَالْأَنْصَارُ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى. وكانوا سبعة وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة صعب بن عمير. وقرأ عطفاً على ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُمْ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقرأ ابن كثير «من تحتها الأنهار» كما في سائر المواضع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمُ﴾ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ هم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها. ﴿وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُمُ﴾ أو خبر لمحذوف صفته. ﴿مَرَدُّوْا عَلَى النِّفَاقِ﴾ ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قوله:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ النَّبَايَا

وعلى الأول صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهرهم في النفاق. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم وهو تقرير لمهارتهم فيه وتنويعهم في تحامي مواقع التهم إلى حد أخفى عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فراستك. ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونطلع على أسرارهم إن قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدروا أن يلبسوا علينا. ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ إلى عذاب النار.

﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواربي المسجد لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فأمرهم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال: وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أؤمر فيهم فنزلت فاطلقهم. ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا الفعل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب بآخر سيء هو التخلف وموافقة أهل النفاق، والواو إما بمعنى الباء كما في قولهم بعث الشاء شاة ودرهماً. أو للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾ (103)

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي: أنهم لما أُطْلِقُوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهرنا فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت. ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرأ ﴿تطهرهم﴾ من أطهره بمعنى طهره و ﴿تطهرهم﴾ بالجزم جواباً للأمر. ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء

والاستغفار لهم. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعو لهم وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (104)

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقائهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صحت وتعديته بـ ﴿عَنْ﴾ لتضمنه معنى التجاوز. ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّينَ وَالشَّهَادَةُ فَيُشْكِرُ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ (105)

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ ما شئتم. ﴿فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً. ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بالموت. ﴿فَيُشْكِرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه.

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ اللَّهِ إِثْمًا يُعَذِّبُهُمْ وَإِثْمُ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (106)

﴿وَأَخْرَجُوا﴾ من المتخلفين. ﴿مُرَجُومَ﴾ مؤخرون أي موقوف أمرهم من أرجائه إذا أخرته. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص ﴿مرجون﴾ بالواو وهما لغتان. ﴿لِإِثْمِهِمْ﴾ في شأنهم. ﴿إِثْمًا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق. ﴿وَأَمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا والترديد للعباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. وقرئ «والله غفور رحيم»، والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَطْلُنَّ إِنَّ أَرْدَنًا إِلَّا الْحُسَيْنُ وَاللَّهُ يُنْهَدُ إِلَيْهِمْ لَكِنْدِبُونَ﴾ (107)

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ عطف على ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ﴾، أو مبتدأ خبره محذوف أي وفيمن وصفنا الذين اتخذوا أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير الواو ﴿ضِرَارًا﴾ مضارة للمؤمنين. وروي: (أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلقة واللييلة المطيرة والشاتية فصل فيه حتى نتخذ مصلًى فأخذ ثوبه ليقوم معهم فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعل واتخذ مكانه كناسة). ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه. ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الذي كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء. ﴿وَإِزْوَادًا﴾ ترقباً. ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الراهب فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين وحيداً، وقيل كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام. و ﴿من قبل﴾ متعلق بـ ﴿حارب﴾ أو بـ ﴿اتخذوا﴾ أي

اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، لما روي أنه بني قبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيه فقال: أنا على جناح سفر وإذا قدما إن شاء الله صلينا فيه فلما قفل كرر عليه. فنزلت ﴿وَلْيَخْلَفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ ما أردنا بنيائه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (108)

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة. ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ يعني مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقاء من الاثنين إلى الجمعة لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: «سألت رسول الله ﷺ عنه فقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة». ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده ومن يعم الزمان والمكان كقوله:

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقَنْةِ الْحَجَرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ

﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى بأن تصلي فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وقيل من الحجابة فلا ينامون عليها. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيههم من جنابه تعالى إذناء المحب حبيبه. قيل لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال عليه الصلاة والسلام: «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا فأعادها فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أترضون بالقضاء؟ قالوا: نعم. قال عليه الصلاة والسلام: «أتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء؟ قالوا: نعم. فقال ﷺ: «أنتم مؤمنون ورب الكعبة». فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبي: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ﴿أَقَمْنِ أُسُسَ بِنْيَانِهِ﴾ بانيان دينه. ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ﴾ على قاعدة محكمة هو التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة. ﴿أَمْ مَنْ أُسُسَ بِنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخصها. ﴿فَأَنْهَارٌ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فادى به لخوره وقلة استمسكه إلى السقوط في النار، وإنما وضع شفا الجرف وهو ما جرفه الوادي الهائر في مقابلة التقوى تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بانهيائه به في النار ووضعه في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى رضوان الله ومقتضياته التي الجنة أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة. وقرأ نافع وابن عامر ﴿أُسُسَ﴾ على البناء للمفعول. وقرأ «أساس بنيانه» و﴿أسس بنيانه﴾ على الإضافة و﴿أسس﴾ و﴿أساس﴾ بالفتح والمد و﴿إساس﴾ بالكسر وثلاثتها جمع أس، و﴿تقوى﴾ بالتثنية على أن الألف للإلحاق لا للتأنيث كتنرى، وقرأ ابن عامر وحزمة وأبو بكر ﴿جرف﴾ بالتخفيف. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

﴿أَقَمْنِ أُسُسَ بِنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أُسُسَ بِنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارٌ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ

يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) السَّاجِدُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَامِدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112) ﴿

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ بناؤهم الذي بنوه مصدر أريد به المفعول وليس بجمع ولذلك قد تدخله التاء ووصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رَبِّهِ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه عن قلوبهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك وهو في غاية المبالغة والاستثناء. من أعم الأزمنة. وقيل المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار. وقيل التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً. وقرأ يعقوب «إلى» بحرف الانتهاء و﴿تقطع﴾ بمعنى تتقطع وهو قراءة ابن عامر وحزمة وحفص. وقرئ «يقطع» بالياء و﴿تقطع﴾ بالتخفيف و﴿تقطع قلوبهم﴾ على خطاب الرسول، أو كل مخاطب ولو قطعت على البناء للفاعل والمفعول. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنيانهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. ﴿يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئناف بيان ما لأجله الشراء. وقيل ﴿يقاتلون﴾ في معنى الأمر. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل. ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فإنه في معنى الوعد. ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ مذكوراً فيهما كما أثبت في القرآن. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً. ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظام المطالب كما قال: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح أي هم التائبون، والمراد بهم المؤمنون المذكورون ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أو خبره ما بعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال. وقرئ بالياء نصباً على المدح أو جرّاً صفة للمؤمنين. ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين. ﴿الْحَامِدُونَ﴾ لنعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء. ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم» شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على حفايا الملك والملكوت، أو السائحون للجهاد أو لطلب العلم. ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في الصلاة. ﴿الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، والعاطف فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل وهذا مجملها. وقيل إنه للإيدان بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث أن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك سمي واو الثمانية. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل، ووضع «المؤمنين» موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للتعظيم كأنه قيل: وبشرهم بما يجعل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) ﴾

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ روي: أنه ﷺ قال لأبي طالب لما حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاج لك بها عند الله» فأبى فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال استغفرُ لك ما لم أنه عنه» فنزلت وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأبواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأذنت رب في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل علي الآيتين». ﴿ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لاحتياهم فإنه طلب توفيقهم للإيمان وبه دفع التقيض باستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكفار فقال: ﴿ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ وعدها إبراهيم أباه بقوله: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يجب ما قبله، ويدل عليه قراءة من قرأ «أباه»، أو «وعدها إبراهيم أبوه» وهي الوعد بالإيمان ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قطع استغفاره. ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ لكثير التأوه وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿ حَلِيمٌ ﴾ صبور على الأذى، والجملة لبيان ما حمّله على الاستغفار له مع شكاسته عليه.

﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ أي ليسمهم ضللاً ويؤاخذهم مؤاخذتهم ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام. ﴿ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذر الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر ونحو ذلك، وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف. ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116) ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ لما منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً، بين لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشراشرهم إليه ويتبرؤوا مما عداه حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويدرون سواه.

﴿ لَقَدْ آتَاكَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَضَوْا وَفَّ رَحِيمَهُ (117) ﴾

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ من إذن المنافقين في التخلف أو برأهم عن علة الذنوب كقوله تعالى: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وقيل: هو بعث على التوبة والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى: ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً ﴾ إذ ما من أحد إلا وله مقام يستقص دونه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده. ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ في وقتها هي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد والزاد حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان تمره والماء

حتى شربوا الفظ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وفي ﴿كَادَ﴾ ضمير الشأن أو ضمير القوم والعائد إليه الضمير في ﴿منهم﴾. وقرأ حمزة وحفص ﴿يزيغ﴾ بالياء لأن تأنيث القلوب غير حقيقي. وقرأ «من بعد ما زاعت قلوب فريق منهم» يعني المتخلفين. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، أو المراد أنه تاب عليهم لكي يودتهم. ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)﴾

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرة بن الربيع. ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ تخلفوا عن الغزو أو خلف أمرهم فإنهم المرجثون. ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها لإعراض الناس عنهم بالكلية وهو مثل لشدة الحيرة. ﴿وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس ولا سرور. ﴿وَوَظَنُوا﴾ وعلموا. ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ من سخطه. ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة. ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التائبين، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. ﴿الرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً. وقرأ «من الصادقين» أي في توبتهم وإنابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)﴾

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ نهي عبر به بصيغة النفي للمبالغة. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصب نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال. روي: (أَنَّ أَبَا خَيْثَمَةَ بَلَغَ بَسْتَانَهُ، وَكَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ حَسَنَاءُ فَرَشَتْ فِي الظِّلِّ وَبَسَطَتْ لَهُ الْحَصِيرَ وَقَرِبتَ إِلَيْهِ الرُّطْبُ وَالْمَاءُ الْبَارِدُ، فَنَظَرَ فَقَالَ: ظِلٌّ ظَلِيلٌ، وَرُطْبٌ يَنْعٍ وَمَاءٌ بَارِدٌ وَامْرَأَةٌ حَسَنَاءُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الضَّحِّ وَالرِّيحُ مَا هَذَا بِخَيْرٍ، فَقَامَ فَرَحْلَ نَاقَتِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَرَمَحَهُ وَمَرَّ كَالرِّيحِ، فَمَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَهُ إِلَى الطَّرِيقِ فَإِذَا بِرَاكِبٍ يَزْهَاهُ السَّرَابُ فَقَالَ: كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ فَكَانَهُ فَقَرَحَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ) وفي ﴿لَا يَرْغَبُوا﴾ يجوز النصب والجزم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة. ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش. ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب. ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ﴾ ولا يدوسون. ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً. ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يغضهم وطؤه. ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً﴾ كالقتل والأسر والنهب. ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ إلا استوجبا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل لـ ﴿كُتِبَ﴾ وتنبيه على أن الجهاد إحسان، أما في حق الكفار فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المداوي للمجنون، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَهُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (121)

﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَهُ صَغِيرَةً﴾ ولو علاقة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة. ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم وهو كل منحرج ينفذ فيه السبل اسم فاعل من ودي إذا سال فشاع بمعنى الأرض. ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك. ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم.

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (122)

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتشبوا جميعاً فإنه يخل بأمر المعاش. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقه فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقه إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون منه، واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة نفر دورية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا، فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك، وقد أشبعت القول فيه تقريراً واعتراضاً في كتابي (المرصاد). وقد قيل للآية معنى آخر وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفر وانقطعوا عن التفقه، فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدل بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي رجعوا للطوائف أي ولينذروا لبواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (123)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل هم يهود حوالي المدينة كقريظة والنضير وخيبر. وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة. ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وصبراً على القتال. وقرئ بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والاعانة.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ إِيْمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (124)

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين. ﴿مَّن يَقُولُ﴾ إنكاراً واستهزاء. ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة. ﴿إِيمَانًا﴾ وقرئ ﴿أيكم﴾ بالنصب على إضمار فعل يفسره ﴿زادته﴾. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ



إِيمَانًا ﴿بِزِيَادَةِ الْعِلْمِ الْحَاصِلِ مِنْ تَدْبِيرِ السُّورَةِ وَانْضِمَامِ الْإِيمَانِ بِهَا وَبِمَا فِيهَا إِلَى إِيْمَانِهِمْ. وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بتزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (125)

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كافر. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفرأ بها مضموماً إلى الكفر غيرها. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾

﴿(126)﴾

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين وقرىء بالناء. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعانون ما يظهر عليه من الآيات. ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا يتوبون ولا يتوبون من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحْوْثٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (127)

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم. ﴿هَلْ يَرَأَكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يره أحد قاموا وإن يره أحد أقاموا. ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (128)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم. وقرىء من ﴿أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من أشرفكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قدم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظة على الفواصل.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (129)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك معرفتهم ويعينك عليهم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الملك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. وقرىء ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالرفع. وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن علي إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» والله أعلم.

## سورة يونس

[مكية، وآياتها تسع ومائة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (2)﴾

﴿الر﴾ فخمها ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص وقرأ ورش بين اللفظين، وأمالها الباقون إجراء لألف الراء مجرى المنقلبة من الياء. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي والمراد من الكتاب أحدهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم أو لأنه كلام حكيم، أو محكم آياته لم ينسخ شيء منها. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب و ﴿عَجَبًا﴾ خبر كان واسمه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ وقرىء بالرفع على أن الأمر بالعكس أو على «أن كان» تامة و ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بدل من ﴿عَجَبًا﴾، واللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم. ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ من أبناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم. قيل كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة. هذا وأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك. وقيل تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق ذكره في سورة «الأنعام». ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أن هي المفسرة أو المخففة من الثقيلة فتكون في موقع مفعول أوحينا. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عمم الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به حقيقة ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدماً لأن سبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحقيقها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون «لساحر» على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة. وقرىء «ما هذا إلا سحر مبين».

﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا بِنَ عِزِّهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّكُمْ يَبْدُونَ لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته. ويهيئ بتحركه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أديار الأمور لتجيء محمودة العاقبة. ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَلِكَ اللَّهُ﴾ أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للالوهية والربوبية. ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره فاستعدوا للقاءه. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله ﴿إليه مرجعكم﴾ وعد من الله. ﴿حَقّاً﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه ﴿وعد الله﴾ ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد بدئه وإهلاكه. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة والعقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكانه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم. والآية كالتعليل لقوله تعالى: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿أَنَّهُ يَبْدَأُ﴾ بالفتح أي لأنه ويجوز أن يكون منصوباً أو مرفوعاً بما نصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أو بما نصب ﴿حَقّاً﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَشْقُونَ (6) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَبْوَ الدُّنْيَا وَطَمَأْنُونُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ وَيُدْخِلُهُمْ فِي جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَنَكُمْ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي ذات ضياء وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط والياء فيه منقلبة عن الواو. وقرأ ابن كثير برواية قبل هنا وفي «الأنبياء» وفي «القصص» «ضياء» بهمزة على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ أي ذا نور أو سمي نوراً للمبالغة وهو أعم من الضوء كما عرفت، وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس والاكساب منها. ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل، أو قدره ذا منازل أو للقمر وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازل وإناطة أحكام الشرع به ولذلك علله بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعيّاً فيه مقتضى الحكمة البالغة. ﴿فَنُفِصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المتفكرون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص «يفصل» بالياء.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع الكائنات. ﴿لَايَاتٍ﴾ على وجود الصانع ووحده وكمال علمه وقدرته. ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقب فإنه يحملهم على التفكير والتدبر. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها. ﴿وَرَوْضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها. ﴿وَاطْمَأْنُونُوا بِهَا﴾ وسكنوا إليها مقصرين همهم على لذائذها وزخارفها، أو سكنوا فيها سكون من لا يزجج عنها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يفكرون فيها لانهمكهم فيما يضادها والعطف إما لتغاير الوصفين والتنبية على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً، وإما لتغاير الفريقين والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم ير إلا الحياة الدنيا وبالأخريين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والاعداد له.

﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما واطبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». أو لما يريدونه في الجنة، ومفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالتممة والرديف له. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استئناف أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير، وقوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ خبر أو حال أخرى منه، أو من ﴿الْأَنْهَارِ﴾ أو متعلق بـ ﴿تَجْرِي﴾ أو يبهدي.

﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا﴾ أي دعاؤهم. ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ اللهم إنا نسبحك تسيحاً. ﴿وَتَجِئُهُمْ﴾ ما يحيى به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة بإياهم. ﴿فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ﴾ وآخر دعائهم. ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعانوا عظمة الله وكبرياه مجدوه وبعثوه بنعوت الجلال، ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام، و ﴿أَنَّ﴾ هي المخففة من الثقيلة وقد قرئ بها وينصب ﴿الحمد﴾.

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)﴾

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ ولو يسرعه إليهم. ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم أو بأن المراد شر استعجلوه كفولهم ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ وتقدير الكلام، ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجلاً كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف للدلالة الباقي عليه. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿لَقُضِيَ﴾ على البناء للفاعل وهو الله تعالى وقرئ «للقضينا». ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل؛ ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ

مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه. ﴿لِجَنبِهِ﴾ ملقى لجنبه أي مضطجعا. ﴿أَوْ قَاعِدًا

أَوْ قَاتِمًا» وفائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار. «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ» يعني مضى على طريقته واستمر على كفره أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه. «كَانَ لَمْ يَدْعُنَا» كأنه لم يدعنا فخفض وحذف ضمير الشأن كما قال:

وَنَحَرُّ مُشْرِقُ اللَّوْنِ      كَأَن تَذِيَاهُ حُقَّان

«إِلَى صُرِّ مَسَّهُ» إلى كشف ضر. «كَذَلِكَ» مثل ذلك التزيين. «رُئِنَ لِلْمُشْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

«وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13)»

«وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ» يا أهل مكة. «لَمَّا ظَلَمُوا» حين ظلموا بالكذب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي «وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» بالحجج الدالة على صدقهم وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا. «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي. «كَذَلِكَ» مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسول وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم «نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه.

«ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)»

«ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ» استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر. «لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» أتعملون خيراً أو شراً فتعاملكم على مقتضى أعمالكم، وكيف معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يحجب أن يعمل فيه ما قبله، وفائدته الدلالة على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسن الفعل تارة ويقبح أخرى.

«وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ ابْنَاتِي بَيْنَكَ قَالَ الَّذِي لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِشِرْكٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ (15)»

«وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمُ ابْنَاتِي بَيْنَكَ قَالَ الَّذِي لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» يعني المشركين. «أَتَيْتَ بِشِرْكٍ غَيْرِ هَذَا» بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستعبده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معائب ألهمتنا. «أَوْ بَدَّلَهُ» بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى ولعلمهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيلزموه. «قُلْ مَا يَكُونُ لِي» ما يصح لي. «أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي» من قبل نفسي وهو مصدر استعمال ظرفاً، وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه الإتيان بقرآن آخر. «إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» تعليل لما يكون فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه ولذلك قيد التبديل في الجواب وسماء عصياناً فقال: «أَنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» أي بالتبديل. «عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٌ» وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

«قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16)»

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ غير ذلك. ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ ولا أعلمكم به على لساني، وعن ابن كثير «ولأدراكم» بلام التأكيد أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أعلمكم به على لسان غيري. والمعنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أرسل به لأرسل به غيري. وقرئ «ولا أدراكم» «ولا أدراكم» بالهمز فيهما على لغة من يقلب الألف المبدلة من الياء همزة، أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤنني بالجدال، والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تستهونه ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مقداراً عمر أربعين سنة. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن لا أتלוه ولا أعلمه، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشئ قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بذت فصاحته فصاحة كل منطبق وعلا من كل منشور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أفاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه علم أنه معلوم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (17) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (18) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (19) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (20) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّا رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَكْفُرُونَ﴾ (21) هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرَجٌ طَبَقُوا وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَنْ أُحْيِيَنَّا مِنْ هَؤُلَاءِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (22) فَلَمَّا أَجْتَنَّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِآيَاتِنَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (23)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تفاد مما أضافوه إليه كناية، أو تظلم للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم إنه لدو شريك وذو ولد. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ كفر بها. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضرر، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرر. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ الأوثان. ﴿شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمننا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجد الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده. ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ أنخبرونه. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً أو هؤلاء شفعاء عنده وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما وفيه تقريع وتهكم بهم. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكدة للنفي منبهة على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول «النحل» و «الروم» بالفاء. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان، أو على الضلال في فترة من

الرسول. ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام فبتبعهم طائفة وأصرت أخرى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء. ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي من الآيات التي اقترحوها. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه فلعلمه يعلم في إزال الآيات المقترحة من مفساد تصرف عن إنزالها. ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لنزول ما اقترحتموه. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل علي من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة. ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَتْهُمْ﴾ كفحط ومرض. ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ بالظن فيها والاحتيايل في دفعها. قيل قحط أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم الله بالحياء فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدهم، وإنما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جواباً لإذا الشرطية والمكر اخفاء الكيد، وهو من الله تعالى أما الاستدراج أو الجزاء على المكر. ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمَكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبية على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله تعالى، وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه. وقرأ ابن عامر «ينشركم» بالنون والشين من النشر. ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب. ﴿وَفَرَحُوا بِهَا﴾ بتلك الريح. ﴿جَاءَتْهَا﴾ جواب إذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة، بمعنى تلقتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف شديدة الهبوب. ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء الموج منه. ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط به العدو. ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير اشتراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل من ﴿ظَنُوا﴾ بدل اشتغال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم. ﴿لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على إرادة القول أو مفعول ﴿دَعَوْا﴾ لأنه من جملة القول.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ إجابة لدعائهم. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فاجتثوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه. ﴿بَغْيَ الْحَقِّ﴾ مبطلين فيه وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة واحتراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها إفساد بحق. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ فإن وبالها عليكم أو أنه على أمثالكم أبناء جنسكم. ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقى عقابها، ورفعها على أنه خبر ﴿بَغْيِكُمْ﴾ و ﴿على أنفسكم﴾ صلته، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا و ﴿على أنفسكم﴾ خبر ﴿بَغْيِكُمْ﴾، ونصبه حفص على أنه مصدر مؤكد أي تمتعون متاع الحياة الدنيا أو مفعول البغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجار من صلته والخبر محذوف تقديره بغْيِكُمْ متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعول فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبره. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة. ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأجزاء عليه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّ عَلَيْهِمْ أَنْهَبَا أَتَيْنَاهَا أُمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (24)

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حالها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها. ﴿كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وبهجتها. ﴿وَارْتَبَتْ﴾ تربت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والزين فترينت بها، ﴿وَارْتَبَتْ﴾ أصله تربت فادغم وقد قرئ على الأصل ﴿وَارْتَبَتْ﴾ على أفعلت من غير اعلال كagit، والمعنى صارت ذات زينة «وارتبات» كياضت. ﴿وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها. ﴿أَتَانَهَا أَمْرُنَا﴾ ضرب زرعها ما يحتاجه. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها. ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله. ﴿كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة وقرئ بالياء على الأصل. ﴿بِالْأَنْسِ﴾ فيما قبيله وهو مثل في الوقت القريب والممثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً بعدما كان غضاً والتف، وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء وإن وليه حرف التشبيه لأنه من التشبيه المركب. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنهم المتفكرون به.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (25)

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ دار السلام من التقضي والآفة، أو دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبية على ذلك، أو دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها وذلك الإسلام والتدريج بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن المصير على الضلالة لم يرد الله رشده.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعْتُمْ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَزَكَّاهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (27) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ﴾ (28) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ (29) هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (30)

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ المثوبة الحسنى. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً لقوله: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل الحسنى الجنة والزيادة هي اللقاء. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها. ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ على مذهب من يجوز: في الدار زيد والحجرة عمرو، أو ﴿لِّلَّذِينَ﴾ مبتدأ والخبر ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ على تقدير: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أي أن تجازي سيئة بسيئة مثلها لا يزداد عليها، وفيه تنبيه على أن الزيادة هي الفضل أو التضعيف أو ﴿كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ﴾، أو أولئك أصحاب النار وما بينهما اعتراض ف ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ مبتدأ وخبره محذوف أي فجزاء سيئة بمثلها واقع، أو بمثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر



بمثلها. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وقرىء بالياء. ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله ومن عنده كما يكون للمؤمنين. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ غُطِيَّتٌ﴾ غطيت. ﴿وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها ومظلماً حال من الليل والعامل فيه ﴿أُغْشِيَتْ﴾ لأنه العامل في ﴿قُطْعًا﴾ وهو موصوف بالجار والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في ﴿من الليل﴾. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب ﴿قُطْعًا﴾ بالسكون فعلى هذا يصح أن يكون ﴿مُظْلِمًا﴾ صفة له أو حالاً منه. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مما يحتج به الوعيدية. والجواب أن الآية في الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمة.

﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني الفريقين جميعاً. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ ألزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم. ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله. ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ عطف عليه وقرىء بالنصب على المفعول معه. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوصل التي كانت بينهم. ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ مجاز عن براءة ما عبده من عبادتهم فإنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الآمرة بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل ينطق الله الأصنام فتشافهم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها. وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العالم بكنهه الحال. ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقلية واللام هي الفارقة. ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام. ﴿تَبْلُؤُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما قدمت من عمل فتعاين نفعه وضره. وقرأ حمزة والكسائي «تللوا» من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التلو أي تتبع عملها فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. وقرىء «نبلوا» بالنون ونصب ﴿كل﴾ وإبدال ﴿ما﴾ منه والمعنى نختبرها أي نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف لسعادتها وشقاوتها بتعرف ما أسلفت من أعمالها، ويجوز أن يراد به نصيب بالبلاء أي بالعذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ﴿ما﴾ منصوبة بنزع الخافض. ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا. ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولى، وقرىء ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (31)

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو ﴿من﴾ كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل من لبيان من على حذف المضاف أي من أهل السماء والأرض. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ إذ لا يقدرُونَ على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (32)

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. ﴿فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكار أي ليس بعد الحق إلا

الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال. ﴿فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (33)

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ﴾ أي كما حقت الربوبية لله أو إن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر «كلمات» هنا وفي آخر السورة وفي «غافر» ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (34)

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أمر الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأن لجاحهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَفْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (40)

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر، وهدى كما يعدى إلى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على أن المنتهي غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى. ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يهدي من قولهم: أهدي بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله وهذا حال أشرف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير، وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الهاء وتشديد الدال. ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد والأصل يهتدي فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين. وروى أبو بكر ﴿يهدي﴾ باتباع الياء الهاء. وقرأ أبو عمرو بالادغام المجرد ولم يبال بالالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك. وعن نافع برواية قالون مثله وقرئ ﴿إِلَّا أَن يَهْدِيَ﴾ للمبالغة ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل بطلانه. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو من ينتمي منهم إلى تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد الصرف. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَفْنَى مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ويجوز أن يكون مفعولاً به و﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ حالاً منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ افتراء من الخلق. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها ولا يكون كذباً كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيَّارٌ عليها شاهد على صحتها، ونصبه بأنه خبر لكان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرئ بالرفع على تقدير ولكن هو تصديق. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ منتفياً عنه الرب وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب فإنه مفعول في المعنى وأن يكون استثناءً. ﴿مَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر آخر تقديره كائناً من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو تفصيل، و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض أو بالفعل المعلن وبهما أن يكون حالاً من الكتاب أو من الضمير في ﴿فِيهِ﴾، ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون. ﴿افْتِرَاءُ﴾ محمد ﷺ ومعنى الهمزة فيه للإنكار. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشدّ تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجئوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويفحصوا معناه ومعنى التوقع في لما أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لأخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المكذبين. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من سيؤمّن به ويتوب عن الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المفسدين.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (41)

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة. ﴿فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فترا منهم فقد أعذرت، والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً. ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعلمي ولا أؤاخذ بعملكم، ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخليه سبيلهم قيل إنه منسوخ بآية السيف.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (42)

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً. ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره وعقولهم لما كانت مؤفة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف،

والتعليد تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناقع.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (43)

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعانين دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ تقدر على هدايتهم. ﴿لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الأبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحسد الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبصري والإعراض عنهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (44)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ سلب حواسهم وعقولهم. ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفتيت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالتخفيف ورفع ﴿النَّاسُ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

مُتَعَدِّينَ﴾ (45)

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون، والجملة التشبيهية في موضع الحال أي يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وهذا أول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم وهي حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئناف للشهادة على خسارتهم والتعجب منه، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في يتعارفون على إرادة القول. ﴿وَمَا كَانُوا مُتَعَدِّينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من المعاون في تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردى والعذاب الدائم.

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَوَدُّهُمْ أَوْ نَنْفِقَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ

فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَخُذُوا بِبَيْنِهِمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ

لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَأَيْتُمْ

إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيْنَاتٍ أَوْ سَحَابٌ مِّمَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِسْتُمْ بِهِ عَاقِبَتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (51)

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرك. ﴿بَعْضَ الَّذِي نَوَدُّهُمْ﴾ من العذاب في حياتك كما أراه يوم بدر. ﴿أَوْ نَنْفِقَنَّكَ﴾ قبل أن نريك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة وهو جواب ﴿ننوفيك﴾ وجواب ﴿نريك﴾ محذوف مثل فذاك. ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجاز عليه ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها ولذلك رتبها على الرجوع بـ ﴿ثُمَّ﴾، أو مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية. ﴿رَسُولٌ﴾ يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق. ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾

بالبينات فكذبوه. ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الرسول ومكذبيه. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجي الرسول وأهلك المكذوبون. ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ وقيل معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بانجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاء به. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ فكيف أملك لكم فاستعجل في جلب العذاب إليكم. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم. ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلون فسيحين وقتكم وينجز وعدكم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلون به. ﴿بَيَاتاً﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. ﴿أَوْ نَهَاراً﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم. ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي شيء من العذاب يستعجلونه، وكله مكروه لا يلائم الاستعجال وهو متعلق بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ لأنه بمعنى أخبروني، والمجرمون وضع موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب لا أن يستعجلوه، وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا خطاء، ويجوز أن يكون الجواب ماذا كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني وتكون الجملة متعلقة بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أو بقوله:

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وماذا يستعجل اعتراض ودخول حرف الاستفهام على «ثم» لانكار التأخير. ﴿الآن﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب الآن آمنتم به. وعن نافع ﴿الآن﴾ بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (52)

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على قيل المقدر. ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (53)

﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ﴾ ويستخبرونك. ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقول بهجد أم باطل تهزل به قاله حيي بن أخطب لما قدم مكة، والأظهر أن الاستفهام فيه على أصله لقوله: ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَ﴾ وقيل إنه للإنكار ويؤيده أنه قرئ «ألحق هو» فإن فيه تعريضاً بأنه باطل، وأحق مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر أو خبر مقدم والجملة في موضع نصب «يستبشرونك». ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب لكائن أو ما ادعيته لثابت. وقيل كلا الضميرين للقرآن، وإي بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال إي والله ولا يقال إي وحده. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾

﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ (54)

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها. ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾

لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا. وقيل ﴿أسروا الندامة﴾ أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها، أو لأنه يقال سر الشيء لخالصته من حيث إنها تخفى ويضن بها. وقيل أظهروها من قولهم أسر الشيء وأسره إذا أظهره. ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليس تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم والثاني مجازاة المشركين على الشرك أو الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (55)

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خلف فيه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (56) يَتَأَيُّمُ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آتَاكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (58) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60)

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبي لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت لهما أبداً. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان، والتكثير فيها للتعظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ بإنزال القرآن، والباء متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فإن اسم الإشارة بمنزلة الضمير تقديره بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، وفائدة ذلك التكرير التأكيد والبيان بعد الإجمال وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه ﴿قد جاءكم﴾، وذلك إشارة إلى مصدره أي فبمجئها فليفرحوا والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فيهما فليفرحوا أو للربط بما قبلها، والدلالة على أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح وتكريرها للتأكيد كقوله:

وَإِذَا هَلَكْتُ فَعِنْدَ ذَلِكَ فَاجْزَعِي

وعن يعقوب «فلتفرحوا» بالباء على الأصل المرفوض، وقد روي مرفوعاً ويؤيده أنه قرأ «فافرحوا». ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريب وهو ضمير ذلك. وقرأ ابن عامر تجمعون بالباء على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ جعل الرزق منزلاً لأنه مقدر في السماء محصل بأسباب منها، وما في موضع النصب بـ ﴿أنزل﴾ أو بـ ﴿أرأيتم﴾ فإنه بمعنى أخبروني، ولكم دل على أن المراد منه ما حل ولذلك ونح على التبويض فقال: ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ مثل: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾ (وعند قوله

تعالى ﴿مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذَكَورِنَا وَمَحْرَمٍ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه. ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نسبة ذلك إليه ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وقل مكرر للتأكيد وأن يكون الاستفهام للإنكار، و ﴿أَمْ﴾ متقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافتراءهم على الله.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيحسبون أن لا يجازوا عليه، وهو منصوب بالظن ويدل عليه أنه قرئ بلفظ الماضي لأنه كائن، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (61)

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ولا تكون في أمر، وأصله الهمز من شأنت شأنه إذا قصدت قصده والضمير في ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله ومفعول تتلو ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ على أن ﴿مِنْ﴾ تبعية أو مزيدة لتأكيد النفي أو للـ ﴿قُرْآنٍ﴾، وإضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له أو لله. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رقباء مطلعين عليه. ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون فيه وتتدفعون. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه، وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي «سبا». ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ موازن نملة صغيرة أو هباء. ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما ولا متعلقاً بهما، وتقدير الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها. ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله ﴿وَلَا﴾ نافية و ﴿أصغر﴾ اسمها ﴿وفي كتاب﴾ خبرها. وقرأ حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر، ومن عطف على لفظ ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (62) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (64) وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْفِئْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (65)

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوات مأمول. والآية كمجمل فسر قوله:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بيان لتوليهم إياه.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بشر به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ وما يريهم من الرؤيا الصالحة وما يسنح لهم من المكاشفات، وبشرى الملائكة عند النزاع. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة بيان لتوليهم لهم، ومحل ﴿الذين آمنوا﴾ النصب أو الرفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء وخبره ﴿لهم البشري﴾. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله

ولا إخلاف لمواعيده. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين. ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. وقرأ نافع ﴿يَحْزُنُكَ﴾ من أحزنه وكلاهما بمعنى. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ استئناف بمعنى التعليل ويدل عليه القراءة بالفتح كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم. ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعزماهم فيكافئهم عليها.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (66)

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً فهو كالليل على قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كان يسمونها شركاء، ويجوز أن يكون ﴿شركاء﴾ مفعول ﴿يدعون﴾ ومفعول ﴿يتبع﴾ محذوف دل عليه. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بـ ﴿يتبع﴾ أو موصولة معطوفة على من قرئ «تدعون» بالثناء الخطابية والمعنى: أي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبين، أي أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ فيكون إلزاماً بعد برهان وما بعده مصروف عن خطابه لبيان سندهم ومنشأ رأيهم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله أو يحزرون ويقدرُونَ أنها شركاء تقديراً باطلاً.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُقَوِّمُونَ﴾ (67)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفردِه باستحقاق العبادة، وإنما قال ﴿مبصراً﴾ ولم يقل لتبصروا فيه تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واعتبار.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (68)

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي تبناه. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء. ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علة لتنزيهه فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لغناه. ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ نفى لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطان قولهم، و ﴿بهذا﴾ متعلق بـ ﴿سلطان﴾ أو نعت ﴿له﴾ أو بـ ﴿عندكم﴾ كأنه قيل: إن عندكم في هذا من سلطان. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ وتقريع على اختلافهم وجهلهم. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد فيها غير سائغ.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (69)



﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه. ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (70)

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف أي افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم، ﴿مَتَّعٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد. ﴿ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفرهم.

﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِن كَانِ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا فَعَلَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ (71)

﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ﴾ عظم عليكم وشق. ﴿مَقَامِي﴾ نفسي قعولك فعلت كذا لمكان فلان، أو كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة أو قيامي على الدعوة. ﴿وَتَذِكْرِي﴾ إياكم. ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وثقت به. ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ فاعزموا عليه. ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي مع شركائكم ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير أن يؤكّد للفصل وقيل إنه معطوف على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ بحذف المضاف أي وأمر شركائكم. وقيل إنه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوه شركاءكم وقد قرئ به، وعن نافع ﴿فاجمعوا﴾ من الجمع، والمعنى أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم. ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ في قصدي. ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستوراً واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، من غمه إذا ستره أو ثم لا يكن حالكم عليكم غمّاً ذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. ﴿ثُمَّ اقْضُوا﴾ أدوا. ﴿إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي، وقرئ «ثم أفضوا» إلى البقاء أي انتهوا إلى بشركم أو ابرزوا إلي، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء. ﴿وَلَا تُنظِرُون﴾ ولا تمهلوني.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (72)

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن تذكيري. ﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ بوجب توليكم لثقله عليكم وانتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. ﴿إِنَّ أَجْرِي﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير. ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم يثيبني به أمتم أو توليتم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُنْذِرِينَ﴾ (73)

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجة وبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب. ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ من الغرق. ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ وكانوا ثمانين. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ من الهالكين به. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ وتسليه له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغَعُ عَلَى

قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (74)

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح. ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه. ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمردهم عليه قبل بعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانهم لانهمماكهم في الضلال واتباع المألوف، وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد وقد مر تحقيق ذلك.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلُونَنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (75)

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هؤلاء الرسل. ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلُونَنَا﴾ بالآيات التسع. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعهما. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ معتادين الأجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترأوا على ردها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُؤَيَّنٌ﴾ (76)

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. ﴿قَالُوا﴾ من فرط تمردهم. ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوته.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81)

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه لسحر فحذف المحكي المقول للدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون. ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ لأنهم بنوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: ﴿سمعنا فنى يذكرهم﴾ فيستغني عن المفعول.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة، ولأن العالم بأنه لا يفلح الساحر لا يسحر، أو من تمام قولهم إن جعل أسحر هذا محكياً كأنهم قالوا أجئنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا﴾ لنصرفنا واللفت والقتل أخوان. ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام. ﴿وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر، أو التكبر على الناس باستتباعهم. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل «ساحر». ﴿عَلِيمٍ﴾ حاذق فيه. ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً. وقرأ أبو عمرو «السحر» على أن «ما» استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرها و «السحر» بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهو السحر، أو مبتدأ خبره محذوف أي السحر هو. ويجوز أن يتنصب ما يفعل يفسره ما بعده وتقديره أي شيء أتيتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ

سَيَبْطِلُهُ ﴿سَيَمْحَقُهُ أَوْ سَيُظْهِرُ بَطْلَانَهُ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِعُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبتته ولا يقويه وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (82)

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبتته. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بأوامره وقضاياه وقرىء «بكلمته». ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (83)

﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى﴾ أي في مبدأ أمره. ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لـ ﴿فرعون﴾ والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامراته وأسبه وخازنه وزوجته وماشطته ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي مع خوف منهم، والضمير لـ ﴿فرعون﴾ وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بـ ﴿فرعون﴾ آله كما يقال: ربعة ومضر، أو لكـ ﴿ذرية﴾ أو للقوم. ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه أو مفعول خوف وإفراذه بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملاء كان بسببه. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لغالب فيها. ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكبر والعنوت حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ تَأْمَنُونَ بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (84)

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به. ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ تَأْمَنُونَ بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فثقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، وكيس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضي له، والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ونظيره إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (85)

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك أجيب دعوتهم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة. ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

﴿وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (86)

﴿وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجانب دعوته.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ (87)

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ﴾ أي اتخذا مباءة. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكنون فيها أو ترجعون إليها للعبادة. ﴿وَاجْعَلُوا﴾ أنتما وقومكما. ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك البيوت. ﴿قِبْلَةً﴾ مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، وكان موسى ﷺ يصلي إليها. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيها، أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى، وإنما نثي الضمير أولاً لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جمع

لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وحد لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) ءَأَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَدْرَكَ لِسَانُكَ لَمَنْ خَلَفَكَ ءَايَةٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَفَاقِلُونَ (92)﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةً﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوهما. ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وأنواعاً من المال. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك: لعن الله إبليس. وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بـ﴿آتَيْتَ﴾ ويحتمل أن تكون للعلة لأن إتياء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكانهم أوتوها ليضلوا فيكون ﴿رَبَّنَا﴾ تكريراً للأول تأكيداً وتنبهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم مقدمة لقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها، والطمس المحق وقرئ ﴿اطْمِسْ﴾ بالضم. ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي وأقسها عليها حتى لا تنشرح للإيمان. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ﴿ليضلوا﴾ وما بينهم دعاء معترض.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمن. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فائتيا على ما أنتما عليه من الدعوة والزمام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى، وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ولا تتبعان بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين، ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ من تبع ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ أيضاً.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم، وقرئ «جوزنا» وهو من فعل المرادف لفاعل كضعف وضاعف. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فأدركهم يقال اتبعته حتى أتبعته. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ باغين وعادين، أو للبغي والعدو وقرئ «وعدوا». ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرَقُ﴾ لحقه. ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ﴾ أي بأنه. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي إنه بالكسر على إضمار القول أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لـ ﴿ءَأَمَنْتُ﴾ فنكسب عن الإيمان أو أن القبول وبالف فيه حين لا يقبل.

﴿الآن﴾ أتؤمن الآن وقد أيسست من نفسك ولم يبق لك اختيار. ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ قبل ذلك مدة عمرك. ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب «ننجيك» من أنجى، وقرأ «ننجيك» بالحاء أي نلقيك بناحية من الساحل. ﴿بِبَدْنِكَ﴾ في موضع الحال أي ببذلك عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً أو عرياناً من غير لباس. أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرئ «بأبدانك» أي بأجزاء البدن كلها كقولهم هوى بإجرامه

أو بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها. ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان في نفوسهم من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك، حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عابوه مطرحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرئ لمن «خلقك» أي لخالقك آية أي كسائر الآيات فإن إفراجه إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أن تعمد منه لكشف تزويرك وإمطة الشبهة في أمرك. وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وهذا الوجه أيضاً محتمل على المشهور. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ لا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِوْأً صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (93)

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ مِوْأً صَدَقَ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرأوا التوراة وعلموا أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإِنجاء والإِهْلَاق.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (94)

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير. ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهيج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته لا إمكان وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أشك ولا أسأل». وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك، وفيه تنبيه على أن كل من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم. ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بالترنزل عما أنت عليه من الجزم واليقين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (95)

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أيضاً من باب التهيج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (96) وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَاءَ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمَرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجِيعِلَ الْيُسْرَى عَلَى الْزُرِّ لَا يَقُولُونَ (100) قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِ الْمُؤْمِنِينَ (103) قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) ﴿

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم. ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود. ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ فهنا كانت قرية من القرى التي أهلكتها آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إليها كما أخر فرعون. ﴿فَفَقَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام. ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ أول ما رأوا أماراة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً لأن المراد من القرى أهلها كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، ويؤيده قراءة الرفع على البدل. ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي: (أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذبوه وأصروا عليه فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث. وقيل إلى ثلاثين. وقيل إلى أربعين، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، وهو دليل على القدرة في أنه تعالى لم يشأ إيمانهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقيد بمشيئة الاجاء خلاف الظاهر. ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ بما لم يشأ الله منهم. ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإكراه، وتقدير الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلاً عن الحث والتحريض عليه؛ إذ روي أنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به فنزلت. ولذلك قرره بقوله:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ﴾ بالله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بإرادته وألطفه وتوفيقه فلا تجهد نفسك في هداها فإنه إلى الله. ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ العذاب أو الخذلان فإن سببه. وقرىء بالزاي وقرأ أبو بكر «ونجعل» بالنون. ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلالة وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع ويؤيد الأول قوله: ﴿قُلْ انظُرُوا﴾ أي تفكروا. ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من عجائب صنعه لتدلكم على وحدته وكمال قدرته، و «ماذا» إن جعلت استفهامية علقت «انظروا» عن العمل. ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمته «وما» نافية أو استفهامية في موضع النصب.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون

غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها. ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك أو فانتظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاككم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ عطف على محذوف دل عليه ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا﴾ كأنه قيل؛ نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك الإنجاء أو إنجاء كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نهلك المشركين، و ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراض ونصبه بفعله المقدر. وقيل بدل من كذلك. وقرأ حفص والكسائي ﴿نُنَجِّي﴾ مخففاً.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ وصحته. ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً فاعرضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا صحتها وهو أنني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدهونه، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدهم ويتوفاكم. وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل ونطق به الوحي، وحذف الجار من أن يجوز أن يكون من المطرود مع أن وأن يكون من غيره كقوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلُ مَا أُمِرْتُ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ غير ﴿أَنْ﴾ صلة ﴿أَنْ﴾ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهما في الغرض لأن المقصود وصلها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض، والانتها عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (106)

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ فإن دعوته ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعه الدعاء.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (107)

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصبك به. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ يرفعه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله. ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾ فلا دافع. ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الذي أرادك به ولعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير. ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَنْفَعُ نَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (108)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ بالإيمان والمتابعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ﴾ لأن نفعه لها. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بالكفر بهما. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا﴾

لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير.

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (109)

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ. ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم. ﴿حَتَّىٰ يَخُذَ اللَّهُ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعاً على السرائر اطلاعاً على الظواهر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون».





[مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَعُتْ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُمْ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْسِيُّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَنَاعِمَ حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنُ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُيَسِّرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5)﴾

﴿الر كتاب﴾ مبتدأ وخبر أو ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف. ﴿أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ﴾ نظمت نظاماً محكماً لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو منعت من الفساد والنسخ فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكمية منقول من حكم بالضم إذا صار حكيماً لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية. ﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، أو بجعلها سوراً أو بالانزال نجماً نجماً، أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه. وقرئ ﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ أي فرقت بين الحق والباطل وأحكمت آياته ﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾ على البناء للمتكلم، و ﴿ثُمَّ﴾ للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الأخبار. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لـ ﴿كتاب﴾، أو خبر بعد خبر أو صلة لـ ﴿أَحْكَمَتْ﴾ أو ﴿فصلت﴾، وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبارها ما ظهر أمره وما خفي.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ لأن لا تعبدوا. وقيل أن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً للاغراء على التوحيد أو الأمر بالتبري من عبادة الغير كأنه قيل: ترك عبادة غير الله بمعنى الزمونه أو اتركوها تركاً. ﴿إِنِّي لَكُرْسِيُّ مِنْهُ﴾ من الله. ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطف على ألا تعبدوا. ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم توسلوا إلى مطلوبكم بالتوبة فإن المعرض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. وقيل استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله بالطاعة، ويجوز أن يكون ثم لتفاوت ما بين الأمرين. ﴿يُغْفِرْ لَكُمْ مَنَاعِمَ حَسَنًا﴾ يعيشتكم في أمن ودعة. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال والأرزاق والآجال، وإن كانت متعلقة بالأعمار لكنها مسماة بالإضافة إلى كل أحد فلا تتغير. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعط كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة، وهو وعد للموحد التائب بخير الدارين. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن تولوا. ﴿فَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف. وقرئ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ من ولي.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم وهو شاذ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تعذيبكم أشد عذاب وكأنه تقدير لكبر اليوم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يثنونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولون ظهورهم. وقرئ «يثنوني» بالياء والتاء من ثنوني، وهو بناء مبالغة و «ثنون»، وأصله ثنن من الثن وهو الكلا الضعيف أراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثني، و «ثنتن» من اثنان كأبيض بالهمزة و «ثنوي». «لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ» من الله بسرهم فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه. قيل إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرحنا ستورنا واستغشنا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم. وقيل نزلت في المنافقين وفيه نظر إذ الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة. «أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ» ألا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم. «يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ» في قلوبهم. «وَمَا يُعْلِنُونَ» بأفواههم يستوي في علمه سرهم وعلنهم فكيف يخفي عليه ما عسى يظهره. «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» بالأسرار ذات الصدور أو بالقلوب وأحوالها.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (6)

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملاً على التوكل فيه. «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا» أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام أو مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة. «كُلٌّ» كل واحد من الدواب وأحوالها. «فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» مذكور في اللوح المحفوظ، وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَسْبُحُكُمْ أَنْتُمْ عَمَلًا وَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (8)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيهما كما مر بيانه في «الأعراف»، أو ما في جهتي العلو والسفل وجمع السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه كان موضوعاً على متن الماء، واستدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل كان الماء على متن الريح والله أعلم بذلك. «لَيَسْبُحَنَّكُمْ أَنْتُمْ عَمَلًا» متعلق بـ «خلق» أي خلق ذلك كخلق من خلق ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم ودلائل وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها، وإنما جاز تعليق فعل البلوى لما فيه من معنى العلم من حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع، وإنما ذكر صيغة التفضيل والاختبار شامل لفرق المكلفين باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحاسن المحاسن، والتحضيض على الترقى دائماً في مراتب العلم والعمل فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبي ﷺ «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله». والمعنى أيكم أكمل علماً وعملاً. «وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ

الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي «إلا ساحر» على أن الإشارة إلى القائل. وقرأ «أنكم» بالفتح على تضمن قلت معنى ذكرت أو أن يكون أن بمعنى على أي ولئن قلت عليكم مبعوثون، بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بإنكاره لعدوه من قبيل ما لا حقيقة له مبالغة في إنكاره.

﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ﴾ الموعود. ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات قليلة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ استهزاء. ﴿مَا يَخِيسُهُ﴾ ما يمنعه من الوقوع. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ كيوم يدر. ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم، و «يوم» منصوب بخبر «ليس» مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم وُضِعَ الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع «يستَهْزِءُونَ» موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾ (9)

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه. ﴿إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾ قطع رجاء من فضل الله تعالى لقله صبره وعدم ثقته به. «كفور» مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (10)

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي المصائب التي ساءتني. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ بطر بالنعم مغتر بها. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها، وفي لفظ الاذقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنموذج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الدوق إدراك الطعم والمس مبتدأ الوصول.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (11)

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً لآلائه سابقها ولاحقها. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة والاستثناء من الإنسان لأن المراد به الجنس فإذا كان محلي باللام أفاد الاستغراق ومن حملة على الكافر لسبق ذكرهم جعل الاستثناء منقطعاً.

﴿فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (12)

﴿فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل عن الخيانة في الوحي والثقة في التبليغ ها هنا. ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تتلو عليهم مخافة. ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ﴾ ينفقه في الاستبعا كالملوك. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه وقيل الضمير في «به» مبهم يفسره «أن يقولوا» «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ» ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ولا عليك ردوا أو اقترحوا فما بالك يضيق به صدرك. «والله على كل شيء

وَكَيْلٌ فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِحَالِهِمْ وَفَاعِلٌ بِهِمْ جَزَاءُ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ اللَّهُ فُلًا فَاتَّبَعُوا بِعَشْرِ شُورٍ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ «أم» منقطعة والهاء «لما يوحى». «قُلْ فَاتَّبَعُوا بِعَشْرِ شُورٍ مِثْلَهُ» في البيان وحسن النظم تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عجزوا عنها سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة، وتوحيد المثل باعتبار كل واحدة. «مُفْتَرِيَاتٍ» مختلفات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه بل أنتم لتعلمكم القصص والأشعار وتعودكم القريض والنظم. «وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» إلى المعاونة على المعارضة. «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أنه مفترى «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ» بإتيان ما دعوتهم إليه، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول ﷺ أو لأن المؤمنين كانوا أيضاً يتحدونهم، وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم من حيث أنه يجب أتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبية على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه ولذلك رتب عليه قوله: «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه. «وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» واعلموا أن لا إله إلا الله لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيص هذا الكلام الثابت صدقة بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً، ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين والضمير في «لَمْ يَسْتَجِيبُوا» لمن استطعتم أي فإن لم يستجيبوا لكم إلى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعاوضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله، وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة، وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبية على قيام الموجب وزوال العذر.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15)﴾

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانه وبره. «نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا» نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرئ «يوف» بالياء أي يوف الله و «نوف» على البناء للمفعول و «نوف» بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

وَأِنْ أَتَاهُ كَرِيمٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمٌ

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء. وقيل في المنافقين.

وقيل في الكفرة وعرضهم وبرهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16)﴾

كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَتَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
الْأَخْسَرُونَ (22) ﴿

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ لأنه لم يبق لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف بـ ﴿صنعوا﴾ على أن الضمير لـ ﴿الدنيا﴾. ﴿وَبَاطِلٌ﴾ في نفسه. ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكان كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. وقرئ «باطلاً» على أنه مفعول يعملون و ﴿ما﴾ إبهامية أو في معنى المصدر كقوله:

﴿وَلَا خَارِجاً مِنْ فِي زُورِ كَلَامٍ﴾

وبطل على الفعل ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ برهان من الله يدل على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، والهزيمة لإنكار أن يعقب من هذا شأنه هؤلاء المقصرين همهم وأفكارهم على الدنيا وأن يقارب بينهم في المنزلة، وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر وتقديره أفمن كان على بينة كمن كان يريد الحياة الدنيا، وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل المراد به النبي ﷺ وقيل مؤمنو أهل الكتاب. ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل. ﴿شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن. ﴿كِتَابٌ مُوسَى﴾ يعني التوراة فإنها أيضاً تلوها في التصديق، أو البينة هو القرآن ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ من التلاوة والشاهد جبريل، أو لسان الرسول ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظه. والضمير في ﴿يتلوهُ﴾ إما لمن أو للبيئة باعتبار المعنى ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ جملة مبتدأة. وقرئ «كتاب» بالنصب عطفًا على الضمير في ﴿يتلوهُ﴾ أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنه حق كقوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾ وقرأ من قبل القرآن التوراة. ﴿إِمَاماً﴾ كتاباً مؤتمناً به في الدين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يردها لا محالة. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ من الموعد، أو القرآن وقرئ «مُرْيَةٍ» بالضم وهما الشك. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ كان أسند إليه ما لم ينزله أو نفى عنه ما أنزله. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الكاذبون. ﴿يُعَرِّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحسبوا وتعرض أعمالهم. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والنبين أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب أو شهيد كإشراف جمع شريف. ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تهويل عظيم مما يحيق بهم حيثن لظلمهم بالكذب على الله.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه أخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ استئناف وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يُضَعَفُ» بالتشديد. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾

لتصامهم عن الحق وبغضهم له. ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب. وقيل هو بيان ما نفاه من ولاية الآلهة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فإن ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية وقوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ اعتراض.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى.. ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة. ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (23)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمانوا إليه وخشعوا له من الخبت وهو الأرض المطمئنة. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (24)

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن. ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبير معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله:

الصَّابِحَ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ

وهذا من باب اللف والطباق. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ هل يستوي الفريقان. ﴿مَثَلًا﴾ أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ بِذِكْرٍ مُبِينٍ﴾ (25)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ﴾ قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحزمة بالكسر على إرادة القول. ﴿بَذِكْرٍ مُبِينٍ﴾ أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ إِلَهِس﴾ (26)

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من ﴿أني لكم﴾، أو مفعول مبين، ويجوز أن تكون أن مفسرة متعلقة بـ ﴿أرسلنا﴾ أو بـ ﴿نذير﴾. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ إِلَهِس﴾ مؤلم وهو في الحقيقة صفة المُعَذَّب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جد جده ونهاره صائم للمبالغة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْنَكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِي

الرَّأْيِ وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (27)

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. ﴿وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ أخساؤنا جمع أرذل فإنه بالغلبة صار مثل الاسم كالأكبر، أو أرذل جمع رذل. ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ ظاهر الرأي من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبذلة من الهزمة لانكسار ما قبلها. وقرأ أبو عمرو بالهزمة وانتصابه بالظرف على حذف المضاف أي: وقت حدوث بادِي الرأي، والعامل فيه ﴿اتبعتك﴾. وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان الأحظ بها أشرف عندهم والمحروم منها أرذل. ﴿وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ﴾ لك ولمتبعيك. ﴿عَلَيْنَا مِنْ

فَضِّلْ يُوْهِلِكُمْ لِلنَّبِوَةِ وَاسْتَحْقَاقِ الْمَتَابَعَةِ. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ إِيَايَ فِي دَعْوَى النَّبِوَةِ وَإِيَاهُمْ فِي دَعْوَى الْعِلْمِ بِصَدَقِكَ فَغَلَبَ الْمَخَاطِبُ عَلَى الْغَاثِيَيْنِ.

﴿ قَالَ يَقْوَرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَنٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْكَ أَنْزِلُكُمْ هَا وَنُزِّلُكُمْ هَا كَذِبُوهُنَّ (28) ﴾

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أَخْبَرُونِي. ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَنٍ مِنْ رَبِّي ﴾ حجة شاهدة بصحة دعواي. ﴿ وَأَنَا نِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ بَيِّنَاتُ الْبَيِّنَةِ أَوْ النَّبِوَةِ. ﴿ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ ﴾ فَخَفِيَ عَلَيْكُمْ فَلَمْ تَهْدِكُمْ وَتَوْحِيدِ الضَّمِيرِ لِأَنَّ الْبَيِّنَةَ فِي نَفْسِهَا هِيَ الرَّحْمَةُ، أَوْ لِأَنَّ خَفَاءَهَا يُوجِبُ خَفَاءَ النَّبِوَةِ، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ فَعُمِيتَ بَعْدَ الْبَيِّنَةِ وَحَذَفَهَا لِلْإِخْتِصَارِ أَوْ لِأَنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا. وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي وَحَفْصٌ ﴿ فَعُمِيتَ ﴾ أَيِ أَخْفَيْتَ. وَقَرَأَ «فَعَمَاهَا» عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ لِلَّهِ. ﴿ أَنْزِلُكُمْ هَا وَنُزِّلُكُمْ هَا ﴾ أَنْكَرْهُمْ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ بِهَا. ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴾ لَا تَخْتَارُونَهَا وَلَا تَتَأَمَّلُونَ فِيهَا، وَحَيْثُ اجْتَمَعَ ضَمِيرَانِ وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا مَرْفُوعاً وَقَدْ أَعْرَفَ مِنْهُمَا جَازٍ فِي الثَّانِي الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ.

﴿ وَيَقْوَرُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِيفَتِ أَرْسَلَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ عَلَى التَّبْلِيغِ وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ فَمَعْلُومٌ مِمَّا ذَكَرَ. ﴿ مَا لَآ ﴾ جَعَلَا: ﴿ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ فَإِنَّهُ الْمَأْمُولُ مِنْهُ. ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ جَوَابُ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوا طَرْدَهُمْ. ﴿ إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ ﴾ فَيُخَاصِمُونَ طَرْدَهُمْ عِنْدَهُ، أَوْ أَنَّهُمْ يَلَاقُونَهُ وَيَفُوزُونَ بِقَرْبِهِ فَكَيْفَ أَطْرَدَهُمْ. ﴿ وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ بَلَقَاءِ رَبِّكُمْ أَوْ بِأَقْدَارِهِمْ أَوْ فِي التَّمَاسِ طَرْدَهُمْ، أَوْ تَسْفَهُونَ عَلَيْهِمْ بِأَن تَدْعُوهُمْ أَرَادَل.

﴿ وَيَقْوَرُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ ﴾ بِدَفْعِ انْتِقَامِهِ. ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ وَهُمْ بِتِلْكَ الصِّفَةِ وَالْمَثَابَةِ. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ لِتَعْرِفُوا أَنَّ التَّمَاسِ طَرْدَهُمْ وَتَوْقِيفَ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ لَيْسَ بِصَوَابٍ.

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ (31) ﴾

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ رِزْقُهُ وَأَمْوَالُهُ حَتَّى جَعَلْتُمْ فَضْلِي. ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ عَطَفَ عَلَى عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ أَيِ: وَلَا أَقُولُ لَكُمْ أَنَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ حَتَّى تَكْذِبُونِي اسْتِعْبَاداً، أَوْ حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ اتَّبَعُونِي بِأَدْيِ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعَقْدِ قَلْبٍ، وَعَلَى الثَّانِي يَجُوزُ عَطْفُهُ عَلَى أَقُولَ. ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ حَتَّى تَقُولُوا مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا. ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ﴾ وَلَا أَقُولُ فِي شَأْنٍ مِنْ اسْتَرْذَلْتُمُوهُمْ لِفَقْرِهِمْ. ﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ فَإِنَّ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ فِي الدُّنْيَا. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴾ إِنْ قُلْتُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَالْإِزْدِرَاءُ بِهِ اقْتِعَالٌ مِنْ زُرَى عَلَيْهِ إِذَا عَابَهُ قَلْبَتِ تَأْوَهُ دَالاً لِتَجَانُسِ الرَّاءِ فِي الْجَهْرِ وَإِسْنَادِهِ إِلَى الْأَعْيُنِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ اسْتَرْذَلُوهُمْ بِأَدْيِ الرُّؤْيَةِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ بِمَا عَانُوا مِنْ رِثَاةِ حَالِهِمْ وَقِلَّةِ مَنَالِهِمْ دُونَ تَأَمُّلٍ فِي مَعَانِيهِمْ وَكَمَالَتِهِمْ.

﴿ قَالُوا يَسْبُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَكَثُرَتْ جِدَالُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) ﴾

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ خَاصِمْتَنَا. ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ فَاطْلَتَهُ أَوْ أَتَيْتَ بِأَنْوَاعِهِ. ﴿ فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾

من العذاب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (33)

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

تَرْجِعُونَ﴾ (34)

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ شرط ودليل وجواب والعجالة دليل جواب قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، ولذلك تقول لو قال الرجل أنت طالق إن دخلت الدار إن كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق، وهو جواب لما أوهموا من جداله كلام بلا طائل. وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده محال. وقيل ﴿أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم فهلك. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وَالِلَّهِ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَنْجُرِمُونَ﴾ (35) وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ

يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا بِفَعْلَتِكَ﴾ (36) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي

الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (37) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (39) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ

أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا

قَلِيلٌ﴾ (40)

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ وباله وقرىء ﴿أَجْرَامِي﴾ على الجمع. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا

تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلي.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ولا تنأسف. ﴿بِمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ﴾ أقنطه الله تعالى من إيمانهم ونهاه أن يغتم بما فعلوه من التكذيب والإيذاء.

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بأعيننا، عبر بكثرة آلة الحس الذي يحفظ به الشيء ويراعى عن

الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل. ﴿وَوَحِّينَا﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿وَلَا

تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. ﴿إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم

عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه.

﴿وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية. ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استهزؤا به لعمله

السفينة فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء أو ان عزته، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً

بعدما كنت نبياً. ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق

في الآخرة. وقيل المراد بالسخرية الاستجهال.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إياهم وبالعذاب الغرق. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه،

أو يحل عليه حلول الدين الذي لا انفكاك عنه. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار.



﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هي التي يبدأ بعدها الكلام. ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور، و ﴿التَّنُورُ﴾ تنور الخبز ابتداءً منه النبوع على خرق العادة وكان في الكوفة في موضع مسجدها، أو في الهند أو يعين وردة من أرض الجزيرة وقيل التنور وجه الأرض أو أشرف موضع فيها. ﴿فَلَمَّا أَحْمَلُ فِيهَا﴾ في السفينة. ﴿مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُسْتَفْعِ بِهَا﴾ ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى هذا على قراءة حفص والباقون أضافوا على معنى أحمل اثنين من كل صنف ذكر وصنف أنثى. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿اثْنَيْنِ﴾، والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المغرقين يريد ابنه كنعان وأمه واعلة فإنهما كانا كافرين. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ والمؤمنين من غيرهم. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم وإثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة في سنتين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسمكها ثلاثين، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الإنس وفي أعلاها الطير.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّيْهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (41)

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي صيروا فيها وجعل ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض. ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ متصل بـ ﴿ارْكَبُوا﴾ حال من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أن المجري والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف كقولهم: أتيت خفوق النجم، وانتصابهما بما قدرناه حالاً ويجوز رفعهما بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر، أي إجراؤها ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ على أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ خبر أو صلة والخبر محذوف وهي إما جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست. ويجوز أن يكون الاسم مقحماً كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية حفص ﴿مَجْرَاهَا﴾ بالفتح من جرى وقرئ ﴿مُرْسَاهَا﴾ أيضاً من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة و ﴿مَجْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾ بلفظ الفاعل صفتين لله. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لفرطتكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (42)

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه ﴿ارْكَبُوا﴾ فركبوا مسمين وهي تجري وهم فيها. ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعاً وإن صح فعل ذلك قبل التطبيق. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقرئ «ابنهما» و «ابنة» بحذف الألف على أن الضمير لامرأته، وكان ربيبه وقيل كان لغير رشة لقوله تعالى: ﴿فَخَاتَمَتُهُمَا﴾ وهو خطأ إذ الأنبياء عصمت من ذلك والمراد بالخيانة الخيانة في الدين، وقرئ «ابناء» على الندبة ولكنها حكاية سوغ حذف الحرف. ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه مغل للمكان من عزله عنه إذا أبعد. ﴿يَا بَنِي ارْكَبْ مَعَنَا﴾ في السفينة، والجمهور كسروا الباء ليدل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن، غير ابن كثير فإنه وقف عليها في «لقمان» في الموضع الأول باتفاق الرواة وفي الثالث في رواية قبل وعاصم فإنه فتحها هنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع وقد أدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص

لتقاربهما. ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانعزال.

﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (43)

﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أن يغرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾

إلا الراحم وهو الله تعالى أو الإمكان من رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللأئذ به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة. وقيل لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كقوله: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وقيل الاستثناء منقطع أي لكن من رحمه الله يعصمه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ فصار من المهلكين بالماء.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَتَسْمَأْ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ﴾ (44)

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي﴾ نوديا بما ينادي به أولو العلم وأمرأ بما يؤمرون به،

تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المتقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمتة وخشية من أليم عقابه، والبلع النشف والإفلاع والإمساك. ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ نقص. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة. ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل وقيل بالشام وقيل بأمل. روي أنه ركب السفينة عاشر رجب ونزل عنها عاشر المحرم فصام ذلك اليوم فصار ذلك سنة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هلاكاً لهم يقال بُعداً بعداً وبعداً إذا بعد بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء، والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (45)

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ وأراد نداءه بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنه النداء. ﴿وَإِنَّ

وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخلف، وقد وعدت أن تنجي أهلي فما حاله، أو فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع.

﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ﴾ (46)

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

صَالِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة:

ترتع ما رتعت حتى إذا اذكّرت فلإنما هي إقبال وإدبار

ثم بدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي عمل عملاً غير صالح. ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ ﴿ مَا لَا تَعْلَمُ أَصَوَابٌ هُوَ أَمْ لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا سَمِيَ نِدَاءَهُ سَوْأَلًا لِتَضْمَنَ ذِكْرَ الْوَعْدِ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ اسْتِجَازَهُ فِي شَأْنِ وَلَدِهِ أَوْ اسْتِفْسَارَ الْمَانِعِ لِلْإِنْجَازِ فِي حَقِّهِ ، وَإِنَّمَا سَمَاءُ جَهْلًا وَزَجَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَاطِلِينَ ﴾ لِأَنِ اسْتِثْنَاءَ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْ أَهْلِهِ قَدْ دَلَّ عَلَى الْحَالِ وَأَغْنَاهُ عَنِ السَّوَالِ ، لَكِنْ أَشْغَلَهُ حُبُّ الْوَلَدِ عَنْهُ حَتَّى اشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ بَفَتْحِ اللَّامِ وَالنُّونِ الشَّدِيدَةِ وَكَذَلِكَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ غَيْرَ أَنَّهُمَا كَسَرَا النُّونَ عَلَى أَنْ أَصْلَهُ تَسَالَنِي فَحَذَفَتْ نُونُ الْوَقَايَةِ لِاجْتِمَاعِ النُّونَاتِ وَكَسَرَتْ الشَّدِيدَةُ لِلْيَاءِ ، ثُمَّ حَذَفَتْ اكْتِفَاءً بِالْكَسْرَةِ وَعَنْ نَافِعٍ بِرَوَايَةِ رُوَيْسٍ إِثْبَاتَهَا فِي الْوَصْلِ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (47)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ . ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ مَا لَا عِلْمَ لِي بِصَحْتِهِ . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لِي مَا فَرَطَ مِنِّي فِي السَّوَالِ . ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ . ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أَعْمَالًا .

﴿ قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (48)

﴿ قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ انْزِلْ مِنَ السَّفِينَةِ مُسَلِّمًا مِنَ الْمَكَارِهِ مِنْ جِهَتِنَا أَوْ مُسَلِّمًا عَلَيْكَ . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ وَمُبَارَكًا عَلَيْكَ أَوْ زِيَادَاتٍ فِي نَسْلِكَ حَتَّى تَصِيرَ أَدَمًا ثَانِيًا . وَقَرَأَ ﴿ اهْبِطْ ﴾ بِالضَّمِّ « وَبَرَكَاتٍ عَلَى التَّوْحِيدِ وَهُوَ الْخَيْرُ النَّامِي . ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ وَعَلَى أُمَّةٍ هِيَ الَّذِينَ مَعَكَ ، سَمُوا أُمَّةً لِتَحْزِبَهُمْ أَوْ لِتَشْعَبَ الْأُمَمَ مِنْهُمْ ، أَوْ وَعَلَى أُمَّةٍ نَاشِئَةٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ أَيِ وَمِمَّنْ مَعَكَ سَنُمَتِّعُهُمْ فِي الدُّنْيَا . ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فِي الْآخِرَةِ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْكَفَّارُ مِنْ ذُرِّيَةِ مَنْ مَعَهُ . وَقِيلَ هُمْ قَوْمُ هُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ ، وَالْعَذَابُ مَا نَزَلَ بِهِمْ .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (49)

﴿ تِلْكَ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ نُوحٍ وَمَحَلُّهَا الرِّفْعُ بِالْإِبْتِدَاءِ وَخَبَرُهَا : ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أَيِ بَعْضُهَا . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خَبَرُ ثَانٍ وَالضَّمِيرُ لَهَا أَيِ مَوْحَاةٌ إِلَيْكَ ، أَوْ حَالٌ مِنَ الْإِنْبَاءِ أَوْ هُوَ الْخَبَرُ وَ ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهِ أَوْ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي « نُوحِيهَا » . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ خَبَرُ آخَرٍ أَيِ مَجْهُولَةٌ عِنْدَكَ وَعِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ إِيْحَانِنَا إِلَيْكَ ، أَوْ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي نُوحِيهَا أَوْ الْكَافِ فِي « إِلَيْكَ » أَيِ : جَاهِلًا أَنْتَ وَقَوْمُكَ بِهَا ، وَفِي ذِكْرِهِمْ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَتَعْلَمَهَا إِذْ لَمْ يَخَالُطْ غَيْرَهُمْ وَأَنَّهُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ لَمَّا لَمْ يَسْمَعُوهَا فَكَيْفَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ عَلَى مَشَاقِ الرِّسَالَةِ وَأَذِيَةِ الْقَوْمِ كَمَا صَبَرَ نُوحٌ . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ فِي الدُّنْيَا بِالظُّفَرِ وَفِي الْآخِرَةِ بِالْفُوزِ . ﴾ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ عَنِ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ (50)

يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَزْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَزَيِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُنُوبَكُمْ (52) قَالُوا يٰ هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَابُكَ بَعْضُ آلِ هَارُونَ يَسُوءُوا قَالِ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ (55) إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رِقِي

وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) ﴿

﴿وَالْيَإَيُّهَا أَهْلُ هُودَ﴾ عطف على قوله ﴿نوحاً إلى قومه﴾ و ﴿هُوداً﴾ عطف ببيان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقرئ بالجذر حملاً على المجرور وحده. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب كل رسول به قومه لإزاحة اللهمة وتمحيضاً للنصيحة فإنها لا تنجح ما دامت مشوبة بالمطامع. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ كثير الدر. ﴿وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ويضاعف قوتكم، وإنما رغبتهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالناسل. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقنات له من الإجابة والتصديق.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ ما نقول إلا قولنا ﴿اعتراك﴾ أي أصابك من عراه يعروه إذا أصابه. ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ بجنون لسبك إياها وصدك عنها ومن ذلك تهذي وتكلم لخرافات، والجملة مقول القول وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ. ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ أجاب به عن مقالتهم الحمقاء بأن أشهد الله تعالى على براءته من آلهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء أن يضروه لم يبق لهم شبهة أن آلهم التي هي جماد لا يضر ولا ينفع لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة الفتاك العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقتة بالله وتبظهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه ولذلك عقبه بقوله:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تقريراً له والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لا يحق بي ما لم يرد، ولا يقدر على ما لم يقدره ثم برهن عليه بقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها بصرفها على ما يريد بها والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي أنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معصم ولا يفوته ظالم.

﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

حَفِیْظٌ (57) ﴿

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تتولوا. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أديت ما علي من الإبلاغ والزام

الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تتولوا يعذرنى ربي ويستخلف. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾ لتوليكم. ﴿شَيْئًا﴾ من الضر ومن جزم يستخلف أسقط النون منه. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستول عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (58)

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا العذاب. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وكانوا أربعة آلاف. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السموم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أديارهم فتقطع أعضائهم، أو المراد به تنجيهم من عذاب الآخرة أيضاً، والتعريض بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

﴿وَلَيْكَ عَادٌ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (59)

﴿وَلَيْكَ عَادٌ﴾ أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وآثارهم. ﴿جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومن عصي رسولاً فكانما عصي الكل لأنهم أمروا بطاعة كل رسول. ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني كبراءهم الطاغين و ﴿عَنِيدٍ﴾ من عند عنداً وعنداً وعنوداً إذا طغى، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرداهم.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (60)

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم في العذاب. ﴿أَلَا إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوه أو كفروا نعمه أو كفروا به فحذف الجار. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تنظيلاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم. ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد، وفائدته تمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم، والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَإِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ (61)

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسله منها من التراب. ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العمري بمعنى أعماركم فيها دياركم وبيوتها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة. ﴿مُجِيبٌ﴾ لداعيه.

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا لَإِ إِلَٰهًا

مُزَبَّيًارَ (62)﴾

﴿قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك. ﴿أَتَنْهَانَا

أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» على حكاية الحال الماضية. «وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» من التوحيد والتبري عن الأوثان. «ثُمَّ يَبْ» موقع في الريبة من أراه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي من أراب في الأمر.

«قَالَ يَنْفُورُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63)»

«قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي» بيان وبصيرة وحرف الشك باعتبار المخاطبين. «وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً» نبوة. «فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ» فمن يمنعني من عذابه «إِنْ عَصَيْتُهُ» في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراف به. «فَمَا تَزِيدُونَنِي» إذن باستتباعكم إياي. «غَيْرَ تَخْسِيرٍ» غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزدونني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران.

«وَيَنْفُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64)»

«وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ» انتصب آية على الحال وعاملها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتذكيرها. «فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ» ترع نباتها وتشرب ماءها. «وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ» عاجل لا يتراخي عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام. «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)»

«فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ» عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. «ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» الأربعة والخميس والجمعة ثم تهلكون. «ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه باجرائه مجرى المفعول به كقوله:

وَيَسُوءُ شَهْدَانَهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا

أو غير مكذوب على المجاز، وكان الواعد قال له أفي بك فإن وفي به صدقة وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

«فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ (67) كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ شُؤْمَهُمْ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِيَشْمُودَ (68) وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِيَّاهُمْ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالُوا سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَأَمْرُهُمْ فَايَمَةٌ فَضَجَّكَتْ فِئْرَتُهَا يَأْسَخَقُ مِنْهُمْ وَرَأَوْا إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71)»

«فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع «يومئذ» بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي «المعارج» في قوله: «من عذاب يومئذ» «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» القادر على كل شيء والغالب عليه.

«وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ» قد سبق تفسير ذلك في سورة «الأعراف».

«كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ شُؤْمَهُمْ كَفَرُوا رَبَّهُمْ» نوته أبو بكرها هنا وفي «النجم» والكسائي في جميع

القرآن وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّلْمُودِ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الملائكة، قيل: كانوا تسعة، وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. ﴿بِالْبَشَرِ﴾ بشارة الولد. وقيل بهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سلمنا عليك سلاماً ويجوز نصبه بـ ﴿قَالُوا﴾ على معنى ذكروا سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمركم أو جوابي سلام أو وعليكم سلام، رفعه إجابة بأحسن من تحيتهم. وقرأ حمزة والكسائي «سلم» وكذلك في «الذاريات» وهما لغتان كحرم وحرام وقيل المراد به الصلح. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما أبطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه والجار في «أن» مقدر أو محذوف والحنيذ المشوي بالرصيف. وقيل الذي يقطر ودكه من حنذت الفرس إذا عرقته بالجلال لقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾. ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدون إليه أيديهم. ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً، ونكر وأنكر واستنكر بمعنى الإيجاس الإدراك وقيل الإضمار ﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ إنا ملائكة مرسله إليهم بالعذاب، وإنما لم نمد إليه أيدينا لأننا لا نأكل.

﴿وَأَمْرًا تَأْتِيهِمْ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة. ﴿فَضَحَكْتَ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر:

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاكِكاً فِي لَبَابَةٍ وَلَمْ يَغْدُ حُقّاً تَذِيهَا أَنْ تَحَلَّمَا

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صمغها وقرىء بفتح الحاء. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوب. وقيل إنه معطوف على موضع ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ أو على لفظ ﴿إِسْحَاقَ﴾، وفتحته للجر فإنه غير مصروف ورد للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ.

وخبره الظرف أي و ﴿يعقوب﴾ مولود من بعده. وقيل وراء ولد الولد ولعله سمي به لأنه بعد الولد وعلى هذا تكون إضافته إلى ﴿إِسْحَاقَ﴾ ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه، بل من حيث أنه وراء إبراهيم من جهته وفيه نظر. والأسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيى، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا به، وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

﴿قَالَتْ يَوَئِلَيَّ ءَا لِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا اتَّبِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ حِيدٌ مَّجِيدٌ (73) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ ابْنِدَلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَتْلُو آيَهُمْ آعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَانْتِهَىٰ عَذَابٍ غَيْرَ مَرْدُودٍ (76) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتَّىٰ يَوْمَ وَمَضَىٰ يَوْمَ ذَلِكَ يَوْمَ هَذَا يَوْمَ عَصِيبٍ (77) وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَمْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ زَكِيٌّ شَدِيدٌ (80)﴾

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَيَّ﴾ يا عجباً، وأصله في الشر فأطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل.

﴿أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين. ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي وأصله القائم بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإشارة. وقرئ بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو شيخ، أو خبر بعد خبر أو هو الخبر و﴿بَعْلِي﴾ بدل. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني الولد من هرمين، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك: ﴿قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منكرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلاً عما نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد. ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم. ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بدل الروع. ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلته إياهم قوله: ﴿إِنْ فِيهَا لُوطًا﴾ وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شرع في جدالنا، أو متعلق به أقيم مقامه مثل أخذ أو أقبل يجادلنا.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه. ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. ﴿مُتَيْبٌ﴾ راجع إلى الله، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترجمه.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ على إرادة القول أي قالت الملائكة ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قدره بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم. ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ ساء مجيئهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم. ﴿وَوَضَّاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدره، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتياط فيه. ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد من عصبه إذا شده.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه كأنهم يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت. ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يهرعون لها مجاهرين. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فدى بهن أضيافه كرمًا وحمية، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارىء أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرقوا له. وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية وفي حرف ابن مسعود ﴿وَأَزْوَاجَهُ أَمْهَاتِهِمْ﴾ وهو أب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقولك: الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه. وقرئ ﴿أَطْهَرُ﴾ بالنصب على الحال على أن هن خبر بناتي كقولك: هذا أخي هو الأفضل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم. ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزية بمعنى الحياء. ﴿فِي صَبِيحِي﴾ في شأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزأه. ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذكران.



﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ لو قويت بنفسي على دفعكم. ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوي أتمنع به عنكم. شبهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد». وقرئ ﴿أَوْ آوِي﴾ بالنصب بإضمار أن كآنه قال: لو أن لي بكم قوة أو أويأ وجواب لو محذوف تقديزه لدفعتمكم روي أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب.

﴿قَالُوا يَلْتَوِطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكْتُمُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (81)

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ لن يصلوا إلى إضرارك بإضرارنا فهون عليك ودعنا وإياهم، فخلاهم أن يدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقطع من الإسرائ، وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من السرى. ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بطائفة منه. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿إِلَّا أَمْرًا نَكْتُمُ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إن فسر بالنظر إلى الورا في الذهاب ناقض ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البذل من أحد، ولا يجوز حمل القراءتين على الروائيتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مثله في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولا يبعد أن يكون أكثر القراء على غير الأفصح، ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ كانه علة الأمر بالإسراء. ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ﴾ (82)

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل وجعل التعذيب مسبباً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جواب لما وكان حقه: جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به، فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر فإنه روي: (أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم). ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن أو على شذاذها. ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر لقوله: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ وأصله سنك كل فعر ب. وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار، أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لأمأ. ﴿مَنصُودٍ﴾ نضد معداً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض وألصق به.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (83)

﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلمة للعذاب. وقيل معلمة ببياض وحمرة. أو بسيما تتميز به. عن حجارة الأرض، أو باسم من يرمى بها. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر

عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه سأل جبريل عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمئك ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة». وقيل الضمير للقرى أي هي قريبة من ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَغْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ خَيْرٌ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84)﴾

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسمى باسمه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَغْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً فإنه ملاك الأمر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة التعاوض. ﴿إِنِّي أَرَأَكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقها أن تفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه وهو في الجملة علة للنهي. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ لا يشذ منه أحد منكم. وقيل عذاب مهلك من قوله: ﴿وَأَحِيطَ بِشْمَرِهِ﴾. والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال، ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه.

﴿وَيَنْفَوِرَ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ (85)﴾

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدهم التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإن الزيادة إيفاء وهو مندوب غير مأمور به وقد يكون محظوراً. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار، أو في غيره وكذا قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ﴾ فإن العتو يعم تقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل المراد بالبخس المكس كأخذ العشور في المعاملات، والعتو السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعله الخضر عليه الصلاة والسلام. وقيل معناه ولا تعتوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم.

﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ (86)﴾

﴿يَقِيْتُ اللَّهَ﴾ ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون بالتطفيف. ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان. أو إن كنتم مصدقين لي في قلبي لكم. وقيل البقية الطاعة كقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وقرئ «تقية» الله بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

الْحَلِيدُ الرَّشِيدُ (87)﴾

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أنذرت، أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

﴿قَالُوا يَا شَعْبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام، أجابوا به أمرهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهكم بصلواته والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس

من جنس ما تواظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الأفراد والمعنى: أصلاتك تأمرك بتكليف أن تترك، فحذف المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ عطف على ما أي وأن تترك فعلنا ما نشاء في أموالنا. وقرئ بالتاء فيهما على أن العطف على ﴿أَنْ تترك﴾ وهو جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء. وقيل كان بينهما عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك. ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

﴿قَالَ يَنْفَوِرُ أَرْبَعٌ يَتَمَرُّ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (88)

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يسع مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه. وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضمير في ﴿منه﴾ الله أي من عنده وبإعانتة بلا كد مني في تحصيله. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لأثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهى عنه، يقال خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو مول عنه، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما دمت أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه، ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاهما حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس. وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. و﴿مَا﴾ مصدرية واقعة موقع الظرف وقيل خبرية بدل من ﴿الإصلاح﴾ أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحذف المضاف. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدأته ومعونته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل. وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذره من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره والإقبال عليه بشرائره، وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَنْفَوِرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (89)

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم. ﴿شِقَاقِي﴾ معاداتي. أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ من الغرق. ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح. ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الرجفة و﴿أَنْ﴾ بصلتها ثاني مفعولي جرم، فإنه يعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. وعن ابن كثير ﴿يجرمكم﴾ بالضم وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد، والأول أفصح فإن أجرم أقل دوراناً على السنة الفصحاء. وقرئ ﴿مِثْلُ﴾ بالفتح لإضافته إلى المبني كقوله:

لَمْ يُنْعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونِ ذَاتِ ارْقَالٍ

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ زماناً أو مكاناً فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوي فلا يبعد عنكم ما أصابهم، وإفراد البعيد لأن المراد وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يسوي في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زنة المصادر كالصهيل والشقيق.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (90) قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَّا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّينَ (91) قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَقَوْمِ أَتَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَسِلُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَفِعُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَبِّ (93) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَصَبُّوا فِي دِيَارِهِمْ جَحِشِيمٌ (94) كَانَ لَرَفَعُوا فِيهَا أَلَا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (95) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَائِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسُ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ (99) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقَضَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَنَا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْبِي (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَيْمٌ شَدِيدٌ (102) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدُّومٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفَى وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنْ رَبُّكَ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُورٍ (108) فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِمَّا يَبْدُؤُا مَا يَبْدُؤُونَ إِلَّا كَمَا يَبْدُؤُا أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَّا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنْ كَلَّا لَمَّا لِيُوفِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَفْتِمُ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (113) وَأَتِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنْ أَحْسَنْتَ بُذِهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ لَخَفِيفٌ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ

الْحَيَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ (121) وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ (122) ﴿

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ عما أنتم عليه. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿وَوَدُّوا﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم. ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكرهم. وقيل قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً، أو مهيناً لا عزَّ لك، وقيل أعمى بلغة حمير وهو مع عدم مناسبه يرده التقيد بالظرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرق بين. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ قومك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة. ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾ فتمنعنا عزتك عن الرجم، وهذا ديدن السفه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب، والتهديد وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه ولذلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمُ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَ كُمْ ظَهْرِياً﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تبقون عليَّ الله وتبقون عليَّ لرهطي، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب، و ﴿ظَهْرِياً﴾ منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها.

﴿وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ سبق مثله في سورة «الأنعام» والفاء في ف ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثمة للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها ها هنا لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل. ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أو عدوه وكذبوه قال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم. وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم. ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا ما أقول لكم. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر فعيل بمعنى الرقيب كالصرم، أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ إنما ذكره بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذكر بعد الوعد وذلك قوله: ﴿وَعَدَ غَيْرَ مَكْدُوبٍ﴾ وقوله: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ﴾ فلذلك جاء بفاء السببية. ﴿وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ميتين، وأصل الجثوم اللزوم في المكان.

﴿كَانَ لَمْ يَغْتَوِ فِيهَا﴾ كان لم يقيموا فيها. ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدنين كانت من فوقهم. وقرئ ﴿بَعَدَتْ﴾ بالضم على الأصل فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبعد مصدر لهما والبعد مصدر المكسور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالثورة أو المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو المعجزات القاهرة أو العصا، وإفرادها بالذكر لأنها أبهرها، ويجوز أن يراد بهما واحد أي: ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها، فإن أبان جاء لازماً ومتعدياً، والفرق بينهما أن الآية تعم الأمانة، والدليل القاطع والسلطان يخص بالقاطع والمبين يخص بما فيه جلاء.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتبعوا أمره بالكفر بموسى أو فما تبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد أو ذي رشد، وإنما هو غي محض وضلال صريح.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال يقال قدم بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها مورداً ثم قال: ﴿وَبِشْرِ الْوُرْدِ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بشس المورد الذي وردوه فإنه يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنار بالضد، والآية كالدليل على قوله: ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسير له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾. ﴿لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يلعنون في الدنيا والآخرة. ﴿بِشْرِ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾ بشس العون المعان أو العطاء المعطى، وأصل الرقد ما يضاف إلى غيره ليعمده، والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة في الدارين.

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النبأ. ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ المهلكة. ﴿نَقْصُهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من تلك القرى باق كالزرع القائم. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأثر كالزراع المحصود، والجملة مستأنفة وقيل حال من الهاء في نقصه وليس بصحيح إذ لا واو ولا ضمير.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ يهلكنا إياهم. ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن عرضوها له بارتكاب ما يوجب. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم بل ضررتهم. ﴿الْهَتَمُ الَّذِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَبْيِيبٍ﴾ هلاك أو تخسير.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ. ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وقرىء ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ بالفعل وعلى هذا يكون محل الكاف النصب على المصدر. ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي أهلكها وقرىء ﴿إِذَا﴾ لأن المعنى على الماضي. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من ﴿القرى﴾ وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بظلمهم وإنذار كل ظالم ظلم نفسه، أو غيره من وخامة العاقبة. ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما نزل بالأئم الهالكة أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم. ﴿لَايَةً﴾ لعلهم. ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يعتبر به عظمته لعلهم بأن ما حاق بهم نموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة، أو ينزجر به عن موجباته لعلهم بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء. فإن من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار، وجعل تلك الوقائع لأسباب فلكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهلكين بها. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة دل عليه. ﴿يَوْمَ مَجْمُوعٌ لُّهُ النَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس، والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه من شأنه لا محالة وأن الناس لا يتفكون عنه فهو أبلغ من قوله: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ ومعنى الجمع له الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة.

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فأتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله: \* في مَحْفَلٍ مِّنْ نَّوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٌ \* أي كثير شاهده، ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك.

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلا لانتها مدة معدودة متناهية على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا متتهاها فإنه غير معدود.

﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ﴾ على أن ﴿يوم﴾ بمعنى حين أو الله عز وجل كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ ونحوه. وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة ﴿يَأْتِ﴾ بحذف الياء اجتزاء عنها بالكسر. ﴿لَا تُكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة، وهو الناصب للظرف ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتها المَحْذُوف. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ وهذا في موقف وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ في موقف آخر أو المأذون فيه هي الجوابات الحق والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد الضمير لأهل الموقف وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ أو للناس.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَنَبِّ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير إخراج النفس والشهيق رده، واستعمالها في أول النهيق وآخره والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء ﴿شَقُّوا﴾ بالضم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامها فإن النصوص دالة على تأييد دوامهم وانقطاع دوامهما. بل التعبير عن التأييد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المنهوم، لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاوم المنطوق. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مظل ومقل، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأييد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسمه، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وها هنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين، أو لأن أهل النار ينقلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً، وكذلك أهل الجنة نعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه، أو من أصل الحكم والمستثنى زمان توقعهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت. وقيل هو من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وقيل إلا ها هنا بمعنى سوى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة

التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِئْسَ الْجَنَّةُ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوذٍ﴾ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبه على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فرق بين الثواب والعقاب بالتأييد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سعدوا﴾ على البناء للمفعول من سعه الله بمعنى أسعده، و﴿عطاء﴾ نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء أو الحال من الجنة.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك بعد ما أنزل عليك من مال أمر الناس. ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ استئناف معناه تعليل النهي عن المرية أي هم وآباؤهم سواء في الشرك، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسلحقتهم مثله، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات، ومعنى ﴿كما يعبد﴾ كما كان يعبد فحذف للدلالة من قبل عليه. ﴿وَإِنَّا لَمُوقِنُونَ﴾ نصيبهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال من النصيب لتقييد التوفية فإنك تقول: وفيه حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة. ﴿لَقَضَيْنَا بِهِنَهُمْ﴾ بإنزال ما يستحقه المبطل لتمييزه عن المحق. ﴿وَوَاتَّهْمُ﴾ وإن كفار قومك. ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من القرآن. ﴿مُرِيبٌ﴾ موقع في الريبة.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وإن كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتونين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل. ﴿لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللام الأولى موطئة لقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد على أن أصله لمن ما فقلبت النون ميماً للادغام، فاجتمعت ثلاث ميقات فحذفت أولاهن، والمعنى لمن الذين يؤفقيهم ربك جزاء أعمالهم. وقرأ لما بالتونين أي جميعاً كقوله: ﴿أَكُلَا لَمَّا﴾ ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا﴾ على أن ﴿إِنْ﴾ نافية و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا وقد قرئ به. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مقوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «شيبني هود». ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي تاب من الشرك والكفر وآمن معك، وهو عطف على المستكن في استقام وإن لم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تخرجوا عما حد لكم. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان.

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الميل اليسير كالتركي بزيهم وتعظيم ذكرهم واستدامته. ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ بركونكم إليهم وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك فما ظنك بالركون إلى الظالمين أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول ﷺ ومن معه



من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفریط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه. وقرئ ﴿تَرْكُؤًا﴾ ﴿فَتِمَسَّكُمْ﴾ بكسر التاء على لغة تميم و ﴿تَرْكُؤًا﴾ على البناء للمفعول من أركنه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من أنصار يمتعون العذاب عنكم والواو للحال. ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقى عليكم، وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجه لهم، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد، فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا ينصرون أصلاً.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ غدوة وعشية وانتصابه على الظرف لأنه مضاف إليه. ﴿وَوُضِعَ مِنَ اللَّيْلِ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قربوه وهو جمع زلفة، وصلاة الغداة صلاة الصبح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار، وصلاة العشية صلاة العصر، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء. وقرئ ﴿زُلْفًا﴾ بضمين وضمة وسكون كبسر وبسر في بسرة و ﴿زُلْفَى﴾ بمعنى زلفة كقربي وقربة. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يكفرنها. وفي الحديث «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» وفي سبب النزول «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال إني قد أصبت من امرأة غير أبي لم أتها فنزلت». ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ وما بعده وقيل إلى القرآن. ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ عظة للمتعتبين.

﴿وَاصْبِرْ﴾ على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدول عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص.

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلا كان. ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل وإنما سمي ﴿بَقِيَّةً﴾ لأن الرجل يستبقى أفضل ما يخرج، ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ويجوز أن يكون مصدراً كالبقية أي ذوو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرئ ﴿بَقِيَّةً﴾ وهي المرة من مصدر بقاء بقاءه إذا راقبه. ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتخصيص. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم واتباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر، وقوله واتبع على معطوف مضمحل عليه الكلام إذا المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا وكانوا مجرمين عطف على ﴿اتَّبَعَ﴾ أو اعتراض. وقرئ ﴿وَاتَّبَعَ﴾ أي واتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال، ويجوز أن تفسر به المشهورة ويعضده تقدم الإنجاء.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ بشرك. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم لا يضمنون إلى شركهم فساداً وتباعياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه ومن ذلك قدم الفقهاء عند تراحم الحقوق حقوق العباد. وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مسلمين كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق والعمدة فيه. وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كان الضمير لـ ﴿الناس﴾ فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان لمن فإلى الرحمة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيد أو قوله للملائكة. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من عصاتهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

﴿وَكُلًّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ نخبرك به. ﴿مَا نُبَيِّنُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكلا أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول ﴿وكُلًّا﴾ منصوب على المصدر بمعنى كل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة أو الأنباء المقتصة عليك. ﴿الْحَقُّ﴾ ما هو حق. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

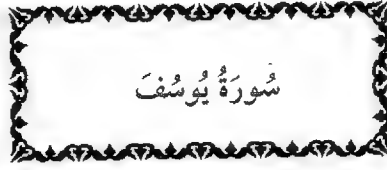
﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اْعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على حالنا.

﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر. ﴿إِنَّا مُتَنَظِّرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ (123)﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة لا يخفى عليه خافية مما فيهما. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه. وقرأ نافع وحفص و ﴿يرجع﴾ على البناء للمفعول. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم فيجازي كل ما يستحقه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر «النمل». عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى».



[مكية، وآياتها إحدى عشرة ومائة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيَّةَ يَأْتِي الْكَتِبُ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ (3) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَبْنَئُ لَكَ نَقْصُ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾

﴿الرَّيَّةَ يَأْتِي الْكَتِبُ الْمُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات السورة وهي المراد بـ «الكتاب»، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهرة أمرها في الإعجاز أو الواضحة معانيها، أو المبينة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوها إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لِمَ أنقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام؟ فنزلت:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب. «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» سمي البعض «قرآناً» لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض وصار علماً للكل بالغلبة، ونصبه على الحال وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي «عربياً» أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول، و «عربياً» صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال وفي كل ذلك خلاف. «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» علة لانزاله بهذه الصفة أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإحياء.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أحسن الاقتصاص لأن اقتص على أبداع الأساليب، أو أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبر فعل بمعنى مفعول كالتقص والسلب، واشتقاقه من قص أثره إذا أتبعه ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي بإيحاءنا. «هَذَا الْقُرْآنُ» يعني السورة، ويجوز أن يجعل هذا مفعول نقص على أن أحسن نصب على المصدر. «وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ» عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تفرح سمعك قط، وهو تعليل لكونه موحى وإن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل من «أحسن القصص» إن جعل مفعولاً بدل الاشتمال، أو منصوب باضممار اذكر و «يوسف» عبري ولو كان عربياً لصرف. وقرئ بفتح السين وكسرهما على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل من أسف لأن المشهورة شهدت بعجمته. «لَأَبِيهِ» يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعنه عليه الصلاة السلام «الكريم ابن الكرم ابن الكرم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم». «يَا أَبَتِ» أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ولذلك

قلبها هاء في الوقف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وكسرها لأنها عوض حرف يناسها، وفتحها ابن عامر في كل القرآن لأنها حركة أصلها أو لأنه كان يا أبنا فحذف الألف وبقي الفتحة، وإنما جاز «يا أبنا» ولم يجز يا أبتي لأنه جمع بين العوض والمعوّض. وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التحويل، وإنما لم تسكن كأصلها لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ ولقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ﴾ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾. روي عن جابر رضي الله تعالى عنه (أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال إذا أخبرتك هل تسلم قال نعم، قال جريان والطارق والذبال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي إني والله إنها لأسماءها) ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير وإنما أجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ تصغير ابن صغرة للشفقة أو لصغر السن لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هنا وفي «الصفات» بفتح الياء. ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، فهم يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، فرق بينهما بحرفي التأنيث كالتقربة والقربى وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملوكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه، وإنما عدى كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعل يتعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعلله بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألوا جهداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (6)

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوّة والملك أو لأمر عظام، والاجتباء من جيب الشيء إذا حصلته لنفسك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك. ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة، وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة. أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء، وهو اسم جمع للحديث كأباطيل اسم جمع للباطل. ﴿وَيُرِيكَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوّة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به سائر بنيّه، ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب أو نسله. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة وقيل على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار وعلى إسحاق بانقاذه من الذبح وفدائه بذبح عظيم. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لأبويك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل الأشياء على ما ينبغي.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّالِفِينَ﴾ (7)

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ﴾ دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، أو علامات نبوتك وقرأ ابن كثير «آية». ﴿لِلْمَسَاكِينِ﴾ لمن سأل عن قصتهم، والمراد بإخوته بنو علته العشرة وهم: يهوذا وروبييل وشمعون ولاوى وزبالون ويشخر ودينه من بنت خالته ليا تزوجها يعقوب أولاً فلما توفيت تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف. وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرماً حينئذ وأربعة آخرون: دان ونفتالي وجاد وأشر من سريتين زلفة وبلهة.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (8)

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين وتخصيصه بالإضافة لاختصاصه بالاخوة من الطرفين. ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ وحده لأن أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه، والمذكر وما يقابله بخلاف أخويه فإن الفرق واجب في المحلي جائز في المضاف. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوىاء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما، والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً سمواً بذلك لأن الأمور تعصب بهم. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لتفضيله المفضل أو لترك التعديل في المحبة. روي أنه كان أحب إليه لما يرى فيه من المخايل وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه، فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُنْصَحُونَ (11) أَرْسَلَهُ مِمَّا غَدَا يَرْتَقِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُعْجِلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ من جملة المحكي بعد قوله إذ قالوا كأنهم اتفقوا على ذلك الأمر إلا من قال «لا تقتلوا يوسف». وقيل إنما قاله شمعون أو دان ورضي به الآخرون.

﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإيهامها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر. والمعنى يصف لكم وجه أبيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا ينازعكم في محبته أحد. ﴿وَتَكُونُوا﴾ جزم بالعطف على «يخل» أو نصب باضمار أن. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد يوسف أو الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه. ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله تعالى عما جنيتهم أو صالحين مع أبيكم بصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ يعني يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً. وقيل روبيل. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم. ﴿وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَةِ الْجُبِّ﴾ في قعره، سمي بها لغيوبته عن أعين الناظرين. وقرأ نافع في «غيايات» في الموضعين على الجمع كأنه لتلك الجب غيايات. وقرئ «غيبه» و «غيايات» بالتشديد. ﴿يَلْتَقِطُ﴾ يأخذه. ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعض الذين يسировون في الأرض. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بمشورتي أو إن كنتم على أن تفعلوا ما يفرق بينه وبين أبيه.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ لم تخافنا عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم، والمشهور «تأمننا»

بالادغام باشمام. وعن نافع بترك الإشمام ومن الشواذ ترك الإدغام لأنهما من كلمتين و «تيمناً» بكسر التاء.

﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿نَزَعَ﴾ تنسع في أكل الفواكه ونحوها من الرتعة وهي الخصب. ﴿وَيَلْعَبُ﴾ بالاستباق والانتضال. وقرأ ابن كثير نرتع بكسر العين على أنه من ارتعى يرتعي ونافع بالكسر والياء فيه وفي «يلعب». وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف. وقرأ «يرتع» من ارتع ماشيته و «يرتع» بكسر العين و «يلعب» بالرفع على الابتداء. ﴿وَأَنَا لَهُ لَخَافُظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لشدة مفارقتة علي وقلة صبري عنه. ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذابة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه، وقد همزها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية الزيدي وأبو عمرو وقفاً وعاصم وابن عامر وحمزة درجاً واشتقاقه من تذابت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار والواو في «ونحن عصابة» للحال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ وعزموا على إلقائه فيها، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بأرض الأردن أو بين مصر ومدين، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب وجواب لما محذوف مثل فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي (أنهم لما برزوا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه فأتوا به إلى البئر، فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردوا علي قميصي أتواري به فقالوا: ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك فلما، بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي) كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة. وقيل كان مراهماً أوحى إليه في صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وفي القصص: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله في تميمة علقها بيوسف فأخرجه جبريل عليه السلام وألبسه إياه ﴿وَلَتُبْنِيَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ لتحدثهم بما فعلوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إنك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للحلى والهيئات، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾. بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له وتطيباً لقلبه. وقيل ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ متصل بـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾ أي أنساه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك.

﴿وَجَاءَ آبَاَهُمْ عَشَاءً يَبْكُونَ﴾ (16)

﴿وَجَاؤُوا آبَاهُمْ عَشَاءً﴾ أي آخر النهار. وقرئ «عشيأ» وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أي عشوا من البكاء. ﴿يَبْكُونَ﴾ متباكين. روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بني وأين يوسف.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ﴾ (17)

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتسابق في العدو أو في الرمي، وقد يشترك الافتعال والتفاعل كانتضال والتناضل. ﴿وَتَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19)﴾

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة وقرىء بالنصب على الحال من الواو أي جاؤوا كاذبين و ﴿كذب﴾ بالدال غير المعجمة أي كدر أو طري. وقيل: أصله البياض الخارج على أظفار الأحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص، وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم إن جوز تقديمها على المجرور. روي: أنه لما سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه. ولذلك ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي سهلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً من السؤل وهو الاسترخاء. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمرى صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل، وفي الحديث «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق». ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صح.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة يسرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريباً من العجب وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه. ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان مالك بن ذعر الخزاعي. ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ فأرسلها في العجب ليملاها فتدلى بها يوسف فلما رآه. ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ نادى البشري بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك. وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه. وقرأ غير الكوفيين «يا بشري» بالإضافة، وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي. وقرأ ورش بين اللفظين وقرىء «يا بشري» بالإدغام وهو لغة و «بشراي» بالسكون على قصد الوقف. ﴿وَأَسَرُّهُ﴾ أي الوارد وأصحابه من سائر الرفقة. وقيل أخفوا أمره. وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وقيل الضمير لإخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا أبق منا فاشتروه، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. ﴿بِضَاعَةً﴾ نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة، واشتقاقه من البضع فإنه ما بضع من المال للتجارة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم وأخيه.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)﴾

﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه، وفي مرجع الضمير الرجحان أو اشتروه من إخوته. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ ببخوس لزيغه أو نقصانه. ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من الثمن. ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة فإنهم يزنون ما بلغ الأوقية ويعدون ما دونها. قيل كان عشرين درهماً وقيل كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿وَكَانُوا فِيهِ﴾ في يوسف. ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ الراغبين عنه والضمير في ﴿وَكَانُوا﴾ إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلأنهم اعتقدوا أنه أبق وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف بينه الزاهدين لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَوْلَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته. وقيل كان فرعون موسى عاش أربعمئة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْنَاتِ﴾. والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف. والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبث في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراه به غير الأول: عشرون ديناراً وزوجاً نعل وثوبان أبيضان. وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً. ﴿لَا مَرَأَتَهُ﴾ راعيل أو زليخا. ﴿أَكْرِمِي مَوْلَاهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً والمعنى أحسني تعهده. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد، ولذلك قيل: أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهم. ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وكما مكنا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجينا عطفنا عليه العزيز مكنا له فيها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمرة تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس، ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها، أو تعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويستغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنه. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ لا يرد شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف أراد به إخوته شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أَرَادَهُ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعته وخفايا لطفه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل، أو حكماً بين الناس. ﴿وَعِلْمًا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء على إحسانه في عمله وإتقانه في عفوان أمره.

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَائِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)﴾

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَائِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها، من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد. ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل كانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أقبل وبادر، أو تهيات والكلمة على الوجهين اسم فعل بني على الفتح كآين واللام للتبيين كالتي في سقيا لك. وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيهاً له بحيث، ونافع وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعيط. وقرأ هشام كذلك إلا أنه يهزم. وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه. وقرئ ﴿هَيْتَ﴾ كجبر و«هئت» كجئت من هاء يهيم إذا تهيا وقرئ هيت وعلى هذا فاللام من صلته. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً. ﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأن. ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ سيدي قطفير أحسن تعهدي إذ قال لك في ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله. وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطف على قلبه فلا



أعصيه. ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ المجازون الحسن بالسيء. وقيل الزناة فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأهله.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُخْلِصِينَ (24)﴾

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ وقصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهم بالشئ قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي إذا هم بالشئ أمضاه، والمراد بهم عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشاركة الهم كقولك قتله لو لم أخف الله. ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالطها لشبق الغلظة وكثرة المغالبة، ولا يجوز أن يجعل وهم بها جواب لولا فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابها، بل الجواب محذوف يدل عليه. وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام. وقيل تمثل له يعقوب عاضاً على أنامله. وقيل قطفير. وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل التثبيت ثبته، أو الأمر مثل ذلك. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوَّ﴾ خيانة السيد. ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ الزنا. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام أي الذين أخلصوا دينهم لله.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ

يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)﴾

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحذف الجار أو ضمن الفعل معنى الابتدار. وذلك أن يوسف فر منها ليخرج وأسرع وراءه لتمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ اجتذبه من ورائه فانقد قميصه والقد الشق طولاً والقط الشق عرضاً. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفا زوجها. ﴿لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيهاماً بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييره على يوسف وإغراء به انتقاماً منه، و﴿مَا﴾ نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن.

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ (26)﴾

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ طالبتني بالمؤاتاة، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم، ولو لم تكذب عليه لما قاله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل ابن عم لها. وقيل ابن خال لها صبياً في المهد. وعن النبي ﷺ «تكلم أربعة صغاراً ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام» وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون أزم عليها. ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدافع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيبه.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27)﴾

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقذته. والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول، وتسميتها شهادة لأنها أدت

مؤداها والجمع بين إن وكان على تأويل أن يعلم أنه كان ونحوه ونظيره قولك: إن أحسنت إليَّ اليوم فقد أحسنت إليك من قبل، فإن معناه أن تمنن علي بإحسانك أمتن عليك بإحساني لك السابق. وقرئ ﴿من قبل﴾ ﴿ومن دبر﴾ بالضم لأنهما قطعاً عن الإضافة كقبل وبعد، وبالفتح كأنهما جعلاً علمين للجھتين فمنعاً الصرف وبسكون العين.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (28) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْتُمْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَفْعَلَنَّ وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الْصَّاعِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)﴾

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوء﴾ أو إن السوء أو إن هذا الأمر. ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلتكن والخطاب لها ولأمثالها أو لسائر النساء. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإن كيد النساء ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشیطان يوسوس به مسارقة.

﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتفطنه للحديث. ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يا راعيل. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من القوم المذنبين من خطيء إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسم لجمع امرأة وتأتي بهذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جرد فعله وضم النون لغة فيها. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أي أشعن الحكاية في مصر، أو صفة نسوة وكن خمساً وزوجة الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب. ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ تطلب مواقع غلامها إياها. و ﴿العزیز﴾ بلسان العرب الملك وأصل فتى فتى لقولهم فتیان والفتوة شاذة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابها حتى وصل إلى فؤادها حباً، ونصبه على التمييز لصرف الفعل عنه. وقرئ ﴿شَغَفَهَا﴾ من شغف البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن، وإنما سماه مكرراً لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو قلن ذلك لتريهن يوسف أو لأنها استكتمتهن سرها فأفشيته عليها. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ ما يتكنن عليه من الوسائد. ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكنن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يبهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيبكتن بالحجة، أو يهاب يوسف مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر. وقيل متكاً طعاماً أو مجلس طعام فإنهم كانوا يتكثون للطعام والشراب ترفاً ولذلك نهى عنه. قال جميل:

فَطَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَاتَّكَأْنَا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلْلِهِ

وقيل المتكأ طعام يحز حزاً كأن القاطع يتكأ عليه بالسكين. وقرئ ﴿متكاً﴾ بحذف الهمزة و

﴿مَتَكَا﴾ بإشباع الفتحة كمنتزح و ﴿مَتَكَا﴾ وهو الأترج أو ما يقطع من متك الشيء إذا بتكه و ﴿مَتَكَا﴾ من تكى يتكأ إذا اتكأ. ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ عظمته وهين حسنه الفائق. وعن النبي ﷺ «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر» وقيل كان يرى تالؤ وجهه على الجدران. وقيل أكبرن بمعنى حضن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبر بالحض، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي:

خَفَّ اللَّهَ وَاسْتُرَ ذَا الْجَمَالِ بِسَرَقِ فَإِنْ لَحَتْ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ  
﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة. ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله، وأصله «حاشا» كما قرأه أبو عمرو في الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك سقيا لك. وقرئ «حاش الله» بغير لام بمعنى براءة الله، و «حاشا لله» بالتثنية على تنزيه منزلة المصدر. وقيل «حاشا» فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه. ﴿وَمَا هَذَا بِشَرًّا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال. وقرئ «بَشْرًا» بالرفع على لغة تميم و «بشرى» أي بعبد مشترى لثيم. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا الملك.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني في الافتتان به قبل أن تصوره حق تصوره، ولو تصورته بما عاينت لعذرنتني أو فهذا هو الذي لمتني فيه فوضع ذلك موضع هذا رفعا لمنزلة المشار إليه. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فامتنع طلباً للعصمة، أفرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته. ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرُهُ﴾ أي ما أمر به، فحذف الجار أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف. ﴿لِيُشْجِنَ وَلِيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ من الازلء وهو من صغر بالكسر يصغر صغراً وصغاراً والصغير من صغر بالضم صغراً. وقرئ «ليكونن» وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالألف لـ «نسفعاً» على حكم الوقف وذلك في الخفيفة لشبهها بالتثنية.

﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر. ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي أثر عندي من مؤاتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشبهه النفس وذلك مما تكرهه، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوفنه من مخالفتها وزين له مطاوعتها. أو دعونه إلى أنفسهن، وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر. ﴿وَالَا تَصْرَفْ عَنِّي﴾ وإن لم تصرف عني. ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إلي وتحسينه عندي بالتثيت على العصمة. ﴿أَصْبُ إِلَيْنَّ﴾ أمل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تستطيعها وتميل إليها. وقرئ «أصب» من الصباة وهي الشوق. ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْبَاهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعملون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (34)

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: ﴿وَالَا تَصْرَفْ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فثبتة بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة والمتضمنة للعصيان. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُئُهُ حَتَّىٰ حِينٍ (35)﴾

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ ثم ظهر للعزير وأهله من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن وفاعل ﴿بَدَأْ﴾ مضمرة يفسره. ﴿لَيْسَ جُذُئُهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين. وقرىء بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيز على التعظيم أو العزيز ومن يليه، وعنى بلغة هذيل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)﴾

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ أي أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ أخران من عبيد الملك شراييه وخبازه للاتهام بأنهما يريدان أن يسماه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ يعني الشراييه. ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أي في المنام وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنياً وسماء خمرأ باعتبار ما يؤول إليه. ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ أي الخباز. ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش منه. ﴿نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين وإنما قالوا ذلك لأنهما رأياه في السجن يذكر الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37)﴾

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتأويل ما قصصتما عليّ، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدتهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه كما هو طريقة الأنبياء والنازلين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلها على صدقه في الدعوة والتعير. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا﴾ أي ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهّن أو التنجيم. ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ تعليل لما قبله أي علمني ذلك لأنني تركت ملة أولئك.

﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي وَإِذْ هُمْ نَاسِكُونَ فَاسْتَحَقُّوا وَعِقَابَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا

وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)﴾

﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبراهيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلام مبتدأ لتمهيد الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جوز للخامل أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه، وتكرير الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأكيدهم كفرهم بالآخرة. ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء. ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان. ﴿ذَلِكَ﴾ أي التوحيد. ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس نبعثنا لإرشادهم وتثبيتهم عليه. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ المبعوث إليهم. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا الفضل فيعرضون عنه ولا يتنبهون، أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

﴿يَصْلَحِي السَّجْنَ أَبْرَابُ مَنَفَرُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)﴾

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ﴾ أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله:

يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ.

﴿أَرْيَاكَ مُتَعَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام. ﴿خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالالوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (40)

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر. ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أسام أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة. والمعنى أنكم سميتم ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾ ما الحكم في أمر العبادة. ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجد لكل والمالك لأمره. ﴿أَمَرَ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم، وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الآلهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين متنف عنها، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيخطئون في جهالاتهم.

﴿يُصْنِئِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَبِئْسَ الْأَمْرُ

الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (41)

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ﴾ يعني الشرابي. ﴿فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه قبل ويعود إلى ما كان عليه. ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ يريد به الخباز. ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فقالا كذبنا فقال ﴿فَبِئْسَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وحده، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أرادا استبانة عاقبة ما نزل بهما.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ

بِضْعَ سِنِينَ﴾ (42)

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ الظان يوسف إن ذكر ذلك عن اجتهد وإن ذكره عن وحي فهو الناجي إلا أن يؤول الظن باليقين. ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند الملك كي يخلصني. ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ فأنسى الشرابي أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملاسته له أو على تقدير ذكر أخبار ربه، أو أنسى يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس». والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محموددة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. ﴿فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع من البضع وهو القطع.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ

يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا بَاقِيًا ﴿43﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ لما دنا فرجه رأى الملك سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات مهازيل فابتلعت المهازيل السمان. ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ﴾ قد انعقد حبها. ﴿وَأُخْرَى يَابَسَاتٍ﴾ وسبعاً آخر يابسات قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبت عليها، وإنما استغنى عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجرى السمان على المميز دون المميز لأن التمييز بها ووصف السبع المثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف فإنه لبيان الجنس، وقياسه عجف لأنه جمع عجفاء لكنه حمل على «سمان» لأنه نقيضه. ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ عبروها. ﴿إِنْ كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيراً باللام للبيان أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أخر عن مفعوله ضعف فقوي باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن «تعبرون» معنى فعل يعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا.

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ﴿44﴾

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليطها جمع ضغث وأصله ما جمع من أخلاط النبات وحزم فاستعير للرؤيا الكاذبة، وإنما جمعوا للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة فهو كأنه مقدمة ثانية للتعذر في جهلهم بتأويله.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿45﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الشرابي. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة. وقرىء «إمة» بكسر الهمزة وهي النعمة أي بعدما أنعم عليه بالنجاة، وأمه أي نسيان يقال أمه يأمه أمها إذا نسي، والجملة اعتراض ومقول القول. ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابَسَاتٍ﴾ ﴿46﴾

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي فأرسل إلى يوسف فجاءه فقال يا يوسف، وإنما وصفه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جرب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابَسَاتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك. ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إذا قيل إن السجن لم يكن فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبت الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع وربما اخترم دونه ولا يعلمهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿47﴾

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على عادتك المستمرة وانتصابه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدر بإضمار فعله أي تدأبون دأباً وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص «دأباً» بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل. وقيل «تزرعون» أمر أخرجه في صورة الخبر مبالغة لقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾

لثلا يأكله السوس، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ﴾ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ (49) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتُمُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟ فَلَبَّ حَسْبَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ أَسْتَخْضُصُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54)﴾

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهلهم ما ادخرتم لأجلهم فأسند إليهم على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ﴾ تحززون لبذور الزراعة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يمتطرون من الغيث أو يغاثون من القحط من الغوث. ﴿وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾ ما يعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار. وقيل يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على تغليب المستفتي، وقرئ على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يغنيهم الله ويغيث بعضهم بعضاً، أو من أعصرت السحابة عليهم فعدي بنزع الخافض أو بتضمينه معنى المطر. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول البقرات السماء والسنبيلات الخضرة بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السماء بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله علم ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجذب بالخصب، أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعدما ضيق عليهم: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه. ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تأتي في الخروج وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته ويعلم أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوكل به إلى تقبيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها. وعن النبي ﷺ «لو كنت مكانه وليت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة» وإنما قال فاسأله ما بال النسوة ولم يقل فاسأله أن يفتش عن حالهن تهييجاً له على البحث وتحقيق الحال، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرمًا ومراعاة للأدب وقرئ ﴿النِّسْوَةِ﴾ بضم النون. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قلن لي أطع مولاتك، وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن والخطب أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَوَدْتُمُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ثبت واستقر من حصحص البعير إذا ألقى مباركة ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ فِي صُمِّ الصَّفَا ثَقْنَاتِهِ وَنَاءَ بِسَلْمَى نَوَاءً ثُمَّ صَمَمَا

أو ظهر من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه. وقرئ على البناء للمفعول. ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن أي ذلك الثبوت ليعلم العزيز. ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عني أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار

والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغة. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجها وتوكيد لأمانته ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق. وعن ابن عباس أنه لما قال: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل ولا حين هممت فقال: ذلك. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوءِ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات. ﴿إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. وعن ابن كثير ونافع ﴿بِالسُّوءِ﴾ على قلب الهمزة وأواً ثم الادغام. ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر هم النفس ويرحم من يشاء بالعصمة أو يغفر للمستغفر لذنبه العترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَشْتَخِطُّهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسي. ﴿فَلَمَّا كَلَمَهُ﴾ أي فلما أتوا به فكلّمه وشاهد منه الرشد والدعاء. ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية فقال الملك: ما هذا اللسان قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلّمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه أمره. وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدتها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ (55)

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولني أمرها والأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لها ممن لا يستحقها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيه، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة أثر ما تعم فوائده وتجل عوائده، وفيه دليل على جواز طلب التولية وإظهار أنه مستعد لها والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد أن الملك أسلم على يده.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (56) وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَجْرِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي (60)

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر. ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ينزل من بلادها حيث يهوى وقرأ ابن كثير «نشاء» بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وأجلاً. ﴿وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجذبة وعم القحط مصر والشأم ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدرهم والدنانير حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم



برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك فأعتقهم ورد عليهم أموالهم، وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب بنيه - غير بنيامين - إليه للميرة. ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي عرفهم يوسف ولم يعرفوه لطول العهد ومفارقتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه، وتوهمهم أنه هلك وبعد حاله التي رآوه عليها من حاله حين فارقه وقلة تأملهم في حلاه من التهيب والاستعظام.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتهم وأوفر ركابتهم بما جاؤوا لأجله، والجهاز ما يعد من الأمتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما ترف به المرأة إلى زوجها وقرىء ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ بالكسر. ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما أمركم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم ها هنا قالوا عشرة، قال: فأين الحادي عشر؟ قالوا: عند أبينا يتسلى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم. قالوا: لا يعرفنا أحد ها هنا فيشهد لنا قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة واثوني بأخيك من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا فأصاب شمعون. وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حملاً فسأله حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أتمه. ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا ديارى، وهو إما نهي أو نفي معطوف على الجزاء.

﴿قَالُوا سَرَوْهُ وَعَنَّا أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاطُونَ﴾ (61)

﴿قَالُوا سَرَوْهُ وَعَنَّا أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه. ﴿وَإِنَّا لَفَاطُونَ﴾ ذلك لا نتوانى فيه.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُصَرِّفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (62)

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾ لغلمان الكيالين جمع فتى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «لفتيانه» على أنه جمع الكثرة ليوافق قوله: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وكل بكل رحل واحداً يعني فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام، وكانت نعالاً وأدماء وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به. ﴿لَعَلَّهُمْ يُصَرِّفُونَهَا﴾ لعلهم يعرفون حق ردها. أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ انصرفوا ورجعوا. ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (63)

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ حكم بمنعه بعد هذا إن لم نذهب ببنيامين. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتيالنَا. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (64)

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ فأتوكل عليه وأفوض أمري إليه، وانتصاب «حفظاً» على التمييز و«حافظاً» على قراءة

حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله: لله دره فارساً، وقرئ ﴿خير حافظ﴾ و «خير الحافظين». ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فارجوا أن يرحمني بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (65)

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ ﴿رُدَّتْ﴾ بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نقلها في بيع وقيل. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا. أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه. وقرئ «ما نبغي» على الخطاب أي: أي شيء نطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الدليل على صدقنا؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضح لقوله ﴿ما نبغي﴾. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وسق بعير باستصحاب أخينا، هذا إذا كانت ﴿ما﴾ استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجملة معطوفة على ﴿ما نبغي﴾، أي لا نبغي فيما نقول ﴿ونمير أهلنا ونحفظ أخانا﴾. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل لا يكفيننا، استقلوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك ولا يتعاضمه، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه، إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (66) وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقَكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَمُقُوبُ فَضْنَهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَنَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْكَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73)﴾

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت. ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي عهداً مؤكداً بذكر الله. ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتني به. ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك أو إلا أن تهلكوا جميعاً وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير: لتأتني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتني به، في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم: أقسمت بالله إلا فعلت، أي ما أطلب إلا فعلك. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه. ﴿وَكَيْلٌ﴾ رقيب مطلع.

﴿وَقَالَ يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة

مشتهرين في مصر بالقرية والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا، ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عودته «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة». ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر. ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضى عليكم سوء ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لافادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ رأي يعقوب واتباعهم له. ﴿مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام. فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحلة وتضاعفت المصيبة على يعقوب. ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة في نفسه، يعني شفقتهم وحرارته من أن يعانوا. ﴿قَضَاهَا﴾ أظهرها ووصى بها. ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لَمَّا عَلِمْنَاهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولم يغتر بتدبيره. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل روي: (أنه أضافهم فأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، قال: من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبَشِّرْ﴾ فلا تحزن افتعال من البؤس. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في حقنا فيما مضى.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ المشربة. ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به وقيل. كانت تسقى الدواب بها ويكال بها وكانت من فضة. وقيل من ذهب وقرىء و «جعل» على حذف جواب فلما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد. ﴿أَتَيْنَا الْعِيرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام أو كان تعبئة السقاية والنداء عليها برضا بنيامين. وقيل معناه إنكم لسارقون يوسف من أبيه أو أأنكم لسارقون، والعرير القافلة وهو اسم الابل التي عليها الأحمال لأنها تعبر أي تتردد، فقيل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام «يا خيل الله اركبي». وقيل جمع عير وأصله فعل كسقف فعل به ما فعل ببيض تجوز به لقافلة الحمير، ثم استعير لكل قافلة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ أي شيء ضاع منكم، والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه، وقرىء «تفقدون» من أفقده إذا وجدته فقيداً.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ وقرىء «صاع» و «صوع» بالفتح والضم والعين والغين و «صواع» من الصياغة. ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جعلاً له. ﴿وَأَنَا بِهِ رَعِيمٌ﴾ كفيل أؤذيه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعالة وضممان الجعل قبل تمام العمل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب، التاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك مما يدل على فرط أمانتهم كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم وكعم الدواب لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (74)

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ فما جزاء السارق أو السرقة أو الـ ﴿صواع﴾ على حذف المضاف. ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (75)

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله واسترقاقه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم والزام له، أو خبر ﴿من﴾ والفاء لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر ﴿جَزَاؤُهُ﴾ على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بالسرقة.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (76)

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ فبدأ المؤذن. وقيل يوسف لأنهم ردوا إلى مصر. ﴿قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين نفياً للتهمة. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث. ﴿مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ وقرئ بضم الواو وبقلها همزة. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الكيد. ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ملك مصر لأن دينه الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق وهو بيان للكيد. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، فلا استثناء من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه، واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه. والجواب أن المراد كل ذي علم من الخلق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (77)

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتجه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها فتفحص عنها فوجدت محزومة عليه فصارت أحق به في حكمهم. وقيل كان لأبي أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه في الجيف. وقيل كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاه السائل. وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب. ﴿فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أكنها ولم يظهرها لهم، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه وقيل إنها كناية بشرطة التفسير يفسرها قوله: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ فإنه بدل من أسرها. والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه، وتأنيثها باعتبار الكلمة أو الجملة، وفيه نظر إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي في السن أو القدر، ذكروا له حاله استعطافاً له عليه.

﴿فَخَذَ أَخَذَنَا مَكَانَهُ﴾ بدله فإن أباه ثكلان على أخيه الهالك مستأنس به. ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتهم إحسانك، أو من المتعودين بالإحسان فلا تغير عاداتك.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ (79)

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ فإن أخذ غيره ظلم على فتواكم فلو أخذنا أحدهم مكانه. ﴿إِنَّا إِذَا لَظَالِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، وإن مراده إن الله أذن في أخذ من وجدنا الصاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذت غيره كنت ظالماً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِیَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (80)

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾ يشوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة. ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا واعتزلوا. ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنته كما قيل هو صديق، وجمعه أنجيه كندي وأندية. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو شمعون وقيل يهوذا. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ عهداً وثيقاً، وأما جعل حلفهم بالله موثقاً منه لأنه يآذن منه وتأکید من جهته. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ ومن قبل هذا. ﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصرتم في شأنه، و ﴿مَا﴾ مزيدة ويجوز أن تكون مصدرية في موضع النصب بالعطف على مفعول تعلموا، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، أو على اسم ﴿أَنْ﴾ وخبره في ﴿يُوسُفَ﴾ أو ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أو الرفع بالابتداء والخبر ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفيه نظر، لأن ﴿قَبْلُ﴾ إذا كان خبراً أو صلة لا يقطع عن الإضافة حتى لا يتقص وأن تكون موصولة أي: ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه من الجناية ومحلّه ما تقدم. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر. ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع. ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم أو بالمقاتلة معهم لتخليصه. روي: أنهم كلموا العزيز في إطلاقه فقال روبيل: أيها الملك والله لتتركنا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم إلى جنبه فمسه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخر ذهب غضبه. فقال روبيل من هذا إن في هذا البلد لبرراً من بزر يعقوب. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (81)

﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر. وقرئ ﴿سَرَقَ﴾ أي نسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه. ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ بأن رأينا أن الصواع استخرج من وعائه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لباطن الحال. ﴿حَافِظِينَ﴾ فلا ندري أنه سرق الصواع في رحله، أو وما كنا للعواقب عالمين فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف.

﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (82)

﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادي فيها، والمعنى أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة. ﴿وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير التي توجهنها فيهم وكنا معهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد في محل القسم.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (83)

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت وسهلت. ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أردتموه فقدرتموه، وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقة. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يوسف وبنيامين وأخيها الذي توقف بمصر. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبيرهم.

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفُ وَأَبِئْتَصَّ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (84)

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما صادف منهم. ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَيَّ يُوسُفُ﴾ أي يا أسفاً تعال فهذا أوانك، والأسف أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، وإنما تأسف على يوسف دون أخويه والحادثة رزؤهما لأن رزاه كان قاعدة المصيبات وكان غصاً أخذاً بمجامع قلبه، ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته، وفي الحديث: «لم تعط أمة من الأمم» إنا لله وإنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ. ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال ﴿يَا أَسَفَا﴾. ﴿وَأَبِئْتَصَّ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ لكثرة بكائه من الحزن كان العبرة محقت سوادهما. وقيل ضعف بصره. وقيل عمي، وقرئ ﴿من الحزن﴾ وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ من كظم السقاء إذا شده على ملئه، أو بمعنى فاعل كقوله: ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾ من كظم الغيظ إذا اجترعه، وأصله كظم البعير جرفته إذا ردها في جوفه.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْسَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (85)

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْسَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فحذف لا كما في قوله:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحَ قَاعِداً

لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي. ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ مريضاً مشفياً على الهلاك. وقيل الحرص الذي أذابه هم أو مرض، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يجمع والنعت بالكسر كدنف ودنف. وقد قرئ به وبضمين كجنب. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ من الميتين.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (86)

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه من البت بمعنى النشر. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فخلوني وشكايتي. ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾ من صنعه ورحمته فإنه لا يخيب داعيه ولا يدع الملتجئ إليه، أو من الله بنوع من الإلهام. ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف. قيل رأى ملك الموت في المنام فسأله عنه فقال هو حي. وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يخر له إخوته سجداً.

﴿ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الكَافِرُونَ ﴾ (87)

﴿يَا بَنِي آدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما والتحسس نطلب الإحساس. ﴿وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ ولا تقنطوا من فرجه وتنفيه. وقرىء ﴿مَنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ أي من رحمته التي يحيي بها العباد. ﴿إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وصفاته فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزْجَاةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (88)

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ بعدما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ شدة الجوع. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزْجَاةٍ مُزْجَاةٍ﴾ رديئة أو قليلة ترد وتدفع رغبة عنها، من أزوجيته إذا دفعته ومنه تزجية الزمان. قيل كانت دراهم زيوفاً وقيل صوفاً وسمناً. وقيل الصنوبر والحبة الخضراء. وقيل الأقط وسويق المقل. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فأنم لنا الكيل. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أخينا أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها. واختلف في أن حرمة الصدقة تعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبيينا ﷺ. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء والتصدق التفضل مطلقاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». لكنه اختص عرفاً بما يتبني به ثواب من الله تعالى.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (89)

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي هل علمتم قبحه فبتسم عنه وفعلهم بأخيه إفراده عن يوسف وإذلاله حتى لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقبته، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكهم لا معاتبة وتثريباً. وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخلص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك، وإنما جهلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حينئذ صيائناً طياشين.

﴿قَالُوا أَوَ لَئِكَ يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (90)

﴿قَالُوا أَوَ لَئِكَ يُوْسُفَ﴾ استفهام تقرير ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل تبسم فعرفوه بثناياه. وقيل رفع التاج عن رأسه فأروا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا يُوْسُفَ وَهَذَا أَخِي﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بالسلامة والكرامة. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي يتق الله. ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (91)

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ والحال أن شأننا إنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

﴿قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (92)

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تأنيب عليكم تفعليل من الثرب وهو الشحم الذي يغشى الكرش للإزالة كالتجليد، فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه. ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلق بالـ ﴿تَثْرِيبَ﴾ أو بالمقدر للجار الواقع خبراً للـ ﴿تَثْرِيبَ﴾ والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظهره فما ظنكم بسائر الأيام أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حينئذ واعترفوا بها. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، ومن كرم يوسف عليه الصلاة والسلام أنهم لما عرفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال إن أهل مصر كانوا ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت بكم وعظمت في عيونهم حيث علموا أنكم إخواني وأني من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (93)

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ القميص الذي كان عليه. وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعويذ. ﴿فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بنسائكم وذرائعكم ومواليكم.

﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (94)

﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ﴾ من مصر وخرجت من عمرانها. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح ما عبق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتي. وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف تقديره لصدقتموني أو لقلت إنه قريب.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96)

﴿قَالُوا﴾ أي الحاضرون. ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للاقائه.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يهوذا. روي: أنه قال كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأفرحه بحمل هذا إليه. ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه الصلاة والسلام أو يعقوب نفسه. ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام، وإنزال الفرح. وقيل إني أعلم كلام مبتدأ والمقول ﴿لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾، أو ﴿أني لأجد ريح يوسف﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (97)

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (98) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ

وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ (99)

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخره إلى السحر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة



الجمعة تحريماً لوقت الإجابة، أو إلى أن يستحل لهم من يوسف أو يعلم أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة. ويؤيده ما روي أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين حتى نزل جبريل وقال إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد موافقهم بعدك على النبوة وهو أن صح فدلّيل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ روي أنه وجه إليه راحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسف والملك بأهل مصر وكان أولاده الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمي. ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما نزلها منزلة الأم تنزيل العم منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَبَانُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه والرابية تدعى أمّاً ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ من القحط وأصناف المكاره، والمشيمة متعلقة بالدخول المكيف بالأمن والدخول الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبلهم.

﴿وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100)﴾

﴿وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها. وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً. وقيل الضمير لله تعالى والواو لأبويه وإخوته والرفع مؤخر عن الخور وإن قدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما. ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ التي رأيتها أيام الصبا. ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذَا أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر الحب لثلاث يكون تريباً عليهم. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو. ﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أفسد بيننا وحرش، من نزغ الرائض الدابة إذا نخسها وحملها على الجري. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لطيف التدبير له إذا ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بوجود المصالح والتدابير. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة. روي: أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال: أمرني جبريل عليه السلام قال: أو ما تسأله قال: أنت أبسط مني إليه فأسأله فقال جبريل: الله أمرني بذلك. لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ قال فهلا خفتني.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)﴾

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ الكتب أو الرؤيا، ومن أيضاً للتبعيض لأنه لم يؤت كل التأويل. ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما وانتصابه على أنه صفة المنادى أو منادى برأسه. ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ ناصرٍ ومتولي أمري. ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ اقضني. ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي أو بعامه الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمة ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تافت نفسه إلى الملك المخلد فتمنى الموت فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في

صندوق من مرمر ويدفنه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه، ثم نقله موسى عليه الصلاة والسلام إلى مدفن آبائه وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل افرائيم وميشا وهو جد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (102)

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه الصلاة والسلام، والخطاب فيه للرسول ﷺ وهو مبتدأ. ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كالدليل عليهما والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فعلمته منه، وإنما حذف هذا الشق استغناء بذكره في غير هذه القصة كقوله: ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (103)

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات عليهم. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (104)

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جعل كما يفعله حملة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عامة.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (105)

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ﴾ وكم من آية. والمعنى وكأي عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات ويشاهدونها. ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقرئ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿يَمُرُّونَ﴾، فيكون لها الضمير في ﴿عليها﴾ والنصب على ويطؤون الأرض. وقرئ و ﴿الْأَرْضِ يمشون عليها﴾ أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ (106)

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته. ﴿إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحيار أرباباً. ونسبة التثني إليه تعالى، أو القول بالنور والظلمة أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك. وقيل الآية في مشركي مكة. وقيل في المنافقين. وقيل في أهل الكتاب.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (107)

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم. ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (108)

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد ولذلك فسر السبيل بقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وقيل هو حال من الياء. ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء. ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في

﴿ادْعُو﴾ أو ﴿على بصيرة﴾ لأنه حال منه أو مبتدأ خبره ﴿على بصيرة﴾. ﴿وَمَنْ اتَّبَعِي﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزهه تنزيهاً من الشركاء.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (109)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ رد لقولهم ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ وقيل معناه نفي استنباء النساء ﴿يُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كما يوحى إليك ويميزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص ﴿نوحى﴾ في كل القرآن ووافقه حمزة والكسائي في سورة «الأنبياء». ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين بالرسول والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهاكين عليها فيقلعوا عن حبها. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ولداد الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملاً على قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (110)

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ غاية محذوف دل عليه الكلام أي لا يغرهم تمادي أيامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى آيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع. ﴿وَوَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أي كذبتم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو كذبهم القوم بوعده الإيمان. وقيل الضمير للمرسل إليهم أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للمرسل أي وظنوا أن الرسل قد كذبوا وأخلفوا فيما وعد لهم من النصر وخلط الأمر عليهم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن الرسل ظنوا أنهم أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، إن صح فقد أراد بالظن ما يهيجس في القلب على طريق الوسوسة. هذا وأن المراد به المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل. وقرأ غير الكوفيين بالتشديد أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوعدوهم. وقرئ ﴿كذبوا﴾ بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به عند قومهم لما تراخى عنهم ولم يروا له أثراً. ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ﴾ النبي والمؤمنين وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون إن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول وقرئ فتنجا ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾ إذ نزل بهم وفيه بيان للمشيئين ﴿لقد كان في قصصهم﴾ في قصص الأنبياء وأمهم أو في قصة يوسف وإخوته. ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول - المبرأة من شوائب الإلف والركون إلى الحس. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يُفْتَرَى. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ ينال بها خير الدارين. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقونه. وعن النبي ﷺ «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً».

## سورة الرعد

[ مدنية ] وقيل مكية إلا قوله : ﴿ويقول الذين كفروا... الآية﴾ وهي ثلاث وأربعون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْءُ لَكُمْ آيَةٌ أَلَيْسَ الْكِتَابُ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1)﴾

﴿المرء﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى . ﴿تلك آيات الكتاب﴾ يعني بالكتاب السورة و ﴿تلك﴾ إشارة إلى آياتها أي : تلك الآيات آيات السورة الكاملة أو القرآن . ﴿والذي أنزل إليك من ربك﴾ هو القرآن كله ومحله الجبر بالعطف على ﴿الكتاب﴾ عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى ، أو الرفع بالابتداء وخبره ﴿الحق﴾ والجملة كالحجة على الجملة الأولى ، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزل بكونه حقاً فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً ، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزل بحسن اتباعه . ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلَاءٌ رَّبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدأ وخبر ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر ﴿يدبر الأمر﴾ . ﴿بغير عمد﴾ أساطين جمع عماد كإهاب وأهب ، أو عمود كأديم وأدم وقرىء ﴿عمد﴾ كرسل . ﴿ترونها﴾ صفة لـ ﴿عمد﴾ أو استئناف للاستشهاد بروبيتهم السموات كذلك ، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصص ليس بجسم ولا جسماني يرجح بعض الممكنات على بعض بإرادته وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات . ﴿ثم استوى على العرش﴾ بالحفظ والتدبير . ﴿وسحّر الشمس والقمر﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها . ﴿كلٌّ يجري لأجل مسمى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره ، أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره وهي ﴿إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت﴾ . ﴿يدبر الأمر﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك . ﴿يفصل الآيات﴾ ينزلها وبينها مفصلة أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد . ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ لكي تتفكروا فيها وتحققوا كمال قدرته فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها قدر على الإعادة والجزاء .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْسِينَ أَنْثِينَ يُغَشَّى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)﴾

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام ويتقلب عليها الحيوان . ﴿وجعل فيها رواسي﴾ جبلاً ثوابت من رسا الشيء إذا ثبت ، جمع راسية والتاء للتأنيث على أنها صفة أجبل أو

للمبالغة. ﴿وَأَنْهَارًا﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جمع أنواع الثمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض والصغير والكبير. ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ يلبسه مكانه فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يُغْشَى﴾ بالتشديد. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فإن تكوتها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمرها وهياً أسبابها.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْآكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (4) ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِيهِمْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (5)

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ﴾ بعضها طيبة وبعضها سبخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث أنها متضامة متشاركة في النسب والأوضاع. ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزرع، وتوحيد الزرع لأنه مصدر في أصله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿وَجَنَّاتٌ﴾. ﴿صِنَوَانٌ﴾ نخلات أصلها واحد. ﴿وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ متفرقات مختلفات الأصول. وقرأ حفص بالضم وهو لغة بني تميم كـ ﴿قَنَوَانٌ﴾ في جمع قنو. ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْآكُلِ﴾ في التمر شكلاً وقدرًا ورائحة وطعمًا، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب «يسقى» بالتذكير على تأويل ما ذكر، وحمزة والكسائي يفضل بالياء ليطابق قوله ﴿يدبر الأمر﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ يا محمد من إنكارهم البعث. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيق بأن يتعجب منه فإن من قدر على إنشاء ما قص عليك كانت الإعادة أيسر شيء عليه، والآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته. ﴿أَيُّدًا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له، والعامل في إذا محذوف دل عليه: ﴿أَنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث. ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون بالضلال لا يرجى خلاصهم أو يغفلون يوم القيامة. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّأَنَابٍ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6)

﴿وَيَسْتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبل العافية، وذلك لأنهم استعجلوا ما هددوا به من عذاب الدنيا استهزاء. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها ولم يجوزوا حلول مثلها عليهم، والمثلة بفتح الثاء وضمتها كالصدقة والصدقة، العقوبة لأنها مثل المعاقب عليه، ومنه المثل للقصاص وأمثلت الرجل من صاحبه إذا اقتصصته منه. وقرئ ﴿المثلات﴾ بالتخفيف و ﴿المثلات﴾ بإتباع الفاء العين و ﴿المثلات﴾ بالتخفيف بعد الإتيان، و ﴿المثلات﴾ بفتح الثاء على أنها جمع

مثلة كركبة وركبات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسهم، ومحلّه النصب على الحال والعامل فيه المغفرة والتقيد به دليل على جواز العفو قبل التوبة، فإن التائب ليس على ظلمه، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة لمجتنب الكبائر، أو أول المغفرة بالستر والإمهال. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للكفار أو لمن شاء، وعن النبي ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه لما هنا أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لا نكل كل أحد».

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8)﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام. ﴿إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات لا بما يقترح عليك. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو الله تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاء هدايته بما ينزل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم ينزل لعلمه بأن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهدهم لسبق قضائه عليهم بالكفر فقال:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ أي حملها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمتروكة. ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وما تنقصه وما تزداده في البنة والمدة والعدد، وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا وخمس عند مالك وستان عند أبي حنيفة. روي أن الضحاك ولد لستين وهرم ابن حيان لأربع سنين وأعلى عدده لا حد له. وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله أخبرني شيخ باليمن أن امرأته ولدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده، وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد قال تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ فإن جعلتهما لازمين تعين إما أن تكون مصدرية. وإسنادهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر لا يجاوز ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين، وهما له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿هَادٍ﴾ ﴿وَوَالٍ﴾ و ﴿وَوَاقٍ﴾ ﴿وما عند الله باقي﴾ بالتثنية في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يصلون بالتثنية ويقفون بغير ياء.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)﴾

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاضر له. ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)﴾

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ لغيره. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ طالب للخفاء في مختبأ بالليل. ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز. ﴿بِالنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد من سرب سروباً إذا برز، وهو عطف على من أو مستخف على أن من في معنى الإثنين كقوله:

نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقررلة لكمال علمه وشموله.

﴿لَمْ مَعَقِبْتُمْ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَالٍ (11)﴾

﴿لَمْ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مَعَقِبَاتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه إذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرئ «مَعَاقِبٌ» جمع معقب أو معقبة على تعويض الباء من حذف إحدى القافين. ﴿مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من جوانبه أو من الأعمال ما قدم وأخر. ﴿يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرئ به وقيل من بمعنى الباء. وقيل من أمر الله صفة ثانية لـ ﴿معقبات﴾. وقيل المعقبات الحرس والجلوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا راد له فالعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12)﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف، أي إرادة خوف وطمع أو التأويل بالإخافة والإطماع، أو الحال من ﴿البرق﴾ أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿الثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ (13)﴾

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضي الله عنهما. سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «ملك موكل بالسحاب معه مخازيق من نار يسوق بها السحاب». ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله وقيل الضمير لـ ﴿الرعد﴾. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسول الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالآلوهية وإعادة الناس ومجازاتهم، والجدال التشدد في الخصومة من الجدال وهو القتل، والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذه عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فقتبه له رسول الله ﷺ وقال: اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، ورمى عامراً بغدة فمات في بيت سلوية، وكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية، فنزلت. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ المماحلة المكيدة لأعدائه، من محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة،

ولعل أصله المحل بمعنى القحط. وقيل فعال من المحل بمعنى القوة. وقيل مفعول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على أنه مفعول من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فساعد الله أشد وموساه أحد.

﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)﴾

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده و﴿الحق﴾ على الوجهين ما يناقض الباطل وإضافة الـ ﴿دعوة﴾ لما بينهما من الملازمة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل ﴿الحق﴾ هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق، والمراد بالجمليتين إن كانت الآية في أريد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يشعر به محال من الله إجابة لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون، فحذف الراجع أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عليه. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه. ﴿إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه وكذلك آلهتهم. وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لها بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرئ «تدعون» بالتاء وباسط بالتونين. ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدْنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلُّهُمُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (15)﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدْنَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين، طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرة كرهاً حال الشدة والضرورة. ﴿وَظِلُّهُمُ﴾ بالعرض وأن يراد به انقيادهم لإحداث ما أراده منهم شأواً أو كرهاً، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد والتقليص وانتصاب ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ بالحال أو العلة وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ظرف لـ ﴿يسجد﴾ والمراد بهما الدوام أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فيها، والغدو جمع غداة كقنى جمع قناة، و ﴿الآصال﴾ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قد قرئ و ﴿الإيصال﴾ وهو الدخول في الأصل.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى

وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَافِ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ

الْفَهْرُ (16)﴾

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومتولي أمرهما. ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه أو لقنهم الجواب به. ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ثم ألزمهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضرراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها والموحد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود



المطلع على أحوالكم. ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بلى أجعلوا والهمزة للإنكار وقوله: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفة لشركاء داخلية في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ خلق الله وخلقهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا الله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالق غيره فيشاركه في العبادة، جعل الخلق موجب العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عن سواه ليدل على قوله: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)﴾

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب أو من جانب السماء أو من السماء نفسها فإن المبادئ منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه، واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها في الصغر والكبر. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رفعه والزبد وضر الغليان. ﴿رَابِيًا﴾ عالياً. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ يعم الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حلى. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحراث، والمقصود من ذلك بيان منافعتها. ﴿زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ﴾ أي ومما يوقدون عليه زبد مثل زبد الماء وهو خبثه، و﴿من﴾ للابتداء أو للتبعية وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس وإضمامه للعلم به. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ مثل الحق والباطل فإنه مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار، وبالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلى واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبد الماء وبين ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفأ به أي يرمي به السيل والفلز المذاب وانتصابه على الحال وقرئ جفألاً والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ كالماء وخلصة الفلز. ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلها. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لايضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالْذِيكَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُمْ لَافْتَدَوْا بِهِمْ سُوءَ الْعِلْسِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ (18)﴾

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ للمؤمنين الذين استجابوا. ﴿لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى﴾ الإستجابة الحسنى. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم الكفرة واللام متعلقة بيضرب على أنه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما. وقيل للذين استجابوا خبر الحسنى وهي المثوبة أو الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ ليان ما آل غير المستجيبين. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو المناقشة فيه بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يغفر منه شيء. ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِمَرْجُومٍ﴾ مرجعهم. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقر والمخصوص بالذم محذوف.

﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (19)

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فيستجيب. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عَمَى القلب لا يستبصر فيستجيب، والهمزة لأنكار أن تقع شبهة في تشابههما بعدما ضرب من المثل. ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الألف ومعارضة الوهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (20)

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف ببروبيته حين قالوا بلى، أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يُنْقِضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (21)

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالات المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده عموماً. ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ

لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ (22)

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى. ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يعرف بالمال. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عرف به. ﴿وَيَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ ويدفعونها بها فيجازون الإساءة بالإحسان، أو يتبعون السيئة الحسنة فتمحوها. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة، والجملة خبر الموصولات إن رفعت بالابتداء وإن جعلت صفات لأولي الأبواب فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَنزِلَتْ مِنْهَا آيَاتُهُمْ وَأُزْوَاجُهُمْ فِيهَا رِجَالُهُمْ يَدْخُلُونَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (23)

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عَقَبَى الدَّارِ﴾ أو مبتدأ خبر. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعدن الإقامة أي جنات يقيمون فيها، وقيل هو بطنان الجنة. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون، وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلق بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم، وفي التقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ (24)

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بـ ﴿عليكم﴾ أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم لا بـ ﴿سلام﴾، فإن الخبر فاصل والباء للسمية أو للبدلية. ﴿فَنِعَمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ وقرئ ﴿فَنِعَمَ﴾ بفتح النون والأصل نعم فسكن العين بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

﴿وَالَّذِينَ يَقْتُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)﴾

﴿وَالَّذِينَ يَقْتُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهيج الفتن. ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة ﴿عَقَبَى الدَّارِ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26)﴾

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة. ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغترخوا بما هو في جنبه نزر قليل النفع سريع الزوال.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (27)﴾

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بافتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرى التعجب من قولهم كأنه قال قل لهم ما أعظم عنادكم إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به بل بأدنى منه من الآيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل ﴿مَنْ﴾ من أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أنسا به واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ خبره. ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ وهو فعلى من الطيب قلبت ياؤه واواً لضممة ما قبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرئ. ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ بالنصب.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ لَتَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الذِّكْرِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَآبٍ (30) وَلَوْ أَنْ قُرْءَانًا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعتِ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ نَفْسٍ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الذِّكْرُ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصْيِبَهُمْ بِمَا صَنَعُوا فَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِرِسَالَةٍ فَامْلِكْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34) مَثَلُ

الْجَنَّةِ أَلَيْ وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35) وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَكْتَابٌ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَهُي أَدْعُوا إِلَيْهِ مَتَابِ (36) ﴿

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا﴾ تقدمتها. ﴿أُمَمٌ﴾ أرسلوا إليهم فليس يبدع إرسالك إليهم. ﴿لِتَتْلَوْا عَلَيْهِمَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالبالغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والديناوية عليهم. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم ﴿اسجدوا للرحمن فقالوا وما الرحمن﴾. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي الرحمن خالقي ومتولي أمري. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ مرجي ومرجعكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابه والمراد منه تعظيم شأن القرآن، أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارها. ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز والنهاية في التذكير والإنذار، أو لما آمنوا به كقوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن شرك أن تتبعك فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فتتخذ فيها بساتين وقطائع، أو سخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت. وعلى هذا فتقطع الأرض قطعها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ وما بينهما اعتراض وتذكير ﴿كلم﴾ خاصة لاشتمال الموتى على المذكر الحقيقي. ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ بل لله القدرة على كل شيء وهو إضراب عما تضمنته ﴿لو﴾ من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا «أفلم يتبين»، وهو تفسيره وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم لأنه مسبب عن العلم، فإن الميتوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ فإن معناه نفي هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم يأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً أو «بأمنوا». ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿فَارِعَةً﴾ داهية تفرعهم وتقلقهم. ﴿أَوْ تَحِلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتغير حواليلهم وتختطف مواشيهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تحل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لا تمتاع الكذب في كلامه.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تسلبه لرسول الله ﷺ. ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه، والإملاء أن يترك ملاوة من الزمان في دعة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي إياهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ رَقِيبٌ عَلَيْهَا﴾ بما كَسَبَتْ من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم، والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ استئناف أو عطف على ﴿كَسَبَتْ﴾ إن جعلت «ما» مصدرية، أو لم يوحده وجعلوا عطف عليه ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِلَ اتُنْبُوْنَهُ. وقرئ ﴿تُنَبِّوْنَهُ﴾ بالتخفيف. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى كتسمية الزنجي كافوراً وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم فتخليلوا أباطيل ثم خالوها حقاً، أو كبدهم للإسلام بشركهم. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحق، وقرأ ابن كثير. ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿وَصُدُّوا﴾ بالفتح أي وصدوا الناس عن الإيمان، وقرئ بالكسر «وَصَدُّ» بالتونين. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يخلذه. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يُوْفِقُهُ لِّلْهُدَى﴾.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدته ودوامه. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿مِنْ وَّاقٍ﴾ حافظ.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التي هي مثل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة وقيل خبره. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمى، أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوف أو من الصلة. ﴿أَكُلُوهَا ذَائِمًا﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿وَوُظِّلَهَا﴾ أي وظلها وكذلك كما ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿تِلْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿عُقُبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ مآلهم ومنتهاى أمرهم. ﴿وَعُقُبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ لا غير، وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقنات للكافرين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنتان وثلاثون بالحبة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما. ﴿مَنْ يُكْرِ بِعَصَةِ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحده، وهو العمدة في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرئ ﴿وَلَا أُشْرِكُ﴾ بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ لا إلى غيره. ﴿وَالِيهِ مَابٌ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنى لإنكاركم المخالفة فيه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (37)

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة. ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه وانتصابه

على الحال. ﴿وَلَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها، كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعدما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ينسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك وهو حسم لأطماعهم وتهيج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ

كِتَابٍ (38)﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تقترح عليه وحكم يلتبس منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه الملي بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ﴾ لكل وقت وأمد حكم يكتب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39)﴾

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما تقتضيه حكمته. وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها. وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاء ويترك غيره مثبتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه. وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين. وقيل يمحو الفاسدات ويثبت الكائنات. وقرأ نافع وابن عامر وحزمة والكسائي ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بالتشديد. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40)﴾

﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم فإنما فاعلون له وهذا طلائعه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41)﴾ وَقَدْ

مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَ الْعِلْمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ اللَّهِ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد له وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حكم للإسلام بالاقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره، ومحل ﴿لَا﴾ مع المنفي النصب على الحال أي يحكم نافذاً حكمه. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعد جزاءها. ﴿وَسِعَ الْعِلْمُ الْكَفَرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعد لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم، واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة. مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكافر على إرادة الجنس، وقرئ «الكافرون» و«الذين كفروا» و«الكفر» أي أهله وسيعلم من أعلمه إذا أخبره.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ علم القرآن وما أُلِّف عليه من النظم المعجز، أو علم التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو علم اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو شهيداً بيننا فيخزي الكاذب منا، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ بالكسر و ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وعلى الأول مرتفع بالظرف فإنه معتمد على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأ والظرف خبره وهو متعين على الثاني. وقرئ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ على الحرف والبناء للمفعول. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة من وبعث يوم القيامة الموفين بم عهد الله».

## سورة إبراهيم

[مكية وآياتها اثنتان وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)﴾

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي هو كتاب. ﴿أَنْزَلَنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من أنواع الضلال. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله مستعار من الاذن الذي هو تسهيل الحجاب، وهو صلة ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أو حال من فاعله أو مفعوله. ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ بتكرير العامل أو استئناف على أنه جواب لمن يسأل عنه، وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له وتخصيص الوصفين للتنبية على أنه لا يذل سالكه ولا يخيب سابله.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2)﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على قراءة نافع وابن عامر مبتدأ وخبر، أو ﴿اللَّهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف والذي صفته وعلى قراءة الباقي عطف بيان لـ ﴿العزیز﴾ لأنه كالعلم لاختصاصه بالمعبود على الحق. ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور، والويل نقيض الوأل وهو النجاة، وأصله النصب لأنه مصدر إلا أنه لم يشتق منه فعل لكنه رفع لافادة الثبات.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ

بَعِيدٍ (3)﴾

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونها عليها فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان. وقرئ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ من أصدده وهو منقول من صد صدوداً إذا تنكب وليس فصيحاً، لأن في صده مندوحة عن تكلف التعدية بالهمزة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويبغون لها زيفاً ونكوباً عن الحق ليقدحوا فيه، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير والموصول بصلته يحتمل الجر صفة للكافرين والنصب على الذم والرفع عليه أو على أنه مبتدأ خبره. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل، والبعد في الحقيقة للضلال فوصف به فعله للمبالغة، أو للأمر الذي به الضلال فوصف به لملاسته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْمَهُ لِئِبْرَتِكَ لَمْ يَفْضَلْ اللَّهُ مِنْ يَشَاءَ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)﴾



﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ إلا بلغة قومه الذي هو منهم وبعث فيهم. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أمروا به فيفقهوه عنه يسر وسرعة، ثم ينقلوه ويترجموه إلى غيرهم فإنهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم وأحق بأن يندبرهم، ولذلك أمر النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولاً، ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقلال ذلك بنوع من الإعجاز، لكن أدى إلى إختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها، ومعلوم المتشعبة منها وما في اتعاب القرائح وكد النفوس من القرب المقتضية لجزيل الثواب. وقرىء «بلسن» وهو لغة فيه كريش ورياش، ولسن بضمين وضمة وسكون على الجمع كعمد وعمد. وقيل الضمير في قومه لمحمد ﷺ وأن الله تعالى أنزل الكتب كلها بالعربية، ثم ترجمها جبريل عليه السلام أو كل نبي بلغة المنزل عليهم وذلك ليس بصحيح يرده قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فإنه ضمير القوم، والتوراة والإنجيل ونحوهما لم تنزل لتبين للعرب. ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيخلده عن الإيمان. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق له. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يغلب على مشيئته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يضل ولا يهدي إلا لحكمه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني اليد والعصا وسائر معجزاته. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ بمعنى أي أخرج لأن في الإرسال معنى القول، أو بأن أخرج فإن صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر فيصح أن توصل بها أن الناصية. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة وأيام العرب حروبها. وقيل بنعمائه وبلائه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يصبر على بلائه ويشكر على نعمائه، فإنه إذا سمع بما أنزل على من قبل من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل المراد لكل مؤمن وإنما عبر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوكُمْ بَأْسَاءَ كُفٍّ فِي ذَلِكَ كُفٍّ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَنْ تُنْفَكُوا مِنْهَا لَكُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ لَفِي خِيْلٍ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته عليكم وقت إنجائه إياكم، ويجوز أن ينتصب بـ ﴿عليكم﴾ إن جعلت مستقرة غير صلة للنعمة، وذلك إذا أريدت بها العطية دون الأنعام، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿نعمته﴾ بدل الاشتمال. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوكُمْ بَأْسَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أحوال من آل فرعون، أو من ضمير المخاطبين والمراد بالعذاب هنا غير المراد به في سورة «البقرة» و «الأعراف» لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة ومعطوف عليه التذبيح هنا، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة. ﴿وَفِي ذَلِكَ كُفٍّ﴾ من حيث إنه بإقدار الله إياهم وإمهالهم فيه. ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الانجاء والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضاً من كلام موسى ﷺ، و «تأذن» بمعنى أذن كتعود وأوعد غير أنه أبلغ لما في

التفعل من معنى التكلف والمبالغة. ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم من الانجاء وغيره بالإيمان والعمل الصالح. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة. ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمت عليكم. ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ فعلي أعذبكم على الكفران عذاباً شديداً ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد، والجملة مقول مقول أو مفعول ﴿تَأْذِنُ﴾ على أنه جار مجرى ﴿قَالَ﴾ لأنه ضرب منه.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من الثقلين. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم. ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد في ذاته، محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمته ذرات المخلوقات، فما ضررتكم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الأنعام وعرضتموها للعذاب الشديد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام أو كلام مبتدأ من الله. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة وقعت اعتراضاً، أو الذين من بعدهم عطف على ما قبله ولا يعلمهم اعتراض، والمعنى أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كذب النسابون. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَمَلِ مِنَ الْغَيْظِ﴾. أو وضعوها عليها تعجباً منه أو استهزاء عليه كمن غلبه الضحك، أو إسكاناً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرأ لهم باطباق افواه، أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهاً على أن لا جواب لهم سواء أو ردوها في أفواه الأنبياء يمتنعونهم من التكلم، وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلاً. وقيل الأيدي بمعنى الأيادي أي ردوا أيادي الأنبياء التي هي مواعظهم وما أوحى إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه. ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان وقرىء «تدعوننا» بالادغام. ﴿مَرِيضٍ﴾ موقع في الريية أو ذي ريية وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشيء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِئَةِ اللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام في المشكوك فيه لا في الشك. أي إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه. وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو صفة أو بدل، و «شكٌّ» مرتفع بالظرف. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا. ﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ﴾ أو يدعوكم إلى المغفرة كقولك: دعوتك لينصرتني، على إقامة المفعول له مقام المفعول به. ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم وهو ما بينكم وبينه تعالى، فإن الإسلام يجبه دون المظالم، وقيل جيء بمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين، ولعل المعنى فيه أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الإيمان وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فتناول الخروج عن المظالم. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله آخر أعماركم. ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل. ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ بهذه الدعوى. ﴿فَاتَّبَعُوا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية، أو على صحة ادعائكم النبوة كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (11)

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ سلموا مشاركتهم في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومثله عليهم، وفيه دليل على أن النبوة عطائية وأن

ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا نَاتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليس إلينا الإتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى فيخص كل نبي بنوع من الآيات. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلتتوكل عليه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عموماً الأمر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً ألا ترى قوله تعالى:

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَنُوكِلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (12)

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَنُوكِلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: عذر لنا في أن لا نتوكل عليه. ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نعرفه ونعلم أن الأمور كلها بيده. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف ههنا وفي «العنكبوت». ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ جواب قسم محذوف أكدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (13)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إلى رسلهم. ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجراه لأنه نوع منه.

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (14)

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾. وقرئ «ليهلكن» «وليسكننكم» بالياء اعتباراً لأوحى كقولك: أقسم زيد ليخرجن. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين. ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله وقيل المقام مقحم. ﴿وَوَخَّافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (15)

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم من الفتاحة كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ وهو معطوف على ﴿فَأَوْحَى﴾ والضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل للكفرة وقيل للفريقين. فإن كلهم سأله أن ينصر المحق ويهلك المبطل. وقرئ بلفظ الأمر عطفاً على «ليهلكن». ﴿وَوَخَّابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي ففتح لهم فأفلاح المؤمنون وخاب كل جبار عات متكبر على الله معاند للحق فلم يفلح، ومعنى الخيبة إذا كان الاستفتاح من الكفرة أو من القبيلين كان أوقع.

﴿مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (16)

﴿مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي من بين يديه فإنه مرصد بها واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في الآخرة. وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ﴾ عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ﴿ويسقى من ماء﴾. ﴿صَدِيدٍ﴾ عطف بيان له «ماء» وهو ما يسيل من جلود أهل النار.

﴿بَجَرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُسْتَبْرَأٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا هَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِصٍ (21) ﴿

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه وهو صفة لواء، أو حال من الضمير في ﴿يسقى﴾ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسغه فكيف يسغه بل يغص به فيطول عذابه، والسوغ جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبول نفس. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابه من الشدائد فتحيط به من جميع الجهات. وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمُسْتَبْرَأٍ﴾ فيستريح. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه. وقيل هو الخلود في النار. وقيل حبس الأنفاس. وقيل الآية منقطعة عن قصة الرسل نازلة في أهل مكة طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنيهم التي أرسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله، فخبب رجاءهم فلم يسقهم ووعد لهم أن يسقيهم في جهنم بدل سقيهم صديد أهل النار.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة، أو قوله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهو على الأول جملة مستأنفة لبيان مثلهم. وقيل ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ بدل من الـ ﴿مثل﴾ والخبر ﴿كرماد﴾. ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به وقرأ نافع «الرياح». ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهاره صائم وليله قائم، شبه صنائعهم من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباء منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه، أو أعمالهم للأصنام برماد طيرته الريح العاصف. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم. ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ لحبوطه فلا يرون له أثراً من الثواب وهو فذلّة التمثيل. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسابانهم أنهم محسنون. ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته. وقيل لكل واحد من الكفرة على التلوين. ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه، وقرأ حمزة والكسائي «خالق السموات». ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعدمكم ويخلق خلقاً آخر مكانكم، رتب ذلك على كونه خالقاً للسموات والأرض استدلالاً به عليه، فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطباع قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه ذلك كما قال:

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر فإنه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله تعالى ومحاسبته، أو ﴿لِلَّهِ﴾ على ظنهم فإنهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ويظنون أنها تخفى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الأتباع جمع ضعيف يريد به

ضعاف الرأي، وإنما كتبت بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ﴿لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والاعراض عن نصائحهم، وهو جمع تابع كغائب وغيب، أو مصدر نعت به للمبالغة أو على إضمار مضاف. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنْهُ﴾ دافعون عنا. ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأولى للبيان واقعة موقع الحال، والثانية للتبعض واقعة موقع المفعول أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعض أي بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعراب ما سبق ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدرأ، أي فهل أنتم مغنون بعض العذاب بعض الإغناء. ﴿قَالُوا﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبه الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم. ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ للإيمان ووفقنا له. ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن ضللنا فأضللكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيانا عنكم كما عرضناكم له، لكن سد دوننا طريق الخلاص. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبْرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ منجى ومهرب من العذاب، من المحيص وهو العدل على جهة الفرار، وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالبيت ومصدراً كالغيب، ويجوز أن يكون قوله ﴿سواء علينا﴾ من كلام الفريقين ويؤيده ما روي أنهم يقولون: تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك ثم يقولون ﴿سواء علينا﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (22)

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أحكم وفرغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيباً في الأشقياء من الثقلين. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجزه أو وعداً أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء. ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل وهو أن ألا بعث ولا حساب وإن كانا فالأصنام تشفع لكم. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعل تبين خلف وعده كالأخلاف منه. ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط فالجئكم إلى الكفر والمعاصي. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إياكم إليها بتسويلي وهو ليس من جنس السلطان ولكنه على طريقة قولهم:

﴿تحية بينهم ضرب وجيع﴾

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أسرعتم إجابتي. ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوسوستي فإن من صرح العداوة لا يلام بأمثال ذلك. ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث أطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم، واحتجت المعتزلة بأمثال ذلك على استقلال العبد بأفعاله وليس فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لصحتها أن يكون لقدرة العبد مدخل ما في فعله وهو الكسب الذي يقوله أصحابنا. ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمعيتكم من العذاب. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثي وقرأ حمزة بكسر الباء على الأصل في التقاء الساكنين، وهو أصل مرفوض في مثله لما فيه. من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع أن حركة ياء الإضافة الفتح، فإذا لم تكسر وقبلها ألف فبالحري أن لا تكسر وقبلها ياء، أو على لغة من يزيد ياء على ياء الإضافة إجراء لها مجرى الهاء والكاف في: ضربته، وأعطيتكه، وحذف الباء اكتفاء بالكسرة. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ «ما» إما مصدرية و «من» متعلقة بأشركتموني أي كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي في الدنيا بمعنى تيرأت منه واستنكرته كقوله: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾. أو موصولة بمعنى من نحو ما في قولهم: سبحان ما سخركن لنا، و «من» متعلقة بـ ﴿كفرت﴾ أي كفرت بالذي أشركتموني وهو الله تعالى بطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم، حين رددت أمره بالسجود لآدم عليه

الصلاة والسلام وأشرك منقول من شركت زيدا للتعدية إلى مفعول ثان. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تنمة كلامه أو ابتداء كلام من الله تعالى وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

فِيهَا سَائِرٌ (23)﴾

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله تعالى وأمره والمدخلون هم الملائكة. وقرئ ﴿وَأَدْخِلَ﴾ على التكلم فيكون قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تحييتهم الملائكة فيها بالسلام بإذن ربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف اعتمده ووضعه. ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وهو تفسير لقوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿كَلِمَةً﴾ بدلاً من ﴿مَثَلًا﴾ و ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿كَشَجَرَةٍ﴾، وأن تكون أول مفعولي ضرب إجراء له مجرى جعل وقد قرئت بالرفع على الابتداء. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها. ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ويجوز أن يريد وفروعها أي أفنانها على الاكتفاء بلفظ الجنس لاكتسابه الاستغراق من الإضافة. وقرئ «ثابت أصلها» والأول على أصله ولذلك قيل إنه أقوى ولعل الثاني أبلغ.

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)﴾

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا﴾ تعطي ثمرها. ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ وقته الله تعالى لإثمارها. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها وتكوينه. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن في ضربها زيادة إلهام وتذكير، فإنه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحس.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26)﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27)﴾

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كمثل شجرة خبيثة ﴿اجْتُثَّتْ﴾ استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية. ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ لأن عروقها قريبة منه. ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ استقرار. واختلف في الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة: بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالشرك بالله تعالى والدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق، ولعل المراد بهما ما يعم ذلك فالكلمة الطيبة ما أعرب عن حق أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة. وروي ذلك مرفوعاً وبشجرة في الجنة، والخبيثة بالحنظلة والكثوث، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك. ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزالون إذا فتنوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيس وشمعون والذين فتنهم أصحاب الأخدود. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة. وروي (أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد فلا يهتدون



مَحَمَّدٌ تَفِدْ نَفْسَكَ كُلَّ نَفْسٍ إِذَا مَا خَفْتَ مِنْ أَمْرِ تَبَالَا

لدلالة قل عليه . وقيل هما جواباً أقيموا وأنفقوا مقامين مقامهما، وهو ضعيف لأنه لا بد من مخالفة ما بين الشرط وجوابه ولأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً. ﴿سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ متصبان على المصدر أي إنفاق سر وعلانية، أو على الحال أي ذوي سر وعلانية، أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية، والأحب إعلان الواجب وإخفاء المتطوع به. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه. ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ ولا محالة فيشفع لك خليل، أو من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالفة وإنما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله تعالى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما على النفي العام.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس مفعول لأخرج و﴿من الثمرات﴾ بيان له وحال منه ويحتمل عكس ذلك ويجوز أن يراد به المصدر فينتصب بالعلة، أو المصدر لأن أخرج في معنى رزق. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ بمشيئته إلى حيث توجهتم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم وقيل تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهم وإصلاح ما يصلحانه من المعونات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم. ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعض جميع ما سألتموه يعني من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بـ ﴿ما سألتموه﴾ ما كان حقيقاً بأن يسأل لاحتياج الناس إليه سئل أو لم يسأل، وما يحتمل أن تكون موصولة وموصوفة ومصدرة ويكون المصدر بمعنى المفعول. وقرئ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتثنية أي وأتاكم من كل شيء ما احتجتم إليه وسألتموه بلسان الحال، ويجوز أن تكون «ما» نافية في موقع الحال أي وأتاكم من كل شيء غير سائله. ﴿وَإِنْ تَعْلُوا نَعْتَمَ اللَّهُ لَكُمْ لَكُمُوهَا﴾ لا تحصروها ولا تطبقوا عد أنواعها فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية. وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو يظلم نفسه بأن يعرضها للحرمان. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران. وقيل ظلم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ بلدة مكة. ﴿آمناً﴾ ذا أمن لمن فيها، والفرق بينه وبين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمناً﴾ أن المسؤول في الأول إزالة الخوف عنه وتصديره آمناً، وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة. ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بعدني وإياهم، ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ واجعلنا منها في مجانب وقرئ ﴿وَأَجْنِبْنِي﴾ وهما على لغة نجد وأما أهل الحجاز فيقولون جنبني شره. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم وهو بظاهره، لا يتناول أحفاده وجميع ذريته. وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يعبدوا الصنم محتجاً به وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدوار ويقولون البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلته.

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ فلذلك سألت منك العصمة واستعدت بك من إضلالهم، وإسناد الإضلال إليهم باعتبار السببية كقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْتُهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ على ديني. ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي بعضي لا ينفك في أمر الدين. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَافِرٌ بَرِحِمٌ﴾ تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فله أن يغفره حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره.



﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول وهم إسماعيل ومن ولد منه قال إسكانه متضمن لإسكانهم. ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني وادي مكة فإنها حجرية لا تثبت. ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرمت التعرض له وألتهاون به، أو لم يزل معظماً ممنعاً يهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقاً أي اعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أول ما قدم فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. روي أن هاجر كانت لسارة رضي الله عنها فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل عليه السلام، فغارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله عين زمزم، ثم إن جرهم رأوا ثم طيوراً فقالوا لا طير إلا على الماء، فقصدوه فرأوها وعندهما عين فقالوا أشركنا في مائك نشرك في ألباننا ففعلت. ﴿رَبَّنَا لِيُخَيِّمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام لام كي وهي متعلقة بـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كل مرتفع ومرتق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه للأشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمة، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها. وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفقهم لها. ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ أي أفئدة من أفئدة الناس، و﴿من﴾ للتبعية ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم ولحجت اليهود والنصارى، أو للابتداء كقولك: القلب مني سقيم أي أفئدة ناس. وقرأ هشام «أفئدة» بخلف عنه بياء بعد الهمزة. وقرأ «أفئدة» وهو يحتمل أن يكون مقلوب «أفئدة» كآدر في أدور وأن يكون اسم فاعل من أفدت الرحلة إذا عجلت أي جماعة يعجلون نحوهم «وأفئدة» بطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه فيه إخراجها بين بين ويجوز أن يكون من أفد. ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً. وقرأ ﴿تهوي﴾ على البناء للمفعول من أهوى إليه غيره و﴿تهوي﴾ من هوى يهوي إذا أحب، وتعديته بالي لتضمنه معنى التزوع. ﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ مع سكانهم وادياً لا نبات فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله عز وجل دعوته فجعله حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلِنُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (38)

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلِنُ﴾ تعلم سرنا كما تعلم علننا، والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحتنا وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندك. وقيل ما نخفي من وجد الفرقة وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك، وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجأ إلى الله تعالى. ﴿وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لأنه العالم بعلم ذاتي يستوي نسبه إلى كل معلوم، ومن للاستغراق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (39)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد، قيد الهمية بحال الكبير استعظماً للنعمة وإظهاراً لما فيها من آلائه. ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾. روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة وإسحاق لمائة واثنى عشرة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي لمجيبه من قولك سمع الملك كلامي إذا اعتد به، وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله تعالى على المجاز، وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلها.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (40)

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ معدلاً لها مواظباً عليها. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على المنصوب في ﴿اجْعَلْنِي﴾، والتبعية لعلمه بإعلام الله أو استقراء عاداته في الأمم الماضية أنه يكون في ذريته كفار. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ واستجب دعائي أو تقبل عبادتي.

﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (41)

﴿رَبَّنَا آغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وقرئ «ولأبوي»، وقد تقدم عذر استغفاره لهما. وقيل أراد بهما آدم وحواء. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ثبت مستعار من القيام على الرجل كقولهم: قامت الحرب على ساق، أو يقوم إليه أهله فحذف المضاف أو أسند إليه قيامهم مجازاً.

﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُوهُمْ هَؤُلَاءِ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۚ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُؤُنَا مِنْهُ الْحَبَالَ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47)

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد به تشبته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو لكل من توهم غفلته جهلاً بصفاته واغتراراً بأمهاله. وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر عذابهم وعن أبي عمرو بالنون. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم فلا تفر في أماكنها من هول ما ترى.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، أو مقبلين بأبصارهم لا يطوفون هيبة وخوفاً، وأصل الكلمة هو الإقبال على الشيء. ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل ثبتت عيونهم شاخصة لا تطرف، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. ﴿وَأَفْنِدُوهُمْ هَؤُلَاءِ﴾ خلاء أي خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبه هواء أي لا رأي فيه ولا قوة قال زهير:

من الظلمان جؤجؤه هواء \*

وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني يوم القيامة، أو يوم الموت فإنه أول أيام عذابهم، وهو مفعول ثانٍ لـ ﴿أَنْذِرِ﴾. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والتكذيب. ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أخر العذاب عنا أو ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجيب دعوتك. ﴿نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ جواب للأمر ونظيره ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ على إرادة القول و﴿ما لكم﴾ جواب القسم جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية، والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت، ولعلمهم أقسموا بطراً وغروراً أو دل عليه حالهم حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً. وقيل أقسموا أنهم

لا ينتقلون إلى دار أخرى وأنهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالة إلى حالة أخرى كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ مَمُوتٍ﴾.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي كعاد وثمود، وأصل سكن أن يعدي بفي كقر وغني وأقام، وقد يستعمل بمعنى التبوء فيجري مجراه كقولك سكنت الدار. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمُ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ من أحوالهم أي بينا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب، أو صفات ما فعلوا وفعل بهم التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ المستفرغ فيه جهدهم إبطال الحق وتقرير الباطل. ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ومكتوب عنده فعلهم فهو مجازيهم عليه، أو عنده ما يكرهم به جزاء لمكرهم وإبطالاً له. ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدة. ﴿لَتَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ مسوى لإزالة الجبال. وقيل إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ على أن الجبال مثل لأمر النبي ﷺ ونحوه. وقيل مخففة من الثقيلة والمعنى أنهم مكرروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً من آيات الله تعالى وشرائعه. وقرأ الكسائي ﴿لَتَنْزُولٍ﴾ بالفتح والرفع على أنها المخففة واللام هي الفاصلة، ومعناه تعظيم مكرهم. وقرأ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي وقرئ و «إن كاد مكرهم».

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ مثل قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلَبِينَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ وأصله مخلف رسله وعده فقدم المفعول الثاني إيذاناً بأنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاتِ﴾ وإذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلف رسله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر قادر لا يدافع. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ أو ظرف للانتقام، أو مقدر باذكر أو لا يخلف وعده. ولا يجوز أن ينتصب بمخلف لأن ما قبل أن لا يعمل فيما بعده. ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ عطف على الأرض وتقديره والسموات غير السموات، والتبديل يكون في الذات كقولك: بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله: ﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ وفي الصفة كقولك بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وغيّرت شكلها، وعليه قوله: ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ والآية تحتلها، فعن علي رضي الله تعالى عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى عنهما: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطيء عليها أحد خطيئة، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها. ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الأديم العكاظي» لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً اعلم أنه لا يلزم على الوجه الأول أن يكون الحاصل بالتبديل أرضاً وسماء على الحقيقة، ولا يبعد على الثاني أن يجعل الله جهنم والسموات الجنة على ما أشعر به قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِينٍ﴾. ﴿وَبَرَزُوا﴾ من أجدانهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة كقوله: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

﴿وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49)﴾

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال كقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أو قرنوا مع الشياطين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وهو يحتمل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم وأرجلهم. ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ ﴿مُقرنين﴾ أو حال من ضميره، والصفد القيد. وقيل الغل قال سلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَأَقَى صِفَاداً      يَعْضُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُمُ سَاقَ

وأصله الشد.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَفْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (52) ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصانهم. ﴿مِنْ قَطَرَانٍ﴾ وجاء قطران لغتين فيه، وهو ما يتحلب من الأبهل فيطبخ فتنهأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحدته، وهو أسود متين تشتعل فيه النار بسرعة تطلي به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه وتتن ريحه مع إسراع النار في جلودهم، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، ويحتمل أن يكون تمثيلاً لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديئة والهيئات الوحشية فيجلب إليها أنواعاً من الغيوم والآلام، وعن يعقوب ﴿قطران﴾ والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره، والجملة حال ثانية أو حال من الضمير في ﴿مُقرنين﴾.

﴿وَتَفْشَى وَجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ وتغشاها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة عن المعرفة مملوءة بالجهالات ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سَوَاءٌ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي كل نفس مجزئة. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أو كل نفس من مجزئة أو مطبوعة لأنه إذا بين أن المجرمين يعاقبون لإجرامهم علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم، ويتعين ذلك أن علق اللام بـ ﴿بَرُّوْا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه لا يشغله حساب عن حساب.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن أو السورة أو ما فيه العظة والتذكير أو ما وصفه من قوله: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ﴾. ﴿بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ كفاية لهم في الموعظة. ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ عطف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ، فتكون اللام متعلقة بالبلاغ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: ولينذروا به أنزل أو تلي. وقرئ بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعدله.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة عليه أو المنبهة على ما يدل عليه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فيرتدعوا عما يرددهم ويتدبروا بما يحظيهم، واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب، تكميل الرسل للناس، واستكمال القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى، جعلنا الله تعالى من الفائزين بهما. وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وعدد من لم يعبدها».



[مكية وآياتها تسع وتسعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيْلَكَ آيَتْ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1)﴾

﴿الرَّيْلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى آيات السورة و ﴿الكتاب﴾ هو السورة، وكذا القرآن وتذكيره للتفخيم أي آيات الجامع لكونه كتاباً كاملاً وقُرْآنًا يبين الرشد من الغي بياناً غريباً.

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2)﴾

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر أو حلول الموت أو يوم القيامة. وقرأ نافع وعاصم ﴿ربما﴾ بالتخفيف، وقرىء ﴿ربما﴾ بالفتح والتخفيف وفيه ثمان لغات ضم الراء وفتحها مع التشديد والتخفيف وبتاء التأنيث ودونها، وما كافة تكفه عن الجر فيجوز دخوله على الفعل وحقه أن يدخل الماضي لكن لما كان المترقب في أخبار الله تعالى كالماضي في تحقيقه أجرى مجراه. وقيل: ما نكرة موصوفة كقوله:

رُبَّمَا تَكْرَهُ النَّفْسُ مِنَ الْأَمْرِ رَلَهُ فُرْجَةً كَحَلِّ الْعَقَالِ

ومعنى التقليل فيه بالإيدان بأنهم لو كانوا يودون الإسلام مرة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه كل ساعة. وقيل تدهشهم أهوال القيامة فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات تمنوا ذلك، والغيبة في حكاية ودادتهم كالغيبة في قولك: حلف بالله ليفعلن.

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3)﴾

﴿ذَرَهُمْ﴾ دعهم. ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم. ﴿وَيُلْهِمِ الْأَمْلُ﴾ ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه، والغرض إقناظ الرسول ﷺ من ارعوائهم وإيدانه بأنهم من أهل الخذلان، وإن نصحهم بعد اشتغال بما لا طائل تحته، وفيه إلزام للحجة وتحذير عن إثارة التمتع وما يؤدي إليه طول الأمل.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4)﴾

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ، والمستثنى جملة واقعة صفة لقرية، والأصل أن لا تدخلها الواو كقوله: ﴿إِلَّا لَهَا مَنذُورٌ﴾ ولكن لما شابها صورته الحال أدخلت تأكيداً للصوقها بالموصوف.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ (5)﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا

تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ (10) ﴿

﴿مَا تَشِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي وما يستأخرون عنه، وتذكير ضمير «أمة» فيه للحمل على المعنى.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ نَادُوا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى التَّهْكُمِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَادَوْهُ لَهُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ. ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ونظير ذلك قول فرعون: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، والمعنى إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر، أي القرآن.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ركب «لو» مع «ما» كما ركب مع لا لمعينين امتناع الشيء لوجود غيره والتضيض. ﴿بِالْمَلَكَةِ﴾ ليصدقك ويعضدك على الدعوة كقوله تعالى: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أنت الأمم المكذبة قبل. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

﴿مَا يُنْزِلُ الْمَلَكَةُ﴾ بالياء ونصب «الملائكة» على أن الضمير لله تعالى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون وأبو بكر بالتاء والبناء للمفعول ورفع «الملائكة». وقرأ «تنزل» بمعنى تنزل. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لبساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإن منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإيمان. وقبل الحق الوحي أو العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِذَا﴾ جواب لهم وجزاء لشروط مقدر أي ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم ولذلك أكدته من وجوه وقرره بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي من التحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزاً مبيناً لكلام البشر، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان، أو نفى تطرق الخلل إليه في الدوام بضممان الحفظ له كما نفى أن يطعن فيه بأنه المنزل له. وقيل الضمير في «له» للنبي ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ في فرقهم، جمع شيعه وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب من شاعه إذا تبعه، وأصله الشيع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار، والمعنى نبأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رسلاً فيما بينهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (11) ﴿

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما يفعل هؤلاء، وهو تسليه للنبي عليه الصلاة والسلام و «ما» للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى الحال، أو ماضياً قريباً منه وهذا على حكاية الحال الماضية.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (12) ﴿

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ﴾ ندخله. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط، والرمح في المطعون والضمير للاستهزاء. وفيه دليل على أن الله يوجد الباطل في قلوبهم. وقيل له «الذكر» فإن الضمير الآخر في قوله:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (13) ﴿

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ له وهو خال من هذا الضمير، والمعنى مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب

المجرمين مكذباً غير مؤمن به، أو بيان للجملة المتضمنة له، وهذا الاحتجاج ضعيف إذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع إليه ولا يتعين أن تكون الجملة حالاً من الضمير لجواز أن تكون حالاً من المجرمين، ولا ينافي كونها مفسرة للمعنى الأول بل يقويه. «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» أي سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، أو بإهلاك من كذب الرسل منهم فيكون وعيداً لأهل مكة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (14) ﴿

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء المقترحين. «بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» يصعدون إليها ويرون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون، أو تصعد الملائكة وهم يشاهدونهم.

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُّسْحُورُونَ﴾ (15) ﴿

﴿لَقَالُوا﴾ من غلوهم في العناد وتشكيكهم في الحق. «إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَرْنَا» سدت عن الأبصار بالسحر من السكر، ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف، أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة من قرأ «سكرت». «بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُّسْحُورُونَ» قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات، وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (16) ﴿

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ اثني عشر مختلفة الهيئات والخواص على ما دل عليه الرصد والتجربة مع بساطة السماء. «وَرَازِقَهَا» بالأشكال والهيئات البهية. «لِلنَّظِيرِينَ» المعترين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (17) ﴿

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس إلى أهلها ويتصرف في أمرها ويطلع على أحوالها.

﴿إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (18) ﴿

﴿إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ بدل من كل شيطان واستراق السمع اختلاسه سراً، شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات لما بينهم من المناسبة في الجوهر أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من كلها بالشهب. ولا يقدح فيه تكونها قبل المولد لجواز أن يكون لها أسباب أخر. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن من استرق السمع. «فَأَتْبَعَهُ» فتيهه ولحقه. «شِهَابٌ مُّبِينٌ» ظاهر للمبصرين، والشهاب شعلة نار ساطعة، وقد يطلق للكوكب والسنان لما فيهما من البريق.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (19) ﴿

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها. «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ» جبلاً ثوابت. «وَأَنبَتْنَا فِيهَا» في الأرض أو فيها وفي الجبال. «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ» مقدر بمقدار معين تقتضيه حكمته، أو مستحسن، مناسب من قولهم كلام موزون، أو ما يوزن ويقدر أو له وزن أبواب النعمة والمنفعة.

﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشاً وَمَن لَّكُم بَرَزَقِينَ﴾ (20) «وَأَنبَتْنَا فِيهَا» وما ننزل له إلا يقدر معلوم

(21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ (29) ﴿

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس . وقرئ «معاش» بالهمزة الى التشبيه بشمائل: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ عطف على «معاش» أو على محل «لكم»، ويريد به العيال والخدم والممالك وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظناً كاذباً، فإن الله يرزقهم وإياهم، وفذلكة الآية الاستدلال يجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء في الوضع محدثة فيا أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز أن لا تكون كذلك على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد في الألوهية والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه، ثم بالغ في ذلك وقال:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزان مثلاً لا قدره أو شبه مقدراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ من بقاع القدرة. ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملاً على بعض الصفات والحالات لا بد له من مخصص حكيم.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ﴾ حوامل، شبه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحب ماطر بالحامل كما شبه ما لا يكون كذلك بالعميق، أو ملقحات للشجر ونظيره الطوايح بمعنى المطيحات في قوله:

﴿وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ﴾

وقرئ «وأرسلنا الرياح» على تأويل الجنس. ﴿فَاَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سقياً. ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ قادرين متمكنين من إخراجهم، نفى عنهم ما أثبتته لنفسه، أو حافظين في الغدران والعيون والآبار، وذلك أيضاً يدل على المدبر الحكيم كما تدل حركة الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس، فإن طبيعة الماء تقتضي الغور فوقه دون حد لا بد له من سبب مخصص.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها. ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقيون إذا مات الخلائق كلها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من استقدم ولادة وموتاً ومن استأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة، أو تأخر لا يخفى علينا شيء من أحوالكم، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وقيل رغب رسول الله ﷺ في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت. وقيل إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فتقدم بعض القوم لثلا ينظر إليها وتأخر بعض ليبصرها فنزلت.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء، وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غير، وتصدير الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال



قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة متقن في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ وسمع علمه كل شيء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ من طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر. وقيل هو من صلصل إذا أنتن تضعيف صل. ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ طين تغير وأسود من طول مجاورة الماء، وهو صفة صلصال أي كائن ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾. ﴿مَسْنُونٍ﴾ مصور من سنه الوجه، أو منصوب ليبس ويتصور كالجواهر المذابة نصب في القوالب، من السن وهو الصب كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه، أو ممتن من سنتت الحجر على الحجر إذا حككته به، فإن ما يسيل بينهما يكون ممتناً ويسمى السنين.

﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن. وقيل إبليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الإنسان، لأن تشعب الجنس لما كان من شخص واحد خلق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقاً منها وانتصابه بفعل يفسره. ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل خلق الإنسان. ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المؤلفة التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي، وقوله: ﴿مِنْ نَارٍ﴾ باعتبار الغالب كقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ ومساق الآية كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبية على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول للجمع والإحياء.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلت خلقته وهياته لنفخ الروح فيه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي، وأصل النفخ إجراء الريح في تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب وتفيض عليه الحيوانية فيسري حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً وإضافة الروح إلى نفسه لما مر في «النساء». ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فاسقطوا له. ﴿سَاجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (30)

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص، وقيل أكد بالكل للإحاطة وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة، وفيه نظر إذ لو كان الأمر كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (31)

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إن جعل منقطعاً اتصل به قوله: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي ولكن إبليس أبى وإن جعل متصلاً كان استئنافاً على أنه جواب سائل قال هلا سجد.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (32)

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أي غرض لك في أن لا تكون. ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (33)

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد. ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسماني كثيف وأنا ملك روحاني. ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وهو أخس العناصر وخلقته من نار وهي

أشرفها، استنقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصل وقد سبق الجواب عنه في سورة «الأعراف».

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿35﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿36﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿37﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿40﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿41﴾ إِنَّ عِبَادِي لَكِنَّ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿42﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿43﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿44﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿45﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴿46﴾

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة أو زمر الملائكة. ﴿فَأِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ مطرود من الخير والكرامة، فإن من يطرد يرحم بالحجر أو شيطان يرحم بالشهب، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ هذا الطرد والإبعاد. ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه منتهى أمد اللعن، فإنه يناسب أيام التكليف ومنه زمان الجزاء وما في قوله: ﴿فَأَذِنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بمعنى آخر ينسى عنده هذه. وقيل إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضر بها الناس، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن معه فيصير كالزائل.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فأخبرني، والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد أن يجد فسحة في الإغواء أو نجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث فأجابه إلى الأول دون الثاني.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله، أو انقراض الناس كلهم وهو النفخة الأولى عند الجمهور، ويجوز أن يكون المراد بالأيام الثلاثة يوم القيامة، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات فغير عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرفته وثانياً بيوم البعث، إذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف واليأس عن التصليل، وثالثاً بالمعلوم لوقوعه في الكلامين، ولا يلزم من ذلك أن لا يموت فلعله يموت أول اليوم ويبعث مع الخلائق في تضاعيفه، وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدل على منصب إبليس لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسمة وما مصدرية وجوابه. ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمعنى أقسم بإغوائك إياي لأزين لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله: ﴿أَخْلَدُ إِلَى الْأَرْضِ﴾ وفي انعقاد القسم بأفعال الله تعالى خلاف. وقيل للسبية والمعتزلة أَوَّلُو الْإِغْوَاءَ بالنسبة إلى الغي، أو التسبب له بأمره إياه بالسجود لآدم عليه السلام، أو بالإضلال عن طريق الجنة واعتدروا عن إمهال الله له، وهو سبب لزيادة غيه وتسليط له على إغواء بني آدم بأن الله تعالى علم منه ومن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أمهل أو لم يمهل، وأن في إمهاله تعريضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب، وضعف ذلك لا يخفى على ذوي الأبواب. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأحملنهم أجمعين على الغواية.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدي. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالكسر في كل القرآن أي الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ حق علي أن أراعيه. ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحراف عنه، والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من إغوائه، أو الإخلاص على معنى أنه طريق ﴿عَلَيَّ﴾ يؤدي إلى الوصول

إِلَيَّ مِنْ غَيْرِ اعْوَجَاجٍ وَضَلَالٍ. وَقرئ ﴿عَلَى﴾ مِنْ عَلَوِ الشَّرَفِ.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ تصديق لإبليس فيما استثناه وتغيير الوضع لتعظيم ﴿المخلصين﴾، ولأن المقصود بيان عصمتهم وانقطاع مخالاب الشيطان عنهم، أو تكذيب له فيما أوهم أن له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده، فإن منتهى تزيينه التحريض والتدليس كما قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً، وعلى الأول يدفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي لإفضائه إلى تناقض الاستثناءين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لموعدهم الغاوين أو المتبعين. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد إن جعلته مصدراً على تقدير مضاف، ومعنى الإضافة إن جعلته اسم مكان فإنه لا يعمل.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة وهي: جهنم ثم لظى، ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، ولعل تخصيص العدد لانهصار مجامع المهلكات في الركود إلى المحسوسات ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، أو لأن أهلها سبع فرق. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من الاتباع. ﴿جَزْءٌ مَقْشُومٌ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحدين العصاة، والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين، وقرأ أبو بكر ﴿جزء﴾ بالثقل. وقرئ ﴿جزء﴾ على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الزاي، ثم الوقف عليه بالتشديد ثم إجراء الوصل مجرى الوقف، ومنهم حال منه أو من المستكن في الطرف لا في ﴿مقسوم﴾ لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من اتباعه في الكفر والفواحش فإن غيرها مكفرة. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعين أو لكل عدة منهما كقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ ثم قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية، وقرأ نافع وحفص وأبو عمرو وهشام ﴿وَعُيُونٍ﴾ بضم العين حيث وقع والباقون بكسر العين. ﴿ادْخُلُوهَا﴾ على إرادة القول، وقرئ بقطع الهمزة وكسر الخاء على أنه ماض فلا يكسر التنوين. ﴿بِسَلَامٍ﴾ سالمين أو مسلماً عليكم. ﴿آمِنِينَ﴾ من الآفة والزوال.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (47)

﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما ألف بين قلوبهم، أو في الجنة بتطبيب نفوسهم. ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ من حقد كان في الدنيا وعن علي رضي الله تعالى عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، أو من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب. ﴿إِخْوَانًا﴾ حال من الضمير في جنات، أو فاعل ادخلوها أو الضمير في آمين أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة وكذا قوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ويجوز أن يكونا صفتين لإخوانا أو حال من ضميره لأنه بمعنى متصافين، وأن يكون متقابلين حالاً من المستقر في على سرر.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (48)

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئناف أو حال بعد حال، أو حال من الضمير في متقابلين. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

﴿يَتَنَبَّهْ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْقَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَيَنْبَهُ عَنْ ضَيْفِ

إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) ﴿

﴿نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فذلك ما سبق من الوعد والوعيد وتقدير له، وفي ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده وفي عطف. ﴿وَنَبِّهَهُمْ عَنْ صَبِيقِ إِبْرَاهِيمَ﴾ على ﴿نبي عبادي﴾ تحقيق لهما بما يعتبرون به.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً أو سلمنا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت، ولأنهم امتنعوا من الأكل والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53)﴾

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ وقرئ «لا تأجل» من أوجله «ولا توجل» من واجله بمعنى أوجله. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، فإن المبشر لا يخاف منه. وقرأ حمزة بنشر بكسرة مفتوحة النون والتخفيف من البشر. ﴿بِغُلَامٍ﴾ هو إسحاق عليه السلام لقوله: ﴿وبشرناه بإسحاق﴾. ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ (54)﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آءَال لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُوهُ إِنَّا لَكِنَّا الْفَعْدِيَّةُ (60) فَلَمَّا جَاءَ آءَال لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطِصْ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْنَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ (66)﴾

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ تعجب من أن يولد له مع مس الكبر إياه، أو إنكار لأن يبشر به في مثل هذه الحالة وكذا قوله: ﴿فِيمَ يُبَشِّرُونِ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرون، أو فبأي شيء تبشرون فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء، وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة في كل القرآن على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وكسرها وقرأ نافع بكسرها مخففة على حذف نون الجمع استقلاً لإجماع المثليين ودلالة بإبقاء نون الوقاية وكسرها على الياء. ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بما يكون لا محالة، أو باليقين الذي لا لبس فيه أو بطريقة هي حق وهو قول الله تعالى وأمره. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر، وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة ولذلك:

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي يقنط بالكسر، وقرئ بالضم وماضيها قنط بالفتح.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة، ولعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا تحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة

زكريا ومريم عليهما السلام، أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجع ولو كانت تمام المقصود لابتدؤوا بها.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني قوم لوط.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناء من ﴿قوم﴾ كان منقطعاً إذ الـ ﴿قوم﴾ مقيد بالإجرام وإن كان استثناء من الضمير في ﴿مجرمين﴾ كان متصلاً، والقوم والإرسال شاملين للمجرمين، و ﴿آل لوط﴾ المؤمنين به وكأن المعنى: إنا أرسلنا إلى قوم أجمع كلهم إلا آل لوط منهم لنهلك المجرمين وننجي آل لوط منهم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مما يعذب به القوم، وهو استئناف إذا اتصل الاستثناء ومتصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن إذا انقطع وعلى هذا جاز أن يكون قوله:

﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ﴾ استثناء من ﴿آل لوط﴾، أو من ضميرهم، وعلى الأول لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضاً، وقرأ حمزة والكسائي ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ مخففاً. ﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْعَابِرِينَ﴾ الباقي مع الكفرة لتهلك معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿قَدَرْنَا﴾ هنا وفي «النمل» بالتخفيف، وإنما علق والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم. ويجوز أن يكون ﴿قَدَرْنَا﴾ أجري مجرى قلنا لأن التقدير بمعنى القضاء قول، وأصله جعل الشيء على مقدار غيره وإسنادهم إياه إلى أنفسهم. وهو فعل الله سبحانه وتعالى لما لهم من القرب والاختصاص به.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ تنكركم نفسي وتنفر عنكم مخافة أن تطرقوني بشر.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما يسرك ويشفي لك من عدوك، وهو العذاب الذي توعدتهم به فيمترون فيه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ﴾ فاذهب بهم في الليل، وقرأ الحجازيان بوصل الهمزة من السرى وهما بمعنى وقرىء «فسر» من السير. ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ في طائفة من الليل وقيل في آخره قال:

افتح الباب وانظري في الثجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

﴿وَأَتَيْعَ أَذْبَارَهُمْ﴾ وكن على أثرهم تدودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم. ﴿وَلَا يَلْتَمِثُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لينظر ما وراءه فيرى من الهول ما لا يطيقه أو فيصيبه ما أصابهم أو ولا يتصرف أحدكم ولا يتخلف امرؤ لغرض فيصيبه العذاب. وقيل نهوا عن الالتفات ليوطنوا نفوسهم على المهاجرة. ﴿وَأَمَضُوا حَيْثُ تَوَمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه، وهو الشام أو مصر فعدي ﴿وَأَمَضُوا﴾ إلى ﴿حيث تومرون﴾ إلى ضميره المحذوف على الاتساع.

﴿وَوَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي وأوحينا إليه مقضياً، ولذلك عدي بإلى. ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ مبهم يفسره. ﴿أَنْ ذَابَرِ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلّه النصب على البدل منه وفي ذلك تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى: أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد. ﴿مُضْجِحِينَ﴾ داخليين في الصبح وهو حال من هؤلاء، أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى. ف ﴿إن ذابر هؤلاء﴾ في معنى مدبري هؤلاء.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (67)

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ سدوم. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (68) ﴿

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه.

﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (69) ﴿

﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ في ركوب الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تذلونني بسببهم من الخزي وهو الهوان، أو لا

تخجلوني فيهم من الخزية وهو الحياء.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ﴾ (70) ﴿

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ على أن تجبر منهم أحداً أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون

لكل أحد وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه، أو عن ضيافة الناس وإنزالهم.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (71) ﴿

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساء القوم فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم، وفيه وجوه ذكرت في سورة

«هود». ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ قضاء الوطر أو ما أقول لكم.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (72) ﴿

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم بحياة المخاطب والمخاطب في هذا القسم هو النبي عليه الصلاة والسلام وقيل لوط

عليه السلام قالت الملائكة له ذلك، والتقدير لعمرك قسمي، وهو لغة في العمر يختص به القسم لإيثار

الأخف فيه لأنه كثير الدور على ألسنتهم. ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ لفى غوايتهم أو شدة غلتمهم التي أزال

عقولهم وتميزهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به إليهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحIRON فكيف يسمعون نصحك.

وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (73) ﴿

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحة هائلة مهلكة. وقيل صيحة جبريل عليه السلام. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين

في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (74) ﴿

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا﴾ عالي المدينة أو عالي قراهم. ﴿سَافِلَهًا﴾ وصارت منقلبة بهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمُ

حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب من السجل، وقد تقدم مزيد بيان لهذه القصة في

سورة «هود».

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (75) ﴿وَأَنَّا لَبَسْنَا لَئِيمًا مَّقِيمًا﴾ (76) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (77) ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ

الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (78) ﴿فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّنْ بَيْنِنا أَعْوَبُ﴾ (79) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ (80) ﴿وَأَنبَتْنَاهُمْ

عَآيِنَةً فَكَانُوا مُعْرِضِينَ﴾ (81) ﴿وَكَانُوا يَحْنَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَئِذٍ أَهْنًا﴾ (82) ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (83) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ

عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (84) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ

الْحَمِيدَ﴾ (85) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (86) ﴿

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرين المتفرسين الذين يشتتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته.

﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن المدينة أو القرى. ﴿لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ هم قوم شعيب كانوا يسكنون النخضة فبعثه الله إليهم فكذبوه فأهلكوا بالظلة، و ﴿الأيكة﴾ الشجرة المتكاثفة.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاك. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدوم والأيكة. وقيل الأيكة ومدين فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذكر إحداهما منبهاً على الأخرى. ﴿لِيَأْمُرَ مُبِينَ﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم ما يؤتم به فسمي به الطريق ومطر البناء واللوح لأنها مما يؤتم به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ يعني ثمود كذبوا صالحاً ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع، ويجوز أن يكون المراد بالمرسلين صالحاً ومن معه من المؤمنين، و ﴿الحجر﴾ واد بين المدينة والشام يسكنونه.

﴿وَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني آيات الكتاب المنزل على نبيهم، أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها ودرها، أو ما نصب لهم من الأدلة.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها، أو من العذاب لفرط غفلتهم أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه.

﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة فسادهم من الأرض. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك فيها ممن كذبك. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ولا تعجل بانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وقيل هو منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم وبيده أمرهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل ذلك إليه ليحكم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلم الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح، وفي مصحف عثمان وأبي رضي الله عنهما هو «الخالق»، وهو يصلح للقليل والكثير و ﴿الخالق﴾ يختص بالكثير.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (87)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ سبع آيات وهي الفاتحة. وقيل سبع سور وهي الطوال وسابعتها «الأنفال» و «التوبة» فإنهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية. وقيل «التوبة» وقيل «يونس» أو الحواميم السبع. وقيل سبع صحائف وهي الأسباع. ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ بيان للسبع والمثاني من الثنية، أو الثناء فإن كل ذلك مثنى تكرر قراءته، أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مثنى على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى، ويجوز أن يراد بـ ﴿المثاني﴾ القرآن أو كتب الله كلها فتكون ﴿من﴾ للتبعيض. ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام

على الخاص، وإن أريد به الأسبغ فمن عطف أحد الوصفين على الآخر.

﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)﴾

﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب. ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار، فإنه مستحق بالإضافة إلى ما أوتيته فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات. وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيراً». وروي «أنه عليه الصلاة والسلام وافى بأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم: لقد أعطيتهم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع». ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم لم يؤمنوا. وقيل إنهم المتمتعون به. ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لهم وارفق بهم.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89)﴾

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أندركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90)﴾

﴿كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ فأهلكهم الله تعالى يوم بدر أو الرهط الذين اقتسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه الصلاة والسلام وقيل هو صفة مصدر محذوف يدل عليه. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ فإنه بمعنى أنزلنا إليك، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآن عَضِينَ حيث قالوا عناداً: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، أو أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤون من كتبهم، فيكون ذلك تسلياً لرسول الله ﷺ، وقوله ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية اعتراضاً ممدداً لها.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)﴾

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاء جمع عضة، وأصلها عضوة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. وقيل فعلة من عضهته إذا بهته، وفي الحديث «لعن رسول الله ﷺ العاضهة والمستعضهة» وقيل أسحاراً وعن عكرمة العضة السحر، وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه والموصول بصلته صفة للمقتسمين أو مبتدأ خبره.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا

كُنَّا بِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا

يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التقسيم أو النسب إلى السحر فنجازيهم عليه. وقيل هو عام في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، أو فافرق به بين الحق والباطل، وأصله الإبانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة، والراجع محذوف أي بما تؤمر به من الشرائع. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تلتفت إلى ما يقولون.



﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ بقمعهم وإهلاكهم. قيل كانوا خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، يبالغون في إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: أمرت أن أكفيكمهم، فأوماً إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأوماً إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى أنف عدي ابن قيس فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وإلى عيني الأسود بن المطلب فعمي.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك، أو فتره عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق. ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ من المصلين، وعنه عليه الصلاة والسلام (أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة).

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق، والمعنى فاعبده ما دمت حياً ولا تخل بالعبادة لحظة. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزين بمحمد ﷺ» والله أعلم.

## سورة النحل

[مكية، غير ثلاث آيات وفي آخرها وآياتها ثمان وعشرون ومائة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)﴾

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إياهم كما فعل يوم بدر استهزاءً وتكديباً، ويقولون إن صح ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت، والمعنى أن الأمر الموعود به بمتزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ وجل عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على وفق قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والباقون بالياء على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم، لما روي أنه لما نزلت أتى أمر الله فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2)﴾

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآن، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وذكره عقب ذلك إشارة إلى الطريق الذي به علم الرسول ﷺ ما تحقق موعدهم به ودنوه وإزاحة لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنَزِّلُ﴾ من أنزل، وعن يعقوب مثله وعنه «تنزل» بمعنى تنزل. وقرأ أبو بكر «تنزل» على المضارع المبني للمفعول من التنزيل. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بأمره أو من أجله. ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أن يتخذة رسولا. ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ بأن أنذروا أي اعلموا من نذرت بكذا إذا علمته. ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أن الشأن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، أو خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وقوله ﴿فاتقون﴾ رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود، و﴿أن﴾ مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول، أو مصدرية في موضع الجر بدلاً من الروح أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية. وأن النبوة عطائية والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدر على ذلك فيلزم التمانع.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ عَمَّا يُشْرِكُونَ (3)﴾

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها بحكمته. ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقاءه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام.

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا يَشِيقُ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرْكَبُ الْفُلُوكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَنَصَّبُوا مِنَ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَوسٌ أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزَ وَهْبًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَّمَكَ رَبَّ الْتَجَمُّ هُمْ يَتَذَوْنُونَ (16) ﴾

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ جماد لا حس بها ولا حراك سيالة لا تحفظ الوضع والشكل. ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ منطق مجادل. ﴿ مُبِينٌ ﴾ للحجة أو خصيم مكافح لخالفه قائل: ﴿ مِنْ يَحْيَى الْعِظَامُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾. روي أن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم رميم وقال: يا محمد أنرى الله يحيى هذا بعد ما قد رمى. فنزلت.

﴿ وَالْأَنْعَامَ ﴾ الإبل والبقر والغنم وانتصابها بمضمر يفسره. ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ أو بالعطف على الإنسان، وخلقها لكم بيان ما خلقت لأجله وما بعده تفصيل له. ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ما يدفأ به فيقي البرد. ﴿ وَمَنْفَعٌ ﴾ نسلها ودرها وظهورها، وإنما عبر عنها بالمنافع ليتناول عوضها. ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش، وأما الأكل من سائر الحيوانات المأكولة فعلى سبيل التداوي أو التفكه.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ زينة. ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها من مراعيها إلى مرايحها بالعشي. ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها بالغداة إلى المراعي فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها، وتقديم الراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرئ «حيناً» على أن «تريحون» «وتسرحون» وصفان له بمعنى «تريحون» فيه «وتسرحون» فيه.

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أحمالكم. ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ ﴾ أي إن لم تكن الأنعام ولم تخلق فضلاً أن تحملوها على ظهوركم إليه. ﴿ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ إلا بكلفة ومشقة. وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. وقيل المفتوح مصدر شق الأمر عليه وأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف، كأنه ذهب نصف قوته بالتعب. ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ﴾ عطف على «الأنعام». ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ أي لتركبوها وتزينوا بها زينة. وقيل هي معطوفة على محل «لتركبوها» وتغيير النظم لأن الزينة بفعل الخالق والركوب ليس بفعله، ولأن المقصود من خلقها الركوب وأما التزين بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير واو وعلى هذا يحتمل أن يكون علة «لتركبوها» أو مصدراً في موضع الحال من أحد الضميرين أي: متزينين أو متزيناً بها، واستدل به على

حرمة لحومها ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره أصلاً، ويدل عليه أن الآية مكية وعامة المفسرين والمحدثين على أن الحمر الأهلية حُرمت عام خبير. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما فصل الحيوانات التي يحتاج إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غير ضروري أجمل غيرها، ويجوز أن يكون إخباراً بأن له من الخلاق ما لا علم لنا به، وأن يراد به ما خلق في الجنة والنار مما لم يخطر على قلب بشر.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدَ السَّبِيلِ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق، أو إقامة السبيل وتعديلها رحمة وفضلاً، أو عليه قصد السبيل يصل إليه من يسلكه لا محالة يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه، والمراد من ﴿السبيل﴾ الجنس ولذلك أضاف إليه الـ ﴿قصد﴾ وقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ حائد عن القصد أو عن الله، وتغيير الأسلوب لأنه ليس بحق على الله تعالى أن يبين طرق الضلالة، أو لأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد والجائر إنما جاء بالعرض. وقرئ: و «منكم جائر» أي عن القصد. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾. ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتمام.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب أو من جانب السماء. ﴿مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ ما تشربونه، ﴿وَلَكُمْ﴾ صلة ﴿أنزل﴾ أو خبر ﴿شراب﴾ و ﴿من﴾ تبعضية متعلقة به، وتقديمها يومهم حصر المشروب فيه ولا بأس به لأن مياه العيون والآبار منه لقوله: ﴿فَسَلَكَهَ يَنَابِيعَ﴾ وقوله: ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه يكون شجر يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وقيل كل ما نبت على الأرض شجر قال:

يَعْلِفُهَا اللَّحْمُ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ وَالْخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْمُ ضَرَرُ

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون، من سامت الماشية وأسامها صاحبها، وأصله السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ وقرأ أبو بكر بالنون على التثنية. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالنَّجِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ﴾ وبعض كلها إذا لم ينبت في الأرض كل ما يمكن من الشار، ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاء حيوانياً هو أشرف الأغذية، ومن هذا تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وجود الصانع وحكمته، فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أعلاها ويخرج منه ساق الشجرة، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقتها. ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ولعل فصل الآية به لذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُوتَ﴾ بأن هيأها لمنافعكم. ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ﴾ حال من الجميع أي نفعلكم بها حال كونها مسخرات لله تعالى خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خلقن له بإيجاده وتقديمه أو لحكمه، وفيه إيذان بالجواب عما عسى أن يقال إن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها، فإن ذلك إن سلم فلا ريب في أنها أيضاً ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه المحتملة، فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعاً للدور والتسلسل، أو مصدر ميمي جمع لاختلاف الأنواع. وقرأ حفص ﴿وَالنَّجْمُوتَ﴾ مسخرات على الابتداء والخبر فيكون تعميماً للحكم بعد تخصيصه ورفع ابن عامر ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أيضاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية، وذكر العقل لأنها تدل أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة غير محوجة إلى استيفاء فكر كأحوال النبات.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على ﴿الْبَلِّ﴾، أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات. ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أصنافه فإنها تتخالف باللون غالباً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص. ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله، ولإظهار قدرته في خلقه عذبا طريا في ماء زعاق، وتمسك به مالك والثوري على أن من حلف أن لا يأكل لحما حنث بأكل السمك. وأجيب عنه بأن مبنى الإيمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الإطلاق ألا ترى أن الله تعالى سمي الكافر دابة ولا يحنث الخالق على أن لا يركب دابة بركوبه. ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلَسُونَ﴾ كاللؤلؤ والمرجان أي تلبسها نساؤكم، فأسند إليهم لأنهن من جملتهم ولأنهن يتزين بها لأجلهم. ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ﴾ السفن. ﴿مَوَازِرَ فِيهِ﴾ جوارى فيه تشقه بحيزومها، من المخر وهو شق الماء. وقيل صوت جري الفلك. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تعرفون نعم الله تعالى فتقومون بحققها، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الأنعام من حيث أنه جعل المهالك سببا للانتفاع وتحصيل المعاش.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالا رواسي. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، وذلك لأن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك، أو أن تتحرك بأدنى سبب للتحريك فلما خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة. وقيل لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال. ﴿وَأَنْهَارًا﴾ وجعل فيها أنهارا لأن ألقى فيه معناه. ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لمقاصدكم، أو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل وريح ونحو ذلك. ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بالليل في البراري والبحار، والمراد بالنجم الجنس ويدل عليه قراءة ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ بضمين وضمة وسكون على الجمع. وقيل الثريا والفرقدان ونبات نعش والجدي، ولعل الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسائرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإحكام الضمير للتخصيص كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (17)

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ إنكار بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد بخلق ما عدد من مبدعاته لأن يساويه ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك بل على إيجاد شيء ما، وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس تنبيها على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيها بها، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلبا فيه أولو العلم منهم أو الأصنام، وأجروها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة ومن حق الإله أن يعلم، أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق أو للمبالغة وكأنه قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بأدنى تذكروا والتفات.

﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ (18)﴾

﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها فضلاً أن يطبقوا القيام بشكرها، أتبع ذلك تعداد النعم والإزام الحجة على تفرده باستحقاق العبادة تنبيهاً على أن وراء ما عدَّد نعماً لا تنحصر، وأن حق عبادته تعالى غير مقدور. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ﴾ حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها. ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يقطعها لتفريطكم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ (19)﴾

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد وتزييف للشرك باعتبار العلم بعد تزييفه باعتبار القدرة.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20)﴾

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي والآلهة الذين تعبدونهم من دونه. وقرأ أبو بكر «يدعون» بالياء. وقرأ حفص ثلاثها بالياء. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ لما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق بين أنهم لا يخلقون شيئاً لينتج أنهم لا يشاركونه، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافي الألوهية فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأنهم ذوات ممكنة مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود.

﴿أَمُوتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21)﴾

﴿أَمُوتَ﴾ هم أموات لا تعتر بهم الحياة، أو أموات حالاً أو مآلاً. ﴿غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ بالذات ليتناول كل معبود، والإله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعتره الممات. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يعلمون وقت بعثهم، أو بعث عبدتهم فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم، والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب مقدراً للثواب والعقاب، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ (22)﴾

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ تكرير للمدعى بعد إقامة الحجج. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالباً للدلائل متأملاً فيما يسمع فيتفتح به، والكافر بها يكون حالة بالعكس وإنكار قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان إتباعاً للأسلاف وركوناً إلى المألوف، فإنه ينافي النظر والاستكبار عن اتباع الرسول وتصديقه والالتفات إلى قوله، والأول هو العمدة في الباب ولذلك رتب عليه ثبوت الآخرين.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم، وهو في موضع الرفع بـ ﴿جرم﴾ لأنه مصدر أو فعل. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع الرسول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ﴾ القائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون. ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما تدعون نزوله، أو المنزل أساطير الأولين، وإنما سموه منزلاً على التهكم أو على الفرض أي على تقدير أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه، والقائلون قبل هم المقتسمون.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾

(25) ﴿

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي قالوا ذلك إضلالاً للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة فإن إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال. ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ وبعض أوزار ضلال من يضلونهم وهو حصّة التسبب. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ بش شيئاً يزرونه فعلهم.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ

الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (26) ﴿

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي سوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام. ﴿فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ فأتاها أمره من جهة العمدة التي بنوا عليها بأن ضعفت. ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وصار سبب هلاكهم. ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقيل المراد به نمرود بن كنعان بنى الصرح ببابل سمكه خمسة آلاف ذراع ليرصد أمر السماء، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ أَيَنْ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ

الْخِزْيَ آيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (27) ﴿

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ﴾ بذلهم أو يعذبهم بالنار كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾. ﴿وَيَقُولُ أَيَنْ شُرَكَائِي﴾ أضاف إلى نفسه استهزاء، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾ تعادون المؤمنين في شأنهم. وقرأ نافع بكسر النون بمعنى تشاققوني فإن مشاقة المؤمنين كمشاقة الله عز وجل. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد فيشاققونهم ويتكبرون عليهم، أو الملائكة. ﴿إِنَّ الْخِزْيَ آيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ الذلة والعذاب. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة، وحكايته لأن يكون لطفاً ووعظاً لمن سمعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(28) ﴿

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ وقرأ حمزة بالياء. وقرئ بإدغام التاء في التاء وموضع الموصول يحتمل الأوجه الثلاثة ﴿طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بأن عرضوها للعذاب المخلد. ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ فسالموا وأخبتوا حين عاينوا الموت. ﴿مَا كُنَّا﴾ قائلين ما كنا. ﴿نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كفر وعدوان، ويجوز أن يكون تفسيراً لـ ﴿السَّلَامِ﴾ على أن المراد به القول الدال على الاستسلام. ﴿بَلَى﴾ أي فتجيبهم الملائكة بلى. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه، وقيل قوله: ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ إلى آخر الآية استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة، وعلى هذا أول من لم يجوز الكذب يومئذ ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ بأننا لم نكن في زمننا واعتقادنا عاملين سوءاً، ويحتمل أن يكون الراد عليهم هو الله تعالى، أو أولو العلم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (29) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ

قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغْيَانَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) ﴿

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل صنف بابها المعد له. وقيل أبواب جهنم أصناف عذابها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنم.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني المؤمنين. ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أي أنزل خيرًا، وفي نصبه دليل على أنهم لم يتلثموا في الجواب، وأطبقوه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة. روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخير النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد من المقتسمين قالوا له ما قالوا وإذا جاء المؤمنين قالوا لهم ذلك. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مكافأة في الدنيا. ﴿وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ولثوابهم في الآخرة خير منها، وهو عدة للذين اتقوا على قولهم، ويجوز أن يكون بما بعده حكاية لقولهم بدلاً وتفسيراً له ﴿خيرًا﴾ على أنه منتصب بـ﴿قالوا﴾. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة فحذفت لتقدم ذكرها وقوله.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح. ﴿يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من أنواع المشتبهات، وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ مثل هذا الجزاء يجزيهم وهو يؤيد الوجه الأول.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمني أنفسهم﴾. وقيل فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس. ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يحقكم بعد مكروه. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين تبعثون فإنها معدة لكم على أعمالكم. وقيل هذا التوفي وفاة الحشر لأن الأمر بالدخول حينئذ.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفار المار ذكرهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب. ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدبيرهم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم



على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه والحق لا يستعمل إلا في الشر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاء أو منعاً للبعثة والتكليف متمسكين بأن ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدة فيها، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجين بأنهم لو كانت مستقبحة لما شاء الله صدورها عنهم ولشاء خلافه، ملجئاً إليه لا اعتذار إذ لم يعتقدوا قبح أعمالهم، وفيما بعده تنبيه على الجواب عن الشبهتين. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرّموا حله وردوا رسله. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إلا الإيلاج الموضح للحق وهو لا يؤثر في هدى من شاء الله هداه لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له، ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد اهتدائه وزيادة لضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج لسوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يأمر عبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يرد هدايتهم، وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تحقق الضلال وثباته بفعل الله تعالى وإرادته من حيث أنه قسم من هدى الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر قريش. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلمكم تعتبرون.

﴿إِنْ تَحْرِصْ﴾ يا محمد. ﴿عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ من يريد ضلاله وهو المعني بمن حقت عليه الضلالة. وقرأ غير الكوفيين ﴿لا يهدي﴾ على البناء للمفعول وهو أبلغ. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ عطف على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادة في البت على فسادهم، ولقد رد الله عليهم أبلغ رد فقال: ﴿بلى﴾ يبعثهم. ﴿وعداً﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه ﴿بلى﴾ فإن يبعث موعد من الله. ﴿عليه﴾ إنجازاً لامتناع الخلف في وعده، أو لأن البعث مقتضى حكمته. ﴿حقاً﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنهم يبعثون وإما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه، ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال: ﴿يُبَيِّنُ لَهُمْ﴾ أي يبعثهم ﴿ليبين لهم﴾. ﴿الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحق. ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهو بيان إمكانية وتقريره أن تكوين الله بمحض قدرته ومشئته لا توقف له على سبق المواد والمدد، وإلا لزم التسلسل فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده، ونصب ابن عامر والكسائي ها هنا وفي «يس» فيكون عطفًا على نقول أو جواباً للأمر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْرِئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

(41)

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون ظلّمهم قريش

فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله. ﴿فِي اللَّهِ أَيُّ فِي حَقِّهِ وَلُجْهِهِ﴾. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ مباءة حسنة وهي المدينة أو تبوئة حسنة. ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لو افقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزدادوا في اجتهداهم وصبرهم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (42)

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الشدائد كاذي الكفار ومفارقة الوطن، ومحلّه النصب أو الرفع على المدح. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (43)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ رد لقول قریش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أي جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحي إليه على السنة الملائكة، والحكمة في ذلك وقد ذكرت في سورة «الأنعام» فإن شككتكم فيه. ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليعلموكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة وقوله: ﴿جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رِجَالًا﴾ معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. ورد بما روي: أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أَي أَرْسَلْنَاهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ أَيِ الْمَعْجَزَاتِ وَالْكِتَابِ، كَأَنَّهُ جَوَابُ: قَائِلُ قَالَ: بِمَ أَرْسَلُوهُ؟ وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَا أَرْسَلْنَا دَاخِلًا فِي الْإِسْتِثْنَاءِ مَعَ رِجَالًا أَيِ: وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجَالًا بِالْبَيِّنَاتِ كَقَوْلِكَ: مَا ضَرَبْتُ إِلَّا زَيْدًا بِالسُّوْطِ، أَوْ صِفَةً لَهُمْ أَيِ رِجَالًا مُلْتَبِسِينَ بِالْبَيِّنَاتِ، أَوْ بِبُحُوْحِي عَلَى الْمَفْعُولِيَةِ أَوْ الْحَالِ مِنَ الْقَائِمِ مَقَامَ فَاعِلِهِ عَلَى أَنْ قَوْلُهُ فَاسْأَلُوا اعْتِرَاضٌ، أَوْ بَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى أَنْ الشَّرْطَ لِلتَّبَيُّكِ وَالْإِلْزَامِ. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ وَإِنَّمَا سَمِيَ ذِكْرًا لِأَنَّهُ مَوْعِظَةٌ وَتَنْبِيْهُ. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فِي الذِّكْرِ بِتَوْسِطِ إِزَالِهِ إِلَيْكَ مِمَّا أَمَرُوا بِهِ وَنَهَوْا عَنْهُ، أَوْ مِمَّا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ وَالتَّبَيُّنُ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَنْصَ بِالْمَقْصُودِ، أَوْ يَرُشِدَ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَالْقِيَاسِ. وَدَلِيلُ الْعَقْلِ. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وَإِرَادَةُ أَنْ يَتَأَمَّلُوا فِيهِ فَيَتَبَيَّنُوا لِلْحَقَائِقِ.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (45)

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أَيِ الْمَكْرَاتِ السَّيِّئَاتِ وَهُمْ الَّذِينَ احْتَالُوا لِهَلَاكِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ الَّذِينَ مَكَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَامُوا صَدِّ أَصْحَابِهِ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كَمَا خَسَفَ بِقَارُونَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بَغْتَةً مِنْ جَانِبِ السَّمَاءِ كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ لُوطَ.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيْبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (46)

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيْبِهِمْ﴾ أَيِ مُتَقَلِّبِينَ فِي مَسَايِرِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أَنْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (47)

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأحوالهم حتى يهلكوا من تخوفته إذا تنقصته. روي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص، فقال هل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا بَامَكَا قَرَدَا كَمَا تَخَوُّفَ عُودِ النَّبْعَةِ السَّقْنُ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا: وما ديواننا قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. ﴿فَإِنْ رَكِبْتُمْ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُهُمْ يُظْلَلُونَ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (48)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ استفهام إنكار أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه، وما موصولة مبهمة بيانها. ﴿يَنْفَعُهُمْ يُظْلَلُونَ﴾ أي أو لم يظفروا إلى المخلوقات التي لها ظلال متغيرة. وقرأ حمزة والكسائي «تَرَوْا» بالتاء وأبو عمرو «تَنْفَعُهُ» بالتاء. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ عن أيمنها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها، استعارة من يمين الإنسان وشماله، ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجمعه في قوله: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله، والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع أو الاختيار، يقال سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل وسجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب وسجداً حال من الظلال ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حال من الضمير. والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقاداً لما قدر لها من النفوذ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة منقاداً لأفعال الله تعالى فيها، وجمع ﴿داخرون﴾ بالواو لأن من جملتها من يعقل، أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء. وقيل المراد بـ ﴿اليمين والشمائل﴾ يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله هو الجانب الغربي المقابل له من الأرض، فإن الظلال في أول النهار تبدى من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبدى من المغرب واقعة على الربع الشرقي من الأرض.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (49)

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينقاد انقياداً يعم الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض وقوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيان لهما لأن الدبيب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ عطف على المبين به عطف جبريل على الملائكة للتعظيم، أو عطف المجردات على الجسمانيات، وبه احتج من قال إن الملائكة أرواح مجردة أو بيان لما في الأرض والملائكة تكرير لما في السموات وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، أو المراد بها ملائكتها من الحفظه وغيرهم، وما لما استعمل للعلاء كما استعمل لغيرهم كان استعماله حيث اجتمع القبيلان أولى من إطلاق من تغليلاً للعلاء. ﴿وَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (50)

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾. والجملة حال من الضمير في ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أو بيان له وتقرير لأن من

خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من الطاعة والتدبير، وفيه دليل على أنَّ الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ (51)

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أن المعداد يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن الاثنينية تنافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدةانية دون الإلهية، أو للتنبية على أن الوحدة من لوازم الإلهية. ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكانه قال: فإنا ذلك الإله الواحد إياي فارهبون لا غير.

﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (52)

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِبًا﴾ لازماً لما تقرر من أنه الإله وحده والحقيق بأن يرهب منه. وقيل ﴿وَاصِبًا﴾ من الوصب أي وله الدين ذا كلفة. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضار سواه كما لا نافع غيره كما قال تعالى.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (53) ثُمَّ إِذَا كُفَّتْ أَعْيُنُكُمْ عَنَّا إِذَا فَرَغَ مِنكُمْ بَرَّيْهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْزَنَ عَمَّا كُتِبَ لَهُمْ يَنْفَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يَرَىٰ أَحَدُكُمُ اللَّهَ بِظُلْمٍ مَّا تَرَكَ عَلَيْهِا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخَرُ لَهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَبُهِتُوا وَلَهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بَطُولَهُ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمْرَ لَبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66)﴾

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي وأي شيء اتصل بكم من نعمة فهو من الله، ﴿وَمَا﴾ شرطية أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ فما تنزعون إلا إليه، والجوار رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة.

﴿ثُمَّ إِذَا كُفَّتْ أَعْيُنُكُمْ عَنَّا إِذَا فَرَغَ مِنكُمْ﴾ وهم كفاركم. ﴿بَرَّيْهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ عبادة غيره، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإن كان خاصاً بالمشركين كان من البيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون من للتبعيض على أن يعتبر بعضهم كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمَنَّهُم مَّقْصِدٌ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو إنكار كونها من الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمر تهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أغلظ وعيده، وقرئ ﴿فيمتعو﴾ مبنياً للمفعول عطفاً على ﴿ليكفروا﴾، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد فيكون الضمير ﴿لما﴾، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتنفع لهم على أن العائد إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجوع له محذوف للعلم به. ﴿نَصِيحاً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿قَالُوا لَنَسْأَلَنَّهُ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرب إليها وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له من قولهم، أو تعجب منه. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفع بالابتداء والنصب بالعطف على البنات على أن الجعل بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعد تجويزه في المعطوف.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى﴾ أخبر بولادتها. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار أو دام النهار كله. ﴿مُسْوِداً﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشوير. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظاً من المرأة.

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفى منهم. ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من سوء المبشر به عرفاً. ﴿أَنْفُسُكُ﴾ محدثاً نفسه متفكراً في أن يتركه. ﴿عَلَى هُونٍ﴾ ذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يخفيه فيه ويثده، وتذكير الضمير للفظ ﴿ما﴾ وقرئ بالتأنيث فيهما. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محله عندهم.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكرأهه الإناث ووأدهن خشية الإملاق. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والوجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض، وإنما أضمهرها من غير ذكر للدلالة الناس والدابة عليها. ﴿مِنْ ذَاتِهِ﴾ قط بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كاد يجعل يهلك في حجره بذنوب ابن آدم أو من دابة ظالمة. وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء. ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سماه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بل هلكوا أو عذبوا حينئذ لا محالة، ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسول وأراذل الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ مع ذلك وهو. ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي عند الله كقوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ وقرئ ﴿الكذب﴾ جمع كذوب صفة للآلئنة. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ رد لكلامهم وإثبات لضده. ﴿وَأَنَّهُمْ مُّقْرَطُونَ﴾ مقدمون إلى النار من أفرطته في طلب الماء إذا قدمته. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه من الإفراط في المعاصي. وقرئ بالتشديد مفتوحاً من فرطته في طلب الماء ومكسوراً من التفريط في الطاعات.

﴿وَاللَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ﴾ أي في الدنيا، وعبر باليوم عن زمانها أو فهو وليهم حين كان يزين لهم، أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية، ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولي هؤلاء اليوم يغريهم ويغويهم، وإن يقدر مضاف أي فهو ولي أمثالهم، والولي القرين أو الناصر فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس. ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فعلا المنزل بخلاف التبيين.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَتَ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أنبت فيها أنواع النبات بعد يسسها. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وإنصاف.

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم. ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ استئناف لبيان العبرة، وإنما ذكر الضمير ووحدها هنا للفظ وأنه في سورة «المؤمنين» للمعنى، فإن «الأنعام» اسم جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأكياس، ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها أو لواحدة أو له على المعنى، فإن المراد به الجنس. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب «نسيقكم» بالفتح هنا وفي «المؤمنين». ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان أسفلها فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفارة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقى ثقله وهو الفرث ثم يمسكها ريشما يهضمها هضمًا ثانياً فيحدث أخلاطاً أربعة معها مائة، فتميز القوة المميزة تلك المائة بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجري إلى كل حقه على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع، فيبيض بمجاورة لحومها الغددية البيض فيصير لبناً، ومن تدبر صنع الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به، اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته، و «من» الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما في بطونها والثانية ابتدائية كقولك: سقيت من الحوض، لأن بين الفرث والدم المحل الذي يتبدأ منه الإسقاء وهي متعلقة بـ «نسيقكم» أو حال من «لبناً» قدم عليه لتنكيره وللتنبية على أنه موضع العبرة. ﴿خَالِصًا﴾ صافياً لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث، أو مصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه. ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور في حلقهم، وقرئ «سَيْغًا» بالتشديد والتخفيف.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَفِّقُكُمْ وَمُنَكِّرٌ مِنْ بَرْدٍ إِلَى

أَزْدَلِ الْعُمْرِ لَكَ لَا يَمَلُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿70﴾

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقوله: ﴿تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكْرًا﴾ استئناف لبيان الإساءة أو بد-﴿تتخذون﴾، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبر لمحذوف صفته ﴿تتخذون﴾، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه، وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن الـ ﴿ثمرات﴾ بمعنى الثمر والـ ﴿سكر﴾ مصدر سمي به الخمر. ﴿وَرَزَقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل، والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين العتاب والمنة. وقيل الـ ﴿سكر﴾ النبيذ وقيل الطعم قال:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الْكَرَامِ سُكْرًا

أي تنقلت بأعراضهم. وقيل ما يسد الجوع من السكر فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ألهمها وقذف في قلوبها، وقرئ ﴿إلى النحل﴾ بفتحيتين. ﴿أَنْ اتَّخِذِي﴾ بأن اتخذي ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وتأنيت الضمير على المعنى فإن النحل مذكر. ﴿مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ذكر بحرف التبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش من كرم أو سقف، ولا في كل مكان منها وإنما سمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان، لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها أحدق المهندسين إلا بالآلات وأنظار دقيقة، ولعل ذكره لتنبية على ذلك وقرئ ﴿بِیُوتَا﴾ بكسر الباء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿يعرشون﴾ بضم الراء.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينها مرها وحلوها. ﴿فَاسْلُكِي﴾ ما أكلت. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك، أو ﴿فاسلكي﴾ الطرق التي ألهمك في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك ﴿سبل ربك﴾ لا تتوعد عليك. ولا تلتبس. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل، أي مذلة ذللها الله تعالى وسهلها لك، أو من الضمير في اسلكي أي وأنت ذلل منقاداً لما أمرت به. ﴿يُخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ كأنه عدل به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس، لأنه محل الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. ﴿شَرَابٌ﴾ يعني العسل لأنه مما يشرب، واحتج به من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل في بطنها عسلاً، ثم تقيء ادخاراً للشتاء، ومن زعم أنها تلتقط بأفواها أجزاء طلية حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل فسر البطون بالأفواه. ﴿مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسود بحسب اختلاف سن النحل والفصل. ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه، مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيض، ويجوز أن يكون للتعظيم. وعن قتادة أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكى بطنه فقال: «اسقه العسل»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع فقال: «أذهب واسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك». فسقاه فشفاه الله تعالى فبرأ فكانما أنشط من عقال. وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعاً أنه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ بآجال مختلفة. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ﴾ يعاد. ﴿إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمْرِ﴾ أحسه يعني

الهرم الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل هو خمس وتسعون سنة وقيل خمس وسبعون. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية في النسيان وسوء الفهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم. ﴿قَدِيرٌ﴾ يمت الشأب النشط ويبقى الهرم الفاني، وفيه تنبيه على أن تفاوت أجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطباع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (71)

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم موال يتولون رزقهم ورزق غيرهم ومنكم ممالك حالهم على خلاف ذلك. ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ﴾ بمعطي رزقهم. ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ على ممالكهم فإنما يردون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم. ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فالموالي والممالك سواء في أن الله رزقهم، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مقررة لها، ويجوز أن تكون واقعة موقع الجواب كأنه قيل: فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فيستولوا في الرزق، على أنه رد وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعض مخلوقاته في الألوهية ولا يرضون أن يشاركون عبدهم. فيما أنعم الله عليهم فيساورهم فيه. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يتخذون له شركاء، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعدما أنعم الله عليهم بإيضاحهم، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر «تجحدون» بالتاء لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ و﴿فضل بعضكم﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (72)

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلكم. وقيل هو خلق حواء من آدم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ وأولاد أولاد أو بنات، فإن الحافد هو المسرع في الخدمة والبنات يخدمن في البيوت أتم خدمة. وقيل هم الأختان على البنات. وقيل الرائب ويجوز أن يراد بها البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ أو الحلالات و﴿من﴾ للتبعية فإن المرزوق في الدنيا أنموذج منها. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيبات ما يحرم كالبخائر والسوائب. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام، أو حرموا ما أحل الله لهم، وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام أو لايهام التخصيص بالغة، أو للمحافظة على الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (73)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ من مطر ونبات، و﴿رزقاً﴾ إن جعلته مصدراً فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يملكوه أو لا استطاعة لهم أصلاً، وجمع الضمير فيه وتوحيده في ﴿لا يملك﴾ لأن ﴿ما﴾ مفرد في معنى الألهة، ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

﴿فَلَا تَضُرُّوهُ بِالْأَمْثَالِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (74)



﴿فَلَا تَضْرِبُوا اللَّهَ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به، أو تقيسونه عليه فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تعملون عليه من القياس على أن عبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته وعظم جرمكم فيما تفعلون. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جراتم عليه فهو عليم للنهي، أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه، ويجوز أن يراد فلا تضربوا الله الأمثال فإنه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلاً لنفسه ولمن عبد دونه فقال.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75)﴾

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق. وقيل هو تمثيل للكافر المخذول والمؤمن الموفق، وتقييد العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر فإنه أيضاً عبد الله ويسلب القدرة للتمييز عن المكاتب والمأذون وجعله قسيماً للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك، والأظهر أن ﴿مَنْ﴾ نكرة موصوفة ليطابق ﴿عَبْدًا﴾، وجمع الضمير في ﴿يَسْتَوُونَ﴾ لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوى الأحرار والعبيد؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له، لا يستحقه غيره فضلاً عن العبادة لأنه مولى النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون نعمة إلى غيره ويعبدونه لأجلها.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)﴾

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ ولد أخرس لا يفهم ولا يفهم. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ عيال وثقل على من يلي أمره. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر، وقرئ ﴿يُوجِّههُ﴾ على البناء للمفعول و﴿يُوجِّههُ﴾ بمعنى يتوجه كقوله أينما أوجه ألقى سعداً وتوجه بلفظ الماضي. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ينجح وكفاية مهم. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ومن هو فهم منطبق ذو كفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل. ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي، وإنما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين لأنهما كمال ما يقابلهما، وهذا تمثيل ثان ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينه وبينها أو للمؤمن والكافر.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يختص به علمه لا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدل عليه محسوس. وقيل يوم القيامة فإن علمه غائب عن أهل السموات والأرض. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ إلا كرجع الطرف من أعلى الحدة إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أمرها أقرب منه بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي

تبتدىء فيه، فإنه تعالى يحيي الخلائق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن، و ﴿أَوْ﴾ للتخيير أو بمعنى بل. وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كالمح البصر أو هو أقرب مبالغة في استقراؤه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر أن يحيي الخلائق دفعة كما قدر أن أحياهم متدرجاً، ثم دل على قدرته فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة على أنه لغة أو إتباع لما قبلها، وحمزة بكسرهما وكسر الميم والهاء مزيدة مثلها في أهراق. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ جهالاً مستصحبين جهل الجمادية. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أداة تتعلمون بها فتحسون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها ثم تنتهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها بتكرر الإحساس حتى تحصل لكم العلوم البديهية، وتتمكنوا من تحصيل المعالم الكسبية بالنظر فيها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم عليكم طوراً بعد طور فتشكروه.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(79)

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذلات للطيран بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المؤاتية له. ﴿فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ فيه. ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فإن ثقل جسدها يقتضي سقوطها ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تسخير الطير للطيран بأن خلقها خلقة يمكن معها الطيран، وخلق الجو بحيث يمكن الطيран فيه وإمسакها في الهواء على خلاف طبعها. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بها.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْفَالِ يَتَوَاتَرًا يَتَخَفَتُونَهَا يَوْمَ ظَمِنَ لَكُمْ وَيَوْمَ

إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا عَشَرَ إِلَى حِينٍ (80)﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، فعل بمعنى مفعول. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القباب المتخذة من الأدم، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها. ﴿تَتَخَفَتُونَهَا﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها. ﴿يَوْمَ ظَمِنَ لَكُمْ﴾ وقت ترحالكم. ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿يَوْمَ ظَمِنَ لَكُمْ﴾ بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصوف للضائفة والوبر للابل والشعر للمعز، وإضافتها إلى ضمير «الأنعام» لأنها من جملتها. ﴿أَثْنَا عَشَرَ﴾ ما يلبس ويفرش. ﴿وَمَتَاعًا﴾ ما يتجر به. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان فإنها لصلايتها تبقى مدة مديدة، أو إلى حين، مامتكم أو إلى أن تقضوا منه أوطاركم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ

الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (81)﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها. ﴿ظِلَالًا﴾ تتقون بها حر الشمس. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها جمع كن. ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها. ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ خصه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدروع والجاوشن، والسرابيل يعم كل ما يلبس. ﴿كَذَلِكَ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت. ﴿يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تنظرون في نعمه

فَتُؤْمِنُونَ بِهِ وَتُقَادُونَ لِحُكْمِهِ. وَقرئ ﴿تَسْلُمُونَ﴾ من السلامة أي تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك. وقيل ﴿تَسْلُمُونَ﴾ من الجراح بلبس الدروع.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (82)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ولم يقبلوا منك. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ فلا يضرك فإنما عليك البلاغ وقد بلغت، وهذا من إقامة السبب مقام المسبب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (83)

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعرف المشركون نعمة الله التي عددها عليهم وغيرها حيث يعترفون بها وبأنها من الله تعالى. ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم إنها بشفاعة آلهتنا، أو بسبب كذا أو بأعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل نعمة الله نبوة محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عناداً ومعنى ثم استبعاد الإنكار بعد المعرفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون عناداً، وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق لنقصان العقل أو التفريط في النظر، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف وإما لأنه يقام مقام الكل كما في قوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار إذا لا عذر لهم. وقيل في الرجوع إلى الدنيا. و ﴿ثُمَّ﴾ لزيادة ما يحق بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقنات الكلي على ما يمتون به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون، من العتبي وهي الرضا وانتصاب يوم بمحذوف تقديره اذكر، أو خوفهم أو يحق بهم ما يحق وكذا قوله:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون. ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أو ثنائهم التي ادعوا شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه. ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس لأن يشطر عذابهم. ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة وإنما عبدوا أهواءهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به حيثنذ، أو في أنهم حملوهم على الكفر والزموهم إياه كقوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن أدعوتكم فاستجبتم لي﴾.

﴿وَأَلْقَوْا﴾ وألقى الذين ظلموا. ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم وبطل. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر. ﴿وَذُنَاهُمْ عَذَابٌ لَّصْدِهِمْ﴾ ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ المستحق بكفرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين بصددهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني بينهم فإن نبي كل أمة بعث منهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ على أمتك. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ استئناف أو حال بإضمار قد. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بآيات، بليغاً. ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالة إلى السنة أو القياس. ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ للجميع وإنما حرمان المحروم من تفریطه. ﴿وَبَشِّرِ الْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتوسط في الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير. ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية كالنطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وَأَيُّهَا ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا فإنه أقيح أحوال الإنسان وأشنعها. ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية. ﴿وَالْبَغْيِ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر. وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدي ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقب قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ للتنبيه عليه. ﴿بِيعْظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والميز بين الخير والشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تعظون.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (91)

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يعني البيعة لرسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾. وقيل كل أمر يجب الوفاء به ولا يلائمه قوله: ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وقيل النذور. وقيل الإيمان بالله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أي أيمان البيعة أو مطلق الأيمان. ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى، ومنه أكد بقلب الواو همزة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً بتلك البيعة فإن الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهود.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيِّمَانًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ

أَرَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِئٍ وَلَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ (92)

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول. ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَقَضَتْ﴾ أي نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام. ﴿أَنْكَا﴾ طاقات نكت فتلها جمع نكت، وانتصابه على الحال من ﴿غزلها﴾ أو المفعول الثاني لنقضت فإنه بمعنى صيرت، والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه. وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية فإنها كانت خرقاء تفعل ذلك. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيِّمَانًا﴾ دخلاً بَيْنَكُمْ حال من الضمير في ﴿ولا تكونوا﴾، أو في الجار الواقع موقع الخبر أي لا تكونوا متشبهين بامرأة هذا

شأنها، متخذى أيمانكم مفسدة ودخلاً بينكم، وأصل الدخّل ما يدخل الشيء ولم يكن منه. ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ لأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة، والمعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقتلهم أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم. ﴿إِنَّمَا يَبُوءُكُمْ اللَّهُ بِاللَّهِ﴾ الضمير لأن تكون أمة لأن بمعنى المصدر أي يختبركم بكونهم أربى لينظر. أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله أم تغترون بكثرة قریش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم. وقيل الضمير للرياء وقيل للأمر بالوفاء. ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسَتَلَّنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(93) ﴿

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام. ﴿وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالخذلان. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿وَلَسَتَلَّنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤال تبكيت ومجازاة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (94) ﴿

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمن تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي. ﴿فَتَرِلَ قَدَمٌ﴾ أي عن محبة الإسلام. ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها والمراد أقدامهم، وإنما وحده ونكر للدلالة على أن زلزل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة. ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ﴾ العذاب في الدنيا. ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بصدكم عن الوفاء أو صدكم غيركم عنه، فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَلَا تَسْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (95) ﴿

﴿وَلَا تَسْرَبُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو ما كانت قریش يعدون كضعفاء المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد. ﴿إِنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النصر والتغني في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم. ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (96) ﴿

﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا. ﴿يَنْفَدُ﴾ ينقضي ويفنى. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته. ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد، وهو تعليل للحكم السابق ودليل على أن نعيم أهل الجنة باق. ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاق التكليف. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات، أو بجزاء أحسن من أعمالهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (97) ﴿

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ بينه بالتوعين دفعاً للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش

عشاً طياً فإنه إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً يطيب بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فإنه إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهاون بعيشه. وقيل في الآخرة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)﴾

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ إذا أردت قراءته كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فاسأل الله أن يعيذك من وساوسه لثلا يوسوسك في القراءة، والجمهور على أنه للاستحباب. وفيه دليل على أن المصلي يستعين في كل ركعة لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً، وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه إيدان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل. وعن ابن مسعود (قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندور وغفلة ولذلك أمروا بالاستعاذة فذكر السلطنة بعد الأمر باستعاذة لثلا يتوهم منه أن له سلطاناً.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يحبونه ويطيعونه. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ بالله أو بسبب الشيطان. ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (101)﴾

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ من المصالح ففعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيبته مكانه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ينزل﴾ بالتخفيف. ﴿قَالُوا﴾ أي الكفرة. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، وهو وجواب ﴿إِذَا﴾ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾، اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم ويجوز أن يكون حالاً. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (102)﴾

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام، وإضافة الروح إلى القدس وهو الطهر كقولهم: حاتم الجود وقرأ ابن كثير ﴿روح القدس﴾ بالتخفيف وفي ﴿ينزل﴾ و ﴿نزله﴾ تنبيه على أن إنزاله مدرجاً على حسب المصالح بما يقتضي التبديل. ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة. ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ليثبت الله الذين آمنوا على الإيمان بأنه كلامه، وأنهم إذا سمعوا النسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأن قلوبهم. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، وهما معطوفان على محل ﴿ليثبت﴾ أي تثبيتاً وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أصداد ذلك لغيرهم وقرىء ﴿ليثبت﴾ بالتخفيف.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

مُثَبِّتٌ (103)﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي . وقيل جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه . وقيل عائشاً غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب . وقيل سلمان الفارسي . ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه ، مأخوذ من لحد القبر . وقرأ حمزة والكسائي يلحدون بفتح الياء والحاء ، لسان أعجمي غير بين . ﴿وَهَذَا﴾ وهذا القرآن . ﴿لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ذو بيان وفصاحة ، والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم ، وتقريره يحتمل وجهين أحدهما : أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون ما تلقفه منه . وثانيهما : هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يتلقف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة ، فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات أعجمية لعلهما لم يعرفا معناها ، وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (104) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (105) ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (106) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (107) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (108) ﴿لَا جُرمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (109) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَّا بَعْدَ مَا قُضِيَتْ أَشْيُنَا جَنَّةً وَوَصَرُوا إِنَّ رَبَّنَا مِن بَعْدِهَا الْقَوْمُ الرَّحِيمُ﴾ (110) ﴿

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لا يصدقون أنها من عند الله . ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة . وقيل إلى الجنة . ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ، هددهم على كفرهم بالقرآن بعدما أماط شبهتهم ورد طعنهم فيه ، ثم قلب الأمر عليهم فقال :

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه . ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا أو إلى قريش . ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة ، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب ، أو الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة ، أو الكاذبون في قولهم : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ .

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض ، أو من ﴿أُولَئِكَ﴾ أو من ﴿الكَاذِبُونَ﴾ ، أو مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله : ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ ويجوز أن ينتصب بالذم وأن تكون من شرطية محذوفة الجواب دل عليه قوله : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر ، استثناء متصل لأن الكفر لغة يعم القول والعقد كالإيمان . ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ لم تتغير عقيدته ، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب . ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده وطاب به نفساً . ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أعظم من جرمه . روي (أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد ،

فربطوا سمية بين بعيرين وجيء بحربة في قُبَلِها وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتلوا ياسراً وهما أول قتيلين في الإسلام، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً فقبل: يا رسول الله إن عماراً كفر فقال: كلا إن عماراً ملئى إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار: رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: ما لك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت. وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه لما روي (أن) مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول في؟ فقال: أنت أيضاً فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد قال: رسول الله ﷺ؟ قال فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد. ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثروها عليها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما يوجب ثبات الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعُوهُمْ وَأَبْصَرُوهُمْ﴾ فأبَت عن إدراك الحق والتأمل فيه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الحالة الراهنة عن تدبر العواقب.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي عذبوا كعمار رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر، و ﴿ثُمَّ﴾ لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك، وقرأ ابن عامر فتنوا بالفتح أي من بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي أكره مولاه جبراً حتى ارتد ثم أسلم وهاجر. ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما فعلوا قبل. ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُندٍ عَنْ نَفْسِهَا وَوَرُّوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (111)

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب بـ ﴿رحيم﴾ أو باذكر. ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسي نفسي. ﴿وَتُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاء ما عملت. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون أجورهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ

فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (112)

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله بهم نقمته، أو لمكة. ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ لا يزعج أهلها خوف. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها. ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً. ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ بنعمة جمع نعمة على ترك الاعتداد بالثناء كدرع وأدرع، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس. ﴿فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الاذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير:



غَمَرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ صَاحِبًا غَلَقَتْ لِصَحْبَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقي عليه، وأضاف إليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظراً إلى المستعار له، وقد ينظر إلى المستعار كقوله:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بَنُ بَكْرِ  
لِي الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونِكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ شَطْرَ  
استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجر نظراً إلى المستعار. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم.  
﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (113)

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكة عاد إلى ذكرهم بعد ما ذكر مثلهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي حال التباسهم بالظلم والعذاب ما أصابهم من الجذب الشديد، أو وقعة بدر.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ (116) مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّلْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أمرهم بأكل ما أحل الله لهم وشكر ما أنعم عليهم بعدما زجرهم عن الكفر وهدهم عليه بما ذكر من التمثيل والعذاب الذي حل بهم، صداً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ طيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون عبادة الآلهة عبادته.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما أمرهم بتناول ما أحل لهم عدد عليهم محرماته ليعلم أن ما عداها حل لهم، ثم أكد ذلك بالنهاي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ الآية، ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بإنما حصر المحرمات في الأجناس الأربعة إلا ما ضم إليه دليل: كالسباع والحمر الأهلية، وانتصاب ﴿الكذب﴾ بـ ﴿لا تقولوا﴾ و ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل منه أو متعلق بتصف على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقولوا هذا حلال وهذا حرام، أو مفعول ﴿لا تقولوا﴾، و ﴿الكذب﴾ متصّب بـ ﴿تصف﴾ وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، ووصف ألسنتكم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتكم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عد من فصيح

الكلام كقولهم: وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر. وقرئ «الكذب» بالجر بدلاً من «ما»، و «الكذب» جمع كذوب أو كذاب بالرفع صفة للأنسنة وبالنصب على الدم أو بمعنى الكلم الكواذب. «لِتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» تعليل لا يتضمن الغرض. «إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» لما كان المفترى يفترى لتحصيل مطلوب نفى عنهم الفلاح وبينه بقوله: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ» أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» في الآخرة. «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ» أي في سورة «الأنعام» في قوله: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ» «مِنْ قَبْلُ» متعلق بـ «قَصَصْنَا» أو بـ «حَرَمْنَا». «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ» بالتحريم. «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

«ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ» بسببها أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة، والسوء يعم الافتراء على الله وغيره. «ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا» من بعد التوبة. «لَغَفُورٌ» لذلك السوء. «رَحِيمٌ» يثيب على الإنابة.

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً» لكمال واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقة في أشخاص كثيرة كقوله:

لَيْسَ مِنَ اللَّهِ بِمُسْتَكْرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وهو رئيس الموحدين وقادة المحققين الذي جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة، ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والظعن في النبوة وتحريم ما أحله، أو لأنه كان وحده مؤمناً وكان سائر الناس كفاراً. وقيل هي فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه إذا قصده، أو اقتدى به فإن الناس كانوا يؤمنونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله: «إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا» «قَانِتًا لِلَّهِ» مطيعاً له قائماً بأوامره. «حَنِيفًا» مائلاً عن الباطل. «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ

الصَّالِحِينَ (122)﴾

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة. «اجْتَبَاهُ» للنبوة. «وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» في الدعوة إلى الله. «وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» بأن حبه إلى الناس حتى أن أبواب الملل يتولونه ويثنون عليه، ورزقه أولاداً طيبة وعمراً طويلاً في السعة والطاعة. «وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ» لمن أهل الجنة كما سأل به بقوله: «وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)﴾

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، و «ثُمَّ» إما لتعظيمه والتنبيه على أن أجل ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ملته، أو لتراخي أيامه. «أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد حسب فهمه «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل كان قدوة الموحدين.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

(124)﴾

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ تعظيم السبت، أو التخلي فيه للعبادة. «عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» أي على نبيهم،

وهم اليهود أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأبوا وقالوا: نريد يوم السبت لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض، فالزمهم الله السبت وشدد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى واحتالوا له الحيل، وذكرهم هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقه.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ مِنْ حَسَنٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (125)

﴿أَدْعُ﴾ من بعثت إليهم. ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام. ﴿بِالْحُكْمِ﴾ بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق المزيج للشبهة. ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبر النافعة، فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم. ﴿وَجِدْ لَهُمُ﴾ وجادل معانديهم. ﴿بِالْبَالِغِ﴾ أي أحسن الطرق التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر، والمقدمات التي هي أشهر فإن ذلك أنفع في تسكين لهمهم وتبيين شغبهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بل الله أعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازي لهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (126)

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ لما أمره بالدعوة وبين له طرقها أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة، ومراعاة العدل مع من يناصبهم، فإن الدعوة لا تنفك عنه من حيث إنها تتضمن رفض العادات، وترك الشهوات والقدح في دين الأسلاف والحكم عليهم بالكفر والضلال. وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة وقد مثل به فقال: «والله لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك»، فنزلت. فكفر عن يمينه، وفيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني وليس له أن يجاوزه، وحث على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجه الآكد بقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من الانتقام للمتقين، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (127)

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا بتوقيفه وتثبته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فعل بهم. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضيق صدر من مكروهم، وقرأ ابن كثير في ﴿ضَيْقٍ﴾ بالكسر هنا وفي «النمل» وهما لغتان كالقول والقليل، ويجوز أن يكون الضيق تخفيف ضيق.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (128)

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ المعاصي. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل، أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية».

## سورة بني إسرائيل

[مكية وقيل إلا قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إلى آخر ثمان آيات وهي إحدى عشرة ومائة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِثْنَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحان اسم بمعنى التسبيح ﴿الذي﴾ هو التنزيه وقد يستعمل علماً له فيقطع عن الإضافة ويمنع عن الصرف قال:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مَنْ عُلِّمَهُ الْفَاخِرُ

وانتصابه بفعل متروك اظهاره، وتصدير الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذكر بعد. و ﴿أسرى﴾ وسرى بمعنى، و ﴿ليلاً﴾ نصب على الظرف. وفائدته الدلالة بتكثيره على تقليل مدة الإسراء، ولذلك قرئ: من «الليل». أي بعضه كقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾. ﴿وَمِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعينه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بيننا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذا أتاني جبريل بالبراق». أو «من الحرم» وسماه المسجد الحرام لأنه كله مسجد أو لأنه محيط به، أو ليطابق المبدأ المنتهى. لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته، وقص القصة عليها وقال: «مثل لي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم»، ثم خرج إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً فتعجبوا منه استحالة، وارتد ناس ممن آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدق، فقالوا: أتصدقه على ذلك، قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق، واستنعت طائفة سافروا إلى بيت المقدس فجلى له فطقق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن غيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورك، فخرجوا يشدون إلى الثنية فصادفوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحر مبين وكان ذلك قبل الهجرة بسنة. واختلف في أنه كان في المنام أو في اليقظة بروحه أو بجسده، والأكثر على أنه أسرى بجسده إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، ولذلك تعجب قريش واستحالوه، والاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، وقد برهن في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الأغراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ بيت المقدس لأنه لم يكن حيثئذ وراءه مسجد. ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لدن موسى عليه الصلاة والسلام، ومحفوظ بالأنهار والأشجار.

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ كذابه في برهة من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له، ووقوفه على مقاماتهم، وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات. وقرىء «لبريه» بالياء. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» لأقوال محمد ﷺ. «الْبَصِيرُ» بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2)﴾

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ على أن لا تتخذوا كقولك: كتبت إليك أن افعل كذا. وقرأ أبو عمرو بالياء على «أن لا يتخذوا». «مِنْ دُونِي وَكِيلًا» رباً تكلون إليه أموركم غيري.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3)﴾

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء ان قرىء «أن لا تتخذوا» بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلًا، أو على أنه أحد مفعولي «لا تتخذوا» و «من دوني» حال من «وكيلًا» فيكون قوله: «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا» وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو بدل من واو «تتخذوا»، و «ذرية» بكسر الدال. وفيه تذكير بأنعام الله تعالى عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح عليه السلام في السفينة. «إِنَّهُ» إن نوحاً عليه السلام. «كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماء بأن انجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به. وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقٌ كَبِيرًا (4)﴾

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً مبتوتاً. «فِي الْكِتَابِ» في التوراة. «لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ» جواب قسم محذوف، أو قضينا على إجراء القضاء المبتوت مجرى القسم. «مَرَّتَيْنِ» إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقيل أرمياء. وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام. «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقٌ كَبِيرًا» ولتستكبرن عن طاعة الله تعالى أو لتظلمن الناس.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5)﴾

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ وعد عقاب أولاهما. «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا» بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده. وقيل جالوت الجزري. وقيل سنحاريب من أهل نينوى. «أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ» ذوي قوة وبطش في الحرب شديد. «فَجَاسُوا» فترددوا لطلبكم. وقرىء بالحاء المهملة وهما أخوان. «خِلَالَ الدِّيَارِ» وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد. والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية وعدم المنع. «وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا» وكان وعد عقابهم لا بد أن يفعل.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ﴾ أي الدولة والغلبة. «عَلَيْهِمْ» على الذين بعثوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلب بهمن بن اسفنديار لما ورث الملك من جده كشتاسف بن لهراسف شفقة عليهم، فرد أسراهم إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر، أو بأن سلط الله داود عليه الصلاة والسلام على جالوت فقتله «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا» مما كنتم، والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفروهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْئَوْا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتَّبِرًا﴾ (7)

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فإن وبالها عليها، وإنما ذكرها باللام ازدواجاً. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة. ﴿لِيَسْئَوْا وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ﴿لِيَسْئَوْا وُجُوهَكُمْ﴾ أي يجعلوها بادية آثار المساء فيها، فحذف لدلالة ذكره أولاً عليه. وقرأ ابن عامر وحزمة وأبو بكر «ليسوء» على التوحيد، والضمير فيه للوعد أو للبعث أو لله، ويعضده قراءة الكسائي بالنون وقرئ «لنسوان» بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة، و«لنسوان» بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا واللام في قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ متعلق بمحذوف هو بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا﴾ ليهلكوا. ﴿مَا عَلَوْا﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علومهم. ﴿تَتَّبِرًا﴾ ذلك بأن سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرز، وقيل جردوس قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرايينهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دم قربان لم يقبل منا فقال: ما صدقوني فقتل عليه ألوفاً منهم فلم يهدأ الدم، ثم قال إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً، فقالوا: إنه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم، ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك، فاهداً يا ذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحداً منهم فهداً.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (8)

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الآخرة. ﴿وَإِنْ عُذْتُمْ﴾ نوبة أخرى. ﴿عُدْنَا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ، وقصد قتله فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقيين هذا لهم في الدنيا. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً لا يقدرُونَ على الخروج منها أبد الآباد. وقيل بساطاً كما ييسط الحصير.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (9)

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق. ﴿وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿ويبشر﴾ بالتخفيف.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (10)

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، والمعنى أنه يبشر المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم، أو على ﴿يبشر﴾ بإضمار يخبر.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (11)

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ﴾ ويدعو الله تعالى عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، أو يدعو بما يحسبه خيراً وهو شر. ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. وقيل المراد آدم عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سرتة ذهب لينهض فسقط. روي: أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودة بنت زمعة فرحمته لأنينه فأرخت كتافه، فهرب فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم فقال عليه السلام: اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له فزلت. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وبالدعاء استعجاله بالعذاب استهزاء كقول النضر بن الحارث: اللهم انصر خير

الحزين، ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية. فأجيب له فضرب عنقه صبراً يوم بدر.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانُهُ تَفْصِيلًا (12) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13)﴾

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ تدلان على القادر الحكيم بتعاقبهما على نسق واحد بإمكان غيره. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي الآية التي هي الليل، بالإشراق والإضافة فيهما للتبيين كإضافة العدد إلى المعداد. ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة أو مبصرة للناس من أبصره فبصر، أو مبصراً أهله كقولهم: أجبن الرجل إذا كان أهله جبناء. وقيل الآيتان القمر والشمس، وتقدير الكلام وجعلنا نري الليل والنهار آيتين، أو جعلنا الليل والنهار ذوي آيتين ومحو آية الليل التي هي القمر جعلها مظلمة في نفسها مطموسة النور، أو نقص نورها شيئاً فشيئاً إلى المحاق، وجعل آية النهار التي هي الشمس مبصرة جعلها ذات شعاع تبصر الأشياء بضوئها. ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم. ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ باختلافهما أو بحركاتهما. ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وجنس الحساب. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفنقرون إليه في أمر الدين والدنيا. ﴿فَضْلَانُهُ تَفْصِيلًا﴾ يبيانه بياناً غير ملتبس.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ﴾ عمله وما قدر له كأنه طير إليه من عش الغيب ووكر القدر، لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبروجه، استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد. ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ لزوم الطوق في عنقه. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ هي صحيفة عمله أو نفسه المنتقشة بآثار أعماله، فإن الأعمال الاختيارية تحدث في النفس أحوالاً ولذلك يفيد تكريرها لها ملكات، ونصبه بأنه مفعول أو حال من مفعول محذوف، وهو ضمير الطائر ويعضده قراءة يعقوب، و «يخرج» من خرج و «يخرج» وقرء و «يخرج» أي الله عز وجل ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ لكشف الغطاء، وهما صفتان للكتاب، أو «يلقاه» صفة و «منشوراً» حال من مفعوله. وقرأ ابن عامر «يلقاه» على البناء للمفعول من لقيته كذا.

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)﴾

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ على إرادة القول. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كفى نفسك، والباء مزيدة و «حسبياً» تمييز وعلى صلته لأنه إما بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم وضرب القداح بمعنى ضاربها من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافي فوضع موضع الشهيد، لأنه يكفي المدعي ما أهمه، وتذكيره على أن الحساب والشهادة مما يتولاها الرجال أو على تأويل النفس بالشخص.

﴿مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

رَسُولًا (15)﴾

﴿مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لا ينجي اهتداؤه غيره ولا يردي ضلاله سواه. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس حاملة وزراً نفس أخرى، بل إنما تحمل وزرها. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يبين الحجج ويمهد الشرائع فيلزمهم الحجة، وفيه دليل على أن لا وجوب قبل الشرع.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)﴾

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم لانفاذ قضائنا السابق، أو دنا وقته المقدر كقولهم: إذا أراد المريض أن يموت ازداد مرضه شدة. ﴿أَمْزَنَّا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعيمها بالطاعة على لسان رسول بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة، وقيل أمرناهم بالفسق لقوله: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ كقولك أمرته فقراً، فإنه لا يفهم منه إلا الأمر بالقراءة على أن الأمر مجاز من الحمل عليه، أو التسبب له بأن صب عليهم من النعم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق، ويحتمل أن لا يكون له مفعول منوي كقولهم: أمرته فعصاني. وقيل معناه كثرنا يقال: أمرت الشيء وأمرته فأمر إذا كثرته، وفي الحديث «خير المال سكة مأبورة، ومهرة مأبورة»، أي كثيرة النتائج. وهو أيضاً مجاز من معنى الطلب، ويؤيده قراءة يعقوب «أمرنا» ورواية «أمرنا» عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولاً من أمر بالضم أماره أي جعلناهم أمراء، وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور. ﴿فَحَقَّقْنَا الْقَوْلَ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بحلوله، أو بظهور معاصيهم أو بإنهماكهم في المعاصي. ﴿فَدَمَّرْنَا تَذَمُّرًا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (17)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً أهلكنا. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان لكم وتمييز له. ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كعاد وشمود. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يدرك بواطنها وظواهرها فيعاقب عليها، وتقديم الخبر لتقدم متعلقه.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الصَّالِحَةَ الْعَمَلَةَ عَمَلًا لِّفِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (18)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ مقصوراً عليها همه. ﴿عَمَلًا لِّفِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ قيد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه، ولا كل واجد جميع ما يهواه وليعلم أن الأمر بالمشيئة والهيم فضل. ﴿وَلِمَنْ نُرِيدُ﴾ بدل من له بدل البعض. وقرئ «ما يشاء» والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة. وقيل «لمن» فيكون مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (19) ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا مِنْ عَطَايَ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ يَحْطُرًا﴾ (20) أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعضٍ ولِّلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (21) لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (22) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلِغَنَّ مِنْكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (23) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (24)

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حققها من السعي وهو الإتيان بما أمر به، والانتفاء عما نهى عنه لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة. ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ من الله تعالى أي مقبلاً عنده مثاباً عليه، فإن شكر الله الثواب على الطاعة.

﴿كُلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين بدل من المضاف إليه. ﴿نُمِدُّ﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى



ونجعل آفقه مدداً لسانفه. ﴿هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ بدل من ﴿كَلَّا﴾. ﴿مَنْ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾ من معطاء متعلق بـ ﴿نمذ﴾. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تفضلاً.

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الرزق، وانتصاب ﴿كيف﴾ بـ ﴿فضلنا﴾ على الحال. ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودرجاتها.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته أو لكل أحد. ﴿فَتَقَعَّدَ﴾ فتصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أو فنعجز من قولهم قعد من الشيء إذا عجز عنه. ﴿مَذْمُومًا مَّحْدُولًا﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى، ومفهومه أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به. ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ بأن لا تعبدوا. ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة و ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وبأن تحسنوا، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان لأن صلته لا تتقدم عليه. ﴿إِنَّمَا يَلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ﴿إِذَا﴾ هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً ولذلك صح لحوق النون المؤكدة للفعل، وأحدهما فاعل ﴿يلغن﴾ ويدل على قراءة حمزة والكسائي من ألف «يلغان» الراجع إلى «الوالدين»، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يجز أن يكون تأكيداً للألف، ومعنى ﴿عندك﴾ أن يكونا في كنفك وكفالتك. ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾ فلا تتضجر مما يستقدر منهما وتستثقل من مؤنتهما، وهو صوت يدل على تضجر. وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتضجر، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين وتوينه في قراءة نافع وحفص للتشكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف. وقرئ به منوناً وبالضم للاتباع كمنذ منوناً وغير منون، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الأيذاء قياساً بطريق الأولى. وقيل عرفاً كقولك: فلان لا يملك النقيير والقطمير، ولذلك منع رسول الله ﷺ حذيفة من قتل أبيه وهو في صف المشركين، نهى عما يؤذيهما بعد الأمر بالإحسان بهما. ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ. وقيل النهي والنهر والنهم أخوات. ﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾ بدل التأنيف والنهر. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً لا شراسة فيه.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ تذلل لهما وتواضع فيهما، وجعل للذل جناحاً كما جعل لبيد في قوله:

وَعَدَاةَ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَقَرَةً إِذْ أَصْبَحَتْ بِبَيْدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

للشمال يداً أو للقرة زماماً، وأمره بخفضه مبالغة أو أراد جناحه كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل. وقرئ ﴿الذل﴾ بالكسر وهو الانقياد والنعت منه ذلول. ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك عليهما لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله تعالى إليهما بالأمس. ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكف برحمتك الفانية وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما: ﴿كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ رحمة مثل رحمتها علي وتربيتها وإرشادها لي في صغري وفاء بوعدك للراحمين. روي: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أبوي بلغا من الكبر أنني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما حقهما. قال: لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (25)﴾

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من قصد البر إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديد على أن يضمرا لهما كراهة واستقلالاً. ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين للصلاح. ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ﴾ للتوابين. ﴿غَفُورًا﴾ ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذية أو تقصير، وفيه تشديد عظيم، ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ تَبْذِيرًا (26)﴾

﴿وَأَتَى ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبر عليهم. وقال أبو حنيفة: حقهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم. وقيل المراد بذى القربى أقارب الرسول ﷺ. ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ بصرف المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وأصل التبذير التفرق. «وعن النبي ﷺ أنه قال لسعد وهو يتوضأ: ما هذا السرف قال؛ أو في الوضوء سرف قال؛ نعم وإن كنت على نهر جار».

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)﴾

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة فإن التضییع والاتلاف شر، أو أصدقاءهم وأتباعهم لأنهم يطعونهم في الإسراف والصرف في المعاصي. روي: أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ويذرون أموالهم في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإنفاق في القربات. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ مبالغاً في الكفر به فينبغي أن لا يطاع.

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِبِعَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (130) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ مِنْ رِزْقِهِمْ وَإِن كُنْتُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ كَانِ خَطِئًا كَبِيرًا (31) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا (34) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثَةً بِالْقِسْطِ أَلَمْ تَفْقَهُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35) وَلَا تَقْبُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38) ذَلِكَ صِمًا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)﴾

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد، ويجوز أن يراد بالإعراض عنهم أن لا ينفعهم على سبيل الكناية. ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتكم فتعطيه، أو منتظرين له وقيل معناه لفقد رزق من ربك ترجوه أن يفتح لك فوضع الابتغاء موضعه لأنه مسبب عنه، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاء رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم، والميسور من يسر الأمر مثل سعد الرجل ونحس، وقيل القول الميسور الدعاء لهم بالميسور وهو اليسر مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبدّر، نهى عنهما أمراً بالاعتصام بينهما الذي هو الكرم. ﴿تَتَعَفَّدُ مَلُومًا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير. ﴿مَحْشُورًا﴾ نادماً أو منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه. وعن جابر (بيننا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إن أمي تستكسيك درعاً، فقال ﷺ من ساعة إلى ساعة فعد إلينا، فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرباناً وأذن بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج فأنزل الله ذلك) ثم سلاه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسع ويضيقه بمشيئته التابعة للحكمة البالغة فليس ما يرهقك من الإضافة إلا لمصلحتك. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفي عليهم، ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله تعالى العالم بالسرائر والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته ولا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَهُمُ ارْزَاقٌ﴾ مخافة الفاقة، وقتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم مخافة الفقر فنهاهم عنه وضمن لهم أرزاقهم فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كُنَّا لَهُمْ قَاتِلِينَ﴾ كان خطأ كبيراً ذنباً كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع، والـ ﴿خطأ﴾ الائم يقال خطيء خطأ كائم إثمًا، وقرأ ابن عامر ﴿خطأ﴾ وهو اسم من أخطأ يضاد الصواب، وقيل لغة فيه كمثل ومثل وحذر وحذر. وقرأ ابن كثير ﴿خطاء﴾ بالمد والكسر وهو إما لغة فيه أو مصدر خاطأ وهو وإن لم يسمع لكنه جاء تخاطأ في قوله:

تَخَاطَأَ الْقَنَاصُ حَتَّىٰ وَجَدْتُهُ وَخَرَطُوهُ فِي مَتْنِعِ الْمَاءِ رَاسِبٌ

وهو مبنى عليه وقرئ «خطاء» بالفتح والمد وخطا بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّثَا﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ فعلة ظاهرة القبح زائدته. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقه، وهو الغضب على الالبضاع المؤدي إلى قطع الأنساب وهيج الفتن.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان: وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم عمداً. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مستوجب للقتل. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ﴾ للذي يلي أمره بعد وفاته وهو الوارث. ﴿سُلْطَانًا﴾ تسلطاً بالمؤاخذه بمقتضى القتل على من عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى ﴿مَظْلُومًا﴾ بدل على أن القتل عمداً عدوان فإن الخطأ لا يسمى ظلمًا. ﴿فَلَا يُسْرِفْ﴾ أي القاتل. ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ بأن يقتل من لا يستحق قتله، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الولي بالمثل، أو قتل غير القاتل ويؤيد الأول قراءة أبي «فلا تسرفوا». وقرأ حمزة والكسائي «فلا تسرف» على خطاب أحدهما. ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ علة النهي على الاستئناف والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بشيوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالشواب، وإما لوليه فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته، وإما للذي يقتله الولي إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزيز والوزر على المسرف.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تنصرفوا فيه. ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالطريقة التي هي أحسن. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية لجواز التصرف الذي دل عليه الاستثناء. ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه وفيه به، أو مسؤولاً عنه يسأل الناكث ويعاتب عليه لم نكث؟ أو يسأل العهد تبكيتاً للناكث كما يقال للموودة «بأي

ذنب قتلت»، فيكون تخيلاً ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو رومي عرب ولا يقدح ذلك في عربية القرآن، لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الإعراب والتعريف والتذكير ونحوها صار عربياً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف هنا وفي «الشعراء». ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأحسن عاقبة تفصيل من آل إذا رجع.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع وقرئ ﴿ولا تقف﴾ من قاف أثره إذا قفاه ومنه القافة. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب، واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند، سواء كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى سائغ وشائع. وقيل إنه مخصوص بالعقائد. وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج». وقول الكميت:

وَلَا أَرُوسِي الْبَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الْحَوَاصِنَ إِنْ قَفِينَا

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي كل هذه الأعضاء فأجراها مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها، هذا وإن أولاء وإن غلب في العقلاء لكنه من حيث إنه اسم جمع لذا وهو بعم القبيلين جاء لغيرهم كقوله:

وَالْعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الْأَيَّامُ

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ في ثلاثتها ضمير كل أي كان كل واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني عما فعل به صاحبه، ويجوز أن يكون الضمير في عنه لمصدر ﴿لا تقف﴾ أو لصاحب السمع والبصر. وقيل ﴿مسؤولًا﴾ مسند إلى ﴿عنه﴾ كقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنى يسأل صاحبه عنه، وهو خطأ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم، وفيه دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية. وقرئ ﴿والفؤاد﴾ بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم يبدلها بالفتح.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي ذا مرح وهو الاختيال. وقرئ ﴿مرحاً﴾ وهو باعتبار الحكم أبلغ وإن كان المصدر أكد من صريح النعت. ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بشدة وطأتك. ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك وهو تهكم بالمختال، وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجردة لا تعود بجذوى ليس في التذلل.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة. من قوله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها المكتوبة في ألواح موسى عليه السلام. ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ يعني المنهي عنه فإن المذكورات مأمورات ومناه. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿سَيِّئُهُ﴾ على أنها خبر ﴿كان﴾ والاسم ضمير ﴿كل﴾، و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما نهى عنه خاصة وعلى هذا قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدل من ﴿سَيِّئُهُ﴾ أو صفة لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سيئاً وقد قرئ به، ويجوز أن يتصّب مكرُوهًا على الحال من المستكن في ﴿كان﴾ أو في الظرف على أنه صفة ﴿سَيِّئُهُ﴾، والمراد به المبخوض المقابل للمرضى لا ما يقابل المراد لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المتقدمة. ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ كرهه للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإن من لا قصد له بطل عمله ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاع سعيه، وأنه رأس الحكمة وملاكها، ورتب عليه أولاً ما

هو عائده الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجه في العقبى فقال تعالى: ﴿فَتَلَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك. ﴿مَذْهُورًا﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (40)

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ خطاب لمن قالوا الملائكة بنات الله، والهزمة للإنكار والمعنى: أفخصكم ربكم بأفضل الأولاد وهم البنون. ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ثم يجعل الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله أدونهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (41) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي

الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (42)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا هذا المعنى بوجوه من التقرير. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في مواضع منه، ويجوز أن يراد بهذا القرآن إبطال إضافة البنات إليه على تقدير: ولقد صرّفنا هذا القول في هذا المعنى أو أوقعنا التصريف فيه، وقرئ ﴿صَرَّفْنَا﴾ بالتخفيف. ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ليتذكروا وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ من الذكر الذي هو بمعنى التذكر. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقلة طمأنينة إليه. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعده على أن الكلام مع الرسول ﷺ، ووافقه نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأولى مما أمر الرسول ﷺ، أن يخاطب به المشركين، والثانية مما نزه به نفسه عن مقالته. ﴿إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جواب عن قولهم وجزاء للو والمعنى: لطلبوا إلى من هو مالك الملك سبيلاً بالمعازاة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو بالتقرب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته وعجزهم كقولهم تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (43)

﴿سُبْحَانَهُ﴾ ينزهه. ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾ تعالياً. ﴿كَبِيرًا﴾ متباعداً غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يتمتع بقاؤه.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا

عَفُورًا﴾ (44)

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدود بلسان الحال حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب لذاته. ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم تسبيحهم، ويجوز أن يحمل التسبيح على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يتصور منه وعليهما عند من جوز إطلاق اللفظ على معنیه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر «يسبح» بالياء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم. ﴿عَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (45)

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجبهم عن فهم ما تقرأه

عليهم. ﴿مَسْتُورًا﴾ ذا ستر كقوله تعالى: ﴿وعده مأثياً﴾ وقولهم سيل مفعم، أو مستوراً عن الحس، أو بحجاب آخر لا يفهمون ولا يفهمون أنهم لا يفهمون نفي عنهم أن يفهموا ما أنزل عليهم من الآيات بعدما نفي عنهم التفقه للدلالات المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة كما صرح به بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ نُفُورًا﴾ (46)

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تكنها وتحول دونها عن إدراك الحق وقبوله. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي منعناهم أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم عن استماعه. ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ واحداً غير مشفوع به آلهتهم، مصدر وقع موقع الحال وأصله يحد وحده بمعنى واحداً وحده. ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ نُفُورًا﴾ هرباً من استماع التوحيد ونفرة أو تولية، ويجوز أن يكون جمع نافر كقاعده وعود.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ يَوْمَ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَسْمِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (47)

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ ﴿أعلم﴾ وكذا. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك مضمرون له وحين هم ذوو نجوى يتناجون به، و ﴿نجوى﴾ مصدر ويحتمل أن يكون جمع نجى. ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَسْمِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ مقدر باذكر، أو بدل من ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ على وضع ﴿الظالمون﴾ موضع الضمير للدلالة على أن تناجيتهم بقولهم هذا من باب الظلم، والمسحور هو الذي سُحِرَ فزال عقله. وقيل الذي له سحر وهو الرثة أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مثلكم.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (48) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مِمَّنْ نَحْنُ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنَّا لَنَشْكُرُكَ إِلَّا قَلِيلًا (52) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (53) رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (55)

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق في جميع ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن موجه فيتهاقون ويخبطون كالمتحير في أمره لا يدري ما يصنع أو إلى الرشاد. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ خطأ. ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي ونبوسة الرميم، من المباحدة والمنافاة، والعامل في إذا ما دل عليه مبعوثون لا نفسه لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها و ﴿خَلْقًا﴾ مصدر أو حال. ﴿قُلْ﴾ جواباً لهم. ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها، فإن قدرته تعالى لا تقصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوثة وقد

كانت غضة موصوفة بالحياة قبل الشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَكُنْتُمْ تَرَاباً وما هو أبعد منه من الحياة. ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسُهُمْ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاء. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ فَإِنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وانتصابه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب، و ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ اسم ﴿عَسَى﴾ أو خبره والاسم مضمرة.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي يوم يبعثكم فتنبعثون، استعار لهما الدعاء والاستجابة للتنبيه على سرعتهمما وتيسر أمرهما، وأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء. ﴿يَحْمِلُهُ﴾ حال منهم أي حامدين الله تعالى على كمال قدرته كما قيل إنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، أو متقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه. ﴿وَتَنْظُرُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور كالذي مر على قرية، أو مدة حياتكم لما ترون من الهول.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ يعني المؤمنين. ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة التي هي أحسن ولا يخاشنوا المشركين. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ يهيج بينهم المراء والشر فلعل المخاشنة بهم تفضي إلى العناد وازدياد الفساد. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ظاهر العداوة.

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ تفسير لـ ﴿التي هي أحسن﴾ وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشر مع أن ختام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم تقصرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالاحتمال منهم. وروي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وقيل شتم عمر رضي الله تعالى عنه رجل منهم فهم به فأمره الله بالعفو.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوع أصحابه. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانية والتبرى عن العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع حتى داود عليه الصلاة والسلام فإن شرفه بما أوحى إليه من الكتاب لا بما أوتي من الملك. قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله: ﴿وَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأتمه خير الأمم المدلول عليه بما كتب في الزبور من أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، وتنكيره ها هنا وتعريفه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ لأنه في الأصل فعول للمفعول كالحلوب، أو المصدر كالقبول ويؤيده قراءة حمزة بالضم وهو كالعباس أو الفضل، أو لأن المراد آتينا داود بعض الزبر، أو بعضاً من الزبور فيه ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (56)

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنها آلهة. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون. ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقحط. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (57)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله القربة بالطاعة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل من واو ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم إلى الله الوسيلة فكيف بغير الأقرب. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾

رَحْمَةً وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴿٥٨﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم آلهة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة.

﴿وَلَا يَمْنُنَ مِنَ الْبِلَىٰ إِلَّا تَنَجُّوا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أو مَعَذُوبَهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا

(58) ﴿

﴿وَلَا يَمْنُنَ مِنَ الْبِلَىٰ إِلَّا تَنَجُّوا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ بالموت والاستئصال. ﴿أَوْ مَعَذُوبَهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواع البلية. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مَبْصُرَةً فَفَلَّطَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ إِلَّا نَسْرًا وَلَا تَحْوِينَ﴾ (59) ﴿وَلَا قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيحَ الَّتِي أَمَتْنَا إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفِثُفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (60) ﴿وَلَا قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَنْ تَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (61) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (62) ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَ مُوَفَّرًا﴾ (63) ﴿وَأَسْتَفِيزُ مِنْ أَسْطَفَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَالِكَ وَجَحِيكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (64) ﴿

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ ما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحها قريش. ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سنتنا وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن. ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال:

﴿وَأَتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ﴾ بسؤالهم. ﴿مُبْصُرَةً﴾ بينة ذات أبصار أو بصائر، أو جاعلتهم ذوي بصائر وقرىء بالفتح. ﴿فَفَلَّطَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عقربها. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ أي بالآيات المقترحة. ﴿إِلَّا تَحْوِينَ﴾ من نزول العذاب المستأصل، فإن لم يخافوا نزل أو بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة، فإن أمر من بعثت إليهم مؤخر إلى يوم القيامة، والباء مزيدة أو في موقع الحال والمفعول محذوف.

﴿وَلَا قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهم في قبضة قدرته، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكتهم من أحاط بهم العدو، فهي بشارة بوقعة بدر والتعبير بلفظ الماضي لتحقيق وقوعه. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ ليلة المعراج وتعلق به من قال إنه كان في المنام، ومن قال إنه كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية. أو عام الحديبية حين رأى أنه دخل مكة. وفيه أن الآية مكية إلا أن يقال رآها بمكة وحكاها حينئذ، ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَبْرِكُهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ ولما روي (أنه لما ورد ماءه قال لكأني أنظر إلى مصارع القوم هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، فتسامعت به قريش واستسخرخوا منه). وقيل رأى قوماً من بني أمية يرقون متبره وينزون عليه نزو القردة فقال: «هذا حظهم من الدنيا يعطونه بإسلامهم»، وعلى هذا كان المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ما حدث في أيامهم. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ عطف على ﴿الرُّؤْيَا﴾ وهي شجرة الزقوم، لما سمع المشركون ذكرها قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق بالحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر، ولم يعلموا أن من قدر أن يحمي وبر السمندر من أن تأكله النار، وأحشاء النعامة من أذى الجمر وقطع الحديد المحماة الحمر التي تبتلعها، قدر أن يخلق



في النار شجرة لا تحرقها. ولعنها في القرآن لعن طاعمها وصفت به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعد مكان من الرحمة، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعام ملعون لما كان ضاراً، وقد أولت بالشیطان وأبي جهل والحكم بن أبي العاصي، وقرئت بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والشجرة الملعونة في القرآن كذلك. ﴿وَنَحْوُفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ إلا عتواً متجاوز الحد.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ لمن خلقته من طين، فنصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقته وهو طين، أو منه أي أسجد له وأصله طين. وفيه على الوجوه الثلاثة إيماء بعلّة الإنكار.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صفته والمفعول الثاني محذوف لدلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمرني بالسجود له لم كرمته علي. ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه: ﴿لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأستأصلنهم بالاغواء إلا قليلاً لا أقدر أن أقاوم شكيمتهم، من أحتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الحنك وإنما علم أن ذلك يتسهل له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا﴾ مع التقرير، أو تفرساً من خلقه ذا وهم وشهوة وغضب.

﴿قَالَ أَذْهَبُ﴾ امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه. ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الالتفات. ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ مكملًا من قولهم فر لصاحبك عرضه، وانتصاب جزاء على المصدر بإضمار فعله أو بما في ﴿جَزَاؤَكُمْ﴾ من معنى تجاوزون، أو حال موطئة لقوله ﴿مَوْفُورًا﴾.

﴿وَاسْتَفْزَرُوا﴾ واستخفف. ﴿مَنْ اسْتَطَفَّتْ مِنْهُمْ﴾ أن تستفزه والفز الخفيف. ﴿بَصُوتِكَ﴾ بدعائك إلى الفساد. ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ﴾ وصح عليهم من الجلبة وهي الصياح. ﴿بِغَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ بأعوانك من راكب وراجل، والخيال الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «يا خيل الله اركبي» والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتسلطه على من يغويه بمغوار صوت على قوم فاستفزه من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم. وقرأ حفص ﴿ورجلك﴾ بالكسر وغيره بالضم وهما لغتان كندس وندس ومعناه: وجمعك الرجل. وقرئ و «رجالك» و «رجالك». ﴿وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على ما لا ينبغي. ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب المحرم، والإشراك فيه بتسميته عبد العزى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحرف بالذميمة والأفعال القبيحة. ﴿وَعِدَّهُمْ﴾ المواعيد الباطلة كشفاة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان مواعيده الباطلة، والغرور تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (65)

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ يعني المخلصين، وتعظيم الإضافة والتقييد في قوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ يخصصهم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي على إغوائهم قدرة. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْسِلُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (66)

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي﴾ هو الذي يجري. ﴿لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ الريح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندكم. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هيا لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما تعسر من أسبابه.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا بَلَغْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (67)

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ خوف الغرق. ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾ ذهب عن خواطركم كل من تدعونه في حوادثكم. ﴿إِلَّا إِلَهًُا﴾ وحده فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواه فلا تدعون لكشفه إلا إياه، أو ضل كل من تعبدونه عن إغاثةكم إلا الله. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ من الغرق. ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد. وقيل اتسعت في كفران النعمة كقول ذي الرمة:

عطاء فتى تمكّن في المعالي فأعرض في المكارم واستطالاً

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ كالتعليل للاعراض.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (68) ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا إِلَهًُا يُبَيِّعُكُمْ﴾ (69) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (70) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمْسِكْهُ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَا﴾ (71) ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (72) ﴿وَلَنْ كَادُوا لِيَفْقَهُنَّكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَجِدُوا ذَكَرَكُمْ خَلِيلًا﴾ (73) ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُبَلِّغُوا لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكَنُ إِلَهُٰكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (74)

﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتهم فأمتمتم فحملكم ذلك على الإعراض، فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بالخصف وغيره. ﴿أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أن يقلبه الله وأتم عليه، أو يقلبه بسببكم فيكم حال أو صلة ليخسف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون فيه وفي الأربعة التي بعده، وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل كفروا وأعرضوا وأن الجوانب والجهات في قدرته سواء لا معقل يؤمن فيه من أسباب الهلاك. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصب أي ترمي بالحصباء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم من ذلك فإنه لا راد لفعله.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرتة. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وعن يعقوب بالتاء على إسناده إلى ضمير ﴿الرِّيحِ﴾. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا إِلَهًُا يُبَيِّعُكُمْ﴾ مطالباً باتباعنا بانتصار أو صرف.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه ومن ذلك ما ذكره ابن عباس وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وحملناهم في البر والبحر﴾ على الدواب والسفن من حملته حملاً إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم

فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء. ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم ويغير فعلهم. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جنس الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفرادها والمسألة موضع نظر، وقد أول الكثير بالكل وفيه تعسف.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ نصب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ﴿ولا يظلمون﴾، وقرئ «يدعو» و «يدعي» و «يدعو» على قلب الألف وواو في لغة من يقول أفعو في أفعى، أو على أن الواو علامة الجمع كما في قوله: ﴿وَأَسْرُوا النِّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أو ضميره وكل بدل منه والنون محدوفة لقلة المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع، وهو قد يقدر كما في «يدعي». ﴿كُلُّ أَنَاسٍ بِأَمَانِهِمْ﴾ بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا صاحب كتاب كذا، أي تقطع علاقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال. وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمانياتهم جمع أم كخف وخفاف، والحكمة في ذلك، إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأن لا يقتضح أولاد الزنا. ﴿فَمَنْ أَوْفَى﴾ من المدعويين. ﴿كِتَابَ يَمِينِهِ﴾ أي كتاب عمله. ﴿فَأُولَئِكَ يَفْرُغُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع، وتعليق القراءة بآيات الكتاب باليمين يدل على أن من أوتي كتابه بشماله إذا اطلع ما فيه غشيه من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أيضاً مشعر بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة. ﴿وَأَصْلُ سَبِيلًا﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة. وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه والأعمى مستعار من فاقد الحاسة. وقيل الثاني للتفضيل من عمى بقلبه كالأجهل والأبله ولذلك لم يمله أبو عمرو ويعقوب، فإن أفعال التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه في حكم المتوسطه كما في أعمالكم بخلاف النعت، فإن ألفه واقعة في الطرف لفظاً وحكماً فكانت معرضة للامالة من حيث إنها تصير ياء في الشبهة، وقد أمالهما حمزة والكسائي وأبو بكر، وقرأ ورش بين بين فيهما.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف قالوا لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبي في صلاتنا، وكل رباً لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب لم فعلت ذلك فقل إن الله أمرني. وقيل في قريش قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بالهتنا وتمسها بيدك. وإن هي المخففة واللام هي الفارقة والمعنى: أن الشأن قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستئزاز. ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من الأحكام ﴿لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ غير ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾ ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك بافتتانك ولياً لهم بريئاً من ولايتي.

﴿وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ﴾ ولولا تثبيتنا إياك. ﴿لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم، والمعنى أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدرتكم عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون فضلاً عن أن تركن إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم مع قوة الدواعي. إليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه.

﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفُ الْحَبْرَةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ (75)

﴿إِذَا لَأَذْنُكَ﴾ أي لو قاربت لأذنك. ﴿ضِعْفُ الْحَبْرَةِ وَضِعْفُ الْمَمَاتِ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب

الآخرة ضعف ما نعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات بمعنى مضاعفاً، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، ثم أضيفت كما يضاف موصوفها. وقيل الضعف من أسماء العذاب. وقيل المراد بـ «ضعف الحياة» عذاب الآخرة «وضعف الممات» عذاب القبر. «ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً» يدفع العذاب عنك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (76) سُنَّةٌ مَنْ

قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿77﴾

﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ وإن كاد أهل مكة. «لَيَسْتَفِزُّوكَ» ليزعجوك بمعاداتهم. «مِنَ الْأَرْضِ» أرض مكة. «لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْقَكَ» ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك. «إِلَّا قَلِيلًا» إلا زماناً قليلاً، وقد كان كذلك فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته بسنة. وقيل الآية: نزلت في اليهود حسدوا مقام النبي بالمدينة فقالوا: الشام مقام الأنبياء فإن كنت نبياً فالحق بها حتى نؤمن بك، فوقع ذلك في قلبه فخرج مرحلة فنزلت، فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلي بنو النضير بقليل. وقرىء «لا يلبثوا» منصوباً بـ «إِذَا» على أنه معطوف على جملة قوله: «وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ» لا على خبر كاد فإن إذا لا تعمل إذا كان معتمداً ما بعدها على ما قبلها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص «خلافك» وهو لغة فيه قال الشاعر:

عفت الديار خلافتهم فكأنما بسط الشواطئ بينهن حصيرا

«سُنَّةٌ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا» نصب على المصدر أي سن الله ذلك سنة، وهو أن يهلك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم، فالسنة لله وإضافتها إلى الرسل لأنها من أجلهم ويدل عليه. «وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» أي تغييراً.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (78)

«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ» لزوالها ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «أتاني جبريل للدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر». وقيل لغروبها وأصل التركيب للانتقال ومنه الدلك فإن الدلك لا تستقر يده، وكذا كل ما تركب من الدال واللام: كدلع ودلع ودلف ودله. وقيل الدلوك من الدلك لأن الناظر إليها يدلك عينيه ليدفع شعاعها، واللام للتأقبت مثلها في: ثلاث خلون «إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ» إلى ظلمته وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة. «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ» صلاة الصبح، سميت قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً، واستدل به على وجوب القراءة فيها ولا دليل فيه لجواز أن يكون التجوز لكونها مندوبة فيها، نعم لو فسر بالقراءة في صلاة الفجر دل الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً. «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضيء والنوم الذي هو أخو الموت بالانتباه أو كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجهم الغفير، والآية جامعة للصلوات الخمس إن فسر الدلوك بالزوال والصلوات الليل وحدها إن فسر بالغروب. وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب وقوله «للدلوك الشمس إلى غسق الليل» بيان لمبدأ الوقت ومنتهاه، واستدل به على أن الوقت يمتد إلى غروب الشفق.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (79)

«وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ» وبعض الليل فاترك الجهود للصلاة والضمير لك «قُرْآنًا». «نَافِلَةً لَكَ» فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» مقاماً يحمد القائم فيه وكل من عرفه، وهو مطلق في كل مكان يتضمن كرامة والمشهور أنه

مقام الشفاعة. لما روي أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي» ولإشعاره بأن الناس يحمدونه لقيامه فيه وما ذاك إلا مقام الشفاعة، وانتصابه على الظرف بإضمار فعله أي فيقيمك مقاماً أو بتضمين «يعنك» معناه، أو الحال بمعنى أن يعينك ذا مقام.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81) وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84)﴾

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ أي في القبر. ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ادخالاً مرضياً. ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ أي منه عند البعث. ﴿مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً ملقى بالكرامة. وقيل المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل إدخاله مكة ظاهراً عليها وإخراجه منها آمناً من المشركين. وقيل إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً. وقيل إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقه. وقيل إدخاله في كل ما يلبسه من مكان أو أمر وإخراجه منه. وقرئ ﴿مُدْخَلَ﴾ و ﴿مَخْرَجَ﴾ بالفتح على معنى أدخلني فأدخل دخولاً وأخرجني فأخرج خروجاً. ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حجة تنصرني على من خالفني أو ملكاً ينصر الإسلام على الكفر، فاستجاب له بقوله: ﴿فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمَ الْغَالِبُونَ﴾ «ليظهره على الدين كله» «ليستخلفنهم في الأرض» ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وذهب وهلك الشرك من زهق روحه إذا خرج. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ مضمحلاً غير ثابت، عن ابن مسعود رضي الله عنه (أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلثمائة وستون صنماً ينكت بمخصرته في عين كل واحد منها فيقول جاء الحق وزهق الباطل، فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال: يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسره).

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى، و ﴿مِنْ﴾ للبيان فإن كله كذلك. وقيل إنه للتبعيض والمعنى أن منه ما يشفي من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء. وقرأ البصريان ﴿نزل﴾ بالتخفيف. ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم وكفرهم به.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بالصحة والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله. ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبد بأمره، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان هنا وفي «فصلت» «وناء» على القلب أو على أنه بمعنى نهض. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر. ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قل كل أحد يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أسد طريقاً وأبين منهجاً، وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (85)﴾

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره. ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من الإبداعات الكائنة بـ ﴿كن﴾ من غير مادة وتولد من أصل كأعضاء جسده، أو وجد بأمره وحدث بتكوينه على أن السؤال عن قدمه وحدوثه. وقيل مما استأثر الله بعلمه. لما روي: أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف

وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة. وقيل الروح جبريل وقيل خلق أعظم من الملك وقيل القرآن، ومن أمر ربي معناه من وحيه. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستفيدونه بتوسط حواسكم، فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية. إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل من فقد حساً فقد فقد علماً. ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به، فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى في جواب: وما رب العالمين بذكر بعض صفاته. روي: أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا: أنحن مختصون بهذا الخطاب؟ فقال: بل نحن وأنتم، فقالوا: ما أعجب شأنك ساعة تقول ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. وساعة تقول هذا فنزلت ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ وما قالوا لسوء فهمهم لأن الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير والحق ما تسعه القوة البشرية بل ما ينتظم به معاشه ومعاذه، وهو بالإضافة إلى معلومات الله التي لا نهاية لها قليل ينال به خير الدارين وهو بالإضافة إليه كثيراً.

﴿وَلَيْنُشْنَا لِنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَافٍ (87) قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَالًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)﴾

﴿وَلَيْنُشْنَا لِنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اللام الأولى موطنه للقسم و «لنذهبن» جوابه النائب مناب جزاء الشرط. والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحواه من المصاحف والصدور «ثم لا تجد لك به علينا وكيلًا» من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنة في تنزيهه. «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَافٍ» كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حفظه.

﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى. «لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ» وفيهم العرب العرباء وأرباب البيان وأهل التحقيق، وهو جواب قسم محذوف دل عليه اللام الموطئة، ولولا هي لكان جواب الشرط بلا جزم لكون الشرط ماضياً كقول زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسألة  
يقول لا غائب مالي ولا حرم  
﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجهم عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه، ويجوز أن تكون الآية تقريراً لقوله: «ثم لا تجد لك به علينا وكيلًا».

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان. «لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» من كل معنى كالمثل في غرابته ووقوعه موقعها في الأنفس. «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» إلا جحوداً، وإنما

جاز ذلك ولم يجز: ضربت إلا زيدا لأنه متأول بالنفي.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ تعنتاً واقتراحاً بعد ما لزمتهم الحجة ببيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات إليه. وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿تفجر﴾ بالتخفيف والأرض أرض مكة والينبوع عين لا ينضب ماؤها يفعل من نبع الماء كيعقوب من عب الماء إذا زخر.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أو يكون لك بستان يشتمل على ذلك.

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو كقطع لفظاً ومعنى، وقد سكنه ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي ويعقوب في جميع القرآن إلا في «الروم» وابن عامر إلا في هذه السورة، وأبو بكر ونافع في غيرهما وحفص فيما عدا «الطور»، وهو إما مخفف من المفتوح كسدره وسدر أو فعل بمعنى مفعول كالطحن. ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ كقبيلاً بما تدعيه أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه، أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشر وهو حال من الله وحال الملائكة محذوفة لداليتها عليها كما حذف الخبر في قوله: ﴿فَإِنِّي وَفَّيْتُ بِهَا الْغَرِيبَ﴾. أو جماعة فيكون حالاً من «الملائكة». ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَبْتُ مِنْ زُخْرَفٍ﴾ من ذهب وقد قرئ به وأصله الزينة. ﴿أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ﴾ في معارجها. ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ﴾ وحده. ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه﴾ وكان فيه تصديقك. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة، وقرأ ابن كثير وابن عامر: «قال سبحان ربي» أي قال الرسول: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس. ﴿رَسُولًا﴾ كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى يتخيروها عليّ هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيل فقد ذكر في آيات آخر كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ﴾ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَتَ اللَّهُ بِشَرِّ رَسُولٍ (94)﴾

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي وما منعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَتَ اللَّهُ بِشَرِّ رَسُولٍ﴾ إلا قولهم هذا، والمعنى أنه لم يبق لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن إلا أنكارهم أن يرسل الله بشراً.

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُرُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95)﴾

﴿قُلْ﴾ جواباً لشبهتهم. ﴿لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُرُ﴾ كما يمشي بنو آدم. ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإنس فعامتهم عما عن إدراك الملك والتلقف منه، فإن ذلك مشروط بنوع من التناسب والتجانس، وملكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به وكذلك بشراً والأول أوفق.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا (96)﴾ وَمَنْ يَتَدَنَّسْ بِهِ فَهُوَ مُهْتَدٍ وَمَنْ يُضِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَكَمَا وَصَلْنَا مَا لَهُمْ بِهِمْ كَمَا حَبَّتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَلَا نَأْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌّ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَهْلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِّي الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفَرُوا (99) قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا أَنْتُمْ كُنْتُمْ آتِينَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100) وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى تَسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا (101) ﴿

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزة على وفق دعواي، أو على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم عاندتم وشهداً نصب على الحال أو التمييز. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالهم الباطنة منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ يهدونه. ﴿وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ﴾ يسحبون عليها أو يمشون بها. روي (أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم) ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر وتصاموا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق، ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار مؤفى القوى والحواس. ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكن لهابها بأن أكلت جلودهم ولحومهم. ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً بأن تبدل جلودهم ولحومهم فتعود ملتبهة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزأهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء وإليه أشار بقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدم من عذابهم.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ أو لم يعلموا. ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم ولا الإعادة أصعب عليه من الابداء. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموت أو القيامة. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ مع وضوح الحق. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه، وأنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده كقول خاتم: لو ذات سوار لظمتي. وفائدة هذا الحذف والتفسير المبالغة مع الإيجاز والدلالة على الاختصاص. ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ لبخلتم مخافة النفاق بالانفاق إذ لا أحد إلا ويختار النفع لنفسه ولو أثر غيره بشيء فإنما يؤثره لعوض يفوقه فهو إذن بخيل بالإضافة إلى جود الله تعالى وكرمه هذا وإن البخل أغلب فيهم. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ بخيلاً لأن بناء أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر ونق الطور على بني إسرائيل. وقيل الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة. وعن صفوان أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرفوا ولا تزنا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت، فقبل اليهودي يده ورجله. فعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة للملل الثابتة في كل الشرائع، سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقها في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا، حكم مستأنف زائد على الجواب ولذلك غير فيه سياق الكلام. ﴿فَأَسْأَلُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ قلنا له سلهم من فرعون ليرسلهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله ﷺ ﴿فَسَأَلْ﴾ على لفظ المضى بغير همز وهو لغة قريش و﴿إِذْ﴾ متعلق بقلنا أو أسأل على هذه القراءة أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم، أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك أو لتسلي نفسك، أو لتعلم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأصروا على العناد والمكابرة كمن قبلهم، أو ليزداد يقينك لأن تظاهر الأدلة يوجب قوة اليقين وطمأنينة القلب وعلى هذا كان ﴿إِذْ﴾ نصباً بآيتنا أو بإضمار يخبروك على أنه جواب الأمر، أو بإضمار



اذكر على الاستئناف. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ سحرت فتخبط عقلك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (102)

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون وقرأ الكسائي بالضم على إخباره عن نفسه. ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند وانتصابه على الحال. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر من قولهم: ما برك عن هذا، أي ما صرفك أو هالكاً قارع ظنه بظنه وشتان ما بين الظنين فإن ظن فرعون كذب بحت وظن موسى يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته. وقرئ «وإن أخالك يا فرعون لمثبوراً» على إن المخففة واللام هي الفارقة.

﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (103)

﴿فَارَادَ﴾ فرعون. ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ أن يستخف موسى وقومه وينفيهم. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مصر أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ فعكسنا عليه مكره فاستفزناه وقومه بالإغراق.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (104)

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد فرعون أو إغراقه. ﴿لِيَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزم منها. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الكرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة يعني قيام القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (105)

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين. ولعله أراد به نفي اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب. ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب فلا عليك إلا التبشير والإنذار.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (106)

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾ نزلناه مفروقاً منجماً. وقيل فرقناه فيه الحق من الباطل فحذف الجار كما في قوله: ويوماً شهدناه، وقرئ بالتشديد لكثرة نجومه فإنه نزل في تضاعيف عشرين سنة. ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ على مهل وتؤدة فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ على حسب الحوادث.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (107)

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيده كمالاً وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تعليل له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة، وتمكنوا من الميز بين المحق والمبطل، أو رأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب، ويجوز أن يكون تعليلاً لـ ﴿قُلْ﴾ على سبيل التسلية كأنه قيل: تسل بأيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكثرث بإيمانهم وإعراضهم. ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكراً لانجاز وعده في تلك الكتب بيعته

محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزال القرآن عليه .

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (108)

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عن خلف الموعد . ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعده كائناً لا محالة .

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (109) قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِثٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ نُكْبَرًا (111) ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كرهه لاختلاف الحال والسبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثاني

له أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله، وذكر الذن لأن أول ما يلقي الأرض من وجه الساجد، واللام فيه لاختصاص الخور به . ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماع القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله .

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ نزلت حين سمع المشركون رسول الله يقول: يا الله يا رحمن

فقالوا إنه ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو إلهاً آخر . أو قالت اليهود: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة، والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما يطلقان على ذات واحدة وإن اختلف اعتبار إطلاقهما، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق وعلى الثاني أنهما سيان في حسن الإطلاق والافضاء إلى المقصود وهو أجود لقوله: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتووين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه، و﴿مَا﴾ صلة لتأكيد ما في ﴿أَيًّا﴾ من الإبهام، والضمير في ﴿فله﴾ للمسمى لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه وكونها حسنى لدلالاتها على صفات الجلال والإكرام . ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك حتى تسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها . ﴿وَلَا تَخَافَتْ بِهَا﴾ حتى لا تسمع من خلفك من المؤمنين . ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الجهر والمخافة . ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً فإن آلتصاد في جميع الأمور محبوب . روي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر رضي الله عنه كان يجهر ويقول أطرده الشيطان وأوقف الوسنان، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً . وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلاً بالانخفات نهاراً والجهر ليلاً .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ في الألوهية . ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ ولي يواليه من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته نفي عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير

جنسه اختياراً واضطراً، وما يعاونه ويقويه، ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد، المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة، أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك .

روي أنه ﷺ كان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية، وعنه عليه السلام «من قرأ

سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين، كان له قطار في الجنة» والقطار ألف أوقية ومائتا أوقية . والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .









# أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المعروف

## بنفسير البضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي

طبعة جديدة مصححة منقحة مدققة

تقديم

محمود عبد القادر الأرنؤوط

المجلد الثاني

دار طاهر

بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2001

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهرومستانية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .



تأسست سنة ١٨٦٣

ص.ب ١٠ بيروت ، لبنان

© DAR SADER Publishers

P.O.B. 10 Beirut, Lebanon

Fax: (961) 4.910270

e-mail: dsp@darsader.com

http: www.darsader.com

Anwār al-Tanzīl wa Asrār al-Ta'wīl 1/2

(Nāṣir al-Dīn al-Bīdāwī)

p. 1184 - s. 17.5x25 cm

ISBN 9953-13-004-3



تَفْسِيرُ الْبَيْضَاوِيِّ





[مكية وقيل إلا قوله ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾ الآية وهي مائة وإحدى عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لُؤْلُؤًا (1)﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن، رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لُؤْلُؤًا﴾ شيئاً من العوج باختلال في اللفظ وتناف في المعنى، أو انحراف من الدعوة إلى جناب الحق وهو في المعاني كالعوج في الأعيان.

﴿فَيَسْأَلُ لِنُذِيرٍ لَأَسَ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2)﴾

﴿فَيَسْأَلُ﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، أو ﴿قيماً﴾ بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها، وانتصابه بمضمر تقديره جعله قيماً أو على الحال من الضمير في ﴿له﴾، أو من ﴿الكتاب﴾ على أن الواو ﴿ولم يجعل﴾ للحال دون العطف، إذ لو كان للعطف لكان المعطوف فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديم وتأخير ﴿قيماً﴾. ﴿لِنُذِيرٍ﴾ بأساً شديداً أي لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً، فحذف المفعول الأول اكتفاء بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المسوق إليه. ﴿مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ صادراً من عنده، وقرأ أبو بكر بإسكان الدال كإسكان الباء من سبع مع الإشمام ليدل على أصله، وكسر النون لإلقاء الساكنين وكسر الهاء للإتباع. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة.

﴿مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا (3)﴾

﴿مَّا كُنْتُمْ فِيهِ﴾ في الأجر. ﴿أبدًا﴾ بلا انقطاع.

﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4)﴾

﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره.

﴿قَالُوا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5)﴾

﴿قَالُوا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذ أو بالقول، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب، أو تقليد كما سمعوه من أوثانهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر. أو بالله إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه. ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذين تقولوه بمعنى التبني. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمت مقالاتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريك، وإيهام احتياجه

تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه إلى غير ذلك من الزينج، و ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز وقرئ بالرفع على الفاعلية والأول أبلغ وأدل على المقصود. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لها تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم، والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها. وقيل صفة محذوف هو المخصوص بالذم لأن كبرها هنا بمعنى يثس وقرئ ﴿كَبِيرَتْ﴾ بالسكون مع الإشمام. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿فَلَمَّا لَكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (6) ﴿

﴿فَلَمَّا لَكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ قائلها. ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ إذا ولوا عن الإيمان شبهه لما يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقه أعزته فهو يتحسر على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم. وقرئ ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ على الإضافة. ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسفاً عليهم، والأسف فرط الحزن والغضب. وقرئ «أَنْ» بالفتح على لأن فلا يجوز إعمال «بَاخِعٌ» إلا إذا جعل حكاية حال ماضية.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (7) ﴿

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿زِينَةً لَهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو من زهد فيه ولم يغتر به وقع منه بما يزجي به أيامه وصرفه على ما ينبغي، وفيه تسكين لرسول الله ﷺ.

﴿وَإِنَّا لَجَنَّةٌ لَوْ نَافِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (8) ﴿

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ترهيد فيه، والعجز الأرض التي قطع نباتها. مأخوذ من العجز وهو القطع، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستوياً بالأرض ونجعل له كصعيد أملس لا نبات فيه.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (9) ﴿

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت. ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدة مديدة. ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ وقصتهم بالإضافة إلى خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفاتنة للحصر على طبائع متباعدة وهيئات متخالفة تعجب الناظرين من مادة واحدة، ثم ردها إليها ليس بعجيب مع أنه من آيات الله كالنزر الحقيق. و ﴿الكَهْفِ﴾ الغار الواسع في الجبل. و ﴿الرَّقِيمِ﴾ اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم، أو اسم قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصلت:

وَلَيْسَ بِهِمَا إِلَّا الرَّقِيمُ مُجَاوِرَا وَصَيْدُهُمُ وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُمُجِدُّ

أو لوح رصاصي أو حجري رقت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف. وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون كانوا ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم، فأخذتهم السماء فأووا إلى الكهف فأنحطت صخرة وسدت بابه. فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته، فقال أحدهم: استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم، فغضب أحدهم وترك أجره فوضعت في جانب البيت، ثم مر بي بقر فاشترت به فصيلة فبلغت ما شاء الله، فرجع إلي بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال: إن لي عندك حقاً وذكره لي حتى عرفته فدفعتهما إليه جميعاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا، فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء. وقال آخر: كان في فضل وأصاب الناس شدة، فجاءتني امرأة فطلبت مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثاً، ثم ذكرت لزوجها فقال أجيبني له وأغيثي عيالك، فأنت وسلمت إلي نفسها فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت: ما لك قالت أخاف الله، فقلت لها: خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها، اللهم إن كنت فعلته لوجهك

فأفرج عنا، فانصدع حتى تعارفوا. وقال الثالث كان لي أبوان هرمان وكانت لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي فحبسني ذات يوم غيث فلم أبرح حتى أمسيت، فأتيت أهلي وأخذت محلي فحلبت فيه ومضيت إليهما، فوجدتهما نائمين فشق علي أن أوقظهما، فتوقعت جالساً ومحلي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما. اللهم إن كنت فعلته لوجهك فأفرج عنا. ففرج الله عنهم فخرجوا. وقد رفع ذلك نعمان بن بشير.

﴿إِذَا أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10)﴾

﴿إِذَا أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ يعني فتية من أشرف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا إلى الكهف، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار. ﴿رَشَدًا﴾ نصير بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا كله رشداً كقولك: رأيت منك أسداً وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11)﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماع بمعنى أنماهم إنامة لا تنبههم فيها الأصوات، فحذف المفعول كما حذف في قولهم: بنى على امرأته. ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ﴾ طرفان لضربنا. ﴿عَدَدًا﴾ أي ذوات عدد، ووصف السنين به يحتمل التكثير والتقليل، فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)﴾ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ بَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ أَمَسُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَوَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّوْلَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُصَدِّقُ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّاهُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَعًا (16) ﴿ وَرَى السَّنَسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرَّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكُفَّ عَنْهُمْ وَرَاسِخٌ فِي أَلْوَصِيدٍ لَوْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا (18) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبِّئَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (20)﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً. ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لبثهم. ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ضبط أمد الزمان لبثهم وما في أي من معنى الاستفهام علق عنه لنعلم، فهو مبتدأ و﴿أَحْصَى﴾ خبره. وهو فعل ماضٍ و﴿أَمَدًا﴾ مفعول له و﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ حال منه أو مفعول له، وقيل إنه المفعول واللام مزيدة وما موصولة و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، وقيل ﴿أَحْصَى﴾ اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال وأفلس من ابن المذلق، و﴿أَمَدًا﴾ نصب بفعل دل عليه ﴿أَحْصَى﴾ كقوله:

وَأَضْرَبَ مِثْلًا بِالشُّيُوفِ الْقَوَانِسَا  
 ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبان جمع فتى كصبي وصبية. ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ  
 وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بالتثيت.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وقوبناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجرأة على إظهار الحق  
 والرد على دقيانوس الجبار. ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يديه. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ  
 إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بعد عن الحق مفرط في الظلم.

﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ. ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان. ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ خبره، وهو إخبار في معنى إنكار.  
 ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ﴾ هلا يأتون. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على عبادتهم. ﴿يَسُلْطَانُ بَيْنَ﴾ بمرهان ظاهر فإن الدين لا يؤخذ إلا به،  
 وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود وأن التقليد فيه غير جائز. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى  
 اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب بعضهم لبعض. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب، أي  
 وإذا اعتزلتم القوم ومعبودهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين. ويجوز أن  
 تكون ﴿مَا﴾ مصدرية على تقدير وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، وأن تكون نافية على أنه إخبار من  
 الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين ﴿إِذْ﴾ وجوابه لتحقيق اعتزالهم. ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ  
 رَبُّكُمْ﴾ يسط الرزق لكم ويوسع عليكم. ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ في الدارين. ﴿وَيُخَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ ما  
 ترتفقون به أي تنتفعون، وجزمهم بذلك لنصوح يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى، وقرأ نافع وابن عامر  
 ﴿مِرْفَقًا﴾ بفتح الميم وكسر الفاء وهو مصدر جاء شاذاً كالمرجع والحيض فإن قياسه الفتح.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ لو رأيتمهم، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرَّ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾  
 تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهف كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زورها عنهم. وأصله  
 تزاور فأدغمت التاء في الزاي، وقرأ الكوفيون بحذفها وابن عامر ويعقوب «تزور» كتحمر، وقرئ «تزاور»  
 كتحمار وكلها من الزور بمعنى الميل. ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة ذات اسم اليمين. ﴿وَإِذَا  
 غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ﴾ تقطعهم وتصرم عنهم. ﴿ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ يعني يمين الكهف وشماله لقوله: ﴿وَهُمْ فِي قَعْوَةٍ  
 مِنْهُ﴾ أي وهم في متسع من الكهف، يعني في وسطه بحيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر  
 الشمس، وذلك لأن باب الكهف في مقابلة بنات نعش، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس  
 السرطان ومغربه، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأبيض وهو الذي يلي  
 المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبه، ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع  
 عليهم فيؤذي أجسادهم ويولي ثيابهم. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي شأنهم وإيواؤهم إلى كهف شأنه كذلك، أو  
 إخبارك قصتهم، أو ازوار الشمس عنهم وقرضها طالعة وغاربة من آيات الله. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بالتوفيق.  
 ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما الثناء عليهم أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة  
 ولكن المتنتفع بها من وفقه الله للتأمل فيها والاستبصار بها. ﴿وَمَنْ يَضِلَّ﴾ ومن يخذله. ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا  
 مُرْشِدًا﴾ من يليه ويرشده:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلبهم. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. ﴿وَتَقْلِبُهُمْ﴾ في رقدتهم.  
 ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان. وقرئ «ويقلبهم»  
 بالياء والضمير لله تعالى، و «تَقْلِبُهُمْ» على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبهم أي وترى تقلبهم.  
 ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ هو كلب مروا به فتبعهم فطرده فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم.

أو كلب راع مروا به فتبعهم وتبعه الكلب، ويؤيده قراءة من قرأ: و «كالبهم» أي وصاحب كلبهم. ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل. ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بفناء الكهف، وقيل الوصيد الباب، وقيل العتبة. ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فنظرت إليهم، وقرئ ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ﴾ بضم الواو. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فَرَارًا﴾ لهربت منهم، و ﴿فَرَارًا﴾ يحتمل المصدر لأنه نوع من التولية والعلة والحال. ﴿وَلَمُلِّتْ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ خوفاً يملأ صدرك بما ألبسهم الله من الهيبة أو لعظم أجرامهم وانفتاح عيونهم. وقيل لوحشة مكانهم. وعن معاوية رضي الله عنه أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فَرَارًا﴾ فلم يسمع وبعث ناساً فلما دخلوا جاءت ريح فأحرقتهم. وقرأ الحجازيان ﴿لَمُلِّتْ﴾ بالتشديد للمبالغة وابن عامر والكسائي ويعقوب ﴿رُعْبًا﴾ بالثقل.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وكما أنماهم آية بعثناهم آية على كمال قدرتنا. ﴿لِيَسْأَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً فتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى، ويستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على غالب ظنهم لأن النائم لا يحصي مدة نومه ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى. ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قول بعضهم وهذا إنكار الآخرين عليهم. وقيل إنهم دخلوا الكهف غدوة وانبهوا ظهيرة وظنوا أنهم في يومهم أو اليوم الذي بعده قالوا ذلك، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا هذا ثم لما علموا أن الأمر ملتبس لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهيمهم وقالوا: ﴿فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وحزمة وروح عن يعقوب بالتخفيف. وقرئ بالتثقل وإدغام القاف في الكاف وبالتخفيف مكسور الواو مدغماً وغير مدغم، ورد المدغم لإلتقاء الساكنين على غير حده، وحملهم له دليل على أن التزود رأي المتوكلين والمدينة طرسوس. ﴿فَلْيَنْظُرْ آيُّهَا﴾ أي أهلها. ﴿أَزَكَّى طَعَامًا﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص. ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَسَلِّطْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن، أو في التخفي حتى لا يعرف. ﴿وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم، والضمير للأهل المقدر في ﴿آيُّهَا﴾. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرحم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيروكم إليها كرهاً من العود بمعنى الصيرورة. وقيل كانوا أولاً على دينهم فأمّنوا. ﴿وَلَنْ تَقْلَحُوا إِذَا أَكْبَدَا﴾ إن دخلتم في ملتهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21)﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ وكما أنماهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم أطلعنا عليهم. ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم. ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعث. ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانبهائهم كحال من يموت ثم يبعث. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن القيامة لا ريب في إمكانها، فإن من توفى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنين حافظاً أبدانها عن التحلل والتفتت، ثم أرسلها إليها قدر أن يتوفى نفوس جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يحشر أبدانهم فيردها عليها. ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ ظرف لـ ﴿أَعْرَضْنَا﴾ أي أعرضنا عنهم حين يتنازعون. ﴿يَبْنِيهِمْ أَمْرُهُمْ﴾ أمر دينهم، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواح مجردة وبعضهم يقول يبعثان معاً ليرتفع الخلاف ويتبين أنهما يبعثان معاً، أو أمر الفتية حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم، ماتوا وقال آخرون ناموا نومهم أول مرة، أو قالت طائفة نبي عليهم نبياً يسكنه الناس ويتخذونه

قربة، وقال آخرون لتتخذن عليهم مسجداً يصلى فيه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ وقوله ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ اعتراض إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين أو من المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازعين للرد إلى الله بعد ما تذكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم فلم يتحقق لهم ذلك. حكى أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك - وكان نصرانياً موحداً - فقص عليه القصص، فقال بعضهم: إن آبائنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبني عليهم مسجداً. وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولاً ثلاثا يفزعوا، فدخل فعمي عليهم المدخل فبنوا ثم مسجداً.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (22)

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين. ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة رجال يربعهم كلبهم بانضمامه إليهم. قيل هو قول اليهود وقيل هو قول السيد من نصارى نجران وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى أو العقاب منهم وكان نسطورياً. ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يرمون رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع لهم عليه وإتياناً به، أو ظناً بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن وإنما لم يذكر بالسين إكتفاء بعطفه على ما هو فيه. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليهما الصلاة والسلام وإيماء الله تعالى إليه بأن أتبعه قوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأتبع الأولين قوله رجماً بالغيب وبأن أثبت العلم بهم لطائفة بعد ما حصر أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد رابع في نحو هذا المحل دليل عدم مع أن الأصل ينفيه، ثم رد الأولين بأن أتبعهما قوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ليتعين الثالث وبأن أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفة للكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة، لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن انصافه بها أمر ثابت. وعن علي رضي الله عنه هم سبعة وثامنهم كلبهم وأسماءهم: يملیخا ومکشلینیا ومشلینیا هؤلاء أصحاب يمين الملك، ومرونش ودبرنوش وشاذنوش أصحاب يساره وكان يستشيرهم، والسابع الراعي الذي وافقهم واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم أفسوس. وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب والقليل منهم. ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن نقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والرد عليهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد فإن فيما أوحى إليك لمدوحة من غيره، مع أنه لا علم لهم بها ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول وتزييف ما عنده فإنه مخل بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَقُولْ لِنِسَاءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (23) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (24)

﴿وَلَا تَقُولْ لِنِسَاءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نهى تأديب من الله تعالى لنبية حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه فقال: «أتتوني غداً أخبركم» ولم يستثن فابطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبه قريش. والاستثناء من النهي أي ولا تقولن



لأجل شيء تعزم عليه إنني فاعله فيما يستقبل إلا ب ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، أي إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً إن شاء الله أو إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله بمعنى أن يأذن لك فيه، ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهي ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ مشيئة ربك وقل إن شاء الله. كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ». ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك ثم تذكرته. وعن ابن عباس ولو بعد سنة ما لم يحنث، ولذلك جوز تأخير الاستثناء عنه. وعامة الفقهاء على خلافه لأنه لو صح ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب، وليس في الآية والخبر أن الاستثناء المتدارك به من القول السابق بل هو من مقدر مدلول به عليه، ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه، أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليعثك على التدارك، أو أذكره إذا اعتراك النسيان ليزكرك المنسي. ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي﴾ يدلني. ﴿لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رشداً وأظهر دلالة على أنني نبي من نبأ أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظم من ذلك كقصص الأنبياء المتباعدة عنه أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلية إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسي.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (25)

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ يعني لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم، وهو بيان لما أجمل قبل. وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لبثهم كما اختلفوا في عدتهم فقال بعضهم ثلاثمائة وقال بعضهم ثلثمائة وتسع سنين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد، ويحسنه ها هنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع ومن لم يصف أبدل السنين من ثلثمائة.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (26)

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها، فلا خلق يخفي عليه علماً. ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ﴾ ذكر بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عما عليه إدراك السامعين والمبصرين، إذ لا يحجبه شيء ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف وصغير وكبير وخفي وجلي، والهاء تعود إلى الله ومحلها الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سبويه وكان أصله أبصر أي صار ذا بصر، ثم نقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء، فبرز الضمير لعدم لياق الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى ﴿وَكُفِيَ بِهِ﴾ والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهزمة للتعدي وامتدعية إن كانت للصيرورة. ﴿مَا لَهُمْ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض. ﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ من يتولى أمورهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه. ﴿أَحَدًا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً. وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالتاء والجزم على نهى كل أحد عن الإشراك، ثم لما دل اشتمال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث إنها من المغيبات بالإضافة إلى رسول الله على أنه وحي معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم أصحابه فقال:

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلُ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا﴾ (27)

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من القرآن، ولا تسمع لقولهم ﴿أَنْتَ بقرآن غير هذا أو بدله﴾.

﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره. ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ تعدل إليه إن هممت به.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (28)

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحسبها وثبتها. ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ في مجامع أوقاتهم، أو في طرفي النهار. وقرأ ابن عامر «بالغدوة» وفيه أن غدوة علم في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ رضا الله وطاعته. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، وتعديته بعن لتضمينه معنى نبأ. وقرىء «ولا تعد عينيك» ﴿ولا تعد﴾ من أعداء وعداء. والمراد نهى الرسول ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثائه زيههم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حال من الكاف في المشهورة ومن المستكن في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً. ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ كأمية بن خلف في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش. وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعه كان مثله في الغباوة. والمعتزلة لما غاظهم إسناد الإغفال إلى الله تعالى قالوا: إنه مثل أجبته إذا وجدته كذلك أو نسبته إليه، أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي لم نسمة بذكرنا قلوب الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان، واحتجوا على أن المراد ليس ظاهر ما ذكر أولاً بقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وجوابه ما مر غير مرة. وقرىء «أغفلنا» بإسناد الفعل إلى القلب على معنى حسبنا قلبه غافلين عن ذكرنا إياه بالمواخذة. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال: فرس فرط أي متقدم للخيل ومنه الفرط.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَيْسِفُوا يَفْثُقُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (29)

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى، ويجوز أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف و ﴿من ربكم﴾ حالاً. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ لا أبالي بإيمان من آمن ولا كفر من كفر، وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئته فمشيئته ليست بمشيئته. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيئنا. ﴿لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فسطاطها، شبه به ما يحيط بهم من النار. وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط. وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار ﴿وَأَنْ يَسْتَيْسِفُوا﴾ من العطش. ﴿يَفْثُقُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ﴾ كالجسد المذاب. وقيل كدردي الزيت وهو على طريقة قوله: فأعتبوا بالصيلم. ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ إذا قدم ليشرب من فرط حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل أو الضمير في الكاف. ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ المهل. ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار. ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكاً وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد، وهو لمقابلة قوله وحسنت مرتفقاً وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلِّفُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31) ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (32) كِلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْثَرُهَا وَلَمْ يُظْلِمِرْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (33) وَكَانَ لِكُلِّ مَرْمَرٍ قَالِ لِيَصْحَبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ

أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (37) ﴿

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبر إن الأولى وهي الثانية بما في حيزها، والراجع محذوف تقديره من أحسن عملاً منهم أو مستغنى عنه بعموم من أحسن عملاً كما هو مستغنى عنه في قولك: نعم الرجل زيد، أو واقع موقعه الظاهر فإن من أحسن عملاً لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وما بينهما اعتراض وعلى الأول استئناف لبيان الأجر أو خبر ثان. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ من الأولى للإبتداء والثانية للبيان صفة لـ ﴿أَسَاوِرَ﴾، وتنكيره لتعظيم حسناتها من الإحاطة به وهو جمع أسورة أو أسوار في جمع سوار. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة. ﴿مِنْ سُتُودٍ وَاشْتَبِرَقٍ﴾ نمارق من الدياج وما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على السرر كما هو هيئة المتنعمين. ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ الجنة ونعيمها. ﴿وَحَسَنَتْ مَرْفَعَتُهَا﴾ متكا.

﴿وَأَصْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا﴾ للكافر والمؤمن. ﴿رَجُلَيْنِ﴾ حال رجلين مقدرين أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيل كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل الممثل بهما أخوان من بني مخزوم كافر وهو الأسود بن عبد الأشد ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ ﴿جَعَلْنَا لَاحِدَهُمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين. ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ من كروم والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة للرجلين. ﴿وَحَفَفْنَا هُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بهما مؤزراً بها كرومهما، يقال حفه القوم إذا أطافوا به وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشيته به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطهما. ﴿زُرْعًا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنبي.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا ثَمَرًا﴾ وإفراد الضمير لإفراد ﴿كِلْتَا﴾ وقرئ «كل الجنتين آتى أكله». ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ﴾ ولم تنقص من أكلها. ﴿شَيْئًا﴾ يعهد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهاؤهما، وعن يعقوب ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بالتخفيف.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين من ثمر ماله إذا كثره. وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم والباقون بضمهما وكذلك في قوله ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجع في الكلام من حار إذا رجع. ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حَسْماً وأعواناً. وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفرون معه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها، وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون، أو لاتصال كل واحد من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ضار لها بعجبه وكفره ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أن تفتنى. ﴿هَذِهِ﴾ الجنة. ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة. ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كما زعمت. ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ من جنته، وقرأ الحجازيان والشامي «منهما» أي من الجنتين. ﴿مُتْقِلًا﴾ مرجعاً وعاقبة لأنها فانية وتلك باقية، وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه لاستهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإنها مادتك القريبة. ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ثم عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأ الشك في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب فإن من قدر على بدء خلقه منه قدر أن يعيده منه.

﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (38)

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة أو دونه فتلاقت النونان فكان الإدغام، وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف، وقد قرئ «لكن أنا» على الأصل وهو ضمير الشأن وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبر «أنا» أو ضمير «الله» و «الله» بدله وربى خبره والجملة خبر «أنا» والاستدراك من أكفرت كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به، وقد قرئ «لكن هو الله ربي ولكن أنا لا إله إلا هو ربي».

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (39)

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ وهلا قلت عند دخولها. ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن على أن ما موصولة، أو أي شيء شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقلت لا قوة إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وإن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونته وإقداره. وعن النبي ﷺ «من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره». ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يحتمل أن يكون أنا فصلاً وأن يكون تأكيداً للمفعول الأول، وقرئ «أقل» بالرفع على أنه خبر «أنا» والجملة مفعول ثان لـ «تَرَنِ»، وفي قوله «وولداً» دليل لمن فسر النفر بالأولاد.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (40)

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنتك لكفرتك. ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ مرامي جمع حسبانة وهي الصواعق. وقيل هو مصدر بمعنى الحساب والمراد به التقدير بتخريبها أو عذاب حساب الأعمال السيئة. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (41)

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً. في الأرض مصدر وصف به كالزلق. ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ للماء الغائر تردداً في رده.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا

(42)

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ وأهلك أمواله حسبما توقعه صاحبه وأنذره منه، وهو مأخوذ من أحاط به العدو فإنه

إذا أحاط به غلبه وإذا غلبه أهلكه، ونظيره أتى عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلاً عليهم. ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْبَهُ﴾ ظهراً لبطن تلهفاً وتحسراً. ﴿عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها وهو متعلق بـ ﴿يَقْلُبُ﴾ لأن تقلب الكفين كناية عن الندم فكانه قيل: فأصبح يندم، أو حال أي متحسراً على ما أنفق فيها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشها على الأرض وسقطت الكروم فوقها عليها. ﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على ﴿يَقْلُبُ﴾ أو حال من ضميره. ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بسنانه، ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما سبق منه.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِراً﴾ (43)

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه. ﴿يَنْصُرُونَهُ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك أو رد المهلك أو الإتيان بمثله. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده. ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِراً﴾ وما كان متمتعاً بقوته عن انتقام الله منه.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (44)

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلك الحال. ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ النصرة له وحدة لا يقدر عليها غيره تقديره لقلوله ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ﴾ أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر ومعناه السلطان والملك أي هنالك السلطان له لا يغلب ولا يمنع منه، أو لا يعبد غيره كقوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكبُوا الْفَلَكَ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيكون تنبيهاً على أن قوله ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ﴾ كان عن اضطرار وجزع مما دهاه. وقيل ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الآخرة وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿الْحَقِّ﴾ بالرفع صفة للولاية، وقرئ بالنصب على المصدر المؤكد، وقرأ عاصم وحمزة ﴿عُقْبًا﴾ بالسكون، وقرئ ﴿عُقْبَى﴾ وكلها بمعنى العاقبة.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (45)

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أو صفتها الغريبة. ﴿كَمَا﴾ هي كماء ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لـ ﴿أَضْرَبَ﴾ على أنه بمعنى صير. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتفت بسببه وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثره، أو نجع في النبات حتى روى ورف وعلى هذا كان حقه فاختلط بنبات الأرض لكنه لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً. ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه، وقرئ «تذريه» من أذرى والمشبّه به ليس الماء ولا حاله بل الكيفية المنتزعة من الجملة، وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفاً ثم هشيماً تطيره الرياح فيصير كأن لم يكن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ قادرًا. والإفناء.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَلًا﴾ (46)

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يتزين بها الإنسان في دنياه وتفنّى عنه عما قريب. ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وأعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الأبد، ويندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والكلام الطيب. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ

رَبِّكَ ﴿ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ . ﴿تَوَابًا﴾ عاتدة . ﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾ لَأَن صَاحِبَهَا يَنَالُ بِهَا فِي الْآخِرَةِ مَا كَانَ يُؤْمَلُ بِهَا فِي الدُّنْيَا .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) ﴾

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ واذكر يوم نقلعها ونسيرها في الجو ، أو نذهب بها فنجعلها هباء منبثاً . ويجوز عطفه على ﴿عند ربك﴾ أي الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بالتاء والبناء للمفعول وقرئ «تسير» من سارت . ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ بادية برزت من تحت الجبال ليس عليها ما يسترها ، وقرئ «وترى» على بناء المفعول . ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم إلى الموقف ، ومجيئه ماضياً بعد «نسير» «وترى» لتحقيق الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وعد لهم ، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد . ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ فلم نترك . ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر تركك الوفاء والغدير لما غادره السيل ، وقرئ بالياء .

﴿ وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لِّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ رَعَمْتُمْ لَنَ تَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48) ﴾

﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شبه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان لا ليعرفهم بل ليأمر فيهم . ﴿صَفًا﴾ مصطفين لا يحجب أحد أحد . ﴿لِّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وجه يكون حالاً أو عاملاً في يوم نسير . ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة لا شيء معكم من المال والولد كقوله ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ أو أحياء كخلقتكم الأولى لقوله : ﴿بَلْ رَعَمْتُمْ أَن لَّنْ نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز الوعد بالبعث والنشور وأن الأنبياء كذبوكم به ، وبل للخروج من قصة إلى أخرى .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَالِ هَذَا الَّذِي كُنَّا لَا نُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49) ﴾

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ صحائف الأعمال في الأيمان والشمال أو في الميزان وقيل هو كناية عن وضع الحساب . ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين . ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب . ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات . ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ تعجباً من شأنه . ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ هنة صغيرة . ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ إلا عددها وأحاط بها . ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصحف . ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يفعل أو يزيد في عقابه الملائم لعمله .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) ﴾ ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصِيدًا (51) ﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَاصْرِفًا (53) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَوَيْنَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فُبُلًا (55) ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ كرره في مواضع لكونه مقدمة للأمور المقصود بيانها في تلك المحال ، وها هنا لما شنع على المفتخرين واستقبح صنيعهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليس ، أو لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان . زهدهم أولاً

في زخارف الدنيا بأنها عرضة الزوال والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفسها وأعلامها، ثم نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العدواة القديمة وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن. ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ حال بإضمار قد أو استئناف للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجد فقيل كان من الجن. ﴿فَفَسَّقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فخرج عن أمره بترك السجود والفاء للسبب، وفيه دليل على أن الملك لا يعصى البتة وإنما عصى إبليس لأنه كان جنياً في أصله والكلام المستقصى فيه في سورة «البقرة». ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أعقيب ما وجد منه تتخذونه والهمزة للإنكار والتعجب. ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أولاده أو أتباعه، وسماهم ذرية مجازاً. ﴿أَوَّلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فتستبدلونهم بي فطيعونهم بدل طاعتي. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى إبليس وذريته، ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾. نفى إحضار إبليس وذريته خلق السموات والأرض وإحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفى الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياء من دون الله شركاء له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها، فوضع ﴿المضلين﴾ موضع الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم. وقيل الضمير للمشركين والمعنى: ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا اتبعهم الناس كما يزعمون، فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد بالمضلين لديني. ويعضده قراءة من قرأ ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ على خطاب الرسول ﷺ، وقرئ ﴿متخذاً المضلين﴾ على الأصل و﴿عضداً﴾ بالتخفيف و﴿عضداً﴾ بالاتباع و﴿عضداً﴾ كخدم جمع عاضد من عضده إذا قواه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله تعالى للكافرين وقرأ حمزة بالنون. ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي، وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ والمراد ما عُبد من دونه، وقيل إبليس وذريته. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادوهم للإغاثة. ﴿قُلْهُمْ يَسْتَحْيُوا لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين الكفار والهة. ﴿مَوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة هي في شدتها هلاك كقول عمر رضي الله عنه: لا يكن جبك كلفاً ولا بغضك تلفاً. و﴿موبقاً﴾ اسم مكان أو مصدر من وبق يوبق وبقا إذا هلك. وقيل البين الوصل أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ فأيقنوا. ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا﴾ مخالطوها واقعون فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرفاً أو مكاناً ينصرفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾ يتأتى منه الجدل. ﴿جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل وانتصابه على التمييز.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ من الإيمان. ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين. ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلب أو انتظار أو تقدير أن تأتيتهم سنة الأولين، وهي الاستئصال فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عذاب الآخرة. ﴿قُبْلًا﴾ عياناً. وقرأ الكوفيون ﴿قُبْلًا﴾ بضمين وهو لغة فيه أو جمع قبيل بمعنى أنواع، وقرئ بفتحين وهو أيضاً لغة يقال لغتيته مقابلة وقبلاً وقبلاً، وانتصابه على الحال من الضمير أو ﴿العذاب﴾.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيَجِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ يُدْحِضُونَ بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي

وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (56)﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للمؤمنين والكافرين. ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً. ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال. ﴿الْحَقَّ﴾ عن مقره ويطلوه، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وذلك قولهم للرسول ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ونحو ذلك. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ يعني القرآن. ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ وإنذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ استهزاء. وقرئ «هَؤُلَاءِ» بالسكون وهو ما يستهزأ به على التقديرين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلِئْسَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ إِلَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (57) ﴿

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بالقرآن. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها ولم يتذكر بها. ﴿وَلِئْسَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يفكر في عاقبتها. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، وتذكير الضمير وإفراده للمعنى. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون وإذا عرفوا جزاء وجواب للرسول ﷺ على تقدير قوله ما لي لا أدعوه، فإن حرصه ﷺ على إسلامهم يدل عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ (58) ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (59) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّى أَتِلِّغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (60) ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (61) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا لَنَاقِدُ لَقِيْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا﴾ (62) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (63) ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (64) ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (65) ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ (66) ﴿

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة. ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ استشهاد على ذلك بإمهال قريش مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو يوم بدر أو يوم القيامة. ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ منجاً ولا ملجأ، يقال وأل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ يعني قرى عاد وثمود وأضرابهم، ﴿وتلك﴾ مبتدأ خبره. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أو مفعول مضمر مفسر به، و ﴿القرى﴾ صفته ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجع الضمائر. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كقريش بالكذب والمراء وأنواع المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ لإهلاكهم وقتاً معلوماً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليعتبروا بهم ولا يغترون بتأخير العذاب عنهم، وقرأ أبو بكر ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وحقق بكسر اللام حملاً على ما شد من مصادر يفعل كالمرجع والمحض.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ مقدر باذكر. ﴿لِفَتْنِهِ﴾ يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام



فإنه كان يخدمه ويتبعه ولذلك سماه فتاه وقيل لعبده. ﴿لَا أُبْرِحُ﴾ أي لا أزال أسير فحذف الخبر لدلالة حالة وهو السفر وقوله: ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ من حيث إنها تستدعي ذا غاية عليه، ويجوز أن يكون أصله لا يبرح مسيري حتى أبلغ على أن حتى أبلغ هو الخبر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فانقلب الضمير والفعل وأن يكون ﴿لَا أُبْرِحُ﴾ هو بمعنى لا أزل عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبر، و ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وعِدَّ لقاء الخضر فيه. وقيل البحرين موسى وخضر عليهما الصلاة والسلام فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن. وقرئ ﴿مَجْمَعٌ﴾ بكسر الميم على الشذوذ من يفعل كالمشرق والمطلع ﴿أَوْ أَفْضِي حُقْبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً، والمعنى حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مضي الحقب أو حتى أبلغ إلا أن أمضي زماناً أتيقن معه فوات المجمع، والحقب الدهر وقيل ثمانون سنة وقيل سبعون. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها فقليل له: هل تعلم أحداً أعلم منك فقال: لا، فأوحى الله إليه بل أعلم منك عبدنا الخضر وهو بمجمع البحرين، وكان الخضر في أيام افريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأبي عبادك أفضى؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال فأبي عبادك أعلم؟ قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، فقال إن كان في عبادك أعلم مني فادللني عليه، قال أعلم منك الخضر قال: أين أطليه، قال على الساحل عند الصخرة، قال كيف لي به قال تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ أي مجمع البحرين و ﴿بَيْنَهُمَا﴾ ظرف أضيف إليه على الاتساع أو بمعنى الوصل. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلبه ويتعرف حاله، ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. روي: أن موسى عليه السلام رقد فاضطرب الحوت المشوي ووثب في البحر معجزة لموسى أو الخضر. وقيل توشع يوشع من عين الحياة فانتضج الماء عليه فعاش ووثب في الماء. وقيل نسيا تفقد أمره وما يكون منه أمانة على الظفر بالمطلوب ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلماً من قوله ﴿وسارب بالنهار﴾. وقيل أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه، ونصبه على المفعول الثاني وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز تعلقه باتخاذ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين. ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ ما نتغدى به. ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قيل لم ينصب حتى جاوز الموعد فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقى عليه الجوع والنصب. وقيل لم يعي موسى في سفر غيره ويؤيده التقييد باسم الإشارة.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا﴾ أرأيت ما دهاني إذ أويانا. ﴿إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى. وقيل هي الصخرة التي دون نهر الزيت. ﴿فَأَنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت منه. ﴿وَمَا أَنْسَانِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان فإن ﴿أَن أَذْكُرَهُ﴾ بدل من الضمير، وقرئ ﴿أَن أَذْكُرْكَ﴾. وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه، والحال وإن كانت عجيبة لا ينسى مثلاً لكنه لما ضرى بمشاهدة أمثالها عند موسى وألفها قل اهتمامه بها، ولعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عراه من مشاهدة الآيات الباهرة، وإنما نسبته إلى الشيطان هضمًا لنفسه أو لأن عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعد من نقصان. ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسرب أو اتخاذ عجباً، والمفعول الثاني هو الظرف وقيل هو مصدر

فعله المضمّر أي قال في آخر كلامه، أو موسى في جوابه عجباً تعجباً من تلك الحال. وقيل الفعل لموسى أي اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً.

﴿قَالَ ذَلِكَ﴾ أي أمر الحوت. ﴿مَا كُنَّا نَنْعِ﴾ نطلب لأنه أمانة المطلوب. ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ فرجعا في الطريق الذي جاء فيه. ﴿قَصَصًا﴾ يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً، أو مقتصين حتى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الجمهور على أنه الخضر عليه السلام واسمه بلياً بن ملكان. وقيل اليسع. وقيل إلياس. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ هي الوحي والنبوة. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ على شرط أن تعلمني، وهو في موضع الحال من الكاف. ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ علماً ذا رشد وهو إصابة الخير، وقرأ البصريان بفتحيتين وهما لغتان كالبخل والبخل، وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَنِي﴾ ومفعول ﴿علمت﴾ العائد المحذوف وكلاهما منقولان من علم الذي له مفعول واحد، ويجوز أن يكون رشداً علة لأتبعك أو مصدراً بإضمار فعله، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجehl نفسه واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (67)

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم وعلل ذلك واعتذر عنه بقوله.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خُبْرًا﴾ (68)

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك، وخبراً تميز أو مصدر لأن لم تحط به بمعنى لم تخبره.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (69)

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غير منكر عليك. ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطف على صابراً أي ستجدني صابراً وغير عاص، أو على ستجدني. وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمن وخلفه ناسياً لا يقدر في عصمته أو لعلمه بصعوبة الأمر، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خلف، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله تعالى.

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (70)

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ فلا تفتاحني بالسؤال عن شيء أنكروته مني ولم تعلم وجهه صحته. ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أبتدئك ببيانه، وقرأ نافع وابن عامر ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بالنون الثقيلة.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (71)

﴿فَانْطَلَقَا﴾ على الساحل يطلبان السفينة، ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها. ﴿قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي

إلى غرق أهلها. وقرئ ﴿لَتُغْرِقَنَّ﴾ بالتشديد للتكثير. وقرأ حمزة والكسائي «ليغرق أهلها» على إسناده إلى الأهل. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتيت أمراً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (72)

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ تذكير لما ذكره قبل.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (73) فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿74﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿75﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصْهِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿76﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿77﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِأَوْيَلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿78﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ هُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿79﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿80﴾ فَأَرْدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿81﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿82﴾

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيت أو بشيء نسيت، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه أو بنسياني إياه، وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذه مع قيام المانع لها. وقيل أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة. وقيل إنه من معارضض الكلام والمراد شيء آخر نسيه. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ ولا تغشني عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذه على المنسي، فإن ذلك يعسر على متابعتك و «عسراً» مفعول ثان لترهق فانه يقال: رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه، وقرئ «عُسْرًا» بضمين.

﴿فَأَنْطَلَقَا﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة. ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل قتل عنقه، وقيل ضرب برأسه الحائط، وقيل أضجعه فذبحه والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتله من غير ترو واستكشاف حال ولذلك: ﴿قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرة من الذنوب، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ورويس عن يعقوب «زأكية» والأول أبلغ، وقال أبو عمرو الزأكية التي لم تذب قط والزكية التي أذنت ثم غفرت، ولعله اختار الأول لذلك فإنها كانت صغيرة ولم تبلغ الحلم أو أنه لم يرها قد أذنت ذنباً يقتضي قتلها، أو قتلت نفساً فتقاد بها، نه به على أن القتل إنما يباح حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتف، ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء، واعتراض موسى عليه الصلاة والسلام مستأنفاً في الأولى وفي الثانية قتله من جملة الشرط واعتراضه جزاء، لأن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام ولذلك فصله بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي منكرًا، وقرأ نافع في رواية قالون وورش وابن عامر ويعقوب وأبو بكر «نُكْرًا» بضمين.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد فيه ﴿لَكَ﴾ مكافحة بالعتاب على رفض الوصية، ووسماً بقله الثبات والصبر لما تكرر منه الاشتزاز والاستنكار ولم يردو بالتذكير أول مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن سألت. صحبتك، وعن يعقوب «فلا تصحبني» أي فلا تجعلني صاحبك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قد وجدت عذراً من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات. وعن رسول الله ﷺ «رحم الله أخي موسى استجيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب». وقرأ نافع ﴿من لدني﴾ بتحريك النون والاكفاء بها عن نون الدعامة كقوله: قِدْنِي مِنْ نَصْرِ الْخَبِيثِينَ قُدَى. وأبو بكر ﴿لدني﴾ بتحريك النون وإسكان الدال إسكان الضاد من عضد.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أنطاكية وقيل أبله البصرة. وقيل باجروان أرمينية. ﴿اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرئ «يضيّفوهما» من أضافه يقال ضافه إذا نزل به ضيفاً وأضافه وضيفه أنزله، وأصل التركيب للميل يقال ضاف السهم عن الغرض إذا مال. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يداني أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشاركة كما استعير لها الهم والعزم قال:

يَرِيدُ الرُّمَحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ

وقال:

إِنَّ دَهْرًا يَلُمُّ شَمْلِي بِجَمَلٍ لَزِمَانُ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ

وانقض انفع من قضضته إذا كسرت، ومنه انقضاض الطير والكواكب لهويه، أو أفعل من النقض. وقرئ «أن ينقض» و «أن ينقاص» بالصاد المهملة من انقاصت السن إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بعمارته أو بعمود عمده به، وقيل مسحه بيده فقام. وقيل نقضه وبناه. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ جُزْأً﴾ تحريضاً على أخذ الجعل لينتعشا به، أو تعريضاً بأنه فضول لما في «لو» من النفي كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه، واتخذ افعل من اتخذ كاتب من تبع وليس من الأخذ عند البصريين، وقرأ ابن كثير والبصريان «لتخذت» أي لأخذت وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الدال وأدغمه الباقون.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْتِكَ﴾ الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أو إلى الاعتراض الثالث، أو الوقت أي هذا الاعتراض سبب فراقنا أو هذا الوقت وقته، وإضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع، وقد قرئ على الأصل. ﴿سَأْنَبُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لمحاويج، وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه. وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملك أو لزمانتهم فإنها كانت لعشرة إخوة خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر. ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أن أجعلها ذات عيب. ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ قدامهم أو خلفهم وكان رجوعهم عليه، واسمه جلندي بن كركر، وقيل متوار بن جلندي الأزدي. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ من أصحابها. وكان حق النظم أن يتأخر قوله ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عن قوله ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ لأن إرادة التعيب مسببة عن خوف الغصب وإنما قدم للعناية أو لأن السبب لما كان مجموع الأمرين خوف الغصب ومسكنة الملاك رتبة على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والتسميم، وقرئ «كل سفينة صالحة» والمعنى عليها.

﴿وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يغشيهما. ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوبه فيلحقهما شراً، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بعلته فيرتدا بإضلاله، أو بممالاته على طغيانه وكفره حباله. وإنما خشي ذلك لأن الله تعالى أعلمه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان،

فكتب إليه إن كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل. وقرىء «فخاف ربك» أي فكره كراهة من خاف سوء عاقبته، ويجوز أن يكون قوله ﴿فخشنا﴾ حكاية قول الله عز وجل.

﴿فَارْزُقْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾ أن يرزقهما بدله ولداً خيراً منه. ﴿زَكَاةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفاً على والديه. قيل ولدت لهما جارية فتزوجها نبي فولدت له نبياً هدى الله به أمة من الأمم، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿يبدلهم﴾ بالتشديد وابن عامر ويعقوب وعاصم ﴿رحمًا﴾ بالتخفيف، وانتصابه على التمييز والعامل اسم التفضيل وكذلك ﴿زكاة﴾.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قيل اسمهما أصرم وصريم، واسم المقتول جيسور. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ من ذهب وفضة، روي ذلك مرفوعاً والزم على كنزهما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ لمن لا يؤدي زكاتها وما تعلق بهما من الحقوق. وقيل من كتم العلم. وقيل كان لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه. قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء وكان سيحاً واسمه كاشح. ﴿فَارْزُقَا رَبَّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي الحلم وكمال الرأي. ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مرحومين من ربك، ويجوز أن يكون علة أو مصدراً لأراد فإن إرادة الخير رحمة. وقيل متعلق بمحذوف تقديره فعلت ما فعلت رحمة من ربك، ولعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين. أو لأن الأول في نفسه شر، والثالث خير، والثاني ممتزج. أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ وما فعلت ما رأيته. ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ عن رأيي وإنما فعلته بأمر الله عز وجل، ومبني ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمل أهونهما لدفع أعظمهما، وهو أصل ممد غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة. ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تستطع فحذف التاء تخفيفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سرّاً لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم، ويراعي الأدب في المقابل وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ثم يهاجر عنه.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83)﴾

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾ يعني إسكندر الرومي ملك فارس والروم. وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، وقيل لأنه انقضى في أيامه قرنان من الناس، وقيل كان له قرنان أي صغيرتان، وقيل كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته كما يقال الكباش للشجاع كأنه ينطح أقرانه. واختلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه، والسائلون هم اليهود سألوهم امتحاناً أو مشركو مكة. ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ خطاب للسائلين والهاء لذي القرنين. وقيل لله.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84)﴾

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء فحذف المفعول. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه. ﴿سَبَبًا﴾ وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة.

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (85) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ نَتَعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (86) ﴿

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه، وقرأ الكوفيون وابن عامر بقطع الألف مخففة التاء.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأ من حمئت البشر إذا صارت ذات حمأة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «حامية» أي حارة، ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين أو «حمية» على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فرأها كذلك إذ لم يكن في مطعم بصره غير الماء ولذلك قال ﴿وجدتها تغرب﴾ ولم يقل كانت تغرب. وقيل إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ «حامية» فقال «حمئة» فبعث معاوية إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ عند تلك العين. ﴿قَوْمًا﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيرهم الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكى بقوله. ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ نَتَعَذَّبَ﴾ أي بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل خيرهم الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل ويؤيده الأول قوله:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ (87) ﴿

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ أي فاختار الدعوة وقال: أما من دعوته فظلم نفسه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فعذبته أنا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبهم الله في الآخرة عذاباً منكرًا لم يعهد مثله.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (88) ﴿

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو ما يقتضيه الإيمان. ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين. ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فعلته الحسنی. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص ﴿جزاء﴾ منوناً منصوباً على الحال أي فله المثوبة الحسنی مجزياً بها، أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يجزي بها جزاء أو التمييز، وقرئ منصوباً غير منون على أن تنوينه حذف لالتقاء الساكنين ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ و ﴿الحسنی﴾ بدله، ويجوز أن يكون ﴿أما﴾ وما للتقسيم دون التخيير أي ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان، فالأول لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه، ونداء الله إياه إن كان نبياً فبوحى وإن كان غيره فبالهام أو على لسان نبي. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا﴾ بما نأمر به. ﴿يُسْرًا﴾ سهلاً ميسراً غير شاق وتقديره ذا يسر، وقرئ بضمين.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (89) ﴿

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ ثم أتبع طريقاً يوصله إلى المشرق.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمُ مِنَ دُونِهَا سِتْرًا﴾ (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿91﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿92﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿93﴾ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْعِلُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿94﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿95﴾ أَتُؤْتُونِ زَبْرًا أَلْحَدًا حَتَّى إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ

قَطَرًا (96) فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَفْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا (100) ﴿

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض، وقرىء بفتح اللام على إضمار مضاف أي مكان مطلع الشمس فإنه مصدر. ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسراب بدل الأبنية.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخير والاختيار. ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو ﴿نَجْعَلُ﴾ أو صفة قوم أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم. ﴿وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات والعدد والأسباب. ﴿خُبْرًا﴾ علماً تعلق بظواهره وخفياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبًا﴾ يعني طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سده وهما جبلا أرمينية وأذربيجان. وقيل جبلان منيفان في أواخر الشمال في متقطع أرض الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب ﴿بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾ بالضم وهما لغتان. وقيل المضموم لما خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناس لأنه في الأصل مصدر سمي به حدث يحدثه الناس. وقيل بالعكس وبين ها هنا مفعول به وهو من الظروف المتصرفة. ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغراب لغتهم وقلة فطنتهم. وقرأ حمزة والكسائي «لا يفقهون» أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لتلغمتهم فيه.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ أي قال مترجمهم وفي مصحف ابن مسعود قال «الذين من دونهم». ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح، وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجبل. وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف. وقيل عربيان من أج الظليم إذا أسرع وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث. ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وقيل كانوا يأكلون الناس. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نخرجه من أموالنا. وقرأ حمزة والكسائي «خراجاً» وكلاهما واحد كالنول والنوال. وقيل الخراج على الأرض والذمة والخرج المصدر. ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحجز دون خروجهم علينا وقد ضمه من ضم «السُّدَّيْنِ» غير حمزة والكسائي.

﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما جعلني فيه مكيناً من المال والملك خير مما تبدلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه. وقرأ ابن كثير «مكنتي» على الأصل. ﴿فَأَعِثُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بقوة فعلة أو بما أتقوى به من الآلات. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً وهو أكبر من الأسد من قولهم ثوب مردم إذا كان رقاعاً فوق رقاع.

﴿أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطعه والزبرة القطعة الكبيرة، وهو لا ينافي رد الخراج والاقتصار على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة، ويدل عليه قراءة أبي بكر «ردماً أثوني» بكسر التثنية موصولة الهمزة على معنى جيئوني بزر الحديد، والباء محذوفة حذفها في أمرتك الخير ولأن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة دون الخراج

على العمل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنضيدها. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضمين، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال، وقرئ بفتح الصاد وضم الدال وكلها لغات من الصدف وهو الميل لأن كلا منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل. ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ أي قال للعملة انفخوا في الأكوار والحديد. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ جعل المنفوخ فيه. ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإجماع. ﴿قَالَ أَتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْكُمْ قَطْرًا﴾ أي أتوني قطراً أي نحاساً مذاباً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى، إذ لو كان قطراً مفعول أتوني لأضمر مفعول أفرغ حذراً من الإلباس. وقرأ حمزة وأبو بكر قال ﴿أتوني﴾ موصولة الألف.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حده. وقرئ بقلب السين صاداً. ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه. ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ تَقْبًا﴾ لشخه وصلابته. وقيل حفر للأساس حتى بلغ الماء، وجعله من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار فصب النحاس المذاب عليه فاختلط والتصق ببعضه ببعض وصار جبلاً صلباً. وقيل بناه من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكاليل من حديد ونحاس مذاب في تجاوزيها.

﴿قَالَ هَذَا﴾ هذا السد أو الأقدار على تسويته. ﴿رَحْمَةً مِنِّي﴾ على عباده. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة. ﴿جَعَلَهُ دَكَاةً﴾ مذكوكاً ميسوطاً مسوى بالأرض، مصدر بمعنى مفعول ومنه جمل أدك لمنبسط السنام. وقرأ الكوفيون دكاء بالمد أي أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائناً لا محالة وهذا آخر حكاية قول ذي القرنين.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد يموجون في بعض مزدحمين في البلاد، أو يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء.

﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (101)

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتوحيد والتعظيم. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ استماعاً لذكرى وكلامي لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصم قد يستطيع السمع إذا صح به وهؤلاء كأنهم أصمت مسامعهم بالكلية.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعَدَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (102)

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أظنوا والاستفهام للإنكار. ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخاذهم الملائكة والمسيح. ﴿مِن دُونِ آلِهَاتٍ﴾ معبودين نافعهم، أو لا أعذبهم به فحذف المفعول الثاني كما يحذف الخبر للقرينة، أو سد أن يتخذوا مسد مفعوله وقرئ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إفكاً فيهم في النجاة، وأن بما في حيزها مرتفع بأنه فاعل حسب، فإن النعت إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل أو خبر له. ﴿إِنَّا أَعَدَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ما يقام للنزيل، وفيه تهكم وتوبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقرونه.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (103)



﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز وجمع لأنه من أسماء الفاعلين أو لتنوع أعمالهم.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (104)

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضاع وبطل لكفرهم وعجبهم كالرهابنة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم، ومحلّه الرفع على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال أو الجر على البدل أو النصب على الذم. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ بعجبهم واعتقادهم أنهم على الحق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ (105)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن أو بدلائله المنصوبة على التوحيد والنبوة. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاء عذابه. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها. ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾ فنزدي بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، أو لا نضع لهم ميزاناً يوزن به أعمالهم لانحباطها.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ (106)

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك وقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبينة له ويجوز أن يكون ﴿ذلك﴾ مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أي جزاؤهم به، أو جزاؤهم بدله و﴿جهنم﴾ خبره أو ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ خبره و﴿جهنم﴾ عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي بسبب ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (107)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبق من حكم الله ووعد، و﴿الفردوس﴾ أعلى درجات الجنة، وأصله البستان الذي يجمع الكرم والنخل.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (108)

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيب منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم، ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِحَيْثُ مَدَدًا﴾ (109)

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا﴾ ما يكتب به، وهو اسم ما يمد به الشيء كالخبر للدواة والسليط للسراج. ﴿لَكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ لكلمات علمه وحكمته. ﴿لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾ لنفذ جنس البحر بأسره لأن كل جسم متناه. ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ فإنها غير متناهية لا تنفذ كعلمه، وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿وَلَوْ جِثَا بِحَيْثُ مِثْلِهِ﴾ بمثل البحر الموجود. ﴿مَدَدًا﴾ زيادة ومعونة، لأن مجموع المتناهين متناه بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد، والمتناهي ينفذ قبل أن ينفذ غير المتناهي لا محالة. وقرئ «ينفذ» بالياء و﴿مددًا﴾ بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستعمله الكاتب ومداداً. وسبب نزولها أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ وتقرؤن ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (110)

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدعي الإحاطة على كلماته. ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وإنما تميزت عنكم بذلك. ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يؤمل حسن لقائه أو يخاف سوء لقائه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ يرتضيه الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ بأن يرائيه أو يطلب منه أجراً. روي أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ: إني لأعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرتني فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت تصديقاً له وعنه عليه الصلاة والسلام «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر قال «الرياء». والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة. وعن النبي ﷺ «من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء».



[مكية إلا آية السجدة وهي ثمان أو تسع وتسعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْعَصَ (1)﴾

﴿كَهَيْعَصَ﴾ أمال أبو عمرو الهاء لأن ألفات أسماء التهجي ياءات وابن عامر وحمزة الياء، والكسائي وأبو بكر كليهما، ونافع بين بين ونافع وابن كثير وعاصم يظهرون دال الهجاء عند الذال، والباقون يدغمونها.

﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا (2)﴾

﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ خبر ما قبله إن أول السورة أو بالقرآن، فإنه مشتمل عليه أو خبر محذوف أي: هذا المتلو ﴿ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾، أو مبتدأ حذف خبره أي فيما يتلى عليك ذكرها، وقرئ ﴿ذَكَرَ رَحْمَةَ﴾ على الماضي و ﴿ذَكَرَ﴾ على الأمر. ﴿عَبْدُكَ﴾ مفعول الرحمة أو الذكر على أن الرحمة فاعله على الاتساع كقولك: ذكرني جود زيد. ﴿زَكَرِيَّا﴾ بدل منه أو عطف بيان له.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3)﴾

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان، والإخفاء أشد إخبائاً وأكثر إخلاصاً أو لثلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر، أو لثلا يطلع عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته. واختلف في سنه حينئذ فقليل ستون، وقيل سبعون، وقيل خمس وسبعون، وقيل خمس وثمانون، وقيل تسع وتسعون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسير للنداء والوهن الضعف، وتخصيص العظم لأنه دعامة البدن وأصل بنائه ولأنه أصلب ما فيه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن وتوحيده لأن المراد به الجنس، وقرئ و ﴿هَنَ﴾ و ﴿وهن﴾ بالضم والكسر ونظيره كمل بالحركات الثلاث. ﴿وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار وانتشاره وفشوه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة وأسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة، وجعله مميّزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفى باللام على الإضافة للدلالة على أن علم المخاطب بتعين المراد يغني عن التقييد. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلما دعوتك استجبت لي وهو توسل بما سلف معه من الاستجابة، وتنبه على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً

فاجابته معتادة، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5)﴾

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ يعني بني عمه وكانوا أشرار بني إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته ويبدلوا عليهم دينهم. ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ بعد موتي، وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الباء وهو متعلق بمحذوف، أو بمعنى «الموالي» أي خفت فعل الموالي من ورائي، أو الذين يلون الأمر من ورائي. وقرئ «خفت الموالي من ورائي» أي قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعدي، أو خفوا ودرجوا قدامي، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً بـ «خفت». ﴿وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ فإن مثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامراتي لا نصلح للولادة. ﴿وَلِيًّا﴾ من صلي.

﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)﴾

﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ صفتان له وجزمهما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء، والمراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال. وقيل يرثني الحבורة فإنه كان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك، وهو يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام. وقيل يعقوب كان أخاً زكريا أو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام. وقرئ «يرثني وارث آل يعقوب» على الحال من أحد الضميرين، وأو «يرث» بالتصغير لصغره، و «وارث من آل يعقوب» على أنه فاعل «يرثني» وهذا يسمى التجريد في علم البيان لأنه جرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد. ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترضاه قولاً وعملاً.

﴿يَلْزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَحْمِلْ لَكَ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)﴾

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ جواب لدائه ووعد بإجابة دعائه وإنما تولى تسميته تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله، وهو شاهد بأن التسمية بالأسامي الغربية تنويه للمسمى. وقيل سمياً شبيهاً كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ لأن المتماثلين يتشاركان في الاسم، والأظهر أنه أعجمي وإن كان عربياً فمقول عن فعل كيعيش ويعمر. وقيل سمي به لأنه حيي به رحم أمه، أو لأن دين الله حيي بدعوته.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُن شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَلِيحِينَ خُذِ الصِّكْرَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْخُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جساوة وقحولاً في المفصل، وأصله عتو وكقعود فاستقلوا توالي الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواو الأولى ياء، ثم قلبت الثانية وأدغمت وقرأ حمزة والكسائي وحفص «عتيًّا» بالكسر، وإنما استعجب الولد من شيخ فإن وعجز عاقر اعترافاً بأن المؤثر فيه كمال قدرته وأن الوسائط عند التحقيق ملغاة ولذلك: ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقاً له. ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر كذلك، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بـ «قال» في: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وذلك إشارة إلى مبهم يفسر. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنٌ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ «وهو على هين» أي الأمر كما قلت، أو كما وعدت وهو على ذلك يهون علي، أو كما وعدت وهو علي هين لا

أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب، ومفعول قال الثاني محذوف. ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ بل كنت معدوماً صرفاً، وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء، وقرأ حمزة والكسائي «وقد خلقناك».

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سَوِيًّا الخَلْقُ ما بك من خرس ولا بك، وإنما ذكر الليالي هنا والأيام في «آل عمران» للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام ولياليهن.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ من المصلى أو من الغرفة. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ فأوماً إليهم لقوله ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾. وقيل كتب لهم على الأرض. ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ صلوا أو نزهوا ربكم. ﴿بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يسبح ويأمر قومه بأن يوافقوه، و﴿أَنْ﴾ تحتل أن تكون مصدرية وأن تكون مفسرة.

﴿يَا يَحْيَى﴾ على تقدير القول. ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجهد واستظهار بالتوفيق. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يعني الحكمة وفهم التوراة، وقيل النبوة أحكم الله عقله في صباه واستنباه.

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ ورحمة منا عليه أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما عطف على الحكم. ﴿وَزَكَاةً﴾ وطهارة من الذنوب أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه، أو مكنه ووفقه للتصديق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وباراً بهما. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ عاقاً أو عاصي ربه.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ من الله. ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا﴾ من عذاب النار وهو القيامة.

﴿وَأَذْكُرِي الْأَكْتَابَ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ (16)

﴿وَأَذْكُرِي فِي الْكِتَابِ﴾ في القرآن. ﴿مَرْيَمَ﴾ يعني قصتها. ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ﴾ اعتزلت، بدل من ﴿مَرْيَمَ﴾ بدل الاشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، أو بدل الكل لأن المراد بـ ﴿مَرْيَمَ﴾ قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد، أو ظرف لمضاف مقدر وقيل ﴿إِذِ﴾ بمعنى أن المصدرية كقولك: أكرمتك إذ لم تكرمي فتكون بدلاً لا محالة. ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا﴾ شرقي بيت المقدس، أو شرقي دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة، ومكاناً ظرف أو مفعول لأن ﴿انتبذت﴾ متضمن معنى أتت.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (17)

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ سترًا. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ قيل قعدت في مشرقه للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها - وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا حاضت وتعود إليه إذا طهرت - فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمرد سوي الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله لتهييج شهوتها به فتتحدث نطفتها إلى رحمها.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ (18)

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾ تقى الله وتحفل بالاستعاذة، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فإني عائذة منك، أو فتتعتظ بتعويدي أو فلا تتعرض لي، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فإني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (19)

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به. ﴿لَا هَبَ لَكِ غُلَامًا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى، ويؤيده قراءة أبي عمرو والأكثر عن نافع ويعقوب بالياء. ﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح.

﴿قَالَتْ أَفَنِي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (20)

﴿قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ولم يباشر في رجل بالحلال، فإن هذه الكنايات إنما تطلق فيه، أما الزنا فإنما يقال فيه حيث بها وفجر ونحو ذلك ويعضده عطف قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه وهو فعول من البغي قلبت واوه ياء وأدغمت ثم كسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء، أو فعيل بمعنى فاعل ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة، أو للنسب كطالق.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (21)

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ﴾ أي ونفعل ذلك لنجعله آية أو لنبين به قدرتنا ولنجعله، وقيل عطف على ليهب على طريقة الالتفات. ﴿آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي تعلق به قضاء الله في الأزل، أو قدر وسطر في اللوح أو كان أمراً حقيقاً بأن يقضى ويفعل لكونه آية ورحمة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (22)

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نفخ في درعها فدخلت النفخة في جوفها وكان مدة حملها سبعة أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية ولم يعيش مولود وضع لثمانية غيره، وقيل ساعة كما حملته نبذته وسنها ثلاث عشرة سنة، وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين. ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله:

تَدُوسُ بَنَى الْجَمَاجِمِ وَالتَّرِييَا

والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ (23)

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ فالجأها المخاض، وهو أن الأصل منقول من جاء لكنه خص به في الاستعمال كأتي في أعطى وقرىء المِخَاض بالكسر وهما مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج. ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء، والتعريف إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثم غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليربها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها. ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ استحياء من الناس ومخافة لومهم، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿مِتُّ﴾ من مات يموت. ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ ما من شأنه أن ينسى ولا يطلب ونظيره الذبح لما يذبح، وقرأ حمزة وحفص بالفتح وهو لغة فيه أو مصدر سمي به، وقرىء به وبالهزم وهو الحليب المخلوط بالماء يسؤه أهله لقلته. ﴿مَّنْسِيًّا﴾ منسي الذكر بحيث لا يخطر ببالهم وقرىء بكسر الميم على الاتباع.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (24)

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ عيسى، وقيل جبريل كان يقبل الولد، وقيل تحتها أسفل من مكانها. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وروح ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بالكسر والجر على أن في نادى ضمير أحدهما، وقيل الضمير

في تحتها للنخلة. ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جدولاً. هكذا روي مرفوعاً، وقيل سرياً من السرو وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَةَ سُقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (25) ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَتَأَخَتَ هُنُورٌ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)﴾

﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَةَ﴾ وأمليه إليك، والباء مزيدة للتأكيد أو افعلي الهز والأماله به، أو ﴿هزي﴾ الثمرة بهزه وألهز تحريك بجذب ودفع. ﴿تَسْقِطُ عَلَيْكَ﴾ تتساقط فأدغمت التاء الثانية في السين وحذفها حمزة، وقرأ يعقوب بالياء وحفص ﴿تساقط﴾ من ساقطت بمعنى أسقطت، وقرئ «تساقط» و «تسقط» و «يسقط» فالتاء للنخلة والياء للمجدع. ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ تميز أو مفعول. روي أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخصوصاً ورطباً. وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها فإن مثلها لا يتصور لمن يرتكب الفواحش، والمنبهة لمن رآها على أن من قدر أن يشمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فعل، وأنه ليس ببدع من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام ولذلك رتب عليه الأمرين فقال:

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ أي من الرطب وماء السرى أو من الرطب وعصيره. ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطببي نفسك وارفضي عنها ما أحزنك، وقرئ «وقري» بالكسر وهو لغة نجد، واشتقاقه من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من الفرقان دمة السرور باردة ودمة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين للمحسوب وسختها للمكروه. ﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإن تري آدمياً، وقرئ «ترين» على لغة من يقول لبأت بالحج لتأخ بين الهمزة وحرف اللين. ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ صمتاً وقد قرئ به، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ بعد أن أخبرتهم بنذري وإنما أكلم الملائكة وأناجي ربي. وقيل أخبرتهم بنذرها بالإشارة وأمرها بذلك لكرهه المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطع في قطع الطاعن.

﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أي مع ولدها. ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعة إليهم بعد ما طهرت من النفاس. ﴿تَحْمِيْلُهُ﴾ حاملة إياه. ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي بديعاً منكراً من فري الجلد.

﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ﴾ يعنون هارون النبي عليه الصلاة والسلام وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة. وقيل هو رجل صالح أو طالح كان في زمانهم شبهوها به تهكماً أو لما رأوا قبل من صلاحها أو شتموها به. ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ تقرير لأن ما جاءت به فري، وتنبية على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أي كلموه ليجيبكم. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نعهد صبيّاً في المهد كلمه عاقل، و «كان» زائدة والظرف صلة من. و «صبيّاً» حال من المستكن فيه أو تامة أو دائمة كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أو بمعنى صار.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أول المقامات والرد على من يزعم ربوبيته. ﴿آتَانِي الْكِتَابَ﴾ الإنجيل. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفاعاً معلماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع وقيل أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً. ﴿أَيْنَمَا كُنْتُ﴾ حيث كنت. ﴿وَأَوْصَانِي﴾ وأمرني. ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ زكاة المال إن ملكته أو تطهير النفس عن الرذائل. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ وباراً بها عطف على ﴿مباركاً﴾، وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني، أي وكلفني برأ ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفًا على «الصلاة». ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عند الله من فرط تكبره.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى والتعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه عرض بأن ضده عليهم كقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي الذي تقدم نعته هو عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم. ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه، والإضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل صفة ﴿عيسى﴾ أو بدل أو خبر ثان ومعناه كلمة الله. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب ﴿قول﴾ بالنصب على أنه مصدر مؤكد. وقرئ «قال الحق» وهو بمعنى القول. ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ في أمره يشكون أو يتنازعون، فقالت اليهود ساحر وقالت النصارى ابن الله وقرئ بالتاء على الخطاب.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (35)

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ تكذيب للنصارى وتزيه الله تعالى عما بهتوه. ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تكبيت لهم، فإن من إذا أراد شيئاً أوجده بـ ﴿كن﴾ كان مترهاً عن شبه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإنانث، وقرأ ابن عامر ﴿فيكون﴾ بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (36)

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ سبق تفسيره في سورة «آل عمران»، وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿وأن﴾ بالفتح على ولأن وقيل إنه معطوف على «الصلاة».

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (37)

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ اليهود والنصارى. أو فرق النصارى، النسطورية قالوا إنه ابن الله، ويعقوبية قالوا هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وملكانية قالوا هو عبد الله ونبيه. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هوله وحسابه وجزاؤه، وهو يوم القيامة أو من وقت الشهود أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألستهم وآراهم وأرجلهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمه.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّاكَ لِكِ الْظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي صَلَٰلٍ مِّمِّينَ﴾ (38)

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجب معناه أن استماعهم وأبصارهم. ﴿يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ أي يوم القيامة جدير بأن



يتعجب منهما بعد ما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو التهديد بما سيسمعون ويصرون يومئذ. وقيل أمر بأن يسمعهم ويصبرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحق بهم فيه، والجار والمجرور على الأول في موضع الرفع وعلى الثاني في موضع النصب ﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أوقع الظالمون موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بين.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)﴾

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس المسيء على إساءته والمحسن على قلة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وإذ بدل من اليوم أو ظرف لـ ﴿لِحُسْرَةِ﴾. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال متعلقة بقوله ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وما بينهما اعتراض، أو بـ ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾ أي أندرهم غافلين غير مؤمنين، فتكون حالاً متضمنة للتعليل.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك، أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفي الوارث لإرثه. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يردون للجزاء.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. ﴿نَبِيًّا﴾ استنبأه الله.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)﴾

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وما بينهما اعتراض، أو متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ أو بـ ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾. ﴿لَأَبِيهِ يَأْتِ﴾ التاء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أباي ويقال يا أبتا، وإنما تذكر للاستعطاف ولذلك كررها. ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيعرف حالك ويسمع ذكرك ويرى خضوعك. ﴿وَلَا يُفْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ في جلب نفع أو دفع ضرر، دعاه إلى الهدى وبين ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاج وأرشقه برفق وحسن أدب، حيث لم يصرح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم، ولا تحقق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعدام العام وهو الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب المثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح، والشيء لو كان حياً مميّزاً سمياً بصيراً مقتدرّاً على النفع والضرر ولكن كان ممكناً، لاستنكف العقل القويم من عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي فقال:

﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ

الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَابِيًّا (45) قَالَ أَرَأَيْتَ

أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِجًّا إِنَّهُ كَانَ

فِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاؤِ رَبِّي شَفِيًّا (48) فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ

وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (50) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع مستلزم للضرر، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان من حيث إنه الأمر به فقال:

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ ولما استهجن ذلك بين وجه الضر فيه بأن الشيطان مستعص على ربك المولي للنعم كلها بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص وكل عاص حقيق بأن تسترد منه النعم ويتنقم منه، ولذلك عقبه بتخويفه سوء عاقبته وما يجر إليه فقال:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قرئنا في اللعن والعذاب تليه ويليك، أو ثابتا في موالاته فإنه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب. وذكر الخوف والمس وتنكير العذاب إما للمجاملة أو لخفاء العاقبة، ولعل اقتصاره على عصيان الشيطان من بين جنائياته لإرتقاء همته في الربانية، أو لأنه ملاكها أو لأنه من حيث إنه نتيجة معاداته لآدم وذريته منه عليها.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قابل استعطافه ولطفه في الارشاد بالفظاظة وغلظة العناد فتاداه باسمه ولم يقابل ﴿يَا أَبَتِ﴾: بيا بني، وآخره وقدم الخبر على المبتدأ وصدده بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنه عاقل ثم هدده فقال: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ مَقَالِكَ فِيهَا أَوْ الرِّغْبَةِ عَنْهَا. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلساني يعني الشتم والذم أو بالحجارة حتى تموت، أو تبعذمني. ﴿وَأَهْجُرَنِي﴾ عطف على ما دل عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي فاحذرنى واهجرني. ﴿مَلِيًّا﴾ زماناً طويلاً من الملاوة أو ملياً بالذهاب عني.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعد ما يؤذيك ولكن: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته وقد مر تقريره في سورة التوبة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ بليغاً في البر والإلطف.

﴿وَأَعْتَزَّلْتُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني. ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ وأعبده وحده. ﴿عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ خائباً ضائع السعي مثلكم في دعاء الهتم، وفي تصدير الكلام بـ ﴿عَسَى﴾ التواضع وهضم النفس، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل غير واجبتين، وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيب.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام. ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل من فارقهم من الكفرة، قيل إنه لما قصد الشام أتى أولاً حران وتزوج بسارة وولدت له إسحاق وولد منه يعقوب، ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء أو لأنه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وكلا منهما أو منهم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ النبوة والأموال والأولاد. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس ويشنون عليهم، استجابة لدعوته ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ والمراد باللسان ما يوجد به، ولسان العرب لغتهم وإضافته إلى الصدق وتوصيفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يشنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدل الملل.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (51)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه، وقرأ الكوفيون بالفتح على أن الله أخلصه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم ﴿رَسُولًا﴾ مع أنه أخلص وأعلى.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (52)

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحيته اليمنى من اليمين، وهي التي تلي يمين موسى من جانبه الميمون من اليمين بأن تمثل له الكلام من تلك الجهة. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريب تشريف شبهه بمن قربته الملك لمناجاته. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً حال من أحد الضميرين. وقيل مرتفعاً من النجوة وهو الارتفاع. لما روي أنه رفع فوق السموات حتى سمع صرير القلم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (53)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا. ﴿أَخَاهُ﴾ معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي﴾ فإنه كان أسن من موسى، وهو مفعول أو بدل على تقدير أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبعية. ﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان له. ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (54)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذكره بذلك لأنه المشهور به والموصوف بأشياء في هذا الباب لم تعهد من غيره، وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فوفى. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا (عليه السلام) على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (55)

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾. ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. وقيل أهله أمته فإن الأنبياء آباء الأمم. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (56)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سبط شيث وجد أبي نوح عليهم الصلاة والسلام، واسمه أخنوخ واشتقاق إدريس من الدرس يرد منع صرفه، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة درسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (57)

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله. وقيل الجنة. وقيل السماء السادسة أو الرابعة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نُلِقُوا عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا﴾ (58)

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم الصلاة والسلام. ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيان للموصول. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار، ويجوز أن تكون ﴿مِنْ﴾ فيه للتبعية لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريس فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الباقون. ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ عطف على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ ومن جملة من هديناهم إلى الحق. ﴿وَاجْتَنَيْنَا﴾ للنبوة والكرامة. ﴿إِذَا تَنَلَّاهُمُ آبَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إن جعلت الموصول صفته، واستئناف إن جعلته خبره لبيان خشيتهم من الله وإخباتهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلزلى من الله تعالى. وعن النبي الصلاة والسلام «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا». والبيكي جمع بك كالسجود في جمع ساجد. وقرئ «يتلى» بالياء لأن التانيث غير حقيقي، وقرأ حمزة والكسائي ﴿بُكِيًّا﴾ بكسر الباء.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ (59)

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء يقال خلف صدق بالفتح، وخلف سوء بالسكون. ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها. ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. وعن علي رضي الله تعالى عنه في قوله ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾. من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور. ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ شراً كقوله:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمِدِ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَلْقَ لَا يَعْدُمُ عَلَى الْعِيِّ لَأِيْمَا

أو جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يَلْقَى أَنَامًا﴾ أو غياً عن طريق الجنة، وقيل هو واد في جهنم يستعبد منه أوديتها.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (60)

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يدل على أن الآية في الكفرة. ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على البناء للمفعول من أدخل. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ويجوز أن يتنصب ﴿شَيْئًا﴾ على المصدر، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعْدُ مَا يُبَيَّنُّ (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يُشَاءُونَ وَمَا كُنَّا بِهَذَا غَائِبِينَ وَمَا نَكْتُمُكَ مِنْ هَٰذَا شَيْئًا (64) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)﴾

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعدن لأنه المضاف إليه في العلم أو علم للعدن بمعنى الإقامة كبره ولذلك صح وصف ما أضيف إليه بقوله: ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب. ﴿إِنَّهُ﴾ إن الله. ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذي هو الجنة. ﴿مَا يُبَيَّنُّ﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة، وقيل هو من أتى إليه إحساناً أي مفعولاً منجراً.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضول كلام. ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، أو تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم، على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُ مِيهِنٌ فَلَوْلُ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وأهلها أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهراً وإنما فائدته الإكرام. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغبة، وقيل المراد دوام الرزق ودروره.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ نبيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه، والورثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط. وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادة في كرامتهم، وعن يعقوب ﴿نورث﴾ بالتشديد.

﴿وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية قول جبريل عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذوي القرنين والروح ولم يدر ما يجب، ورجا أن يوحى إليه فيه بأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون ودعه ربه وقلاه، ثم نزل ببيان ذلك. والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع نزل وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل، والمعنى وما نزل وقتاً غب وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته، وقرئ «وما يتنزل» بالياء والضمير للوحي. ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايين لا ننقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تاركاً لك أي ما كان عدم النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة وإنما كان لحكمة رآها فيه. وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما ننزل الجنة إلا بأمر الله ولطفه، وهو مالك الأمور كلها السالفة والمرتبة والحاضرة فما وجدناه وما نجاه من لطفه وفضله وقوله ﴿وما كان ربك نسياً﴾ تقرير من الله لقولهم أي وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين وما وعد لهم من الثواب عليها وقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه، وهو خبر محذوف أو بدل من ﴿ربك﴾ ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب عليه، أي لما عرفت ربك لأنه لا ينبغي له أن ينسأك، أو أعمال العمال فأقبل على عبادته واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزء الكفر، وإنما عدي باللام لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمحارب: اصطبر لقرنك. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ مثلاً يستحق أن يسمى إلهاً أو أحداً سمي الله فإن المشتركين وإن سمو الصنم إلهاً لم يسموه الله قط، وذلك لظهور أحديته تعالى، وتعالى ذاته عن المماثلة بحيث لم يقبل اللبس والمكابرة، وهو تقرير للأمر أي إذا صح أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا﴾ (66)

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ المراد به الجنس بأسره فإن المقول مقول فيما بينهم وإن لم يقله كلهم كقولك: بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتل واحد منهم، أو بعضهم المعهود وهم الكفرة أو أبي بن خلف فإنه أخذ عظاماً بالية ففتتها وقال: يزعم محمد أننا نبعث بعدما نموت. ﴿إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا﴾ من الأرض أو من حال الموت، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار لأن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابه بفعل

دل عليه أخرج لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها، وهي ها هنا مختصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام في يا الله للتعويض فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وروي عن ابن ذكوان إذا ما مت بهمة واحدة مكسورة على الخبر.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (67)

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على ﴿يقول﴾، وتوسيط همزة الإنكار بينه وبين العاطف مع أن الأصل أن يتقدمهما للدلالة على أن المنكر بالذات هو المعطوف وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه فإنه لو تذكر وتأمل: ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ بل كان عَدَمًا صرفاً، لم يقل ذلك فإن أعجب من جمع المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وقالون عن يعقوب ﴿يذكر﴾ من الذكر الذي يراد به التفكير، وقرأ «يتذكر» على الأصل.

﴿فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ (68)

﴿فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفضيلاً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف أو مفعول معه لما روي أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووههم كل مع شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم. ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿جِثِيًا﴾ على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلق، أو لأنه من توابح التوافق للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهل الموقف جاثون لقوله تعالى ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ على المعتاد في مواقف التقاليد، وإن كان المراد بالإنسان الكفرة فلعلهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطئ جهنم إهانة بهم، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿جِثِيًا﴾ بكسر الجيم.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا﴾ (69)

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شاعت ديناً. ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا﴾ من كان أعصى وأعتى منهم فتنطحهم فيها، وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خص ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يدخل كلا طبقتها التي تليق به، و ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات، لكنه أعرب حملاً على ﴿كل﴾ وبعض للزوم الإضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوب المحل بتنزعن، ولذلك قرئ منصوباً ومرفوعاً عند غيره إما بالإبتداء على أنه استفهامي وخبره ﴿أشد﴾، والجملة محكية وتقدير الكلام: ﴿لننزعن﴾ من كل شيعه الذين يقال فيهم أيهم أشد، أو معلق عنها لتنزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم، أو مستأنفة والفعل واقع على ﴿من كل شيعه﴾ على زيادة من أو على معنى لتنزعن بعض كل شيعه، وإما بشيعه لأنها بمعنى تشيع وعلى للبيان أو متعلق بافعال وكذا الباء في قوله:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا﴾ (70)

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا﴾ أي لنحن أعلم بالذين هم أولى بالصلي، أو صليهم أولى بالنار. وهم المنتزعون ويعجز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿صلياً﴾ بكسر الصاد.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71)﴾

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ﴾ وما منكم التفات إلى الإنسان ويؤيده أنه قرىء ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكَ﴾. ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إلا واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة». وأما قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فالمراد عن عذابها. وقيل ورودها الجواز على الصراط فإنه ممدود عليها. ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ كان ورودهم واجبا أوجبه الله على نفسه وقضى به بأن وعد به وعداً لا يمكن خلفه. وقيل أقسم عليه.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فيساقون إلى الجنة وقرأ الكسائي ويعقوب ننجي بالتخفيف، وقرىء ثم بفتح الثاء أي هناك. ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ منهاراً بهم كما كانوا، وهو دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالها وإن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الفجرة فيها منهاراً بهم على هيئاتهم.

﴿وَإِذَا لُتِلَ عَلَيْهِمْ إِبْتِثَانًا يَبِيتُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73)﴾

﴿وَإِذَا لُتِلَ عَلَيْهِمْ إِبْتِثَانًا يَبِيتُ﴾ مرتلات الألفاظ مبيّنات المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ وواضحات الإعجاز. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجلهم أو معهم. ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين. ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ موضع قيام أو مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومترل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ومجتمعاً والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها والدخل عليها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا فرد عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَاءَ وَرِثَا (74)﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَاءَ وَرِثَا﴾ و﴿كم﴾ مفعول ﴿أهْلَكْنَا﴾ و﴿من قرن﴾ بيانه، وإنما سمي أهل كل عصر قرناً أي مقدماً من قرن الدابة. وهو مقدمها لأنه يتقدم من بعده، وهم أحسن صفة لكم وأثناً تمييز عن النسبة وهو متاع البيت. وقيل هو لما جد منه والخرثي ما رث والرثي المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن والخبز، وقرأ نافع وابن عامر «ريا» على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الري الذي هو النعمة، وقرأ أبو بكر «رييا» على القلب، وقرىء «ريا» بحذف الهمزة و«زيا» من الزي وهو الجمع فإنه محاسن مجموعة، ثم بين أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّا الْعَذَابُ وَإِنَّا السَّاعَةُ فَيَسْأَلُونَكَ مَنْ هُوَ شَرٌّ

مَكَانًا وَأَضَعَفُ جُنْدًا (75)﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فيمده ويمهله بطول العمر والتمتع به، وإنما أخرجه على لفظ الأمر إيداناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وكقوله ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية المد. وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا أي قالوا أي الفريقين حتى إذا رأوا ما يوعدون. ﴿إِنَّا الْعَذَابُ وَإِنَّا

السَّاعَةِ ﴿تَفْصِيلٌ لِلْمَوْعُودِ فَإِنَّهُ إِمَّا الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ غَلْبَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ وَتَعْذِيبُهُمْ إِيَّاهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا وَإِمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا يَنَالُهُمْ فِيهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بَأْنَ عَايَنُوا الْأَمْرَ عَلَى عَكْسِ مَا قَدَرُوهُ وَعَادَ مَا مَتَعُوا بِهِ خَذْلَانًا وَوَبَالًا عَلَيْهِمْ، وَهُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ وَالْجُمْلَةُ مُحْكِيَةٌ بَعْدَ ﴿حَتَّى﴾. ﴿وَأَضَعْتُ جُنْدًا﴾ أَيُ فِتْنَةً وَأَنْصَارًا قَابِلٌ بِهِ أَحْسَنَ نَدِيًّا مِنْ حَيْثُ إِنَّ حَسْنَ النَّادِي بِاجْتِمَاعِ وَجْهِ الْقَوْمِ وَأَعْيَانِهِمْ وَظُهُورِ شَوْكَتِهِمْ وَاسْتَظْهَارِهِمْ.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76) أَفَرَأَيْتَ أَلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاؤْتِيَنِي مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80)﴾

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ عَطَفَ عَلَى الشَّرْطِيَّةِ الْمُحْكِيَّةِ بَعْدَ الْقَوْلِ كَأَنَّهُ لَمَّا بَيَّنَّ أَنَّ إِمْهَالَ الْكَافِرِ وَتَمَتُّعِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَيْسَ لِفَضْلِهِ، أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ أَنَّ قُصُورَ حِظِّ الْمُؤْمِنِ مِنْهَا لَيْسَ لِنَقْصِهِ بَلْ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ وَعَوْضُهُ مِنْهُ، وَقِيلَ عَطَفَ عَلَى فَلْيَمْدُدْ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْخَبَرِ كَأَنَّهُ قِيلَ مِنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ يَزِيدُ اللَّهُ فِي ضَلَالِهِ وَيَزِيدُ الْمَقَابِلَ لَهُ هِدَايَةً. ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ﴾ الطَّاعَاتُ الَّتِي تَبْقَى عَائِدَتُهَا أَبَدَ الْآبَادِ، وَيَدْخُلُ فِيهَا مَا قِيلَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَقَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عَائِدَةٌ مِمَّا مَتَعَ بِهِ الْكَافِرُ مِنَ النِّعَمِ الْمَخْدُجَةِ الْفَانِيَةِ الَّتِي يَفْتَخِرُونَ بِهَا سِيمَا وَمَالُهَا النَّعِيمُ الْمَقِيمُ وَمَالُ هَذِهِ الْحَسْرَةِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ وَالْخَيْرُ هَا هُنَا إِمَّا لِمَجْرَدِ الزِّيَادَةِ أَوْ عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِمُ الصَّيْفُ أَحْرَمُ مِنَ الشِّتَاءِ، أَيُ أَبْلَغُ فِي حَرِّهِ مِنْهُ فِي بَرِّهِ.

﴿أَفَرَأَيْتَ أَلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَاؤْتِيَنِي مَالًا وَوَلَدًا﴾ نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ كَانَ لَخَبَابٍ عَلَيْهِ مَالٌ فَتَقَاضَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَا حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا وَلَا حِينَ تَبْعَثُ، قَالَ فَإِذَا بَعَثْتَ جِئْتَنِي فَيَكُونُ لِي ثُمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأَعْطَيْكَ. وَلَمَّا كَانَتِ الرَّؤْيَةُ أَقْوَى سِنْدَ الْإِنْخِبَارِ اسْتَعْمَلَ أَرَأَيْتَ بِمَعْنَى الْإِنْخِبَارِ، وَالْفَاءُ أَصْلُهَا فِي التَّعْقِيبِ وَالْمَعْنَى: أَخْبِرْ بِقِصَّةِ هَذَا الْكَافِرِ عَقِبَ حَدِيثِ أَوَّلِكَ. وَقُرَأَ حِمْزَةً وَالْكَسَايِي «وَلَدًا» وَهُوَ جَمْعٌ وَلَدٌ كَأَسَدٍ فِي أَسَدٍ أَوْ لُغَةً فِيهِ كَالْعَرَبِ وَالْعَرَبِ.

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ أَقْدَ بَلَغَ مِنْ عَظَمَةِ شَأْنِهِ إِلَى أَنْ ارْتَقَى إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي تَوَحَّدَ بِهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ حَتَّى ادَّعَى أَنْ يُؤْتَى فِي الْآخِرَةِ مَالًا وَوَلَدًا وَتَأَلَّى عَلَيْهِ. ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أَوْ اتَّخَذَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ عَهْدًا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا بِأَحَدِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ. وَقِيلَ الْعَهْدُ كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فَإِنْ وَعَدَ اللَّهُ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِمَا كَالْعَهْدِ عَلَيْهِ.

﴿كَلَّا﴾ رَدَعَ وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ مَخْطِئٌ فِيمَا تَصَوَّرَهُ لِنَفْسِهِ. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ سَنُظْهِرُ لَهُ أَنَا كِتَابَتَهُ قَوْلَهُ عَلَى طَرِيقَةٍ. قَوْلُهُ: إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لِمِ تَلَدْنِي لَثِيمَةً. أَيُ تَبَيَّنَ أَنِّي لَمْ تَلَدْنِي لَثِيمَةً، أَوْ سَنَنْتَقِمُ مِنْهُ انْتِقَامَ مَنْ كَتَبَ جَرِيمَةَ الْعَدُوِّ وَحَفَظَهَا عَلَيْهِ فَإِنَّ نَفْسَ الْكِتَابَةِ لَا تَتَأَخَّرُ عَنِ الْقَوْلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ وَنَطُولُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَا يَسْتَأْهِلُهُ، أَوْ نَزِيدُ عَذَابَهُ وَنَضَاعِفُهُ لَهُ لِكُفْرِهِ وَافْتِرَائِهِ وَاسْتَهْزَائِهِ عَلَى اللَّهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ، وَلِذَلِكَ أَكَدَهُ بِالْمَصْدَرِ دَلَالَةً عَلَى فُرْطِ غَضَبِهِ عَلَيْهِ. ﴿وَنَرِثُهُ﴾ بِمَوْتِهِ. ﴿مَا يَقُولُ﴾ يَعْنِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿فَرْدًا﴾ لَا يَصْحَبُهُ مَالٌ وَلَا وَلَدٌ كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا فَضْلًا أَنْ يُؤْتَى ثُمَّ زَائِدًا وَقِيلَ ﴿فَرْدًا﴾ رَافِضًا لِهَذَا الْقَوْلِ مُنْفَرَدًا عَنْهُ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)﴾



﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وصلة إلى الله وشفعاء

عنده .

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (82)

﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها . ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أو سينكر الكفرة لسوء العاقبة أنهم عبدوها لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يؤيد الأول إذا فسر الضد بضد العز، أي ويكونون عليهم ذلاً، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها وتوحيده لوحدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «وهم يد على من سواهم». وقرئ ﴿كَلَّا﴾ بالتثنية على قلب الألف نوناً في الوقف قلب ألف الإطلاق في قوله:

أَقْلِي السُّؤْمَ عَاذِلُ الْعِتَابَيْنِ

أو على معنى كل هذا الرأي كلا وكلا على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرُهُمْ أَرْأَ﴾ (83)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بأن سلطانهم عليهم أو قبضنا لهم قراء . ﴿تَوْرُهُمْ أَرْأَ﴾ تهزهم وتخزيهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات، والمراد تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة .

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ (84)

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم . ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيام آجالهم . ﴿عَذَابًا﴾ والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة .

﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (85)

﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ نجتمعهم . ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، واختبار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يفد الوفاد على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم .

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ (86)

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم . ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ عطاشاً فإن من يرد الماء لا يردعه إلا لعطش، أو كالدواب التي ترد الماء .

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (87)

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ الضمير فيها للعباد المدلول عليها بذكر القسمين وهو الناصب لليوم . ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ إلا من تحلى بما يستعد به ويستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها كقوله تعالى: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾

الرحمن ﴿ من قولهم: عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به، ومحلّه الرفع على البدل من الضمير أو النصب على تقدير مضاف أي إلا شفاعته من اتخذ، أو على الاستثناء. وقيل الضمير للمجرمين والمعنى: لا يملكون الشفاعه فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (88)

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ الضمير يحتمل الوجهين لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن ينسب إليهم.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (89)

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى، والإد بالفتح والكسر العظيم المنكر والإددة الشدة وأدنى الأمر، وأدنى أثقلني وعظم عليّ.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالِ هَذَا﴾ (90)

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحزمة وأبو بكر ويعقوب «ينفطرن»، والأول أبلغ لأن التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولأن أصل التفعل التكلف. ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالِ هَذَا﴾ تهد هداً أو مهدودة، أو لأنها تهد أي تكسر وهو تقرير لكونه أدا، والمعنى، أن هول هذه الكلمة وعظمتها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تحمّلها هذه الأجرام العظام وتفتت من شدتها، أو أن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على من تفوه بها.

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَدْرًا (95) إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِبَلَاغٍ لَّكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ يحتمل النصب على العلة لـ ﴿تَكَادُ﴾ أو لـ ﴿هَذَا﴾ على حذف اللام وإقضاء الفعل إليه، والجر بإضمار اللام أو بالإبدال من الهاء في منه والرفع على أنه خبر محذوف تقديره الموجب لذلك ﴿أَنْ دَعَا﴾، أو فاعل ﴿هَذَا﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن وهو من دعا بمعنى سمي المتعدي إلى مفعولين، وإنما اقتصر على المفعول الثاني ليعطى بكل ما دعي له ولداً، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلاً له مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عداه نعمة ومنعم عليه فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها ومولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتخذ ولدًا ثم صرح به في قوله:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم. ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد، وقرئ ﴿آتَى الرَّحْمَنِ﴾ على الأصل.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً عن الاتباع والأنصار فلا يجانسه شيء من ذلك ليتخذه ولداً ولا يناسبه ليشرك به .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها، وعن النبي ﷺ «إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض». والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حينئذ بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دجا الإسلام، أو لأن الموعود في القيامة حين تعرض حسنتهم على رؤوس الأشهاد فيتزع ما في صدورهم من الغل.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن «يسرناه» معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى. ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أشداء الخصومة آخذين في كل لديد، أي شق من المراء لفرط لجاجهم فبشر به وأنذره.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ تخويف للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْ أَحَدٍ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقرىء «تسمع» من أسمعت والركز الصوت الخفي، وأصل التركيب هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز المال المدفون. عن رسول الله «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعدد من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله».



[مكية وهي مائة وأربع وثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه (1)﴾

﴿طه﴾ فخمها قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون. وهما من أسماء الحروف. وقيل معناه يا رجل على لغة عك، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار والاستشهاد بقوله:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَاهَا فِي خَلَائِقِكُمْ لَا قَدَسَ اللَّهُ أَخْلَاقَ الْمَلَاعِينِ

ضعيف لجواز أن يكون قسماً كقوله حم لا ينصرون، وقرئ ﴿طه﴾ على أنه أمر للرسول ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه، فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه وأن أصله طأ فقلبت همزته هاء أو قلبت في يطاء ألفاً كقوله: لا هناك المرتع. ثم بني عليه الأمر وضم إليه هاء السكت وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل ﴿طه﴾ طأها والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية الأرض، لكن يرد ذلك كتابتهما على صورة الحرف وكذا التفسير بيا رجل أو اكتفى بشطري الكلمتين وعبر عنهما باسمهما.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)﴾

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ خبر ﴿طه﴾ إن جعلته مبتدأ على أنه مؤول بالسورة، أو ﴿القرآن﴾ والقرآن فيه واقع موقع العائد وجوابه إن جعلته مقسماً به ومنادى له إن جعلته نداء، واستئناف إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساق. والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقى من راض المهر، وسيد القوم أشقاهم. ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد. وقيل رد وتكذيب للكفرة، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أنزل عليك لتشقى به.

﴿إِلَّا نَذْكِرُكَ لِمَنْ يَخْشَى (3)﴾

﴿إِلَّا تَذْكِرُ﴾ لكن تذكيراً، وانتصابها على الاستثناء المنقطع، ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾ لاختلاف الجنس ولا مفعولاً له لـ ﴿أنزلنا﴾، فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين. وقيل هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن ﴿لتشقى﴾ متعلق بمحذوف هو صفة القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ لمن في قلبه خشية ورقة تتأثر بالإندار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المنتفع به.

﴿تَنَزِيلًا وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (4)﴾

﴿تَنْزِيلًا﴾ نصب بإضمار فعله أو بـ ﴿يخشى﴾، أو على المدح أو البذل من ﴿تذكرة﴾ إن جعل حالاً، وإن جعل مفعولاً له لفظاً أو معنى فلا لأن الشيء لا يعلل بنفسه ولا بنوعه. ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ مع ما بعده إلى قوله ﴿له الأسماء الحسنى﴾ تفخيم لشأن المنزل بفرط تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسماوات التي هي أصول العالم، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السماوات العلى، وهو جمع العليا تأنيث الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام والتقادير، وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6)﴾

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقب ذلك بإحاطة علمه تعالى بجليات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

﴿وَأَن تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)﴾

﴿وَأَن تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهرك فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس. وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيما ليس لإعلام الله بل لتصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وضمها بالتضرع والجوار، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بين أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال:

﴿أَلَلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)﴾

﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ومن في ﴿ممن خلق الأرض﴾ صلة لـ ﴿تنزيلًا﴾ أو صفة ﴿له﴾، والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتعفن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام من هذا شأنه، ويجوز أن يكون أنزلناه حكاية كلام جبريل والملائكة النازلين معه. وقرئ ﴿الرحمن﴾ على الجر صفة لمن خلق فيكون ﴿على العرش استوى﴾ خبر محذوف، وكذا إن رفع ﴿الرحمن﴾ على المدح دون الابتداء، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، والثرى الطبقة الترابية من الأرض وهي آخر طبقاتها، و ﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلائلها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9)﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ففي تمهيد نبوته ﷺ بقصة موسى ليأتم به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَنَّهُمَا

تَوَدَّى يَمُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى (12) وَأَنَا أَخَذْتُكَ بِأُذُنَيْكَ (13)

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا

تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى (17) قَالَ هِيَ

عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلَيْهَا يَتَسَوَّى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) ﴿

﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ ظرف للـ ﴿حديث﴾ لأنه حدث أو مفعول لأذكر. قيل إنه استأذن شعبياً عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فلما وافى وادي طوى وفيه الطور ولد له ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلمة، وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته إذا رأى من جانب الطور ناراً. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أقيموا مكانكم. وقرأ حمزة «لأهله امكثوا ها هنا»، وفي «القصص» بضم الهاء في الوصل والباقون بكسرها. ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتها إبصاراً لا شبهة فيه، وقيل الإيناس إبصار ما يؤنس به. ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ بشعلة من النار وقيل جمرة. ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار مائلة إليها في كل ما يعن لهم. ولما كان حصولهما مترقباً بني الأمر فيهما على الرجاء بخلاف الإيناس، فإنه كان محققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه، ومعنى الاستعلاء في ﴿على النار﴾ أن أهلها مشرفون عليها أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في: مرتت يزيد إنه لصوق بمكان يقرب منه.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تنقد في شجرة خضراء. ﴿نُودِي يَا مُوسَى﴾.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فتحه ابن كثير وأبو عمرو أي بأني وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكرير الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: من المتكلم قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأني أسمع من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة. ﴿فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ﴾ أمره بذلك لأن الحفوة تواضع وأدب ولذلك طاف السلف حافين. وقيل لتجاسة نعليه فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال. ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ تعليل للأمر باحترام البقعة والمقدس يحتمل المعنيين. ﴿طَوًى﴾ عطف بيان للوادي ونونه ابن عامر والكوفيون بتأويل المكان. وقيل هو كشي من الطي مصدر لـ ﴿نُودِي﴾ أو ﴿المقدس﴾ أي: نودي نداءين أو قدس مرتين.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ اصطفتيك للنبوة وقرأ حمزة «وإنا اخترناك». ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ للذي يوحى إليك، أو للوحي واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو متتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ خصها بالذكر وأفردتها بالأمر للعلة التي أناط بها إقامتها، وهو تذكّر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره. وقيل ﴿لِلذِكْرِي﴾ لأنني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالثناء، أو ﴿لِلذِكْرِي﴾ خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقات ذكرى وهي مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتي. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها إن الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرك».

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة. ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الأخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أخبرت به، أو أكاد أظهرها من أخفاء إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح من خفاء إذا أظهره. ﴿لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ متعلق بـ ﴿آتِيَةٌ﴾ أو بـ ﴿أخفيها﴾ على المعنى الأخير.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نهي الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهيه أن ينصد عنها كقولهم: لا أرينك ها هنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خليت بحالها لا اختارها ولم يعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿وَأَتَّبِعْ هَوَاَّ﴾ ميل نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدجة فقصر نظره عن غيرها. ﴿فَتَرَدَّى﴾ فتهلك بالانصداد بصدده.

﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يريه فيها من العجائب. ﴿بِئَمِينِكَ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلة ﴿تلك﴾. ﴿يَا مُوسَى﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ وقرئ «عصي» على لغة هذيل. ﴿أَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها إذا أعيتت أو وقفت على رأس القطيع. ﴿وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي، وقرئ «أهش» وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته، وقرئ بالسين من الهس وهو زجر الغنم أي أنحي عليها زاجراً لها. ﴿وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى﴾ حاجات آخر مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعرض الزندين على شعبيتها وألقى عليها الكساء واستظل به، وإذا قصر الرشاء وصله بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها، وكأنه ﷺ فهم أن المقصود من السؤال أن يذكر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة مثل أن تشتعل شعبيتها بالليل كالشمع، وتصيران دلوأ عند الاستقاء، وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو، وينبع الماء بركزها، وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة فركزها، على أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجماً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ فآلقاها فإذا هي حية تسعى ﴿قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا ثم تورمت وعظمت فلذلك سماها جاناً تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى، وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحاليين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجان ولذلك قال ﴿كانها جان﴾.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (21)

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الخافض أو على أن أعاد منقول من عادته بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقها أو على تقدير فعلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتتفع بها ما كنت تتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأنت نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها.

﴿وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (22)

﴿وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضد يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر، استعارة من جناحي الطائر سمياً بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ﴾ كأنها مشعة. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير عاهة وقبح، كني به عن البرص كما كني بالسوأة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ معجزة ثانية وهي حال من ضمير ﴿تخرج بَيْضَاءَ﴾ أو من ضميرها، أو مفعول بإضمار خذ أو دونك.

﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (23)

﴿لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ متعلق بهذا المضمرة أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللتها بها، أو فعلنا ذلك ﴿لنريك﴾ و ﴿الكبرى﴾ صفة ﴿آياتنا﴾ أو مفعول «نريك» و ﴿من آياتنا﴾ حال منها.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (24)

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين وادعه إلى العبادة. ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ عصى وتكبر.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هُزُونَ أَخِي (30) أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى (31) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا (33) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَى أُمَمٍ مِمَّا يُوحَى (38) أِنْ أَقْدَفْنَاهُ فِي النَّابُوتِ فَأَقْدَفْنَاهُ فِي آلِيهِ فَلْيَلْقِهِ آلِيَهُم بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُمْ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَنِيَّ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَنْتَ نَفْسَكَ فَنَصَّحْنَاكَ مِنْ الْغَيْرِ وَفَنَزَكْنَاكَ فَنَرَوُنَّ فَلْيَلِثْ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى (40)

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ لما أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأله أن يشرح صدره ويفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه، والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع، وفائدة لي إبهام المشروح والميسر أولاً، ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة.

﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ فإنما يحسن التبليغ من البليغ وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه، وذلك أن فرعون حملة يوماً فأخذ بلحيته وנתفها، فغضب وأمر بقتله فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه. ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه. واختلف في زوال العقدة بكما لها فمن قال به تمسك بقوله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ومن لم يقل احتج بقوله ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وقوله ﴿وَلَا يَكَادُ بَيِّنُ﴾ وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها وجعل يفقهوا جواب الأمر، ومن لساني يحتمل أن يكون صفة عقدة وأن يكون صلة احلل.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هُزُونَ أَخِي﴾ يعينني على ما كلفتنني به، واشتقاق الوزير إما من الوزير لأنه يحمل الثقل عن أميره، أو من الوزر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجئ إليه في أموره، ومنه الموازنة وقيل أصله أوزير من الأزر بمعنى القوة، فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والعجيس قلبت همزته واواً كقلبها في موازر. ومفعولاً اجعل وزيراً، و ﴿هرون﴾ قدم ثانيهما للعناية به و ﴿لي﴾ صلة أو حال أو ﴿لي﴾ وزيراً و ﴿هرون﴾ عطف بيان للوزير، أو ﴿وزيراً من أهلي﴾ و ﴿لي﴾ تبين كقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾. و ﴿أخي﴾ على الوجه بدل من ﴿هرون﴾ أو مبتدأ خبره.

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ على لفظ الأمر وقرأهما ابن عامر بلفظ الخبر على أنهما جواب الأمر.

﴿كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن التعاون يهيج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايد.



﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هارون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي مسؤولك، فعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ﴾ بإلهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو ملك - لا على وجه النبوة - كما أوحى إلى مريم. ﴿مَا يُوْحَى﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي، أو مما ينبغي أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به.

﴿أَنْ أَقْذِفَ فِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ بأن أقذفه، أو أي أقذفه لأن الوحي بمعنى القول. ﴿فَأَقْذِفْ فِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وكذلك الرمي كقوله: ﴿عَلَّامٌ رِّمَآهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا﴾. ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة به، وجعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمره بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر، والأولى أن تجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم، فالمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل وإن كان التابوت بالذات فموسى بالعرض. ﴿يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ جواب ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ وتكرير ﴿عدو﴾ للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع. قيل إنها جعلت في التابوت قطعاً ووضعته فيه ثم قبرته وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر فدفعه الماء إليه فأداه إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته أسية بنت مزاحم، فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبي أصبح الناس وجهاً فأحبه حباً شديداً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي محبة كائنة مني قد زرعتها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك فلذلك أحبك فرعون، ويجوز أن يتعلق ﴿مني﴾ بـ ﴿أَلْقَيْتُ﴾ أي أحبيتك ومن أحبه الله أحبته القلوب، وظاهر اللفظ أن اليم ألقاه بساحله وهو شاطئه لأن الماء يسحله فالتقط منه، لكن لا يبعد أن يؤول الساحل بجانب فوهة نهره. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ لتربي ويحسن إليك وأنا راعيك وراقبك، والعطف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معلل مثل فعلت ذلك. وقرئ ﴿ولتصنع﴾ بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر ﴿ولتصنع﴾ بالنصب وفتح التاء أي وليكن عملك على عين مني لئلا تخالف به عن أمري.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ ظرف لـ ﴿أَلْقَيْتُ﴾ أو ﴿لتصنع﴾ أو بدل من ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ على أن المراد بها وقت متسع. ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ وذلك لأنه كان لا يقبل ثدي المراضع، فجاءت أخته مريم متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها فقالت ﴿هل أدلكم﴾ فجاءت بأمه فقبل ثديها. ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ وفاء بقولنا ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقاءك. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي بفراقك أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي. ﴿فَتَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ غم قتله خوفاً من عقاب الله تعالى واقتصاص فرعون بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين. ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز وبدور في حجة وبدرة، فخلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الآلاف، والمشى راجلاً على حذر وفقد الزاد وأجر نفسه إلى غير ذلك أوله ولما سبق ذكره. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفى الأجلين، ومدين على ثمان مراحل من مصر. ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قدرته لأن أكلمك وأستنبئك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر، أو على

مقدار من السن يوحى فيه إلى الأنبياء. ﴿يَا مُوسَى﴾ كرهه عقيب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)﴾

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ واصطفتك لمحبتى مثله فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه

لنفسه.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي (42)﴾

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ بمعجزاتي. ﴿وَلَا نَبِيَّ﴾ ولا تفترأ ولا تقصرا، وقرىء ﴿نَبِيَّ﴾ بكسر

الناء. ﴿فِي ذِكْرِي﴾ لا تنسياني حيثما تغلبتما. وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إليّ.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43)﴾

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده وههنا إياه وأخاه فلا

تكرير. قيل أوحى إلى هارون أن يتلقى موسى. وقيل سمع بمقبله فاستقبله.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْتَبِرَ يَذْكُرْ أَوْ يَخْشَىٰ (44)﴾

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْتَبِرَ﴾ مثل ﴿هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فإنه دعوة في صورة

عرض ومشورة حذراً أن تحمله الحماقة على أن يسطو عليكما؛ أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل

كنياه وكان له ثلاث كنى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة. وقيل عدها شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا يزول إلا

بالموت. ﴿لَعَلَّهُ يَذْكُرْ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿أَذْهَبَا﴾ أو «قولا» أي: باشرا الأمر على رجائكما. وطمعكما

أنه يثمر ولا يخيب سعيكما، فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف، والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في

الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات

والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن

يتوهمه فيخشى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (45)﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا﴾ أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار

المعجزة، من قرط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فرط يسبق الخيل. وقرىء ﴿يقرط﴾ من أفرطته إذا حملته

على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جني على

المعالجة بالعقاب، و ﴿يقرط﴾ من الإفراط في الأذية. ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ أو أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن

يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ (46)﴾

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ بالحفظ والنصر. ﴿أَسْمِعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل،

فأحدث في كل ما يصرف شره عنكما ويوجب نصرتي لكما، ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني

حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً تم الحفظ.

﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِشَافِرٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ

الْمُذَكِّ (47)﴾

﴿فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أطلقهم. ﴿وَلَا تَعْذِْبُهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة

وقتل الولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام، وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخلص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدرج في الدعوة. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ جملة مقرر لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وحد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددتها، وكذلك قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةً﴾، ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾، ﴿قَالَ أُولُو جِنَّتِكَ بِشْيءٍ مَبِينٍ﴾. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (48)

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أن عذاب المتزليين على المكذبين للرسول، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى﴾ (49)

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أن بعد ما أتياه وقال له ما أمرا به، ولعله حذف لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة، وإنما خاطب الإثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهرون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتبة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه ويدل عليه قوله ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (50)

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُ﴾ صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليفته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود ببيانه. وقيل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً. وقرئ ﴿خَلْقَهُ﴾ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقائه وكمال اختياراً أو طبعاً، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعراجه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عدها مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بهت الذي كفر وأفحم عن الدخيل عليه فلم ير إلا صَرَفَ الكلام عنه.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (51)

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة.

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (52)

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو وإنما أنا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿فِي كِتَابٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده. ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ والضلال أن تخطيء الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات، ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها وتخصيصه أبعاضها بالصور والخواص المختلفة، بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها، والقرون الخالية مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمه بهم

وبأجزائهم وأحوالهم فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (54) ﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (55) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كَلْهَاءَ فَكَذَّبَ وَإِنِّي (56) قَالَ أَجَعَلْنَا لِنُخْرِجَنَّ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى (57) فَلَنَسَاءُ تِلْكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجَعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُصْخَرُ النَّاسُ ضُخًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْجَنَكُمْ بَعْدَافٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بِبَيْنِهِمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتْلَى (63) فَأَجْحُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَقْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّمَا أَن تَلْقَى وَلِمَا أَن تَكُونَ أَوَّلَ مَنِ أَتَى (65) قَالَ بَلْ أَفْتُوا إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِمْ سِحْرُهُمْ أَنَّهُ تَسَعَى (66) فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُّوسَى (67) فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى (70)﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مرفوع صفة لـ «ربي» أو خبر لمحذوف أو منصوب على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي «الزخرف» «مهذا» أي كالمهد تمتدونها، وهو مصدر سمي به، والباقون مهذاً وهو اسم ما يمهّد كالفرش أو جمع مهد ولم يختلفوا في الذي في «النبأ». «وَسَلَكَ لَكُمْ سُبُلًا» وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. «وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» مطراً. «فَأَخْرَجْنَا بِهِ» عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيداناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها» «أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق» الآية. «أَزْوَاجًا» أصنافاً سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. «مِّن نَّبَاتٍ» بيان أو صفة لأزواجاً وكذلك: «شَتَّى» ويحتمل أن يكون صفة لـ «نبات» فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جمع شتيت كمریض ومرضى أي متفرقات في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال:

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ وهو حال من ضمير «فأخرجنا» على إرادة القول أي أخرجنا أصناف النبات قائلين «كلوا وارعوا»، والمعنى معديهما لانتفاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى» لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وإرتكاب القبائح جمع نهية.

﴿وَمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. «وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ» بالموت وتفكيك الأجزاء. «وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا﴾ بصرناه إياها أو عرفناه صحتها. «كُلِّهَا» تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات «فَكَذَّبَ» موسى من فرط عناده. «وَأَبَى» الإيمان والطاعة لعتوه.

﴿قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا﴾ أرض مصر. ﴿بِسُحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونه محققاً حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسُحْرٍ مِثْلِهِ﴾ مثل سحرك. ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا مَوْعِداً﴾ وعداً لقوله: ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ فإن الإخلاف لا يلائم الزمان والمكان وانتصاب. ﴿مَكَاناً سَوِيّاً﴾ بفعل دل عليه المصدر لا به لأنه موصوف، أو بأنه بدل من ﴿موعداً﴾ على تقدير مكان مضاف إليه وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، أو بإضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة، وقرىء ﴿يوم﴾ بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر، ومعنى سوى متصفاً يستوي مسافته إلينا وإليك وهو في النعت كقولهم: قوم عدي في الشذوذ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمره ويعقوب بالضم، وقيل في ﴿يوم الزينة﴾ يوم عاشوراء، أو يوم النيروز، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأفطار. ﴿وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ عطف على الـ ﴿يوم﴾ أو ﴿الزينة﴾، وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون والياء على أن فيه ضمير الـ ﴿يوم﴾ أو ضمير ﴿فرعون﴾ على أن الخطاب لقومه.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ ما يكاد به يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ الموعد.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ بأن تدعوا آياته سحراً. ﴿فَيُشْجِنَكُمْ وَعَذَابٌ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسحت لغة الحجاز. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ كما خاب فرعون، فإنه افتري واحتال ليبقى الملك عليه فلم ينفعه.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه فقال بعضهم: ليس هذا من كلام السحرة. ﴿وَأَسْرَوْا النَّجْوَى﴾ بأن موسى إن غلبنا اتبعناه أو تنازعوا واختلّفوا فيما يعارضون به موسى وتشاوروا في السر. وقيل الضمير لفرعون وقومه وقوله:

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾ تفسير لـ ﴿أسروا النجوى﴾ كأنهم تشاوروا في تلقيقه حذراً أن يغلبا فيتبعهما الناس، و ﴿هذان﴾ اسم إن على لغة بلحرت بن كعب فإنهم جعلوا الألف للثنية وأعربوا المثنى تقديرأ. وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف و ﴿هذان لساحران﴾ خبرها. وقيل ﴿إن﴾ بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما إن اللام لا تدخل خبر المبتدأ. وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف، وقرأ أبو عمرو «أن هذين» وهو ظاهر، وابن كثير وحفص «أن هذان» على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافية واللام بمعنى إلا. ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ بالاستيلاء عليها. ﴿بِسُحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم﴾. وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى «أرسل معنا بني إسرائيل». وقيل الطريقة اسم لوجه القوم وأشرافهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ فأزمعوه واجعلوه مجمعاً عليه لا يتخلف عنه واحد منكم. وقرأ أبو عمرو ﴿فاجمعوا﴾ ويعضده قوله ﴿فجمع كيدهم﴾ والضمير في ﴿قالوا﴾ إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض. ﴿ثُمَّ اتَّوَا صَفَاً﴾ مصطفين لأنه أهيأ في صدور الرائين. قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل عصا

وأقبلوا عليه إقبالة واحدة. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ فاز بالمطلوب من غلب وهو اعتراض.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب و﴿أَنْ﴾ بما بعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأمر إلقاءك أو إلقاءنا.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ مقابلة أدب بأدب وعدم مبالاة بسحرهم، وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ، ولأن يبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه. ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي فآلقوا فإذا حبالهم وعصيمهم، وهي للمفاجأة والتحقيق أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلقاً ينصبها وجملة تضاف إليها، لكنها خصت بأن يكون المتعلق فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى: فآلقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخيل سعي حبالهم وعصيمهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطفوها بالزئيق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيّل إليه أنها تتحرك. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان وروح «تخيّل» بالتاء على إسناده إلى ضمير الحبال، والعصي ويدال أنها «تسعى» منه بدل الاشتغال، وقرئ «يخيّل» بالياء على إسناده إلى الله تعالى، و«تخيّل» بمعنى تتخيّل.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجملة البشرية، أو من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ما توهمت. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ تعليل للنهي وتقدير لغلبته مؤكداً بالاستئناف، وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أبهمه ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيمهم وألق العويذة التي في يدك، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فألقه. ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ يتلعه بقدرة الله تعالى، وأصله تلتقف فحذفت إحدى التاءين، وتاء المضارعة تحتمل التأنيت والخطاب على إسناد الفعل إلى المسبب. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف، وحفص بالجزم والتخفيف على أنه من لقفته بمعنى تلتفته. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا. ﴿كَيْدَ سَاحِرٍ﴾ وقرئ بالنصب على أن ما كافة وهو مفعول صنعوا. وقرأ حمزة والكسائي «سحر» بمعنى ذي سحر، أو بتسمية الساحر سحراً على المبالغة، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم: علم فقه، وإنما وحد الساحر لأن المراد به الجنس المطلق ولذلك قال: ﴿وَلَا يَفْلُحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس وتنكير الأول لتنكير المضاف كقول المعجاج:

يَوْمَ تَرَى النَّفْسُ مَا أَعَدَّتْ فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مَدَّتْ  
كانه قيل إنما صنعوا كيد سحري. ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ حيث كان وأين أقبل.

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجُوداً﴾ أي فآلقى فتلقفت فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سجداً لله توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربي موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستتباع. روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنزلهم فيها.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِيدٌ كُذِّبَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا فَطَمَرَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفِ

وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ﴾ أي لموسى واللام لتضمن الفعل معنى الاتباع. وقرأ قنبل وحفص ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ على الخبر والباقون على الاستفهام. ﴿قَبْلَ أَنْ أَذْنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ لعظيمكم في فنكم وأعلمكم به أو لأستاذكم. ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿فَلَا قُطْعَمَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن ابتدائية كأن القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال، أي لأقطعنها مختلفات وقرئ «لأقطعن» «ولأصلبن» بالتخفيف. ﴿وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ شبه تمكن المصلوب بالجذع بتمكن المظروف بالظرف وهو أول من صلب. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا﴾ يريد نفسه وموسى لقوله ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله أراد به توضيع موسى والهزة به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء. وقيل رب موسى الذي آمنوا به. ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وأدوم عقاباً.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

﴿٧٢﴾

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك. ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا﴾ موسى به، ويجوز أن يكون الضمير فيه لما. ﴿وَمِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم. ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به. ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه في هذه الدنيا ﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فهو كالتعليل لما قبله والتمهيد لما بعده. وقرئ «تقضي هذه الحياة الدنيا» كقولك: صيم يوم الجمعة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ﴿٧٣﴾

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ﴾ من معارضة المعجزة. روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً فوجدوه تحرسه العصا فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ جزاء أو خير ثواباً وأبقى عقاباً.

﴿إِنَّمَا مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٤﴾

﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر. ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأن يموت على كفره وعصيانه. ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ حياة مهناة.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ ﴿٧٥﴾

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ المنازل الرفيعة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿٧٦﴾

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات. ﴿تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال والعامل فيها معنى الإشارة أو الاستقرار. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ تظهر من أدناس الكفار والمعاصي، والآيات الثلاث يحتمل أن تكون من كلام السحرة وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى﴾ ﴿٧٧﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي من مصر. ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فاجعل لهم، من

قولهم ضرب له في ماله سهماً أو فاتخذ من ضرب اللبن إذا عمله. ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يابساً مصدر وصف به يقال يبس يبساً ويبساً كسقم سقماً وسقماً، ولذلك وصف به المؤنث فقيل شاة يبس للتي جف لبنها، وقرئ ﴿يَبَسًا﴾ وهو إما مخفف منه أو وصف على فعل كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به الواحد مبالغة كقوله:

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غُرَزًا وَمَعِي جِإَاعًا

أو لتعدده معنى فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً. ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ حال من المأمور أي آمنا من أن يدرككم العدو، أو صفة ثانية والعائد محذوف، وقرأ حمزة «لا تخف» على أنه جواب الأمر. ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78)﴾

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فَأَخْبَرَ فِرْعَوْنَ بذلك فقص أثرهم، والمعنى فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني. وقيل ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ بمعنى فأتبعهم ويؤيده القراءة به والباء للتعدي وقيل الباء مزيدة والمعنى: فأتبعهم جنوده وذادهم خلفهم. ﴿فَفَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله. وقرئ «فغشاهم ما غشاهم» أي غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله تعالى أو ما غشاهم أو فرعون لأنه الذي ورطهم للهلاك.

﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى (79)﴾

﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم وهو تهكم به في قوله ﴿وما أهديك إلا سبيل الرشاد﴾ أو أضلهم في البحر وما نجا.

﴿يَبْنَئُ إِسْرَءِيلُ قَدْ أَجْنَيْتُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْتُكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى (80) كُؤُومِنْ طَيْبَتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)﴾ وَمَا أَعْجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمْوَسَّى (83) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَقْتُمِرُ الْمَمَّ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسَى (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ رِيحَهُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًْا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَتَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَهْتَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ



فَنَبَذْنَاهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) فَكَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِدًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) ﴿

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فعل آبائهم. ﴿قَدْ أَجْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وقومه. ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه، وإنما عد المواعدة إليهم وهي لموسى أوله وللسبعين المختارين للملابسة. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ يعني في التيه.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لذاذته أو حلالاته، وقرأ حمزة والكسائي «أَجْنَيْتُكُمْ» «وَوَاعَدْتُكُمْ» و «ما رزقناكم» على التاء. وقرئ «ووعدتكم» «ووعدناكم»، والأيمن بالجر على الجوار مثل: حجر ضب خرب. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالسرف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ فقد تردى وهلك. وقيل وقع في الهاوية، وقرأ الكسائي «يحل» و «يُخْلِلُ» بالضم من حل يحل إذا نزل.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ عن الشرك. ﴿وَأَمَّنْ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثم استقام على الهدى المذكور.

﴿وَمَا أَصْبَحَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدم جواب الإنكار لأنه أهم.

﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿هُمْ أَوْلَاءَ عَلَيَّ أَتْرَى﴾ أي ما تقدمتهم إلا بخطأ يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم بعضاً. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. ﴿وَأَصْلَبُ السَّامِرِيِّ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته، وقرئ «وَأَصْلَبُهُمْ» أي أشدهم ضللاً لأنه كان ضالاً مضلاً، وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحسبوا بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل، وإن هذا الخطاب كان له عند مقدمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقب بلفظ الواقع على عادته، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته، و «السامري» منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة. وقيل كان علجاً من كرمان. وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة «غَضَبَانِ» عليهم. «أَسِفًا» حزناً بما فعلوا. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وبأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقتهم لهم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يجب عليكم. «غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ» بعبادة ما هو مثل في الغاوة. «فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي» وعذكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به، وقيل هو من أخلفت وعده إذا وجدت الخلف فيه، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين، وهو لا يناسب الترتيب على التردد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ بأن ملكنا أمرنا إذ لو خيلنا وأمرنا ولم يسول لنا السامري لما أخلفناه، وقرأ نافع وعاصم ﴿بِمَلَكِنَا﴾ بالفتح وحمزة والكسائي بالضم وثلاثها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء. ﴿وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ حملنا أحمالاً من حلى القبط التي استعرتها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل استعاروا لعيد كان لهم ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به وقيل هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه ولعلمهم سموها أوزاراً لأنها آثام، فإن الغنائم لم تكن تحل بعد أو لأنهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي. ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي في النار. ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان معه منها. روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفرة ونسجر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وروح ﴿حَمَلْنَا﴾ بالفتح والتخفيف.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ من تلك الحلي المذابة. ﴿لَهُ خُورٌ﴾ صوت العجل. ﴿فَقَالُوا﴾ يعني السامري ومن اقتن به أول ما رآه. ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أن ترك ما كان عليه من إظهار الإيمان.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أفلا يعلمون. ﴿أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً. وقرئ ﴿يرجع﴾ بالنصب وفيه ضعف لأن أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين. ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ ولا يقدر على إنقاذهم وإضرارهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام، أو قول السامري كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توههم ذلك وبادر تحذيرهم. ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ بالعجل. ﴿وَإِنْ رَبُّكُمْ الرَّحْمَنُ﴾ لا غيره. ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في الثبات على الدين.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ على العجل وعبادته. ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين. ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ﴾ أي قال له موسى حين رجع. ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل.

﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به، أو أن تأني عقبي وتلحقني و «لا» مزيدة كما في قوله ﴿ما منعك أن لا تسجد﴾. ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بالصلابة في الدين والمحاماة عليه.

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ﴾ خص الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل لأنه كان أخاه من الأم والجمهور على أنهما كانا من أب وأم. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل. ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لو قاتلت أو فارقت بعضهم ببعض. ﴿وَلَمْ تَرْفُبْ قَوْلِي﴾ حين قلت «اخلفني في قومي وأصلح» فإن الإصلاح كان في حفظ الدهماء والمدارة لهم أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه، وهو مصدر خطب الشيء إذا طلبه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالثناء على الخطاب أي علمت بما لم تعلموه

وفطنت لما لم تظنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحاني لا يمس أثره شيئاً إلا أحياه، أو رأيت ما لم تروه وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة. وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون وكان جبريل يغذوه حتى استقل. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ من تربة موطنه والقبضة المرة من القبض فأطلق على المقبوض كضرب الأمير، وقرىء بالصاد والأول للأخذ بجميع الكف والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم والقضم، والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور. ﴿فَنَبَذْتُهَا فِي الْحُلِيِّ الْمَذَابِ أَوْ فِي جَوْفِ الْعَجَلِ حَتَّى حَيِي. وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ زينته وحسنته لي.

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ عِقوبةً عَلَى مَا فَعَلْتَ. إِنَّ تَقُولَ لَا مَسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى ومن مسك فتتخامى الناس ويتحاموك وتكون طريداً وحيداً كالوحش النافر، وقرىء ﴿لَا مَسَاسَ﴾ كفجار وهو علم للمسة. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً﴾ في الآخرة. ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ لن يخلفكه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا، وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تخلف الواعد إياه وسيأتيك لا محالة، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعد ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً، وقرىء بالنون على حكاية قول الله. ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ ظلت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً، وقرىء بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾، أو بالمبرد على أنه مبالغة في حرق إذ برد بالمبرد ويعضده قراءة ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾. ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعَنَّهُ﴾ ثم لنذرينه رماداً أو مبروداً وقرىء بضم السين. ﴿فِي الْيَمِّ نَسْفَاً﴾ فلا يصادف منه شيء والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار غباوة المفتتين به لمن له أدنى نظر.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (98)

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ المستحق لعبادتهم. ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة. ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يعلم لا العجل الذي يصاغ ويحرق وإن كان حياً في نفسه كان مثلاً في الغباوة، وقرىء ﴿وسع﴾ فيكون انتصاب ﴿علماً﴾ على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (99)

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمور والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبيهاً وتذكيراً للمستبصرين من أمتك. ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقةً بالتفكر والاعتبار، والتذكير فيه للتعظيم. وقيل ذكراً جميلاً وصيلاً عظيماً بين الناس.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (100)

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة وقيل عن الله. ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره، وذنوبه سماها ﴿وزراً﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، أو إثماً عظيماً.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ (101)

﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ في الوزر أو في حملة، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي بشس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره ﴿حملاً﴾، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وزرهم، واللام في ﴿لهم﴾ للبيان كما في ﴿هيت لك﴾ ولو جعلت ﴿ساء﴾ بمعنى أحرز والضمير الذي فيه للوزر أشكل أمر اللام ونصب ﴿حملاً﴾ ولم يقد مزيد معنى.

﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَنُحْشَرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (102)

﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الأمر به تعظيماً له أو للنافخ. وقرئ بالياء المفتوحة على أن فيه ضمير الله أو ضمير إسرأفيل وإن لم يعجز ذكره لأنه المشهور بذلك، وقرئ ﴿في الصور﴾ وهو جمع صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿وَنُحْشَرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقرئ «ويحشر المجرمون» ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون وصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العين ولذلك قالوا: صفة العدو أسود الكيد، أصهب السبال، أزرق العين أو عمياً، فإن حدة الأعمى تراق.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ (103)

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿إِنْ﴾ ما ﴿لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي في الدنيا يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها، أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات، أو في القبر لقوله ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ إلى آخر الآيات.

﴿فَمَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (104)

﴿فَمَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم رأياً أو عملاً. ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاح لقول من يكون أشد تقلاً منهم.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (105)

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ عن مآل أمرها وقد سأل عنها رجل من ثقيف. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (106)

﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة ﴿الجبال﴾ عليها كقوله تعالى: ﴿ما ترك عليها من دابة﴾. ﴿قَاعًا﴾ خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ مستوياً كأن أجزاءها على صف واحد.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ (107)

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ اعوجاجاً ولا نتوءاً إن تأملت فيها بالقياس الهندسي، وثلاثتها أحوال مترتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس ولذلك ذكر العوج بالكسر وهو يخص بالمعاني، والأمت وهو النتوء اليسير وقيل لا ترى استثناءً مبين للحالين.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (108)

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النفس، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر، قيل هو إسرأفيل يدعو الناس قائماً على صخرة بيت المقدس فيقبلون من كل أوب إلى صوبه ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه. ﴿وَخَشَعَتِ﴾

الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴿ خَفَضَتْ لِمَهَابَتِهِ . ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ صوتاً خفياً ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل ، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴿

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له أو من أعم المفاعيل ، أي إلا من أذن في أن يشفع له فإن الشفاعة تنفعه ، ف ﴿مَنْ﴾ على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية و ﴿أَذِنَ﴾ يحتمل أن يكون من الأذن ومن الأذن . ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه ، أو قوله لأجله وفي شأنه .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الأحوال . ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه . ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ولا يحيط علمهم بمعلوماته ، وقيل بذاته وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعهما ، فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه .

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت له خضوع العناء وهم الأساري في يد الملك القهار ، وظهرها يقتضي العموم ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة ويؤيده . ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف ما لأجله عنت وجوههم .

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعض الطاعات . ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول الخيرات . ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقصان أو جزاء ظلم وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه ، وقرئ « فلا يخف » على النهي .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على كذلك نقص أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعد . ﴿أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة . ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ مكررين آيات الوعيد . ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم ملكة . ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها فتنبطهم عنها ، ولهذه النكتة أسند التقوى إليه والإحداث إلى القرآن .

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته ذاتهم . ﴿الْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه الحقيقي بأن يرجي وعده ويخشى وعيده . ﴿الْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته ، أو الثابت في ذاته وصفاته ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ نهى عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد . وقيل نهى عن تبليغ ما كان مجعلاً قبل أن يأتي بيانه . ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة .

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ﴾ ولقد أمرناه يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه إذا أمره ، واللام جواب قسم محذوف وإنما عطف قصة آدم على قوله ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان . ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان . ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد ولم يعن

به حتى غفل عنه، أو ترك ما وصي به من الاحتراز عن الشجرة. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ تصميم رأي وثباتاً، على الأمر إذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزل الشيطان ولم يستطع تغريه، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور ويذوق شريها وأريها. وعن النبي ﷺ «لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾». وقيل عزماً على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده ونجد إن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزماً مفعولاه، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حال من عزماً أو متعلق بنجد.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ (116)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ مقدر باذكر أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد سبق القول فيه. ﴿أَبَى﴾ جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله ﴿فَسَجَدُوا﴾ لأن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (117)

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾ فلا يكون سبباً لإخراجكما، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ وأفرده بإسناد الشقاء إليه بعد إشراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال ويؤيده قوله.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (118)

﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (119)

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والسكن مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائصها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها، والعاطف وإن ناب عن أن لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق فلا يمتنع دخوله على أن امتناع دخول إن عليه. وقرأ نافع وأبو بكر ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ بكسر الهمزة والباقيون بفتحها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (120)

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ فأنتهى إليه وسوسته. ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الشجرة التي من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً. فأضافها إلى الخلد أي الخلود لأنها سببه بزعمه. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ لا يزول ولا يضعف.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (121)

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أخذاً يلزقان الورق على سواتهما للستر وهو ورق التين ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَى﴾ فضل عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو. وقرئ ﴿فَغَوَى﴾ من غوى الفصيل إذا أتخم من اللبن وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها.

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (122)

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاؤه وقربه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من أجبى إلى كذا فاجتنبته مثل جليت على العروس فاجتلبتها، وأصل معنى الكلمة الجمع. ﴿فَأَبَىٰ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته لما تاب. ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة.

﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (123)

﴿قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الخطاب لآدم وحواء، أوله ولإبليس ولما كانا أصلي الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا. ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (124)

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ عن الهدى الذاكر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقاً مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث، وقرىء ﴿ضَنْكِي﴾ كسكرى، وذلك لأن مجامع همته ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهاكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه تعالى قد يضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ الآيات، وقيل هو الضريع والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ قرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ لأنه جواب الشرط. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ أعمى البصر أو القلب ويؤيد الأول.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (125)

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف متقلبة من الياء، وفرق أبو عمرو بأن الأول رأس الآية ومحل الوقف فهو جدير بالتغيير.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتُكَ إِنَّمَا كُنَّا نَسِيهُنَّ وَأَنْتَ فَأَسْخِطْنَا بِهِنَّ وَالْيَوْمَ نُنَسِّي﴾ (126)

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسرهم فقال: ﴿أَنْتُكَ أَيَّا تُنَا﴾ واضحة نيرة. ﴿فَنَسِيَهُنَّ﴾ فعميت عنها وتركتها غير منظور إليها. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿الْيَوْمَ نُنَسِّي﴾ ترك في العمى والعذاب.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (127)

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذب بها وخالفها. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك. ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من ضنك العيش أو منه ومن العمى، ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعَى﴾ (128)

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مسند إلى الله تعالى أو الرسول أو ما دل عليه. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي إهلاكنا إياهم أو الجملة بمضمونها، والفعل على الأولين معلق يجري مجرى أعلم ويدل عليه القراءة بالنون.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (130) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبَحَ عَلَيْهِ لَا شَيْءَ مِنْ رِزْقِكَ وَالْغَنِيُّ لِلْقَوَىٰ (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِنَاهُمْ بِنَبَأٍ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَىٰ (134) قُلْ كُلُّ مَتْرَبٍ قَرَبٌ فَتَبَصَّوْا فَمَتَّعْتُمُوهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الضَّرِيطِ السُّوَىٰ وَمَنْ أَهْتَدَىٰ (135)﴾

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثل ما نزل بعداد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة، وهو مصدر وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفرط لزومه كقولهم لزاز خصم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة أي ولولا العدة بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم، أو لعذابهم وهو يوم القيامة أو يوم بدر لكان العذاب لازماً والفصل للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب، ويجوز عطفه على المستكن في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وصل وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، أو نزهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميزك بالهدى معترفاً بأنه المولى للنعم كلها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ومن ساعاته جمع أنا بالكسر والقصر، أو أثناء بالفتح والمد. ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني المغرب والعشاء وإنما قدم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل فإن القلب فيه أجمع والنفس أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمز ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ نَاشَأَ اللَّيْلُ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكرير لصلاحي الصبح والمغرب إرادة الاختصاص، ومعجبه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله:

ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ التَّرْسَيْنِ

أو أمر بصلاة الظهر فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر وجمعه باعتبار النصفين أولان النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلق بـ ﴿سَبِّحْ﴾ أي سبح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله ما به ترضي نفسك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يرضيك ربك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظر عينيك. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون مثله. ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ وأصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي الذي متعنا به، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف دل عليه ﴿متعنا﴾ أو ﴿به﴾ على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل ﴿به﴾ أو من ﴿أَزْوَاجًا﴾ بتقدير مضاف ودونه، أو بالذم وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب بالفتح وهو لغة كالجهرة في الجهرة، أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعيمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في



الآخرة بسببه. ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ وما ادخر لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقَى﴾ فإنه لا ينقطع.

﴿وَأَمُرُ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمره بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمر بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿وَاضْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وداوم عليها. ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ففرغ بالك لأم الآخرة. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلتَّقْوَى﴾ لذوي التقوى. روي «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ آية تدل على صدقه في إهداء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعتناً وعناداً فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، ونبههم أيضاً على وجه أبين من الوجوه المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتغالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية مع أن الآتي بما أمي لم يرها ولم يتعلم ممن علمها إعجاز بين، وفيه إشعار بأنه كما يدل على نبوته برهان لما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد على صحتها. وقرىء ﴿الصُّحُفِ﴾ بالتخفيف وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ﴾ بالتاء والباقون بالياء.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة والتذكير لأنها في معنى البرهان، أو المراد بها القرآن. ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بالقتل والسبي في الدنيا. ﴿وَنَخْزَى﴾ بدخول النار يوم القيامة، وقد قرىء بالبناء للمفعول فيهما.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم. ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وقرىء «فتمتعوا». ﴿فَتَسْتَعْلِمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم، وقرىء «السواء» أي الوسط الجيد و«السوأي» و«السوء» أي الشر، و«السوي» هو تصغيره. ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ من الضلالة و«من» في الموضعين للاستفهام ومحلها الرفع بالابتداء، ويجوز أن تكون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبي ﷺ. وعنه ﷺ «من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين».

## سورة الأنبياء

[مكية وآياتها مائة واثنان عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (1)﴾

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ بالإضافة إلى ما مضى أو ما عند الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيداً وَرَأَاهُ قَرِيباً﴾ وقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ أو لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقضى ومضى، واللام صلة لـ ﴿اقْتَرَبَ﴾ أو تأكيد للإضافة وأصله اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم، وخص الناس بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عن الحساب. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكير فيه وهما خيران للضمير، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في ﴿معرضون﴾.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسَمَّعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2)﴾

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ ينههم من سنة الغفلة والجهالة. ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ صفة لـ ﴿ذِكْرٍ﴾ أو صلة لـ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾. ﴿مُحَدَّثٍ﴾ تنزيهه ليكرر على أسماعهم التنبيه كي يتعظوا، وقرئ بالرفع حملاً على المحل. ﴿إِلَّا أَسَمَّعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكير في العواقب ﴿وهم يلعبون﴾ حال من الواو وكذلك:

﴿لَا هِیةَ قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ

تُبْصِرُونَ (3)﴾

﴿لَا هِیةَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكير فيه، ويجوز أن يكون من واو ﴿يلعبون﴾ وقرئت بالرفع على أنها خبر آخر للضمير. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث خفي تناجيهم بها. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من واو ﴿وَأَسَرُوا﴾ للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره وأصله وهؤلاء أسروا النجوى فوضع الموصول موضعه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم أو منصوب على الذم. ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بأمره في موضع نصب بدلاً من ﴿النجوى﴾، أو مفعولاً لقول مقدر كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فأنكروا حضوره، وإنما أسروا به تشاوراً في استنباط ما يهدم أمره ويظهر فسادَه للناس عامة.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4)﴾

﴿قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أسروا به فهو أكد من قوله

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولذلك اختير ها هنا وليطابق قوله ﴿وَأَسْرُوا النُّجُومَ﴾ في المبالغة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿قَالَ﴾ بالإخبار عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (5)

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضراب لهم عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر والظاهر أن ﴿بَلْ﴾ الأولى لتتمام حكاية والإبتداء بأخرى أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاولهم في أمر القرآن، والثانية والثالثة لإضرابهم عن كونه أباطيل خيلت إليه وخلطت عليه إلى كونه مفتريات اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلام شعري يخل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تزيلاً لأقوالهم في درج الفساد لأن كونه شعراً أبعد من كونه مفترى لأنه مشحون بالحقائق والحكم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء، وهو من كونه أحلاماً لأنه مشتمل على مغيبات كثيرة طابقت الواقع والمفترى لا يكون كذلك بخلاف الأحلام، ولأنهم جربوا رسول الله ﷺ نيفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانس من حيث إنهما من الخوارق. ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي كما أرسل به الأولون مثل اليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمة وإحياء الموتى، وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية.

﴿مَاءَ أَمْنَةٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (6)

﴿مَاءَ أَمْنَةٍ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ باقتراح الآيات لما جاءتهم. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جنتهم بها وهم أعتى منهم، وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم إذ لو أتى به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (7)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جواب لقولهم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ فأمرهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة والإحالة عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويشقون بقولهم، أو لأن إخبار الجمل الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص ﴿نوحى﴾ بالنون.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (8)

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ نفي لما اعتقدوا أنها من خواص الملك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبقاراً مثلهم. وقيل جواب لقولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ﴿وما كانوا خالدين﴾ تأكيد وتقرير له فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء وتوحيد الجسد لا إرادة الجنس، أو لأنه مصدر في الأصل أو على حذف المضاف أو تأويل الضمير بكل واحد وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجسد للزعران. وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتداده.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (9)

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي في الوعد. ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومن في إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته، ولذلك حميت العرب من عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (10)

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَابًا﴾ يعني القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صيتكم كقوله ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَلْقَوْمًا﴾ أو موعظتكم أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (11)

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ﴾ وإردة عن غضب عظيم لأن القصم كسر يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة لأهلها وصفت بها لما أقيمت مقامه. ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ مكانهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (12)

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس، والضمير للأهل المحذوف. ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم، أو مشبهين بهم من فرط إسراعهم.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَكُمُ تَسْتَلُونَ﴾ (13)

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاء لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقاتل ملك أو من ثم من المؤمنين. ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من التمتع والتلذذ والإتراف إبطار النعمة. ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ﴾ غدا عن أعمالكم أو تعذبون فإن السؤال من مقدمات العذاب، أو تقصدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (14)

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لما رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة لذلك لم ينفعهم. وقيل إن أهل حضور من قرى اليمن بعث إليهم نبي فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فوضع السيف فيهم فنادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء فندموا وقالوا ذلك.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (15)

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ فما زالوا يرددون ذلك، وإنما سماه دعوى لأن المولود كأنه يدعو الوليل ويقول: يا ويل تعال فهذا أوانك، وكل من ﴿تِلْكَ﴾ و ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ يحتمل الاسمية والخبرية. ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد وهو النبت المحصود ولذلك لم يجمع. ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين من خمدت النار وهو مع ﴿حصيداً﴾ منزلة المفعول الثاني كقولك: جعلته حلواً حامضاً إذ المعنى: وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو صفة له أو حال من ضميره.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِيَعِينَ﴾ (16) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

(17) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (18) ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (19) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ (20) ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ

الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلُونَ (23)

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكرة لذوي الاعتبار وتسبباً لما يتنظم به أمور العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ ما يتلهى به ويلعب. ﴿لَا تَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتك في رفع السقوف وتزويقها وتسوية الفرش وتزيينها، وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصارى ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك ويدل على جواب الجواب المتقدم. وقيل ﴿إِنْ﴾ نافية والجملة كالنتيجة للشرطية.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب أي بل من شأننا أن نغلب الحق الذي من جملة الجد على الباطل الذي من عداد الهو. ﴿فَيَذَمُّهُ﴾ فيمحقه، وإنما استعار لذلك القذف وهو الرمي البعيد المستلزم لصلاية الرمي، والدمغ الذي هو كسر الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح تصويره لابطاله ومبالغة فيه، وقرئ ﴿فَيَذَمُّهُ﴾ بالنصب كقوله:

سَأَتْرُكُ مُنْزِلِي لَيْتِي تَمِيمٍ وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَاسْتَرْيَحَا

ووجهه مع بعده الحمل على المعنى والعطف على «الحق». ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ هالك والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح المجاز. ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه، وهو في موضع الحال وما مصدرية أو موصولة أو موصوفة.

﴿وَلَوْ أَنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقًا وَمَلَكًا.﴾ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة المنزلين منه لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك، وهو معطوف على ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وأفرده للتعظيم أو لأنه أعم منه من وجه، أو المراد به نوع من الملائكة متعال عن التبوؤ في السماء والأرض أو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظمون عنها. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحسور تنبيهاً على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسرها ولا يستحسرونها.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يزهونه ويعظمونه دائماً. ﴿لَا يَقْتَرُونَ﴾ حال من الواو في ﴿يسبحون﴾ وهو استثناء أو حال من ضمير قبله.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ بل اتخذوا والهزمة لإنكار اتخاذهم. ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ صفة لآلهة أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتها التحقير دون التخصيص. ﴿هُمْ يُبْشِرُونَ﴾ الموتى وهم وإن لم يصرحوا به لكن لزم ادعائهم لها الإلهية، فإن من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهوم لاختصاص الانشار بهم.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ غير الله، وصف بـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها ودلالته على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمراد ملازمته لكونها مطلقاً أو معه حملاً لها على غير كما استثنى بغير حملاً عليها، ولا يجوز الرفع على البذل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلنا لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردت عليه القدر وإن تخالفت فيه تعاوقت عنه. ﴿نُسَبِّحُكَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذي

هو محل التدابير ومنشأ التقادير. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفردة بالألوهية والسلطنة الذاتية. ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنهم مملوكون مستعبدون والضمير للـ ﴿إِلَهِةٍ﴾ أو للعباد.

﴿أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ

مُعْرِضُونَ (24)﴾

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ كرهه استعظاماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيئاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضمناً لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة، لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية، أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم فاتخذوهم متابعة للأمر، ويعضد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساد عقله وعلى الثاني ما يدل على فساد عقله. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلاً ونقلاً. ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، والتوحيد لما لم يتوقف على صحته بعثة الرسل وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل و﴿من معي﴾ أمته و﴿من قبلي﴾ الأمم المتقدمة وإضافة الـ ﴿ذِكْرٌ﴾ إليهم لأنه عظمتهم، وقرئ بالتونين ولا إعمال وبه وبـ ﴿من﴾ الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وشبههما وبعدهما. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل، وقرئ ﴿الْحَقَّ﴾ بالرفع على أنه خبر محذوف وسط للتأكيد بين السبب والمسبب. ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتباع الرسول من أجل ذلك.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن ذكر من قبلي من حيث إنه خبر لاسم الإشارة مخصوص بالموجود بين أظهرهم وهو الكتب الثلاثة، وقرأ حفص وحزمة والكسائي ﴿نوحى إليه﴾ بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26)﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد. ﴿مُكْرَمُونَ﴾ وفيه تنبيه على مدحهم القوم، وقرئ بالتشديد.

﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27)﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنُكْرِبْهُ بِهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)﴾ أَوْلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33) وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَلَا يَنْتَفِعُونَ (34)﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ

فَتَنَّا وَاللَّيْنَا تُرْجَعُونَ (35) وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ يَنْخِذُونَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا يُكَذِّبُونَ (36)

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقوله كما هو ديدن العبيد المؤذنين، وأصله لا يسبق قولهم قوله فنسب السبق إليه وإليهم، وجعل القول محله وأداته تنبيهاً على استهجان السبق المعرض به للقائلين على الله ما لم يقله، وأنبت اللام على الإضافة اختصاراً وتجاوفاً عن تكرير الضمير، وقرئ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ﴾ بالضم من سابقته فسبقتة أسبقه. ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَسْقُوعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ﴾ أن يشفع له مهابة منه. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ عَظَمْتَ وَهَابَتْهُ﴾ مرعدون، وأصل الخشية خوف مع تعظيم ولذلك خص بها العلماء. والإشفاق خوف مع اعتناء فإن عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وإن عدى بعلى فبالعكس.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق. ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكْ تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يريد به نفي النبوة وادعاء ذلك عن الملائكة وتهديد المشركين بتهديد مدعي الربوبية. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ من ظلم بالإشراك وادعاء الربوبية.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يعلموا، وقرأ ابن كثير بغير واو. ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ذات رتق أو مرتوقتين، وهو الضم والالتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقة متحدة. ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتنوع والتمييز، أو كانت السموات واحدة ففتقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدة فجعلت باختلاف كيفياتها وأحوالها طبقات أو أقاليم. وقيل ﴿كانتا﴾ بحيث لا فرجة بينهما ففرج. وقيل ﴿كانتا رتقاً﴾ لا تمطر ولا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بـ ﴿السموات﴾ سماء الدنيا وجمعها باعتبار الآفاق أو ﴿السموات﴾ بأسرارها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار، والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر واجب وابتداء أو بوسط، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب، وإنما قال ﴿كانتا﴾ ولم يقل كن لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض. وقرئ ﴿رتقاً﴾ بالفتح على تقدير شيئاً رتقاً أي مرتوقاً كالرفض بمعنى المرفوض. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ وذلك لأنه من أعظم موادها أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، أو صبرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا يحيا دونه. وقرئ ﴿حياً﴾ على أنه صفة ﴿كل﴾ أو مفعول ثان، والظرف لغو والشيء مخصوص بالحيوان. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾ ثابتات من رسا الشيء إذا ثبت. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كراهة أن تميل بهم وتضطرب، وقيل لأن لا تميد فحذف لا لأمن الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي. ﴿فَجَاوِاْ سُبُلًا﴾ مسالك واسعة وإنما قدم فجاءاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو ليبدل منها ﴿سُبُلًا﴾ فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسعها للسابلة مع ما يكون فيه من التوكيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكَاً مَحْفُوظًا﴾ عن الوقوع بقدرته أو الفساد والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراق السمع بالشهب. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته

وتناهي حكمته التي يحس ببعضها ويبحث عن بعضها في علمي الطبيعة والهيئة. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما، والتنوين بدل من المضاف إليه والمراد بالفلك الجنس كقولهم: كساهم الأمير حلة. ﴿يَسِيرُونَ﴾ يسرعون على سطح الفلك إسرار السابح على سطح الماء، وهو خبر ﴿كُلٌّ﴾ والجملة حال من ﴿الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾، وجاز إفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما، وإنما جمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة فعلهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا ترتبص به ريب المنون وفي معناه قوله:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا  
والفاء لتعلق الشرط بما قبله والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ذائقة مرارة مفارقتها جسدها، وهو برهان على ما أنكروه. ﴿وَيَلْبُوكُمُ﴾ ونعاملكم معاملة المختبر. ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء مصدر من غير لفظه. ﴿وَالْيُنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة والابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَخَذُوا مِنْكُمْ الْإِيمَانَ﴾ ما يتخذونك. ﴿إِلَّا هُزُوا﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُكُمْ﴾ أي بسوء، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء. ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ﴾ بالتوحيد أو بإرشاد الخلق بيعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم أو بالقرآن. ﴿هُمُ كَافِرُونَ﴾ منكرون فهم أحق أن يهزأ بهم، وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (37)

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَلَجٍ﴾ كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك: خلق زيد من الكرم، جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ولذلك قيل: إنه على القلب ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد. روي أنها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب. ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ نقماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، والنهي عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (38)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وقت وعد العذاب أو القيامة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (39)

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ محذوف الجواب و ﴿حين﴾ مفعول ﴿يعلم﴾ أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون منه بقولهم ﴿متى هذا الوعد﴾ وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدر على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا، ويجوز أن يترك مفعول ﴿يعلم﴾ ويضمير لحين فعل بمعنى: لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون بطلان ما هم عليه حين لا يكفون، وإنما وضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك.



﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (40)

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ العدة أو النار أو الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة مصدر أو حال. وقرئ بفتح الغين. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم. وقرئ الفعلان بالياء والضمير لـ ﴿الوعد﴾ أو الـ ﴿حين﴾ وكذا في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ لأن الوعد بمعنى النار أو العدة والحين بمعنى الساعة، ويجوز أن يكون لـ ﴿النار﴾ أو للـ ﴿بَغْتَةً﴾. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون وفيه تذكير بآمالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (41)

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليه لرسول الله ﷺ. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعد له بأن ما يفعلونه به يحق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا يعني جزاءه.

﴿قُلْ مَن يَكْفُرْ أَكْفَارًا بِآلِئِ الْوَهْدَانِ مِنَ الْوَهْدَانِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (42)

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمستهزئين. ﴿مَن يَكْفُرْ أَكْفَارًا﴾ يحفظكم. ﴿بِآلِئِ الْوَهْدَانِ مِنَ الْوَهْدَانِ﴾ من بأسه إن أراد بكم، وفي لفظ ﴿الرحمن﴾ تنبيه على أن لا كالي غير رحمته العامة وأن اندفاعه بمهلته ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لا يخطر ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا كلوا منه عرفوا الكالي. وصلحوا للسؤال عنه.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (43)

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا﴾ بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا، أو من عذاب يكون من عندنا والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب، فإنه عن المعرض الغافل عن الشيء بعيد وعن المعتقد لنقيضه أبعد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئناف بإبطال ما اعتقدوه فإن من لا يقدر على نصر نفسه ولا يصحبه نصر من الله فكيف ينصر غيره.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْقُصُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (44)

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْقُصُرُ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم وهو الاستدراج والتمتع بما قدر لهم من الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متعمم بالحياة الدنيا وأمهاتهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يجربه الله تعالى على أيدي المسلمين. ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ رسول الله والمؤمنين.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (45) وَلَٰكِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ

عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلَّىَٰنَا إِِنَّا كُنَّا غَالِبِينَ (46) وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (47) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ

لَهُ مُّكَرُّونَ (50)

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ بما أوحى إلي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تسمع الصم على خطاب النبي ﷺ، وقرء بالياء على أن فيه ضميره، وإنما سماهم ﴿الصم﴾ ووضعه موضع ضميرهم للدلالة على تصامهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون. ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بـ ﴿يسمع﴾ أو بـ ﴿الدعاء﴾ والتقييد به لأن الكلام في الإنذار أو للمبالغة في تصامهم وتجاسرهم.

﴿وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ أدنى شيء، وفيه مبالغات ذكر المس وما فيه النفحة من معنى القلة، فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء والبناء الدال على المرة. ﴿مِنْ عَذَابٍ رِيكٍ﴾ من الذي يندرون به. ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لدعوا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ العدل توزن بها صحائف الأعمال. وقيل وضع الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل، وإفراد ﴿القسط﴾ لأنه مصدر وصف به للمبالغة. ﴿لَيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله، أو فيه كقولك: جئت لخمس خلون من الشهر. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من حقها أو من الظلم. ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة، ورفع نافع ﴿مِثْقَالٍ﴾ على ﴿كان﴾ التامة. ﴿آتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها، وقرء ﴿آتَيْنَا﴾ بمعنى جازينا بها من الإيتاء فإنه قريب من أعطينا، أو من المؤاتاة فإنهم آتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء وأتينا من الثواب وجئنا، والضمير للمثقال وتأنيثه لإضافته إلى الـ ﴿حبة﴾. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدة على علمنا وعدلنا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة، وذكراً يتعظ به المتقون أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع. وقيل ﴿الفرقان﴾ النصر، وقيل فلق البحر وقرء ﴿ضياء﴾ بغير واو على أنه حال من ﴿الفرقان﴾.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة للمتقين أو مدح لهم منصوب أو مرفوع. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول. ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن. ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير خيره. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ استفهام توبيخ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (51)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ الاهتداء لوجوه الصلاح وإضافته ليدل على أنه رشد مثله وأن له شأنًا. وقرء ﴿رشدته﴾ وهو لغة. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ موسى وهرون أو محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ علمنا أنه أهل لما آتيناه، أو جامع لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال وفيه إشارة إلى أن فعله سبحانه وتعالى باختيار وحكمة وأنه عالم بالجزئيات.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِفُونَ﴾ (52)

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ متعلق بـ ﴿آتينا﴾ أو بـ ﴿رشدته﴾ أو بمحذوف: أي اذكر من أوقات رشده وقت قوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها، فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع، واللام للاختصاص لا للتعلية فإن تعدية العكوف بعلى. والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها ويجوز أن يؤول بعلى أو يضمن العكوف معنى العبادة.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (53)

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فقلدناهم وهو جواب ما لزم الاستفهام من السؤال عما اقتضى عبادتها وحملهم عليها.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَتَاءُكُمْ فِي صُلْحٍ مُبِينٍ﴾ (54)

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ منخرطين في سلك ضلال لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل، والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على حق.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ (55)

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليله إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أبجد تقوله أم تلعب به.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (56)

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه وهن للسماوات والأرض أو للسمائل، وهو أدخل في تضليلهم وإلزام الحجة عليهم. ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي المذكور من التوحيد. ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه، فإن الشاهد من تحقق الشيء وحقيقته.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ (57)

﴿وَتَاللَّهِ﴾ وقرىء بالباء وهي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها وفيها تعجب. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ لأجتهدن في كسرها، ولفظ الكيد وما في التاء من التعجب لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل. ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا﴾ عنها. ﴿مُدْرِينَ﴾ إلى عيدكم ولعله قال ذلك سراً.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (58)

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ قطاعاً فعال بمعنى مفعول كالحطام من الجذ وهو القطع. وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة، أو جمع جذيد كخفاف وخفيف. وقرىء بالفتح و ﴿جُودًا﴾ جمع جذيد وجُوداً جمع جذة. ﴿إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ﴾ للأصنام كسر غيره واستبقاه وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرده واشتغاره بعداوة آلهتهم فيحاجهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كِبِيرَهُمْ﴾ فيحجهم، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يرجع إليه في حل العقد فيبكتهم بذلك، أو إلى الله أي يرجعون إلى توحيده عند تحققهم عجز آلهتهم.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (59)

﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا. ﴿مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بجرأته على الآلهة الحقيقة بالإعظام، أو بإفراطه في حطمها أو بتوريط نفسه للهلاك.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (60)

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيهم فعله فعله ويذكر ثاني مفعولي سمع، أو صفة له ﴿فَتًى﴾ مصححة لأن يتعلق به السمع وهو أبلغ في نسبة الذكر إليه. ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ خبر محذوف أي هو إبراهيم، ويجوز أن يرفع بالفعل لأن المراد به الاسم.

﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ مطاوع انتصر أي جعلناه منتصراً. ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَآغَرْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين تكذيب الحق والانهماك في الشر، ولعلمهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (78)

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ في الزرع، وقيل في كرم تدلت عناقيده. ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رعته ليلاً. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما عالمين.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (79)

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ الضمير للحكومة أو للفتوى وقرىء «فأفهمناها». روي أن داود حكم بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرفق بهما فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان. ولعلمهما قالا اجتهدا والأول نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني والثاني مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أبق، وحكمه في شرعنا عند الشافعي وجوب ضمان المتلف بالليل إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً وهكذا قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته فقال «على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل». وعند أبي حنيفة لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ لقوله ﷺ «جرح العجماء جبار». ﴿وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه. وقيل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله ففهمناها لإظهار ما تفضل عليه في صغره. ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ يقصدن الله معه إما بلسان الحال أو بصوت يتمثل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال أو استئناف لبيان وجه التسخير و﴿مع﴾ متعلقة بـ «سخرنا» أو «يسبحن» و﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على «الجبال» أو مفعول معه. وقرىء بالرفع على الإبتداء أو العطف على الضمير على ضعف. ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لأمثاله فليس ببدع منا وإن كان عجبا عندهم.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (80)

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ عمل الدرع وهو في الأصل اللباس قال:

الْبَسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بُوسَهَا

قيل كانت صفائح فحلقتها وسردها. ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بعلم أو صفة لك «لبوس» ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ بدل منه بدل الاشتمال بإعادة الجار، والضمير لداود عليه الصلاة والسلام أو لك «لبوس» وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو لك «لبوس» على تأويل الدرع وفي قراءة أبي بكر ورويس بالنون لله عز وجل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (81)

﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ وسخرنا له ولعل اللام فيه دون الأول لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له، وفي الأول أمر يظهر في الجبال والطير مع داود وبالإضافة إليه. ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ شديدة الهبوب من حيث إنها تبعد بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى: ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾ وكانت رخاء في نفسها طيبة. وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأولى أو

حال من ضميرها. ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الشام رواحاً بعدما سارت به منه بكرة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ فنجزه على ما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَكَ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (82)

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَكَ﴾ في البحار ويخرجون نفائسها، ﴿ومن﴾ عطف على ﴿الريح﴾ أو مبتدأ خبره ما قبله وهي نكرة موصوفة. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال آخر كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغربية كقوله تعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيلٍ﴾. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَفَنَسِيَ الْضُرَّ وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (83)

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَفَنَسِيَ الْضُرَّ﴾ بأني مسني الضر، وقرئ بالكسر على إضمار القول أو تضمين النداء معناه و ﴿الضر﴾ بالفتح شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهزال. ﴿وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وصف ربه بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال، وكان رومياً من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله وكثر أهله وماله فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله، والمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات. روي أن امرأته ماخير بنت ميسا بن يوسف، أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف قالت له يوماً: لو دعوت الله فقال: كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رختي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ (84)

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ بالشفاء من مرضه. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان أو أحيي ولده وولد له منهم نوافل. ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ رحمة على أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أتيب، أو لرحمتنا للعابدين فإننا نذكرهم بالإحسان ولا ننساهم.

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (85)

﴿وَأِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ يعني إلياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل أمته أو له ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم، والكفل يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضعف. ﴿كُلٌّ﴾ كل هؤلاء. ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على مشاق التكليف وشدائد النوب.

﴿وَادْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (86)

﴿وَادْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني النبوة أو نعمة الآخرة. ﴿إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (87)

﴿وَذَا النُّونِ﴾ وصاحب الحوت يونس بن متى ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ لقومه لما برم بطول دعوتهم وشدة سكرتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم، قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم

ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرئ «مغضباً». ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نضيق عليه أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر، ويعضده أنه قرئ مثقلاً أو لن نعمل فيه قدرتنا؛ وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا، أو خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظناً للمبالغة. وقرئ بالياء وقرأ يعقوب على البناء للمفعول وقرئ به مثقلاً. ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بأنه لا إله إلا أنت. ﴿شُبْحَانَكَ﴾ من أن يعجزك شيء. ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا أستجيب له».

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (88)

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه. وقيل ثلاثة أيام والغم غم الالتقام وقيل غم الخطيئة. ﴿وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من غموم دعوا الله فيها بالإخلاص وفي الإمام: «تجي» ولذلك أخفى الجماعة النون الثانية فإنها تخفى مع حروف الغم، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله «ننجي» فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في «تظاهرون»، وهي وإن كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التي لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتي النونين فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثليين مع تعذر الإدغام وامتناع الحذف تتجافى لخوف اللبس. وقيل هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفاً ورد بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضي لا يسكن آخره.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (89)

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي به.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (90)

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عقرها أو لـ «زكريا» بتحسين خلقها وكانت حردة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رغب ورهب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ مخبتين أو دائبين الوجل، والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَةً آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (91)

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام يعني مريم. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها، وقيل فعلنا النفخ فيها. ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحده أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَةً﴾ أي قصتهما أو حالهما ولذلك وحد قوله: ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى.

﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (92)

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي إن ملة التوحيد والإسلام ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها فكونوا عليها. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع. وقرئ ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ بالنصب على البدل و ﴿أُمَّةً﴾ بالرفع على الخبر وقرئنا بالرفع عن أنهما خبران. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ لا غير.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهٍ بِأِثْنِ أَجْزَائِهِ﴾ (93)

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ صبره إلى الغيبة التفاتاً لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم. ﴿كُلُّ﴾ من الفرق المتحزبة. ﴿إِلَٰهًا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَكُمُ كَافٍ يَوْمَ﴾ (94)

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله. ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ فلا تضييع. ﴿لِسَعِيهِ﴾ استعبر لمنع الثواب كما استعبر الشكر لإعطائه ونفي الجنس للمبالغة. ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ لسعيه. ﴿كَافٍ يَوْمَ﴾ مثبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجه ما.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (95)

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ﴾ وممتنع على أهلها غير متصور منهم. وقرأ أبو بكر وحزمة والكسائي «وَحَرْمٌ» بكسر الحاء وإسكان الراء و قرئ «حرم». ﴿أَهْلُكُنَّاهَا﴾ حكمنا بإهلاكها أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ رجوعهم إلى التوبة أو الحياة ولا صلة، أو عدم رجوعهم للجزاء وهو مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره أو دليل عليه وتقديره: توبتهم أو حياتهم أو عدم بعثهم، أو لأنهم ﴿لا يرجعون﴾ ولا ينيبون ﴿وحرام﴾ خبر محذوف أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدمة ويؤيده القراءة بالكسر. وقيل ﴿حرام﴾ عزم وموجب عليهم ﴿أنهم لا يرجعون﴾.

﴿حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (96)

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ متعلق بـ ﴿حرام﴾ أو بمحذوف دل الكلام عليه، أو بـ ﴿لا يرجعون﴾ أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها: وهو فتح سد يأجوج ومأجوج وهي حتى التي يحكى الكلام بعدها، والمحكي هي الجملة الشرطية. وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فُتِحَتْ﴾ بالشد. ﴿وَهُمْ﴾ يعني يأجوج ومأجوج أو الناس كلهم. ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ نشز من الأرض، وقرئ جدت وهو القبر. ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون من نسلان الذئب وقرئ بضم السين.

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتُوبَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ

كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (97) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (98) لَوْ

كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ

(100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا

أَسْتَهْتُمْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعْدًا

عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (104)

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ وهو القيامة . ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب الشرط و «إذا» للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى : ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار . ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ مقدر بالقول واقع موقع الحال من الموصول . ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ لم نعلم أنه حق . ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنذر .

﴿إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يحتمل الأوثان وإبليس وأعدائه لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عبدتهم ، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآية على المشركين قال له ابن الزبيري : قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيزاً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ، فقال ﷺ : «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ﴾ الآية . وعلى هذا يعم الخطاب ويكون ﴿مَا﴾ مؤولاً بـ ﴿مَنْ﴾ أو بما يعمه ، ويدل عليه ما روي أن ابن الزبيري قال : هذا شيء آلتهنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال ﷺ «بل لكل من عبد من دون الله» . ويكون قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ بياناً للتجاوز أو للتخصيص فأخر عن الخطاب . ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يرمي به إليها وتهيج به من حصبه يحصيه إذا رماه بالحصباء وقرئ بسكون الصاد وصفاً بالمصدر . ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ استئناف أو بدل من ﴿حَصَبُ﴾ جهنم واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لأجلها .

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ لأن المؤاخذ بالعذاب لا يكون إلهاً . ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها .

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين وتنفس شديد وهو من إضافة فعل البعض إلى الكل للتغلب إن أريد ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ الأصنام . ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من الهول وشدة العذاب . وقيل ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ ما يسرهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنِ﴾ أي الخصلة الحسنى وهي السعادة أو التوفيق بالطاعة أو البشري بالجنة . ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم يرفعون إلى أعلى عليين . روي أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح ، ثم أقيمت الصلاة فقام بجر رداءه ويقول :

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو بدل من ﴿مُبْعَدُونَ﴾ أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها ، والحسيس صوت يحس به . ﴿وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون في غاية التمتع وتقدير الظرف للاختصاص والاهتمام به .

﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ النفخة الأخيرة لقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أو الانصراف إلى النار أو حين يطبق على النار أو يذبح الموت . ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ تستقبلهم مهئين لهم . ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ يوم ثوابكم وهو مقدر بالقول . ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا .

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ مقدر باذكر أو ظرف لـ ﴿لَا يَحْزَنُهُمْ﴾ ، أو ﴿تَتَلَقَّاهُمْ﴾ أو حال مقدرة من العائد المحذوف من ﴿تُوعَدُونَ﴾ ، والمراد بالطي ضد النشر أو المحو من قولك اطو عني هذا الحديث ، وذلك لأنها نشرت مظلة لبني آدم فإذا انتقلوا قوضت عنهم ، وقرئ بالياء والبناء للمفعول . ﴿كَطَيِّ السَّجَلِ﴾ طياً كطي الطومار لأجل الكتابة أو لما يكتب أو كتب فيه ، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه . وقيل ﴿السجل﴾ ملك يطوي كتب الأعمال إذا رفعت إليه أو كاتب كان لرسول الله ﷺ . وقرئ ﴿السجل﴾ كالدلو و ﴿السجل﴾ كالعتل وهما لغتان فيه . ﴿كَمَا



بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴿١٠٥﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على الإبداء لشمول الإمكان الذاتي المصحح للمقدورية. وتناول القدرة القديمة لهما على السواء، و «ما» كافة أو مصدرية وأول مفعول لـ ﴿بَدَأْنَا﴾ أو لفعل يفسره ﴿نُعِيدُهُ﴾ أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره ﴿نُعِيدُهُ﴾ أي نعيد مثل الذي بدأنا وأول خلق ظرف لـ ﴿بَدَأْنَا﴾ أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿وَعُدَّا﴾ مقدر بفعله تأكيداً لـ ﴿نُعِيدُهُ﴾ أو منتصب به لأنه عدة بالإعادة. ﴿عَلَيْنَا﴾ أي علينا إنجازه. ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك لا محالة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (105)

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي التوراة، وقيل المراد بـ ﴿الزبور﴾ جنس الكتب المنزل وبـ ﴿الذكر﴾ اللوح المحفوظ. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة أو الأرض المقدسة. ﴿يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني عامة المؤمنين أو الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، أو أمة محمد ﷺ.

﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (106)

﴿إِنْ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواظب والمواعيد ﴿لَبَلَاغٌ﴾ لكفاية أو لسبب بلوغ إلى البغية. ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ همهم العبادة دون العادة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (107)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل كونه رحمة للكفار أمنهم به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (108)

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد، وذلك لأن المقصود الأصلي من بعثته مقصور على التوحيد فالأولى لقصر الحكم على الشيء والثانية على العكس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقضى الوحي المصدق بالحجة، وقد عرفت أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ أَدْنٰكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيْٓ أَمۡ يُعِيدُ مَا تُوۡعَدُونَ﴾ (109)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُلْ أَدْنٰكُمْ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم. ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ مستويين في الإعلام به أو مستويين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعادة أو إيداناً على سواء. وقيل أعلمتكم أنني على ﴿سواء﴾ أي عدل واستقامة رأي بالبرهان النير. ﴿وَإِنْ أَدْرِيْٓ﴾ وما أدري. ﴿أَقْرِبُٓ أَمْ يُعِيدُ مَا تُوۡعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر لكنه كائن لا محالة.

﴿إِنۡنِيۡ يُعَلِّمُ الْجَهَرِ مِنَ الْقَوَلِ وَيَعَلِّمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (110)

﴿إِنۡنِيۡ يُعَلِّمُ الْجَهَرِ مِنَ الْقَوَلِ﴾ ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَعَلِّمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه.

﴿وَإِنْ أَدْرِيۡٓ لَعَلَّۡمُۢ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعُۢ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (111)

﴿وَإِنْ أَدْرِيۡٓ لَعَلَّۡمُۢ فِتْنَةً لَّكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحان

لينظر كيف تعملون. ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (112)﴾

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لاستعجال العذاب والتشديد عليهم، وقرأ حفص ﴿قَالَ﴾ على حكاية قول رسول الله ﷺ. وقرأ ﴿رَبِّ﴾ بالضم و«ربي» أحكم على بناء التفضيل و«أحكم» من الأحكام. ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه. ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال بأن الشوكة تكون لهم وأن راية الإسلام تخفق أياماً ثم تسكن، وأن الموعد به لو كان حقاً لنزل بهم فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فخبب أمانيتهم ونصر رسوله ﷺ عليهم، وقرأء بالياء. وعن النبي ﷺ «من قرأ اقترب حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن» والله تعالى أعلم.

## سورة الحج

[مكية إلا ست آيات من هذان خصمان إلى صراط الحميد وآياتها ثمان وسبعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (1)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ تحريكها للأشياء على الإسناد المجازي، أو تحريك الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافة معنوية بتقدير في أو إضافة المصدر إلى الظرف على إجرائه مجرى المفعول به. وقيل هي زلزلة تكون قبيل طلوع الشمس من مغربها وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراتها. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هائل علل أمرهم بالتقوى بفضاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى فيبقوا على أنفسهم ويتقوها بملازمة التقوى.

﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَبُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى

وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (2)

﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَبُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ تصوير لهولها والضمير للـ «زلزلة»، و «يوم» منصوب بـ «تذهل»، و «تذهل» و «تذهل» مجهولاً ومعروفاً أي تذهلها الزلزلة، والذهول الذهاب عن الأمر بدهشة، والمقصود الدلالة على أن هولها بحيث إذا دهشت التي ألقمت الرضيع ثديها نزعت من فيه وذهلت عنه، و «ما» موصولة أو مصدرية. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ جنينها. ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ كأنهم سكارى. ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَكنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فأرهقهم هوله بحيث طير عقولهم وأذهب تمييزهم، و «تري» من أريتك قائماً أو رؤيت قائماً بنصب الناس ورفعته على أنه نائب مناب الفاعل، وتأتيه على تأويل الجماعة وإفراده بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثر السكر إنما يراه كل أحد على غيره وقرأ حمزة والكسائي «سكرى» كعطشى إجراء للسكر مجرى العلل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (3)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضرين الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ولا بعث بعد الموت هي تعمه وأضرابه. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة أو في عامة أحواله. ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ متجرد للفساد وأصله العربي.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّ يُوَضَّلَهُ وَيَهْدِهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (4)

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ على الشيطان. ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ تبعه والضمير للسان. ﴿فَأَنَّ يُوَضَّلَهُ﴾ خبر لمن أو جواب له، والمعنى كتب عليه إضلال من يتولاه لأنه جبل عليه، و «قرىء» بالفتح على تقدير فشأنه أنه يضلّه لا على العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام. و «قرىء» بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمار القول أو تضمين الكتب معناه. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُضِلُّ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ (5)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ من إيمانه وكونه مقدوراً، وقرئ «من البعث» بالتحريك كالجلب. ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيح ريبكم فإننا خلقناكم. ﴿مِنْ تَرَابٍ﴾ بخلق آدم منه، أو الأغذية التي يتكون منها المني. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مني من النطف وهو الصب. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة. ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يعضغ. ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مسواة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسواة أو تامة وساقطة أو مصورة وغير مصورة. ﴿لِنَبِّينَ لَكُمْ﴾ بهذا التدرج قدرتنا وحكمتنا وأن ما قبل التغير والفساد والتكون مرة قبلها أخرى، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدر على ذلك ثانياً، وحذف المفعول إيماء إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذكر. ﴿وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أن نقره. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو وقت الوضع وأدائه بعد ستة أشهر وأقصاه أربع سنين، وقرئ «ونقره» بالنصب وكذا قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ عطفاً على «نبيين» كأن خلقهم مدرجاً لغرضين تبين القدرة وتقريرهم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف، وقرئاً بالياء رفعاً ونصباً ويقر بالياء «ونقر» من قررت الماء إذا صبته، و «طفلاً» حال أجزيت على تأويل كل واحد أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ كمالكم في القوة والعقل جمع شدة كالأنعم جمع نعمة كأنها شدة في الأمور. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله. وقرئ «يتوفى» أو يتوفاه الله تعالى. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَزْدَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف، وقرئ بسكون الميم. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما عمله وينكر ما عرفه، والآية استدلال ثان على إمكان البعث بما يعترى الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً﴾ ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً. ﴿فَإِذَا أُنزِلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءُ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت، وقرئ «وربات» أي ارتفعت. ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ﴾ من كل صنف «بهيج» حسن رائق، وهذه دلالة ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونها مشاهدة.

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة، وإحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء. ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأنه يقدر على إحيائها وإلا لما أحيانا النطفة والأرض الميتة. ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته الذي نسبته إلى الكل على سواء، فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)﴾

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (8)﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ على أنه لا سند له عن استدلال أو وحي، أو الأول في المقلدين وهذا في المقلدين، والمراد بالعلم العلم الفطري ليصح عطف الـ ﴿هدى﴾ والـ ﴿كتاب عليه﴾.

﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ (9)﴾

﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ متكبراً وثني العطف كناية عن التكبر كليّ الجيد، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به. وقرىء بفتح العين أي مانع تعطفه. ﴿لِضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علة للجدال، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء على أن إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروج من الهدى إلى الضلال، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له. ﴿لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر. ﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ المحروق وهو النار.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10)﴾

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ على الالتفات، أو إرادة القول أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما أقرفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم المبالغة لكثرة العبيد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11)﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي يكون على طرف الجيش، فإن أحسن بظفر قر وإلا فر. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ روي أنها نزلت في أعاريب قدموا المدينة، فكان أحدهم إذا صحّ بدنه ونتجت فرسه مهراً سوياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب. وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني فقال «إن الإسلام لا يقال» فنزلت. ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد، وقرىء «خاسراً» بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيماً على خسارته أو على أنه خبر محذوف. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ إذ لا خسران مثله.

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12)﴾

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ يعبد جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن المقصد مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً.

﴿يَدْعُوا لِمَن صَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْتُ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ (13)﴾

﴿يَدْعُوا لِمَن صَرُّهُ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ الذي يتوقع بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى، واللام معلقة لـ ﴿يدعوا﴾ من حيث إنه بمعنى يزعم والزعم قول من اعتقاد، أو داخلة على الجملة الواقعة مقولاً لإجراء له مجرى قول: أي يقول الكافر

ذلك بدعاء وصراخ حين يرى استضراره به، أو مستأنفة على أن يدعو تكرير للأول ومن مبتدأ خبره ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ الناصر. ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (14) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحّد الصالح وعقاب المشرك الطالح لا دافع له ولا مانع.

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (15)

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كلام فيه اختصار والمعنى: أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه. وقيل المراد بالنصر الرزق والضمير لمن. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ فليستقص في إزالة غيظه أو جزعه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً، أو المبالغ جزعاً حتى يمد حبلاً إلى سماء بيته فيختنق من قطع إذا اختنق، فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نصره أو تحصيل رزقه. وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر ﴿لِيَقْطَعْ﴾ بكسر اللام. ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ فليتصور في نفسه. ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فعله ذلك وسماء على الأول كيداً لأنه منتهى ما يقدر عليه. ﴿مَا يَغِيظُ﴾ غيظه أو الذي يغيبه من نصر الله. وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدة غيظهم على المشركين.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ أَلَّا اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (16)

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنزلنا القرآن كله. ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ ولأن الله يهدي به أو يثبت على الهدى. ﴿مَنْ يُرِيدُ﴾ هدايته أو إثباته أنزله كذلك مبيناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (17)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المحق منهم على المبطل، أو الجزاء فيجازي كلا ما يليق به ويدخله المحل المعد له، وإنما أدخلت إن على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به مراقب لأحواله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (18)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأنى عن تدييره، أو يدل بذلته على عظمة مدبره، ومن يجوز أن يعم أولي العقل وغيرهم على التغليب فيكون قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ إفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها. وقرئ ﴿والدواب﴾ بالتخفيف كراهة التضعيف أو الجمع بين الساكنين. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ عطف عليها إن جوز إعمال اللفظ الواحد في كل واحد من مفهومي، وإسناده باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر إلى آخر،

فإن تخصيص الكثير يدل على خصوص المعنى المستدل إليهم، أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه خبر قسمه نحو حق له الثواب، أو فاعل فعل مضمّر أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة. «وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» بكفره وإيائه عن الطاعة، ويجوز أن يجعل «وكثيراً» تكريراً للأول مبالغة في تكثير المحقّقين بالعذاب أن يعطف به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده. وقرئ «حقٌّ» بالضم و«حقاً» بإضمار فعله. «وَمَنْ يُهِنْ اللَّهَ» بالشقاوة «فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» يكرمه بالسعادة، وقرئ بالفتح بمعنى الإكرام. «إِنَّ اللَّهَ يَقَعَلُ مَا يَشَاءُ» من الإكرام والإهانة.

﴿ هَٰذَا خِصْمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نَارٌ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ

الْحَمِيمُ (19) ﴾

﴿هَٰذَا خِصْمَانِ﴾ أي فوجان مختصمان. ولذلك قال: «اخْتَصِمُوا» حملاً على المعنى ولو عكس لجاز، والمراد بها المؤمنون والكافرون. «فِي رَيْبِهِمَا» في دينه أو في ذاته وصفاته. وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقال اليهود: نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبياً قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله آمنا بمحمد ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسداً فزلت. «فَالَّذِينَ كَفَرُوا» فصل لخصومتهم وهو المعنى بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». «قُطِعَتْ لَهُمْ» قدرت لهم على مقادير جثثهم، وقرئ بالتخفيف. «نَارٌ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ» نيران تحيط بهم إحاطة الثياب. «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ» حال من الضمير في «لَهُمْ» أو خبر ثان، والحميم الماء الحار.

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) ﴾

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فرط حرارته في بطونهم تأثيره في ظواهرهم فتذاب أحشاؤهم كما تذاب به جلودهم، والجملة حال من «الحميم» أو من ضميرهم. وقرئ بالتشديد للتكثير.

﴿ وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِنْ حَرِّهِ (21) ﴾

﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَرِّهِ﴾ سياط منه يجلدون بها وجمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف.

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) ﴾

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من النار. «مِنْ غَمٍّ» من غمومها بدل من الهاء بإعادة الجار. «أُعِيدُوا فِيهَا» أي فخرجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج، وقيل يضربهم لهيب النار فيرفعهم إلى أعلاها فيضربون بالمقامع فيهون فيها. «وَذُوقُوا» أي وقيل لهم ذوقوا. «عَذَابَ الْحَرِيقِ» أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكده بإن إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم. «يُحَلَوْنَ فِيهَا» من حليت المرأة إذا ألبستها الحلّى، وقرئ بالتخفيف والمعنى واحد. «مِنْ أَسَاوِرَ» صفة مفعول محذوف و«أَسَاوِرَ» جمع أسورة وهو جمع سوار. «مِنْ ذَهَبٍ» بيان له. «وَلَوْلُؤُا» عطف عليها لا على «ذهب» لأنه لم يعهد السوار منه إلا أن يراد المرصعة به، ونصبه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمار الناصب مثل ويؤتون، وروى حفص بهمزتين وترك أبو بكر والسوسي عن أبي عمرو الهمزة الأولى، وقرئ «لَوْلُؤُا» بقلب الثانية واواً و«لَوْلُيَا» بقلبهما، «وَأَوَيْنَ» ثم قلب الثانية ياء و«لِيلِيَا» بقلبهما ياءين و«لُولُ» كأدل. «وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» غير أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل.

﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)﴾

﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو قولهم ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أو كلمة التوحيد. ﴿وَهُدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة، أو الحور أو المستحق لذاته الحمد وهو الله سبحانه وتعالى وصراطه الإسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (25)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يريد به حالاً واستقبالاً وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حسن عطفه على الماضي. وقيل هو حال من فاعل ﴿كفروا﴾ وخبر ﴿إن﴾ محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون. ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عطف على اسم الله وأوله الحنفية بمكة واستشهدوا بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي المقيم والطارئ على عدم جواز بيع دورها وإجارتها، وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وشراء عمر رضي الله تعالى عنه دار السجن فيها من غير نكير، و ﴿سواء﴾ خبر مقدم والجملة مفعول ثان لـ ﴿جعلناه﴾ إن جعل ﴿للناس﴾ حالاً من الهاء وإلا فحال من المستكن فيه، ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحال و ﴿العاكف﴾ مرتفع به، وقرئ ﴿العاكف﴾ بالجر على أنه بدل من الناس. ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول، وقرئ بالفتح من ورود. ﴿بِالْحَافِ﴾ عدول عن القصد ﴿بظلم﴾ بغير حق وهما حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له: أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام ﴿نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ جواب لـ ﴿من﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26)﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي واذكر إذ عيناه وجعلناه له مباءة. وقيل اللام زائدة ومكان ظرف أي وإذ أنزلناه فيه. قيل رفع البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها فكنتس ما حوله فبناه على أسه القديم. ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أن مفسرة لـ ﴿بوأنا﴾ من حيث إنه تضمن معنى تعبدنا لأن التبوئة من أجل العبادة، أو مصدرية موصولة بالنهي أي: فعلنا ذلك لثلاث تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه، ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت، وقرئ ﴿يشرك﴾ بالياء وقرأ نافع وحفص وهشام ﴿بيتي﴾ بفتح الياء.

﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحِجِّ بِأَثْوَكِ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27)﴾

﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ﴾ ناد فيهم وقرئ ﴿وَأَذِّنْ﴾. ﴿بِالْحِجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به. روي أنه عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب من سبق في علمه أن يحج. وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أمر بذلك في حجة الوداع. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام، وقرئ بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجالي كعجالي. ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ ﴿ضامر﴾ محمولة على معناه، وقرئ ﴿يأتون﴾ صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير لـ



﴿الناس﴾. ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ طَرِيقٌ﴾. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، وقرئ «معيق» يقال بئر بعيدة العمق والمعق بمعنى .

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ (28)

﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا. ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ دينية ودنيوية، وتذكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وقيل كنى بالذكر عن التحر لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة، وقيل أيام النحر. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ علق الفعل بالمرووق وبينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها أمر بذلك إباحة وإزالة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب. ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة. ﴿الْفَقِيرُ﴾ المحتاج، والأمر فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (29)

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونسف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ﴾ ما يندرون من البر في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. ﴿وَلِيَطُوفُوا﴾ طواف الركن الذي به تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامر وحده بكسر اللام فيهما. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتقد من تسلط الجابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى، وأما الحجاج فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (30)

﴿ذَلِكَ﴾ خبر محذوف أي الأمر ذلك وهو وأمثاله تطلق للفصل بين كلامين. ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتُ اللَّهِ﴾ أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه، أو الحرم وما يتعلق بالحج من التكليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتعظيم «خير له». ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ثواباً. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا المتلو عليكم تحريمه، وهو ما حرم منها لعارض: كالميتة وما أهل به لغير الله فلا تحرموا منها غير ما حرمه الله، كالبهيرة والسائبة. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها. ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبعه ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والإفتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك. وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عدلت شهادة الزور الإشرار بالله تعالى ثلاثاً وتلا هذه الآية». و﴿الزور﴾ من الزور وهو الإنحراف كما أن الإفك من الأفك وهو الصرف، فإن الكذب منحرف مصروف عن الواقع.

﴿حَقَّاقًا لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ السَّيْلُ فِي مَكَانٍ

سَجِيٍّ﴾ (31)

﴿حُتِّفَ اللَّهُ﴾ مخلصين له. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ وهما حالان من الواو. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. ﴿فَتَحْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ فَإِنَّ الْأَهْوَاءَ الرَّدِيئَةَ تَوَزَعُ أَفْكَارُهُ، وَقَرَأَ نَافِعٌ وَحْدَهُ ﴿فَتَحْطَفُهُ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء. ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ طَوَّحَ بِهِ فِي الضَّلَالَةِ أَوْ لِلتَّخْيِيرِ كَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أَوْ لِلتَّنَوُّعِ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ لَا خَلَاصَ لَهُ أَصْلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُمْكِنُ خَلَاصُهُ بِالتَّوْبَةِ لَكِنْ عَلَى بَعْدٍ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ التَّشْبِيهَاتِ الْمُرَكَّبَةِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَلَكْتَ نَفْسُهُ هَلَاكًا يَشْبَهُ أَحَدَ الْهَالِكِينَ.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (32)

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ﴾ دين الله أو فرائض الحج ومواضع نسكه، أو الهدايا لأنها من معالم الحج وهو أوفق لظاهر ما بعده، وتعظيمها أن تختارها حسناً سامناً غالبية الأئمان. روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدى نجبية طلبة منه بثلاثمائة دينار. ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فَإِنَّ تَعْظِيمَهَا مِنْهُ مِنْ أَعْمَالِ ذَوِي تَقْوَى الْقُلُوبِ، فَحُذِفَتْ هَذِهِ الْمِضَافَاتُ وَالْعَائِدَةُ إِلَى مَنْ وَذَكَرَ الْقُلُوبَ لِأَنَّهَا مَنَشَأُ التَّقْوَى وَالْفَجْورِ أَوْ الْأَمْرِ بِهِمَا.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (33)

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي لكم فيها منافع درها ونسلها وصوفها وظهرها إلى أن تنحر، ثم وقت نحرها منتهية إلى البيت أي ما يليه من الحرم، و ﴿ثُمَّ﴾ تحتل التراخي في الوقت والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافع دينية أعظم منها، وهو على الأولين إما متصل بحديث ﴿الْأَنْعَامِ﴾ والضمير فيه لها أو المراد على الأول لكم فيها منافع دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت، ثم محلها منتهية إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأموال أو يكون فيها ثوابها وهو البيت المعمور أو الجنة، وعلى الثاني ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ

أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (34)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولكل أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر أي موضع نسك. ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نسبتهم لوجهه، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذكر المعبود. ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً. ﴿فَالِإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أخلصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتهم.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (35)

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هية منه لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من الكلف والمصائب. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها، وقرئ «والمقيمين للصلاة» على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مَسْجِدًا فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (36)

﴿وَالْيَدْنَ﴾ جمع بدنة كخشب وخشبة، وأصله الضم وقد قرئ به وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة، ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في أجزائها عن سبعة بقوله عليه الصلاة والسلام «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» تناول اسم البدنة لها شرعاً.

بل الحديث يمنع ذلك وانتصابه بفعل يفسره. ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ ومن رفعه جعله مبتدأ. ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ منافع دينية ودنيوية. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك. ﴿صَوَافٍ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرئ «صوافن» من صفن الفرس إذا قام على ثلاث. وعلى طرف حافر الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ «صوافنا» بإبدال التثوين من حرف الإطلاق عند الوقوف و «صوافي» أي خوالص لوجه الله، و «صوافي» بسكون الياء على لغة من يسكن الياء مطلقاً كقولهم: أعط القوس باريها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَائِعَ﴾ الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ويؤيده قراءة «القنع»، أو السائل من قنعت إليه تنوعاً إذا خضعت له في السؤال. ﴿وَالْمُعْتَرِ﴾ والمعترض بالسؤال، وقرئ «والمعتري» يقال عره وعراه واعتراه واعتراه. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً. ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها وقوتها حتى تأخذوها منقادة فتعقلوها وتحبسوها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبانها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفَقَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (37)

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ﴾ لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول. ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها. ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهراقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء. ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفَقَى مِنْكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له، وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القرابين لطحوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله تعالى فهم به المسلمون فنزلت. ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: ﴿لَتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحده بالكبرياء. وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها، و «ما» تحتمل المصدرية والخبرية و «على» متعلقة ب «لتكبروا» لتضمنه معنى الشكر. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويدررونه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (38)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غائلة المشركين، وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون «يدافع» أي يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله. ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته كمن يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ أَنْفُسَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (39)

﴿أُولَئِكَ﴾ رخص، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحزمة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله. ﴿لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ﴾ المشركين والمأذون فيه محذوف لدلالته عليه، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي الذين يقاتلهم المشركون. ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر

فأنزلت. وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلِيةً وَغَصِيًّا مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْقِلُ الْأَنْصَارُ وَلَكِنْ تَعْقِلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) وَلَيَسْتَغْفِلَنَّكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (48) قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا لَكُمْ دِينٌ مَبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50)﴾

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني مكة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير موجب استحقوه به. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ على طريقة قول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوسٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وقيل منقطع. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين. ﴿لَهْلَهْمَتْ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل، وقرأ نافع ﴿دفاع﴾ وقرأ نافع وابن كثير ﴿لهدمت﴾ بالتخفيف. ﴿صَوَامِعُ﴾ صوامع الرهبانية. ﴿وَبِيعَ﴾ بيع النصارى. ﴿وَصَلَوَاتُ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يصلى فيها، وقيل أصلها صلوتا بالعبرانية فعربت. ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ مساجد المسلمين. ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة للأربع أو لمساجد خصت بها تفضيلاً. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ على نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين. وقيل بدل ممن ينصره. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لما وعده.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ تسليية له ﷺ بأن قومه إن كذبه فهو ليس بأحد في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ غير فيه النظم وبنى الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل، ولم يكذبه وإنما كذبه القبط ولأن تكذبيه كان أشنع وآياته كانت أعظم وأشيع. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ فأمهلهم حتى انصرفت آجالهم المقطرة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً.

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإهلاك أهلها، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي

أهلها. ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ساقطة حيطانها على سقفها بأن تعطل بنائها فخرت سقفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقف، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فيكون الجار متعلقاً بـ ﴿خاوية﴾، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي: مظلة عليها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها، والجملة معطوفة على ﴿أهلكتاها﴾ لا على ﴿وهي ظالمة﴾ فإنها حال والإهلاك ليس حال خوائها فلا محل لها إن نصبت كأي بمقدر يفسره ﴿أهلكتاها﴾ وإن رفعته بالإبتداء فمحلها الرفع. ﴿وَبُثِّرَ مُعْطَلَةٌ﴾ عطف على ﴿قرية﴾ أي وكم بثر عامرة في البوادي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، وقرىء بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله. ﴿وَقَصُرَ مَشِيدٌ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى ﴿خاوية على عروشها﴾ خالية مع بقاء عروشها، وقيل المراد بـ ﴿بُثِّرَ﴾ بثر في سفع جبل بحضرموت وبقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك. ﴿تَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال. ﴿أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي والتذكير بحال من شاهدوا آثارهم. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار. وفي ﴿تعمى﴾ راجع إليه والظاهر أقيم مقامه. ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن الاعتبار أي ليس الخلل في مشاعرهم وإنما أيفت عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد، وذكر ﴿الصدور﴾ للتأكيد ونفي التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر. قيل لما نزل ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت ﴿فإنها لا تعمى الأبصار﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ المتوعد به. ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لا متنازع الخلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يعجل بالعقوبة. ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنيه حتى استقصى المدد الطوال، أو لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي بالياء.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب، ورجع للضمائر والأحكام مبالغة في التعميم والتهويل وإنما عطف الأولى بالفاء وهذه بالواو، لأن الأولى بدل من قوله ﴿فكيف كان نكير﴾ وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيان أن المتوعد به يحق بهم لا محالة وأن تأخير لعادته تعالى. ﴿أَمَلَيْتُ لَهَا﴾ كما أنهلتكم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب. ﴿وَالْيَ الْمَصِيرُ﴾ وإلى حكمي مرجع الجميع.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أوضح لكم ما أنذركم به، والاقتصار على الإنذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لأن صدر الكلام ومساقه للمشركون، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظهم.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما بدر منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة والـ ﴿كریم﴾ من كل نوع ما يجمع فضائله.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (51)

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والإبطال. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين مشاقين للساعين فيها بالقبول والتحقيق، من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سبقه فسبقه لأن كلا من المتسابقين يطلب إعجاز الآخر عن

للحقوق به، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿معجزين﴾ على أنه حال مقدرة. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة، وقيل اسم دركة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (52)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأَنْبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبي ﷺ علماء أمته بهم، فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قيل فكم الرسل منهم قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً» وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه، والنبي غير الرسول من لا كتاب له. وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحي، والنبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام. ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ زور في نفسه ما يهواه. ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في تشبيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام «وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة». ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزيحه. ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم، قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت. وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة ﴿والنجم﴾ فأخذ يقرؤها فلما بلغ ﴿ومنة الثالثة الأخرى﴾ وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لِمَا سجد في آخرها، بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية. وهو مردود عند المحققين وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه، وقيل تمنى قرأ كقوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنَّى دَاوُدُ الزُّبُورَ عَلَى رَسَلٍ

وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ. وقد رد أيضاً بأنه يخل بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ لأنه أيضاً يحتمله، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (53) ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ علة لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل. ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق. ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين. ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الفريقين فوضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم. ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (54)

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله، أو تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادته في الإنس من لدن آدم. ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾

بالقرآن أو بالله. ﴿فَتُخِيتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالإنقياد والخشية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيما أشكل، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق فيه.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (55)

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة أو أشراتها أو الموت. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر، سمي به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرون كالعمم، أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً، فوصف اليوم بوصفها اتساعاً أو لأنه لا خير لهم فيه، ومنه الريح العقيم لما لم تنشأ مطراً ولم تلقح شجراً، أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة فيه، أو يوم القيامة على أن المراد بـ ﴿السَّاعَةِ﴾ غيره أو على وضعه، موضع ضميرها للتنهول.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْلُقُ بَيْنَهُمْ فَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (56)

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ التنوين فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغاية أي: يوم تزول مرثيتهم. ﴿يَخْلُقُ بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة، والضمير يعم المؤمنين والكافرين لفصيله بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (57)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وإدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم فلذلك قال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ

خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (58)

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الجنة ونعيمها، وإنما سوى بين من قتل في الجهاد ومن مات حتف أنفه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا فنزلت. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (59)

﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَمَفْعُوٌّ غَفُورٌ﴾ (60)

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ولم يزد في الاختصاص، وإنما سمي الإبتداء بالعقاب الذي هو الجزاء للأزواج أو لأنه سببه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ لا محالة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَفْعُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمتصبر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما تذب إليه بقوله

ولمن صبر وغفران ذلك لمن عزم الأمور وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرته وتعالى شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيره بذلك أولى، وتنبية على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤْلِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (61)

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النصر. ﴿يَأْتِ اللَّهُ يُؤْلِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض، جار عاداته على المداولة بين الأشياء المتعانددة ومن ذلك إيلاج أحد الملوئين في الآخر، بأن يزيد فيه ما ينقص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغيب الشمس وعكس ذلك باطلاعها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع قول المعاقب والمعاقب. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَتَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (62)

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم. ﴿يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواء عالمياً بذاته وبما عده، أو الثابت الإلهية ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالمياً. ﴿وَأَتَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالناء على مخاطبة المشركين، وقرأ بالبناء للمفعول فتكون الواو لما فإنه في معنى الآلهة. ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته، أو باطل الألوهية. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على الأشياء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ على أن يكون له شريك لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر منه سلطاناً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (63)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استفهام تقرير ولذلك رفع. ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ عطف على ﴿أَنْزَلَ﴾ إذ لو نصب جواباً لدل على نفي الاخضرار كما في قولك: ألم تر أنني جئتكم فتكرمني، والمقصود إثباته وإنما عدل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جل ودق. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (64)

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا

بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (65)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ جعلها مذلة لكم معدة لمنافعكم. ﴿وَالْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿مَا﴾ أو على اسم ﴿أَنَّ﴾، وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ حال منها أو خبر. ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ من أن تقع أو كراهة بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بمشيئته وذلك يوم القيامة، وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لساثر الأجسام في الجسمية فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث هيأ لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (66)



﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء أجلكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لاجود لنعم الله مع ظهورها.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (67)

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ متعبداً أو شريعة تعبدوا بها، وقيل عيداً. ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ينسكونه. ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ﴾ سائر أرباب الملل. ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر الدين أو النساك لأنهم بين جهال وأهل عناد، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع، وقيل المراد نهى الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء، أو عن منازعتهم كقولك: لا يضار بك زيد، وهذا إنما يجوز في أفعال المبالغة للتلازم، وقيل نزلت في كفار خزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله، وقرئ ﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ﴾ على تهيج الرسول والمبالغة في تثبته على دينه على أنه من نازعته فزعته إذا غلبته. ﴿وَإِذْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته. ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سوي.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (68)

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحجة. ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها، وهو وعيد فيه رفق.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (69)

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات. ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (70)

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء. ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه فلا يهملك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إن الإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ، أو الحكم بينهم. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (71) وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءِآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَسْكَرُ يَكَادِرُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءِآيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكَ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَ الْمَصِيرُ (72) يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَجِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78) ﴿

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة تدل على جواز عبادته. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم. ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ من القرآن. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الإلهية. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الانكار لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضع الضمير أو ما يقصدونه من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يثبون ويبطشون بهم. ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ من غيظكم على التالين وسطوئكم عليهم، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم. ﴿التَّارُ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل قال: ما هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره: ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرىء بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلاً من شرفكون الجملة استئنافاً كما إذا رفعت خبراً أو حالاً منها. ﴿وَيَسِّرُ الْمَصِيرَ﴾ النار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ صُِرْبٌ مَثَلٌ﴾ يبين لكم حال مستغربة أو قصة رائعة ولذلك سماها مثلاً، أو جعل الله مثل أي مثل في استحقاق العبادة. ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ للمثل أو لشأنه استماع تدبر وتفكر. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام، وقرأ يعقوب بالباء وقرىء مبنياً للمفعول والراجع إلى الموصول محذوف على الأولين. ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ لا يقدرون على خلقه مع صغره لأن ﴿لَنْ﴾ بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه، و ﴿الذباب﴾ من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة وذبان. ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي للخلق هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين. ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْذُوهُ مِنْهُ﴾ جهلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدر على المقدورات كلها وتفرد بإيجاد الموجودات بأسرها تماثل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له، بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها. قيل كانوا يطلونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوي فيأكله. ﴿صُعِفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب والصنم يطلب الذباب منه السلب، أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف بدرجات.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء وآلهتهم التي يعبدونها عاجزة عن أقلها مقهورة من أذلها.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي. ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يدعون سائرهم إلى الحق ويبلغون إليهم ما نزل عليهم، كأنه لما قرر وحدانيته في الألوهية ونفي أن يشاركه غيره في صفاتها بين أن له عبادة مصطفين للرسل يتوسل بإجابتهم والإقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سواه من الموجودات تقريراً للنسبة وتزييفاً لقولهم ﴿ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، والملائكة بنات الله تعالى، ونحو ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلها.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عالم بواقعها ومتربها. ﴿وَالِإِلَهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وإليه ترجع الأمور كلها لأنه مالكها بالذات لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره وهم يسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُوا وَاَسْجُدُوا﴾ في صلاتكم، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونها أول الإسلام، أو صلوا وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخروا له سجداً. ﴿وَاَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون كنوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له واثقين على أعمالكم، والآية آية سجدة عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام «فضلت سورة الحج بسجدة من لم يسجد بها فلا يقرأها».

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك: هو حق عالم، وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله تعالى ومن أجله. ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته، وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعي إليه وفي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق بتكليف ما يشتد القيام به عليكم، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم». وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش والديات في حقوق العباد ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ منتصبة على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، أو على الإغراء أو على الاختصاص، وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته فغلبوا على غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل القرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِي هَذَا﴾ وفي القرآن، والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرىء «الله سماكم»، أو لـ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وتسميتهم بمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه كانت بسبب تسميته من قبل في قوله ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾. وقيل وفي هذا تقديره وفي هذا بيان تسميته إياكم مسلمين. ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة متعلق بسماكم. ﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بأنه بلغكم فبدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى. ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل والشرف. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه. ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو إذ لا مثل له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة. عن النبي عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الحج أعطى من الأجر كحجة حجبها وعمره اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي».

## سورة المؤمنون

[مكية وهي مائة وتسع عشرة آية عند البصريين وثمانية عشرة عند الكوفيين]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (1)

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا بأمانهم وقد تثبت المتوقع كما أن لما تنفيه وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تقربه من الحال ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صدرت بها بشارتهم، وقرأ ورش عن نافع ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها، وقرأ «أفْلَحُوا» على لغة: أكلوني البراغيث، أو على الإبهام والتفسير، و﴿أفْلَحَ﴾ بالضم اجتزاء بالضممة عن الواو و﴿أفْلَحَ﴾ على البناء للمفعول.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (2)

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم. روي أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وأنه رأى رجلاً يعبت بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (3)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ عما لا يعينهم من قول أو فعل. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لما بهم من الجد ما شغلهم عنه، وهو أبلغ من الذين لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير، والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه وكذلك قوله:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (4)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه، والزكاة تقع على المعنى والعين والمواد الأول لأن الفاعل فاعل الحدث لا المحل الذي هو موقعه أو الثاني على تقدير مضاف.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (5)

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ لا يبدلون.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (6)

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ زوجاتهم أو سرياتهم، و﴿على﴾ صلة لـ ﴿حافظون﴾ من قولك احفظ على عنان فرسي، أو حال أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري، أو

بفعل دل عليه غير ملومين وإنما قال: ما إجراء للمالِك مجرى غير العقلاء إذ الملك أصل شائع فيه وإفراد ذلك بعدم تميم قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن المباشرة أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمها خطراً. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلُومِينَ﴾ الضمير لحافظون، أو لمن دل عليه الاستثناء أي فإن بذلوا لأزواجهم أو إمامهم فإنهم غير ملومين على ذلك.

﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ (16)﴾

﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ المستثنى. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿رَاعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها، وقرأ ابن كثير هنا وفي «المعارج» ﴿لَأَمَانَتِهِمْ﴾ على الأفراد ولأمن الإلباس أو لأنها في الأصل مصدر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، ولفظ الفعل فيه لما في الصلاة من التجدد والتكرر ولذلك جمعه غير حمزة والكسائي، وليس ذلك تكريراً لما وصفهم به أولاً فإن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات. ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الأحقاء بأن يسموا ورثاً دون غيرهم.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للورثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيذاً، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه. وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. ﴿هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنت الضمير لأنه اسم للجنة أو طبقتها العليا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ من خلاصة سلت من بين الكدر. ﴿مِنْ طِينٍ﴾ متعلق بمحذوف لأنه صفة لـ «سلالة» أو من بيانية أو بمعنى «سلالة» لأنها في معنى مسلوقة فتكون ابتدائية كالأولى، والإنسان آدم عليه الصلاة والسلام خلق من صفوة سلت من الطين، أو الجنس فإنهم خلقوا من سلالات جعلت نطقاً بعد أدوار. وقيل المراد بالطين آدم لأنه خلق منه والسلالة نطقه.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ ثم جعلنا نسله فحذف المضاف. ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نقطة، وتذكير الضمير على تأويل الجوهر أو المسلول أو الماء. ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ مستقر حصين يعني الرحم، وهو في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأن أحلنا النطفة البيضاء علقه حمراء. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ فصيرناها قطعة لحم. ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ بأن صلبناها. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المضغة أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها، واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات والجمع لاختلافها في الهيئة والصلابة، وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاء باسم الجنس عن الجمع، وقرئ بإفراد أحدهما وجمع

الآخر. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهو صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه أو المجموع، و ﴿ثُمَّ﴾ لما بين الخلقين من التفاوت، واحتج به أبو حنيفة على أن من غضب بيضة أفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرج لأنه خلق آخر. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في قدرته وحكمته. ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المقدرين تقديرًا فحذف المميز لدلالة ﴿الخالقين﴾ عليه.

﴿ثُمَّ إِنَّا نَكُنُّم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُّونَ﴾ لصاؤون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل وقد قرئ به.

﴿ثُمَّ إِنَّا نَكُنُّم يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُبْعَثُون﴾ للمحاسبة والمجازاة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (17)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سموات لأنها طروق بعضها فوق بعض مطارقة النعل بالنعل وكل ما فوقه مثله فهو طريقه، أو لأنها طرق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات أو عن جميع المخلوقات. ﴿غَافِلِينَ﴾ مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وتدبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (18)

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يكثر نفعه ويقل ضرره، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم. ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً. ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه. ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، وفي تنكير ﴿ذهاب﴾ إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإيعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (19)

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بالماء. ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكهون بها. ﴿وَمِنْهَا﴾ ومن الجنات ثمارها وزروعها. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً أو ترزقون وتحصلون معاشكم من قولهم: فلان يأكل من حرفته، ويجوز أن يكون الضميران لك ﴿نخيل﴾ والـ ﴿أعناب﴾ أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْثَرِينَ﴾ (20)

﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على ﴿جنات﴾ وقرئت بالرفع على الإبتداء أي: ومما أنشأنا لكم به شجرة. ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ جبل موسى عليه الصلاة والسلام بين مصر وأيلة، وقيل بفلسطين وقد يقال له طور سينين ولا يخلو من أن يكون الطور للجبل وسيناء اسم بقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له كأمريء القيس ومنع صرفه للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للألف لأنه فيعال كديماس من السيناء بالمد وهو الرفع، أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين إذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف ﴿سيناء﴾ على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء لا فعلال إذ ليس في كلامهم، وقرئ بالكسر والقصر. ﴿تَنبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحباً له، ويجوز أن تكون الباء صلة معدية له ﴿تنبت﴾ كما في قولك: ذهبت بزيد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في رواية ﴿تنبت﴾ وهو إما أن أنبت بمعنى نبت كقول زهير:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عِنْدَ يُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَتَبَتِ الْبَقْلُ  
أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ ﴿تَبَت﴾ زَيْتُونَهَا مَلْتَبِساً بِالدهن، وقرئ على البناء للمفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن  
وتخرج بالدهن وتخرج الدهن وتبت بالدهان. ﴿وَصَيِّغٌ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ معطوف على الدهن جار على إعرابه  
عطف أحد وصفي الشيء على الآخر أي: تبت بالشيء الجامع بين كونه دهنياً يدهن به ويسرج منه وكونه  
إداماً يصنع فيه الخبز أي: يغمس فيه للاتخدام، وقرئ «وصياغ» كدباغ في دبح.

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّعَلَّكُمْ تَشْفِقُونَ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21)﴾

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها. ﴿تَشْفِقُونَ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الألبان أو  
من العلف، فإن اللبن يتكون منه فممن للتبعض أو للإبتداء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب  
﴿تَشْفِقُونَ﴾ بفتح النون. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ في ظهورها وأصوافها وشعورها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾  
تنتفعون بأعيانها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)﴾

﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام فإن منها ما يحمل عليه كالإبل والبقر، وقيل المراد الإبل لأنها هي المحمول  
عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة:

سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدَيِ زِمَامِهَا

فيكون الضمير فيه كالضمير في ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البر  
والبحر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23)﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى آخر القصص مسوق لبيان كفران الناس ما  
عدد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ استئناف لتعليل الأمر  
بالعبادة، وقرأ الكسائي غيره بالجر على اللفظ. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه فيهلككم  
ويعذبكم برفضكم عبادته إلى عبادة غيره وكفرانكم نعمه التي لا تحصونها.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا

سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24)﴾

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الْأَشْرَافُ. الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ لعوامهم. ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ  
عَلَيْكُمْ﴾ أن يطلب الفضل عليكم ويسودكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يرسل رسولا. ﴿لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ رسلا. ﴿مَا  
سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون نوحاً عليه الصلاة والسلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من  
الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفي إله غيره، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفرط عنادهم أو لأنهم  
كانوا في فترة متطاولة.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَمَا تَبْصُرُونَ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (25)﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون ولأجله يقول ذلك ﴿فَمَا تَبْصُرُونَ بِهِ﴾ فاحتملوه وانتظروا. ﴿حَتَّىٰ  
حِينٍ﴾ لعله يفوق من جنونه.

﴿قَالَ رَبِّ أَصْبِرْ بِمَا كَذَّبُوكَ (26)﴾

﴿قَالَ﴾ بعدما أيس من إيمانهم. ﴿رَبِّ انْصُرْنِي﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتهم من العذاب. ﴿بِمَا كَذَبُونَ﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (27) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَارِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) قُرْآنَانَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْآنَ الْآخِرِينَ (31) فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْفَاءِ الْآخِرَةِ وَأُفْرَنَتْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ (34) أَلَا تَعْلَمُونَ (35) هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تَعْدُونَ (36)﴾

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تخطيء فيه أو يفسده عليك مفسد. ﴿وَوَحَيْنَا﴾ وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب. ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾.

روي أنه قيل لنوح إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماء منه أخبرته امرأته فركب ومحلّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده. وقيل عين وردة من الشام وفيه وجوه آخر ذكرتها في «هود». ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ فادخل فيها يقال سلك فيه وسلك غيره قال تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾. ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من كل أمتي الذكر والأنثى واحد من مزدوجين، وقرأ حفص ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتونين أي من كل نوع زوجين واثنين تأكيد. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وأهل بيتك أو من آمن معك. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي القول من الله تعالى بإهلاكه لكفره، وإنما جيء بعلى لأن السابق ضار كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾. ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالدعاء لهم بالإنجاء. ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَقَطَّ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ في السفينة أو في الأرض. ﴿مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرئ ﴿مُنْزَلاً﴾ بمعنى إنزالاً أو موضع إنزال. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرد بالامر والمعلق به أن يستوي هو ومن معه إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم فإنه يحيط بهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه. ﴿لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها ويعتبر أولو الاستبصار والاعتبار. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات ﴿وَإِنْ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرْآنَ الْآخِرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود.

﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح، وإنما جعل القول موضع الإرسال ليدل على أنه لم



يأتهم من مكان غير مكانهم وإنما أوحى إليه وهو بين أظهرهم. ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ تفسير لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعله ذكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ بخلاف قول قوم نوح حيث استؤنف به، فعلى تقدير سؤال. ﴿وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بقاء ما فيها من الثواب والعقاب، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصفة والحالة. ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة و «ما» خبرية والعائد إلى الثاني منصوب محذوف أو مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ﴾ حيث أذلتم أنفسكم، و «إذا» جزاء للشرط وجواب للذين قاولوهم من قومه.

﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ مجردة عن اللحوم والأعصاب. ﴿أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، و «إنكم» تكرير للأول أكد به لما طال الفصل بينه وبين خبره، أو أنكم لمخرجون مبتدأ خبره الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر جواباً للشرط والجملة خبر الأول أي: أنكم إخراجكم إذا متم، أو إنكم إذا متم وقع لأن اسمه جثة. ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ﴾ بعد التصديق أو الصحة. ﴿لَمَّا تُوْعَدُونَ﴾ أو بعدما توعدون، واللام للبيان كما في «هيئت لك» كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل: فما له هذا الاستبعاد؟ قالوا ﴿لَمَّا تُوْعَدُونَ﴾. وقيل «هيئات» بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره ﴿لَمَّا تُوْعَدُونَ﴾، وقرئ بالفتح متوناً للتكثير، وبالضم متوناً على أنه جمع هيئة وغير منون تشبيهاً بقبله وبالكسر على الوجهين، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاء.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (37)

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله إن الحياة «إلا حياتنا الدنيا» فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعينها مغن عن التصريح بها كقوله:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَتَمَلَّلُ

ومعناه لا حياة إلا هذه الحياة لأن «أن» نافية دخلت على «هي» التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فكانت مثل لا التي تنفي ما بعدها نفي الجنس. «نَمُوتُ وَنَحْيَا» يموت بعضنا ويولد بعض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (38)

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو. ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدعيه من إرساله له وفيما يعدنا من البعث. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ (39)

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم. ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَارًا﴾ (40)

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمان قليل و «ما» صلة لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَارًا﴾ على التكذيب إذا عاينوا العذاب.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (41)

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فماتوا، واستدل به على أن القوم قوم صالح. ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالوجه الثابت الذي لا دافع له، أو بالعدل من الله كقولك فلان يقضي بالحق. أو بالوعد الصدق. ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ شبههم في دمارهم بغثاء السيل وهو حميله كقول العرب: سال به الوادي، لمن هلك. ﴿ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء، وبعداً مصدر بعد إذا هلك، وهو من المصادر التي تنصب بأفعال لا يستعمل إظهارها، واللام لبيان من دعي عليه بالبعد، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ (42)

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ هي قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم.

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ (43)

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ الوقت الذي حد لها لها و ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة للاستغراق. ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الأجل.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَاجَاءِ أُمَّةٍ رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (44)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا ﴾ متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد، والياء بدل من الواو كتولج وتيقور والألف للتأنيث لأن الرسل جماعة، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتثنية على أنه مصدر بمعنى المواورة وقع حالاً، وأماله حمزة وابن عامر والكسائي. ﴿ كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذِبُهُ ﴾ إضافة الرسول مع الإرسال إلى المرسل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه والمجيء الذي هو انتهاء إليهم. ﴿ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ﴾ في الإهلاك. ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها، وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحذوته وهي ما يتحدث به تلهياً. ﴿ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (45) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ

(46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ (47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50) يَتَأَيَّاهَا الرُّسُلُ كُلُّوا

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا

أَعْرُسَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرَهُمْ فِي ظُمُرِهِمْ حَتَّىٰ جَاءَ (54) أَيْخُسُوبُونَ أَنَّمَا نُفِذُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ

(55)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ بالآيات التسع. ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وحجة واضحة ملزمة

للخصم، ويجوز أن يراد به العصا وأفرادها لأنها أول المعجزات وأما، تعلقت بها معجزات شتى: كانقلابها حبة وتلففها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وحرستها ومصبرها شجرة خضراء مثمرة ورشاء ودلو، وأن يراد به المعجزات وبالآيات الحجج وأن يراد بهما المعجزات فإنها آيات النبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي ﷺ.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ على الإيمان والمتابعة. ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين.

﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنى البشر لأنه يطلق للواحد كقوله ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ كما يطلق للجمع كقوله: ﴿فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ ولم يشن المثل لأنه في حكم المصدر، وهذه القصص كما نرى تشهد بأن قصارى شبه المنكرين للنسبة قياس حال الأنبياء على أحوالهم لما بينهم من المماثلة في الحقيقة وفساده يظهر للمستبصر بأدنى تأمل، فإن النفوس البشرية وإن تشاركت في أصل القوى والإدراك لكنها متباينة الأقدام فيهما، وكما ترى في جانب النقصان أغبياء لا يعود عليهم الفكر برادة، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغبياء عن التفكير والتعلم في أكثر الأشياء وأغلب الأحوال، فيدركون ما لا يدرك غيرهم ويعلمون ما لا ينتهي إليه علمهم، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ خادمون منقادون كالعباد.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر قلزم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل، ولا يجوز عود الضمير إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وقومه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم. ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ بولادتها إياه من غير ميسس فالآية أمر واحد مضاف إليهما، أو ﴿جعلنا ابن مريم﴾ آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزات آخر ﴿وَأُمُّهُ﴾ آية بأن ولدت من غير ميسس فحذفت الأولى للدلالة الثانية عليها. ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة أو دمشق أو رملة فلسطين أو مصر فإن قراها على الربي، وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء وقرئ «رُبَاوَةٌ» بالضم والكسر. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر من الأرض منبسطة. وقيل ذات ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء معين ظاهر جار فاعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الابعاد في الشيء، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفاع، أو مفعول من عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مدرك بالعيون وصف ماءها بذلك لأنه الجامع لأسباب التنزه وطيب المكان.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء لا على أنهم خوطبوا بذلك دفعة لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهم خوطب به في زمانه، فيدخل تحته عيسى دخلاً أولاً ويكون ابتداء كلام تنبيهاً على أن تهئية أسباب التمتع لم تكن له خاصة، وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم واحتجاجاً على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الرهوة ليقننهما بالرسول في تناول ما رزقا. وقيل النداء له ولفظ الجمع للتعظيم والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل الحلال الصافي القوام فالحلال ما لا يعصى الله فيه والصافي ما لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل. ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ أي ولأن ﴿هذه﴾ والمعلل به ﴿فانتقون﴾، أو واعلموا أن هذه، وقيل أنه معطوف على ﴿ما تعملون﴾ وقرأ ابن عامر بالتخفيف والكوفيون بالكسر على الاستئناف. ﴿أَمَّتْكُمْ أُمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ونصب ﴿أمة﴾ على الحال. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمر دينهم جعلوه أدياناً مختلفة، أو فترقوا وتحزبوا وأمرهم منصوب بنزع الخافض أو التمييز، والضمير لما دل عليه الأمة من أربابها أولها. ﴿زُبُرًا﴾ قطعاً جمع زبور الذي بمعنى الفرقة ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من الواو، أو مفعول ثانٍ لـ ﴿فتقطعوا﴾

فإنه متضمن معنى جعل . وقيل كتباً من زبرت الكتاب فيكون مفعولاً ثانياً ، أو حالاً من أمرهم على تقدير مثل كتب ، وقرئ بتخفيف الباء كرسل في «رسل» . «كُلُّ حِزْبٍ» من المتحزبين . «بِمَا لَدَيْهِمْ» من الدين . «فَرِحُونَ» معجبون معتقدون أنهم على الحق .

«فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ» في جهالتهم شبهها بالماء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها ، وقرئ في «غمراتهم» . «حَتَّى حِينٍ» إلى أن يقتلوا أو يموتوا .

«أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ» أن ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً ، «مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ» بيان لما وليس خبيراً له ، فإنه غير معاتب عليه وإنما المعاتب عليه اعتقادهم أن ذلك خير لهم خبره .

﴿سَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (56)

«سَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ» والراجع محذوف والمعنى : أَيْحَسِبُونَ أن الذي نمدهم به نساوع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم «بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» بل هم كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخير ، وقرئ «يمدهم» على الغيبة وكذلك «يسارع» و «يسرع» ويحتمل أن يكون فيهما ضمير الممد به و «يسارع» مبنياً للمفعول .

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (57)

«إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ» من خوف عذابه . «مُشْفِقُونَ» حذرون .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَشَارِبَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (58)

«وَالَّذِينَ هُمْ يَشَارِبَتْ رَبِّهِمْ» المنصوبة والمنزلة . «يُؤْمِنُونَ» بتصديق مدلولها .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (59)

«وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ» شركاً جلياً ولا خفياً .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (60)

«وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا» يعطون ما أعطوه من الصدقات ، وقرئ «يأتون ما أتوا» أي يفعلون ما فعلوا من الطاعات . «وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ» خائفة أن لا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به . «أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» لأن مرجعهم إليه ، أو من أن مرجعهم إليه وهو يعلم ما يخفي عليهم .

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (61)

«أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها ، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى : «فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» فيكون إثباتاً لهم ما نفي عن أضدادهم . «وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» لأجلها فاعلون السبق أو سابقون الناس إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة ، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى : «هم لها عاملون» .

﴿وَلَا تَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كَنْزٌ يَخْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (62)

«وَلَا تَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» قدر طاقتها يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين وتسهيله على النفوس . «وَلَدَيْنَا كِتَابٌ» يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال . «يَخْلُقُ بِالْحَقِّ» بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع . «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» بزيادة عقاب أو نقصان ثواب .

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ (63)

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب الكفرة. ﴿فِي غَمَرَةٍ﴾ في غفلة غامرة لها. ﴿مِنْ هَذَا﴾ من الذي وصف به هؤلاء أو من كتاب الحفظ. ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ خبيثة ﴿مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ متجاوزة لما وصفوا به أو متخطية عما هم عليه من الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ معنادون فعلها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ﴾ (64)

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ متنعيمهم. ﴿بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر أو الجوع حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». فقحطوا حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرقة. ﴿إِذَا هُمْ يَجْرُونَ﴾ فاجتوا الصراخ بالاستغاثة، وهو جواب الشرط والجملة مبتدأ بعد حتى ويجوز أن يكون الجواب.

﴿لَا يَجْعَلُونَ لِيَوْمٍ إِلَّا كَيْدًا لَا يُنْصَرُونَ﴾ (65)

﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا ﴿تَجَارُوا الْيَوْمَ﴾. ﴿إِنكُم مِّنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ تعليل للنهي أي لا تجاروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تمنعون منا، أو لا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْذِرُ عَلَيْكُمْ فِكْرَتِي عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ (66)

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْذِرُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن. ﴿فِكْرَتِي عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها، والنكوص الرجوع قهقري.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (67)

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير للبيت وشهوة استكبارهم وافتخارهم بأنه قوامه أغنت عن سبق ذكره، أو لآياتي فإنها بمعنى كتابي والباء متعلقة بـ ﴿مستكبرين﴾ لأنه بمعنى مكذبين، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله: ﴿سَامِرًا﴾ أي تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، وقرئ «سمرًا» جمع سامر ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهجر بالفتح إما بمعنى القطيعة أو الهذيان، أي تعرضون عن القرآن أو تهذون في شأنه أو الهجر بالضم أي الفحش، ويؤيد الثاني قراءة نافع ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من أهجر وقرئ «تَهْجُرُونَ» على المبالغة.

﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمَرَاءَهُمْ مَا لَا يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (68)

﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾ أي القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله. ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيل وأعقابه فآمنوا به وبكتابه ورسله وأطاعوه.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ (69)

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له غيرها، فإن إنكار الشيء قطعاً أو ظناً إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع أو الشخص أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ (70) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ (76) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحهم عقلاً وأدقهم نظراً. ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك أنكروه، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه أو لقلّة فطنته وعدم فكرته لا كراهة للحق.

﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى. ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وقيل لو اتبع الحق أهواءهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلم يبق، أو لو اتبع الحق الذي جاء به محمد ﷺ أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة وأهلك العالم من فرط غضبه، أو لو اتبع الله أهواءهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدر أن يمسك السموات والأرض وهو على أصل المعتزلة. ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذكركم أي وعظهم أو صيتهم، أو الذكر الذي تمنوه بقولهم ﴿لَوْ أَنَّ هُنْدًا ذَكَرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرىء «بذكراهم». ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ قيل إنه قسم قوله ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾. ﴿خَرْجًا﴾ أجراً على أداء الرسالة. ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ﴾ رزقه في الدنيا أو ثوابه في العقبى. ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم والخروج بإزاء الدخول يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك، والخراج غالب في الضريبة على الأرض ففيه إشعار بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه، وقرأ ابن عامر «خرجا فخرج» وحمزة والكسائي «خرجا فخرج» للمزاوجة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تقرير لخيرية خراجه تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة على استقامته لا عوج فيه يوجب اتهامهم له، واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحجة وأزاح العلة في هذه الآيات بأن حصر أقسام ما يؤدي إلى الإنكار والاتهام وبين انتفاءها ما عدا كراهة الحق وقلة الفطنة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن الصراط السوي. ﴿لَنَكِيبُونَ﴾ لعادلون عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ يعني القحط. ﴿لَلْجُؤُا لثبوتوا واللجاج التماس في الشيء. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول والمؤمنين. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى، روي أنهم قحطوا حتى أكلوا العلهز فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله والرحم ألسنت ترعّم أنك بعثت رحمة للعالمين قال: بلى فقال: قتلت الأباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عتوهم واستكبارهم، واستكان استفعل من الكون لأن المفترق انتقل من كون إلى كون أو افتعل من السكون أشبعت فتحته. ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ وليس من عادتهم التضرع وهو استشهداد على ما قبله.

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوع فإنه أشد من القتل والأسر. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحIRON آيسون من كل خير حتى جاءك أعناهم يستعطفك.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (78)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ لتحسوا بها ما نصب من الآيات. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونها شكراً قليلاً لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، والإذعان لمانحها من غير إشراك و ﴿مَا﴾ صلة للتأكيد.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (79)

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ خلقكم وبشكم فيها بالتناسل. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (80)

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ويختص به تعاقبهما لا يقدر على غيره فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقة أو لأمره وقضائه تعاقبهما، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا نعم الممكنات كلها وأن البعث من جملتها، وقرىء بالياء على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (81) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ

وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكِ الْمَتَّحِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

قُلْ أَفَلَا نُنْفِثُ (87) قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

(88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَنِشْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا

كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَى بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ (91) ﴿

﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي كفار مكة. ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومن دان بدينهم.

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً

فخلقوا.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا أكاذيبهم التي كتبوها، جمع

أسطورة لأنه يستعمل فيما يتلوه به كالأعاجيب والأضاحيك. وقيل جمع أساطير جمع سطر.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون

استهانة بهم وتقريراً لفرط جهالتهم حتى جهلوا مثل هذا الجلي الواضح إلزاماً بما لا يمكن لمن له مسكة من

العلم إنكاره، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطربهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها. ﴿قُلْ﴾ أي بعد ما

قالوه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إيجادها ثانياً، فإن بدء الخلق

ليس أهون من إعادته. وقرىء «تذكرون» على الأصل.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فإنها أعظم من ذلك. ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظ السؤال. ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ولا تنكروا قدرته على بعض مقدراته.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملكه غاية ما يمكن وقيل خزائنه. ﴿وَهُوَ يُحْيِي﴾ يحيي من يشاء ويجرسه. ﴿وَلَا يُحَارُّ عَلَيْهِ﴾ ولا يغاث أحد ولا يمنع منه، وتعديته بعلى لتضمين معنى النصرة. ﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ فمن أين تخدعون فتصرفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعد بالنشور. ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لتقدسه عن مماثلة أحد. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يساهمه في الألوهية. ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ جواب محاجتهم وجزاء شرط حذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين وظهر بينهم التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء واللازم باطل بالإجماع والاستقراء وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (92)

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ خبر مبتدأ محذوف وقد جره ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص على الصفة، وهو دليل آخر على نفي الشريك بناء على توافقهم في أنه المنفرد بذلك ولهذا رتب عليه. ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُني مَأْوَءٌكَ﴾ (93)

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُني﴾ إن كان لا بد من أن تريني لأن ما والنون للتأكيد. ﴿مَأْوَءٌكَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْني فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (94)

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْني فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قريناً لهم في العذاب، وهو إما لهضم النفس أو لأن شؤم الظلمة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه عليه السلام أنه له في أمته نقمة ولم يطلعها على وقتها فأمره بهذا الدعاء وتكرير النداء، وتصدير كل واحد من الشرط والجزاء به فضل تضرع وجوار.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعُدُّهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ (95)

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعُدُّهُمْ لِقَادِرُونَ﴾ لكننا نؤخره علمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون، أو لأننا لا نعدبهم وأنت فيهم، ولعله رد لإنكارهم الموعود واستعجالهم له استهزاء به. وقيل قد أراه: وهو قتل بدر أو فتح مكة.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (96)

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ وهو الصفح عنها والإحسان في مقابلتها لكن بحيث لم يؤد إلى وهن في الدين. وقيل هي كلمة التوحيد والسيئة الشرك. وقيل هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أبلغ من



أدفع بالحسنة السيئة لما فيه من التخصيص على التفضيل. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك وأقدر على جزائهم فوكل إلينا أمرهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (97)

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ وسأوسهم، وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض، شبه حثهم الناس على المعاصي بهمز الراضة للدواب على المشي والجمع للمرات أو لتنوع الوسوس أو لتعدد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (98)

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال، وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل لأنها أحرى الأحوال بأن يخاف عليه.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (99)

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ متعلق بـ ﴿يصفون﴾، وما بينهما اعتراض لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يزله عن الحلم ويغريه على الانتقام أو بقوله ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿قَالَ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة لما اطلع على الأمر. ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ردوني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب. وقيل لتكرير قوله أرجعني كما قيل في قفا وأطرقا.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلِي عَنِّيكَ فَكُنْ بِهَا شَكِيذًا (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ أَخَسُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ (108) إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقَيْنِ مَنِ عِبَادِي يَقُولُوكَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّى أَتَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الإيمان الذي تركته أي لعلي أتى الإيمان وأعمل فيه، وقيل في المال أو في الدنيا. وعنه عليه الصلاة والسلام «قال إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول رب أرجعوني». ﴿كَلَّا﴾ ردع من طلب الرجعة واستبعاد لها. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ معنى قوله ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ النخ، والكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أمامهم والضمير للجماعة. ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجوع إلى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجوع فيه إلى حياة تكون في الآخرة.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة والقراءة بفتح الواو وبكسر الصاد يؤيد أن ﴿الصُّورِ﴾ أيضاً جمع الصورة. ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه أو يفتخرون بها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم. ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأنه عند النفخة وذلك يعد المحاسبة، أو دخول أهل الجنة الجنة والنار النار.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موزونات عقائده وأعماله، أي فمن كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله تعالى وقدر. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزن، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نَقِيم لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾. ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ غبنوها حيث ضيعوا زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثان «لأولئك».

﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ تحرقها واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق والكلوخ تقلص الشفتين عن الأسنان، وقرىء «كلحون».

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم «ألم تكن». ﴿فَكَتُتِّم بِهَا تُكْذَّبُونَ﴾ تأنيب وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ ملكتنا بحيث صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة، وقرأ حمزة والكسائي «شقاوتنا» بالفتح كالسعادة وقرىء بالكسر كالكتابة. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

﴿قَالَ اخْسَوْوا فِيهَا﴾ استكثوا سكوت هوان في النار فإنها ليست مقام سؤال من خسأت الكلب إذا زجرته فخساً. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ في رفع العذاب أو لا تكلمون رأساً. قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، فيجابون ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ فيقولون ألفاً ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ﴾، فيجابون ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنَّا نَفْعُو﴾ إذا دعى الله وحده كفرتم ﴿فيقولون ألفاً﴾ يا مالك ليقض علينا ربك، فيجابون ﴿إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾، فيقولون ألفاً ﴿رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فيجابون ﴿أَوْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ آيَاتٍ﴾، فيقولون ألفاً ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾، فيجابون ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ﴾ فيقولون ألفاً ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، فيجابون ﴿اخْسَوْوا فِيهَا﴾ ثم لا يكون لهم فيها إلا زفير وشهيق وعواء.

﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأن وقرىء بالفتح أي لأنه. ﴿كَانَ قَرِيبٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ يعني المؤمنين، وقيل الصحابة وقيل أهل الصفة. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ هزواً وقرأ نافع وحمزة والكسائي هنا وفي «ص» بالضم، وهما مصدر سخر زيدت فيهما ياء النسب للمبالغة، وعند الكوفيين المكسور بمعنى الهزء والمضموم من السخرة بمعنى الانقياد والعبودية. ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمُ ذِكْرِي﴾ من فرط تشاغلهم بالاستهزاء بهم فلم تخافوني في أوليائي. ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (111)

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم. ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به، وهو ثاني مفعولي «جزيتهم». وقرأ حمزة والكسائي بالكسر استئنافاً.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (112)

﴿قَالَ﴾ أي الله أو الملك المأمور بسؤالهم، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي على الأمر للملك أو

لبعض رؤساء أهل النار. ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أحياء أو أمواتاً في القبور. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لكم. ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ (113) ﴿

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار، أو لأنها كانت أيام سرورهم وأيام السرور قصار، أو لأنها منقضية والمنقضي في حكم المعدوم. ﴿فَأَسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيقها فإننا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها، أو الملائكة الذين يعدون أعمار الناس ويحصون أعمالهم. وقرئ ﴿العادين﴾ بالتخفيف أي الظلمة فإنهم يقولون ما نقول، و ﴿العادين﴾ أي القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون.

﴿فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (114) ﴿

﴿قَالَ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي «قل». ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تصديق لهم في مقالهم.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (115) ﴿

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخ على تغافلهم، و ﴿عبثاً﴾ حال بمعنى عابثين أو مفعول له أي: لم نخلقكم تلهياً بكم وإنما خلقناكم لتتبدكم ونجازيكم على أعمالكم وهو كالدليل على البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على ﴿أنما خلقناكم﴾ و ﴿عبثاً﴾، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (116) ﴿

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك مطلقاً فإن من عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذي يحيط بالأجرام وينزل منه محكمات الأفضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرئ بالرفع على أنه صفة الرب.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (117) ﴿

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبد إفراداً أو إشراكاً. ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة أخرى لإلها لازمة له فإن الباطل لا برهان به، جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على خلافه، أو اعتراض بين الشرط والجزاء لذلك: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فهو مجاز له مقدار ما يستحقه. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ إن الشأن وقرئ بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابه عدم الفلاح. بدأ السورة بتقرير فلاح المؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه فقال:

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (118) ﴿

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المؤمنین بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر». وروي «أن أولها وآخرها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح».

## سورة النور

[مدنية وهي أربع وستون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ النُّورِ أُنزِلَتْهَا وَفُرِضَتْهَا وَأُنزِلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (1)

﴿سورة﴾ أي هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة. ﴿أُنزِلْنَاهَا﴾ صفتها ومن نصبها جعله مفسراً لناصبها فلا يكون له محل إلا إذا قدر اتل أو دونك نحوه ﴿وَفُرِضْنَاهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها أو المفروض عليهم، أو للمبالغة في إيجابها. ﴿وَأُنزِلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم وقرئ بتخفيف الدال.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (2)

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أو فيما فرضنا أو أنزلنا حكمهما وهو الجلد، ويجوز أن يرفعا بالإبتداء والخبر: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاء لتضمنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي، وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من نصب سورة لأجل الأمر والزان بلا ياء، وإنما قدم ﴿الزَّانِيَةَ﴾ لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها، والجلد ضرب الجلد وهو حكم يخص بمن ليس بمحصن لما دل على أن حد المحصن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريب الحر سنة لقوله عليه الصلاة والسلام «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدهما الآخر نسخاً مقبولاً أو مردوداً، وله في العبد ثلاثة أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلام أيضاً وهو مردود برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين، ولا يعارضه «من أشرك بالله فليس بمحصن» إذ المراد بالمحصن الذي يقتص له من المسلم. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة. ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ في طاعته وإقامة حده فتعطلوه أن تسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة وقرئت بالمد على فعالة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجد في طاعة الله تعالى والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهيج. ﴿وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب، وال «طائفة» فرقة يمكن أن تكون حافة حول شيء من الطوف وأقلها ثلاثة وقيل واحداً واثناً، والمراد جمع يحصل به التشهير.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (3)

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالب أن المائل إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصلحاء، فإن المشاكلة علة للألقة والتضام،

والمخالفة سبب للنفرة والافتراق. وكان حق المقابلة أن يقال والزانية لا تنكح إلا من هو زان أو مشرك. لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما هموا أن يتزوجوا بغايا يكرهن أنفسهن لينفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية ولذلك قدم الزاني. ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه تشبه بالفساق وتعرض للتهمة وتسبب لسوء القالة والظعن في النسب وغير ذلك من المفاسد، ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة. وقيل النفي بمعنى النهي، وقد قرئ به والحرمة على ظاهرها والحكم بخصوص بالسبب الذي ورد فيه، أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ فإنه يتناول المسافحات، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال»، وقيل المراد بالنكاح الوطء فيؤول إلى نهى الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانية أن يزني بها إلا زان وهو فاسد. ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَوْ يَأْتُوا بَأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4)﴾

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقذفونهن بالزنا لوصف المقدوفات بالإحصان، وذكرهن عقيب الزواني واعتبار أربعة شهداء بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بَأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ والقذف بغيره مثل يا فاسق ويا شارب الخمر يوجب التعزير كقذف غير المحصن، والإحصان ها هنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى، وتخصيص ﴿المحصنات﴾ لخصوص الواقعة أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع، ولا يشترط اجتماع الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادة زوج المقدوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربه أخف من ضرب الزنا لضعف سببه واحتماله ولذلك نقص عدده. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ أي شهادة كانت لأنه مفتر، وقيل شهادتهم في القذف ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجلد خلافاً لأبي حنيفة فإن الأمر بالجلد والنهي عن القبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيب بينهما فيترتبان عليه دفعة، كيف وحاله قبل الجلد أسوأ مما بعده. ﴿أَبَدًا﴾ ما لم يتب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المحكوم بفسقهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)﴾ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَسْتُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذَّابِينَ (7) وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذَّابِينَ (8) وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن القذف. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أفعالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقدوف، والاستثناء راجع إلى أصل الحكم وهو اقتضاء الشرط لهذه الأمور ولا يلزمه سقوط الحد به كما قيل، لأن من تمام التوبة الاستسلام له أو الاستحلال ومحل المستثنى النصب على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحل الجبر على البذل من هم في لهم، وقيل إلى الأخيرة ومحل النصب لأنه من موجب وقيل منقطع متصل بما بعده. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ علة للاستثناء.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بن أمية رأى رجلاً على فراشه، وأنفسهم بدل من شهداء أو صفة لهم على أن إلا بمعنى غير. ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ﴾ فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم، و ﴿أَرْبَعُ﴾ نصب على المصدر وقد رفعه حمزة والكسائي وحفص على أنه خبر «شهادة». ﴿بِاللَّهِ﴾ متعلق بشهادات لأنها أقرب وقيل بشهادة لتقدمها. ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنه باللام تأكيداً.

﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ والشهادة الخامسة. ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في الرمي هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه، وحصول الفرقة بينهما بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً». وتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد أن تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة لقوله.

﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ﴾ أي الحد. ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في ذلك ورفع الخامسة بالإبتداء وما بعدها الخبر أو بالعطف على أن تشهد، ونصبها حنص عطفاً على «أربع». وقرأ نافع ويعقوب «أن لعنة الله» و «أن غضب الله» بتخفيف النون فيهما وكسر الضاد وفتح الباء من «غضب» ورفع الهاء من اسم «الله»، والباقيون بتشديد النون فيهما ونصب التاء وفتح الضاد وجر الهاء.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروك الجواب للتعظيم أي لفضلكم وعاجلكم بالعقوبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِتِّكَاعِ مِنْكُمْ لَا تَقْصِرُوا عَنْهُمْ شَيْئاً إِنَّكُمْ بِأَعْيُنِنَا إِنَّمَا يَنْتَظِرُ اللَّهُ بِكُمْ يَوْمَ الْآخِرَةِ الَّذِي لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كِبَرُكُمْ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (112) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَافْتَرَاهُ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسُكَرْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتْرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَقْسُورُونَ حِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَيَّاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20) يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاحِشَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب من الإفك، وهو الصرف لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله تعالى عنها. وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذن ليلة في القفول بالرحيل، فمشت لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت لتلتصمه فظن الذي كان يرحلها أنها دخلت اليهودج فرحله على مطبتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمة أحداً فجلست كي يرجع إليها منشداً، وكان صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه قد عرس وراء الجيش فأدلى فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركبتها فقادها

حتى أتيا الجيش فاتهمت به. ﴿عُصْبَةُ مِنْكُمْ﴾ جماعة منكم وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصبة، يريد عبد الله بن أبي، وزيد بن رفاعه، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش ومن ساعدتهم، وهي خبر إن وقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ مستأنف والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم والهاء للإفك. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله بإنزال ثمانى عشرة آية في براءتكم، وتعظيم شأنكم وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيراً. ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ لكل جزء ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به. ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ معظمه وقرأ يعقوب بالضم وهو لغة فيه. ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخائضين وهو ابن أبي فإنه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله ﷺ، أو هو وحسان ومسطح فإنهما شايعاه بالتصريح به ﴿وَالَّذِي﴾ بمعنى الذين. ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة أو في الدنيا بأن جلدوا وصار ابن أبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسان أعمى أشل اليدين، ومسطح مكفوف البصر.

﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾. وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصل بين ﴿لَوْلَا﴾ وفعله بالظرف لأنه منزل منزلة من حيث إنه لا ينفك عنه وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكر الظرف أهم فإن التحضيض على أن لا يخلوا بأوله. ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقن المطلع على الحال.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿ورحمته﴾ في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِيمَا أَفْضَيْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقر دونه اللوم والجلد.

﴿إِذْ ظَفَرَ لِمَسْكٍ﴾ أو ﴿أَفْضَيْتُمْ﴾. ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه يقال تلقى القول وتلقفه وتلقته، وقرئ «تلقونه» على الأصل و«تلقونه» من لقيه إذا لقفه و«تلقونه» بكسر حرف المضارعة و«تلقونه» من إلقائه بعضهم على بعض، و«تلقونه» و«تلقونه» من الألق والألق وهو الكذب، و«تلقونه» من ثقفته إذا طلبته فوجدته و«تلقونه» أي تتبعونه. ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا﴾ سهلاً لا تبعة له. ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر واستمرار العذاب، فهذه ثلاثة أنام مترتبة علق بها مس العذاب العظيم، تلقى الإفك بالسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارة إلى القول المخصوص وأن تكون إلى نوعه، فإن قذف أحاد الناس محرم شرعاً فضلاً عن تعرض الصديقة ابنة الصديق حرمة رسول الله ﷺ. ﴿شُبْحَانِكَ﴾ تعجب من ذلك الإفك أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يذكر عند كل متعجب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعب عليه مثله ثم كثر فاستعمل لكل متعجب، أو تنزيه لله تعالى من أن تكون حرمة نبيه فاجرة فإن فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فيكون تقريراً

لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَذَا يَهْتَنُّ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ كراهة أن تعودوا أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء مكلفين. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَمْنَعُ عَنْهُ وفيه تهيج وتقريع.

﴿وَيُنِيبُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها. ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره ولا يجوز الكشخنة على نبيه ولا يقرره عليها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون. ﴿أَنْ تَشِيعَ﴾ أَنْ تَنْتَشِرَ. ﴿الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهر والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكرير للمنة بترك المعالجة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمته عليهم وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ بإشاعة الفاحشة، وقرئ بفتح الطاء وقرأ نافع والبرقي وأبو عمرو وأبو بكر وحمة بسكونها. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بيان لعله النهي عن اتباعه، و «الفحشاء» ما أفرط قبحه، و «المنكر» ما أنكره الشرع. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿مَا زَكَّيْ﴾ ما طهر من دنسها. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ أَحْدَثَ أَبَدًا﴾ آخر الدهر. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ بحمله على التوبة وقبولها. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالمهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف افتعال من الآلية، أو لا يقصر من الأول، ويؤيد الأول أنه قرئ ولا «يتأل». وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين. ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ في الدين. ﴿وَالسَّعَةِ﴾ في المال. وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرفه رضي الله تعالى عنه. ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ على أن لا «يؤتوا»، أو في «أَنْ يُؤْتُوا». وقرئ بالتاء على الالتفات. ﴿أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مقامها فيكون أبلغ في تعليل المقصود. ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عما فرط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغماض عنه. ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: بلى أحب ورجع إلى مسطح نفقته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفاف. ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عما قذف به. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله وبرسوله استباحة لعرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أبي. ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، وقيل هو حكم كل قاذف ما لم يتب، وقيل مخصوص بمن قذف أزواج النبي ﷺ ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله تعالى عنها.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ ظرف لما في لهم من معنى الاستقرار لا للعذاب لأنه موصوف، وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله



تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهوره آثاره عليها وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب.

﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ جزاءهم المستحق. ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعايتهم الأمر. ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الثابت بذاته الظاهر ألوهيته لا يشاركه في ذلك غيره ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البين أي العادل الظاهر عدله ومن كان هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (26) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ كَانَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْتَجِعُوا فَانْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْهِ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَبَعْضُهُمْ أَوْجُهُهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَبَعْضُهُنَّ فُرُوجُهُنَّ وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ يَحْجُرُهُنَّ عَلَى حُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدْرِكُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءُ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءُ هُنَّ أَوْ أَبْنَاءُ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانُ هُنَّ أَوْ إِخْوَانُ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيَةُ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرْ عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31) وَأَنكحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمِهِ (32) وَلْيَسْتَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكَسْبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَتَكُمْ عَلَى الْإِفَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (34) اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُّبَارَكٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ أَتَمُّ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35)﴾

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي الخباثت يتزوجن الخباث وبالعكس وكذلك أهل الطيب فيكون كالل دليل على قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل بيت النبي ﷺ أو الرسول وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم. ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته عليه الصلاة والسلام ولم يقرر عليها، وقيل «الخبثات» و«الطيبات» من الأقوال والإشارة إلى «الطيبين» والضمير في «يقولون» للآفكين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم أو «للخبثين» و«الخبثات» أي مبرؤون من أن يقولوا مثل قولهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برأ الله أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بانطاق ولدها، وعائشة رضي الله تعالى عنها بهذه الآيات الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكنونها فإن الآجر والمعير أيضاً لا يدخلان إلا بإذن. ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ تستأذنوا من الاستئناس بمعنى الاستعلام من أس الشيء إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش فإن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا أذن له استأنس، أو تعرفوا هل ثم إنسان من الأنس. ﴿وَتَسَلَّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أدخل. وعنه عليه الصلاة والسلام «التسليم أن يقول السلام عليكم أدخل ثلاث مرات فإن أذن له دخل وإلا رجع». ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذان أو التسليم خير لكم من أن تدخلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حيثم صباحاً أو حيثم مساء ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ «أستأذن على أمي؟ قال: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحب أن تراها عريانة، قال: لا، قال: فاستأذن». ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي أنزل عليكم، أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا وتعملوا بما هو أصلح لكم.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يأذن لكم. ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى يأتي من يأذن لكم فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور، واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها. ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحوا. ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الرجوع أطهر لكم عما لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب عنه من الكراهة وترك المروءة، أو أنفع لدينكم ودنياكم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تزدون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالربط والحوانيت والخانات والخانقات. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ﴾ استمتاع. ﴿لَكُمْ﴾ كالأستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله المسكونة وغيرها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تُكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلع على عورات.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي ما يكون نحو محرم. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهن أو ما ملكت أيمانهم، ولما كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغض أطلقه وقيد الغض بحرف التبعيض، وقيل حفظ الفروج ها هنا خاصة سترها. ﴿ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أنفع لهم أو أطهر لما فيه من البعد عن الريبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجابة أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالنستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تبدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاوله الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حرجاً، وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية، والمستثنى هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سترأ. لأعناقهن. وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وهشام بضم الجيم. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرره لبيان من يحل الإبداء ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكرة. ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أَوْ أَبَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى

مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهم ما يبدو عند المهنة والخدمة وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الإخوان لا يخرجون عن وصفهن للرجال أو النساء كلهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعم الإماء والعبيد، لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعدد وجهه لها وعليها ثوب، إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها وإذا غطت رجلها لم يبلغ رأسها فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك». وقيل المراد بها. الإماء وعبد المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ والهمسوحون، وفي المصنوع والخصي خلاف وقيل البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر غير بالنصب على الحال. ﴿أَوْ الطُّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الإطلاع، أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ليتحقق خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلوا أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه، في الجاهلية فإنه وإن جب بالإسلام لكنه يجب الندم عليه والعزم على الكف عنه كلما يتذكر، وقرأ ابن عامر «أيهم المؤمنون» وفي «الزخرف» ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ وفي «الرحمن» ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ بضم الهاء في الوصل في الثلاثة والباقون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالالف، ووقف الباقيون بغير الالف. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ بسعادة الدارين.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما نهى عما عسى يفضي إلى السفاح المخل بالنسب المقتضي للألفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه بمبالغة فيه عقبه بأمر النكاح الحافظ له والخطاب للأولياء والسادة، وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعار بأن المرأة والعبد لا يستبدان به إذ لو استبدتا لما وجب على الولي والمولى، و «أيامى» مقلوب أيام كيتامى، جمع أيم وهو العزب ذكر أو أنثى بكر أو ثيباً قال:

فَإِنْ تَنَكَّحِي أُنْكَحَ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي وَإِنْ كُنْتُ أَقْنَىٰ مِنْكُمْ أَتَأَيَّمِ

وتخصيص «الصلحين» لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه، ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ رد لما عسى يمنع من النكاح، والمعنى لا يمنع فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غنية عن المال فإنه غاد ورائح، أو وعد من الله بالإغناء لقوله ﷻ «اطلبوا الغنى في هذه الآية». لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾. «والله واسع» ذو سعة لا تنفذ نعمته إذ لا تنتهي قدرته. «عليهم» ييسر الرزق ويقدر على ما تقتضيه حكمته.

﴿وَلَيْسَتَغْفِفَ﴾ وليجتهد في العفة وقمع الشهوة. «الذين لا يجدون نكاحاً» أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به أو بالوجدان التمكن منه. «حتى يغنيهم الله من فضله» فيجدوا ما يتزوجون به. «والذين يشقون الكتاب» المكاتب وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبك على كذا من الكتاب لأن السيد كتب على نفسه عتقه إذا أدى المال، أو لأنه مما يكتب لتأجيله أو من الكتب بمعنى الجمع لأن العوض فيه يكون متجماً بنجوم بضم بعضها إلى بعض. «مما ملكت أيما نكحتم» عبداً كان أو أمة والموصول بصلته مبتدأ خبره. «فكاتبوهم» أو مفعول لمضمر هذا تفسيره والفاء لتضمن معنى الشرط، والأمر فيه للندب عند أكثر العلماء لأن الكتابة معاوضة تتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها واحتجاج الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية

ضعيف لأن المطلق لا يعم مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السلم فيما لا يوجد عند المحل. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمانة وقدرة على أداء المال بالاحتراف، وقد روي مثله مرفوعاً. وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالاً وضعفه ظاهر لفظ ومعنى وهو شرط الأمر فلا يلزم من عدمه عدم الجواز. ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر للموالي كما قبله بأن يبدلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حظ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر ويكفي أقل ما يتمول. وعن علي رضي الله تعالى عنه يحط الربع، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث، وقيل ندب لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤتوا ويعتقوا، وقيل أمر لعامة المسلمين بإعانة المكتبيين وإعطائهم سهمهم من الزكاة ويحل للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة «هو لها صدقة ولنا هدية». ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ﴾ إماءكم. ﴿عَلَى الْبَغَاءِ﴾ على الزنا، كانت لعبد الله بن أبي ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن الضرائب فشكا بعضهن إلى رسول الله ﷺ فتزلت. ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعقفاً شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي بامتناع المنهي عنه، وإيثار إن على إذا لأن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر. ﴿لَتَشْفَعُنَّ عَرْشَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لهن أوله إن تاب، والأول أوفق للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: من بعد إكراههن لهن غفور رحيم ولا يرد عليه أن المكره غير آئمة فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراه لا ينافي المواخذة بالذات ولذلك حرم على المكره القتل وأوجب عليه القصاص.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت فيها الأحكام والحدود، وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بالكسر في هذا وفي «الطلاق» لأنها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة من بين بمعنى تبين، أو لأنها بينت الأحكام والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أو ومثلاً من أمثال من قبلكم أي وقصة عجيبة مثل قصصهم، وهي قصة عائشة رضي الله تعالى عنها فإنها كقصص يوسف ومريم. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وعظ به في تلك الآيات، وتخصيص المتقين لأنهم المستفحون بها، وقيل المراد بالآيات القرآن والصفات المذكورة صفاته.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرم بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منور السموات والأرض وقد قرئ به فإنه تعالى نورهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء. أو مدبرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور. أو موجدتهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود كما أن أصل الخفاء هو العدم، والله سبحانه وتعالى موجود بذاته موجد لما عداه. أو الذي به تدرك أو يدرك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات، وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكات ليست لذاتها وإلا لما فارقتها فهي إذن من سبب يفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سموا أنوار، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي من فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشارته أو لاشتغالها على الأنوار، الحسية والعقلية وقصور الإدراكات عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ صفة نوره العجيبة الشأن، وإضافته إلى ضميره سبحانه وتعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره. ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾

كصفة مشكاة، وهي الكوة الغير النافذة. وقرأ الكسائي برواية الدوري بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة. ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج. ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء مثل ألماء كالزهرة في صفائه وزهرته منسوب إلى الدرء وفعل كمريق من الدرء فإنه يدفع الظلام بضوئه، أو بعض ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قلبت همزته ياء ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي «درى» كشراب وقد قرئ به مقلوباً. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداء ثقب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت ذبائله بزيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم إبدال الزيتون عنها تفخيم لشأنها، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أوقد وحمزة والكسائي وأبو بكر بالياء كذلك على إسناده إلى ﴿الزجاجة﴾ بحذف المضاف، وقرئ «توقد» من تتوقد ويوقد بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب. ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي تكون على قلة، أو صحراء واسعة فإن ثمرتها تكون أنضج وزيتها أصفى، أو لا نابتة في شرق المعمورة وغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتونه أجود الزيتون، أو لا في مضجى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها أو في مقبأة تغيب عنها دائماً فتركها نيباً وفي الحديث «لا خير في شجرة ولا نبات في مقبأة ولا خير فيهما في مضجى». ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألؤه وفرط ويصه. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته، وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوظ بظلمات أوهم الناس وخيالهم بالمصباح، وإنما ولي الكاف المشكاة لاشتغالها عليه، وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس، أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنيب فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبي: «مثل نور المؤمن»، أو تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الداركة الخمس المترتبة التي منوط بها المعاش والمعاد وهي: الحساسة التي تدرك بها المحسوسات بالحواس الخمس، والخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية، والمفكرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم، والقوة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً يُنْهَدِي بِهِ مِنْ نَشَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: «الشمس»، و «الزجاجة»، و «المصباح»، و «الشجرة»، و «الزيت»، فإن الحساسة كالمشكاة لأن محلها كالقوى ووجهها إلى الظاهر لا تدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها الأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية، والمفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها الزيتون المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصباح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفة في القليلين متفعة من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدة ذكائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكير ولا تعلم، أو تمثيل للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها كالمشكاة، ثم تنتش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متألثة في نفسها قابلة للأنوار، وذلك تتمكن إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتون وإن كان بالحدس فكالزيت، وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله النار من حيث إن العقول تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ لهذا

النور الثاقب. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إدناء للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعد ووعد لمن تدبرها ولمن لم يكثر بها.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَافُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾  
 (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ. وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيحُهُ يَمْسَبُهُ الظَّمَآنُ مَاءً حَوْثًا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ  
 (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ بِهَا وَمَن لَّرْجَعِ اللَّهِ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَاءِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّعِلْمَ صَلَاتُهُمْ وَسُجُودُهُمْ لِلَّهِ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيحُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِرُهُ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ  
 (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مُبِينًا وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ  
 (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَقُولُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (48) وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ (49) أَلَيْسَ قُلُوبُهُمْ مُرْسِئًا أَمْ أَرْتَابُونَ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50)﴾

﴿فِي بَيُوتٍ﴾ متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بعض بيوت فيكون تقعيد للممثل به بما يكون تحبيراً ومبالغة فيه فإن قناديل المساجد تكون أعظم، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانهم بالمساجد، ولا ينافي جمع البيوت وحدة المشكاة إذ المراد بها ماله هذا الوصف بلا اعتبار وحدة ولا كثرة أو بما بعده وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد لا يبيد ذكره لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله أو بمحذوف مثل سبحوها في بيوت، والمراد بها المساجد لأن الصفة تلائمها. وقيل المساجد الثلاثة والتكبير للتعظيم. ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يتزهونه أي يصلون له فيها بالغدوات والعشيات، والغدو مصدر أطلق للوقت ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل، وقرئ «والإيصال» وهو الدخول في الأصيل وقرأ ابن عامر وأبو بكر «يسبح» بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرئ تسبح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملة رابحة. ﴿وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعارضة، أو بأفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء، وقيل المراد بالتجارة الشراء فإنه أصلها ومبدؤها، وقيل الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجر في كذا إذا جلبه وفيه إيماء بأنهم تجار. ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال كقوله:

وَأَخْلَفُواكَ عَدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

﴿وَأَيَّاءِ الزُّكُوفِ﴾ ما يجب إخراجه من المال للمستحقين. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة. ﴿تَتَّقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالها فتتفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوب مع توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم.

﴿لَيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون. ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أحسن جزاء ما عملوا الموعود لهم من الجنة. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم ولم تخطر ببالهم. ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة وتنبيه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفروا حالهم على ضد ذلك فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها لأغية مخيبة في العاقبة كالسراب، وهو ما يرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أي يجري، والقيعة بمعنى القاع وهو الأرض الخالية عن النبات وغيره المستوية، وقيل جمعه كجار وجيرة وقرى «بقيعات» كديمات في ديمة. ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً﴾ أي العطشان وتخصيصه لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند ميسر الحاجة. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ جاء ما توهمه ماء أو موضعه. ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما ظنه. ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ عقابه أو زبانيته أو وجده محاسباً إياه. ﴿فَوْقَاهُ حِسَابًا﴾ استعراضاً أو مجازاة. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب. روي أنها نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية تعبد في الجاهلية والتمس الدين فلما جاء الإسلام كفر.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على «كسراب» و «أو» للتخيير فإن أعمالهم لكونها لأغية لا منفعة لها كالسراب، ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتركمة من لج البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة. ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ذي لج أي عميق منسوب إلى اللج وهو معظم الماء. ﴿يَغْشَاهُ﴾ يغشى البحر. ﴿مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي أمواج مترادفة متركمة. ﴿مِنْ فَوْقِهِ﴾ من فوق الموج الثاني. ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجوم وحجب أنوارها، والجملة صفة أخرى للـ «بحر». ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ أي هذه ظلمات. ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير «ظلمات» بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة الـ «سحاب» إليها في رواية البزي. ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه. ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدِ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ

والضمائر للواقع في البحر وإن لم يجر ذكره لدلالة المعنى عليه. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ ومن لم يقدر له الهداية. ولم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ خلاف الموفق الذي له نور على نور.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والثبقة بالوحي أو الاستدلال. ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يزه ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض، و «من» لتغليب العقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال. ﴿وَالطُّيْرُ﴾ على الأول تخصيص لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ولذلك قيدها بقوله: ﴿صَافَاتٍ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو بأسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير. ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي قد علم الله دعاءه وتزييه اختياراً أو طبعاً لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أو علم كل على تشبيه حاله في الدلالة على الحق والميل إلى النفع

على وجه يخصه بحال من علم ذلك مع أنه لا يبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيشها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء. ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه الخالق لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنة واجبة الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الجميع.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ يسوقه ومنه البضاعة المزجاة فإنه يزجيهما كل أحد. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ بأن يكون قزعاً فيضم بعضه إلى بعض، وبهذا الاعتبار صح بينه إذ المعنى بين أجزائه، وقرأ نافع برواية ورش ﴿يُولَفُ﴾ غير مهموز. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ من فتوقه جمع خلل كجبال في جبل، وقرئ من «خاله». ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الغمام وكل ما علاك فهو سماء. ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ من قطع عظام تشبه الجبال في عظمها أو جمودها. ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف أي «ينزل» مبتدأ «من السماء» من جبال فيها من برداً، ويجوز أن تكون من الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما في الأرض جبال من حجر، وليس في العقل قاطع يمنعه والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوى البرد هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل برداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض وينعقد سحاباً. ينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالتها وأوقاتها وإليها أشار بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ والضمير للـ «برد». ﴿يَكَاذُ سَنًا يَرْفِقُهُ﴾ ضوء برقه، وقرئ بالمد بمعنى العلو ويادغام الدال في السين و «برقه» بضم الباء وفتح الراء وهو جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع. ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد، وقرئ «يذهب» على زيادة الباء.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو بما يعم ذلك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما تقدم ذكره. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لدلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزهه عن الحاجة وما يفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ حيوان يدب على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي «خالق كل دابة» بالإضافة. ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ هو جزء مادته، أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل «من ماء» متعلق بـ «دابة» وليس بصله لـ «خلق». ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية وإنما سمي الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالنعم والوحش ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشيت على أربع، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء والتعبير عن الأصناف ليوافق التفصيل الجملة والترتيب لتقديم ما هو أعرف في القدرة. ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطباع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بالجنة.



﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ نزلت في بشر المنافق خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوهم إلى النبي ﷺ. وقيل في مغيرة بن وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعناهما. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ بالامتناع عن قبول حكمه. ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد قولهم هذا. ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبهم، أو إلى الفريق منهم وسلب الإيمان عنهم لتوليهم، والتعريف فيه للدلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفتهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعو إليه، وذكر الله لتعظيمه والدلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكم الله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم، وهو شرح للتولي ومبالغة فيه.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي الحكم لا عليهم. ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ متقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم، و ﴿إِلَيْهِ﴾ صلة لـ ﴿يَأْتُوا﴾ أو لـ ﴿مذعنين﴾ وتقديمه للاختصاص.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم. ﴿أَمْ أَرْبَابُ﴾ بأن رأوا منك تهمة فزال يقينهم وثقتهم بك. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ في الحكمة. ﴿بَلْ أَوْلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول، ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقفاً وكلاهما باطل، لأن منصب نبوته وفرط أمانته ﷺ بمنعه فتعين الأول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف والفصل لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعو إلى حكمه.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعُهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ (57) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَنِدُوا إِلَيْكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحِلْمَ مِثْلَكَ تِلْكَ مَرْبِّ مَن قَبْلَ صَلَوةِ النَّبِيِّ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنِدُوا كَمَا اسْتَدَنَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)﴾

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبية على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرىء ﴿قَوْلَ﴾ بالرفع و﴿لِيَحْكُمَ﴾ على البناء للمفعول وإسناده إلى ضمير مصدره على معنى ليفعل الحكم.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمرانه أو في الفرائض والسنن. ﴿وَيُخْشِ اللَّهَ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب. ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فيما بقي من عمره، وقرأ يعقوب وقالون عن نافع بلا ياء وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء، وحفص بسكون القاف فشبهه تقه بكتف وخفف والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إنكار للامتناع عن حكمه. ﴿لَئِنْ أُمِرْتُمْ﴾ الخروج عن ديارهم وأموالهم. ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾ جواب لـ ﴿أَقْسَمُوا﴾ على الحكاية. ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ على الكذب. ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا اليمين على الطاعة النفاقية المنكرة. أو ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أمثل منها أو لتكون طاعة، وقرئت بالنصب على أطيعوا طاعة. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سرائركم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة في تبييتهم. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على محمد ﷺ. ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ. ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه. ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ التبليغ الموضح لما كلفتم به، وقد أدى وإنما بقي ﴿مَا حُمِّلْتُمْ﴾ فإن أدبتم فلكم وإن توليتم فعليكم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة أوله وللمن معه ومن للبيان ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم، وهو جواب قسم مضمير تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفهم، أو الوعد في تحقيقه منزل منزلة القسم. ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام بعد الجبارة، وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام وإذا ابتدأ ضم الألف والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤا كسروا الألف. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف. ﴿أَمْنًا﴾ منهم وكان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكان يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حال من الذين لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف بيان المقتضي للاستخلاف والأمن. ﴿لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين. ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ ومن ارتد أو كفر هذه النعمة. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد الوعد أو حصول الخلافة. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به ولا يبعد عطف لك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعد على الأمور به، فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ كما علق به الهدى.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفار معجزين لله عن إدراكهم

وإهلاكهم، و ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صلة ﴿مُعْجِزِينَ﴾. وقرأ ابن عامر وحزمة بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء أو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعل والمعنى ولا يحسن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ مفعوليه أو لا يحسبونهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ فحذف المفعول الأول لأن الفاعل والمفعولين لشيء واحد فاكتفى بذكر اثنين عن الثالث. ﴿وَمَا وَاهُمُ النَّارُ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين وما واهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيق نفي الإعجاز. ﴿وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ رجوع إلى تمتة الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها والوعيد على الإعراض عنها، والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت. وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدليج بن عمرو الأنصاري وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعو عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبنائنا وخدمنا أن لا يدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ والصبيان الذين لم يبلغوا من الأحرار فعبّر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ في اليوم والليلة مرة. ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة، ومحله النصب بدلاً من ثلاث مرات أو الرفع خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ أي ثيابكم لليقظة للقبولة. ﴿مِنْ الظَّهْرِ﴾ بيان للحين. ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف بالتحاف. ﴿ثَلَاثَ حَوَازٍ لَكُمْ﴾ أي هي ثلاث أوقات يختل فيها تستركم، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده وأصل العورة الخلل ومنها أعور المكان ورجل أعور. وقرأ أبو بكر وحزمة والكسائي ﴿ثَلَاثَ﴾ بالنصب بدلاً من ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان، وليس فيه ما ينافي آية الاستئذان فينسسخها لأنه في الصبيان وممالك المدخول عليه وتلك في الأحرار البالغين. ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي هم طوافون استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهو المخالطة وكثرة المداخلة، وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها بأنها عورات. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بعضهم طائف على بعض أو يطوف بعضهم على بعض. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي الأحكام. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لكم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلها، واستدل به من أوجب استئذان العبد البالغ على سيده، وجوابه أن المراد بهم المعهودين الذين جعلوا قسماً للممالك فلا يندرجون فيهم. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل. ﴿الَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ لا يطمعن فيه لكبرهن. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب، والفاء فيه لأن اللام في ﴿القواعد﴾ بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينة بارجة لا غطاء عليها، والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء، إلا أنه خص بتكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من الوضع لأنه أبعد من التهمة. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقاتلتهن للرجال. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقصودهن.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ نفي لما كانوا يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم، أو أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح ويبيح لهم التبسط فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافة أن لا يكون ذلك من طيب قلب، أو من إجابة من دعوهم إلى بيوت آبائهم وأولادهم وأقاربهم فيطعمونهم كراهة أن يكونوا كلاً عليهم، وهذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾. وقيل نفي للخرج عنهم في القعود عن الجهاد وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيت لقوله عليه الصلاة والسلام «أنت ومالك لأبيك»، وقوله عليه الصلاة والسلام «إن أطيب ما يأكل المؤمن من كسبه وإن ولده من كسبه». ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظاً. وقيل بيوت الممالك والمفاتيح جمع مفتاح وهو ما يفتح به وقرئ «مفتاحه». ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطع بسرقة مال المحرم. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ مجتمعين أو متفرقين نزلت في بني ليث ابن عمرو من كنانة كانوا يتخرجون أن يأكل الرجل وحده. أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه. أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنممة. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة. ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثابتة بأمره مشروعة من لدنه، ويجوز أن تكون صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من عنده تعالى وانتصابها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبَارَكَةٌ﴾ لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةٌ﴾ تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأولين». ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختمة به وفصل الأولين بما هو المقتضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الحق والخير في الأمور.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَكُمْ مِنْكُمْ لِرِوَادٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُجْعَلُونَ إِلَيْهِ فَيُنْزِلُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ (64)﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرئ «أمر جميع». ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذن لهم، واعتباره في

كمال الإيمان لأنه كالمصدق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فإن ديدنه التسلل والفرار، ولتعظم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذن ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذهاب بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يعرض لهم من المهام، وفيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر. ﴿فَإِذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويض للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه فكان المعنى: فائذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِّفِرَاطِ الْعِبَادِ﴾ ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ لا تقيسوا دعاء إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبة والمراجعة بغير إذن محرمة. وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظم مثل يا نبي الله، ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجب، أو لا تجعلوا دعاءه ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ﴾ ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة ونظير تسلل تدرج وتدخل. ﴿لَوْ أَذَأَ﴾ يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابعه وانتصابه على الحال وقرئ بالفتح. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتاً خلاف سمتة، و ﴿عَنْ﴾ لتضمنه معنى الإعراض أو يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة واستدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتضى لأحد العذابين، فإن الأمر بالاحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب.

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وإنما أكد علمه بـ ﴿قَدْ﴾ لتأكيد الوعيد. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء، ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الإلتفات، وقرأ يعقوب بفتح الباء وكسر الجيم. ﴿فَيُصِيبُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي».



غير نظر إلى وجه الاشتقاق فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ لما تضمن الكلام إثبات التوحيد والنبوة أخذ في الرد على المخالفين فيهما. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عبدتهم ينحتونهم ويصورونهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون. ﴿لأنفسهم ضرّاً﴾ دفع ضرر. ﴿وَلَا نفعاً﴾ ولا جلب نفع. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾ ولا يملكون إماتة أحد وإحياءه أولاً وبعثه ثانياً ومن كان كذلك فيمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها، وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب مصروف عن وجهه. ﴿افترأه﴾ اختلقه. ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعبارته، وقيل جبر ويسار وعداس وقد سبق في قوله ﴿إنما يعلمه بشر﴾. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً﴾ بجعل الكلام المعجز ﴿إفك﴾ مختلقاً متلفاً من اليهود. ﴿وَزُوراً﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه وأتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته.

﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره المتقدمون. ﴿اكتبها﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها، وقرئ على البناء للمفعول لأنه أُمي وأصله: اكتبها كاتب له، فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل وبني الفعل للضمير فاستتر فيه. ﴿فَهِىَ تَمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ليحفظها فإنه أُمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو لتكتب.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلية وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف تجعلونه ﴿أساطير الأولين﴾. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صباً.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم. ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل. ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا، وذلك لعمههم وقصور نظرهم على المحسوسات فإن تميز الرسل عن عداهم ليس بأمر جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليهم إله واحد﴾. ﴿لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَهِهِ لَمَلَكَ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ لنعلم صدقه بتصديق الملك.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش. ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هذا على سبيل التنزل أي إن لم يلق إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين والمياسير فيتعيش بريعه، وقرأ حمزة والكسائي بالنون والضمير للكفار. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ وضع ﴿الظالمون﴾ موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون. ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً﴾ سحر فغلب على عقله، وقيل ذا سحر وهو الرثة أي بشراً لا ملكاً.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي قالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الطريق الموصول إلى معرفة خواص النبي والمميز بينه وبين المتنبى فخطبوا خطبوا عشواء. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ إلى القدر في نبوتك أو إلى الرشد والهدى.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا. ﴿خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ مما قالوا لكن آخره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى. ﴿جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بدل من ﴿خيراً﴾. ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُوراً﴾ عطف على محل الجزاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وَأَنَّ أَنَاءَ خَلِيلٍ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَّالِي وَلَا حَرَمٌ

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعده ما يكون له في الآخرة، وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (11) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَمِيمًا مُقِرَّيْنَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجَدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا (16) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُفُوحَ عَذَابٍ كَبِيرًا (19) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ بَصِيرُونَ (20)﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقر، أو فلذلك كذبوك لا لما تمحلوا من المطاعن الفاسدة، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ نارا شديدة الاستعار، وقيل هو اسم لجهنم فيكون صرفه باعتبار المكان.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام «لا تتراعى ناراهما» أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز والتأنيث لأنه بمعنى النار أو جهنم. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ صوت تغيط، شبه صوت غليانها بصوت المغناط وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه، هذا وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتغيط وتزفر. وقيل إن ذلك لزيانيتها فنسب إليها على حذف المضاف.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا﴾ في مكان ومنها بيان تقدم فصار حالا. ﴿ضَمِيمًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها كعرض السموات والأرض. ﴿مُقَرَّرِينَ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل. ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان. ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً أي يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون تعال يا ثبوراه فهذا حينك.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ أي يقال لهم ذلك. ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدة، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبور.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة إلى العذاب والاستفهام والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم أو إلى الـ ﴿كنز﴾ أو الـ ﴿جنة﴾، والراجع إلى الموصول محذوف وإضافة الـ ﴿جنة﴾ إلى ﴿الخلد﴾ للمدح أو للدلالة على خلودها، أو التمييز عن جنات الدنيا. ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو اللوح، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحقيقه كالواقع. ﴿جَزَاءً﴾ على أعمالها بالوعد. ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه، ولا



يمنع كونها جزاء لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين من يتقي الكفر والتكذيب لأنهم في مقابلتهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ما يشاءونه من النعيم، ولعله تقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأواً الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة. ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من أحد ضمايرهم. ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ الضمير في «كان» لـ «ما يشاءون» والوعد الموعود أي: كان ذلك موعداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب، أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم «ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك». أو الملائكة بقولهم «ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم»، وما في «على» من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإن تعلق الإرادة بالوعد مقدم على الوعد الموجب للإنجاز.

﴿وَيَوْمَ نَخْشِئُهُمْ﴾ للجزاء، وقرئ بكسر الشين وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالياء. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعم كل معبود سواه تعالى، واستعمال «ما» إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق لكل شبح يرى ولا يعرف، أو لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام تحقيراً أو اعتبار الغلبة عبادها، أو يخص الملائكة وعزيراً والمسيح بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام ينطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب، وقرأ ابن عامر بالنون. ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة، وأصله «أأضللتم» أو «ضلوا» فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب، وحذف صلة الضل مبالغة.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسييحه وتوحيده فكيف يليق بهم إضلال عبيده، أو تزيهاً لله تعالى عن الأنداد. ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ ما يصح لنا. ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحداً دونك، وقرئ «نتخذ» على البناء للمفعول من اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» ومفعوله الثاني «من أولياء» و«من» للتبعض وعلى الأول مزيدة لتأكيد النفي. «وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ» بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات. «حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ» حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عين ما ذهبنا إليه فلا ينتهز حجة علينا للمعتزلة. «وَكُنَّا نُوايُّ فِي قَضَائِكَ». «قَوْمًا بُورًا» هالكين مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع بائر كعائذ وعوذ.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواكُمْ﴾ التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول والمعنى فقد كذبكم المعبودون. «بِمَا تَقُولُونَ» في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من الضمير، وعن ابن كثير بالياء أي: «كذبوكم» بقولهم «سبحانك ما كان ينبغي لنا». «فَمَا يَسْتَفِيدُونَ» أي المعبودون وقرأ حفص بالياء على خطاب العابدين. «صَرَفْنَا» دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال. «وَلَا نَصْرًا» يعينكم عليه. «وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ» أيها المكلفون. «نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا» هي النار والشرط وإن عم كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقاً، وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي إلا رسلاً منهم فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾، ويجوز أن تكون حالاً اكتفى فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾. وقرئ ﴿يمشون﴾ أي تمشيهم حوائجهم أو الناس. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاء ومن ذلك ابتلاء الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه، وفيه دليل على القضاء والقدر. ﴿أَنْصَبِرُونَ﴾ علة للجعل والمعنى ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ لنعلم أيكم يصبر ونظيره قوله تعالى: ﴿لِيَلْعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ بِصَبِيرًا﴾ بمن يصبر أو بالصواب فيما يتلى به وغيره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نَؤُولَا نُزُلًا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ جِئْنَا بِمُحْجُورٍ (22) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَيُرَىٰ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَذَابًا (26) وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا (27) يَتَوَلَّىٰ لَيِّتِي لَرَأَيْتُ فَلَئَانَا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ نَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يأملون. ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث، أولا يخافون ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالشر على لغة تهامة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المربي، والمراد به الوصول إلى جزائه ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول. ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ﴾ فتخبرنا بصدق محمد ﷺ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا. ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه. ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك. ﴿وَعَتَوْا﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم. ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات القاهرة فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطاعم النفوس القدسية، واللام جواب قسم محذوف وفي الاستئناف بالجملة حسن وإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم كقوله:

وَجَارَةٌ جَسَاسِي أَبَانَا بِنَابِهَا      كَلْبِيًّا عَلَتْ نَابُ كَلْبٍ بِسَوَاوِهَا

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ملائكة الموت أو العذاب، و ﴿يَوْمَ﴾ نصب باذكر أو بما دل عليه. ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يمنعون البشري أو يعدمونها، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكرير أو خبر و ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ تبين أو خبر ثان أو ظرف لما يتعلق به اللام، أو لـ ﴿بشري﴾ إن قدرت منونة غير مبنية مع ﴿لَا﴾ فإنها لا تعمل، ولكل ﴿مجرمين﴾ إما عام يتناول حكمه حكمهم من طريق البرهان ولا يلزم عن نفي البشري لعامة المجرمين حيث نفي البشري بالعفو والشفاعة في وقت آخر، وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم

وإشعاراً بما هو المانع للبشرى والموجب لما يقابلها. ﴿وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَّخْبُورًا﴾ عطف على المدلول أي ويقول الكفرة حينئذ، هذه الكلمة استعاذة وطلباً من الله تعالى أن يمنع لقاءهم وهي مما كانوا يقولون عند لقاء عدو أو هجوم مكروه، أو تقولها الملائكة بمعنى حراماً عليكم الجنة أو البشرى. وقرئ ﴿حَجَرًا﴾ بالضم وأصله الفتح غير أنه لما اختص بموضع مخصوص غير كقعدك وعمرك ولذلك لا يتصرف فيه ولا يظهر ناصبه، ووصفه بمحجور للتأكيد كقولهم: موت مائت.

﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ أي وعمدنا إلى ما عملوا في كفرهم من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره، وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا على سلطانهم فقدم إلى أشياءهم فمزقها وأبطلها ولم يبق لها أثر، والـ ﴿هَبَاءً﴾ غبار يرى في شعاع يطلع من الكوة من الهوة وهي الغبار، و ﴿مَّنْثُورًا﴾ صفته شبه عملهم المحبط بالهباء في حقارته وعدم نفعه ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكن نظمه أو تفرقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجهون به نحوها، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر كقوله تعالى: ﴿كُونُوا قردة خاسئين﴾.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ مكاناً يستقر فيه أكثر الأوقات للتجالس والتحدث. ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكاناً يؤوى إليه للاسترواح بالأزواج والتمتع بهن تجوزاً له من مكان القيلولة على التشبيه، أو لأنه لا يخلو من ذلك غالباً إذ لا نوم في الجنة وفي أحسن رمز إلى ما يتميز به مقيلهم من حسن الصور وغيره من التحاسين، ويحتمل أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة، والتفضيل إما لإرادة الزيادة مطلقاً أو بالإضافة إلى ما للمتفرين في الدنيا. روي أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ﴾ أصله تشقق فحذفت التاء، وأدغمها ابن كثير ونافع وابن عامر ويعقوب. ﴿بِالْغَمَامِ﴾ بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾. ﴿وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا﴾ في ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد، وقرأ ابن كثير «ونزل» وقرئ «نزلت» و«أنزل» و«نزل الملائكة» بحذف نون الكلمة.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ الثابت له لأن كل ملك يبطل يومئذ ولا يبقى إلا ملكه فهو الخير و ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ صلته، أو تبيين و ﴿يومئذٍ﴾ مفعول ﴿الملك﴾ لا ﴿الحق﴾ لأنه متأخر أو صفته والخبر ﴿يومئذٍ﴾ أو ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ من فرط الحسرة، وعض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنباتات عن الغيظ والحسرة لأنها من روادفهما، والمراد بـ ﴿الظالم﴾ الجنس. وقيل عقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسة النبي ﷺ، فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل، وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه وقال صبأت فقال: لا، ولكن آلى أن لا يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له، فقال لا أرضى منك إلا أن تأتيه قطعاً فتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله وطعن ألباً في المبارزة فرجع إلى مكة ومات. ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة.

﴿يَا وَيْلَتَى﴾ وقرئ بالياء على الأصل. ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني من أضله وفلان كناية عن الأعلام كما أن هنا كناية عن الأجناس.

﴿لَقَدْ أَصْلَنِي مِنَ الذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة. ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وتمكنت منه. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس لأنه حمله على مخالفته ومخالفة الرسول، أو كل من تشيطن من جن وإنس. ﴿لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه، فعول من الخذلان.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ محمد يومئذ أو في الدنيا بناً إلى الله تعالى. ﴿يَا رَبُّ إِنِّي قَوْمِي﴾ قريباً. ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ بأن تركوه وصدوا عنه، وعنه عليه الصلاة والسلام «من تعلم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً أقض بيني وبينه» أو هجروا ولغوا فيه إذا سمعوه أو زعموا أنه هجر وأساطير الأولين، فيكون أصله «مهجوراً» فيه فحذف الجار ويجوز أن يكون بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول، وفيه تخويف لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما جعلناه لك فاصبر كما صبروا، وفيه دليل على أنه خالق الشر، والعدو يحتمل الواحد والجمع. ﴿وَكَفَىٰ بَرَبِكْ هَٰذَايَا﴾ إلى طريق قهرهم. ﴿وَتَصْبِرَ﴾ لك عليهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ دفعة واحدة كالكتب الثلاثة، وهو اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لتقوي بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه، لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام آمياً وكانوا يكتبون، فلو ألقى عليه جملة لعل بحفظه، ولعله لم يستتب له فإن التلقف لا يتأتى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى، ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يعين على البلاغة، وكذلك صفة مصدر محذوف والإشارة إلى إنزاله مفرقاً فإنه مدلول عليه بقوله «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وقف عليه فيكون حالاً والإشارة إلى الكتب السابقة، واللام على الوجهين متعلق بمحذوف. ﴿وَرَكْنَا تَرْجِيلاً﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تودة وتمهل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين وأصل الترتيل في الأسنان وهو تقليجها.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك. ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدامغ له في جوابه. ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن بياناً أو معنى من سؤالهم، أو «لا يأتونك بحال عجيبة يقولون هلا كانت هذه حاله إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له».

﴿الَّذِينَ يُخْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها. وعنه عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف، صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه» وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبدأ خبره. ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضل عليه هو الرسول ﷺ على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذُكِّرْتُ عَنْ أَهْلِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه وتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكاناً وأضل سبيلاً، وقيل إنه متصل بقوله «أصحاب

الجنة يومئذ خير مستقراً ﴿١﴾ ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٢٦﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا ﴿٢٧﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لِمِثْلِهِ الْأَمْثَلِ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَبْرَأْنَا نَذِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِيطَتْ مَطَرُ السَّوءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شَوْكَاً ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْهُ إِذَا يَخْجَدُونَكَ إِلَّا هَرُورًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهِهُ هَوًى أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة، لأن المشاركين في الأمر متوازون عليه.

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ نَذِيرًا﴾ أي فذهب إليهم فكذبوهما فدمرناهم، فاقصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم والتعقيب باعتبار الحكم لا الوقوع، وقرئ «فدمرتهم» «فدمرناهم» «فدمرناهم» على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ كذبوا نوحاً ومن قبله، أو نوحاً وحده ولكن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو بعثة الرسل مطلقاً كالبراهمة. ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان. ﴿وَجَعَلْنَا هَارُونَ وَكَانَ أَخَاهُ نَذِيرًا﴾ قستهم. ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة. ﴿وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل التعميم والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضع المضمير تظليماً لهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ عطف على هم في ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ أو على «الظالمين» لأن المعنى ووعدنا الظالمين، وقرأ حمزة وحفص «وثمود» على تأويل القبيلة. ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قوم كان يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعبياً فكذبوه، فبينما هم حول الرس وهي البئر الغير المطوية فانهارت فحسف بهم وبديارهم. وقيل «الرس» قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا. وقيل الأخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبساً النجار، وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي ابتلاه الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون، وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح أو دمخ وتنقض على صبيانهم فتخطفهم إذا أعوزها الصيد، ولذلك سميت مغرباً فدعا عليها حنظلة فأصابها الصاعقة ثم أنهم قتلوه فأهلكوا. وقيل هم قوم كذبوا نبيهم ورسوه أي دسوه في بئر. ﴿وَقُرُونًا﴾ وأهل أعصار قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون. ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلا الله.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لِمِثْلِهِ الْأَمْثَالِ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أهلكوا كما قال: ﴿وَكُلًّا تَبْرَأْنَا تَنْبِيْرًا﴾ فتناه تفتياً ومنه التبر لفتات الذهب والفضة، ﴿وَكُلًّا﴾ الأول منصوب بما دل عليه «ضربنا» كأندرننا والثاني بـ «تبرنا» لأنه فارغ.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام. ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِيطَتْ مَطَرُ السَّوءِ﴾

يعني سدوم عظمى قرى قوم لوط أمطرت عليها الحجارة. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها﴾ في مرار مرورهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله. ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ بل كانوا كفر لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمروا بها كما مرت ركابهم، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزْواً﴾ ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزواً به. ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ محكي بعد قول مضمّر والإشارة للإستحقار، وإخراج بعث الله رسولاً في معرض التسليم يجعله صلة وهم على غاية الإنكار واستهزاء ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

﴿إِنْ﴾ إنه. ﴿كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حجج ومعجزات. ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها و ﴿لَوْلَا﴾ في مثله تقيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَصْلُ سَبِيلٍ﴾ كالجواب لقولهم ﴿وإن كان ليضلنا﴾ فإنه يفيد نفي ما يلزمه ويكون الموجب له، وفيه وعيد ودلالة على أنه لا يهملهم وإن أهملهم.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ بأن أطاعه وبني عليه دينه لا يسمع حجة ولا يبصر دليلاً، وإنما قدم المفعول الثاني للعناية به. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحاله هذا فالاستفهام الأول للتقرير والتعجب والثاني للإنكار.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بل أتحسب. ﴿أَن أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتجدي لهم الآيات أو الحجج فتهم بشأنهم وتطمع في إيمانهم، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حق بالإضراب عنه إليه، وتخصيص الأكثر لأنه كان منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم انتفاعهم بقرع الآيات أذانهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات. ﴿بَلْ هُمْ أَصْلُ سَبِيلٍ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدا وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها وهؤلاء لا يتقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار، ولأنها إن لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

﴿أَلَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنعه. ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ كيف بسطه أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك، فغير النظم إشعاراً بأنه المعقول من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه، أو ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مد الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيب الأحوال، فإن الظلمة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس: يسخن الجو ويهر البصر، ولذلك وصف به الجنة فقال ﴿وظل ممدود﴾. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ ثابتاً من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع فيقع ضوءها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن أحداثه بالحد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف. ﴿قَبْضاً يَسِيراً﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس ليتنظم

بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق، و ﴿ثم﴾ في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادئ أوقات ظهورها، وقيل ﴿مد الظل﴾ لما بنى السماء بلا نير، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلمها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلطاً عليه مستعياً إياه كما يستتبع الدليل المدلول، أو دليل الطريق من يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهي غاية نقصانه، أو ﴿قبضاً﴾ سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلة والمظل عليها.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَاطِيرُ النَّوْمِ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (47) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (48) ﴿لِنُخْصِيَ بِهِ بَلَدَهُ مِيتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْفَاسَ كَثِيرًا﴾ (49) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (50) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَافْتَقْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (51) ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَنِّهِمْ بِهِ جَهَادًا كَثِيرًا﴾ (52) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُحٌ أجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا تَحْجُورًا﴾ (53) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلْهُمُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (54) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (55) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (56) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (57)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَاطِيرُ النَّوْمِ سُبَاتًا﴾ شبه ظلامه باللباس في ستره. ﴿وَالنَّوْمُ سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان بقطع المشاغل، وأصل السبت القطع أو موتاً كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ لأنه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذا نشور أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعث من النوم بعث الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنتشر.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادة للجنس. ﴿بُشْرًا﴾ ناشرات للحساب جمع نشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف وحمزة والكسائي به وبفتح النون على أنه مصدر وصف به وعاصم ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف بشر جمع بشور بمعنى مبشر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني قدام المطر. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ مطهراً لقوله ﴿ليطهركم به﴾. وهو اسم لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به. قال عليه الصلاة والسلام «التراب طهور المؤمن»، «طهور إناء أحدهم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبعاً إحداهن بالتراب». وقيل بليغاً في الطهارة وفعل وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضبوث وللمصدر كالقبول وللإسم كالذنوب، وتوصيف الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميم للمنة فيما بعده فإن الماء الطهور أهنا وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى.

﴿لِنُخْصِيَ بِهِ بَلَدَهُ مِيتًا﴾ بالنبات وتذكير ﴿مِيتًا﴾ لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد. ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْفَاسَ كَثِيرًا﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي، وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافع فيهم وبما حولهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً مع أن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عظم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام قنية الإنسان وعامة منافعهم وعلية معاشهم منوطة بها، ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم

عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها، وقرىء ﴿نَسْقِيهِ﴾ بالفتح وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سقياً ﴿وَأَنَاسِي﴾ بحذف ياء وهو جمع إنسي أو إنسان كظرابي في ظربان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمُ﴾ صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن الكريم وسائر الكتب، أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغيرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه: «ما عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء وتلا هذه الآية» أو في الأنهار والمنافع. ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ ليتذكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها، أو جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا، ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواء سناط وأمارات بجعله تعالى.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ نبياً ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن قَصَرْنَا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهيج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين. ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه فلا تطع، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقتك فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأن مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عتوهم وظهورهم، أو لأنه جهاد مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته إذا خلاها. ﴿هَذَا عَذَابٌ قُرْآتٌ﴾ قاعم للعطش من فرط عذوبته. ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ الملوحة، وقرىء ﴿ملح﴾ على فعل ولعل أصله مالح فخفف كبرد في بارد. ﴿وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزاً من قدرته. ﴿وَجَحْرًا مَخْجُورًا﴾ وتنافراً بليغاً كأن كلا منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوذ للمتعوذ عنه، وقيل حداً محدوداً وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل والبحر الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضامت وتلاصقت وتشابهت في الكيفية.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ تعني الذي خمر به طينة آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع لتبشر وتسلس وتقبل الأشكال والهيئات بسهولة، أو النطفة. ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم، وذات صهر أي إناثاً يصاهر بهن كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني الأصنام أو كل ما عبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضرر. ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد به ﴿الكافر﴾ الجنس أو أبو جهل. وقيل حيناً مهيئاً لا وقع له عنده من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف ظهره فيكون كقوله ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾.



﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ للمؤمنين والكافرين .

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه ﴿إلا مبشراً ونذيراً﴾ . ﴿مِنْ أَجْرِ إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾ إلا فعل من شاء . ﴿أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله واستثناء منه قلعاً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للثواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مرضياً به مقصوراً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالثواب من حيث إنها بدالته . وقيل الاستثناء منقطع معناه لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي عِبَادَهُ وَيُكَفِّي بِهِ يَدُوبٍ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ ثُغُورًا ﴿(60) نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ أَيْلُ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (62) وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَتَسَوَّوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُقْتَبِرَاتِنَا سُبُلًا (74) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبُؤُنِي بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (77) ﴿

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاء شروهم والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم . ﴿وَسَيَحْيِي بِحَمْدِهِ﴾ ونزله عن صفات النقصان مثبناً عليه بأوصاف الكمال طالبا لمزيد الأنعام بالشكر على سوابغه . ﴿وَكَفَّىٰ بِهِ يَدُوبٍ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منها وما بطن . ﴿خَيْرًا﴾ مطلقاً فلا عليك أن آمنوا أو كفروا .

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ قد سبق الكلام فيه، ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقاً بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف فيه، وتحريض على الثبات والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تودة وتدرج، و ﴿الرحمن﴾ خبر الذي إن جعلته مبتدأ ولمحذوف إن جعلته صفة للحي، أو بدل من المستكن في ﴿استوى﴾ وقرئ بالجر صفة للحي . ﴿فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء

عالمًا يخبرك بحقيقته وهو الله تعالى، أو جبريل أو من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه، وقيل الضمير «للرحمن» والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون «الرحمن» مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدى بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدى بالياء لتضمنه معنى الاعتناء. وقيل إنه صلة «خيرًا».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ لَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَطْلُقُونَهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ لَأَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ غَيْرَهُ وَلِذَلِكَ قَالُوا: «أَنَسْجُدُ لِمَا نَأْمُرُنَا؟» أَي لِلَّذِي نَأْمُرُنَا بِعِبَادَتِهِ بِسُجُودِهِ أَوْ لِأَمْرِكَ لَنَا مِنْ غَيْرِ عَرَفَانِ. وَقِيلَ لِأَنَّهُ كَانَ مُعْرَبًا لَمْ يَسْمَعُوهُ. وَقُرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ «يَأْمُرُنَا» بِالْيَاءِ عَلَى أَنَّهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. «وَزَادَهُمْ» أَي الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ «لِلرَّحْمَنِ». «نُقُورًا» عَنِ الْإِيمَانِ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يعني البروج الاثني عشر سميت به وهي القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره. «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا» يعني الشمس لقوله «وجعل الشمس سراجًا». وقُرَأَ حَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ «سِرَاجًا» وهي الشمس والكواكب الكبار. «وَقَمَرًا مُنِيرًا» مضيئًا بالليل، وقُرِءَ «وقمرًا» أي ذا قمر وهو جمع قمراء ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفه يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى: «واختلاف الليل والنهار». وهي للحالة من خلف كالركبة والجلسة. «لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ» بأن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أن لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد. «أَوْ أَرَادَ شُكُورًا» أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم، أو ليكونا وقتين للمتذكرين الشاكرين من فاته ورده في أحدهما تداركه في الآخرة، وقُرَأَ حَمْزَةُ «أَنْ يَذْكُرْ» مِنْ ذِكْرِ بِمَعْنَى تَذَكُّرٍ وَكَذَلِكَ لِيَذْكُرُوا وَوَافَقَهُ الْكَسَائِيُّ فِيهِ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مبتدأ خبره «أولئك يجزون الغرفة» أو: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ» وإضافتهم إلى «الرحمن» للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته على أن عباد جمع عابد كتاجر وتجار. «هَوْنًا» هينين أو مشيًا هينًا مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» تسلمًا منكم ومشاركة لكم لا خير بيننا ولا شر، أو سدادًا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم، ولا ينافيه آية القتال لتنسخه فإن المراد به الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجْدًا وَقِيَامًا﴾ في الصلاة، وتخصيص البيوتة لأن العبادة بالليل أحمر وأبعد عن الرياء وتأخير القيام للروي وهو جمع قائم أو مصدر أجري مجراه.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لازماً ومنه الغريم لملازمته، وهو إيدان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وجلون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بشت مستقرًا، وفيها ضمير مبهم يفسره المميز والمخصوص بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملة باسم إن، أو أحزنت وفيها ضمير اسم أن ومستقرًا حال أو تمييز والجملة تعليل للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والإبتداء من الله.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ لم يجاوزوا حد الكرم. «وَلَمْ يَقْتُرُوا» ولم يضيّقوا تضيق الشحيح. وقيل الإسراف هو الإنفاق في المحارم والتقتير منع الواجب، وقُرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ التَّاءِ

ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقر، وقرىء بالتشديد والكل واحد. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وسطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي سواء لاستوائيهما، وقرىء بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغواً، وقيل إنه اسم ﴿كَانَ﴾ لكنه مبني لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي حرماً بمعنى حرم قتلها. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق القتل المحذوف، أو بلا يقتلون ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصي بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك، وتعرضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء إثم أو إثمًا بإضمار الجزاء، وقرىء «أثاماً» أي شدائد يقال يوم ذو أيام أي صعب.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من «يلقى» لأنه في معناه كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تَلِمْنَا بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَاراً تَأْجِجَا  
وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك: ﴿وَيُخْلَدُ فِيهِ مِهَانًا﴾ وابن كثير ويعقوب يضعف بالجزم وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في «يضعف»، وقرىء ﴿ويُخْلَدُ﴾ على بناء المفعول مخففاً، وقرىء مثقالاً وتضعيف العذاب مضاعفته لانضمام المعصية إلى الكفر ويدل عليه قوله:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم، أو يبديل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلذلك يغفو عن السيئات ويشب على الحسنات.

﴿وَمَنْ تَابَ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يتلافى به ما فرط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة. ﴿فَإِنَّهُ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرجع إلى الله بذلك. ﴿مَتَابًا﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل شركة فيه. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُورِ﴾ ما يجب أن يلقي وي طرح. ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية فيما يستهجن التصريح به.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة. ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُماً وَعُمِينَاً﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر، بل أكبوا عليها سامعين بأذان واعية مبصرين بعيون راعية، فالمراد من النفي نفي الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلماً. وقيل الهاء للمعاصي المدلول عليها «باللغو».

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة، و ﴿مَنْ﴾ ابتدائية أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً، وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي

وأبو بكر «وذريتنا» وقرأ ابن عامر والحريمان وحفص ويعقوب «وذريتنا» بالألف، وتنكير الـ «أعين» لإرادة تنكير الـ «قرة» تعظيماً وتقليلها لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. «وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا» يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل، وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله «ثم يخرجكم طفلاً» أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم. وقيل جمع أم كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم.

«أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ» أعلى مواضع الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: «وهم في الغرفات آمنون» وللقراءة بها، وقيل هي من أسماء الجنة. «بِمَا صَبَرُوا» بصبرهم على المشاق من مضيض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات. «وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا» دعاء بالتعمير والسلامة أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقية دائمة وسلامة من كل آفة، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «يلقون» من لقي.

«خَالِدِينَ فِيهَا» لا يموتون فيها ولا يخرجون. «حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» مقابل «ساءت مستقراً» معنى ومثله إعراباً.

«قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي» ما يصنع بكم من عبأت الجيش إذا هيأته أو لا يعتد بكم. «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» لولا عبادتكم فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء. وقيل معناه ما يصنع بعدابكم لولا دعاؤكم معه آلهة وما إن جعلت استفهامية فمحلهما النصب على المصدر كأنه قيل: أي عبء يعزب بكم. «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» بما أخبرتكم به حيث خالفتموه. وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذب القتال إذا لم يبالغ فيه. وقرئ «فقد كذب الكافرون» أي الكافرون منكم لأن توجه الخطاب إلى الناس عامة بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب. «فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا» يكون جزاء التكذيب لازماً يحق بكم لا محالة، أو أثره لازماً بكم حتى يكبكم في النار، وإنما أضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتننه الوصف، وقيل المراد قتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لازماً، وقرئ «لزماً» بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب».

## سورة الشعراء

[مكية إلا قوله تعالى وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ إلى آخرها وهي مائتان وست أو سبع وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْنَا مِنْ أَسْمَاءٍ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهَتْ رَبِّهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9) وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمُ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْسُطُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَهْلِيئِنَّا إِنَّمَا مَعَكُمْ مُنْتَهَعُونَ (15)﴾

﴿طسم﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة، ونافع بين بين كراهة للعود إلى الياء المهروب منها، وأظهر نونه حمزة لأنه في الأصل منفصل عما بعده.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه وصحته، والإشارة إلى السورة أو القرآن على ما قرر في أول «البقرة».

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ﴾ قاتل نفسك، وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح، وقرئ «بأخع نفسك» بالإضافة، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة. ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا أو خيفة أو لا يؤمنوا.

﴿إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْنَا مِنْ أَسْمَاءٍ آيَةً﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاسرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله. وقيل لما وصفت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجازهم. وقيل المراد بها الرؤساء أو الجماعات من قولهم: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ «خاضعة» و «ظلت» عطف على «نزل» عطف وأكن على فأصدق لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن. ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ يوحيه إلى نبيه. ﴿مُحَدَّثٍ﴾ مجدد إنزاله لتكرير التذكير وتويع التقرير. ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمناً في قوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة. ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يصدق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها. ﴿كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف. ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود كثير المنفعة، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى، وههنا يحتمل أن تكون مقيدة لما يتضمن الدلالة على القدرة، وأن تكون مبينة منبهة على أنه ما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره، و﴿كُلِّ﴾ لإحاطة الأزواج ﴿وَكَمْ﴾ لكثرتها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف أو في كل واحد. ﴿لَايَةً﴾ على أن منبتها تام القدرة والحكمة، سابغ النعمة والرحمة. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة. ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ مقدر باذكر أو ظرف لما بعده. ﴿أَنْ ائْتِ﴾ أي ﴿ائت﴾ أو بأن ﴿ائت﴾. ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل. وذبح أولادهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له، ولعل الإقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه، وقرىء بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كان غيباً حينئذ أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم وإسماعه مبدأ إسماعهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده، وقرىء بكسر النون اكتفاء بها عن ياء الإضافة، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون كقولهم: ألا يا اسجدوا.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾ رتب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق القلب انفعلاً عنه، وازدياد الحسرة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مسة الحاجة إلى معين يقوى قلبه وينوب منابه متى تعثره حسرة حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر حجته، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لما يكون معونة على امتثاله وتمهيد عذره فيه، وقرأ يعقوب ﴿ويضيق﴾ ﴿ولا ينطلق﴾ بالنصب عطفاً على ﴿يكذبون﴾ فيكونان من جملة ما خاف منه.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمي باسمه، والمراد قتل القبطي وإنما سماه ذنباً على زعمهم، وهذا اختصار قصته المبسطة في مواضع. ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما إن ذاك استعداد واستظهار في أمر الدعوة وقوله:

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ إجابة له إلى الطلبتين بوعده بدفع بلائهم اللازم رده عن الخوف، وضم أخيه إليه في الإرسال، والخطاب في ﴿فاذهبا﴾ على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه ﴿كلا﴾ كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبته. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني موسى وهارون وفرعون. ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأظهر كما عليه، مثل نفسه تعالى بمن حضر مجادلة قوم استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغة في الوعد بالإعانة، ولذلك تجوز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات، وهو خبر ثان أو الخبر وحده ﴿ومعكم﴾ لغو.

﴿فَاتَّيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (16) أن أرسل معاً بنى إسرائيل (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ

فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سِنَّينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مَتْنُهَا عَلَى أَنْ عَبْدَتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَيْتْ فِي الدَّيَّانِ حَشِيرِينَ (36) يَا قَوْمُ لَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (37) فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَمَلْنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَجْرَاءُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِلَكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمَقْرَبِينَ (42) ﴿

﴿فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أفرد الرسول لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَائِسُونَ مَا فَهَتَ عَنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

ولذلك ثنى تارة وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به، أو لأنه أراد أن كل واحد منا.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول، والمراد خلهم ليذهبوا معنا إلى الشام.

﴿قَالَ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك. ﴿أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا﴾ في منازلنا. ﴿وَوَلِيدًا﴾ طفلاً سمي به لقربه من الولادة. ﴿وَوَلِيتَ فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سِنَّينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الغرق خمسين.

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْتِي فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي، وبخه به معظماً إياه بعدما عدد عليه نعمته، وقرىء فعلتكَ بالكسر لأنها كانت قتلة بالوكر. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي حتى عمدت إلى قتل خواصي، أو ممن تكفرهم الآن فإنه عليه الصلاة والسلام كان يعاشيهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين، ويجوز أن يكون حكماً مبتدأ عليه بأنه من الكافرين باللهيته أو بنعمته لما عاد عليه بالمخالفة، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم.

﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به، والمعنى من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الداهلين عما يؤول إليه الوكر لأنه أراد به التأديب، أو الناسين من قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قلدحاً في نبوته ثم كر على ما عد عليه من النعمة ولم يصرح برده لأنه كان صدقاً غير قاذح في دعواه، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمة لكونه مسيئاً عنها فقال.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي وتلك التربية نعمة تمنها عليّ ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وقصدهم بذبح أبنائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك. وقيل إنه مقدر بهمة الإنكار أي تلك نعمة تمنها عليّ وهي ﴿أَنْ عَبَّدْتُ﴾، ومحل ﴿أَنْ عَبَّدْتُ﴾ الرفع على أنه خبر محذوف أو بدل في ﴿نِعْمَةٌ﴾ أو الجر بإضمار الباء أو النصب بحذفها. وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة و ﴿أَنْ عَبَّدْتُ﴾ عطف ببيانها والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة ﴿تَمُنُّهَا﴾ عليّ، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنة كانت منه وحده، والخوف والفرار منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما سمع جواب ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرفع بذلك شرع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عرفه بأظهر خواصه وآثاره لما امتنع تعريف الأفراد إلا بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله:

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياء محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لتركيبها وتعددتها وتغير أحوالها، فلها مبدىء واجب لذاته وذلك المبدىء لا بد وأن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب، أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال ثم ذلك الواجب لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ آلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابه سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعم أنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية، أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن أن يتوهم فيه مثله ويشك في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخر، وسماه رسولاً على السخرية.

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تشاهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع تنظم به أمور الكائنات. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك لاينهم أولاً، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشتهم وعارضهم بمثل مقالهم.

﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ عدولاً إلى التهديد عن المحاجة بعد الانقطاع وهكذا ديدن المعاند المحجوج، واستدل به على ادعائه الألوهية وإنكاره الصانع وأن تعجبه بقوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ من نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله كان دهرياً اعتقد أن من ملك قطراً أو تولى أمره بقوة طالعه استحق العبادة من أهله، واللام في ﴿الْمَسْجُونِينَ﴾ للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك جعل أبلغ من لأسجنتك.

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي أتفعل ذلك ولو جئت بك بشيء يبين صدق دعواي، يعني المعجزة فإنها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته والدلالة على صدق مدعي نبوته، فالواو للحال وليها الهمزة بعد حذف الفعل.



﴿قَالَ فَأَنْتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أن لك بينة أو في دعواك، فإن مدعي النبوة لا بُدَّ له من حجة.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب إذا فجزته فانفجر.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ روي أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال فهل غيرها، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حُورُهُ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال. ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهره سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم واثمارهم وتنفيرهم عن موسى وإظهار الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخر أمرهما. وقيل إحبسهما. ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ شرطاً يحشرون السحرة.

﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ يفضلون عليه في هذا الفن وأمالها ابن عامر وأبو عمرو والكسائي، وقرئ «بكل ساحر».

﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه كقول تأبط شراً:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثٌ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا      أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَخَا عَوْنٍ بِنِ مِخْرَاقٍ  
أي ابعت أحدهما إلينا سريعاً.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا والترجي باعتبار الغلبة المقتضية للاتباع، ومقصودهم الأصل أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَخُنُّ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن غلبوا فإذا على ما يقتضيه من الجواب والجزاء، وقرئ «نعم» بالكسر وهما لغتان.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِجَالَهُمْ وَعَصَاهُهمُ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنَهُمْ (46) قَالُوا ءَأَمَّا رَبُّ الْمَلَكِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48) قَالَ ءَأَمْسَحُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَاكِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلَيْبَتْكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُقْلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51) ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِيَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ (52) فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ

لَشِرْذِمَةً قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (59) فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) ﴿

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي بعدما قالوا له ﴿إِذَا أَنْ تَلْقَى وَإِذَا أَنْ نَكُونَ نحن الملقين﴾، ولم يرد به أمرهم بالسحر والتمويه بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلاً به إلى إظهار الحق.

﴿قَالُوا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةٌ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر.

﴿قَالَ لَقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع، وقرأ حفص ﴿تَلْقَفُ﴾ بالتخفيف. ﴿مَا يَأْكُفُونَ﴾ ما يقبلونه عن وجهه بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيتهم أنها حيات تسعى، أو إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة.

﴿قَالَ لَقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له، وأن التبخر في كل فن نافع. وإنما بدل الخور بالإنشاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بدل من «ألقى» بدل الاشتمال أو حال بإضمار قد.

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه، وأراد به التلبس على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح «آمَنْتُمْ» بهمزتين. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم وقوله: ﴿لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبَتْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيان له.

﴿قَالُوا لَا صَبِيرَ﴾ لا ضرر علينا في ذلك. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ بما نوعدنا به فإن الصبر عليه محاء للذنوب موجب للثواب والقرب من الله تعالى، أو بسبب من أسباب الموت والقتل أنفعها وأرجأها.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا﴾ لأن كنا. ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد والجملة في المعنى تعليل ثان لنفي الضمير، أو تعليل للعلة المتقدمة. وقرئ «إِنْ كُنَّا» على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المدل بأمره نحو إن أحسنت إليك فلا تنس حقني.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وذلك بعد سنين أقامها بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزدوا إلا عتواً وفساداً، وقرأ ابن كثير ونافع «أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي» بكسر النون ووصل الألف من سرى وقرئ «أَنْ سَرِ» من السير. ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده وهو علة الأمر بالإسراء أي أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أخبر بسراهم. ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ العساكر ليتبعوهم.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ على إرادة القول وإنما استقلهم وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً بالإضافة

إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمته سبعمائة ألف والشرذمة الطائفة القليلة، ومنها ثوب شراذم لما بلي وتقطع، و «قليلون» باعتبار أنهم أسباط كل سبط منهم قليل.

«وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ» لفاعلون ما يعيظنا.

«وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ» وإنا لجميع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه، أو اعترز بذلك إلى أهل المدائن كي لا يظن به ما يكسر سلطانه، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان والكوفيون «حاذرون» والأول للثبات والثاني للتجدد، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يفعل حذراً، وقرئ «حادرون» بالدال المهملة أي أقوياء قال:

أَحِبُّ الصَّبِيِّ الشَّوْءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرٌ  
أو تامو السلاح فإن ذلك يوجب حذارة في أجسامهم.

«فَأَخْرَجْنَاهُمْ» بأن خلقنا داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه. «مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ».

«وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» يعني المنازل الحسنة والمجالس البهية.

«كَذَلِكَ» مثل ذلك الإخراج أخرجنا فهو مصدر، أو مثل ذلك المقام الذي كان لهم على أنه صفة مقام، أو الأمر كذلك فيكون خبر المحذوف. «وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ».

«فَاتَّبَعُوهُمْ» وقرئ «فاتبعوهم». «مُشْرِقِينَ» داخلين في وقت شروق الشمس.

«فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) وَاتَّقِ اللَّهَ يَا إِدْرِيسَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوِّهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْهَا عَنْكُمُوهَا (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَأَغْفِرْ لِأَيِّ لَيْتٍ إِنَّكَ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأَرْزُقْنِي الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبَرِّزْتُ الْجَحِيمُ لِلْقَائِمِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ (93) فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْقَائِرُونَ (94)

«فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ» تقارباً بحيث رأى كل واحد منهما الآخر، وقرئ «تراءت الفئتان» «قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ» لملحقون، وقرئ «لمدركون» من أدرك الشيء إذا تابع ففني، أي: لمتتابعون في الهلاك على أيديهم.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم. ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة. ﴿سَيَهْدِين﴾ طريق النجاة منهم، روي أن مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى فقال: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون، فقال: أمرت بالبحر ولعلي أؤمر بما أصنع.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم أو النيل. ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضرِب فانفلق وصار اثني عشر فرقا بينها مسالك. ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب.

﴿وَأَرْزَقْنَاهُ﴾ وقربنا. ﴿ثُمَّ الْآخِرِينَ﴾ فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وآية آية. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي في مصر من القبط، وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَأَنْتَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي العرب. ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحاً به وافتخاراً، و «نظل» ها هنا بمعنى ندوم. وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة. ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه وقرىء ﴿يَسْمَعُونَكُم﴾ أي يسمعونكم الجواب عن دعائكم ومجيئه مضارعاً مع ﴿إِذْ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ﴾ على عبادتكم لها. ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ من أعرض عنها.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضرر أو نفع، والتجأوا إلى التقليد.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصحة ولا يتقلب به الباطل حقاً.

﴿فَأَنذَرْتُهُمْ عَذَابِي﴾ يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفع في التصح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول، أفراد العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبده وكان من آبائهم من عبد الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد كما قال تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدِي﴾ هداية مدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع

المضار، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعيم بلذائدها، والفاء للسببية إن جعل الموصول مبتدأ وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فيكون اختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية وقوله:

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ على الأول مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ عطف على ﴿يطعمني ويسقين﴾ لأنه من روادفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديد النعم، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يحسن به لا ضرر فيه وإنما لضرر في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحق دونها الحياة الدنيوية وخلاص من أنواع المحن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر، والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرة الله العزيز العليم.

﴿وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾ في الآخرة. ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر، وطلب لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفاراً لما عسى ينذر منه من الصغائر، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث: ﴿إني سقيم﴾، ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله «هي أختي»، ضعيف لأنها معاريض وليست خطايا.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ كمالاً في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق. ﴿وَالْحَقُّنِي بِالضَّالِّينَ﴾ ووفني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره.

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما من أمة إلا وهم محبوبون له مثنون عليه، أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ.

﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الورثة فيها.

﴿وَافْغِرْ لِأَبِي﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ طريق الحق وإن كان هذا الدعاء بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمان تقية من نمرود ولذلك وعده به، أو لأنه لم يمنع بعد من الاستغفار للكفار.

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بمعابتي على ما فرطت، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث، أو بتعذبي لخفاء العقابة وجواز التعذيب عقلاً، أو بتعذيب والدي، أو ببعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخزية بمعنى الحياء. ﴿يَوْمَ يُعْتَوْنَ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو لـ ﴿الضالين﴾.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته، أو لا ينفعان إلا مال من هذا شأنه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاء له يوم القيامة. وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنى إلا غناه. وقيل منقطع والمعنى لكن سلامة ﴿من أتى الله بقلب سليم﴾ تنفعه.

﴿وَأَرْلَفْتَ الْحَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجحون بأنهم المحشورون إليها.

﴿وَبُرِّزَتْ الْحَجِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فيرونها مكشوفة ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أين ألهمتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم. ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم. ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وألهمتهم يدخلون النار كما قال: ﴿تَكْبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ أي الآلهة وعبدتهم، والكبكة تكرير الكب لتكرير معناه كأن من ألقى في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (95)

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ متبعوه من عصاة الثقيلين، أو شياطينه. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للـ ﴿جُنُودٍ﴾ إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير و ﴿مَا﴾ عطف عليه وكذا الضمير المنفصل وما يعود إليه في قوله:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ على أن الله ينطق الأصنام فتخاصم العبداء ويؤيده الخطاب في قوله:

﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي في استحقاق للعبادة، ويجوز أن تكون الضمائر للعبد كما في ﴿قَالُوا﴾ والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهم ماكهم في الضلالة متحسرون عليها.

﴿وَمَا أَصْلَنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

﴿وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ﴾ إذ الأجلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعدهم شفعا وأصدقاء، أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق، وجمع الشافع ووحد الـ ﴿صديق﴾ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الـ ﴿صديق﴾ الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الـ ﴿صديق﴾ على الجمع كالعدو لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل.

﴿قَالُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ﴾ تمن للرجعة أقيم فيه «لو» مقام ليت لتلاقيهما في معنى التقدير، أو شرط حذف جوابه. ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب التمني أو عطف على ﴿كَرَّةٌ﴾ أي: لو أن لنا أن نكر فنكون من المؤمنين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم. ﴿لَايَةً﴾ لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبية على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفتهم معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصور الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضا وأيقاظا لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر قومه. ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ به.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام. ﴿الزَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ الـ ﴿قوم﴾ مؤنثة ولذلك تصغر على قومية وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتركوا عبادة غيره.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنصح. ﴿مِنْ أَجْرِ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرهه للتأكيد والتنبيه على دلالة كل واحد من أمانته وحسم طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوههم إليه فكيف إذا اجتماعا، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في ﴿أَجْرِي﴾ في الكلمات الخمس.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الأقلون جاهاً ومالاً جمع الأرذل على الصحة، وقرأ يعقوب «وأتباعك» وهو جمع تابع كشاهد وأشهد أو تبع كبطل وأبطال، وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على الحطام الدنيوية، حتى جعلوا اتباع المقلين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوههم إليه ودليلاً على بطلانه، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك:

﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إنهم عملوه إخلاصاً أو طمعاً في طعمة وما عليّ إلا اعتبار الظاهر.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطلع عليها. ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاه طردهم وتوقيف إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه وقوله:

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجل مبعوث لإنذار المكلفين عن الكفر والمعاصي سواء كانوا أعزاء أو أذلاء فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو ما عليّ إلا إنذاركم إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليّ أن أطردهم لاسترضائكم.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما تقول. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونُ﴾ إظهاراً لما يدعوه عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم عليه.

﴿فَأَفْتَحْ بَيْتِي وَبَيْتَهُمْ فَتْحاً﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفتاحة. ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد إنجائه. ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ شاعت وتواترت. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أنه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم

أبيهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تصدير القصص بها دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه، وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع مبرئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ بكل مكان مرتفع، ومنه ريع الأرض لارتفاعها. ﴿آيَةً﴾ علماً للمارة. ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بينائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام، أو بنياناً يجتمعون إليه للعبث بمن يمر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مأخذ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فتحكمون بنيانها.

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ﴾ بسيف أو سوط. ﴿بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ﴾ متسلطين غاشمين بلا رافة ولا قصد تأديب ونظر

في العاقبة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرره مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالإقطاع، ثم فصل تلك النعم كما فصل بعض مساوئهم المدلول عليها إجمالاً بالإنكار في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مبالغة في الإيقاظ والحث على التقوى فقال.

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم أوعدهم فقال.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الانتقام.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فإننا لا نرعوى عما نحن عليه، وتغيير شق النفي عما تقتضيه المقابلة للمبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي جئنا به إلا كذب الأولين، أو ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحياً ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمة ﴿خلق الأولين﴾ بضمهم أي ما هذا الذي جئت به إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعاداتهم ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم تزل الناس عليها.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾ على ما نحن عليه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب التكذيب بريح صرصر. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَتْرَكُونَ فِيمَا هَآ هَآ آمِنِينَ﴾ إنكار لأن يتركوا كذلك أو تذكير للنعمة في تخليته الله إياهم وأسباب تنعمهم آمنين ثم فسر بقوله:

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.



﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لطيف لين للطف الثمر، أو لأن النخل أنثى وطلع وأناث النخل اللطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنوت، أو متدل منكسر من كثرة الحمل، وإفراد الـ «نخل» لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ بطرين أو حاذقين من الفراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «فرهين» وهو أبلغ من «فارهِين».

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُرْشِقِينَ﴾ استعير الطاعة التي هي انقياد الأمر لامثال الأمر، أو نسب حكم الأمر إلى أمره مجازاً.

﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وصف موضع لإسرافهم ولذلك عطف: ﴿وَلَا يُضْلِحُونَ﴾ على يفسدون دلالة على خلوص فسادهم.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم، أو من ذوي السحر وهي الرثة أي من الاناسي فيكون.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تأكيداً له. ﴿قَالَ بَلَىٰ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (156) فَعَقُّوْهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لَمَعْلَمٌ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَجَنَّبَهُ وَاهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (171) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّجْدِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ (186) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهٗوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَلَئِنَّ لَنُزِيلَنَّ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ (192) نَزْلًا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) ﴾

﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها. ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ نصيب من

الماء كالسقي والقيت للحظ من السقي والقوت وقرىء بالضم. ﴿وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ فاقْتَصَرُوا عَلَى شَرْبِكُمْ وَلَا تَزَاحِمُوهَا فِي شَرْبِهَا.

﴿وَلَا تَمْشَوْهَا بِسُوءٍ﴾ كضرب وعقر. ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عَظُمَ الْيَوْمُ لِعَظَمِ مَا يَحِلُّ فِيهِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ تَعْظِيمِ الْعَذَابِ.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أَسَدَ الْعَقْرِ إِلَى كُلِّهِمْ لِأَن عَاقَرَهَا إِنَّمَا عَقَرَهَا بِرِضَاهُمْ وَلِذَلِكَ أَخَذُوا جَمِيعاً. ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ عَلَى عَقَرِهَا خَوْفاً مِنْ حُلُولِ الْعَذَابِ لَا تَوْبَةَ، أَوْ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْفَعَهُمْ.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَيِ الْعَذَابِ الْمَوْعُودِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فِي نَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْ أَكْثَرِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْرُضِ إِيْمَاءٌ بِأَنَّهُ لَوْ آمَنَ أَكْثَرُهُمْ أَوْ شَطَرُهُمْ لَمَا أَخَذُوا بِالْعَذَابِ، وَإِنْ قَرِيشاً إِنَّمَا عَصَمُوا مِنْ مِثْلِهِ بِبِرْكَهٍ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَتَأْتُونَ مِنَ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ مِنَ بَيْنِ مِنْ عِدَاكُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ الذِّكْرَانَ لَا يَشَارِكُكُمْ فِيهِ غَيْرُكُمْ، أَوْ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَغَلْبَةِ الْإِنَاثِ فِيهِمْ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَحْوَزُوا نَكْمَ، فَالْمُرَادُ بِالْعَالَمِينَ عَلَى الْأَوَّلِ كُلِّ مَنْ يَنْكَحُ وَعَلَى الثَّانِي النَّاسَ.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لِأَجْلِ اسْتِمْتَاعِكُمْ. ﴿رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ لِلْبَيَانِ إِنْ أُرِيدَ بِهِ جِنْسُ الْإِنَاثِ، أَوْ لِلتَّبَعِضِ إِنْ أُرِيدَ بِهِ الْعَضْوُ الْمُبَاحُ مِنْهُنَّ فَيَكُونُ تَعْرِضاً بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ بِنِسَائِهِمْ أَيْضاً. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ مُتَجَاوِزُونَ عَنْ حَدِّ الشَّهْوَةِ حَيْثُ زَادُوا عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِلِ الْحَيَوَانَاتِ، أَوْ مَفْرُطُونَ فِي الْمَعَاصِي وَهَذَا مِنْ جَمَلَةِ ذَاكَ، أَوْ أَحْقَاءُ بِأَن تَوْصَفُوا بِالْعِدْوَانِ لَارْتِكَابِكُمْ هَذِهِ الْجَرِيمَةَ.

﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ﴾ عَمَّا تَدْعِيهِ أَوْ عَنْ نَهْيِنَا وَتَقْبِيحِ أَمْرِنَا. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ مِنَ الْمُنْفِيِّينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرْنَا، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنْ أَخْرَجُوهُ عَلَى عُنْفٍ وَسُوءِ حَالٍ.

﴿قَالَ إِنِّي لَعَلَّكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ مِنَ الْمُبْغِضِينَ غَايَةَ الْبُغْضِ لَا أَقْفَ عَنِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ بِالْإِبْعَادِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ ﴿إِنِّي لَعَلَّكُمْ﴾ قَالَ لِذِلَالَتِهِ عَلَى أَنَّهُ مَعْدُودٌ فِي زِمْرَتِهِمْ مَشْهُورٌ بِأَنَّهُ مِنْ جَمَلَتِهِمْ.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أَيِ مِنْ شَوْمِهِ وَعَذَابِهِ.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أَهْلَ بَيْتِهِ وَالْمَتَّبِعِينَ لَهُ عَلَى دِينِهِ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَدْ حُلِيَ الْعَذَابُ

بِهِمْ.

﴿إِلَّا عَجُوزاً﴾ هِيَ امْرَأَةُ لُوطٍ. ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ مَقْدَرَةٌ فِي الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ إِذْ أَصَابَهَا حَجَرٌ فِي الطَّرِيقِ فَأَهْلَكَهَا لِأَنَّهُ كَانَتْ مَائِلَةً إِلَى الْقَوْمِ رَاضِيَةً بِفَعْلِهِمْ. وَقِيلَ كَأَنَّهُ فِيمَنْ بَقِيَ فِي الْقَرْيَةِ فَإِنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مَعَ لُوطٍ.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وَقِيلَ أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَى شَذَازِ الْقَوْمِ حَجَارَةً فَأَهْلَكَهُمْ. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾

الْلَامُ فِيهِ لِلْجِنْسِ حَتَّى يَصِحَّ وَقُوعُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ فَاعِلٌ سَاءٌ وَالْمَخْصُوصُ بِالذِّمِّ مُحْذُوفٌ وَهُوَ مَطَرُهُمْ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكة غيضة تنبت ناعم الشجر يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة فبعث الله إليهم شعبياً كما بعثه إلى مدين وكان أجنياً منهم فلذلك قال :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب. وقيل الأيكة شجرة ملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «ليكة» بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهي اسم بلدتهم، وإنما كتبت ها هنا وفي صَ غير ألف اتباعاً للفظ.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو وإن كان عربياً فإن كان من القسط ففعلاس بتكرير العين وإلا ففعلال. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف. ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا شيئاً من حقوقهم. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ﴾ وذوي الجبل الأولى يعني من تقدمهم من الخلائق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه. ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قطعة منها، ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد. وقرأ حفص بفتح السين. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبعباده منزل عليكم ما أوجه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت أنهارهم وأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به، وإطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحهم له استهزاء وعدم مبالاة به يدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان ابتلاء لهم لا مؤاخذه على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾. ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ تقرير لحقية تلك القصص وتنبية على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، والقلب إن أراد به الروح فذاك وإن أراد به العضو فتخصيصه، لأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة، و «الروح الأمين» جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمين الله على وحيه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصب «الروح الأمين». ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنْذَرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك.

﴿يَلِسَانَ عَرْفٍ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولِينَ (196) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا بَوَاقِ اسْرِهِ بَلِ

(197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ

الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا

هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَعَدَّابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا مَا مَنَدُوا (208) ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (212) فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ابْتَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَفَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرِنَكَ هِينَ نَقُومُ (218) وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجْدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ (221) نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُونَ (223) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَىٰ مُثْقَلِينَ يَقْلِبُونَ (227) ﴿

﴿يَلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ واضح المعنى لثلاثا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بـ ﴿نزل﴾، ويجوز أن يتعلق بالمندرين أي لتكون ممن أئندروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَأَنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة.

﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ. ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقرير لكونه دليلاً. وقرأ ابن عامر تكن بالتاء و ﴿آيَةٌ﴾ بالرفع على أنها الاسم والخبر ﴿لهم﴾ ﴿وَأَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بدل أو الفاعل و ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بدل ﴿وهم﴾ حال، أو أن الاسم ضمير القصة و ﴿آيَةٌ﴾ خبر ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ والجملة خبر تكن.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو زيادة في إعجازه أو بلغة العجم.

﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم، أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم، و ﴿الأعجمين﴾ جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أدخلناه. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والضمير للكفر المدلول عليه بقوله ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ فتدل الآية على أنه بخلق الله، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وإعجازه ثم لم يؤمنوا به عناداً.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان.

﴿يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يأتيناه.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ تحسراً وتأسفاً.

﴿أَفَعَدَّابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيقولون أمطر علينا حجارة من السماء، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾، وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ﴾ لم يغن عنهم تمتعهم المتطاوّل في دفع العذاب وتخفيفه.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة .

﴿ذِكْرِي﴾ تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها في معنى الإنذار، أو الرفع على أنها صفة منندرون ﴿ياضمار ذوو، أو بجعلهم ذكرى لامعانهم في التذكرة، أو خبر محذوف والجملة اعتراضية .  
﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فتهلك غير الظالمين، أو قبل الإنذار .

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة .

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وما يصح لهم أن يتزلوا به . ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدرون .

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة . ﴿لَمَعَزُولُونَ﴾ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة .

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ تهيج لإزدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين .

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم . روي أنه لما نزلت صعد النبي ﷺ الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: «لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي» قالوا نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» .

﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لين جانبك لهم مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط، و ﴿من﴾ للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره، أو للتبعض على أن المراد ﴿من المؤمنين﴾ المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان .

﴿إِنَّا نَعَصُوكَ﴾ ولم يتبعوك . ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم . وقرأ نافع وابن عامر «فتوكل» على الإبدال من جواب الشرط .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد .

﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ وترددك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن . أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والعود إذا أممتهم، وإنما وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه .

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما نقوله . ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه .

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ لما بين أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمداً ﷺ لا يصح أن يتزلوا عليه من وجهين: أحدهما أنه إنما يكون على شرير كذاب كثير الإثم، فإن اتصال الإنسان بالغايبات لما بينهما من التناسب والتواد وحال محمد ﷺ على خلاف ذلك . وثانيهما قوله:

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات لنقصان علمهم، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء في الحديث

«الكلمة يخطفها الجني فيقرأها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» ولا كذلك محمد ﷺ فإنه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصي وقد طابق كلها، وقد فسر الأكثر بالكل لقوله تعالى: ﴿كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ﴾. والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملائكة الأعلى قبل أن يرموا فيختطفون منهم بعض المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم أو يلقون مسموعهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك، وهو استئناف أبطل كونه عليه الصلاة والسلام شاعراً وقرره بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها، وأغلب كلماتهم في النسب بالحرم والغزل والابتهاج وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والوعد الكاذب والإفخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه، وإليه أشار بقوله:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلم في القسمين وبين منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول ﷺ لحال أربابهما. وقرأ نافع ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ على التخفيف، وقرئ بالشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثر ذكر الله ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجوا أرادوا به الانتصار ممن هجاهم ومكافحة هجة المسلمين كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبين، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان «قل وروح القدس معك». وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له «اهجوا فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل» ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم، وفي أي منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهد إليه، وقرئ «أي منقلب ينقلبون» من الانفلات وهو النجاة والمعنى: أن الظالمين يطمعون أن ينقلبوا من عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وبعده من كذب يعسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام».

## سورة النمل

[مكية وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ قَبْسٍ لَكُمْ تَصْطَلُونَهُ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَمْسُحُهُمْ إِنَّمَا أَنَا اللَّهُ الْمَرِيضُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَهُ يَعْجَبُ يَمْسُحُ إِلَى لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ (10)﴾

﴿طَسَّ﴾. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى آي السورة، والكتاب المبين إما اللوح المحفوظ وإبائه أنه خط فيه ما هو كائن فهو بينه للناظرين فيه، وتأخيره باعتباره تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر باعتبار الوجود، أو القرآن وإبائه لما أودع فيه من الحكم والأحكام، أو لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى وتنكيهه للتعظيم. وقرىء ﴿وَكِتَابٍ﴾ بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الـ ﴿آيَاتٍ﴾ والعامل فيهما معنى الإشارة، أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحدوف.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الذين يعملون الصالحات من الصلاة والزكاة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تنمة الصلة والواو للحال أو للعطف، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه، أو جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والثوق على المحاسبة وتكرير الضمير للاختصاص.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ زين لهم أعمالهم القبيحة بأن جعلها مشتبهة للطبع محبوبة للنفس، أو الأعمال الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المثوبات عليها. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها لا يدركون ما يتبعها من ضر أو نفع.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أشد الناس خسراناً لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ لتؤتاه. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي حكيم وأي عليم، والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هو

حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر قصته ﴿إِذْ قَالَ﴾ ويجوز أن يتعلق بـ ﴿عليم﴾. ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله، وجمع الضمير إن صح أنه لم يكن معه غير امرأته لما كنى عنها بالأهل، والسين للدلالة على بُعد المسافة والوعد بالإتيان وإن أبطأ. ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ شعلة نار مقبوسة، وإضافة الشهاب إليه لأنه قد يكون قبساً وغير قبس، ونونه الكوفيون ويعقوب على أن الـ ﴿قبس﴾ بذل منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في «طه»، والترديد للدلالة على أنه إن لم يظفر بهما لم يعدم، أحدهما بناء على ظاهر الأمر أو ثقة بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها والصلاة النار العظيمة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ أي ﴿بورك﴾ فإن النداء فيه معنى القول، أو بـ ﴿أن بورك﴾ على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة، والتخفيف وإن اقتضى التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة. ﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ﴿من﴾ في مكان ﴿النار﴾ وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة﴾ ومن حول مكانها والظاهر أنه عام في كل من تلك الأرض، وفي ذلك الوادي وحولها من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى. وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم تنتشر بركته في أقطار الشام. ﴿وَشُبَّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تمام ما نودي به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجب من عظمة ذلك الأمر، أو تعجب من موسى لما دهاه من عظمت.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ الهاء للشأن و﴿أنا الله﴾ جملة مفسرة له، أو للمتكلم و﴿أنا﴾ خبره و﴿الله﴾ بيان له. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان لله مبهتان لما أراد أن يظهره، يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ﴾ عطف على ﴿بورك﴾ أي نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك، ويدل عليه قوله ﴿وَأَنْ أَلْقَ عَصَاكَ﴾ بعد قوله ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ بتكرير أن. ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب. ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ حية خفيفة سريعة، وقرئ «جان» على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين. ﴿وَلَيْ مُدْبِرَ وَلَمْ يَعْقِبْ﴾ ولم يرجع من عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار، وإنما رعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به ويدل عليه قوله: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقاً لقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين يوحى إليهم من فرط الاستغراق فإنهم أخوف الناس أي من الله تعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة فيخافون منه.

﴿لَا مِنْ ظَلَمٍ إِلَيْكَ بَلْ حَسْبُكَ سَوْءُ مَا فِي غُورِ رَجِيمٍ﴾ (11) وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَبِّكَ فَخَرَجَ بِضَبَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ فِي رَسْمٍ أَيْدِي إِلَى رِعْوَيْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَنِيْقَيْنَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ أَيْسَنَّا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِيتٌ (13) وَحَدَّوْا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰ آتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مَنِطَىٰ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ



إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّرَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي رَحِمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْدَ هَذَا أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ (20) ﴿

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استثناء منقطع استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فرطت منه صغيرة فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فعلها ما يطلها ويستحقون به من الله مغفرة ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً، وقصد تعريض موسى بوكزه القبطي. وقيل متصل وثم بدل مستأنف معطوف على محذوف أي عن ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنه كان بمدركة صوف لا كم لها. وقيل الجيب القميص لأنه يجاب أي يقطع. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ آفة كبرص. ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ في جملتها أو معها على أن التسع هي، الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجذب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الأخيرين واحداً ولا يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون. أو اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلًا. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ بأن جاءهم موسى بها. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة اسم فاعل أطلق للمفعول، وإشعاراً بأنها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر، أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي والعمي لا تهدي فضلاً عن أن تهدي، أو مبصرة كل من نظر إليها وتأمل فيها. وقرئ ﴿مبصرة﴾ أي مكاناً يكثركم فيه التبصر. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح سحريته.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وكذبوا بها. ﴿وَأَسْتَبَقْتَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وقد استبقته لأن الواو للحال. ﴿ظُلُمًا﴾ لأنفسهم. ﴿وَعُلُوا﴾ ترفعاً عن الإيمان وانتصابهما. على العلة من ﴿جحداً﴾. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم وهو علم الحكم والشرائع، أو علماً أي علم. ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة كأنه قال: ففعلاً شكراً له ما فعلاً ﴿وقالا الحمد لله﴾. ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من لم يؤت علماً أو مثل علمهما، وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبروا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما، وتحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ النبوة أو العلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنييه وكانوا تسعة عشر. ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْ مَنَاقِبِ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنويعاً بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظام ما أوتيته، والنطق والمنطق في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوت به على التشبيه، أو التابع كقولهم نطق الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات منزلة منزلة العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه،

ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية التخيل الذي صوته والغرض الذي توخاه به. ومن ذلك ما حكى أنه مر بببليل يصوت ويترقص فقال: يقول إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاحت الفاخنة فقال: إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا، فلعله كان صوت الببليل عن شبع وفراغ بال وصياح الفاخنة عن مقاساة شدة وتآلم قلب، والضمير في ﴿عَلِمْنَا﴾ و﴿أَوْتِينَا﴾ له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة، والمراد ﴿من كل شيء﴾ كثرة ما أوتي كقولك: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الذي لا يخفى على أحد.

﴿وَحُشِرَ﴾ وجمع. ﴿لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبسون يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ﴾ واد بالشام كثير النمل، وتعدية الفعل إليه بـ ﴿على﴾ إما لأن إتيانهم كان من عال أو لأن المراد قطعة من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا أخريات الوادي. ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حطهم فتيبها غيرها فصاحت صبيحة نهبت بها ما بحضرتها من النمل فتيبعتها، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقل والنطق. ﴿لَا يَخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ نهي لهم عن الحطم، والمراد نهياها عن التوقف بحيث يحطمونها كقولهم: لا أرينك ها هنا، فهو استئناف أو بدل من الأمر لا جواب له فإن النون لا تدخله في السعة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنهم يحطمونكم إذ لو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقبل استئناف أي فهم سليمان والقوم لا يشعرون.

﴿فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها، وسروراً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضها ولذلك سأل توفيق شكره. ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أي اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، أي أكنه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقرأ البزي وورش بفتح ياء ﴿أَوْزِعْنِي﴾. ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أدرج فيه ذكر والديه تكثريراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمة عليه والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيما الدينية. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ إتماماً للشكر واستدامة للنعمة. ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ في عدادهم الجنة.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتعرف الطير فلم يجد فيها الهدد. ﴿فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لساتر أو غيره فقال: ما لي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (21) فمَكَتَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ، وَحِثَّتْكَ مِنْ سَيِّئٍ بَنِيَّ يَقِينُ (22) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّحَابِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿26﴾

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه وإلقائه في الشمس، أو حيث النمل يأكله أو جعله مع ضده في قفص. ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تبين عذره، والحلف في

الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الأمور الثلاثة ثلث المحلوف عليه بعطفه عليهما، وقرأ ابن كثير أو «لأيتني» بنونين الأولى مفتوحة مشددة.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه، وقرأ عاصم بفتح الكاف. ﴿فَقَالَ أَحَاطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ يعني حال سبأ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحيط به لتحقاق إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه، وقرئ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق. ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غير مصروف على تأويل القبيلة والبلدة والقواس بهمة ساكنة. ﴿بَنِي يَمِينٍ﴾ بخر متحقق روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهيرة فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء - وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء - فتفقده لذلك فلم يجده إذ خلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له، ثم رجع بعد العصر وحكي ما حكي، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها.

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، والضمير لسبأ أو لأهلها. ﴿وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عظمه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضاً وسمكاً، أو ثمانين في ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر.

﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها. ﴿وَوَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ عبادة الشمس وغيرها من مقايح أعمالهم. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق والصواب. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فصدهم لثلاث يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من ﴿أعمالهم﴾، أو ﴿لا يهتدون﴾ إلى أن يسجدوا بزيادة ﴿لا﴾. وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿إلا﴾ بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف أي: ألا يا قوم اسجدوا كقوله:

وَقَالَتْ أَلَا يَا اسْمَعُ أَعْظَمَ بِخَطَّةٍ فَقُلْتُ سَمِعْتُ فَأَنْطِقِي وَأَصِصِي

وعلى هذا صح أن يكون استئنافاً من الله أو من سليمان والوقف على ﴿لا يهتدون﴾، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذماً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوب السجود في الجملة لا عند قراءتها، وقرئ «هلا» و «هلا» بقلب الهمزة هاء و «ألا تسجدون» و «هلا تسجدون» على الخطاب. ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وصف له تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم حثاً على سجوده ورداً على من يسجد لغيره، و «الخبء» ما خفي في غيره وإخراجه إظهاره، وهو يعم إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل والإبداع، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته. وقرأ حفص والكسائي ﴿ما تخفون وما تعلنون﴾ بالتاء.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها فبين العظيمين بن.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (27) أَذْهَبَ بِكَتَلْبِي هَكَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّ إِلَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ كَرِيمٌ (29) إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)

أَلَا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرَ حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُولَئِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ مُسْلِمٌ مِّنْ قَوْمِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ بِهَدِيَّتِهِمْ يَخْرُجُ فِي أَصْحَابِهِمْ يَسْأَلُهُمْ إِنَّ هَٰذَا خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) أَنْجِعِ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخَبَرٍ لَّا يَكِيدُ لَهُمْ فِيهَا وَلَا نَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أُولَئِكَ هُمْ صَوِّرُونَ (37) ﴿﴾

﴿قَالَ سَتَنْظُرُ﴾ سنعرف من النظر بمعنى التأمل. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي أم كذبت والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل.

﴿اذْهَبْ بِكَتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه. ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما ألقى إليها. ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مرسله، أو لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ استئناف كأنه قيل لها ممن هو وما هو فقالت إنه، أي إن الكتاب أو العنوان من سليمان ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي وإن المكتوب أو المضمون. وقرئ بالفتح على الإبدال من ﴿كتاب﴾ أو التعليل لكرمه. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ أن مفسرة أو مصدرية فتكون بصلتها خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلموا أو بدل من ﴿كتاب﴾. ﴿وَآتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو متقادين، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لاشتماله على البسمة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهاة الفضائل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أجيوني في أمري الفتى واذكروا ما تستصوبون فيه. ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ ما أبت أمراً. ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونَ﴾ إلا بمحضركم استعطفتم بذلك ليمالئوها على الإجابة.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً﴾ بالأجساد والعدد. ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نجدة وشجاعة. ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ مؤن: قول. ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة أو الصلح نطعك ونتبع رأيك.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة. ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ تزييف لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وأشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم، ثم أن الحرب سجال لا تدري عاقبتها. ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُولَئِكَ﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر. ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقدير بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة، أو تصديق لها من الله عز وجل.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما ترى تقديمه في المصالحة، والمعنى إني مرسلة رسلاً بهدية أذفعه بها عن ملكي. ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك. روي أنها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زي الجوارى وجواري على زي الغلمان، وحققاً فيه درة عذراء

وجزعة معوجة الثقب وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقباً مستوياً وسلك في الخرزة خطأ، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمة شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريل بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ﴾ أي الرسول أو ما أهدت إليه وقرىء «فلما جاؤا». ﴿قَالَ أَمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ خطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب. وقرأ حمزة ويعقوب بالإدغام وقرىء بنون واحدة وبنونين وحذف الياء. ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ﴾ من النبوة والملك الذي لا مزيد عليه، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها وإيماالتها. الكسائي وحده. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا تفرحون بما يهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم، أو بما تهodonه افتخاراً على أمثالكم، والإضراب عن إنكار الإمداد بالمال عليه وتقليله إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهمة بالدنيا والزيادة فيها.

﴿ارْجِعْ﴾ أيها الرسول. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُنُودٍ لَا يَفْلَحُ لَهَا﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء «بهم». ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ من سبأ. ﴿أَذَلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أسراء مهانون.

﴿قَالَ يَتَابِعُهَا الْمَلَأُ أَتَيْتَنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِي رَبِّي يُسَلِّوْنَ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ (40) قَالَ تَزَكُّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْدُونَ أَمْ تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَتَيْتَنِي بِعَرْشِهَا﴾ أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالة على عظم القدرة وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره؟. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ خبيث مارد. ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ بيان له لأنه يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر أقرانه، وكان اسمه ذكوان أو صخرأ. ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ على حمله. ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لا أحتزل منه شيئاً ولا أبذله.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ آصف بن برخيا وزيره، أو الخضر أو جبريل عليهما السلام أو ملك أيده الله به، أو سليمان عليه السلام نفسه فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للعفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو

أراد إظهار معجزة في نقله فتحدهم أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم، والمراد بـ ﴿الكتاب﴾ جنس الكتب المنزلة أو اللوح، و ﴿أتيك﴾ في الموضعين صالح للفعلية والاسمية، «والطرف» تحريك الأجفان للنظر فوضع موضعه ولما كان الناظر يوصف بإرسال الطرف كما في قوله:

وَكُنْتُ إِذَا أَرْسَلْتُ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أُتَعِبْتُكَ الْمَنَاطِرُ

وصف برد الطرف والطرف بالارتداد، والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها بين يديك، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه. ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ﴾ أي العرش ﴿مُسْتَقِراً عِنْدَهُ﴾ حاصلًا بين يديه. ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ تفضل به عليّ من غير استحقاق، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش في مدة إرتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره، والكلام في إمكان مثله قد مر في آية «الإسراء». ﴿لِيَبْلُغُنِي أَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه. ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي في البين، أو أقصر في أداء مواجهه ومحلهما النصب على البذل من الياء. ﴿وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه به يستجلب لها دوام النعمة ومزيدها ويحط عنها عبء الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره. ﴿كَرِيمٌ﴾ بالأنعام عليه ثانياً.

﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكله. ﴿نَنْظُرُ﴾ جواب الأمر، وقرئ بالرفع على الاستثناف. ﴿أَنْهَتْنِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته أو الجواب الصواب، وقيل إلى الإيمان بالله ورسوله إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليها الحراس.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ تشبيهاً عليها زيادة في امتحان عقلها إذ ذكرت عنده بسخافة العقل. ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو الاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها. ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تمتة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوتك قبل هذه الحالة، أو المعجزة مما تقدم من الآيات. وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه وعطفوه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله ورسوله حيث جوّزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً، وإحضار ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أي وأوتينا العلم بالله وقدرته وصحة ما جاء به عنده قبلها وكنا منقادين لحكمه ولم نزل على دينه، ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكر الله تعالى.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام، أو وصدها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وقرئ بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول، أي صدها نشوها بين أظهر الكفار أو التعليل له.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصر وقيل عرضة الدار. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ روي أنه أمر قبل قدومها ببناء قصر صحنه من الزجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقها. وقرأ ابن كثير برواية قبل «ساقها» بالهمز حملاً على جمعه سؤوق وأسوق. ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن ما تظنيته ماء. ﴿صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ ملمس. ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمس، وقيل بظني بسليمان فإنها حسبت أنه يغرقها في

اللجة. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيما أمر به عباده وقد اختلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي تبع ملك همدان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئْرَانٍ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا أَطِيعُوا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَبَلَكَ يَبُوتُهَا حَارِيَةً يَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53) وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ وَأَنْتُمْ مُبْصِرُونَ (54) أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ (55) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ بِطَهْرِهِمْ (56) فَأَخْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنْ الْغَيْبِ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا نَفْثًا مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَالَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن عبدوا الله، وقرىء بضم النون على اتباعها الباء. ﴿فَإِذَا هُمْ فِئْرَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ فجاجثوا التفرق والاختصاص فأمن فريق وكفر فريق، والواو لمجموع الفريقين.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة فتقولون اثنتا بما تعدنا. ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إن صدق إيعاده تبنا حينئذ. ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ قبل نزوله. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها فإنها لا تقبل حينئذ.

﴿قَالُوا أَطِيعُوا بَكَ وَيَمْنُ مَعَكَ﴾ إذ تابعت علينا الشدائد، أو وقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم. ﴿قَالَ طَائِفٌ مِنْهُمْ﴾ سببكم الذي جاء منه شركم. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة أنفس، وإنما وقع تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى، والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح.

﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض. ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمر مقول أو خبر وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرىء بالياء على أن تقاسموا خبر. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ فيه القراءات الثلاث. ﴿لَوَلِيَّهِ﴾ لولي دمه. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ فضلاً أن تولينا إهلاكهم، وهو يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا ﴿مَهْلِكَ﴾ في قراءة حفص فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ونحلف إننا لصادقون، أو والحال ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما ذكرنا لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً، أو لأننا ما شهدنا مهلكهم

وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثمة رجلاً بل رجلين.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ بهذه المواضع. ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث ففرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله:

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ و ﴿كَانَ﴾ إن جعلت ناقصة فخيرها ﴿كَيْفَ﴾ و ﴿أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ استئناف أو خبر محذوف لا خبر ﴿كَانَ﴾ لعدم العائد، وإن جعلتها تامة فـ ﴿كَيْفَ﴾ حال. وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿أَنَا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بالفتح على أنه خبر محذوف أو بدل من اسم ﴿كَانَ﴾ أو خبر له و ﴿كَيْفَ﴾ حال.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ خالية من خوى البطن إذا خلا، أو ساقطة منهزمة من خوى النجم إذا سقط، وهي حال عمل فيها معنى الإشارة. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتعظون.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صالحاً ومن معه. ﴿وَكُنَّا نَسْتَفْتُونَ﴾ الكفر والمعاصي فلذلك خصوا بالنجاة.

﴿وَلَوْطًا﴾ واذكر لوطاً، أو وأرسلنا لوطاً لدلالة ولقد أرسلنا عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدل على الأول وظرف على الثاني. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فحشها من بصر القلب واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، أو يبصرها بعضهم من بعض لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحش.

﴿أَتَيْنُكُمْ لَنَأْتِيَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لإقضاء الوطر. ﴿مِنْ دُونِ السَّاءِ﴾ اللاتي خلغن لذلك. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فعل من يجهل قبحها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبة والتاء فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْظُرُونَ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا، أو عن الأقدار ويعدون فعلنا قدراً.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قدرنا كونها من الباقيين في العذاب.

﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مر مثله.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أمر رسوله ﷺ - بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظم شأنه وما خص به رسله من الآيات الكبرى والانتصار من العدا - بتحميده والسلام على المصطفين من عباده شكراً على ما أنعم عليهم، أو علمه ما جهل من أحوالهم وعرفاناً لفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين، أو لوطاً بأن يحمده على هلاك كفره وقومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك. ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلزام لهم ونهكهم بهم وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء.

﴿أَمِنْ﴾ بل آمن. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع. وقرأ آمن بالتخفيف على أنه بدل من الله. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ لأجلكم. ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ عدل



به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والتنبيه على أن إنبات الحقائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما أشار إليه بقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ شجر الحقائق وهي البساتين من أحداق وهو الإحاطة. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ أغيره يقرن به ويجعل له شريكاً، وهو المنفرد بالخلق والتكوين. وقرئ «ألهياً» بإضمار فعل مثل أتدعون أو أتشركون وتبسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد.

﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (61) ﴿أَمْ يُحِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ (62) ﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (63) ﴿أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (64) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (65) ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (66) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاءُنَا أَيْدًا لَمْ نُحْيَوْكُمْ﴾ (67) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (68) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (69) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (70) ﴿

﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدل من ﴿أمن خلق السموات﴾ وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها. ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾ وسطها. ﴿أنهارة﴾ جارية. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا﴾ جبالاً تتكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح، أو خليجي فارس والروم. ﴿حاجزاً﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة «الفرقان». ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيشركون به.

﴿أَمْ يُحِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطراب، وهو إفتعال من الضرورة واللام فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر. ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوءه. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ خلفاء فيها بأن ورثكم سكنهاا والتصرف فيها ممن قبلكم. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامة والخاصة. ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ أي تذكرون آلاؤه تذكراً قليلاً، وما مزيدة والمراد بالقلّة العدم أو الحقارة المزيحة للفائدة. وقرأ أبو عمرو وهشام وروح بالياء وحزمة والكسائي وحفص بالتاء وتخفيف الذال.

﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض، والـ ﴿ظلمات﴾ ظلمات الليالي وإضافتها إلى ﴿البر والبحر﴾ للملاسة، أو مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتي لا منار بها. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المطر، ولو صح أن السبب الأكثر في تكون الرياح معاودة الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لإنكسار حرها وتمويجها الهواء فلا شك أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك من خلق الله تعالى، والفاعل للسبب فاعل السبب. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ يقدر على مثل ذلك. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

﴿أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والكفرة وإن أنكروا إعادة فهم محجوجون بالدالة عليها. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ يفعل ذلك. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾

على أن غيره يقدر على شيء من ذلك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لما بين اختصاصه تعالى بالقدرة التامة الفائقة العامة أتبعه ما هو كاللازم له، وهو التفرد بعلم الغيب والاستثناء منقطع، ورفع المستثنى على اللغة التيمية للدلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها من يعلم الغيب مبالغة في نفيه عنهم، أو متصل على أن المراد ممن في السموات والأرض من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها، فإنه يعم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصول أو موصوف. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَىٰ تُبْعَثُونَ﴾ متى ينشرون مركبة من «أي» «وأن»، وقرئت بكسر الهمزة الضمير لمن وقيل للكفرة.

﴿بَلْ أَذَارُكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك ينفي شعورهم بما هو مآلهم لا محالة بالغة فيه، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والآيات وهو أن القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً. ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم، وهذا وإن اختص بالمشركين ممن في السموات والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل، والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم، وقيل الأول إضراب عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التي عندها تعدد. وقرأ نافع وابن عامر وحزمة والكسائي وحفص ﴿بَلْ إِدْرَاكَ﴾ بمعنى تتابع حتى استحكم، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، وأبو بكر «أدرك» وأصلهما تفاعل وافتعل. وقرئ «أدرك» بهمزة تنوين «وَأَدْرَكَ» بألف بينهما و«بَلْ أدرك» و«بَلْ تدارك» و«بَلْ أدرك» و«بلى أدرك» و«أم إدراك» أو «تدارك»، وما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فإنكار وما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على التهكم، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها ﴿بَلْ﴾ إنهم «منها عمون» أورد وإنكار لشعورهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ كالبيان لعلمهم والعامل في إذا ما دل عليه «أئنا لمخرجون»، وهو نخرج لا مخرجون لأن كلاً من الهمزة وإن واللام مانعة من عمله فيما قبلها، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة، وقرأ نافع «إذا كنا» بهمزة واحدة مكسورة، وقرأ ابن عامر والكسائي «إئنا لمخرجون» بنونين على الخبر.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل وعد محمد ﷺ، وتقديم هذا على نحن لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث آخر فالمقصود به المبعوث. ﴿إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ التي هي كالأسمار.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم، والتعبير عنهم بـ «المجرمين» ليكون لطفًا بالمؤمنين في ترك الجرائم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم. ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان، وقرئ ضيق أي أمر ضيق. ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكروهم فإن الله يعصمك من الناس.

﴿وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (71) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ

(72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ (81) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَخْشُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَخِيطُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسِيتَانٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ الَّذِي مَوْعَدٌ. إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ تبعكم ولحقكم، واللام مزيدة للتأكيد أو الفعل مضمن معنى فعل بتعدي باللام مثل دنا. وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله تعالى ووعيده.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي، والفضل والفاضلة الأفضال وجميعها فضول وفواضل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كنت أي سترت. ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خافية فيهما، وهما من الصفات الغالبة والتاء فيهما للمبالغة كما في الراوية، أو اسمان لما يغيب ويخفى كالتاء في عافية وعاقبة. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بين أو «مبين» ما فيه لما يطالعه، والمراد اللوح أو القضاء على الاستعارة.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح.

﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم المتفجعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بين بني إسرائيل. ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بما يحكم به وهو الحق، بحكمته ويدل عليه أنه قرئ بحكمه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضى فيه، وحكمه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تبال بمعاداتهم. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طعمه عن مشايعتهم ومعاذتهم رأساً، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم في قوله: ﴿وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد. وقرأ ابن كثير ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر. وقرأ حمزة وحده «وما أنت تهدي العمى». ﴿إِنْ تَسْمَعْ﴾ أي ما يجدي إسماعك. ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ من هو في علم الله كذلك. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون من أسلم وجهه لله.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دنا وقوع معناه وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب. ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ وهي الجساسة روي أن طولها ستون ذراعاً ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب. وروي أنه عليه الصلاة والسلام سئل من أين مخرجها فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله، يعني المسجد الحرام. ﴿تُكَلِّمُهُمُ﴾ من الكلام، وقيل من الكلم إذ قرئ ﴿تُكَلِّمُهُمُ﴾. وروي أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام، فتنتك بالعصا في مسجد المؤمن نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتة سوداء فيسود وجهه. ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ خروجها وسائر أحوالها فإنها من آيات الله تعالى. وقيل القرآن، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح. ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يتيقنون، وهو حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها، أو تكلمها على حذف الجار.

﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْجاً﴾ يعني يوم القيامة. ﴿وَمَنْ يُكَذِّبْ بِآيَاتِنَا﴾ بيان للفوج أي فوجاً مكذبين، و ﴿مَنْ﴾ الأولى للتبعيض لأن أمة كل نبي وأهل كل قرن شامل للمصدقين والمكذبين. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارة عن كثرة عددهم وتباعدهم أطرافهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى المحشر. ﴿قَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ الواو للحال أي أكذبتهم بها بادية الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحقيقها. ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو للتبكي إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدر أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حل بهم العذاب الموعود وهو كبهم في النار بعد ذلك. ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله. ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ليتحقق لهم التوحيد ويرشداهم إلى تجويز الحشر وبعثة الرسل، لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار ليصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يخل بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم. ﴿أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بالنوم والقرار. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ فإن أصله ليصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجمعول عليها بحيث لا ينفك عنها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدلالاتها على الأمور الثلاثة.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ (87) وَرَبِّ الْجِبَالِ فَخَسِبًا جَالِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (88) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ عَامِلُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَتَّبَعَهُ رَيْبَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَكُمُ كُلُّ شَيْءٍ وَامْرَأَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)﴾

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ في الصور أو القرن، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق. ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الهول وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يفزع بأن يثبت قلبه. قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل. وقيل الحور والخزانة وحملة العرش، وقيل الشهداء، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صقق مرة ولعل المراد ما يعم ذلك. ﴿وَكُلُّ أُنُوتَهُ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره وقرأ حمزة وحفص ﴿أُنُوتَهُ﴾ على الفعل، وقرئ «أناه» على التوحيد للفظ الكل. ﴿ذَاخِرِينَ﴾ صاغرين وقرئ «دخرين».

﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتة في مكانها. ﴿وَهِيَ تَمُوتُ مَرَّةً السَّحَابِ﴾ في السرعة، وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها. ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمة كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾. ﴿الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي. ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازيكم عليها كما قال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ إذ ثبت له الشريف بالخسيس والباقي بالفاني وسبعمائة بواحدة، وقيل «خير منها» أي خير حاصل من جهتها وهو الجنة، وقرأ ابن كثير وأبو عمر وهشام «خير بما يفعلون» بالياء والباقون بالناء. ﴿وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ يعني به خوف عذاب يوم القيامة، وبالأول ما يلحق الإنسان من التهيب لما يرى من الأهوال والعظائم لذلك يعم الكافر والمؤمن، وقرأ الكوفيون بالتونين لأن المراد فرع واحد من أفراع ذلك اليوم، وآمن يتعدى بالجار وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾. وقرأ الكوفيون ونافع «يومئذ» بفتح الميم والباقون بكسرها.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قيل بالشرك. ﴿فَكَبُتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فكبوا فيها على وجوههم، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفات أو بإضمار القول أي قيل لهم ذلك.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم ذلك بعدما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت وما عليه بعد إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه، وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها وقرئ «التي حرّمها». ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام.

﴿وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ﴾ وأن أواظب على تلاوته لتكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو اتباعه وقرئ «واتل عليهم» «وأن أتل». ﴿فَمَنْ اهْتَدَى﴾ باتباعه إياي في ذلك، ﴿فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فإن منافعه عائدة إليه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بمخالفتي. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فلا علي من وبال ضلاله شيء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علمني ووفقني للعمل به. ﴿سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ القاهرة في الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الأرض، أو في الآخرة. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فتعرفون أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالياء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة طس كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهوداً وصالحاً وإبراهيم وشعبياً، ويخرج من قبره وهو يتنادي لا إله إلا الله».

## سورة القصص

[مكية وقيل إلا قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب إلى قوله لا نتغي الجاهلين وهي ثمان وثمانون آية]

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسّم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ فَاكْتَبِيهِ فِي آلِ يَسْرَ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) ﴾

﴿ طسم ﴾ . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ . ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾ نقرؤه بقراءة جبريل ، ويجوز أن يكون بمعنى أنزله مجازاً . ﴿ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ بعض نبئهما مفعول ﴿ نتلو ﴾ . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ محقين . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المتفعول به .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ استئناف «مبين» لذلك البعض ، والأرض أرض مصر . ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فرقاً يشيعونه فيما يريد ، أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه استعمال كل صنف في عمل ، أو أحزاباً بأن أغرى بينهم العداوة كي لا يتفقوا عليه . ﴿ يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، والجملة حال من فاعل ﴿ جعل ﴾ أو صفة لـ ﴿ شيعاً ﴾ أو استئناف ، وقوله : ﴿ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ بدل منها ، كان ذلك لأن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده ، وذلك كان من غاية حمقه فإنه لو صدق لم يندفع بالقتل وإن كذب فما وجهه . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فلذلك اجتراً على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد .

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أن نتفضل عليهم بإنقاذهم من بأسه ، ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حكاية حال ماضية معطوفة على ﴿ أَنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من حيث إنهما واقعان تفسير للـ ﴿ نَبَأُ ﴾ ، أو حال من ﴿ يستضعف ﴾ ولا يلزم من مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له ، لجواز أن يكون تعلق الإرادة به حينئذ تعلقاً استقبالياً مع أن منة الله بخلاصهم لما كانت قريبة الوقوع منه جاز أن تجري مجرى المقارن . ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ مقدمين في أمر الدين . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه .

﴿ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر والشام ، وأصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعير للتسليط . وإطلاق الأمن . ﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ﴾ من بني إسرائيل . ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

يَحْذَرُونَ» من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم. وقرأ حمزة والكسائي «ويري» بالياء و «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا» بالرفع.

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ بِإِلْهَامٍ أَوْ رُؤْيَا. «أَنْ أَرْضِعِيهِ» ما أمكنك إخفاؤه. «فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ» بأن يحبس به. «فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ» في البحر يريد النيل. «وَلَا تَخَافِي» عليه ضيعة ولا شدة. «وَلَا تَحْزَنِي» لفراقه. «إِنَّا رَاٰدُوهُ إِلَيْكَ» عن قريب بحيث تأمنين عليه. «وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» روي أنها لما ضر بها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بني إسرائيل فعالجتها، فلما وقع موسى على الأرض هالها نور بين عينيه وارتعشت مفاصلها ودخل حبه في قلبها بحيث منعها من السعاية، فأرضعته ثلاثة أشهر ثم ألح فرعون في طلب المواليد واجتهد العيون في تفحصها فأخذت له تابوتا فقدفته في النيل.

«فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» تعليل لالتقاطهم إياه بما هو عاقبته ومؤداه تشبيهاً له بالغرض الحامل عليه. وقرأ حمزة والكسائي «وحزناً». «إِنْ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ» في كل شيء فليس يبدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون، أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم على أيديهم، فالجملة اعتراض لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به، وقرئ «خاطين» تخفيف «خاطئين» أو «خاطين» الصواب إلى الخطأ.

«وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (10) وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ قُصَيْبَةَ بَصُرْتُ بِهِ عَنِ حُجُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (11) «وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ» (12) «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَيْ تَنْقَرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَلْمِزَ آلُكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (13) «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (14) «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْصَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» (15) «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (16) «قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْتَ عَلَىٰ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ» (17) «فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُبِينٌ» (18) «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبْنِي بُعْدًا لَكَ قَاتِلًا كَمَا قَاتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ» (19) «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْاِمْلَأُ يَا تَمْرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِيَّيْكَ مِنَ النَّصِيحِينَ» (20)

«وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ» أي لفرعون حين أخرجه من التابوت. «قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِ» هو قرعة عين لنا لأنهما لما رآياه أخرج من التابوت أحباه، أو لأنه كانت له ابنة برصاء وعالجها الأطباء بريق حيوان بحري يشبه الإنسان فلطخت برصها بريقه فبرئت، وفي الحديث أنه قال: لك لا لي. ولو قال هو لي كما هو لك لهداه الله كما هداها. «لَا تَقْتُلُوهُ» خطاب بلفظ الجمع للتعظيم. «عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا» فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع، وذلك لما رأته من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامه لبناً وبرء البرصاء بريقه. «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» أو نبتناه فإنه أهل له. «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» حال من الملتقطين أو من القائلة والمقول له أي وهم لا يشعرون

أنهم على الخطأ في التقاطه أو في طمع النفع منه والتبني له، أو من أحد ضميري نتخذه على أن الضمير للناس أي ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنه لغيرنا وقد تبيناه.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون كقوله تعالى: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ أي خلا لا عقول فيها، ويؤيده أنه قرىء ﴿فرغًا﴾ من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أي هدر، أو من الهم لفرط وثوقها بوعده الله تعالى أو سماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أنها كادت لتظهر بموسى أي بأمره وقصته من فرط الضجر أو الفرح لتبنيه. ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعده الله، أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وعطفه. وقرىء موسى إجراء للضممة في جوار الواو مجرى ضميتها في استدعاء همزها همز واو وجوه وهو علة الربط، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف دل عليه ما قبله.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ مريم. ﴿فُصِّيهِ﴾ اتبعني أثره وتتبعي خبره. ﴿فَبَصَّرْتَهُ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ عن بعد وقرىء «عن جانب» «وعن جنب» وهو بمعناه. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقص أو أنها أخته.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ ومنعناه أن يرتضع من الممرضعات، جمع مريض أو مرضع وهو الرضاع، أو موضعه يعني الثدي. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل قصها أثره. ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ لأجلكم. ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لما سمعه قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله فأنت بأمها وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتي بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وهو قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه. ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ علم مشاهدة. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعده حق فيرتابون فيه، أو أن الغرض الأصلي من الرد علمها بذلك وما سواه تبع، وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ. وروي أنه لم يعث نبي إلا على رأس الأربعين سنة. ﴿وَاسْتَوَى﴾ قده أو عقله. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي نبوة. ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه، وهو أوفق لنظم القصة لأن الاستنباء بعد الهجرة في المراجعة. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه. ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ ودخل مصر آتياً من قصر فرعون وقيل منف أو حائين، أو عين شمس من نواحيها. ﴿عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه فيه، قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط، والإشارة على الحكاية. ﴿فَاسْتَفَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي هُوَ مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فسأله أن يغيبه بالإعانة ولذلك عدى بـ ﴿على﴾ وقرىء «استعانه». ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾ فضرب القبطي بجمع كفه، وقرىء فلكره أي فضرب به صدره. ﴿فَفَضَّى عَلَيْهِ﴾ فقتله وأصله فأنهى حياته من قوله ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾. ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلاماً واستغفر منه على عاداتهم في استعظام محقرات فرطت منهم. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.



﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله. ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي. ﴿تَغْفِرْ لَهُ﴾ لاستغفاره. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قسم محذوف الجواب أي أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة وغيرها لأتوبن. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أو استعطاف أي بحق إنعامك عليّ أعصمني فلن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلى جرم. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه لم يستثن فابتلي به مرة أخرى، وقيل معناه بما أنعمت عليّ من القوة أعين أوليائك فلن أستعملها في مظاهرة أعدائك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ يترقب الاستفادة. ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيثه مشتق من الصراخ. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء لبني إسرائيل. ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيلي لأنه لما سماه غوباً ظن أنه يبطش عليه، أو القبطي وكأنه توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي. ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ ما تريد. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ﴾ تطاول على الناس ولا تنظر في العواقب. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه وهموا بقتله فخرج مؤمن آل فرعون وهو ابن عمه ليخبره كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ يسرع صفة رجل، أو حال منه إذا جعل من أقصى المدينة صفة له لا صلة لجاء لأن تخصيصه بها يلحقه بالمعارف. ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بسبك، وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر. ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ اللام للبيان وليس صلة لـ ﴿الناصحين﴾ لأن معمول الصلة لا يقدم الموصول.

﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ قَالَ رَبِّ يَخْفَى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَفَّاءَ مَدِينَةٍ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَةٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَهُ أَحَدُهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَعْبُوكَ لِجَبْرِيلَكَ أَجَرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِنَ اسْتَعْجَرَتْ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28) ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلْ عَلَيْكُمْ مِنْهَا حَبْرٌ أَوْ جَذْوَةٌ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَنْهَأَ ثُودَى مِنْ مَسْطِي الْأَوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي اللَّهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)﴾

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة. ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق طالب. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ خلصني منهم واحفظني من لحوقهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ قبالة مدين قرية شعيب، سميت باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولم تكن في سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان. ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ توكلأ على الله وحسن ظن به، وكان لا يعرف الطريق فعن له ثلاث طرق فأخذ في أوسطها وجاء الطلاب عقيبه فأخذوا في الآخرين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها. ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوق شفيرها. ﴿أُمَةً مِنَ النَّاسِ﴾ جماعة كثيرة مختلفين. ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم. ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ في مكان أسفل من مكانهم. ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما تذودان. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ تصرف الرعاة مواشيهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال، وحذف المفعول لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ويدعوه إلى السقي لهما ثم دونه. وقرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿يُصْدِرُ﴾ أي ينصرف. وقرىء ﴿الرِّعَاءُ﴾ بالضم وهو اسم جمع كالرخال. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبير السن لا يستطيع أن يخرج للسقي فيرسلنا اضطراراً.

﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ مواشيهما رحمة عليهما. قيل كانت الرعاة يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال أو أكثر فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم، وقيل كانت بئراً أخرى عليها صخرة فرفعها واستقى منها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ لأي شيء أنزلت إلي. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير وحمله الأكترون على الطعام. ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج سائل ولذلك عدى باللام، وقيل معناه إني لما أنزلت إلي من خير الدين صرت فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سعة عند فرعون والغرض منه إظهار التبعج والشكر على ذلك.

﴿فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِخْيَاءٍ﴾ أي مستحيية متخففة. قيل كانت الصغرى منهما وقيل الكبرى واسمها صفوراء أو صفراء وهي التي تزوجها موسى عليه اسلام. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيُخْرِجَكَ﴾ ليكافئك. ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاء سقيك لنا، ولعل موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابها ليتبرك بروية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً فامتنع عنه وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا حتى قال له شعيب عليه الصلاة والسلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. هذا وأن كل من فعل معروفاً فأهدى بشيء لم يحرم أخذه. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يريد فرعون وقومه.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني التي استدعته. ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي الغنم. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ تحليل شائع يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه، جعل ﴿خير﴾ اسماً وذكر الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه امرؤ مجرب معروف. روي أن شعيباً قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حتى بلغت رسالته وأمرها بالمشي خلفه.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي تأجر نفسك مني أو تكون لي أجيراً، أو تيسني من أجرك الله. ﴿ثُمَّ إِنِّي حَجَجْتُ﴾ ظرف على الأولين ومفعول به على الثالث بإضمار مضاف أي رعية ثمانني حجج. ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتُ عَشْرًا﴾ عملت عشر حجج. ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فإتمامه من عندك تفضلاً لا من عندي إلزاماً عليك. وهذا استدعاء العقد لا نفسه، فاعله جرى على أجرة معينة وبمهر آخر أو برعية الأجل الأول ووعد له أن يوفي الأخير إن تيسر له قبل العقد، وكانت الأغنام للمزوجة مع أنه يمكن اختلاف

الشرائع في ذلك. ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثَقِّ عَلَيْكَ﴾ بالزمام إتمام العشر أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال، واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في إطاقة ورأيك في مزاولته. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عنه. ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أطولهما أو أقصرهما. ﴿قَضَيْتُ﴾ وفيتك إياه. ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لا تعتدي علي بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان، أو فلا أكون متعدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم علي، وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيت الأقصر فلا عدوان علي. وقرئ ﴿أَيُّمَا﴾ كقوله:

تَنْظَرْتُ نَصْرًا وَالسَّمَائِينَ أَجْمَعًا  
عَلَيَّ مِنَ الْغَيْثِ اسْتَهْلَتْ مَوَاطِرُهُ

وأي الأجلين ما قضيت فتكون ما مزيدة لتأكيد الفعل أي: أي الأجلين جردت عزمي لقضائه، وعدوان بالكسر. ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من المشاركة. ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد حفيظ.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ بامرأته. روي أنه قضى أقصى الأجلين ومكث بعد ذلك عنده عشرًا أخرى ثم عزم على الرجوع. ﴿أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أبصر من الجهة التي تلي الطور. ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بخبير الطريق. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ عود غليظ سواء كان في رأسه نار أو لم يكن.

قال:

بَآتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسُنُ لَهَا  
جَزَلَ الْجَذَى غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ

وقال آخر:

وَأَلْقَى عَلَى قَبَسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً  
شَدِيدًا عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالتَّهَابُهَا

ولذلك بينه بقوله: ﴿مِنَ النَّارِ﴾ وقرأ عاصم بالفتح وحمزة بالضم وكلها لغات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بها.

﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ﴾ أنه النداء من الشاطئ الأيمن لموسى. ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ متصل بالشاطئ أو صلة لـ ﴿نُودِيَ﴾. ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ بدل الاشتمال لأنها كانت ثابتة على الشاطئ. ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ أي يا موسى. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا وإن خالف ما في «طه» والنمل» لفظاً فهو طبقه في المقصود.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَلِكُ كَانَتْ هَاجَةً لَّجَانٍّ وَلَمْ يُدِيرَا وَلَهُمْ يُعْقَبْ لِمُوسَى أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (31) أَسْلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْمِكَ فَخَرَجَ بَصَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْمِ فَذَنُوكَ بِهِمَا نِجْنًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخْبَى هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَدِّدْ عَصَاكَ يَا ابْنِ آدَمَ فَجَعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِئْتِنَا أَلَمْ نَكُنْ مِنْ أَلْفِيلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ

عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ بَنَاتِي هُنَّ أَلْمَأَمَاتُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَسُنَّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكَبَرُوا وَجُودُهُمْ فِي الْأَرْضِ يَكْفِرُ الْحَقُّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى التَّكَاثُرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) ﴿

﴿وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ﴾ أي فآلقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿فلما رآها تهتز﴾. ﴿كَانَهَا جَانٌّ﴾ في الهيئة والجنّة أو في السرعة. ﴿وَلَمَّا مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوف. ﴿وَلَمَّا يُعَقَّبُ﴾ ولم يرجع. ﴿يَا مُوسَى﴾ نودي يا موسى. ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لدي المرسلون. ﴿

﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخلها. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عيب. ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يدك المبسوطين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس، أو بإدخالهما في الجيب فيكون تكريراً لغرض آخر وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزته، ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه. ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ من أجل الرهب أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً وضبطاً لنفسك. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر بضم الراء وسكون الهاء، وقرئ بضمهما، وقرأ حفص بالفتح والسكون والكل لغات. ﴿فَلَدَانِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد، وشده ابن كثير وأبو عمرو ورويس. ﴿بُرْهَانَانِ﴾ حجتان وبرهان فعلا لقولهم أبهر الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا ابيض، ويقال برهأ وبرهرة للمرأة البيضاء وقيل فعلا لقولهم برهن. ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ مرسلاً بهما. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم. ﴿

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بها. ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِذَاءً﴾ معناه وهو في الأصل اسم ما يعان به كالدفع، وقرأ نافع «رداً» بالتخفيف. ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجة، وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب، وقرأ عاصم وحمزة ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بالرفع على أنه صفة والجواب محذوف. ﴿

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقومك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبر عنه باليد وشدها بشدة العضد. ﴿وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا﴾ غلبة أو حجة. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاء أو حجاج. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا، أو بـ ﴿نَجْعَلُ﴾ أي نسلطكما بها، أو بمعنى «لا يصلون» أي تمتنعون منهم، أو قسم جوابه «لا يصلون»، أو بيان لـ «الغالبون» في قوله: ﴿أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي. ﴿

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْكَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ سحر تختلقه لم يفعل قبل مثله، أو سحر عمله ثم تفتريه على الله؛ أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يعنون السحر أو ادعاء النبوة. ﴿فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ كائنات في أيامهم. ﴿

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ فيعلم أنني محق وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير

«قال» بغير واو لأنه قال ما قاله جواباً لمقالهم، ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد. «وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» العاقبة المحمودة فإن المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأنها خلقت مجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها بالذات هو الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض. وقرأ حمزة والكسائي «يكون» بالياء. «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في العقبى.

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعده، ولذلك أمر ببناء الصرح ليصعد إليه ويتطلع على الحال بقوله: «فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى» كأنه توهم أنه لو كان لكان جسماً في السماء يمكن الترقى إليه ثم قال: «وَأِنِّي لَأُظَنُّ مِنَ الْكَاذِبِينَ» أو أراد أن يبني له رصداً يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولة، وقيل المراد بنفي العلم بنفي المعلوم كقوله تعالى: «أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ» فإن معناه بما ليس فيهن، وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقيق معلوماتها فيلزم من انتفاؤها لك انتفاؤها، ولا كذلك العلوم الانفعالية، قيل أول من اتخذ الأجر فرعون ولذلك أمر باتخاذها على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم؛ ولذلك نادى هامان باسمه بـ «يا» في وسط الكلام.

«وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» بغير استحقاق. «وَوَطَّنُوا أُنْثَاهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ» بالنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم.

«فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ» كما مر بيانه، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ واستحقاق للمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم، ونظيره قوله تعالى: «وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدره» والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه «فَانْظُرْ» يا محمد. «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» وحذر قومك عن مثلها.

«وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً» قدوة للضلال بالحمل على الإضلال، وقيل بالتسمية كقوله تعالى: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً»، أو بمنع الألفاظ الصارفة عنه. «يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» إلى موجباتها من الكفر والمعاصي. «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ» بدفع العذاب عنهم.

«وَأَنْبَتْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً» طرداً عن الرحمة، أو لعن اللاحقين يلعنهم الملائكة والمؤمنون. «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» من المطرودين، أو ممن قبح وجوههم.

«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (43) وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الْغُرَفِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ رَبُّكَ لِشِذْرَ قَوْمًا مَا أَنْتَهُمْ مِنْ تَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعِ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَى مِثْلَ مَا أَوْفَى مُوسَى أَوَلَمْ يَكْتَفَرُوا بِمَا أَوْفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغِيْرُ هُدًى  
مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ  
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا بُلِّغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ  
يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ يَمَّا صَبَرُوا وَبَدَرُوا مِنَ الْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (54)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً لقلوبهم تنبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل. ﴿وَهَدَى﴾ إلى الشرائع التي هي سبل الله تعالى. ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عملوا بها نالوا رحمة الله سبحانه وتعالى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حال يرجي منهم التذكر، وقد فسر بالإرادة وفيه ما عرفت.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ يريد الوادي، أو الطور فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى، أو الجانب الغربي منه والخطاب لرسول الله ﷺ أي ما كنت حاضراً. ﴿إِذْ قُضِيَنا إِلَى مُوسَى الْأَمْرِ﴾ إذ أوحينا إليه الأمر الذي أردنا تعريفه. ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه، وهم السبعون المختارون للميقات، والمراد الدلالة على أن إخباره عن ذلك من قبيل الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله:

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي ولكننا أوحينا إليك لأننا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدة، فحرفت الأخبار وتغيرت الشرائع واندرست العلوم، فحذفت المستدرك وأقام سببه مقامه. ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً. ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب والمؤمنين به. ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ تقرأ عليهم تعلماً منهم. ﴿آيَاتِنَا﴾ التي فيها قصتهم. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرين لك بها.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعل المراد به وقت ما أعطاه التوراة وبالأول حين ما استنبأه لأنهما المذكوران في القصص. ﴿وَلَكِنْ﴾ علمناك. ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وقرئت بالرفع على هذه ﴿رحمة من ربك﴾. ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بالفعل المحذوف. ﴿مَا أَنَا لَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام كانت مختصة ببني إسرائيل وما حوالاهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ﴿لَوْلَا﴾ الأولى امتناعية والثانية تحضيضية واقعة في سياقها، لأنها إنما أجيبت بالفاء تشبيهاً لها بالأمر مفعول يقولوا المعطوف على تصيبيهم بالفاء المعطية معنى السبية المنبهة على أن القول هو المقصود بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به، وأنه لا يصدر عنهم حتى تلجئهم العقوبة والجواب محذوف والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فتنبعها ونكون من المصدقين، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم. ﴿فَتَسْبِغَ آيَاتِكَ﴾ يعني الرسول المصدق بنوع من المعجزات. ﴿وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها اقتراحاً وتعتناً. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفره زمان موسى، أو كان فرعون عربياً من أولاد عاد. ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ﴾ يعني موسى وهارون، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاوناً بإظهار تلك الخوارق أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون

«سحران» بتقدير مضاف أو جعلهما سحرين مبالغة، أو إسناد تظاهرها إلى فعلهما دلالة على سبب الإعجاز. وقرئ ظاهراً على الإدغام. «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ» أي بكل منهما أو بكل الأنبياء.

«قُلْ فَاتَّبِعُوا كِتَابَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا» مما أنزل على موسى وعلى محمد ﷺ وإضمارهما لدلالة المعنى، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. «أَتَبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» إنا ساحران مختلفان، وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيث، ولعل معجىء حرف الشك للتهكم بهم.

«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ» دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فحذف المفعول للعلم به، ولأن فعل الاستجابة يعدي بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي، فإذا عدي إليه حذف الدعا غالباً كقوله:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى التَّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

«فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ» إذ لو اتبعوا حجة لأتوا بها. «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ» استفهام بمعنى النفي. «بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» في موضع الحال للتأكيد أو التقييد، فإن هوى النفس قد يوافق الحق. «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» الذين ظلموا أنفسهم بالانهمك في اتباع الهوى.

«وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ» أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير، أو في النظم لتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر. «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» فيؤمنون ويطيعون.

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ» نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل في أربعين من أهل الأنجيل اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام، والضمير في «من قبله» للقرآن كالمستكن في:

«وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ» أي بأنه كلام الله تعالى. «إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا» استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به. «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ» استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حيثئذ، وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن، أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته في الجملة.

«أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن. «بِمَا صَبَرُوا» بصبرهم وثباتهم على الإيمان، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى المشركين ومن هاجرهم من أهل دينهم. «وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» ويدفعون بالطاعة المعصية لقوله ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها». «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» في سبيل الخير.

«وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي إِلَٰهًا إِلَّا أَنْتَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِأَلْمُهْتَدِينَ» (56) وَقَالُوا إِنْ تَبِعَ أَهْدَىٰ مَعَكَ نَحْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا أَمِنَّا بِجُحْدٍ إِلَيْهِ ثَمَرَتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَدِيدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلَوِّعُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ» (59) وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

(60) أَفَن وَعَدْتَهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَلْقَبِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَكَرِهُوا وَتَوَلَّوْا أَلْعَدَابُ لَهُمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُهَيِّدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَحَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) ﴿

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ نكراً. ﴿وَقَالُوا﴾ للاغين. ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركة لهم وتوديعاً، أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه. ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر على أن تدخلهم في الإسلام. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فيدخله في الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدين لذلك. والجمهور على أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، قال: يا ابن أخي قد علمت إنك لصادق ولكن أكره أن يقال خدع عند الموت.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ نخرج منها. نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوْ لَمْ تَمْكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أو لم نجعل مكانهم حرمًا ذا أمن يحرم البيت الذي فيه يتناحر العرب حوله وهم آمنون فيه. ﴿يُجِبِّي إِلَيْهِ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه، وقرأ نافع ويعقوب في رواية بالتاء. ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل أوب. ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأصنام فكيف نعرضهم للتخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموه، وقيل إنه متعلق بقوله ﴿من لدننا﴾ أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم لا يعلمون إذ لو علموا لما خافوا غيره، وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على المصدر من معنى ﴿يجبي﴾، أو حال من الـ ﴿ثمرات﴾ لتخصصها بالإضافة، ثم بين أن الأمر بالعكس فإنهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله على ما هم عليه بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرْتُ مَعِيشَهَا﴾ أي وكم من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا فدمر الله عليهم وخرب ديارهم. ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ﴾ خاوية. ﴿لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم، أو لا يبقى من يسكنها من شؤم معاصيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم، وانتصاب ﴿معيشتها﴾ بنزع الخافض أو بجعلها ظرفاً بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم، أو بإضمار زمان مضاف إليها أو مفعولاً على تضمين بطرت معنى كفرت.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادته. ﴿مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ في أصلها التي هي أعمالها، لأن أهلها تكون أظن وأنبل. ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ لإلزام الحجة وقطع المَعذرة. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر.



﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ تتمتعون وتزینون به مدة حياتكم المنقضية. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو ثوابه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خاصة وبهجة كاملة. ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه أبدى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ وعداً بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود. ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعده، ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية. ﴿كَمْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب بالتحسر على الانقطاع. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب، و ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو الرتبة، وقرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ﴿ثُمَّ هُوَ﴾ بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل، وهذه الآية كالنتيجة للتي قبلها ولذلك رتب عليها بالفاء.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذکر. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بنبوت مقتضاه وحصول مؤداه وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وغيره من آيات الوعيد. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول. ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ فغوا غياً مثل ما غوينا، وهو استئناف للدلالة على أنهم غواوا باختيارهم وأنهم لم يفعلوا بهم إلا وسوسة وتسويلاً، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة و ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ الخبر لأجل ما اتصل به بإفادة زيادة على الصفة وهو إن كان فضلة لكنه صار من اللوازم. ﴿تَبَرَأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاره من الكفر هوى منهم، وهو تقرير للجملة المتقدمة ولذلك خلت عن العاطف وكذا. ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل ﴿مَا﴾ مصدرية متصلة بـ ﴿تَبَرَأْنَا﴾ أي تبرأنا من عبادتهم إيانا.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ من فرط الحيرة. ﴿قُلْهُمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة. ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ لازماً بهم. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ لوجه من الحيل يدفعون به العذاب، أو إلى الحق لما رأوا العذاب ﴿لَوْ﴾ للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياء.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنبياء لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يقبض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره، والمراد بالأنبياء ما أجابوا به الرسل أو ما يعمها وغيرها، فإذا كانت الرسل يتتبعون في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال من أممهم، وتعدي الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء. ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأنه مثله في العجز.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك. ﴿وَأَمَّنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾. وجمع بين الإيمان والعمل الصالح. ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي التخير كالطيرة

بمعنى التطير، وظاهرة نفي الاختيار عنهم رأساً والأمر كذلك عند التحقيق، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها، وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف، ويؤيده ما روي أنه نزل في قولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾. وقيل ﴿ما﴾ موصولة مفعول لـ ﴿يختار﴾ والراجع إليه محذوف والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير والصلاح. ﴿شُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار. ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه به.

﴿وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول وحقده. ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ﴾ كالطعن فيه.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (70) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الِئَالَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرَمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الِئَالَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75) ﴿إِنْ قُلُوبُنَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَآيَاتُهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنْ مَقَاصُكُمْ لَسَوْأَ بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُ لَا تَفْعَلُوا إِنْ أَتَى اللَّهُ أَمْرًا لَمْ يَسْخَرْ لَهُ دُونُ اللَّهِ (105) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُئُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا مَا أُوْتِيتَ قُلُوبُنَا إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَائِبُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتْرَةٍ يَصْطُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآتُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآتُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84) إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَيْكَ إِلَىٰ مَعَاذٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85) وَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)﴾

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو. ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى

وَالْآخِرَةُ ۖ لَأَنَّهُ الْمَوْلَى لِلنَّعْمِ كُلِّهَا وَأَجَلُهَا يَحْمَدُهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا حَمَدُوهُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِهِمُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ» - «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ۖ ابْتِهَاجاً بِفَضْلِهِ وَالتَّذَاداً بِحَمْدِهِ» ۖ «وَلَهُ الْحُكْمُ» ۖ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. «وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ» ۖ بِالنُّشُورِ.

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ۖ دَائِمًا مِنَ السَّرْدِ وَهُوَ الْمَتَابَعَةُ وَالْمِيمُ مَزِيدَةٌ كَمِيمٌ دَلَامَصٌ. «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ۖ بِإِسْكَانِ الشَّمْسِ تَحْتَ الْأَرْضِ أَوْ تَحْرِيكِهَا حَوْلَ الْأَفْقِ الْغَائِرِ. «مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ» ۖ كَانَ حَقُّهُ هَلْ إِلَهٌ فَذَكَرَ بِهِ «مَنْ» ۖ عَلَى زَعْمِهِمْ أَنْ غَيْرَهُ آلِهَةٌ. وَعَنْ ابْنِ كَثِيرٍ «بُضْيَاءٌ» بِهَمْزَتَيْنِ. «أَفَلَا تَسْمَعُونَ» ۖ سَمَاعٌ تَدْبِرُ وَاسْتِبْصَارٌ.

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا ۖ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ۖ بِإِسْكَانِهَا فِي وَسْطِ السَّمَاءِ أَوْ تَحْرِيكِهَا عَلَى مَدَارٍ فَوْقَ الْأَفْقِ. «مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ» ۖ اسْتِرَاحَةٌ عَنِ مَتَاعِبِ الْأَشْغَالِ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَصِفِ الضِّيَاءَ بِمَا يَقَابِلُهُ لَأَنَّ الضُّوءَ نِعْمَةٌ فِي ذَاتِهِ مَقْصُودٌ بِنَفْسِهِ وَلَا كَذَلِكَ اللَّيْلُ، وَلِأَنَّ مَنَافِعَ الضُّوءِ أَكْثَرُ مِمَّا يَقَابِلُهُ وَلِذَلِكَ قَرَنَ «أَفَلَا تَسْمَعُونَ» وَ «بِاللَّيْلِ». «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ۖ لِأَنَّ اسْتِفَادَةَ الْعَقْلِ مِنَ السَّمْعِ أَكْثَرُ مِنْ اسْتِفَادَتِهِ مِنَ الْبَصَرِ.

«وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ» ۖ فِي اللَّيْلِ «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» ۖ فِي النَّهَارِ بِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ. «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ۖ وَلَكِي تَعْرِفُوا نِعْمَةَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ فَتَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا.

«وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ» ۖ تَقْرِيعٌ بَعْدَ تَقْرِيعٍ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَجْلَبَ لَغَضَبِ اللَّهِ مِنَ الْإِشْرَاقِ بِهِ، أَوِ الْأَوَّلُ لَتَقْرِيرِ فُسَادِ رَأْيِهِمْ وَالثَّانِي لِبَيَانِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَنْ سِنْدٍ وَإِنَّمَا كَانَ مُحَضَّشٌ وَهْوَى.

«وَنَزَعْنَا» وَأَخْرَجْنَا. «مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا» ۖ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ. «فَقُلْنَا» ۖ لِلْأَمَمِ. «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» ۖ عَلَى صِحَّةِ مَا كُنتُمْ تَدِينُونَ بِهِ. «فَعَلِمُوا» ۖ حِينَئِذٍ. «أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» ۖ فِي الْأَلُوهِيَةِ لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ. «وَوَضَّلَ عَنْهُمْ» ۖ وَغَابَ عَنْهُمْ غَيْبَةُ الضَّالِّغِ. «مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ» ۖ مِنَ الْبَاطِلِ.

«إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى» ۖ كَانَ ابْنُ عَمِّهِ يَصْهَرُ بْنُ قَاهِثَ بْنِ لَاوِي وَكَانَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ. «فَبَغَى عَلَيْهِمْ» ۖ فَطَلَبَ الْفَضْلَ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَكُونُوا تَحْتَ أَمْرِهِ، أَوْ تَكْبِيرَ عَلَيْهِمْ أَوْ ظَلَمَهُمْ. قِيلَ وَذَلِكَ حِينَ مَلَكَهَ فِرْعَوْنُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ حَسَدَهُمْ لَمَّا رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَكَ الرِّسَالَةُ وَلِهَارُونَ الْحَبِيرَةُ وَأَنَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ إِلَى مَتَى أَصْبِرُ قَالَ مُوسَى هَذَا صَنَعَ اللَّهُ. «وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ» ۖ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمَدْخَرَةِ. «مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ» ۖ مَفَاتِيحَ صِنَادِيْقِهِ جَمَعَ مِفْتَاحَ بِالْكَسْرِ وَهُوَ مَا يَفْتَحُ بِهِ، وَقِيلَ خَزَائِنُهُ وَقِيَاسُ وَاحِدِهَا الْمِفْتَاحُ. «لَتَنْتَوُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ» ۖ خَبَرَ إِنْ وَالْجُمْلَةُ صِلَةٌ وَهُوَ ثَانِي مَفْعُولِي آتَى، وَنَائِبُهُ الْحَمْلُ إِذَا أَثْقَلَهُ حَتَّى أَمَالَهُ، وَالْعُصْبَةُ وَالْعَصَابَةُ الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ وَاعْصُوصُوا اجْتَمَعُوا. وَقُرِئَ «الْيَنُوءُ» بِالْيَاءِ عَلَى إِعْطَاءِ الْمُضَافِ حُكْمَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ. «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ» ۖ مَنُصُوبٌ بِ «تَنُوءَ». «لَا تَفْرَحْ» ۖ لَا تَبْطُرْ وَالْفَرَحُ بِالدُّنْيَا مَذْمُومٌ مُطْلَقًا لِأَنَّهُ نَتِيجَةُ حُبِّهَا وَالرِّضَا بِهَا وَالدَّهْوَلُ عَنْ ذَهَابِهَا، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ مَا فِيهَا مِنَ اللَّذَّةِ مَفَارِقَةٌ لَا مُحَالَةٌ يُوجِبُ التَّرَحُّمَ كَمَا قِيلَ:

أَشَدَّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ»، وَعِلَلُ النَّهْيِ هَا هُنَا بِكَوْنِهِ مَانِعًا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» ۖ أَيِ بَزْخَارِفِ الدُّنْيَا.

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ» ۖ مِنَ الْغِنَى. «الدَّارَ الْآخِرَةَ» ۖ بِصَرْفِهِ فِيمَا يُوجِبُهَا لَكَ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ

وصلة إليها. ﴿وَلَا تَنْسَ﴾ ولا تترك ترك المنسي. ﴿نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك. ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله. ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم الله عليك. وقيل ﴿أحسن﴾ بالشكر والطاعة ﴿كما أحسن﴾ إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي، نهى له عما كان عليه من الظلم والبغي. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالجاه والمال، و ﴿على علم﴾ في موضع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها، وقيل هو الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقة وسائر المكاسب، وقيل العلم بكنوز يوسف، و ﴿عندي﴾ صفة له أو متعلق بـ ﴿أوتيته﴾ كقولك: جاز هذا عندي أي في ظني واعتقادي. ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة وسمعه من حفاظ التواريخ، أو رد لادعائه للعلم وتعظمه به بنفي هذا العلم عنه أي أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعى. ولم يعلم هذا حتى بقي به نفسه مصارع الهالكين. ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام فإنه تعالى مطلع عليها أو معاتبة فإنهم يعذبون بها بغته، كأنه لما هدد قارون بذكر إهلاك من قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أنه لم يكن مطلعاً على ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم معاقبهم عليها لا محالة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ كما قيل إنه خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه. ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على ما هو عادة الناس من الرغبة. ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً عن الحسد. ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بأحوال الآخرة للمتقين. ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضى. ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ في الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها. ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ الضمير فيه للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للـ ﴿ثواب﴾، فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصي.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ روي أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل ليرفضوه، فبرطل بغية لثرميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه، فقال قارون ولو كنت قال: ولو كنت، قال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلاتة فأحضرت، فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي، فخر موسى شاكياً منه إلى ربه فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فقال: يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال خذيه إلى وسطه، ثم قال خذيه فأخذته إلى عنقه، ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه، فأوحى الله إليه ما أفظك استرحمك مراراً فلم ترحمه، وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبت، ثم قال بنو إسرائيل: إنما فعله ليرته، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله. ﴿لَمَّا كَانَ لَهُ مِنَ فِتْنَةٍ﴾ أعوان مشتقة من فأوت رأسه إذا ميلته. ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيدفعون عنه عذابه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر إذا منعه منه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ﴾ منزلته. ﴿بِالْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب. ﴿يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يسطر بمقتضى مشيئته لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب

القبض، وويكأن عند البصريين مركب من «وي» للتعجب «وكان» للتشبيه والمعنى: ما أشبه الأمر أن ييسط الرزق. وقيل من «ويك» بمعنى ويلك «وأن» تقديره ويك أعلم أن الله. ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعطنا ما تمنينا. ﴿لَخَسَفَ بَنَّا﴾ لتوليدنا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله. وقرأ حفص بفتح الخاء والسين. ﴿وَيَكَاثُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم ثواب الآخرة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، و﴿الدار﴾ صفة والخبر: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ غلبة وقهراً. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحموده. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ذاتاً وقدرأً ووصفاً. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير تهجيناً لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم. ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم ﴿ما كانوا يعملون﴾ مقامه مبالغة في المماثلة.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه. ﴿لَرَأَيْتَكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي معاد وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه، أو مكة التي اعتدت بها أنه من العادة رده إليها يوم الفتح، كأنه لما حكم بأن ﴿العاقبة للمتقين﴾ وأكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين وعده بالعاقبة الحسنی في الدارين. روي أنه لما بلغ جحفة في مهاجرة اشتاق إلى مولده ومولد آبائه فنزلت. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يفسره أعلم. ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعني به نفسه والمشركون، وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن ألقاه رحمة منه، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى كأنه قال: وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ عن قراءتها والعمل بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقرىء ﴿يصدنك﴾ من أصد. ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هذا وما قبله للتهيج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك في حد ذاته معدوم. ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في الخلق. ﴿وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بالحق. عن النبي ﷺ «من قرأ طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه صادقاً».

## سورة المنكوت

[مكية وأياها تسع وستون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ﴾ (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَكَ مُدَّةً وَهِيَ السَّاعِيَةُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) ﴿

﴿الْم﴾ سبق القول فيه، ووقوع الاستفهام بعده دليل استقلاله بنفسه أو بما يضمه معه.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ الحسبان مما يتعلق بمضامين الجمل للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك اقتضى مفعولين متلازمين أو ما يسد مسدهما كقوله: ﴿أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فإن معناه أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم ﴿آمنّا﴾، فالترك أول مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم ﴿آمنّا﴾ هو الثاني كقولك: حسبت ضربه للتأديب، أو أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم ﴿آمنّا﴾ بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف، كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال لتمييز المخلص من المنافق والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب. روي أنها نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين، وقيل في عمار وقد عذب في الله تعالى، وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب رماه عامر بن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وأمرأته.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ متصل بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾، والمعنى أن ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فليتلحقن علمه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذبوا فيه، وينوط به ثوابهم وعقابهم ولذلك قيل المعنى وليميزن أو ليجازين، وقرئ «وليعلمن» من الإعلام أي وليعرفنهم الله الناس أو ليعلمنهم بِسْمَةِ يعرفون بها يوم القيامة كيباض الوجوه وسوادها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح. ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ أن يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم على مساوئهم وهو ساد مسد مفعولي ﴿حَسِبَ﴾ لاشتماله على

مسند ومسند إليه ويجوز أن يضمن ﴿حَسِبَ﴾ معنى قدر أو أم منقطعة والإضراب فيها لأن هذا الحسبان أبطل من الأول ولهذا عقبه بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بش الذي يحكمونه، أو حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالدم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ في الجنة، وقيل المراد بلقاء الله الوصول إلى ثوابه، أو إلى العاقبة من الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل حاله بحال عبد قدم على سيده بعد زمان مديد وقد أطلع السيد على أحواله، فأما أن يلقاه ببشر لما رضي من أفعاله أو بسخط لما سخط منها. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ فإن الوقت المضروب للقائه. ﴿لَآتٍ﴾ لجاه وإذا كان وقت اللقاء آتياً كان اللقاء كائناً لا محالة، فليبادر ما يحقق أملة ويصدق رجاءه أو ما يستوجب به القربة والرضا. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعقائدهم وأفعالهم.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ نفسه بالصبر على مضض الطاعة والكف عن الشهوات. ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعتها لها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم، وإنما كلف عباده رحمة عليهم ومراعاة لصلاحهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حسن، أو كانه في ذاته حسن لفرط حسنه ووصى يجري مجرى أمر معنى وتصرفاً. وقيل هو بمعنى قال أي قلنا له أحسن بوالديك ﴿حَسَنًا﴾، وقيل ﴿حَسَنًا﴾ منتصب بفعل مضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أي قلنا أولهما أو افعل بهما ﴿حَسَنًا﴾ وهو أوفى لما بعده وعليه يحسن الوقف على ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾، وقرئ ﴿حَسَنًا﴾ و ﴿إِحْسَانًا﴾. ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بالهيته عبر عن نفيها بنفي العلم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بطلانه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا بد من إضمار القول إن لم يضر قبل. ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عقى. ﴿فَأَنبِئْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه، والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبيت ثلاثة أيام كذلك وكذا التي في لقمان و ﴿الأحقاف﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ في جملتهم والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين و متمنى أنبياء الله المرسلين، أو في مدخلهم وهو الجنة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بأن عذبهم الكفرة على الإيمان. ﴿جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ما يصيبه من أذيتهم في الصرف عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الصرف عن الكفر. ﴿وَلَكِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ فتح وغنمة. ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين فأشركونا فيه، والمراد المنافقون أو قوم ضعف إيمانهم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيد الأول. ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ (11) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ (13) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَجْمَعْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15) وَإِذْ هَمَّ بِذُنُوبِهِ لِقَوْمِهِ أُعِدِّدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (105) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) ﴿

﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم. ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيجازي الفريقين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ الَّذِي نسلكه في ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ﴾ إِنْ كَانَ ذَلِكَ خَطِيئَةً أَوْ إِنْ كَانَ بَعَثَ وَمُؤَاخَذَةً، وَإِنَّمَا أَمَرُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْحَمَلِ عَاطِفِينَ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالِاتِّبَاعِ مَبَالِغَةً فِي تَعْلِيلِ الْحَمَلِ بِالِاتِّبَاعِ وَالْوَعْدِ بِتَخْفِيفِ الْأَوْزَارِ عَنْهُمْ إِنْ كَانَتْ تَشْجِيعًا لَهُمْ عَلَيْهِ، وَبِهَذَا الْاعتِبَارِ رَدَّ عَلَيْهِمْ وَكَذِبَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَاطِئِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ مِنَ الْأُولَى لِلتَّبَيُّنِ وَالثَّانِيَةِ مَزِيدَةً وَالتَّقْدِيرِ: وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ شَيْئًا مِنْ خَطَايَاهُمْ.

﴿وَلْيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ﴾ أَثْقَالًا مَا اقْتَرَفَتْهُ أَنْفُسُهُمْ. ﴿وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وَأَثْقَالًا آخَرَ مَعَهَا لَمَّا تَسَبَّوْا لَهُ بِالْإِضْلَالِ وَالْحَمَلِ عَلَى الْمَعَاصِي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَثْقَالٍ مِنْ تَبِعَهُمْ شَيْءٌ. ﴿وَلْيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سَوَالُ تَقْرِيعٍ وَتَبْكِيَةٍ. ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مِنَ الْأَبَاطِيلِ الَّتِي أَضَلُّوا بِهَا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بَعْدَ الْمَبْعَثِ، إِذْ رَوَى أَنَّهُ بَعَثَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ وَدَعَا قَوْمًا تِسْعَمِائَةً وَخَمْسِينَ وَعَاشَ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِينَ، وَلَعَلَّ اخْتِيَارَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كِمَالِ الْعَدَدِ فَإِنَّ تِسْعَمِائَةً وَخَمْسِينَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَقْرُبُ مِنْهُ وَلَمَّا فِي ذِكْرِ الْأَلْفِ مِنْ تَخْيِيلِ طُولِ الْمُدَّةِ إِلَى السَّامِعِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقِصَّةِ تَسْلِيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَثْبِيتهِ عَلَى مَا يَكَابِدُهُ مِنَ الْكُفْرَةِ وَاخْتِلَافِ الْمُمِيزِينَ لَمَّا فِي التَّكْرِيرِ مِنَ الْبَشَاعَةِ. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ طُوفَانُ الْمَاءِ وَهُوَ لَمَّا طَافَ بِكَثْرَةٍ مِنْ سَيْلٍ أَوْ ظَلَامٍ أَوْ نُحُومًا. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بِالْكَفْرِ.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أَيِ نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ وَمَنْ أُرْكَبَ مَعَهُ مِنْ أَوْلَادِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَكَانُوا ثَمَانِينَ. وَقِيلَ ثَمَانِيَةٌ وَسَبْعِينَ وَقِيلَ عَشْرَةٌ نَصْفَهُمْ ذَكَورٌ وَنَصْفُهُمْ إِنَاثٌ. ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أَيِ السَّفِينَةِ أَوْ الْحَادِثَةِ. ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يَعْتَظُونَ وَيَسْتَدْلُونَ بِهَا.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ عَظَفَ عَلَى «نُوحًا» أَوْ نَصَبَ بِإِضْمَارِ اذْكُرْ، وَقَرِءْ بِالرَّفْعِ عَلَى تَقْدِيرِ وَمَنْ الْمُرْسَلِينَ إِبْرَاهِيمَ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ظَرَفَ لِأَرْسَلْنَا أَيِ أَرْسَلْنَاهُ حِينَ كَمَلَ عَقْلُهُ وَتَمَّ نَظَرُهُ بِحَيْثُ عَرَفَ الْحَقَّ وَأَمَرَ النَّاسَ بِهِ، أَوْ بَدَلَ مِنْهُ بَدَلَ اشْتِمَالِ إِنْ قَدَّرَ بِاِذْكُرْ. ﴿وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَتُمِيزُونَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا هُوَ شَرٌّ، أَوْ كُنْتُمْ تَنْظُرُونَ فِي الْأُمُورِ بِنَظَرِ الْعِلْمِ دُونَ نَظَرِ الْجَهْلِ.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وَتَكْذِبُونَ كَذِبًا فِي تَسْمِيَتِهَا آلِهَةً وَادْعَاءِ شَفَاعَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ تَعْمَلُونَهَا وَتَنْحَتُونَهَا لِلْإِفْكَ وَهُوَ اسْتِدْلَالٌ عَلَى شَرَارَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ زُورٌ وَبَاطِلٌ، وَقَرِءْ «تَخْلُقُونَ» مِنْ خَلَقَ لِلتَّكْثِيرِ «وَتَخْلُقُونَ» مِنْ تَخَلَّقَ لِلتَّكْلُفِ، وَ «إِفْكًا» عَلَى أَنَّهُ مُصْدَرٌ كَالْكَذِبِ أَوْ نَعَتْ بِمَعْنَى خَلَقًا ذَا إِفْكَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دَلِيلُ ثَانٍ عَلَى شَرَارَةِ ذَلِكَ



من حيث إنه لا يجدي بطلان، و ﴿رَزَقًا﴾ يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم وأن يراد المرزوق وتنكيره للتعميم. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كله فإنه المالك له. ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين لما حَفَكم من النعم بشكره، أو مستعدين للقائه بهما، فإنه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بفتح التاء.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ وإن تكذبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذبيكم. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي يزال معه الشك وما عليه أن يصدق ولا يكذب، فالآية وما بعدها من جملة قصة ﴿إبراهيم﴾ إلى قوله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ ويحتمل أن تكون اعتراضاً بذكر شأن النبي ﷺ وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم، توسط بين طرفي قصته من حيث إن مساقها لتسليّة رسول الله ﷺ والتنفيس عنه، بأن أباه خليل الله صلوات الله عليهما كان ممتواً بنحو ما مني به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبَاتِ اللَّهِ وَلَقَائِهِمْ أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَآوَيْنَاكُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) ﴿فَأَمَنْ لَكُمْ لَوْطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ من مادة ومن غيرها، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالناء على تقدير القول وقرىء «يبدأ». ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبار بالإعادة بعد الموت معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على ﴿يُبْدِئُ﴾، فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن تؤول الإعادة بأن ينشئ في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما وتعطف على ﴿يُبْدِئُ﴾. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى الإعادة أو إلى ما ذكر من الأمرين. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتقر في فعله إلى شيء.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حكاية كلام الله لإبراهيم أو محمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان من حيث أن كلا اختراع وإخراج من العدم، والإفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره في بدأ والقياس الاقتصار عليه للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة، وأن من عرف بالقدرية على الإبداء ينبغي أن يحكم له بالقدرية على الإعادة لأنها أهون والكلام في العطف ما مر، وقرىء «النشأة» كالرافة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كل الممكنات على سواء فيقدر على النشأة الأخرى كما قدر على النشأة الأولى.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمته. ﴿وَالِيهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ريبكم عن إدراككم. ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إن فرستم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاويها، والتحصن ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أو القلاع الذاهبة فيها وقيل ولا من في السماء كقول حسان:

أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيُضْضِرُّهُ سَوَاءٌ  
﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث. ﴿أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي يياسون منها يوم القيامة، فعبّر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة، أو آيسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم له. وقرىء بالرفع على أنه الاسم والخبر. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وكان ذلك قول بعضهم لكن لما قبل فيهم ورضي به الباكون أسند إلى كلهم. ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي فقدفوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنجائه منها. ﴿لَآيَاتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسر وإنشاء روض مكانها. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بالتفحص عنها والتأمل فيها.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، وثاني مفعولي ﴿اتخذتم﴾ محذوف ويجوز أن تكون مودة المفعول الثاني بتقدير مضاف أي اتخذتم أوثان سبب المودة بينكم أو بتأويلها بالمودودة، وقرأها نافع وابن عامر وأبو بكر منونة ناصبة بينكم والوجه ما سبق، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس مرفوعة مضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم، والجملة صفة ﴿أَوْثَانًا﴾ أو خبر إن على ﴿إنما﴾ مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول، وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح ﴿بينكم﴾ كما قرىء ﴿لقد تقطع بينكم﴾ وقرىء ﴿إنما مودة بينكم﴾. ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بَعْضٌ وَلَيَعَنَّ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي يقوم التناكر والتلاعن بينكم، أو بينكم وبين الأوثان على تغليب المخاطبين كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. ﴿وَمَا أَرَأَيْتُمْ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ﴾ هو ابن أخيه وأول من آمن به، وقيل إنه آمن به حين رأى النار لم تحرقه. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي. ﴿إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاح. روي أنه هاجر من كوثي من سواد الكوفة مع لوط وامراته سارة ابنة عمه إلى حران، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً وناقلة حين أيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر إسماعيل. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ فكثر منهم الأنبياء. ﴿وَالْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ﴾ على هجرته إلينا. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه، والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وإنماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لفي عداد الكاملين في الصلاح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفَاحِشَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

(28) أَيُنْكُمُ لَتَأْتُوكَ الرَّجَالُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُوكَ فِي نَادِيكُمْ الْمُكْرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِتًّا مِنْهُمْ وَصَافَكَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا نَمْلِكُ لَكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) وَإِلَى مَدِينِكَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (37) وَعَادَا وَكُمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَتُّوهُ وَفَرَعُوهُ وَهَمَكُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوَسَّى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40) ﴿

﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم أو على ما عطف عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَيُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح، وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص بهمزة مكسورة على الخبر والباقون على الاستفهام وأجمعوا على الاستفهام في الثاني. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى أقدموا عليها لخبت طبيعتهم.

﴿أَيُنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرَّجَالُ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وتعرضون للسبالة بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطعت الطرق، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث. ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ﴾ في مجالسكم الخاصة بأهلها ولا يقال للنادي إلا لما فيه أهله. ﴿الْمُكْرَ﴾ كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها من القبائح عدم مبالاة بها. وقيل الحذف ورمي البنادق. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في استقباح ذلك أو في دعوى النبوة المفهومة من التوبيخ.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب. ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ باتباع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استئزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بالبخارة بالولد والنافلة. ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم لهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواع المعاصي.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعترض عليهم بأن فيها من لم يظلم، أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ تسليم لقوله مع ادعاء مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلين عنه، وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله أو تأقبت الإهلاك بإخراجهم منها، وفيه

تأخير للبيان عن الخطاب. ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقيين في العذاب أو القرية.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء، و﴿أَنْ﴾ صلة لتأكيد الفعلين واتصالهما. ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ وصاق بشأنهم وتدير أمرهم ذرعه أي طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه ربح ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له، وذلك لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع. ﴿وَقَالُوا﴾ لما رأوا فيه أثر الضجرة. ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكنهم منا. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب «لننجينه» و«ومنجوك» بالتخفيف ووافقهم أبو بكر وابن كثير في الثاني، وموضع الكاف الجر على المختار ونصب «أهلك» بإضمار فعل أو بالعطف على محلها باعتبار الأصل.

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذاباً منها سمي بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم ارتجس إذا ارتجس أي اضطرب، وقرأ ابن عامر «مُنْزِلُونَ» بالتشديد. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي حكايتها الشائعة أو آثار الديار الخربة، وقيل الحجارة الممطرة فإنها كانت باقية بعد وقيل بقية أنهارها المسودة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلق بـ «تركنا» أو «آية».

﴿وَالِىَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به ثوابه فأقيم المسبب مقام السبب، وقيل إنه من الرجاء بمعنى الخوف. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة وقيلة صيحة جبريل عليه السلام لأن القلوب ترجف لها. ﴿فَاضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ في بلدهم أو دورهم ولم يجمع لأن اللبس. ﴿جَائِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ منصوبان بإضمار اذكر أو فعل دل عليه ما قبله مثل أهلكننا، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب «وثموداً» غير منصرف على تأويل القبيلة. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ﴾ أي تبين لهم بعض مساكنهم، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم إذا نظرت إليها عند مروركم بها. ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الذي بينه الرسل لهم. ﴿وَكَانُوا مُسْتَعْصِرِينَ﴾ متمكنين من النظر والاستبصار ولكنهم لم يفعلوا، أو متبينين أن العذاب لا حق بهم بإخبار الرسل لهم ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ معطوف على عاداً وتقديم «قارون» لشرف نسبه. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ فأتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه إذا فاته.

﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ عاقبناه بذنبه. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصاء، أو ملكاً رماهم بها كقوم لوط. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كمدن وثمود. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته عز وجل. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعرض للعذاب.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمِ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44) أَنْتَلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45) وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِيهِمْ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُ وَحْدٌ وَمَنْ لَّهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتُمْ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّوهُ بِمِصْرَةٍ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ (48) ﴿﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فما اتخذوه معتمداً ومتكلاً. ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجته في الوهن والخور بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً ما، أو مثلهم بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجص، والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والتاء فيه كناء طاغوت ويجمع على عناكيب وعنكاب وعكاب وعكبة وأعكب. ﴿وَإِنْ أُوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك، ويجوز أن يكون المراد ببيت العنكبوت دينهم سماه به تحقيقاً للتمثيل فيكون المعنى: وإن أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم، وقرأ البصريان بالياء حملاً على ما قبله و ﴿مَا﴾ استفهامية منصوبة بـ ﴿تَدْعُونَ﴾ و ﴿يَعْلَمُ﴾ معلقة عنها و ﴿مِنْ﴾ للتبيين أو نافية و ﴿مِنْ﴾ مزيدة و ﴿شَيْءٍ﴾ مفعول ﴿تَدْعُونَ﴾ أو مصدرية و ﴿شَيْءٍ﴾ مصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول ﴿تَدْعُونَ﴾ عائدها المحذوف، والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل وعلى الأخيرين وعيد لهم. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل على المعنيين فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه، وأن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية كالمعدوم، وأن من هذا وصفه قادر على مجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ يعني هذا المثل ونظائره. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ ولا يعقل حسناتها وفائدتها. ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي. وعنه ﴿وَمَا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: «الْعَالَمُ مِنْ عَقْلِ عَنِ اللَّهِ فَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ وَاجْتَنَبَ سَخَطَهُ»﴾.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ محققاً غير قاصد به باطلاً، فإن المقصود بالذات من خلقها إفادة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المتفعون به.

﴿أَنْتَلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتحفظاً لألفاظه واستكشافاً لمعانيه، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف به بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بأن تكون سبباً للاثتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها من حيث إنها تذكر الله وتورث النفس خشية منه. روي أن فتي من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ارتكبه، فوصف له عليه السلام فقال: «إن صلاته ستهناه» فلم يلبث أن تاب. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبر عنها به للتعليل بأن اشتغالها على ذكره هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات، أو لذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. ﴿وَاللَّهُ﴾

يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين والغضب بالكمظم والمشغبة بالنصح، وقيل هو منسوخ بآية السيف إذ لا مجادلة أشد منه وجوابه أنه آخر الدواء، وقيل المراد به ذوو العهد منهم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم ﴿يد الله مغلولة﴾ أو بنبد العهد ومنع الجزية. ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ هو من المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم». ﴿وَالْهُنَا وَالْهَؤُلَاءِ وَحَدُّ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال. ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وحياً مصداقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هم عبد الله بن سلام وأضرابه، أو من تقدم عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب. ﴿وَمَنْ هُوَ لَآءٍ﴾ ومن العرب أو أهل مكة أو ممن في عهد الرسول من أهل الكتابين. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها. ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ إلا المتوغلون في الكفر فإن جزمهم به يمنعهم عن التأمّل فيما يفيد لهم صدقها لكونها معجزة بالإضافة إلى الرسول ﷺ كما أشار إليه بقوله:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَنَالُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ﴾ فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة أُمي لم يعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة، وذكر اليمين زيادة تصوير للمعنى ونفي للتجاوز في الإسناد. ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتياحهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المكاثرية، وقيل لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ بل القرآن.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (49) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَرَ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَيْدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (51) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَشْهَدُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55) يَبْعَادَى الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا ارْضَى وَسِعَةً فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ (56)﴾

﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها حتى لم يعتدوا بها.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى، وقرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص ﴿آيات﴾. ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يتزلها كما يشاء لست أملكها فأتيتكم بما تقتضونه. ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتته بما أعطيت من الآيات.

﴿أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية مغنية عما اقترحوه. ﴿أَنَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدنين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحل بخلاف سائر الآيات، أو يتلى عليهم يعني اليهود بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة. ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة. ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتذكرة لمن همه الإيمان دون التعت. وقيل إن أناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكثف كتب فيها بعض ما يقول اليهود، «فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبينهم إلى ما جاء به غير نبينهم» فنزلت.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا﴾ بصدقي وقد صدقني بالمعجزات، أو بتبليغي ما أرسلت به إليكم ونصحي ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعت. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفي عليه حالي وحالكم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يعبد من دون الله. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ منكم. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم ﴿فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكل عذاب أو قوم. ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بآتيانه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب، أو هي كالمحيطة بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم، واللام للعهد على وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على موجب الإحاطة، أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ ظرف ﴿لمحيطة﴾ أو مقدرة مثل كان كيت وكيت. ﴿مِنْ قَوْفِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ﴾ من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ الله أو بعض ملائكته بأمره لقراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالنون. ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل لكم العبادة في بلدة ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتمشى لكم ذلك، وعنه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ فُرِّ بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام». والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَتَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَلَمْ نَحْمِلْهَا (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) وَكَانَ مِنْ دَآئِبِهِ لَا يَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُ شَيْءٌ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَسَتْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فُسُوقَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا عَاطِلًا أَوَّلَ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تناله لا محالة. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له وقرأ أبو بكر بالبلاء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علالي، وقرأ حمزة والكسائي «لنؤمنهم» أي لنقيمهم من الثواء فيكون انتصاب غرماً لإجرائه مجرى لنزلهم، أو بتزج الخافض أو بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ وقرئ «فنعم» والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والمشاق. ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولا يتوكلون إلا على الله.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رَزْقَهَا﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره، وإنما تصبح ولا معيشة عندها. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة، فإنهم لما أمروا بالهجرة قال بعضهم كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم هذا. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضميركم.

﴿وَلَنِّينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ المسؤول عنهم أهل مكة. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على أن البسط والقبض على التعاقب وألا يكون على وضع الضمير موضع من يشاء وإيهامه لأن من يشاء مبهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم.

﴿وَلَنِّينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك من مثل هذه الضلالة، أو على تصديقك وإظهار حجتك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيتناقضون حيث يقولون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ إشارة تحقير وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة. ﴿إِلَّا لَهُوَ وَلِعِبٌ﴾ إلا كما يلهي ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعيين. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ لهي دار الحياة الحقيقية لا تمتنع طريان الموت عليها، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة، و﴿الحيوان﴾ مصدر حي سمي به و الحياة وأصله حيوان فقلت الباء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلا من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ها هنا. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وصفوا به من الشرك فإذا ركبوا البحر. ﴿دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجؤوا المعاودة إلى الشرك.



﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة. ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادمهم عليها، أو لام الأمر على التهديد ويؤيده قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بالسكون. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة. ﴿أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ أي جعلنا بلدهم مصوناً عن النهب والتعدي آمناً أهله عن القتل والسبي. ﴿وَيُحْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يختلسون قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله يؤمنون بالصنم أو الشيطان. ﴿وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (68)  
وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (69)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني الرسول أو الكتاب، وفي ﴿لَمَّا﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوافقوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تقرير لثوائهم كقوله: ﴿أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا﴾ أي ألا يستوجبون الثواء فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو لاجترائهم أي ألم يعلموا أن ﴿في جهنم مثنوى للكافرين﴾ حتى اجترؤوا مثل هذه الجراءة.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في حقنا وإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وفي الحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والإعانة.

قال رسول الله ﷺ «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

## سورة الروم

[مكية إلا قوله فسبحان الله الآية وآياتها ستون أو تسع وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)﴾  
﴿الْم﴾.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم، أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل من الإضافة. ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، وقرىء ﴿غلبهم﴾ وهو لغة كالجلب والجلب. ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾.

﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى، وقيل بالجزيرة وهي أدنى أرض الروم من الفرس فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتموا بالمسلمين وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظفرون عليكم فنزلت، فقال لهم أبو بكر: لا يقرن الله أعينكم فوالله لتظفرون الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه، فناحبه على عشر فلاتص من كل واحد منهما وجعلاً الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايدة في الخطر وماده في الأجل، فجعلناه مائة فلوصل إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله ﷺ بعد فقوله من أحد وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال تصدق به. واستدلت به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب، وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار، والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب. وقرىء ﴿غَلِبَتْ﴾ بالفتح و﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام والمسلمون سيغلبونهم، وفي السنة التاسعة من نزوله غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم وعلى هذا تكون إضافة الغلب إلى الفاعل. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي له الأمر حين غلبوا وحين يغلبون ليس شيء منهما إلا بقضائه، وقرىء ﴿من قبل ومن بعد﴾ من غير تقدير مضاف إليه كأنه قيل قبلاً وبعداً أي أولاً وآخرأ. ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم. ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَنْصُرُ اللَّهُ﴾ من له كتاب على من لا كتاب له لما فيه من انقلاب التفاضل وظهور صدقهم فيما أخبروا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم، وقيل ينصر الله المؤمنين بإظهار صدقهم أو بأن ولي بعض أعدائهم بعضاً حتى تفانوا. ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ينتقم من عباده بالنصر عليهم تارة ويفضل عليهم بنصرهم أخرى.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن ما قبله في معنى الوعد . ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ لا امتناع الكذب عليه تعالى . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكرهم .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءُ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ نُقِيمُ السَّاعَةَ لِلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (12) وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)﴾

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ما يشاهدونه منها والتمتع بزخارفها . ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ ﴾ التي هي غايتها والمقصود منها . ﴿ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ لا تخطر ببالهم ، و ﴿ هُمْ ﴾ الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ و ﴿ غَافِلُونَ ﴾ خبره والجملة خبر الأولى ، وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة المبدلة من قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظاهرها ، فإن من العلم بظاهرها معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً ، وأما باطنها فإنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أو لم يحدثوا التفكير فيها ، أو أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها ومراة يجتلى فيها للمستبصر ما يجتلى له في الممكنات بأسرها ليتحقق لهم قدرة مبدعها على إعادتها مثل قدرته على إبدائها . ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بقول أو علم محذوف يدل عليه الكلام . ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده . ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بقاء جزائه عند انقضاء الأجل المسمى أو قيام الساعة . ﴿ لَكَافِرُونَ ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ تقرير لسيرهم في أقطار الأرض ونظرهم في آثار المدمرين قبلهم . ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ كعاد وشمود . ﴿ وَأَنَارُوا الْأَرْضَ ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها . ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ وعمروا الأرض . ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ من عمارة أهل مكة إياها فإنهم أهل واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها ، وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا مفتخرون بها وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ملجئون إلى دار لا نفع لها . ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ ﴾ ليفعل بهم ما تفعل الظلمة فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير . ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث عملوا ما أدى إلى تدميرهم .

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءُ ﴾ أي ثم كان عاقبتهم العاقبة ﴿ السُّوَاءُ ﴾ أو الخصلة ﴿ السُّوَاءُ ﴾ ، فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم وأنهم جاءوا بمثل أفعالهم ، و ﴿ السُّوَاءُ ﴾ تأنيث الأسوأ كالحسنى أو مصدر كالبشرى نعت به . ﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان لـ ﴿ السُّوَاءِ ﴾ ، أو خبر كان و ﴿ السُّوَاءِ ﴾ مصدر أسأوا أو مفعوله بمعنى ، ﴿ ثم ﴾

كان عاقبة ﴿الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، ويجوز أن تكون ﴿السوأي﴾ صلة الفعل و ﴿أن كذبوا﴾ تابعها والخبر محذوف للإبهام والتهويل، وأن تكون ﴿أن﴾ مفسرة لأن الإساءة إذا كانت مفسرة بالكذب والاستهزاء كانت متضمنة معنى القول، وقرأ ابن عامر والكوفيون ﴿عاقبة﴾ بالنصب على أن الاسم ﴿السوأي﴾ و ﴿أن كذبوا﴾ على الوجوه المذكورة.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئهم. ﴿ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾ يعيدهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروح بالياء على الأصل.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يسكتون متحيرين آيسين يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وآيس من أن يحتج ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو، وقرئ بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ ممن أشركوهم بالله. ﴿شُفَعَاءَ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، ومجيئه بلفظ الماضي لتحقيقه. ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يكفرون بالهتهم حين يسوا منهم، وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتب في المصحف ﴿شفعاء﴾ و﴿علموا بني إسرائيل﴾ بالواو وكذا ﴿السوأي﴾ بالالف إنباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمَذُ يَتَفَرَّقُونَ﴾ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16) فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْغَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (21) وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ السَّيِّئِينَ وَأَلْوَنَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ (22) وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ (23) وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)﴾

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمَذُ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي المؤمنون والكافرون لقوله تعالى :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أرض ذات أزهار وأنهار. ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون سروراً تهللت له وجوههم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إخبار في معنى الأمر بتتزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتجدد فيها نعمته، أو دلالة على أن ما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتتزيه واستحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهل السموات والأرض، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر، وتخصيص الحمد بالعشي الذي هو آخر النهار من عشي العين إذا نقص نورها والظهيرة التي هي وسطه لأن تجدد النعم فيهما

أكثر، ويجوز أن يكون ﴿عَشِيًّا﴾ معطوفاً على ﴿حِينَ تَمْسُونَ﴾ وقوله ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراضاً. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن الآية جامعة للصلوات الخمس ﴿تَمْسُونَ﴾ صلوات المغرب والعشاء، و ﴿تَصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، و ﴿عَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و ﴿تَظْهَرُونَ﴾ صلاة الظهر. ولذلك زعم الحسن أنها مدنية لأنه كان يقول كان الواجب بمكة ركعتين في أي وقت اتفقتا وإنما فرضه الخمس بالمدينة، والأكثر على أنها فرضت بمكة. وعنه عليه الصلاة والسلام «من سره أن يكال له بالقفيز الأول في قليل فليقل فسبحان الله حين تَمْسُونَ الآية». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قال حين يصبح فسبحان الله حين تَمْسُونَ إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاتته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاتته في يومه». وقرئ «حِينًا تَمْسُونَ» و «حِينًا تَصْبِحُونَ» أي تَمْسُونَ فيه وتَصْبِحُونَ فيه.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة والبيضة، أو يعقب الحياة الموت وبالعكس. ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يسها. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإخراج. ﴿تُخْرِجُونَ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيب الحياة الموت، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي في أصل الإنشاء لأنه خلق أصلهم منه. ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشِرُونَ﴾ ثم فاجأكم وقت كونكم بشراً متشرين في الأرض.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم وسائر النساء خلقتن من نطف الرجال، أو لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر. ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لتميلا إليها وتألفوا بها فإن الجنسية علة للضم والاختلاف سبب للتنافر. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي بين الرجال والنساء، أو بين أفراد الجنس. ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش، أو بأن تعيش الإنسان متوقفاً على التعارف والتعاون المحوج إلى التواد والتراحم، وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كقوله تعالى: ﴿ورحمة منا﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحكم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم بأن علم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها، أو أجناس نطفكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقتين متساويتين في الكيفية. ﴿وَالْوَالِدَيْنِ﴾ بياض الجلد وسواده، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها، وحلاها بحيث وقع التمايز والتعارف حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ لا تكاد تخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن، وقرأ حفص بكسر اللام ويؤيد قوله: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وتقوي القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما، أو منامكم بالليل وابتغاءكم بالنهار فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلا من الزمانين وإن اختلف بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة، ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ مقدر بأن المصدرية كقوله:

أَلَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا الزَّاجِرِيُّ أَخْضَرَ الرَّغَى وَأَنَّ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي

أو الفعل فيه منزلة المصدر كقولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق كقوله:

فَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتِغِي الْعَيْشَ أَكْذَحُ

﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث للمقيم، ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم تستلزم رؤيتهم أوله على تقدير مضاف نحو إرادة خوف وطمع، أو تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغماً للشیطان، أو على الحال مثل كلمته شفاهاً. ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وقرئ بالتشديد. ﴿فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يسها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في احيزهما المعينين من غير مقيم محسوس، والتعبير بالأمر للمبالغة في كمال القدرة والغنى عن الآلة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطف على ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ على تأويل مفرد كأنه قيل: ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ واحد فيقول أيها الموتى اخرجوا، والمراد تشبيه سرعة ترتب حصول ذلك على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعي المطاع على دعائه، وثم إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه ومن الأرض متعلق بدعا كقولك: دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي لا يخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، و ﴿إِذَا﴾ الثانية للمفاجأة ولذلك نابت مناب الفاء في جواب الأولى.

﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ﴾ (26) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (27) ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (28) ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ (29) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (30) ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (31) ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (32) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَفَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (33) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (34) ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (35) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (36) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (37)

﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُهُ قَانُونٌ﴾ منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عنه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد هلاكهم. ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ والإعادة أسهل عليه من الأصل بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء ولذلك قيل الهاء لـ ﴿الخلق﴾، وقيل ﴿أهون﴾ بمعنى هين وتذكير هو لأهون أو لأن الإعادة بمعنى أن يعيد. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ﴾ الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة ومن فسر بقول لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية. ﴿الْأَعْلَى﴾ الذي

ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يصفه به ما فيهما دلالة ونطقاً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ﴾ الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ منتزعا من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم. ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من ممالككم. ﴿مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها. ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فتكونون أنتم وهم فيه شرعاً يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم وأنها معارة لكم، و﴿مِنْ الْأُولَى﴾ للابتداء والثانية للتبعض والثالثة لمزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن يستبدوا بتصرف فيه. ﴿كَخِيفَتَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها فإن التفصيل مما يكشف المعاني ويوضحها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال.

﴿بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك. ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلين لا يكفهم شيء فإن العالم إذا اتبع هواه ربما ردعه علمه. ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ فمن يقدر على هدايته. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم عن آفاتهما.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فقومه له غير ملتفت أو ملتفت عنه، وهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به. ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ خلقته نصب على الإغراء أو المصدر لما دل عليه ما بعدها. ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلقهم عليها وهي قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه، أو ملة الإسلام فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها، وقيل العهد المأخوذ من آدم وذريته. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا يقدر أحد بغيره أو ما ينبغي أن يغير. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو الفطرة إن فسرت بالملة. ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامته لعدم تدبرهم.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى، وقيل منقطعين إليه من الناب وهو حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أم لأن الآية خطاب للرسول ﷺ والأمة لقوله: ﴿وَأَتَقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ غير أنها صدرت بخطاب الرسول ﷺ تعظيماً له.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بدل من المشركين وتفريقهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، وقرأ حمزة والكسائي ﴿فَارَقُوا﴾ بمعنى تركوا دينهم الذي أمروا به. ﴿وَكَانُوا شِيْعًا﴾ فرقا تشايح كل إمامها الذي أضل دينها. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظناً بأنه الحق، ويجوز أن يجعل فرحون صفة كل على أن الخبر ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدة. ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين من دعاء غيره. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ وَمِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ خلاصاً من تلك الشدة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ غير أنه التفت فيه مبالغة وقرىء و﴿ليتمتعوا﴾. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتعكم، وقرىء بالياء التحية على أن تمتعوا ماض.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وقيل ذا سلطان أي ملكاً معه برهان. ﴿فَهُوَ يَنْكَرُكُمْ﴾ تكلم دلالة كقوله ﴿كُتَابَنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أو نطق. ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ بإشراكهم وصحته، أو بالأمر الذي بسببه يشركون به في ألوهيته.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وسعة. ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطروا بسببها. ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾

شدة. ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُبَيدِيهِمْ﴾ بشؤم معاصيهم. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجزوا القنوط من رحمته وقرأ الكسائي وأبو عمرو بكسر النون.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَنْشِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فما لهم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة.

﴿فَكَانَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (38) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن ذِكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ (42) فَأَقْرَعْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ (43) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمُدُّهُنَّ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45) وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَن يُرْسَلَ الرِّيَّاحُ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَهُنَّ مِن رَّحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَلِيَ الْمُتَّقِينَ (46)﴾

﴿فَكَانَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا﴾ كصلة الرحم، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم وهو غير مشعر به. ﴿وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ ما وظف لهما من الزكاة، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لمن بسط له ولذلك رتب على ما قبله بالفاء. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ذاته أو جهته أي يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً، أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا﴾ زيادة محرمة في المعاملة أو عطية يتوقع بها مزيد مكافأة، وقرأ ابن كثير بالقصر بمعنى ما جئتم به من إعطاء رباً. ﴿لَيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ليزيد ويزكو في أموالهم. ﴿فَلَا يَرَبُّوْا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فلا يزكو عنده ولا يبارك فيه، وقرأ نافع ويعقوب ﴿لتربوا﴾ أي لتزيدوا أو لتصيروا ذوي رباً. ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار، أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة، وقرئ بفتح العين وتغييره عن ستن المقابلة عبارة ونظماً للمبالغة، والالتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم، أو للتعظيم كأنه قال: فمن فعل ذلك ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به، أو فمؤنوه أولئك هم المضعفون.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ أثبت له لوازم الألوهية ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق، ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء فقال: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوز أن تكون الكلمة الموصولة صفة والخبر ﴿هل من شركائكم﴾ والرباط ﴿من ذلكم﴾ لأنه بمعنى من أفعاله، و ﴿من﴾ الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي وكل منها مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء، وقرأ حمزة والكسائي بالثاء.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجذب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومحق البركات



وكثرة المضار، أو الضلالة والظلم. وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرى و «البحور». ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه، وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قابيل أخاه وفي البحر بأن جلندا ملك عُمان كان يأخذ كل سفينة غصباً. ﴿لِنَذِيْقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ بعض جزائه فإن تمامه في الآخرة واللام للعلّة أو للعاقبة. وعن ابن كثير ويعقوب «لنذيقهم» بالنون. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لتشهدوا مصداق ذلك وتحققوا صدقه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفشو الشرك وغلبته فيهم، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة. ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ لا يقدر أن يرده أحد، وقوله: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ متعلق بـ «يأتي»، ويجوز أن يتعلق بـ «مرّد» لأنه مصدر على معنى لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّعُونَ﴾ يتصدعون أي يفرقون «فريق في الجنة وفريق في السعير» كما قال «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» أي وباله وهو النار المؤبدة. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ فِيهِ يَأْتِيهِ يَمْهَدُونَ﴾ يسوون منزلاً في الجنة، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ علة لـ «يمهدون» أو لـ «يصعدون»، والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء على فحوى قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإن فيه إثبات البغض لهم والمحبة للمؤمنين، وتأكيد اختصاص الصلاح المفهوم من ترك ضميرهم إلى التصريح بهم تعليل له ومن فضله دال على أن الإثابة تفضل محض، وتأويله بالعطاء أو الزيادة على الثواب عدول عن الظاهر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ﴾ الشمال والصبأ والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي «الريح» على إرادة الجنس. ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ بالمطر. ﴿وَلِنَذِيْقِكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المنافع التابعة لها، وقيل الخصب التابع لتزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها والعطف على علة محذوفة دل عليها «مبشرات» أو عليها باعتبار المعنى، أو على «يرسل» بإضمار فعل معلل دل عليه. ﴿وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني تجارة البحر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله تعالى فيها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُ مَا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (47) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَسَافًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ (49) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْبِئٌ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الدَّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدَرَيْنِ (52) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعْتَ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخَافُ مَا يَسَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ

إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُفَعِّلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتَهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) ﴿

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا﴾ بالتدمير. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعار بأن الانتقام لهم وإظهار لكرامتهم حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم ثم تلا ذلك». وقد يوقف على ﴿حَقًّا﴾ على أنه متعلق بالانتقام.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُمْسِطُهُ﴾ متصلاً تارة. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في سمتها. ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سائراً أو واقفاً مطبقاً وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك. ﴿وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا﴾ قطعاً تارة أخرى، وقرأ ابن عامر بالسكون على أنه مخفف أو جمع كسفة أو مصدر وصف به. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في التارتين. ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني بلادهم وأراضيهم. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لمجيء الخصب.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرُ﴾ تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام بأسهم، وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لايسين.

﴿فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص. ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقرئ بالتاء على إسناده إلى ضمير الرحمة. ﴿إِنْ ذَلِكَ﴾ يعني إن الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها. ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية، هذا ومن المحتمل أن يكون من الكائنات الراحنة ما يكون من مواد تفتت وتبددت من جنسها في بعض الأعوام السالفة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على سواء.

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم، وقيل السحاب لأنه إذا كان ﴿مُصْفَرًّا﴾ لم يمطر واللام موطنه للقسم دخلت على حرف الشرط وقوله: ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ جواب سد مسد الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال. وهذه الآية ناعية على الكفار بقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكيرهم وسوء رأيهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم ولا ييأسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولم يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زرعهم بالاصفرار ولا يكفروا نعمه.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ وهم مثلهم لما سدوا عن الحق مشاعرهم. ﴿وَلَا تُسْمِعُ الضُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة، فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يظن منه بواسطة الحركات شيئاً، وقرأ ابن كثير بالياء مفتوحة ورفع ﴿الضُّمُّ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ سماهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الأبصار أو لعمي قلوبهم، وقرأ حمزة وحده «تهدي العمى». ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى، ويجوز أن يراد بالموءن المشارف للإيمان. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهم به.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلغت الحلم أو

تعلق بأبدانكم الروح. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السن، وفتح عاصم وجمزة الضاد في جميعها والضم أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما: قرأتها على رسول الله ﷺ «من ضعف فأقرأني من ضعف». وهما لغتان كالفقر والفقر والتكبر مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ضعف وقوة وشيبة وشيبة. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ فإن التردد في الأحوال المختلفة مع إمكان غيره دليل العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً بها بالغلبة كالكوكب للزهرة. ﴿يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم، وفي الحديث «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون» وهو محتمل الساعات والأيام والأعوام. ﴿غَيْرِ سَاعَةٍ﴾ استقلوا مدة لبثهم إضافة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق. ﴿كَأَنَّا يُؤْفِكُونَ﴾ يصرفون في الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة والإنس. ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علمه أو قضائه، أو ما كتبه لكم أي أوجهه أو اللوح أو القرآن وهو قوله: ﴿وَمَنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾. ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه. ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه. ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر، والفاء لجواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم منكبين البعث فهذا يومه، أي فقد تبين بطلان إنكاركم.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ﴾ وقرأ الكوفيون بالياء لأن المعذرة بمعنى العذر، أو لأن تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يدعون إلى ما يقتضي إعتابهم أي إزالة عنهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعطني فلان فأعقبته أي استرضاني فأرضيته.

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جِثَّتْهُمْ بَيَاطٌ لِيَقُولَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بَيَاطٍ لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول. ﴿وَلَكِنْ جِثَّتْهُمْ بَيَاطٌ﴾ من آيات القرآن. ﴿لِيَقُولَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم. ﴿إِنَّا أَنْتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مزورون.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع. ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذاهم. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بتصرتك وإظهار دينك على الدين كله. ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ﴾ ولا يحملنك على الخفة والقلق. ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيدائهم فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوب بتخفيف النون، وقرئ «ولا يستحقنك» أي لا يزيغنك فيكونوا أحق بك مع المؤمنين. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته».

## سورة لقمان

[مكية]

إلا آية وهي ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ فإن وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لأنه لا ينافي شرعتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ وهي أربع وثلاثون آية، وقيل ثلاث وثلاثون].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن يَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (11)﴾

﴿الْم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ سبق بيانه في «يونس».

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة، ورفعهما حمزة على الخبر بعد الخبر أو الخبر لمحذوف.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيان لإحسانهم أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه لفضل اعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما حيل بينه وبين خبره.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لاستجماعهم العقيدة الحقّة والعمل الصالح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ما يلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار بها والمضاحك وفضول الكلام، والإضافة بمعنى من وهي تبينية إن أراد بالحديث المنكر وتبعيضية إن أراد به الأعم منه. وقيل نزلت في النضر بن الحارث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة. وقيل كان يشتري القيان ويحملهن على معاشره من أراد الإسلام ومنعه عنه. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه أو قراءة كتابه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بمعنى ليثبت على ضلاله ويزيد فيه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيل سخرية، وقد نصبه حمزة

والكسائي ويعقوب وحفص عطفاً على ﴿ليضل﴾. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً لا يعبا بها. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مشابهاً حاله حال من لم يسمعها. ﴿كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاءٌ﴾ مشابهاً من في أذنيه ثقل لا يقدر أن يسمع، والأولى حال من المستكن في ﴿ولى﴾ أو في ﴿مستكبراً﴾، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في ﴿لم يسمعها﴾ ويجوز أن يكونا استثنافين، وقرأ نافع ﴿في أذنيه﴾. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعلمه بأن العذاب يحيق به لا محالة وذكر البشارة على التهكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيم الجنات فعكس للمبالغة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لهم﴾ أو من ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ والعامل ما تعلق به اللام. ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله ﴿لهم جنات﴾ وعد وليس كل وعد حقاً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قد سبق في «الرعد». ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبلاً شوامخ. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميد بكم، فإن تشابه أجزائها يقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز ووضع معينين. ﴿وَبِئْسَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَاتْرَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ هذا الذي ذكر مخلوقه فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته، و ﴿ماذا﴾ نصب بـ ﴿خلق﴾ أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته ﴿فأروني﴾ معلق عنه. ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبييتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر، ووضع الظاهر موضع المضممر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (12) وَلِذَلِكَ لَقَمْنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنِي لَأَشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثَمَرٍ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يَبْنِي إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَبْنِي أَفَرِ الضَّلُوتِ وَأَمْرًا لِمَعْرُوفٍ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرٌ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (20)﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ يعني لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً. والحكمة في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب

الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكم وقليل فاعله، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري، ففكر داود فيه فصعق صعقة. وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال: هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا. ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لأن أشكر أو أي أشكر فإن إتياء الحكمة في معنى القول. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه عائد إليها وهو دوام النعمة واستحقاق مزيدها. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاج إلى الشكر. ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده، أو محمود ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ لِقَمَانُ لِابْنِهِ﴾ أنعم أو أشكم أو ما ثان. ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بَنِيَّ﴾ تصغير إشفاق، وقرأ ابن كثير هنا وفي ﴿يَا بَنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ بإسكان الياء، وحفص فيهما وفي ﴿يَا بَنِي إِنَّا إِن تَكُ﴾ بفتح الياء ومثله البيزي في الأخير وقرأ الباقون في الثلاثة بكسر الياء. ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم، ومن وقف على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعل بالله قسماً. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا﴾ ذات وهن أو تهن وهنا ﴿وَعَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها والجملة في موضع الحال، وقرئ بالتحرير يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا. ﴿وَفَصَّلَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وفطامه في انقضاء عامين وكانت ترضعه في تلك المدة، وقرئ «وفصله في عامين» وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان. ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تفسير لـ ﴿وصينا﴾ أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتمال، وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكداً للتوصية في حقها خصوصاً ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن قال مَنْ أَبْرَ «أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك أباك». ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فأحاسبك على شركك وكفرك.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما، وقيل أراد بنفي العلم به نفيه. ﴿فَلَا تُطْعِمُهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. ﴿وَاتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعك ومرجعهم. ﴿فَأَنْبِئْهُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهم على كفرهما، والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تلو البارئ في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما (روي) نزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تطعم فيها شيئاً، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل. ورفع نافع «مِثْقَال» على أن الهاء ضمير القصة وكان تامة وتأنيتها لإضافة المِثْقَال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شُرقت صدر القناة من الدم

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة. ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحذب السموات أو أسفله كمقعر الأرض. وقرئ بكسر الكاف من وكن

الطائر إذا استقر في وكنته. ﴿يَاتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يحضرها فيحاسب عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ تكميلاً لنفسك. ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك. ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من الشدائد سيما في ذلك. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر أو إلى كل ما أمر به. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب مصدر أطلق للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون من الصعر وهو أو الصبداء يعتري البعير فيلوي عنقه. وقرأ نافع وأبو عمرو وحزمة والكسائي ﴿ولا تصاعر﴾، وقرأ ﴿ولا تصعر﴾ والكل واحد مثل علاه وأعلاه وعالاه. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي فرحاً مصدر وقع موقع الحال أي تروح مرحاً أو لأجل المرح وهو البطر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علة للنهي وتأخير الـ ﴿فخور﴾ وهو مقابل للمصعر خده والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسط فيه بين الدبيب والإسراع. وعنه عليه الصلاة والسلام: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن»، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد ما فوق ديبب المتماوت، وقرأ بقطع الهمزة من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية. ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وانقص منه واقصر. ﴿إِنَّ أَكْثَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أوحشها. ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ والحمار مثل في الدم سيما نهاقه ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين، وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراج مخرج الاستعارة مبالغة شديدة وتوحيد الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في التكثير دون الأحاد أو لأنه مصدر في الأصل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا جَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُنَبِّئُهُمْ فَلْيَاثِمِ نَضَطَّرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِيهِ سَبْعَةُ أَمْحَرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ بأن جعله أسباباً محصلة لمنافعكم. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن مكنكم من الانتفاع به بوسط أو غير وسط ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة، وقرأ «وأصبغ» بالإبدال وهو جار في كل سين اجتمع من الغين أو الخاء أو القاف كصلخ وصقر، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص ﴿نعمه﴾ بالجمع والإضافة. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل. ﴿وَلَا

هَدَى رَاجِعَ إِلَى رَسُولٍ. ﴿وَلَا كِتَابَ مُنِيرٍ﴾ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَلِّ بِالتَّقْلِيدِ كَمَا قَالَ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهو منع صريح من التقليد في الأصول. ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ يحتمل أن يكون الضمير ﴿لَهُمْ﴾ ولآبائهم. ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب لو محذوف مثل لا تبعوه، والإستفهام للإنكار والتعجب.

﴿وَمَنْ يُنْسَلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بأن فوض أمره إليه وأقبل بشرائه عليه من أسلمت المتاع إلى الزبون، ويؤيده القراءة بالتشديد وحيث عدى باللام فلتضمن معنى الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله. ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ تعلق بأوثق ما يتعلق به، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاطئ جبل فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ إذ الكل صائر إليه.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة، وقرئ ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ﴾ من أحزن وليس بمستفيض. ﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ بالإهلاك والتعذيب. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فمجاز عليه فضلاً عما في الظاهر.

﴿نُتَبِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتعاً أو زماناً قليلاً فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم إلى الإحراق الضغط.

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذعانه. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم والجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وتوحيد ﴿شَجَرَةٍ﴾ لأن المراد تفصيل الآحاد. ﴿وَالْبَحْرِ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحر المحيط بسعته مداداً ممدوداً بسبعة أبحر، فأغنى عن ذكر المداد يمدده لأنه من مد الدواة وأمدّها، ورفعها للعطف على محل أن ومعمولها ويمده حال أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال، ونصبه البصريان بالعطف على اسم ﴿أَنْ﴾ أو إضمار فعل يفسره ﴿يمده﴾، وقرئ «تمده» «ويمده» بالياء والتاء. ﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ بكتبتها بتلك الأقلام بذلك المداد وإيثار جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، والآية جواب لليهود سألوها رسول الله ﷺ أو أمروا وقد قرئ أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أوتيتهم من العلم إلا قليلاً﴾ وقد أنزل التوراة وفيها علم كل شيء.

﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا كُنُفًى وَاحِدَةً﴾ إلا كخلقتها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية كما قال ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لَشَيْءٍ﴾ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله إدراك بعضها عن بعض فذلك الحق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾ كل من النيرين يجري في فلكه. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهى معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر. وقيل إلى يوم القيامة والفرق بينه وبين قوله ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أن ال ﴿أَجَلٍ﴾ ها هنا منتهى الجري وثمة غرضه حقيقة أو مجازاً وكلا المعنيين حاصل في الغايات. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.



﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها. ﴿بَآنَ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته، أو الثابت إلهيته. ﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله أو الباطل إلهيته، وقرأ البصريان والكوفيون غير أبي بكر بالياء. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْفُورَ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه في تهية أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه والباء للصلة أو الحال، وقرئ ﴿الْفُلْكَ﴾ بالثقل و «بنعمات الله» بسكون العين، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون. ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ دلالته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاق فيتعبد نفسه بالتفكر في الأفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ يعرف النعم ويتعرف مانحها، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ علاهم وغطاهم. ﴿مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما، وقرئ كالظلال جمع ظله كفلة وقلال. ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لزوال ما ينزع القطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار فإنه نقض للعهد الفطري، أو لما كان في البحر والختر أشد الغدر. ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا يَفْضِي عَنْهُ﴾، وقرئ «لا يجزي» من أجزأ إذا أغنى والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدٍ﴾ عطف على ﴿والد﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿هُوَ جَازٍ عَنِ وَلَدِهِ شَيْئًا﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب. ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خلفه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسرکم على المعاصي.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ علم وقت قيامها. لما روي أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيام الساعة؟ وإني قد ألقيت حباتي في الأرض فمتى السماء تمطر؟ وحمل امرأتي أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأين أموت؟ فزلت. وعنه عليه الصلاة والسلام «مفاتيح الغيب خمس» وتلا هذه الآية. ﴿وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ﴾ في إبانة المقدر له والمحل المعين له في علمه، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى أم أنثى أم ناقص. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظم إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك

الموت فقال كأنه يريدني فمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند ففعل فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك»، وإنما جعل العلم لله تعالى والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه، وقرئ «بأية أرض» وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل في «كلهن». «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ» يعلم الأشياء كلها. «خَيْرٌ» يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة، وأعطى من الحسنات عشرًا عشرًا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر».

## سورة السجدة

[مكية، وآياتها ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّبَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَ مِنْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9) وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَهِيَ تَأْتِي خَلْقَ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِيرُونَ (10)﴾

﴿الم﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأ خبره:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ على أن التزليل بمعنى المنزل، وإن جعل تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ فيكون. ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في ﴿فيه﴾ لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ولا ﴿رب فيه﴾ حال من ﴿الكتاب﴾، أو اعتراض والضمير في فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّبَهُ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين وقوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه تقرير له، ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزله من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه، فإن ﴿أَمْ﴾ منقطعة ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبين المقصود من تنزله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَ مِنْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إذا كانوا أهل الفترة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ مرّ بيانه في «الأعراف». ﴿مَّا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ﴿مَا لَكُمْ﴾ إذا جاوزتم رضا الله أحد ينصركم ويشفع لكم، أو ﴿مَا لَكُمْ﴾ سواء ولي ولا شفيع بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطن نصركم على أن الشفيع متجاوز به للناصر، فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله تعالى.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعد إليه ويثبت في علمه موجوداً. ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في برهة من الزمان متطاولة يعني بذلك استطالة ما بين التدبير والوقوع. وقيل يدبر الأمر بإظهاره في

اللوحي فينزل به الملك ثم يعرج إليه في زمان هو كآلف سنة، لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرة ألف سنة فإن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة. وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر. وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة. وقيل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي، ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلّة المخلصين والأعمال الخالص، وقرئ «يعرج» و«يعدون».

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فيدبر أمرهما على وفق الحكمة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره. ﴿الرَّحِيمُ﴾ على العباد في تديبره، وفيه إيماء بأنه يراعي المصالح تفضلاً وإحساناً.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ خلقة موفراً عليه ما يستعد له ويليق به على وفق الحكمة والمصلحة، وخلقه بدل من كل بدل الاشتغال وقل علم كيف يخلقه من قولهم قيمة المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته، و«خلقه» مفعول ثان. وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف فالشيء على الأول مخصوص بمفصل وعلى الثاني بم متصل. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ يعني آدم. ﴿مِنْ طِينٍ﴾. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذريته سميت بذلك لأنها تنسل منه أي تنفصل. ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ممتهن.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ إضافة إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجيب، وأن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

﴿وَقَالُوا أَنِذَا صَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا تتميز منه، أو غبنا فيها. وقرأ «ضللنا» بالكسر من ضل يضل «وضللنا» من ضل اللحم إذا أنتن، وقرأ ابن عامر «إذا» على الخبر والعامل فيه ما دل عليه. ﴿أَنِنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو: نبعث أو يجدد خلقنا. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب «أنا» على الخبر، والقائل أبي بن خلف وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده. ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون.

﴿قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَكُمْ بِكُمْ ثُمَّ إِلَ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (11) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَاوَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِءَ تَكْذِبُونَ (20)﴾

﴿قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يبقى منكم أحداً، والتفعل والاستفعال يلتقيان

كثيراً كتقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته. ﴿مَلِكِ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بقبض أرواحكم وإحصاء أجالكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من الحياء والخزي. ﴿رَبَّنَا﴾ قائلين ربنا. ﴿أَبْصُرْنَا﴾ ما وعدتنا. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً، ويجوز أن تكون للتمني والمضي فيها وفي ﴿إِذْ﴾ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع، ولا يقدر له ﴿تَرَىٰ﴾ مفعول لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت، أو يقدر ما دل عليه صلة إذ والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك تصريح بعدم إيمانهم لعدم المشيئة المسبب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكيرهم فيها بقوله:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له. ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة، أو في العذاب ترك المنسي وفي استثنائه وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كرر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكير فيها دلالة على أن كلا منهما يقتضي ذلك.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ وعظوا بها. ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ خوفاً من عذاب الله. ﴿وَسَبَّحُوا﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث. ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة كم يفعل من يصير مستكبراً.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتتنحي. ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الفرش ومواقع النوم. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه. ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها «قيام العبد من الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس» وقيل كان أناس من الصحابة يصلون من المغرب إلى العشاء فنزلت فيهم. ﴿وَمِمَّا زَكَّيْنَاهُمْ يُتَّقُونَ﴾ في وجوه الخير.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تقربه عيونهم. وعنه عليه الصلاة والسلام «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعهم عليه، أقرؤوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم». وقرأ حمزة ويعقوب ﴿أخفي لهم﴾ على أنه مضارع أخفيت، وقروء نخفي وأخفي الفاعل للكل هو الله، وقرأت ﴿أعين﴾ لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة و﴿ما﴾ موصولة أو استفهامية معلق عنها الفعل. ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزوا جزاء أو أخفي للجزاء فإن إخفاءه لعلو شأنه. وقيل هذا القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ في الشرف والمثوبة تأكيد وتصريح والجمع للحمل على المعنى.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة. وقيل المأوى جنة من الجنان. ﴿نُزُلًا﴾ سبق تفسيره في سورة «آل عمران». ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ مكان جنة المأوى للمؤمنين. ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنَذِيقَنَّ هُنَّ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُنَّ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ (22) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَحِمْلَتْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24)﴾

﴿وَلَنَذِيقَنَّ هُنَّ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَى﴾ عذاب الدنيا يريد ما محنوا به من السنة سبع سنين والقتل والأسر. ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة. ﴿لَعَلَّهُنَّ﴾ لعل من بقي منهم. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر. روي أن الوليد بن عقبة فاخر علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتفكر فيها، و ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة.

وَلَا يَكْشِفُ الْغَمَاءُ إِلَّا ابْنَ حَرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك. ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِنْ لِقَائِهِ﴾ من لقائك الكتاب كقوله: ﴿إِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ فإننا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه فليس ذلك ببدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه، أو من لقاء موسى للكتاب أو من لقاءك موسى. وعنه عليه الصلاة والسلام «رايت ليلة أسري بي موسى ﷺ رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة». ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي المنزل على موسى. ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له. ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (25) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرَيْرِ فَنَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْظَرِ إِلَيْهِمْ مِّنْظَرُونَ (30)﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتميز المحق من المبطل . ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين .

﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواو للعطف على منوي من جنس المعطوف والفاعل ضمير ما دل عليه . ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكتهم من القرون الماضية ، أو ضمير الله بدليل القراءة بالنون . ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ يعني أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم ، وقرىء ﴿يَمْشُونَ﴾ بالتشديد . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ .

﴿أَوَّلَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل لا التي لا تنبت لقوله : ﴿فَنُخْرِجْ بِهِ زَرْعًا﴾ وقيل اسم موضع باليمن . ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع . ﴿أَنعَامُهُمْ﴾ كالتبن والورق . . ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والتمر . ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ النصر أو الفصل بالحكومة من قوله ﴿ربنا افتح بيننا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد به .

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وهو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم . وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة ، والمراد بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانهم حال القتل ولا يمهلون وانطباعه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عرف من غرضهم ، فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكديماً واستهزاء أجيبوا بما يمنع الاستعجال .

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ، وقيل هو منسوخ بآية السيف . ﴿وَأَنْتَظِرُ﴾ النصر عليهم . ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ الغلبة عليك ، وقرىء بالفتح على معنى أنهم أحقأ بأن ينتظر هلاكهم أو أن الملائكة ينتظرونه .

عن النبي ﷺ من قرأ «ألم تنزل ، تبارك الذي بيده الملك أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر» . وعنه من قرأ «ألم تنزل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام» .

## سورة الأحزاب

[مدنية وآياتها ثلاث وسبعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَأَتَّبِعْ مَا يَوْحَىٰ لِإِنَّا بِكَ مِنْ رَبِّكَ لَإِنَّا اللَّهُ كَانِ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (3) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا أَسْمَاءَهُمْ فَلَاخُذْهُمْ فِي الَّذِينَ مَوْلَاهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (5) الَّذِينَ أُولُوا بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أُولِيَ الْبَالِ كَمَا مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7) لَيْسَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (8) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْأَنْفُوسُ الْخَنَازِيرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (10)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ناداه بالنبى وأمره بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى، والمراد به الأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً له عما نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فيما يعود بوهن في الدين. روي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في الموادة التي كانت بينه وبينهم وقام معهم ابن أبي معتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا له: أرفض ذكر ألھتنا وقل إن لها شفاعة وندعك وربك فنزلت. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة.

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ كالنهي عن طاعتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فموح إليك ما تصلح به أعمالك ويغني عن الاستماع إلى الكفرة، وقرأ أبو عمرو بالياء على أن الواو ضمير الكفرة والمنافقين أي أن الله خبير بما كيدهم فيدفعها عنك.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وكل أمرك إلى تدبيره. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور كلها.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي ما جمع قلبين في جوف لأن القلب معدن الروح الحيواني المتعلق بالنفس الإنساني أولاً ومنع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد. ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ



مِنْهُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وما جمع الزوجية والأمومة في امرأة ولا الدعوة والبنوة في رجل، والمراد بذلك رد ما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك قيل لأبي معمر أو جميل بن أسد الفهري ذو القلبين، والزوجة المظاهر عنها كالأم ودعي الرجل ابنة ولذلك كانوا يقولون لزيد بن حارثة الكلبي عتيق رسول الله ﷺ ابن محمد، أو المراد نفى الأمومة والبنوة عن المظاهر عنها والمتبنى ونفي القلبين لتمهيد أصل يحملان عليه. والمعنى كما لم يجعل الله قلبين في جوف لأدائه إلى التناقض وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل لم يجعل الزوجة والدعي للذين لا ولادة بينهما وبينه أمه وابنة اللذين بينهما وبينه ولادة، وقرأ أبو عمرو «اللاي» بالياء وحده على أن أصله اللاء بهمزة فخففت وعن الحجازيين مثله، وعنهما وعن يعقوب بالهمز وحده، وأصل ﴿تظاهرون﴾ تتظاهرون فأدغمت التاء الثانية في الظاء. وقرأ ابن عامر ﴿تظاهرون﴾ بالإدغام وحمزة والكسائي بالحذف وعاصم ﴿تظاهرون﴾ من ظاهر، وقرئ «تظهرون» من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد وتظهرون من الظهور. ومعنى الظهار: أن يقول للزوجة أنت على كظهر أمي، مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقاً في الجاهلية وهو في الإسلام يقتضي الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدى إلى بها، وهو بمعنى حلف وذكر الظهر للكناية عن البطن الذي هو عموده فإن ذكره يقارب ذكر الفرج، أو للتغليظ في التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان المرأة وظهرها إلى السماء، وأدعياء جمع دعي على الشذوذ وكأنه شبه بفعل بمعنى فاعل فجمع جمعه. ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر أو إلى الأخير. ﴿تَوَلَّوْكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ لا حقيقة له في الأعيان كقول الهادي. ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ ما له حقيقة عينية مطابقة له. ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أنسبهم إليهم، وهو أفراد للمقصود من أقواله الحق وقوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعليل له، والضمير لمصدر ﴿ادعوهم﴾ و ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل ومعناه البالغ في الصدق. ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنبسهم إليهم. ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين. ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ وأولياؤكم فيه فقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويل. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان. ﴿وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم أو ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ لعفوه عن المخطيء. واعلم أن التنبى لا عبرة به عندنا وعند أبي حنيفة يوجب عتق مملوكه ويثبت النسب لمجهوله الذي يمكن إلحاقه به.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، ولذلك أطلق فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفقتهم عليه أتم من شفقتهم عليها. روي: أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس نتسأذن آبائنا وأمهاتنا فنزلت. وقرئ «وهو أب لهم» أي في الدين فإن كل نبي أب لأمته من حيث أنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون أخوة. ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ منزلات منزلتهن في التحريم واستحقاق التعظيم وفيما عدا ذلك فكالأجنبيات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنا أمهات النساء. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذوو القربابات. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالة في الدين. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح أو فيما أنزل، وهو هذه الآية أو آية الموارث أو فيما فرض الله. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ بيان لأولي الأرحام، أو صلة لأولي أي أولوا الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة. ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف

التوصية أو منقطع ﴿وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ كان ما ذكر في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل في التوراة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ مقدر باذكر وميثاقهم عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم. ﴿وَمِنْكُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عظيم الشأن أو مؤكداً باليمين، والتكرير لبيان هذا الوصف تعظيماً له.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِالصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم، أو تصديقهم إياهم تبيكياً لهم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق، أو المؤمنين الذين صدقوا عهودهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهودهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على ﴿أَخَذْنَا﴾ من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين، أو على ما دل عليه ليسأل كأنه قال فأناب المؤمنين وأعد للكافرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريح الصبا. ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما سمع بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ثم خرج إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى بعث الله عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتية، فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض وكبرت الملائكة في جوانب العسكر، فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وقرأ البصريان بالياء أي بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة. ﴿بَصِيرًا﴾ راتياً.

﴿إِذْ جَاءَكُمْ﴾ بدل من إذا جاءتكم. ﴿مِنْ قَوْفِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق بنو غطفان. ﴿وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشغوصاً. ﴿وَبَكَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ رعباً فإن الرعدة تنتفخ من شدة الروع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب. ﴿وَتَطَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ الأنواع من الظن فظن المخلصون الثبت القلوب أن الله منجز وعده في إعلاء دينه، أو ممتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم، والألف مزيدة في أمثاله تشبيهاً للفواصل بالقوافي وقد أجرى نافع وابن عامر وأبو بكر فيها الوصل مجرى الوقف، ولم يزلها أبو عمرو وحمة ويعقوب مطلقاً وهو القياس.

﴿هَٰذَا لِكَيْ تَبْلُوَ الْمُؤْمِنُونَ وَتَزِلُّوا زَلَزًا شَدِيدًا﴾ (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُفِيقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُواكَ الْاَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْخُولًا (15) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ

يَكُرِّ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَثْلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كُنُوا فِيكُمْ مَا فَنَلُّوا إِلَّا قَلِيلًا (20) ﴿

هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبروا فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتردد. ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من شدة الفزع وقرئ ﴿زُلْزَالًا﴾ بالفتح.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد. ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر وإعلاء الدين. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وعدا باطلاً. قيل قاله معتب بن قشير قال يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ما هذا إلا وعد غرور.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني أوس بن قيطي وأتباعه. ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهل المدينة، وقيل هو إسم أرض وقعت المدينة في ناحية منها. ﴿لَا مَقَامَ﴾ لا موضع قيام. ﴿لَكُمْ﴾ ها هنا، وقرأ حفص بالضم على أنه مكان أو مصدر من أقام. ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هاربين، وقيل المعنى لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا، أو لا مقام لكم يثرب فارجعوا كفاراً ليتمكنكم المقام بها. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ للرجوع. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينة وأصلها الخلل، ويجوز أن يكون تخفيف العورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرئ بها. ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة. ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ دخلت المدينة أو بيوتهم. ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها وحذف الفاعل للإيحاء بأن دخول هؤلاء المتحزبين عليهم ودخول غيرهم من العساكر سيان في اقتضاء الحكم المرتب عليه. ﴿ثُمَّ سِئِلُوا فَتَنَةً﴾ الردة ومقاتلة المسلمين. ﴿لَا تَوْهًا﴾ لأعطوها، وقرأ الحجازيان بالقصر بمعنى لجأوها وفعلوها. ﴿وَمَا تَلْبُكُوا بِهَا﴾ بالفتنة أو بإعطائها. ﴿إِلَّا تَسِيرًا﴾ ريشما يكون السؤال والجواب، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد تمام الارتداد إلا يسيراً.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْيَارَ﴾ يعني بني حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا ثم تابوا أن لا يعودوا لمثله. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاء به مجازي عليه.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ قَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم. ﴿وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً فمنعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمتيعاً، أو زماناً قليلاً.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام كما في قوله:

مَتَقَلِّدًا سِيفًا وَرِمْحًا

أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ المشبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ من ساكني المدينة. ﴿هَلُمُّوا إِلَيْنَا﴾ قربوا أنفسكم إلينا وقد ذكر أصله في «الإنعام». ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً، فإنهم يعتذرون ويتشبثون ما أمكن لهم، أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً كقوله ﴿مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقيل إنه من تمتة كلامهم ومعناه لا يأتي أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلاً.

﴿أَشْحَهُ عَلَيْهِمْ﴾ بخلاء عليكم بالمعونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر أو الغنيمة، جمع شحيح ونصبها على الحال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾ أو ﴿المعوقين﴾ أو على الذم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم. ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ﴾ كظفر المغشي عليه أو كدوران عينية، أو مشبهين به أو مشبهة بعينه. ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من معالجة سكرات الموت خوفاً ولو إذا بك. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم. ﴿سَلَقُواكُمْ﴾ ضربوكم. ﴿بِالْأَسِنَّةِ حِدَادٍ﴾ ذربة يطلبون الغنيمة، والسلق البسط بقهر باليد أو اللسان. ﴿أَشْحَهُ عَلَى الْخَيْرِ﴾ نصب على الحال أو الذم، ويؤيده قراءة الرفع وليس بتكرير لأن كلا منهما مقيد من وجه. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُوْمِنُوا﴾ إخلاصاً. ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً لتعلق الإرادة به وعدم ما يمنعه عنه.

﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا، وقد انهزموا ففروا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة ثانية. ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب. ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة. ﴿عَنْ أَنْبَاءِكُمْ﴾ عما جرى عليكم. ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال. ﴿مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وخوفاً من التعبير.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا (24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (25) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِن أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26)﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو في نفسه قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون منا حديداً أي هي في نفسها هذا القدر من الحديد، وقرأ عاصم بضم الهمزة وهو لغة فيه. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي ثواب الله أو لقاءه ونعيم الآخرة، أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً. وقيل هو كقولك أرجو زيدا وفضله، فإن ﴿اليوم الآخر﴾ داخل فيها بحسب الحكم والرجاء يحتمل الأمل والخوف و﴿لمن﴾ كان صلة لحسنة أو صفة لها. وقيل بدل من ﴿لكم﴾ والأكثر على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه. ﴿وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ وقرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدية إلى ملازمة الطاعة، فإن المؤتسى بالرسول من كان كذلك.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا

الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم» الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم». وقوله عليه الصلاة والسلام: إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر» وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الراء وفتح الهمزة. «وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ» ظهر صدق خبر الله ورسوله أو صدقاً في النصرة والثواب كما صدقا في البلاء، وإظهار الاسم للتعظيم. «وَمَا زَادَهُمْ» فيه ضمير «لما رأوا»، أو الخطاب أو البلاء. «إِلَّا إِيْمَانًا» بالله ومواعيده. «وَسَلِيمًا» لأوامره ومقاديره.

«مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين من صدقني إذا قال لك الصدق، فإن المعاهد إذا وفى بعهده فقد صدق فيه. «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ» نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر، والنحب النذر واستعير للموت لأنه كنذر لازم في رقة كل حيوان. «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» الشهادة كعثمان وطلحة رضي الله عنهما. «وَمَا بَدَلُوا» العهد ولا غيره. «تَبْدِيلًا» شيئاً من التبديل. روي أن طلحة ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيب يده فقال عليه الصلاة والسلام: «أوجب طلحة» وفيه تعريض لأهل النفاق ومرض القلب بالتبديل، وقوله:

«لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصَدَقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» تعليل للمنطوق والمعرض به، فكان المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنی، والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم أو المراد بها التوفيق للتوبة. «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» لمن تاب.

«وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني الأحزاب. «بِغَيْظِهِمْ» متغيظين. «لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا» غير ظافرين وهما حالان بتداخل أو تعاقب. «وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ» بالريح والملائكة. «وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا» على إحداث ما يريد. «عَزِيزًا» غالباً على كل شيء.

«وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ» ظاهروا الأحزاب. «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» يعني قريظة. «مِنْ صِيَاصِيهِمْ» حصونهم جمع صيصية وهي ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك. «وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبُ» الخوف وقرىء بالضم. «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا» وقرىء بضم السين روي: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب فقال: أنتزع لآمتك والملائكة لم يضعوا السلاح إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فحاصروهم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين حتى جهدهم الحصار فقال لهم: تنزلون على حكمي فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ فرضوا به، فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبر النبي عليه الصلاة والسلام فقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرفعة، فقتل منهم ستمائة أو أكثر وأسر منهم سبعمائة.

«وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْغَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27) يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُحِدْنَ آلَ حَيَاةٍ دُنْيَاً وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُ أُمْتِعْكَ وَأُسرِحْكَ سِرْلاً جَمِلاً (28) وَلَئِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْأَرْضَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً (29) يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِي مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعِّفْ لَهَا الْعَذَابَ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (30) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَفْعَلْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعَمَّلْ صَلياً تَوَيْهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (31) يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ

الْأُولَى وَأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (33) ﴿

﴿وَأَوْزَنْتُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم. ﴿وَوَدَّيَارَهُمْ﴾ حصونهم. ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام جعل عقارهم للمهاجرين فتكلم فيه الأنصار فقال: إنكم في منازلكم وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة. ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطْوُهَا﴾ كفارس والروم، وقيل خيبر وقيل كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدر على ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ السعة والتنعيم فيها. ﴿وَزَيْتَهَا﴾ زخارفها. ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَيِّغُكُمْ﴾ أعطكن المتعة. ﴿وَأَسْرُحُكُمْ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ طلاقاً من غير ضرار وبدعة. روي أنهم سأله ثياب الزينة وزيادة النفقة فتزلت. فبدأ بعائشة رضي الله عنها فخيرها فاخترت الله ورسوله، ثم اختارت الباقيات اختارها فشكر الله لهن ذلك فأنزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ وتعليق التيسير بإرادتتهن الدنيا وجعلها قسيماً لإرادتتهن الرسول يدل على أن المخيرة إذا اختارت زوجها لم تطلق خلافاً لزيد والحسن ومالك وإحدى الروایتين عن علي، ويؤيده قول عائشة رضي الله عنها «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه». ولم يعد طلاقاً وتقديم للتمتع على التيسير المسبب عنه من الكرم وحسن الخلق. قيل لأن الفرقة كانت بإرادتتهن كاختيار المخيرة نفسها فإنه طلقة رجعية عندنا وبأئنة عند الحنفية، واختلف في وجوبه للمدخل بها وليس فيه ما يدل عليه، وقرئ ﴿أُمَتَّعُكُمْ وَأَسْرُحُكُمْ﴾ بالرفع على الاستئناف.

﴿وَإِن كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ يستحقرونه الدنيا وزينتها ومن للتبيين لأنهن كلهن كن محسنات.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ كَبِيرَةٍ﴾ مُبَيَّنَّةٌ ظاهر قبجها على قراءة ابن كثير وأبي بكر والباقرن بكسر الباء. ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضعف عذاب غيرهن أي مثليه، لأن الذنب منهن أقيح فإن زيادة قبجها تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم وقرأ البصريان «يضعف» على البناء للمفعول، ورفع «العذاب» وابن كثير وابن عامر «نضعف» بالنون وبناء الفاعل ونصب «العذاب». ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي وكيف وهو سببه.

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾ ومن يدم على الطاعة. ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولعل ذكر الله للتعظيم أو لقوله: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحاً تُوْنَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على الطاعة ومرة على طلبن رضا النبي عليه الصلاة والسلام بالقناعة وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي «ويعمل» بالياء حملاً على لفظ «من ويؤتها» على أن فيه ضمير اسم الله. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ في الجنة زيادة على أجرها.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أصل أحد وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام مستويًا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل. ﴿إِن اتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضا رسوله. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فلا تجتن بقولكن خاضعاً ليناً مثل قول المريات. ﴿فَيَقْطَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فجوز وقرئ «بالجزم عطفاً على محل فعل النهي على أنه نهى مريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول. ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ حسناً بعيداً عن الرية.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من وقر يقر وقاراً أو من قر يقر حذف الأولى من رأي اقرن ونقلت كسرتها إلى

القاف، فاستغني عن همزة الوصل ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح من قررت أقر وهو لغة فيه، ويحتمل أن يكون من قار يقار إذا اجتمع. ﴿وَلَا تَبَرَّحْنَ﴾ ولا تتبخرن في مشيكن. ﴿تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى﴾ تبرجاً مثل تبرج النساء في أيام الجاهلية القديمة، وقيل هي ما بين آدم ونوح، وقيل الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداء رضي الله عنه «إن فيك جاهلية، قال جاهلية كفر أو إسلام قال بل جاهلية كفر». ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناس ولذلك عمم الحكم. ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نصب على النداء أو المدح. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي. ﴿تَطَهَّرُوا﴾ واستعارة الرجس للمعصية والترشيع بالتطهير للتطهير عنها، وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين رضي الله عنهما فأدخلهما فيه ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت»، والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون إجماعهم حجة ضعيف لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضي أنهم من أهل البيت لا أنه ليس غيرهم.

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (34) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (35) وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ إِذَا قُضِيَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِیرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (36) وَلِذَلِكَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمَتْ عَلَيْهِ أَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ وَطَرًا وَزَوَّجْتُكَهَا لَئِنْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَ لِلَّهِ وَنَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (40) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا﴾ (41)

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُنِيَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب الجامع بين الأمرين وهو تذكير بما أنعم الله عليهم من حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الانتهاء والالتزام فيما كلفن به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك خيركن ووعظكن، أو يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به. ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ المداومين على الطاعة. ﴿وَالصَّادِقِينَ

وَالصَّادِقَاتِ ﴿ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ﴾ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴿ عَلَى الطَّاعَاتِ وَعَنِ الْمَعَاصِي. ﴾ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴿ الْمُتَوَاضِعِينَ اللَّهُ بِقُلُوبِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ. ﴾ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴿ بِمَا وَجِبَ فِي مَالِهِمْ. ﴾ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴿ الصُّومَ الْمَفْرُوضَ. ﴾ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴿ عَنِ الْحَرَامِ. ﴾ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴿ بِقُلُوبِهِمْ وَالسُّتُورِ. ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً ﴿ لِمَا اقْتَرَفُوا مِنَ الصَّغَائِرِ لِأَنَّهُمْ مَكْفُرَاتِ. ﴾ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿ عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَالْآيَةِ وَعَدَ لَهُمْ وَلَا مِثْلَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّوَدُّعِ بِهَذِهِ الْخُصَالِ. رَوَى: أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرَ اللَّهُ الرَّجَالَ فِي الْقُرْآنِ بِخَيْرٍ فَمَا فِينَا خَيْرٌ نَذْكُرُ بِهِ فَتَزَلْتُ. وَقِيلَ: لِمَا نَزَلَ فِيهِمْ مَا نَزَلَ قَالَ نِسَاءُ الْمُسْلِمِينَ فَمَا نَزَلَ فِينَا شَيْءٌ فَتَزَلْتُ: وَعُطِفَ الْإِنَاثُ عَلَى الذَّكَورِ لِاخْتِلَافِ الْجِنْسَيْنِ وَهُوَ ضَرُورِي، وَعُطِفَ الزَّوْجَيْنِ عَلَى الزَّوْجَيْنِ لِتَغَايِرِ الْوُصْفَيْنِ فَلَيْسَ بِضَرُورِي وَلِذَلِكَ تَرَكَ فِي قَوْلِهِ ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ﴾ وَفَائِدَتُهُ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ إِعْدَادَ الْمَعْدِ لَهُمْ لِلْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ﴾ مَا صَحَّ لَهُ. ﴿إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أَيُّ قَضَىٰ رَسُولُ اللَّهِ، وَذَكَرَ اللَّهُ لِعَظِيمِ أَمْرِهِ وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ قَضَاءَهُ قَضَاءُ اللَّهِ، لِأَنَّهُ نَزَلَ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِنْتِ عَمَتِهِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ خَطْبَتِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَزِيدِ بْنِ حَارِثَةَ فَأَبَتْ هِيَ وَأَخُوهَا عَبْدِ اللَّهِ. وَقِيلَ فِي أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عَقْبَةَ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَزَوَّجَهَا مِنْ زَيْدٍ. ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أَنْ يَخْتَارُوا مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا اخْتِيَارَهُمْ تَبَعًا لِاخْتِيَارِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْخَيْرَةُ مَا يَخْتِيرُ وَجَمَعَ الضَّمِيرُ الْأَوَّلَ لِعُمُومِ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ مِنْ حَيْثُ إِنَّمَا فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، وَجَمَعَ الثَّانِي لِلتَّعْظِيمِ. وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ وَهَشَامٌ «يَكُونُ» بِالْيَاءِ. ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ بَيْنَ الْإِنْحِرَافِ عَنِ الصَّوَابِ.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بِتَوْفِيقِهِ لِلْإِسْلَامِ وَتَوْفِيقِكَ لِعَتَقِهِ وَاسْتِخْصَاصِهِ. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بِمَا وَفَّقَكَ اللَّهُ فِيهِ وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ. ﴿أَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زَيْنَبُ. وَذَلِكَ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبْصَرَهَا بَعْدَ مَا أَنْكَحَهَا إِيَّاهُ فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ، وَسَمِعَتْ زَيْنَبَ بِالتَّسْبِيحَةِ فَذَكَرَتْ لَزَيْدٍ فَفُطِنَ لِذَلِكَ وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ كَرَاهَةٌ صَحْبَتِهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَفَارِقَ صَاحِبَتِي، فَقَالَ: مَا لَكَ أَرَأَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْهَا إِلَّا خَيْرًا وَلَكِنِّي لَشَرَفِهَا تَعَظَّمْتُ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ: أَمْسَكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. ﴿وَأَتَى اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِهَا فَلَا تَطْلُقُهَا ضَرَارًا وَتَعَلُّلًا بِتَكْبَرِهَا. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وَهُوَ نِكَاحُهَا إِنْ طَلَقَهَا أَوْ إِيرَادَةُ طَلَاقِهَا. ﴿وَتُخْشَى النَّاسَ﴾ تَعْيِيرُهُمْ إِيَّاكَ بِهِ. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا يَخْشَى، وَالْوَاوُ لِلْحَالِ، وَلَيْسَتْ الْمَعَانِيَةُ عَلَى الْإِخْفَاءِ وَحْدَهُ فَإِنَّهُ حَسَنٌ بَلْ عَلَى الْإِخْفَاءِ مَخَافَةُ قَالَةِ النَّاسِ وَإِظْهَارُ مَا يَنَافِي إِضْمَارَهُ، فَإِنَّ الْأَوَّلَى فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنْ يَصْمِتَ أَوْ يَفُوضَ الْأَمْرَ إِلَى رَبِّهِ. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ حَاجَةٌ بِحَيْثُ مَلَهَا وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِيهَا حَاجَةٌ وَطَلَقَهَا وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا. ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وَقِيلَ قَضَاءُ الْوَطَرِ كَنَايَةُ عَنِ الطَّلَاقِ مِثْلُ لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ. وَقُرِئَ «زَوَّجْتُكَهَا»، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَمَرَ بِتَزْوِيجِهَا مِنْهُ أَوْ جَعَلَهَا زَوْجَتَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ عَقْدٍ. وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُمَا كَانَتَا تَقُولُ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى تَوَلَّى إِنْكَاحِي وَأَنْتِنِ زَوْجَتَانِ أَوَّلِيَاؤُكُنِ. وَقِيلَ كَانَ زَيْدُ السَّفِيرِ فِي خُطْبَتِهَا وَذَلِكَ ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ وَشَاهِدٌ بَيْنَ عَلَى قُوَّةِ إِيْمَانِهِ. ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ عِلَّةٌ لِلتَّزْوِيجِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُكْمَهُ وَحُكْمَ الْأُمَّةِ وَاحِدَةٌ إِلَّا مَا خَصَّهِ الدَّلِيلُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَمْرُهُ الَّذِي يَرِيدُهُ ﴿مَفْعُولًا﴾ مَكُونًا لَا مُحَالَةَ كَمَا كَانَ تَزْوِيجُ زَيْنَبَ ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قَسَمَ لَهُ وَقَدَّرَ مِنْ قَوْلِهِمْ فَرَضَ لَهُ فِي الدِّيَوَانِ، وَمِنْهُ فَرُوضُ الْعَسْكَرِ لِأَرْزَاقِهِمْ. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ سُنَّةُ ذَلِكَ سَنَةٍ. ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ نَفْيُ الْحَرَجِ عَنْهُمْ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ قَضَاءُ مَقْضِيًّا وَحُكْمًا مَبْتُوتًا.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ صِفَةُ لِلَّذِينَ خَلَوْا أَوْ مَدَحُ لَهُمْ مَنْصُوبٌ أَوْ مَرْفُوعٌ، وَقُرِئَ «رِسَالَةَ اللَّهِ».



﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ تعريض بعد تصريح. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ على الحقيقة فثبت بينه وبينه ما بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها، ولا ينتقض عمومها بكونه أبا للطاهر والقاسم وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ولو بلغوا كانوا رجاله لا رجالهم. ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وكل رسول أبو أمته لا مطلقاً بل من حيث إنه شفيق ناصح لهم، واجب التوقير والطاعة عليهم وزيد منهم ليس بينه وبينه ولادة. وقرئ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ولكن بالتشديد على حذف الخبر أي ﴿ولكن رسول الله﴾ من عرفتم أنه لم يعش له ولد ذكر. ﴿وَحَاثَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وآخرهم الذي ختمهم أو ختموا به على قراءة عاصم بالفتح، ولو كان له ابن بالغ لاق بمنصبه أن يكون نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام في إبراهيم حين توفي: لو عاش لكان نبياً، ولا يقدر في نزول عيسى بعده لأنه إذا نزل كان على دينه، مع أن المراد منه أنه آخر من نبي. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من يليق بأن يختتم به النبوة وكيف ينبغي شأنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يغلب الأوقات ويعم الأنواع بما هو أهله من التقديس والتحميد والتهليل والتمجيد.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) يَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ يَقُومُ السَّلَامُ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44) يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (48) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْدُوْنَهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَاجَهُنَّ سِرَاجًا جَمِيلًا (49) يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا ءَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (50) تَرْجَىٰ مِنْ نَّشَأٍ مِنْهُنَّ وَتَفَرِّقُ إِلَيْكَ مِنْ نَّشَأٍ وَمِنْ أَيْفَئِتٍ مِّمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقْرَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ بِرِضَاكِ يَمَّا ءَالِيَتُهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَصَبَاكِ حَسَنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (52) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُدْزَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبِذِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِجَدِيتِ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54) ﴿

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره خصوصاً، وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلها على

سائر الأوقات لكونهما مشهودين كأفراد التسبيح من جملة الأذكار لأنه العمدة فيها. وقيل الفعلان موجهان إليهما. وقيل المراد بالتسبيح الصلاة.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ بالرحمة. ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ بالاستغفار لكم والاهتمام بما يصلحكم، والمراد بالصلاة المشترك وهو العناية بصلاح أمركم وظهور شرفكم مستعار من الصلوة. وقيل الترحم والانعطاف المعنوي مأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع والسجود، واستغفار الملائكة ودعائهم للمؤمنين ترحم عليه سيما وهو السبب للرحمة من حيث إنهم مجابو الدعوة. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نوري الإيمان والطاعة. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإنافة قدرهم واستعمل في ذلك ملائكته المقربين.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أو يحيون. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبور، أو دخول الجنة. ﴿سَلَامٌ﴾ إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هي الجنة، ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم وهو حال مقدرة. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته. ﴿يَاذَنَّهُ﴾ بتيسيره وأطلق له من حيث أنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيذاناً بأنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه. ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يستضاء به عن ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأمم أو على جزاء أعمالهم، ولعله معطوف على محذوف مثل فراقب أحوال أمتك.

﴿وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُشَافِقِينَ﴾ تهيج له على ما هو عليه من مخالفتهم. ﴿وَدَعُ أَذَاهُمْ﴾ إيذاءهم إيأك ولا تحتفل به، أو إيذاءك إيأهم مجازاة أو مواخظة على كفرهم، ولذلك قيل إنه منسوخ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه يكفيهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمر في الأحوال كلها، ولعله سبحانه وتعالى لما وصفه بخمس صفات قابل كلاً منها بخطاب يناسبه، فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده كالتفصيل له، وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهي عن مراقبة الكفار والمبالاة بإذاهم والداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالاكتماء به فإن من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكفي به عن غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِّن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ تجامعوهن، وقرأ حمزة والكسائي بألف وضم التاء. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ﴾ أيام يترصدن فيها بأنفسهن. ﴿تَعْتَدُونَهَا﴾ تستوفون عددها من عدت الدراهم فاعتدها كقولك: كلته فاكتاله، أو تعدونها. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به فما لكم، وعن ابن كثير ﴿تَعْتَدُونَهَا﴾ مخففاً على إبدال إحدى الدالين بالياء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها، وظاهره يقتضي عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيراً لنطفته، وفائدة ثم إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخي الطلاق ريثما تمكن الإصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة. ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة ويجوز أن يؤول التمتع بما يعمهما، أو الأمر بالمشارك بين الوجوب والندب فإن المتعة سنة للمفروض لها. ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهن

من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة. ﴿سَرَّاحاً جَمِلاً﴾ من غير ضرار ولا منع حق، ولا يجوز تفسيره بالطلاق السني لأنه مرتب على الطلاق والضمير لغير المدخول بهن.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن لأن المهر أجر على البضع، وتقيد الإحلال له بإعطائها معجلة لا لتوقف الحل عليه بل لإيثار الأفضل له كتقيد إحلال المملوكة بكونها مسبية بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها، وتقيد القرائب بكونها مهاجرات معه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ويحتمل تقيد الحل بذلك في حقه خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعدرتني، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. ﴿وَأَمْرَؤُا مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ نصب بفعل يفسره ما قبله أو عطف على ما سبق، ولا يدفعه التقيد بأن التي للاستقبال فإن المعنى بالإحلال والإعلام بالحل أي: أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهرأ إن اتفق ولذلك نكرها. واختلف في اتفاق ذلك والقائل به ذكر أربعاً: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم. وقرئ: ﴿أَنْ﴾ بالفتح أي لأن وهبت أو مدة أن وهبت كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً. ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول في استيجاب الحل فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حلها إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي ﷺ مكرراً، ثم الرجوع إليه في قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيذان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله. واحتج به أصحابنا على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خص عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ، والاستنكاح طلب النكاح والرغبة فيه، ﴿وَخَالِصَةً﴾ مصدر مؤكد أي خلص إحلالها أو إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلصاً لك، أو حال من الضمير في ﴿وهبت﴾ أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يسم. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أن يفرض عليهم، والجملة اعتراض بين قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومتعلقه وهو ﴿خَالِصَةً﴾ للدلالة على أن الفرق بينه وبين ﴿المؤمنين﴾ في نحو ذلك لا لمجرد قصد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً﴾ لما يعسر التحرز عنه. ﴿رَحِيماً﴾ بالتوسعة في مظان الحرج.

﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ تزخرها وترك مضاجعتها. ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ وتضم إليك من تشاء وتضاجعها، أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص ﴿ترجي﴾ بالياء والمعنى واحد. ﴿وَمَنْ ابْتَغَيْتَ﴾ طلبت. ﴿وَمَنْ عَزَلْتَ﴾ طلقت بالرجعة. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء من ذلك. ﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تُقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ذلك التفويض إلى مشيتك أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعاً، لأن حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهم، وقرئ: ﴿تقر﴾ بضم التاء و ﴿أعينهن﴾ بالنصب و ﴿تقر﴾ بالبناء للمفعول و ﴿كلهن﴾ تأكيد نون ﴿يرضين﴾، وقرئ بالنصب تأكيداً لهن. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسانه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ بذات الصدور. ﴿حَلِيماً﴾ لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقى.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقي، وقرأ البصريان بالتاء. ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ من بعد التسع وهو في حقه كالأربع في حقنا، أو من بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى. ﴿وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى و ﴿من﴾ مزيدة لتأكيد الاستغراق. ﴿وَلَوْ أَغْنَبَكَ﴾

حُسْنُهُنَّ﴾ حسن الأزواج المستبدلة، وهو حال من فاعل ﴿تبدل﴾ دون مفعوله وهو ﴿من أزواج﴾ لتوغله في التنكير، وتقديره مفروضاً إعجابك بهن واختلاف في أن الآية محكمة أو منسوخة بقوله: ﴿ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ على المعنى الثاني فإنه وإن تقدمها قراءة فهو مسبوق بها نزولاً. وقيل المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأجناس الأربعة اللاتي نص على إحلالهن لك ولا أن تبدل بهن أزواجاً من أجناس آخر. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء، وقيل منقطع. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حد لكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلا وقت أن يؤذن لكم أو إلا ماذوناً لكم. ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ متعلق بـ ﴿يؤذن﴾ لأنه متضمن معنى يدعى للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن كما أشعر به قوله: ﴿غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءَهُ﴾ غير منتظرين وقته، أو إدراكه حال من فاعل ﴿لا تَدْخُلُوا﴾ أو المجرور في ﴿لكم﴾. وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جارياً على غير من هوله بلا إبراز الضمير، وهو غير جائز عند البصريين وقد أمال حمزة والكسائي إناءه لأنه مصدر أنى الطعام إذا أدرك. ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ تفرقوا ولا تمكثوا، ولأنه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالأذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لهم. ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ لحديث بعضكم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالسمع له عطف على ﴿ناظرين﴾ أو مقدر بفعل أي: ولا تَدْخُلُوا أو ولا تمكثوا مستأنسين. ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ اللبث. ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه. ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ من إخراجكم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني أن إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياء كما لم يتركه الله ترك الحيي فأمركم بالخروج، وقرئ ﴿لا يستحي﴾ بحذف الباء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ شيئاً يتنفع به. ﴿فَسَأَلُوهُنَّ﴾ المتاع. ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ستر. روي «أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت». وقيل أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصاب يد رجل عائشة رضي الله عنها فكره النبي ﷺ ذلك فنزلت. ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر النفسانية الشيطانية. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صح لكم. ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أَنْ تَفْعَلُوا ما يكرهه. ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ من بعد وفاته أو فراقه، وخص التي لم يدخل بها، لما روي أن أشعث بن قيس تزوج المستعينة في أيام عمر رضي الله عنه فهم برجمها، فأخبر بأنه عليه الصلاة والسلام فارقها قبل أن يمسه فتركها من غير نكير. ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ يعني إيذاءه ونكاح نسائه. ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ذنباً عظيماً، وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب لحرمة حياً وميتاً ولذلك بالغ في الوعيد عليه فقال:

﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾ كنكاحهن على ألسنتكم. ﴿أَوْ تُخْفَوُ﴾ في صدوركم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم ذلك فيجازيكم به، وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ كَاتِبًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (55) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

(58) يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ وَبَنَاتُكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعَنَّائِكَ يَهْتَمُّ شَرُّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أُحْذُوا وَقُتِلُوا تَفْسِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62) يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَلَّيْنِ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا يَصْرِفُونَ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا السَّبِيلَ (67) رَبَّنَا إِنَّا ضَعُفَيْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتِ لَعَنَّا كِبَرًا (68) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا (69) ﴿

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ﴾ استثناء لمن لا يجب الاحتجاب عنهم. روي: أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء حجاب فنزلت. وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا في قوله ﴿وَالِهَ آبَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أو لأنه كره ترك الاحتجاب عنهما مخافة أن يصفيا لأبنائهما. ﴿وَلَا نِسَاءَهُنَّ﴾ يعني نساء المؤمنات. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء، وقيل من الإماء خاصة وقد مر في سورة «النور». ﴿وَأَتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يعنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ اعتنوا أنتم أيضاً فإنكم أولى بذلك وقولوا اللهم صل على محمد. ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وقولوا السلام عليك أيها النبي وقيل وانقادوا لأوامره، والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة، وقيل تجب الصلاة كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام «رغم أنف رجل ذكرته عنده فلم يصل علي» وقوله «من ذكرت عنده فلم يصل علي»، فدخل النار فأبعده الله، وتجوز الصلاة على غيره تبعاً. وتكره استقلاً لأنه في العرف صار شعاراً لذكر الرسول ﷺ ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، أو يؤذون رسول الله بكسر رباعيته وقولهم شاعر مجنون ونحو ذلك وذكر الله للتعظيم له. ومن جوز إطلاق اللفظ على معنيين فسرهم بالمعنيين باعتبار المعمولين. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته. ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ يهينهم مع الإيلاء.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ جُنَايَةٍ اسْتَحَقُّوا بِهَا الْإِيذَاءَ﴾ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ظاهرًا. قيل إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه، وقيل في أهل الإفك، وقيل في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ وَبَنَاتُكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ يغطي وجوههن وأبدانهم بملاحفهن إذا برزن لحاجة، و ﴿مِنْ﴾ للتبعيض فإن المرأة ترخي بعض جلبابها وتلتف بعض وبعض و ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ يميزن من الإماء والقينات. ﴿فَلَا يُؤْذَنَنَّ﴾ فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف. ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم حتى الجزيايت منها.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَنَفِّقُونَ﴾ عن نفاقهم. ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه، أو فجور عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم. ﴿وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يرجفون أخبار السوء عن سرايا المسلمين ونحوها من إرجافهم، وأصله التحريك من الرجفة وهي الزلزلة سمي به الخبر الكاذب لكونه متزلزلاً غير ثابت. ﴿لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطف على ﴿لَنُغَرِّبَنَّكَ﴾، و ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول أعظم ما يصيبهم. ﴿فِيهَا﴾ في المدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أو الحال والاستثناء شامل له أيضاً أي: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ إلا ملعونين، ولا يجوز أن ينصب عن قوله: ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ ثَقِيلًا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها.

﴿سَنُتِلَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مصدر مؤكد أي سن الله ذلك في الأمم الماضية، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنه لا يبدلها ولا يقدر أحد أن يبدلها.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ عن وقت قيامها استهزاء وتعتاً أو امتحاناً. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً. ﴿وَمَا يَذُرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً أو تكون الساعة عن قريب وانتصابه على الظرف، ويجوز أن يكون التذكير لأن ﴿السَّاعَةَ﴾ في معنى اليوم، وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعتين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الانتقاد.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً﴾ يحفظهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنهم.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار، أو من حال إلى حال، وقرئ ﴿تَقَلَّبُ﴾ بمعنى تتقلب و ﴿تَقَلَّبُ﴾ ومتعلق الظرف. ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْسَ أَلْفَاظُ اللَّهِ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فلن نتبلى بهذا العذاب.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» على جمع الجمع للدلالة على الكثرة. ﴿فَأَصْلَوْنَا السَّبِيلَ﴾ بما زينوا لنا.

﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ صُغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ مثلي ما آتيتنا منه لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾ كثير العدد، وقرأ عاصم بالباء أي لعناً هو أشد اللعن وأعظمه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهُمَا قَالُوا﴾ فأظهر براءته من مقولهم يعني مؤداه ومضمونه، وذلك أن قارون حرض امرأة على قذفه بنفسها فعصمه الله كما مر في «القصص»، أو اتهمه ناس بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك، فحملته الملائكة ومروا به حتى رؤوه غير مقتول. وقيل أحياء الله فأخبرهم ببراءته، أو قذفوه بعبث في بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فأطلعهم الله على أنه بريء منه. ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ذا قربة ووجاهة، وقرئ وكان «عبد الله وجيهاً».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْطَبِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤدي رسوله. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قاصداً إلى الحق من سد يسد سداداً، والمراد النهي عن ضده كحديث زينب من غير قصد.

﴿يُضْلِعْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي. ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء، والمعنى أنها لعظمة شأنها بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعور وإدراك لأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان مع ضعف بنيته ورخاوة قوته لا جرم فاز الراعي لها والقائم بحقوقها بخير الدارين. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها ولم يراع حقها. ﴿جَهُولًا﴾ بكنه عاقبتها، وهذا وصف للجنس باعتبار الأغلب. وقيل المراد بـ ﴿الأمانة﴾ الطاعة التي تعم الطبيعية والاختيارية، وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدره من غيره، وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل الأمانة ومحملها لمن لا يؤديها فتراها ذمته، فيكون الإباء عنه أتياناً بما يمكن أن يتأتى منه والظلم والجهالة الخيانة والتقصير. وقيل إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها: إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلن نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحملة، وكان ظلوماً لنفسه بتحملة ما يشق عليها جهولاً بوخامة عاقبتها، ولعل المراد بـ ﴿الأمانة﴾ العقل أو التكليف، وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن، وبإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية، وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدي ومجاوزه الحد، ومعظم مقصود التكليف تعديلهما وكسر سورتها.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تعليل للحمل من حيث إنه نتيجته كالتأديب للضرب في ضربته تأديباً، وذكر التوبة في الوعد إشعاراً بأنهم كونهم ظلوماً جهولاً في جبلتهم لا يخليهم عن فرطات. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث تاب عن فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعتهم. قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله أو ما ملكت يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر».



[مكية وقيل إلا قوله : ويرى الذين أوتوا العلم الآية ، وآياتها أربع وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مَرِئْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (8)﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ونعمة ، فله الحمد. في الدنيا لكمال قدرته وعلى تمام نعمته. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن ما في الآخرة أيضاً كذلك ، وليس هذا من عطف المقيد على المطلق فإن الوصف بما يدل على أنه المنعم بالنعم الدنيوية قيد الحمد بها ، وتقديم الصلة للاختصاص فإن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدارين. ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات والفلزات وماء العيون. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والأنداء والصواعق. ﴿وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة. ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ للمفرطين في شكر نعمته مع كثرتها ، أو في الآخرة مع ما له من سوابق هذه النعم الفاتنة للحصر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاء بالوعد به. ﴿قُلْ بَلَى﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه. ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ تكرير لإيجابه مؤكداً بالقسم مقررأ لوصف المقسم به بصفات تقرر إمكانه وتنفي استبعاده على ما مر غير مرة ، وقرأ حمزة والكسائي «علام الغيب» للمبالغة ، ونافع وابن عمر ورويس «عالم الغيب» بالرفع على أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقرأ الكسائي «لا يعزب» بالكسر. ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ جملة مؤكدة لنفي العزوب ، ورفعها بالابتداء ويؤيده القراءة بالفتح على نفي الجنس ، ولا



يجوز عطف المرفوع على «مثقال» والمفتوح على «ذرة» بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف لأن الاستثناء يمنعه، اللهم إلا إذا جعل الضمير في «عنه» للغيب وجعل المثبت في اللوح خارجاً عنه لظهوره على المطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شيء إلا مسطوراً في اللوح.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ علة لقوله «لتأتينكم» وبيان لما يقتضي إتيانها. «أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» لا تعب فيه ولا من عليه.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بإبطال وتزهد الناس فيها. «مُعَاجِزِينَ» مسابقين كي يفوتونا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «معجزين» أي مبطين عن الإيمان من أراده. «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْرٍ» من سيء العذاب. «اليم» مؤلم، ورفع ابن كثير ويعقوب وحفص.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ويعلم أولو العلم من الصحابة ومن شايعهم من الأمة، أو من مسلمي أهل الكتاب. «الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» القرآن. «هُوَ الْحَقُّ» ومن رفع «الحق» جعل هو مبتدأ و «الحق» خبره والجملة ثاني مفعولي «يرى»، وهو مرفوع مستأنف للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل منصوب معطوف على «ليجزى» أي وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً «وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» الذي هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال بعضهم لبعض. «هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ» يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. «يُنَبِّئُكُمْ» يحدثكم بأعجب الأعاجيب. «إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مُمْرِقٍ لَكُمْ لَقِيَ خَلْقٌ جَدِيدٌ» إنكم تنشؤون خلقاً جديداً بعد أن تمزق أجسادكم كل تمزق وتفريق بحيث تصوير تراباً، وتقديم الظرف للدلالة على البعد والمبالغة فيه، وعامله محذوف دل عليه ما بعده فإن ما قبله لم يقارنه وما بعده مضاف إليه، أو محجوب بينه وبينه بان و «ممرق» يحتمل أن يكون مكاناً بمعنى إذا مررتم وذهبت بكم السيول كل مذهب وطرحتم كل مطرح وجديد بمعنى فاعل من جد كحديد من حد، وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه.

﴿أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، واستدل بجعلهم إياه قسيم الافتراء غير معتقدين صدقه على أن بين الصدق والكذب واسطة، وهو كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه وضعفه بين لأن الافتراء أخص من الكذب. «بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ» رد من الله تعالى عليهم ترديدهم وإثبات لهم ما هو أفظع من القسمين، وهو الضلال البعيد عن الصواب بحيث لا يرجى الخلاص منه وما هو مؤده من العذاب، وجعله رسيلاً له في الوقوع ومقدماً عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له، والبعد في الأصل صفة الضال ووصف الضلال به على الإسناد المجازي.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَسِيفٌ﴾ أو شَقِطٌ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالِ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنْ أَعْمَلَ سِجْنَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِيَّيْهَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (11) وَلَسَلِمْنَا مِنَ الرِّيحِ غَدُوَهَا شَرْوَرًا وَأَسْلَمْنَا لَمْ تَعِنِ الْقَطْرِ وَفِي الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرْجُ مِنْهُمْ عَنْ أَسْرِنَا نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَنَمَثِيلٍ إِحْفَانٍ كَأَجْوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13)﴾ فَلَمَّا فَضَيَّتْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْجِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ  
جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ (15)

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ نُخَسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ  
عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرة الله وما يحتمل فيه إزاحة لاستحالتهم  
الإحياء حتى جعلوه افتراء وهزواً، وتهديداً عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من  
السما والارض ولم يتفكروا أهم أشد خلقاً، أم السماء، وإنا ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمُ  
كِسْفًا﴾، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات. وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَشَأْ﴾ و ﴿يُخَسِفُ﴾ و ﴿يُسْقِطُ﴾ بالياء  
لقلوله: ﴿أفترى على الله﴾. والكسائي وحده بإدغام الفاء في الباء وحفص ﴿كِسْفًا﴾ بالتحريك. ﴿إِنْ فِي  
ذَلِكَ﴾ النظر والتفكر فيهما وما يدلان عليه. ﴿لَايَةً﴾ لدلالة. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه فإنه يكون كثير  
التأمل في أمره.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على سائر الأنبياء وهو ما ذكر بعد، أو على سائر الناس فيندرج فيه  
النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن. ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ﴾ رجعي معه التسييح أو النوحة على الذنب،  
وذلك إما بخلق صوت مثل صوته فيها أو بحملها إياه على التسييح إذا تأمل ما فيها، أو سيري معه حيث  
سار. وقرئ «أوبي» من الأوب أي ارجعي في التسييح كلما رجعت فيه، وهو بدل من ﴿فضلاً﴾ أو من ﴿آتيناً﴾  
بإضمار قولنا أو قلنا. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ عطف على محل الجبال ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على لفظها تشبيهاً  
للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية أو على ﴿فضلاً﴾، أو مفعول معه لـ ﴿أوبي﴾ وعلى هذا يجوز أن  
يكون الرفع بالعطف على ضميره وكان الأصل: ولقد آتيناً داود منا فضلاً تأويب الجبال والطير، فبدل بهذا  
النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، حيث جعل الجبال والطير كالعقلاء  
المتقادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها. ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير  
إحماء وطرق بالانائة أو بقوته.

﴿أَنْ أَعْمَلْ﴾ أمرناه أن اعمل فـ ﴿أَنْ﴾ مفسرة أو مصدرية. ﴿صَابِغَاتٍ﴾ دروعاً واسعات، وقرئ  
«صابغات» وهو أول من اتخذها. ﴿وَقَدَّرُ فِي السَّوْدِ﴾ وقدر في نسجها بحيث يتناسب حلقتها، أو قدر  
مساميرها فلا تجعلها دقاً فتتلقى ولا غلاظاً فتتخرق. ورد بأن دروعه لم تكن مسمرة ويؤيده قوله: ﴿وَأَلْنَا لَهُ  
الْحَدِيدَ﴾. ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ الضمير فيه لداود وأهله. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا له الريح، وقرئ «الريح» بالرفع أي ولسليمان الريح مسخرة وقرئ  
«الرياح». ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَزَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر وبالعشي كذلك، وقرئ «غدوتها»  
«ووراحتها». ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْغَنِينَ الْقَطْرَ﴾ النحاس المذاب أساله له من معدنه فتبيح منه نبوع الماء من الينابيع،  
ولذلك سماه عيناً وكان ذلك باليمن. ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطف على «الريح» «ومِنَ الْجِنِّ»  
حال مقدمة، أو جملة «مِن» مبتدأ وخبر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره. ﴿وَمَنْ يَبْغِ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل منهم. ﴿عَنْ  
أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمان، وقرئ «يَبْغِ» من أزاغه. ﴿نَذْفُكَ مِنَ الْعَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب  
عليها. ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ وصوراً هي تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليرأها الناس فيعبدوا  
نحو عبادتهم وحرمة التصاوير شرع مجدد. روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا  
أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. ﴿وَجِجَانٍ﴾ وصحاف.

﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياض الكبار جم جابية من الجابية وهي من الصفات الغالبة كالدابة. ﴿وَقُدُّورَ رَاسِيَاتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها. ﴿اغْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ حكاية عما قيل لهم ﴿وشكراً﴾ نصب على العلة أي: اعملوا له واعبدوه شكراً، أو المصدر لأن العمل له شكراً أو الوصف له أو الحال أو المفعول به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه، لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهايته، ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي على سليمان. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ ما دل الجن وقيل آله. ﴿إِلَّا دَابَّةَ الْأَرْضِ﴾ أي الأرضة أضيفت إلى فعلها، وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال: أرضت الأرضة الخشبة أرضاً فأرضت أرضاً مثل أكلت القوادح الأسنان أكلاً فأكلت أكلاً. ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتُهُ﴾ عصاة من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها، وقرئ بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً على غير قياس إذ القياس إخراجها بين بين، و ﴿منسأته﴾ على مفعالة كمبضاعة في مبضأة و ﴿منسأته﴾ أي طرف عصاه مستعار من سأت القوس، وفيه لغتان كما في قحة وقحة، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿منسأته﴾ بألف بدلاً من الهمزة وابن ذكوان بهمزة ساكنة وحمزة إذا وقف جعلها بين بين. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت الجن بعد التباس الأمر عليهم. ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع فلم يلبثوا حولاً في تسخيره إلى أن خَرَّ، أو ظهرت الجن وأن بما في حيزه بدل منه أي ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب. وذلك أن داود أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليهما الصلاة والسلام فمات قبل تمامه، فوصى به إلى سليمان عليه السلام فاستعمل الجن فيه فلم يتم بعد إذ دنا أجله وأعلم به، فأراد أن يعمى عليهم موته ليتموه فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها، فبقي كذلك حتى أكلتها الأرضة فخرَّ ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت يوماً وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة وملك وهو ابن ثلاثة عشرة سنة، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدٍ﴾ لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومنع الصرف عنه ابن كثير وأبو عمرو لأنه صار اسم القبيلة، وعن ابن كثير قلب همزته ألفاً ولعله أخرجه بين بين فلم يؤدِّه الراوي كما وجب. ﴿فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ في مواضع سكناهم، وهي باليمن يقال لها مأرب. بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، وقرأ حمزة وحفص بالإفراد والفتح، والكسائي بالكسر حملاً على ما شذ من القياس كالمسجد والمطلع. ﴿آيَةً﴾ علامة دالة على وجود الصانع المختار، وأنه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة مجاز للمحسن والمسيء معاودة للبرهان السابق كما في قصتي داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بدل من ﴿آيَةٍ﴾ أو خبر محذوف تقديره الآية جنتان، وقرئ بالنصب على المدح والمراد جماعتان من البساتين. ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة منهما في تقاربها وتضامنها كأنها جنة واحدة، أو بستاناً كُلُّ رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله. ﴿كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قال لهم نبيهم، أو لسان الحال أو دلالة بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك. ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر، أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فرطات من يشكره. وقرئ الكل بالنصب على المدح. قيل كانت أحصب البلاد وأطيبها لم يكن فيها عاهة ولا هامة.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

(16) ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَاهِرَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بَالِ الْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ أَذِنَ لَمْ يَخَفْ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَمَعْلَمٌ لِّهُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) ﴿

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ﴾ سيل الأمر العرم أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم، وعرم إذا شرس خلقه وصعب، أو المطر الشديد أو الجرد، أضاف إليه الـ ﴿سَيْلٍ﴾ لأنه نقب عليهم سكرًا ضربته لهم بلقىس فحققت به ماء الشجر وتركت فيه ثقبًا على مقدار ما يحتاجون إليه، أو المسناة التي عقدت سكرًا على أنه جمع عرمة وهي الحجارة المركومة. وقيل اسم وإد جاء السيل من قبله وكان ذلك بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خِمَاطٍ﴾ ثمر شبع فإن الخمط كل نبت أخذ طعمًا من مرارة، وقيل الأراك أو كل شجر لا شوك له، والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في كونه بدلًا، أو عطف بيان. ﴿وَأَثَلُ وَشْيٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أَكُلَ﴾ لا على ﴿خِمَاطٍ﴾، فإن الأثل هو الطرفاء ولا ثمر له، وقرأ بالنصب عطفاً على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ ووصف السدر بالقلة فإن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين، وتسمية البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكم. وقرأ أبو عمرو «ذاتي» أكل بغير تنوين اللام وقرأ الحرمان بتخفيف ﴿أَكُلَ﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرانهم النعمة أو بكفرهم بالرسول، إذ روي أنه بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم، وتقدير المفعول للتعظيم لا للتخصيص. ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾ وهل يجازى بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في الكفران أو الكفر. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص «تُجْزَى» بالنون و «الْكُفُورُ» بالنصب.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها وهي قري الشام. ﴿قَرْيَ ظَاهِرَةٍ﴾ متواصلة يظهر بعضها لبعض، أو رابكة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل. ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بحيث يقيل الغادي في قرية ويبيت الرائح في قرية إلى أن يبلغ الشام. ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال. ﴿لَيَالِيًا وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل أو نهار. ﴿آمِنِينَ﴾ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا آمنين وإن طالت مدة سفرهم فيها، أو سيروا فيها ليلي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ أشروا النعمة وملوا العافية كبنى إسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مغاوير ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد، فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام «بعد»، ويعقوب «ربنا باعد» بلفظ الخبر على أنه شكوى منهم لبعد سفرهم إفراطاً في الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه، ومثله قراءة من قرأ «ربنا بعد» أو «بعد»

على النداء وإسناد الفعل إلى ﴿بَيْنَ﴾. ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً وضرب مثل فيقولون: تفرقوا أيدي سبأ. ﴿وَمَرَّفْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ ففرقناهم غاية التفريق حتى لحق غسان منهم بالشأم، وأنمار يثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر. ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي. ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلته جهلك، ويجوز أن يعدى الفعل إليه بنفسه كما في: ﴿صَدَقَ وَعْدُهُ﴾. لأنه نوع من القول، وشده الكوفيون بمعنى حقق ظنه أو وجده صادقاً. وقرئ بنصب ﴿إِبْلِيسَ﴾ ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجد ظنه صادقاً، والتخفيف بمعنى قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، وبرفعهما والتخفيف على الأبدان وذلك إما ظنه سبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات أو ببني آدم حين رأى أباهم النبي ضعيف العزم، أو ما ركب فيهم من الشهوة والغضب، أو سمع من الملائكة قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فقال: ﴿لَأُضِلَّهُمْ﴾ و ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾. ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار، أو إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه في العصيان وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء. ﴿إِلَّا لِّنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقاً يترتب عليه الجزاء، أو ليميز المؤمن من الشاك، أو ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله، والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة، في نظم الصليتين نكتة لا تخفى. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ محافظ والزنتان متآخيتان.

﴿قُلْ﴾ للمشركين. ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي زعمتموهم آلهة، وهما مفعولاً زعم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته مقامه، ولا يجوز أن يكون هو مفعوله الثاني لأنه لا يلتزم مع الضمير كلاماً ولا ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأنهم لا يزعمونه. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنى ادعوه فيما يهكم من جلب نفع أو دفع ضرر لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم، ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ في أمر ما وذكرهما للعموم العرفي، أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام، أو لأن الأسباب القريبة للشر والخير سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ﴾ من شركة لا خلقاً ولا ملكاً. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ﴾ فلا ينفعهم شفاعة أيضاً كما يزعمون إذ لا تنفع الشفاعة عند الله. ﴿إِلَّا لِمَنَ أَذِنَ لَهُ﴾ أذن له أن يشفع، أو أذن أن يشفع له لعلو شأنه ولم يثبت ذلك، واللام على الأول كاللام في قولك: الكرم لزيد وعلى الثاني كاللام في قولك: جنتك لزيد، وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي بضم الهمزة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفاً وانتظاراً للإذن أي: يتربصون فزعين حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن، وقيل الضمير للملائكة وقد تقدم ذكرهم ضمناً. وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فزع﴾ على البناء للمفاعل. وقرئ «فرغ» أي نفى الوجل من فرغ الزاد إذا فني. ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة. ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ قالوا قال القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وهم المؤمنون، وقرئ بالرفع أي مقوله الحق. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد به تقرير قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾. ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ إذ لا جواب سواه، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعموا في الجواب مخافة الإلزام فهم مقرون به بقلوبهم. ﴿وَأَنَا أَوْ

إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ أي وإن أحد الفريقين من الموحدین المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية بالعبادة، والمشرکین به الجماد النازل في أدنى المراتب الإمكانية لعلی أحد الأمرين من الهدى والضللال المبینين، وهو بعد ما تقدم من التقرير البلیغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المسکت للخصم المشاغب، ونظيره قول حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفءٍ فَشَرُّكُمْ لِي خَيْرُكُمْ بِالْفِدَاءِ

وقيل إنه على اللف والنشر وفيه نظر، واختلاف الحرفين لأن الهادي كمن صعد مناراً ينظر الأشياء ويتطلع عليها أو ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك لا يرى شيئاً أو محبوس في مطمورة لا يستطيع أن يتفصى منها.

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ (30) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَحْمَلَ لَهُ أَثْدَاءً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا أَنَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ زَائِدٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَبِيرُ الرَّزْقِينَ (39) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا كَرِهْتُمْ أَبَدُونَ (40) ﴿

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ في الإخبارات حيث أسند الإجماع إلى أنفسهم والعمل إلى المخاطبين.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يحكم ويفصل بأن يدخل المحققين الجنة والمبطلين النار. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفاصل في القضايا المتخلقة. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضى به.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ لأرى بأي صفة ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة، وهو استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم زيادة في تبكيته. ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة. ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة، وهؤلاء الملحقون به

مستمون بالذلة متأبئة عن قبول العلم والقدرة رأساً، والضمير لله أو للشأن.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ إلا إرسالاً عامة لهم من الكف إنها إذا عمتهم قد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغ فهي حال من الكاف والتاء للمبالغة، ولا يجوز جعلها حالاً من الناس على المختار. ﴿يَشِيرَآ وَنَذِيرَآ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فرط جهلهم. ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعد بقله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخاطبون به رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ وعد يوم أو زمان وعد، وإضافته إلى اليوم للتبيين ويؤيده أنه قرىء ﴿يَوْمٍ﴾ على البدل، وقرىء ﴿يَوْمٍ﴾ بإضمار أعني. ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجأكم وهو جواب تهديد جاء مطابقاً لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بما تقدمه من الكتب الدالة على النعت. قيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نعتهم في كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك، وقيل الذي بين يديه يوم القيامة. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موضع المحاسبة. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ﴾ يتحاورون ويتراجعون القول. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا﴾ يقول الأتباع. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ للروءاء. ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَوَلَا إِضْلَالُكُمْ وَصَدَكُمْ إِيَّانَا عَنِ الْإِيمَانِ﴾ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه، ولذلك بنوا الإنكار على الاسم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إضراب عن إضرابهم أي: لم يكن إجرامنا الصاد بل مكرهم لنا دائماً ليلاً ونهاراً حتى أعورتم علينا رأينا. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ والعاطف يعطفه على كلامهم الأول وإضافة الـ ﴿مَكْرُ﴾ إلى الظرف على الاتساع، وقرىء ﴿مَكْرُ اللَّيْلِ﴾ بالنصب على المصدر و﴿مَكْرُ اللَّيْلِ﴾ بالتثنية ونصب الظرف و﴿مَكْرُ اللَّيْلِ﴾ من الكرور. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَأَضْمَرَ الْفَرِيقَانِ النَّدَامَةَ عَلَى الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ وَأَخْضَاهَا كُلٌّ عَنْ صَاحِبِهِ مَخَافَةَ التَّعْيِيرِ، أَوْ أَظْهَرُهَا فَإِنَّهُ مِنَ الْأَضْدَادِ إِذِ الْهَمَزَةُ تَصْلُحُ لِلْإِثْبَاتِ وَالسَّلْبِ كَمَا فِي أَشْكِيته. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَاقَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويعاً بدمهم وإشعاراً بموجب أغلالهم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء على أعمالهم، وتعدياً يجزى إما لتضمين معنى يقضى أو بترع الخافض.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ مما مني به من قومه، وتخصيص المتعتمين بالكذب لأن الداعي معظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على مقابلة الجمع بالجمع.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ فنحن أولى بما تدعونه إن أمكن. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ إما لأن العذاب لا يكون، أو لأنه أكرمنا بذلك فلا يهيننا بالعذاب.

﴿قُلْ﴾ رداً لحسانهم. ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلف فيه الأشخاص

المتماثلة في الخصائص والصفات، ولو كان ذلك لكرامة وهوانٍ يُوجبان له لم يكن بمشيئته. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة وكثيراً ما يكون للاستدراج كما قال:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ قربة والتي إما لأن المراد وما جماعة أموالكم وأولادكم، أو لأنها صفة محذوف كالتقوى والخصلة. وقرىء «بالذي» أي بالشيء الذي يقربكم. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استثناء من مفعول «تقربكم»، أي الأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح، أو من «أموالكم» و «أولادكم» على حذف المضاف. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ أن يجازوا الضعف إلى عشر فما فوقه، والإضافة إضافة المصدر إلى المفعول، وقرىء بالأعمال على الأصل وعن يعقوب رفعهما على إبدال الضعف، ونصب الجزاء على التمييز أو المصدر لفعله الذي دل عليه لهم. ﴿بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ من المكارة، وقرىء بفتح الراء وسكونها، وقرأ حمزة «في الغرفة» على إرادة الجنس.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والطعن فيها. «مُعَاجِزِينَ» مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا. «أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ».

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرير. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ عوضاً إما عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه لا حقيقة لرازقته.

﴿وَيَوْمَ نَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المستكبرين والمستضعفين. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريباً للمشركين وتبكيئاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقعون من شفاعتهم، وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله. وقرأ حفص ويعقوب بالياء فيهما.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) قَالُوا لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (42) وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنَادٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَبْذُوكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (43) وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا مُقِرِّدِينَ ثُمَّ تَنفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47)﴾

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أنت الذي نواله من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون إليهم أنهم الملائكة فيعبدونهم. «أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ» الضمير الأول للإنس أو للمشركين، والآخر بمعنى الكل والثاني لـ «الجن».



﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذ الأمر فيه كله له لأن الدار دار جزاء وهو المجازي وحده. ﴿وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطف على ﴿لا يملك﴾ مبين للمقصود من تمهيده.

﴿وَإِذَا تَنَلَّيْ عَلَيْهِمْ آبَاؤُنَا يَبْكُونَ قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ فيستبعضكم بما يستبدعه. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون القرآن. ﴿إِلَّا إِنْكَارٌ لِعَدَمِ مطابقة ما فيه الواقع. ﴿مُفْتَرَى﴾ بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لأمر النبوة أو للإسلام أو للقرآن، والأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر سحرته، وفي تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ من المبادأة إلى البت بهذا القول إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحة الإشراك. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوههم إليه وينذرهم على تركه، وقد بان من قبل أن لا وجه له فمن أين وقع لهم هذه الشبهة، وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرايهم ثم هددهم فقال:

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبوا. ﴿وَمَا يَلْعَنُوا مِغْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكارهم بالتدمير فكيف كان نكيرهم لهم فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وهو القيام من مجلس رسول الله ﷺ، أو الانتصاب في الأمر خالصاً لوجه الله معرضاً عن المراء والتقليد. ﴿مَنْعَى وَفَرَادَى﴾ متفرقين اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، فإن الازدحام يشوش خاطر ويخلط القول. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته، ومحل الجبر على البدل أو البيان أو الرفع أو النصب بإضمار هو أو أعني. ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ﴾ فتعلموا ما به من جنون يحمله على ذلك، أو استئناف منبه لهم على أن ما عرفوا من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه، فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقق ووثوق ببرهان، فيفتضح على رؤوس الأشهاد ويلقي نفسه إلى الهلاك، فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة. وقيل ﴿مَا﴾ استفهامية والمعنى: ثم تفكروا أي شيء به من آثار الجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدامه لأنه مبعوث في نسيم الساعة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي شيء سألتكم من أجر على الرسالة. ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفى السؤال عنه، كان جعل النبي مستلزماً لأحد الأمرين إما الجنون وإما توقع نفع دينوي عليه، لأنه إما أن يكون لغرض أو لغيره وأياً ما كان يلزم أحدهما ثم نفى كلا منهما. وقيل ﴿مَا﴾ موصولة مراد بها ما سألهم بقوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِنْ شَاءِ أَنْ يَتَخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ وقوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ واتخاذ السبيل ينفعهم وقرباه قرباهم. ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي، وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحزمة والكسائي بإسكان الباء.

﴿قُلْ إِنْ رِبِّي يَقْدِفُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ﴾ (48) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ (49) قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاعْتَدُوا مِنْ مَكَانٍ

قَرِيبٌ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (53) وَجِئَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54) ﴿

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يليقه وينزله على من يجتبيه من عباده، أو يرمي به الباطل فيدمغه أو يرمي به إلى أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محل ﴿إِنْ﴾ واسمها، أو بدل من المستكن في ﴿يَقْذِفُ﴾ أو خبر ثان أو خبر محذوف. وقرئ بالنصب صفة لـ ﴿رَبِّي﴾ أو مقدراً بأعني. وقرأ حمزة وأبو بكر «الغيوب» بالكسر كاليوت وبالضم كالعشور، وقرئ بالفتح كالصبور على أنه مبالغة غائب.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام. ﴿وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وزهق الباطل أي الشرك بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحي، فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة قال:

أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَيْدٌ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

وقيل الباطل إبليس أو الصنم، والمعنى لا ينشئ خلقاً ولا يعيده، أو لا يبديء خيراً لأهله ولا يعيده. وقيل «ما» استفهامية منتصبة بما بعدها.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق. ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ فإن وبال ضلالي عليها لأنه بسببها إذ هي الجاهلة بالذات والأمانة بالسوء، وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله: ﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فإن الاهتداء بهدائه وتوفيقه. ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً. ﴿فَلَا فُوتَ﴾ فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن. ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض إلى باطنها، أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى القلب، والعطف على ﴿فَرَغُوا﴾ أو لا فوت ويؤيده أنه قرئ «وأخذ» عطفاً على محله أي: فلا فوت هناك وهناك أخذ.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مر ذكره في قوله: ﴿ما بصاحبكم﴾. ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيز التكليف وقد بعد عنهم، وهو تمثيل لحالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فات عنهم أوانه وبعد عنهم، بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة، وقرأ أبو عمرو والكوفيون غير حفص بالهمز على قلب الواو لضممتها.

أو أنه من ناشت الشيء إذا طلبته قال رؤية:

أَفَحَمَنِي جَارُ أَبِي الْجَامُوشِ إِلَيْكَ نَاشَ الْقَدَرِ النَّوْشِ

أو من ناشت إذا تأخرت ومنه قوله:

تَمَنَّى نَيْشاً أَنْ يَكُونَ أَطَاعِنِي وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ

فيكون بمعنى التناول من بعد.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك أوان التكليف. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن، أو في العذاب من البث على نفيه. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من جانب بعيد من أمره، وهو الشبه التي تحملوها في

أمر الرسول ﷺ، أو حال الآخرة كما حكاها من قبل . ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، وقرئ «ويقذفون» على أن الشيطان يلقي إليهم ويلقنهم ذلك، والعطف على «وقد كفروا» على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان في الدنيا .

«وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» من نفع الإيمان والنجاة به من النار، وقرأ ابن عمر والكسائي بإشمام الضم للحاء . «كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة . «إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ» موقع في الريبة، أو ذي ريبة منقول من المشكك، أو الشك نعت به الشك للمبالغة .

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً» .

## سورة الملائكة

[مكية وآياتها خمس وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (1) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ (3) وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6)﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما من الفطر بمعنى الشق كأنه شق العدم بإخراجهما منه، والإضافة محضة لأنه بمعنى الماضي. ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه. ﴿أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم الله عليه فيتصرفون فيه على أمرهم به، ولعله لم يرد به خصوصية الإعداد ونقي ما زال عليها، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك بمقتضى مشيئته ومؤدى حكمته لا أمر تستدعيه ذواتهم، لأن اختلاف الأصناف، والأنواع بالخواص والفصول إن كان لذواتهم المشتركة لزم تنافي لوازم الأمور المتفقة وهو محال، والآية متناولة زيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وحصافة العقل وسماحة النفس. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتخصيص بعض الأشياء بالتحصيل دون بعض، إنما هو من جهة الإرادة.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يطلق لهم ويرسل وهو من تجوز السبب للمسبب. ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ كنعمة وأمن وصحة وعلم ونبوة. ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يحبسها. ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ يطلقه، واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة والثاني مطلق بتناولها والغضب، وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء ليس لأحد أن ينازعه فيه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان. ثم لما بين أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الإطلاق أمر الناس بشكر إنعامه فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ احفظوا بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليا، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل فيستحق أن يشرك به بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى إشراك غيره به، ورفع ﴿غَيْرِ﴾

للحمل على محل ﴿من خالق﴾ بأنه وصف أو بدل، فإن الاستفهام بمعنى النفي، أو لأنه فاعل ﴿خالق﴾ وجره حمزة والكسائي حملاً على لفظه، وقد نصب على الاستثناء، و ﴿يرزقكم﴾ صفة لـ ﴿خالق﴾ أو استئناف مفسر له أو كلام مبتدأ، وعلى الأخير يكون إطلاق ﴿هل من خالق﴾ مانعاً من إطلاقه على غير الله.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فتأس بهم في الصبر على تكذيبهم، فوضع ﴿فقد كذبت﴾ موضعه استغناء بالسبب عن المسبب، وتكرير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحث على المصابرة. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالحرش والجزاء. ﴿حق﴾ لا خلف فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان بأن يمينكم المغفرة مع الإصرار على المعصية، فإنها وإن أمكنت لكن الذنب بهذا التوقع كتناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة. وقرئ بالضم وهو مصدر أو جمع كقعود.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته وبيان لغرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (7) أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8) وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ (10) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَفْقُصُ مِنْ عُمُرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأمانى الفارغة، وبناء للأمر كله على الإيمان والعمل الصالح وقوله.

﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ تقرير له أي أفمن زين له سوء عمله بأن غلب وهمه وهواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقاً والقيح حسناً، كمن لم يزين له بل وفق حتى عرف الحق واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه، فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقيل تقديره أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ عليه ومعناه فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب، والفاآت الثلاث للسببية غير أن الأولين دخلتا على السبب والثالثة دخلت على المسبب، وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم أو كثرة مساوي أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا تتقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمتحسر عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الرياح. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة، ولأن المراد بيان أحداثها بهذه الخاصية

ولذلك أسنده إليها، ويجوز أن يكون اختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر. ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَيْتِكِ مَيِّتًا﴾ وقرأ نافع وحمة والكسائي وحفص بالتشديد. ﴿فَأَخْبَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره، أو بالسحاب فإنه سبب السبب أو الصائر مطراً. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يبسها والعدول فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص لما فيهما من مزيد الصنع. ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ أي مثل إحياء الموات نشور الأموات في صحة المقدورية، إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها. وقيل في كيفية الإحياء فإنه تعالى يرسل ماء من تحت العرش تنبت منه أجساد الخلق.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الشرف والمنعة. ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فليطلبها من عنده فإن له كلها، فاستغنى بالدليل عن المدلول. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إياهما، أو صعود الكتب بصحيفتهما، والمستكن في ﴿يرفعه﴾ لـ ﴿الكلم﴾ فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد ويؤيده أنه نصب ﴿العمل﴾، أو لـ ﴿العمل﴾ فإنه يحقق الإيمان ويقويه، أو لله وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة. وقرئ ﴿يصعد﴾ على البناءين والمصعد هو الله تعالى أو المتكلم به أو الملك. وقيل ﴿الكلم الطيب﴾ يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن. وعنه عليه الصلاة والسلام «هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل». ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ المكرات السيئات يعني مكرات قریش للنبي عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتداورهم الرأي في إحدى ثلاث حبسه وقتله وإجلائه. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يؤبه دونه بما يمكرون به. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يفسد ولا ينفذ لأن الأمور مقدره لا تتغير به كما دل عليه بقوله:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يخلق آدم عليه السلام منه. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ بخلق ذريته منها. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكرنا وإناثا. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا معلومة له. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَمَا يَمْدُ فِي عَمْرٍ مِنْ مَصِيرِهِ إِلَى الْكِبَرِ﴾ ولا ينقص من عمره. ﴿مَنْ عَمَرَ الْمَعْمَرُ لغيره بأن يعطى له عمر ناقص من عمره، أو لا ينقص من عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابله عليه أو للعمر على التسامح فيه ثقة بفهم السامع كقولهم: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق. وقيل الزيادة والنقصان في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل: أن يكون فيه إن حج عمره فعمره ستون سنة وإلا فأربعون. وقيل المراد بالنقصان ما يمر من عمره وينقضي فإنه يكتب في صحيفة عمره يوماً فيوماً، وعن يعقوب ﴿ولا ينقص﴾ على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هو علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارة إلى الحفظ أو الزيادة أو النقص.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَنْظُرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَكَرُّوا سَمْعُومًا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (14) يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (17) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِهَلَةٍ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

يَا غَيْبٍ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَّ فَإِنَّمَا يَتَرَكَّ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (22) إِنَّا أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَيَا لَزُرٍّ وَيَا لَكُثَبِ الْمُنِيرِ (25) ﴿

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضرب مثل للمؤمن والكافر، والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره، والأجاج الذي يحرق بملوحته. وقرئ «سيع» بالشديد و «سيع» بالتخفيف و «ملح» على فعل. ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطراد في صفة البحرين وما فيها من النعم، أو تمام التمثيل والمعنى: كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء، فإنه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته، لا يتساوى المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصية العظمى وهي بقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، أو تفضيل للأجاج على الكافر بما يشارك فيه العذب من المنافع. والمراد ب «الحلية» اللآليء واليواقيت. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كل. ﴿مَوَاحِرَ﴾ تشق الماء بجريها. ﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من فضل الله بالنقلة فيها، واللام متعلقة ب «مواخير»، ويجوز أن تتعلق بما دل عليه الأفعال المذكورة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك وحرف الترجي باعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدة دوره أو منتهاه أو يوم القيامة. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ الإشارة إلى الفاعل لهذه الأشياء. وفيها إشعار بأن فاعليته لها موجبة لثبوت الأخبار المترادفة، ويحتمل أن يكون ﴿له الملك﴾ كلاماً مبتدأ في قرآن. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ للدلالة على تفرده بالالهوية والربوبية، والقطمير لفافة النواة.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض. ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم على الإنفاع، أو لتبرئهم منكم مما تدعون لهم. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ بإشراككم لهم يقرون بطلانه أو يقولون ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾. ﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر ﴿مثل خبير﴾ به أخبرك وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه الخبير به على الحقيقة دون سائر المخبرين. والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفي ما يدعون لهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ في أنفسكم وما يعين لكم، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به ولذلك قال: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾. ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق بالمنعم على سائر الموجودات حتى استحق عليهم الحمد.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوم آخرين أطوع منكم، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر.

﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ ولا تحمل نفس آئمة إثم نفس أخرى، وأما قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ ففي الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، وكل ذلك

أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفس أثقلها الأوزار. ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ تحمل بعض أوزارها. ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تجب لحمل شيء منه نفى أن يحمل عنها ذنبها كما نفى أن يحمل عليها ذنب غيرها. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ولو كان المدعو ذا قرابتها، فأضمر المدعو لدلالة إن تدع عليه. وقرئ «ذو قربي» على حذف الخبر وهو أولى من جعل كان التامة فإنها لا تلائم نظم الكلام. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلواتهم، أو غائباً عنهم عذابه. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير، واختلاف الفعلين لما مر من الاستمرار. ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ ومن تطهر من دنس المعاصي. ﴿فَأِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعه لها، وقرئ «ومن أزكى فإنما يزكى» وهو اعتراض مؤكد لخشيته وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي. ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازيهم على تركيهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الكافر والمؤمن، وقيل هما مثلاً للصنم والله عز وجل.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ولا الباطل ولا الحق.

﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُّ﴾ ولا الثواب ولا العقاب، ولا لتأكيد نفي الاستواء وتكريرها على الشقين لمزيد التأكيد. و «الحرور» فعول من الحر غلب على السموم. وقيل السموم ما يهب نهاراً والحرور ما تهب ليلاً.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأُمُوتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل. وقيل للعلماء والجهلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته والاعتاظ بعظاته. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصيرين على الكفر بالأموات ومبالغة في إقناطه عنهم.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع فلا إليك ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ محقين أو محققاً، أو إرسالاً مصحوباً بالحق، ويجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أهل عصر. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى. ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من نبي أو عالم ينذر عنه، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة سيما وقد قرن به من قبل، أو لأن الإنذار هو الأهم المقصود من البعثة.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم. ﴿وَبِالْزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام. ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير الوصفين.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٌ (26) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيَّةٌ شُوذٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ (30) وَلَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ لَخَيْرٌ بَصِيرٌ (31) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَى الْكِتَابِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ



بِالْخَبَرِ تِ يَذِّنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32) جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) ﴿

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري بالعقوبة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أجناسها وأصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتها من الصفرة والخضرة ونحوهما. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي ذو جدد أي خطط وطرائق يقال جدة الحمار للخطوة السوداء على ظهره، وقرىء ﴿جُدَدٌ﴾ بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة و ﴿جُدَدٌ﴾ بفتحين وهو الطريق الواضح. ﴿بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدة والضعف. ﴿وَعَرَائِبٌ سُودٌ﴾ عطف على ﴿بيض﴾ أو على ﴿جُدَدٌ﴾ كأنه قيل: ومن الجبال ذو جدد مختلفة اللون ومنها ﴿غَرَائِبٌ﴾ متحدة اللون، وهو تأكيد مضمير يفسره ما بعده فإن الغريب تأكيد للأسود ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظير ذلك في الصفة قول النابغة:

وَالْمُؤْمِنُ الْعَائِدَاتُ الطَّيْرُ يَمْسَحُهَا

وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ كاختلاف الثمار والجبال. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إني أخشاكم لله وأتقاكم له» ولذلك أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر. وقرىء برفع اسم الله ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيباً. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على قرائته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنواناً، والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيف اتفق من غير قصد إليهما. وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ تحصيل ثواب الطاعة وهو خبر إن. ﴿لَن تَبُورَ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة وقوله:

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ﴾ علة لمدلوله أي يتنفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليؤفقه أجور أعمالهم، أو لمدلول ما عد من امتثالهم نحو فعلوا ذلك ﴿ليؤفقه﴾ أو عاقبة لـ ﴿يرجون﴾. ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ما يقابل أعمالهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لفرطاتهم. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها، وهو علة للتوفية والزيادة أو خبر إن ويرجون حال من واو وأنفقوا.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن و ﴿مَنْ﴾ للتبيين أو الجنس و ﴿مَنْ﴾ للتبعض. ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أحقه مصدقاً لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيقته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ عالم بالبواطن والظواهر فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، وتقديم الخبر للدلالة على أن العمدة في ذلك الأمور الروحانية.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ حكمتنا بتوريثه منك أو نورثه فعبير عنه بالماضي لتحقيقه، أو أورثناه من الأمم السالفة، والعطف على ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾ والذي أوحينا إليك اعتراض لبيان كيفية التورث. ﴿الَّذِينَ

اضْطَمْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسره فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يعمل به في غالب الأوقات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ بضم التعليم والإرشاد إلى العمل، وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم. وقيل الظالم المعجور والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيء والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحسبون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته». وقيل الظالم الكافر على أن الضمير للعباد، وتقديمه لكثرة الظالمين ولأن الظلم بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجبلة والاقتصاد والسبق عارضان. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى التورث أو الاصطفاء أو السبق.

﴿جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأ وخبر والضمير للثلاثة أو للـ ﴿الذين﴾ أو للـ ﴿مقتصد﴾ والـ ﴿سابق﴾، فإن المراد بهما الجنس وقرئ «جنة عدن» و «جَنَاتُ عَدْنٍ» منصوب بفعل يفسره الظاهر، وقرأ أبو عمرو «يدخلونها» على البناء للمفعول. «يَدْخُلُونَ فِيهَا» خبر ثان أو حال مقدرة، وقرئ «يدخلون» من حليت المرأة فهي حالية. «مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» من الأولى للتبعض والثانية للتبيين. «وَلَوْلُؤُا» عطف على «ذهب» أي «من ذهب» مرصع باللؤلؤ، أو «من ذهب» في صفاء اللؤلؤ ونصبه نافع وعاصم رحمهما الله تعالى عطفاً على محل «من أساور». «وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ».

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (37) إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلَيْكَ يَذَّابُونَ الصُّدُورِ (38) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يُبَدِّدُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَجْرٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُمْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)﴾

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ همهم من خوف العاقبة، أو همهم من أجل المعاش وآفاته أو من وسوسة إبليس وغيرها، وقرئ «الحزن». «وَأَنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ» للمذنبين. «شَكُورٌ» للمطيعين. ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة. «مِنْ فَضْلِهِ» من إنعامه وتفضله إذ لا واجب عليه. «لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ» تعب. «وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» كلال إذ لا تكليف فيها ولا كد، أتبع نفي النصب نفي ما يتبعه مبالغة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان. «فَيَمُوتُوا» فيستريحوا، ونصبه بإضمار أن، وقرئ «فيموتون» عطفاً على «يُقْضَىٰ» فقله تعالى: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ». «وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا» بل كلما خبت زيد إسعارها. «كَذَلِكَ» مثل ذلك الجزاء. «نُجْزِي كُلَّ كَافِرٍ»

مبالغ في الكفر أو الكفران، وقرأ أبو عمرو «يجزى» على بناء المفعول وإسناده إلى «كل»، وقرئ «يجازي».

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته. ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه. ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ جواب من الله وتوبيخ لهم و﴿ما يتذكر﴾ فيه متناول كل عمر يمكن المكلف فيه من التفكير والتذكر، وقيل ما بين العشرين إلى الستين. وعنه عليه الصلاة والسلام «العمر الذي أَعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة». والعطف على معنى ﴿أو لم نعمركم﴾ فإنه للتقرير كأنه قال: عمرناكم وجاءكم النذير وهو النبي ﷺ أو الكتاب، وقيل العقل أو الشيب أو موت الأقارب. ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه خافية فلا يخفى عليه أحوالهم. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل له لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ملقى إليكم مقاليد التصرف فيها، وقيل خلفاً بعد خلف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف. ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جزاء كفره. ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيان له، والتكرير للدلالة على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه، والمراد بالمقت وهو أشد البغض مقت الله وبالخسار خسار الآخرة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني آلهتهم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء الله أو لأنفسهم فيما يملكونه. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿أرأيتم﴾ بدل الاشتمال لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء أروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية. ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا﴾ ينطق على أنا اتخذناهم شركاء. ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية، ويجوز أن يكون هم للمشركين كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والكسائي ﴿على بينات﴾ فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل. ﴿بَلْ إِنْ يَعِدِ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نفى أنواع الحجج في ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الأسلاف الأخلاف، أو الرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِيطُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا﴾ كراهة أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ، أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع. ﴿وَلَيُنْزِلَنَّ الْأَمْثَلُ مِنْ أَحَدٍ﴾ ما أمسكهما. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد الله أو من بعد الزوال، والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولى زائدة والثانية للابتداء. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث أمسكهما وكانا جديرتين بأن تهذا هذا كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (42) أَسْرَكَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدِلَ إِلَّا لِسْنُ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَحْدِلَ لِسْنُ اللَّهِ تَحْوِيلًا (45) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا (44) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا (45) ﴿

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾. وذلك أن قريشاً لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى لو آتانا رسول لنكونن ﴿أهدى من إحدى الأمم﴾، أي من واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، أو من الأمة التي يقال فيها هي ﴿إحدى الأمم﴾ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ أي النذير أو معيئه على التسبب. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق.

﴿اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له. ﴿وَمَكْرَ السَّيِّءِ﴾ أصله وإن مكروا المكر السيء فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف. وقرأ حمزة وحده بسكون الهمزة في الوصل. ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيط. ﴿الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر وقد حاق بهم يوم بدر، وقرئ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ﴾ أي ولا يحيق الله. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدلها بجعله غير التعذيب تعذيباً ولا يحولها بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم، وقوله:

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استشهاد علم بما يشاهدونه في مسابيرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين. ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليسيقه ويفوته. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها. ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ ظهر الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم، وقيل المراد بالدابة الإنس وحده لقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بَعِيدًا بَصِيرًا﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة: أن أدخل من أي باب شئت».



[مكية وعنه عليه الصلاة والسلام «يس تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدفاع والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة» وآياتها ثلاث وثمانون آية]

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُلَاقًا فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)﴾

﴿يس﴾ كالم في المعنى والإعراب، وقيل معناه يا إنسان بلغه طييء، على أن أصله يا أنيسين فاقصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل من الله في أيمن. وقرئ بالكسر كجبر وبالفتح على البناء كآين، أو الإعراب على اتل يس أو بإضمار حرف القسم والفتحة لمنع الصرف وبالضم بناء كحيث، أو إعراباً على هذه ﴿يس﴾ وأمال الياء حمزة والكسائي وروح وأبو بكر وأدغم النون في واو.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ابن عامر والكسائي وأبو بكر وورش ويعقوب، وهي واو القسم أو العطف إن جعل ﴿يس﴾ مقسماً به.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لمن الذين أرسلوا.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيد والإستقامة في الأمور، ويجوز أن يكون ﴿على صراط﴾ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكن في الجار والمجرور، وفائدته وصف الشرع صريحاً بالاستقامة وإن دل عليه ﴿لمن المرسلين﴾ التزاماً.

﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ خبر محذوف والمصدر بمعنى المفعول. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالنصب بإضمار أعني أو فعله على أنه على أصله، وقرئ بالجر على البدل من القرآن.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بـ ﴿تنزيل﴾ أو بمعنى ﴿لمن المرسلين﴾. ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ قوماً غير منذر آبائهم يعني آبائهم الأقربين لتطاول مدة الفترة، فيكون صفة مبينة لشدة حاجتهم إلى إرساله، أو الذي أنذر به أو شيئاً أنذر به آبائهم الأبعدون، فيكون مفعولاً ثانياً ﴿لتنذر﴾، أو إنذار آبائهم على المصدر. ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ متعلق بالنفي على الأول أي لم ينذروا فبقوا غافلين، أو بقوله ﴿إنك لمن المرسلين﴾ على الوجه الأخرى أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر، بتمثيلهم بالذين غلت أعناقهم. ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ فالأغلال، واصله إلى أذقانهم فلا تخليهم يطأطئون رؤوسهم له. ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفت الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وبمن أحاط بهم سدان فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سَدًّا﴾ بالفتح وهو لغة فيه، وقيل ما كان بفعل الناس فبالفتح وما كان بخلق الله فبالضم. وقرئ «فأعشيناهم» من العشاء. وقيل الآيتان في بني مخزوم حلف أبو جهل أن يرضخ رأس النبي ﷺ فاتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدهغه، فلما رفع يده انشئت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله بصره.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سبق في سورة «البقرة» تفسيره.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتب عليه البغية المرومة. ﴿مَنْ أَتَعَ الذُّكْرُ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به. ﴿وَحَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾ وخاف عقابه قبل حلوله ومعاينة أهواله، أو في سريره ولا يغتر برحمته فإنه كما هو رحمن، متقم قهار. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (12) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (13) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ (14) ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكِيدُونَ﴾ (15) ﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّ إِلَيْنَا لَلْآيِكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (16) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (17) ﴿قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُكُمْ بِكُمْ لَئِنْ لَمْ نَنْتَهُوا لَرْجْمِكُمْ وَلَيْسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (18) ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (19) ﴿

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الأموات بالبعث أو الجهاد بالهداية. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطلّاحة. ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الحسنة كعلم علموه وحيس وقفوه، والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد، وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل وهما: ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ على حذف مضاف أي اجعل لهم مثل أصحاب القرية مثلاً، ويجوز أن يقتصر على واحد ويجعل المقدر بدلاً من الملفوظ أو بياناً له، والقرية أنطاكية. ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل من أصحاب القرية، و «المرسلون» رسل عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أهلها وإضافته إلى نفسه في قوله:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ لأنه فعل رسوله وخليفته وهما يحيى ويونس عليهم الصلاة والسلام، وقيل غيرهما. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ فقوينا، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزه إذا غلبه وحذف المفعول لدلالة ما قبله

عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به. ﴿بِئَالِثٍ﴾ وهو شمعون. ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا حبيباً النجار يركب غنماً فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية فقالا: نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرأ فأمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما: ألنا إله سوى ألهتنا؟

قالا: نعم من أوجدك وألهتك، قال حتى أنظر في أمركما فحبسهما، ثم بعث عيسى شمعون فدخل متكرراً وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فأنس به، فقال له يوماً: سمعت أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه، قال فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال صفاه وأوجزا، قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال وما آيتكما، قالا: ما يتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصره، وأخذوا بندقيتين فوضعاهما في حذقيته فصارتا مقلتين ينظر بهما، فقال شمعون أرأيت لو سألت ألهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولها الشرف، قال ليس لي عنك سر ألهتنا لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع، ثم قال إن قدر إلهكما على إحياء ميت أمنا به، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذرکم ما أنتم فيه فآمنوا، وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة فقال الملك من هم قال شمعون وهذان فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن في جمع، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فهلكوا.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدعون، ورفع بشر لا تقتاض النفي المقتضي إعمال ما يلا. ﴿وَمَا أَنْزَلُ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وحي ورسالة. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة.

﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم، وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته، وهو المحسن للاستشهاد فإنه لا يحسن إلا ببينة.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاء منا بكم، وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقبحهم له وتنفرهم عنه. ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ عن مقاتلتكم هذه. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم، وقرئ «طيركم معكم». ﴿أَنْتُمْ ذُكِّرْتُمْ﴾ وعظمت، وجواب الشرط محذوف مثل تطيبرتم أو توعدت بالرجم والتعذيب، وقد قرئ بألف بين الهمزتين ويفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن بغير الاستفهام و «أين ذكرتم» بمعنى طائرکم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾ قوم عادتكم الإسراف في العصيان فمن ثم جاءكم الشؤم، أو في الضلال ولذلك توعدتكم وتشاءتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (20) أَتَيْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُرُ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لَا أَتَّبِعُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ رُجُوعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنَّ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفِيدُونِ (23) إِنْ أَرَادْتُ لِفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ (25) قِيلَ

أَدْخِلَ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿26﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿27﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿28﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿29﴾ يَحْشُرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿30﴾

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو ممن آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وبينهما ستمائة سنة، وقيل كان في غار. يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على النصيح وتبليغ الرسالة. ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على قراءة غير حمزة فإنه يسكن الياء في الوصل، تطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصيح، حيث أراد لهم ما أراد لها والمراد تقريرهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال: ﴿وَاللَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال:

﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ لا تنفعني شفاعتهم. ﴿وَلَا يُقْدُونَ﴾ بالنصرة والمظاهرة.

﴿إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فإن إثار ما لا ينفع ولا يدفع ضرراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضرر وإشراكه به ضلال بين لا يخفى على عاقل، وقرأ نافع ويعقوب وأبو عمرو بفتح الياء.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿فَاسْمَعُونَ﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطاب للرسول فإنه لما نصح قومه أخذوا يرجمونهم فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإذناً في دخولها كسائر الشهداء، أو لما هموا بقتله رفعه الله إلى الجنة على ما قاله الحسن وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم، والكلام استئناف في حيز الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه وكذلك: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ فإنه جواب عن السؤال عن قوله عند ذلك القول، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق، وقرئ ﴿المكرمين﴾ و «ما» خبرية أو مصدرية والباء صلة ﴿يعلمون﴾ أو استفهامية جاءت على الأصل، والباء صلة غفر أي بأي شيء ﴿غفر﴾ لي، يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أديتهم.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد هلاكه أو رفعه. ﴿وَمِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفيينا أمرهم بصيحة ملك، وفيه استحقاق لإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام. ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما صح في حكمتنا أن ننزل جنداً لإهلاك قومه إذ قدرنا لكل شيء سبباً وجعلنا ذلك سبباً لانتصارك من قومك، وقيل ﴿ما﴾ موصولة معطوفة على ﴿جند﴾ أي ومما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ ما كانت الأخذة أو العقوبة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها جبريل عليه السلام، وقرئت



بالرفع على كان التامة. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون، شبهوا بالنار رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْؤُهُ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ تعالي فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليها: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصائحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسروا عليهم، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين، ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة ﴿يا حسرتا﴾ ونصبها لطولها بالجار المتعلق بها، وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف، وقرئ «يا حسرة العباد» بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول، و «يا حسرة» بالهاء على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32) وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ الْيَوْمُ الَّذِي نَسُخُّ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُنْظَرُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ لأن ﴿كم﴾ لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كم﴾ على المعنى أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وقرئ بالكسر على الاستئناف.

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة للجزاء، و ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة و «ما» مزيدة للتأكيد، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمة ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا فتكون إن نافية وجميع فعيل بمعنى مفعول، و ﴿لَدَيْنَا﴾ ظرف له أو لـ ﴿محضرون﴾.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾ وقرأ نافع بالتشديد. ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ خبر لـ ﴿الأرض﴾، والجملة خبر ﴿آية﴾ أو صفة لها إذ لم يرد بها معينة وهي الخبر أو المبتدأ والآية خبرها، أو استئناف لبيان كونها ﴿آية﴾. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ من أنواع النخل والعنب، ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الأنواع، وذكر النخيل دون التمر ليطابق الحب والأعنان باختصاص شجرها بمزيد النفع وأثار الصنع. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرئ بالتخفيف، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، أو ﴿العيون﴾ و ﴿من﴾ مزيدة عند الأخفش.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل الضمير لله تعالى على طريقة الالتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه، وقرأ حمزة والكسائي بضميتين وهو لغة فيه، أو جمع ثمار وقرئ بضمة وسكون. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، وقيل ﴿ما﴾ نافية والمراد أن الثمر بخلق الله لا بفعالهم، ويؤيد الأول قراءة الكوفيين غير حفص بلا هاء فإن حذفه من الصلة

أحسن من غيرها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أمر بالشكر من حيث أنه إنكار لتركه.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الأنواع والأصناف. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الذكر والأنثى. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأزواجاً مما لم يطلعهم الله تعالى عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته.

﴿وَأَيُّ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نزله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد والكلام في إعرابه ما سبق. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ لحد معين ينتهي إليه دورها، فشيء بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لكبد السماء فإن حركتها فيه يوجد فيها بطء بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال:

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالْجَوِّ تَدْوِيمٌ

أو لاستقرار لها على نهج مخصوص، أو لمتتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها في دورها ثلثمائة وستين مشرقاً ومغرباً، تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل، أو لمتقطع جريها عند خراب العالم. وقرئ «لا مستقر لها» أي لا سكون فإنها متحركة دائماً و«لا مستقر» على أن «لا» بمعنى ليس. ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكم التي تكل الفطن عن إحصائها. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور. ﴿الْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (39) لَا الشَّمْسُ يَبْعَثُ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) وَأَيُّهُمُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتْنًا إِلَىٰ حِينٍ (44) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطُمِمْ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطَعَمَهُمْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)﴾

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ﴾ قدرنا مسيره. ﴿مَنَازِلَ﴾ أو سيره في منازل وهي ثمانية وعشرون: الشرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعد، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا، وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازلها وهو الذي يكون فيه قبيل الاجتماع دق واستقوس، وقرأ الكوفيون وابن عامر «والقمر» بنصب الراء. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ كالشمرخ المعوج، فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج، وقرئ «كالعرجون» وهما لغتان كالبيزون والبيزون. ﴿الْقَدِيمِ﴾ العتيق وقيل ما مر عليه حول فصاعداً.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ يصح لها ويتسهل. ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة سيره فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان، أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله، أو سلطانه فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي «الشمس» للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه، وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران، وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول وتبديل الإدراك بالسبق لأنه الملائم لسرعة سيره. ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلهم والتثنية عوض عن المضاف إليه، والضمير للشمس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات، أو للكواكب

فإن ذكرهما مشعر بهما. ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ﴾ يسرون فيه بانسباط.

﴿وَأَبَئُ لِيَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجارتهم، أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم، فإن الذرية تقع عليهم لأنهن مزارعها. وتخصيصهم لأن استقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ذرياتهم﴾. ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُونَ﴾ المملوء، وقيل المراد فلك نوح عليه الصلاة والسلام، وحمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلاهم هم وذرياتهم، وتخصيص الذرية لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مِنْ مِثْلِ الْفَلَكِ﴾ من مثل الفلك. ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من السفن والزوارق.

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق، أو فلا إغاثة كقولهم أتاهم الصريخ. ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ينجون من الموت به.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا﴾ إلا لرحمة ولتمتع بالحياة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمان قدر لآجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الوقائع التي خلت أو العذاب المعد في الآخرة، أو نوازل السماء ونواب الأرض كقوله: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو عكسه، أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجين رحمة الله، وجواب إذا محذوف دل عليه قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمنوا عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ على محاوئجكم. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع يعني معطلة كانوا بمكة. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكمًا بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمور بمشيئته. ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على زعمكم، وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين إيهامًا بأن الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم فنحن أحق بذلك، وهذا من فرط جهالتهم فإن الله يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله، ويجوز أن يكون جواباً من الله لهم أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِيَّةَ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَبُولْنَا مِنْ بَعْثًا مِنْ مَرْقَدًا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53)﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون وعد البعث.

﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأصله يخخصمون فسكنت التاء أدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو بكر بكسر الياء للاتباع، وقرأ ابن كثير وورش وهشام بفتح الخاء على إلقاء حركة التاء إليه، وأبو عمرو وقالون به مع الإختلاس وعن نافع الفتح فيه والإسكان والتشديد وكأنه جوز الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغماً، وقرأ حمزة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ من خصمه إذا جادله.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم. ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيروا حالهم بل يموتون حيث تبغتهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي مرة ثانية وقد سبق تفسيره في سورة «المؤمنين». ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور جمع جدث وقرئ بالفاء. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْلُونَ﴾ يسرعون وقرئ بالضم.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ وقرئ «يا ويلتنا». ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ وقرئ «من أهبنا» من هب من نومه إذا انتبه ومن هبنا بمعنى أهبنا، وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً، و﴿من بعثنا﴾ و«من هبنا» على الجارة والمصدر، وسكت حفص وحده عليها سكتة لطيفة والوقف عليها في سائر القراءات حسن. ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ مبتدأ وخبر و﴿ما﴾ مصدرية، أو موصولة محذوفة الراجح، أو ﴿هذا﴾ صفة لـ «مرقدنا» و﴿ما وعد﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أي ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾، أو ﴿ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ حق وهو من كلامهم، وقيل جواب للملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم، معدول عن سنته تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنهم قالوا: بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأرسل إليكم الرسل فصدقكم وليس الأمر كما تظنون، فإنه ليس يبعث النائم فيهمكم السؤال عن الباعث وإنما هو البعث الأكبر ذو الأحوال.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ ما كانت الفعلية. ﴿إِلَّا صَيِّحَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأخيرة، وقرئت بالرفع على كان التامة. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر واستغناؤهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (54) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّينَ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِهُونَ (56) هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (58) وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبَىٰ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ﴿

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حكاية لما يقال لهم حينئذ تصويراً للموعد وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ متلذذون في النعمة من الفكاهة، وفي تنكير «شغل» وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبه على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «في شغل» بالسكون، ويعقوب في رواية «فكهون» للمبالغة وهما خبران لـ «إن»، ويجوز أن يكون «في شغل» صلة «لفاكهون»، وقرئ «فكهون» بالضم وهو لغة كنطس ونطس «وفاكهين» «وفكهين» على الحال من المستكن في الظرف، و«شغل» بفتحين وفتحة وسكون والكل لغات.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائي في «ظلل».

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على السرر المزينة. ﴿مُتَكُونُونَ﴾ و ﴿هُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِي ظِلَالٍ﴾، و ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جملة مستأنفة أو خبر ثان أو ﴿مُتَكُونُونَ﴾ والجاران صلتان له، أو تأكيد للضمير في شغل أو في فاكهون، وعلى الأرائك متكئون خبر آخر لأن وأزواجهم عطف على ﴿هُمْ﴾ للمشاركة في الأحكام الثلاثة، و ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ حال من المعطوف والمعطوف عليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ما يدعون به لأنفسهم يقتعلون من الدعاء كاشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه، أو ما يتداعونه كقولك ارتموه بمعنى تراموه، أو يتمنون من قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه علي، أو ما يدعونه في الدنيا من الجنة ودرجاتها و ﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة مرتفعة بالابتداء، و ﴿لَهُمْ﴾ خبرها وقوله:

﴿سَلَامٌ﴾ بدل منها أو صفة أخرى، ويجوز أن يكون خبرها أو خبر محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي ولهم سلام، وقرئ بالنصب على المصدر أو الحال أي لهم مرادهم خالصة. ﴿قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ أي يقول الله أو يقال لهم قولاً كائناً من جهته، والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم وامتناهم، ويحتمل نصبه على الاختصاص.

﴿وَأَمَّا آرَاؤُهَا الْيَوْمَ الْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يفرقون﴾. وقيل اعتزلوا من كل خير أو تفرقوا في النار فإن لكل كافر بيتاً ينفرد به لا يرى ولا يرى.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ من جملة ما يقال لهم تقريراً وإلزاماً للحجة، وعهده إليهم ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته الزاجرة عن عبادة غيره وجعلها عبادة الشيطان، لأنه الأمر بها والمزين لها، وقرئ ﴿اعهد﴾ بكسر حرف المضارعة و ﴿أعهد﴾ و ﴿أحد﴾ على لغة بني تميم. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تعليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيها يحملهم عليه.

﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ عطف على ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته، فالجملة استئناف لبيان المقضي للعهد بشقيه أو بالشق الآخر، والتذكير للمبالغة والتعظيم، أو للتبعض فإن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ رجوع إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل ورأي والجبل الخلق، وقرأ يعقوب بضمين وابن كثير وحمزة والكسائي بهما مع تخفيف اللام وابن عامر وأبو عمرو بضمه وسكون مع التخفيف والكل لغات، وقرئ ﴿جبالاً﴾ جمع جبلة كخليفة وخلق و ﴿جبالاً﴾ واحد الأجيال.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا حرها اليوم بكفركم في الدنيا.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ نمنعها عن الكلام. ﴿وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بظهور آثار المعاصي عليها ودلالاتها على أفعالها، أو إنطاق الله إياها وفي الحديث «إنهم يجحدون ويخاصمون فيختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم».

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْزَلُنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَغْرِقُونَ﴾ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67) وَمَنْ نَعْمِرْهُ نَكْسِفْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68) وَمَا

عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) يُسْذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُبْصِرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ (75) ﴿

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسحنا أعينهم حتى تصير ممسوحة. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه، وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الابتدار، أو جعل المسبوق إليه مسبقاً على الاتساع أو بالظرف. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ الطريق وجهة السلوك فضلاً عن غيره.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم. ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ مكانهم بحيث يجمدون فيه، وقرأ أبو بكر «مكاناتهم». ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل، وقيل ﴿لا يرجعون﴾ عن تكذيبهم، وقرئ «مضياً» بإتباع الميم الضاد المكسورة لقلب الواو ياء كالمعنى والمعنى مضياً كصبي، والمعنى أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن يفعل بهم ذلك لكننا لم نفعل لشمول الرحمة لهم واقتضاء الحكمة إمهالهم.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ ومن نطل عمره. ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاض بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، وابن كثير على هذه يشيع ضمة الهاء على أصله، وقرأ عاصم وحزمة ﴿ننكسه﴾ من التكنيس وهو أبلغ والنكس أشهر. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسح فإنه مشتمل عليهما ويزادة غير أنه على تدرج، وقرأ نافع برواية ابن عامر وابن ذكوان ويعقوب بالتاء لجري الخطاب قبله.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ رد لقولهم إن محمداً شاعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى لأنه غير مقفى ولا موزون، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ونحوها. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه على ما خبرتم طبعه نحواً من أربعين سنة، وقوله عليه الصلاة والسلام:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب». وقوله: «هَلْ أَتَتْ إِلَّا إصْبَعٌ دَمِيتُ\* وفي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتُ».

اتفاقي من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك، وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعراً، هذا وقد روي أنه حرك الباءين وكسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية، وقيل الضمير للـ ﴿قرآن﴾ أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى. ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ وكتاب سماوي يتلى في المعابد، ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز.

﴿لِيُذَكِّرَ﴾ القرآن أو الرسول ﷺ، ويؤيده قراءة نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء. ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فهما فإن الغافل كالميت، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به. ﴿وَيَحْيِي الْقَوْلَ﴾ وتجب كلمة العذاب. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المصيرين على الكفر، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حججهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مما تولينا إحداثه ولم يقدر على إحداثه غيرنا، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالإحداث. ﴿أَنْعَمًا﴾ خصها بالذكر

لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ متملكون لها بتمليكنا إياها، أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم قال:

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَقَرَا  
﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيرناها منقادة لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم، وقرئ «ركوبتهم»، وهي بمعنىا كالحلوب والحلوبة، وقيل جمعه وركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها «ركوبهم». ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى الموضع، أو المصدر وأمال الشين ابن عامر وحده برواية هشام. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها كيف أمكن التوصل إلى تحصيل هذه المنافع المهمة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة، وعلموا أنه المتفرد بها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حاربهم من الأمور والأمور بالعكس لأنهم.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ لَهْمٌ﴾ لآلهتهم. ﴿جُنُودٌ مُخَضَّرُونَ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم، أو محضرون، أترهم في النار.

﴿فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (76) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ يَشْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾

﴿فَلَا يَخْزِيكَ﴾ فلا يهتك، وقرئ بضم الباء من أحزن. ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد والشرك، أو فيك بالتكذيب والتهجين. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتسلى به، وهو تعليل للنهي على الاستئناف ولذلك لو قرئ «أنا» بالفتح على حذف لام التعليل جاز.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بينا ومنافاة لوجود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بدء خلقه، ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أحسن شيء وأمنه شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب. روي «أن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم بال يفتته بيده وقال: أترى الله يحيي هذا بعد ما رمى، فقال عليه الصلاة والسلام: نعم ويبعثك ويدخلك النار» فنزلت. وقيل معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً مميز منطبق قادر على الخصام معرب عما في نفسه.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجبياً وهو نفي القدرة على إحياء الموتى، أو تشبيهه بخلق بوصفه بالعجز عما عجزوا عنه. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ خلقنا إياه. ﴿قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ منكراً إياه مستبعداً له، والريميم ما بلي من العظام، ولعله فعليل بمعنى فاعل من رم الشيء صار اسماً بالغلبة ولذلك لم يؤنث، أو بمعنى مفعول من رमितه. وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها، فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ كَالْمَرْخِ وَالْعَفَارِ. ﴿نَارًا﴾﴾ بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتتقدح النار. ﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ لا تشكون في أنها نار تخرج منه، فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائبة المضادة لها بكيفيتها كان أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضاً فيبس وبلي، وقرئ من «الشجر الخضراء» على المعنى كقوله ﴿فمالمثلون منها البطون﴾.

﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع كبر جرمهما وعظم شأنهما. ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُنَّ﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما، أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد، وعن يعقوب «يقدر». ﴿بَلَى﴾ جواب من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لا جواب سواه. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ كثير المخلوقات والمعلومات.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ إِنَّمَا شأنه. ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أي تكون. ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون أي يحدث، وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاوله عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة، وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق، ونصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على ﴿يقول﴾.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه عما ضربوا له، وتعجيب عما قالوا فيه محلاً بكونه مالكا للأمر كله قادراً على كل شيء. ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وعد ووعد للمقرين والمنكرين، وقرأ يعقوب بفتح التاء. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أعلم ما روي في فضل يس كيف خصت به فإذا أنه بهذه الآية. وعنه عليه الصلاة والسلام «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس»، وأيما مسلم قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له، ويشهدون غسله ويشيعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض روحه وهو ريان، ويمكن في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان.





[مكية وآياتها مائة واثنان وثمانون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهُكُمْ لَعِزُّدٌ (4) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ (5) إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءُ الدُّنْيَا بَرِيَّةٌ الْكَوَكِبِ (6) وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْمَلَطَفَةُ فَاتَّبَعَهُ بِشَهَابٍ نَاقِبٍ (10)﴾

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أقسم بالملائكة الصافين في مقام العبودية، على مراتب باعتبارها تفيض عليهم الأنوار الإلهية، منتظرين لأمر الله الزاجرين الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به فيها، أو الناس عن المعاصي بإلهام الخير، أو الشياطين عن التعرض لهم التالين آيات الله وجلالياء قدسه على أنبيائه وأوليائه، أو بطوائف الأجرام المرتبة كالصفوف المرصوفة والأرواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أو بنفوس العلماء الصافين في العبادات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه، أو بنفوس الغزاة الصافين في الجهاد الزاجرين الخيل، أو العدو التالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مباراة العدو والعطف لاختلاف الذوات، أو الصفات والفاء لترتيب الوجود كقوله:

يا لهف زياية للحارث الصـ      سابع فالغانم فالأيـب

فإن الصف كمال والزجر تكميل بالمنع عن الشر، أو الإشاقة إلى قبول الخير والتلاوة إفاضته أو الرتبة كقوله عليه الصلاة والسلام «رحم الله المحلقين... فالقصرين» غير أنه لفضل المتقدم على المتأخر وهذا للعكس، وأدغم أبو عمرو وحمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا.

﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم والفائدة فيه تعظيم المقسم به وتأکید المقسم عليه على ما هو المألوف في كلامهم، وأما تحقيقه فيقوله تعالى.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فإن وجودها وانتظامها على الوجه الأكمل مع إمكان غيره دليل على وجود الصانع الحكيم ووحدته على ما مر غير مرة، ﴿ورب﴾ بدل من واحد أو خبر ثان أو خبر محذوف وما بينهما يتناول أفعال العباد فيدل على أنها من خلقه، و ﴿المشارق﴾ مشارق الكواكب أو مشارق الشمس في السنة وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً، تشرق كل يوم في واحد وبحسبها تختلف المغارب، ولذلك اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة، وما قيل إنها مائة وثمانون إنما يصح لو لم تختلف أوقات الانتقال.

﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءُ الدُّنْيَا﴾ القربى منكم. ﴿بَرِيَّةٌ الْكَوَكِبِ﴾ بزينة هي ﴿الكواكب﴾ والإضافة للبيان،

وبعضه قراءة حمزة ويعقوب وحفص بـتـنـوـين «زينة» وجر ﴿الكواكب﴾ على إبدالها منه، أو بزينة هي لها كأضوائها وأوضاعها، أو بأن زينا ﴿الكواكب﴾ فيها على إضافة المصدر إلى المفعول فإنها كما جاءت اسماً كالليقة جاءت مصدراً كالنسبة ويؤيده قراءة أبي بكر بالتثنية، والنصب على الأصل أو بأن زيتها ﴿الكواكب﴾ على إضافته إلى الفاعل وركوز الثابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين السماء الدنيا أن تحقق لم يقدح في ذلك، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متألثة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة.

﴿وَحَفَظًا﴾ منصوب بإضمار فعله، أو العطف على «زينة» باعتبار المعنى كأنه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظاً. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة برمي الشهب.

﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم، ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون، ولا علة للحفظ على حذف اللام كما في جنتك أن تكرمني ثم حذف أن وأهدرها كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

فإن اجتماع ذلك منكر والضمير لـ ﴿كل﴾ باعتبار المعنى، وتعدية السماع بالي لتضمنه معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهويلاً لما يمنعهم عنه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي «وحفص» بالتشديد من التسمع وهو طلب السماع و ﴿الملا الأعلى﴾ الملائكة وأشرافهم. ﴿وَيُقَذُّونَ﴾ ويرمون. ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده.

﴿دُحُورًا﴾ علة أي للدحور وهو الطرد أو مصدر لأنه والقذف متقاربان، أو حال بمعنى مدحورين أو منزوع عنه الباء جمع دحر، وهو ما يطرد به ويقويه القراءة بالفتح وهو يحتمل أيضاً أن يكون مصدراً كالقبول أو صفة له أي قذفاً دحوراً. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي عذاب آخر. ﴿وَاصِبٌ﴾ دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من واو «يسمعون» ومن بدل منه، والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة، وقرئ «خطف» بالتشديد مفتوح الخاء ومكسروها وأصلها اختطف. ﴿فَاتَّبَعُهُ شَهَابٌ﴾ أتبع بمعنى تبع، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض، وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين إن صح لم يناف ذلك إذ ليس فيه ما يدل على أنه ينقض من الفلك ولا في قوله «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين» فإن كل نير يحصل في الجو العالي فهو مضباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجماً للشياطين تنصعد إلى قرب الفلك للتسمع، وما روي أن ذلك حدث بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام إن صح فلعل المراد كثرة وقوعه، أو مصيره «دحوراً». واختلف في أن المرجوم يتأذى به فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يردعون عنه رأساً، ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء كأنه يثقب الجو بضوئه.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِنَّا ذَكَّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (14) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15) وَإِنَّا وَكَّانُا رَبَّاءً رِغْظًا إِنَّا لَنَبْغِثُونُ (16) أَوْ

ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) ﴿

﴿فَاسْتَفْتَيْهِمْ﴾ فاستخبرهم والضمير لمشركي مكة أو لبني آدم. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ يعني ما ذكر من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب، و ﴿من﴾ لتغليب العقلاء ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، وقراءة من قرأ «أم من عددنا»، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم كعاد وثمود، وإن المراد إثبات المعاد ورد استحالة الأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم سواء، وتقريره أن استحالة ذلك إما لعدم قابلية المادة ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب الحاصل من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي وهما باقيا قابلان للانضمام بعد، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه إما لاعترافهم بحدوث العالم أو بقصة آدم وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه بلا توسط واقعة، فلزمهم أن يجوزوا إعادتهم كذلك، وإما لعدم قدرة الفاعل ومن قدر على خلق هذه الأشياء قدر على ما لا يعتد به بالإضافة إليها سيما ومن ذلك بدوهم أولاً وقدرته ذاتية لا تتغير.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى وإنكارهم للبعث. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث، وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء أي بلغ كمال قدرتي وكثرة خلافتي إن تعجبت منها، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها. أو عجبت من أن ينكر البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يجوزه. والعجب من الله تعالى إما على الغرض والتخيل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة تعري الإنسان عند استعظامه الشيء، وقيل إنه مقدر بالقول أي: قال يا محمد بل عجبت.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا عظوا بشيء لا يتعظون به، أو إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة تدل على صدق القائل به. ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحر، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾ يعنون ما يرونه. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر سحريته.

﴿أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصله انبعث إذا متنا فبدلوا الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار، وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذه الحالة أشد استنكاراً، فهو أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولى وقراءة نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية.

﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ عطف على محل ﴿إن﴾ واسمها، أو على الضمير في «مبعوثون» فإنه مفصول منه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم، وسكن نافع برواية قالون وابن عامر الواو على معنى التردد.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، وإنما اكتفى به في الجواب لسبق ما يدل على جوازه وقيام المعجز على صدق المخبر عن وقوعه، وقرئ «قال» أي الله أو الرسول وقرأ الكسائي وحده «نعم» بالكسر وهو لغة فيه.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ جواب شرط مقدر أي إذا كان ذلك فإنما البعثة «زجرة» أي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كأمير «كن» في الإبداء ولذلك

رتب عليها. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ اليوم الذي نجازى بأعمالنا وقد تم به كلامهم وقوله:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ جواب الملائكة، وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض

والفصل القضاء، أو الفرق بين المحسن والمسيء.

﴿اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أمر الله للملائكة، أو أمر بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى

الموقف. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿وَأَرْوَاهُمْ﴾ وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكوكب مع

عبدة كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً﴾ أو نساءهم اللاتي على دينهم أو قرناءهم من الشياطين. ﴿وَمَا

كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم، وهو عام مخصوص بقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ﴾ الآية، وفيه دليل على أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم المشركون.

﴿فَاهْذُوبُهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فعرفهم طريقاً ليسلكوها.

﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ

(27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا

طَاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31) فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا

كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُونَ آلِهَةً بَدَلْنَا لِأَسَافِرِ

تَجْنُوتِمْ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّا كُنَّا لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا نَجُوزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(39) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ هُمْ رِزْقُ مَعْلُومٌ (41) فَوَيْلٌ لَهُمْ شُكْرُكُمْ (42) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى

سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44) ﴿

﴿وَقِفُّهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف. ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم والواو لا توجب

الترتيب مع جواز أن يكون موقفهم متعدداً.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضهم بعضاً بالتخليص، وهو توبيخ وتقريع.

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة

أو متسلمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً ويخلذه.

﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأتباع أو الكفرة والقرناء. ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم

بعضاً للتوبيخ ولذلك فسر بـ ﴿يتخاصمون﴾.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأيمنها، أو عن الدين أو عن الخير كأنكم

تنفعوننا نفع السانح فتعناكم وهلكنا، مستعار من يمين الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما

ولذلك سمي يميناً وتيمن بالسانح، أو عن القوة والقهر فتقسرونا على الضلال، أو على الحلف فإنهم كانوا

يحلفون لهم إنهم على الحق.

﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أجا بهم

الرؤساء أولاً بمنع إضلالهم بأنهم كانوا ضالين في أنفسهم، وثانياً بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم

يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه لأنهم كانوا قوماً مختارين الطغيان.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاتُ قُنُونٍ﴾.

﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ ثم بينوا أن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً لا محيص لهم عنه، وإن غاية ما فعلوا بهم أنهم دعوههم إلى الغي لأنهم كانوا على الغي فأحبوا أن يكونوا مثلهم، وفيه إيحاء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبلهم إذ لو كان كل غواية لإغواء غاو فمن أغواهم.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإن الاتباع والمتبوعين. ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل. ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشركون لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن كلمة التوحيد، أو على من يدعوهم إليه.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حق قام به البرهان وتطابق عليه المرسلون.

﴿إِنَّكُمْ لَذَاتُ قُوَّةٍ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل، وقرىء بنصب ﴿العذاب﴾، على تقرير النون كقوله:

وَلَا ذَاكِرُ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا

وهو ضعيف في غير المحلى باللام وعلى الأصل.

﴿وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في ﴿تُحْزَنُونَ﴾ لجميع المكلفين فيكون استثناءهم عنه باعتبار المماثلة، فإن ثوابهم مضاعف والمنقطع أيضاً بهذا الاعتبار.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ خصائصه من الدوام، أو تمحض اللذة ولذلك فسر به بقوله:

﴿فَوَاكِهُ﴾ فإن الفاكهة ما يقصد للتلذذ دون التغذية والقوت بالعكس، وأهل الجنة لما أعيدوا على خلقة محكمة محفوظة عن التحلل كانت أرزاقهم فواكه خالصة. ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال كما عليه رزق الدنيا.

﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ في جنات ليس فيها إلا النعيم، وهو ظرف أو حال من المستكن في ﴿مُكْرَمُونَ﴾، أو خبر ثان ﴿لَأُولَئِكَ﴾ وكذلك:

﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ يحتمل الحال أو الخبر فيكون: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في ﴿مُكْرَمُونَ﴾، وأن يتعلق بـ ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيكون حالاً من ضمير ﴿مُكْرَمُونَ﴾.

﴿بِطَافٍ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (45) بِيَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّيْرِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَتَىكَ لَيِّنُ الْمَصِيقَةِ (52) أَهَذَا مِثْنًا وَكَذَا تَرَابًا وَعِظْلًا أَوَآلَئِكَ لَمَيْسُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِقُونَ (54) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ﴾ بإناء فيه خمر أو خمر كقوله: \* وَكَأْسٌ شَرِبْتَ عَلَى لَذَّةٍ \* \* \* ﴿وَمِنْ مَعِينٍ﴾ من

شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون، أو خارج من العيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع. وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة، وكذلك قوله:

﴿يَبِضُّاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ وهما أيضاً صفتان لكأس، ووصفها بـ «لذة» إما للمبالغة أو لأنها تأنيث لذ بمعنى لذيد كطب ووزنه فعل قال:

وَلَذَّ كَطْعَمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكُّتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ

﴿لَا فِيهَا عُوقٌ﴾ غائلة كما في خمر الدنيا كالخمار من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ يسكرون من نزف الشراب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله، أفردته بالنفي وعطفه على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي وتابعهما عاصم في «الواقعة» من أنزف الشراب إذا نفذ عقله أو شرابه، وأصله للنفاد يقال نزف المطعون إذا خرج دمه كله ونزحت الركبة حتى نزفتها.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن. ﴿عِينٌ﴾ نجل العيون جمع عيناء.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ شبههن ببض النعام المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوف على «يطاف عليهم» أي يشربون فيتحدثون على الشراب قال:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ  
والتعبير عنه بالماضي للتأكيد فيه فإنه ألد تلك اللذات إلى العقل، وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ في مكالمتهم. ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ﴾ جليس في الدنيا.

﴿يَقُولُ أَتَيْتَكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ يوبخني على التصديق بالبعث، وقرئ بتشديد الصاد من التصديق.

﴿أَيُّدًا مِنَّا وَكُنَّا مُرَابِّينَ وَعِظَامًا أُنْتَبِئُوا لِمَدِينَتُونَ﴾ لمجزيون من الدين بمعنى الجزاء.

﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل. ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، وقيل القائل هو الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة يقول لهم: هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم؟ وعن أبي عمرو «مطلعون، فاطلع» بالتخفيف وكسر النون وضم الألف على أنه جعل اطلاعهم سبب اطلاعه من حيث أن أدب المجالسة يمنع الاستبداد به، أو خاطب الملائكة على وضع المتصل موضع المنفصل كقوله:

هُمُ الْأَمْرُونَ الْخَيْرُ وَالْفَاعِلُونَ

أو شبه اسم الفاعل بالمضارع.

﴿فَاطْلَعَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ (55). قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ (56) وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

(57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَمَوْءِقُورُ الْعَظِيمِ (60) لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ

الْعَمَلُونَ (61) أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلُّوا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقِيمِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

الْجَحِيمِ (64) طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوًّا بِرَنِّ جَحِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَقْوَاءُ بِآثَانِهِ هُزَّالِينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74) وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَحْنُ أَهْلُهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هَرَابًا قَاتِلِينَ (77) وَفَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) ﴿فَاطْلَعْ﴾ عليهم. ﴿فَرَاةٌ﴾ أي قرينه. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كَذَبْتُ لَتُرْدِينَ﴾ لتهلكني بالإغواء، وقرىء «لتغوين» و ﴿إِنْ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ معك فيها.

﴿أَقَمَّا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ عطف على محذوف أي أنحن مخلصون منعمون فما نحن بميتين، أي بمن شأنه الموت وقرىء «بماتين».

﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال، ونصبها على المصدر من اسم الفاعل. وقيل على الاستثناء المنقطع. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ كالكفار، وذلك تمام كلامه لقرينه تقريراً له أو معاودة إلى مكالمته جلسائه تحدثاً بنعمة الله، أو تبجحاً بها وتعجباً منها وتعريضاً للقرين بالتوبيخ.

﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يحتمل أن يكون من كلامهم وأن يكون كلام الله لتقرير قوله والإشارة إلى ما هم عليه من النعمة والخلود والأمن من العذاب.

﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحفظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام، وهو أيضاً يحتمل الأمرين.

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ شجرة نبرها نزل أهل النار، وانتصاب ﴿نَزْلًا﴾ على التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقال للنازل ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار، وهو: اسم شجرة صغيرة الورق ذفر مرة تكون بتهامة سميت به الشجرة الموصوفة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تجرق الشجر، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجرة في النار وحفظه من الإحراق.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتهما.

﴿طَلَعَهَا﴾ حملها مستعار من طلع التمر لمشاركته إياه في الشكل، أو الطلوع من الشجر. ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك. وقيل ﴿الشياطين﴾ حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف، ولعلها سميت بها لذلك.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة أو من طلعتها. ﴿فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع أو الجبر على أكلها.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم، ويجوز أن يكون ثم لما في شرايبهم من مزيد الكراهة والبشاعة. ﴿لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ لشرباً من غساق، أو صديد مشوباً بماء حميم يقطع أمعاءهم، وقرىء بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول مصدر سمي به.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم. ﴿إِلَى الْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتهما أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولهم، وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ يُطَوِّفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ يوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم، ويؤيده أنه قرىء «ثم إن منقلبهم».

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَهْرَعُونَ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال، والإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على «آثارهم»، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك. ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أنبياء أنذروهم من العواقب.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ من الشدة والفظاعة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله، وقرىء بالفتح أي الذين أخلصهم الله لدينه والخطاب مع الرسول ﷺ، والمقصود خطاب قومه فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها، أي ولقد دعانا حين أيس من قومه. ﴿فَلَنَنْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه.

﴿وَنَجِّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق أو أذى قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة، إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ هذا الكلام جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً. وقيل هو سلام من الله عليه ومفعول «تركنا» محذوف مثل الشاء. ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه التحية في الملائكة والثقليين جميعاً.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (80) ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (81) ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (28) ﴿وَأَتَتْ مِنْ شَيْعَتِهِ لَابُرْهَيْمَ﴾ (83) ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (84) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (85) ﴿أَيْفَ كُنَّا إِلَهِةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (86) ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (87) ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (88) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (89) ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (90) ﴿فَرَّغَ﴾



إِلَّا إِلَهُهُمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُسُونَ (95) ﴿

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه .

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصاله أمره .

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ﴾ يعني كفار قومه .

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ﴾ ممن شايعه في الإيمان وأصول الشريعة . ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً، وكان بينهما ألفان وستمائة وأربعون سنة، وكان بينهما نبیان هود وصالح عليهما الصلاة والسلام .

﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ﴾ متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة أو بمحذوف هو اذكر . ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من آفات القلوب أو من العلائق خالص لله أو مخلص له، وقيل حزين من السليم بمعنى اللديغ . ومعنى المجيء به ربه : إخلاصه له كأنه جاء به متحفاً إياه .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لـ ﴿جاء﴾ أو ﴿سليم﴾ .

﴿أَتَيْفُكَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تريدون آلهة دون الله افكاً مقدم المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبني أمرهم على الإفك، ويجوز أن يكون ﴿إِفْكَاً﴾ مفعولاً به و ﴿إِلَهَةٌ﴾ بدل منه على أنها إفك في نفسها للمبالغة، أو المراد بها عبادتها بحذف المضاف أو حالاً بمعنى إفكين .

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته، أو أشركتم به غيره أو أمتنتم من عذابه، والمعنى إنكار ما يوجب ظناً فضلاً عن قطع يصد عن عبادته، أو يجوز الإشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإلزام وهو كالحجة على ما قبله .

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فرأى مواقعها واتصالاتها، أو في علمها أو في كتابها، ولا منع منه مع أن قصده إيهاهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم .

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أراهم أنه استدل بها لأنهم كانوا منجمين على أنه مشارف للسقم لثلاث يخرجوه إلى معبدهم، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى، أو أراد إني سقيم القلب لكفركم، أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه أو بصدد الموت ومنه المثل : كفى بالسلامة داء، وقول لبيد :

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدَا      لِيُصَحِّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ  
﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ هاربين مخافة العدوى .

﴿فَرَأَى إِلَى آلِهِتِهِمْ﴾ فذهب إليها في خفية من روعة الثعلب وأصله الميل بحيلة . ﴿فَقَالَ﴾ أي للأصنام استهزاء . ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعام الذي كان عندهم .

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ بجوابي .

﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ﴾ فمال عليهم مستخفياً، والتعدي بعلی للاستعلاء وإن الميل لمكروه . ﴿صَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ مصدر «لراغ عليهم» لأنه في معنى ضربهم، أو لمضمر تقديره فراغ عليهم يضربهم وتقيد باليمين للدلالة

على قوته فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل، وقيل ﴿باليمن﴾ بسبب الحلف وهو قوله: ﴿تالله لأكيدين أصنامكم﴾.

﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسرة وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو كما شرحه في قوله: ﴿من فعل هذا بالهتنا﴾ الآية. ﴿يَزْفُونَ﴾ يسرعون من زفيف النعام. وقرى حمزة على بناء المفعول من أزفه أي يحملون على الزفيف. وقرى ﴿يَزْفُونَ﴾ أي يزف بعضهم بعضاً، و ﴿يَزْفُونَ﴾ من وزف يزف إذا أسرع و ﴿يَزْفُونَ﴾ من زفاه إذا حذاه كان بعضهم يزفوا بعضاً لتسارعهم إليه ﴿قال أتعبدون ما نتحتون﴾ ما تحتونه من الأصنام.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأْتِيَ أَقْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (102)﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه فإن جوهرها بخلقها وشكلها وإن كان بفعلهم، ولذلك جعل من أعمالهم فيإقداره إياهم عليه وخلقها ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد، أو عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما نتحتون، أو إنه بمعنى الحدث فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى فيهم كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك، وبهذا المعنى تمسك أصحابنا على خلق الأعمال ولهم أن يرجحوه على الأولين لما فيهما من حذف أو مجاز.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة من العجمة وهي شدة التأجج، واللام بدل الإضافة أي جحيم ذلك البيان.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ فإنه لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لثلا يظهر للعامة عجزهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني ربي وهو الشام، أو حيث أتجرد فيه لعبادته. ﴿سَيِّدِينَ﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي، وإنما بت القول لسبق وعده أو لفرط توكله، أو البناء على عادته معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه الصلاة والسلام حين ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ فلذلك ذكر بصيغة التوقع.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة، يعني الولد لأن لفظ الهبة غالبية فيه ولقوله:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ بشره بالولد وبأنه ذكر يبلغ أوان الحلم، فإن الصبي لا يوصف بالحلم ويكون حليماً وأي حلم مثل حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾. وقيل ما نعت الله نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالهما المذكورة بعد تشهد عليه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي فلما جَدَّ وبلغ أن يسعى معه في أعماله، و ﴿مَعَهُ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ﴿السعي﴾ لا به لأن صلة المصدر لا تتقدمه ولا يبلغ فإن بلوغهما لم يكن معاً كأنه لما قال: ﴿فلما بلغ السعي﴾ فليل مع من فليل ﴿مَعَهُ﴾، وتخصيصه لأن الأب أكمل في الفرق والاستصلاح له فلا يستسعيه قبل

أوانه، أو لأنه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ وقرأ حفص بفتح الباء. ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك وأنه رأى ما هو تعبيره، وقيل إنه رأى ليلة التروية أن قاتلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روى أنه من الله أو من الشيطان، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره وقال له ذلك، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر، والأظهر أن المخاطب إسماعيل عليه السلام لأنه الذي وهب له أثره الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابن الذبيحين». فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله، فإن جده عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهل الله له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة، فلما سهل أقرع فخرج السهم على عبد الله فقذاه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكيش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراحقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل أي النسب أشرف فقال: يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن خليل الله؛ فالصحيح أنه قال: فقال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت. وأقر ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الباء فيهما. ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ من الرأي، وإنما شاوره فيه وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله فثبت قدمه إن جزع، ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهن ويكتسب المثوبة بالانقياد له قبل نزوله، وقرأ حمزة والكسائي ﴿مَاذَا تَرَى﴾ بضم التاء وكسر الراء خالصة، والباقون بفتحهما وأبو عمرو يميل فتحة الراء وورش بين بين والباقون بإخلاص فتحها. ﴿قَالَ يَا أَبَتِ﴾ وقرأ ابن عامر بفتح التاء. ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به فحذفاً دفعة، أو على الترتيب كما عرفت أو أمرك على إرادة المأمور به والإضافة إلى المأمور، أو لعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر، ولعل الأمر في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهم إلى الامتنال أدل على كمال الانقياد والإخلاص، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرر الرؤيا. ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على الذبح أو على قضاء الله، وقرأ نافع بفتح الباء.

- ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلْجَبِينِ (103) وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَابِعَهُمْ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الشَّدِيدُ (106) وَتَدَيَّنَتْهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَوَرَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَشَرَّعْنَاهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَوَرَّكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَعِظَامٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكُونُوا هُمُ الْفَائِزِينَ (116) وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَوَرَّكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكذبوه فَأَنَّهُمْ مُخَضَّرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَوَرَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ

الرَّسُلِينَ (133) إِذْ بَخَّيْتَهُمْ وَأَهْلَهُمْ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ (135) ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ (136) وَإِنَّا لَنُشْرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ (137) وَإِلَّا لَأَفْلَأَقَ تَعْقِلُوكَ (138) ﴿

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ استسلما لأمر الله أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه، وقد قرىء بهما وأصلها سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه. ﴿وَتِلْكَ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة. وقيل كبه على وجهه بإشارته لثلا يرى فيه تغيراً يرق له فلا يدبحه، وكان ذلك عند الصخرة بمنى أو في الموضع المشرف على مسجده، أو المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات. وقد روي أنه أمر السكين بقوته على حلقة مراراً فلم تقطع، وجواب «لما» محذوف تقديره كان ما كان مما ينطلق به الحال ولا يحيط به المقال، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله، وإظهار فضلها به على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لإفراج تلك الشدة عنهما بإحسانهما، واحتج به من جوز النسخ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبح لقوله ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يحصل.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الابتلاء البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره، أو المحنة البينة الصعوبة فإنه لا أصعب منها.

﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل. ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيم الجثة سمين، أو عظيم القدر لأنه يفدي به الله نبياً ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين. قيل كان كبشاً من الجنة. وقيل وعلاً أهبط عليه من ثبير. وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصار سنة، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإنما قال وقديناه لأن الله المعطي له والأمر به على التجوز في الفداء أو الإسناد، واستدل به الحنفية على أن من نذر ذبيح ولده لزمه ذبح شاة وليس فيه ما يدل عليه.

﴿وَوَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ سبق بيانه في قصة نوح عليه السلام. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لعله طرح عنه أننا اكتفاء بذكره مرة في هذه القصة.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مقضياً نبوته مقدراً لكونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال غير شرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعنى بالحال، فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملاً فيهما مثلاً و﴿بشرناه﴾ بوجود إسحاق أي بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصير نظير قوله: ﴿فادخلوها خالدين﴾ فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحاق لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحتها حينما يوجد، ومن فسر الذبيح بإسحاق جعل المقصود من البشارة نبوته، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده. ﴿وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، وقرىء «وبركنا». ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة. ﴿وَوَظَلِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿مُؤْمِنٌ﴾ ظاهر ظلمه، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابها لا يعود عليهما بتقصه وعيب.

﴿وَلَقَدْ مَتَّأْنَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية.

﴿وَنَجِّنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من تغلب فرعون أو الغرق .  
 ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ ثم الضمير لهما مع القوم . ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على فرعون وقومه .  
 ﴿وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة .  
 ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب .  
 ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .  
 ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق مثل ذلك .

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين سبط هارون أخى موسى بعث بعده . وقيل إدريس لأنه قرىء إدريس وإدريس مكانه وفي حرف أبي رضي الله عنه . وقيل إيليس وقرأ ابن ذكوان مع خلاف عنه بحذف همزة إلياس .

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله .

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه أو أطلبون الخير منه ، وهو اسم صنم كان لأهل بَكَّ من الشام وهو البلد الذي يقال له الآن بعلبك وقيل البعل الرب بلغة اليمن ، والمعنى أتعبدون بعض البعول . ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتتركون عبادته ، وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله :

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذاب ، وإنما أطلقه اكتفاء منه بالقرينة ، أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً .

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنى من الواو لا من المحضرين لفساد المعنى .

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ . ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ لغة في إلياس كسيناه وسينين ، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين ، لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام أو للمنسوب إليه بحذف ياء النسب كالأعجمين وهو قليل ملبس ، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب على إضافة ﴿آل﴾ إلى ﴿ياسين﴾ لأنهما في المصحف مفصولان فيكون ﴿ياسين﴾ أبا ﴿إلياس﴾ ، وقيل محمد عليه الصلاة والسلام أو القرآن أو غيره من كتب الله والكل لا يناسب نظم سائر القصص ولا قوله :

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس .

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَرَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ سبق بيانه .

﴿وَإِنَّا لَنَكْتُمُ﴾ يا أهل مكة . ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾ على منازلهم في متاجرهم إلى الشام فإن سدوم في طريقه . ﴿مُضْجِجِينَ﴾ داخلين في الصباح .

﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ أي ومساء أو نهراً وليلاً ، ولعلها وقعت قريب منزل يمر بها المرحل عنه صباحاً والقاصد لها مساء . ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (139) إِذْ أُنْقِيَ إِلَى الْفَالِكِ الْمَشْهُونَ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141)

فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) ﴿فَبَدَّلَ لَهُ﴾  
 بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا  
 فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (148) فَاسْتَفْتِهِمْ أَلَرَبُّكَ الْمَبْتَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ (149) ﴿

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقرئ بكسر النون.

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه.  
 ﴿إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

﴿فَسَاءَ مَا﴾ فقارعه أهله. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة، وأصله المزلق عن مقام  
 الظفر. روي أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله، فركب السفينة فوفقت فقالوا: ها  
 هنا عبد أبق فافترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال أنا الأبقي ورمي بنفسه في الماء.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ﴾ فابتلعه من اللقمة. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في الملامة، أو آت بما يلام عليه أو ملیم  
 نفسه، وقرئ بالفتح مبنياً من ليم كمشيب في مشوب.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، أو في بطن الحوت وهو قوله  
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقيل من المصلين.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حياً وقيل ميتاً، وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه، ومن أقبل  
 عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء.

﴿فَبَدَّلْنَاهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه. ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت.  
 روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه، واختلف في  
 مدة لبثه فقبل بعض يوم وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة، وقيل عشرون وقيل أربعون. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما ناله قيل  
 صار بدنه كبذن الطفل حين يولد.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه مظهله عليه. ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ من شجر ينبسط على وجه الأرض ولا يقوم  
 على ساقه، يفعل من قطن بالمكان إذا أقام به، والأكثر على أنها كانت الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فإنه  
 لا يقع عليه، ويدل عليه أنه قيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس». وقيل  
 التين وقيل الموز تغطي بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى، والمراد به ما سبق من إرساله  
 أو إرسال ثان إليهم أو إلى غيرهم. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر أي إذا نظر إليهم، قال هم مائة ألف أو  
 يزيدون والمراد الوصف بالكثرة وقرئ بالواو.

﴿فَآمَنُوا﴾ فصدقوه أو فجددوا الإيمان به بمحضه. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى،  
 ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكبير وأولى  
 العزم من الرسل، أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة.

﴿فَاسْتَفْتِهِمُ أَلَرَبُّكَ الْمَبْتَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ معطوف على مثله، في أول السورة أمر رسوله أولاً باستفتاء  
 قريش عن وجه إنكارهم البعث، وساق الكلام في تقريره جاريماً لما يلائمه من القصص موصولاً بعضها  
 ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله النبات ولأنفسهم البنين في قولهم: الملائكة بنات

الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخرى، التجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة، وتفضيل أنفسهم عليه حيث جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم، واستهانتهم بالملائكة حيث أثروهم ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً، وجعله من تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا، والإنكار ما هنا مقصور على الآخرين لاختصاص هذه الطائفة بهما، أو لأن فسادهما مما تدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل للاستفهام عن التقسيم.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْدَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (150) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (151) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (152) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (153) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (154) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (155) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ (156) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (157) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (158) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (159) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (160) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ (161) ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ﴾ (162) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ (163)

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْدَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا تعلم إلا بها، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يبتون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ لعدم ما يقتضيه وقيام ما ينفيه. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به، وقرئ ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي الملائكة ولده، فعل بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء، وعن نافع كسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام لدلالة أم بعدها عليها أو على الإثبات بإضمار القول أي: لكاذبون في قولهم اصطفى، أو إبداله من ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرضيه عقل.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزه عن ذلك.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ بَكْيَابِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ يعني الملائكة ذكرهم باسم جنسهم وضعا منهم أن يبلغوا هذه المرتبة، وقيل قالوا إن الله تعالى صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل قالوا الله والشرطيّين إخوان. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إن الكفرة أو الإنس والجن إن فسرت بغير الملائكة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذاب.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والنسب.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من المحضرين منقطع، أو متصل إن فسر الضمير بما يعمهم وما بينهما اعتراض أو من ﴿يصفون﴾.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عود إلى خطابهم.

﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله. ﴿فَيَفَاتِنِينَ﴾ مفسدين الناس بالإغواء.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ إلّا من سبق في علمه أنه من أهل النار ويصلاها لا محالة، ﴿وَأَنْتُمْ﴾

ضمير لهم ولآلهتهم غلب فيه المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون ﴿وما تعبدون﴾ لما فيه من معنى المقارنة ساداً مسد الخبر أي إنكم وآلهتكم قرناء لا تزالون تعبدونها، ما أنتم على ما تعبدونه بفاتنين بباعثين على طريق الفتنة إلا ضالاً مستوجباً للنار مثلكم، وقرىء ﴿صالح﴾ بالضم على أنه جمع محمول على معنى من ساقط واوهِ لالتقاء الساكنين، أو تخفيف صائل على القلب كشاك في شائك، أو المحذوف منه كالمسني كما في قولهم: ما باليت به بالة، فإن أصلها بالية كعافية.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) فَذُوقُوا عَذَابَ حَرِّ جَهَنَّمَ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِلِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَذُوقُوا عَذَابَ حَرِّ جَهَنَّمَ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179)﴾

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم والمعنى: وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرف والعبادة والانتهاى إلى أمر الله في تدبير العالم، ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله ﴿سبحان الله﴾ من كلامهم ليتصل بقوله: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ كأنه قال ولقد علمت الملائكة أن المشركين معذبون بذلك وقالوا ﴿سبحان الله﴾ تنزيهاً له عنه، ثم استثنوا ﴿المخلصين﴾ تبرئة لهم منه، ثم خاطبوا المشركين بأن الافتتان بذلك للشقاوة المقدرة، ثم اعترفوا بالعبودية وتفاوت مراتبهم فيه لا يتجاوزونها فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به، ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف، وما في إن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فترة دون غيرهم. وقيل هو من كلام النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين والمعنى: وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله يوم القيامة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ له في الصلاة والمنزهون له عن السوء.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ أي مشركوا قريش.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم.

﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي لما جاءهم الذكر الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدنا لهم النصر والغلبة وهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾. ﴿وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهو باعتبار الغالب والمقضى بالذات، وإنما سماه كلمة وهي كلمات لاتنظامهم في معنى واحد.



﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حينئذ والمراد بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب كأنه قدامه. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضينا لك من التأيد والنصرة والثواب في الآخرة، و«سوف» للوعيد لا للتبديد.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ روي أنه لما نزل ﴿فسوف يبصرون﴾ قالوا متى هذا فنزلت.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ فإذا نزل العذاب بفنائهم، شبهه بجيش هجمهم فأناخ بفنائهم بغته، وقيل الرسول وقرى ﴿نَزَلَ﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور و﴿نزل﴾ أي العذاب. ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم، واللام للجنس والـ ﴿صباح﴾ مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، ولما كثر فيهم الهجوم والغارة في الصباح سموها الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد إلى تأكيد وإطلاق بعد تقييد للاشعار بأنه يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرة وأنواع المساءة، أو الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (82)﴾

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركون فيه على ما حكى في السورة، وإضافة الرب إلى العزة لاختصاصها به إذ لا عزة إلا له أو لمن أعزه، وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والثبوتية مع الإشعار بالتوحيد.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تعميم للرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة ولذلك أخره عن التسليم، والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمدونه ويسلمون على رسله. وعن علي رضي الله عنه: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه: سبحان ربك إلى آخر السورة.

وعن النبي ﷺ «من قرأ الصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشیطان، وتباعدت عنه مردة الجن والشياطين، وبريء من الشرك وشهد له حافظه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين».



[مكية وآياتها ست أو ثمان وثمانون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي (2) كَرَّ أَهْلُكَايِنَ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرِينٍ فَتَدَاوَا وَلَا تَحِينَ مَنَاصِي (3) وَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ (4) أَجْعَلِ الْآيَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5)﴾

﴿ص﴾ وقرئ بالكسر لالتقاء الساكنين، وقيل إنه أمر من المصاداة بمعنى المعارضة، ومنه الصدى فإنه يعارض الصوت الأول أي عارض القرآن بعملك، وبالفصح لذلك أو لحذف حرف القسم وإيصال فعله إليه، أو إضماره والفتح في موضع الجر فإنها غير مصروفة لأنها علم السورة وبالجر والتنوين على تأويل الكتاب. ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم إن جعل ﴿ص﴾ اسماً للحرف أو مذكوراً للتحدي، أو للرمز بكلام مثل صدق محمد عليه الصلاة والسلام، أو للسورة خبر المحذوف أو لفظ الأمر، وللعطف إن جعل مقسماً به كقولهم: الله لأفعلن بالجر والجواب محذوف دل عليه ما في ﴿ص﴾ من الدلالة على التحدي، أو الأمر بالمعادلة أي إنه لمعجز أو لواجب العمل به، أو إن محمداً صادق أو قوله:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به. ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق. ﴿وَشِقَاقِي﴾ خلاف لله ورسوله ولذلك كفروا به، وعلى الأولين الإضراب أيضاً من الجواب المقدر ولكن من حيث إشعاره بذلك والمراد بالذكر العظة أو الشرف والشهرة، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الحقائق والشرائع والمواعيد، والتذكير في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقِي﴾ للدلالة على شدتهما، وقرئ في ﴿غرة﴾ أي غفلة عما يجب عليهم النظر فيه.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وعيد لهم على كفرهم به استكباراً وشقاقاً. ﴿فَتَدَاوَا﴾ استغاثة أو توبة أو استغفاراً. ﴿وَلَا تَحِينَ مَنَاصِي﴾ أي ليس الحين حين مناص، ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب، وثم خصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين، وقيل هي النافية للجنس أي ولا حين مناص لهم، وقيل للفعل والنصب بإضماره أي ولا أرى حين مناص، وقرئ بالرفع على أنه اسم لا أو مبتدأ محذوف الخبر أي ليس حين مناص حاصلاً لهم، أو لا حين مناص كائن لهم وبالكسر كقوله:

طَلَبُوا صَلَاحَنَا وَلَا تَأْوَانَا فَاجْتَبَا أَنْ لَا تَحِينَ مَنَاصِي

إما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر في قوله: لَوْلَاكَ هَذَا الْعَامُ لَمْ أَحْجُجْ أو لأن أوَان شبه باذ لأنه مقطوع عن الإضافة إذ أصله أوَان صلح، ثم حمل عليه ﴿مناص﴾ تنزيلاً لما أضيف إليه الظرف منزلته لما بينهما من الاتحاد، إذ أصله يحن مناصهم ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن ﴿ولات﴾ بالكسر كجبر، وتقف الكوفية عليها بالهاء كالأسماء والبصرية بالتاء كالأفعال. وقيل إن التاء مزيدة على حين

لاتصالها به في الامام ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس إذ مثله لم يعهد فيه، والأصل اعتباره إلا فيما خصه الدليل ولقوله:

الْعَاطِفُونَ تَحِينَ لَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعَمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمٍ  
والمناص المنجا من ناصه ينوصه إذا فاته.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ بشر مثلهم أو أمي من عدادهم. ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمماً لهم، وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول. ﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾ فيما يظهره معجزة. ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله على الله تعالى.

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بأن جعل الألوهية التي كانت لهم لواحد. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ بليغ في العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آبائنا، وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة، وقرىء مشدداً وهو أبلغ ككرام وكرام. وروي أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإننا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر رسول الله ﷺ وقال: هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: ماذا يسألوني، فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهمنا وندعك وإلهك، فقال: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتكم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»، فقالوا: نعم وعشراً، فقال: «قولوا لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا ذلك.

﴿وَأَنطَلَقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهِمْ﴾ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ (7) أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ (8) أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْرٌ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَنصَبُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11) ﴿

﴿وَأَنطَلَقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله ﷺ. ﴿أَنِ امْشُوا﴾ قائلين بعضهم لبعض «امشوا». ﴿وَاصْبِرُوا﴾ واثبتوا. ﴿عَلَى آلِهِمْ﴾ على عبادتها فلا ينفعكم مكالمته، و ﴿أَنِ﴾ هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التناول يشعر بالقول. وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول، و ﴿امشوا﴾ من مشت المرأة إذا كثرت أولادها ومنه الماشية أي اجتمعوا، وقرىء بغير ﴿أَنِ﴾ وقرىء «يمشون أن اصبروا». ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ﴾ إن هذا الأمر لشيء من رب الزمان يراد بنا فلا مرد له، أو أن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة، والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل أحد، أو أن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالذي يقوله. ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ في الملة التي أدرکنا عليها آبائنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل فإن النصراني يثلثون. ويجوز أن يكون حالاً من هذا أي سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان بالتوحيد كائناً في الملة المترتبة. ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ كذب اختلقه.

﴿أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ إنكار لاختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو أدون منهم في الشرف والرئاسة كقولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وأمثال ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يتون به من قولهم ﴿هذا ساحر كذاب﴾ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾. ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال شكهم، والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسه العذاب فيلجئهم إلى تصديقه.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ بل أَعْنَدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَتِهِ وَفِي تَصَرُّفِهِمْ حَتَّى يَصِيبُوا بِهَا مِنْ شَأْوَاهُ وَيَصْرِفُوهَا عَمَّنْ شَاءُوا فَيَتَخَيَّرُ لِلنَّبِوةِ بَعْضَ صِنَادِيدِهِمْ، وَالْمَعْنَى أَنَّ النُّبُوَّةَ عَطِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ يُتَفَضَّلُ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَا مَانِعَ لَهُ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ أَيْ الْغَالِبُ الَّذِي لَا يَغْلِبُ، الْوَهَّابُ الَّذِي لَهُ أَنْ يَهْبِ كُلَّ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ، ثُمَّ رُشِحَ ذَلِكَ فَقَالَ:

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كَأَنَّهُ لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ التَّصَرُّفَ فِي نُبُوَّتِهِ بِأَنْ لَيْسَ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَتِهِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، أَرْدَفَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ مَدْخَلٌ فِي أَمْرِ هَذَا الْعَالَمِ الْجِسْمَانِيِّ الَّذِي هُوَ جُزْءٌ يَسِيرُ مِنْ خَزَائِنِهِ فَمَنْ أَيْنَ لَهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِيهَا. ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَشْبَابِ﴾ جَوَابُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ أَيْ إِنْ كَانَ لَهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْعَدُوا فِي الْمَعَارِجِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْعَرْشِ حَتَّى يَسْتَوُوا عَلَيْهِ وَيَدْبُرُوا أَمْرَ الْعَالَمِ، فَيُزِيلُوا الْوَحْيَ إِلَى مَنْ يَسْتَصِيبُونَ. وَهُوَ غَايَةُ التَّهَكُّمِ بِهِمْ، وَالسَّبَبُ فِي الْأَصْلِ هُوَ الْوَصْلَةُ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْأَسْبَابِ السَّمَوَاتِ لِأَنَّهَا أَسْبَابُ الْحَوَادِثِ السُّفْلِيَّةِ.

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أَيْ هُمْ جُنْدٌ مَا مِنَ الْكُفَّارِ الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى الرَّسْلِ ﴿مَهْزُومٌ﴾ مَكْسُورٌ عَمَّا قَرِيبَ فَمَنْ أَيْنَ لَهُمُ التَّدَابِيرُ الْإِلَهِيَّةُ وَالتَّصَرُّفُ فِي الْأُمُورِ الرَّبَّانِيَّةِ، أَوْ فَلَا تَكْتَرِثُ بِمَا يَقُولُونَ وَ﴿مَا﴾ مُزِيدَةٌ لِلتَّقْلِيلِ كَقَوْلِكَ أَكَلْتُ شَيْئًا مَا، وَقِيلَ لِلتَّعْظِيمِ عَلَى الْهُزْءِ وَهُوَ لَا يَلَاثِمُ مَا بَعْدَهُ، وَهُنَالِكَ إِشَارَةٌ إِلَى حَيْثُ وَضَعُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْإِنتِدَابِ لِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُنَّا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِيِّرَنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَءَايَتْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ (20)﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ذُو الْمَلِكِ الثَّابِتِ بِالْأَوْتَادِ:

وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مَلِكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

مَأْخُوذٌ مِنْ ثَبَاتِ الْبَيْتِ الْمَطْنَبِ بِأَوْتَادِهِ، أَوْ ذُو الْجُمُوعِ الْكَثِيرَةِ سَمَوْا بِذَلِكَ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَشُدُّ بَعْضًا كَالْوَتْدِ يَشُدُّ الْبِنَاءَ. وَقِيلَ نَصَبَ أَرْبَعِ سَوَارٍ وَكَانَ يَمُدُّ يَدَيْ الْمَعْدَبِ وَرَجْلَيْهِ إِلَيْهَا وَيَضْرِبُ عَلَيْهَا أَوْتَادًا وَيَتَرَكُهُ حَتَّى يَمُوتَ.

﴿وَتَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وَأَصْحَابُ الْغَيْضَةِ وَهُمْ قَوْمُ شَعِيبَ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ «لَيْكَةِ». ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ يَعْنِي الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى الرَّسْلِ الَّذِينَ جَعَلَ الْجَنْدَ الْمَهْزُومَ مِنْهُمْ.

﴿إِنْ كُنَّا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ بَيَانٌ لِمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ عَلَى الْإِبْهَامِ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ التَّأْكِيدِ لِيَكُونَ تَسْجِيلًا عَلَى اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهِ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وَهُوَ إِمَّا مُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ أَوْ جَعَلَ تَكْذِيبَ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ تَكْذِيبَ جَمِيعِهِمْ.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ وَمَا يَنْتَظِرُ قَوْمُكَ أَوْ الْأَحْزَابُ فَإِنَّهُمْ كَالْحَاضِرِ لَا اسْتِحْضَارَهُمْ بِالذِّكْرِ، أَوْ حَاضِرِهِمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَى. ﴿مَّا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ﴾ مِنْ تَوْقِفٍ مُقَدَّارٍ فَوَاقٍ وَهُوَ مَا بَيْنَ الْحَلِيقَتَيْنِ، أَوْ رَجُوعٍ وَتَرْدَادٍ فَإِنَّهُ فِيهِ يَرْجِعُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالكَسَائِيُّ بِالضَّمِّ وَهَمَّا لِفَتَانٍ.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنًا﴾ قَسَطْنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي تَوَعَدْنَا بِهِ، أَوْ الْجَنَّةَ الَّتِي تَعْدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ مَنْ

قطه إذا قطعه، وقيل لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أي: عجل لنا صحيفة أعمالنا للنظر فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ واذكر لهم قصته تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والمكرامات لما أتى صغيرة نزل عن منزلته ووبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تظن فاستغفر ربه وأناب فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان، أو تذكر قصته وصن نفسك أن نزل فيلقاك ما لقيه من المعاتبة على إهمال عنان نفسه أدنى إهمال. ﴿ذَا الْأَيْدِي﴾ ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآد وأياد بمعنى. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليل لـ ﴿الْأَيْدِي﴾ ودليل على أن المراد به القوة في الدين، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ قد مر تفسيره، و ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال. ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق. وعن أم هانئ رضي الله تعالى عنها: أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال «هذه صلاة الإشراق». وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ إليه من كل جانب، وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين لأن الحشر جملة أدل على القدرة منه مدرجاً، وقرئ ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ بالمبتدأ والخبر. ﴿كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل تسيبجه رجاع إلى التسبيح، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل على الموافقة في التسبيح وهذا على مداومة عليها، أو كل منهما ومن داود عليه الصلاة والسلام مرجع لله التسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، وقرئ بالتشديد للمبالغة. قيل: إن رجلاً ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان، فأوحى إليه أن اقتل المدعى عليه فأعلمه فقال: صدقت إنني قتلت أباه وأخذت البقرة فعظمت بذلك هيئته. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة أو كمال العلم واتقان العمل. ﴿وَفُضِّلَ الْخُطَابُ﴾ وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، أو الكلام المخلص الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظاهر الفصل والوصل والعطف والاستئناف، والإضمار والحذف والتكرار ونحوها، وإنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق مقدمة له من الحمد والصلاة، وقيل هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار محل ولا إشباع ممل كما جاء في وصف كلام الرسول عليه الصلاة والسلام «فصل لا نزر ولا هذر».

﴿وَهَلْ أَنتَكَ نَبَوَّا الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْحَرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَنِي بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاتَّخَذُوا بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَنَجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْثَلُنِيهَا وَعَزَفَنِي فِي الْخُطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيَّتِكَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْتَغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَكَ عِنْدَنَا لُزْفَيْنِ وَحُسْنِ مَعَابٍ (25) يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَاوُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماعه، والخصم في الأصل مصدر ولذلك أطلق على الجمع. ﴿إِذْ تَسُوْرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ تصعدوا سور الغرفة، تفعل من السور كتسنم من السنام، وإذ متعلق بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم ﴿إِذْ تَسُوْرُوا﴾، أو بالنبا على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه الصلاة والسلام، وأن إسناد أتى إليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم لما فيه من معنى الفعل لا باتى لأن إتيانه الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن حينئذ ﴿وَإِذْ﴾ الثانية في ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لـ ﴿تَسُوْرُوا﴾. ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾ نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزءاً زمانه: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصته، فتسور عليه ملائكة على صورة الإنسان في يوم الخلوة. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكَ بَعْضَ﴾ وهو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور. ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطُطْ﴾ ولا تجر في الحكومة، وقرئ ﴿وَلَا تَشْطُطْ﴾ أي ولا تبعد عن الحق ولا تشطط ولا تشاط، والكل من معنى الشطط وهو من مجاوزة الحد. ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي إلى وسطه وهو العدل.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ بالدين أو بالصحبة. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَّ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هي الأنثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة، والكناية والتمثيل فيما يساق للتعريض أبلغ في المقصود، وقرئ ﴿تسعون وتسعون﴾ بفتح التاء ونعجة بكسر النون، وقرأ حفص بفتح ياء ﴿لي نعجة﴾. ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ ملكيتها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل اجعلها كفلي أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وغلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده، أو في مغالته إياي في الخطبة يقال: خطبت المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً حيث زوجها دوني، وقرئ «وعازني» أي غالبني «وعزني» على تخفيف غريب.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خيلته وتهجين طمعه ولعله قال ذلك بعد اعترافه، أو على تقدير صدق المدعي والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة. ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْخَطَاءِ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿لِيَبْنِي﴾ ليتعدى. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وقرئ بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: ﴿أَضْرَبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا﴾. وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل، و ﴿مَا﴾ مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم. ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه بالذنوب أو امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها. ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لذنبه. ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة، وأقصى ما في هذه القضية الإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب عنه. وما روي أن بصره وقع على امرأة فمشقها وسعى حتى تزوجها ولدت منه سليمان، إن صح فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد واسى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى. وما قيل إنه أرسل أوربا إلى الجهاد مراراً وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين. وقيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بهذا التحاكم فلم غرضهم وأراد أن يتنقم منهم، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ مما هم به ﴿وَأَنَابَ﴾.

﴿فَقَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما استغفر عنه. ﴿وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ لقربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنِ مَآبٍ﴾ مرجع في الجنة.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك فيها، أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بحكم الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفس، وهو يؤيد ما قيل إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسألته. ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلائله التي نصبها على الحق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصْلُونِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ لا حكمة فيه، أو ذوي باطل بمعنى مبطلين عابثين كقوله: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ أو للباطل الذي هو متابعة الهوى، بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدبر بالشرع كقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ على وضعه موضع المصدر مثل هنيئاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإشارة إلى خلقها باطلاً والظن بمعنى المظنون. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ بسبب هذا الظن.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (28) ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (29) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (30) ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْجِيَادُ﴾ (31) ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (32) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطْفِقْ مِصْرًا بِالسُّوفِ وَالْأَعْنَقِ﴾ (33) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ (34) ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِلَّا أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (35) ﴿فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ فَجَرَى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَتَّى أَصَابَ﴾ (36) ﴿

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه وكذا التي في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ كأنه أنكر التسوية أولاً بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم، ويجوز أن يكون تكريراً للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمتنعان التسوية من الحكيم الرحيم، والآية تدل على صحة القول بالحشر، فإن التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا والغالب فيها عكس ما يقتضي الحكمة فيه، أو في غيرها وذلك يستدعي أن يكون لهم حالة أخرى يجازون بها.

﴿كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ نفاع، وقرئ بالنصب على الحال. ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة. وقرئ ليتدبروا على الأصل ولتدبروا أي أنت وعلماء أمتك. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وليتعض به ذوو العقول السليمة، أو ليستحضروا ما هو كالمركز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل، فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع، وإرشاد إلى ما يستقل به العقل، ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر الثاني. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ أي نعم العبد سليمان إذا ما بعده تعليل للمدح وهو في حاله. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجع إلى الله بالتوبة، أو إلى التسيح مرجع له.

﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ﴾ ظرف لـ ﴿أَوَّابٌ﴾ أو لـ ﴿نعم﴾، والضمير لـ ﴿سليمان﴾ عند الجمهور ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّافِئَاتُ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وهو من الصفات المحمودة في الخيل الذي لا يكاد يكون إلا في العراب الخالص. ﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد أو جود، وهو الذي

يسرع في جريه وقيل الذي وجود في الركض، وقيل جمع جيد. روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونصيبين وأصاب ألف فارس، وقيل أصابها أبوه من العمالة فورثها منه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد كان له فاغتم لما فاته فاستردها فقعرها تقرباً لله.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أصل ﴿أَحْبَبْتُ﴾ أن يعدى بعلی لأنه بمعنى أثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدي تعديته، وقيل هو بمعنى تقاعدت من قوله:

مَثَلُ بَعِيرٍ الشُّوءِ إِذَا أَحَبَّ

أي برك، و ﴿حب الخير﴾ مفعول له والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام «الخيـل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس، شبه غروبها بتواري المخبأة بحجابها وإضمـارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها.

﴿رَدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ الضمير لـ ﴿الصفـات﴾. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فأخذ يمسح السيف مسحاً. ﴿بِالشُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه، وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبـالها، وعن ابن كثير «بالسوق» على همز الواو لضمـة ما قبلها كمؤقن، وعن أبي عمرو «بالسؤوق» وقرئ «بالساق» اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الالباس.

﴿وَلَقَدْ فُتِنَا سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأظهر ما قيل فيه ما روى مرفوعاً «أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فو الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً». وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك، فكان يغدو في السحاب فما شعر به إلا أن ألقى على كرسيه ميتاً فتنه على خطئه بأن لم يتوكل على الله. وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته جرادة، فأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته فكانت تغدو إليها وتروح مع ولاندها يسجدن لها كعادتـهن في ملكه، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج إلى الفلاة باكياً متضرعاً، وكانت له أم ولد اسمها أمينة إذا دخل للطهارة أعطاها خاتمه وكان ملكه فيه، فأعطاها يوماً فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم وتختـم به وجلس على كرسيه، فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه وغير سليمان عن هيئته، فأتاها لطلب الخاتم فطرده فعرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عبدت الصورة في بيته، فطار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعه سمكة فوقعـت في يده فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختـم به وخر ساجداً وعاد إليه الملك، فعلى هذا الجسد صخر سمي به وهو جسم لا روح فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ، وسجود الصورة بغير علمه لا يضره.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي مناسبة لحالي، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته كقولك: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة، وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل للدعاء بصدد الإجابة. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء.



﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا وَحُسْنَ مَآبٍ (40) وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَصُبُّ وَعَذَابُ (41) أَرْضِكَ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخَذْ بِيَدِكَ صِفَةً فَأَضْرِبْ بِهِنَّ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) وَادْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَلْبَابِ وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47)﴾

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ فلذلناها لطاعته إجابة لدعوته وقرىء «الرياح». «تَجْرِي بِأَمْرِ رُخَاءٍ» لينية من الرخاوة لا تزعزع، أو لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد. «حَيْثُ أَصَابَ» أراد من قولهم أصاب الصواب فأخطأ الجواب.

﴿وَالشَّيَاطِينُ﴾ عطف على «الرياح». «كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ» بدل منه.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ عطف على «كل» كأنه فصل الشياطين إلى عملة استعمالهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص، ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر، ولعل أجسامهم شفاقة صلبة فلا ترى ويمكن تقييدها، هذا والأقرب أن المراد تميل كفهم عن الشرور بالإقران في الصنف وهو القيد، وسمي به العطاء لأنه يرتبط به المنعم عليه. وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد وفي ذلك نكتة.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك والبسطة والتسلط على ما لم يسلط به غيرك عطائنا. ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فاعط من شئت وامنع من شئت. «بِغَيْرِ حِسَابٍ» حال من المستكن في الأمر، أي غير محاسب على منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء أو صلة له وما بينهما اعتراض. والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره، وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد باليمن والإمساك إطلاقهم وإبقائهم في القيد.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لُزْفًا﴾ في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا. «وَحُسْنَ مَآبٍ» هو الجنة.

﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن إسحاق وامراته ليا بنت يعقوب صلوات الله عليه. «إِذْ نَادَى رَبَّهُ» بدل من «عبدنا» و «أَيُّوبَ» عطف بيان له. «أَنِّي مَسْنِي» بأن مسني، وقرأ حمزة بإسكان الياء وإسقاطها في الوصل. «الشَّيْطَانُ يَصُبُّ» يتعب. «وَعَذَابُ» ألم وهي حكاية لكلامه الذي ناداه به ولولا هي لقال إنه مسه، والإسناد إلى «الشَّيْطَانِ» إما لأن الله مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثة مظلوم فلم يغثه، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه، أو لسؤاله امتحاناً لصبره فيكون اعترافاً بالذنب أو مراعاة للأدب، أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم، أو لأن المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الجزع، وقرأ يعقوب بفتح النون على المصدر، وقرىء بفتحيتين وهو لغة كالرشد والرشد وبضميتين للتثقيل.

﴿أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ﴾ حكاية لما أجيب به أي اضرب برجلك الأرض. «هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» أي فضربها فنبعت عين فقيل هذا مغسل أي ماء تغسل به وتشرب منه فيبرأ بطنك وظاهره، وقيل نبعت عينان حارة وباردة فاعتسل من الحارة وشرب من الأخرى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم، وقيل وهبنا له مثلهم. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ حتى كان له ضعف ما كان. ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ لرحمتنا عليه ﴿وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحيق بهم.

﴿وَحُذِّبِكَ ضَعْفًا﴾ عطف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه. ﴿فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ﴾ روي أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افرائيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء ضربها مائة ضربة، فحلل الله يمينه بذلك وهي رخصة باقية في الحدود. ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال، ولا يخل به شكواه إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمى جزءاً كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتنه أو قومه في الدين. ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ أيوب. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ مقبل بشارشه على الله تعالى.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن كثير ﴿عبدنا﴾ وضع الجنس موضع الجمع، أو على أن ﴿إبراهيم﴾ وحده لمزيد شرفه عطف بيان له، ﴿وإسحاق ويعقوب﴾ عطف عليه. ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعبر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها، وفيه تعريض بالبطلة الجهال أنهم كالزمنى والعماة.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لا شوب فيها هي: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ تذكرهم الدار الآخرة دائماً فإن خلوصهم في الطاعة بسببها، وذلك لأن مطمح نظرهم فيما يأتون ويدرون جوار الله والفوز بلاقئه وذلك في الآخرة، وإطلاق ﴿الدار﴾ للاشعار بأنها الدار الحقيقية والدنيا معبر، وأضاف نافع وهشام ﴿بخالصة﴾ إلى ﴿ذكرى﴾ للبيان أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله.

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير جمع خير كشر وأشرار. وقيل جمع خير أو خير على تخفيفه كأموات في جمع ميت أو ميت.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّا لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ (49) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ فَتْحَةٍ لِّمَنِ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُّرْفِ أَرْبَابٌ (52) هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِن هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ (54) هَذَا لِلْمُطْلَغِينَ لَشَرِّ مَثَابٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّوْنَهَا لِهَذَا هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حِمِيمٌ وَعَسَاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا قَوْجٌ مِّنْكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّوْهُ لَنَا فَيَسَّوْنَهَا لِهَذَا (60) ﴿

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء، واللام فيه كما في قوله: رَأَيْتُ الْوَكِيدَ بْنَ الْبَرِيدِ مُبَارَكًا. وقرأ حمزة والكسائي «وليسع» تشبيهاً بالمنقول من ليسع من اللسع. ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ ابن عم يسع أو بشر بن أيوب. واختلف في نبوته ولقبه فقيل فرّ إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فأواهم وكفلهم، وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿وَكُلٌّ﴾ أي وكلهم. ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم. ﴿ذِكْرٌ﴾ شرف لهم، أو نوع من الذكر وهو القرآن. ثم شرع في بيان ما أعد لهم ولأمثالهم فقال: ﴿وَإِنَّا لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنُ مَثَابٍ﴾ مرجع.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ عطف بيان ﴿لحسن مآب﴾ وهو من الأعلام الغالبة لقوله ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ والرحمن عباده بالغيب وانتصب عنها. ﴿مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل، وقرئنا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو أنهما خبران لمحذوف.

﴿مُتَكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالان متعاقبان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل، والأظهر أن يدعون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره، والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعهم لمحض التلذذ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمة.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ لا ينظرون إلى غير أزواجهن. ﴿أَثَرَابٍ﴾ لذات لهم فإن التحاب بين الأقران أثبت، أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية، واشتقاقه من التراب فإنه يمسهن في وقت واحد.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لآجاله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ليوافق ما قبله.

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ انقطاع.

﴿هَذَا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خذ هذا. ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَنَرًا مَّآبٍ﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابه ما سبق. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من جهنم. ﴿فَيْشَسَّ الْمِهَادُ﴾ المهذ والمفترش، مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو ﴿جهنم﴾ لقوله ﴿لهم من جهنم مهاداً﴾.

﴿هَذَا فَلْيَذوقُوهُ﴾، أي ليدوقوا هذا فليذوقوه، أو العذاب هذا فليذوقوه، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وهو على الأولين خبر محذوف أي هو ﴿حميم﴾، والغساق ما يغسق من صديد أهل النار من غسقت العين إذا سال دمعها، وقرأ حفص وحزمة والكسائي ﴿غَسَّاقٌ﴾ بتشديد السين.

﴿وَأَخْرَجُوا﴾ أي مذوق أو عذاب آخر، وقرأ البصريان «وأخرى» أي ومذوقات أو أنواع عذاب آخر. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدة، وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق. وقرئ بالكسر وهو لغة. ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أجناس خبر لـ ﴿أخر﴾ أو صفة له أو للثلاثة، أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ حكاية ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج تبعهم في الضلال، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها. ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم أو صفة لـ ﴿فوج﴾، أو حال أي مقولاً فيهم لا مرحباً أي ما أتوا بهم رحباً وسعة. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا.

﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع للرؤساء. ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ بل أنتم أحق بما قلتم، أو قيل لنا لضلالكم وإضلالكم كما قالوا: ﴿أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا﴾ قدمتم العذاب أو الصلي لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدمتموه من العقائد الزائفة والأعمال القبيحة. ﴿فَيْشَسَّ الْقَرَارُ﴾ فبشس المقر جهنم.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (62) أَخَذْتَنَاهُمْ سِجْرًا مَّا زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقِيرُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (70)﴾

﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع أيضاً. ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ مضاعفاً أي ذا ضعف وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي الطاغوت. ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يسترذلون ويسخرون بهم.

﴿أَتَّخَذْنَاَهُمْ سَخِرِيًّا﴾ صفة أخرى لـ ﴿رِجَالاً﴾، وقرأ الحجازيان وابن عامر وعاصم بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخرار منهم، وقرأ نافع وحزمة والكسائي ﴿سَخِرِيًّا﴾ بالضم وقد سبق مثله في «المؤمنين». ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت. ﴿عَيْنُهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ فلا نراهم ﴿أَمْ﴾ معادلة لـ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى﴾ على أن المراد نفى رؤيتهم لغيبهم كأنهم قالوا: أليسوا ها هنا أم زاعت عنهم أبصارنا، أو لاتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخرار منهم أم تحقيرهم، فإن زيغ الأبصار كناية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهم، أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسخرار منهم كان لزيغ أبصارهم وقصور أنظارهم على رثاء حالهم.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكيناه عنهم. ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ﴾ وهو بدل من لحق أو خبر محذوف، وقرئ بالنصب على البدل من ذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين. ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشراكة والكثرة في ذاته. ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء يريد قهره.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقها وإليه أمرها. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب. ﴿الْعَفَّارُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء، وفي هذه الأوصاف تقرير للتوحيد ووعد ووعد للموحدين والمشركين، وتثنية ما يشعر بالوعيد وتقديمه لأن المدعو به هو الإنذار.

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي ما أنبأكم به من أنني نذير من عقوبة من هذه صفته وأنه واحد في ألوهيته، وقيل ما بعده من نبا آدم. ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتماذي غفلتكم فإن العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة، أما على التوحيد فما مرّ وأما على النبوة فقله:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن إخباره عن تقاؤل الملائكة وما جرى بينهم على ما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي، و ﴿إِذْ﴾ متعلق بـ ﴿عِلْمٍ﴾ أو بمحذوف إذ التقرير من علم بكلام الملائكة الأعلى.

﴿إِنْ يُوْحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي لأنما كأنه لما جوز أن الوحي يأتيه بين بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ ويجوز أن يرتفع بإسناد يوحى إليه، وقرئ ﴿إِنَّمَا﴾ بالكسر على الحكاية.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاؤل الملائكة وإبليس في خلق آدم عليه السلام، واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مر في «البقرة»، غير أنها اختصرت اكتفاء بذلك واقتصاراً على ما هو المقصود منها، وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبي عليه الصلاة والسلام بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام، هذا ومن الجائز أن يكون مقابلة الله تعالى إياهم بواسطة ملك، وأن يفسر «الملائكة الأعلى» بما يعم الله تعالى والملائكة.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجْدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَنَعْلَمَنَّ بَأْوَ بَعْدَ حِينٍ (88)﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلت خلقته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه، وإضافته الى نفسه لشرفه وطهارته. ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فخرُوا له. ﴿سَاجِدِينَ﴾ تكرمة وتبجيلاً له وقد مر من الكلام فيه في «البقرة».

﴿فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظم. ﴿وَكَانَ﴾ وصار. ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ باستنكاره أمر الله تعالى واستكباره عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ خلقته بنفسه من غير توسط كآب وأم، والثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل، وقرىء على التوحيد وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبث به في تركه وهو لا يصلح مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سيما وله مزيد اختصاص. ﴿اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ تكبرت من غير استحقاق أو كنت ممن علا واستحق التفوق، وقيل استكبرت الآن أم لم ترزل منذ كنت من المستكبرين، وقرىء «استكبرت» بحذف الهمزة للدلالة «أم» عليها أو بمعنى الإخبار.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداء للمانع وقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ دليل عليه وقد سبق الكلام فيه.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماء، أو من الصورة الملكية. ﴿فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ مر بيانه في «الحجر».

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبسلطانك وقهرك. ﴿لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الضلالة، أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي فأحق الحق وأقوله، وقيل «الحق» الأول اسم الله نصبه بحذف حرف القسم كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ اللَّهُ أَنْ تَبَايَعَا﴾.

وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما بينهما اعتراض وهو على الأول جواب محذوف والجملة تفسير لـ ﴿الحق﴾ المقول، وقرأ عاصم وحزمة برفع الأول على الابتداء أي الحق يميني أو قسمي، أو الخبر أي أنا «الحق»، وقرئنا مرفوعين على حذف الضمير من أقول كقوله: كله لم أصنع. ومجزورين على إضمار حرف القسم في الأول وحكاية لفظ المقسم به في الثاني للتأكيد، وهو سائغ فيه إذا

شارك الأول وبرفع الأول وجره ونصب الثاني وتخريجه على ما ذكرناه، والضمير في منهم للناس إذ الكلام فيهم والمراد بمنك من جنسك ليتناول الشياطين، وقيل للثقلين وأجمعين تأكيد له أو للضميرين.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآن أو تبليغ الوحي. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصفين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأتحل النبوة، وأقول القرآن.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين. ﴿وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأُهُ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد، أو صدقه بإتيان ذلك. ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفيه تهديد.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات، وعصمه الله أن يصر على ذنب صغير أو كبير».

## سورة الزمر

[مكية إلا قوله: قل يا عبادي الآية وآياتها خمس وسبعون أو اثنتان وسبعون آية]

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ أَلْيَلًا عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَلْيَلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْمَاءِ ثَمِينًا أَوْفَجَ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُصْرَفُونَ (6) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتُ الصُّدُورُ (7) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)﴾

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر محذوف مثل هذا أو مبتدأ خبره. ﴿مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهو على الأول صلة لـ ﴿تَنْزِيلِ﴾، أو خبر ثان أو حال عمل فيها الإشارة أو الـ ﴿تَنْزِيلِ﴾، والظاهر أن ﴿الْكِتَابِ﴾ على الأول السورة وعلى الثاني القرآن، وقرئ ﴿تَنْزِيلِ﴾ بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله. ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ محضاً له الدين من الشرك والرياء، وقرئ برفع ﴿الدين﴾ عن الاستئناف لتعليل الأمر وتقديم الخبر لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام كما صرح به مؤكداً وإجراؤه مجرى المعلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه فقال:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة، فإنه المتفرد بصفات الألوهية والإطلاع على الأسرار والضمائر. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل المتخذين من الكفرة والمتخذين من الملائكة وعيسى والأصنام على حذف الراجع وإضمار المشركين من غير ذكر لدلالة المساق عليهم، وهو مبتدأ خبره على الأول. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ بإضمار القول. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهو متعين على الثاني، وعلى هذا يكون القول المضمر بما في حيزه حالاً أو بدلاً من الصلة و ﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدر أو حال، وقرئ «قالوا ما نعبدكم» و «ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله» حكاية لما خاطبوا به

آلهمهم و ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾ بضم النون اتباعاً. ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار والضمير للكفرة ومقابلهم، وقيل لهم ولمعبودهم فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعونها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق للاهتداء إلى الحق. ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنهما فاقدان البصيرة.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا. ﴿لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا موجود سواه إلا هو مخلوقه لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين ووجوب استناد ما عدا الواجب إليه، ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له ثم قرر ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للواحدة الذاتية، وهي تنافي المماثلة فضلاً عن التوالد لأن كل واحد من المثليين مركب من الحقيقة المشتركة، والتعيين المخصوص والقهارية المطلقة تنافي قبول الزوال المحوج إلى الولد، ثم استدل على ذلك بقوله:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس باللباس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو منتهى دوره أو منقطع حركته. ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء. ﴿الْغَفَّارُ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي مبدوء به من خلق الإنسان لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب، وفيه على ما ذكره ثلاث دلالات: خلق آدم أولاً من غير أب وأم، ثم خلق حواء من قصيره، ثم تشعب الخلق الفات للحوصر منهما. و ﴿ثُمَّ﴾ للعطف على محذوف هو صفة ﴿نفس﴾ مثل خلقها أو على معنى واحدة أي من نفس وحدث ثم جعل منها زوجها فشفعها بها، أو على ﴿خلقكم﴾ لتفاوت ما بين الآيتين، فإن الأولى عادة مستمرة دون الثانية. وقيل أخرج من ظهره ذريته كالذر ثم خلق منها حواء. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ وقضى أو قسم لكم، فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتبت في اللوح المحفوظ، أو أحدث لكم بأسباب نازلة كاشعة الكواكب والأمطار. ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان لكيفية ما ذكر من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة، غير أنه غلب أولي العقل أو خصهم بالخطاب لأنهم المقصودون. ﴿خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حيواناً سواها من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي هذه أفعاله. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحق لعبادتكم والمالك. ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعدل بكم عن عبادته إلى الإشراك.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لاستضرارهم به رحمة عليهم. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلا حكم، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي بإشباع ضمة الهاء لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك، وعن أبي عمرو ويعقوب إسكانها وهو لغة فيها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لزوال ما ينازع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكل منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه من الخول وهو التعهد، أو الخول وهو الافتخار. ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ من الله. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾ أي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، أو ربه الذي كان يتضرع إليه و ﴿مَا﴾؛ مثل الذي في



قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل النعمة. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْتَدَاً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الباء، والضلال والإضلال لما كانا نتيجة جعله صح تعليله بهما وإن لم يكونا غرضين. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشه لا سند له، وإقنات للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة.

﴿أَمَنْ هُوَ قَلْبُكَ فَإِنَّهُ لَأَيُّلٌ سَاجِدٌ وَقَائِمٌ يَخَذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُمْ يَجْعَلُونَ فَأَنْقُوا (16) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17)﴾

﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ قائم بوظائف الطاعات. ﴿أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته وأم متصلة بمحذوف تقديره الكافر خير «أم من هو قانت»، أو منقطعة والمعنى بل «أمن هو قانت» كمن هو بضده، وقرأ الحجازيان وحمزة بتخفيف الميم بمعنى أمن هو قانت لله كمن جعل له أنتدأ. ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حالان من ضمير «قانت»، وقرأ بالرفع على الخبر بعد الخبر والواو للجمع بين الصفتين «يَخَذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» في موضع الحال أو الاستئناف للتعليل. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيه باعتبار القوة العملية على وجه أبلغ لمزيد فضل العلم. وقيل تقرير للأول على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ بأمثال هذه البيانات، وقرئ «يذكر» بالإدغام.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بلزوم طاعته. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة. وقيل معناه للذين أحسنوا حسنة في الدنيا هي الصحة والعافية، وفي هذه بيان لمكان «حسنة». ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. ﴿إِنَّمَا يُؤَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مشاق الطاعات من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها. ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حساب الحساب، وفي الحديث إنه «ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحق فيوفون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل».

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ موحداً له.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، لأن قصب السبق في الدين بالإخلاص أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش ومن دان بدينهم، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة، والإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمها من سبق في الدين، ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما في أردت لأن أفعل فيكون أمر بالتقدم في الإخلاص والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء. ﴿عَذَابٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمة ما فيه.

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهْ دِينِي﴾ أمر بالإخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم، ولذلك رتب عليه قوله:

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم. ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسران. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالضلال. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين يدخلون النار بدل الجنة لأنهم جمعوا وجوه الخسران. وقيل وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير بـ ﴿أَلَا﴾، وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه بـ ﴿المبين﴾.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ شرح لخسرانهم. ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ظلل الآخرين. ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوفهم به ليتجنبوا ما يوقعهم فيه. ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ ولا تعرضوا لما يوجب سخطي.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ البالغ غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت، ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشيطان. ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتغال منه. ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه بشرائهم عما سواه. ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالثواب على السنة الرسل، أو الملائكة عند حضور الموت. ﴿فَسَبِّحْ عِبَادِ﴾. ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير ﴿الذين اجتنبوا﴾ للدلالة على مبدأ اجتنابهم وأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحق والباطل ويؤثرون الأفضل فالأفضل. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لدينه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة، وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (19) لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوَّا رَبَّهُمْ هُمْ هُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مُبِينَةٌ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً لَوْنُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفُتُورِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَنْفَعُ مَنْ نَفْسُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23) ﴿

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ جملة شرطية معطوفة على محذوف دل عليه الكلام تقديره أنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، فكررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿من في النار﴾ موضع الضمير لذلك والدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه، وأن اجتهد الرسل في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار، ويجوز أن يكون ﴿أفأنت﴾ تنقد جملة مستأنفة للدلالة على ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوَّا رَبَّهُمْ هُمْ هُمْ عُرِفُوا مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ﴾ علالي بعضها فوق بعض. ﴿مُبِينَةٌ﴾ بنيت بناء

النازل على الأرض. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت تلك الغرف. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿لَهُمْ غَرْفٌ﴾ في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاتِ﴾ ولأن الخلف نقص وهو على الله محال.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر. ﴿فَسَلَكْنَا﴾ فأدخله. ﴿يَتَابَعُ فِي الْأَرْضِ﴾ هي عيون ومجاري كائنة فيها، أو مياه نابعات فيها إذ ينبوع جاء للمنبع وللنابع فنصبها على الطرف أو الحال. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً لَوْنَاهُ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما، أو كفياته من خضرة وحمرة وغيرهما. ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ﴾ يتم جفافه لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منبته. ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ من يسه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ فتاتاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ لتذكيراً بأنه لا بد من صانع حكيم دبره وسواه، أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغتر بها. ﴿لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إذ لا يتذكر به غيرهم.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ حتى تمكن فيه بيسر عبر به عمن خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبوله غير متأبئة عنه من حيث أن الصدر محل القلب المنبع للروح المتعلق للنفس القابلة للإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني المعرفة والاهتداء إلى الحق. وعنه عليه الصلاة والسلام «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، فقبل فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله». وخبر «من» محذوف دل عليه ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره وهو أبلغ من أن يكون عن مكان من، لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً عن قبوله من القاسي عنه لسبب آخر، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بامتناع ذكر شرح الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسنده إليه. ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يظهر للنظر بأدنى نظر، والآية نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، روي أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له حدثنا فنزلت. وفي الابتداء باسم الله وبناء نزل عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه. ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ بدل من «أحسن» أو حال منه، وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجابو النظم وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة. ﴿مُتَّكِنٍ﴾ جمع متنى أو مثنى أو متن على ما مر في «الحجر»، وصف به كتاباً باعتبار تفاصيله كقولك: القرآن سور وآيات، والإنسان: عظام وعروق وأعصاب، أو جعل تمييزاً من «متشابهاً» كقولك: رأيت رجلاً حسناً شمائله. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تشمتر خوفاً مما فيه من الوعيد، وهو مثل في شدة الخوف واقشعرار الجلد تقبضه وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس بزيادة الراء ليصير رباعياً كتركيب أقمطر من القمط وهو الشد. ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه، والتعدي بـ «إلى» لتضمين معنى السكون والاطمئنان، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء. ﴿هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ ومن يخذله. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجهم من الضلال.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ، سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَبَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَقَهُمُ اللَّهُ الْخَيْرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ (27) قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْتَبَهُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ (31)﴾

﴿أَمَّنْ يَتَّقِي بَوَّجْهَهُ﴾ يجعله درقة يقي به نفسه لأنه يكون يداه مغلولة إلى عنقه فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كمن هو آمن منه، فحذف الخبر كما حذف في نظائره.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بالموجب لما يقال لهم وهو: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وباله، والواو للحال وقد مقدرة.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّا هُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها.

﴿فَأَذَانَهُمُ اللَّهُ الْخَزْيُ﴾ الذل. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كالمسخ والخسف والقتل والسي والإجلاء. ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ﴾ المعد لهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون به.

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال من هذا والاعتماد فيها على الصفة كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً، أو مدح له. ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما هو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني. وقيل بالشك استشهداً بقوله:

وَقَدْ أَنَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ      مِنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ  
وهو تخصيص له ببعض مدلوله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ علة أخرى مرتبة على الأولى.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحد. ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ مثل المشرك على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعي كل واحد من معبوديه عبوديته، ويتنازعوا فيه بعبد يتشارك فيه، جمع يتجادبون ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة في تحيره وتوزع قلبه، والموحد بمن خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيل و ﴿رَجُلًا﴾ بدل من مثل وفيه صلة ﴿شُرَكَاءُ﴾، والتشاكس والتشاخص الاختلاف. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿سَلَمًا﴾ بفتحين، وقرأ بفتح السين وكسرهما مع سكون اللام وثلاثها مصادر سلم نعت بها، أو حذف منها ذا ورجل سالم أي وهناك رجل سالم، وتخصيص الرجل لأنه أفطن للضر والنفع. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة وحالاً ونصبه على التمييز ولذلك وحده، وقرأ «مثلين» للإشعار باختلاف النوع، أو لأن المراد على ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ في الوصفين على أن الضمير للمثليين فإن التقدير مثل رجل ومثل رجل. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه، لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق. ﴿يَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فإن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى، وقرأ «ماتت» و «ماتون» لأنه مما سيحدث.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك كنت على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك، واجتهدت في الإرشاد والتبليغ ولجوا في التكذيب والعناد، ويعتذرون بالأباطيل مثل ﴿أطعنا سادتنا﴾ و ﴿وجدنا آباءنا﴾. وقيل المراد به الاختصام العام يخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37) وَلَٰئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۖ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ أَلَمْ تَوَكَّلْ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْمَتَّكِلِينَ (38) قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ ۚ عَمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ۚ إِنَّي غَمَلْتُ فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (40)﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ﴾ وهو ما جاء به محمد ﷺ. ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ من غير توقف وتفكر في أمره. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم، واللام تحتل العهد والجنس، واستدل به على تكفير المبتدعة فإنهم يكدبون بما علم صدقه وهو ضعيف لأنه مخصوص بمن فاجأ ما علم مجيء الرسول به بالتكذيب.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ اللام للجنس ليتناول الرسل والمؤمنين لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقيل هو النبي ﷺ والمراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وقيل الجائي هو الرسول والمصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وذلك يقتضي إضمار ﴿الذي﴾ وهو غير جائز. وقرئ ﴿وصدق به﴾ بالتخفيف أي صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل من غير تحريف، أو صار صادقاً بسببه لأنه معجز يدل على صدقه ﴿وصدق به﴾ على البناء للمفعول.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة. ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ خص الأسوأ للمبالغة فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك، أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون وأن ما يفرط منهم من الصفات أسوأ ذنوبهم، ويجوز أن يكون بمعنى السيء كقولهم: الناقص والأشج أعداء بني مروان، وقرئ ﴿أسوأ﴾ جمع سوء. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ ويعطيهم ثوابهم. ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات، والعبد رسول الله ﷺ ويؤيده قراءة حمزة والكسائي «عباده»، وفسر بالأنبياء صلوات الله عليهم. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني قريباً فإنهم قالوا له إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا بعبيك إياها. وقيل إنه بعث خالداً ليكسر العزى فقال له سادنها أحذر كها فإن لها شدة، فعمد إليها خالد فهشم أنفها فتزل تخويف خالد منزلة تخويفه لأنه الأمر له بما خوف عليه. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الرشاد.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّضِلٍّ﴾ إذ لا راد لفعله كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب منيع. ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه.

﴿وَلَٰئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۖ اللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرد بالخلق. ﴿قُلْ﴾

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيٍّ أَمْ أَرَأَيْتُمْ بِعَدَمِ مَا تَحْقُقْتُمْ أَنْ خَالِقَ الْعَالَمِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَنْ أَلْهَيْتُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَصِيْبَنِي بِضُرٍّ هَلْ يَكْشِفُهُ. ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ بِنَفْعِ. ﴿هَلْ هُنَّ مُنْصِفَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فَيُمْسِكُنَهَا عَنِّي، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ بِالتَّوْنِ فِيهِمَا وَنَصَبَ ضُرَّهُ وَرَحْمَتَهُ. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كَافِيًا فِي إِصَابَةِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الضَّرِّ إِذْ تَقَرَّرَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ أَنَّهُ الْقَادِرُ الَّذِي لَا مَانِعَ لِمَا يَرِيدُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَهُمْ فَسَكَتُوا فَتَزَلَّ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿كَاشِفَاتُ﴾ وَ ﴿مُمْسِكَاتُ﴾ عَلَى مَا يَصِفُونَهَا بِهِ مِنَ الْأَنْوَةِ تَنْبِيْهَا عَلَى كَمَالِ ضَعْفِهَا. ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لَعَلَّهُمْ بِأَنَّ الْكُلَّ مِنْهُ تَعَالَى.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ عَلَى حَالِكُمْ، اسْمٌ لِلْمَكَانِ اسْتَعِيرَ لِلْحَالِ كَمَا اسْتَعِيرَ هُنَا وَحَيْثُ مِنَ الْمَكَانِ لِلزَّمَانِ، وَقَرَأَ «مَكَانَاتِكُمْ». ﴿إِنِّي غَائِلٌ﴾ أَيُّ عَلَى مَكَانَتِي فَحَذَفَ لِلِاخْتِصَارِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْوَعِيدِ، وَالْإِشْعَارِ بِأَنَّ حَالَهُ لَا يَقِفُ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَزِيدُهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ قُوَّةً وَنَصْرَةً وَلِذَلِكَ تَوَعَّدَهُمْ بِكَوْنِهِ مَنْصُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدَّارَيْنِ فَقَالَ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فَإِنْ خَزِيَ أَعْدَائُهُ دَلِيلُ غَلْبَتِهِ، وَقَدْ أَخْزَاهُمْ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دَائِمٌ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْهُ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (41) اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمْ أَخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ سُفْعَاءَ قُلُوبِكُمْ أَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَهْزِئُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48) إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50)﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ لِأَجْلِهِمْ فَإِنَّهُ مَنَاطُ مَصَالِحِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ. ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتْلِسًا بِهِ. ﴿فَمَنْ اهْتَكَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ إِذْ نَفَعَ بِهِ نَفْسَهُ. ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ فَإِنْ وَبَّاهُ لَا يَتَخَطَّاهَا. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ وَمَا وَكَلْتَ عَلَيْهِمْ لِتَجْبِرَهُمْ عَلَى الْهَدَى وَإِنَّمَا أَمَرْتُ بِالْبَلَاغِ وَقَدْ بَلَغْتَ.

﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أَيُّ يَقْبِضُهَا عَنِ الْإِبْدَانِ بِأَنْ يَقْطَعَ تَعْلُقَهَا عَنْهَا وَتَصْرِفَهَا فِيهَا إِمَّا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا وَهُوَ فِي النَّوْمِ. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وَلَا يَرْدُهَا إِلَى الْبَدَنِ، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيُّ قُضِيَ بِضَمِّ الْقَافِ وَكُسْرِ الضَّادِ وَالْمَوْتُ بِالرَّفْعِ. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أَيُّ النَّائِمَةَ إِلَى بَدْنِهَا عِنْدَ الْيَقَظَةِ. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هُوَ الْوَقْتُ الْمَضْرُوبُ لِمَوْتِهِ وَهُوَ غَايَةُ جِنْسِ الْإِرْسَالِ. وَمَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: أَنَّ فِي ابْنِ آدَمَ نَفْسًا وَرُوحًا بَيْنَهُمَا مِثْلُ شِعَاعِ الشَّمْسِ، فَالنَّفْسُ الَّتِي بِهَا الْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَالرُّوحُ الَّتِي بِهَا النَفْسُ وَالْحَيَاةُ، فَيَتَوَفَّى عِنْدَ الْمَوْتِ

وتتوفى النفس وحدها عند النوم. قريب مما ذكرناه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ من التوفي والإمساك والإرسال. ﴿لَا يَأْتِ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيتها عنها بالكلية حين الموت، وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها، ومآ يعترها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيتها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذت قريش. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عند الله. ﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون هي تماثيلهم، والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه، ولا يستقل بها ثم قرر ذلك فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيكون الملك له أيضاً حيثنذ.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم. ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ انقبضت ونفرت. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَسْتَشِرُونَ﴾ لفرط اقتنائهم بها ونسيانهم حق الله، ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه، والاشمئزاز أن يمتلىء غماً حتى ينقبض أديم وجهه، والعامل في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ العامل في إذا المفاجأة.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ التجيء إلى الله بالدعاء لما تحيرت في أمرهم وضجرت من عنادهم وشدة شكيمتهم، فإنه القادر على الأشياء والعالم بالأحوال كلها. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ فيما كانوا فيه يختلفون ﴿فَأَنْتَ وحدك تقدر أن تحكم بيني وبينهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعيد شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص. ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ زيادة مبالغة فيه وهو نظير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ في الوعد.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض صحائفهم. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرٌّ دَعَانَا﴾ أخبار عن الجنس بما يغلب فيه، والعطف على قوله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وحده﴾ بالفاء لبيان مناقضتهم وتعكيسهم في التسبب بمعنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم. ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياه تفضلاً فإن التحويل مختص به. ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مني بوجهه كسبه، أو بأني سأعطاه لما لي من استحقاقه، أو من الله بي واستحقاقي، والهاء فيه لما إن جعلت موصولة وإلا فللنعمة والتذكير لأن المراد شيء منها. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ امتحان له أيشكر أم يكفر، وهو رد لما قاله وتأنيث الضمير باعتبار الخير أو لفظ الـ «نعمة»، وقرىء بالتذكير. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وهو دليل على أن الإنسان للجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنها كلمة أو جملة، وقرىء بالتذكير ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قارون وقومه فإنه قال ورضي به قومه ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) ﴾ قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (54) وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي آتَاكُم مِمَّا ارْتَبَوا وَاتَّخَذُوا لِلَّهِ عُتَقَارًا (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ الْخَاسِرِينَ (56) ﴾

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ جزاء سيئات أعمالهم أو جزاء أعمالهم، وسماء سيئة لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة رمزاً إلى أن جميع أعمالهم كذلك. ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالعتو. ﴿ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ المشركين و ﴿ مِنْ ﴾ للبيان أو للتبعض. ﴿ سَيَّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ كما أصاب أولئك، وقد أصابهم فإنهم قحطوا سبع سنين وقتل بيدر صناديدهم. ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين.

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ حيث حس عنهم الرزق سبعا ثم بسط لهم سبعا. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الحوادث كلها من الله بوسط أو غيره.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن. ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانياً. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ عفواً ولو بعدُ بعدُ، تقييده بالتوبة خلاف الظاهر ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية، والتعليل بقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في ﴿ عِبَادِي ﴾ من الدلالة على الذلة، والإختصاص بالمقتضيين للترحم، وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة، وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً، ووضع اسم ﴿ اللَّهِ ﴾ موضع الضمير لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «ما أحب أن تكون لي الدنيا وما فيها بها، فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال: ألا ومن أشرك ثلاث مرات». وما روي أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الوثن وقتل النفس بغير حق لم يغفر له فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس فنزلت. وقيل في عياش والوليد بن الوليد في جماعة افتتنوا أو في الوحشي لا ينفي عمومها وكذا قوله:

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ بأنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن التوبة والإخلاص في العمل وتنافي الوعيد بالعذاب.

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ القرآن أو الأمور به دون المنهي عنه، والعزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ، ولعله ما هو أنجي وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة. ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه فتتداركوا.

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كَرَاهَةً أَنْ تَقُولَ وَتَنْكِيَرُ ﴾ نفس لأن القائل بعض الأنفس أو للتكثير كقول الأعشى:

وَرَبِّ بَقِيعَ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضِبَا



﴿يَا حَسْرَتِي﴾ وقرىء بالياء على الأصل. ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾ بما قصرت. ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ في جانبه أي في حقه وهو طاعته. قال سابق البربري:

أَمَا تَتَّقِيَنَّ اللَّهَ فِي جَنْبٍ وَامِئٍ لَهُ كِبْدٌ حَرَىٰ عَلَيْكَ تَقَطُّعٌ  
وهو كناية فيها مبالغة كقوله:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَىٰ فِي قُبَّةٍ ضَرَبْتَ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ

وقيل ذاته على تقدير مضاف كالطاعة وقيل في قربه من قوله تعالى والصاحب بالجانب وقرىء «في ذكر الله». ﴿وَأَنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّاحِرِينَ﴾ المستهزئين بأهله ومحل «إِنْ كُنْتُ» نصب على الحال كأنه قال فرطت وأنا ساحر.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (57) أَوْ تَقُولَ جِئْتُكَ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ أَنِّي كُنتُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ بِمَا اسْتَكْبَرْتَ وَكَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثْقَاتِ نَجَاتٍ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَغْوَى اللَّهُ تَأْمُرُوهَ أَغْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) ﴿

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالإرشاد إلى الحق. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشرك والمعاصي.

﴿أَوْ تَقُولَ جِئْتُكَ مِنَ الْعَذَابِ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل، وأو للدلالة على أنها لا تخلو من هذه الأقوال تحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ بِمَا اسْتَكْبَرْتَ﴾ رد من الله عليه لما تضمنه قوله ﴿لو أن الله هداني﴾ من معنى النفي وفصله عنه لأن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المودود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة، وهو لا يمنع تأثير قدرة الله فعل العبد ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب على المعنى، وقرىء بالتأنيث للنفس.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل، والجملة حال إذ الظاهر أن ترى من رؤية البصر واكتفى فيها بالضمير عن الواو. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مقام. ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لأنهم يرون كذلك.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرىء «وينجي». ﴿بِمِثْقَاتِهِمْ﴾ بفلاحهم مفعلة من الفوز وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب، وقرأ الكوفيون غير حفص بالجمع تطبيقاً لهم والباء فيها للسببية صلة لينجي أو لقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو حال أو استثناء لبيان المفاضة.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن قدرته

وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها الا من بيده مفاتيحها، وهو جمع مقلد أو مقلاد من قلده إذا ألزمته، وقيل جمع إقليد معرب إكليد على الشدوذ كمذاكير. وعن عثمان رضي الله عنه: أنه سأل النبي ﷺ عن المقاليد فقال «تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير». والمعنى على هذا إن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه. «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» متصل بقوله «وينجي الله الذين اتقوا» وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها، وتغيير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي هلاك الكافرين أن خسروا أنفسهم، وللتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية للكرم أو بما يليه، والمراد بآيات الله دلائل قدرته واستبداده بأمر السموات والأرض، أو كلمات توحيده وتمجيده وتخصيص الخسار بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي أغير الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد، و «تأمروني» اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا أسلم بعض آلهتنا ونؤمن بآلهك لفرط غباوتهم، ويجوز أن ينتصب غير بما دل عليه «تأمروني أن أعبد» لأنه بمعنى تعبدوني على أن أصله تأمروني أن أعبد فحذف إن ورفع كقوله:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَخْضِرَ الْوَعَى

ويؤيده قراءة «أعبد» بالنصب، وقرأ ابن عامر «تأمروني» بإظهار النونين على الأصل ونافع بحذف الثانية فإنها تحذف كثيراً.

﴿وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من الرسل. «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» كلام على سبيل الفرض والمراد به تهيج الرسل وإقناظ الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب، وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح، وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله «ومن يتردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم» وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب.

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَنَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي مَقَامٍ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْيَتِيمِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)﴾

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على الاختصاص لم يكن كذلك. «وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» إناعمة عليك وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما قدروا عظمتهم في أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به، وقرئ بالتشديد. «وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» تنبيه على عظمتهم وحقارة الأفعال العظام التي تحير فيها الأوهام بالإضافة إلى قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً كقولهم: شابت

لمة الليل، والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار المقيوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة. وقرئ بالنصب على الظرف تشبيهاً للمؤقت بالمبهم، وتأكد «الأرض» بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة. وقرئ «مطويات» على أنها حال و «السموات» معطوفة على «الأرض» منظومة في حكمها. «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» ما أبعد وأعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم، أو ما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني المرة الأولى. «فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» خر ميتاً أو مغشياً عليه. «إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» قيل جبريل ومكائيل وإسرافيل فإنهم يموتون بعد. وقيل حملة العرش. «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى» نفخة أخرى وهي تدل على أن المراد بالأولى ونفخ في الصور نفخة واحدة كما صرح به في مواضع، وأخرى تحتل النصب والرفع. «فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ» قائمون من قبورهم أو متوقفون، وقرئ بالنصب على أن الخبر. «يَنْظُرُونَ» وهو حال من ضميره والمعنى: يقبلون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه «نور» لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمي الظلم ظلمة. وفي الحديث «الظلم ظلمات يوم القيامة». ولذلك أضاف اسمه إلى «الأرض» أو بنور خلق فيها بلا واسطة أجسام مضيئة ولذلك أضافه الى نفسه. «وَوُضِعَ الْكِتَابُ» للحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه، أو صحائف الأعمال في أيدي العمال، واكتفى باسم الجنس عن الجمع. وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف «وَجِيءَ بِالشَّاهِدِينَ وَالشَّهَدَاءِ» الذين يشهدون للآمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين، وقيل المستشهدون. «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» بين العباد. «بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ» بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيْتُم مَّا وَصَى الْكَافِرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ ۖ طِبْتُ لَكُمْ فَاَدْخُلُوا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيزِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)﴾

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ جزاءه. «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ» فلا يفوته شيء من أفعالهم، ثم فصل التوفية فقال:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة، جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه، أو من قولهم شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل. «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» ليدخلوها و «حتى» وهي التي تحكي بعدها الجملة، وقرأ الكوفين «فتحت» بتخفيف التاء. «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» تقريباً وتوبيخاً. «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ» من جنسكم. «يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث أنهم عللوا

توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة، وقيل هو قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم. ﴿فَيَشْسُ مَثْوًى﴾ مكان. ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس والمخصوص بالذم سبق ذكره، ولا ينافي إشعاره بأن مثواهم في النار لتكبرهم عن الحق أن يكون دخولهم فيها لأن كلمة العذاب حقت عليهم، فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه كما قال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار».

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ إسراعاً بهم إلى دار الكرامة، وقيل سبق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين. ﴿زُرْمًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ حذف جواب إذا للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظرين، وقرأ الكوفيون ﴿فتحت﴾ بالتخفيف. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتریکم بعد مكروه. ﴿طِبْثُمْ﴾ طهرتم من دنس المعاصي. ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها، والفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه لأنه مظهره.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والثواب. ﴿وَأَوْزَنَنَا الْأَرْضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة، وأبرأها تملیکها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه. ﴿نَتَّبِعُكَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي يتبوا كل منا في أي مقام أرادته من جنته الواسعة، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الجنة.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ محققين. ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي حوله و﴿من﴾ مزيدة أو لابتداء الحفوف. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى، والمعنى ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به، وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينهم أو الملائكة وعلى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين». عن عائشة رضي الله عنها: «أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر» والله أعلم.



[مكية وآياتها خمس وثمانون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2)﴾

﴿حَمْدٌ﴾ أماله ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر صريحاً، ونافع برواية ورش وأبو عمرو بين بين، وقرئ بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين، أو النصب بإضمار اقرأ ومنع صرفه للتعريف والتأنيث، أو لأنها على زنة أعجمي كقبايل وهابيل.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ (3) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ نَقْلُهُمْ فِي الْيَلْدِ (4) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالْبَاطِلِ يُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6) الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَسَتَمْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّعَاتِ وَمَنْ يَقِ السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)﴾

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ صفات أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود منه، والإضافة فيها حقيقة على أنه لم يرد بها زمان مخصوص، وأريد به ﴿شديد العقاب﴾ مشددة أو الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس، أو إبدال وجعله وحده بدلاً مشوش للنظم وتوسط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد، أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون للذنوب باق وذلك لمن لم يتب فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». والتوب مصدر كالتوبة. وقيل جمعاً والطول الفضل بترك العقاب المستحق، وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلي على عبادته. ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما حقق أمر التنزيل سجل بالكفر على المجادلين فيه بالطعن وإدحاض الحق لقوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ وأما الجدل فيه لحل عقده واستنباط حقائقه وقطع تشبث أهل الزيغ به وقطع مطاعهم فيه فمن أعظم الطاعات، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إن

جدالاً في القرآن كفر» بالتكثير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة. ﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ فلا يغرك إهمالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ والذين تحزبوا على الرسل وناصروهم بعد قوم نوح كعاد وثمود. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ هَؤُلَاءِ أَنْ يَكْفُرُوا﴾ «برسولهم» وقرىء «برسولها». ﴿لِيَأْخُذُوا﴾ ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل من الأخذ بمعنى الأسر. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقة له. ﴿لِيُذِخُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليزيلوه به. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاء لهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على دياهم وترون أثره. وهو تقرير فيه تعجيب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيده أو قضاؤه بالعذاب. ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكفرهم. ﴿أَنْهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بدل من كلمة «ربك» بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجوداً وحملهم إياه وحفيهم حوله مجاز عن حفظهم وتديبرهم له، أو كناية عن قربهم من ذي العرش ومكانتهم عنده وتوسطهم في نفاذ أمره. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون الله بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام، وجعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح أصلاً. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أخبر عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله ومساق الآية لذلك كما صرح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإشعاراً بأن حملة العرش وسكان القرش في معرفته سواء رداً على المجسمة واستغفارهم شفاعتهم وحملهم على التوبة وإلهامهم ما يوجب المغفرة، وفيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة وإن تخالفت الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون «ربنا» وهو بيان لـ «يستغفرون» أو حال. ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها، وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ها هنا. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد والدلالة على شدة العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ وعدتهم إياها. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على هم الأول أي أدخلهم معهم هؤلاء ليتم سرورهم، أو الثاني لبيان عموم الوعد، وقرىء «جنة عدن» و«صلح» بالضم و«ذريتهم» بالتوحيد. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليه مقدور. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوبات أو جزاء السيئات، وهو تعميم بعد تخصيص، أو تخصيص بمن «صلح» أو المعاصي في الدنيا لقوله: ﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ أي ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة كأنهم طلبوا السبب بعد ما سألوا المسبب. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَلُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ إِذْ نَدَعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فُكِّفُورُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلَيْسَ إِنَّتَيْنِ فَاَعْرَفْنَا بِدُعَاؤِنَا هَهُنَا إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى  
عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّكَ  
أَلَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِسْمٍ وَلَا لَشَيْعٍ يُطَاغُ  
(18) يَعْلَمُ حَآيِنَهُ الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمانة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه أخبر عنه، ولا للثاني لأن مقتهم أنفسهم يوم القيامة حين عاينوا جزاء أعمالهم الخبيثة إلا أن يؤول بنحو: بالصَّيْفِ ضِيَعَتِ اللَّبَنُ. أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنَتِّنَ﴾ إمامتين بأن خلقتنا أمواتاً ثم صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، فإن الإمامة جعل الشيء عادم الحياة ابتداءً أو بتصوير كالتصغير والتكبير، ولذلك قيل سبحانه من صغر البعوض وكبر الفيل، وإن خصص بالتصوير فاختار الفاعل المختار أحد مفعوليه تصوير وصرف له عن الآخر. ﴿وَأُخِيَّتْنَا أَتُنَتِّنَ﴾ الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وقيل الإمامة الأولى عند انخراط الأجل والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال والإحياء ما في القبر والبعث، إذ المقصود اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكثرثوا به ولذلك تسبب بقوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإن اقترافهم لها من اغترارهم بالدنيا وإنكارهم البعث. ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ نوع خروج من النار. ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلكه وذلك إنما يقولونه من فرط قنوطهم تعللاً وتحيراً ولذلك أجيبوا بقوله:

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنه. ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخُدَّ﴾ متحداً أو توحد وحده، فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَأَنْ يُشْرَكَ بِهِ يُؤْمِنُوا﴾ بالإشراك. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحق للعبادة حيث حكم عليكم بالعذاب السرمم الدائم. ﴿الْعَلِيِّ﴾ عن أن يشرك به ويسوى بغيره. ﴿الْكَبِيرِ﴾ حيث حكم على من أشرك وسوى به بعض مخلوقاته في استحقاق العبادة بالعذاب السرمم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم تكميلاً لنفوسكم. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أسباب رزق كالمطر مراعاة لمعاشكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى. ﴿إِلَّا مَنْ يُبْغِ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكير فيها، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم وشق عليهم.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ خبران آخران للدلالة على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرد في الألوهية، فإن من ارتفعت درجات كماله بحيث لا يظهر دونها كمال وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به، وقيل الدرجات مراتب المخلوقات أو مصاعد الملائكة إلى العرش أو السموات أو درجات الثواب. وقرئ ﴿رَفِيعٌ﴾ بالنصب على المدح. ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ خبر رابع للدلالة على أن الروحانيات أيضاً مسخرات لأمره بإظهار آثارها وهو الوحي، وتمهيد للنسبة بعد تقرير التوحيد والروح الوحي ومن أمره بيانه لأنه أمر بالخير أو مبدؤه والأمر هو الملك المبلغ. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختاره للنسبة، وفيه دليل على أنها عطائية. ﴿لِيُنْذِرَ﴾ غاية الإلقاء والمستمكن فيه لله، أو لمن أو للروح واللام مع القرب تؤيد الثاني. ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة، فإن فيه

تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يستترهم شيء أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالهم وسرائرهم. ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم، وهو تقرير لقوله ﴿هُمْ بَارِزُونَ﴾ وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا. ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجب به، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كأنه نتيجة لما سبق، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وأملها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذاتها وألمها. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ ينقص الثواب وزيادة العقاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعاً.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي القيامة سميت بها لأزوفها أي قربها، أو الخطة ﴿الْآزِفَةِ﴾ وهي مشارفهم النار وقيل الموت. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترتفع عن أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحو ولا تخرج فيستريحوا. ﴿كَاطِمِينَ﴾ على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة، أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾. أو من مفعول ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾ على أنه حال مقدرة. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب مشفق. ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ ولا شفيع مشفع، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (20) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارُوا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُدَوِّنُهُمْ وَمَا كَانُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاكِ﴾ (21) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (22) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْعَيْنَ وَقَتَرُوا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ (24) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (25) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رِبِّهُ إِنَِّّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (26) ﴿

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه، أو خيانة الأعين. ﴿وما تخفي الصدور﴾ من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء ﴿والله يقضي بالحق﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ تهكم بهم لأن الجهاد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي. وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه بـ ﴿خائنة الأعين﴾ وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما ﴿يدعون من دونه﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود. ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً، وإنما جيء بالفصل وحقه أن يقع بين معرفتين



لمضاربة أفعال من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه . وقرأ ابن عامر «أشد منكم» بالكاف . ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مثل القلاع والمدائن الحصينة . وقيل المعنى وأكثر آثاراً آثاراً كقوله : متقلداً سيفاً ورمحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يمنع العذاب عنهم .

﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ . ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الأحكام الواضحة . ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن . ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات . ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة قاهرة ظاهرة ، والعطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنون موسى عليه الصلاة والسلام ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي أعيدها عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام . ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع ، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا يكفونه عن قتله ويقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر ، ولو قتلته ظن أنك عجزت عن معارضته بالحجة وتعلله بذلك مع كونه سفاكاً في أهون شيء دليل على أنه تيقن أنه نبي فخاف من قتله ، أو ظن أنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله . ﴿وَلْيَدْعُ رِبِّهُ﴾ فإنه تجلد وعدم مبالاة بدعائه . ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله . ﴿أَنْ يُكَذِّبَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه من عبادته وعبادة الأصنام لقوله تعالى : ﴿وَيَذَرُكَ أَهْلَكَ﴾ . ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ما يفسد دنياكم من التحارب والتهاجر إن لم يقدر أن يبطل دينكم بالكلية . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالواو على معنى الجمع ، وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص بفتح الياء والهاء ورفع ﴿الفساد﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (27) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَلَعَلَّهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَقُولُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرُ يَأْمُرُ بِالْإِسْإِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ (30) يَمُتْ دَأْبُ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَنُوحٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِيٍّ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَلَأَلَّمْتُمْ فِي شَيْءٍ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْلُعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُنَ ابْنُ بِي صَرَخًا لَمَلِي أَتْلُعُ الْأَسْبَابَ (36) أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطْلُعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَضَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي

تَبَابٍ (37) وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُومُ أَنْبِئُونُ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزِنُ إِلَّا نَفْسَهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَنْقُومُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْفَقْدِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْإِبْرَارِ (44) فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) ﴿

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ أي لقومه لما سمع بكلامه. ﴿إِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ صدر الكلام بأن تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العباد بالله، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفاظ والترقية، وإضافته إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة، ولم يسم فرعون وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الاستعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على القول. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿عذت﴾ فيه وفي سورة «الدخان» بالإدغام وعن نافع مثله.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من أقاربه. وقيل ﴿من﴾ متعلق بقوله: ﴿يَكُفُّ إِيْمَانَهُ﴾ والرجل إسرائيلي أو غريب موحد كان ينافقهم. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أنقصدون قتله. ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير روية وتأمل في أمره. ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وحده وهو في الدلالة على الحصر مثل صديقي زيد. ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المتكثرة الدالة على صدقه من المعجزات والاستدلالات. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعتراف به، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وفيه مبالغة في التحذير وإظهار للإنصاف وعدم التعصب، ولذلك قدم كونه كاذباً أو يصيبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مواعيده، كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم وتفسير الـ ﴿بَعْضُ﴾ بالكل كقول لبيد:

تَرَاكَ أَمْكَنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا      أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَّفْسِ حِمَامُهَا  
مردود لأنه أراد بالـ ﴿بَعْضُ﴾ نفسه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج ثالث ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ولما عضده بتلك المعجزات. وثانيهما: أن من خذله الله أهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله. ولعله أراد به المعنى الأول وخيل إليهم الثاني لتلين شكيمتهم، وعرض به لفرعون بأنه ﴿مسرف كذاب﴾ لا يهديه الله سبيل الصواب وطريق النجاة.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ غالين عالين. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي فلا تقسدا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعا منه أحد، وإنما أدرج نفسه في الضميرين لأنه كان منهم في القرابة وليريهم أنه معهم ومساهمهم فيما ينصح لهم. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا

أُرِيكُمْ ما أَشِير عليكم. ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ وأستصوبه من قتله وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب وقلبي ولساني متواطئان عليه. ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب، وقرئ بالتشديد على أنه فعال للمبالغة من رشد كعلام، أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو بالنسبة إلى الرشد كعواج وبتات.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه والتعريض له. ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مثل أيام الأمم الماضية يعني وقائعهم، وجمع ﴿الأحزاب﴾ مع التفسير أغنى عن جمع ﴿اليوم﴾.

﴿مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائماً من الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ من حيث أن المنفي فيه حدوث تعلق إرادته بالظلم.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يوم القيامة ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار كما حكى في «الأعراف». وقرئ بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾.

﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ﴾ عن الموقف. ﴿مُذْبِرِينَ﴾ منصرفين عنه إلى النار. وقيل فارين عنها. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم من عذابه. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسف بن يعقوب على أن فرعونه فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد أو سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل موسى. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين. ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ مات. ﴿قُلْتُمْ كُنْ يَبْعَثْ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ ضماً إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده، أو جزماً بأن لا يبعث من بعده رسول مع الشك في رسالته، وقرئ «ألن يبعث الله» على أن بعضهم يقرر بعضاً بنفي البعث. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضلال. ﴿يُضِلُّ اللَّهُ﴾ في العصيان. ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ شك فيما تشهد به البيّنات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد.

﴿وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول لأنه بمعنى الجمع. ﴿بِغَيْرِ حُجَّةٍ بَلْ إِمَّا بَتَقْلِيدٍ أَوْ بِشَبْهَةٍ دَاحِضَةٍ﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا فيه ضمير من وإفراذه للفظ، ويجوز أن يكون ﴿الذين﴾ آمنوا مبتدأ وخبره ﴿كبير﴾ على حذف مضاف أي: وجدال الذين يجادلون كبير مقتاً أو بغير سلطان وفاعل ﴿كبير﴾ أي كبير مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله: ﴿يَطِيعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ جَبَّارٌ﴾ استثناءً للدلالة على الموجب لجدالهم. وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلب بالتثنية على وصفه بالتكبر والتعجب لأنه منبعضهما كقولهم: رأيت عيني وسمعت أذني، أو على حذف مضاف أي على كل ذي قلب متكبر.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾ بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر. ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ الطرق.

﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ بيان لها أو في إيهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها. ﴿فَاطْلَعْ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ عطف على ﴿أبلغ﴾. وقرأ حفص بالنصب على جواب الترجي ولعله أراد أن يبين له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه، أو إن يرى فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء يتوقف على إطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، وذلك لهجه

بالله وكيفية استنبائه. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ كَافِيًا﴾ في دعوى الرسالة. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل التزيين، ﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد، والفاعل على الحقيقة هو الله تعالى ويدل عليه أنه قرىء زين بالفتح وبالتوسط الشيطان. وقرأ الحجازيان والشامي وأبو عمرو ﴿وَصَدَّ﴾ على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التموهيات والشبهات ويؤيده: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي خسار.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ يعني مؤمن آل فرعون. وقيل موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدلالة. ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ دُنْيَا مَتَاعٌ﴾ تمتع يسير لسرعة زوالها. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخلودها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله، وفيه دليل على أن الجنایات تغرم بمثلها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمة، ولعل تقسيم العمال وجعل الجزاء جملة إسمية مصدرة باسم الإشارة، وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة، وجعل العمل عمدة والإيمان حالاً للدلالة على أنه شرط في اعتبار العمل وأن ثوابه أعلى من ذلك.

﴿يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة واهتماماً بالنداء له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه، وعطفه على النداء الثاني الداخل على ما هو بيان لما قبله ولذلك لم يعطف على الأول، فإن ما بعده أيضاً تفسير لما أجمل فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأول.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية في التعدية بالي واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ بربوبيته. ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان فاعتقادها لا يصح إلا عن إيقان. ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة، والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا رد لما دعوه إليه، و﴿جرم﴾ فعل بمعنى حق وفاعله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً لأنها جمادات ليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوة لها. وقيل ﴿جرم﴾ بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أي كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوة له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، وقيل فعل من الجرم بمعنى القطع كما إن بدا من لا بد فعل من التبديد وهو التفريق، والمعنى لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت ما فتقلب حقاً، ويؤيده قولهم لا جرم إنه لغة فيه كالرشد والرشد. ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ بالموت. ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة والطغيان كالإشراك وسفك الدماء. ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقرىء ﴿فستذكرون﴾ أي فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب. ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة. ﴿وَأَقْوَصُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ ليعصمني من كل سوء. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْجِبَادِ﴾ فيحرسهم وكأنه جواب توعدهم المفهوم من قوله:

﴿فَوَقَاہُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا﴾ شذائد مكرهم. وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَحَاقَ بِآلِ

فِرْعَوْنَ ﴿بَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فَاسْتَغْنَىٰ بِذِكْرِهِمْ عَنْ ذِكْرِهِ لِلْعِلْمِ بِأَنَّهُ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ. وَقِيلَ بِطَلْبَةِ الْمُؤْمِنِ مِنْ قَوْمِهِ فَإِنَّهُ فَرَّ إِلَىٰ جَبَلٍ فَاتَّبَعَهُ طَائِفَةٌ فَوَجَدُوهُ يَصْلِي وَالْوَحُوشُ حَوْلَهُ صَفْرًا فَرَجَعُوا رُغْبًا فَقَتَلَهُمْ. ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الغرق أو القتل أو النار.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّْا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْهَدْيَ وَأَوْزَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيٓ ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ الْبَصِيرُ (56) لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (58)﴾

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنفة أو ﴿النار﴾ خبر محذوف و ﴿يعرضون﴾ استئناف للبيان، أو بدل و ﴿يعرضون﴾ حال منها، أو من الآل وقرئت منصوبة على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره ﴿يعرضون﴾ مثل يصلون، فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم: عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به، وذلك لأرواحهم كما روي ابن مسعود أن أرواحهم في أجواف طيور سود تعرض على النار بكرة وعشيا إلى يوم القيامة، وذكر الوقتين تحتل التخصيص والتأييد، وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يا آل فرعون. ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه، أو أشد عذاب جهنم. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ويعقوب وحفص ﴿أَدْخِلُوا﴾ على أمر الملائكة بإدخالهم النار.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾ واذكر وقت تخاصمهم فيها ويحتمل العطف على غدوا. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ تفصيل له. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تباعاً كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع بمعنى أتباع على الإضمار أو التجوز. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّْا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ بالدفع أو الحمل، و ﴿نصيباً﴾ مفعول به لما دل عليه ﴿مغنون﴾ أوله بالتضمنين أو مصدر كشيئاً في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. فيكون من صلة لـ ﴿مغنون﴾.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لأغنيانا عن أنفسنا، وقرئ «كلا» على التأكيد لأنه بمعنى كلنا وتوينه عوض عن المضاف إليه، ولا يجوز جعله حالاً من المستكن في الظرف فإنه لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم كقولك كل يوم لك ثوب. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، و ﴿لا معقب لحكمه﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لخزنتها، ووضع ﴿جهنم﴾ موضع الضمير للتهويل أو لبيان محلهم فيها، إذ يحتمل أن تكون ﴿جهنم﴾ أبعد دركاتها من قولهم: بئر جهنم بعيدة القعر. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾

يُخَفَّفُ عَنَّا يَوْمًا ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ شيناً من العذاب، ويجوز أن يكون المفعول «يوم» بحذف المضاف و «من العذاب» بيانه.

﴿وَقَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرادوا به إزامهم للحجة وتوبيخهم على إضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الإجابة. ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإننا لا نجترى فيه إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم، وفيه إقناط لهم عن الإجابة. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياع لا يجاب، وفيه إقناط لهم عن الأجابة.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي في الدارين ولا ينتقص ذلك بما كان لأعدائهم عليهم من الغلبة أحياناً إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر، و «الإشهاد» جمع شاهد كصاحب وأصحاب، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة الشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ بدل من الأول وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة، أو لأنه لم يؤذن لهم فيعتذروا. وقرأ غير الكوفيين ونافع بالتاء. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد عن الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ جهنم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ ما يهتدي به في الدين من المعجزات والصحف والشرائع. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة.

﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾ هداية وتذكرة أو هادياً ومذكراً. ﴿لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول السليمة.

﴿قَاصِرٌ﴾ على أذى المشركين. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنصر لا يخلفه، واستشهد بحال موسى وفرعون. ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك بترك الأولى والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار، فإنه تعالى كافيك في النصر إظهار الأمر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ ودم على التسبيح والتحميد لربك. وقيل صلّ لهذين الوقتين، إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشياً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ عام في كل مجادل مبطل وإن نزل في مشركي مكة واليهود حين قالوا: لست صاحبنا بل هو المسيح بن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار. ﴿إِنَّ فِي ضُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكير والتعلم، أو إرادة الرياسة أو إن النبوة والملك لا يكونان إلا لهم. ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِهِ﴾ ببالغي دفع الآيات أو المراد. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الإنسان ثانياً من أصل، وهو بيان لا شكل ما يجادلون فيه من أمر التوحيد. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ الغافل والمستبصر. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ والمحسن والمسيء فينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التفاوت، وهي فيما بعد البعث وزيادة لا في المسيء لأن المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة، والعاطف الثاني عطف الموصول بما عطف عليه على «الأعمى والبصير» لتغاير الوصفين في المقصود، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكر ما قليلاً يتذكرون، والضمير للناس أو الكفار. وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب، أو الالتفات أو أمر الرسول بالمخاطبة.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (59) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿60﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَتَسَكَّنُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿61﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا تَوْفِيقَهُ ﴿62﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ اللَّهُ يَجْعَلُكَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿64﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿65﴾ ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْيَتِيمَتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ تَطْفَافٍ ثُمَّ مِنْ عُلُقُوفٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلِ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ أُمُسَى وَلَهُمْ لَكُمْ تَعْقُلُونَ ﴿67﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿68﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يَصْرُفُونَ ﴿69﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَصْلُمُونَ ﴿70﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿71﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿72﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿73﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿74﴾

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مجيئها لوضوح الدلالة على جوازها وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها لقصور نظرهم على ظاهر ما يحسون به.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ اعبدوني. ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أنبكم لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين، وإن فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلاً منزله للمبالغة، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه من أبوابها. وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه بأن خلقه بارداً مظلماً ليؤدي إلى ضعف الحركات وهدوء الحواس. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يبصر فيه أو به، وإسناد الإبصار إليه مجاز فيه مبالغة ولذلك عدل به عن التعليل إلى الحال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لا يوازيه فضل، وللإشعار به لم يقل لمفضل. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم، وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم.

﴿ذَلِكَمُ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقررهما، وقرئ ﴿خالق﴾ بالنصب على الاختصاص فيكون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ استثناءً بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ﴾ أي كما أفكوا أفك عن الحق كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ استدلال ثان بأفعال آخر مخصوصة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ بأن خلقكم منتصب القائمة يادي البشرية متناسب الأعضاء، والتخطيطات منهيًا لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذائذ. ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإن كل ما سواه مربوب مفتقر بالذات معرض للزوال.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجد سواه ولا موجد يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته. ﴿فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قائلين له.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات فإنها مقوبة لأدلة العقل منبهة عليها. ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن أنقاد له أو أخلص له ديني.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أطفالاً، والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم. ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ اللام فيه متعلقة بمحذوف تقديره: ثم يبيحكم لتبلغوا وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ ويجوز عطفه على ﴿لتبلغوا﴾ وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام ﴿شيوخاً﴾ بضم الشين. وقرئ «شيخاً» كقوله ﴿طفلاً﴾. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلٍ﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد. ﴿وَلَتَبْلُغُوا﴾ ويفعل ذلك لتبلغوا: ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ فإذا أَرَادَهُ. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عدة وتجشم كلفة، والفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق من حيث أنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضَرِّفُونَ﴾ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهِ وَتَكْرِيمِ ذِمِّ الْمَجَادِلَةِ لَتَعْدِدِ الْمَجَادِلَ، أَوِ الْمَجَادِلَ فِيهِ أَوِ لِلتَّأْكِيدِ.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية. ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب أو الوحي والشرائع. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاء تكذيبهم.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ظرف لـ ﴿يعلمون﴾ إذ المعنى على الاستقبال، والتعبير بلفظ الماضي لتيقنه. ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿يُسْحَبُونَ﴾. ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ والعائد محذوف أي يسحبون بها، وهو على الأول حال. وقرئ «والسلاسل يسحبون» بالنصب وفتح الباء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الإسمية، «والسلاسل» بالجر حملاً على المعنى «إذ الإغلال في أعناقهم» بمعنى أعناقهم في الأغلال، أو إضماراً للباء وبدل عليه القراءة به. ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود، ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب أي ملئ. والمراد أنهم يعذبون بأنواع من العذاب وينقلون من بعضها إلى بعض.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ «مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا» غابوا عنا وذلك قبل أن تقرر بهم آلهتهم، أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم. ﴿بَلْ لَمْ تَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي بل تبين لنا لم نكن



نعبد شيئاً فإندهم فأنهم لفسوا شئناً فعد به كقولك : حسبته شئناً فلم فكن . ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الضلال .  
﴿ فُضِّلَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ حتى لا فهدوا إلى شئ فنفعمهم في الآخرة ، أو فضلهم عن آلهتهم حتى لو تطالبوا لم ففصادفوا .

﴿ ذَلِكُمْ فَمَا كُنْتُمْ فَنَفْرُحُونَ فِي الْأَرْضِ فَبَعِيرَ الْحَقِّ وَفَمَا كُنْتُمْ فَنَفْرُحُونَ ﴾ (75) أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ فَخَلِدِينَ فِيهَا فَنُفْسُ الْمُتَكَبِّرِينَ (76) فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ فَمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ فَنُفْسُكَ فَإِنَّا فَنُفْسُكَ (77) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِّنْهُمْ مَّن فَنَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ فَنَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَتُرِيدُكُمْ ءَايَتِهِ فَآيَ ءَايَتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) أَفَلَمْ فَنَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ (82) فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ فَنَسْتَبِرُوا (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَاسًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِّمْ وَكَفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ فَنُفْسُكَ (84) فَلَمْ يَكُ فَنَفْعُهُمْ فَنُفْسُكَ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سَلَّمَ اللَّهُ إِلَيْنَا فَنَدَخَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)﴾

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الإضلال . ﴿ فَمَا كُنْتُمْ فَنَفْرُحُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ففطرون وففكبرون . ﴿ فَبَعِيرَ الْحَقِّ ﴾ وهو الشر وكالطغيان . ﴿ وَفَمَا كُنْتُمْ فَنَفْرُحُونَ ﴾ ففوسعون في الفرح ، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في الفربفخ .

﴿ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم . ﴿ فَخَلِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين فخلود . ﴿ فَنُفْسُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الحق جهنم ، وكان مقضى النظم ففس مدخل الففكبفرين ولكن لما كان الدخول المقفد بالخلود بسبب الفواء عبر بالفموى .

﴿ فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ بهلاك الكاففرين . ﴿ حَقَّ ﴾ كائن لا محالة . ﴿ فَمَا تُرِيدُكَ ﴾ فإن فرك ، وما مزفدة لفأكفد الشرطية ولذلك لفقت النون الفعل ولا فلفق مع أن وفدها . ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القفل والأسر . ﴿ أَوْ فَنُفْسُكَ ﴾ قبل أن فراه . ﴿ فَإِنَّا فَنُفْسُكَ ﴾ ففوم الففامة ففنجازفهم بأعمالهم ، وهو جواب ﴿ فَنُفْسُكَ ﴾ ، وجواب ﴿ فَنُفْسُكَ ﴾ محذوف مثل فذاك ، وففوز أن فكون جواباً لهما فمعنى إن فعذبهم في ففائلك أو لم فعذبهم فإننا فعذبهم في الآخرة أشد العذاب ، وفدل على شدته الفافقصار بذكر الفرجوع في هذا المعرض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِّنْهُمْ مَّن فَنَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ فَنَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ إذ قبل عدد الأنفباء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، والمذكور قصصهم أشخاص معدودة . ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فإن المعجزات عطايا قسمها ففبنهم على ما افقضته حكفته كسائر القسم ، ففس لهم افقفر في ففشار بعضها والاسفداد بفافان المقترح بها . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا أو الآخرة . ﴿ فُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ ففانجاء المحق وفعذفب المبطل . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ المعاندون باقترح الآفات بعد ظهور ما ففغفبنهم عنها .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فإن من فجنسها ما فؤكل كالغنم ومنها ما فؤكل وفركب كالإبل والفقر .

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار. ﴿وَلِتَبْتَغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البر. ﴿وَعَلَى الْفَلَكِ﴾ في البحر. ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال ﴿وَعَلَى الْفَلَكِ﴾ ولم يقل في الفلك للمزاوجة، وتغيير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة. وقيل لأنه يقصد به التعيش وهو من الضروريات والتلذذ والركوب والمسافرة عليها قد تكون لأغراض دينية واجبة أو مندوبة، أو للفرق بين العين والمنفعة.

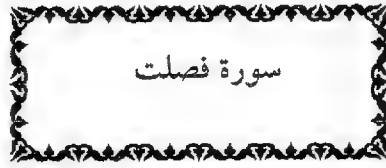
﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلالة الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته. ﴿فَآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي فأي آية من تلك الآيات. ﴿تُنْكِرُونَ﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار، وهو ناصب «أي» إذا لو قدرته متعلقاً بضميره كان الأولى رفعه والتفرقة بالتاء في أي أغرب منها في الأسماء غير الصفات لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوهما، وقيل أثار أقدامهم في الأرض لعظم أجرامهم. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما» الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات. ﴿فَرَحُّوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ واستحقروا علم الرسل، والمراد بالعلم عقائدهم الزائفة وشبههم الداحضة كقوله: ﴿بَلْ أَدَارِكُهُم فِي الْآخِرَةِ﴾ وهو قولهم: لا نبعث ولا نعذب، وما أظن الساعة قائمة ونحوها، وسماها علماً على زعمهم تهكماً بهم، أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو علم الأنبياء، وفرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقيل الفرح أيضاً للرسول فإنهم لما رأوا تمادي جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعَنَا بِمَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعنون الأصنام.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قال: ﴿لَمْ يَكُ﴾ بمعنى لم يصح ولم يستقم، والفاء الأولى لأن قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ كالنتيجة لقوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، والثانية لأن قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ والباقيتان لأن رؤية البأس مسببة عن مجيء الرسل وامتناع نفي الإيمان مسبب عن الرؤية. ﴿سُئِلَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد وهي من المصادر المؤكدة. ﴿وَحَسِيرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس، اسم مكان استعير للزمان. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له».



[مكية وآياتها ثلاث أو أربع وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَاتُكُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُوكَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءُتَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رُءُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)﴾

﴿حَمْدٌ﴾ إن جعلته مبتدأ فخبره .

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن جعلته تعديداً للحروف فـ ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ لتخصيصه بالصفة وخبره :

﴿كِتَابٌ﴾ وهو على الأولين بدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف، ولعل افتتاح هذه السور السبع بـ ﴿حَمْدٌ﴾ وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى، وإضافة الـ ﴿تَنْزِيلٌ﴾ إلى ﴿الرحمن الرحيم﴾ للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية . ﴿فُصِّلْتُ آيَاتُهُ﴾ ميزت باعتبار اللفظ والمعنى . وقرئـ ﴿فُصِّلْتُ﴾ أي فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني، أو فصلت بين الحق والباطل . ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح أو الحال من ﴿فُصِّلْتُ﴾، وفيه امتنان بسهولة قراءاته وفهمه . ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يعلمون العربية أو لأهل العلم والنظر، وهو صفة أخرى لـ ﴿قُرْءَانًا﴾ أو صلة لـ ﴿تَنْزِيلٌ﴾، أو لـ ﴿فُصِّلْتُ﴾، والأول أولى لوقوعه بين الصفات .

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعالمين به والمخالفين له، وقرنا بالرفع على الصفة للـ ﴿كِتَابٌ﴾ أو الخبر لمحذوف . ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله . ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تأمل وطاعة .

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان . ﴿مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم، وأصله الثقل، وقرئ بالكسر . ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يمنعنا عن التواصل، ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ . وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك ما يدعوهم إليه واعتقادهم ومج أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ . ﴿فَأَعْمَلُوا﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا . ﴿إِنَّمَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبؤ عنه العقول والاسماع، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستقيموا في أفعالكم متوجهين إليه، أو فاستووا إليه بالتوحيد والإخلاص في العمل. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل، ثم هددهم على ذلك فقال. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لبخلهم وعدم اشفاقهم على الخلق، وذلك من أعظم الرذائل، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. وقيل معناه لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإيمان والطاعة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. ﴿غَيْرُ مَنُونٍ﴾ لا يمن به عليهم من المن وأصله النقل، أو لا يقطع من مننت الحبل إذا قطعت. وقيل نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصلح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُؤُنَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدار يومين، أو نوبتين وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون. ولعل المراد من ﴿الأرض﴾ ما في جهة السفلى من الأجرام البسيطة ومن خلقها ﴿في يومين﴾ أنه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً، وكفرهم به لإحادهم في ذاته وصفاته. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً﴾ ولا يصح أن يكون له ند. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ﴿خلق الأرض في يومين﴾. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع ما وجد من الممكنات ومربها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي﴾ استئناف غير معطوف على ﴿خلق﴾ للفصل بما هو خارج عن الصلة. ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ مرتفعة عليها ليظهر للنظار ما فيها من وجوه الاستبصار وتكون منافعها معرضة للطلاب. ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها بأن خلق فيها أنواع النبات والحيوان. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا﴾ أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به، أو أقواتاً تنشأ منها بأن خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها، وقرىء ﴿وقسم فيها أقواتها﴾. ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تمة أربعة أيام كقولك: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً. ولعله قال ذلك ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين. والتصريح على الفذلكة. ﴿سَوَاءً﴾ أي استوت سواء بمعنى استواء، والجملة صفة أيام ويدل عليه قراءة يعقوب بالجر. وقيل حال من الضمير في أقواتها أو في فيها، وقرىء بالرفع على هي سواء. ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، أو بقدر أي قدر فيها الأقوات للسائلين لها.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي على غيره، والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخلقين لا للتراخي في المدة لقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ودحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها. ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أمر ظلماني، ولعله أراد به مادتها أو الأجزاء المتصغرة التي كتب منها ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وأبرز ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة. أو ﴿ائْتِيَا﴾ في الوجود على أن الخلق السابق بمعنى التقدير أو الترتيب للرتبة، أو الإخبار أو إتيان السماء حدوثها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة، وقد عرفت ما فيه أو لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما ويؤيده قراءة ﴿آتِيَا﴾ في المؤاتاة أي لتوافق كل واحدة أختها فيما أردت منكما. ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ شتتا ذلك أو أبيتما والمراد إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده لا إثبات الطوع والكراهة لهما، وهما مصدران وقعا موقع الحال. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ متقادين

بالذات، والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما بالذات عنها، وتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وما قيل من أنه تعالى خاطبهما وأقدرهما على الجواب إنما يتصور على الوجه الأول والأخير، وإنما قال طائعين على المعنى باعتبار كونهما مخاطبتين كقوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾.

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14) فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَكَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ لَهُمْ وَلَا يُمْسِرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا فِي الشُّكِّ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شِهَادٌ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ يَمَا كَانُوا يَصْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِمَ يُجْزَاؤُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيْهَ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22)﴾

﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن، والضمير لـ ﴿السَّمَاءِ﴾ على المعنى أو مبهم، و ﴿سبع سموات﴾ حال على الأول وتمييز على الثاني. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قيل خلق السموات يوم الخميس والشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ شأنها وما يتأتى منها بأن حملها عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيها. ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ فإن الكواكب كلها ترى كأنها تتلألأ عليها. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترفة حفظاً. وقيل مفعول له على المعنى كأنه قال: وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ البالغ في القدرة والعلم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان. ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة. ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقرئ «صعقة مثل صعقة عاد وثمود» وهي المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ﴾ حال من ﴿صَاعِقَةِ عَادٍ﴾، ولا يجوز جعله صفة لـ ﴿صَاعِقَةٍ﴾ أو ظرفاً لـ ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾ لفساد المعنى. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أتوهم من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة، أو من جهة الزمن الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة، وكل من اللفظين يحتملها، أو من قبلهم ومن بعدهم إذ قد بلغت خبر المتقدمين وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا أو أي لا تعبدوا. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا إِسْأَلُ الرِّسْلِ﴾. ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ برسالته. ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم. ﴿كَافِرُونَ﴾ إذ أنتم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا.

﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فتعظموها فيها على أهلها من غير استحقاق. ﴿وَقَالُوا مَنْ

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتراراً بقوتهم وشوكتهم. قيل كان من قوتهم أن الرجل منهم ينزع الصخرة فيقتلعها بيده. ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة فإنه قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى، قوي على ما لا يقدر عليه أحد غيره. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعرفون أنها حق وينكرونها وهو عطف على ﴿فاستكبروا﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة تهلك بشدة بردها من الصر وهو البرد الذي يصير أي يجمع، أو شديدة الصوت في هبوبها من الصرير. ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ جمع نحسة من نحس نحساً نقيص سعد سعاداً، وقرأ الحجازيان والبصريان بالسكون على التخفيف أو النعت على فعل، أو الوصف بالمصدر قيل كان آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء. ﴿لِنُلَذِّقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف الـ ﴿عذاب﴾ إلى ﴿الخيي﴾ وهو الذل على قصد وصفة به لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو في الأصل صفة المعذب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة. ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل، وقرئ ﴿ثَمُودُ﴾ بالنصب بفعل مضمر يفسره ما بعده ومنوناً في الحالين وبضم الثاء. ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا الضلالة على الهدى. ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ صاعقة من السماء فأهلكتهم، وإضافتها إلى ﴿العذاب﴾ ووصفه بـ ﴿الهون﴾ للمبالغة. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ وقرئ ﴿يُحْشَرُ﴾ على البناء للفاعل وهو الله عز وجل. وقرأ نافع ﴿نُحْشَرُ﴾ بالنون مفتوحة وضم الشين ونصب ﴿أعداء﴾. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم لثلاثا ينفروا وهو عبارة عن كثرة أهل النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ إذا حضروها و ﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأن ينطقها الله تعالى، أو يظهر عليها أثراً تدل على ما اقترف بها فتتطرق بلسان الحال.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُنَا لَمَّ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ سؤال توبيخ أو تعجب، ولعل المراد به نفس التعجب. ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، أو ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل حي، ولو أول الجواب والنطق بدلالة الحال بقي الشيء عاماً في الموجودات الممكنة. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن يكون تمام كلام الجلود وأن يكون استثناءً.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعِيرُونَ﴾ تَسْتَعِيرُونَ أَنْ يَشْهَدَ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضاحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم بها فما استترتم عنها. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أنه لا يمر عليه حال إلا وهو عليه رقيب. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ فَاصَبَحْتُمْ مِنَ الْمُنْصَرِفِينَ﴾ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (24) وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُمْ فَرَسَوْا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ

فَإِمْرٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ (25) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (26) فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَأْمُرُونَ بِأَعْيُنِنَا يُجْعَدُونَ (28) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِنَعْمَلَهُمْ مِثْلَ مَا أَقْدَمْنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْآسَفِينَ (29) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (31) نَزَّلْنَا مِنْ عَقُورِ رَحِمٍ (32) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُوْرٌ حَظٌّ عَظِيمٌ (35)﴾

﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا، وهو مبتدأ وقوله: ﴿ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾ خبران له ويجوز أن يكون ﴿ظَنُّكُمْ﴾ بدلاً و ﴿أرداكم﴾ خبراً. ﴿فَأَضْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صار ما منحوا للاستعداد به في الدارين سبباً لشقاء المنزلين.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ لا خلاص لهم عنها. ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ يسألوا العتبي وهي الرجوع إلى ما يحبون. ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى حكاية ﴿أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ﴾ وقرئ ﴿وَأَنْ يَسْتَعْبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾، أي إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات الممكنة.

﴿وَقَبِضْنَا﴾ وقدرنا. ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة. ﴿فَزَنَاءٌ﴾ أخذانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القبض على البيض وهو القشر. وقيل أصل القبض البدل ومنه المقايضة لمعاوضة. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة وإنكاره. ﴿وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب. ﴿فِي أَمْرٍ﴾ في جملة أمم كقول الشاعر:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّيِّعَةِ مَا فُوكَا فِيفِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا

وهو حال من الضمير المجرور. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير ﴿لَهُمْ﴾ ولد ﴿أَمْرٍ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وعارضوه بالخرافات أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشه على القاريء، وقرئ بضم الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغي ولغا يلغو إذا هذى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تغلبونه على قراءته.

﴿فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المراد بهم هؤلاء القاتلون، أو عامة الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سيئات أعمالهم وقد سبق مثله.

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى الأسوأ. ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره. ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للـ ﴿جَزَاءِ﴾ أو خبر محذوف. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار. ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ فإنها دار إقامتهم، وهو كقولك: في هذه الدار دار سرور،

وتعني بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة. «جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» ينكرون الحق أو يلغون، وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ» يعني شيطاني النوعين الحاملين على الضلالة والعصيان. وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والسوسي «أَرْنَا» بالتخفيف كفخذ في فخذ، وقرأ الدوري باختلاس كسرة الراء. «نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا» ندوسهما انتقاماً منهما، وقيل نجعلهما في الدرك الأسفل. «لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» مكاناً أو ذلاً.

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ» اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته. «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» في العمل و «ثُمَّ» لتراخيه عن الإقرار في الرتبة من حيث أنه مبدأ الاستقامة، أو لأنها عسر قلما تتبع الإقرار، وما روي عن الخلفاء الراشدين في معنى الاستقامة من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض فجزئياتها. «تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ» فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن، أو عند الموت أو الخروج من القبر. «أَلَّا تَخَافُوا» ما تقدمون عليه. «وَلَا تَخْزَوْنَ» على ما خلفتم وأن مصدرية أو مخففة مقدرة بالباء أو مفسرة. «وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» في الدنيا على لسان الرسل.

«نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُلِّ آلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة. «وَفِي الْآخِرَةِ» بالشفاعة والكرامة حيثما يتعادي الكفرة وقرناؤهم. «وَلَكُمْ فِيهَا» في الآخرة «مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ» من اللذائذ «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ» ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من الأول.

«تَزُولُ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ» حال من ما تدعون للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزول للضيف.

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ» إلى عبادته. «وَعَمِلَ صَالِحًا» فيما بينه وبين ربه. «وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» تفاخراً به واتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم: هذا قول فلان لمذهبه. والآية عامة لمن استجمع تلك الصفات. وقيل نزلت في النبي ﷺ وقيل في المؤمنين.

«وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» في الجزاء وحسن العاقبة و «لَا» الثانية مزيدة لتأكيد النفي. «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» ادفع السيئة حيث اعترضتك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنه على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً، أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، وإنما أخرجه مخرج الاستئناف على أنه جواب من قال: كيف أصنع؟ للمبالغة ولذلك وضع «أحسن» موضع الحسنه. «فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» أي إذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق.

«وَمَا يُلْقَاهَا» وما يلقي هذه السجية وهي مقابلته الإساءة بالإحسان. «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا» فإنها تحبس النفس عن الانتقام. «وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُورٌ عَظِيمٌ» من الخير وكمال النفس وقيل الحظ الجنة.

«وَأَمَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (36) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِنَّ الَّذِينَ



يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ  
(40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ  
حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ  
قُرْءَانًا نَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَتَجِئُ وَعَرِيفٌ لِّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ فِي  
آذَانِهِمْ وَقُرْءَانُهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يَنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاسْتَخْلَفَ فِيهِ  
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) ﴿

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ نخس شبه به وسوسته لأنها تبعث الإنسان على ما لا ينبغي كالدفيع بما هو أسوأ، وجعل النزغ نازغاً على طريقة جديدة، أو أريد به نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره ولا تطعه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيتك أو بصلاحك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنهما مخلوقان مأموران مثلكم. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير للأربعة المذكورة، والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار. ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِثْبَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود أخص العبادات وهو موضع السجود عندنا لا قتران الأمر به، وعند أبي حنيفة آخر الآية الأخرى لأنه تمام المعنى.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامتثال. ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي دائماً لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي لا يملون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تزخرفت وانتفخت بالنبات، وقرئ «ربأت» أي زادت. ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها. ﴿لَمُخْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة. ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ بالظعن والتحريف والتأويل الباطل والإلغاء فيها. ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ فنجازيهم على إلحادهم. ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في إحماد حال المؤمنين. ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ تهديد شديد. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد بالمجازاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أو مستأنف وخبر ﴿إِنْ﴾ محذوف مثل معاندون أو هالكون، أو ﴿أُولَئِكَ ينادون﴾ و «الذكر» القرآن. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ كثير النفع عديم النظير أو منيع لا يتأتى إبطاله وتحريفه.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات أو مما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية. ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ﴾ أي حكيم. ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمه.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك. ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلا مثل ما قال لهم كفار قومهم، ويجوز أن يكون المعنى ما يقول الله لك إلا مثل ما قال لهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائه. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، وهو على الثاني يحتمل أن يكون المقول بمعنى أن حاصل ما أوحى إليك وإليهم، وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم: هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير «للمذكر». ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ بينت بلسان نفيه. ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أكلام أعجمي ومخاطب عربي إنكار مقرر للتخصيص، والأعجمي يقال للذي لا يفهم كلامه. وهذا قراءة أبي بكر وحزمة والكسائي، وقرأ قالون وأبو عمرو بالمد والتسهيل وورش بالمد وإبدال الثانية ألفاً، وابن كثير وابن ذكوان وحفص بغير المد بتسهيل الثانية وقرئ «أعجمي» وهو منسوب إلى العجم، وقرأ هشام «أعجمي» على الإخبار، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب، والمقصود إبطال مقترحهم باستلزامه المحذور، أو للدلالة على أنهم لا ينفكون عن التعنت في الآيات كيف جاءت. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ إلى الحق. ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور في الشك والشبه. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره. ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقُفٌّ﴾ على تقدير هو في «آذانهم وقر» لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه وتعاميهم عما يريهم من الآيات، ومن جوز العطف على عاملين مختلفين عطف ذلك على «لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى». ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي صم، وهو تمثيل لهم في عدم قبولهم الحق واستماعهم له بمن يصاح به من مسافة بعيدة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختلف في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ، أو تقدير الآجال. ﴿لَقَضَيْنَا بِهِمْ﴾ باستئصال المكذبين. ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وإن اليهود أو «الذين لا يؤمنون». ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ من التوراة أو القرآن. ﴿مُرِيبٌ﴾ موجب للاضطراب.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ﴾ (46) ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ السَّاعَةَ وَمَا تَرَجُّعُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَسَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (47) ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَافِظٍ﴾ (48) ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (49) ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ فَأَنِمْهُ وَلَكِنْ رُحِصْتُ إِلَيَّ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَتَاتَيْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَمَّا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (50) ﴿وَإِذَا أُنْعَمَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (51) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (52) ﴿سَأُريَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (53) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ﴾ (54)

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه. ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضره. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ﴾ فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله.

﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ السَّاعَةَ﴾ أي إذا سئل عنها إذ لا يعلمها إلا هو. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها جمع كم بالكسر. وقرأ نافع وابن عامر وحفص «من ثمرات» بالجمع لاختلاف الأنواع، وقرئ بجمع الضمير أيضاً و «ما» نافية و «من» الأولى مزيدة للاستغراق، ويحتمل أن تكون موصولة معطوفة على «الساعة» و «من» مينة بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾ بمكان. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا مقروناً بعلمه واقعاً حسب تعلقه به. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَتَيْنَ شُرَكَاءَ﴾ بزعمكم. ﴿قَالُوا أَذْنَاكَ﴾ أعلمناك. ﴿مَا مِتْنَا مِنْ شَهِيدٍ﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا عنهم لما عاينا الحال فيكون السؤال عنهم للتوبيخ، أو من

أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنا. وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من يشهد لهم بأنهم كانوا محقين. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لا ينفعهم أو لا يرونه. ﴿وَوَظَنُوا﴾ وأيقنوا. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ مهرب والظن معلق عنه بحرف النفي.

﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ﴾ لا يمل. ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في النعمة، وقرئ «من دعاء بالخير». ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ الضَّيْقَةُ﴾. ﴿فَيُؤَسِّسُ قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته وهذا صفة الكافر لقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ وقد بولغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس.

﴿وَلَيْتَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ حقي أستحقه لمالي من الفضل والعمل، أولي دائماً لا يزول. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ تقوم. ﴿وَلَيْتَ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسْنَى﴾ أي ولئن قامت على التوهم كان لي عند الله الحالة الحسنى من الكرامة، وذلك لا اعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاق لا ينك عنه. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلنخبرهم. ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بحقيقة أعمالهم ولنصبرهم عكس ما اعتقدوا فيها. ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التقصّي عنه.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر. ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ وانحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكلية تكبراً، والجانب مجاز عن النفس كالجنب في قوله: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ قَدَّوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير مستعار مما له عرض متسع للاشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي القرآن. ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ من غير نظر واتباع دليل. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضل منكم، فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ يعني ما أخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام به من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة. ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة. ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول أو التوحيد أو الله ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم يكف ربك، والفاء مزيدة للتأكيد كأنه قيل: أو لم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزداد في الفاعل إلا مع كفى. ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، والمعنى أو لم يكفك أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة، أو مطلع فيعلم حالك وحالهم، أو لم يكف الإنسان رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك، وقرئ بالضم وهو لغة كخفية وخفية. ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء. ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة فصلت أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات».

## سورة حم عسق

[مكية وهي ثلاث وخمسون آية وتسمى سورة «الشورى»]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ (1) عَسَقَ (2) كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَلِنُذِيرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) وَمَا أَخْلَقْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)﴾

﴿حَمْدٌ﴾. ﴿عَسَقَ﴾ لعله اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين، وإن كانا اسماً واحداً فالفصل ليطابق سائر الحواميم، وقرئ «حم سق».

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من المعاني، أو إحياء مثل إحيائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إحياء مثله عادته، وقرأ ابن كثير ﴿يُوحَىٰ﴾ بالفتح على أن كذلك مبتدأ و﴿يُوحَىٰ﴾ خبره المسند إلى ضميره، أو مصدر و﴿يُوحَىٰ﴾ مسند إلى إليك، و﴿اللَّهُ﴾ مرتفع بما دل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾، و﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان له مقررتان لعلو شأن الموحى به كما مر في السورة السابقة، أو بالابتداء كما في قراءة «نوحى» بالنون و﴿العزیز﴾ وما بعده أخبار أو ﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان. وقوله:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ خبران له وعلى الوجه الآخر استئناف مقرر لعزته وحكمته.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ يتشققن من عظمة الله، وقيل من ادعاء الولد له. وقرأ البصريان وأبو بكر «ينفطرن» بالنون والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر، وقرئ «تفتطرن» بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر. ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي يتبدى الانفطار من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها على الأول لأن أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه من تلك الجهة، وعلى الثاني ليدل على الانفطار من تحتها بالطريق الأولى. وقيل الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد

الأسباب المقربة إلى الطاعة، وذلك في الجملة يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد، وحيث خص بالمؤمنين فالمراد به الشفاعة. ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وهو ذو حظ من رحمته، والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته وعلى الثاني دلالة على تقدسه عما نسب إليه، وإن عدم معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء باستغفار الملائكة وفرط غفران الله ورحمته.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ شركاء وأنداداً. ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّد.﴾ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ بموكل بهم أو بموكل إليك أمرهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارة إلى مصدر ﴿يوحي﴾ أو إلى معنى الآية المتقدمة، فإنه مكرر في القرآن في مواضع جمة فتكون الكاف مفعولاً به و ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال منه. ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أهل أم القرى وهي مكة شرفها الله تعالى. ﴿ومن حولها﴾ من العرب. ﴿وتنذرهم يوم الجمع﴾ يوم القيامة يجمع فيه الخلائق أو الأرواح أو الأشباح، أو العمال والأعمال وحذف ثاني مفعولي الأول وأول مفعولي الثاني للتحويل وإيهام التعميم، وقرئ «لننذر» بالياء والفعل «للقرآن». ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب. ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف يجمعون أولاً ثم يفرقون، والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه، وقرئنا منصوبين على الحال منهم أي وتنذر يوم جمعهم متفرقين بمعنى مشارفين للفرق، أو متفرقين في داري الثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين. ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والحمل على الطاعة. ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي يدعهم بغير ولي ولا نصير في عذابه، ولعل تغيير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا. ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالأصنام. ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب لشرط محذوف مثل إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقة بالولاية.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم والكفار. ﴿فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين. ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ مفوض إليه يميز المحق من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة. وقيل ﴿وما اختلفتم فيه﴾ من تأويل متشابهة فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع الأمور. ﴿وَالِيهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع في المعضلات.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَيْسَ كَيْدُ اللَّهِ شَرٌّ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)﴾ ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةُ سُبْحَتٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٍ (14) فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تُنِيعَ أَهْوَاءُهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ

يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَالْإِلَهِ الْمَصِيرُ (15) وَالَّذِينَ يَخْاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوعٌ مُدْجِجَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ رَزَقُكَ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) ﴿

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر آخر لـ ﴿ذلكم﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ وقرئ بالجر على البذل من الضمير أو الوصف لإلى الله. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم. ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء. ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وأنثاً. ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ يكثركم من الذرة وهو البث وفي معناه الذر والذرو والضمير على الأول للناس، و ﴿الأنعام﴾ على تغليب المخاطبين العقلاء. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالد، فإنه كالمنبع للث والتكثير. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله شيء يزوجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاته كما في قولهم: مثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفى عن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى، ونظيره قول رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: أَلَا وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَّاهِرُ لِدَاثِهِ. ومن قال الكاف فيه زائدة لعله عنى أنه يعطى معنى ﴿ليس مثله﴾ غير أنه أكد لما ذكرناه. وقيل «مثله» صفته أي ليس كصفته صفة. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصر.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خزائنها. ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسع ويضيق على وفق مشيئته. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومن بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم المفسر بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله ومحله النصب على البذل من مفعول ﴿شرع﴾، أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب وما ذلك المشروع أو الجبر على البذل من هاء به. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل أما فروع الشرائع مختلفة كما قال. ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ ﴿كَبِيرٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يجتلب إليه والضمير لما تدعوهم أو للدين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإشارة والتوفيق. ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾ يقبل إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني الأمم السالفة. وقيل أهل الكتاب لقوله: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ العلم بأن التفرق ضلال متوعد عليه، أو العلم بمبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بِالْإِمْهَالِ﴾ إلى أجل مسمى هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستتصال المبطلين حين اقترفوا لعظم ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، أو المشركين الذين أوروثوا القرآن من بعد أهل الكتاب. وقرئ «ورثوا» و «ورثوا». ﴿لَقُلِّي شَلِكُ مِنْهُ﴾ من كتابهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حق الإيمان، أو من القرآن. ﴿مُرِيبٌ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة.

﴿فَلَذَلِكَ﴾ فلاجل ذلك التفرق أو الكتاب، أو العلم الذي أوتيته. ﴿فَأَذَعْ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية أو الإتيان لما أوتيت، وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في موضع إلى لإفادة الصلة والتعليل. ﴿وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾ واستقم على الدعوة كما أمرك الله تعالى. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة. ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات، والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالق الكل ومتولي أمره. ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ وكل مجازي بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حجاج بمعنى لا خصومة إذ الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة مجال ولا للخلاف مبدأ سوى العناد. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة. ﴿وَالَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الكل لفصل القضاء، وليس في الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية القتال.

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَابُونَ فِي اللَّهِ﴾ في دينه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَحْيَبَ لَهُ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه، أو من بعد ما استجاب الله لرسوله فأظهر دينه بنصره يوم بدر، أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته واستفتحوها به. ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ زائلة باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بعيداً من الباطل، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والشرع الذي توزن به الحقوق ويسوي بين الناس، أو العدل بأن أنزل الأمر به أو آلة الوزن بأن أوحى بإعدادها. ﴿وَمَا يُذْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانها فاتت الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه أعمالك وتوفى جزاءك، وقيل تذكير القريب لأنه بمعنى ذات قرب، أو لأن الساعة بمعنى البعث.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع اغتيالها لتوقع الثواب. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي الكائن لا محالة. ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها من المرية، أو من مريب الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. ﴿لَقَدْ ضَلَّاهُ بِعِيدٍ﴾ عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات، فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ بر بهم بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرزقه كما يشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّلَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقَرَفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ سُكُورٌ (23) أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْأَبْطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ

عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ (25) وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ لِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنَ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ثوابها شبهه بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة، والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويقال للزرع الحاصل منه. ﴿تَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ فنعطه بالواحد عشراً إلى سبعمئة فما فوقها. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ شيئاً منها على ما قسمنا له. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ بل ألهم شركاء، والهمزة للتقرير والتقريع وشركاؤهم شياطينهم. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ بالتزيين. ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. وقيل شركاؤهم أوثانهم وإضافتها إليهم لأنهم متخذوها شركاء، وإسناد الشرع إليها لأنها سبب ضلالتهم واقتنائهم بما تدبئوا به، أو صور من سنة لهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء، أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة. ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو المشركين وشركائهم. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرئ «أن» بالفتح عطفاً على كلمة «الفصل» أي «ولولا كلمة الفصل» وتقدير عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا، فإن العذاب الأليم غالب في عذاب الآخرة.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ في القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من السيئات. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي وباله لاحق بهم أشفقوا أو لم يشفقوا. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بقاعها وأنزهها. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ما يشتهونه ثابت لهم عند ربهم. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين. ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُسِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ذلك الثواب الذي يبشرهم الله به فحذف الجار ثم العائد، أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي «يبشر» من بشره وقرئ «يبشر» من أبشره. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أتعاطاه من التبليغ والبشارة. ﴿أَجْرًا﴾ نفعاً منكم. ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي تودوني لقرايتي منكم، أو تودوا قرايتي، وقيل الاستثناء منقطع والمعنى: لا أسألكم أجراً قط ولكني أسألكم المودة، و «في القربى» حال منها أي «إلا المودة» ثابتة في ذوي «القربى» متمكنة في أهلها، أو في حق القرابة ومن أجلها كما جاء في الحديث «الحب في الله والبغض في الله». روي: أنها لما نزلت قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم علينا قال: «علي وفاطمة وابناهما». وقيل «القربى» التقرب إلى الله أي إلا أن تودوا الله ورسوله في تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ «إلا مودة في القربى». ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ ومن يكتسب طاعة سيما حب آل رسول الله ﷺ، وقيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومودته لهم. ﴿تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ في الحسنة بمضاعفة الثواب، وقرئ «يزد» أي يزد الله وحسنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب. ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون. ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن. ﴿فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ﴾



يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ ﴿١﴾ استبعاد للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه إنما يجترىء عليه من كان محتوماً على قلبه جاهلاً بربه، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا، وكأنه قال: إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالافتراء عليه. وقيل يختم على قلبك يمسك القرآن أو الوحي عنه، أو يربط عليه بالصبر فلا يشق عليك أذاهم. ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ استئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مفترى لمحقه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه أو بوعده، بمحو باطلهم وإثبات حقه بالقرآن، أو بقضائه الذي لا مرد له، وسقوط الواو من ﴿يَمْنَحُ﴾ في بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَكَبَّلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، والقبول يعدى إلى مفعول ثان بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ والإبانة، وقد عرفت حقيقة التوبة. وعن علي رضي الله تعالى عنه: هي اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلالة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمة، وقرأ الكوفيون غير أبي بكر «ما تفعلون» بالتاء.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي يستجيب الله لهم فحذف اللام كما حذف في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ والمراد إجابة الدعاء أو الإثابة على الطاعة، فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل الدعاء الحمد لله»، أو يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ما سألوا واستحقوا واستوجبوا له بالاستجابة. ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً، أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء وهذا على الغالب، وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية. ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقُدْرٍ بِتَقْدِيرٍ﴾ بما يشاء كما اقتضته مشيئته. ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم خفايا أمرهم وجلایا حالهم فيقدر لهم ما يناسب شأنهم. روي أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت. وقيل في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعوا.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ المطر الذي يغيثهم من الجذب ولذلك خص بالنافع، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿ينزل﴾ بالتشديد. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا قَنَطُوا﴾ أيسوا منه، وقرئ بكسر النون. ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أو الـ ﴿خلق﴾. ﴿مِنْ ذَاتِهِ﴾ من حي على إطلاق اسم المسبب على السبب، أو مما يدب على الأرض وما يكون في أحد الشيتين يصدق أن فيها في الجملة. ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ﴾ أي في أي وقت يشاء. ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكن منه و ﴿إِذَا﴾ كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسبب معاصيكم، والفاء لأن ﴿مَا﴾ شرطية أو متضمنة معناه، ولم يذكرها نافع وابن عامر استغناء بما في الباء من معنى السببية. ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب فلا

يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم فلاسباب آخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوقِعْهُنَّ يَمًا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَهُمْ الْإِثْمَ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَعَلْنَا سَيْبَةَ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)﴾

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال. قالت الخنساء:

وَإِنْ صَخْرًا لَتَسَأَلْتُمُ الْهُدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ وقرئ «الرياح». ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ فيبقين ثوابت على ظهر البحر. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل من وكل همته وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكر في آلائه، أو لكل مؤمن كامل الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

﴿أَوْ يُوقِعْهُنَّ﴾ أو يهلكهن بإرسال الرياح العاصفة المغرقة، والمراد إهلاك أهلها لقوله تعالى: ﴿يَمًا كَسَبُوا﴾ وأصله أو يرسلها فيوقعن لأنه قسيم يسكن فاقترص فيه على المقصود كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلها فيوقق ناساً بذنوبهم وينج ناساً على العفو منهم، وقرئ «ويعفوا» على الاستئناف.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ عطف على علة مقدرة مثل ليستقم منهم ﴿ويعلم﴾، أو على الجزء ونصب نصب الواقع جواباً للأشياء الستة لأنه أيضاً غير واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف، وقرئ بالجزم عطفاً على ﴿يعف﴾ فيكون المعنى ويجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين. ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ محيد من العذاب والجملة معلق عنها الفعل.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تمتعون به مدة حياتكم. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلوص نفعه ودوامه و﴿مَا﴾ الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث أن إيتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. وعن علي رضي الله تعالى عنه: تصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كله فلامه جمع فنزلت.

﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ بَيْنَهُمُ الْإِثْمَ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ﴾ بما بعده عطف على ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو مدح منصوب أو مرفوع، وبناء «يغفرون» على ضميرهم خبراً للدلالة على أنهم الاختصاص بالمغفرة حال الغضب، وقرأ حمزة والكسائي «كبير الإثم».

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى بينهم لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه،

وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور، وهي مصدر كالفتيا بمعنى التشاور. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ على ما جعله الله لهم كراهة التذلل، وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل وهو لا يخالف وصفهم بالغفران، فإنه نبىء عن عجز المغفور والانتصار عن مقاومة الخصم، والحلم عن العاجز محمود وعن المتغلب مذموم لأنه إجراء وإغراء على البغي، ثم عقب وصفهم بالانتصار للمنع عن التعدي.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وسمى الثانية «سيئة» للزدواج، أو لأنها تسوء من تنزل به. ﴿لَمَنْ عَمَّا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين عدوه. ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عدة مبهمة تدل على عظم الموعود. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام.

﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ ظَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرَاتِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45) وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَبَّبْنَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمْأَدُمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ (49) أَوْ بَرُوحَهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ (51) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)﴾

﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ بعد ما ظلم، وقد قرئ به. ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بالمعاقبة والمعاينة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يتدوّنهم بالإضرار ويطلبون ما لا يستحقونه تجبراً عليهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الأذى. ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك منه فحذف كما حذف في قولهم: السمن متوان بدرهم، للعلم به.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ

لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴿حِينَ يَرُونَهُ فذَكَرَ بَلْفَظِ الْمَاضِي تَحْقِيقًا. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هل إلى رجعة إلى الدنيا.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار، ويدل عليه ﴿العذاب﴾. ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ متذللين متقاصرين مما يلحقهم من الذل. ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم إلى النار مع تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر إلى السيف. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب المخلد. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ظرف لـ ﴿خَسِرُوا﴾ والقول في الدنيا، أو لقال أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ تمام كلامهم أو تصديق من الله لهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ لا يرده الله بعدما حكم به و ﴿من﴾ صلة لـ ﴿مرد﴾. وقيل صلة ﴿يأتي﴾ أي من قبل أن يأتي يوم من الله لا يمكن رده. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ مَفْرٍ. ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً أو محاسباً. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت. ﴿وَلِئَا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا﴾ أراد بالإنسان الجنس لقوله: ﴿وَلِئَا تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفران ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها، وهذا وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه. وتصدير الشرطية الأولى بـ ﴿إذا﴾ والثانية بـ ﴿إن﴾ لأن أذقة النعمة محققة من حيث أنها عادة مقتضاة بالذات بخلاف إصابة البلية، وإقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع المضمرة في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله أن يقسم النعمة والبلية كيف يشاء. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من غير لزوم ومجال اعتراض. ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ بدل من ﴿يخلق﴾ بدل البعض، والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين، ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ما يتعلق به مشيئة الله لا مشيئة الإنسان والإناث كذلك، أو لأن الكلام في البلاء والعرب تعدهن بلاء، أو لتطبيب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور، أو لجبر التأخير وتغيير العاطف في الثلث لأنه قسم المشترك بين القسمين، ولم يحتج إليه الرابع لا فصاحة بأنه قسم المشترك بين الأقسام المتقدمة. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يفعل بحكمه واختيار.

﴿وَمَا كَانَ لَبَشَرٍ﴾ وما صح له. ﴿أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلاماً خفياً يدرك لأنه بسرعة تمثيل ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة، وهو ما يعم المشافه به كما روي في حديث المعراج، وما وعد به في حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى في طوى والطور، ولكن عطف قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ عليه يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها. وقيل المراد به الإلهام والإلقاء في الروح أو الوحي المنزل به الملك إلى الرسل فيكون المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل إليه نبياً فيبلغ وحيه كما أمره، وعلى الأول المراد بالرسول الملك الموحى

إلى الرسل، ووحياً بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأن ﴿من وراء حجاب﴾ صفة كلام محذوف والإرسال نوع من الكلام، ويجوز أن يكون وحياً ويرسل مصدرين و ﴿من وراء حجاب﴾ ظرفاً وقعت أحوالاً، وقرأ نافع ﴿أو يرسل﴾ برفع اللام. ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بوسط، وتارة بغير وسط إما عياناً وإما من وراء حجاب.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أوحى إليه، وسماه روحاً لأن القلوب تحيا به، وقيل جبريل والمعنى أرسلناه إليك بالوحي. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي قبل الوحي، وهو دليل على أنه لم يكن متعبداً قبل النبوة بشرع. وقيل المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلا السمع. ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح أو الكتاب أو الإيمان. ﴿نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه. ﴿وَلِإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام، وقرئ ﴿لَتَهْدِي﴾ أي ليهديك الله.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ بدل من الأول. ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائط والتعلقات، وفيه وعد ووعد للمطيعين والمجرمين. عن النبي ﷺ «من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له».

## سورة الزخرف

[مكية وقيل إلا قوله: واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا وآياتها تسع وثمانون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ الْوَالِغَةِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَهَا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا لَإِنْ رَّيْنَا الْمُنْفِلِينَ (14)﴾

﴿حَمْدٌ﴾ و﴿الكتاب المبين﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، وهو من البدائع لتناسب القسم والمقسم عليه كقول أبي تمام: وَكُنَا يَا كَ أَنَّهَا أَغْرِيضُ. ولعل أقسام الله بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، وبالقرآن من حيث أنه معجز مبين لطرق الهدى وما يحتاج إليه في الديانة، أو بين للعرب ما يدل على أنه تعالى صيره كذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

﴿وَإِنَّهُ﴾ عطف على إنا، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر على الاستئناف. ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية، وقرأ أم الكتاب بالكسر. ﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظًا عندنا عن التغير. ﴿لَعَلِّي﴾ رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، أو محكم لا ينسخه غيره. وهما خبران لأن ﴿وَفِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ متعلق بـ ﴿لَعَلِّي﴾ واللام لا تمنعه، أو حال منه و﴿لَدَيْنَا﴾ بدل منه أو حال من ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذوده ونبعده عنكم مجاز من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض، قال طرفة:

اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ

والفاء للعطف على محذوف أي انهملكم فنضرب ﴿عنكم الذكر﴾، و ﴿صفحة﴾ مصدر من غير لفظه فإن تنحية الذكر عنهم أعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين، وأصله أن تولي الشيء صفحة عنقك. وقيل إنه بمعنى الجانب فيكون ظرفاً ويؤيده أنه قرئ ﴿صَفْحًا﴾ بالضم، وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح بمعنى صافحين، والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه. ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأن كنتم، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم،

وقرأ نافع وحزمة والكسائي ﴿إِنْ﴾ بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهاً لهم، وما قبلها دليل الجزاء.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي من القوم المسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى الرسول مخبراً عنهم. ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ وسلف في القرآن قصتهم العجيبة، وفيه وعد للرسول ووعد لهم بمثل ما جرى على الأولين.

﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لعله لازم مقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم، فكانهم قالوا «الله» كما حكى عنهم في مواضع آخر وهو الذي من صفته ما سرد من الصفات، ويجوز أن يكون مقولهم وما بعده استئناف «الذي جعل لكم الأرض مهذاً» فتستقرون فيها وقرىء غير الكوفيون «مهذاً» بالالف.

﴿وَجَعَلْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدار ينفع ولا يضر. ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ مال عنه الماء. وتذكيره لأن البلدة بمعنى البلد والمكان. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإنشار. ﴿تُخْرِجُونَ﴾ تشرون من قبوركم، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي ﴿تُخْرِجُونَ﴾ بفتح التاء وضم الراء.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات. ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره إذ يقال: ركبت الدابة وركبت كفي السفينة، أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال:

﴿لَتَسْتَئْوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي ظهر ما تركبون وجمعه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكروها بقلوبكم معترفين بها حامدين عليها. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه، وأصله وجد قرينته إذ الصعب لا يكون قرينة الضعيف. وقرىء بالتشديد والمعنى واحد. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال «سبحان الذي سخر لنا هذا» إلى قوله:

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، واتصاله بذلك لأن الركوب للتنقل والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله تعالى، أو لأنه مخطر فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه ويستعد للقاء الله تعالى.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (15) أَمْ أَمَّا تَخَذَ مِمَّا يَتْلُو بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بَابَتَيْنِ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ أَنبَأْتَهُمْ صَوتًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21)﴾

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي وقد جعلوا له بعد ذلك الاعتراف من

عباده ولدأ فقالوا الملائكة بنات الله ، ولعله سماه جزأ كما سمي بعضاً لأنه بضعة من الوالد دلالة على استحالته على الواحد الحق في ذاته ، وقرأ أبو بكر ﴿جزأ﴾ بضمين . ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكفران ومن ذلك نسبة الولد إلى الله لأنها من فرط الجهل به والتحقير لشأنه .

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ معنى الهمزة في ﴿أم﴾ للإنكار والتعجب من شأنهم حيث لم يقتنعوا بأن جعلوا له جزأ حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاء أخس مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم ، بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتد غمه به كما قال .

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً إذ الولد لا بد وأن يماثل الوالد . ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهه أسود في الغاية لما يعتريه من الكآبة . ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء قلبه من الكرب ، وفي ذلك دلالات على فساد ما قالوه ، وتعريف البنين بما مر في الذكور ، وقرئ «مسود» و «مسوداً» على أن في ﴿ظل﴾ ضمير المبشر و ﴿وجهه مسود﴾ جملة وقعت خبراً .

﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي أو جعلوا له ، أو اتخذ من يتربى في الزينة يعني البنات . ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ في المجادلة . ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي ، ويجوز أن يكون من مبتدأ محذوف الخبر أي أو من هذا حالة ولده و ﴿في الخصام﴾ متعلق بـ ﴿مبين﴾ ، وإضافة ﴿غير﴾ إليه لا يمنعه لما عرفت . وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ينشأ﴾ أي يربي . وقرئ ﴿ينشأ﴾ و «ينشأ» بمعناه ونظير ذلك أعلاه وعلاه وعلاه بمعنى .

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ كفر آخر تضمنه مقالهم شنع به عليهم ، وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله تعالى أنقصهم رأياً وأخسهم صفياً . وقرئ عبيد وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب «عند» على تمثيل زلفاهم . وقرئ «أنثا» وهو جمع الجمع . ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إنثا ، فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل وتهكم بهم . وقرأ نافع ﴿أشهدوا﴾ بهمزة الاستفهام وهمزة مضمومة بين بين ، و «أشهدوا» بمدة بينهما . ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمُ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة . ﴿وَيُسْتَلُونَ﴾ أي عنها يوم القيامة ، وهو وعيد شديد . وقرئ «سيكتب» و «سكتب» بالياء والنون . و «شهاداتهم» وهي أن الله جزء أو أن له بنات وهن الملائكة ويساءلون من المسألة .

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم فاستدلوا بنفي مشيئته عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حسننها ، وذلك باطل لأن المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منها حسناً كان أو غيره ، ولذلك جهلهم فقال : ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحلون تمحلاً باطلاً ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدى وجوه فسادها وحكى شبهتهم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل ، ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال :

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن أو ادعائهم ينطق على صحة ما قالوه . ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بذلك الكتاب متمسكون .

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِتْنَةً أَنْ يَقُولُوا لَكُمُ الْمَلَائِكَةُ خَيْرٌ مِنْكُمْ إِنْ يَسْمَعُونَ كَلِمَةَ الْعَذَابِ فَأَتَنَّهُمْ فَانْتَصِرُوا (24) قُلْ لَكُمْ أَنْتُمْ عَالِمُونَ (25) وَإِذْ قَالَ



إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30)

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجاهلة، وال «أمة» الطريقة التي تؤم كالراحلة للمرحول إليه، وقرئت بالكسر وهي الحالة التي يكون عليها الأم أي القاصد ومنها الدين.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقدميهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه، وتخصيص المترفين إشعار بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي أتبعون آبائكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم، وهي حكاية أمر ماضٍ أوحى إلى النذير، أو خطاب لرسول الله ﷺ، ويؤيد الأول أنه قرأ ابن عامر وحفص «قال» وقوله: «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» أي وإن كان أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستئصال. «فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» ولا تكثر بتكذيبهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ وإذكر وقت قوله هذا ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل، أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم. «لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» بريء من عبادتكم أو معبودكم، مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث، وقرئ «بريء» و «براء» ككريم وكرام.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن «ما» يعم أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام والأوثان، أو صفة على أن «ما» موصوفة أي إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني. «فَإِنَّهُ سَيِّدِي» سيبتني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراء ما هداني إليه.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو الله كلمة التوحيد. «كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيد، وقرئ «كلمة» و «في عقبه» على التخفيف و «في عاقبه» أي فيمن عقبه. «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» يرجع من أشرك بدعاء من وحد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ هَؤُلَاءَ المعاصرين للرسول ﷺ من قريش وآباءهم بالمد في العمر والنعمة، فاعتروا لذلك وانهمكوا في الشهوات. وقرئ «متعت» بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته في قوله: «وجعلها كلمة باقية» مبالغة في تعبيرهم. «حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ» دعوة التوحيد أو القرآن. «وَرَسُولٌ مُّبِينٌ» ظاهر الرسالة بما له من المعجزات، أو «مبين» للتوحيد بالحجج والآيات.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ لينبهم عن غفلتهم «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ» زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به، فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحققوا الرسول.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (31) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

مَعِيشَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْخَذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرَآً وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (32) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35) وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لِّمَنْ شِطَّانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لِبُصْدٍ وَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ (37) حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُشْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (40) ﴿

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتين مكة والطائف. ﴿عَظِيمٌ﴾ بالجاء والمال كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم، ولم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية.

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم، والمراد بالرحمة النبوة. ﴿تَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خويصة أمرهم في دنياهم، فمن أين لهم أن يدبروا أمر النبوة التي هي أعلى المراتب الإنسانية، وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وأوقعنا بينهم التفاوت في الرزق وغيره. ﴿لِّيَسْخَذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَخِرَآً﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم فيحصل بينهم تآلف وتضام ينتظم بذلك نظام العالم، لا لكمال في الموسع ولا لنقص في المقتر، ثم إنه لا اعتراض لهم علينا في ذلك ولا تصرف فكيف يكون فيما هو أعلى منه. ﴿وَرَحِمَتْ رَبُّكَ﴾ يعني هذه النبوة وما يتبعها. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا والعظيم من رزق منها لا منه.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لولا أن يرغبوا في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبيهم الدنيا فيجتمعوا عليه. ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعد جمع معراج، وقرىء و «معاريج» جمع معراج. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلنون السطوح لحقارة الدنيا، و «لبُيُوتِهِمْ» بدل من «لمن» بدل الاشتمال أو على كقولك: وهبت له ثوباً لقميصه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «وسقفاً» اكتفاء بجمع البيوت، وقرىء «سقفاً» بالتخفيف و «سقوفاً» وهي لغة في سقف. ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ﴾ أي أبواباً وسرراً من فضة.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ وزينة عطف على «سقفاً» أو ذهباً عطف على محل من فضة ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إن هي المخففة واللام هي الفارقة. وقرأ عاصم وحزمة وهشام بخلاف عنه لما بالتشديد بمعنى إلا وأن نافية، وقرىء به مع أن وما «وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» عن الكفر والمعاصي، وفيه دلالة على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا، وإشعار بما لأجله لم يجعل ذلك للمؤمنين حتى يجتمع الناس على الإيمان، وهو أنه تمتع قليل بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة مخل به في الأغلب لما فيه من الآفات قل من يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وإنهماكه في الشهوات، وقرىء «يعيش» بالفتح أي يعم يقال عشى إذا كان في بصره آفة وعشى إذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج، وقرىء «يعشو» على أن «من» موصولة. ﴿نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يوسوسه ويغويه دائماً، وقرأ

يعقوب بالياء على إسناذه إلى ضمير ﴿الرحمن﴾، ومن رفع «يعشو» ينبغي أن يرفع «نقيض».

﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصَّدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الطريق الذي من حقه أن يسبل، وجمع الضميرين للمعنى إذ المراد جنس العاشي والشیطان المقيض له. ﴿وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الضمائر الثلاثة الأول له والباقيان للشیطان.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي العاشي، وقرأ الحجازيان وابن عامر وأبو بكر «جاءنا» أي العاشي والشیطان. ﴿قَالَ﴾ أي العاشي للشیطان. ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد المشرق من المغرب، فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما. ﴿فَيَسَّسَ الْقَرِينُ﴾ أنت.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي ما أنتم عليه من التمني. ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ إذ صح إنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بدل من «اليوم». ﴿أَنكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأن حَقَّكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه، ويجوز أن يسند الفعل إليه بمعنى. ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في أمر صعب معاونتهم في تحمل أعبائه وتقسيمهم لمكابدة عنائه، إذ لكل منكم ما لا تسعه طاقته. وقرئ ﴿أَنكُم﴾ بالكسر وهو يقوي الأول.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ إنكار وتعجب من أن تحمل هو الذي يقدر على هدايتهم بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار عشاهاهم عمى مقروناً بالصمم. كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غيا فزلت. ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عطف على «العمى» باعتبار تغاير الوصفين، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى.

﴿فَإِنَّمَا نَذِيرٌ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (41) أَوْ تُرِيدُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ (45) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْكُمُونَ (47) وَمَا تُرِيدُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (50) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُا آلِيَّ إِلَىٰ مَلِكٍ مِصْرَ وَهَٰذَا لَأَنْتَهُرُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51)﴾

﴿فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم، و «ما» مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ بعذاب في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ تُرِيدُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أو إن أردنا أن نريك ما وعدناهم من العذاب، وقرأ يعقوب برواية رويس أو «نرينك» بإسكان النون وكذا «نذهبن». ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يقوتونها.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات والشرائع، وقرئ «أوحى» على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف لك. ﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه.

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي واسأل أمهم وعلماء دينهم، وقرأ ابن كثير والكسائي

بتخفيف الهمزة. ﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل جاءت في ملة من مللهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس بدع ابتدعه فيكذب ويعادي له، فإنه كان أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد باقتصاصه تسلية رسول الله ﷺ ومناقضة قولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد ليتأملوا فيها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فاجئوا وقت ضحكهم منها، أو استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، والمراد وصف الكل بالكبر كقولك: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض، وكقوله:

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلَّ لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ      مِثْلُ الثُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

أو ﴿إِلَّا﴾ وهي مختصة بنوع من الاعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والطوفان والجراد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجه يرجو رجوعهم.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيتهم وفرط حماقتهم، أو لأنهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحراً. وقرأ ابن عامر بضم الهاء ﴿اذْعُ لَنَا رَبُّكَ﴾ فيكشف عنا العذاب. ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ بعهد عندك من النبوة، أو من أن يستجيب دعوتك، أو أن يكشف العذاب عمن اهتدى، أو ﴿بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ﴾ فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ فاجئوا نكث عهدهم بالاهتداء.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه. ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجتمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهر: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ تحت قصرى أو أمري، أو بين يدي في جناني والواو إما عاطفة لهذه ﴿الأنهار﴾ على الملك و﴿تجري﴾ حال منها. أو واو حال وهذه مبتدأ و﴿الأنهار﴾ صفتها و﴿تجري﴾ خبرها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

﴿أَمَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (52) فَلَوْلَا أَلْفَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكُ مَقَرِّيكَ (53) فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (56) وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُمْ لَكَاُمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُكُ يَوْمًا وَآخِرُ يَوْمٍ هَذَا صِرْطٌ مُّسْتَقِيمٌ (61)﴾

﴿أَمَ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة. ﴿مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرياسة،

من المهانة وهي القلة. ﴿وَلَا يَكَاذُ يَبِينُ﴾ الكلام لما به من الرتبة فكيف يصلح للرسالة، و ﴿أَمْ﴾ إما منقطعة والهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضله، أو متصلة على إقامة المسبب مقام السبب. والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمون أي خير منه.

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي فهلا ألقى عليه مقاليد الملك إن كان صادقاً، إذ كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه وطوقوه بسوار وطوق من ذهب، وأساوره جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساور. وقد قرئ به وقرأ يعقوب وحفص ﴿أسورة﴾ وهي جمع سوار. وقرئ «أساور» جمع ﴿أسورة﴾ و ﴿ألقى عليه أسورة﴾ و «أساور» على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن، أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفة في مطاوعته أو فاستخف أحلامهم. ﴿فَاطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان منقول من أسف إذا اشتد غضبه. ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون به في استحقاق مثل عقابهم، مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم وخادم، وقرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام جمع سليف كرغف ورغيف، أو سالف كصبر جمع صابر أو سلف كخشب. وقرئ «سلفاً» بإبدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أي ثلة قد سلفت. ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ وعظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم فيقال: مثلكم مثل قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه ابن الزبيري لما جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ أو غيره بأن قال النصارى أهل كتاب وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابن الله والملائكة أولى بذلك، أو على قوله تعالى: ﴿وَإِسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُلِنَا﴾ أو أن محمداً يريد أن نعبد كما عبد المسيح. ﴿إِذَا قُومُكَ﴾ في قریش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل. ﴿يَصِيدُونَ﴾ يضجون فرحاً لظنهم أن الرسول ﷺ صار ملزماً به. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالضم من الصدود أي يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل هما لغتان نحو يعكف ويعكف.

﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا أَمْ هُوَ﴾ أي آلهتنا خير عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فلتكن آلهتنا معه، أو آلهتنا الملائكة خير أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أن يعبد ويكون ابن الله آلهتنا أولى بذلك، أو آلهتنا خير أم محمد ﷺ فنعبده وندع آلهتنا. وقرأ الكوفيون «آلهتنا» بتحقيق الهمزتين وألف بعدهما. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة لا لتمييز الحق من الباطل. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شداد الخصومة حراس على اللجاج.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر لبني إسرائيل، وهو كالجواب المزيح لتلك الشبهة.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ لولدنا منكم يا رجال كما ولدنا عيسى من غير أب، أو لجعلنا بدلکم. ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ملائكة يخلقونكم في الأرض، والمعنى أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة فإنه تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك، وأن الملائكة مثلکم من حيث أنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَنَّهُ﴾ وإن عيسى عليه السلام. ﴿لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ﴾ لأن حدوثه أو نزوله من أشراط الساعة يعلم به دنوها، أو لأن أحياء الموتى يدل على قدرة الله تعالى عليه. وقرىء ﴿لَعَلَّمُ﴾ أي لعلامة ولذكر على تسمية ما يذكر به ذكراً، وفي الحديث ينزل عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق ويده حربة يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه الصلاة والسلام ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به. وقيل الضمير للقرآن فإن فيه الإعلام بالساعة والدلالة عليها. ﴿فَلَا تَمُتْرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكن فيها. ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ واتبعوا هداي أو سرعي أو رسولي. وقيل هو قول الرسول ﷺ أمر أن يقوله. ﴿هَذَا﴾ الذي أدعوكم إليه. ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عِدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (62) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَنْبَغِدُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73) إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَرِّقُهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ (76)﴾

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن المتابعة. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عِدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ثابت عداوته بأن أخرجكم عن الجنة وعرضكم للبلى.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشرعة. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق بأمر الدنيا، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا لبيان، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلم بأمر دنياكم». ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغه عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين وهو تتمه كلام عيسى عليه الصلاة والسلام، أو استئناف من الله تعالى يدل على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة. ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث إليهم. ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ﴾ هو القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو «للذين ظلموا». ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من «الساعة» والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافلون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها.

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ الأحياء. ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادون يومئذ لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتخالون له سبباً للعذاب. ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلقتهم لما كانت في الله تبقى نافعة أبد الآباد.

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذ، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وحفص بغير الياء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ صفة المنادي. ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حال من الواو أي الذين آمنوا مخلصين، غير أن هذه العبارة أكد وأبلغ.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمنات. ﴿تُخْبِرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر جواره أي أثره على وجوهكم، أو ترينون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبيرة المبالغة فيما وصف بجميل.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصحف جمع صحيفة، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له. ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ على الأصل. ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته وذلك تعميم بعد تخصيص ما يعد من الزوائد في التمتع والتلذذ. ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الحال.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ ورثتموها، شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه عليه العامل، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة وقعت مبتدأ والجنة خبرها، و ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفتها أو ﴿الجنة﴾ صفة ﴿تلك﴾ و ﴿التي﴾ خبرها أو صفة ﴿الجنة﴾ والخبر ﴿بما كنتم تعملون﴾، وعليه يتعلق الباء بمحذوف لا بـ ﴿أورثتموها﴾.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعضها تأكلون لكثرتها ودوام نوعها، ولعل تفصيل التمتع بالمطاعم والملابس وتكريره في القرآن وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجنة لما كان بهم من الشدة والفاقة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجرام وهم الكفار لأنه جعل قسيم المؤمنين بالآيات، وحكى عنهم ما يخص بالكفار. ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر إن أو خالدون خبر والظرف متعلق به.

﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً والتركيب للضعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من النجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ مر مثله غير مرة وهم فصل.

﴿وَقَادُوا يَمْكُنُ﴾ يَقْضِ عَلَيْهِمْ قَضَاؤُكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ (77) لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُجُونَ (80) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ (81) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرَهُمْ يَبْخُشُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَمَا يَنْهَمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَىٰ رَبِّجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شِئَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلَ لَهُ

يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89) ﴿

﴿وَتَادُوا يَا مَالِكُ﴾ وقرئ «يا مال» على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعله إشعار بأنهم لضعفهم لا يستطيعون تأدية اللفظ بالتمام ولذلك اختصروا فقالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والمعنى سل ربنا أن يقضي علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي بإلاسهم فإنه جوار وتمن للموت من فرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ﴾ لا خلاص لكم بموت ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال، وهو تنمة الجواب إن كان في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله وإلا فجواب منه فكأنه تعالى تولى جوابهم بعد جواب مالك. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لما في اتباعه من إعتاب النفس وآداب الجوارح.

﴿أَمْ أَمْرُؤُا أَمْرًا﴾ في تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته. ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أمراً في مجازاتهم والعدول عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم، أو أم أحكم المشركون أمراً من كيدهم بالرسول ﴿فَإِنَّا مَبْرِمُونَ﴾ كيدنا بهم، ويؤيده قوله:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم بذلك. ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وتناجيهم. ﴿بَلَى﴾ نسمعهما. ﴿وَرُسُلَنَا﴾ والحفظة مع ذلك. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمة لهم. ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ منكم فإن النبي ﷺ يكون أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن تعظيم الوالد تعظيم ولده، ولا يلزم من ذلك صحة كينونة الولد وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ غير أن ﴿لَوْ﴾ ثم مشعرة بانتفاء الطرفين، و﴿إِنْ﴾ ههنا لا تشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشريطة بل الانتفاء معلوم لانتهاء الدال على انتفاء ملزومه، والدلالة على أن إنكاره الولد ليس لعناد ومراء بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به. وقيل معناه إن كان له ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له أو الاتفين منه، أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه، أو ما كان له ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَدٌ﴾ بالضم وسكون اللام.

﴿شَيْخَانِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن كونه ذا ولد فإن هذه الأجسام لكونها أصولاً ذات استمرار تبرات عما يتصف به سائر الأجسام من توليد المثل، فما ظنك بمبدعها وخالقها.

﴿فَذَرُهُمْ يُخَوِّصُوا﴾ في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو دلالة على أن قولهم هذا جهل واتباع هوى، وإنهم مطبوع على قلوبهم معذبون في الآخرة.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ مستحق لأن يعبد فيهما، والظرف متعلق به لأنه بمعنى المعبود أو متضمن معناه كقولك: هو حاتم في البلد، وكذا فيمن قرأ «الله» والراجع مبتدأ محذوف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه، ولا يجوز جعله خبراً له لأنه لا يبقى له عائد لكن لو جعل صلة وقدر الإله مبتدأ محذوف يكون به جملة مبينة للصلة دالة على أن كونه في السماء بمعنى الألوهية دون الاستقرار، وفيه نفي الآلهة السماوية والأرضية واختصاصه باستحقاق الألوهية. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ كالدليل عليه.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها. ﴿وَالَّذِي يُزْجِعُونَ﴾ للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وروح بالتاء على الالتفات للتهديد.



﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله. ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بالتوحيد، والاستثناء متصل إن أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله لاندراج الملائكة والمسيح فيه، ومنفصل إن خص بالأصنام.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾ سألت العابدين أو المعبودين. ﴿لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿وَقِيلَهُ﴾ وقول الرسول ونصبه للعطف على سرهم، أو على محل الساعة أو لإضمام فعله أي وقال ﴿قِيلَهُ﴾. وجره عاصم وحمزة عطفاً على ﴿السَّاعَةِ﴾، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره. ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أو معطوف على ﴿علم الساعة﴾ بتقدير مضاف. وقيل هو قسم منصوب بحذف الجار أو مجرور بإضماره، أو مرفوع بتقدير ﴿وقيله يا رب﴾ قسمي، و ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ جوابه.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم. ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ تسلم منكم ومتاركة. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تسلياً للرسول ﷺ وتهديداً لهم، وقرأ نافع وابن عامر بالتاء على أنه من المأمور بقوله. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾».

## سورة الدخان

[مكية إلا قوله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب﴾ الآية، وهي سبع أو تسع وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)﴾

﴿حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ القرآن والواو للعطف إن كان ﴿حَمِّ﴾ مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ ليلة القدر، أو البراءة ابتداءً فيها إنزاله، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على الرسول ﷺ نجومًا وبركتها لذلك، فإن نزول القرآن سبب للمنافع الدينية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأفضية. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف يبين مقتضى الإنزال وكذلك قوله:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فإن كونها مفرق الأمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة يستدعي أن ينزل فيها القرآن الذي هو من عظامها، ويجوز أن يكون صفة ﴿ليلة مباركة﴾ وما بينهما اعتراض، وهو يدل على أن الليلة ليلة القدر لأنه صفتها لقوله: ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ وقرئ ﴿يفرق﴾ بالتشديد و﴿يفرق﴾ كل أي يفرقه الله، و﴿نفرق﴾ بالثنون.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي أعني بهذا الأمر أمراً حاصلًا من عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو مزيد تفخيم للأمر ويجوز أن يكون حالاً من كل أوامر، أو ضميره المستكن في ﴿حَكِيمٍ﴾ لأنه موصوف، وأن يكون المراد به مقابل النهي وقع مصدرًا لـ ﴿يفرق﴾ أو لفعله مضمرًا من حيث أن الفرق به، أو حالاً من أحد ضميري ﴿أنزلناه﴾ بمعنى أمرين أو مأموراً. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم، وضع الرب موضع الضمير للإشعار بأن الربوبية اقتضت ذلك، فإنه أعظم أنواع التربية أو علة لـ ﴿يفرق﴾ أو ﴿أمرًا﴾، و﴿رحمة﴾ مفعول به أي يفصل فيها كل أمر أو تصدر الأوامر ﴿من عندنا﴾ لأن من شأننا أن نرسل رحمتنا، فإن فصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها وصدور الأوامر الإلهية من باب الرحمة، وقرئ ﴿رحمة﴾ على تلك رحمة. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوال العباد ويعلم أحوالهم، وهو بما بعده تحقيق لربوبيته فإنها لا تحق إلا لمن هذه صفاته.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خبر آخر أو استئناف. وقرأ الكوفيون بالجر بدلاً ﴿من ربك﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم، أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتهم من خلقها؟ فقلتم الله، علمتم أن الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه. ﴿يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ كما تشهدون. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقرئنا بالجر بدلاً ﴿من ربك﴾.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (9) فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَتَى لَهُمُ الدُّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُ الْيَوْمِ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ (16) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ رد لكونهم موقنين.

﴿فَأَرْقَبْ﴾ فانتظر لهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من ضعف بصره، أو لأن الهواء يظلم عام القحط لقلّة الأمطار وكثرة الغبار، أو لأن العرب تسمي الشر الغالب دخاناً وقد قحطوا حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفه عن الأمطار، أو يوم ظهور الدخان المعداد في أشرط الساعة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: أول الآيات الدخان ونزل عيسى عليه السلام، وثار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر. قيل وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال: «يملاً ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» أو يوم القيامة والدخان يحتمل المعنيين.

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم صفة للدخان وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مقدر بقول وقع حالاً و ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وعد بالإيمان إن كشف العذاب عنهم.

﴿أَتَى لَهُمُ الدُّكْرَىٰ﴾ من أين لهم وكيف يتذكرون بهذه الحالة. ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بين لهم ما هو أعظم منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُ الْيَوْمِ﴾ أي قال بعضهم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال آخرون إنه مجنون.

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رفع القحط ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر غيب الكشف، ومن فسر الدخان بما هو من الأشرط قال إذا جاء الدخان غوث الكفار بالدعاء فيكشفه الله عنهم بعد الأربعين، فريشما يكشفه عنهم يرتدون، ومن فسره بما في القيامة أوله بالشرط والتقدير.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يوم القيامة أو يوم بدر ظرف لفعل دل عليه. ﴿إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ لا لمتقمون فإن إن تحجزه عنه، أو بدل من ﴿يوم تأتي﴾. وقرئ ﴿نبطش﴾ أي نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم، أو تحمل الملائكة على بطشهم وهو تناول بصولة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم. وقرئ بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم. ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه ﷺ.

﴿أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ بأن أدوهم إلى وأرسلوا معي، أو بأن أدوا إلي حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مخففة ومفسرة لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ غير متهم لدلالة المعجزات على صدقه، أو لاثمان الله إياه على وحيه وهو علة الأمر.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (19) وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ تَوَلَّوْا لِي فَأَعْرِضُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَآسَرِ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)﴾

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تتكبروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله، و ﴿أَنْ﴾ كالأولى في وجهيهما. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ علة للنهي ولذكر الـ «أمين» مع الأداء، والسلطان مع العلاء شأن لا يخفى. ﴿وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ التجأت إليه وتوكلت عليه. ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني. وقرئ «عت» بالادغام فيه.

﴿وَإِنْ لَمْ تَوَلَّوْا لِي فَأَعْرِضُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا إليّ بسوء فإنه ليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعدما كذبوه. ﴿أَنْ هَؤُلَاءِ﴾ بأن هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سماه دعاء، وقرئ بالكسر على إضمار القول.

﴿فَآسَرِ بَعَادِي لَيْلًا﴾ أي فقال أسر أو قال إن كان الأمر كذلك ﴿فَآسِرْ﴾، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بوصل الهمزة من سري ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم.

﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًا﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضربه بعصاك ولا تغير منه شيئاً ليدخله القبط ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِفُونَ﴾ وقرئ بالفتح بمعنى لأنهم.

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ كثيراً تركوا. ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافل مزينة ومنازل حسنة.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ وتنعم. ﴿كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنَ﴾ متنعمين، وقرئ «فكاهين».

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو الأمر كذلك. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ عطف على المقدر أو على

﴿تَرَكُوا﴾. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيل، وقيل غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ مجاز من عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم كقولهم:

بكت عليهم السماء والأرض وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك. ومنه ما روي في الأخبار: إن المؤمن ليكي عليه مصلاه ومحل عبادته ومصعد عمله ومهبط رزقه. وقيل تقديره فما بكت عليهم أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ مهملين إلى وقت آخر.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَا بِحَبْلِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُبِينِ﴾ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ

عَلَىٰ عِلْمِهِمْ عَلَىٰ الْعَالِيَيْنِ (32) وَآلِئِنَّهُمْ مِنَ الْآلِيَتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَقَائِلُونَ (34) إِنَّ هِيَ إِلَّا

مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْتِ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ يَمِيقُتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42) إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُوفِ (43) طَعَامُ الْآثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَخَلِّ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَأَعْتُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم.

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿العذاب﴾ على حذف المضاف، أو جعله عذاب لإفراطه في التعذيب، أو حال من المهين بمعنى واقعاً من جهته، وقرئ ﴿من فرعون﴾ على الاستفهام تنكير له لنكر ما كان عليه من الشيطنة. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً. ﴿مِنَ الْمُشْرَفِينَ﴾ في العتو والشرارة، وهو خبر ثان أي كان متكبراً مسرفاً، أو حال من الضمير في ﴿عَالِيًا﴾ أي كان رفيع الطبقة من بينهم.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل. ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقاء بذلك، أو مع علم منا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمي زمانهم. ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ نعمة جليلة أو اختبار ظاهر.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حل بهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾ ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزیلة للحياة الدنيوية، ولا قصد فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك. حج زيد الحجة الأولى ومات. وقيل لما قيل إنكم تموتون مائة يعقبها حياة كما تقدم منكم مائة كذلك قالوا إن هي إلا موتتنا الأولى، أي ما الموتة التي من شأنها كذلك إلا الموتة الأولى. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بمنعوتين.

﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين. ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم ليدل عليه.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة. ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ﴾ تبع الحميري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند. وقيل هدمها وكان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك ذمهم دونه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تبع نبياً أم غير نبى». وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل لهم الأقوال لأنهم يتقبلون. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استئناف بمال قوم تبع، ﴿والذين من قبلهم﴾ هدد به كفار قريش أو حال بإضمار قد أو خبر من الموصول إن استؤنف به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بيان للجامع المقتضي للإهلاك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وَمَا بَيْنَ الْجَنَسِينَ وقرئ «وما بينهن». ﴿لَا عِيبَ﴾ لاهين، وهو دليل على صحة الحشر كما مر في الأنبياء وغيرها.

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة، أو البعث والجزاء. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة نظرهم.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ فصل الحق عن الباطل، أو المحق عن المبطل بالجزاء، أو فصل الرجل عن أقاربه وأحبائه. ﴿مِيقَاتِهِمْ﴾ وقت مواعدهم. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وقرئ ﴿مِيقَاتِهِمْ﴾ بالنصب على أنه الاسم أي إن ميعاد جزائهم في ﴿يوم الفصل﴾.

﴿يَوْمٌ لَا يَغْنِي﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ أو صفة لـ ﴿مِيقَاتِهِمْ﴾، أو ظرف لما دل عليه الفصل لآله الفصل. ﴿مَوْلَى﴾ من قرابة أو غيرها. ﴿عَنْ مَوْلَى﴾ أي مولى كان. ﴿شَيْئاً﴾ من الاغناء. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ الضمير لـ ﴿مولى﴾ الأول باعتبار المعنى لأنه عام.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه، ومحلّه الرفع على البدل من الواو والنصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من أراد تعذيبه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

﴿إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ﴾ وقرئ بكسر الشين ومعنى ﴿الزُّقُومِ﴾ سبق في «الصفات».

﴿طَعَامَ الْأَرِيمِ﴾ الكثير الأثام، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو ما يمهل في النار حتى يذوب. وقيل دردي الزيت. ﴿تَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ وقرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء على أن الضمير للـ ﴿طعام﴾، أو ﴿الزُّقُومِ﴾ لا «للمهل» إذ الأظهر أن الجملة حال من أحدهما.

﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ غلياناً مثل غليه.

﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول والمقول له الزبانية. ﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾ فجروه والعتل الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر، وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب بالضم وهما لغتان. ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ زُجِّجْنَهُمْ فِي جُحُورٍ عَيْنٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَاءٍ آمِنَةٍ (55) لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتُ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى وَوَقَدْهُمْ عَذَابُ الْحَمِيمِ (56) فَضَلَّاهُمْ فِي ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كان أصله يصب من فوق رؤوسهم الحميم فقليل يصب من فوق رؤوسهم ﴿عذاب﴾ هو ﴿الحميم﴾ للمبالغة، ثم أضيف الـ ﴿عذاب﴾ إلى ﴿الحميم﴾ للتخفيف وزيد من الدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي وقولوا له ذلك استهزاء به وتفريعا على ما كان يزعمه، وقرأ الكسائي ﴿أَنْتَ﴾ بالفتح أي ذق لأنك أو ﴿عذاب﴾ ﴿أَنْتَ﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ إن هذا. الـ ﴿عذاب﴾. ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون وتمارون فيه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضع إقامة، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن صاحبه عن الآفة والانتقال.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من مقام جيء به للدلالة على نزاهته، واشتماله على ما يستلذ به من المأكّل والمشارب.

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار أو استثناء، والسندس ما رَقَّ من الحرير والاستبرق ما غلظ منه معرب استبره، أو مشتق من البراقة. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض. ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر كذلك أو آتيانهم مثل ذلك. ﴿وَرَزَوْنَاهُمْ بَحُورَ عَيْنٍ﴾ قرناهم بهن ولذلك عدى بالباء، والهوراء البيضاء والعيناء عزيمة العينين، واختلف في أنهن نساء الدنيا أو غيرها.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتخصص شيء منها بمكان ولا بزمان. ﴿آمِنِينَ﴾ من الضرر.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ بل يحيون فيها دائماً، والاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة و ﴿الموت﴾ أول أحوالها، أو الجنة والمؤمن يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها، أو الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي وامتناع ﴿الموت﴾ فكأنه قال: ﴿لا يذوقون فيها الموت﴾ إلا إذا أمكن ذوق الأولى في المستقبل. ﴿وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وقرىء ﴿وَوَقَّاهُمْ﴾ على المبالغة.

﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلاً منه. وقرىء بالرفع أي ذلك فضل. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحل بهم. ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحل بك، عن النبي ﷺ «من قرأ حم الدخان ليلة جمعة أصبح مغفوراً له».

## سورة الجاثية

[مكية وآياتها سبع أو ست وثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَخَلِيفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيَلَّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هَرُوءًا أَوْ لَيْتِكُمْ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ رَبِّائِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَذَا هَدَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)﴾

﴿حَم﴾ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ إن جعلت ﴿حَم﴾ مبتدأ خبره ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ احتجت إلى إضمار مثل ﴿تَنْزِيلِ﴾ ﴿حَم﴾، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تَنْزِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقيل ﴿حَم﴾ مقسم به و ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ صفته وجواب القسم:

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يحتمل أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى إن في خلق السموات لقوله:

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ وَلَا يَحْسُنُ عَطْفُ مَا عَلَى الضمير المجرور بل عطفه على المضاف إليه بأحد الاحتمالين، فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما به يتم معاشه إلى غير ذلك دلائل على وجود الصانع المختار. ﴿آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ محمول على محل إن واسمها، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب حملاً على الاسم.

﴿وَخَلِيفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ من مطر وسماء رزقاً لأنه سببه. ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يسها. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ باختلاف جهاتها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي «وتصريف الرياح». ﴿آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه القراءتان ويلزمهما العطف على عاملين في الابداء، أو أن إلا أن يضم في أو ينصب ﴿آيَاتٍ﴾ على الاختصاص أو يرفع بإضمار هي، ولعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي تلك الآيات دلائله ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال عاملها معنى الإشارة. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبس به أو ملتبسة به. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بعد ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾، وتقديم اسم ﴿اللَّهُ﴾ للمبالغة والتعظيم كما في قولك أعجبني زيد وكرمه أو بعد حديث ﴿اللَّهُ﴾ وهو القرآن كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ و ﴿آيَاتِهِ﴾ دلائله المتلوة أو القرآن، والعطف لتغاير الوصفين. وقرأ الحجازيان وحفص



وأبو عمرو وروح ﴿يؤمنون﴾ بالياء ليوافق ما قبله.

﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب. ﴿أئيم﴾ كثير الآثام.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرِّ﴾ يقيم على كفره. ﴿مُستَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات و ﴿ثم﴾ لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله: يَرَى غَمَرَاتٍ ثُمَّ يَرُورَهَا. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه فحفت وحذف ضمير الشأن والجملة في موضع الحال، أي بصر مثل غير السامع. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره والبشارة على الأصل أو التهكم.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شيء من ﴿آياتنا﴾ وعلم أنه منها. ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزاء، والضمير لـ ﴿آياتنا﴾ وفائدته الإشعار بأنه إذا سمع كلاماً وعلم أنه من الآيات بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على ما سمعه، أو لشيء لأنه بمعنى الآية. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من قدامهم لأنهم متوجهون إليها، أو من خلفهم لأنها بعد آجالهم. ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ ولا يدفع عنهم. ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد. ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله. ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي الأصنام. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

﴿هَذَا هُدًى﴾ الإشارة إلى القرآن ويدل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع ﴿أليم﴾ والـ ﴿رجز﴾ أشد العذاب.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه. ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره وأنتم راكبوها. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ التجارة والغوص والصيد وغيرها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّورَ وَزَفَقْنَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَعَآدَيْنَاهُمْ يَدْيَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ يَنْهَهُمْ إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُجْزِيهِمْ وَمِمَّا نُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21)﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأن خلقها نافعة لكم. ﴿مِنْهُ﴾ حال من ما أي سخر هذه الأشياء كائنه منه، أو خبر لمحذوف أي هي جميعاً منه، أو لـ ﴿ما في السموات﴾ ﴿وسخر لكم﴾ تكرير للتأكيد أو لـ ﴿ما في الأرض﴾، وقرئ منه على المفعول له ومنه على أنه فاعل ﴿سخر﴾ على الإسناد المجازي أو خبر محذوف. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذف المقول لدلالة الجواب عليه، والمعنى قل لهم اغفروا يغفروا أي يغفوا ويصفحوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقعون وقائعه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم، أو لا يأملون

الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها. والآية نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه غفاري فهم أن يبطش به، وقيل إنها منسوخة بآية القتال. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علة للأمر، والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيوخ، والكسب المغفرة أو الإساءة أو ما يعمهما. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «لنجزى» بالنون وقرء «لنجزى» قوم «وليجزي قوماً» أي ليجزي الخير أو الشر أو الجزاء، أعني ما يجزى به لا المصدر فإن الإسناد إليه سيما مع المفعول به ضعيف.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لها ثواب العمل وعليها عقابه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة النظرية والعملية أو فصل الخصومات. ﴿وَالنَّبُوءَ﴾ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم. ﴿وَوَرَزْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله من اللذائذ. ﴿وَفَضَّلْنَاكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

﴿وَأَتَيْنَاهُم بِبَنَاتٍ مِّنَ الْأُمَمِ﴾ أدلة في أمر الدين ويندرج فيها المعجزات. وقيل آيات من أمر النبي عليه الصلاة والسلام مبينة لصدقة. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر. ﴿إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة وحسداً. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمواخاة والمجازاة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمَمِ﴾ من أمر الدين. ﴿فَاتَّبِعِهَا﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجهال التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش قالوا له ارجع إلى دين آبائك.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا عَنْكَ مِثْلَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مما أراد بك. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسية علة الانضمام فلا توالهم باتباع أهوائهم. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فواله بالتقي واتباع الشريعة.

﴿هَذَا﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ بينات تبصرهم وجه الفلاح. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ ولقوم يؤمنون يطلبون اليقين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمة فيها إنكار الحسبان والاجتراح الاكتساب ومنه الجارحة. ﴿أَنْ نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم. ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مثلهم وهو ثاني مفعولي نجعل وقوله: ﴿سَوَاءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل منه إن كان الضمير للموصول الأول لأن المماثلة فيه إذ المعنى انكار أن يكون حياتهم ومماتهم سيئين في البهجة والكرامة كما هو للمؤمنين، ويدل عليه حمزة والكسائي وحفص ﴿سواء﴾ بالنصب على البدل أو الحال من الضمير في الكاف، أو المفعولية والكاف حال وإن كان للثاني فحال منه أو استئناف يبين المقتضى للأنكار، وإن كان لهما فبدل أو حال من الثاني، وضمير الأول والمعنى إنكار أن يستوا بعد الممات في الكرامة أو ترك المواخاة كما استوا في الرزق والصحة في الحياة، أو استئناف مقرر لتساوي محيا كل صنف ومماته في الهدى والضلال، وقرء ﴿مَمَاتُهُمْ﴾ بالنصب على أن محياهم ومماتهم. ﴿ظرفان كمقدم الحاج.﴾ ساء ما يحكمون ساء حكمهم هذا أو بس شيئاً حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (22) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا ثُلُثَ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَىٰ بَعْدِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِنَفْثِ الْمُفْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَطَّقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29)

«وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» كأنه دليل على الحكم السابق من حيث أن خلق ذلك بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المنيء والمحسن وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات. «وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» عطف على بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل «ولتُجْزَى». «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» بنقص ثواب وتضعيف عقاب، وتسمية ذلك ظلماً ولو فعله الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالابتلاء والاختبار.

«أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى فكانه يعبد، وقرئ «آلهة هواه» لأنه كان أحدهم يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه. «وَأَصْلَهُ اللهُ» وخذله. «عَلَى عِلْمٍ» عالماً بضلالة وفساد جوهر روحه. «وَوَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ» فلا يبالي بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات. «وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، وقرأ حمزة والكسائي «غشوة». «فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ» من بعد إضلاله. «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» وقرئ «تذكرون».

«وَقَالُوا مَا هِيَ» ما الحياة أو الحال. «إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» التي نحن فيها. «نَمُوتُ وَنَحْيَا» أي نكون أمواتاً نطفاً وما قبلها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا، أو يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة ويحتمل أنهم أرادوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان. «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» إلا مرور الزمان وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره إذا غلبه. «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» يعني نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال، أو إنكار البعث أو كليهما. «إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» إذ لا دليل لهم عليه وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لما لم يحسوا به.

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ» واضحات الدلالة على ما يخالف معتقدهم أو مبنيات له. «مَا كَانَ خُبْرَهُمْ» ما كان لهم متشبه يعارضونها به. «إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» وإنما سماه حجة على حسبانهم ومسايقهم، أو على أسلوب قولهم. تحية بينهم ضربٌ وجيع فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً.

«قُلِ اللهُ يُخَيِّكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ» على ما دلت عليه الحجج. «ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» فإن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة على ما قرر مراراً، والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها، وإذا كان كذلك أمكن الإتيان بآبائهم لكن الحكمة اقتضت أن يعادوه يوم الجمع للجزاء. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يحسونه.

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» تعميم للقدرة بعد تخصيصها. «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمُفْطِلُونَ» أي ويخسر يوم تقوم و «يومئذ» بدل منه.

«وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ» مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، أو بركة مستوفزة على الركب. وقرئ «جاذية» أي جالسة على أطراف الأصابع لاستيفازهم. «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» صحيفة أعمالها. وقرأ يعقوب «كل» على أنه بدل من الأول وتدعى صفة أو مفعول ثان. «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» محمول على القول.

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم.. ﴿يُنْطَوُّ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ﴾ يشهد عليكم بما علمتم بلا زيادة ولا نقصان. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ نستكتب الملائكة. ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالكم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِيَنِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِي فَاسْتَكْبَرُوا وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (31) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ (32) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا يَوْمَئِذٍ هَذَا وَمَا وَكُنْهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ (34) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمُ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْنَهُمُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36)﴾

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي من جملتها الجنة. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر لخلوصه عن الشوائب.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِيَنِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي فيقال لهم ألم يأتكم رسلي ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾، فحذف القول والمعطوف عليه اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتكم الإجماع.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يحتمل الموعود به والمصدر. ﴿حَقٌّ﴾ كائن هو أو متعلقة لا محالة: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أفراد للمقصود، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن. ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة استغراباً لها. ﴿إِنْ نُنْظَرُ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصله نظن ظناً فأدخل حرفاً النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفي ما عداه كأنه قال: ما نحن نظن ظناً، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة ثم أكد بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ﴾ أي لإمكانه، ولعل ذلك قول بعضهم تحيروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تليت عليهم من الآيات في أمر الساعة.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهر لهم. ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانت عليه بأن عرفوا قبحها وعابوها وخامة عاقبتها، أو جزاءها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو الجزاء.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ﴾ نترككم في العذاب ترك ما ينسى. ﴿كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ كما تركتم عدته ولم تبالوا به، وإضافة لقاء إلى يوم إضافة المصدر إلى ظرفه. ﴿وَمَا وَكُنْهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمُ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ استهزأتم بها ولم تتفكروا فيها. ﴿وَعَرَوْنَهُمُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ فحسبتم أن لا حياة سواها. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم أن يعتبرا ربهم أي يرضوه لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذا لكل نعمة منه ودال على كمال قدرته. ﴿قوله الكبرياء في السموات والأرض﴾ إذ ظهر فيها آثارها. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قدر وقضى فاحمدوه وكبروه وأطيعوا له. عن النبي ﷺ «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب».

## سورة الأحقاف

[مكية وآياتها أربع أو خمس وثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6) وَإِذَا نُنَادَيْنَا يَسْتَحْسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَقَّ لِمَأْجَاءِهِمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شُهيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْحُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)﴾

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم، والبعث للمجازاة على ما قرناه مراراً. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل وهو يوم القيامة، أو كل واحد وهو آخر مدة بقائه المقدره له. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من هول ذلك الوقت، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي أخبروني عن حال ألّهتكم بعد تأمل فيها، هل يعقل أن يكون لها في أنفسها مدخل في خلق شيء من أجزاء العالم فتستحق به العبادة. وتخصيص الشرك بالسماوات احتراز عما يتوهم أن للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية. ﴿أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ من قبل هذا الكتاب يعني القرآن فإنه ناطق بالتوحيد. ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين عل فيها ما يدل على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، وهو إلزام بعدم ما يدل على ألوهيتهم بوجه ما نقلاً بعد إلزامهم بعدم ما يقتضيها عقلاً، وقرئ «إثارة» بالكسر أي مناظرة فإن المناظرة تثير المعاني، و «أثرة» أي شيء أوثرت به وأثرة بالحركات الثلاث في الهمزة وسكون الثاء فالمفتوحة للمرة من مصدر أثر الحديث إذا رواه والمكسورة بمعنى الأثرة والمضمومة اسم ما يؤثر.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ إنكار أن يكون أحد أضل من المشركين حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم لو سمع دعاءهم، فضلاً أن

يعلم سرائرهم ويراعي مصالحهم. ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما دامت الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات وإما عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم. ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ مكذبين بلسان الحال أو المقال. وقيل الضمير للعابدين وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَإِذَا تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات أو مبينات. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ لأجله وفي شأنه، والمراد به الآيات ووضعه موضع ضميرها ووضع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نظر وتأمل. ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر بطلانه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب. ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ على الفرض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة فلا تقدرون على دفع شيء منها فكيف أجتري عليه وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندفعون فيه من القدح في آياته. ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبالغ وعليكم بالكذب والإنكار، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم، ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم جرمهم.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ بدعياً منهم أدعوكم إلى ما لا يدعون إليه، أو أقدر على ما لم يقدروا عليه، وهو الإتيان بالمقترحات كلها ونظيره الخف بمعنى الخفيف. وقرئ بفتح الدال على أنه كقيم أو مقدر بمضاف أي ذا بدع. ﴿وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفضيل إذ لا علم لي بالغيب، و ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي المشتمل على إما يفعل بي ﴿وَمَا﴾ إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة. وقرئ ﴿يُفْعَلُ﴾ أي يفعل الله. ﴿إِنْ أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ لا أتجاوز، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوح إليه من الغيوب، أو استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله. ﴿مُبِينٌ﴾ بين الإنذار بالشواهد المبينة والمعجزات المصدقة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَنَّىٰ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيبٍ لِّتُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنذِرَ لِّلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَٰئِكَ أَحْسَنُ أَلَفَةً خَلِيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14)﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي القرآن. ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقد كفرتم به، ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط وكذا الواو في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلا أنها تعطف بما عطف عليه على جملة ما قبله، والشاهد هو عبد الله بن سلام وقيل موسى عليه الصلاة والسلام وشهادته ما في التوراة من نعت الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن المطابقة له، أو مثل ذلك وهو كونه من عند الله. ﴿فَقَامَ﴾ أي بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً للحق. ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ استئناف مشعر بأن كفرهم به لضلالتهم المسبب عن ظلمهم، ودليل على الجواب المحذوف مثل أستم ظالمين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجلهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان أو ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهم سقاط إذ عامتهم فقراء وموال ورعاة، وإنما قاله قريش وقيل بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهينة ومزينة وأسلم وغفار، أو اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ ظرف لمحدوف مثل ظهر عنادهم وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْ فَاكَ قَدِيمٌ﴾ مسبب عنه وهو كقولهم: أساطير الأولين. ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ﴾ وَمَنْ قَبْلَ الْقُرْآنِ وهو خبر لقوله: ﴿كِتَابٌ مُوسَى﴾ ناصب لقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قرئ به. ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿كتاب﴾ في ﴿مصدق﴾ أو منه لتخصسه بالصفة، وعاملها معنى الإشارة وفائدتها الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله سبحانه وتعالى. وقيل مفعول ﴿مصدق﴾ أي يصدق ذا لسان عربي بإعجازه. ﴿لِيُثَبِّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ علة ﴿مصدق﴾، وفيه ضمير الكتاب أو الله أو الرسول، ويؤيد الأخير قراءة نافع وابن عامر والبزي بخلاف عنه ويعقوب بالتاء ﴿وَيُثَرِّىَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطف على محله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب، وإلقاء لتضمن الاسم معنى الشرط. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية، وخالدين خال من المستكن في أصحاب وجزاء مصدر لفعل دل عليه الكلام أي جوزوا جزاء.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقرأ الكوفيون «إحساناً»، وقرئ «حسناً» أي إيصاء «حسناً». ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذات كره أو حملاً ذا كره وهو المشقة، وقرأ الحجازيان وأبو عمرو وهشام بالفتح وهما لغتان كالفقر والفقر. وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر. ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ﴾ ومدة «حملة» وفصاله، والفصال الفطام ويدل عليه قراءة يعقوب «وفصله» أو وقته والمراد به الرضاع التام المنتهى به ولذلك عبر به كما يعبر بالأمد عن المدة، قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعُمِّ      سر وَمَوَدٌ إِذَا انْتَهَسَى أَمَدَهُ

﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ كل ذلك بيان لما تكابده الأم في تربية الولد مبالغة في التوصية بها، وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه إذا حط منه الفصال حولان لقوله تعالى: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ بقي ذلك وبه قال الأطباء ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ إذا اكتمل واستحكم قوته وعقله. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني وأصله أولعني من أوزعته بكذا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ يعني نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها، وذلك يؤيد ما روي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ نكرة للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله عز وجل. ﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ واجعل لي الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوه قوله:

وَإِنْ تَعْتَذِرَ بِالْمَحَلِّ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا      إِلَى الضَّيْفِ يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيبِهَا نَضْلِي

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه أو يشغل عنك. ﴿وَأَتَيْنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصين لك. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾

(16) وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ (19) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبْتُمْ طِينَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (20) ﴿

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني طاعاتهم فإن المباح حسن ولا يثاب عليه. ﴿وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لتوبتهم، وقرأ حمزة الكسائي وحفص بالنون فيهما. ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ كائنين في عددهم أو مثابين أو معدودين فيهم. ﴿وَعَدَ الصَّدَقُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فإن يتقبل ويتجاوز وعد. ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِي لَكُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُولَئِكَ﴾، والمراد به الجنس وإن صح نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، فإن خصوص السبب لا يوجب التخصيص. وفي ﴿أَفِي﴾ قراءة ذكرت في سورة «بني إسرائيل». ﴿أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أبعت، وقرأ هشام «أُعْدَانِي» بنون واحدة مشددة. ﴿وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فلم يرجع أحد منهم. ﴿وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ﴾ يقولان الغياث بالله منك، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان. ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ أي يقولان له ﴿ويلك﴾، وهو الدعاء بالشور بالحث على ما يخاف على تركه. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم التي كتبوها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار وهو يرد النزول في عبد الرحمن لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك وقد جب عنه إن كان لإسلامه. ﴿فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوله في أصحاب الجنة. ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ بيان للأمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل للحكم على الاستئناف.

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الفريقين. ﴿دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا وال «درجات» غالبية في المثوبة وها هنا جاءت على التغليب. ﴿وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ جزاءها، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وابن ذكوان بالنون. ﴿وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ﴾ بنقص ثواب وزيادة عقاب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعذبون بها. وقيل تعرض النار عليهم فقلب مبالغة كقولهم: عرضت الناقة على الحوض. ﴿أَذَهَبْتُمْ﴾ أي يقال لهم أذهبتم، وهو ناصب اليوم وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالاستفهام غير أن ابن كثير يقرؤه بهمزة ممدودة وهما يقرآن بها وبهمزتين محقتين. ﴿طِينَتَكُمْ﴾ لذاتكم. ﴿فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها. ﴿وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء. ﴿فَالْيَوْمَ تُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهوان وقد قرئ به. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله، وقرئ «تَفْسُقُونَ» بالكسر.

﴿وَأَذْكُرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَفِي خَلْفِهِ إِلَّا يُعْبَدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا أَعِلمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَيِّنُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطِيرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا بَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ﴾



نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25) وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَوَرَفْنَا آلَآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) ﴿

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً. ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوج، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشجر من اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ﴾ الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قبل هود وبعده والجملة حال أو اعتراض. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا، أو بأن لا تعبدوا فإن النهي عن الشيء إنذار من مضرته. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب شرككم.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا﴾ لتصرفنا. ﴿عَنِ إِلَهَيْنَا﴾ عن عبادتها. ﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب على الشرك. ﴿إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعدك. ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم ولا مدخل لي فيه فاستعجل به، وإنما علمه عند الله فيأتيكم به في وقته المقدر له. ﴿وَأَنبَأَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا معذبين مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عرض في أفق السماء. ﴿مُتَسَبِّلًا أَوْْدِيَتَهُمْ﴾ متوجه أوديتهم، والإضافة فيه لفظية وكذا في قوله: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هود عليه الصلاة والسلام ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب، وقرئ «قل» «بل»: ﴿رِيحٌ﴾ هي ريح، ويجوز أن يكون بدل ما. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتها وكذا قوله:

﴿تُدْمِرُ تَهْلِكُ﴾ كل شيء من نفوسهم وأموالهم. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجد نابضة حركة ولا قابضة سكون إلا بمشيئته، وفي ذكر الأمر والرب وإضافة إلى الريح فوائد سبق ذكرها مراراً، وقرئ «يدمر كل شيء» من دمر دماراً إذا هلك فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في «ربها»، ويحتمل أن يكون استئنافاً للدلالة على أن لكل ممكن فناء مقضياً لا يتقدم ولا يتأخر، وتكون الهاء لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لا ترى إلا مساكنهم، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ﴾ بالياء المضمومة ورفع المساكن. ﴿كَذَلِكَ نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. روي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الحظيرة وجاءت الريح فأمالت الأحقاف على الكفرة، وكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام، ثم كشفت عنهم واحتملتهم فكدفتهم في البحر.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ ﴿إِن﴾ نافية وهي أحسن من ما ههنا لأنها توجب التكرير لفظاً ولذلك قلبت ألفها هاء في مهما، أو شرطية محذوفة الجواب والتقدير، ولقد مكناهم في الذي أوفي شيء إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر، أو صلة كما في قوله:

يُرجي المرء ما إن لا يراه ويعرض دون أدناه الخُطوبُ  
والأول أظهر وأوفق لقوله: ﴿هم أحسن أنا﴾ ﴿كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثراً﴾. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانحها تعالى ويواظبوا على شكرها. ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الإغناء وهو القليل. ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ صلة ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث إن الحكم مرتب على ما أضيف إليه وكذلك حيث. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَمَلْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل مكة. ﴿مِنَ الْقُرَى﴾ كحجر ثمود وقرى قوم لوط. ﴿وَصَرَفْنَا آيَاتٍ﴾ بتكريرها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾ (28) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَّا طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ (30) يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ آلِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيِ بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُخَيِّجَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا وَلَوْ أَلْعَزَمُوا مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)﴾

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم الذين يتقربون بهم إلى الله تعالى حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وأول مفعولي ﴿اتَّخَذُوا﴾ الراجع إلى الموصول محذوف، وثانيهما ﴿قُرْبَانًا﴾ و ﴿آلِهَةً﴾ بدل أو عطف بيان، أو ﴿آلِهَةً﴾ و ﴿قُرْبَانًا﴾ حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب. وقرئ ﴿قُرْبَانًا﴾ بضم الراء. ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدوا بهم امتناع الاستمداد بالضال. ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره صرفهم عن الحق، وقرئ ﴿أَفْكُهُمْ﴾ بالتشديد للمبالغة، و ﴿أَفْكُهُمْ﴾ أي جعلهم أكفين و ﴿أَفْكُهُمْ﴾ أي قولهم الآفك أي ذو الإفك. ﴿وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أملناهم إليك والنفر دون العشرة وجمعه أنفار. ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ حال محمولة على المعنى. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن أو الرسول. ﴿قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ قالوا بعضهم لبعض استكروا لسمعته. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أتم وفرغ من قراءته، وقرئ على بناء الفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي منذرين إياهم بما سمعوا. روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى الْحَقِّ﴾ من العقائد. ﴿وَالْيَ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، وهو ما يكون في خالص حق الله فإن المظالم لا تغفر بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو معد للكفار، واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم، وأظهر أنهم في توابع التكليف كبنی آدم. ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجي منه مهرب. ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ يمنونه منه. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه.

﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيِ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ولم يتعب ولم يعجز، والمعنى أن

قدرته واجبة لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الأبد. ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أي قادر، ويدل عليه قراءة يعقوب «يقدر»، والباء مزيدة لتأكيد النفي فإنه مشتمل على ﴿أَنْ﴾ وما في حيزها ولذلك أجاب عنه بقوله: ﴿يَكُنْ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود، كأنه صدرَ السورة بتحقيق المبدأ أراد ختمها بإثبات المعاد.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ منصوب بقول مضمَر مقوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ والإشارة إلى العذاب. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا، ومعنى الأمر هو الإهانة بهم والتوبيخ لهم.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أولوا الثبات والجد منهم فإنك من جملتهم، و ﴿مَنْ﴾ للتبيين، وقيل للتبعيض، و ﴿أُولُو الْعَزْمِ﴾ منهم أصحاب الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقديرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاودة الطاعنين فيها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام. وقيل الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على أذى، قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح ولده والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد والبصر، ويوسف على الحب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه ﴿إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لينة على لينة. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب فإنه نازل بهم في وقته لا محالة. ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يُرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة. ﴿بَلَاغٌ﴾ هذا الذي وعظمت به أو هذه السورة بلاغ أي كفاية، أو تبليغ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده أنه قرئ «بلغ»، وقيل «بلاغ» مبتدأ خبره «لهم» و «ما» بينهما اعتراض أي لهم وقت يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه ورأوا ما فيه استقصروا مدة عمرهم، وقرئ بالنصب أي بلغوا بلاغاً. ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الاعتاز أو الطاعة، وقرئ يهلك بفتح اللام وكسرهما من هلك وهلك، ونهلك بالنون ونصب القوم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا».



(وتسمى سورة القتال)

وهي [مدنية وقيل مكية وآياتها سبع أو ثمان وثلاثون أو أربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشَدُّوا الوُثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4)﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخول في الإسلام وسلوك طريقه، أو منعوا الناس عنه كالمطعمين يوم بدر، أو شياطين قريش أو المصريين من أهل الكتاب. أو عام في جميع من كفر وصد. ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾ جعل مكارمهم كصلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجوار ضالة أي ضائعة محيطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه كما يضل الماء في اللبن، أو ضلال حيث لم يقصدوا به وجه الله، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعم المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم. ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيص للمنزّل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونة، وأنه الأصل فيه ولذلك أكدّه بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصر. وقيل حقيقته بكونه ناسخاً لا ينسخ، وقرئ ﴿نزل﴾ على البناء للفاعل و﴿أنزل﴾ على البناءين و﴿نزل﴾ بالتخفيف. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ من الإضلال والتكفير والإصلاح وهو مبتدأ خبره. ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بسبب اتباع هؤلاء الباطل واتباع هؤلاء الحق، وهذا تصريح بما أشعر به ما قبلها ولذلك سمي تفسيراً. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب. ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يبين لهم. ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ أحوال الفريقين أو أحوال الناس، أو يضرب أمثالهم بأن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخبيثتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في المحاربة. ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر، وأنيب منابه مضافة إلى المفعول ضمّاً إلى التأكيد والاختصار. والتعبير به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقاب حيث أمكن، وتصوير له بأشنع صورة. ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشخين وهو الغليظ. ﴿فَنُذِلُوا الْوُثَاقَ﴾ فأسروهم واحفظوهم، والوثاق بالفتح والكسر ما

يوثق به. ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ أي فإما تمنون مناً أو تفدون فداء، والمراد التخيير بعد الأسر بين المن والإطلاق وبين أخذ الفداء، وهو ثابت عندنا فإن الذكر الحر المكلف إذا أسر تخير الإمام بين القتل والمن والفداء، والاسترقاق منسوخ عند الحنفية أو مخصوص بحرب بدر فإنهم قالوا يتعين القتل أو الاسترقاق. وقرئ «فداء» كعصا. ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكرع، أي تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم. وقيل آتامها والمعنى حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، وهو غاية للضرب أو الشد أو للمن والفداء أو للمجموع بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيها حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم. وقيل بنزل عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لا نتقم منهم بالاستئصال. ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ولكن أمركم بالقتال ليبلوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر. ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريان وحفص «قتلوا» أي استشهدوا. ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يضيعها، وقرئ «يضل» من ضل ويضل على البناء للمفعول.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّهُمُ بِالْهَمِّ﴾ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ (6) يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا اللَّهُ يُضْرَكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ (9) أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَانِ (10) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11) إِنْ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَحِمِلُوا الصَّلِيبَ جَنَّتِ تَحْيَى مِنْ تَحِيهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قُرَيْبِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ رُبُّهُ لَمْ يَكُنْ سَوْءَ صَاحِبٍ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثواب، أو سيثبت هدايتهم. ﴿وَيُضِلُّهُمُ بِالْهَمِّ﴾.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ وقد عرفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقوها به، أو بينها لهم بحيث يعلم كل واحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق، أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، أو حدها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا اللَّهَ﴾ إن تنصروا دينه ورسوله. ﴿يُنْصَرِكُمْ﴾ على عدوكم. ﴿وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْوُجُوهُ﴾ فعثورا لهم وانحطاطاً ونقضه لما قال الأعشي: فالتعن أولى بها من أن أقول لعا. وانتصابه بفعله الواجب إضمار سماعاً، والجملة خبر «الذين كفروا» أو مفسرة لناصبه. ﴿وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ عطف عليه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهه أنفسهم، وهو تخصيص وتصريح بسببه الكفر بالقرآن للتعس والإضلال. ﴿فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ كرره إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استأصل عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة. ﴿أَمْثَالَهَا﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة، أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها، أو السنة لقوله تعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت﴾.

﴿ذَلِكَ بَأْسَ اللَّهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ناصرهم على أعدائهم. ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ فيدفع العذاب عنهم وهو لا يخالف قوله: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ فإن المولى فيه بمعنى المالك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ يتتفعون بمتاع الدنيا. ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ حريصين غافلين عن العاقبة. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ منزل ومقام.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ على حذف المضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه، والإخراج باعتبار التسبب. ﴿أهلكتناهم﴾ بأنواع العذاب. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب وهو كالحال المحكية.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ حجة من عنده وهو القرآن، أو ما يعمه والحجج العقلية كالنبي ﷺ والمؤمنين. ﴿كَمْ مِنْ رُؤُوسٍ لَهُ سُوءُ عَمَلٍ﴾ كالشرك والمعاصي. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في ذلك لا شبهة لهم عليه فضلاً عن حجة.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة. وقيل مبتدأ خبره: ﴿كَمْ مِنْ خَالِدٍ فِي النَّارِ﴾، وتقدير الكلام أمثال أهل الجنة كمثال من هو خالد، أو أمثال الجنة كمثال جزاء من هو خالد فعري عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استثناء يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبيئة والتابع للهوى، بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار، وهو على الأول خبر محذوف تقديره: أفمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار، أو بدل من قوله: ﴿كَمْ مِنْ زَيْنٍ﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بيئة في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف، أو خبر لمثل و ﴿آسِنٍ﴾ من أسن الماء بالفتح إذا تغير طعمه وريحه، أو بالكسر على معنى الحدوث. وقرأ ابن كثير «أسن». ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لم يصر قارصاً ولا حازراً. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لذيدة لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار تأنيث لذ أو مصدر نعت به بإضمار ذات، أو تجوز وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها، وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينقصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ صنف على هذا القياس. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصنف المحذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم مغفرة. ﴿كَمْ مِنْ خَالِدٍ فِي النَّارِ وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من فرط الحرارة.

﴿وَمَنْ مِّنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْوَحْيَ مَا قَالَهُ إِذَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (16) وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ (18) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِسَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (20)

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ يعني المنافقين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ ويسمعون كلامه فإذا خرجوا. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ﴿مَاذَا قَالَ آنفًا﴾ ما الذي قال الساعة، استهزاء أو استعلاءً إذا لم يلقوا له آذانهم تهاوناً به، و ﴿آنفًا﴾ من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة، ومنه استأنف واثننف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير في ﴿قال﴾ وقرأ ابن كثير ﴿آنفًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فلذلك استهزؤوا وتهاونوا بكلامه.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي زادهم الله بالتوفيق والإلهام، أو قول الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَأَتَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ فهل ينتظرون غيرها. ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ بدل اشتغال من ﴿السَّاعَةِ﴾، وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعلة له، وقرئ أن تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ والمعنى أن تأتهم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها كميعة النبي عليه الصلاة والسلام، وانشقاق القمر فكيف لهم ﴿ذكراهم﴾ أي تذكروهم ﴿إذا جاءتهم﴾ الساعة بغتة، وحيث لا يفرغ له ولا ينفع.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاؤه الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار ﴿لِذَنْبِكَ﴾. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ولذنوبهم بالدعاء لهم والتحرير على ما يستدعي غفرانهم، وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعار بفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر، فإن الذنب له ماله تبعه ما بترك الأولى. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها. ﴿وَمَثُوكُمْ﴾ في العقبي فإنها دار إقامتكم فاتقوا الله واستغفروه وأعدوا لمعادكم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلا ﴿نزلت سورة﴾ في أمر الجهاد. ﴿فَإِذَا أَنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ مبينة لا تشابه فيها. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي الأمر به. ﴿رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ضعف في الدين وقيل نفاق. ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ جبناً ومخافة. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ فويل لهم، أفعل من الولي وهو القرب، أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (21) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (22)

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف أي أمرهم ﴿طاعة﴾ أو ﴿طاعة وقول معروف﴾ خير لهم، أو حكاية قولهم لقراءة أبي ﴿يقولون طاعة﴾. ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد وهو لأصحاب الأمر، وإسناده إليه مجاز وعامل الظرف محذوف، وقيل ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو الإيمان. ﴿لَكَانَ﴾ الصديق. ﴿خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يتوقع منكم. ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس وتأمرتهم عليهم، أو أعرضتم وتوليتهم عن الإسلام. ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحراً على الولاية وتجادباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور ومقاتلة الأقارب، والمعنى أنهم لضعفهم في الدين وحرصهم على الدنيا أحقاء بأن يتوقع ذلك منهم من عرف حالهم ويقول لهم: هل عسيتم، وهذا على لغة

الحجاز فإن بني تميم لا يلحقون الضمير به وخبره ﴿أَنْ تَفْسُدُوا﴾ و ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ اعتراض، وعن يعقوب ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي إن تولاكم ظلمة خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم ﴿وَتَقْطَعُوا﴾ من القطع، وقرئ ﴿تَقْطَعُوا﴾ من التقطع.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ (23) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ (27) ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَهُمْ فَلَمَرْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين. ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ فلا يهتدون سبيله.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصي. ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر، وقيل ﴿أَمْ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها التقرير، وتنيك القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة، أو لفرط جهالتها ونكرها كأنها مبهمة منكورة وإضافة الأفعال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تتجانس الأفعال المعهودة. وقرئ ﴿إِقْفَالُهَا﴾ على المصدر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ أي ما كانوا عليه من الكفر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهل لهم اقتراف الكبائر من السؤل وهو الاسترخاء. وقيل حملهم على الشهوات من السؤل وهو التمني، وفيه أن السؤل مهموز قلبت همزته واواً لضم ما قبلها ولا كذلك التسويل، ويمكن رده بقولهم هما يتساوآن وقرئ ﴿سؤل﴾ على تقدير مضاف أي كيد الشيطان ﴿سؤل لهم﴾. ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ ومد لهم في الآمال والأمانى، أو أمهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة لقراءة يعقوب ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾، أي وأنا أملي لهم فتكون الواو للحال أو الاستئناف، وقرأ أبو عمرو ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ على البناء للمفعول وهو ضمير ﴿الشيطان﴾ أو ﴿لهم﴾.

﴿ذَلِكَ بَأْنَهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي قال اليهود للذين كفروا بالنبى عليه الصلاة والسلام بعدما تبين لهم نعتة للمنافقين، أو المنافقون لهم أو أحد الفريقين للمشركين. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد والموافقة في الخروج معهم إن أخرجوا، والتظاهر على الرسول ﷺ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ومنها قولهم هذا الذي أفشاه الله عليهم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالون حينئذ، وقرئ ﴿توفاهم﴾ وهو يحتمل الماضي والمضارع المحذوف إحدى تاءيه. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ تصوير لتوفيههم بما يخافون منه ويجبنون عن القتال له.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف. ﴿بَأْنَهُمْ أَنْبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ﴾ من الكفر ككتمان نعت الرسول



عليه الصلاة والسلام وعصيان الأمر. ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ ما يرضاه من الإيمان والجهاد وغيرهما من الطاعات. ﴿فَأَخْبَطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ لذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ أن لن يبرز الله لرسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرْزُقْنَاهُمْ﴾ لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم. ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلاماتهم التي نسهم بها، واللام لام الجواب كررت في المعطوف. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف و ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أسلوبه، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية، ومنه قيل للمخطيء لآحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيجازيكم على حساب قصدكم إذ الأعمال بالنيات.

﴿وَلِتَبْلُوكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُ أَعْمَالُهُمْ (32) يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِفْكُمْ بَطْلُوا وَمُخْرِجٌ أَضْعَفُكُمْ (37) هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُقْضَىٰ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ فَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (38)﴾

﴿وَلِتَبْلُوكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة. ﴿حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مشاقه. ﴿وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسناتها وقيسها، أو أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم المؤمنين في صدقها وكذبها. وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء لتوافق ما قبلها، وعن يعقوب ﴿وتبلوا﴾ بسكون الواو على تقدير ونحن نبلوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر. ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم وصددهم، أو لن يضرروا رسول الله ﷺ بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفضيحه مشاقته. ﴿وَسَيُحِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ ثواب حسنات أعمالهم بذلك، أو مكايدهم التي نصبوها في مشاقته فلا يصلون بها إلى مقاصدهم ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عام في كل من مات على كفره وإن صح نزوله في أصحاب القلب، ويدل بمفهومه على أنه قد يغفر لمن لم يمت على كفره سائر ذنوبه.

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا. ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خوراً وتذلاً، ويجوز نصبه بإضمار إن وقرئ «ولا تدعوا» من ادعى بمعنى دعا، وقرئ أبو بكر وحمة بكسر السين. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ناصركم. ﴿وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن يضيع أعمالكم، من وترت الرجل إذا قتلت متعلقاً به من قريب أو حميم فأفردته منه من الوتر، شبه به تعطيل ثواب العمل وإفراده منه.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لإثبات لها. ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم. ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر والعشر.

﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ﴾ فيجهدكم بطلب الكل والإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال: أحفى شاربته إذ استأصله. ﴿تَبَخَّلُوا﴾ فلا تعطوا. ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ ويضغنكم على رسول الله ﷺ والضمير في يخرج لله تعالى، ويؤيده القراءة بالنون أو البخل لأنه سبب الإضغان، وقرىء «وتخرج» بالتاء والياء ورفع «أضغانكم».

﴿هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله: ﴿تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استئناف مقرر لذلك، أو صلة له «هؤلاء» على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما. ﴿فَمَنْكُمْ مَنْ يَخْلُ﴾ ناس يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدمة. ﴿وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فإن نفع الإنفاق وضرر البخل عائدان إليه، والبخل يعدى بعن وعلى لتضمنه معنى الإمساك والتعدي فإنه إمساك عن مستحق. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلتم فلکم وإن توليتم فعليكم. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا عَظَفَ عَلَى﴾ إن تؤمنوا. ﴿يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقيم مقامكم قوماً آخرين. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ في التولي والزهد في الإيمان، وهم الفرس لأنه سئل عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمان إلى جنبه فضرب فخذة وقال: «هذا وقومه»: أو الأنصار أو اليمن أو الملائكة. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة».



[مدنية نزلت في مرجع رسول الله ﷺ من الحديبية وآياتها تسع وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَنُصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُخْلِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبُ الْمُتَفِيفِينَ وَالْمُتَفَقِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَرْفَ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوءِ وَغَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِيَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤْفِقُوهُ وَيُؤْفِقُوهُ وَيُؤْفِقُوهُ بِكُفْرِهِ وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَسْمُؤُهُ أَجْرًا عَظِيمًا (10) ﴾

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ وعد بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي لتحقيقه أو بما اتفق له في تلك السنة كفتح خيبر وفدك، أو إخبار عن صلح الحديبية وإنما سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب لفتح مكة، وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فغزاهم وفتح مواضع وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آية عظيمة وهي أنه نزع ماؤها بالكلية فتمضمض ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه، أو فتح الروم فإنهم غلبوا الفرس في تلك السنة. وقد عرفت كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة «الروم». وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل.

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ علة للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدرج اختياراً، وتخليص الضعفة عن أيدي الظلمة. ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ جميع ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه. ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة. ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرئاسة.

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ نصرأ فيه عز ومنعة، أو يعز به المنصور فوصف بوصفه مبالغة.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ الشبات والطمأنينة. ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حتى ثبتوا حيث تعلق النفوس وتدحض الأقدام. ﴿ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، أو نزل فيها السكون إلى ما جاء به الرسول ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله واليوم الآخر. ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يدبر أمرها فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع فيما بينهم السلم أخرى كما تقتضيه حكمته. «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا» بالمصالح. «حَكِيمًا» فيما يقدر ويدبر.

«لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» علة بما بعده لما دل عليه قوله تعالى: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» من معنى التدبير، أي دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فيه ويشكروها فيدخلهم الجنة ويعذب الكفار والمنافقين لما غاظهم من ذلك، أو «ففتحنا» أو «أنزل» أو جميع ما ذكر أو «ليزدادوا»، وقيل إنه بدل منه بدل الاشتمال. «وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» يغطيها ولا يظهرها. «وَكَانَ ذَلِكَ» أي الإدخال والتكفير. «عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا» لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضرر، وعند حال من الفوز.

«وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ» عطف على «يدخل» إلا إذا جعلته بدلاً فيكون عطفًا على المبدل منه. «الظَّالِّينَ بِاللَّهِ ظُنُّ السَّوْءِ» ظن الأمر السوء وهو أن لا ينصر رسوله والمؤمنين. «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ» دائرة ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السوء» بالضم وهما لغتان، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدر «وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَاعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ» عطف لما استحقوقه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا، والواو في الأخيرين والموضع موضع الفاء إذ اللعن سبب للأعداد، والغضب سبب له لاستقلال الكل في الوعيد بلا اعتبار النسبية. «وَسَاءَتْ مَصِيرًا» جهنم. «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا».

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا» على أمتك. «وَنَذِيرًا» على الطاعة والمعصية.

«لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» الخطاب للنبي ﷺ والأمة، أو لهم على أن خطابه منزل منزلة خطابهم. «وَتُعَزِّزُوهُ» وتقووه بتقوية دينه ورسوله «وَتُوقِرُوهُ» وتعظموه. «وَتُسَبِّحُوهُ» وتزهوه أو تصلوا له. «بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا» غدوة وعشيًا أو دائماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة بالياء، وقرئ «تعزروه» بسكون العين و «تعزروه» بفتح التاء وضم الزاي وكسرهما و «تعزروه» بالزائين «وتوقروه» من أوقره بمعنى وقره.

«إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» لأنه المقصود ببيعته. «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» حال أو استئناف مؤكد له على سبيل التخييل. «فَمَنْ نَكَثَ» نقض العهد. «فَأَنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ» في مبايعته «فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» هو الجنة، وقرئ «عهد» وقرأ حفص «عليه» بضم الهاء وابن كثير ونافع وابن عامر وروح «فسنؤتيه» بالنون. والآية نزلت في بيعة الرضوان.

«سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَوَاقِمِ اتَّخَذُوهَا دُرُوبًا نَتَّبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا

يَقْهَرُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15) قُلْ لِلْمُخْلَقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَةٌ إِنْ قَوْمُ أُولَىٰ بَاسٍ شَدِيدٍ يُقْتَلُونَ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤَيِّدْكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) ﴿

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم أسلم وجهينة ومزينة وغفار استنفرهم رسول الله ﷺ عام الحديبية فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدوهم. ﴿شَغَلْتْنَا أَموَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم، وقرىء بالتشديد للتكثير. ﴿فَاسْتَفْزِزْنَا﴾ من الله على التخلف. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في الاعتذار والاستغفار. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنعكم من مشيئته وقضائه. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضركم تقتل أو هزيمة أو خلل في المال والأهل عقوبة على التخلف، وقرأ حمزة والكسائي بالضم. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ما يضاد ذلك، وهو تعريض بالرد. ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلم تخلفكم وقصدكم فيه.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم، وأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كأرضات على أن أصله أهلة وأما أهال فاسم جمع كليات. ﴿وَرَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكن فيها، وقرىء على البناء للفاعل وهو الله أو الشيطان. ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ الظن المذكور، والمراد التسجيل عليه بـ ﴿السَّوْءِ﴾ أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائفة. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين عند الله لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره، وتكثير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره كيف يشاء. ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذ لا وجوب عليه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فإن الغفران والرحمة من ذاته والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض، ولذلك جاء في الحديث الإلهي «سبقت رحمتي غضبي».

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانم خيبر فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أن يغيروه وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر، وقيل قوله تعالى: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ والظاهر أنه في تبوك. والكلام اسم للتكليم غلب في الجملة المفيدة وقرأ حمزة والكسائي «كلم الله» وهو جمع كلمة. ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ نفى في معنى النهي. ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. من قبل تهيئهم للخروج إلى خيبر. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْشُدُونَنَا﴾ أن يشارككم في الغنائم، وقرىء بالكسر. ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهما قليلاً وهو فطنتهم لأمر الدنيا، ومعنى الإضراب الأول رد منهم أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات للحسد، والثاني رد من الله لذلك وإثبات لجهلهم بأمور الدين.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف. ﴿سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمٌ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما دل عليه قراءة «أو يسلموا»، ومن عداهم يقاتل حتى يسلم أو يعطي الجزية. وهو يدل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه إذا لم تنفق هذه الدعوة لغيره إلا إذا صح أنهم ثقيف وهوازن فإن ذلك كان في عهد النبوة. وقيل فارس والروم ومعنى «يسلمون» يتقادون ليتناول تقبلهم الجزية. ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن الحديدية. ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمتكم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لما أوعد على التخلف نفي الحرج عن هؤلاء المعذورين استثناء لهم عن الوعيد. ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته، ثم جبر ذلك بالتكرير على سبيل التعميم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ الترهيب ها هنا أنفع من الترغيب، وقرأ نافع وابن عامر «ندخله» و«نعذبه» بالنون.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ روي: أنه ﷺ لما نزل الحديدية بعث جواس ابن أمية الخزاعي إلى أهل مكة، فهموا به فمنعه الأحابيش فرجع، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه فحبسوه فأرجف بقتله، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه وكانوا ألفاً وثلثمائة أو وأربعمائة أو وخمسمائة، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم وكان جالساً تحت سمرة أو سدره. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص. ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح. ﴿وَأَتَابَهُمْ فَفَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح خيبر غلب انصرافهم، وقيل مكة أو هجر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مغانم خيبر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالباً مراعياً مقتضى الحكمة.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذُنَّ ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنِيِّ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنصِبُوكُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَنَّةَ لِيَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ سَمِينِهِمْ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ رَأْسًا وَإِلَهُهُمْ كُلِّمَهُ النَّفْقَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ خِلَافِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَمَرِ السُّجُودَ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْبٍ أَخْرَجَ شَطَنَهُمْ فَتَازَرُوا فَاسْتَقْلَطُوا فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29) ﴿

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما بقي على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني مقام خيبر. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وخلفائهم من بني أسد وغطفان، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ هذه الكفة أو الغنيمة. ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمانة يعرفون بها أنهم من الله بمكان، أو صدق الرسول في وعدهم فتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية، أو وعد المغانم أو عنواناً لفتح مكة والعطف على محذوف هو علة لـ ﴿كَفَّ﴾، أو «عجل» مثل لتسلموا، أو لتأخذوا أو العلة لمحذوف مثل فعل ذلك. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه.

﴿وَأُخْرَى﴾ ومغانم أخرى معطوفة على هذه، أو منصوبة بفعل يفسره ﴿قد أحاط الله بها﴾ مثل قضى، ويحتمل رفعها بالابتداء لأنها موصوفة وجرها بإضمار رب. ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ بعد لما كان فيها من الجولة. ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ استولى فأظفركم بها وهي مغانم هوازن أو فارس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأن قدرته ذاتية لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوها. ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ﴾ لانهمزوا. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَّ وَلِيًّا﴾ يحرسهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي سنَّ غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى: ﴿لَا غَلْبَ لَنَا وَرَسُولِي﴾. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد. وقيل كان ذلك يوم الفتح واستشهد به على أن مكة فتحت عنوة وهو ضعيف إذ السورة نزلت قبله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم أولاً طاعة لرسوله وكفهم ثانياً لتعظيم بيته، وقرأ أبو عمرو بالياء ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ يدل على أن ذلك كان عام الحديبية، والهدي ما يهدي إلى مكة. وقرئ ﴿الهدى﴾ وهو فاعل بمعنى مفعول، ومحلّه مكانه الذي يحل فيه نحره والمراد مكانه المعهود وهو منى لا مكانه الذي لا يجوز أن ينحر في غيره، وإلا لما نحره الرسول ﷺ حيث أحصر فلا ينتهز حجة للحنفية على أن مذبح هدي المحصر هو الحرم. ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أن توقعوا بهم وتبيدهم قال:

وَوَطَّئْنَا وَطْأً عَلَى حَقٍّ وَطْءَ الْمُقَيْدِ نَسَبَتْ الْهَرَمَ

وقال عليه الصلاة والسلام «إن آخر وطأة وطئها الله بوج» وهو وادٍ بالطائف كان آخر وقعة للنبي ﷺ بها، وأصله الدوس وهو بدل الاشتمال من «رجال» و«نساء» أو من ضميرهم في «تعلموهم». ﴿تُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم. ﴿مَعْرَةً﴾ مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم وللتأسف عليهم، وتعبير

الكفار بذلك والإثم بالتقصير في البحث عنهم مفعلة عن عره إذا أعراه ما يكرهه. ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْ تَطُوهُمْ﴾ أي تطوهم غير عالمين بهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى ﴿لَوْلَا﴾ كراهة أن تهلكوا أناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم يصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم. ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لما دل عليه كف الأيدي عن أهل مكة صوناً لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير أو للإسلام. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من مؤمنهم أو مشركهم. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض، وقرئ «تزايلوا». ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ بالقتل والسبي.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقدر باذكر أو ظرف ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ أو ﴿صَدُوكُمْ﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة. ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع إذعان الحق. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل عليهم الثبات والوقار وذلك ما روي «أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب ابن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن يخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام، فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون» فَهَمَّ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَأْبُوا ذَلِكَ وَيَبْطِشُوا عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فَتَوَقَّروا وَتَحَمَّلُوا. ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد وإضافة الـ ﴿كَلِمَةَ﴾ إلى ﴿التَّقْوَى﴾ لأنها سببها أو كلمة أهلها. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم. ﴿وَأَهْلُهَا﴾ والمستأهلين لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فيعلم أهل كل شيء ويسره له.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حللوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أن ذلك يكون في عامهم، فلما تأخر قال بعضهم والله ما حللنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت فنزلت والمعنى صدقة في رؤياه. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً به فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له وهو العام القابل، ويجوز أن يكون ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة مصدر محذوف أي صدقاً ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمترنزل فيه، وأن يكون قسماً إما باسم الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جوابه وعلى الأولين جواب قسم محذوف. ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق للعدة. بالمشيئة تعليماً للعباد، أو إشعاراً بأن بعضهم لا يدخل لموت أو غيبة أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبي ﷺ لأصحابه. ﴿آمِنِينَ﴾ حال من الواو والشرط معترض. ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلّقاً بعضكم ومقصرّاً آخرون. ﴿لَا تَخَافُونَّ﴾ حال مؤكدة أو استئناف أي لا تخافون بعد ذلك. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير ذلك. ﴿فَجَعَلَ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة. ﴿فَتَحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ ملتبساً به أو بسببه أو لأجله. ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وبدین الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليغلبه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهله إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح. ﴿وَوَكَّفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ على أن ما وعده كائن أو على نبوته بإظهار المعجزات.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملة مبينة للمشهود به، ويجوز أن يكون ﴿رسول الله﴾ صفة و ﴿محمد﴾ خبر



محذوف أو مبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وخبرهما. ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ و ﴿أَشِدَّاءُ﴾ جمع شديد و ﴿رحماء﴾ جمع رحيم، والمعنى أنهم يغلبون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم كقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم. ﴿يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الثواب والرضا. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يريد السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود، فعلى من سامه إذا أعلمه وقد قرئت ممدودة و ﴿من أثر السجود﴾ بيانها أو حال من المستكن في الجار. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الوصف المذكور. أو إشارة مبهمة يفسرها ﴿كززع﴾. ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ صفتهم العجيبة الشأن المذكورة فيها. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ عطف عليه أن ذلك مثلهم في الكتابين وقوله: ﴿كززع﴾ تمثيل مستأنف أو تفسير أو مبتدع و ﴿كززع﴾ خبره. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿شَطْأَهُ﴾ بفتحات وهو لغة فيه، وقرئ «شطاء» بتخفيف الهمزة و «شطاء» بالمد و «شطه» بنقل حركة الهمزة وحذفها و «شطوه» بقلبها واوا. ﴿فَآزَرَهُ﴾ فقواه من المؤازرة وهي المعاونة أو من الإيزار وهي الإعانة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿فَآزَرَهُ﴾ كأجره في أجره. ﴿فَاسْتَعْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ. ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق، وعن ابن كثير «سوقه» بالهمزة. ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بكتافته وقوته وغلظه وحسن منظره، وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة قلوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس. ﴿لِيُعْظِ بِهَمَّ الْكُفَّارِ﴾ علة لتشبيهم بالزرع في زكاته واستحكامه أو لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فإن الكفار لما سمعوه غاظهم ذلك ومنهم للبيان. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام فتح مكة».

## سورة الحجرات

[مدنية وآياتها ثمان عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ﴾ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحَقُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتِيدِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَمَنِعْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضَلَّامٌ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) ﴿

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا﴾ أي لا تقدموا أمراً، فحذف المفعول ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن، أو ترك لأن المقصود نفي التقديم رأساً أو لا تقدموا ومنه مقدمة الجيش لمقدميهم، ويؤيده قراءة يعقوب ﴿لا تقدموا﴾. وقرئ ﴿لا تقدموا﴾ من القُدوم. ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مستعار مما بين الجهتين المسامتين ليدي الإنسان تهجيناً لما نهوا عنه، والمعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به. وقيل المراد بين يدي رسول الله ﷺ وذكر الله تعظيم له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في التقديم أو مخالفة الحكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتموه فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته محاماة على الترحيب ومراعاة للأدب. وقيل معناه ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبي والرسول، وتكرير النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الاعتاظ والدلالة على استقلال المنادى له وزيادة الاهتمام به. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ كراهة أن تحبط فيكون علة للنهي، أو لأن تحبط على أن النهي عن الفعل المعلل باعتبار التأدية لأن في الجهر والرفع استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذ انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة. وقد روي: أن ثابت بن قيس كان في أذنه قرع وكان جهورياً، فلما نزلت تخلف عن رسول الله ﷺ فتفقده ودعا فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة». ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ يخفضونها. ﴿عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مراعاة للأدب أو مخافة عن مخالفة النهي. قيل كان أبو بكر وعمر بعد ذلك يسرانه حتى يستفهمهما. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ جربها للتقوى ومرنها عليها، أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها، فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى، فإنها لا تظهر إلا باضطراب عليها، أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه من خبثه. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغضهم وسائر طاعاتهم، والتذكير للتعظيم والجملة خبر ثان لأن، أو استئناف لبيان ما هو جزاء الغاضبين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين، والمبتدأ إسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم، والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له، وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وأن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ من خارجها خلفها أو قدامها، ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة وراء، وفائدتها الدلالة على أن المنادي داخل الحجرة إذ لا بد وأن يختلف المبتدأ والمتنهي بالجهة، وقرئ ﴿الحجرات﴾ بفتح الجيم، وسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط، ولذلك يقال لحظيرة الإبل حجرة. وهي فعلة بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة، والمراد حجرات نساء النبي عليه الصلاة والسلام وفيها كناية خلوته بالنساء ومناداتهم في روائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من روائها، أو بأنهم تفرقوا على الحجرات عن متطبلين له، فأسند فعل الأبعاض إلى الكل. وقيل إن الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقال يا محمد اخرج إلينا، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به، أو لأنه وجد فيما بينهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة سيما لمن كان بهذا المنصب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم، فإن أن وإن دلت بما في حيزها على المصدر دلت بنفسها على الثبوت، ولذلك وجب إضمار الفعل وحتى تفيد أن الصبر ينبغي أن يكون مغنياً بخروجه، فإن حتى مختصة بغاية الشيء في نفسه ولذلك تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولا تقول حتى نصفها، بخلاف إلى فإنها عامة، وفي ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب، والإسعاف بالمسؤول إذ روي أنهم وفدوا شافعين في أساري بني العنبر فأطلق النصف وفادى النصف. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث اقتصر على النصيح والتفريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فتعرفوا وتصنفوا، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عتبة مصداً إلى بني المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتله فرجع وقال لرسول الله ﷺ قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم بقتالهم فترلت. وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدتهم منادين بالصلاة متعجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع، وتنكير الفاسق والنبا للتعميم، وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث أن المعلق على شيء بكلمة إن عدم عند عدمه، وأن خبر الواحد لو وجب تبينه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسق، إذ الترتيب يفيد التعليل وما بالذات لا يعلل بالغير. وقرأ حمزة والكسائي فتبثوا أي فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال. ﴿أَن تُصَيِّبُوا﴾ كراهة إصابتكم. ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ جاهلين بحالهم. ﴿فَتُصَبِّحُوا﴾ فتصبروا. ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ مغتمين

غما لازماً متمنين أنه لم يقع، وتركيب هذه الأحرف الثلاثة دائر مع الدوام.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أن بما في حيزه ساد مسد مفعولي اعلمو باعتماد ما قيد به من الحال وهو قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَسْتَ﴾ فإنه حال من أحد ضميري فيكم، ولو جعل استئنافاً لم يظهر للأمر فائدة. والمعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث، ولو فعل ذلك ﴿لَعَسْتَ﴾ أي لوقعت في الجهد من العنت، وفيه إشعار بأن بعضهم أشار إليه بالإيقاع بني المصطلق وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ استدراك ببيان عذرهم، وهو أنه من فرط حبهم للإيمان وكراهتهم للكفر حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد، أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحماداً لفعالهم وتعريضاً بدم من فعل ويؤيده قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوي، ﴿وكره﴾ يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد فإذا شدد زاد له آخر، لكنه لما تضمن معنى التبعض نزل كره منزلة بغض فعدى إلى آخر بإلى، أو نزل إليكم منزلة مفعول آخر. و ﴿الكفر﴾: تغطية نعم الله بالجهود. ﴿والفسوق﴾: الخروج عن القصد ﴿والعصيان﴾: الامتناع عن الانقياد.

﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ تعليل لـ ﴿كره﴾ أو ﴿حب﴾، وما بينهما اعتراض لا لـ ﴿الراشدون﴾ فإن الفضل فعل الله، والرشد وإن كان مسبباً عن فعله مسند إلى ضميرهم أو مصدر لغير فعله فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث يفضل وينعم بالتوفيق عليهم.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَلِّتُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا بَغْيَاءً وَكِبْرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا يَخِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)﴾

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع. ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى. ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ تعدت عليها. ﴿فَفَلِّتُوا﴾ الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ترجع إلى حكمه أو ما أمر به، وإنما أطلق الفاء على الظل لرجوعه بعد نسخ الشمس، والغنيمة لرجوعها من الكفار إلى المسلمين. ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على ما حكم الله، وتقييد الإصلاح بالعدل ها هنا لأنه مظنة الحيف من حيث إنه بعد المقاتلة. ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا في كل الأمور. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يحمد فعلهم بحسن الجزاء. والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسيف والنعال، وهي تدل على أن الباغي مؤمن وأنه إذا قبض عن الحرب ترك كما جاء في الحديث لأنه فيء إلى أمر الله تعالى، وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ من حيث إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، وهو تعليل وتقرير للأمر بالإصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه بالفاء فقال: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ووضع

الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتخصيص، وخص الإثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق. وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرئ «بين إخوانكم» و «إخوانكم». و«وَاتَّقُوا اللَّهَ» في مخالفة حكمه والإهمال فيه. «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» على تقواكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ أي لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، والقوم مختص بالرجال لأنه إما مصدر نعت به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور، والقيام بالأمر وظيفة الرجال كما قال تعالى: «الرجال قوامون على النساء» وحيث فسر بالقبيلين كقوم عاد وفرعون، فإما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال على ذكرهن لأنهن توابع، واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع و«عسى» باسمها استئناف بالعلة الموجبة للنهي ولا خبر لها لإغناء الاسم عنه. وقرئ «عسوا أن يكونا» و«عسين أن يكن» فهي على هذا ذات خبر. «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» أي ولا يغتب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لزم نفسه. واللمز الطعن باللسان. وقرأ يعقوب بالضم. «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ» ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً. «بِشْنِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ» أي بشن الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان وأشتهارهم به، والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق وإلى المؤمنين خصوصاً إذ روي أن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها، أنت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقلن لي يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها «هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليهم السلام». أو للدلالة على أن التنابر فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح. «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ» عما نهى عنه. «فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ كونوا منه على جانب، وإبهام الكثير ليعتاط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل، فإن من الظن ما يجب اتباعه كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، وما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات وحيث يحالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين، وما يباح كالظن في الأمور المعاشية. «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» مستأنف للأمر، والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه. والهزمة فيه بدل من الواو كأنه يثم الأعمال أي بكسرها. «وَلَا تَجَسَّسُوا» ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، تفعل من الجسس باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتمس، وقرئ بالحاء من الحسن الذي هو أثر الجسس وغايته ولذلك قيل للحواس الخمس الجواس: وفي الحديث «لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته». «وَلَا يَغْتَابَ بَعْضُكُم بَعْضًا» ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته. وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبت، وإن لم يكن فيه فقد بهته». «أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» تمثيل لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستفهام المقرر، وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتيال بأكل لحم الإنسان وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله: «فَكَرِهْتُمُوهُ» تقريراً وتحقيقاً لذلك. والمعنى إن صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهتموه ولا يمكنكم إنكار كراهته، وانتصاب «ميتاً» على الحال من اللحم أو الأخ وشده نافع. «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ» لمن اتقى ما نهى عنه وتاب مما فرط منه، والمبالغة في الـ «تواب» لأنه بليغ في قبول التوبة إذ يجعل صاحبها كمن لم يذنب، أو لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم، روي: أن رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ يبغيا لهما إداماً، وكان أسامة على طعامه فقال: ما عندي شيء فأخبرهما سلمان فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال

لهما: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما»، فقالا: ما تناولنا لحماً، فقال: «إنكما قد اغتبتما» فنزلت.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)﴾ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُكُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17)﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ (18)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ من آدم وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب. ويجوز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة عن الغتياب. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل. والقبيلة تجمع العماثر. والعمارة تجمع البطون. والبطن تجمع الأفخاذ. والفخذ يجمع الفضائل، فخرزمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، وعباس فصيلة. وقبل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالأباء والقبائل. وقرىء ﴿لتعارفوا﴾ بالإدغام و﴿لتتعارفوا﴾ و﴿لتعرفوا﴾. ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾ فإن التقوى بها تكمل النفوس وتتفاضل بها الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليتمسه منها كما قال عليه الصلاة والسلام «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله» وقال عليه الصلاة والسلام «يا أيها الناس إنما الناس رجال مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله». ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ نزلت في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون. ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب، ولم يحصل لكم إلا لما منتهم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وترك المقاتلة كما دل عليه آخر السورة. ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم وإظهار الشهادتين وترك المحاربة، يشعر به وكان نظم الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾، أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لـ ﴿قولوا﴾ فإنه حال من ضميره أي: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ ولم تواطىء قلوبكم ألسنتكم بعد. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق. ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ لا ينقصكم من أجورها. ﴿شَيْئاً﴾ من لا تيلت شيئاً إذا نقص، وقرأ البصريان «لا يالتكم» من الألت وهو لغة غطفان. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة، وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإيمان عنهم، و﴿ثم﴾ للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل فهي كما في قوله: ﴿ثم استقاموا﴾. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته والمجاهدة بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المالية والبدنية بأسرها. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في إدعاء الإيمان.

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ أَخْبَرُونَهُ بِهِ بِقَوْلِكُمْ آمَنَّا﴾. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، وهو تجهيل لهم وتوبيخ. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون فنزلت هذه الآية.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعدون إسلامهم عليك منة وهي النعمة التي لا يستثيب مولها ممن بذلها إليه، من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته. وقيل النعمة الثقيلة من المن. ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ﴾ أي بإسلامكم، فنصب بنزع الخافض أو تضمين الفعل معنى الاعتدال. ﴿بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء، وقرئ ﴿إِنْ هَدَاكُمْ﴾ بالكسر و ﴿إِذْ هَدَاكُمْ﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أي فالله المنة عليكم، وفي سياق الآية لطف وهو أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيماناً ومنوا به فنفي أنه إيمان وسماه إسلاماً بأن قال يمتنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام وليس بجدير أن يمن به عليك، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان قلله المنة عليهم بالهداية له لا لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما. ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرهم وعلايتكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم، وقرأ ابن كثير بالياء لما في الآية من الغيبة. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه».



[مكية، وهي خمس وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَلَمْ يَأْتِ الْوَيْلَ مِنْ قَبْلِهِمْ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ (5) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَشِيرٍ (7) تَبَصَّرْهُ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَزَرَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَعَتْ نَيْسِدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13)﴾

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ الكلام فيه كما مرّ في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. و ﴿المجيد﴾ ذو المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد، أو لأن من علم معانيه وامتلأ أحكامه مجد.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن ينذرهم أحد من جنسهم أو من أبناء جلدتهم. ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ حكاية لتعجبهم، وهذا إشارة إلى اختيار الله محمداً ﷺ للرسالة، وإضمار ذكرهم ثم إظهاره للأشعار بتعجبهم بهذا المقال، ثم التسجيل على كفرهم بذلك أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة، والمبالغة فيه بوضع الظاهر موضع ضميرهم وحكاية تعجبهم مبهمًا إن كانت الإشارة إلى منهم يفسره ما بعده، أو مجملًا إن أهون مما يشاهدون من صنعه.

﴿أَلَمْ يَأْتِ الْوَيْلَ مِنْ قَبْلِهِمْ بَعِيدٌ﴾ أي أنرجع إذا متنا وصرنا ترابًا، ويدل على المحذوف قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي بعيد عن الوهم أو العادة أو الإمكان. وقيل الرجوع بمعنى المرجوع.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما تأكل من أجساد موتاهم، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه، وقيل إنه جواب القسم واللام محذوف لطول الكلام. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، أو محفوظ عن التغيير، والمراد ما تمثيل علمه بتفاصيل الأشياء بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعه، أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات، أو النبي ﷺ، أو القرآن. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ﴾ وقرئ ﴿لَمَّا﴾ بالكسر. ﴿فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ﴾ مضطرب من مرج الخاتم في أصبعه إذا خرج، وذلك قولهم تارة أنه «شاعر» وتارة أنه «ساحر» وتارة أنه كاهن.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث. ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم.



﴿كَيفَ بَيْنَانَاهَا﴾ رفعناها بلا عمد. ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ فتوق بأن خلقها ملساء متلاصقة الطباقي.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبلاً ثوابت. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل صنف. ﴿بِهَيْجٍ﴾ حسن.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه، وهما علتان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبنا عن الفعل الأخير.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أشجاراً وأنهاراً. ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من أفعال فهو فاعل، وإفرادها بالذكر لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها. وقرئ لأجل القاف. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ علة لـ ﴿أَنْبَتْنَا﴾ أو مصدر، فإن الإثبات رزق. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء. ﴿بَلَدَةً مَيْتًا﴾ أرضاً جديبة لا نماء فيها. ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعون إياه وقومه ليلائم ما قبله وما بعده. ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ أخذنه لأنهم كانوا أصهاره.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ (14) أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ فَاسْتَكْبَرُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَنْتَلِقَى الْمَتَلَقَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21)

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ سبق في «الحجر» و «الدخان». ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم، وإفراد الضمير لإفراد لفظه. ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ فوجب وحل عليه وعيدي، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا عن الإبداء حتي نعجز عن الإعادة، من عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة فيه للإنكار. ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول بل هم في خلط، وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة، وتنكير الخلق الجديد لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ما تحدثه به نفسه وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة الصوت الخفي ومنها وسواس الحلي، والضمير لما إن جعلت موصولة والباء مثلها في صوت بكذا، أو لـ ﴿الإنسان﴾ إن جعلت مصدرية والباء للتعدية. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه ﴿من حبل الوريد﴾، تجوز بقرب الذات لقرب العلم لأنه موجبة و ﴿حبل الوريد﴾ مثل في القرب قال: والموت أدنى من الوريد. والـ ﴿حبل﴾ العرق وإضافته لليبان، والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمها بالتوتين يردان من الرأس إليه، وقيل سمي وريداً لأن الروح ترده.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مقدر باذكر أو متعلق بـ ﴿أَقْرَبَ﴾، أي هو أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى أي يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحقاق الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما، لكنه لحكمة اقتضته وهي ما فيه من تشديد يثبط العبد عن المعصية، وتأکید في اعتبار الأعمال وضبطها للجزاء وإلزام للحجة يوم يقوم الأشهاد. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ قعيد ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، أي مقاعد كالجلس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله: إني وقيار بها لغريب. وقد يطلق الفعل للواحد والمتعدد كقوله تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فيه. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب عمله. ﴿عَتِيدٌ﴾ معد حاضر، ولعله يكتب عليه ما فيه ثواب أو عقاب وفي الحديث «كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب عند الموت وقيام الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبر عنه بلفظ الماضي، وسكرة الموت شدته الداهية بالعقل والباء للتعدية كما في قولك: جاء زيد بعمرو. والمعنى وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر أو الموعود الحق، أو الحق الذي ينبغي أن يكون من الموت أو الجزاء، فإن الإنسان خلق له أو مثل الباء في ﴿نَبَتٌ بِالْدهْنِ﴾. وقرئ «سكرة الحق بالموت» على أنها لشدتها اقتضت الزهوق أو لاستعقابها له كأنها جاءت به، أو على أن الباء بمعنى مع. وقيل «سكرة الحق» سكرة الله وإضافتها إليه للتحويل. وقرئ «سكرات الموت». ﴿ذَلِكَ﴾ أي الموت. ﴿مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيذٌ﴾ تميل وتنفر عنه والخطاب للإنسان.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني نفخة البعث. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾ أي وقت ذلك يوم تحقق الوعيد وإنجازه والإشارة إلى مصدر ﴿نُفِخَ﴾.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقه والآخر يشهد بعمله، أو ملك جامع للوصفين. وقيل السائق كاتب السيئات، والشهيد كاتب الحسنات. وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله، ومحل ﴿مَعَهَا﴾ النصب على الحال من كل لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَلْقِيَا فِي الْمَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْهِ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيْهِ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ (30)﴾

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ على إضمار القول والخطاب ﴿لكل نفس﴾ إذ ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة أو للكافر. ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمر المعاد وهو الغفلة، والانهماك في المحسوسات والإلف بها وقصور النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ لزوال المانع للأبصار. وقيل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى: كنت في غفلة من أمر الديانة فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن، ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون. ويؤيد الأول قراءة من كسر التاء والكافات على خطاب النفس.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ قال الملك الموكل عليه. ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ما هو مكتوب عندي حاضر لدي، أو الشيطان الذي قبض له هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم هيأته لها باغوائي وإضلالي، و ﴿مَا﴾ إن جعلت موصوفة فـ ﴿عَتِيدٌ﴾ صفتها وإن جعلت موصولة قبلها أو خبر بعد خبر أو خبر محذوف.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو الملكين من خزنة النار، أو لواحد وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقوله:

فَإِنْ تَرَجَّرَانِي يَا ابْنَ عَقَّانِ أَنْزَجِرَ وَإِنْ تَدَعَانِي أَخْمِ عِزْماً مُمْنَعاً  
أو الألف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، ويؤيده أنه قرئ «ألقين» بالنون الخفيفة. ﴿عَتِيدٌ﴾ معاند للحق.

﴿مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه. ﴿مُعْتَدٌ﴾ متعد. ﴿مُرِيبٌ﴾ شاك في الله وفي دينه.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره. ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أو بدل من ﴿كل كفار﴾ فيكون ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكريراً للتوكيد، أو مفعول لمضمر يفسره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الشيطان المقيض له، وإنما استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاويل فإنه جواب لمحذوف دل عليه. ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ﴾ كأن الكافر قال هو أطعاني فـ ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ رينا ما أطعته بخلاف الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها للدلالة على الجمع بين مفهوميهما في الحصول، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه: ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فأعنته عليه فإن إغواء الشياطين إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى. ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي في موقف الحساب فإنه لا فائدة فيه، وهو استئناف مثل الأول. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في كتبي وعلى السنّة رسلي فلم يبق لكم حجة. وهو حال تعليل للنهي أي ﴿لا تختصموا﴾ عالمين بأنّي أوعدتكم، والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم، ويجوز أن يكون ﴿بالوعد﴾ حالاً والفعل واقعاً على قوله:

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي. وعفو بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد. ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فأعذب من ليس لي تعذيبه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ سؤال وجواب جيء بهما للتخييل والتصوير، والمعنى أنها مع اتساعها تطرح فيها الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلئ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ، أو أنها من شدة زفيرها وحدتها وتشبثها بالعصاة كالمستكثرة لهم والطالبة لزيادتهم. وقرأ نافع وأبو بكر يقول بالياء والـ ﴿مزيد﴾ إما مصدر كالمحيد أو مفعول كالمبيع، و ﴿يوم﴾ مقدر باذكر أو ظرف لـ ﴿نُفِخَ﴾ فيكون ذلك إشارة إليه فلا يفتقر إلى تقدير مضاف.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ بِالْمَقَرَّةِ﴾ (31) هَذَا مَا نُوعِدُونَ لِكُلِّ آوَابٍ حَافِظٍ (32) مَن حَسِيَ الْوَحْشَ بِالْعَيْبِ وَجَاءَ يَقْلَبِ مُنِيبٍ (33) أَدْحَلُوهَا يَسْلَمُ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ

أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ (40) ﴿

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قربت لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكاناً غير بعيد، ويجوز أن يكون حالاً وتذكيره لأنه صفة محذوف، أو شيئاً غير بعيد أو على زنة المصدر أو لأن الجنة بمعنى البستان.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على إضمار القول والإشارة إلى الثواب أو مصدر ﴿أُزْلِفَتْ﴾. وقرأ ابن كثير بالياء. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاء إلى الله تعالى، بدل من «المتقين» بإعادة الجار. ﴿حَفِظْتُ﴾ حافظ لحدوده.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بعد بدل أو بدل من موصوف ﴿أَوَّابٍ﴾، ولا يجوز أن يكون في حكمه لأن ﴿مَنْ﴾ لا يوصف به أو مبتدأ خبره.

﴿ادْخُلُوهَا﴾ على تأويل يقال لهم ﴿ادخلوها﴾، فإن من بمعنى الجمع وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول، أو صفة لمصدر أي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب، أو العقاب بعد غيب أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد. وتخصيص «الرحمن» للإشعار بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، أو بأنهم يخشون مع علمهم بسعة رحمته، ووصف القلب بالإناية إذ الاعتبار برجوعه إلى الله. ﴿بِسَلَامٍ﴾ سالمين من العذاب وزوال النقم، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ يوم تقدير الخلود كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك. ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قوة كعاد وثمود وفرعون. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فخرقوا في البلاد وتصرفوا فيها، أو جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت، فالقاء على الأول للتسبب وعلى الثاني لمجرد التعقيب، وأصل التنقيب التنقيب عن الشيء والبحث عنه. ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي لهم من الله أو من الموت. وقيل الضمير في ﴿نَقَّبُوا﴾ لأهل مكة أي ساروا في أسفارهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم، ويؤيده أنه قرئ ﴿فَنَقَّبُوا﴾ على الأمر، وقرئ ﴿فَنَقَّبُوا﴾ بالكسر من النقب وهو أن ينتقب البعير أي أكثروا السير حتى نقتب أقدامهم أو أخاف مراكبهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر في هذه السورة. ﴿لَذِكْرَى﴾ لتذكرة. ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب واع يتفكر في حقائقه. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي أصغى لاستماعه. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بذنه ليفهم معانيه، أو شاهد بصدقه فيتعظ بظواهره وينزجر بزواجه، وفي تنكير الـ ﴿قلب﴾ وإبهامه تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كلا قلب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مر تفسيره مراراً. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ من تعب وإعياء، وهو رد لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم بلا عياء قدر على بعثهم والانتقام منهم، أو ما يقول اليهود من الكفر والتشبيه. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ونزهة عن العجز عما يمكن والوصف بما يوجب التشبيه حامداً له على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها. ﴿قَبْلَ

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ يعني الفجر والعصر وقد عرفت فضيلة الوقتين.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي وسبحه بعض الليل. ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ وأعقاب الصلوات جمع دبر من أدبر، وقرأ الحجازيان وحمزة وخلف بالكسر من أدبرت الصلاة إذا انقضت. وقيل المراد بالتسبيح الصلاة، فالصلاة قبل طلوع الصبح وقبل الغروب: الظهر، والعصر. ومن الليل: العشاءان، والتهجد وأدبار السجود النوافل بعد المكتوبات. وقيل الوتر بعد العشاء.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)

﴿وَأَسْمِعْ﴾ لما أخبرك به من أحوال القيامة، وفيه تهويل وتعظيم للمخبر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ إسرافيل أو جبريل عليهما الصلاة والسلام فيقول: أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء، ولعله في الإعادة نظيركن في الإبداء، ويوم نصب بما دل عليه يوم الخروج.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ بدل منه و ﴿الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿الصَّيْحَةَ﴾ والمراد به البعث للجزاء. ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماء يوم القيامة وقد يقال للعبد.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا. ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ تشقق، وقرى «تنشق». وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو بتخفيف الشين. ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعين. ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾ بعث وجمع. ﴿عَلَيْنَا يَسِيرُ﴾ هين، وتقديم الظرف للاختصاص فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمسلط تقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت داع. ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنه لا ينتفع به غيره. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة «ق» هون الله عليه تارات الموت وسكراته». والله أعلم.

## سورة والذاريات

[مكية وآياتها ستون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا (1) فَأَلْحَمْتِ وَقَرَأَ (2) فَأَلْجَيْتِ يُمُرًا (3) فَأَلْمَسْتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّ (6) وَأَسْمَاءَ ذَاتِ الْحُبِّ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ (9)﴾

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا﴾ يعني الرياح تذر التراب وغيره، أو النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد، أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرهم. وقرأ أبو عمرو وحزمة بإدغام التاء في الذال.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فالسحب الحاملة للأمطار، أو الرياح الحاملة للسحاب، أو النساء الحوامل، أو أسباب ذلك. وقرئ ﴿وقرأ﴾ على تسمية المحمول بالمصدر.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالسفن الجارية في البحر سهلاً، أو الرياح الجارية في مهايبها، أو الكواكب التي تجري في منازلها. و﴿يسراً﴾ صفة مصدر محذوف أي جرياً ذا يسر.

﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة، أو الريح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب، فإن حملت على ذوات مختلفة بالفاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلا فالفاء لترتيب الأفعال إذ الريح مثلاً تذر الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً، فتحمله فتجري به باسطة له إلى حيث أمرت به فتقسم المطر. ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّ﴾ جواب القسم كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث للجزاء الموعود، وما موصولة أو مصدرية و﴿الذين﴾ الجزاء والواقع الحاصل.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبِّ﴾ ذات الطرائق، والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار وتتوصل بها إلى المعارف، أو النجوم فإن لها طرائق أو أنها تزينها كما يزين الموشي طرائق الوشي. جمع حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثل ومثل. وقرئ ﴿الحبك﴾ بالسكون و﴿الحبك﴾ كالإبل و﴿الحبك﴾ كالكسك و﴿الحبك﴾ كالجبل و﴿الحبك﴾ كالنعم و﴿الحبك﴾ كالبرق.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في الرسول ﷺ وهو قولهم تارة أنه ﴿شاعر﴾ وتارة أنه ﴿ساحر﴾ وتارة أنه ﴿معجون﴾، أو في القرآن أو القيامة أو أمر الديانة، ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها.

﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ يصرف عنه والضمير للرسول أو القرآن أو الإيمان، من صرف إذ لا صرف أشد

منه فكانه لا صرف بالنسبة إليه، أو يصرف من صرف في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للـ ﴿قول﴾ على معنى يصدر ﴿أفك﴾ من أفك عن القول المختلف ويسببه كقوله: يهون عن أكل وعن شرب. أي يصدر تناهيهم عنهما وسببهما وقرىء ﴿أفك﴾ بالفتح أي من أفك الناس وهم قريش كانوا يصدون الناس عن الإيمان.

﴿قِيلَ الْخَرَّصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رُحْمًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (17) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (18) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)﴾

﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون من أصحاب القول المختلف، وأصله الدعاء بالقتل أجري مجرى اللعن. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍو﴾ في جهل يغمرهم. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي فيقولون متى يوم الجزاء أي وقوعه، وقرىء ﴿إيان﴾ بالكسر.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون جواب للسؤال أي يقع ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾، أو هو ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾، وفتح ﴿يوم﴾ لإضافته إلى غير متمكن ويدل عليه أنه قرىء بالرفع.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي مقولاً لهم هذا القول. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا العذاب هو الذي كنتم به تستعجلون، ويجوز أن يكون هذا بدلاً من ﴿فتنتكم﴾ و﴿الذي﴾ صفته.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلين لما أعطاهم راضين به، ومعناه أن كل ما آتاهم حسن مرضي متلقي بالقبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم وهو تعليل لاستحقاقهم ذلك.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تفسير لإحسانهم و﴿ما﴾ مزيدة أي يهجعون في طائفة من الليل، أو يهجعون هجوعاً قليلاً أو مصدريه أو موصولة أي في قليل من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه ولا يجوز أن تكون نافية لأن ﴿ما﴾ بعدها لا يعمل فيما قبلها. وفيه مبالغات لتقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل و﴿الليل﴾ الذي هو وقت السبات، والهجوع الذي هو الفرار من النوم وزيادة ﴿ما﴾.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، وفي بناء الفعل على الضمير إشعاراً بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله وخشيتهم منه.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وإشفاقاً على الناس. ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ للمستجدي والمتعفف الذي يظن غنياً فيحرم الصدقة.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدحو والسكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفطر رحمته.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وفي أنفسكم آيات إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالة مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط

الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (22) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (23) هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ فَجَاءَهُ بَعْجَلٌ يُسَمِّنُ (26) فَفَرَّقَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29)﴾

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسباب رزقكم أو تقديره. وقيل المراد بـ ﴿السَّمَاءِ﴾ السحاب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب لأن الجنة فوق السماء السابعة، أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة في السماء. وقيل إنه مستأنف خبره: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ وعلى هذا فالضمير لـ ﴿مَا﴾ وعلى الأول يحتمل أن يكون له ولما ذكر من أمر الآيات والرزق والوعد. ﴿مِثْلٍ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك، ونصبه على الحال من المستكن في لحق أو الوصف لمصدر محذوف أي أنه لحق حقاً مثل نطقكم. وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء، وإن بما في حيزها إن جعلت زائدة ومحلها الرفع على أنه صفة ﴿لَحَقُّ﴾، ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر بالرفع.

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه أوحى إليه، والضيف في الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد. قيل كانوا إثني عشر ملكاً. وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وسماهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي مكرمين عند الله أو عند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرف للـ ﴿حديث﴾ أو الـ ﴿ضيف﴾ أو ﴿المكرمين﴾. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم، وقرئنا مرفوعين وقرأ حمزة والكسائي ﴿قال سلم﴾ وقرىء منصوباً والمعنى واحد. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون، وإنما أنكرهم لأنه ظن أنهم بنو آدم ولم يعرفهم، أو لأن السلام لم يكن تحيتهم فإنه علم الإسلام وهو كالتعرف عنهم.

﴿فَرَأَى إِلَهُ أَهْلِهِ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى حذراً من أن يكفه الضيف أو يصير منتظراً. ﴿فَجَاءَهُ بَعْجَلٌ يُسَمِّنُ﴾ لأنه كان عامة ماله البقر.

﴿فَفَرَّقَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه بين أيديهم. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي منه، وهو مشعر بكونه حنيذاً، والهمزة فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب أن قاله أول ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمر منهم خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاؤوه لشر. وقيل وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله. قيل مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ﴾ هو إسحق عليه السلام. ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمل علمه إذ بلغ.

﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم. ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحة من الصرير، ومحلها النصب على الحال أو المفعول إن أول فأقبلت بأخذت. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت بأطراف الأصابع



جبهتها فعل المتعجب. وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء. ﴿وَقَالَتْ عَبُورُ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عبور عاقر فكيف ألد.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (30) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (31) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (32) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِنْ طِينٍ﴾ (33) ﴿مُشَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (34) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (35) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (36) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (37) ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (38) ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (39) ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (40) ﴿وَفِي هَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (41) ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْسِ﴾ (42) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (43) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصُّعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (44) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ (45) ﴿وَقَوْمٌ نُوِجٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (46)

﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي بشرنا به. ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وإنما نخبرك به عنه. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا يتزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِنْ طِينٍ﴾ يريد السجيل فإنه طين متحجر.

﴿مُشَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مرسله من أسمت الماشية، أو معلمة من السومة وهي العلامة. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط وإضممارها ولم يجر ذكرها لكونها معلومة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ غير أهل بيت من المسلمين، واستدل به على اتحاد الإيمان والإسلام وهو ضعيف لأن ذلك لا يقتضي إلا من صدق المؤمن والمسلم على من اتبعه، وذلك لا يقتضي اتحاد مفهوميهما لجواز صدق المفهومات المختلفة على ذات واحدة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ علامة. ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فإنهم المعتبرون بها وهي تلك الأحجار، أو صخر منضود فيها أو ماء أسود متن.

﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾، أو ﴿تركنا فيها﴾ على معنى وجعلنا في موسى كقوله: ﴿عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا﴾. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هو معجزاته كالعصا واليد.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ فأعرض عن الإيمان به كقوله ﴿ونأى بجانبه﴾ أو فتولى بما كان يتقوى به من جنوده، وهو اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به. وقرئ بضم الكاف. ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي هو ساحر. ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنه جعل ما ظهر عليه من الخوارق منسوباً إلى الجن، وتردد في أنه حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ فأغرقناهم في البحر. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أت بما يلام عليه من الكفر والعناد، والجملة حال من الضمير في ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ سماها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن منفعة، وهي الدبور أو الجنوب أو النكباء.

﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ مُرْتٌ﴾. ﴿عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ كالرماد من الرم وهو البلى والتفتت.

﴿وَفِي نُوحٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّاعِقَةَ﴾ أي العذاب بعد الثلاث. وقرأ الكسائي «الصعقة» وهي المرة من الصعق. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها فإنها جاءتهم معاينة بالنهار.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾. وقيل من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿وَمَا كَانُوا مُتَعَصِّرِينَ﴾ ممتنعين منه.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه. أو أذكر ويجوز أن يكون عطفاً على محل ﴿في عاد﴾، ويؤيده قراءة أبي عمرو وحزمة والكسائي بالجر. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (47) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُودُونَ﴾ (48) ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (49) ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (50) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (51) ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (52) ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (53) ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (54) ﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الدِّكْرَىٰ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (55) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (56) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (57) ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (58) ﴿فَإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ (59) ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (60) ﴿

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ بِقُوَّةٍ﴾. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق. أو ﴿لموسعون﴾ السماء أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها لتستقروا عليها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحن.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس. ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات لا يقبل التعدد والانقسام.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ من عقابه بالإيمان والتوحيد وملازمة الطاعة. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي من عذابه المعد لمن أشرك أو عصى. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بين كونه منلراً من الله بالمعجزات، أو ﴿مبين﴾ ما يجب أن يحذر عنه. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أراد لأعظم ما يجب أن يفر منه. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة والثاني على الإشراك.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر مثل ذلك، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ﴿ساحراً أو مجنوناً﴾ وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ كالتفسير له، ولا يجوز نصبه بـ ﴿إِنِّي﴾ أو ما يفسره لأن ما بعد ﴿مَا﴾ النافية لا يعمل فيما قبلها.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي كان الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً.

﴿يَلْهُمَّ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه.

﴿قَتُولَ عَنُومٍ﴾ فاعرض عن مجادلتهم بعدما كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإصرار والعناد. ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت جهدك في البلاغ.

﴿وَذَكَّرَ﴾ ولا تدع التذكير والموعظة. ﴿فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قدر الله إيمانه أو من آمن فإنه يزداد بها بصيرة.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها، جعل خلقهم مغياها مبالغة ذلك، ولو حمل على ظاهره مع أن الدليل يمنعه لنا في ظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عباداً لي.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ أي ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به، والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم، ويحتمل أن يقدر بقل فيكون بمعنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق، وفيه إيماء باستغنائه عنه، وقرئ «إني أنا الرزاق» ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ شديد القوة، وقرئ «المتين» بالجر صفة لـ ﴿القوة﴾.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي للذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب نصيباً من العذاب. ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلاء، فإن الذنوب هو الدلو العظيم المملوء. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿قَوْلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة أو يوم بدر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريع هبت وجرت في الدنيا».

## سورة والطور

[مكية وآياتها تسع أو ثمان وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ (1) وَكَتَبَ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً (13)﴾

﴿وَالطُّورِ﴾ يريد طور سينين، وهو جبل بمدينة مدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى،  
﴿وَالطُّورِ﴾ الجبل بالسريانية أو ما طار من أوج الإيجاد إلى حضيض المواد، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب، والسطر ترتيب الحروف المكتوبة. والمراد به القرآن أو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، أو ألواح موسى عليه السلام، أو في قلوب أوليائه من المعارف والحكم أو ما تكتبه الحفظة.

﴿فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما كتب فيه الكتاب، وتنكيرهما للتعظيم والإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ يعني الكعبة وعمارته بالحجاج والمجاورين، أو الضراح وهو في السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة، أو قلب المؤمن وعمارته بالمعرفة والإخلاص.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي المملوء وهو المحيط، أو الموقد من قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾ روي أنه تعالى يجعل يوم القيامة البحار ناراً يسجر بها نار جهنم، أو المختلط من السجير وهو الخليلط.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ لنازل.

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه، ووجه دلالة هذه الأمور المقسم بها على ذلك أنها أمور تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وصدق أخباره وضبطه أعمال العباد للمجازاة.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تضطرب، والمور تردد في المجيء والذهاب، وقيل تحرك في تموج و ﴿يَوْمَ﴾ ظرف.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء.

﴿قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي في الخوض في الباطل .

﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ يدعون إليها دفعاً بعنف ، وذلك بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار . وقرئ ﴿يدعون﴾ من الدعاء فيكون دعا حالاً بمعنى مدعين ، و ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم تمور﴾ أو ظرف لقول مقدر محكية .

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا

تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَتَكْبِهِمْ أَمْ أَنْتُمْ لَهُمْ لَوَّاعُونَ (18) كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ (21) رَهِنٌ (21)﴾

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك .

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ أي كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفهذا المصداق أيضاً سحر ، وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ . ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، ما يدل عليه وهو تفرغ وتهكم أو أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم حين قلتم ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ .

﴿أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ أي ادخلوها على أي وجه شئت من الصبر وعدمه فإنه لا محيص لكم عنها . ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران الصبر وعدمه . ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان الجزاء واجب الوقوع كان الصبر وعدمه سيين في عدم النفع .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في أية جنات وأي نعيم ، أو في ﴿جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ مخصوصة بهم .

﴿فَاكْبِهِمْ﴾ ناعمين متلذذين . ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وقرئ ﴿فَكَهِنَ﴾ و ﴿فاكهون﴾ على أنه الخبر والظرف لغو . ﴿وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ عطف على ﴿آتَاهُمْ﴾ إن جعل ﴿ما﴾ مصدرية ، أو ﴿في جنات﴾ أو حال بإضمار قد من المستكن في الظرف أو الحال ، أو من فاعل آتي أو مفعوله أو منهما .

﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي أكلا وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾ ، أو طعاماً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾ وهو الذي لا تنغيص فيه . ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بدله ، وقيل الباء زائدة و ﴿ما﴾ فاعل ﴿هَنِيئًا﴾ ، والمعنى هناكم ما كنتم تعملون أي جزاؤه .

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباء لما في التزويج من معنى الوصل والإلصاق ، أو للسببية إذ المعنى صيرناهم أزواجاً بسببهن ، أو لما في التزويج من معنى الإلصاق والقرن ولذلك عطف .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ على حور أي قرانهم بأزواج حور ورفقاء مؤمنين . وقيل إنه مبتدأ ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ وقوله : ﴿وَأَنبَعَثْنَاهُمْ فِي بَيْمَاتٍ﴾ اعتراض للتعليل ، وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿ذرياتهم﴾ بالجمع وضم التاء للمبالغة في كثرتهم والتصريح ، فإن الذرية تقع على الواحد والكثير ، وقرأ أبو عمرو و ﴿أَتبعناهم ذرياتهم﴾ أي

جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقيل ﴿بإيمان﴾ حال من الضمير أو الذرية أو منهما وتنكيره للتعظيم، أو الإشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان. ﴿الْحَقَّقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في دخول الجنة أو الدرجة. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقربهم عنه ثم تلا هذه الآية» وقرأ نافع وابن عامر والبصريان ﴿ذرياتهم﴾. ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ وما نقصناهم. ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ بهذا الإلحاق فإنه كان يحتمل أن يكون بنقص مرتبة الآباء أو بإعطاء الأبناء بعض مثوباتهم، ويحتمل أن يكون بالتفصيل عليهم وهو اللائق بكمال لطفه. وقرأ ابن كثير بكسر اللام من ألت يألت، وعنه «لتنأهم» من لات يليت و «ألتناهم» من ألت يولت، و «والتنأهم» من ولت يلت ومعنى الكل واحد. ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ بعمله مرهون عند الله تعالى فإن عمل صالحاً فكه وإلا أهلكه.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَلْتَنَزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلُكُمْ بِذُنُوبٍ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32)﴾

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم وقتاً بعد وقت ما يشتهون من أنواع التمتع.

﴿يَلْتَنَزِعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطون هم وجلساؤهم بتجاذب. ﴿كَأْسًا﴾ خمرأ سماها باسم محلها ولذلك أنت الضمير في قوله: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ﴾ أي لا يتكلمون بلغو الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلوا ما يؤثم به فاعله كما هو عادة الشاربين في الدنيا، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ وقرأهما ابن كثير والبصريان بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي بالكأس. ﴿غُلَمَانٌ لَهُمْ﴾ أي مماليك مخصوصون بهم. وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ مصون في الصدف من بياضهم وصفائهم. وعنه ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ فَضَّلَ الْمُخَدُّومُ عَلَى الْخَادِمِ فَفَضَّلَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عصيان الله معتنين بطاعته، أو وجلين من العقابة.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة والتوفيق. ﴿وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم، وقرئ ﴿وَوَقَدْنَا﴾ بالتشديد.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك في الدنيا. ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده أو نسأله الوقاية. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الْمَحْسَنُ﴾، وقرأ نافع والكسائي ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح. ﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة.

﴿فَذَكِّرْ﴾ فأنبت على التذكير ولا تكثر بقولهم. ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمد الله وإنعامه. ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، كما يقولون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ ما يلقى النفوس من حوادث الدهر، وقيل ﴿المنون﴾ الموت فعول من منه إذا قطعه.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ﴾ عقولهم. ﴿بِهَذَا﴾ بهذا التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى عقله والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق مخيل، ولا يتأتى ذلك من المجنون وأمر الأحلام به مجاز عن أدائها إليه. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَّاغُوتٌ﴾ مجاوزون الحد في العناد وقرىء «بل هم».

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُصْطَرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43) فَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنْ آيَاتِ قِسْمَتِهِ وَإِذْ بَنَى الْجَبُورِ (49)﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ اختلقه من لقاء نفسه. ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونه بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن. ﴿إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعمهم إذ فيهم كثير ممن عدوا فضحاء فهو رد للأقوال المذكورة بالتحدي، ويجوز أن يكون رد للقول فإن سائر الأقسام ظاهر الفساد.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم أحدثوا وقدروا من غير محدث ومقدر فلذلك لا يعبدونه، أو من أجل لا شيء من عبادة ومجازاة. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يؤيد الأول فإن معناه أم خلقوا أنفسهم ولذا عقبه بقوله:

﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ و ﴿أَمْ﴾ في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا الله إذا لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ﴾ خزائن رزقه حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا، أو خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختارته حكمته. ﴿أَمْ هُمُ الْمُصْطَرُونَ﴾ الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف شاؤوا. وقرأ قبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاي، والباقون بالصاد خاصة.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ﴾ مرتقى إلى السماء. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلاً أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيتطلع على الغيوب.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ﴾ من التزام غرم. ﴿مُثْقَلُونَ﴾ مجملون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ الميث في المغيبات. ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ منه.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص فيكون وضعه موضع الضمير للتسجيل على كفرهم، والدلالة على أنه الموجب للحكم المذكور.

﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم الكيد أو يعود عليهم وبال كيدهم، وهو قتلهم يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايده فكدته.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو شركة ما يشركونه به.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة. ﴿مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم. ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ هذا سحاب تراكم بعضه على بعض، وهو جواب قولهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو عند النفخة الأولى، وقرئ. «يلقوا» وقرأ ابن عامر وعاصم ﴿يُصْعَقُونَ﴾ على المبني للمفعول من صعقه أو أصعقه.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الإغناء في رد العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي دون عذاب الآخرة وهو عذاب القبر أو المؤاخذه في الدنيا كقتلهم ببدر والقحط سبع سنين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وإيقانك في عنائهم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظنا بحيث نراك ونكلوك وجمع العين لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت أو من منامك أو إلى الصلاة.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء، ولذلك أفرده بالذكر وقدمه على الفعل ﴿وَإِذَا أَدْبَرْتَ النُّجُومَ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل، وقرئ بالفتح أي في أعقابها إذا غربت أو خفيت. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة والطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته».





[مكية وآياتها إحدى أو اثنتان وستون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (9) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (11) أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (15)﴾

﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم بجنس النجوم أو الثريا فإنه غلب فيها إذا غرب أو انتشر يوم القيامة أو انقضى أو طلع فإنه يقال. هوى هويًا بالفتح إذا سقط وغرب، وهويًا بالضم إذا علا وصعد، أو بالنجم من نجوم القرآن إذا نزل أو النبات إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفع على قوله.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، والخطاب لقريش. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ وما اعتقد باطلاً والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى.

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن أو الذي ينطق به. ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي إلا وحي يوحيه الله إليه، واحتج به من لم ير الاجتهاد له. وأجيب عنه بأنه إذا أوحى إليه بأن يجتهد كان اجتهاده وما يستند إليه وحيًا، وفيه نظر لأن ذلك حينئذ يكون بالوحي لا الوحي.

﴿عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فإن الوسطة في إبداء الخوارق، روي أنه قلع قرى قوم لوط ورفها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ حصافة في عقله ورأيه. ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها. قيل ما رآه أحد من الأنبياء في صورته غير محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، مرة في السماء ومرة في الأرض، وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ في أفق السماء والضمير لجبريل عليه السلام.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلق به وهو تمثيل لعروجه بالرسول ﷺ. وقيل ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا فيكون من الرسول إشعاراً بأنه عرج به غير منفصل عن محله تقريراً لشدة قوته، فإن التدلي استرسال مع تعلق كتدلي الثمرة، ويقال دلى رجله من السرير وأدلى دلو، والدوالي الثمر المعلق.

﴿فَكَانَ﴾ جبريل عليه السلام كقولك: هو مني معقد إزار، أو المسافة بينهما. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارهما. ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ على تقدير كم كقوله أو يزيدون، والمقصود تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفي البعد الملبس.

﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل عليه السلام. ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ عبد الله واضماره قبل الذكر لكونه معلوماً كقوله: ﴿على ظهرها﴾ ﴿مَا أَوْحَى﴾ جبريل عليه السلام وفيه تفخيم للموحى به أو الله إليه، وقيل الضمائر كلها لله تعالى وهو المعني بشديد القوى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ ودنوه منه برفع مكانته وتدليه جذبه بشرائشه إلى جناب القدس.

﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ما رأى يبصره من صورة جبريل عليه السلام أو الله تعالى، أي ما كذب بصره بما حكا له فإن الأمور القدسية تترك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر، أو ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه يبصره، أو ما رآه بقلبه والمعنى أنه لم يكن تخيلاً كاذباً. ويدل عليه «أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل رأيت ربك؟ فقال رأيت بقلبي». وقرأ هشام ما كذب أي صدقه ولم يشك فيه.

﴿أَفْتَمَارُؤُهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ أفتجادلونه عليه، من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب «أفتمرونه» أي أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته، أو أفتجحدونه من مراه حقه إذا جحده وعلى لتضمن الفعل معنى الغلبة فإن المماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ مرة أخرى فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها إشعاراً بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بنزول ودنو والكلام في المرئي والدنو ما سبق. وقيل تقديره ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى، ونصبها على المصدر والمراد به نفي الريبة عن المرة الأخيرة.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ التي ينتهي إليها أعمال الخلائق وعلمهم، أو ما ينزل من فوقها ويصعد من تحتها، ولعلها شبهت بالسدره وهي شجرة النبق لأنهم يجتمعون في ظلها. وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعة.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ الجنة التي يأوي إليها المتقون أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18) أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمُزَيْنِ (19) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى (21) تِلْكَ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَنْمَا أَنْتَ خَلْقٌ وَأَنَا خَلْقٌ أَنزِلْ إِلَيَّ مِنْ سُلْطَانٍ إِنِّي بُتِّعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (23) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)﴾

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لا يكتنفها نعت ولا يحصيها عدّ، وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه. ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تجاوزه بل أثبتة إثباتاً صحيحاً مستقيماً، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج وقد قيل إنها المعنية بما «رأى». ويجوز أن تكون «الكبرى» صفة للآيات على أن المفعول محذوف

أي شيئاً من آيات ربه أو ﴿من﴾ مزيدة.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ هي أصنام كانت لهم، فاللات كانت لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلون عليها أي يطوفون. وقرأ هبة الله عن البرقي ورويس عن يعقوب ﴿اللات﴾ بالتشديد على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلت السوق بالسمن ويطعم الحاج. ﴿والعزى﴾ بالتشديد سمرة لغطفان كانوا يعبدونها فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، وأصلها تأنيث الأعز ﴿ومناة﴾ صخرة كانت لهذيل وخزاعة وهي فعلة من مناه إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين ومنه منى. وقرأ ابن كثير ﴿مناة﴾ وهي مفعلة من النوء فإنهم كانوا يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها، وقوله ﴿الثالثة الأخرى﴾ صفتان للتأكيد كقوله تعالى: ﴿يطير بجناحيه﴾ أو ﴿الأخرى﴾ من التأخر في الرتبة.

﴿الْكُفَّ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ إنكار لقولهم الملائكة بنات الله، وهذه الأصنام استوطنها جنيات هن بناته، أو هياكل الملائكة وهو المفعول الثاني لقوله ﴿أفرأيتم﴾.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ جائزة حيث جعلتم له ما تستكفون منه وهي فعلى من الضيز وهو الجور، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل في بيض فإن فعلى بالكسر لم تأت وصفاً. وقرأ ابن كثير بالهمز من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت به.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ الضمير للأصنام أي ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها لأنهم يقولون أنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية، أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبنات وشفعاء، أو للأسماء المذكورة فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاتها للعكوف على عبادتها، والعزى لعزتها ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين. ﴿سَمَّيْنَاهَا﴾ سميت بها.

﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ بهواكم. ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ برهان تتعلقون به. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ وقرئ بالتاء. ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهماً باطلاً. ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وما تشتهي أنفسهم. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ الرسول أو الكتاب فتركوه.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والمعنى ليس له كل ما يتمناه والمراد نفى طمعهم في شفاعة الآلهة وقولهم: ﴿لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ وقوله: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ونحوهما.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَحْنٌ﴾ (26) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُ الْمُتَلَكَّةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَىٰ﴾ (27) ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (28) ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (29) ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ (30) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ (31) ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الذَّنْبِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْتَهَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (32) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ (33) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَاكْدَىٰ﴾ (34) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَىٰ﴾ (35)

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً ولا تنفع.

﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعة. ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له. ﴿وَيَرْضَى﴾ ويراه أهلاً لذلك فكيف تشفع الأصنام لعبدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي كل واحد منهم. ﴿تَسْمِيَةَ الْإِنثَى﴾ بأن يسموه بنتاً.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بما يقولون، وقرئ بها أي بالملائكة أو بالتسمية. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ فإن الحق الذي هو حقيقة الشيء لا يدرك إلا بالعلم، والظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقية، وإنما العبرة به في العمليات وما يكون وصلة إليها.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فأعرض عن دعوته والاهتمام بشأنه فإن من غفل عن الله وأعرض عن ذكره. وانهلك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته ومبلغ علمه لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

﴿ذَلِكَ﴾ أي أمر الدنيا أو كونها شهية. ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزه علمهم والجملة اعتراض مقرر لقصور همهم بالدنيا وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ تعليل للأمر بالإعراض أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بعقاب ما عملوا من سوء أو بمثله أو بسبب ما عملوا من سوء، وهو بمثله دل عليه ما قبله أي خلق العالم وسواه للجزاء، أو ميز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ بالمشوبة الحسنى وهي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه. وقيل ما أوجب الحد. وقرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على إرادة الجنس أو الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ ما فحش من الكبائر خصوصاً. ﴿إِلَّا اللَّصَمَ﴾ إلا ما قل وصغر فإنه مغفور من معجتي الكبائر، والاستثناء منقطع ومحل الذين النصب على الصفة أو المدح أو الرفع على أنه خبر محذوف. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو له أن يغفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، ولعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين لئلا يياس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أعلم بأحوالكم منكم. ﴿إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب بخلق آدم وحينما صوركم في الأرحام. ﴿فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير، أو بالطهارة عن المعاصي والردائل. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ فإنه يعلم التقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ وقطع العطاء من قولهم أكدي الحافر إذا بلغ الكدية وهي الصخرة الصلبة فترك الحفر. والأكثر على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يتبع رسول الله ﷺ فغيره بعض بعض المشركين وقال: تركت دين الأشياخ وضللته فقال أخشى عذاب الله تعالى فضمن أن يتحمل عنه العقاب إن أعطاه

بعض ماله فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي .

﴿أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ يعلم أن صاحبه يتحمل عنه .

﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَمْ نَزِرْ وَزَرَةً وَنَزَّلْنَا أُخْرَى (38) وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى (40) ثُمَّ يُخَرِّجُهُ الْجَزَاءَ الْآوْفَى (41) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنْتُمْ هُمْ أَضْحَكُ وَأَبْكَى (43) وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرُّوحَ الْذَكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَاءُ الْأُخْرَى (47) وَأَنْتُمْ هُمْ أَغْنَى وَأَفْنَى (48) وَأَنْتُمْ هُمْ رَبُّ الشُّعْرَى (49) وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَتُؤْمِدُ أُمَّا أَبْقَى (51)﴾

﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وفي وأنتم ما التزمه وأمر به ، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله ، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى أناه جبريل عليه السلام حين ألقى في النار فقال ألك حاجة ، فقال أما إليك فلا ، وذبح الولد وأنه كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم ، وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم .

﴿أَلَمْ نَزِرْ وَزَرَةً وَأَنْزَرْنَا أُخْرَى﴾ أن هي المخففة من الثقلة وهي بما بعدها في محل الجر بدلاً مما ﴿في صحف موسى﴾ ، أو الرفع على هو أن ﴿لا تزر﴾ كأنه قيل ما في صحفهما ؟ فأجاب به ، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يخالف ذلك قوله : ﴿كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام ، «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره .

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلا سعيه أي كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله ، وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت فلكون الناي له كالتائب عنه .

﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى ثُمَّ يُخَرِّجُهُ الْجَزَاءَ الْآوْفَى﴾ أي يجزي العبد سعيه بالجزاء الأوفر فنصب بنزع الخافض ، ويجوز أن يكون مصدرأ وأن تكون الهاء للجزاء المدلول عليه بيجزي و ﴿الجزاء﴾ بدله .

﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم ، وقرئ بالكسر على أنه منقطع عما في الصحف وكذلك ما بعده .

﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَضْحَكُ وَأَبْكَى وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره فإن القاتل ينقض البنية والموت يحصل عنده بفعل الله تعالى على سبيل العادة .

﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرُّوحَ الْذَكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ تدفق في الرحم أو تخلق ، أو يقدر منها الولد من منى إذا قدر .

﴿وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَاءُ الْأُخْرَى﴾ الإحياء بعد الموت وفاء بوعده ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بالمد وهو أيضاً مصدر نشأ .

﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَغْنَى وَأَفْنَى﴾ وأعطى القنية وهو ما يتأثل من الأموال ، وإفرادها لأنها أشف الأموال أو أراضى وتحقيقه جعل الرضا له قنية .

﴿وَأَنْتُمْ هُمْ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ يعني العبور وهي أشد ضياء من الغميصاء ، عيها أبو كيشة أحد أجداد النبي ﷺ وخالف قريشاً في عبادة الأوثان ، ولذلك كانوا يسمون الرسول ﷺ ابن أبي كيشة ، ولعل تخصيصها

للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة في مخالقاتهم خالفه أيضاً في عبادتها.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه الصلاة والسلام. وقيل ﴿عاداً الأولى﴾ قوم هود وعاد الأخرى إرم. وقرئ ﴿عاداً لولى﴾ بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى لام التعريف وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿عاداً لولى﴾ بضم اللام بحركة الهمزة وبإدغام التنوين، وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو.

﴿وَتَمُودًا﴾ عطف على ﴿عاداً﴾ لأن ما بعده لا يعمل فيه، وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير الألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف. ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ الفريقين.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَنَ﴾ (52) ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ (53) ﴿فَفَعَشَهَا مَاعِشَى﴾ (54) ﴿فَبَآئِيَ آلَهُ رَبِّكَ تَمَارَى﴾ (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى (56) أَرَفَتِ الْآزِفَةَ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضَحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)﴾

﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ﴾ أيضاً معطوف عليه. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل عاد وتمود. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَنَ﴾ من الفريقين لأنهم كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها أي انقلبت وهي قرى قوم لوط. ﴿أَهْوَى﴾ بعد أن رفعها فقلبها.

﴿فَفَعَشَاهَا مَاعِشَى﴾ فيه تهويل وتعميم لما أصابهم.

﴿فَبَآئِيَ آلَهُ رَبِّكَ تَمَارَى﴾ تشكك والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد والمعدودات وإن كانت نعماً ونقماً سماها ﴿آلاء﴾ من قبل ما في نقمه من العبر والمواعظ للمعتبرين، والانتقام للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي هذا القرآن إنذار من جنس الإنذارات المتقدمة، أو هذا الرسول نذير من جنس المنذرين الأولين.

﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله لكنه لا يكشفها، أو الآن بتأخيرها إلا الله، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله إذ لا يطلع عليه سواه، أو ليس لها من غير الله كشف على أنها مصدر كالعافية.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً.

﴿وَتَضَحَكُونَ﴾ استهزاء. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزناً على ما فرطتم.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ لاهون أو مستكبرون من سمد البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو معنون لتسفلوا الناس عن استماعه من الشمود وهو الغناء.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي واعبدوه دون الآلهة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة».

## سورة القمر

[مكية وآياتها خمس وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّذْذِرَ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ (6) خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا بَحْتُونُ وَازْدَجَرُوا (9) فَدَعَا رَبُّهُ وَإِنَّا مُقْلَبُونَ فَانْتَصَرَ (10)﴾

﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ روي أن الكفار سألو رسول الله ﷺ آية فانشق القمر. وقيل معناه سينشق يوم القيامة ويؤيد الأول أنه قرئ «وقد انشق القمر» أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر، وقوله:

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ عن تأملها والإيمان بها. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ مطرد وهو يدل على أنهم رأوا قبله آيات آخر مترادفة ومعجزات متتابعة حتى قالوا ذلك، أو محكم من المرة يقال أمرته فاستمر إذا أحكمته فاستحكم، أو مستبشع من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته أو ما ز داهب لا يبقى.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق بعد ظهوره، وذكرهما بلفظ الماضي للإشعار بأنهما من عاداتهم القديمة. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ منته إلى غاية من خذلان أو نصر في الدنيا وشقاؤه، أو سعادة في الآخرة فإن الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر، وقرئ بالفتح أي ذو مستقر بمعنى استقرار وبالكسر والجر على أنه صفة أمر، وكل معطوف على الساعة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ في القرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة. ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ ازدجار من تعذيب أو وعيد، وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الذال والذال والزاي للتناسب، وقرئ «مزجر» بقلبها زايًا وإدغامها.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ غايتها لا خلل فيها وهي بدل من ما أو خبر لمحدوف، وقرئ بالنصب حالاً من ما فإنها موصولة أو مخصوصة بالصفة نصب الحال عنها. ﴿فَمَا تُغْنِي التَّذْذِرَ﴾ نفي أو استفهام إنكار، أي فأي غناء تغني النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر، أو المنذر منه أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يغني فيهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرافيل، ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر في قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإسقاط الباء اكتفاء بالكسرة للتخفيف وانتصاب ﴿يَوْمَ﴾ بـ ﴿يُخْرَجُونَ﴾

أو بإضمار أذكر. ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد مثله وهو هول يوم القيامة، وقرأ ابن كثير بالتحفيف، وقرئ ﴿تَكَرَّ﴾ بمعنى أنكر.

﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من قبورهم خاشعاً ذليلاً أبصارهم من الهول، وإفراده وتذكيره لأن فاعله ظاهر غير حقيقي التأنيث، وقرئ «خاشعة» على الأصل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم ﴿خُشَعًا﴾، وإنما حسن ذلك ولم يحسن مررت برجال قائمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة تشبه الفعل، وقرئ «خشع أبصارهم» على الابتداء والخبر فتكون الجملة حالاً. ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيل بعد إجمال، وقيل معناه كذبوه كذباً على عقب تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبوه بعدما كذبوا الرسل. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون. ﴿وَأَرْذَلْهُمْ﴾ وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية، وقيل إنه من جملة قيلهم أي هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ بأنني وقريء بالكسر على إرادة القول. ﴿غَلِبَنِي قَوْمِي﴾. ﴿فَأَنْتَصِرُ﴾ فانقم لي منهم وذلك بعد يأسه منهم. فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفوق ويقول: «اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهُ آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (17) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَانْتَهُمُ أَعْجَازًا تَحِلُّ مُتَعَمِّرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23)﴾

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ منصب، وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة أنصابها، وقرأ ابن عامر ويعقوب ففتحننا بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة، وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير للمبالغة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض، وقرئ «الماءان» لاختلاف النوعين «الماوان» بقلب الهزة وارا. ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت، أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل على قدر ما أخرج، أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ ذات أخشاب عريضة. ﴿وَدُسِّرَ﴾ ومسامير جمع دسار من الدسر، وهو الدفع الشديد وهي صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث أنها كالشرح لها تؤدي مؤداها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه نعمة كفرها، فإن كل نبي نعمة من الله تعالى ورحمة على أمته، ويجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير، وقرئ «لمن كفر» أي للكافرين.



﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي السفينة أو الفعلة. ﴿آيَةً﴾ يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ معتبر، وقرئ «مذكر» على الأصل، و «مذكر» بقلب التاء ذالاً والإدغام فيها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ استفهام تعظيم ووعيد، والنذر يحتمل المصدر والجمع.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ سهّلناه أو هيأناه من يسر ناقتة للسفر إذا رحلها. ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للدكار والاعتاظ بأن صرفنا فيه أنواع المواعظ والعبر، أو للحفظ بالاختصار وعذوبة اللفظ. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ متعظ.

﴿كَذَّبْتَ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ وإنذاري أتى لهم بالعذاب قبل نزوله، أو لمن بعدهم في تعذيبهم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ بارداً أو شديداً الصوت. ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ﴾ شؤم. ﴿مُستَمِرٍّ﴾ أي استمر شؤمه، أو استمر عليهم حتى أهلكهم، أو على جميعهم كبيرهم وصغيرهم فلم يبق منهم أحداً، أو اشتد مرارته وكان يوم الأربعاء آخر الشهر.

﴿تَنَزَّعُ النَّاسُ﴾ تقلعهم، روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فتزعتهم الريح منها وصرعتهم موتى. ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازٌ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض. وقيل شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم، وتذكير «منقعر» للحمل على اللفظ، والتأنيث في قوله «أعجاز نخل خاوية» للمعنى.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ كرهه للتحويل. وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا، والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم «لنذيقنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخرى».

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ كَذَّبْتَ ثُمُودَ بِالنُّذْرِ﴾ بالإنذارات والمواعظ، أو الرسل.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَجِدًا نُنَبِّئُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَهْلَيْ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ (25) سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابِ الْأَشِرُّ (26) إِنَّا مَرِيسُلُوا النَّافَةَ فَنَنَاءَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَيَبَيِّنُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْضَرٌّ (28) فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَطَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْظَرِّ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (32) كَذَّبْتَ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذْرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةٌ مِنَّا بِكَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)﴾

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا﴾ من جنسنا أو من حملنا لا فضل له علينا، وانتصابه بفعل يفسره وما بعده وقرئ بالرفع على الابتداء والأول أوجه للاستفهام. ﴿وَاحِدًا﴾ منفرداً لا تبع له أو من آحادهم دون أشرافهم. ﴿نُنَبِّئُهُ﴾ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ جمع سعيير كأنه عكسوا عليه فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتب على ترك اتباعهم له، وقيل السحر الجنون ومنه ناقة مسعورة.

﴿أَهْلِي الذِّكْرِ﴾ الكتاب أو الوحي. ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وفيما من هو أحق منه بذلك. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ﴾ حمله بطره على الترفع علينا بادعائه إياه.

﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة. ﴿مَنْ الْكُذَّابِ الْأَشِرُّ﴾ الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح عليه السلام أم من كذبه؟ وقرأ ابن عامر وحمزة ورويس سيعلمون على الالتفات أو حكاية ما أجابهم به صالح، وقرئ «الأشر» كقولهم حذر في حذر و «الأشر» أي الأبلغ في الشرارة وهو أصل مرفوض كالأخير.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ مخرجوها وباعثوها. ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ امتحاناً لهم. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصر ما يصنعون. ﴿وَاضْطَرِّبْ﴾ على أذاهم.

﴿وَتَبَّهْمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم، و ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لتغليب العقلاء. ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُّخْتَضِرٍ﴾ يحضره صاحبه في نوبته أو يحضره عنه غيره. ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾ قرار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى فَقَعْرَ﴾ فاجترأ على تعاطي قتلها فقتلها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطي تناول الشيء بتكلف.

﴿فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صيحة جبريل عليه السلام. ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ كالشجر اليابس المتكسر الذي يتخذه من يعمل الخطيرة لأجلها أو كالخشيش اليبس الذي يجمعه صاحب الخطيرة لما شيته في الشتاء، وقرىء بفتح الظاء أي كهشيم الخطيرة أو الشجر المتخذ لها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم. ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ في سحر وهو آخر الليل أو مسحرين. ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدَنَا﴾ إنعاماً منا وهو علة لنجينا. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (36) ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ فطمسنا أعينهم فدووا عذاباً ونذراً

(37) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ (38) ﴿فَدُودُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (39) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾

(40) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (41) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (42) ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ

بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (43) ﴿أَمْ يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ مُّنْصَرٌّ﴾ (44) ﴿سَمِيعُكُمْ أَجْمَعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾ (45) ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَنُ

وَأَمْرٌ﴾ (46) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ مُّسْعِرٍ﴾ (47) ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُودُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (48) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

يَقْدِرُ﴾ (49) ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (50) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ (51) ﴿

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط. ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين.

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ قصدوا الفجور بهم. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسخناها وسويناها بسائر الوجه.

روي أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقههم جبريل عليه السلام صفقة فأعماههم. ﴿فَدُودُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ فقلنا لهم ذوقوا على السنة الملائكة أو ظاهر الحال.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾ وقرىء ﴿بِكْرَةً﴾ غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار معين. ﴿عَذَابٌ

مُسْتَقَرٌّ﴾ يستقر بهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَدُودُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ كرر ذلك في كل قصة إشعاراً بأن

تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب واستماع كل قصة مستدع للادكار والاتعاظ، واستئنافاً للتنبيه

والاتعاظ لثلا يغلبهم السهو والغفلة، وهكذا تكرير قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ﴿وَبَلِ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ونحوهما.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك منهم.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني الآيات التسع. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب. ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا معشر العرب. ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ الكفار المعدودين قوة وعدة أو مكانة وديناً عند الله

تعالى. ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم نزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعة أمرنا. ﴿مُتَّصِرٌ﴾ متمتع لا نرام أو منتصر من الأعداء لا نغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً والتوحيد على لفظ الجميع.

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي الأدبار وإفراده لإرادة الجنس، أو لأن كل واحد يولي دبره وقد وقع ذلك يوم بدر وهو من دلائل النبوة. وعن عمر رضي الله تعالى عنه «أنه لما نزلت قال لم أعلم ما هو فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول. سيهزم الجمع، فعلمته».

﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم الأصلي وما يحيق بهم في الدنيا فمن طلائعه. ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى﴾ أشد، والداهية أمر فظيع لا يهتدي لدوائه. ﴿وَأَمْرٌ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق في الدنيا. ﴿وَشُعُرٌ﴾ ونيران في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُمْسَحُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يجرون عليها. ﴿ذُوقُوا سَقَرَ﴾ أي يقال لهم ذوقوا حر النار وألمها فإن مسها سبب التألم بها، وسقر علم لجحيم ولذلك لم يصرف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كل شيء مقدراً مرتباً على مقتضى الحكمة، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، وكل شيء منصوب بفعل يفسره ما بعده، وقرئ بالرفع على الابتداء وعلى هذا فالأولى أن يجعل خلقناه خبراً لا نعتاً ليطابق المشهورة في الدلالة على أن كل شيء مخلوق بقدر، ولعل اختيار النصب ها هنا مع الإضمار لما فيه من النصوصية على المقصود.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إلا فعلة واحدة وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة، أو ﴿إِلَّا﴾ كلمة واحدة وهو قوله كن. ﴿كَلِمَةٍ بِالْبَصْرِ﴾ في اليسر والسرعة، وقيل معناه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَةٍ﴾ البصر.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر ممن قبلكم. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ متعظ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ (53) إِنَّ لِلنَّاسِ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ (55)

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ مكتوب في كتب الحفظة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال. ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ مسطور في اللوح.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهار واكتفى باسم الجنس، أو سعة أو ضياء من النهار. وقرئ «نهر» وبضم الهاء جمع نهر كأسد وأسد.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي، وقرئ «مقاعد صدق». ﴿عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ﴾ مقربين عند من تعالى أمره في الملك، والاعتقاد بحيث أبهمه ذوو الأفهام.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القمر في كل غيب بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

## سورة الرحمن

[مكية أو مدنية أو متبعضة وآياتها ثمان وسبعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12)﴾

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والآخروية صدرها بـ ﴿الرحمن﴾، وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوحي وأعز الكتب، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصدق لها، ثم اتبعه قوله:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ إيماء بأن خلق البشر وما يميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع، وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة لـ ﴿الرحمن﴾ عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما، وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب.

﴿وَالنَّجْمُ﴾ والنبات الذي ينجم أي يطلع من الأرض ولا ساق له. ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق. ﴿يَسْجُدَانِ﴾ يتقادان لله تعالى فيما يريد بهما طبة انقياد الساجد من المكلفين طوعاً، وكان حق النظم في الجملتين أن يقال: وجرى الشمس والقمر، وأسجد النجم والشجر. أو ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾، والنجم والشجر يسجدان له، ليطابقا ما قبلهما وما بعدهما في اتصالهما بـ ﴿الرحمن﴾، لكنهما جردتا عما يدل على الاتصال إشعاراً بأن وضوحه يغني عن البيان، وإدخال العاطف بينهما لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يحس به من تغيرات أحوال الأجرام العلوية والسفلية بتقديره وتديره.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة محلاً ومرتبة، فإنها منشأ أقضيته ومنتزل أحكامه ومحل ملائكته، وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ العدل بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه السلام «بالعدل قامت السموات والأرض». أو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما، كأنه لما وصف السماء بالرفعة من حيث إنها مصدر القضايا والإقرار أراد وصف الأرض بما فيها مما يظهر به التفاوت ويعرف به المقدار ويسوى به الحقوق والمواجب.

﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لئلا تطغوا فيه أي لا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف، وقرئ «لا تطغوا» على إرادة القول.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوي لأنه المقصود من وضعه، وتكريره مبالغة في التوصية به وزيادة حث على استعماله، وقرئ «ولا تخسروا» بفتح التاء وضم السين وكسرهما، و«تخسروا» بفتحها على أن الأصل «ولا تخسروا» في «الميزان» فحذف الجار وأوصل الفعل.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة. ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلق. وقيل الأنام كل ذي روح.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ ضروب مما يتفكه به. ﴿وَالنَّخْلَ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أوعية التمر جمع كم، أو كل ما يكمن أي يغطي من ليف وسعف وكفري فإنه ينتفع به كالمكموم كالجذع والجمار والتمر.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به، و«العصف» ورق النبات اليابس كالتين. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني المسموم، أو الرزق من قولهم: خرجت أطلب ريحان الله، وقرأ ابن عامر «والحب ذا العصف والريحان» أي وخلق الحب والريحان أو وأخص، ويجوز أن يراد وذا الريحان فحذف المضاف، وقرأ حمزة والكسائي «والريحان» بالخفض ما عدا ذلك بالرفع، وهو فيعلان من الروح فقلبت الواو ياء وأدغم ثم خفف، وقيل «روحان» فقلبت واوه ياء للتخفيف.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (13) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالزَّيْتُونَ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24)﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله: ﴿لِلْإِنَامِ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي له صلصلة، والفخار الخزف وقد خلق الله آدم من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً فلا يخالف ذلك قوله خلقه من تراب ونحوه.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ الجن أو أبا الجن. ﴿مِّن مَّارِجٍ﴾ من صاف من الدخان. ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيان له «مارج» فإنه في الأصل للمضطرب من مرج إذ اضطرب.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاض عليكما في أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ شرقي الشتاء والصيف ومغربيهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تحصى، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر المالح والبحر العذب. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاوران ويتماس سطوحهما، أو بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى أو من الأرض. ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية، أو لا يتجاوزان حديهما باغراق ما بينهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ كبار الدر وصغاره، وقيل المرجان الخرز الأحمر، وإن صح أن الدر يخرج من الملح فعلى الأول إنما قال منهما لأنه مخرج من مجتمع الملح والعذب، أو لأنهما لما اجتماعا صارا كالشيء الواحد فكان المخرج من أحدهما كالمخرج منهما. وقرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿يخرج﴾، وقرئ ﴿نخرج﴾ و ﴿يخرج﴾ بنصب ﴿اللؤلؤ والمرجان﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ أي السفن جمع جارية، وقرئ بحذف الياء ورفع الراء كقوله:

لَهَا ثَنَائِيَا أَرْبَعُ حِسَانٍ وَأَرْبَعُ فُكْلُهُمَا ثَمَانٍ

﴿الْمُنَشَّاتُ﴾ المرفوعات الشرع، أو المصنوعات وقرأ حمزة وأبو بكر الشين أي الرافعات الشرع، أو اللاتي ينشأن الأمواج أو السير. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30) سَنَفَعُ لَكُمْ إِيَّاهُ الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَمْشُرُ الْيَمِينَ وَالْإِثْمِينَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْضُدُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِأَسْطِنِ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَفُحَّاسٍ فَلَا تَنْصُرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ من على الأرض من الحيوانات أو المركبات و ﴿من﴾ للتغليب، أو من الثقلين. ﴿فَإِنْ يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾ ذاته ولو استقرت جهات الموجودات وتفحصت وجوها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله أي الوجه الذي يلي جهته. ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناء المطلق والفضل العام.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما ذكرنا قبل من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما هو على صدد الفناء رحمة وفضلاً، أو مما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَإِنَّهُمْ مَفْتَقُونَ إِلَيْهِ فِي ذَوَاتِهِمْ وصفاتهم وسائر ما يهمهم، ويعن عن المراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء في ذواتهم وصفاتهم نطقاً كان أو غيره. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كل وقت يحدث أشخاصاً ويحدد أحوالاً على ما سبق به قضاؤه، وفي الحديث «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين». وهو رد لقول اليهود إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما من مكنم العدم حيناً فحيناً.

﴿سَنَفَعُ لَكُمْ إِيَّاهُ الثَّقَلَانِ﴾ أي ستجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة، فإنه تعالى لا يفعل فيه غيره وقيل تهديد مستعار من قولك لمن تهدده سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وأجد فيه، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وقرئ «سنفرغ إليكم» أي سنقصد إليكم. و ﴿الثقلان﴾ الإنس والجن سمياً بذلك لتثقلهما على الأرض أو لرزانة رأيهما وقدرهما، أو لأنهما مثقلان بالتكليف.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾  
 إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه. ﴿فَانْفُذُوا﴾ فخرجوا.  
 ﴿لَا تُنْفَذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ. ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ إلا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك، أو إن قدرتم أن تنفذوا  
 لتعلموا ما في السموات والأرض ﴿فَانْفُذُوا﴾ لتعلموا لكن ﴿لا تنفذون﴾ ولا تعلمون إلا بيينة نصبها الله تعالى  
 فتخرجون عليها بأفكاركم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة، أو مما نصب  
 من المصاعد العقلية والمعارج الثقيلة فتنفذون بها إلى ما فوق السموات والأرض فانفذوا لتعلموا لكن لا  
 تنفذون ولا تعلمون إلا بيينة نصبها الله تعالى فتخرجون عليها بأفكاركم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة، أو مما نصب  
 من المصاعد العقلية والمعارج الثقيلة فتنفذون بها إلى ما فوق السموات العلما.  
 ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ لِهَبٍ. ﴿مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ﴾ ودخان قال:

تُضِيءُ كَضَوْءِ السِّرَاجِ السَّلِيلِ ط لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسًا  
 أو صفر مذاب يصب على رؤوسهم، وقرأ ابن كثير ﴿شَوَاظٌ﴾ بالكسر وهو لغة ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالجر عطفاً  
 على ﴿نَارٍ﴾، ووافقه فيه أبو عمرو ويعقوب في رواية، وقرئ «ونحاس» وهو جمع كلحف. ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾  
 فلا تمتنعان.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من  
 الكفار في عداد الآلاء.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ  
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40) يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالْأُفْقَادِ (41)  
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42) هَلْ يَرَوْنَ إِلَهًا إِلَّا تُكَذِّبُ بِهِ الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (44) فَبِأَيِّ آلَاءِ  
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45) وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ (49) فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ (54)﴾

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي حمراء كوردة وقرئت بالرفع على كان التامة فيكون من باب  
 التجريد كقوله:

وَلَيْسَ بِقَيْثٍ لَأَرْحَلَ بَغْرَوةَ نَحْوِ الْغَنَائِمِ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمٌ

﴿كَالدِّهَانِ﴾ مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به كالخزام، أو جمع دهن وقيل هو الأديم الأحمر.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يكون بعد ذلك.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي فيوم تنشق السماء. ﴿لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وذلك  
 حين ما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف ذوداً ذوداً على اختلاف مراتبهم، وأما قوله تعالى:

﴿فَوربك لنسألنهم﴾ ونحوه فحين يحاسبون في المجمع، والهاء للإنس باعتبار اللفظ فإنه وإن تأخر لفظاً تقدم رتبة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم.

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ وهو ما يعلوهم من الكآبة والحزن. ﴿فَيُتَوَخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ مجموعاً بينهما، وقيل يؤخذون ﴿بالنواصي﴾ تارة وبـ ﴿الأقدام﴾ أخرى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين النار يحرقون بها. ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار. ﴿أَنِ﴾ بلغ النهاية في الحرارة يصب عليهم، أو يسقون منه، وقيل إذا استغاثوا من النار أغثوا بالحميم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، أو قيامه على أحواله من قام عليه إذا راقبه، أو مقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين فأضيف إلى الرب تفخيماً وتهويلاً، أو ربه و ﴿مقام﴾ مفخم للمبالغة كقوله:

ذَعَرَتْ بِهِ الْقَطَا وَتَفَيَّتْ عَنْهُ مَقَامَ الذَّنْبِ كَالرَّجُلِ اللَّيْسِ جَنَّتَانِ ﴿جنة للخائف الإنسي والأخرى للخائف الجني، فإن الخطاب للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه، أو روحانية وجسمانية وكذا ما جاء مثني بعد:﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أنواع من الأشجار والثمار جمع فن، أو أغصان جمع فنن وهي الغصنة التي يتشعب من فرع الشجرة، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر وتمد الظل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شأوا في الأعالي والأسافل. قيل إحداهما التسميم والأخرى السلسيل. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان غريب ومعروف، أو رطب ويابس.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مَتَكِينٍ عَلَى فُرُشٍ بَطَآنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباج ثخين وإذا كانت البطائن كذلك فما ظنك بالظواهر، و ﴿متكئين﴾ مدح للخائفين أو حال منهم، لأن من خاف في معنى الجمع. ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قريب يناله القاعد والمضطجع، ﴿وجنى﴾ اسم بمعنى مجنى وقرىء بكسر الجيم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63) مُدْهَامَتَانِ (64) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ فَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَغُلٌّ وَزَيْتَانٌ (68) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69) فِيهِنَّ خَيْرَتٌ حَسَنٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْخِيَابِ (72) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (74) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75) مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ (76) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77) بَرَزَكَ أَتَمَّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ﴾ في الجنان فإن جنتان تدل على جنان هي للخائفين أو فيما فيهما من



الأمكان والقصور، أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش. ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن. ﴿لَمْ يَطْمِئْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ لم يمس الإنسيات إنس ولا الجنيات جن، وفيه دليل على أن الجن يطمثون. وقرأ الكسائي بضم الميم. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ﴿كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي حمرة الوجنة وبياض البشرة وصفائهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ في العمل. ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ في الثواب وهو الجنة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين ﴿جَنَّاتٍ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدَهَّمَاتَانِ﴾ خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأوليين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ﴾ فوارتان بالماء هو أيضاً أقل مما وصف به الأوليين وكذا ما بعده.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطفهما على الفاكهة بياناً لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء وثمره الرمان فاكهة ودواء، واحتج به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أي خيرات فخفت لأن خيراً الذي بمعنى أخير لا يجمع، وقد قرئ على الأصل. ﴿حِسَانٌ﴾ حسان الخلق والخلق.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ﴾ قصرن في خدورهن، يقال امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة أي مخدرة، أو مقصورات الطرف على أزواجهن.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِئْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ كحور الأولين وهم أصحاب الجنتين فإنهما يدلان عليهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَكَيِّفَاتٌ عَلَى رَفْرَفٍ﴾ وسائد أو نمارق جمع رفرفة. وقيل الرفرف ضرب من البسط أو ذيل الخيمة وقد يقال لكل ثوب عريض. ﴿خُضْرٌ وَعَبْقَرِيٌّ حِسَانٌ﴾ العبقري منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد للجن فينسبون إليه كل شيء عجيب، والمراد به الجنس ولذلك جمع ﴿حِسَانٌ﴾ حملاً على المعنى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمه من حيث إنه مطلق على ذاته فما ظنك لذاته، وقيل الاسم بمعنى الصفة أو مقحم كما في قوله:

إلى الحولِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا. ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وقرأ ابن عامر بالرفع صفة للإسم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله تعالى عليه».

## سورة الواقعة

[مكية وآياتها ست وتسعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْقَعِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (4) وَسَبَّتِ الْجِبَالُ سَبًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا (6) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (9) وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ (10)﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إذا حدثت القيامة، سماها واقعة لتحقيق وقوعها وانتصاب ﴿إِذَا﴾ بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت.

﴿لَيْسَ لَوْقَعِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله تعالى، أو تكذب في نفيها كما تكذب الآن، واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أو ليس لأحد في وقعتها كاذبة فإنه من أخير عنها صدق، أو ليس لها حينئذ نفس تحدث صاحبها بإطاعة شدتها واحتمالها وتغريه عليها من قولهم: كذبت فلانا نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعت عليه وسولت له أنه يطيقه.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ تخفض قوما وترفع آخرين، وهو تقرير لعظمتها فإن الوقائع العظام كذلك، أو بيان لما يكون حينئذ من خفض أعداء الله ورفع أوليائه، أو إزالة الأجرام عن مقارها بثر الكواكب وتسيير الجبال في العجو، وقرئنا بالنصب على الحال.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ حركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، والظرف متعلق بـ ﴿خَافِضَةٌ﴾ أو بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتْ﴾.

﴿وَسَبَّتِ الْجِبَالُ سَبًّا﴾ أي فتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لته، أو سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها،

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا﴾ غباراً. ﴿مُتْبَثًا﴾ منتشرأ.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً. ﴿ثَلَاثَةً﴾ وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ فأصحاب المنزل السنية وأصحاب المنزل الدنيئة من تيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمال، أو ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ و ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يأتونها بشمالهم، أو أصحاب اليمن والشؤم فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. والجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة الظاهر مقام الضمير ومعناهما التعجب من حال الفريقين.

﴿أُولَئِكَ الْمَفْرُوقُونَ (11) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ (12) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾

(15) مُتَكِينٍ عَلَيْنَا مُتَقِيلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهُمْ مِمَّا يَنْتَحِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة بعد ظهور الحق من غير تلغثم وتوان، أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات، أو الأنبياء فإنهم مقدموا أهل الأديان هم الذين عرف حالهم وعرفت مآلهم كقول أبي النجم: \* أَنَا أَبُو النِّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي \*  
أو الذين سبقوا إلى الجنة  
﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة وأعليت مراتبهم.  
﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هم كثير من الأولين يعني الأمم السالفة من لدن آدم إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يخالف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن أمتي يكثرُونَ سائر الأمم». لجواز أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو هذه أكثر من تابعيهم، ولا يردده قوله في أصحاب اليمين، ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. لأن كثرة الفريقين لا تنافي أكثرية أحدهما، وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمة، واشتقاقها من الثل وهو القطع.  
﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف، وال «موضونة» المنسوجة بالذهب مشبكة بالدار والياقوت، أو المتواصلة من الوضن وهو نسج الدرع.

﴿مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا ثَمَاقِيلِينَ﴾ حالان من الضمير في «على سرر».  
﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة. «وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ» مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم.  
﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ حال الشرب وغيره، والكوب إناء بلا عروة ولا خرطوم له، والإبريق إناء له ذلك.  
﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ من خمر.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ بخمار. «وَلَا يُنْفَوْنَ» ولا تنزف عقولهم، أو لا ينفد شرابهم. وقرأ الكوفيون بكسر الزاي «لَا يُصَدَّعُونَ» بمعنى لا يتصدعون أي لا يتفرقون.  
﴿وَفَلَكَهُمْ مِمَّا يَنْتَحِرُونَ﴾ أي يختارون.  
﴿وَلَهُمْ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنون.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ عطف على «ولدان»، أو مبتدأ محذوف الخبر أي وفيها أو ولهم حور، وقرأ حمزة والكسائي بالجر عطفاً على «جنات» بتقدير مضاف أي هم في جنات ومصاحبة حور، أو على أكواب لأن معنى «يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب» ينعمون بأكواب، وقرئنا بالنصب على ويؤتون حوراً.  
﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (23) جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَبْشُورٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَلَكَهُمْ كَبِيرٌ كَبِيرٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُورٌ مَرْفُوعٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَمَلْنَهُمْ أَتْبَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مَبْشُورٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿45﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿46﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿47﴾ أَوْ إِبْرَاءُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿48﴾ ﴿

﴿كَأَمْثَالِ اللَّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ المصون عما يضره في الصفاء والنقاء .

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يفعل ذلك كله بهم جزاء بأعمالهم .

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ باطلاً . ﴿وَلَا تَأْتِيَمًا﴾ ولا نسبة إلى الإنم أي لا يقال لهم أئتم .

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي قولاً . ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ بدل من ﴿قِيلًا﴾ كقوله تعالى : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ أو صفته أو مفعوله بمعنى إلا أن يقولوا سلاماً، أو مصدر والتكرير للدلالة على فشو السلام بينهم . وقرئ «سلام سلام» على الحكاية .

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ لا شوك فيه من خضد الشوك إذا قطعه، أو مثني أغصانه من كثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب .

﴿وَوَطْلَحٍ﴾ وشجر موز، أو أم غيلان وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة، وقرئ بالعين . ﴿مَنْضُودٍ﴾ نضد حمله من أسفله إلى أعلاه .

﴿وَوَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت .

﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعب، أو مصبوب سائل كأنه لما شبه حال السابقين في التمتع بأعلى ما يتصور لأهل المدن شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوت بين الحالين .

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ كثيرة الأجناس .

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع في وقت . ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن تناولها بوجه .

﴿وَفُرُشٍ مَرْقُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر أو منضدة مرتفعة . وقيل الفرش النساء وارتفاعها أنها على الأرائك، ويدل عليه قوله :

﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ أي ابتدأنهن ابتداءً من غير ولادة إبداء أو إعادة . وفي الحديث «هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاً رمصاً، جعلهن الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً» .

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ . ﴿عُرُبًا﴾ متحبيات إلى أزواجهن جمع عروب، وسكن راءه حمزة وأبو بكر وروي عن نافع وعاصم مثله . ﴿أَتْرَابًا﴾ فإن كلهن بنات ثلاث وثلاثين وكذا أزواجهن .

﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْشَأْنَا﴾ أو «جعلنا»، أو صفة لـ ﴿بِكَارًا﴾ أو خبر لمحذوف مثل هن أو لقوله :

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وهي على الوجه الأول خبر محذوف .

﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سُمُومٍ﴾ في حر نار ينفذ في السمام . ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء متناه في الحرارة .

﴿وَوَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ﴾ من دخان أسود يفعل من الحممة .

﴿لَا بَارِدٌ﴾ كسائر الظل. ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ ولا نافع، نفى بذلك ما أوهم الظل من الاسترواح.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ منهمكين في الشهوات.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذنب العظيم يعني الشرك، ومنه بلغ الغلام الحنث أي الحلم ووقت المؤاخذه بالذنب، وحنث في يمينه خلاف بر فيها وحنث إذا تأثم.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقت كما دخلت العاطفة في قوله:

﴿أَوِ ابْأَوْنَا الْأُولُونَ﴾ للدلالة على ذلك أشد إنكاراً في حقهم لتقدم زمانهم وللفضل بها حسن العطف على المستكن في ﴿لمبعوثون﴾، وقرأ نافع وابن عامر ﴿أو﴾ بالسكون وقد سبق مثله، والعامل في الظرف ما دل عليه «مبعوثون» لا هو للفضل بأن والهمزة.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ (51) لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (52) فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَرِبُوا شَرْبَ أَلِيمٍ (55) هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الزَّيْنِ (56) نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ (60)﴾

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ﴾. وقرئ «المجمعون». ﴿إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ إلى ما وقت به الدنيا وحدث من يوم معين عند الله معلوم له.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ﴾ أي بالبعث والخطاب لأهل مكة وأضرابهم.

﴿لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ «من» الأولى للابتداء والثانية للبيان.

﴿فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ من شدة الجوع.

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ لغلبة العطش، وتأنيت الضمير في منها وتذكيره في ﴿عليه﴾ على معنى الشجر ولفظه، وقرئ «من شجرة» فيكون التذكير للـ ﴿زقوم﴾ فإنه تفسيرها.

﴿فَشَارِبُونَ شَرْبَ أَلِيمٍ﴾ الإبل التي بها الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء، جمع أهيم وهيماء قال ذو الرمة.

فَأَصْبَحَتْ كَالْهَيْمَاءِ لَا الْمَاءِ مُبْسَدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هَيَامُهَا

وقيل الرمال على أنه جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذي لا يماسك جمع على هيم كسحب، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد، وقرأ نافع وحزمة وعاصم ﴿شرب﴾ بضم الشين.

﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الزَّيْنِ﴾ يوم الجزاء فما ظنك بما يكون لهم بعد ما استقروا في الجحيم، وفيه تهكم كما في قوله: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ لأن النزول ما يعدل للنازل تكرمة له، وقرئ ﴿نزلهم﴾ بالتخفيف.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه، أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقدفونه في الأرحام من النطف، وقرئ بفتح التاء من منى النطفة بمعنى أمناها.

﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تجعلونه بشراً سوياً. ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ قسمناه عليكم وأقتنا موت كل بوقت معين، وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته، أو لا يغلبنا أحد من سبقته على كذا إذا غلبته عليه.

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ على الأول حال أو علة لـ ﴿قَدَرْنَا﴾ وعلى بمعنى اللام، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ اعتراض وعلى الثاني صلة، والمعنى على أن نبدل منكم أشباهكم فنخلق بدلکم، أو نبدل صفاتکم على أن أمثالکم جمع مثل بمعنى صفة. ﴿وَنُنَشِّئُكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في خلق أو صفات لا تعلمونها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (62) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (63) ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاعُونَ﴾ (64) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (65) ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ (66) ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ (67) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (68) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (69) ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (70) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (71) ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (72) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ (73) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (74) ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ الْجُبْرِ﴾ (75) ﴿

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى فإنها أقل صنعا لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال، وفيه دليل على صحة القياس.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ تبدرون حبه.

﴿أَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ﴾ تنبتونه. ﴿أَمْ نَحْنُ الرَّازِعُونَ﴾ المبتون.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ هشيماً. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبون أو تندمون على اجتهدكم فيه، أو على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتتحدثون فيه، والفكه التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث، وقرئ ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بالكسر و ﴿فَظَلْتُمْ﴾ على الأصل.

﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ لمزومون غرامة ما أنفقنا، أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام، وقرأ أبو بكر «أئنا لمغرمون» على الاستفهام.

﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قوم. ﴿مُحْرَمُونَ﴾ حرمانا رزقنا، أو محدودون لا محدودون.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي العذب الصالح للشرب.

﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ من السحاب واحده مزنه، وقيل ﴿المزن﴾ السحاب الأبيض وماؤه أعذب. ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ بقدرتنا والرؤية إن كانت بمعنى العلم فمتعلقة بالاستفهام.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً أو من الأجاج فإنه يحرق الفم، وحذف اللام الفاصلة بين جواب ما يتمحض للشرط وما يتضمن معناه لعلم السامع بمكانها، أو الاكتفاء بسبق ذكرها أو يختص ما يقصد لذاته ويكون أهم وفقده أصعب بمزيد التأكيد. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحون.

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ يعني الشجرة التي منها الزناد.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا نار الزناد. ﴿تَذَكُّرَةً﴾ تبصرة في أمر البعث كما مر في سورة «يس»، أو في الظلام أو تذكيراً وأنموذجاً لنار جهنم. ﴿وَمَتَاعاً﴾ ومنفعة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين ينزلون القواء وهي القفر، أو للذين خلت بطونهم أو مزادهم من الطعام، من أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء ذكره والعظيم صفة للأسم أو الرب، وتعتيق الأمر بالتسبيح لما عدد من بدائع صنعه وإنعامه إما لتزييه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدايته الكافرون لنعتمه، أو للتعجب من أمرهم في غمط نعمه، أو للشكر على ما عدها من النعم.

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أو فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد كما في «لئلا يعلم» أو فلأنا أقسم فحذف المبتدأ وأشيع فتحة لام الابتداء، ويدل عليه قراءة «فلا أقسم» أو «فلا» رد لكلام يخالف المقسم عليه. ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها، وتخصيص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر لا يزول تأثيره، أو بمنازلها ومجاريها. وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها، وقرأ حمزة والكسائي بموقع.

﴿وَإِنَّهُمْ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفُ (83) وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يَرَوْا كُنُوزَ مَدِينٍ (86) تَرَجَعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَرَحَتْ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ الصَّالِينَ (92) فَزُلٌّ مِنَ حِمِيمٍ (93) وَنَصِيلَةٌ حَمِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ عَلِيمٌ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)﴾

﴿وَإِنَّهُمْ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرة الرحمة، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى، وهو اعتراض في اعتراض فإنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه، و «لو تعلمون» اعتراض بين الموصوف والصفة.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ كثير النفع لاشتغاله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسن مرضي في جنسه.

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ مصون وهو اللوح المحفوظ.

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة، أو لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث فيكون نقياً بمعنى النهي، أو لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر، وقرىء «الْمُطَهَّرُونَ» و «الْمُطَهَّرُونَ» من أطهره بمعنى طهره و «الْمُطَهَّرُونَ» أي أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والإلهام.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة ثالثة أو رابعة للقرآن، وهو مصدر نعت به وقرىء بالنصب أي نزل تنزيلاً.

﴿أَفَهِذَا الْحَدِيثَ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾ متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكر رزقكم. ﴿أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بمانحه حيث تنسبونه إلى الانواء وقرىء «شكركم» أي تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وتكذبون أي بقولكم في القرآن أنه سحر وشعر، أو في المطر أنه من الانواء.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي النفس.

﴿وَأَنْتُمْ حِينَتٍ تَنْظُرُونَ﴾ حالكم، والخطاب لمن حول المحتضر والواو للحال.

﴿وَتَخُنْ أَقْرَبَ﴾ أي ونحن أعلم. ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر. ﴿مِنْكُمْ﴾ عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع. ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ لا تدركون كنه ما يجري عليه.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي مجزيين يوم القيامة أو مملوكين مقهورين من دانه إذا أذله واستعبده، وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ ترجعون النفس إلى مقرها وهو عامل الظرف والمخ عليه بـ ﴿فَلَوْلَا﴾ الأولى والثانية تكرير للتوكيد وهي بما في حيزها دليل جواب الشرط، والمعنى إن كنتم غير مملوكين مجزيين كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أباطيلكم ﴿فَلَوْلَا﴾ ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي إن كان المتوفى من السابقين.

﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة وقرىء ﴿فَرَوْحٌ﴾ بالضم وفسر بالرحمة لأنها كالسبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة. ﴿وَرِيحَانٌ﴾ ورزق طيب. ﴿وَجَنَّتٌ نَعِيمٌ﴾ ذات تنعم.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ﴾ يا صاحب اليمين. ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي من إخوانك يسلمون عليك.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ يعني أصحاب الشمال، وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم ما أوعدهم به.

﴿فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ﴾ وذلك ما يجد في القبر من سموم النار ودخانها.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي الذي ذكر في السورة أو في شأن الفرق. ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فترهه بذكر اسمه وتعالى عما لا يليق بعظمه شأنه.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».



## سورة الحديد

[مدنية وقيل مكية وآياتها تسع وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (1) لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ  
(2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)﴾

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكرها هنا وفي «الحشر» و «الصف» بلفظ الماضي، وفي «الجمعة» و «التغابن» بلفظ المضارع إشعاراً بأن من شأن ما أسند إليه أن يسبحه في جميع أوقاته، لأنه دلالة جليلية لا تختلف باختلاف الحالات، ومجيء المصدر مطلقاً في «بني إسرائيل» أبلغ من حيث إنه يشعر بإطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال، وإنما عدى باللام وهو متعبد بنفسه مثل نصحت له في نصحته أشعاراً بأن إيقاع الفعل لأجل الله وخالصاً لوجهه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حال يشعر بما هو المبدأ للتسبيح.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه الموجد لها والمتصرف فيها. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ استئناف أو خبر محذوف ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والأمانة وغيرهما. ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات من حيث إنه موجد لها ومحدثها. ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فناؤها ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها، أو ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي تبدأ منه الأسباب وتنتهي إليه المسببات، أو ﴿الأول﴾ خارجاً و «الآخر» ذهنياً. ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجوده لكثرة دلائله والباطن حقيقة ذاته فلا تكتنفها العقول، أو الغالب على كل شيء والعالم بباطنه والواو الأولى والآخرية للجمع بين الوصفين، والمتوسطة للجمع بين المجموعين. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالبدور. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالأمطار. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرة. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، ولعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (5) يُرْجِعُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُرْجِعُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6) ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ

يَنْتَبِذُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَمِيرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ (10) ﴿

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكره مع الإعادة كما ذكره مع الإداء لأنه كالمقدمة لهما. ﴿وَالِيَّ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمكنوناتها.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها فهي في الحقيقة له لا لكم، أو التي استخلفكم عنكم قبلكم في تملكها والتصرف فيها، وفيه حث على الإنفاق وتهوين له على النفس. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعد فيه مبالغات جعل الجملة اسمية وإعادة ذكر الإيمان والإنفاق وبناء الحكم على الضمير وتكثير الأجر ووصفه بالكبر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي وما تصنعون غير مؤمنين به كقولك: مالك قائماً. ﴿وَالرَّسُولَ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حال من ضمير تؤمنون، والمعنى أي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان قبل ذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر، والواو للحال من مفعول ﴿يدعوكم﴾، وقرأ أبو عمرو وعلى البناء للمفعول ورفع ﴿ميثاقكم﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا موجب لا مزيد عليه.

﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أي الله أو العبد. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث نبهكم بالرسول والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ وأي شيء لكم في ﴿أَلَّا تُنْفِقُوا﴾. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يكون قرابة إليه. ﴿وَلِلَّهِ يَمِيرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ يرث كل شيء فيهما فلا يبقى لأحد مال، وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث يستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب كان أولى. ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً﴾ بيان لثفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من سبق وقوة اليقين، وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق، وذكر القتال للاستطراد وقسيم من أنفق محذوف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه، و﴿الفتح﴾ فتح مكة إذ عز الإسلام به وكثر أهله وقلت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق. ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أي من بعد الفتح. ﴿وَقَاتِلُوا كَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي وعد الله كلا من المنفقين المثوبة الحسنى وهي الجنة. وقرأ ابن عامر «وكل» بالرفع على الابتداء أي وكل وعده الله ليطابق ما عطف عليه. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ عالم بظاهره وباطنه فيجازيكم على حسبه، والآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإنه أول من آمن وأنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً أشرف به على الهلاك.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَرْضَى اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَتُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتُ نَجْرِي مِنْ حَتَّى الْأَنْهَارِ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُسْلِمَاتُ لِلَّذِينَ أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُورُهُمْ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانَةُ﴾

حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَظَكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (14) قَالِيمٌ لَا يُوْخِذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْثَقَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسِّرُ  
 الْمَصِيرُ (15) أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ  
 قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيْدِ  
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ  
 (18) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا  
 بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19) ﴿

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من الذي ينفق ماله في سبيله رجاء أن يعوضه، فإنه كمن  
 يقرضه وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له. ﴿فِيضَاعَفَهُ لَهُ﴾ أي يعطي أجره  
 أضعافاً. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يتوخى وإن لم  
 يضاعف، فكيف وقد يضاعف أضعافاً. وقرأ عاصم ﴿فيضاعفه﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار  
 المعنى فكانه قال: أيقض الله أحد فيضاعفه له. وقرأ ابن كثير ﴿فيضعفه﴾ مرفوعاً وقرأ ابن عامر ويعقوب  
 ﴿فيضعفه﴾ منصوباً.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله ﴿وله﴾ أو ﴿فيضاعفه﴾ أو مقدر بذكر ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾  
 ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من  
 هاتين الجهتين. ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ﴾ أي يقول لهم مَنْ يَتْلِقَاهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿بِشْرَاكُمُ﴾ أي المبشر به  
 جنات، أو ﴿بِشْرَاكُمُ﴾ دخول جنات. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى  
 ما تقدم من النور والبشري بالجنات المخلدة.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ بدل من ﴿يوم ترى﴾. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا﴾ انتظرونا فإنهم يسرع  
 بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف، أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور  
 بين أيديهم. وقرأ حمزة «أنظرونا» على أن اتشادهم ليلحقوا بهم إمهال لهم. ﴿تَقْتَسِمُ مِنْ نُورِكُمْ﴾ نصب منه.  
 ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ إلى الدنيا. ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، فإنه  
 يتولد منها أو إلى الموقف فإنه من ثمة يقتبس، أو إلى حيث شئت فاطلبوا نوراً آخر فإنه لا سبيل لكم إلى  
 هذا، وهو تهكم بهم وتخيب من المؤمنين أو الملائكة ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين والمنافقين. ﴿بِسُورٍ﴾  
 بحائط. ﴿لَهُ بَابٌ﴾ يدخل منه المؤمنون. ﴿بِاطْنُهُ﴾ باطن السور أو الباب. ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ لأنه يلي الجنة.  
 ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ من جهته لأنه يلي النار.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ بالنفاق.  
 ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتهم في الدين. ﴿وَعَزَّزْتُمْ الْأُمَلِّي﴾ كامتداد العمر. ﴿حَتَّىٰ  
 جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت. ﴿وَعَزَّزْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان أو الدنيا.

﴿قَالِ يَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فداء وقرأ ابن عامر ويعقوب بالثناء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً  
 وباطناً. ﴿مَا أَوْثَقَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ هي أولى بكم كقول لبيد.

فَعَدَّتْ كَيْلًا الْفَرَجَيْنِ تَحَسَّبُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا

وحقيقته مجراكم أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كقولك: هو مثنة الكرم أي مكان قول القائل إنه  
 لكريم، أو مكانكم عما قريب من الولي وهو القرب، أو ناصركم على طريقة قوله: تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ.

أو متوليككم يتولاكم كما توليتهم موجباتها في الدنيا. ﴿وَيَسِّرِ الْمَصِيرَ﴾ النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ألم يأت وقته يقال أنى الأمر يأتي أنياً وأنا إذا جاء إناء، وقرئ «ألم يش» بكسر الهمزة وسكون النون من أن يثين بمعنى أتى وألماً يأن. روي أن المؤمنين كانوا مجدين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي القرآن وهو عطف على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر، ويجوز أن يراد بالذكر أن يذكر الله، وقرأ نافع وحفص ويعقوب «نزل» بالتخفيف. وقرئ «أنزل». ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ عطف على «تخشع»، وقرأ رويس بالتاء والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الأجل لطول أعمارهم وآمالهم، أو ما بينهم وبين أنبيائهم «فقست قلوبهم». وقرئ «الأمد» وهو الوقت الأطول. «وكثير منهم فاسقون» خارجون عن دينهم رافضون لما في كتابهم من فرط القسوة.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بالإحياء والإموات ترغيباً في الخشوع وزجراً عن القساوة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تكمل عقولكم.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ إن المتصدقين والمتصدقات، وقد قرئ بهما، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بتخفيف الصاد أي الذين صدقوا الله ورسوله. ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ عطف على معنى الفعل في المحل باللام لأن معناه: الذين أصدقوا، أو صدقوا وهو على الأول للدلالة على أن المعبر هو التصديق المقرون بالإخلاص. ﴿يُضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ معناه والقراءة في «يضاعف» كما مر غير أنه لم يجزم لأنه خبر إن وهو مسند إلى «لهم» أو إلى ضمير المصدر.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، أو هم المبالغون في الصدق فإنهم آمنوا وصدقوا جميع أخبار الله ورسله والقائمون بالشهادة لله ولهم، أو على الأمم يوم القيامة. وقيل «والشهداء عند ربهم» مبتداً وخبر، والمراد به الأنبياء من قوله: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» أو الذين استشهدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم ولكنه من غير تضعيف ليحل التفاوت، أو الأجر والنور الموعودان لهم. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث أن التركيب يشعر بالاختصاص والصحة تدل على الملازمة عرفاء.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثَافٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَرْتَهُمْ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ (20) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْتَخُلُوتُ وَيَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَحْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرُو وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل، بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جداً إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، ولهو يلهون به أنفسهم عما يهتمهم وزينة كالملايس الحسنة والمواكب البهية والمنازل الرفيعة، وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعدد والعدد، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿كَمَثَلُ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ وهو تمثيل لها في سرعة تقضيها وقلة جدواها يحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأعجب به الحراث، أو الكافرون بالله لأنهم أشدء إعجاباً بزيينة الدنيا ولأن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجاباً، ثم هاج أي ييس بعاهة فاصفر ثم صار حطاماً، ثم عظم أمور الآخرة الأبدية بقوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تنفيراً عن الانهماك في الدنيا وحشاً على ما يوجب كرامة العقبي، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي لمن أقبل عليها ولم يطلب إلا الآخرة. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة.

﴿سَابِقُوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى موجباتها. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عرضها كعرضهما وإن كان العرض كذلك فما ظنك بالطول، وقيل المراد به البسطة كقوله: ﴿فَدُوْءُ عَرِيضٍ﴾ ﴿أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقها. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ذلك للوعود يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ منه التفضل بذلك وإن عظم قدره.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب وعاهة. ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إلا مكتوبة في اللوح مثبتة في علم الله تعالى. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نخلقها والضمير للـ ﴿مُصِيبَةٍ﴾ أو ﴿الْأَرْضِ﴾ أو للأنفس. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي إثباته في كتاب. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة. ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا﴾ أي أثبت وكتب كي لا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ بما أعطاكم الله منها فإن من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر، وقرأ أبو عمرو ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ من الإتيان ليعادل ما فاتكم، وعلى الأول فيه إشعار بأن فواتها يلحقها إذ خليت وطباعها، وأما حصولها وإبقاؤها فلا بد لهما من سبب يوجد بها ويبقيها، والمراد نفى الآسي المانع عن التسليم لأمر الله والفرح الموجب للبطر والاحتيال، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قال من يثبت نفسه في حالي الضراء والسراء.

﴿الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من كل مختال فإن المختال بالمال يضمن به غالباً أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لأن معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشكر من نعمه، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وقرأ وابن عامر ﴿فإن الله الغني﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج والمعجزات. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ لبيان الحق ويميز صواب العمل. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ لتسوى به الحقوق ويقام به العدل كما قال تعالى: ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وإنزاله إنزال أسبابه والأمر باعداه، وقيل أنزل الميزان إلى نوح عليه السلام، ويجوز أن يراد به العدل. ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ لتقام به السياسة وتدفع به الأعداء كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإن آلات الحروب متخذة منه. ﴿وَمَنْافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد الاتها. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار

والعطف على محذوف دل عليه ما قبله فإنه حال يتضمن تعليلاً، أو اللام صلة لمحذوف أي أنزله ليعلم الله .  
﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المستكن في نصره . ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ ، على إهلاك من أراد إهلاكه . ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نصره وإنما أمرهم بالجهد لينتفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلُ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾  
(26) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (27) يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْذِكُمْ كَذَلِكُمْ يَكْتُمُونَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (28) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استباناهم وأوحينا إليهم الكتب . وقيل المراد بالكتب الخط . ﴿فَمِثْلُ مُهْتَدٍ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم ﴿أَرْسَلْنَا﴾ .  
﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم والعدول عن السنن القابلة للمبالغة في الذم والدلالة على أن الغلبة للضلال .

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام ، والضمير كنوح وإبراهيم ومن أرسلنا إليهم ، أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية ، فإن الرسل الملقى بهم من الذرية . ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ وقرئ بفتح الهمزة وأمره أهون من أمر البرطيل لأنه أعجمي . ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ وقرئ «رأفة» على فعالة . ﴿وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي وابتدعوا رهابانية ابتدعوها ، أو رهابانية مبتدعة على أنها من المجموعات وهي المبالغة في العبادة والرياسة والانتقطاع عن الناس ، منسوبة إلى الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رهب كالخشيان من خشى ، وقرئت بالضم كأنها منسوبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان . ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما فرضناها عليهم .  
﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها «ابتغاء رضوان الله» . وقيل متصل فإن «ما كتبناها عليهم» بمعنى ما تعبدناهم بها وهو كما ينفي الإيجاب المقصود منه دفع العقاب ينفي الندب المقصود منه مجرد حصول مرضاة الله ، وهو يخالف قوله «ابتدعوها» إلا أن يقال «ابتدعوها» ثم ندبوا إليها ، أو «ابتدعوها» بمعنى استحدثوها وأتوا بها ، أو لأنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم . ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي فما رعوها جميعاً . ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بضم التثنية والقول بالاتحاد وقصد السمعة والكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها . ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أتوا بالإيمان الصحيح ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وحافظوا حقوقها . ﴿مِنْهُمْ﴾ من المتسمين باتباعه . ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن حال الاتباع .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسول المتقدمة . ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه . ﴿وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام . ﴿يُؤْذِكُمْ كَذَلِكُمْ﴾ نصيين . ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بمن قبله ، ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام ، وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره ﷺ . ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يريد المذكور في قوله : «يسعى نورهم» أو الهدى الذي يسلك به إلى جناب القدس . ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي ليعلموا و «لا» مزيدة ويؤيده أنه قرئ «ليعلم» و «لكي يعلم» و «لأن

يعلم» بادغام النون في الياء. ﴿أَلَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أن هي المخففة والمعنى: أنه لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله ولا يتمكنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله وهو مشروط بالإيمان به، أو لا يقدرُونَ على شيء من فضله فضلاً عن أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة فيخصوها بمن أرادوا ويؤيده قوله: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وقيل «لا» غير مزيدة، والمعنى لثلاثا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالونه، فيكون ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ﴾ عطفاً على ﴿لثلاثا يعلم﴾، وقرئ «ليلاً يعلم» ووجهه أن الهمزة حذفت وأدغمت النون في اللام ثم أبدلت ياء. وقرئ «ليلاً» على أن الأصل في الحروف المفردة الفتح.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحديد كُتِبَ من الذين آمنوا بالله ورسله أجمعين».



### سورة المجادلة

[مدنية وقيل العشر الأول مكى والباقي مدني، وآياتها اثنتان وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (1)

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر عنها زوجها أوس بن الصامت، فاستفتت رسول الله ﷺ فقال: «حرمت عليه»، فقالت: ما طلقني فقال: «حرمت عليه»، فاعتمت لصغر أولادها وشكت إلى الله تعالى فنزلت هذه الآيات الأربع، وقد تشعر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أو المجادلة يتوقع أن الله يسمع مجادلتها وشكواها ويفرج عنها كربها، وأدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السين. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُمْ بِأُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (2) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مَنْ نَسَاهُمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِمَنْؤُمْؤُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِاتِّفَاقٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنُوا كَمَا لَعَنُوا رُسُلَهُمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (6) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حِصَّةٌ إِلَّا هُوَ سَادَّهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ

يُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي مشتق من الظهر، والحق به الفقهاء تشبيهها بجزء أنثى محرم، وفي ﴿منكم﴾ تهجين لعادتهم فيه فإنه كان من إيمان أهل الجاهلية، وأصل ﴿يظاهرون﴾ يظاهرون وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي ﴿يظاهرون﴾ من أظهار وعاصم ﴿يظاهرون﴾ من ظاهر. ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي على الحقيقة. ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من أحقها الله بهن كالمرضعات وأزواج الرسول ﷺ، وعن عاصم أمهاتهم بالرفع على لغة بني تميم، وقرئ بـ ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ وهو أيضاً على لغة من ينصب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ﴾ إذ الشرع أنكره. ﴿وَوَرَوَا﴾ منحرفاً عن الحق فإن الزوجة لا تشبه الأم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ لما سلف منه مطلقاً، أو إذا تيب عنه.

﴿وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إلى قولهم بالتدارك ومنه المثل: عاد الغيث على ما أفسد، وهو بتقص ما يقتضيه وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه، إذ التشبيه يتناول حرمة لصحة استثنائها عنه وهو أقل ما ينتقص به. وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة. وعند مالك بالعزم على الجماع، وعند الحسن بالجماع. أو بالظهار في الإسلام على أن قوله ﴿يظاهرون﴾ بمعنى يعتادون الظهار إذ كانوا يظاهرون في الجاهلية، وهو قول الثوري أو بتكراره لفظاً وهو قول الظاهرية، أو معنى بأن يحلف على ما قال وهو قول أبي مسلم أو إلى المقول فيها بامسكها، أو استباحة استمتاعها أو وطنها. ﴿فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعلهم أو فالواجب اعتقاق رقبة والفاء للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرار وجوب التحرير بتكرر الظهار، والرقبة مقيدة بالإيمان عندنا قياساً على كفارة القتل. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ أن يستمتع كل من المظاهر عنها بالآخر لعموم اللفظ ومقتضى التشبيه، أو أن يجامعها وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلكم الحكم بالكفارة. ﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ لأنه يدل على ارتكاب الجنابة الموجبة للغرامة ويردع عنه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي الرقبة والذي غاب ماله واجد. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف وإن أفطر لعذر ففيه خلاف، وإن جامع المظاهر عنها ليلاً لم ينقطع التتابع عندنا خلافاً لأبي حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي الصوم لهم أو مرض مزمن أو سبق مفطر فإنه ﷺ رخص للأعرابي المفطر أن يعدل لأجله. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ ستين مداً بمد رسول الله ﷺ، وهو رطل وثلاث لأنه أقل ما قيل في الكفارات وجنسه المخرج في الفطرة، وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وإنما لم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين، أو لجوازه في خلال الإطعام كما قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك البيان أو التعليم للأحكام ومحلها النصب بفعل معلل بقوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كُنتُمْ عَلَيْهِ في جاهليتكم ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوز تعديها. ﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ أي الذين لا يقبلونها. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادونهما فإن كلا من المتعادين في حد غير حد الآخر، أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما. ﴿كُتِبُوا﴾ أخزوا وأهلكوا وأصل الكبت الكب. ﴿كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفار الأمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تدل على صدق الرسول وما جاء به. ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم.



﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوب بـ ﴿مهيمن﴾ أو بإضمار اذكر. ﴿جَمِيعاً﴾ كلهم لا يدع أحداً غير مبعوث أو مجتمعين. ﴿فَيُبْعَثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي على رؤوس الأشهاد تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم. ﴿أَخْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً لم يغيب منه شيء. ﴿وَنُشْؤُهُ﴾ لكثرتة أو تعاونهم به. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقع من تناجي ثلاثة، ويجوز أن يقدر مضاف أو يؤول ﴿نَجْوَى﴾ بمتناجين ويجعل ﴿ثَلَاثَةٍ﴾ صفة لها، واشتقاقها من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض فإن السر أمر مرفوع إلى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا الله يجعلهم أربعة من حيث أنه يشاركونهم في الاطلاع عليها، والاستثناء من أعم الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةٌ﴾ ولا نجوى خمسة. ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيص العددين إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين، أو لأن الله تعالى وتر يحب الوتر، والثلاثة أول الأوتار أو لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين وثالث يتوسط بينهما، وقرئ ﴿ثَلَاثَةٍ﴾ و ﴿خَمْسَةٍ﴾ بالنصب على الحال بإضمار ﴿يَتَنَاجَوْنَ﴾ أو تأويل ﴿نَجْوَى﴾ بمتناجين. ﴿وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ﴾ ولا أقل مما ذكر كالواحد والاثنين. ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ كالسنة وما فوقها. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم. وقرأ يعقوب ولا أكثر بالرفع عطفاً على محل من ﴿نَجْوَى﴾ أو محل لا أدنى بأن جعلت لا لنفي الجنس. ﴿أَيْنَمَا كَانُوا﴾ فإن علمه بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحقونه من الجزاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقضية للعلم إلى الكل على السواء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْثُكَ يَمَّا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا بَصُلُونَهَا فَيُكْسِ الْمَصِيرُ﴾ (8) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) ءَسْأَلُكُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل فعلهم. ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول، وقرأ حمزة ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ﴾ وهو يفتعلون من النجوى وروي عن يعقوب مثله. ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيْثُكَ يَمَّا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون السام عليك، أو أنعم صباحاً والله تعالى يقول: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾. ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيما بينهم. ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمد نبياً. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً. ﴿بَصُلُونَهَا﴾ يدخلونها. ﴿فَيُكْسِ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون وعن يعقوب «فلا تنتجوا». ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ بما يتضمن خبر المؤمنين والاتقاء عن معصية الرسول. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون فإنه مجازيكم عليه.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان. ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه المزين لها والحامل عليها. ﴿لِيُخْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوهمهم أنها في نكبة أصابتهم. ﴿وَلَيْسَ﴾ أي الشيطان أو التناجي. ﴿بِضَارِهِمْ﴾ بضار المؤمنين. ﴿شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بمشيئته. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يبالوا بنجواهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم: افسح عني أي تنح، وقرئ «تفاسحوا» والمراد بالمجلس الجنس ويدل عليه قراءة عاصم بالجمع، أو مجلس رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يتضامون به تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ انفضوا للتوسعة أو لما أمرت به كصلاة أو جهاد، أو ارتفعوا عن المجلس. ﴿فَانْشُرُوا﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة. ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة، ولذلك يقتدى بالعالم في أفعاله ولا يقتدى بغيره. وفي الحديث «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد لمن لم يتمثل الأمر أو استكرهه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ فتصدقوا قدامها مستعار ممن له يدان، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول وإنفاق الفقراء والنهي عن الإفراط في السؤال، والميز بين المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا، واختلف في أنه للندب أو للوجوب لكنه منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ وهو إن اتصل به تلاوة لم يتصل به نزولاً. وعن علي كرم الله وجهه إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري، كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم. وهو على القول بالوجوب لا يقدح في غيره فلعلة لم يتفق للأغنياء مناجاة في مدة بقائه، إذ روي أنه لم يبق إلا عشرأ وقيل إلا ساعة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التصديق. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْيَرُ﴾ أي لأنفسكم من الريبة وحسب المال وهو يشعر بالندبية لكن قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن لم يجده حيث رخص له في المناجاة بلا تصديق أدل على الوجوب.

﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أخفتم الفقر من تقديم الصدقة أو أخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر وجمع «صدقات» لجمع المخاطبين، أو لكثرة التناجي. ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم مما قام مقام توبتهم وإذ عليٌّ بائها وقيل بمعنى إذا أو إن. ﴿فَأَقِمْ وَاتَّقِ الزَّكَاةَ﴾ فلا تفرطوا في أدائها. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ والوا. ﴿قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود. ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمُ﴾ لأنهم منافقون مذنبون بين ذلك. ﴿وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ وهو ادعاء الإسلام. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن المحلوف عليه كذب كمن يحلف بالغموس، وفي هذا التقييد دليل على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته وما لا يعلم. وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان في حجرة من حجراته فقال «يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعين شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق وكان أزرق فقال عليه الصلاة

والسلام له : علام تشمتني أنت وأصحابك ، فحلف بالله ما فعل ثم جاء بأصحابه فحلفوا فنزلت .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿16﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿17﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿18﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿19﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿20﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿21﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿22﴾

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ نوعاً من العذاب متفاعماً . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ أي التي حلفوا بها ، وقرىء بالكسر أي ﴿ إيمانهم ﴾ الذي أظهره . ﴿ جُنَّةً ﴾ وقاية دون دمائهم وأموالهم . ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فصدوا الناس في خلال أمتهم عن دين الله بالتحريش والشيطنة . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم . وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة .

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ قد سبق مثله .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ ﴾ أي لله تعالى على أنهم مسلمون . ﴿ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ في الدنيا ويقولون إنهم لمنكم . ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ في حلفهم الكاذب لأن تمكن النفاق في نفوسهم بحيث يخيل إليهم في الآخرة أن الإيمان الكاذبة تروج الكذب على الله كما تروجه عليكم في الدنيا . ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ البالغون الغاية في الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون عليه .

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ استولى عليهم من حذت الإبل وأخذتها إذا استوليت عليها ، وهو مما جاء على الأصل . ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ لا يذكرونه بقلوبهم ولا بالستهم . ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ جنوده وأتباعه . ﴿ أَلَا أَنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأنهم فوتوا على أنفسهم النعيم المؤبد وعرضوها للعذاب المخلد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ ﴾ في اللوح . ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ أي بالحجة ، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ رسلي ﴾ بفتح الياء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ على نصر أنبيائه . ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب عليه شيء في مراده .

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي لا ينبغي أن تجدهم واديين أعداء الله ، والمراد أنه لا ينبغي أن يوادوهم . ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ ولو كان المحادون أقرب الناس إليهم . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي الذين لم يوادوهم . ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ أثبت فيها ،

وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإن جزء الثابت في القلب يكون ثابتاً فيه، وأعمال الجوارح لا تثبت فيه. ﴿وَأَيَّدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب أو القرآن، أو بالنصر على العدو. قيل الضمير لـ ﴿الإيمان﴾ فإنه سبب لحياة القلب. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بقضائه أو بما وعدهم من الثواب. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ جنده وأنصار دينه. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدارين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة».



### سورة الحشر

[مدنية وآياتها أربع وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَمَسَ اللَّهُ مِنْ وَجْهِهِ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْ عَلَى أَصُولِهَا فَإِنْ ذَنَّ اللَّهُ وَلِيْخْرَى الْفَاسِقِينَ (5)﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي «أنه عليه السلام لما قدم المدينة صالح بنى النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إنه النبي المتعوت في التوراة بالنصرة، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسول الله ﷺ أخا كعب من الرضاعة فقتله غيلة، ثم صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء فجلا أكثرهم إلى الشام ولحقت طائفة بخيبر والحيرة» فأنزل الله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصيبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجماعاً عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خير إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدرِكهم هناك، أو أن ناراً تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب. والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر. ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وتغيير النظم، وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى

ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون «حصونهم» فاعلاً لـ «مانعتهم». «فَأَنَّا هُمْ اللَّهُ» أي عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، وقيل الضمير لـ «المؤمنين» أي فاتاهم نصر الله، وقرئ «فَأَنَّا هُمْ اللَّهُ» أي العذاب أو النصر. «مِنْ حَيْثُ لَمْ يَخْتَسِبُوا» لقوة وثوقهم. «وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ» وأثبت فيها الخوف الذي يربعها أي يملؤها. «يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ» ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسنا من آلتها. «وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» فإنهم أيضاً كانوا يخربون ظواهرها نكايه وتوسيعاً لمجال القتال. وعطفها على «أيديهم» من حيث أن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم فكأنهم استعملوهم فيه، والجملة حال أو تفسير لـ «الرعب». وقرأ أبو عمرو «يخربون» بالتشديد وهو أبلغ لما فيه من التكثير. وقيل الإخراب التعطيل أو ترك الشيء خراباً والتخريب الهدم. «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ» فاتعظوا بحالهم فلا تغدروا ولا تعتمدوا على غير الله، واستدل به على أن القياس حجة من حيث أنه أمر بالمجازاة من حال إلى حال وحملها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له على ما قررناه في الكتب الأصولية.

«وَلَوْلَا أَنَّ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ» الخروج من أوطانهم. «لَعَذَّبْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا» بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة. «وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ» استئناف معناه أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» الإشارة إلى ما ذكر مما حاق بهم وما كانوا بصددّه وما هو معد لهم أو إلى الأخير.

«مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ» أي شيء قطعتم من نخلة فعلة من اللون ويجمع على ألوان، وقيل من اللين ومعناها النخلة الكريمة وجمعها ألوان. «أَوْ تَرَكْتُمُوهَا» الضمير لما وتأنيته لأنه مفسر بالينة. «فَائِمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا» وقرئ «أصلها» اكتفاء بالضمه عن الواو أو على أنه كرهن. «فَيَذَنُ اللَّهُ» فيأمره. «وَلِيُخْرِجِي الْفَاسِقِينَ» علة لمحذوف أي وفعلتم أو وأذن لكم في القطع ليجزيهم على فسقهم بما غاظهم منه. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا: قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها فنزلت. واستدل به على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم.

«وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (6) «مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (7) «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» (8) «وَالَّذِينَ بَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (9) «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» (10)

«وَمَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ» وما أعاده عليه بمعنى صيره له أورده عليه، فإنه كان حقيقاً بأن يكون له لأنه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق لهم ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين.

﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير أو من الكفرة. ﴿فَمَا أُوجِثْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فما أجريتكم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير. ﴿مَنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راحته، وذلك إن كان المراد في بني النضير، فلأن قراهم كانت على ميلين من المدينة فمشوا إليها رجالاً غير رسول الله ﷺ فإنه ركب جملأً أو حماراً، ولم يجر مزيد قتال ولذلك لم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة كانت بهم حاجة. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ بقذف الرعب في قلوبهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائط الظاهرة وتارة بغيرها.

﴿مَا آفَأَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ بيان للأول ولذلك لم يعطف عليه. ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ﴾ اختلف في قسم الفيء، ف قيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله في عمارة الكعبة وسائر المساجد، وقيل يخمس لأن ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والثغور على قول وإلى مصالح المسلمين على قول. وقيل يخمس خمسه كالغنيمة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور. ﴿كَيْلًا يَكُونُ﴾ أي الفيء الذي حقه أن يكون للفقراء. وقرأ هشام في رواية بالناء. ﴿ذُلَّةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ الدولة ما يتداوله الأغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية، وقرئ ﴿دولة﴾ بمعنى كَيْلًا يكون الفيء ذا تداول بينهم أو أخذه غلبة تكون بينهم، وقرأ هشام ﴿دولة﴾ بالرفع على كان التامة أي كَيْلًا يقع دولة جاهلية. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ وما أعطاكم من الفيء أو من الأمر. ﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنه حلال لكم، أو فتمسكوا به لأنه واجب الطاعة. ﴿وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ﴾ عن أخذه منه، أو عن إتيانه. ﴿فَانْتَهُوا﴾ عنه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة رسوله. ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بدل من ﴿الذي القربى﴾ و ﴿ما﴾ عطف عليه فإن ﴿الرسول﴾ لا يسمى فقيراً، ومن أعطى أغنياء ذوي القربى خصص الإبدال بما بعده، والفيء بفيء بني النضير. ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم. ﴿يَتَّقُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً﴾ حال مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم. ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بأنفسهم وأموالهم. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ عطف على المهاجرين، والمراد بهم الأنصار الذين ظهر صدقهم فإنهم لزموا المدينة والإيمان وتمكنوا فيهما، وقيل المعنى تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام، أو تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله: عَلَفَتْهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِداً. وقيل سمي المدينة بالإيمان لأنها مظهره ومصيره. ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل هجرة المهاجرين. وقيل تقدير الكلام والذين تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يتقل عليهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسهم. ﴿حَاجَةً﴾ ما تحمل عليه الحاجة كالطلب والحزاة والحسد والغيط. ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ ويقدمون المهاجرين على أنفسهم حتى أن كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حاجة من خصائص البناء وهي فرجة. ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم الذين هاجروا حين قوي الإسلام، أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل: إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٠﴾ حَقْدًا لَهُمْ ﴿١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ فحقيق بأن تجيب دعاءنا.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكْنَ أَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا يَنْصُرُوهُمْ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا يَنْصُرُوهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (12) لَأَنَّهُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (13) لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ فَإِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (16) فَكَانَ عَذَابَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (17)﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يريد الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر أو الصداقة والموالة. ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ مِنْ دياركم. ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في قتالكم أو خذلانكم. ﴿ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ أي من رسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ لنعاونكم. ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ وكان كذلك فإن ابن أبي وأصحابه راسلوا بني النضير بذلك ثم أخلفوهم، وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن. ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير. ﴿ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَذْيَارَ ﴾ انهزاماً. ﴿ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونُ ﴾ بعد بل يخذلهم الله ولا ينفعهم نصرة المنافقين، أو نفاقهم إذ ضمير الفعلين يحتمل أن يكون لليهود وأن يكون للمنافقين.

﴿ لَأَنَّهُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي أشد مرهوبة مصدر للفعل المبني للمفعول. ﴿ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ فإنهم كانوا يضمرون مخافتهم من المؤمنين. ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ على ما يظهره نفاقاً فإن استبطان رهبتكم سبب لإظهار مرهبة الله. ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته ويعلموا أنه الحقيق بأن يخشى.

﴿ لَا يَقَاتِلُونَكُمْ ﴾ اليهود والمنافقون. ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين. ﴿ إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والخنادق. ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ لفرط رهبتهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «جدار» وأمال أبو عمرو فتحة الدال. ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي وليس ذلك لضعفهم وجبنهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً، بل لقدف الله العرب في قلوبهم ولأن الشجاع يجبن والعزیز يدل إذا حارب الله ورسوله. ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين. ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم. ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه صلاحهم وإن تشتت القلوب يوهن قواهم.

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو بني قينقاع إن صح أنهم أخرجوا قبل النضير، أو المهلكين من الأمم الماضية. ﴿ قَرِيبًا ﴾ في زمان قريب وانتصابه بمثل إذ التقدير كوجود مثل. ﴿ ذَاتُوا وَيَالٍ أَمْرِهِمْ ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا. ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة.

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان. ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ أغراه على الكفر إغراء الأمر المأمور. ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال .

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ والمراد من الإنسان الجنس . قيل أبو جهل قال له إبليس يوم بدر ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارك لكم﴾ الآية . وقيل راهب حملة على الفجور والارتداد وقرىء ﴿عاقبتهما﴾ و «خالدان» على أنه خبر إن و «في النار» لغو .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّوَا اللَّهَ وَلَنُنَظِرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَنُنَظِرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامة سماه به لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة كغده، وتكبيره للتعظيم وأما تنكير النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدم من الآخرة كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل والثاني في ترك المحارم لاقتراحه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ نسوا حقه . ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوها ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها، أو أراهم يوم القيامة من الهول ما أنساهم أنفسهم . ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوق .

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا الجنة والذين استمهنوها فاستحقوا النار، واحتج به أصحابنا على أن المسلم لا يقتل بالكافر . ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تمثيل وتخيل كما مر في قوله: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن الإشارة إليه وإلى أمثاله . والمراد توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه وقلة تدبره، والتصدع التشقق . وقرىء «مصدعاً» على الإدغام .

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها، وما حضر له من الأجرام وأعراضها، وتقديم «الغيب» لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به، أو المعدوم والموجود، أو السر والعلانية . وقيل الدنيا والآخرة . ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ البالغ في الزهارة عما يوجب نقصاناً . وقرىء بالفتح وهو لغة فيه . ﴿السَّلَامُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة، مصدر وصف به للمبالغة . ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن، وقرىء بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار . ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفيع من الأمن قلبت همزته هاء . ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراده، أو جبر حالهم بمعنى أصلحه . ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾



الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يشركه في شيء من ذلك.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته. ﴿الْبَارِيُّ﴾ الموجد لها بريئاً من التفاوت.

﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد. ومن أراد الإطناب في شرح هذه الأسماء وأحواتها فعليه بكتابي المسمى بمنتهى المنى. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ لأنها دالة على محاسن المعاني. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لتنزهه عن النقائص كلها. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات بأسرها فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».



[مدنية وآياتها ثلاث عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِهِ مَرْضَىٰ يُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْيَقِينَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، فإنه لما علم أن رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة كتب إليهم أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم، وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام فأعلم رسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقه، فأدركوها ثمة فوجدت فهموا بالرجوع، فسل علي رضي الله تعالى عنه السيف فأخرجته من عقاصها، فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن آخذ عندهم يداً وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ

وعذره. ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تفضون إليهم المودة بالمكاتبة، والباء مزيدة أو إخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة، والجملة حال من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أو صفة لأولياء جرت على غير من هي له، ولا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط في الاسم دون الفعل. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من فاعل أحد الفعلين. ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من مكة وهو حال من ﴿كفروا﴾ أو استئناف لبيانه. ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ بأن تؤمنوا به وفيه تغليب المخاطب والالتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجب الإيمان. ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم. ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ علة للخروج وعمدة للتعليل وجواب الشرط محذوف دل عليه ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. ﴿تَسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ بدل من ﴿تَلْقَوْنَ﴾ أو استئناف معناه: أي طائل لكم في أسرار المودة أو الإخبار بسبب المودة. ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي منكم. وقيل ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارع والباء مزيدة و «ما» موصولة أو مصدرية. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي من يفعل الاتخاذ. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأه.

﴿إِنْ يَتَفَقَّحُوا﴾ يظفروا بكم. ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ولا ينفعكم اللقاء المودة إليهم. ﴿وَيَسْتَفْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ ما يسوؤكم كالقتل والشتم. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا ارتدادكم، ومجيء ﴿ودوا﴾ وحده بلفظ الماضي للإشعار بأنهم ﴿ودوا﴾ قبل كل شيء، وأن ودادتهم حاصلة وإن لم يتفقوكم.

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ﴾ قراياتكم. ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يفرق بينكم بما عراكم من الهول فيفر بعضكم من بعض فما لكم ترفضون اليوم حق الله لمن يفر منكم غداً، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الصاد والتشديد وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر ﴿يفصل﴾ على البناء للمفعول وهو ﴿بينكم﴾، وقرأ عاصم ﴿يفصل﴾. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة. اسم لما يؤتسى به. ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ صفة ثانية أو خبر كان و ﴿لكم﴾ لغو أو حال من المستكن في ﴿حسنة﴾ أو صلة لها لا لـ ﴿أسوة﴾ لأنها وصفت. ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ ظرف لخبر كان. ﴿إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ﴾ جميع بريء كظريف وظرفاء. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي يدينكم أو بعبودكم، أو بكم وبه فلا نعتد بشأنكم وآلهتكم. ﴿وَبَدَّلْنَا بِبَنَاتِنَا الْغُلَامَ وَالْبَغْيَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ فتقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله ﴿أسوة حسنة﴾ فإن استغفاره إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر ليس مما ينبغي أن يأتسوا به، فإنه كان قبل النهي أو لموعده وعدما إياه. ﴿وَمَا أُمِّلُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه. ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ متصل بما قبل الاستثناء أو أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه تتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ الْخَبِيرُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا هُمْ يَنْهَوْنَهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاَمْحَوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ

مُؤْمِنَةٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُعَذِّبُ عَنِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿10﴾

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحملة. ﴿وَاعْفُ رُبَّنَا﴾ ما فرط منا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يجبر المتوكل ويجيب الداعي.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير لمزيد الحث على التأسي بإبراهيم ولذلك صدر بالقسم وأبدل قوله: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ من ﴿لكم﴾ فإنه يدل على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وإن تركه مؤذن بسوء العقيدة ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه جدير بأن يوعده به الكفرة.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ لما نزل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ عادية المؤمنين أقاربهم المشركين وتبرؤوا عنهم، فوعدهم الله بذلك وأنجز إذ أسلم أكثرهم وصاروا لهم أولياء. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء لأن قوله: ﴿أَنْ تَبْرَأَهُمْ﴾ بدل من ﴿الذين﴾. ﴿وَتُقْسَطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتقضوا إليهم بالقسط أي العدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين، روي أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين. ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من ﴿الذين﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهُنَّ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهم لسانهم في الإيمان. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ فإنه المطلع على ما في قلوبهم. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلم الذي يمكنكم تحصيله وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات، وإنما سماه علماً إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ والتكرير للمطابقة والمبالغة، أو الأولى لحصول الفرق والثانية للامتناع عن الاستئناف. ﴿وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن صلح الحديبية جرى: على أن من جاءنا منكم رددناه. فلما تعذر عليه ردهن لورود النهي عنه لزمه رد مهورهن. إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعد الحديبية إذ جاءته سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالباً لها فنزلت. فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها عمر رضي الله تعالى عنه. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فإن الإسلام حال بينهما وبين أزواجهن الكفار. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ شرط إتياء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، وقرأ البصريان ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بالتشديد. ﴿وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهور نساكنكم اللاحقات بالكفار. ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهور أزواجهن المهاجرات. ﴿ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني جميع ما ذكر في الآية. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف أو حال من الحكم على حذف الضمير، أو جعل الحكم حاكماً على

المبالغة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما تقتضيه حكمته.

﴿وَلِنْ فَاتَكُمُ نِّسَاءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَالَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِنِهْنَيْنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)﴾

﴿وَلِنْ فَاتَكُمُ﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم. ﴿شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أحد من أزواجكم، وقد قرئ به وإيقاع ﴿شَيْءٍ﴾ موقعه للتحقير والمبالغة في التعميم، أو ﴿شَيْءٍ﴾ من مهرهن. ﴿إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ﴾ فجاءت أي نوبتكم من أداء المهر، شبه الحكم بأداء هؤلاء مهر نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهر نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقب فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة أبى المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فنزلت. وقيل معناه إن فاتكم فأصبتن من الكفار عقيب وهي الغنيمة ﴿فَاتُوا﴾ بدل الفائت من الغنيمة. ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ الذي أنتم به مؤمنون ﴿فإن الإيمان به يقتضي التقوى منه﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ نزلت يوم الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء. ﴿وَلَا يُسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد وأد البنات. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِنِهْنَيْنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في حسنة تأمرهن بها، والتقيد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق. ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ﴾ إذا بايعتك بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء. ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني عامة الكفار أو اليهود. إذ روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم. ﴿قَدْ يَسْأَلُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لاحظ لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات. ﴿كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يبعثوا أو يثابوا أو يتألموا خير منهم، وعلى الأول وضع الظاهر فيه موضع المضمرة للدلالة على أن الكفر آيسهم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعا يوم القيامة».



[مدنية، وقيل مكية وآياتها أربع عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ  
(2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ  
بُتَيْنٌ مَرْصُوصٌ (4) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا  
أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ  
مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ  
وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) ﴿

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيره .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فولوا يوم أحد فنزلت .  
و ﴿لم﴾ مركبة من لام الجر وما الاستفهامية والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر لكثرة استعمالها معاً واعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه .

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المقت أشد البغض ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقت خالص ﴿كبر﴾ عند من يحقر دونه كل عظيم، مبالغة في المنع عنه .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ مصطفين مصدر وصف به . ﴿كَأَنَّهُمْ بُتَيْنٌ مَرْصُوصٌ﴾ في تراصهم من غير فرجة، حال من المستكن في الحال الأولى . والرص اتصال بعض البناء ببعض واستحكامه .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ مقدراً بذكر أو كان كذا . ﴿يَا قَوْمَ لِمَ تَقُولُونَ﴾ بالعصيان والرمي بالادرة .  
﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئكم من المعجزات، والجملة حال مقررّة للإنكار فإن العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إبداءه، و﴿وقد﴾ لتحقيق العلم . ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الحق . ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب . ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هداية موصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ولعله لم يقل ﴿يا قوم﴾ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نسب له فيهم . ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا﴾ في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة وتبشيري ﴿برسول يأتي من بعدي﴾ . والعامل في الحالين ما في الرسول من

معنى الإرسال لا الجار لأنه لغو إذ هو صلة للرسول فلا يعمل. ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام، والمعنى أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه، فذكر أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الإشارة إلى ما جاء به أو إليه، وتسميته سحر للمبالغة ويؤيده قراءة حمزة والكسائي هذا «ساحر» على أن الإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته المقتضى له خبر الدارين فيضع موضع إيجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله وتسميته آيته سحراً فإنه يعم إثبات المنفي ونفي الثابت وقرئ «يدعى» يقال دعاه وادعاه كلمسه والتمسه. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا﴾ أي يريدون أن يطفئوا، واللام مزيدة لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً لها كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في لا أبا لك، أو «يريدون» الافتراء «ليطفئوا». ﴿نُورُ اللَّهِ﴾ يعني دينه أو كتابه أو حجته. ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بطعنهم فيه. ﴿وَاللَّهُ مَعَهُ نُورُهُ﴾ مبلغ غايته بنشره وإعلانه، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بالإضافة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إرغاماً لهم.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (9) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُجْحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينُ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ (13) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْصَارٌ كُرُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَمَنَّتِ طَالِفَةٌ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَؤِيلَ وَكَفَرَتْ طَالِفَةٌ فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُومِهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ بالقرآن أو المعجزة. ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ والملة الحنيفية. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لينغلبه على جميع الأديان. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن عامر «تُنْجِيكُمْ» بالتشديد.

﴿تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ استئناف مبين للتجارة وهو الجمع بين الإيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزمهم، والمراد به الأمر وإنما جيء بلفظ الخبر إيداناً بأن ذلك مما لا يترك. «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ» يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد. «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» إن كنتم من أهل العلم إذ الجاهل لا يعتد بفعله.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، أو لشروط أو استفهام دل عليه الكلام تقديره أن تؤمنوا وتجاهدوا، أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم، ويبعد جعله جواباً لهل أدلكم لأن مجرد دلالة لا توجب المغفرة «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينُ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الإشارة إلى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة، وفي «تُحِبُّونَهَا»

تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل، وقيل ﴿أخرى﴾ منصوبة بإضمار يعطيكم، أو تحبون أو مبتدأ خبره: ﴿نَصَرُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو على الأول بدل أو بيان وعلى قول النصب خبر محذوف، وقد قرئ بما عطف عليه بالنصب عى البدل، أو الاختصاص أو المصدر. ﴿وَفَتَحَ قَرِيبٌ﴾ عاجل. ﴿وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على محذوف مثل: قل يا أيها الذين آمنوا ﴿وبشروا﴾، أو على ﴿تؤمنون﴾ فإنه في معنى الأمر كأنه قال: آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشروهم يا رسول الله بما وعدتهم عليهما آجلاً وعاجلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ وقرأ الحجازيان وأبو عمرو بالتنوين واللام لأن المعنى كونوا بعض أنصار الله. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من جندي موجهاً إلى نصرته الله ليطابق قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص، والثانية إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى إذ المراد قل لهم كما قال عيسى ابن مريم، أو كونوا أنصاراً كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى ﴿من أنصاري إلى الله﴾. والحواريون أصفاؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً من الحور وهو البياض. ﴿فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ﴾ أي بعيسى. ﴿فَأَبَدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ بالحجة وبالحرث وذلك بعد رفع عيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فصاروا غاليين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه».



### سورة الجمعة

[مدنية وآياتها إحدى عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَعَاصِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4) مَثَلُ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلنُّورِ ثُمَّ كَفَرُوا يَحْمِلُوهَا كَمْثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمُ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّعُوا بِالْوَيْلِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6)﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقد قرئ الصفات الأربع بالرفع على المدح.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي في العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون. ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من

جملتهم أمياً مثلهم. ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ من كونه أمياً مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خباثت العقائد والأعمال. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن والشرعة، أو معالم الدين من المنقول والمعقول، ولو لم يكن له سواه معجزة لكفاه. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَقِيَّ صَلَاحٍ مُبِينٍ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية، وهو بيان لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم، وإزاحة لما يتوهم أن الرسول تعلم ذلك من معلم، و﴿إِنْ﴾ هي المخففة واللام تدل عليها.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ﴾ عطف على ﴿الْأَمِينِ﴾، أو المنصوب في ﴿يعلمهم﴾ وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين، فإن دعوته وتعليمه يعم الجميع. ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في تمكنه من هذا الأمر الخارق للعادة. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في اختياره وتعليمه.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ ذلك الفضل الذي امتاز به عن أقرانه فضله. ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تفضلاً وعطية. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي يستحق دونه نعيم الدنيا، أو نعيم الآخرة أو نعميهما.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾ علموها وكلفوا العمل بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوها بها أو لم ينتفعوا بما فيها. ﴿كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَخْمَلُ أَشْفَارًا﴾ كذا من العلم تعب في حملها ولا ينتفع بها، ويحمل حال العامل فيه معنى المثل أو صفة إذ ليس المراد من ﴿الجمار﴾ معيماً. ﴿بَشَرٌ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي مثل الذين كذبوا وهم اليهود المكذبون بآيات الله الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ويجوز أن يكون الذين صفة للقوم والمخصوص بالذم محذوفاً. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا. ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه. ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَرْشِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11) ﴿

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أن تمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم. ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لاحق بكم لا تفوتونه، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وكان فرارهم يسرع لحوقه بهم. وقد قرئ بغير فاء ويجوز أن يكون الموصول خبراً والفاء عاطفة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن يجازيكم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ أي إذا أذن لها. ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بيان له ﴿إِذَا﴾ وإنما سمي الجمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة، وكانت العرب تسميه العروبة. وقيل سماه كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه إليه، وأول جمعة جمعها رسول الله ﷺ أنه لما قدم المدينة نزل قباء فأقام بها إلى الجمعة، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في واد لبني سالم بن عوف. ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فامضوا إليه مسرعين قصداً فإن



السعي دون العدو، والد ﴿ذَكَرْ﴾ الخطبة، وقيل الصلاة والأمر بالسعي إليها يدل على وجوبها. ﴿وَذَرُواْ الْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملة. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي السعي إلى ذكر الله. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المعاملة فإن نفع الآخرة خير وأبقى. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر الحقيقين، أو إن كنتم من أهل العلم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أدت وفرغ منها. ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إطلاق لما حظر عليهم، واحتج به من جعل الأمر بعد الحظر للإباحة. وفي الحديث «ابتغوا من فضل الله ليس بطلب الدنيا وإنما هو عبادة مريض وحضور جنازة وزيادة أخ في الله». ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروه في مجامع أحوالكم ولا تخصوا ذكره بالصلاة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ بخير الدارين.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب للجمعة فمرت عليه غير تحمل الطعام، فخرج الناس إليهم إلا اثني عشر رجلاً فزلت. وإفراد التجارة برد الكناية لأنها المقصودة، فإن المراد من اللهو الطبل الذي كانوا يستقبلون به العير، والترديد للدلالة على أن منهم من انفض لمجرد سماع الطبل ورؤيته، أو للدلالة على أن الانفضاخ إلى التجارة مع الحاجة إليها والانفعاخ بها إذا كان مذموماً كان الانفضاخ إلى اللهو أولى بذلك. وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه. ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي على المنبر. ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب. ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فإن ذلك محقق مخلد بخلاف ما تتوهمون من نفعهما ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الجمعة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها في أمصار المسلمين».



### سورة المنافقين

[مدنية وآياتها إحدى عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذَا رَأَتْهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَانُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مِّنْ سَنَدَةٍ يَّحْسِبُونَ كُلَّ صَبِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنُلَاقُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُؤُسَهُمْ وَرَأَتْهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5)﴾

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ الشهادة إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والاطلاع، ولذلك صدق المشهور به وكذبهم في الشهادة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ حلفهم الكاذب أو شهادتهم هذه، فإنها تجري مجرى الحلف في التوكيد، وقرئ  
﴿إِيمَانِهِمْ﴾ ﴿جُنَّةٌ﴾ وقاية من القتل والسيي. ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدأ أو صدوداً. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصدهم.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكلام المتقدم أي ذلك القول الشاهد على سوء أعمالهم، أو إلى الحال المذكورة  
من النفاق والكذب والاستجنان بالإيمان. ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بسبب أنهم آمنوا ظاهراً. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ سرّاً، أو  
﴿آمَنُوا﴾ إذا رأوا آية ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حيثما سمعوا من شياطينهم شبهة. ﴿فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرنوا على  
الكفر فاستحكموا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقية الإيمان ولا يعرفون صحته.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتها وصباحتها. ﴿وَأِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذاقتهم وحلاوة  
كلامهم، وكان ابن أبي جسيما فصيحا يحضر مجلس رسول الله ﷺ في جمع مثله، فيعجب بهيكلهم ويصغي  
إلى كلامهم. ﴿كَانَتْهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةً﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿قَوْلِهِمْ﴾ أي تسمع لما يقولونه مشبهين  
بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والنظر، وقيل الـ ﴿خَشَبٌ﴾ جمع  
خشباء وهي الخشبة التي تُخَرَّجُ جَوْفَهَا، شبهوا بها في حسن المنظر وقبح المخبر، وقرأ أبو عمرو والكسائي  
وقبل عن ابن كثير بسكون الشين على التخفيف، أو على أنه كبدن في جمع بدنة ﴿يُحَسِّبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ  
عَلَيْهِمْ﴾ أي واقعة عليهم لجبنهم واتهامهم، فـ ﴿عليهم﴾ ثاني مفعولي ﴿يُحَسِّبُونَ﴾، ويجوز أن يكون صلته  
والمفعول: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ وعلى هذا يكون الضمير للكل وجمعه بالنظر إلى الخبر لكن ترتب قوله:  
﴿فَاخْذَرْهُمْ﴾ عليه يدل على أن الضمير للمنافقين. ﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم وهو طلب من ذاته أن يلعنهم،  
أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّزَا رُؤُوسَهُمْ﴾ عطفوها إعراضاً واستكباراً عن ذلك، وقرأ  
نافع بتخفيف الواو. ﴿وَرَأَيْنَهُمْ صُذُّونَ﴾ يعرضون عن الاستغفار. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (6) هُمُ  
الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا  
يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ  
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8) يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ  
قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)﴾

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لرسوخهم في الكفر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا  
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن مظنة الاستصلاح لانهم أكههم في الكفر والنفاق.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي للانصار. ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ يعنون فقراء  
المهاجرين. ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيده الأرزاق والقسم. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك  
لجهلهم بالله.

﴿يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ روي أن أعرابياً نازع أنصارياً في بعض  
الغزوات على ماء، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكى إلى ابن أبي فقال: لا تنفقوا على من عند رسول

الله ﷻ حتى ينفصوا، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرجن الأعز منها الأذل، عنى بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ. وقرئ ﴿ليخرجن﴾ بفتح الباء و﴿ليخرجن﴾ على بناء المفعول و«لتخرجن» بالنون، ونصب ﴿الأعز﴾ و﴿الأذل﴾ على هذه القراءات مصدر أو حال على تقدير مضاف كخروج أو إخراج أو مثل. ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ والله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين.

﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ من فرط جهلهم وغرورهم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ لا يشغلكم تدبيرها والاهتمام بها عن ذكره الصلوات وسائر العبادات المذكورة للمعبود، والمراد نهيه عن اللهو بها. وتوجيه النهي إليها للمبالغة ولذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي اللهو بها وهو الشغل. ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿وانفقوا مما رزقناكم﴾ بعض أموالكم إداراً للأخرة. ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ أي يرى دلالته ﴿فيقول رب لولا أخرتني﴾ هلا أمهلتي. ﴿إلى أجل قريب﴾ أمد غير بعيد. ﴿فأصدق﴾ فأتصدق. ﴿وأكن من الصالحين﴾ بالتدارك، وجزم ﴿أكن﴾ للعطف على موضع الفاء وما بعده، وقرأ أبو عمرو «وأكون» منصوباً عطفاً على ﴿فأصدق﴾، وقرئ بالرفع على وأنا أكون فيكون عدة بالصلاح.

﴿ولكن يؤخر الله نفسه﴾ ولن يمهلها. ﴿إذا جاء أجلها﴾ آخر عمرها. ﴿والله خير بما تعملون﴾ فمجاز عليه، وقرأ أبو بكر بالياء ليوافق ما قبله في الغيبة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المنافقين برىء من النفاق».



### سورة التغابن

[مختلف فيها وآياتها ثمانى عشر آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾ (1) هو الذي خلقكم فكنم كافرين ومنكم مؤمن بالله يما تعملون بصير (2) خلق السموات والأرض بالحق وصورك فأحسن صوركم وإليه المصير (3) يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور (4) ألم يعلم نبؤ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم (5) ذلك بأنهم تأبى عنهم رسالهم بالبينت فقالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد (6) زعم الذين كفروا أن لن نبغوا قل بل وري لتبعن ثم لتنبؤن يما عملتم وذلك على الله يسير (7) فقاموا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله يما تعملون خير (8) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم (9) ﴿

﴿يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بدلالتها على كماله واستغناؤه. ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدم الظرفين للدلالة على اختصاص الأمرين به من حيث الحقيقة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل على سواء ثم شرع فيما ادعاه فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ﴾ مقدر كفره موجه إليه ما يحمله عليه. ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعاملكم بما يناسب أعمالكم.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فصوركم من جملة ما خلق فيهما بأحسن صورة، حيث زينكم بصفوة أوصاف الكائنات، وخصكم بخلاصة خصائص المبدعات، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات. ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائركم حتى لا يمسخ بالعذاب ظواهركم.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا يخفى عليه ما يصح أن يعلم كلياً كان أو جزئياً، لأن نسبة المقتضى لعلمه إلى الكل واحدة، وتقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات وعلى علمه بما فيها من الإتيان والاختصاص ببعض الأنحاء.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أيها الكفار. ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح عليهم السلام. ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ ضرر كفرهم في الدنيا، وأصله الثقل ومنه الويليل لطعام يثقل على المعدة، والوبال المطر الثقيل القطار. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الوبال والعذاب. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أن الشأن. ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا أَنْكُرُوا وَتَعْجَبُوا مِنْ أَنْ يَكُونَ الرُّسُلُ بَشَرًا وَالْبَشَرُ يَطْلُقُ لِلوَاحِدِ وَالْجَمْعِ. فَكَفَرُوا﴾ بالرسول ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن التدبر في البيّنات. ﴿وَاسْتَعْصَى اللَّهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتهم وغيرها. ﴿حَمِيدٌ﴾ يدل على حمده كل مخلوق.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ الزعم ادعاء العلم ولذلك يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن بما في حيزه. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أي بلى تبعثون. ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قسم أكد به الجواب. ﴿ثُمَّ لَتَنْبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقبول المادة وحصول القدرة التامة.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا﴾ يعني القرآن فيه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره. مما فيه شرحه وبيانه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمجاز عليه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرف ﴿لَتَنْبُوْنَ﴾ أو مقدر باذكر، قرأ يعقوب «نجمعكم». ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ لأجل ما فيه من الحساب والجزاء والجمع جمع الملائكة والثقلين. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يغيب فيه بعضهم بعضاً لتزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، مستعار من تغابن التجار واللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي وهو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي عملاً صالحاً. ﴿يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين، ولذلك جعله الفوز العظيم لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (10) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ

تَوَلَّيْتُمْ فَأَتَمَّا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15) فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِن تَقَرَّبُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) ﴿

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كأنها والآية المتقدمة بيان لـ ﴿التغابن﴾ وتفصيل له .

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بتقدير وإرادته . ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ للثبات والاسترجاع عند حلولها ، وقرىء ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ بالرفع على إقامته مقام الفاعل والنصب على طريقة «سفه نفسه» ، ويهدأ بالهمزة أي يسكن . ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى القلوب وأحوالها .

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن توليتم فلا بأس عليه إذ وظيفته التبليغ وقد بلغ .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضي ذلك .

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوا لَكُمْ﴾ يشغلهم عن طاعة الله أو يخاصمكم في أمر الدين أو الدنيا . ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ ولا تأمنوا غوائلهم . ﴿وَإِن تَعَفَّوْا﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة . ﴿وَنَصَفَحُوا﴾ بالإعراض وترك الشرب عليها . ﴿وَتَغَفَّرُوا﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها . ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم .

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار لكم . ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم .

﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي إبدلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم . ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ مواعظه . ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامره . ﴿وَأَنفِقُوا﴾ في وجوه الخير خالصاً لوجهه . ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها ، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر ، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره : انفاقاً خيراً أو خيراً كان مقدراً جواباً للأوامر . ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيره .

﴿إِن تَقَرَّبُوا اللَّهَ﴾ تصرفوا المال فيما أمره . ﴿قَرَضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بإخلاص وطيب قلب . ﴿يُضَاعَفْهُ لَكُمْ﴾ . يجعل لكم بالواحد عشر إلى سبعمائة وأكثر ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يضاعفه لكم» . ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق . ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بالقليل . ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يخفي عليه شيء . ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تام القدرة والعلم .

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة» والله أعلم .

## سورة الطلاق

[مدنية وآياتها اثنا عشرة أو إحدى عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) فَإِذَا بَلَغَ أَحْلَاهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ تُوعَظُ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَبِرِّزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنْ اللَّهُ بَلَغَ أَمْرٍ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3) وَالَّتِي يَلِيسَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5) اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَيْ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَضَعْنَ لَكُمْ فَتَأَوَّهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِنِكَاحِ مَعْرُوفٍ وَإِنْ تَقَاسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى (6)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خص النداء وعم الخطاب بالحكم لأنه إمام أمته فنداؤه كندائهم، أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم. والمعنى إذا أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف له منزلة الشارع فيه.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي في وقتها وهو الطهر، فإن اللام في الأزمان وما يشبهها للتأنيث، ومن عدة ﴿العدة﴾ بالحيض علق اللام بمحذوف مثل مستقبلات، وظاهره يدل على أن ﴿العدة﴾ بالأطهار وأن طلاق المعتدة بالأقراء ينبغي أن يكون في الطهر، وأنه يحرم في الحيض من حيث إن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده ولا يدل على عدم وقوعه، إذ النهي لا يستلزم الفساد، كيف وقد صح أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لما طلق امرأته حائضاً أمره النبي ﷺ بالرجعة وهو سبب نزوله. ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهن. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن وقت الفراق حتى تنقضي عدتهن. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باستبدادهن أما لو اتفقا على الانتقال جاز إذ الحق لا يعدوهما، وفي الجمع بين النهيين دلالة على استحقاقهما السكني ولزومها ملازمة مسكن الفراق وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ مستثنى من الأول، والمعنى إلا أن تبذوا على الزوج فإنه كالنشوز في إسقاط حقها، أو إلا أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها، أو من الثاني للمبالغة في النهي والدلالة على أن خروجها فاحشة. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى الأحكام المذكورة. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بأن عرضها للعقاب. ﴿لَا تَدْرِي﴾ أي النفس أو أنت أيها النبي أو المطلق. ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرغبة في المطلقة برجعة أو استئناف.

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ﴾ شارفن آخر عدتهن. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهن. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحسن عشرة وإنفاق مناسب، ﴿أَوْ فَارْقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرر مثل أن يرأجعهن ثم يطلقها تطويلاً لعدتها. ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ على الرجعة أو الفرقة تبرياً عن الريبة وقطعاً للتنازع، وهو نذب كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وعن الشافعي وجوبه في الرجعة. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود عند الحاجة. ﴿لِلَّهِ﴾ خالصاً لوجهه. ﴿ذَلِكَمُ يُوعَظُ بِهِ﴾ يريد الحث على الإشهاد والإقامة، أو على جميع ما في الآية. ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإنه المنتفع به والمقصود بذكره. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على الإتياء عما نهى عنه صريحاً أو ضمناً من الطلاق في الحيض، والإضرار بالمعتدة وإخراجها من المسكن، وتعدي حدود الله وكتمان الشهادة وتوقع جعل على إقامتها بأن يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من المضايق والغموم، ويرزقه فرجاً وخلفاً من وجه لم يخطر بباله. أو بالوعد لعامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون. أو كلام جيء به للاستطراد عند ذكر المؤمنين. وعنه ﴿إِنِّي لَا أَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ النَّاسُ بِهَا لَكَفْتَهُمْ﴾. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها. وروي «أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعي أسره العدو، فشكا أبوه إلى رسول الله ﷺ فقال له «اتق الله وأكثر قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. ففعل فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها». وفي رواية «رجع ومعه غنيمات ومتاع». ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كافية. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعِ أَمْرِهِ﴾ يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد، وقرأ حفص بالإضافة، وقرئ «بالغ أمره» أي نافذ و«بالغا» على أنه حال والخبر: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديرأ أو مقدراً، أو أجلاً لا يتأتى تغييره، وهو بيان لوجوب التوكل وتقرير لما تقدم من تأقيت الطلاق بزمان العدة والأمر بإحصائها، وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها.

﴿وَاللَّاتِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ لكبرهن. ﴿إِنْ أُرْبِتُمْ﴾ شككنم في عدتهن أي جهلتهن. ﴿فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزل ﴿وَالْمَطْلَقَاتِ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ قيل فما عدة اللاتي لم يحضن فزلت. ﴿وَاللَّاتِي لَمْ يَحْضُنَّ﴾ أي واللاتي لم يحضن بعد كذلك. ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ منتهى عدتهن. ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو حكم يعم المطلقات والمتوفي عنهم أزواجهن، والمحافظة على عمومه أولى من محافظة عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ لأن عموم أولات الأحمال بالذات وعموم أزواجاً بالعرض، والحكم معلل ها هنا بخلافه ثمة، ولأنه صح أن سبعة بنت الحرث وضعت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال «قد حللت فتزوجي»، ولأنه متأخر النزول فتقديمه في العمل تخصيص وتقديم الآخر بناء للعام على الخاص والأول راجح للوفاق عليه. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يسهل عليه أمره ويوفقه للخير.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام. ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها. ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أي مكان من مكان سكناكم. ﴿وَمِنْ وَجْدِكُمْ﴾ من وسعكم أي مما تطيقونه، أو عطف بيان لقوله من «حيث سكنتم». ﴿وَلَا تُضَارَّوهُنَّ﴾ في السكنى. ﴿لِتَضْمِنُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فتلجوهن إلى الخروج. ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا يدل على اختصاص استحقاق النفقة بالحامل من المعتدات والأحاديث تؤيده. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد انقطاع علقه النكاح. ﴿فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع. ﴿وَاتَّخِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ وليأمر بعضكم بعضاً

بجميل في الإرضاع والأجر. ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ﴾ تضايقتم. ﴿فَسْتَزْعِجْ لَهُ أُخْرَى﴾ امرأة أخرى، وفيه معاتبة للأم على المعاصرة.

﴿لِيُفْنِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْنِقْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (7) وَكَأَن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)﴾

﴿لِيُفْنِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْنِقْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ أي فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وفيه تطيب لقلب المعسر ولذلك وعد له باليسر فقال: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي عاجلاً وأجلاً.

﴿وَكَأَن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهل قرية. ﴿عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أعرضت عنه إعراض العاني المعاند. ﴿فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة. ﴿وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾ منكرًا والمراد حساب الآخرة، وعذابها والتعبير بلفظ الماضي للتحقيق.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبة كفرها ومعاصيها. ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ لا ربح فيه أصلاً.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ ويجوز أن يكون المراد بالحساب استقصاء ذنوبهم وإثباتها في صحف الحفظ، وبالعذاب ما أصيبوا به عاجلاً. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

﴿رَسُولًا﴾ يعني بالذكر جبريل عليه السلام لكثرة ذكره، أو لنزوله بالذكر وهو القرآن، أو لأنه مذكور في السموات أو ذا ذكر أي شرف، أو محمداً عليه الصلاة والسلام لمواظبته على تلاوة القرآن، أو تبليغه وعبر عن إرساله بالإنزال ترشيحاً، أو لأنه مسبب عن إنزال الوحي إليه، وأبدل منه ﴿رَسُولًا﴾ للبيان أو أراد به القرآن، و ﴿رَسُولًا﴾ منصوب بمقدر مثل أرسل أو ذكراً مصدر ورسولاً مفعوله أو بدله على أنه بمعنى الرسالة. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ حال من اسم ﴿اللَّهُ﴾ أو صفة ﴿رَسُولًا﴾، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في قوله: ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الذين آمنوا بعد إنزاله أي ليحصل لهم ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح أو ليخرج من علم أو قدر أنه يؤمن ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى. ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر ﴿ندخله﴾ بالنون. ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ فيه تعجيب وتعظيم لما رزقوا من الثواب.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض، وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن. ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ علة لـ ﴿خلق﴾ أو لـ ﴿يتنزل﴾، أو مضمرة يعمهما فإن كلا منهما يدل على كمال قدرته.

وعلمه عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ».





[مدنية وآياتها اثنتا عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغْ مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيذَاتٍ تَشْتَدْنَ عِيْدَاتٍ سَيَحِبَّنَّ تَيْبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (5)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في نوبة عائشة رضي الله تعالى عنها أو حفصة، فاطلعت على ذلك حفصة فعاتبته فيه فحرم مارية فتزلت. وقيل شرب عسلاً عند حفصة، فواطأت عائشة سودة وصفية فقلن له إنا نشم منك ريح المعافير فحرم العسل فتزلت. ﴿تَبْلَغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لـ ﴿تحريم﴾ أو حال من فاعله أو استئناف لبيان الداعي إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلة فإنه لا يجوز تحريم ما أحله الله. ﴿رَحِيمٌ﴾ رحمك حيث لم يؤاخذك به وعاتبك محاماة على عصمتك.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقدته بالكفارة، أو الاستثناء فيها بالمشيئة حتى لا تحث من قولهم: حلل في يمينه إذا استثنى فيها، واحتج بها من رأى التحريم مطلقاً أو تحريم المرأة يميناً، وهو ضعيف إذ لا يلزم من وجوب كفارة اليمين فيه كونه يميناً مع احتمال أنه عليه الصلاة والسلام أتى بلفظ اليمن كما قيل ﴿والله مولاكم﴾ متولي أمركم ﴿وهو العليم﴾ بما يصلحكم ﴿الحكيم﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه﴾ يعني حفصة ﴿حديثاً﴾ تحريم مارية أو العسل أو أن الخلافة بعده أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ﴿فلما نبأت عنه﴾ أي فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله تعالى عنهما بالحديث ﴿وأظهره الله عليه﴾ وأطلع النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث أي على إفشائه. ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾ عرف الرسول ﷺ حفصة بعض ما فعلت. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عن أعلام بعض تكراً أو جازاها على بعض بتطليقه إياها وتجاوز عن بعض، ويؤيده قراءة الكسائي بالتخفيف فإنه لا يحتمل هنا غيره لكن المشدد من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والمخفف بالعكس، ويؤيد الأول قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فإنه أوفق للإعلام.

﴿إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في المعاتبة. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من مخالصة رسول الله عليه الصلاة والسلام بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه. ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإن تتظاهرا عليه بما يسوؤه، وقرأ الكوفيون بالتخفيف. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلن يعدم من يظاھر من الله والملائكة وصلحاء

المؤمنين، فإن الله ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه، ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوانه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ متظاهرون، وتخصيص جبريل عليه السلام لتعظيمه، والمراد بالصالح الجنس ولذلك عمم بالإضافة وبقوله بعد ذلك تعظيم لمظاهرة الملائكة من جملة ما ينصره الله تعالى به.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب، وليس فيه ما يدل على أنه لم يطلق حفصة وأن في النساء خيراً ممنهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطبيق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿يُبَدِّلُهُ﴾ بالتخفيف. ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾ مقرات مخلصات أو متقادات مصدقات. ﴿قَانِتَاتٍ﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعات. ﴿قَانِتَاتٍ﴾ عن الذنوب. ﴿عَابِدَاتٍ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿سَائِحَاتٍ﴾ صائحات سمي الصائم سائحاً لأنه يسبح بالنهار بلا زاد، أو مهاجرات. ﴿فِيَّاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وسط العاطف بينهما لينافيهما ولأنهما في حكم صفة واحدة إذ المعنى مشتملات على الثيبات والأبكار.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (6) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ تَوْرَهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَاْمَنِيهِمْ يَقُولُونَ بَرَكَاتٌ رَبَّنَا آتِنَا إِنَّمَا نَا تَوْرَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا الْمَصِيرُ (9) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٍ تُوْجِدُ وَأَمْرًا لُوطٍ كَانَتْ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (10)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب، وقرئ و «أهلوكم» عطف على واو ﴿قوا﴾، فيكون ﴿أنفسكم﴾ أنفس القبيلين على تغليب المخاطبين. ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ناراً تنقد بهما انتقاد غيرها بالحطب. ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ تلي أمرها وهم الزبانية. ﴿غِلَظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ فيما مضى. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيما يستقبل، أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدون ما يؤمرون به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم أو العذر لا ينفعهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ باللغة في النصح وهو صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة، وصفت به على الإسناد المجازي مبالغة أو في النصيحة، وهي الخياطة كأنها تنصح ما خرق الذنب. وقرأ أبو بكر بضم النون وهو مصدر بمعنى النصح كالشكر والشكور، و النصيحة كالثبات والثبوت تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً، أو توبوا نصوحاً لأنفسكم. وسئل علي رضي الله تعالى عنه عن التوبة فقال: يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة، وللغرائض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن تربى نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ذكر بصيغة الأطماع جرياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضل والتوبة غير موجبة وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾

ظرف لـ ﴿يَدْخُلْكُمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ عطف على النبي عليه الصلاة والسلام إحماداً لهم وتعريضاً لمن ناوأهم، وقيل مبتدأ خبره: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيَانَهُمْ﴾ أي على الصراط. ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طُفِيَء نور المنافقين. ﴿رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلاً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة. ﴿وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمل الخشونة فيما تجاهدكم به إذا بلغ الرفق مداه. ﴿وَمَا أُوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم أو ماوأهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ مثل الله تعالى حالهم في أنهم يعاقبون بكفرهم ولا يحابون بما بينهم وبين النبي ﷺ والمؤمنين من النسبة بحالهما. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط عليهما السلام. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاق. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلم يغن النيان عنهما بحق الزواج شيئاً إغناء ما. ﴿وَقِيلَ﴾ أي لهما عند موتهما أو يوم القيامة. ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الظِّلْمُ﴾ (12)

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ شبه حالهم في أن وصلة الكافرين لا تضرهم بحال آسية رضي الله عنها ومنزلتها عند الله مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله. ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرف للمثل المحذوف. ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك أو في أعلى درجات المقربين. ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السيء. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من القبط التابعين له في الظلم.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على ﴿امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ﴾ تسلياً للأرامل. ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فرجها، وقرئ «فيها» أي في ﴿مريم﴾ أو في الجملة. ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ من روح خلقناه بلا توسط أصل. ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ بصحفه المنزلة أو بما أوحى إلى أنبيائه. ﴿وَكُتِبَ فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ﴾ أو جنس الكتب المنزلة وتدل عليه قراءة البصريين وحفص بالجمع، وقرئ «بكلمة الله وكتابه» أي يعيسى عليه السلام والإنجيل. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ من عداد المواظبين على الطاعة، والتذكير للتغليب والأشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم، أو من نسلهم فتكون ﴿من﴾ ابتداءً.

عن النبي ﷺ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد. وفضل عائشة على النساء كفضل ثريد على سائر الطعام» وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً».

## سورة الملك

[مكية، وتسمى الواقعة والمنجية لأنها تقي قارئها وتنجيهِ من عذاب القبر، وآياتها ثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرِجْ أَبْصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ أَرِجْ أَبْصَرَ كَرِهْتَ يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ أَبْصَرَ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِصْبَاحًا وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)﴾

﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ﴾ بقبضة قدرته التصرف في الأمور كلها. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل ما يشاء قدير.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدرهما أو أوجد الحياة وأزالها حسبما قدره، وقدم الموت لقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم المختبر بالتكليف أيها المكلفون. ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصوبه وأخلصه، وجاء مرفوعاً: «أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعته»، جملة واقعة موقع المفعول ثانياً لفعل البلوى المتضمن معنى العلم، وليس هذا من باب التعليق لأنه يخل به وقوع الجملة خبراً لما لا يعلق الفعل عنها بخلاف ما إذا وقعت موقع المفعولين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل. ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب منهم.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض مصدر طابقت النعل إذا خصفتها طبقاً على طبق وصف به، أو طوبقت طباقاً أو ذات طباق جمع طبق كجبل وجبال، أو طبقة كرحبة ورحاب. ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي «من تفوت» ومعناها واحد كالتعاهد والتعهد، وهو الاختلاف وعدم التناسب من الفوت كأن كلا من المتفاوتين فات عنه بعض ما في الآخر، والجملة صفة ثانية لـ ﴿سَبْعَ﴾ وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم، والإشعار بأنه تعالى يخلق مثل ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلاً، وأن في إبداعها نعماً جليلة لا تحصى، والخطاب فيها للرسول أو لكل مخاطب وقوله: ﴿فَأَرِجْ أَبْصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ متعلق به على معنى التسبب أي قد نظرت إليها مراراً فانظر إليها مرة أخرى متأملاً فيها لتعاین ما أخبرت به من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها، والـ ﴿فُطُورٍ﴾ الشقوق والمراد الخلل من فطره إذا شقه.

﴿ثُمَّ أَرِجْ أَبْصَرَ كَرِهْتَ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتداد الخلل والمراد بالثنية التكرير والتكثير كما في لبيك وسعديك، ولذلك أجاب الأمر بقوله: ﴿يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ أَبْصَرَ خَاسِتًا﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طرد عنه طرداً بالصغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل من طول المعادة وكثرة المراجعة.

﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أقرب السموات إلى الأرض. ﴿بِمِصْبَاحٍ﴾ بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة

السرج فيها، والتكثير للتعظيم ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها. ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلناها لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يرم به بانقضاض الشهب المسببة عنها. وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشیاطین الإنسان وهم المنجمون. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13)﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم. ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقرئ بالنصب على أن ﴿للذين﴾ عطف على ﴿لهم﴾ و ﴿عذاب﴾ على ﴿عذاب السعير﴾.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوت الحمير. ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تتفرق غيظاً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفرة. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوفكم هذا العذاب وهو توبيخ وتبكيت.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي فكذبنا الرسل وأفرطنا في التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً، وبلغنا في نسبتهم إلى الضلال، فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف أي أهل إنذار، أو منعت به للمبالغة أو الواحد والخطاب له ولأمثاله على التغليب، أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل، أو على أن المعنى قالت الأفواج قد جاء إلى كل فوج منا رسول من الله فكذبناهم وضللناهم، ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول فيكون الضلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو عقابه الذي يكونون فيه.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ فنتفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين. ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في عذابهم ومن جملتهم.

﴿فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ حين لا ينفعهم، والاعتراف إقرار عن معرفة، والذنب لم يجمع لأنه في الأصل مصدر، أو المراد به الكفر. ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فأسحقهم الله سحقاً أبعدهم من رحمته، والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل وقرأ الكسائي بالثقل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد، أو غائبين عنه أو عن أعين الناس، أو بالمخفي منهم وهو قلوبهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تصغر دونه لذاث الدنيا.

﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالضماير قبل أن يعبر عنها سرّاً أو جهراً.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمِسُّهُمْ إِنْ أَلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19) أَمْ أَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمْ أَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَمْ أَنْ يَمَسُّ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)﴾

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم السر والعهر من أوجد الأشياء حسبما قدرته حكمته. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، أو ألا يعلم الله من خلقه، وهو بهذه المثابة والتقيد بهذه الحال يستدعي أن يكون له ﴿يعلم﴾ مفعول ليفيد، روي: أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء، فيخبر الله بها رسوله ﷺ فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فنبه الله على جهلهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لينة يسهل لكم السلوك فيها. ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ في جوانبها أو جبالها، وهو مثل لغرط التذليل فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب ولا يتذلل له، فإذا جعل الأرض في الدل بحيث يمشي في مناكبها لم يبق شيء لم يتذلل. ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ والتمسوا من نعم الله. ﴿وَالْيَهُ النُّشُورُ﴾ المرجع فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم.

﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني الملائكة الموكلين على تدبير هذا العالم، أو الله تعالى على تأويل ﴿من في السماء﴾ أمره أو قضاؤه، أو على زعم العرب فإنهم زعموا أنه تعالى في السماء، وعن ابن كثير «وَأَنْتُمْ» بقلب الهمزة الأولى وواو لانضمام ما قبلها، «وَأَنْتُمْ» بقلب الثانية ألفاً، وهو قراءة نافع وأبي عمرو ورويس. ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ فيغييكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل الاشتمال. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب، والمور التردد في المجيء والذهاب.

﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أن يمطر عليكم حصاء. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا يتفعمكم العلم حينئذ.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكارى عليهم بإنزال العذاب، وهو تسليية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِدٌ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها، فإنهن إذا بسطنها صفن قوادمها. ﴿وَيَقْبِضُنَّ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتاً بعد وقت للاستظهار به على التحريك، ولذلك عدل به إلى صيغة الفعل للفرقة بين الأصل في الطيران والطارىء عليه. ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف الطبع. ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الشامل رحمته كل شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص هيأتهن للجري في الهواء. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق الغائب ويدبر العجائب.

﴿أَمْ أَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ عديل لقوله ﴿أو لم يروا﴾ على معنى أو لم تنظروا في أمثال هذه الصنائع، فلم تعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب، أم لكم جند ينصركم من دون الله إن أرسل عليكم عذابه فهو كقوله ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ إلا أنه أخرج مخرج الاستفهام عن تعيين من ينصرهم إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم، و﴿من﴾ مبتدأ و﴿هذا﴾ خبره و﴿الذي﴾

بصلته صفته و ﴿يَنْصَرِكُمْ﴾ وصف لـ ﴿جَنْدٍ﴾ محمول على لفظه. ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ لا معتمد لهم.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ أم من يشار إليه ويقال ﴿هذا الذي يرزقكم﴾. ﴿إِنْ أُمِسَّكَ رِزْقُهُ﴾ بإمساك المطر وسائر الأسباب المخلصة والموصلة له إليكم. ﴿بَلْ لَّجُوا﴾ تهادوا. ﴿فِي غُتٍ﴾ عناد. ﴿وَتُفُورٍ﴾ شراد عن الحق لتنفّر طباعهم عنه.

﴿أَقَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْلِي﴾ يقال كبيته فأكب وهو من الغرائب كقشع الله السحاب فأقشع، والتحقيق أنهما من باب أنفض بمعنى صار ذا كب وذا قشع، وليس مطاوعي كب وقشع بل المطاوع لهما أنكب وانقشع، ومعنى ﴿مَكْبًا﴾ أنه يعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العثار. ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء والجهة، والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين، ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً، كمشي المتعسف في مكان متعاد غير مستو. وقيل المراد بالمكب الأعمى فإنه يتعسف فينكب وبالسوي البصير، وقيل من ﴿يمشي مكبًا﴾ هو الذي يحشر على وجهه إلى النار ومن ﴿يمشي سويًّا﴾ الذي يحشر على قدميه إلى الجنة.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (27) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)﴾

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا المواعظ. ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتنظروا صنائعه. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفكروا وتعتبروا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خلقت لأجلها.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي الحشر أو ما وعدوا به من الخسف والحاصب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ أي علم وقته. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه غيره. ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والإنذار يكفي فيه العلم بل الظن بوقوع المحذر منه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعد فإنه بمعنى الموعود. ﴿زُلْفَةً﴾ ذا زلفة أي قرب منهم. ﴿سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن علتها الكآبة وساءتها رؤية العذاب. ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ تطلبون وتستعجلون تفتعلون من الدعاء، أو ﴿تدعون﴾ أن لا بعث فهو من الدعوى.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ أمانتي. ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا. ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لا ينجيهم أحد من العذاب متناً أو بقينا، وهو جواب لقولهم ﴿تتربص به رب المنون﴾.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أَدْعُوكم إليه مولى النعم كلها. ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ للعلم بذلك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾

للوثوق عليه والعلم بأن غيره بالذات لا يضر ولا ينفع، وتقديم الصلة للتخصيص والإشعار به. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ منا ومنكم، وقرأ الكسائي بالياء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض بحيث لا تناله الدلاء مصدر وصف به. ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيى ليلة القدر».



[مكية وآياتها اثنتان وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿2﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿3﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿4﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿5﴾ بِأَيِّكُمْ الْآمَنُونَ ﴿6﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿7﴾ فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ ﴿8﴾ وَدُّوا أَنْ تُدَّخِنَ فَيُكْذِبُوكَ ﴿9﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مِثْلِهِ ﴿10﴾﴾

﴿ن﴾ من أسماء الحروف، وقيل اسم الحوت والمراد به الجنس أو البهيموت وهو الذي عليه الأرض، أو الدواة فإن بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سواداً من التمس يكتب به، ويؤيد الأول سكونه وكتبه بصورة الحرف. ﴿وَالْقَلَمِ﴾ وهو الذي خط اللوح، أو الذي يخط به أقسم به تعالى لكثرة فوائده وأخفى ابن عامر والكسائي ويعقوب النون إجراء للواو المتفصل مجرى المتصل، فإن النون الساكنة تخفى مع حروف الفم إذا اتصلت بها. وقد روي ذلك عن نافع وعاصم، وقرئت بالفتح والكسر كـ ﴿ص﴾. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يكتبون والضمير لـ ﴿القلم﴾ بالمعنى الأول على التعظيم، أو بالمعنى الثاني على إرادة الجنس وإسناد الفعل إلى الأدلة وإجراؤه مجرى أولي العلم لإقامته مقامهم، أو لأصحابه أو للحفظة و ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة.

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسم والمعنى ما أنت بمجنون منعماً عليك بالنبوة وحصافة الرأي، والعامل في الحال معنى النفي وقيل ﴿بمجنون﴾ الباء لا تمنع عمله فيما قبله لأنها مزيدة، وفيه نظر من حيث المعنى.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على الاحتمال والإبلاغ. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسط.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إذ تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك، وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلقه ﷺ فقالت: كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ، أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.



﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ وَأَبْصِرْ﴾ أَيَكُم الذي فتن بالجنون والباء مزيدة، أو بأيكم الجنون على أن المفتون مصدر كالمعقول والمجلود، أو بأي الفريقين منكم المجنون أبقريق المؤمنين أو بفریق الكافرين، أي في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهم المجانين على الحقيقة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الفائزين بكمال العقل.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ نهيج للتصميم على معاصاتهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ تلاينهم بأن تدع نهيمهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً. ﴿فَيَكْذِبُونَ﴾ فيلانيونك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف أي ودوا التدهان وتمنوه لكنهم آخروا ادهانهم حتى تدهن، أو للسببية أي ﴿ودوا لو تدهن﴾ فهم يدهنون حيثنذ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون طمعاً فيه، وفي بعض المصاحف «فيدهنوا» على أنه جواب التمني.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل. ﴿مَهِينٍ﴾ حقير الرأي من المهانة وهي الحقارة.

﴿هَمَزٌ مَشَاءٌ بَنِيمٍ﴾ (11) مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَتِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِفُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَنْوُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (21) أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (24) وَغَدُوا عَلَى حَرٍّ قَدِيرٍ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (26)﴾

﴿هَمَزٌ﴾ عياب. ﴿مَشَاءٌ بَنِيمٍ﴾ نفال للحديث على وجه السعاية. ﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإيقان والعمل الصالح. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم. ﴿أَثِيمٌ﴾ كثير الآثام.

﴿عَتَلٌ﴾ جاف غليظ من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعدما عد من مثالبه. ﴿زَنِيمٌ﴾ دعي مأخوذ من زنمتي الشاة وهما المتدليتان من أذنها وحلقها، قيل هو الوليد بن المغيرة ادعاه أبوه بعد ثمانين عشرة من مولده. وقيل الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة.

﴿أَنَّ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال ذلك حيثنذ لأنه كان متمولاً مستظهِراً بالبنين من فرط غروره، لكن العامل مدلول قال لانفسه، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، ويجوز أن يكون علة لـ ﴿لَا تُطِعْ﴾ أي لا تطع من هذه مثاله لأن كان ذا مال. وقرأ ابن عامر وحزمة ويعقوب وأبو بكر «أن كان» على الاستفهام، غير أن ابن عامر جعل الهمزة الثانية بين بين أي «الأن كان ذا مال» كذب، أو أنطعيه لأن كان ذا مال. وقرئ «إن كان» بالكسر على أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بال فقر في النهي عن قتل الأولاد، أو «أن» شرطه للمخاطب أي لا تطعه شارطاً يساره لأنه إذا أطاع للغنى فكانه شرطه في الطاعة.

﴿سَتِمْهُ﴾ بالكسبي. ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ على الأنف وقد أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقي أثره، وقيل هو عبارة عن أن يذله غاية الإذلال كقولهم: جدع أنفه، رغم أنفه، لأن السمة على الوجه سيما على الأنف شين ظاهر، أو نسود وجهه يوم القيامة.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ بلونا أهل مكة شرفها الله تعالى، بالقحط. ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يريد البستان الذي كان دون صنعاء بفرسخين، وكان لرجل صالح وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وألقته الريح، أو بعد من البساط الذي يسط تحت النخلة فيجتمع لهم شيء كثير، فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعله أبونا ضاق علينا الأمر، فحلفوا ﴿لِصْرْمِهَا﴾ وقت الصباح خفية عن المساكين كما قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُوهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ولا يقولون إن شاء الله، وإنما سماه استثناء لما فيه من الإخراج غير أن المخرج به خلاف المذكور والمخرج بالاستثناء عنه، أو لأن معنى لأخرج إن شاء الله ولا أخرج إلى أن يشاء الله واحد، أو ﴿ولا يستنون﴾ حصه المساكين كما كان يخرج أبوهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة. ﴿طَائِفٌ﴾ بلاء طائف. ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ مبتدأ منه. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء. فعيل بمعنى مفعول، أو كالليل باحتراقها واسودادها، أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس سميا بالصريم لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه أو كالرمل.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثُكُمْ﴾ أن أخرجوا أو بأن أخرجوا إليه غدوة، وتعدي الفعل بعلى إما لتضمنه معنى الاقبال أو لتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن لمعنى الاستيلاء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ قاطعين له.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ يتشاورون فيما بينهم وخفي وخفت بمعنى الكتم، ومنه الخفدود للخفاش.

﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ ﴿أَنْ﴾ مفسرة وقرئ بطرحها على إضمار القول، والمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه من الدخول كقولهم: لا أرينك ها هنا.

﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ وغدوا قادرين على نكد لا غير، من حاردت السنة إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبل إذا منعت درها. والمعنى أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين فتتكد عليهم بحيث لا يقدرון إلا على النكد، أو غدوا حاصلين على النكد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع. وقيل الحرد بمعنى الحرد وقد قرئ به أي لم يقدروا إلا على حق بعضهم لبعض كقوله: ﴿يتلاومون﴾ وقيل الحرد والقصد والسرعة قال:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْرُدُ حَرْدُ الْجَنَّةِ الْمُغْلَةِ  
أي غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وقيل علم للجنة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أول ما رأوها. ﴿قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ﴾ طريق جنتنا وما هي بها.

﴿بَلْ مَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (30) قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (31) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا خَيْرَ مِمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْقَدَابُ وَالْقَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بَلَاغٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ (39) ﴿

﴿بَلْ نَحْنُ﴾ أي بعد ما تأملوه وعرفوا أنها هي قالوا ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حرمانا خيرها لجنائتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ رأيًا، أو سنًا. ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرونه وتنبون إليه من خبث نيتكم، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ويدل على هذا المعنى.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لولا تستثنون فسمي الاستثناء تسبيحاً لتشاركهما في التعظيم، أو لأنه تنزيهه على أن يجري في ملكه ما لا يريده.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً فإن منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت راضياً، ومنهم من أنكره.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى.

﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. وقد روي أنهم أبدلوا خيراً منها وقرء ﴿يُبَدِّلُنَا﴾ بالتخفيف. ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ راجون العفو طالبون الخير و ﴿إِلَى﴾ لانتهاه الرغبة، أو لتضمنها معنى الرجوع.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة العذاب في الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لا حترزوا عما يؤدهم إلى العذاب.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة، أو في جوار القدس. ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعيم الخالص.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ إنكار لقول الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التفات فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له، وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأي.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماء. ﴿فِيهِ تَذَرُسُونَ﴾ تقرأون.

﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تختارونه وتشتهونه، وأصله «أن لكم» بالفتح لأنه المدروس فلما جيء باللام كسرت، ويجوز أن يكون حكاية للمدروس أو استئنافاً وتخيراً الشيء واختاره أخذ خيره.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكدة بالإيمان. ﴿بِالْغَةِ﴾ متناهية في التوكيد، وقرئت بالنصب على الحال والعامل فيها أحد الطرفين. ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلق بالمقدر في ﴿لكم﴾ أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدها حتى نحكمكم في ذلك اليوم، أو بـ ﴿بِالْغَةِ﴾ أي أيمان تبلغ ذلك اليوم. ﴿إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم لأن معنى أم لكم أيمان علينا أم أقسمنا لكم.

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (40) أم هم شركاء فليأتوا يشركائهم إن كانوا صديقين (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَلِيعَةً أَعْرَضُوا عَنْهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَكْذِبْ يَكْذِبًا أَلْحَدِيثٍ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَتْلُوهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَفْرَرٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ رَقْمَهُ مِنْ

رَبِّهِ لَنُبَدِّلَ الْغُرَاءَ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) ﴿

سَلِّمْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ بذلك الحكم قائم يدعيه ويصححه.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه الاستحقاق أو وعد أو محض تقليد، على الترتيب تنبيهاً على مراتب النظر وتزييفاً لما لا سند له. وقيل المعنى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني الأصنام يجعلونهم مثل المؤمنين في الآخرة كأنه لما نفى أن تكون التسوية من الله تعالى نفى بهذا أن تكون مما يشاركون الله به.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل في ذلك، وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب. قال حاتم.

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَصَتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَرَا  
أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم. وقرئ «تكشف» و«تكشف» بالتاء على بناء الفاعل أو المفعول والفعل للساعة أو الحال. ﴿وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ توبيخاً على تركهم السجود إن كان اليوم يوم القيامة، أو يدعون إلى الصلوات لأوقاتها إن كان وقت النزاع. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلٌّ﴾ تلحقهم ذلة. ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا أو زمان الصحة. ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ متمكنون منه مزاحوا العلل فيه.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ كله إليّ فإني أكفيكه. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج وهو الإنعام عليهم لأنهم حسبوه تفضيلاً لهم على المؤمنين.

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهالهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لا يدفع بشيء، وإنما سمي إنعامه استدراجاً بالكيد لأنه في صورته.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على الإرشاد. ﴿فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ﴾ من غرامة. ﴿مُثْقَلُونَ﴾ يحملها فيعرضون عنك. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح أو المغيبات. ﴿فَهُمْ يَكْذِبُونَ﴾ منه ما يحكمون به ويستغنون به عن علمك. ﴿فَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يونس عليه الصلاة والسلام. ﴿إِذْ نَادَى﴾ في بطن الحوت. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً من الضجرة فتبتلي ببلائه.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكْهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني التوفيق للتوبة وقبولها وحسن تذكير الفعل للفصل، وقرئ «تداركته» و«تداركه» أي تداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا كان يقال فيه تداركه. ﴿لَنُبَدِّلَ بِالْعُرَاءِ﴾ بالأرض الخالية عن الأشجار. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مليم مطرود عن الرحمة والكرامة. وهو حال يعتمد عليها الجواب لأنها المنفية دون النبد.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ بأن رد الوحي إليه، أو استنبأه إن صح أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة. ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصمة من أن يفعل ما تركه أولى، وفيه دليل على خلق الأفعال والآية نزلت حين هم رسول الله ﷺ أن يدعو على ثقيف، وقيل بأحد حين حل به ما حل فأراد أن يدعو على المنهزمين.

﴿وَلَنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)﴾

﴿وَلَنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ «إن» هي المخففة واللام دليلها والمعنى: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك، أو يهلكونك من قولهم نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني، أي لو أمكنه بنظره الصرع لفعله، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين. إذ روي أنه كان في بني أسد عيانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ فنزلت. وفي الحديث «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر» ولعله يكون من خصائص بعض النفوس. وقرأ نافع «ليزلقونك» من زلقته فزلق كحزنته فحزن، وقرئ «ليزهقونك» أي يهلكونك. «لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ» أي القرآن أي ينبعث عند سماعه بغضهم وحسدهم. «وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ» حيرة في أمره وتنفيراً عنه.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لما جنته لأجل القرآن بين أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأميزهم رأياً.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم».



[مكية، وآياتها اثنتان وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (1) مَا الْخَافَةُ (2) وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْخَافَةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ افْتَارَتْ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُ كُفُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُ كُفُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَصَوَّرُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (10)﴾

﴿الحاقة﴾ أي الساعة أو الحالة التي يحق وقوعها، أو التي تحقق فيها الأمور أي تعرف حقيقتها، أو تقع فيها حواق الأمور من الحساب والجزاء على الإسناد المجازي، وهي مبتدأ خبرها.

﴿مَا الْخَافَةُ﴾ وأصله ما هي أي: أي شيء هي على التعظيم لشأنها والتهويل لها، فوضع الظاهر موضع الضمير لأنه أهول لها.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخَافَةُ﴾ وأي شيء أعلمك ما هي، أي أنك لا تعلم كنهها فإنها أعظم من أن تبلغها دراية أحد، و «ما» مبتدأ و «أدراك» خبره.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ افْتَارَتْ﴾ بالحالة التي تفرع فيها الناس بالإفزاز والأجرام بالانفطار والانتشار،

وإنما وضعت موضع ضمير ﴿الحاقة﴾ زيادة في وصف شدتها.

﴿فَأَمَّا نُمُودُ فَأَهْلِكُوكُمَا بِطَاغِيَةٍ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة وهي الصيحة، أو الرجفة لتكذيبهم ﴿بالقارعة﴾، أو بسبب طغيانهم بالتكذيب وغيره على أنها مصدر كالعاقبة وهو لا يطابق قوله:

﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوكُمَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدة الصوت أو البرد من الصر أو الصر. ﴿عَائِيَةٍ﴾ شديدة العصف كأنها عتت على خزائنها فلم يستطيعوا ضبطها، أو على ﴿عاد﴾ فلم يقدروا على ردها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلطها عليهم بقدرته، وهو استئناف أو صفة جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اتصالات فلكية، إذ لو كانت لكان هو المقدر لها والمسبب. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَكَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعات جمع حاسم من حسمت الدابة إذا تابعت بين كيهما، أو نحسات حسمت كل خير واستأصلته، أو قاطعات قطعت دابرهم، ويجوز أن يكون مصدراً منتصباً على العلة بمعنى قطعاً، أو المصدر لفعله المقدر حالاً أي تحسمهم ﴿حُسُومًا﴾ ويؤيده القراءة بالفتح، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وإنما سميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء، أو لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعها الريح في الثامن فأهلكتها. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضرهم ﴿فِيهَا﴾ في مهابها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرْعَى﴾ موتى جمع صريع. ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصول نخل. ﴿خَاوِيَةٍ﴾ متأكلة الأجواف.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ من بقية أو نفس باقية، أو بقاء.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ ومن تقدمه، وقرأ البصريان والكسائي ﴿ومن قبله﴾ أي ومن عنده من أتباعه، ويدل عليه أنه قرئ «ومن معه». ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرى قوم لوط والمراد أهلها. ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعل، أو الأفعال ذات الخطأ.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها. ﴿فَأَخَذَهُمُ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ زائدة في الشدة زيادة أعمالهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمُ تَذَكُّرًا وَتَعِيًّا أَذُنٌ رَعِيَّةٌ (12) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18) فَأَمَّا مَنْ أَوْفَتْ كُنُفُهُ يَوْمَئِذٍ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ كُنُفِي (19)﴾

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ جاوز حده المعتاد، أو طغى على خزانة وذلك في الطوفان وهو يؤيد من قبله. ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ لنجعل الفعلية وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين. ﴿تَذَكُّرَةً﴾ عبرة ودلالة على قدرة الصانع وحكمته وكمال قهره ورحمته. ﴿وَتَعِيًّا﴾ وتحفظها، وعن ابن كثير ﴿تَعِيًّا﴾ بسكون العين تشبيهاً بكتف، والوعي أن تحفظ الشيء في نفسك والإيلاء أن تحفظه في غيرك. ﴿أَذُنٌ رَعِيَّةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكير فيه والعمل بموجبه، والتذكير للدلالة على قلتها وأن من هذا شأنه مع قلتها تسبب لانجاء الجرم الغفير وإدامة نسلهم. وقرأ نافع ﴿أَذُنٌ﴾ بالتخفيف.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها تفخيماً لشأنها وتنبهاً على مكانها عاد إلى شرحها، وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيدته وحسن تذكيره للفصل،

وَقَرِءَ ﴿نَفْخَةٌ﴾ بالنصب على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعت من أماكنها بمجرد القدرة الكاملة، أو بتوسط زلزلة أو ريح عاصفة. ﴿فَدَكَّتْ دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فضربت الجبلتان بعضها ببعض ضربة واحدة فيصير الكل هباء، أو فسطاطا بسطة واحدة فصارتا أرضاً لا عوج فيها ولا أمثا لأن الدك سبب للتسوية، ولذلك قيل ناقة دكاء للتي لا سنام لها، وأرض دكاء للمتسعة المستوية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ. ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لنزول الملائكة. ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ والجنس المتعارف بالملك. ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ جوانبها جمع رجا بالقصر، ولعله تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهلها إلى أطرافها وحواليها، وإن كان على ظاهره فعلل هلاك الملائكة أثر ذلك. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء، أو فوق الثمانية لأنها في نية التقديم. ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ثمانية أملاك، لما روي مرفوعاً «أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة آخرين». وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله، ولعله أيضاً تمثيل لعظمته بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام وعلى هذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم، وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم إسماعاً لزمان متسع تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار صح ظرفاً للكل. ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرة على الله تعالى حتى يكون العرض للاطلاع عليها، وإنما المراد منه إفشاء الحال والمبالغة في العدل، أو على الناس كما قال الله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء للفصل.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل للعرض. ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجحاً. ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِي﴾ هاء اسم لخذ، وفيه لغات أجودها هاء يا رجل وهاء يا امرأة وهآؤما يا رجلان أو امرأتان، وهآؤم يا رجال وهآؤن يا نسوة، ومفعوله محذوف و «كتابه» مفعول «اقروا» لأنه أقرب العاملين، ولأنه لو كان مفعول «هآؤم» لقليل اقرووه إذ الأولى اضمماره حيث أمكن، والهاء فيه وفي «حسابيه» و «ماليه» و «سلطانيه» للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب الوقف لثباتها في الإمام ولذلك قرئ بإثباتها في الوصل.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَّةٍ﴾ (20) فهو في عِشَّةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأُوتِيَ كِتَابِيَّةً (25) وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةٍ (26) يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ (29) خَذُوا مَعَكُمْ (30) ثُمَّ الْجَنَّةِ صَلَوَاتُهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32)﴾

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَّةٍ﴾ أي علمت، ولعله عبر عنه بالظن إشعاراً بأنه لا يقدر في الاعتقاد ما يهجرس في النفس من المخاطر التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضا على النسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازاً وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء، أو الدرجات أو الأبنية والأشجار.

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى بسرعة والقطف بالفتح المصدر. ﴿ذَانِبَةٍ﴾ يتناولها القاعد.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمار القول وجمع الضمير للمعنى. ﴿هَنِيئًا﴾ أكلاً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾ أو هنتم هنيئاً. ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة. ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْنِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من فيج العمل وسوء العاقبة. ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ﴾.

﴿وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَةَ يَا لَيْتَنِي﴾ يا ليت الموتة التي متها. ﴿كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها، أو يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت عليّ لأنه صادفها أمر من الموت فتمتئنا عندها، أو يا ليت حياة الدنيا كانت الموتة ولم أخلق فيها حياً.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ مالي من المال والتبع وما نفى والمفعول محذوف، أو استفهام إنكار مفعول لأغنى.

﴿هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ ملكي وتسلطي على الناس، أو حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، وقرأ حمزة «عني» «مالي» «عني سلطاني» بحذف الهاءين في الوصل والباقيون بإثباتها في الحالين.

﴿خُذُوهُ﴾ يقول الله تعالى لخزنة النار. ﴿فَعَلُّوهُ﴾. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى لأنه كان يتعظم على الناس.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي طويلة. ﴿فَأَسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة، وتقديم الـ «سلسلة» كتقديم «الجحيم» للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذب به، و «ثم» لتفاوت ما بينها في الشدة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37) فَلَا أُقِيمُ بِمَا تُجِيرُونَ (38) وَمَا لَا تُجِيرُونَ (39) إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا يَقُولُ كَافِرٍ قَلِيلًا مَا نَذَرُونَ (42) نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ (47) وَإِنَّهُمْ لَنَذِكْرُ لِلْمُنْقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُمْ لَحَسَرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)﴾

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة، وذكر «العظيم» للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها أستوجب ذلك.

﴿وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ ولا يحث على بذل طعامه أو على إطعامه فضلاً عن أن يبذل من ماله، ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقيح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يحميه.



﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غُسْلَيْنِ﴾ غسالة أهل النار وصديدهم فعلين من الغسل.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أصحاب الخطايا من خطيء الرجل إذا نعد الذنب لا من الخطأ المضاد للصواب، وقرئ «الخاطيون» بقلب الهمزة ياء و«الخاطون» بطرحها.

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم، أو فد «أقسم» و «لا» مزيدة أو فلا رد لانكارهم البعث و «أقسم» مستأنف. ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ بالمشاهدات والمغيبات وذلك يتناول الخالق والمخلوقات بأسرها.

﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن. ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه. ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمد أو جبريل عليهما الصلاة والسلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارة. ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ تصدقون لما ظهر لكم صدقة تصديقاً قليلاً لفرط عنادكم.

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ﴾ كما تدعون أخرى. ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكرون تذكر أقل، فلذلك يلتبس الأمر عليكم وذكر الإيمان مع نفي الشاعرية وللتذكر مع نفي الكاهنية، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند بخلاف مبايسته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم. وقرأ ابن كثير ويعقوب بالياء فيهما.

﴿تَنْزِيلٍ﴾ هو تنزيل. ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نزله على لسان جبريل عليه السلام.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ سمي الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها كأنه جمع أفعولة من القول كالأضاحيك.

﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ بيمينه.

﴿ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه، وهو تصوير لإهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ المقتول بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب به جيده، وقيل اليمين بمعنى القوة.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عن القتل أو المقتول. ﴿حَاجِرِينَ﴾ دافعين وصف لأحد فإنه عام والخطاب للناس. ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن. ﴿لَتَذَكُّرٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم المتتفعون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذا رأوا ثواب المؤمنين به.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لليقين الذي لا ريب فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وشكراً على ما أوحى إليك.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً».

## سورة المعارج

[مكية وآياتها أربع وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُصْرَوْنَهُمْ نَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدِي مِنَ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ (11) وَصَحْبَتِهِمْ وَأَخِيهِ (12)﴾

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع به بمعنى استدعاه ولذلك عدى الفعل بالباء والسائل هو النضر بن الحارث فإنه قال ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية أو أبو جهل فإنه قال ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأل استهزاء أو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل بعذابهم وقرأ نافع وابن عامر ﴿سأل﴾ وهو إما من السؤال على لغة قريش قال:

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضللت هذيل بما سألت ولم تصب

أو من السيلان ويؤيده أنه قرئ «سأل سيل» على أن السيل مصدر بمعنى السائل كالغور والمعنى سأل واد بعذاب ومضى الفعل لتحقيق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة لـ ﴿واقِعٍ﴾ وإن صح أن السؤال كان عمن يقع به العذاب كان جواباً والباء على هذا لتضمن ﴿سأل﴾ معنى اهتم ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ يرده.

﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من جهته لتعلق إرادته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب العمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم أو مراتب الملائكة أو في السموات فإن الملائكة يرجعون فيها.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئناف لبيان ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على التمثيل والتخييل والمعنى أنها بحيث لو قدر قطعها في زمان لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدنيا وقيل تعرج الملائكة والروح إلى عرشه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من حيث إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان فيها لو فرض لا أن ما بين أسفل العالم وأعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة لأن ما بين مركز الأرض ومقر السماء الدنيا على ما قيل مسيرة خمسمائة عام وثخن كل واحدة من السموات السبع والكرسي والعرش كذلك وحيث قال ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يريد زمان عروجهم من الأرض إلى محذب السماء الدنيا وقيل ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿واقِعٍ﴾ أو ﴿سأل﴾ إذا جعل من السيلان والمراد به يوم القيامة واستطالته إما لشدة على الكفار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات أو

لأنه على الحقيقة كذلك والروح جبريل عليه السلام وإفراده لفضله أو خلق أعظم من الملائكة .

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يشوبه استعجال واضطراب قلب وهو متعلق بـ ﴿سَأَلَ﴾ لأن السؤال كان عن استهزاء أو تعنت وذلك مما يضجره أو عن تضجر واستبطاء للنصر أو بـ ﴿سَأَلَ﴾ لأن المعنى قرب وقوع العذاب ﴿فَاصْبِرْ﴾ فقد شارفت الانتقام .

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ الضمير للعذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان .

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ منه أو من الوقوع .

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ظرف لـ ﴿قريبًا﴾ أي يمكن ﴿يوم تكون﴾ أو لمضمر دل عليه ﴿واقع﴾ أو بدل من ﴿في يوم﴾ إن علق به والمهل المذاب في «مهل» كالفلزات أو دردي الزيت .

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال مختلفة الألوان فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح .

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ولا يسأل قريب قريباً عن حاله وعن ابن كثير ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على بناء المفعول أي لا يطلب من حميم حميم أو لا يسأل منه حاله .

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ استئناف أو حال تدل على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغل دون الخفاء أو ما يغني عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده وجمع الضميرين لعموم الحميم . ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ﴾ . ﴿لَوْ يَفْقَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنَهُ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ حال من أحد الضميرين أو استئناف يدل على أن اشتغال كل مجرم بنفسه بحيث يتمنى أن يفترق بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنها وقرأ نافع والكسائي بفتح ميم ﴿يَوْمِيذٍ﴾ وقرئ بتنوين ﴿عَذَابٍ﴾ ونصب ﴿يَوْمِيذٍ﴾ به لأنه بمعنى تعذيب .

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ (13) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ (15) نَزَاعَةُ لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾

وعشيرته الذين فصل عنهم ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ تضمه في النسب أو عند الشدائد .

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين أو الخلائق ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ عطف على ﴿يفتدي﴾ أي ثم ينجيه الافتداء و ﴿ثم﴾ للاستبعاد .

﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم عن الودادة ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير للنار أو مبهم يفسره ﴿لَطَىٰ﴾ وهو خبر أو بدل أو للقصة و ﴿لَطَىٰ﴾ مبتدأ خبره .

﴿نَزَاعَةُ لِلشَّوَى﴾ وهو اللهب الخالص وقيل علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب وقرأ حفص عن عاصم ﴿نَزَاعَةُ﴾ بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة أو المتنقلة على أن ﴿لَطَىٰ﴾ بمعنى متلظية والشوى والأطراف أو جمع شواة وهي جلدة الرأس .

﴿تَدْعُوا﴾ تجذب وتحضر كقول ذي الرمة تدعو أنفه الريب مجاز عن جذبها وإحضارها لمن فر عنها وقيل تدعو زبانياتها وقيل تدعو تهلك من قولهم دعاه الله إذا أهلكه ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة .

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه حرصاً وتأميلاً .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ شديد الحرص قليل الصبر .

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضر ﴿جزوعًا﴾ يكثر الجزع .

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ السعة ﴿منوعًا﴾ يبالغ بالإمساك والأوصاف الثلاثة أحوال مقدرة أو محققة لأنها طبائع جبل الإنسان عليها و ﴿إذا﴾ الأولى ظرف لـ ﴿جزوعا﴾ والأخرى لـ ﴿منوعا﴾ .

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الْيَمِينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32)﴾

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ استثناء للموصوفين بالصفات المذكورة بعد من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبل لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليها .

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل .

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ كالزكوات والصدقات الموظفة .

﴿لِلْسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأل فيحسب نفسه غنيا فيحرم .

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الْيَمِينِ﴾ تصديقا بأعمالهم وهو أن يتعب نفسه ويصرف ماله طمعا في المثوبة الأخروية ولذلك ذكر ﴿الَّذِينَ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ اعتراض يدل على أنه لا ينبغي لأحد يأمن عذاب الله وإن بالغ في طاعته .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة «المؤمنين» .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ حافظون وقرأ ابن كثير ﴿لأمانتهم﴾ يعني لا يخونون ولا ينكرون ولا يخفون ما علموه من حقوق الله وحقوق العباد .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (35) قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُم مَّهْلِكِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37) أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ (39) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ (40) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُسَوِّقِينَ (41) فَذَرُهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَعْدَادِ سِرَاطًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُّفَضُّونَ (43) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذُلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ وقرأ يعقوب وحفص ﴿بشهاداتهم﴾ لاختلاف الأنواع.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فیراعون شرائطها ویکملون فرائضها وسننها وتکریر ذکر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخرأ باعتبارین للدلالة على فضلها وإناتهما على غيرها وفي نظم هذه الصلاة مبالغات لا تخفى.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله تعالى.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ﴾ حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة من العزو وكان كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى وكان المشركون يحثفون حول رسول الله ﷺ حلقاً ويستهنئون بكلامه.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان وهو إنكار لقولهم لو صح ما يقوله لتكون فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تعليل له والمعنى أنهم مخلوقون من نقطة مذرة لا تناسب عالم القدس فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة ولم يتخلق بالأخلاق الملكية لم يستعد لدخولها أو إنكم مخلوقون من أجل ما تعلمون وهو تكميل النفس بالعلم والعمل فمن لم يستكملها لم يتبوا في منازل الكاملين أو الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بنوا الطمع على فرضها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد ردعهم عنه.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم أو نعطي محمداً ﷺ بذلك من هو خير منكم وهم الأنصار. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك.

﴿فَدَرَّهُمْ بِخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ مر في آخر سورة «الطور».

﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ مسرعين جمع سريع ﴿كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾ منصوب للعبادة أو علم ﴿يُوفِّضُونَ﴾ يسرعون وقرأ ابن عامر وحفص ﴿إِلَى نُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد والباقون من السبعة ﴿نُصُبٍ﴾ بفتح النون وسكون الصاد وقرئ بالضم على أنه تخفيف ﴿نُصُبٍ﴾ أو جمع.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ مر تفسيره ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة ﴿سأل سائل﴾ أعطاه الله ثواب الذين هم ﴿لأماناتهم وعهدهم راعون﴾».



[مكية وآياتها تسع أو ثمان وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَفْقَهُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَؤُوا بَيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ﴾ أي بأن أي بالإنذار، أو بأن قلنا له ﴿أنذر﴾، ويجوز أن تكون مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول، وقرئ بغير ﴿أن﴾ على إرادة القول. ﴿قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة أو الطوفان.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ مر في «الشعراء» نظيره وفي ﴿أَنْ﴾ يحتمل الوجهان.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يغفر لكم بعض ذنوبكم وهو ما سبق فإن الإسلام يجبه فلا يؤاخذكم به في الآخرة ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قُدر لكم بشرط الإيمان والطاعة. ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ إن الأجل الذي قدره. ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدر به أجلاً وقيل إذا جاء الأجل الأطول. ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير. ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم والنظر لعلمتم ذلك، وفيه أنهم لانهمآكهم في حب الحياة كأنهم شاكون في الموت.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دائماً.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ عن الإيمان والطاعة، وإسناد الزيادة إلى الدعاء على السببية كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان. ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه. ﴿جَعَلُوا أَصَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ سدوا مسامعهم عن استماع الدعوة. ﴿وَأَسْتَفْسَؤُوا بَيَابَهُمْ﴾ تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر إلي من فرط كراهة دعوتي أو لئلا أعرفهم فادعواهم، والتعبير بصيغة الطلب للمبالغة. ﴿وَأَصْرُوا﴾ وأكبوا على الكفر والمعاصي مستعار من أصر الحمار على العانة إذا صر أذنيه وأقبل عليها. ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعي. ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ عظيماً.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي دعوتهم مرة بعد أخرى وكرة بعد

أولى على أي وجه أمكنتي، و ﴿ثم﴾ لتفاوت الوجوه فإن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بينهما أغلظ من الأفراد لتراخي بعضها عن بعض، و ﴿جهاراً﴾ نصب على المصدر لأنه أحد نوعي الدعاء، أو صفة مصدر محذوف بمعنى دعاء ﴿جهاراً﴾ أي مجاهراً به أو الحال فيكون بمعنى مجاهراً.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12)﴾

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ للتائبين وكأنهم لما أمرهم بالعبادة قالوا: إن كنا على حق فلا نتركه وإن كنا على باطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا من عصيانه، فأمرهم بما يجب معاصيهم ويجلب إليهم المنح ولذلك وعدهم عليه ما هو أوقع في قلوبهم. وقيل لما طالبت دعوتهم وتمادى إصرارهم حبس الله عنهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسايتهم فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه بقوله:

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء. و ﴿السَّمَاءُ﴾ تحتل المظلة والسحاب، والمدار كثير الدور ويسوي في هذا البناء المذكر والمؤنث، والمراد بالـ ﴿جَنَّاتٍ﴾ البساتين.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (15) وَجَعَلَ اللَّقْمَ فِيهِنَّ ثَوْرًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)﴾

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً لمن عبده وأطاعه فتكونوا على حال تأملون فيها تعظيمها إياكم، و ﴿لله﴾ بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة لـ ﴿وقاراً﴾، أو لا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه، وإنما عبر عن الاعتقاد بالرجاء التابع لأدنى الظن مبالغة.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ حال مقررة للإنكار من حيث إنها موجبة للرجاء فإنه خلقهم ﴿أطواراً﴾ أي تارات، إذ خلقهم أولاً عناصر، ثم مركبات تغذى بها الإنسان، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، ثم عظماً ولحوماً، ثم أنشأهم خلقاً آخر، فإنه يدل على أنه يمكن أن يعيدهم تارة أخرى فيعظمهم بالشواب وعلى أنه تعالى عظيم القدرة تام الحكمة، ثم أتبع ذلك ما يؤيده من آيات الآفاق فقال.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السموات وهو في السماء الدنيا وإنما نسب إليهن لما بينهن من الملاسة. ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ مثلها به لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله.

﴿وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأصله ﴿أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ إنباتاً فنبتم نباتاً، فاختصره اكتفاء بالدلالة الالتزامية.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالحشر، وأكده بالمصدر كما أكد به الأول دلالة على أن الإعادة محققة كالأبداء، وأنها تكون لا محالة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾. تتقلبون عليها.

﴿لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ واسعة جمع فح ومن لتضمن الفعل معنى الانخاذ.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مِنْ لَمَّ يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (21) ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (24) مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (28) ﴿

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به. ﴿وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمَّ يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ واتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجهة حصلت لهم بالأموال والأولاد وأدت بهم إلى الخسار، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي والبصريان ﴿وولده﴾ بالضم والسكون على أنه لغة كالحن والحنن أو جمع كالأسد.

﴿وَمَكْرُوا﴾ عطف على ﴿لم يزد﴾ والضمير لمن وجمعه للمعنى. ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ كبيراً في الغاية فإنه أبلغ من كبار وهو من كبير، وذلك احتيالهم في الدين وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ولا تذرُنَّ هؤلاء خصوصاً، قيل هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا صوروا تبركاً بهم، فلما طال الزمان عبدوا. وقد انتقلت إلى العرب فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير. وقرأ نافع ﴿وداً﴾ بالضم وقرئ «يغوثاً» و«يعوقاً» للتناسب، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء أو للأصنام كقوله: ﴿إنهن أضللن كثيراً﴾. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ عطف على ﴿رب إنهم عصوني﴾، ولعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم لا في أمر دينهم، أو الضياع والهلاك كقوله: ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾.

﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ﴾ من أجل خطيئاتهم، و«ما» مزيدة للتأكيد والتفخيم، وقرأ أبو عمرو «مما خطاياهم». ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان. ﴿فَأَذْخَلُوا نَارًا﴾ المراد عذاب القبر أو عذاب الآخرة، والتعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وإن تراخى عنه لفقد شرط أو وجود مانع، وتنكير النار للتعظيم أو لأن المراد نوع من النيران. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ تعريض لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً وهو مما يستعمل في النفي العام فيعال من الدار، أو الدور وأصله ديوار ففعل به ما بأصل سيد الأفعال وإلا لكان دواراً.

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال ذلك لما جربهم واستقرى أحوالهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف شيمهم وطباعهم.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي﴾ لمك بن متوشلخ وشمخا بنت أنوش وكانا مؤمنين. ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ منزلي أو مسجدي أو سفيتي. ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكاً.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرهم دعوة نوح».





[مكية، وآياتها ثمان وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1)﴾

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقرء «أحي» وأصله وحي من وحي إليه فقلبت الواو همزة لضميتها ووحى على الأصل وفاعله: «أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ» والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، و﴿الجن﴾ أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية. وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها، وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله به رسوله. ﴿فَقَالُوا﴾ لما رجعوا إلى قومهم. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً مبيناً لكلام الناس في حسن نظمه ودقة معناه. وهو مصدر وصف به للمبالغة.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2)﴾

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ إلى الحق والصواب. ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ على ما نطق به الدلائل القاطعة على التوحيد.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3)﴾

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريان بالكسر على أنه من جملة المحكي بعد القول، وكذا ما بعده إلا قوله: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ «وَأَن المساجد»، «وَأَنه لما قام» فإنها من جملة الموحى به ووافقهم نافع وأبو بكر إلا في قوله: ﴿وَأَنه لما قام﴾ على أنه استئناف أو مقول، وفتح الباقون الكل إلا ما صدر بالفاء على أن ما كان من قولهم فمعطوف على محل الجار والمجرور في «به» كأنه قيل: صدقنا «أنه تعالى جد ربنا» أي عظمت من جد فلان في عيني إذا عظم، أو سلطانه أو غناه مستعار من الجد الذي هو البخت، والمعنى وصفه بالتعالي عن صاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيان لذلك، وقرء «جداً» على التمييز «جَدُّ رَبِّنَا» بالكسر أي صدق ربوبيته، كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك واتخاذ صاحبة والولد.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ سَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ

الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْمُ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مِثْقَلًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلْمَسْمَعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمَرَأَادُ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ

تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12) ﴿﴾

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس أو مردة الجن. ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولاً ذا شطط وهو البعد ومجازوة الحد، أو هو شطط لفرط ما أشط فيه، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذار عن اتباعهم السفیه في ذلك بظنهم أن أحداً لا يكذب على الله، و ﴿كذباً﴾ نصب على المصدر لأنه نوع من القول أو الوصف المحذوف، أي قولاً مكذوباً فيه، ومن قرأ ﴿إِنْ لَنْ تَقُولَ﴾ كيعقوب جعله مصدراً لأن التقول لا يكون إلا ﴿كذباً﴾.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فزادوا الجن باستعازتهم بهم. ﴿وَهَقًّا﴾ كبراً وعتوًّا، أو فزاد الجن والإنس غيًّا بأن أصلوهم حتى استعازوا بهم، والرهق في الأصل غشيان الشيء.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأن الإنس. ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن أو بالعكس، والآيتان من كلام الجن بعضهم أو استئناف كلام من الله تعالى، ومن فتح ﴿أَنْ﴾ فيها جعلهما من الموحى به. ﴿أَنْ لَنْ يَمِيتَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ساد مسد مفعولي ﴿ظنوا﴾.

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء أو خبرها، واللمس مستعار من المس للطلب كالجس يقال ألمسه وتلمسه كطلبه واطلبه وتطلبه. ﴿فَوَجَدْنَاَهَا مُلَكَّتْ حَرَسًا﴾ حراساً اسم جمع كالخدم. ﴿شَدِيدًا﴾ قوياً وهم الملائكة الذين يمنعونهم عنها. ﴿وَشُهَبًا﴾ جمع شهاب وهو المضيء المتولد من النار.

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مقاعد خالية عن الحرس والشهب، أو صالحة للترصد والاستماع، و ﴿للسمع﴾ صلة لـ ﴿نقعد﴾ أو صفة لـ ﴿مقاعد﴾. ﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أي شهاباً راصداً له ولاجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، أو ذوي شهاب راصدين على أنه اسم جمع للراصد، وقد مر بيان ذلك في «الصفات».

﴿وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُريدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء. ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً.

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرار. ﴿وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قوم دون ذلك فحذف الموصوف وهم المقتصدون. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ ذوي طرائق أي مذاهب، أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائقنا طرائق. ﴿قَدَدًا﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة من قد إذا قطع.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ علمنا. ﴿أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ كائنين في الأرض أينما كنا فيها. ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ هاربين منها إلى السماء، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن نعجزه هرباً إلى طلبنا.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدْيَ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا (13)﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَنِيسُطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَنِيسُطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَالْوُ أَسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً عَذَقًا (16) لَنَفِينَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17) وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18) وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) ﴿﴾

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ أي القرآن. ﴿أَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف، وقرىء ﴿فَلَا يَخَفُ﴾ والاول أدل على تحقيق نجاة المؤمنين واختصاصها بهم. ﴿يَخْسَأُ وَلَا رَهَقًا﴾ نقصاً في الجزاء ولا أن يرهقه ذلة، أو جزاء بخس لأنه لم يخس لأحد حقاً ولم يرهق ظلماً، لأن من حق المؤمن بالقرآن أن يجتنب ذلك.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ توخوا رشداً عظيماً يبلغهم إلى دار الثواب.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.

﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ أي أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس أو كلاهما. ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي على الطريقة المثلى. ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ لوسعنا عليهم الرزق، وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب.

﴿لِنَقْتَبِهَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه، وقيل معناه أن لو استقام الجن على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم لنوقعهم في الفتنة ونعذبهم في كفرانهم. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عن عبادته أو موعظته أو وحيه. ﴿يَسْلُكُهُ﴾ يدخله وقرأ غير الكوفيين بالنون. ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه مصدر وصف به.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ مختصة به. ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، ومن جعل ﴿أَن﴾ مقدرة باللام علة للنهي ألغى فائدة الفاء، وقيل المراد بـ ﴿المساجد﴾ الأرض كلها لأنها جعلت للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً. وقيل المسجد الحرام لأنه قيل المساجد ومواضع السجود على أن المراد النهي عن السجود لغير الله، وأراه السبعة أو السجديات على أنه جمع مسجد.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي النبي عليه الصلاة والسلام وإنما ذكر بلفظ العبد للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه، والأشعار بما هو المقتضى لقيامه. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته، أو كاد الإنس والجن يكونون عليه مجتمعين لإبطال أمره، وهو جمع لبدة وهي ما تلبد بعضه على بعض كلبدة الأسد، وعن ابن عامر ﴿لِبَدًا﴾ بضم اللام جمع لبدة وهي لغة. وقرىء ﴿لِبَدًا﴾ كسجداً جمع لابد و ﴿لِبَدًا﴾ كصبر جمع لبود.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم أو إبطافكم على مقتي، وقرأ عاصم وحمزة «قل» على الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام ليوافق ما بعده.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أُمِلُّكُمْ صَرًَّا وَلَا رَشَدًا﴾ ولا نفعاً أو غياً، عبر عن أحدهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو مسببه إشعاراً بالمعنيين.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرِيَ مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَصْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا (25) عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ

مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28) ﴿

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أراد بي سوءاً. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ منحرفاً أو ملتجئاً وأصله المدخل من اللحد.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ﴾ استثناء من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد وإنفاع وما بينهما اعتراض مؤكد لنفي الاستطاعة، أو من ملتحداً أو معناه أن لا أبلغ بلاغاً وما قبله دليل الجواب. ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ عطف على ﴿بَلَاغًا﴾ و ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صفته فإن صلته عن كقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية». ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه. ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقرئ ﴿فَإِنَّ﴾ على فجزاؤه أن. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ جمعه للمعنى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا كوقعة بدر، أو في الآخرة والغاية لقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ بالمعنى الثاني، أو لمحذوف دل عليه الحال من استضعاف الكفار وعصيانهم له. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هو أم هم.

﴿قُلْ إِنْ أَذْرِي﴾ ما أدري. ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ غاية تطول مدتها كأنه لما سمع المشركون ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ قالوا متى يكون إنكاراً، فقيل قل إنه كائن لا محالة ولكن لا أدري ما وقته.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ هو عالم الغيب. ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع. ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ أي على الغيب المخصوص به علمه.

﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ﴾ لعلم بعضه حتى يكون له معجزة. ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ بيان له ﴿مِنْ﴾، واستدل به على إبطال الكرامات، وجوابه تخصيص الرسول بالملك والإظهار بما يكون بغير وسط، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون تلقياً عن الملائكة كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء. ﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من بين يدي المرتضى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ حرساً من الملائكة يحرسونه من اختطاف الشياطين وتخاليطهم.

﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أي ليعلم النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحي، أو ليعلم الله تعالى أن قد أبلغ الأنبياء بمعنى ليتعلق علمه به موجوداً. ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كما هي محروسة من التغيير. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عند الرسل. ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ حتى القطر والرمل.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنني صدق محمداً أو كذب به عتق رقبة».

## سورة المزمل

[مكية، وآياتها تسع عشرة أو عشرون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (1) قُلِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفُهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ قَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا (6)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ أصله المتزمل من تزل من بياحه إذا تلف بها فأدغم التاء في الزاي وقد قرئ به، وبـ ﴿الْمَزْمِلُ﴾ مفتوحة الميم ومكسورتها أي زمله غيره، أو زمل نفسه، سمي به النبي عليه الصلاة والسلام تهجيناً لما كان عليه فإنه كان نائماً، أو مرتعداً مما دهشه من بدء الوحي متزماً في قطيفة أو تحسناً له. إذ روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي متلفاً بمرط مفروش على عائشة رضي الله تعالى عنها فنزلت. أو تشبيهاً له في تناقله بالمزمل لأنه لم يتمرن بعد في قيام الليل، أو من تزل المزمل إذا تحمل الحمل أي الذي تحمل أعباء النبوة.

﴿قُمِ اللَّيْلُ﴾ أي قم إلى الصلاة، أو داوم عليها فيه، وقرئ بضم الميم وفتحها للإتباع أو التخفيف. ﴿وَلَا قَلِيلًا﴾.

﴿نِصْفُهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ الاستثناء ﴿من الليل﴾ و ﴿نِصْفُهُ﴾ بدل من ﴿قَلِيلًا﴾ وقلته بالنسبة إلى الكل، والتخيير بين قيام النصف والزائد عليه كالثلثين والناقص عنه كالثلث، أو ﴿نِصْفُهُ﴾ بدل من ﴿اللَّيْلُ﴾ والاستثناء منه والضمير في ﴿منه﴾ و ﴿عليه﴾ للأقل من النصف كالثلث فيكون التخيير بينه وبين الأقل منه كالربع، والأكثر منه كالنصف أو للنصف والتخيير بين أن يقوم أقل منه على البت وأن يختار أحد الأمرين من الأقل والأكثر، أو الاستثناء من إعداد الليل فإنه عام والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه الزائد عليه. ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ قَرْتِيلًا﴾ اقرأه على تودة وتبيين حروف بحيث يتمكن السامع من عدها من قوله ثغر رتل ورتل إذا كان مقلجاً.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني القرآن فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقیل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته، والجملة اعترض يسهل التكليف عليه بالتهجد، ويدل على أنه مشق مضاد للطبع مخالف للنفس، أو رصين لرزانة لفظه ومتانة معناه، أو ثقیل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر، أو ثقیل في الميزان أو على الكفار والفجار، أو ثقیل تلقيه لقوله عائشة رضي الله تعالى عنها: رأيته عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليرفص عرقاً. وعلى هذا يجوز أن يكون صفة للمصدر والجملة على هذه الأوجه للتعليل مستأنف، فإن التهجد يعد للنفس ما به تعالج ثقله.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ إن النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام قال:

نَشَأْنَا إِلَىٰ خَوْصِ بَرَائِيهَا الشَّرِّ وَالصِّقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاحِدِ

أو قيام الليل على أن الـ ﴿ناشئة﴾ له أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث، أو ساعات الليل لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، أو ساعاتها الأول من نشأت إذا ابتدأت. ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي كلفة أو ثبات قدم، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وطاء بكسر الواو وألف ممدودة أي مواطأة القلب للسان لها، أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والإخلاص. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي وأسد مقالاً أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدهو الأصوات.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (7) وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9) وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلُكُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً (14) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَىٰكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15)﴾

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تقلباً في مهماتك واشتغلاً بها فعليك بالتهجد، فإن مناجاة الحق تستدعي فراغاً. وقرئ «سبحاً» أي تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره ليلاً ونهاراً، وذكر الله يتناول كل ما يذكر به تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلوة وقراءة قرآن ودراسة علم. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه، ولهذه الرزمة ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلاً.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ خبره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غير حفص ويعقوب بالجر على البدل من ربك، وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مسبب عن التهليل، فإن توحده بالألوهية يقتضي أن توكل إليه الأمور.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الخرافات. ﴿وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تجانبهن وتداريهم ولا تكافئنهم وتكل أمرهم إلى الله فإله يكفيهم كما قال:

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ دعني وإياهم وكل أمرهم فإن بي غنية عنك في مجازاتهم. ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أرباب التمتع، يريد صنائيد قريش. ﴿مَهْلُكُمْ قَلِيلًا﴾ زماناً أو إمهالاً.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ تعليل للأمر، والنكل القيد الثقيل. ﴿وَجَحِيمًا﴾. ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ طعاماً ينشب في الحلق كالضريع والزقوم. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه إلا الله تعالى، ولما كانت العقوبات الأربع مما تشترك فيها الأشباح والأرواح فإن النفوس العاصية المنهمكة في الشهوات تبقى مقيدة بحبها والتعلق بها، عن التخلص إلى عالم المجردات متحرقة بحرقة الفرقة متجرعة غصة الهجر أن معذبة بالحرمان عن تجلي أنوار القدس، فسر العذاب بالحرمان عن لقاء الله تعالى.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ تضطرب وتترزل ظرف لما في ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ من معنى الفعل.

﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملًا مجتمعاً كأنه فعيل بمعنى مفعول من كثبت الشيء إذا جمعته. ﴿مَهِيلاً﴾ مشوراً من هيل هيلاً إذا نشر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهل مكة. ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالإجابة والامتناع. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ولم يعينه لأن المقصود لم يتعلق به.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ (16) فَكَيْفَ تَنْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) أَلَسْمَاءُ

مُنْفِطِرٍ يَوْمَ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (19) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ نَحْضُوهُ فَلَبِثَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْنِطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْلِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (20)﴾

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّشُونَ﴾ عرفه لسبق ذكره. ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقیلاً من قولهم طعام وبیل لا يستمر لأثقله، ومنه الوابل للمطر العظيم.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم. ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بقیتم على الكفر. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ من شدة هوله وهذا على الفرض أو التمثیل، وأصله أن الهموم تضعف القوى وتسرع الشیب، ويجوز أن يكون وصفاً لليوم بالطول.

﴿السَّمَاءُ مُنْفِطِرٌ﴾ منشق والتذكير على تأویل السقف أو إضمار شيء. ﴿بِهِ﴾ بشدة ذلك اليوم على عظمها وأحكامها فضلاً عن غيرها والباء للآلة. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ الضمير لله عز وجل أو لليوم على إضافة المصدر إلى المفعول.

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي الآيات الموعدة. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة. ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يتعظ. ﴿اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي يتقرب إليه بسلوك التقوى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ استعار الأدنى للأقل لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعداً منه، وقرأ ابن كثير والكوفيون ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾. ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى، فإن تقديم اسمه مبتدأ مبنياً عليه ﴿يقدر﴾ يشعر بالاختصاص ويؤيده قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَّنْ نَّحْضُوهُ﴾ أي لن تحضوا تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالترخص في ترك القيام المقدر ورفع التبعة فيه كما رفع التبعة عن النائب. ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها، قيل كان التهجد واجباً على التخيير المذكور فعرس عليهم القيام به فنسخ به، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس، أو فاقروا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم. ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئناف يبين حكمه أخرى مقتضية الترخيص والتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتباً عليه وقال: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ والضرب في الأرض ابتغاء للفضل المسافرة للتجارة وتحصيل العلم ﴿وَآخَرُونَ يَقْنِطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة. ﴿وَاقْرَأُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريد به الأمر في سائر الانفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه، والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به في قوله: ﴿وَمَا تُقْلِمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت أو من متاع الدنيا، و ﴿خَيْرًا﴾ ثاني مفعولي ﴿تجدوه﴾ وهو تأكيد أو فصل، لأن أفعل من كالمعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف، وقرئ «هو خير» على الابتداء والخبر. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ﴾ في مجامع أحوالكم فإن الإنسان لا يخلو من تقريط. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المزمل رفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة».



[مكية . وآياتها خمس وخمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ (3) وَتَبَاكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ

فَاصْبِرْ (7) فَإِذَا يُفْرِغِ الْفَأْوَرُ (8) فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي المدثر وهو لا لبس الدثار . روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «كنت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني وشمالي فلم أر شيئاً، فنظرت فوقى فإذا هو على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه - فرعبت فرجعت إلى خديجة فقلت: دثروني، فنزل جبريل وقال: «يا أيها المدثر» ولذلك قيل هي أول سورة نزلت. وقيل تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكراً، أو كان نائماً مدثراً فنزلت، وقيل المراد بالمدثر المدثر بالنبوة والكمالات النفسانية، أو المخفي فإنه كان بحراء كالمخفي فيه على سبيل الاستعارة، وقرئ «المدثر» أي الذي دثر هذا الأمر وعصب به.

﴿ثُمَّ﴾ من مضجعتك أو قم قيام عزم وجد. «فَأَنْذِرْ» مطلق للتعميم أو مقدر بمفعول دل عليه قوله: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» أو قوله: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً».

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وخصص ربك بالتكبير وهو وصفه بالكبرياء عقداً وقولاً، روي أنه لما نزل كبر رسول الله ﷺ وأيقن أنه الوحي، وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك والفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط وكأنه قال: وما يكن فكبر ربك، أو الدلالة على أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه عن الشرك والشبهة، فإن أول ما يجب معرفة الصانع وأول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه، والقوم كانوا مقرين به.

﴿وَتَبَاكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاسات فإن التطهير واجب في الصلوات محبوب في غيرها، وذلك بغسلها أو بحفظها عن النجاسة بتقصيرها مخافة جر الذبول فيها، وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة، أو طهر نفسك من الأخلاق الذميمة والأفعال الدنيئة، فيكون أمراً باستكمال القوة العملية بعد أمره باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه، أو فطهر دثار النبوة عما يندسه من الحقد والضجر وقلة الصبر.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فاهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدي إليه من الشرك وغيره من القبائح، وقرأ يعقوب وحفص «وَالرُّجْزُ» بالضم وهو لغة كالذكر.

﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط مستكثراً، نهى عن الاستغفار وهو أن يهب شيئاً طامعاً في عوض أكثر، نهى تنزيهه أو نهياً خاصاً به لقوله عليه الصلاة والسلام «المستغفر يثاب من هبته» والموجب له ما فيه من الحرص والفضة، أو «لا تمنن» على الله تعالى بعبادتك مستكثراً إياها، أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه، وقرئ «تستكثرون» بالسكون للوقف أو الإبدال من تمنن على أنه من بكذا، أو



﴿تستكثر﴾ بمعنى تجده كثيراً وبالنصب على إضمار أن، وقد قرئ بها وعلى هذا يجوز أن يكون الرقع بحذفها وإبطال عملها، كما روي: أحضر الوغى. بالرفع.

﴿وَلَرَبُّكَ﴾ لوجهه أو أمره. ﴿فَاصْبِرْ﴾ فاستعمل الصبر، أو فاصبر على مشاق التكليف وأذى المشركين.

﴿فَإِذَا نُفِرَ﴾ نفخ. ﴿فِي النَّافِرِ﴾ في الصور فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت، والفاء للسببية كأنه قال: اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم، و «إذا» ظرف لما دل عليه قوله:

﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأن معناه عسر الأمر على الكافرين، وذلك إشارة إلى وقت النقر، وهو مبتدأ خبره ﴿يوم عسير﴾ و ﴿يومئذ﴾ بدل أو ظرف لخبره إذ التقدير: فذلك الوقت وقت وقوع ﴿يوم عسير﴾. تأكيد يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه ويشعر بيسره على المؤمنين.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهْدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19)﴾

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة، و ﴿وَحِيدًا﴾ حال من الباء أي ذرني وحدي معه فإني أكفيكه، أو من التاء أي ومن خلقتني وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو من العائد المحذوف أي من خلقتني فريداً لا مال له ولا ولد، أو ذم فإنه كان ملقباً به فسماه الله به تهكماً، أو إرادة أنه وحيد ولكن في الشرارة أو عن أبيه فإنه كان زنياً.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممدداً بالنماء، وكان له الزرع والضرع والتجارة.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته، ولا يحتاج إلى أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، أو في المحافل والأندية لوجاهتهم واعتبارهم. قيل كان له عشرة بنين أو أكثر كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام.

﴿وَمَهْدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ريحانة قريش والوحيد أي باستحقاقه الرياسة والتقدم.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أوتيته وهو استبعاد لطمعه أما لأنه لا مزيد على ما أوتي، أو لأنه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم ولذلك قال:

﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ فإنه ردع له عن الطمع وتعليل للردع على سبيل الاستئناف بمعاندة آيات المنعم المناسبة لإزالة النعمة المانعة عن الزيادة، قيل: ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله حتى هلك.

﴿سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد، وهو مثل لما يلقي من الشدائد. وعنه عليه الصلاة والسلام «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً».

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل أو بيان للعناد، والمعنى فكر فيما يخيل طعناً في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ تعجب من تقديره استهزاء به، أو لأنه أصاب أقصى ما يمكن أن يقال عليه من قولهم: قتله الله ما أشجع، أي بلغ في الشجاعة مبلغاً يحق أن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك. روي أنه مر بالنبي ﷺ وهو يقرأ ﴿حم﴾ «السجدة»، فأتى قومه وقال لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى. فقالت قريش صبأ الوليد فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فناداهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً، فقالوا لا فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين منه.

﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ يُؤْتِرُ (24) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهِمْ تِسْعَةُ عَشْرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَيْكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَانًا وَلَا يَرَأَبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (31)﴾

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾ تكرير للمبالغة وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي في أمر القرآن مرة بعد أخرى.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً ولم يدر ما يقول، أو نظر إلى رسول الله ﷺ وقطب في وجهه. ﴿وَبَسَرَ﴾ اتباع لعبس.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق أو الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه.

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُ﴾ يروي ويتعلم، والفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباله تفوه بها من غير تلبث وتفكر.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ كالتأكيد للجملة الأولى ولذلك لم يعطف عليها.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ تفخيم لشأنها وقوله تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ تفخيم لشأنها وقوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بيان لذلك أو حال من سقر، والعامل فيها معنى التعظيم والمعنى لا تبقي على شيء يلقي فيها ولا تدعه حتى تهلكه.

﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي مسودة لأعالي الجلد، أو لائحة للناس وقرئت بالنصب على الاختصاص.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾ ملكاً أو صنفاً من الملائكة يلون أمرها، والمخصص لهذا العدد أن اختلال النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الانثني عشر والطبيعة السبع، أو أن لجهم سبع دركات ست منها لأصناف الكفار وكل صنف يعذب بترك الاعتقاد والإقرار، أو العمل أنواعاً من العذاب تناسبها على كل نوع ملك أو صنف يتولاه وواحدة لعصاة الأمة يعذبون فيها بترك العمل نوعاً يناسبه ويتولاه ملك، أو صنف أو أن الساعات أربع وعشرون خمسة منها مصروفة في الصلاة فيبقى تسعة عشر قد تصرف

فيما يؤاخذ به بأنواع من العذاب يتولاها الزبانية، وقرىء ﴿تَشْعَةً عَشْرًا﴾ بسكون العين كراهة توالي حركات فيها هو كاسم واحد و «تسعة أعشر» جمع عشر كيمين وأيمن، أي تسعة كل عشر جمع يعني نقيضهم أو جمع عشر فتكون تسعين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ ليخالفوا جنس المعذبين فلا يرقون لهم ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوى الخلق بأساً وأشدّهم غضباً لله. روي أن أبا جهل لما سمع عليها تسعة عشر قال لقريش: أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فنزلت. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر، فعبر بالأثر عن المؤثر تنبيهاً على أنه لا ينفك منه وافتتانهم به استقلالهم واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولى هذه العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين، ولعل المراد الجعل بالقول ليحسن تعليله بقوله: ﴿لَيَسْتَفِيقَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوّة محمد ﷺ وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم. ﴿وَيَزِدَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ بالإيمان به وبصدق أهل الكتاب له. ﴿وَلَا يَزَاتَبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك وهو تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان ونفي لما يعرض للمتقين حيثما عراه شبهة. ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك أو نفاق، فيكون إخباراً بمكة عما سيكون في المدينة بعد الهجرة. ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيب. ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب. ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ﴾ مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموع خلقه على ما هم عليه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصه من كم وكيف واعتبار ونسبة. ﴿وَمَا هِيَ﴾ وما سقر أو عدة الخزنة أو السورة. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ إلا تذكرة لهم.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَإِلِيلَ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ (40)﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها، أو إنكار لأن يتذكروا بها. ﴿وَالْقَمَرِ﴾. ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ﴾ أي أدبر ققبل بمعنى أقبل، وقرأ نافع وحزمة ويعقوب وحفص ﴿إِذَا أَدْبَرَ﴾ على الماضي. ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ﴾ أضاء.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي لإحدى البليات الكبر أي البليات الكبر كثيرة و ﴿سَقَرٌ﴾ واحدة منها، وإنما جمع كبرى على «كبر» إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للآلف منزلة التاء كما ألحقت فاصعاء بقاصعة فجمعت على قواصع، والجملة جواب القسم أو تعليل له ﴿كَلَّا﴾، والقسم معترض للتأكيد.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ تمييز أي ﴿لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ إنذاراً أو حال عما دلت عليه الجملة أي كبرت منذرة، وقرىء بالرفع خبراً ثانياً أو خبراً لمحذوف.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدل من ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي نذيراً للمتمكنين من السبق إلى الخير والتخلف عنه، أو ﴿لِمَنْ شَاءَ﴾ خبر لـ ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ فيكون في معنى قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ مرهونة عند الله مصدر كالتشكيمة أطلقت للمفعول كالرهن ولو كانت صفة لقيل رهين.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم، وقيل هم الملائكة أو الأطفال.  
﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها وهي حال من ﴿أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾، أو ضميرهم في قوله:  
﴿يَسَاءَلُونَ﴾.

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42) قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ (44)  
وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ  
(48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ (49) كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى  
صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا  
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ (56)﴾

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم عن حالهم كقولك: تداعبناه أي دعوانه  
وقوله:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ بجوابه حكاية لما جرى بين المسؤولين والمجرمين أجابوا بها.  
﴿قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الصلاة الواجبة.  
﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ﴾ أي ما يجب إعطاؤه، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع.  
﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ نشرع في الباطل. ﴿مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ مع الشارعين فيه.  
﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أخره لتعظيمه أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين بالقيامة.  
﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ الموت ومقدماته.  
﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لو شفَعوا لهم جميعاً.  
﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ أي معرضين عن التذكير يعني القرآن، أو ما يعمه و ﴿مُعْرِضِينَ﴾  
حال.

﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ﴾ شبههم في إعراضهم ونفارهم عن استماع الذكر بحمر نافرة.  
﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي أسد فعولة من القسر وهو القهر.  
﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: لن  
نتبعك حتى تأتي كلامنا بكتاب من السماء فيه من الله إلى فلان اتبع محمداً.  
﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن اقتراحهم الآيات. ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكير لا لامتناع  
إيتاء الصحف.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إعراضهم. ﴿إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ وأي تذكرة.  
﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ فمن شاء أن يذكره.  
﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذكرهم أو مشيتهم كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهو تصريح

بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى، وقرأ نافع ﴿تذكرون﴾ بالياء وقرىء بهما مشدداً. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ حقيق بأن يتقى عقابه. ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حقيق بأن يغفر لعباده سيما المتقين منهم.

وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد عليه الصلاة والسلام وكذب به بمكة شرفها الله تعالى».



[مكية وآياتها أربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ (1) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْعَلَ عِظَامُهُ (3) بَلْ قَدَرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أُمَامُهُ (5) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ (6) فَإِذَا يَرَوْهُ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8)﴾

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إدخال ﴿لَا﴾ النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلامهم قال امرؤ القيس:

لَا وَأَيِّكَ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفْزِرُ

وقد مر الكلام فيه في قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ وقرأ قبل ﴿لأقسم﴾ بغير ألف بعد اللام وكذا روي عن البري.

﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس المقصرة في التقوى يوم القيامة على تقصيرها، أو التي تلوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة أو النفس المطمئنة اللائمة للنفس الأمانة أو بالجنس. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة، إن عملت خيراً قالت كيف لم أزد وإني عملت شراً قالت يا ليتني كنت قصرت». أو نفس آدم فإنها لم تزل تلوم على ما خرجت به من الجنة، وضمها إلى يوم القيامة لأن المقصود من إقامتها مجازاتها.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني الجنس وإسناد الفعل إليه لأن فيهم من يحسب، أو الذي نزل فيه وهو عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك. أو يجمع الله هذه العظام. ﴿أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد تفرقها، وقرىء «أَنْ لَنْ يَجْمَعَ» على البناء للمفعول.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْفَرَّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يُنذِرُ الْمُسْقِرُ (12) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ (15) لَا تَحْرِكُهُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْمَآلَةَ (20)﴾

﴿بَلَى﴾ نجمعها. ﴿قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ بجمع سلامياته وضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها فكيف بكبار العظام، أو ﴿على أن نسوي بنانه﴾ الذي هو أطرافه فكيف بغيرها، وهو حال

من فاعل الفعل المقدر بعد ﴿بلى﴾، وقرئ بالرفع أي نحن قادرون.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً لجواز أن يكون الإضراب عن المستفهم وعن الاستفهام. ﴿لَيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

﴿يَسْأَلُ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متى يكون يوم القيامة استبعاداً له أو استهزاء.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ تحير فزعاً من برق فدهش بصره، وقرأ نافع بالفتح وهو لغة، أو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه، وقرئ «بلق» من بلق الباب إذا انفتح.

﴿وَوَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه وقرئ على البناء للمفعول.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوف فإنه مستعار للمحاق، ولمن حمل ذلك أمارات الموت أن يفسر الخسوف بذهاب ضوء البصر والجمع باستتباع الروح الحاسة في الذهاب، أو بوصوله إلى من كان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس، وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَئِنَّ الْمَرَّةَ﴾ أي القرار يقوله قول الآيس من وجدانه المتمني، وقرئ بالكسر وهو المكان.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرد. ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ مستعار من الحبل واشتقاقه من الوزر وهو الثقل.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ إليه وحده استقرار العباد، أو إلى حكمه استقرار أمرهم، أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار.

﴿يُبْنَىٰ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمل، أو بما قدم من عمل عمله وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة عمل بها بعده، أو بما قدم من مال تصدق به وبما أخر فخلفه، أو بأول عمله وآخره.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ حجة بينة على أعمالها لأنه شاهد بها، وصفها بالبصيرة على المجاز، أو عين بصيرة فلا يحتاج إلى الإنباء.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر، أو جمع معذرة على غير قياس بصيرة بها فلا يحتاج إلى الإنباء.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر، أو جمع معذرة على غير قياس كالمناكير في المنكر فإن قياسه معاذر وذلك أولى وفيه نظر.

﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا محمد، ﴿بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿لِسَانَكَ﴾ قبل أن يتم وحيه. ﴿لَتَفْجَلَ بِهِ﴾ لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك. ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ وإثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ بلسان جبريل عليك. ﴿فَاتَّبَعَ قُرْآنَهُ﴾ قراءته وتكرر فيه حتى يرسخ في ذهنك.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ بيان ما أشكل عليك من معانيه، وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره، أو بذكر ما اتفق في أثناء نزول هذه الآيات. وقيل الخطاب مع الإنسان

المذكور والمعنى أنه يؤتى كتابه فيتلجلج لسانه من سرعة قراءته خوفاً، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به فإن علينا بمقتضى الوعد جمع ما فيه من أعمالك وقراءته، فإذا قرأناه فاتبع قراءته بالإقرار أو التأمّل فيه، ثم إن علينا بيان أمره بالجزاء عليه.

﴿كَلَّا﴾ ردع للرسول عن عادة العجلة أو للإنسان عن الإغترار بالعاجل. ﴿بَلْ تُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾.

﴿وَنَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (21) ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (22) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (23) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ (24) ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (25) ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (26) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (27) ﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْغَرَاءُ﴾ (28) ﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ إِلَىٰ السَّاقِ﴾ (29) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (30) ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا وُصِّلَ﴾ (31) ﴿وَلَكِنَّ كَذَبًا وَقَوْلًا﴾ (32) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمُتِلَعُ﴾ (33) ﴿أَوَلَيْكَ فَالُوكُ﴾ (34) ﴿ثُمَّ أَوَلَيْكَ فَالُوكُ﴾ (35) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (36) ﴿أَلَيْكَ نُطْفَةُ مِنْ مِّمِّي يَمِّنُ﴾ (37) ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَلْحَىٰ فَسَوَىٰ﴾ (38) ﴿يَجْعَلُ مِنْهُ الشَّوْجِينَ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (39) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ لِلنَّوْكَ﴾ (40) ﴿

﴿وَنَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تعميم للخطاب إشعاراً بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال وإن كان الخطاب للإنسان، والمراد به الجنس فجمع الضمير للمعنى ويؤيده قراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالياء فيهما.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ بهية متهللة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تراه مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه ولذلك قدم المفعول، وليس هذا في كل الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره، وقيل منتظرة إنعامه ورد بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر، وأن المستعمل بمعناه لا يتعدى إلى قول الشاعر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ      وَالبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمًا

بمعنى السؤال فإن الانتظار لا يستعقب العطاء.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدة العبوس والباسل أبلغ من الباسر لكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه.

﴿تَظُنُّ﴾ تتوقع أربابها. ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية تكسر الفقار.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إثارة الدنيا على الآخرة.

﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ إذا بلغت النفس أعالي الصدر وإضمارها من غير ذكر لدلالة الكلام عليها.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال حاضر وصاحبها من يرقيه مما به من الرقية، أو قال ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب من الرقي.

﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْغَرَاءُ﴾ وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا ومحابها.

﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ إِلَىٰ السَّاقِ﴾ والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما، أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ سوجه إلى الله تعالى وحكمه.

﴿فَلَا صَدَقَ﴾ ما يجب تصديقه، أو فلا صدق ماله أي فلا زكاة. ﴿وَلَا وُصِّلَ﴾ ما فرض عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور في ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾.

﴿وَلَكِنَّ كَذَبًا وَقَوْلًا﴾ عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمَظَى﴾ يتبخر افتحاراً بذلك من المط، فإن المتبخر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط، أو من المط وهو الظهر فإنه يلويه.

﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ ويل لك من الولي، وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في ﴿ردف لكم﴾ أو ﴿أولى لك﴾ الهلاك. وقيل أفعّل من الويل بعد القلب أدنى من أدون، أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقابك النار.

﴿ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ أي يتكرر ذلك عليه مرة بعد أخرى.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملاً لا يكلف ولا يجازي، وهو يتضمن تكرير إنكاره للحشر والدلالة عليه من حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، والتكليف لا يتحقق إلا بالمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة.

﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَعٌ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ فقدّره فعده.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ﴾ للصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ وهو استدلال آخر بالإبداء على الإعادة على ما مر تقريره مراراً ولذلك رتب عليه قوله:

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

عن النبي ﷺ «أنه كان إذا قرأها قال سبحانك بلى» وعنه ﷺ «من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً به».



[مكية وآياتها إحدى وثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِمَّا كَفُوراً (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَاً وَسَعيراً (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَنْتَرِبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَتْ مِرْجُهَا كَأُفُوراً (5) عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجيراً (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ وَنِسْكِينَا وَيَتِيمَا وَأُسيراً (8) ﴿

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ استفهام تقرير وتقريب ولذلك فسر بقد وأصله أهل كقوله: أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم. ﴿حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود. ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ بل كان شيئاً مذكوراً بالإنسانية كالعنصر والنطفة، والجملة حال من ﴿الإنسان﴾ أو وصف



لـ ﴿حين﴾ بحذف الراجع والمراد بالإنسان الجنس لقوله :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أو آدم بين أولاً خلقه ثم ذكر خلقه بنبيه. ﴿أَمْشَاجٌ﴾ أخلاط جمع مشج أو مشج أو مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته، وجمع النطفة به لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة وكل منهما مختلف الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منهما مادة عضو. وقيل مفرد كأعشار وأكباش. وقيل ألوان فإن ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اختلطا اخضرا، أو أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة. ﴿نَبْلِيهِ﴾ في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختياره أو ناقلين له من حال إلى حال فاستعير له الابتلاء. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات، فهو كالمسبب عن الابتلاء ولذلك عطف بالفاء على الفعل المقيد به ورتب عليه قوله :

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾ حالان من الهاء، و ﴿إِنَّمَا﴾ للتفصيل أو التقسيم أي ﴿هديناه﴾ في حاله جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضهم ﴿شاكراً﴾ بالاهتداء والأخذ فيه، وبعضهم كفور بالإعراض عنه، أو من ﴿السبيل﴾ وصفه بالشكر والكفر مجاز. وقرئ ﴿أَمَّا﴾ بالفتح على حذف الجواب ولعله لم يقل كافراً ليطابق قسميه محافظة على الفواصل، وإشعاراً بأن الإنسان لا يخلو عن كفران غالباً وإنما المواخذ به التوغل فيه.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ﴾ بها يقادون. ﴿وَأَغْلَالًا﴾ بها يقيدون. ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يحرقون، وتقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم لأن الإنذار أهم وأنفع، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر «سلاسلا» للمناسبة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع بر كأرباب أو بار كأشهاد. ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ من خمر وهي في الأصل القدح تكون فيه. ﴿كَأَنَّ مِرْآجَهَا﴾ ما يمزج بها. ﴿كَافُورًا﴾ لبرده وعدوبته وطيب عرفه وقيل اسم ماء في الجنة يشبه الكافور في رائحته وبياضه. وقيل يخلق فيها كصفات الكافور فتكون كالممزوجة به.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كافورًا﴾ إن جعل اسم ماء أو من محل ﴿من كأس﴾ على تقدير مضاف، أي ماء عين أو خمرها أو نصب على الاختصاص أو بفعل يفسره ما بعدها. ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل الباء مزيدة أو بمعنى من لأن الشرب مبتدأ منها كما هو. ﴿يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يجرونها حيث شاءوا إجراء سهلاً.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ استئناف ببيان ما رزقوه لأجله كأنه سئل عنه فأجيب بذلك، وهو أبلغ في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه الله تعالى كان أوفى بما أوجبه الله تعالى عليه. ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشياً غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ حب الله تعالى أو الطعام أو الإطعام. ﴿مُسْكِينًا وَتَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ يعني أسراء الكفار فإنه ﷺ كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول «أحسن إليه»، أو الأسير المؤمن ويدخل فيه المملوك والمسجون، وفي الحديث «غريمك أسير فأحسن إلى أسيرك».

﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِمْ أَلا لَرَبِّهِمْ مَكْرَ جَزَاءٍ وَلَا شُكُورًا﴾ (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا (10) فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَمُرُورًا (11) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا سَمَاسًا وَلَا زَهَبِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ زُقُودٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (15) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا

نَقِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) ﴿

﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِهِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله. ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي شكرًا.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فلذلك نحسن إليكم أو لا نطلب المكافأة منكم. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس في ضراوته. ﴿قَمَطَرِيرًا﴾ شديد العبوس كالذي يجمع ما بين عينيه من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قرطها أو مشتق من القطر والميم مزيدة.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه. ﴿وَلَقَاهُمْ نَصْرُهُ وَسُرُورًا﴾ بدل عبوس الفجار وخزنها.

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات وإيثار الأموال. ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً يأكلون منه. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما صوم ثلاث إن برئا، فشفا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخبيري ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم مسكين فأثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوها الطعام وقف عليهم يتيم فأثروه، ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبريل عليه السلام بهذه السورة وقال خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك.

﴿مُتَكِينِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَْائِكِ﴾ حال من هم في ﴿جزاهم﴾ أو صفة لـ ﴿جنة﴾. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يحتملها وأن يكون حالاً من المستكن في ﴿مُتَكِينِينَ﴾، والمعنى أنه يمر عليهم فيها هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ، وقيل الزمهرير القمر في لغة طيء قال راجزهم:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اعْتَكَرَ قَطَعَتْهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ

والمعنى أن هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس وقمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ حال أو صفة أخرى معطوفة على ما قبلها، أو عطف على ﴿جنة﴾ أي وجنة أخرى دانية على أنهم وعدوا جنتين كقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وقرئت بالرفع على أنها خبر ﴿ظلالها﴾ والجملة حال أو صفة. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ معطوف على ما قبله أو حال من دانية، وتذليل القطوف ان تجعل سهلة التناول لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وأباريق بلا عروة. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾. ﴿قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفيفها وبياض الفضة ولينها، وقد نون ﴿قوارير﴾ من نون «سلاسل» وابن كثير الأولى لأنها رأس الآية، وقرىء ﴿قوارير من فضة﴾ على هي ﴿قوارير﴾. ﴿قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدروها في أنفسهم فجاءت مقاديرها وأشكالها كما تمنوه، أو قدروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها، أو قدر الطائفون بها المدلول عليهم بقوله يطاف شرايها على قدر اشتهاهم، وقرىء ﴿قَدَرُوهَا﴾ أي جعلوا قادرين لها كما شاءوا من قدر منقولاً من قدرت الشيء.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ما يشبه الزنجبيل في الطعم وكانت العرب يستلذون

الشراب الممزوج به ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساعها، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسيل، ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد به أن ينفي عنها لدغ الزنجيل ويصفها بنقيضه، وقيل أصله سل سبيلاً فسميت به كتابط شراً وانه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا (20) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ أَسَاوِرٌ مِنْ ذَهَبٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25)﴾

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ من صفاء ألوانهم وانبثاثهم في مجالسهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ﴾ ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر لأنه عام معناه إن بصرك أينما وقع. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً، وفي الحديث «أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه» هذا وللعارف أكبر من ذلك وهو أن تتقش نفسه بجلايا الملك وخفايا الملكوت، فيستضيء بأنوار قدس الجبروت.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ يعلوهم ثياب الحرير الخضر ما رق منها وما غلظ، ونصبه على الحال من هم في عليهم أو «حسبتهم»، أو «ملكاً» على تقدير مضاف أي وأهل ملك كبير عاليهم، وقرأ نافع ﴿عَالِيَهُمْ﴾ وحمزة بالرفع على أنه خبر «ثياب». وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿خُضَرٌ﴾ بالجر حملاً على «سُدُوسٍ» بالمعنى فإنه اسم جنس، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفاً على «ثياب»، وقرأهما حفص وحمزة والكسائي بالرفع، وقرئ «وَإِسْتَبْرَقٌ» بوصل الهمزة والفتح على أنه استعمل من البريق جعل علماً لهذا النوع من الثياب. ﴿وَحُلُوءٌ أَسَاوِرٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ عطف على «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ» ولا يخالفه قوله «أَسَاوِرٌ مِنْ ذَهَبٍ» لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض، فإن حلي أهل الجنة تختلف باختلاف أعمالهم، فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوت الذهب والفضة، أو حال من الضمير في «عَالِيَهُمْ» بإضمار قد، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذلك للمخدومين. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يريد به نوعاً آخر يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند سقيه إلى الله عز وجل، ووصفه بالطهورية فإنه يظهر شاره عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق، فيتجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلاقائه باقياً ببقائه، وهي منتهى درجات الصديقين ولذلك ختم بها ثواب الأبرار.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْ جَزَاءً﴾ على إضمار القول والإشارة إلى ما عد من ثوابهم. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ مجازى عليه غير مضيع.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ مفرقاً منجماً لحكمة اقتضته، وتكرير الضمير مع أن مزيد لاختصاص التنزيل به.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرتك على كفار مكة وغيرهم. ﴿وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفر الداعي لك إليه، وأو للدلالة على أنهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به والقسم باعتبار ما يدعونه إليه، فإن ترتب النهي على الوصفين مشعر أنه

لهما وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإثم والكفر. فإن مطاوعتهما فيما ليس بإثم ولا كفر غير محظور.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وذاوم على ذكره أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصل يتناول وقتيهما.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)﴾

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصل له تعالى، ولعل المراد به صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتهجد له طائفة طويلة من الليل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أمامهم أو خلف ظهورهم. ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعار من الثقل الباهظ للحامل، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)﴾

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ وإذا شئنا أهلكتناهم و ﴿بَدَلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ في الخلقة، وشدة الأسر يعني النشأة الثانية ولذلك جيء بـ ﴿إِذَا﴾ أو بدلنا غيرهم ممن يطيع ﴿وَإِذَا﴾ لتحقيق القدرة وقوة الداعية.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارة إلى السورة أو الآيات القريبة، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ تقرب إليه بالطاعة.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما تشاءون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئكم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿يشاءون﴾ بالياء. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهل كل أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة. ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نصب ﴿الظالمين﴾ بفعل يفسره ﴿أعد لهم﴾ مثل أوعد وكافاً ليطابق الجملة المعطوف عليها، وقرئ بالرفع على الابتداء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريراً».



[مكية وآياتها خمسون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَأَلْصَقَتْ عَصْفًا (2) وَالنَّشْرِ نَشْرًا (3) فَأَلْفَقَتْ فَرْقًا (4) فَأَلْمَلَقَتْ ذِكْرًا (5) عَذْرًا أَوْ نَذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (7) فَإِذَا الْبُجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَلَيْلٌ يُومِذُ لِّلْمُكْذِبِينَ (15) أَلَمْ تَكُنْ لِّلْأَوَّلِينَ (16)﴾

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أقسام بطوائف من الملائكة أرسلهن الله تعالى بأوامره متتابعة. فعصفن عصف الرياح في امتثال أمره، ونشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالجهل بما أوحين من العلم، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً عذراً للمحققين ونذراً للمبطلين، أو بآيات القرآن المرسله بكل عرف إلى محمد عليه الصلاة والسلام، فعصفن سائر الكتب والأديان بالنسخ ونشرن آثار الهدى والحكم في الشرق والغرب، وفرقن بين الحق والباطل فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين. أو بالنفوس الكاملة المرسله إلى الأبدان لاستكمالها فعصفن ما سوى الحق ونشرن أثر ذلك في جميع الأعضاء، ففرقن بين الحق بذاته والباطل في نفسه فيرون كل شيء هالِكاً إلا وجهه، فألقين ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنة إلا ذكر الله تعالى. أو برياح عذاب أرسلن فعصفن، ورياح رحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن فألقين ذكراً أي تسبين له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها ذكر الله تعالى وتذكر كمال قدرته، وعرفاً إما نقيض النكر وانتصابه على العلة أي أرسلن للإحسان والمعروف، أو بمعنى المتتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحال.

﴿عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ مصدران لعذر إذا محا الإساءة وأنذر إذا خوف، أو جمعان لعذير بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإنذار، أو بمعنى العاذر والمنذر، ونصبهما على الأولين بالعلية أي ﴿عَذْرًا﴾ للمحققين ﴿أَوْ نَذْرًا﴾ للمبطلين، أو البدل من ﴿ذِكْرًا﴾ على أن المراد به الوحي أو ما يعم التوحيد والشرك والإيمان والكفر وعلى الثالث بالحالية، وقراءهما أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص بالتخفيف.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ﴾ جواب القسم ومعناه أن الذي توعدونه من مجيء القيامة كائن لا محالة.

﴿فَإِذَا الْبُجُومُ طُمِسَتْ﴾ محقت أو أذهب نورها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ صدعت.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ﴾ كالحب ينسف بالمنسف.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ﴾ عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنه لا يتعين لهم قبله، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره، وقرأ أبو عمرو «وقت» على الأصل.

﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي يقال لأي يوم أخرت، وضرب الأجل للجمع وهو تعظيم لليوم وتعجيب من هوله، ويجوز أن يكون ثاني مفعولي ﴿أُفْتُت﴾ على أنه بمعنى أعلمت.

﴿لَيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بيان ليوم التأجيل.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي بذلك، و ﴿ويل﴾ في الأصل مصدر منصوب بإضمار فعله عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلك للمدعو عليه، و ﴿يومئذ﴾ ظرفه أو صفته.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوح وعاد وشمود، وقرىء ﴿نهلك﴾ من هلكه بمعنى أهلكه.

﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَايِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا (27) ﴿

﴿ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي ﴿ثم﴾ نحن ﴿ننعمهم﴾ نظراءهم ككفار مكة، وقرىء بالجزم عطفًا على ﴿نهلك﴾ فيكون ﴿الآخرين﴾ المتأخرين من المهلكين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل. ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل من أجرم.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه فليس تكريرًا، وكذا إن أطلق التكذيب أو علق في الموضوعين بواحد، لأن الـ ﴿ويل﴾ الأول لعذاب الآخرة وهذا للإهلاك في الدنيا، مع أن التكرير للتوكيد حسن شائع في كلام العرب.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ نطفة مذرة ذليلة.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ هو الرحم.

﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ إلى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ على ذلك، أو فقدرناه ويدل عليه قراءة نافع والكسائي بالتشديد. ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ نحن. ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ كافتة اسم لما يكفت أي يضم ويجمع كالضمام والجماع اسم لما يضم ويجمع، أو مصدر نعت به أو جمع كافت كصائم وصيام، أو كفت وهو الوعاء أجرى على الأرض باعتبار أقطارها.

﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ منتصبان على المفعولية وتنكيرهما للتفخيم، أو لأن أحياء الإنس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات، أو الحالية من مفعوله المحذوف للعلم به وهو الإنس، أو بنجعل على المفعولية و ﴿كفَاتًا﴾ حال أو الحالية فيكون المعنى بالأحياء ما ينبت وبالأَمْوَاتِ ما لا ينبت.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَايِخَاتٍ﴾ جبالاً ثوابت طوالاً والتنكير للتفخيم، أو الإشعار بأن فيها ما لم يعرف ولم ير ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾ بخلق الأنهار والمنابع فيها.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (28) أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُتِبَ بِهِ كُذِّبُونَ (29) أَطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظِلِّيلٍ وَلَا

يُغْنِي مِنَ الْلَهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ (33) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (35) ﴿

﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النعم.

﴿انْطَلِقُوا﴾ أي يقال لهم انطلقوا. ﴿إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب.

﴿انْطَلِقُوا﴾ خصوصاً وعن يعقوب ﴿انْطَلِقُوا﴾ على الإخبار عن امتثالهم للأمر اضطراراً. ﴿إِلَى ظِلٍّ﴾ يعني ظل دخان جهنم كقوله تعالى: ﴿وِظْلٍ مِنْ يَحْمُومٍ﴾. ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لعظمه كما ترى الدخان العظيم يتفرق. تفرق الدواب، وخصوصية الثلاث إما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحس والخيال والوهم، أو لأن المؤدي إلى هذا العذاب هو القوة الواهمة الحالية في الدماغ والغضبية التي في يمين القلب والشهوية التي في يساره، ولذلك قيل شعبة تقف فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره. ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ تهكم بهم ورد لما أوهم لفظ الـ ﴿ظل﴾. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَهَبِ﴾ وغير مغن عنهم من حر الاله شباً.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي كل شرارة ﴿كالقصر﴾ في عظمها، ويؤيده أنه قرىء «بشرار»، وقيل هو جمع قصرة وهي الشجرة الغليظة، وقرىء ﴿كالقصر﴾ بمعنى القصور كرهن ورهن و ﴿كالقصر﴾ جمع قصرة كحاجة وحوج، و «كالصر» جمع قصرة وهي أصل العنق والهاء للشعب.

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل. ﴿صُفْرٌ﴾ فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر، وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿جِمَالَةً﴾ وعن يعقوب ﴿جِمَالَاتٌ﴾ بالضم جمع جمالة، وقد قرىء بها وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة شبهه بها في امتداده والتفافه.

﴿وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي بما يستحق فإن النطق بما لا ينفع كلا نطق، أو بشيء من فرط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف، وقرىء بنصب الـ ﴿يَوْمٌ﴾ أي هذا الذي ذكر واقع يومئذ.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (36) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40) إِنَّ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي ظُلُلٍ وَعِیُونٍ (41) وَفُوكَهُ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُؤُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45) كُؤُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ (46) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَيَأْتِي حَرِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُوتُ (50) ﴿

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عطف ﴿فيعتذرون﴾ على ﴿يؤذن﴾ ليدل على نفي الإذن والاعتذار عقبيه مطلقاً، ولو جعله جواباً لدل على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن فأوهم ذلك أن لهم عنراً لكن لا يؤذن لهم فيه.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل. ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ تقرير وبيان للفصل.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب.  
 ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك لأنهم في مقابلة المكذبين. ﴿فِي ظِلَالٍ وَغُيُونٍ﴾.  
 ﴿وَفَوَاحٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مستقرون في أنواع الترفه.  
 ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مقولاً لهم ذلك.  
 ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة.  
 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يحض لهم العذاب المخلد ولخصوصهم الثواب المؤبد.  
 ﴿كُلُوا وَامْتَنِعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ حال من المكذبين أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم المقيم.  
 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل.  
 ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا﴾ أطيعوا وأخضعوا أو صلوا أو اركعوا في الصلاة. إذ روي: أنه نزل حين أمر رسول الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة فقالوا: لا نحبي أي لا نركع فإنها مسبة. وقيل هو يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يمثلون واستدل به على أن الأمر للوجوب وأن الكفار مخاطبون بالفروع.  
 ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ قَبَائِي حَدِيثٍ بَعْدَهُ بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجز في ذاته مشتمل على الحجج الواضحة والمعاني الشريفة.  
 عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين».



### سورة النبأ

[مكية، وآياتها إحدى وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (1) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَعَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) قُلْ كَلَّا سَعَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنَدًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) ﴿

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصله عما فحذف الألف لما مر، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه كأنه لفخامته خفي جنسه فيسأل عنه، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم، أو يسألون



الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين عنه استهزاء كقولهم: يتداعونهم ويتراءونهم أي يدعونهم ويرونهم، أو للناس.

﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ بيان لشأن المفخم أو صلة ﴿يتساءلون﴾ و ﴿عَمَّ﴾ متعلق بمضمر مفسر به، ويدل عليه قراءة يعقوب: «عمه».

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بجزم النفي والشك فيه، أو بالإقرار والإنكار.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع عن التساؤل ووعيد عليه.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرير للمبالغة و ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد، وقيل الأول عند النزع والثاني في القيامة، أو الأول للبعث والثاني للجزاء. وعن ابن عامر «ستعلمون» بالثناء على تقدير قل لهم ستعلمون.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تذكير ببعض ما عاينوا من عجائب صنعه الدالة على كمال قدرته ليستدلوا بذلك على صحة البعث كما مر تقريره مراراً، وقرئ «مهداة» أي أنها لهم كالمهد للصبي مصدر سمي به ما يمهد لينوم عليه.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً عن الإحساس والحركة استراحة للقوى الحيوانية وإراحة لكلالها، أو موتاً لأنه أحد التوفيين ومنه المسبوت للميت، وأصله القطع أيضاً.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ غطاء يستتر بظلمته من أراد الاختفاء.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقلبون فيه لتحصيل ما تعيشون به، أو حياة تتبعثون فيها عن نومكم.

﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سبع سموات أقوياء محكمات لا يؤثر فيها مرور الدهور.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألئاً وقادراً من وهجت النار إذا أضاءت، أو بالغاً في الحرارة من الوهج وهو الحر والمراد الشمس.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَعَلْنَا الْفَأَافَا (16) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا

(17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ فَأَنُوتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ

جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَنَابًا (22) لِّيُثَبِّتُ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا

وَعَسَافًا (25)﴾

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحاب إذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمر كقولك: احصد

الزرع إذا حان له أن يحصد، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض، أو من الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، أو الرياح ذوات الأعاصير، وإنما جعلت مبدأ للإنزال لأنها تنشئ السحاب وتدرأ خلافه، ويؤيده أنه قرئ «بالمعصرات». «مَاءٌ ثَجَّاجًا» منصّباً بكثرة يقال ثجج ثججاً وفي الحديث «أفضل الحجج المعج والنج» أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى، وقرئ «ثججاً» ومثاجج الماء مصابه.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ما يقتات به وما يعتلف من التبن والحشيش.

﴿وَجَنَّتِ أَلْفَافًا﴾ ملتفة بعضها ببعض جمع لف كجذع. قال:

جَنَّةٌ لِسَفٍّ وَعَيْشٌ مُغْدَقٌ وَتَدَامَى كُلُّهُمْ يَبْضُ زَهْرٌ  
أو ليف كشریف أو لف جمع لقاء كخضراء وخضر وأخضر أو ملتفة بحذف الزوائد.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ﴾ في علم الله تعالى أو في حكمه. ﴿مِيقَاتًا﴾ حدًا تَوَقَّتْ به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًا للخلافت يتنهون إليه.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ بدل أو بيان ليوم الفصل. ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ جماعات من القبور إلى المحشر. روي «أنه ﷺ سئل عنه فقال: يحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون يسبحون على وجوههم، وبعضهم عمي وبعضهم صم بكم، وبعضهم يمشون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم فيسيل القيح من أفواههم يتقذروهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلوبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد تننًا من الجيف، وبعضهم ملبسون جبابًا سابغة من قطران لازقة بجلودهم» ثم فسره بالقتات وأهل السحت وأكلة الربا والجائرين في الحكم والمعجبيين بأعمالهم، والعلماء الذين خالف قولهم عملهم، والمؤذين جيرانهم والساعين بالناس إلى السلطان، والتابعين للشهوات المانعين حق الله تعالى، والمتكبرين الخيلاء.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ وشققت وقرأ الكوفيون بالتخفيف. ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ فصارت من كثرة الشقوق كأن الكل أبواب أو فصارت ذات أبواب.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي في الهواء كالهباء. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ مثل سراب إذ ترى على صورة الجبال ولم تبق على حقيقتها لتفتت أجزائها وانبثائها.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار، أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مجازهم عليها، كالمضمار فإنه الموضع الذي تضمّر فيه الخيل، أو مجدة في ترصد الكفرة لثلا يشذ منها واحد كالمطمان، وقرئ «أن» بالفتح على التعليل لقيام الساعة. ﴿لِلطَّاغِينَ مَابًا﴾ مرجعًا ومأوى.

﴿لَا يَبْشُرُ فِيهَا﴾ وقرأ حمزة وروح «البشين» وهو أبلغ. ﴿أَحْقَابًا﴾ دهورًا متتابعة، وليس فيها ما يدل على خروجهم منها إذ لو صح أن الحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة، فليس فيه ما يتقضى تناهي تلك الأحقاب لجواز أن يكون المراد أحقابًا مترادفة كلما مضى حقب تبعه آخر، وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطق الدال على خلود الكفار، ولو جعل قوله:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾ حالًا من المستكن في ﴿لَا يَبْشُرُ﴾ أو نصب ﴿أَحْقَابًا﴾ بـ ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ احتمل أن يلبثوا فيها أحقابًا غير ذاتين إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبدلون جنسًا آخر من العذاب، ويجوز أن يكون جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأ الرزق، وحقب العام إذا قل مطره وخيره فيكون حالًا بمعنى لا يبتشرون فيها حقبين، وقوله ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ تفسير له والمراد بالبرد ما يروحهم وينفس عنهم حر النار، أو النوم وبالعساق ما يفسق أي يسيل من صديدهم، وقيل الزمهرير وهو مستثنى من البرد إلا أنه أخر ليتوافق رؤوس الآي، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (26) إِيَّاهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَرِيَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا (33) وَكَأْسًا

وَهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (35) جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (36) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37) ﴿

﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ أي جوزوا بذلك جزاء ذا وفاق لأعمالهم، أو موافقاً لها أو وافقها وفاقاً، وقرئ «وفاقاً» فعال من وفاقه كذا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ بيان لما وافقه هذا الجزاء.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ تكذيباً وفعال بمعنى تفعيل مطرد شائع في كلام الفصحاء. وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى الكذب كقوله:

فَصَدَقْتَهَا وَكَذَّبْتَهَا وَالْمَرْءُ يُفَعُّهُ كِذَابُهُ

وإنما أقيم مقام التكذيب للدلالة على أنهم كذبوا في تكذيبهم، أو المكاذبة فإنهم كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون كاذبين عندهم فكان بينهم مكاذبة، أو كانوا مبالغين في الكذب مبالغة فيه، وعلى المعنيين يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين، ويؤيده أنه قرئ «كذاباً» وهو جمع كاذب، ويجوز أن يكون للمبالغة فيكون صفة للمصدر أي تكذيباً مفرطاً كذبه.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ وقرئ بالرفع على الابتداء. «كتاباً» مصدر لأحصيناه فإن الأحصاء والكتابة يتشاركان في معنى الضبط أو لفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوباً في اللوح، أو صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله:

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ومجيئه على طريقة الالتفات للمبالغة. وفي الحديث «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار».

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوزاً أو موضع فوز.

﴿حَدَائِقٍ وَأَعْنَابًا﴾ بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة بدل من «مفازاً» بدل الاشتمال والبعض.

﴿وَكَوَاعِبُ﴾ نساء فلكت ثديهن «أثراباً» لدات «وكأساً وهَاقاً» ملأنا وأدحق الحوض ملأه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهِ لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ وقرأ الكسائي بالتخفيف أي كذباً أو مكاذبة، إذ لا يكذب بعضهم بعضاً.

﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ﴾. بمقتضى وعده. «عطاءً» تفضلاً منه إذ لا يجب عليه شيء، وهو بدل من «جزاء»، وقيل منتصف به نصب المفعول به. «حساباً» كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي، أو على حسب أعمالهم وقرئ «حساباً» أي محسباً كالدرّك بمعنى المدرك.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ربك وقد رفعه الحجازيان وأبو عمرو على الابتداء. «الرحمن» بالجر صفة له وكذا في قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب بالرفع في قراءة أبي عمرو، وفي قراءة حمزة والكسائي بجر الأول ورفع الثاني على أنه خبر محذوف، أو مبتدأ خبره: «لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا» والواو لأهل السموات والأرض أي لا يملكون خطابه، والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب لأنهم مملوكون له على الإطلاق فلا يستحقون عليه اعتراضاً وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (38) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ

اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَثَابًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ تقرير وتوكيد لقوله ﴿لا يملكون﴾، فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذا لم يقدرُوا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه، فكيف يملكه غيرهم و﴿يوم﴾ ظرف لـ ﴿لا يملكون﴾، أو لـ ﴿يتكلمون﴾ و﴿الروح﴾ ملك موكل على الأرواح أو جنسها، أو جبريل عليه السلام أو خلق أعظم من الملائكة.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ﴾ إلى ثوابه. ﴿مَثَابًا﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة، وقربه لتحقيقه فإن كل ما هو آت قريب ولأن مبدأه الموت. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يرى ما قدمه من خير أو شر، و﴿المرء﴾ عام. وقيل هو الكافر لقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾ فيكون الكافر ظاهراً وضع موضع الضمير لزيادة الظم، و﴿ما﴾ موصولة منصوبة ينتظر أو استفهامية منصوبة بـ ﴿قدمت﴾، أي ينظر أي شيء قدمت يده. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو في هذا اليوم فلم أبعث، وقيل يحشر سائر الحيوانات للاقتصاص ثم ترد تراباً فيود الكافر حالها.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة عم سقاها الله برد الشراب يوم القيامة».



### سورة النازعات

[مكية وآياتها خمس أو ست وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّيِّدَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَيْنَا نَلَرْدُدُونَ فِي الْخَافِرَةِ (10) أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا فُخْرَةً (11)﴾

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا فَالسَّيِّدَاتِ سَبْقًا﴾.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾. هذه صفات ملائكة الموت فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غرقاً أي إغراقاً في النزاع، فإنهم ينزعونها من أقاصي الأبدان، أو نفوساً غرقت في الأجساد وينشطون أي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، ويسبحون في إخراجها سبح الغواص الذي يخرج الشيء من أعماق البحر، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، فيدبرون أمر عقابها وثوابها

بأن يهيئها لإدراك ما أعد لها من الآلام واللذات، أو الأوليان لهم والباقيات لطوائف من الملائكة يسبحون في مضيها أي يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به فيديرون أمره، أو صفات النجوم فإنها تنزع من المشرق إلى المغرب غرقاً في التزع بأن تقطع الفلك حتى تنحط في أقصى الغرب، وتنشط من برج إلى برج أي تخرج من نشط الثور إذا خرج من بلد إلى بلد، ويسبحن في الفلك فيسبق بعضها في السير لكونه أسرع حركة فيدبر أمراً نيظ بها، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات، ولما كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة سمي الأولى نزعاً والثانية نشطاً، أو صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أي نزعاً شديداً من إغراق النازع في القوس، وتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيها فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات، أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات فتتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من الكمالات، أو صفات أنفس الغزاة، أو أيديهم تنزع القسي بإغراق السهام وينشطون بالسهم للرمي ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيديرون أمرها، أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعتتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر، وتسبح في حربها فتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر.

أقسم الله تعالى بها على قيام الساعة وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وهو منصوب به والمراد بـ ﴿الراجفة﴾ الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ كالأرض والجبال لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أو الواقعة التي ترجف الأجرام عندها وهي النفخة الأولى.

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ التابعة وهي السماء والكواكب تنشق وتنشر، أو النفخة الثانية. والجملة في موقع الحال.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ شديدة الاضطراب من الوجيف وهي صفة القلوب والخبر:

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها إلى القلوب.

﴿يَقُولُونَ أَيُّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت من قولهم رجع فلان في حافره أي طريقه التي جاء فيها، فحفرها أي أثر فيها بمشييه على النسبة كقوله تعالى: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أو تشبيه القائل بالفاعل وقرىء «في الحفرة» بمعنى المحفورة يقال حفرت أسنانه فحفرت حفراً وهي حفرة.

﴿أَيُّدَا كُنَّا﴾ وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿إِذَا كُنَّا﴾ على الخبر. ﴿عِظَامًا نَاحِرَةً﴾ بالية وقرأ الحجازيان والشامي وحفص وروح ﴿نَحْرَةً﴾ وهي أبلغ.

﴿قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (12) ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾ (13) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (14) هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقَالَ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكَّنِي (18) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (22) فَخَشَرَ فَادَّأَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (26)

﴿قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكدينا بها وهو استهزاء منهم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا يستصعبوها فما هي إلا صيحة واحدة يعني النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها، والساهرة والأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة للتي يجري ماؤها وفي ضدها نائمة، أو لأن سالكيها يسهر خوفاً وقيل اسم لجهنم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أليس قد أتاك حديثه فيسليك على تكذيب قومك وتهدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قد مر بيانه في سورة «طه».

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ على إرادة القول، وقرئ «أن اذهب» لما في النداء من معنى القول.

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الكفر والطغيان، وقرأ الحجازيان ويعقوب «تَزَكَّى» بالتشديد.

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفته. ﴿فَتَخْشَى﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة وهذا كالتفصيل لقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا﴾.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ أي فذهب وبلغ فأراه المعجزة الكبرى وهي قلب العصا حية فإنه كان المقدم والأصل، أو مجموع معجزاته فإنها باعتبار دلالتها كالأية الواحدة.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ فكذب موسى وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقق الأمر.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الطاعة. ﴿يَسْعَى﴾ ساعياً في إبطال أمره أو أدبر بعدما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً في مشيه.

﴿فَخَشَرَ﴾ فجمع السحرة أو جنوده. ﴿فَنَادَى﴾ في المجمع بنفسه أو بمناد.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أعلى كل من يلي أمركم.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أخذاً منكلاً لمن رآه، أو سمعه في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا بالإغراق، أو على كلمته «الآخرة» وهي هذه وكلمته الأولى وهو قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أو للتكنيل فيهما، أو لهما، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً مقدراً بفعله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ لمن كان من شأنه الخشية.

﴿مَّا أَنْتُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَسَهَا (32) مِّنْهَا لَكُم مَّا تَكْنِشُونَ (33) فَإِذَا جَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْكَثِيرَى (34) يَوْمَ يَنْذَرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُورِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39)﴾

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ حَلَقًا﴾ أصعب خلقاً. ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا﴾ ثم بين البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو ثخنها للذهاب في العلو رفيعاً. ﴿فَسَوَّاهَا﴾

فعدلها أو فجعلها مستوية، أو فتممها بما يتم به كمالها من الكواكب والتداوير وغيرها من قولهم: سوى فلان أمره إذا أصلحه.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه من غطش الليل إذا أظلم، وإنما أضافه إليها لأنه يحدث بحركتها. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ وأبرز ضوء شمسها. كقوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها﴾ يريد النهار.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ بسطها ومهددا للسكنى.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون. ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ ورعيها وهو في الأصل لموضع الرعي، وتجريد الجملة عن العاطف لأنها حال بإضمار قد أو بيان للدحو.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أثبتها وقرىء ﴿وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ بالرفع على الابتداء، وهو مرجوح لأن العطف على فعلية.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَعْمَالِكُمْ﴾ تمتيعاً لكم ولمواشيكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ﴾ الداهية التي تطم أي تعلو على سائر الدواهي. ﴿الْكُبْرَى﴾ التي هي أكبر الطامات وهي القيامة، أو النفخة الثانية أو الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة، وهو بدل من ﴿فَإِذَا جَاءَتْ﴾ و ﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ﴾ وأظهرت. ﴿لَمَن يَرَى﴾ لكل راء بحيث لا تخفى على أحد، وقرىء ﴿وَبَرَزَتْ﴾ و ﴿لَمَن رَأَى﴾ و ﴿لَمَن تَرَى﴾ على أن فيه ضمير الجحيم كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾. أو أنه خطاب الرسول ﷺ أي لمن تراه من الكفار، وجواب ﴿فَإِذَا جَاءَتْ﴾ محذوف دل عليه ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ أو ما بعده من التفضيل.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ حتى كفر.

﴿وَأَنزَلَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فأنهمك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ هي مأواه واللام فيه سادة مسد الإضافة للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغى، وهي فصل أو مبتدأ. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ لعلمه بأنه مرد.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (41) يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْهَلَاً

(44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى (46)

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ليس لها سواها مأوى.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أي إقامتها وإثباتها، أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة وهو حيث تنتهي إليه وتستقر فيه.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم أي ما أنت من ذكرها لهم، وتبيين وقتها في شيء فإن ذكرها لا يزيدهم إلا غيأ. ووقتها مما استأثر الله تعالى بعلمه. وقيل ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم و ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ مستأنف، ومعناه أنت ذكر من ذكرها أي علامة من أشرائها، فإن إرساله خاتماً للأنبياء أماره من أماراتها، وقيل إنه متصل بسؤالهم والجواب.

﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ أي منتهى علمها.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ إنما بعثت لإنذار من يخاف هولها، وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لأنه المنتفع به، وعن أبي عمرو ومنذر بالتنوين والإعمال على الأصل لأنه بمعنى الحال.

﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا﴾ في الدنيا أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي عشية يوم أو ضحاه كقوله ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ ولذلك أضاف الضحى إلى الـ ﴿عَشِيَّةً﴾ لأنهما من يوم واحد.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النازعات كان ممن حبسه الله في القيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة».



[مكية وآياتها ثنتان وأربعون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى (4) أَلَمْ يَنْسَخْ (5) فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9)﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾. ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ روي: أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت، فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، واستخلفه على المدينة مرتين. وقرئ ﴿عَبَسَ﴾ بالتشديد للمبالغة و﴿أَنْ جَاءَهُ﴾ علة لـ ﴿تَوَلَّى﴾، أو ﴿عبس﴾ على اختلاف المذهبين، وقرئ ﴿أَنْ﴾ بهمزة وبالف بينهما بمعنى ألتن جاءه الأعشى فعل ذلك، وذكر الأعشى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله ﷺ بالقوم والدلالة على أنه أحق بالرافة والرفق، أو لزيادة الإنكار كأنه قال: تولى لكونه أعمى كالالتفات في قوله:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك. وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى﴾ أو يتعظ فتتنفعه موعظتك، وقيل الضمير في ﴿لعله﴾ للكافر أي أنك طمعت في تزكية بالإسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره، فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرأ عاصم فتتنفعه بالنصب جواباً للعل.

﴿أَمَّا مَنْ انْشَغَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ تتعرض له بالإقبال عليه وأصله تصدى، وقرأ ابن كثير ونافع



﴿تَصَدَّى﴾ بالإدغام وقرىء. ﴿تَصَدَّى﴾ أي تعرض وتدعى إلى التصدي.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِيَّ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عن أسلم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يسرع طالباً للخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله أو أذية الكفار في إتيانك، أو كيوه الطريق لأنه أعمى لا قائد له.

﴿فَأَن تَعَنَّ لَهُنَّ (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (12) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (13) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي

سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ

(20) ثُمَّ أَمَانَةً فَأَفْجَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ (23) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ

صَبًّا (25)﴾

﴿فَأَن تَعَنَّ تَلَهَّى﴾ تتشاغل، يقال لها عنه والتهى و ﴿تلهى﴾، ولعل ذكر التصديق والتلهي للإشعار

بأن العتاب على اهتمام قلبه بالغني وتلهيه عن الفقير، ومثله لا ينبغي له ذلك.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن المعاتب عليه أو عن معاودة مثله. ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

﴿فَمِنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ حفظه أو اتعظ به والضميران للقرآن، أو العتاب المذكور وتأنيت الأول لتأنيث خبره.

﴿فِي صُحُفٍ﴾ مثبتة فيها صفة لتذكرة، أو خبر ثان أو خبر لمحدوف. ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ عند الله.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدر. ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كنية من الملائكة أو الأنبياء ينتسخون الكتب من اللوح أو الوحي، أو سفراء يسفرون

بالوحي بين الله تعالى ورسله، أو الأمة جمع سافر من السفر، أو السفارة والتركيب للكشف يقال سفرت المرأة إذا كشفت وجهها.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم. ﴿بَرَرَةٍ﴾ اتقياء.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ دعاه عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره

يدل على سخط عظيم وذم بليغ.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بيان لما أنعم عليه خصوصاً من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب

عنه بقوله:

﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ فهيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال، أو ﴿فقدَّره﴾ أطواراً إلى أن تم

خلقته.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ثم سهل مخرجه من بطن أمه بأن فتح فوهة الرحم وألهمه أن ينتكس، أو ذلل له

سبيل الخير والشر ونصب السبيل بفعل يفسره الظاهر للمبالغة في التيسير، وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام، وفيه على المعنى الأخير إيماء بأن الدنيا طريق والمقصد غيرها ولذلك عقبه بقوله:

﴿ثُمَّ أَمَانَةً فَأَفْجَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ وعد الإماتة والإقبال في النعم لأن الإماتة وصلة في الجملة إلى

الحياة الأبدية واللذات الخالصة والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع، وفي ﴿إِذَا شَاءَ﴾ إشعار بأن وقت

النشور غير متعين في نفسه ، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى .

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان بما هو عليه . ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ لم يقض بعد من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله بأمره ، إذ لا يخلو أحد من تقصير ما .

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إتياع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية .

﴿أَنَا صَبِينَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام ، وقرأ الكوفيون بالفتح على البدل منه بدل الاشتمال .

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (33) يَوْمَ يَبْعَثُ الرَّءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُخُوهُ وَأَبِيهِ (35) وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وَخُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَخُجُوهُ يَوْمَئِذٍ غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (42)﴾

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات أو بالكراب ، وأسند الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب .

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير .

﴿وَعَيْنًا وَقَضْبًا﴾ يعني الرطبة سميت بمصدر قضبه إذا قطعه لأنها تقضب مرة بعد أخرى .

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ عظاماً وصف به الحدائق لتكاثرها وكثرة أشجارها ، أو لأنها ذات أشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب .

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ومرعى من أب إذا أم لأنه يؤم ويتجمع ، أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيئ للرعي ، أو فاكهة يابسة تؤوب للشتاء .

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ فإن الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف .

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ أي النفخة وصفت بها مجازاً لأن الناس يصخون لها .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُ الرَّءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ﴾ لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه ، أو للحنذر من مطالبهم بما قصر في حقهم وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة كأنه قيل : يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبه وبنيه .

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به ، وقرئ «يعنيه» أي يهيمه .

﴿وَخُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ مضيئة من إسفار الصبح .

﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ لما ترى من النعيم .

﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار وكدورة .

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يَغشاها سواد وظلمة .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الذين جمعوا إلى الكفر الفجور ، فلذلك يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة .

قال النبي ﷺ «من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر» .

## سورة التكوير

[مكية وآياتها تسع وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِّلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) ﴾

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ لفّت من كُوِّرَت العمامة إذا لففتها بمعنى رفعت لأن الثوب إذا أريد رفعه لف، أو لف ضوءها فذهب انبساطه في الآفاق وزال أثره، وألقيت عن فلکها من طعنه فكوره إذا ألقاه مجتمعاً والتركيب للإرادة والجمع وارتفاع الشمس بفعل يفسره ما بعدها أولى لأن إذا الشرطية تطلب الفعل.

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ انقضت قال: أَبْصِرْ خَرْبَانَ قَضَاءً فانكدر. أو أظلمت من كدرت الماء فانكدر.

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ عن وجه الأرض أو في الجو.

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ ﴾ النوق اللواتي أتى على حملهن عشرة أشهر جمع عشاء. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت مهملة، أو السحائب عطلت عن المطر، وقرئ بالتخفيف.

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ جمعت من كل جانب أو بعثت للقصاص ثم ردت تراباً، أو أميتت من قولهم إذا أجمفت السنة بالناس حشرتهم، وقرئ بالتشديد.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بالتخفيف.

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قرنت بالأبدان أو كل منها بشكلها، أو بكتابها وعملها أو نفوس المؤمنين بالهور ونفوس الكافرين بالشیاطين.

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُيِّلَتْ ﴾ المدفونة حية وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق، أو لحوق العار بهم من أجلهن.

﴿ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ تبيكناً لوائدها كتبكيت النصرارى بقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقرئ «سألت» أي خياصمت عن نفسها وسألت، وإنما قيل ﴿قتلت﴾ على الإخبار عنها وقرئ ﴿قتلت﴾ على الحكاية.

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَبَاهُ سُيِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْفِلَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (14) فَلَا أَقِيمُ بِالْخَيْسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (15) وَاللَّيْلُ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) ﴾

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحف الأعمال فإنها تطوى عند الموت وتنتشر وقت الحساب. وقيل ﴿نشرت﴾ فرقت بين أصحابها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمة والكسائي بالتشديد للمبالغة في النشر، أو لكثرة الصحف أو شدة التطاير.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، وقرئ ﴿قُشِطَتْ﴾ واعتقاب القاف والكاف كثير.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً وقرأ نافع وابن عامر وحفص ورويس بالتشديد.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ قربت من المؤمنين. ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ وإنما صح والمذكور في سياقها اثنا عشرة خصلة ست منها في مبادئ قيام الساعة قبل فناء الدنيا وست بعده، لأن المراد زمان متسع شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها، و ﴿نَفْسٌ﴾ في معنى العموم كقولهم ثمرة خير من جرادة.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ بالكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر، وهي ما سوى النيرين من الكواكب السيارات ولذلك وصفها بقوله:

﴿الْحَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ أي السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس من كنس الوحش إذا دخل كناسه، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أقبل ظلامه أو أدبر وهو من الأضداد يقال عسعس الليل وسعسع إذا أدبر.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي أضاء غبرته عند إقبال روح ونسيم.

﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني جبريل فإنه قاله عن الله تعالى.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله شديد القوى. ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ عند الله ذي مكانة.

﴿مُطَاعٍ﴾ في ملائكته. ﴿ثُمَّ أَمِينٍ﴾ على الوحي، وثم يحتمل اتصاله بما قبله وما بعده، وقرئ ﴿ثُمَّ﴾ تعظيماً للأمانة وتفضيلاً لها على سائر الصفات.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ كما تبهته الكفرة واستدل بذلك على فضل جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ، وهو ضعيف إذ المقصود منه نفي قولهم ﴿إنما يعلمه بشر﴾ افترى على الله كذباً أم به جنة لا تعداد فضلها والموازنة بينهما.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ

(26) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29) ﴿

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ على ما يخبره من الموحى إليه وغيره من الغيوب. ﴿بِضَنِينٍ﴾ بمتهم من الظنة، وهي التهمة، وقرأ نافع وعاصم وحمة وابن عامر ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد من الضن وهو البخل أي لا يبخل بالتبليغ والتعليم، والضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، والطاء من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يقول بعض المسترقة للسمع، وهو نفي لقولهم إنه لكهانة وسحر.

﴿فَإِنَّ تَذْهِبُونَ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر الرسول ﷺ والقرآن، كقولك لتارك الجادة: أين تذهب.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ تذكير لمن يعلم.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بتحري الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المتفعون بالتذكير.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة يا من يشاؤها. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت أن يشاء الله مشيئكم فله الفضل والحق عليكم باستقامتكم. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق كله.

قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة التكويد أعاده الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته».



[مكية وآياتها تسع عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض فصار الكل بحراً واحداً.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قلب ترابها وأخرج موتاها. وقيل إنه مركب من بعث وراء الإثارة كبسمل ونظيره بحثر لفظاً ومعنى.

﴿عَلِمْتَ نَفْسَ مَا قَدَّمْتَ﴾ من عمل أو صدقة. ﴿وَأَخَّرْتَ﴾ من سيئة أو تركت، ويجوز أن يراد بالتأخير التضييع وهو جواب ﴿إِذَا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي شيء خدعك وجراك على عصيانه، وذكر ﴿الكريم﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم وتسوية الموالى والمعادى والمطيع والمعاصى، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام والإشعار بما به يغره الشيطان، فإنه يقول له افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجِد في طاعته لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَّلَكَ﴾ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿8﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿9﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ

﴿10﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿11﴾ يَتْلُمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿12﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿13﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿14﴾

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم منبهة على أن من قدر على ذلك أولاً قدر عليه ثانياً، والتسوية جعل الأعضاء سليمة مسواة معدة لمنافعها، والتعديل جعل البنية معدلة متناسبة الأعضاء، أو معدلة بما تسعدها من القوى. وقرأ الكوفيون ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بالتخفيف أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت، أو فصرك عن خلقه غيرك وميزك بخلقة فارقت خلقة سائر الحيوان.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركبك في أي صورة شاءها، و ﴿مَا﴾ مزيدة وقيل شرطية، و ﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابها و ﴿الظرف﴾ صلة ﴿عدلك﴾، وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيان لعدلك.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ إضراب إلى بيان ما هو السبب الأصلي في اغترارهم، والمراد ﴿بالذين﴾ الجزء أو الإسلام.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيق لما يكذبون به ورد لما يتوقعون من التسامح والإهمال، وتعظم الكتب بكونهم كراماً عند الله لتعظيم الجزء.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ بيان لما يكتبون لأجله.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿15﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿16﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿17﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ

﴿18﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿19﴾﴾

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يقاسون حرها. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾. لخلودهم فيها. وقيل معناه وما يغيبون عنها قبل ذلك إذ كانوا يجدون سموها في القبور.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ تعجيب وتفخيم لشأن الـ ﴿يوم﴾، أي كنه أمره بحيث لا تدركه دراية دار.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ تقرير لشدة هوله وفخامة أمره إجمالاً، ورفع ابن كثير والبصريان ﴿يوم﴾ على البدل من ﴿يوم الدين﴾، أو الخبر المحذوف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة، وبعدد كل قبر حسنة». والله أعلم.



[مختلف فيها وآياتها ست وثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (1) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (9) ﴿

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس طفيف أي حقير. روي أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوه، وفي الحديث «خمس بخمس ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشأ فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشأ فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر».

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا اکتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وإنما أبدل ﴿على﴾ بمن للدلالة على أن اکتيالهم لما لهم على الناس، أو اکتيال يتحامل فيه عليهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا الناس أو وزنوا لهم. ﴿يُخْسِرُونَ﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: وَلَقَدْ جَنَيْتَكَ أَكْمَوْا وَعَسَاقَلَا. بمعنى جنيت لك أو كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه، ولا يحسن جعل المنفصل تأكيداً للمتصل فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع، لا في المباشرة وعدمها ويستدعي إثبات الألف بعد الواو كما هو خط المصحف في نظائره.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ فإن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن يتيقنه وفيه انكار وتعجيب من حالهم.

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظمه لعظم ما يكون فيه ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ نصب بمبعوثون أو بدل من الجار والمجرور ويؤيده القراءة بالجر ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لحكمه.

وفي هذا الانكار والتعجيب وذكر الظن ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله، والتعبير عنه برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم. ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقلين كما قال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مسطور بين الكتابة أو معلم بعلم من رآه أنه لا خير فيه، فعيل من السجن لقب به الكتاب لأنه سبب الحبس، أو لأنه مطروح كما قيل: تحت الأرضين في مكان وحش،

وقيل هو اسم مكان والتقدير ما كتاب السجين، أو محل كتاب مرقوم فحذف المضاف.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْكَذِبِينَ (10) الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ (11) وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُنَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ (18) وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20)﴾

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق أو بذلك.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ صفة مخصصة أو موضحة أو دامة.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن النظر غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الإعادة. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في الشهوات المخدجة بحيث أشغلتها عما وراءها وحملته على الإتيان لما عدها.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لم تنفعه دلائل العقل.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن هذا القول. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رد لما قالوه وبيان لما أدى بهم إلى هذا القول، بأن غلب عليهم حب المعاصي بالانهماك فيها حتى صار ذلك صدىً على قلوبهم فعمى عليهم معرفة الحق والباطل. فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات كما قال عليه الصلاة والسلام «إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نقطة سوداء حتى يسود قلبه» والرين الصدا، وقرأ حفص ﴿بل ران﴾ بإظهار اللام.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الرائن. ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يرونه بخلاف المؤمنين ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة من يمنع عن الدخول على الملوك، أو قدر مضافاً مثل رحمة ربهم، أو قرب ربهم.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ليدخلون النار ويصلون بها.

﴿ثُمَّ يُنَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ تقوله لهم الزبانية.

﴿كَلَّا﴾ تكرير ليعقب بوعد الأبرار كما عقب الأول بوعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور والإيفاء بر، أو ردع عن التكذيب. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ﴾.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ الكلام فيه ما مر في نظيره.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ (25) خَتَمَهُمْ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَنِزَاجُهُمْ يَنْزِجُهُمْ (27)﴾

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يحضرونه فيحفظونه، أو يشهدون على ما فيه يوم القيامة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على الأسرة في الحجال. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما يسرده من النعم والمتفرجات.



﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التمتع وبريقه، وقرأ يعقوب ﴿تعرف﴾ على البناء للمفعول و ﴿نَضْرَةُ﴾ بالرفع.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيٍّ﴾ شراب خالص. ﴿مَخْتُومٌ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي مختوم أوانيه بالمسك مكان الطين، ولعله تمثيل لنفاسته، أو الذي له ختام أي مقطع هو رائحة المسك، وقرأ الكسائي ﴿خَاتَمَهُ﴾ بفتح التاء أي ما يختم به ويقطع. ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ يعني الرحيق أو النعيم. ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ فليرتغب المرتغبون.

﴿وَمِزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ﴾ علم لعين بعينها سميت تسنيماً لارتفاع مكانها أو رفعة شربها. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)﴾

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ فإنهم يشربونها صرفاً لأنهم لم يشتغلوا بغير الله، وتمزج لسائر أهل الجنة وانتصاب ﴿عيناً﴾ على المدح أو الحال ﴿من تسنيم﴾ والكلام في الباء كما في ﴿يشرب بها عباد الله﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يعني رؤساء قریش. ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يستهزئون بفقراء المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم. ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ متلذذين بالسخرية منهم، وقرأ حفص ﴿فكهيين﴾. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ وإذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال. ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدهم وصلاحهم.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلوبين في النار. وقيل يفتح لهم باب إلى الجنة فيقال لهم أخرجوا إليها، فإذا وصلوا أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال من ﴿يضحكون﴾.

﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ﴾ أي هل أثيبوا. ﴿وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بادغام اللام في التاء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة».

## سورة الانشقاق

[مكية وآياتها خمس وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (1) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَنَقُِلْتُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12)﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بالغمام كقوله تعالى: ﴿ويوم تنشق السماء بالغمام﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه: تنشق من المجرة.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت له أي انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي يأذن للأمر ويدعن له. ﴿وَحُقَّتْ﴾ وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد يقال: حق بكذا فهو محقوق وحقيق.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت بأن لا تزال جبالها وأكامها.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ في الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شيء في باطنها.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلي. ﴿وَحُقَّتْ﴾ للإذن وتكرير ﴿إِذَا﴾ لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة، وجوابه محذوف للتحويل بالإبهام أو الاكتفاء بما مر في سورتي «التكوير» و «الانفطار» أو لدلالة قوله.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ عليه وتقديره لاقى الإنسان كدحه أي جهداً يؤثر فيه من كدحه إذا خدشه، أو ﴿فملاقية﴾ و ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك﴾ اعتراض، والكدح إليه السعي إلى لقاء جزائه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً لا يناقش فيه.

﴿وَنَقُِلْتُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ إلى عشيرته المؤمنين، أو فريق المؤمنين، أو ﴿أهله﴾ في الجنة من الحور.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. قيل تغل يمناه إلى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ يتمنى الثبور ويقول يا ثبوره وهو الهلاك.

﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ وقرأ الحجازيان والشامي ﴿وَيُصَلَّى﴾ لقوله تعالى: ﴿وتصلية جحيم﴾ وقرئ ﴿وَيُصَلَّى﴾ لقوله تعالى: ﴿ونصله جهنم﴾.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلْ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15) فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَاقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (19)﴾

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ أي في الدنيا. ﴿مَسْرُورًا﴾ بطراً بالمال والجاه فارغاً عن الآخرة.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ لن يرجع إلى الله تعالى.

﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد ﴿لَنْ﴾. ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالماً بأعماله فلا يهمله بل يرجعه ويجازيه.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَاقِ﴾ الحمرة التي ترى في أفق المغرب بعد الغروب. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنه البياض الذي يليها، سمي به لرقته من الشفقة.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمعه وستره من الدواب وغيرها يقال: وسقه فاتسق واستوسق، قال: مُسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ يَجِدَنَّ سَائِقًا. أو طرده إلى أماكنه من الموسيقى.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم بدرًا.

﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال مطابقة لأختها في الشدة، وهو لما طابق غيره فقبل للحال المطابقة، أو مراتب من الشدة بعد المراتب هي الموت ومواطن القيامة وأهوالها، أو هي وما قبلها من الدواهي على أنه جمع طبقة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿لتركين﴾ بالفتح على خطاب الإنسان باعتبار اللفظ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ﴿لتركين﴾ حالاً شريفة ومرتبة عالية بعد حال ومرتبة، أو ﴿طباقاً﴾ من أطباق السماء بعد طبق ليلة المعراج وبالكسر على خطاب النفس، وبالياء على الغيبة و﴿عن طبق﴾ صفة لـ ﴿طباقاً﴾ أو حال من الضمير بمعنى مجاوز الـ ﴿طبق﴾ أو مجاوزين له.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)﴾

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون أو ﴿لا يسجدون﴾ لتلاوته. لما روي: أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿واسجد واقترب﴾ فسجد بمن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم فنزلت. واحتج به أبو حنيفة على وجوب السجود فإنه ذم لمن سمعه ولم يسجد. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سجد فيها وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بالقرآن.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمرون في صدورهم من الكفر والعداوة.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاء بهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع أو متصل، والمراد من تاب وآمن منهم. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو ﴿ممنون﴾ به عليهم.

وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة الانشقاق أعاده الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».



[مكية وآياتها اثنتان وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَهِيدٍ مَّشْهُودٍ (3) قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4)﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني البروج الاثني عشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات وتكون فيها الثوابت، أو منازل القمر أو عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها، أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها وأصل التركيب للظهور.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة.

﴿وَشَهِيدٍ مَّشْهُودٍ﴾ ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق وما أحضر فيه من العجائب، وتذكيرهما للإيهام في الوصف أي ﴿وشاهد ومشهود﴾ لا يكتفه وصفهما، أو المبالغة في الكثرة كأنه قيل: ما أفرطت كثرتهم من شاهد ومشهود، أو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته، أو أمته وسائر الأمم، أو كل نبي وأمته، أو الخالق والخلق، أو عكسه فإن الخالق مطلع على خلقه وهو شاهد على وجوده، أو الملك الحفيظ والمكلف أو يوم النحر، أو عرفة والحجيج، أو يوم الجمعة والجمع فإنه يشهد له أو كل يوم وأهله.

﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قيل إنه جواب القسم على تقدير لقد ﴿قتل﴾، والأظهر أنه دليل جواب محذوف كأنه قيل إنهم ملعونون يعني كفار مكة لعن أصحاب الأخدود، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم، والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقق. روي مرفوعاً: أن ملكاً كان له ساحراً فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه، وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فقتلها، وكان الغلام بعُد يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء، وعمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك عن أبرأه فقال ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب فقده بالمنشار، وأرسل الغلام إلى جبل لي طرح من ذروته، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفات السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله رب هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوق في صدغه فمات، فأمن الناس برب الغلام، فأمر بأخاديد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي: يا أماء اصبري فإنك على الحق فاقنحت. وعن علي رضي الله تعالى عنه. كان بعض ملوك المجوس خطب الناس وقال: إن الله أحل نكاح الأخوات فلم يقبلوه، فأمر بأخاديد النار فطرح فيها من أبي، وقيل لما تنصّر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير فأحرق في الأخاديد من لم يرتد.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ وَبُيْعُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (14) ﴿

﴿النَّارِ﴾ بدل من ﴿الأخدود﴾ بدل الاشتمال. ﴿ذاتِ الوقود﴾ صفة لها بالعظمة وكثرة ما يرتفع بها ليهبها، واللام في ﴿الوقود﴾ للجنس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ على حافة النار. ﴿قُعُودٌ﴾ قاعدون.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به، أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ وما أنكروا. ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ استثناء على طريقة قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَابِ  
ووصفه بكونه عزيزاً غالباً يخشى عقابه حميداً منعماً يرجى ثوابه وقرر ذلك بقوله:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويعبد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بلوهم بالأذى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الزائد في الاحراق بفتنتهم. بل المراد بـ ﴿الذين فتنوا﴾ أصحاب الأخدود ﴿وبـ﴾ عذاب الحريق ما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ مضاعف عنفه فإن البطش أخذ بعنف.

﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِيعُ وَبُيْعُ﴾ بديء الخلق ويعيده، أو بديء البطش بالكفرة في الدنيا ويعيده في الآخرة.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب. ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاع.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ فَرُّهُ أَنْ يَجِدَ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)﴾

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه، وقيل المراد بـ ﴿العرش﴾ الملك، وقرئ «ذي العرش» صفة لـ ﴿ربك﴾. ﴿الْمَجِيدُ﴾ العظيم في ذاته وصفاته، فإنه واجب الوجود تام القدرة والحكمة، وجره حمزة والكسائي صفة لـ ﴿ربك﴾، أو لـ ﴿العرش﴾ ومجده علوه وعظمته.

﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ لا يمتنع عليه مراد من أفعاله وأفعال غيره.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أبدلهما من الجنود لأن المراد بـ ﴿فرعون﴾ هو وقومه، والمعنى قد عرفت تكذيبهم للرسول وما حاق بهم فتسل واصبر على تكذيب قومك وحذرهم مثل ما أصابهم.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ لا يرفعون عنه، ومعنى الإضراب أن حالهم أعجب من حال هؤلاء فإنهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشد من تكذيبهم.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ لا يفوته كما لا يفوت المحاط المحيط.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف وحيد في النظم والمعنى، وقرىء ﴿قرآن مجيد﴾ بالإضافة أي قرآن رب مجيد.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التحريف، وقرأ نافع ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالرفع صفة لـ ﴿القرآن﴾، وقرىء ﴿في لوح﴾ وهو الهواء يعني ما فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل جمعة وعرفة تكون في الدنيا عشر حسنات».



[مكية وآياتها سبع عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ النَّاقِبُ (3) إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ بُدِيَ السَّرَائِرُ (9)﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ والكوكب البادي بالليل وهو في الأصل لسالك الطريق، واختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي فيه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ النَّاقِبُ﴾ المضيء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه، أو الأفلاك والمراد الجنس أو معهود بالثقب وهو زحل، عبر عنه أولاً بوصف عام ثم فسره بما يخصه تفخيماً لشأنه.

﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا﴾ أي إن الشأن كل نفس لعلها. ﴿حَافِظٌ﴾ رقيب فإن هي المخففة واللام الفاصلة وما مزيدة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة لما على أنها بمعنى الأوان نافية، والجملة على الوجهين جواب القسم.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذكر أن كل نفس عليها حافظ أتبعه توصية الإنسان بالنظر في مبدئه ليعلم صحة إعادته فلا يملئ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ جواب الاستفهام و﴿ماء﴾ بمعنى ذي دفق، وهو صب فيه دفع والمراد الممتزج من المائين في الرحم لقوله:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام صدرها، ولو صح أن النطفة تولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء، ومقرها عروق ملتف بعضها ببعض عند البيضتين، فلا شك أن الدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها، ولذلك تشبهه، ويسرع الإفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصلب

وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقرب إلى أوعية المني فلذلك خصّا بالذكر. وقرىء ﴿الصَّلْبُ﴾ بفتحيتين و ﴿الصُّلْبُ﴾ بضميتين وفيه لغة رابعة وهي «صالب».

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ والضمير للخالق ويدل عليه ﴿خُلِقَ﴾.

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ تتعرف ويميز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال وما خبت منها، وهو ظرف لـ ﴿رجعه﴾.

﴿فَالَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّيْعِ (12) إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ فَصَلُّ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ زُيْدًا (17) ﴿

﴿فَمَا لَهُ﴾ فما للإنسان. ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ من منعة في نفسه يمتنع بها. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يمنعه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك عنه، وقيل الرجوع المطر سمي به كما سمي أوباً لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً، أو لما قيل من أن السحاب يحمل الماء من البحار ثم يرجعه إلى الأرض، وعلى هذا يجوز أن يراد بـ ﴿السماء﴾ السحاب.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ما تنصدع عنه الأرض من النبات أو الشق بالنبات والعيون.

﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن. ﴿لَقَوْلٌ فَصَلُّ﴾ فاصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ فإنه جد كله.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني أهل مكة. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ في إبطاله وإطفاء نوره.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأقابلهم بكيد في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون.

﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم. ﴿أَهْلُهُمْ زُيْدًا﴾ أمهالاً يسيراً والتكرير وتغيير البنية لزيادة التسكين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات».



[مكية وآياتها تسع عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ سَوَوَى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى

(5) سَنَفَرْتُكَ فَلَا تَنسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَيُخَوِّفُكَ لِلْإِسْرَى (8)﴾

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ نزه اسمه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائفة وإطلاقه على غيره زاعماً أنهما فيه سواء وذكره الأعلى على وجه التعظيم، وقرىء «سبحان ربي الأعلى». وفي الحديث «لما نزلت ﴿فسبح

باسم ربك العظيم ﴿ قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿مسح اسم ربك الأعلى﴾ قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في سجودكم﴾ وكانوا يقولون في الركوع اللهم لك ركعت وفي السجود اللهم لك سجدت .

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ خلق كل شيء فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأتى كماله ويتم معاشه .

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أي قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وأجالها .

﴿فَهَدَى﴾ فوجهه إلى أفعاله طبعاً واختياراً بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات .

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنبت ما ترعاه الدواب .

﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته . ﴿عُثَاءً أَحْوَى﴾ يابساً أسود . وقيل ﴿أَحْوَى﴾ حال من المرعى أي أخرجه

﴿أَحْوَى﴾ أي أسود من شدة خضرته .

﴿سَنُقَرِّكَ﴾ على لسان جبريل عليه الصلاة والسلام، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة . ﴿فَلَا تَنْسَى﴾

أصلاً من قوة الحفظ مع أنك أُمي ليكون ذلك آية أخرى لك مع أن الإخبارية عما يستقبل ووقوعه كذلك أيضاً من الآيات، وقيل نهى والألف للفاصلة كقوله ﴿السيلا﴾ . ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ نسيانه بأن نسخ تلاوته، وقيل أراد به القلة والندرة . لما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أسقط آية في قراءته في الصلاة فحسب أبي أنها نسخت فسأله فقال: نسيها» . أو نفى النسيان رأساً فإن القلة تستعمل للنفي . ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ما ظهر من أحوالكم وما بطن، أو جهرك بالقراءة مع جبريل عليه الصلاة والسلام وما دعاك إليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه صلاحكم من إبقاء وإنساء .

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ونعذك لطريقة اليسرى في حفظ الوحي، أو التدين وتوفيقك لها ولهذه النكتة قال

﴿نيسرك﴾ لا نيسر لك عطف على ﴿سنقرئك﴾، وأنه يعلم اعتراض .

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (9) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا

يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ

وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19) ﴿

﴿فَذَكِّرْ﴾ بعد ما استتب لك الأمر . ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لعل هذه الشرطية إنما جاءت بعد تكرير

التذكير وحصول اليأس من البعض لثلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ الآية، أو لزم المذكورين واستبعاد تأثير الذكري فيهم، . أو للإشعار بأن التذكير إنما يجب إذا ظن نفعه ولذلك أمر بالإعراض عن تولى .

﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ سيتعظ ويتنفع بها من يخشى الله تعالى بأن يتأمل فيها فيعلم حقيقتها . وهو

يتناول العارف والمتردد .

﴿وَيَجَنَّبُهَا﴾ ويتجنب ﴿الذكري﴾ . ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر فإنه أشقى من الفاسق، أو ﴿الْأَشْقَى﴾ من

الكفرة لتوغلته في الكفر .

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ نار جهنم فإنه عليه الصلاة والسلام قال «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً

من نار جهنم»، أو ما في الدرك الأسفل منها .

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح . ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة تنفعه .



﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الكفر والمعصية، أو تكثر من التقوى من الزكاة، أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّى﴾ كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِ﴾ ويجوز أن يراد بالذكر تكبيرة التحريم، وقيل ﴿تَزَكَّى﴾ تصدق للفطر ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ كبره يوم العيد ﴿فَصَلَّى﴾ صلاته.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فلا تفعلون ما يسعدكم في الآخرة، والخطاب للأشقيين على الالتفات أو على إضمار قل، أو للكل فإن السعي للدنيا أكثر في الجملة، وقرأ أبو عمرو بالباء.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فإن نعيمها ملذ بالذات خالص عن الغوائل لا انقطاع له.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ الإشارة إلى ما سبق من ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فإنه جامع أمر الديانة وخلصة الكتب المنزلة.

﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من الصحف الأولى.

قال ﷺ «من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام».



[مكية وآياتها ست وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْغَاشِيَةِ (1) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسْعَاهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ نَاعِلَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12)﴾

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يعني يوم القيامة، أو النار من قوله تعالى ﴿وتغشى وجوههم النار﴾.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل ما تتعب فيه كجر السلاسل وخوضها في النار خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ووهادها ما عملت، ونصبت في أعمال لا تنفعها يومئذ.

﴿تَصَلَّى نَارًا﴾ تدخلها وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر ﴿تُصَلَّى﴾ من أصلاه الله، وقرأ ﴿تُصَلَّى﴾ بالتشديد للمبالغة. ﴿حَامِيَةٌ﴾ متناهية في الحر.

﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ بلغت أنها في الحر.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيرٍ﴾ ييس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، وقيل شجرة نارية تشبه الضريع، ولعله طعام هؤلاء والزقوم والغسلين طعام غيرهم، أو المراد طعامهم ما تتحماه الإبل وتعافه لضره وعدم نفعه كما قال.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ والمقصود من الطعام أحد الأمرين.

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة أو متنعة.

﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها لما رأت ثوابه.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ عليّة المحل أو القدر.

﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب أو الوجه، وقرأ على بناء المفعول بالياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس وبالثاء نافع. ﴿فِيهَا لَا غِيَةَ﴾ لغواً أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو، فإن كلام أهل الجنة الذكر والحكم. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يجري ماؤها ولا ينقطع والتكثير للتعظيم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَمَنَاقِبُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ (16) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)﴾

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ رفعة السمك أو القدر.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب وهي آنية لا عروة لها. ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم.

﴿وَمَنَاقِبُ﴾ وسائد جمع نمرة بالفتح والضم. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض.

﴿وَزَرَائِبُ﴾ بسط فاخرة جمع زريبة. ﴿مَبْنُوتَةٌ﴾ مبسوطة.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ نظر اعتبار. ﴿إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية، فجعلها عظيمة باركة للمحل ناهضة بالحمل منقادة لمن اقتادها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار، ترعى كل نابت وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً ليتأتى لها قطع البوادي والمفاوز، مع مالها من منافع أخرى ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبئة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنفاً، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع. وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمد.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسخة لا تميل.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً، وقرئ الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب، والمعنى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات ليتحققوا كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى، فلا ينكروا اقتداره على البعث ولذلك عقب به أمر المعاد ورتب عليه الأمر بالتذكير فقال:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكرُوا إذ ما عليك إلا البلاغ.

﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ

(25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿26﴾

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمتسلط، وعن الكسائي بالسین على الأصل وحمزة بالإشمام.  
﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ لكن من تولى وكفر.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ يعني عذاب الآخرة. وقيل متصل فإن جهاد الكفار وقتلهم تسلط، وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وقيل هو استثناء من قوله ﴿فَذَكَرُ﴾ أي فذكر إلا من تولى وأصر فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض ويؤيد الأول أنه قرىء ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ على التنبيه.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم، وقرىء بالتشديد على أنه فيعمل مصدر فيعمل من الإياب، أو فعال من الأوب قلبت واوه الأولى قلبها في ديوان ثم الثانية للإدغام.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ في المحشر، وتقديم الخبر للتخصيص والمبالغة في الوعيد.  
عن النبي ﷺ (من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً).



[مكية وآياتها ثلاثون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَلَّلَ رَبُّكَ يَمَادٍ (6) إِذْ مَكَاتَ الْعِمَادُ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)﴾  
﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالصبح أو فلقه كقوله: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أو بصلاته.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة ولذلك فسر ﴿الفجر﴾ بفجر عرفة، أو النحر أو عشر رمضان الأخير وتكبيرها للتعظيم، وقرىء ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ والأشياء كلها شفعا ووترها، أو الخلق لقوله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ والخالق لأنه فرد، ومن فسرهما بالعناصر والأفلاك أو البروج والسيارات أو شفيع الصلوات ووترها، أو بيومي النحر وعرفة، وقد روي مرفوعاً، أو بغيرها فعمله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ما رآه أظهر دلالة على التوحيد، أو مَدْخَلًا في الدين أو مناسبة لما قبلهما أو أكثر منفعة موجبة للشكر، وقرىء ﴿وَالْوَتْرِ﴾ بكسر الواو وهما لغتان كالخبر والحبر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ﴾ إذا يمضي كقوله: ﴿والليل إذا أدبر﴾ والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة، أو يرى فيه من قولهم صلى المقام وحذف الياء للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً،

وقد خصه نافع وأبو عمرو بالوقف لمراعاة الفواصل ولم يحذفها ابن كثير ويعقوب أصلاً، وقرئ  
﴿يسر﴾ التنوين المبدل من حرف الاطلاق.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ القسم أو المقسم به ﴿قَسَمَ﴾ حلف أو محلوف به. ﴿لِذِي حَجَرٍ﴾ يعتبره ويؤكد به ما يريد تحقيقه، والـ ﴿حَجَرٍ﴾ العقل سمي به لأنه يحجر عما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهية وحصة من الإحصاء، وهو الضبط والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن يدل عليه قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه.

﴿إِرمَ﴾ عطف بيان لـ ﴿عاد﴾ على تقدير مضاف أي سبَّط ﴿إِرمَ﴾، أو أهْل ﴿إِرمَ﴾ إن صح أنه إسم بلدتهم. وقيل سمي أوائلهم وهم ﴿عاداً الأولى﴾ باسم جدتهم ومنع صرفه للعلمية والتأنيث. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات البناء الرفيع أو القدود الطوال، أو الرفعة والثبات. وقيل كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا، ثم مات شديد فخلص الأمر لشداد وملك المعمورة ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فبنى على مثالها في بعض صحاري عدن جنة وسماها إرم، فلما تمت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبله فوقع عليها.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ صفة أخرى لـ ﴿إِرمَ﴾ والضمير لها سواء جعلت ﴿إِرمَ﴾ القبيلة أو البلدة.

﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قطعوه واتخذوه منازل لقوله: ﴿وتحتون من الجبال بيوتا﴾ ﴿بِالْوَادِ﴾ وادي القرى.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (10) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ (14) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحْضُونَهُ عَلَى طَعْنِ الْيَسِيرِ (18) وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19)﴾

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد. ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ صفة للمذكورين «عاد» «ثمود» «وفرعون»، أو ذم منصوب أو مرفوع. ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ما خلط لهم من أنواع العذاب، وأصله الخلط وإنما سمي به الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض، وقيل شبه بالـ ﴿سوط﴾ ما أحل بهم في الدنيا إشعاراً بأنه القياس إلى ما أعد لهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قيس إلى السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ﴾ المكان الذي يترقب فيه الرصد، مفعال من رصده كالميقات من وقته، وهو تمثيل لإرصاده العصاة بالعقاب.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ متصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ﴾ كأنه قيل إنه ﴿لَبَاسِرٌ﴾ من الآخرة فلا يريد إلا السعي لها فأما الإنسان فلا يهमे إلا الدنيا ولذاتها. ﴿إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ﴾ اختبره بالغنى واليسر. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالجاه والمال. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فضلني بما أعطاني، وهو خبر المبتدأ الذي هو ﴿الإنسان﴾،

والفاء لما في «أما» من معنى الشرط، والظرف المتوسط في تقدير التأخير كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام، وكذا قوله:

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ إذ التقدير وأما الإنسان إذا ما ابتلاه أي بالفقر والتقتير ليوافق قسيمه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ لقصور نظره وسوء فقره، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تقضي إلى قصد الأعداء والانهماك في حب الدنيا ولذلك ذمه على قوله سبحانه وتعالى وردعه عنه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ مع أن قوله الأول مطابق لأكرمه ولم يقل فأهانته وقدر عليه كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ لأن التوسعة تفضل والإخلال به لا يكون إهانته، وقرأ ابن عامر والكوفيون «أكرمن» و«أهانن» بغير ياء في الوصل والوقف. وعن أبي عمرو مثله ووافقهم نافع في الوقف وقرأ ابن عامر «فَقَدَّرَ» بالتشديد.

﴿بَلْ لَا يُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا يَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي بل فعلهم أسوأ من قولهم وأدل على تهالكهم بالمال وهو أنهم لا يكرمون اليتيم بالنفقة والمبرة، ولا يحثون أهلهم على طعام المسكين فضلاً عن غيرهم، وقرأ الكوفيون «ولا تحاضون».

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ الميراث وأصله وراث. ﴿أَكْلًا لَمَّا﴾ ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباهم، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك. ﴿وَيَحْجُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا﴾ (20) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ بِأَنفِهِ لَكَ الذِّكْرُ (23) يَقُولُ لَيْسَ لِي حَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) أُنْجِيَتْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً (28) فَأَدْخِلْنِي عَذَابَهُ (29) وَأَدْخِلْنِي جَنَّةَ (30)﴾

﴿وَيَحْجُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا﴾ كثيراً مع حرص وشره، وقرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب «لا يكرمون» إلى «ويحبون» بالياء والباقون بالتاء.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم وما بعده وعيد عليه. ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي دكا بعد دك حتى صارت منخفضة الجبال والتلال، أو «هباء منبثاً».

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيئته وسياسته. ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بحسب منازلهم ومراتبهم.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: «وبرزت الجحيم» وفي الحديث «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا دكت الأرض والعامل فيهما. ﴿يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ﴾ أي يتذكر معاصيه أو يتعظ لأنه يعلم قبحها فيندم عليها. ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرُ﴾ أي منفعة الذكرى لئلا ينقض ما قبله، واستدل به على عدم وجوب قبول التوبة، فإن هذا التذكر توبة غير مقبولة.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي لحياتي هذه، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة، وليس في هذا التمني دلالة على استقلال العبد بفعله فإن المحجور عن شيء قد يتمنى أن كان ممكناً منه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الهاء لله أي لا يتولى عذاب الله يوم القيامة سواه إذ الأمر كله له، أو للإنسان أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه، وقرأهما الكسائي ويعقوب على بناء المفعول.

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ على إرادة القول وهي التي اطمأنت بذكر الله، فإن النفس تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات إلى الواجب لذاته فتستفز دون معرفته وتستغني به عن غيره، أو إلى الحق بحيث لا يريبها شك أو الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وقد قرىء بهما.

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى أمره أو مواعده بالموت، ويشعر ذلك بقول من قال: كانت النفوس قبل الأبدان موجودة في عالم القدس أو البعث، ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيت. ﴿مَرْضِيَّةً﴾ عند الله تعالى.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة عبادي الصالحين.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم أو في زمرة المقربين فتستضيء بنورهم، فإن الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة، أو ادخلي في أجساد عبادي التي فارقت عنها، وادخلي دار ثوابي التي أعدت لك.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة».



[مكية . وآياتها عشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (2) وَالْوَدَّاعَةَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (4) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ﴾ (6) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (7) أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ﴾ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (9)﴾

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلول الرسول عليه الصلاة والسلام فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. وقيل ﴿حِلٌّ﴾ مستحل تعرضك فيه كما يستحل تعرض الصيد في غيره، أو حلال لك أن تفعل فيه ما تريد ساعة من النهار فهو وعد بما أحل له عام الفتح.

﴿وَوَدَّاعَةَ﴾ عطف على ﴿هذا البلد﴾ والوالد آدم أو إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَمَا وَلَدٌ﴾ ذريته أو محمد عليه الصلاة والسلام، والتذكير للتعظيم وإثارة ما على من لمعنى التعجب كما في قوله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ تعب ومشقة من كبد الرجل كبداً إذا وجعت كبده ومنه المكابدة، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقة ومتهاها الموت وما بعده، وهو تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام مما كان يكابده من قریش والضمير في.

﴿أَيْحَسِبُ﴾ لبعضهم الذي كان يكابد من أكثر، أو يفتر بقوته كأبي الأشد بن كلداء فإنه كان ييسط تحت

قدميه أديم عكاظي ويجذبه عشرة فيتقطع ولا تزال قدماء، أو لكل أحد منهم أو للإنسان. ﴿أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فينتقم منه.

﴿يَقُولُ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدَا﴾ كثيراً، من تلبد الشيء إذا اجتمع، والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة، أو معاداة للرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿أَيُخْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق أو بعد ذلك فيسأله عنه، يعني أن الله سبحانه وتعالى يراه فيجازيه، أو يجده فيحاسبه عليه ثم بين ذلك بقوله.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما.

﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عن ضميره. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُ رَقَبَةً (13) أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبٍ (14) يَبْسُكًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهْنَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ (20)﴾

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشر، أو التدين وأصله المكان المرتفع.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، و ﴿العقبة﴾ الطريق في الجبل استعارها بما فسرها عز وجل به من الفك والإطعام في قوله:

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُ رَقَبَةً أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمِ ذِي مَسْجَبٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ لما فيهما من مجاهدة النفس ولتعدد المراد بها حسن وقوع لا موقع لم فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة، إذ المعنى: فَلَا فَكُ رَقَبَةً وَلَا أَطْعَمَ يَتِيمًا أَوْ مَسْكِينًا. والمسغبة والمقربة والمترية مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب وترب إذا افتقر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿فَكَ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ﴾ على الإبدال من ﴿اقتحم﴾ وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ اعتراض معناه إنك لم تدري كنه صعوبتها وثوابها.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطفه على ﴿اقتحم﴾، أو ﴿فَكَ﴾ بـ ﴿ثُمَّ﴾ لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام في الرتبة لاستقلاله واشتراط سائر الطاعات به. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وأوصى بعضهم بعضاً. ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله تعالى. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالرحمة على عباده، أو بموجبات رحمة الله تعالى.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ اليمين أو اليمن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهْنَ﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن. ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ الشمال أو الشؤم، ولتكرير ذكر المؤمنين باسم الإشارة والكفار بالضمير شأن لا يخفى.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقت. وقرأ أبو عمرو وحمة وحفص بالهمزة من أصدته.

عن النبي ﷺ «من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمان من غضبه يوم القيامة».



[مكية . وآياتها خمس عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا (2) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا (3) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَتْهَا (5) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّتْهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)﴾

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت، وقيل الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك، والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد ينتصف.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر، أو في الاستدارة وكمال النور.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ جلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار أو الظلمة، أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر ذكرها للعلم بها.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشى الشمس فيغطي ضوءها أو الآفاق، أو الأرض. ولما كانت واوات العطف نواب للواو الأولى القسيمة الجارة بنفسها النابتة مناب فعل القسم من حيث استلزمت طرحه معها، ربطن المجزورات والظرف بالمجزور والظرف المتقدمين ربط الواو لما بعدها في قولك: ضرب زيد عمراً وبكر خالداً على الفاعل والمفعول من غير عطف على عاملين مختلفين.

﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ ومن بناها وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل: والشيء القادر الذي بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها، ولذلك أفرد ذكره وكذا الكلام في قوله:

﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وجعل الماءات مصدرية يجرى الفعل عن الفاعل ويخل بنظم قوله:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بقوله ﴿وما سواها﴾ إلا أن يضم فيه اسم الله للعلم به وتنكير ﴿نفس﴾ للتكثير كما في قوله تعالى: ﴿علمت نفس﴾ أو للتعظيم والمراد نفس آدم وإلهام الفجور والتقوى إلهامهما وتعريف حالهما أو التمكن من الإتيان بهما.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) كَذَبَتْ تَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أنماها بالعلم والعمل جواب القسم، وحذف اللام للطول كأنه لما أراد به



الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية، ويذكرهم عظام آلائه ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي هو منتهى كمالات القوة العملية. وقيل هو استطراد بذكر بعض أحوال النفس، والجواب محذوف تقديره لِيُذَمِّدَ مَنْ اللهُ، على كفار مكة لتكذيبهم رسوله ﷺ كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق، وأصل دسى دس كقضي وتقضض.

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ بسبب طغيانها، أو بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى كقوله تعالى: ﴿فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وأصله طغيانها وإنما قلبت ياءه واواً تفرقة بين الإسم والصفة، وقرئ بالضم كما ﴿الرجعى﴾.

﴿إِذْ أَنْبَعَتْ﴾ حين قام ظرف لـ ﴿كَذَبَتْ﴾ أو طغوى. ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود وهو قدار بن سالف، أو هو ومن ماله على قتل الناقة فإن أفعال التفضيل إذا أضفته صلح للواحد والجمع وفضل شقاوتهم لتوليهم العقر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ أَي ذُرْوَا نَاقَةَ اللَّهِ واحذروا عقرها. ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ وسقيها فلا تذودوها عنها. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا. ﴿فَعَقَرُوهَا فَذَمِّمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم. ﴿يَذْنِبُهُمْ﴾ بسببه. ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فسوى الدممة بينهم أو عليهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير، أو ثمود بالإهلاك.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي عاقبة الدممة أو عاقبة هلاك ثمود وتبعثها فيبقى بعض الإبقاء، والواو للحال وقرأ نافع وابن عامر ﴿فَلَا﴾ على العطف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والشمس فكانما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر».



[مكية . وآياتها إحدى وعشرون آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَكُنَى (5) وَصَدَقَ الْحَقُّ (6) فَسَيُسِرُّهُ الْبُخْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ يَخِلُّ وَاسْتَفْتَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ (9) فَسَيُسِرُّهُ الْبُخْرَى (10) وَمَا يُفْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)﴾

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يغشى الشمس أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ والقادر الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد، أو آدم وحواء وقيل ﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ إن مساعيكم لأشياء مختلفة جمع شتيت.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ تفصيل مبين لتشتت المساعي. والمعنى من أعطى الطاعة واتبقى المعصية وصدق بالكلمة الحسنى وهي ما دلت على حق ككلمة التوحيد.

﴿فَسَيُسْرُهُ لِيُسْرَى﴾ فسنهيته للخلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة، من يسر الفرس إذا هيأه للركوب بالسر والسرعة.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما أمر به. ﴿وَاسْتَفْتَى﴾ بشهوات الدنيا عن نعيم العقبي.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ وبإنكار مدلولها.

﴿فَسَيُسْرُهُ لِيُغْشَى﴾ للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ نفى أو استفهام إنكار. ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ هلك تفعل من الردى، أو تردى في حفرة القبر أو قعر جهنم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ للإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا، أو ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ طريقة الهدى كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَّا لِّلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)﴾

﴿وَإِنَّا لَنَّا لِّلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء، أو ثواب الهداية للمهتدين، أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ تلهب.

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يلزمها مقاسياً شدتها. ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ إلا الكافر فإن الفاسق وإن دخلها لا يلزمها ولذلك سماه أشقى ووصفه بقوله:

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب الحق وأعرض عن الطاعة.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ اتقى الشرك والمعاصي فإنه لا يدخلها فضلاً عن أن يدخلها ويصلاها، ومفهوم ذلك أن من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك صليها فلا يخالف الحصر السابق. ﴿يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يصرفه في مصارف الخير لقوله: ﴿يَتَزَكَّى﴾ فإنه بدل من ﴿يُؤْتِي﴾ أو حال من فاعله.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ فيقصد بإيثاره مجازاتها.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ استثناء منقطع أو متصل عن محذوف مثل لا يؤتى إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه. والآيات نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين

اشترى بلالاً في جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم، ولذلك قيل: المراد بالاشقى أبو جهل أو أمية بن خلف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والليل أعطاه الله سبحانه وتعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر».



[مكية. وآياتها إحدى عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)﴾

﴿وَالضُّحَى﴾ ووقت ارتفاع الشمس وتخصيصه لأن النهار يقوى فيه، أو لأن فيه كلم موسى عليه الصلاة والسلام ربه وألقى السحرة سجدًا، أو النهار ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ في مقابلة ﴿بَيَاتًا﴾. ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ سكن أهله أو ركذ ظلامه من سجا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه، وتقديم ﴿الليل﴾ في السورة المتقدمة باعتبار الأصل، وتقديم النهار ها هنا باعتبار الشرف.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما قطعك قطع المودع، وقرئ بالتخفيف بمعنى ما تركك وهو جواب القسم. ﴿وَمَا قَلَى﴾ وما أبغضك، وحذف المفعول استغناءً بذكره من قبل ومراعاة للفواصل. روي أن الوحي تأخر عنه أياماً لتركه الاستثناء كما مر في سورة «الكهف»، أو لجزره سائلاً ملحاً، أو لأن جرواً مبيتاً كان تحت سريره أو لغيره فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه فتزلت رداً عليهم.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فإنها باقية خالصة عن الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار، كأنه لما بين أنه سبحانه وتعالى لا يزال يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا وعد له ما هو أعلى وأجل من ذلك في الآخرة، أو لنهاية أمرك خير من بدايته، فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وعد شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواء، واللام للابتلاء دخل الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير: ولأنت سوف يعطيك لا للقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ تعيد لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى يحسن إليه فيما

يستقبل وأن تأخر. و ﴿يَجِدْكَ﴾ من الوجود بمعنى العلم و ﴿يَتِيمًا﴾ مفعوله الثاني أو المصادقة و ﴿يَتِيمًا﴾ حال.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن علم الحكم والأحكام. ﴿فَهَدَى﴾ فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر. وقيل وجدك ضالاً في الطريق حين خرج بك أبو طالب إلى الشام أو حين فطمتك حليلة وجاءت بك لتردك إلى جدك، فأزال ضالك عن عمك أو جدك.

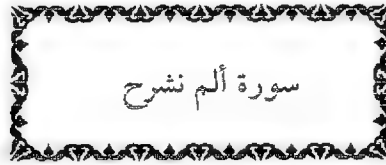
﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ذا عيال. ﴿فَأَغْنَى﴾ بما حصل لك من ربح التجارة.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله لضعفه، وقرىء فلا تكهر أي فلا تبس في وجهه.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجره.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإن التحدث بها شكرها. وقيل المراد بالنعمة النبوة والتحدث بها تبليغها.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والضحي جعله الله سبحانه وتعالى فيمن يرضى لمحمد ﷺ أن يشفع له وعشر حسنات، يكتبها الله سبحانه وتعالى بعدد كل يتيم وسائل».



[مكية. وآياتها ثمان آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (2) أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

(5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً، أو ألم نفسحه بما أودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل، أو بما يسرنا لك تلقي الوحي بعدما كان يشق عليك، وقيل إنه إشارة إلى ما روي «أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسول الله ﷺ في صباه أو يوم الميثاق، فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً». ولعله إشارة إلى نحو ما سبق ومعنى الاستفهام إنكار نفي الانشراح مبالغة في إثباته ولذلك عطف عليه.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ عبأك الثقيل.

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الذي حملة على النقيض وهو صوت الرجل عند الانتقاض من ثقل الحمل وهو ما ثقل عليه من فرطاته قبل البعثة، أو جهله بالحكم والأحكام أو حيرته، أو تلقي الوحي أو ما كان يرى من ضلال قومه من العجز عن إرشادهم، أو من إصرارهم وتعديهم في إيذائه حين دعاهم إلى الإيمان.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بالنبوة وغيرها، وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه تعالى في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وخاطبه بالألقاب، وإنما زاد ﴿لَكَ﴾ ليكون إبهاماً قبل إيضاح فيفيد المبالغة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كضيق الصدر والوزر المنقوض للظهور وضلال القوم وإيذائهم. ﴿يُسْرًا﴾ كالشرح والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله إذا عزاك ما يغمك، وتنكيره للتعظيم والمعنى بما في «إن» مع من المصاحبة المبالغة في معاقبة اليسر للعسر، واتصاله به اتصال المتقاربين.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكرير للتأكيد أو استئناف وعده بأن ﴿العسر﴾ متبوع ببسر آخر كثواب الآخرة كقولك: إن للصائم فرحة، إن للصائم فرحة أي فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء الرب. وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «لن يغلب عسر يسرين» فإن العسر معروف فلا يتعدد سواء كان للعهد أو للجنس، واليسر منكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد يغير ما أريد بالأول.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من التبليغ. ﴿فَانْصَبْ﴾ فاتعب في العبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السالفة ووعدناك من النعم الآتية. وقيل إذا فرغت من الغزو فانصب في العبادة، أو ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من الصلاة فانصب بالدعاء.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر وحده على إسعافك، وقرئ ﴿فَرَّغَبْ﴾ أي فرغب الناس إلى طلب ثوابه.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني».



### سورة التين

[مكية مختلف فيها. وآياتها ثمان آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْخَافِينَ (8)﴾

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ خصهما من الثمار بالقسم لأن التين فاكهة طيبة لا فصل له وغذاء لطيف سريع الهضم، ودواء كثير النفع فإنه يلين الطبع ويحلل البلغم ويظهر الكلوتين، ويزيل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال، ويسمن البدن وفي الحديث أنه يقطع البواسير وينفع من النقرس. والزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن لطيف كثير المنافع، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال، وقيل المراد بهما جبلان من الأرض المقدسة أو مسجداً دمشق وبيت المقدس، أو البلدان.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربه و ﴿سِينِينَ﴾ و ﴿سِينَاءَ﴾ اسمان للموضع الذي هو فيه .

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين، أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يريد به الجنس . ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تعديل بأن خص بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات .

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بأن جعلناه من أهل النار أو إلى أسفل سافلين وهو النار . وقيل هو أرذل العمر فيكون قوله :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطعاً . ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا ينقطع أولاً يمن به عليهم، وهو على الأولى حكم مرتب على الاستثناء مقرر له .

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي فأي شيء يكذبك يا محمد دلالة أو نطقاً . ﴿بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل وقيل «ما» بمعنى من . وقيل الخطاب للإنسان على الالتفات . والمعنى فما الذي يحملك على هذا الكذب .

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ تحقيق لما سبق . والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد ﴿بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ صنفاً وتديباً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء على ما مر مراراً .

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة التين أعطاه الله العافية واليقين ما دام حياً، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة» .



[مكية . وآياتها تسع عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَفَرَأَى بِإِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) أَفَرَأَى رُبُّكَ الْكَارِهُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ (6) أَلَمْ نَجْعَلْهُ نَافِثًا (7) إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ الرَّحْمَنُ (8) أَلَمْ يَخْلُقْهُ مِنْ نَارٍ (9) أَلَمْ يَجْعَلْهُ إِذَا صَلَّى (10) أَلَمْ يَجْعَلْهُ عَلَى الْهَدْيِ (11) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى (12) أَلَمْ يَجْعَلْهُ كَذَّابًا (13) أَلَمْ يَجْعَلْهُ أَنْ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَنْتَهِ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تَطِعُهُمْ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)﴾

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ القرآن مفتتحاً باسمه سبحانه وتعالى. أو مستعيناً به. ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي الذي له الخلق أو الذي خلق كل شيء، ثم أفرد ما هو أشرف وأظهر صنفاً وتديراً وأدل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة فقال:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أو الذي ﴿خلق الإنسان﴾ فأبهم أولاً ثم فسر تفخيماً لخلقه ودلالة. على عجب فطرته. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمعه على ﴿الإنسان﴾ في معنى الجمع ولما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى نزل أولاً ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته.

﴿اقْرَأْ﴾ تكرير للمبالغة، أو الأول مطلق والثاني للتبليغ أو في الصلاة ولعله لما قيل له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فقال: ما أنا بقارىء، فقبل له اقرأ: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الزائد في الكرم على كل كريم فإنه سبحانه وتعالى ينعم بلا عوض ويحلم من غير تخوف، بل هو الكريم وحده على الحقيقة.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي الخط بالقلم، وقد قرئ به لتقيد به العلوم ويعلم به البعيد.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بخلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً، وقد عدد سبحانه وتعالى مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه، من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته، وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبه على ما يدل عليها سمعاً.

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾.

﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى﴾ أن رأى نفسه، واستغنى مفعوله الثاني لأنه بمعنى علم ولذلك جاز أن يكون فاعله ومفعوله ضميرين لواحد.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ الخطاب للإنسان على الالتفات تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان، و﴿الرجعى﴾ مصدر كالبرى.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ نزلت في أبي جهل قال لو رأيت محمداً ساجداً لو طئت عنقه، فجاءه ثم نكص على عقبيه فقيل له عاتلك، فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فنزلت ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة في تقبيح النهي والدلالة على كمال عبودية المنهي.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ أرأيت تكرير للأول وكذا الذي في قوله:

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ والشرطية مفعوله الثاني وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط الثاني الواقع موقع القسم له. والمعنى أخبرني عن من ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو أمراً ﴿بالتقوى﴾ فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، أو إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب كما تقول، ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله. وقيل المعنى ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً﴾ يصلي والمنهي على الهدى أمراً بالتقوى، والناهي مكذب متولٍ فما أعجب من ذا. وقيل الخطاب في الثانية مع الكافر فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى، وكأنه قال يا كافر أخبرني إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أنتهاء، ولعله ذكر الأمر بالتقوى في التعجب والتوبيخ ولم يتعرض له في النهي لأن النهي كان عن الصلاة والأمر بالتقوى، فاقصر على ذكر الصلاة لأنه دعوة بالفعل أو لأن نهى العبد إذا صلى يحتمل أن يكون لها ولغيرها، وعامة أحوالها محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وغيره بالدعوة.

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي. ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عما هو فيه. ﴿لَتَسْفَعَنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته ولنسحبته بها إلى النار، والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة، وقرىء ﴿لَتَسْفَعَنَّ﴾ بنون مشددة و«لأسفعن»، وكتابته في المصحف بالألف على حكم الوقف والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدل من الناصية وإنما جاز لوصفها، وقرئت بالرفع على هي ناصية والنصب على الذم ووصفها بالكذب والخطأ، وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم. روي أنا أبا جهل لعنه الله مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنك، فاعلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزلت.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ليجروه إلى النار وهو في الأصل الشرط واحداً زبانية كعفوية من الزبن وهو الدفع، أو زبني على النسب وأصلها زباني والتاء معوضة عن الياء.

﴿كَلَّا﴾ ردع أيضاً للناهي. ﴿لَا تُطِئُهُ﴾ أي أثبت أنت على طاعتك. ﴿وَأَسْجُدْ﴾ داوم على سجودك. ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ وتقرب إلى ربك وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد». عن النبي ﷺ «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفضل كله».



### سورة القدر

[مكية. مختلف فيها. وآياتها خمس آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الضمير للقرآن فخمه بإضماره من غير ذكر شهادة له بالنباهة المغنية عن التصريح كما عظمه بأن أسند نزله إليه، وعظم الوقت الذي أنزل فيه بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وإنزاله فيها بأن ابتداء بإنزاله فيها، أو أنزله جملة من اللوح إلى السماء الدنيا على السفرة، ثم كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزله على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة. وقيل المعنى «أنزلناه» في فضلها وهي في أواخر العشر الأخير في رمضان، ولعلها السابعة منها. والداعي إلى إخفائها أن يُحى من يريد لها ليالي كثيرة، وتسميتها بذلك لشرفها أو لتقدير الأمور فيها لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وذكر الألف إما للتكثير، أو لما روي أنه عليه

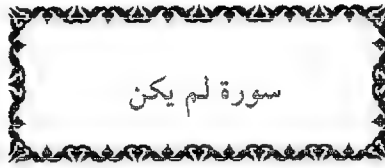


الصلاة والسلام ذكر إسرائيلياً يلبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون وتقصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة القدر هي خير من مدة ذلك الغازي.

﴿تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لما له فَضَّلَتْ على ألف شهر وتنزلهم إلى الأرض، أو إلى السماء الدنيا أو تقرّبهم إلى المؤمنين. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أجل كل قدر في تلك السنة، وقرئ «من كل امرئ» أي من أجل كل إنسان.

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة أي لا يقدر الله فيها إلا السلامة، ويقضي في غيرها السلامة والبلاء، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي وقت مطلع أي طلوعه. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه كالمراجع أو اسم زمان على غير قياس كالمشرق.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».



[مختلف فيها. وآياتها ثمان آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَدْوٍ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8) ﴿

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى فإنهم كفروا بالإلحاد في صفات الله سبحانه وتعالى و﴿من﴾ للتبيين. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وعبدوا الأصنام. ﴿مُنْفَكِينَ﴾ عما كانوا عليه من دينهم، أو الوعد باتباع الحق إذ جاءهم الرسول ﷺ. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام أو القرآن، فإنه مبين للحق أو معجزة الرسول بأخلاقه والقرآن بإفحامه من تحدى به.

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ بدل من ﴿البينة﴾ بنفسه أو بتقدير مضاف أو مبتدأ. ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ صفته أو خبره، والرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان آمياً لكنه لما تلا مثل ما في الصحف كان كالتالي لها. وقيل المراد جبريل عليه الصلاة والسلام وكون الصحف ﴿مُطَهَّرَةً﴾ أن الباطل لا يأتي ما فيها، أو أنها لا يمسه إلا المطهرون.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عما كانوا عليه بأن آمن بعضهم أو تردد في دينه، أو عن وعدهم بالإصرار على الكفر. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ فيكون كقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يُسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ وإفراد أهل الكتاب بعد الجمع بينهم وبين المشركين للدلالة على شناعة حالهم، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي في كتبهم بما فيها. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا يشركون به. ﴿حُنَفَاءَ﴾ مانئين عن العقائد الزائغة. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ ولكنهم حرفوا وعصوا. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ دين الملة القيمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي يوم القيامة، أو في الحال لملاستهم ما يوجب ذلك، واشتراك الفريقين في جنس العذاب لا يوجب اشتراكهما في نوعه فلعله يختلف لتفاوت كفرهما. ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقة. وقرأ نافع «البرية» بالهمز على الأصل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فيه مبالغت تقديم المدح، وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به والحكم عليه بأن من ﴿عند ربهم﴾، وجمع ﴿جَنَّاتٍ﴾ وتقييدها إضافة ووصفاً بما تزداد لها نعيماً، وتأکید الخلود بالتأيد. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئناف بما يكون لهم زيادة على جزائهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لأنه بلنهم أقصى أمانيتهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الجزاء والرضوان. ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة لم يكن الذين كفروا كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلاً».



### سورة الزلزلة

[مختلف فيها. وآياتها ثمان آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا (4) إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ اضطرابها المقدر لها عند النفخة الأولى، أو الثانية أو الممكن لها أو اللائق بها في الحكمة، وقرئ بالفتح وهو اسم الحركة وليس في الأبنية فعال إلا في المضاعف.

﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في جوفها من الدفائن أو الأموات جمع ثقل وهو متاع البيت .  
﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ لما يبهتهم من الأمر الفظيع ، وقيل المراد بـ ﴿الإنسان﴾ الكافر فإن المؤمن يعلم ما لها .

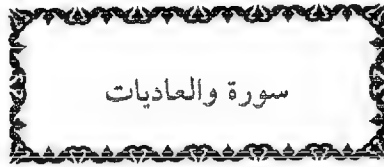
﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ تحدث الخلق بلسان الحال . ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ما لأجله زلزالها وإخراجها . وقيل ينطقها الله سبحانه وتعالى فتخبر بما عمل عليها ، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾ وناصبهما ﴿تحدثُ﴾ ، أو أصل و ﴿إِذَا﴾ متصّب بمضمر .

﴿بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي تحدث بسبب إحياء ربك لها بأن أحدث فيها ما دلت على الأخبار ، أو انطقها بها ويجوز أن يكون بدلاً من إخبارها إذ يقال : حدثته كذا وبكذا ، واللام بمعنى إلى أو على أصلها إذ لها في ذلك تشف من العصاة .

﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف . ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين بحسب مراتبهم .  
﴿لِيُرَوِّا أَعْمَالَهُمْ﴾ جزاء أعمالهم ، وقرئ بفتح الباء .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ تفصيل ﴿ليروا﴾ ولذلك قرئ ﴿يَرَهُ﴾ بالضم ، وقرأ هشام بإسكان الهاء ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب . وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة ، أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله ﴿أَشْتَاتًا﴾ ، والـ ﴿ذرة﴾ النملة الصغيرة أو الهباء .

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة إذا زلزلت الأرض أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» .



[مختلف فيها، وآياتها إحدى عشرة آية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُخِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (11)﴾

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أقسم سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً ، وهو صوت أنفاسها عند العدو ونصبه بفعله المحذوف ، أو بـ ﴿العاديات﴾ فإنها تدل بالالتزام على الضابحات ، أو ضبحاً حال بمعنى ضابحة .

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ فالتى توري النار، والإيراء إخراج النار يقال قدح الزند فأورى.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ يغير أهلها على العدو. ﴿صُبْحًا﴾ أي في وقته.

﴿فَأَثَرُنَ﴾ فهيجن. ﴿بِهِ﴾ بذلك الوقت. ﴿نَقْعًا﴾ غباراً أو صياحاً.

﴿فَوْسَطَنَ بِهِ﴾ فتوسطن بذلك الوقت أو بالعدو، أو بالنفع أي ملتبسات به. ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، روي: أنه عليه الصلاة والسلام بعث خيلاً فمضت أشهر لم يأتهم خبر فنزلت. ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العادية أثر كما لهن الموريات بأفكارهن أنوار المعارف، والمغيرات على الهوى والعادات إذا ظهر لهن مثل أنوار القدس، ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ﴾ شوقاً ﴿فَوْسَطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ من مجموع العليين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لكفور من كند النعمة كنوداً، أو لعاص بلغة كندة، أو لبخيل بلغة بني مالك وهو جواب القسم.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وإن الإنسان على كنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه لظهور أثره عليه، أو أن الله سبحانه وتعالى على كنوده لشهيد فيكون وعيداً.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ المال من قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل أو لقوي مبالغ فيه.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ بعث. ﴿مَّا فِي الْقُبُورِ﴾ من الموتى وقرىء «بحثر» و «بحت».

﴿وَحُصِّلَ﴾ جمع محصلاً في الصحف أو ميز. ﴿مَّا فِي الصُّدُورِ﴾ من خير أو شر، وتخصيصه لأنه الأصل.

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿لَخَبِيرٌ﴾ عالم بما أعلنوا وما أسروا فيجازيهم عليه، وإنما قال ﴿مَا﴾ ثم قال ﴿بِهِمْ﴾ لاختلاف شأنهم في الحالين، وقرىء ﴿أَنَّ﴾ و «خبير» بلا لام. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والعاديات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً».



[مكية، وآياتها ثمان آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ﴿الْقَارِعَةُ﴾ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ (10) نَارُ حَامِيَةٍ (11) ﴿

﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ سبق بيانه في «الحاقة».

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ في كثرتهم وذلثهم وانتشارهم واضطرابهم، وانتصاب ﴿يوم﴾ بمضمر دلت عليه «القارعة».

﴿وَيَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف ذي الألوان. ﴿الْمَنْقُوشِ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطايرها في الجو.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن ترجحت مقادير أنواع حسناته.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ في عيش. ﴿رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضا أو مرضية.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم يكن له حسنة يعبأ بها، أو ترجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأَمَّهُ هَٰوِيَةً﴾ فمأواه النار المحرقة والهاوية من أسماؤها ولذلك قال:

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ذات حمى.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة».



### سورة التكاثر

[مختلف فيها، وآياتها ثمان آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ (8)﴾

﴿أَلْهَاكُمْ﴾ شغلکم وأصله الصرف إلى اللهو منقول من لهي إذا غفل. ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرة.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إذا استوعبتكم عدد الأحياء صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات، عبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة المقابر. روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بالكثرة فكثرهم بنو عبد مناف، فقال بنو سهم إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم، وإنما حذف المنهي عنه وهو ما يعنيه من أمر الدين للتعظيم والمبالغة. وقيل معناه ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا عما هو أهم لكم، وهو السعي لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت.

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبه على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميع همه ومعظم سعيه للدنيا فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأ رأيكم إذا عاينتم ما وراءكم وهو إنذار ليخافوا ويتنبهوا من غفلتهم.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير للتأكيد وفي ﴿ثم﴾ دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول عند الموت أو في القبر والثاني عند النشور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون ما بين أيديكم علم اليقين أي كعلمكم ما تستيقنونه لشغلكم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتضخيم ولا يجوز أن يكون قوله.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواباً له لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً، وقرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرير للتأكيد، أو الأولى إذا رأيتم من مكان بعيد والثانية إذا وردوها، أو المراد بالأولى المعرفة وبالثانية الإبصار. ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي ألهاكم، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه و﴿النعيم﴾ بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله: ﴿من حرم زينة الله﴾ ﴿كلوا من الطيبات﴾ وقيل يعمان إذ كل يسأل عن شكره. وقيل الآية مخصوصة بالكفار.

عن النبي ﷺ «من قرأ ألهاكم لم يحاسبه الله سبحانه وتعالى بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا، وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية».



[مكية، وآياتها ثلاث آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالْعَصْرِ (3)﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها، أو بعصر النبوة أو بالدهر لاشتغاله على الأعاجيب والتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إن الناس لفى خسران في مساعيهم وصرف أعمارهم في مطالبهم، والتعريف للجنس والتذكير للتعظيم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي أو على الحق، أو ما يبلى الله به عباده. وهذا من عطف الخاص على العام للمبالغة إلا أن يخص العمل بما يكون مقصوراً على كماله، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود، وإشعاراً بأن ما عد إما عد يؤدي إلى خسر ونقص حظ، أو تكرماً فإن الإيهام في جانب الخسر كرم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».



### سورة الهمزة

[مكية، وآياتها تسع آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (8) فِي عَمَلِهِمْ مُمَدَّدَةٌ (9)﴾  
 ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة الكسر كالهمز، واللمز الطعن كاللهز فشاعا في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وبناء فعله يدل على الاعتقاد فلا يقال ضحكة ولعنة إلا للمكثر المتعود، وقرئ «همزة لمزة» بالسكون على بناء المفعول وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويشتم. ونزلها في الأخنس بن شريق فإنه كان مغيباً، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابه رسول الله ﷺ.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ بدل من كل أو ذم منصوب أو مرفوع، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالتشديد للتكثير ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ وجعله عدة للنوازل أو عدة مرة بعد أخرى، ويؤيده أنه قرئ ﴿وعدده﴾ على فك الإدغام. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ تركه خالداً في الدنيا فأحبه كما يحب الخلود، أو حب المال أغفله عن الموت أو طول أمله حتى حسب أنه مخلد فعمل عمل من لا يظن الموت، وفيه تعريض بأن المخلد هو السعي للآخرة.

﴿كَلَّا﴾ ردغ له عن حسبانته. ﴿لَيُبَدِّلَنَ﴾ ليطرحن. ﴿فِي الْخُطْمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يطرح فيها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾ ما هذه النار التي لها هذه الخاصية.

﴿نَارُ اللَّهِ﴾ تفسير لها. ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ التي أوقدها الله وما أوقده لا يقدر غيره أن يطفئه.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ تعلو أوساط القلوب وتشتمل عليها، وتخصيصها بالذكر لأن الفؤاد اللطيف ما

في البدن وأشدّه تألماً، أو لأنه محل العقائد الزائغة ومنشأ الأعمال القبيحة.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته، قال:

تحن إلى أجيال مكة ناقتي      ومَنْ دُونَهَا أبواب صنعاء مُّوَصَّدَه  
وقرأ حفص وأبو عمرو وحزمة بالهمزة.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ أي موثقين في أعمدة ممدودة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص وقرأ الكوفيون غير حفص بضميتين، وقرئ ﴿عُمْدٍ﴾ بسكون الميم مع ضم العين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه» رضوان الله عليهم أجمعين.



[مكية، وآياتها خمس آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ (4) جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، وإنما قال ﴿كَيْفَ﴾ ولم يقل ما لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإنها من الإرهاصات. إذ روي أنها وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ. قصتها أن أبرهة بن الصباح الأشرم - ملك اليمن من قبل أصحابه النجاشي - بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف الحاج إليها، فخرج رجل من كنانة فقعدها ليلاً فأغضبه ذلك، فحلف ليهدم الكعبة فخرج بجيشه ومعه فيل قوي اسمه محمود، وفيلة أخرى فلما تهيأ للدخول وعبى جيشه قدم الفيل، وكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا رجعه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هروا، فأرسل الله تعالى طيراً مع كل واحد في منقاره حجر وفي رجليه حجران، أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، فترميهما فيقع الحجر في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعاً. وقرئ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جداً في إظهار أثر الجازم، وكيف نصب بفعل لأبتر لما فيه من معنى الاستفهام.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في تعطيل الكعبة وتخريبها. ﴿فِي تَضَلِيلٍ﴾ في تضيع وإبطال بأن دمرهم وعظم شأنها.



﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعات جمع إبالة وهي الحزمة الكبيرة، شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها. وقيل لا واحد لها كعباديد وشماطيط.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾ وقرئ بالياء على تذكير الطير لأنه اسم جمع، أو إسناده إلى ضمير ربك. ﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ من طين متحجر معرب سنك كل وقيل من السجل وهو الدلو الكبير، أو الاسجال وهو الارسال، أو من السجل ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ كورق زرع وقع فيه، والآكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صفراً منه، أو كتبن أكلته الدواب وراثته.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ».



[مكية، وآياتها أربع آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ (1) لِإِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) ﴿

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ والفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لأجل:

﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون، أو بمحذوف مثل أعجبوا أو بما قبله كاللتضمين في الشعر أي ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾، ويؤيده أنهما في مصحف أبي سورة واحدة، وقرئ «ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء»، وقريش ولد النضر بن كنانة منقول من تصغير قرش، وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن فلا تطاق إلا بالنار، فشبها بها لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلو، وصغر الاسم للتعظيم وإطلاق الإيلاف، ثم إبدال المقيد عنه للتفخيم. وقرأ ابن عامر «لثلاف» بغير ياء بعد الهمزة.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أي بالرحلتين والتتكير للتعظيم، وقيل المراد به شدة أكلوا فيها الجيف والعظام. ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أصحاب الفيل أو التخطف في بلدهم ومسائرهم، أو الجذام فلا يصيبهم ببلدهم.

عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها».



[مختلف فيها، وآياتها سبع آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)﴾  
 ﴿أَرَأَيْتَ﴾ استفهام معناه التعجب، وقرئ «أريت» بلا همز إلحاقاً بالمضارع، ولعل تصديرها بحرف الاستفهام سهل أمرها و «أرايتك» بزيادة الكاف. ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ بالجزء أو الإسلام والذي يحتمل الجنس والعهد ويؤيد الثاني قوله:  
 ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ يدفعه دفعاً عنيفاً. وهو أبو جهل كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه، أو أبو سفيان نحر جزوراً فسأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه، أو الوليد بن المغيرة، أو منافق بخيل. وقرئ «يدع» أي يترك.  
 ﴿وَلَا يُحِصُّ﴾ أهله وغيرهم. ﴿عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ لعدم اعتقاده بالجزء ولذلك رتب الجملة على «يكذب» بالفاء.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي غافلون غير مباليين بها.  
 ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليهم.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الزكاة أو ما يتعاور في العادة والفاء جزائية. والمعنى إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أحق بذلك ولذلك رتب عليها الويل، أو للسببية على معنى «فويل» لهم، وإنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على سوء معاملتهم مع الخالق والخلق.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة أرايت غفر له أن كان للزكاة مؤدياً».

## سورة الكوثر

[مكية، وآياتها ثلاث آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (2) إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)﴾

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ﴾ وقرئ «أنطيناك». ﴿الكوثر﴾ الخير المفرط الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد، حافته الزبرجد وأوانيه من فضة لا يظمأ من شرب منه، وقيل حوض فيها وقيل أولاده وأتباعه، أو علماء أمته والقرآن العظيم.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فذم على الصلاة خالصاً لوجه الله تعالى خلاف الساهي عنها المرائي فيها شكراً لأنعامه، فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر. ﴿وَأَنْحَرْ﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون، فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة وقد فسرت الصلاة بصلاة العيد والنحر بالتحضية.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إن من أبغضك لبغضه الله. ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقب له إذ لا يبقى له نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر له في الجنة، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قرببه العباد في يوم النحر العظيم».

## سورة الكافرون

[مكية، وآياتها ست آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يعني كفره مخصصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أن رهطاً من قريش قالوا يا محمد تعبد آلهمتنا سنة ونعبد إلهك سنة فنزلت.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي فيما يستقبل فأن لا لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن ﴿مَا﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي فيما يستقبل لأنه في قران ﴿لَا أَعْبُدُ﴾.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أي في الحال أو فيما سلف.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده، ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريقة أبلغ وأنما لم يقل ما عبدت لطابق ﴿ما عبدتم﴾ لأنهم كانوا موسومين قبل المبعث بعبادة الأصنام، وهو لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله، وإنما قال ﴿ما﴾ دون من لأن المراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق أو للمطابقة. وقيل إنها مصدرية وقيل الأوليان بمعنى الذي والآخران مصدرتان.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركوه. ﴿وَلِي دِينِ﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضه، فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليكون منسوخاً بآية القتال، اللهم إلا إذا فسر بالمشاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه، وقد فسر الـ ﴿دين﴾ بالحساب والجزاء والدعاء والعبادة.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَافِرُونَ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ رُبْعَ الْقُرْآنِ وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرْدَةُ الشَّيَاطِينِ وَبَرِءَ مِنَ الشَّرِكِ».



[مدنية، وآياتها ثلاث آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ تَوَّابٌ (3)﴾

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إظهاره إياك على أعدائك. ﴿وَالْفَتْحُ﴾ وفتح مكة، وقيل المراد جنس نصر الله المؤمنين وفتح مكة وسائر البلاد عليهم، وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها فتقرب منها شيئاً فشيئاً، وقد قرب النصر من وقته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ جماعات كثيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، و ﴿يدخلون﴾ حال على أن ﴿رأيت﴾ بمعنى أبصرت أو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببال أحد حامداً له، أو فصل له حامداً على نعمه. «روى أنه ﷺ لما دخل مكة بدأ بالمسجد فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات»، أو فترهه تعالى عما كانت الظلمة يقولون فيه حامداً له على أن صدق وعده، أو فأتى على الله تعالى بصفات الجلال حامداً له على صفات الإكرام. ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك واستدراكاً لما فرط منك من الالتفات إلى غيره. وعنه عليه الصلاة والسلام «إني لأستغفر الله في اليوم واللييلة مائة مرة». وقيل استغفره لأمتك، وتقديم التسييح على الحمد ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق. كما قيل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله. ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ لمن استغفره مذهب خلق المكلفين، والأكثر على أن السورة نزلت قبل فتح مكة، وأنه نعي لرسول الله ﷺ لأنه لما قرأها بكى العباس رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام ما يبكيك، فقال: نعت إليك نفسك، فقال «إنها لكما تقول»، ولعل ذلك لدلالاتها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين فهي كقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أو لأن الأمر باستغفار تنبيه على دنو الأجل، ولهذا سميت سورة التوديع.

وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة إذا جاء أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة شرفها الله تعالى».



[مكية، وآياتها خمس آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5)﴾

﴿تَبَّتْ﴾ هلكت أو خسرت والتباب خسران يؤدي إلى الهلاك. ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ نفسه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْقَوْا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقيل إنما خصتنا لأنه عليه الصلاة والسلام لما نزل عليه ﴿وأنذر عشيرتک الأقرین﴾ جمع أقاربه فأنذرهم فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا، وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت. وقيل المراد بهما دنياه وأخراه، وإنما كناه والتكنية تكربة لاشتهاره بكنيته ولأن اسمه عبد العزى فاستكره ذكره، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله، أو ليجانس قوله: ﴿ذات لهب﴾ وقرئ «أبو لهب» كما قيل علي بن أبو طالب. ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار بعد دعاء والتعبير بالماضي لتحقيق وقوعه كقوله:

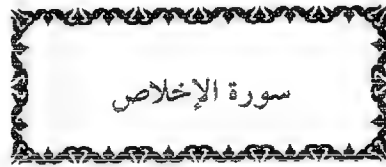
جَزَانِي جَزَاءُ اللَّهِ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ

ويدل عليه أنه قرئ «وقد تب» أو الأول إخبار عما كسبت يده والثاني عن عمل نفسه.  
 ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ نفي لإغناء المال عنه حين نزل به التباب أو استفهام إنكار له ومحلهما النصب.  
 ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ وكسبه أو مكسوبه بماله من النتائج والأرباح والوجاهة والإتباع، أو عمله الذي ظن أنه يتفعه أو ولده عتبة، وقد افترسه أسد في طريق الشام وقد أهدق به العير ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وترك ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبار عن الغيب طابقه وقوعه.  
 ﴿سَيُصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ اشتعال يريد نار جهنم، وليس فيه ما يدل على أنه لا يؤمن لجواز أن يكون صليها للفسق، وقرئ ﴿سَيُصْلَىٰ﴾ بالضم مخففاً و﴿سَيُصْلَىٰ﴾ مشدداً.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ عطف على المستتر في ﴿سَيُصْلَىٰ﴾ أو مبتدأ وهي أم جميل أخت أبي سفيان. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني حطب جهنم فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاودة الرسول ﷺ وتحمل زوجها على إيدائه، أو النميمة فإنها كانت توقد نار الخصومة، أو حزمة الشوك أو الحسك، فإنها كانت تحملها فتشرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وقرأ عاصم بالنصب على الشتم.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي ممّا مُسَدَّ أي قَتْلَ، ومنه رجل ممسود الخلق أي مجدوله، وهو ترشيح للمجاز أو تصوير لها بصورة الخطابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها، أو بياناً لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم، والضريع وفي جيدها سلسلة من النار، والظرف في موضع الحال أو الخبر وحبل مرتفع به.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة نبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة».



### سورة الإخلاص

[مختلف فيها، وآياتها أربع آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن كقولك: هو زيد منطلق وارتفاعه بالإبتداء وخبره الجملة ولا حاجة إلى العائد لأنها هي هو، أو لما سُئِلَ عَنْهُ ﷺ أي الذي سألتهموني عنه هو الله، إذ روي أن قريشاً قالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه فنزلت. وأحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله على جميع صفات الكمال إذا الواحد الحقيقي ما يكون منزّه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية وقرئ «هو الله» بلا ﴿قُلْ﴾ مع الاتفاق على أنه لا بد منه في ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

«الكافرون»، ولا يجوز في «تبت»، ولعل ذاك لأن سورة «الكافرون» مشاقة الرسول أو موادعته لهم و «تبت» معاتبه عمه فلا يناسب أن تكون منه، وأما هذا فتوحيد يقول به تارة ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى.

«الله الصَّمَدُ» السيد المصمود إليه في الحوائج من صمد إليه إذا قصد، وهو الموصوف به على الإطلاق فإنه يستغني عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير لفظة «الله» للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها.

«لَمْ يَلِدْ» لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه، ولعل الاختصار على لفظ الماضي لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله أو ليطابق قوله: «وَلَمْ يُولَدْ» وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم.

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» أي ولم يكن أحد يكافئه أو يماثله من صاحبة أو غيرها، وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه صلة «كفوًا» لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديماً للأهم، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في «كفوًا» أو خبراً، ويكون «كفوًا» حالاً من «أحد»، ولعل ربط الجمل الثلاث بالعطف لأن المراد منها نفي أقسام المكافأة فهي كجملة واحدة منبهة عليها بالجمال، وقرأ حمزة ويعقوب ونافع في رواية «كُفُوًا» بالتخفيف، وحفص «كُفُوًا» بالحركة وقلب الهمزة واواً، ولاشتمال هذه السور مع قصرها على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها، جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن. فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات من ذلك.

وعنه عليه السلام، أنه سمع رجلاً يقرؤها فقال: «وجبت» قيل: يا رسول الله وما وجبت قال: «وجبت له الجنة».



[مختلف فيها، وآياتها خمس آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ما يفلق عنه أي يفرق كالفرق فعل بمعنى مفعول، وهو يعم جميع الممكنات، فإنه تعالى فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد عنها، سيما ما يخرج من أصل كالعيون والأمطار والنبات والأولاد، ويختص عرفاً بالصبح ولذلك فسر به. وتخصيصه لما فيه من تغير الحال وتبدل وحشة الليل بسرور النور ومحاكاة فاتحة يوم القيامة، والإشعار بأن من قدر أن يزيل به ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن

العائد به ما يخافه، ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لأن الإعاذة من المضار تربية.

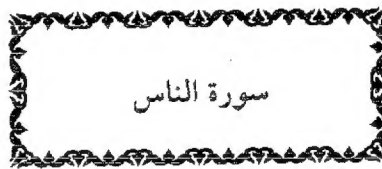
﴿وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ خص عالم الخلق بالاستعاذة عنه لانحصار الشرفية، فإن عالم الأمر خير كله، وشره اختياري لازم ومتعد كالكفر والظلم، وطبيعي كإحراق النار وإهلاك السموم.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ليل عظيم ظلامه من قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وأصله الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً. وقيل السيالان و ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ انصباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعته. ﴿إِذَا وَقَبُ﴾ دخل ظلامه في كل شيء، وتخصيصه لأن المضار فيه تكثر ويعسر الدفع، ولذلك قيل الليل أخفى للويل. وقيل المراد به القمر فإنه يكشف فيغسق ووقوبه دخوله في الكسوف.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، والنفث النفخ مع ريق وتخصيصه. لما روي أن يهودياً سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة في وتر دسه في بئر، فمرض النبي ﷺ ونزلت المعوذتان، وأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بموضع السحر فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به فقرأهما عليه، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة، ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور، لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحر. وقيل المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تلين العقد بنفث الرقيق ليسهل حلها وإفرادها بالتعريف لأن كل نقاثة شريرة بخلاف كل غاسق وحاسد.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه، فإنه لا يعود ضرر منه قبل ذلك إلى المحسود بل يخص به لاغتمامه بسروره، وتخصيصه لأنه العمدة في إضرار الإنسان بل الحيوان غيره، ويجوز أن يراد بالغاسق ما يخلو عن النور وما يضاهيه كالقوى وب ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النباتات، فإن قواها النباتية من حيث أنها تزيد في طولها وعرضها وعمقها كانت تنفث في العقد الثلاثة، وبالحاسد الحيوان فإنه إنما يقصد غيره غالباً طمعاً فيما عنده، ولعل إفرادها من عالم الخلق لأنها الأسباب القريبة للمضرة.

عن النبي ﷺ «لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما يعني المعوذتين».



[مختلف فيها، وآياتها ست آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْغَيْثِ وَالنَّاسِ (6)﴾



﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتهما إلى اللام. ﴿يَرْبُّ النَّاسِ﴾ لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية وهي تعم الإنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الأضرار التي تعرض للنفس البشرية وتخصها، ععم الإضافة ثم وخصصها بالناس ها هنا فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس ربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾ عطفاً بيان له فإن الرب قد لا يكون ملكاً والملك قد لا يكون إلهاً، وفي هذا النظم دلالة على أنه حقيق بالإعادة قادر عليها غير ممنوع عنها وإشعار على مراتب الناظر في المعارف فإنه يعلم أولاً بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقق أنه غني عن الكل وذات كل شيء له ومصارف أمره منه، فهو الملك الحق ثم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غير، ويتدرج وجوه الاستعاذة كما يتدرج في الاستعاذة المعتادة، تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات إشعاراً بعظم الآفة المستعاذ منها، وتكرير ﴿الناس﴾ لما في الإظهار من مزيد البيان، والإشعار بشرف الإنسان.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فبالكسر كالزلزال، والمراد به الموسوس وسمي بفعله مبالغة. ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه.

﴿الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وذلك كالقوة الوهمية، فإنها تساعد العقل في المقدمات، فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنس وأخذت توسوسه وتشككه، ومحل ﴿الذي﴾ الجر على الصفة أو النصب أو الرفع على الذم.

﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان لـ ﴿الوسواس﴾، أو الذي أو متعلق بـ ﴿يوسوس﴾ أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنّة والناس. وقيل بيان لـ ﴿الناس﴾ على أن المراد به ما يعم الثقلين، وفيه تعسف إلا أن يراد به الناسي كقوله تعالى: ﴿يوم يدع الداع﴾ فإن نسيان حق الله تعالى يعم الثقلين. عن النبي ﷺ «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى».

